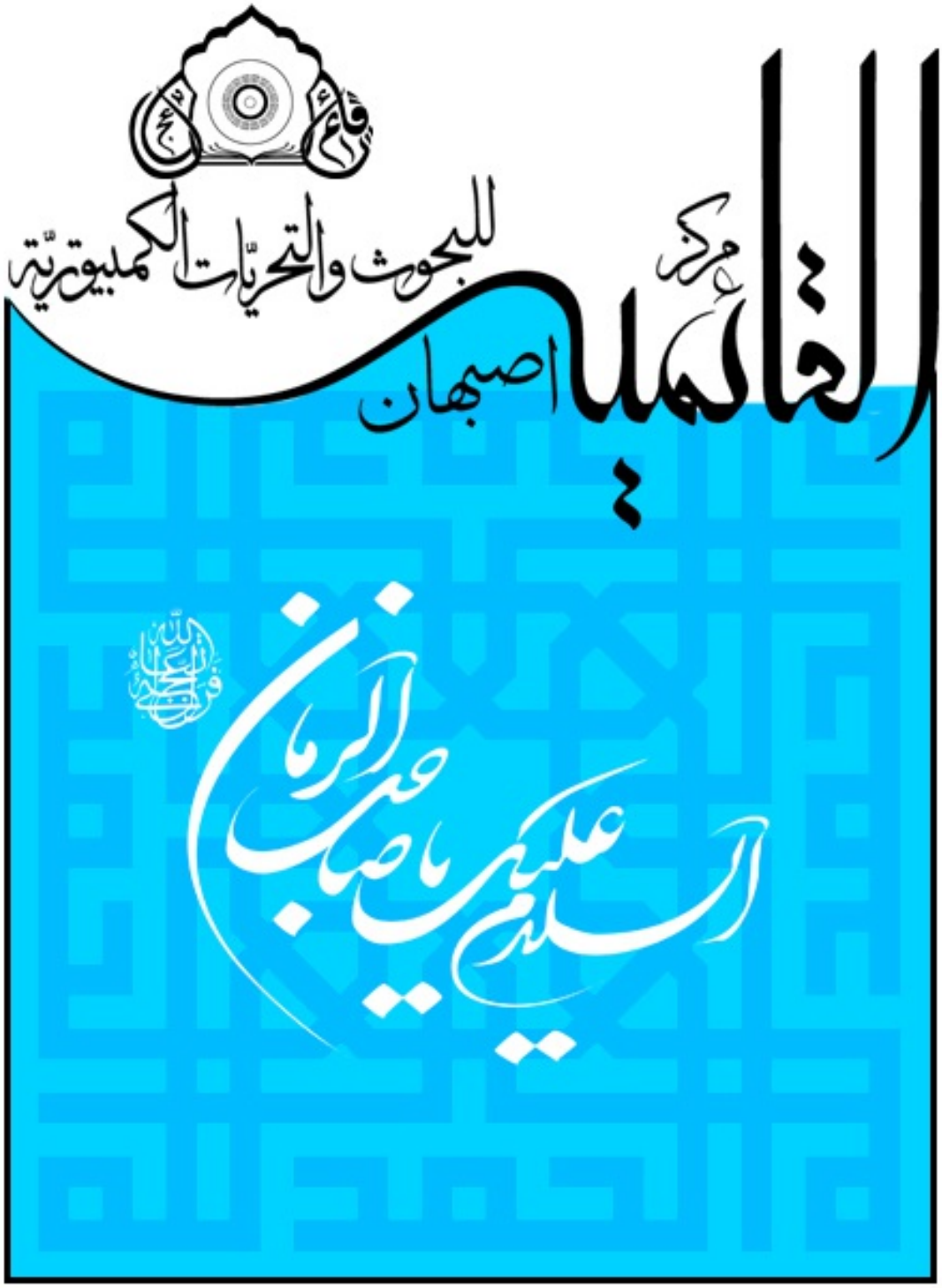

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

كارستن نيبور

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية وإلى بلاد أخرى مجاورة لها

للجزء ٢-١

الانتشار العربي

بسم الله الرحمن الرحيم

رحلة الى شبه الجزيرة العربية

كاتب:

نيبور كارستن

نشرت فى الطباعة:

موسسه الانتشار العربى

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ----- ۵
رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر ----- ۱۲
اشارة ----- ۱۲
الجزء الأول ----- ۱۲
المحتويات ----- ۱۲
رائحة اللوحات ----- ۱۲
المقدمة ----- ۱۳
الرحلة من كوبنهاغن إلى القسطنطينية ----- ۱۴
ملاحظات من القسطنطينية ----- ۱۸
الرحلة من القسطنطينية إلى الإسكندرية ----- ۲۰
ملاحظات من الإسكندرية ----- ۲۱
الرحلة من الإسكندرية إلى القاهرة ----- ۲۴
رحلة دمياط و العودة إلى القاهرة ----- ۲۵
ملاحظات حول سير الرحلة من رشيد إلى القاهرة و دمياط، استنادا إلى الخارطة على اللوحة ۱۰ ----- ۲۶
أسماء المدن و القرى التى ذكرها السيد فورسكال خلال رحلته من القاهرة إلى الأسكندرية من القاهرة إلى الإسكندرية ----- ۲۷
اشارة ----- ۲۷
من الإسكندرية إلى الرشيد ----- ۲۷
من الرشيد إلى القاهرة ----- ۲۷
مواقع بعض المدن المصرية القديمة ----- ۲۸
وصف القاهرة و بولاق و مصر العتيقة و الجيزة ----- ۳۰
اشارة ----- ۳۰
على خارطة مدينة القاهرة أو مصر ----- ۳۰
أسماء الجسور على القناة التى تجتاز القاهرة ----- ۳۰

أسماء البرک ----- ۳۱
أسماء أبواب القاهرة ----- ۳۱
فی بولاق و مصر العتیقة و الجیزة ----- ۳۱
سکان مدینة القاهرة و شکل الحکم و التجارة فیها ----- ۳۴
الآلات التی تعمل علی الماء، الطواحین، معاصر الزیت، أدوات الفلاحة، فرن النشادر و آلات تفقیس البیض فی مصر ----- ۳۸
لباس أهل الشرق ----- ۳۹
التمارین و التسلیات التی یقوم بها الشرقیون فی أوقات فراغهم ----- ۴۲
آثار مصر ----- ۴۶
سیر الرحلة من القاهرة إلی السویس و إلی طور سیناء ----- ۵۰
الرحلة من السویس إلی جدة ----- ۵۸
ملاحظات فی جدة ----- ۶۱
الرحلة من جدة إلی مخیّة ----- ۶۳
رحلة من مخیّة إلی بیت الفقیه ----- ۶۹
رحلة من بیت الفقیه إلی غلفقة و الحدیدة و الزبید و التحیتا(Tahate) و القحمة(Kahhma) و هدیة و إلی الجبال المنتجة للبنّ ----- ۷۰
سیر الرحلة من بیت الفقیه إلی عدن، و جبلة و تعز و حاس ----- ۷۴
لرحلة من بیت الفقیه إلی المخا ----- ۷۷
الرحلة من المخا إلی تعز ----- ۸۰
الرحلة من تعز(TAA'S) إلی صنعاء ----- ۸۳
الرحلة من صنعاء إلی المخا ----- ۹۱
سیر الرحلة من المخا إلی بومبای ----- ۹۴
سیر رحلة هولندی فی مناطق یمنیة لم تذکر فی الصفحات السابقة ----- ۹۶
اشارة ----- ۹۶
I- الطریق المؤدیة من صنعاء إلی بیت الفقیه عبر ریما ----- ۹۶
II- الطریق المؤدیة من قسمة إلی جبی ----- ۹۶

III- الطریق المؤدیة من جبی إلی بیت الفقیه ---- ۹۶
IV- الطریق المؤدیة من جبی إلی سمفور ---- ۹۷
V- الطریق المؤدیة من صنعاء إلی قسمة عبر لومة ---- ۹۷
VI- الطریق المؤدیة من ذمار إلی دوران ---- ۹۷
VII- الطریق المؤدیة من صنعاء إلی صعدة ---- ۹۷
VIII- الطریق المؤدیة من صنعاء إلی کوکبان ---- ۹۷
VIIII- الطریق المؤدیة من شبام إلی عمران ---- ۹۷
طریق کوکبان، عبر حشیش فی تهامة ---- ۹۷
ملاحظات حول الجوّ فی کل من القسطنطینیة و القاهرة و شبه الجزیرة العربیة و بومبای ---- ۹۸
تدوین السید کرایمر فی السویس لدرجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهایت خاصتی أثناء رحلتی إلی جبل سیناء عام ۱۷۶۲. ---- ۹۸
درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهایت فی القاهرة فی شهر تشرین الثانی/ نوفمبر ۱۷۶۲. ---- ۹۸
درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهایت فی جدّة فی بدایة شهر کانون الأول/ دیسمبر ۱۷۶۲ ---- ۹۸
درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهایت فی مخیّة فی شهر کانون الثانی/ ینایر ۱۷۶۳ ---- ۹۸
درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهایت فی مخیّة فی شباط/ فبرایر ۱۷۶۳ ---- ۹۸
درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهایت فی الشهر نفسه فی بیت الفقیه ---- ۹۸
درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهایت فی بیت الفقیه فی شهر آذار/ مارس ۱۷۶۳ ---- ۹۸
درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهایت فی بیت الفقیه فی شهر نیسان/ أبریل ۱۷۶۳ ---- ۹۸
درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهایت فی المخا فی شهر أیار/ مایو ۱۷۶۳ ---- ۹۸
درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهایت فی جدة فی بدایة شهر کانون الأول/ دیسمبر ۱۷۶۲ ---- ۹۸
فی تعز فی نهایة شهر حزیران/ یونیو ۱۷۶۳ ---- ۹۸
خلال سفری من تعز إلی صنعاء لا حظت ارتفاع مستوی محرّ ریومور. ---- ۹۸
درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهایت فی تموز/ یولیو ۱۷۶۳ فی بئر القصب قرب صنعاء ---- ۹۹
درجات الحرارة وفقا للمحرّ نفسه فی المخا فی شهر آب/ أغسطس ۱۷۶۳ ---- ۹۹
درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهایت فی بیرا(Pera) قرب القسطنطینیة فی شهر آب/ أغسطس ۱۷۶۱ ---- ۹۹

درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهایت فی القاهرة فی شهر تشرین الثانی/ نوفمبر ۱۷۶۱ ---- ۹۹
درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهایت فی القاهرة فی کانون الأول ۱۷۶۱ ---- ۹۹
درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهایت فی القاهرة فی کانون الثانی/ ینایر ۱۷۶۲ ---- ۹۹
درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهایت فی القاهرة فی شباط/ فبرایر ۱۷۶۲. ---- ۹۹
درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهایت فی القاهرة فی آذار/ مارس ۱۷۶۲ ---- ۹۹
درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهایت فی القاهرة فی نیسان/ أبریل ۱۷۶۲. ---- ۹۹
درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهایت فی القاهرة فی شهر أیار/ مایو ۱۷۶۲ ---- ۹۹
درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهایت فی القاهرة فی شهر حزیران/ یونیو ۱۷۶۲. ---- ۹۹
درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهایت فی القاهرة فی شهر تموز/ یولیو ۱۷۶۲ ---- ۹۹
درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهایت فی القاهرة فی شهر آب/ أغسطس ۱۷۶۲ ---- ۱۰۰
فی شهر أیلول/ سبتمبر ۱۷۶۳ ---- ۱۰۰
فی شهر تشرین الأول/ أکتوبر ۱۷۶۳ ---- ۱۰۰
فی شهر تشرین الثانی/ نوفمبر ۱۷۶۳ ---- ۱۰۰
فی شهر کانون الأول/ دیسمبر ۱۷۶۳ ---- ۱۰۰
فی شهر کانون الثانی/ ینایر ۱۷۶۴ ---- ۱۰۰
فی شهر شباط/ فبرایر ۱۷۶۴ ---- ۱۰۰
فی شهر آذار/ مارس ۱۷۶۴ ---- ۱۰۰
ملاحظات حول حرارة الهواء فی القسطنطینیة ---- ۱۰۱
فی الإسکندریة ---- ۱۰۱
فی القاهرة ---- ۱۰۱
فی شبه جزیرة العرب ---- ۱۰۱
ارتفاع مستوی الزئبق فی محرّ ریومور فی القاهرة طیلة الأیام عند الظهیرة علی مدی عام ۱۷۵۹ ---- ۱۰۲
ارتفاع مستوی الزئبق فی محرّ ریومور فی القاهرة طیلة الأیام عند الظهیرة علی مدی عام ۱۷۶۰ ---- ۱۰۲
ارتفاع مستوی الزئبق فی محرّ ریومور فی القاهرة طیلة الأیام عند الظهیرة علی مدی عام ۱۷۶۰ ---- ۱۰۲

الجزء الثانی ----- ۱۰۲
فهرس المواد التی یتضمنها الجزء الثانی ----- ۱۰۲
فهرس بلوحات الجزء الثانی ----- ۱۰۳
إشعار من الکاتب ----- ۱۰۴
ملاحظات فی بومبای و فی سورات ----- ۱۰۴
اشارة ----- ۱۰۴
الرحلة من بومبای إلی سورات ----- ۱۱۳
ملاحظات فی سورات ----- ۱۱۴
العودة من سورات إلی بومبای ----- ۱۱۸
رحلة من بومبای إلی مسقط و بوشهر ----- ۱۱۸
ملاحظات فی بوشهر و شیراز و برسیبولیس(Perspolis) ----- ۱۲۱
اشارة ----- ۱۲۱
وصف أنقاض برسیبولیس ----- ۱۲۶
ترجمة النقوش ب ----- ۱۲۹
ترجمة النقوش ج ----- ۱۲۹
ترجمة النقوش ه ----- ۱۲۹
الملاحظات التی دونتها فی شیراز ----- ۱۳۴
العودة إلی بوشهر ----- ۱۳۶
ملاحظات حول الخرج ----- ۱۳۷
اشارة ----- ۱۳۷
الرحلة من الخرج إلی البصرة ----- ۱۴۰
ملاحظات حول بوصلة الشرقیین ----- ۱۴۱
اشارة ----- ۱۴۱
من الجهة الشرقیة ----- ۱۴۱

من الجهة الغربیة ----- ۱۴۱
ملاحظات حول البصرة ----- ۱۴۲
اشارة ----- ۱۴۲
موقع مدینة البصرة القدیمة ----- ۱۴۴
حرب بین أهل البصرة و العرب ----- ۱۴۵
الطرق المؤدیة من البصرة إلی حلب عبر الصحراء ----- ۱۴۶
الرحلة من البصرة إلی لملوم و مشهد علی، و مشهد الحسین، و الحلة، و بغداد ----- ۱۴۷
ملاحظات وضعتها فی بغداد ----- ۱۵۶
سیر رحلتی من بغداد إلی الموصل ----- ۱۶۳
اشارة ----- ۱۶۳
ملاحظات حول الیزیدین ----- ۱۶۵
رحلتی من بغداد إلی الموصل ----- ۱۶۶
ملاحظات دونتها فی الموصل ----- ۱۶۷
الرحلة من الموصل إلی ماردین ----- ۱۷۰
الرحلة من ماردین إلی حلب عبر دیار بکر ----- ۱۷۵
اشارة ----- ۱۷۵
لائحة بمختلف قبائل الترکمان ----- ۱۷۸
لائحة بقبائل الاکراد الرحالة ----- ۱۷۸
الطریق من دیار بکر عبر أرضروم ----- ۱۷۹
الطریق من قیساریة إلی دیار بکر و من دیار بکر إلی توقات ----- ۱۸۰
الطریق من توکات إلی اماسیا(Amasia) ----- ۱۸۰
الطریق من وان و دیار بکر إلی أرضروم ----- ۱۸۰
ملاحظات حول سوریا و سکان جبل لبنان ----- ۱۸۰
اشارة ----- ۱۸۰

سیطرة الموارنة علی جبل لبنان ---------- ۱۸۶

تعریف مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة ---------- ۱۹۰

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر

اشارة

ام كتاب: رحلة إلى شبه الجزيرة العربية / تعريب عبير منذر
نويسنده: نيبور، كارستن
تاريخ وفات مؤلف: ۱۸۱۵ م
موضوع: سفرنامه
زبان: عربى
تعداد جلد: ۲
ناشر: موسسه الانتشار العربى
مكان چاپ: بيروت
سال چاپ: ۲۰۰۷ م
نوبت چاپ: اول
rhlah ila shbh aljzirah ala'rbiah wila blad a'khra mjaourah lha
تأليف: كارستن نيبور تاريخ النشر: ۰۴/۱۰/۲۰۰۷
ترجمة، تحقيق: عبير المنذر
الناشر: مؤسسة الانتشار العربى
النوع: ورقى غلاف كرتونى، حجم: ۲۴×۱۷، عدد الصفحات: ۷۶۲ صفحة الطبعة: ۱ مجلدات: ۲
يحتوى على: صور/رسوم ،جداول ،رسوم بيانية

الجزء الأول

المحتويات

المقدمة ۱۱
الرحلة من كوبنهاغن إلى القسطنطينية ۱۵
ملاحظات من القسطنطينية ۳۰
الرحلة من القسطنطينية إلى الإسكندرية ۳۹
ملاحظات من الإسكندرية ۴۴
الرحلة من الإسكندرية إلى القاهرة ۵۲
رحلة دمياط، و العودة إلى القاهرة ۵۷
ملاحظات حول خط سير الرحلة بين الرشيد، و القاهرة و دمياط ۶۶
أسماء المدن و القرى التى ذكرها السيد فورسكال خلال رحلته من القاهرة إلى الإسكندرية ۸۱
مواقع بعض المدن المصرية القديمة ۸۳
وصف القاهرة، و بولاق، و مصر العتيقة و الجيزة ۹۰
سكان مدينة القاهرة و شكل الحكم و التجارة فيها ۱۰۶
الآلات التى تعمل على الماء، الطواحين، معاصر الزيت، آلات الزراعة، أفران النشادر و آلات تفقيس البيض فى مصر ۱۱۷
لباس أهل الشرق ۱۲۷
التمارين و التسليات التى يقوم بها الشرقيون فى أوقات فراغهم ۱۴۱
رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۶
آثار مصر ۱۵۸
سير الرحلة من القاهرة إلى السويس، و إلى جبل سيناء ۱۸۴
الرحلة من السويس إلى جدة ۲۱۸
ملاحظات فى جدّة ۲۳۱
الرحلة من جدة إلى مخيّة ۲۴۱
رحلة من مخيّة إلى بيت الفقيه ۲۶۱
رحلة من بيت الفقيه إلى غلفقة و الحديدة و الزبيد و التحيتا(Tahate) و القحمة(Kahhma) و هدية و إلى الجبال المنتجة للبنّ ۲۶۹
سير الرحلة من بيت الفقيه إلى عدن، و جبلة و تعز و حاس ۲۸۱
الرحلة من بيت الفقيه إلى المخا ۲۹۳
الرحلة من المخا إلى تعز ۳۰۲
الرحلة من تعز إلى صنعاء ۳۱۵
الرحلة من صنعاء إلى المخا ۳۴۱
سير الرحلة من المخا إلى بومباى ۳۵۳
سير رحلة هولندى فى مناطق يمنية لم تذكر فى الصفحات السابقة ۳۵۹
ملاحظات حول الجو فى كل من القسطنطينية و القاهرة، و شبه الجزيرة العربية و بومباى ۳۶۵
رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۷

رائحة اللوحات

فهرس اللوحات الصفحة
۱- منظر الشواطىء قرب جبل طارق و سبتة(۲۳ (Ceuta
۲- منظر لمدينة مرسيليا ۲۵
۳- خارطة مدينة القسطنطينية، و غالاتا(Galata) ، و صودار(۳۳ (Scudar
۴- كتابات هيروغليفية على مسلّة فى القسطنطينية ۳۶
۵- قياس بعض المسلّات و أهرام مصر ۴۷
۶- منظر لمدينة الرشيد ۵۳
۷- خارطة مدينة دمياط ۵۹
۸- منظر لمدينة دمياط ۶۲
۹- قلعة على مصب النيل ۶۴
۱۰- بعض الآثار المصرية ۸۵
۱۱- منظر لباب الفتوش، أحد أبواب القاهرة ۹۴
۱۲- مخيم الحجاج قبل انطلاقهم إلى مكة ۱۰۰
۱۳- بعض الآلات المائية فى مصر ۱۱۸

۱۴- رسم و صورة لطاحون فی القاهرة ۱۲۰
۱۵- صورة لفرن ملح النشادر، و آلات أخرى مختلفة ۱۲۲
۱۶- صورة فرن، لتفقيس البيض ۱۲۴
رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۸
۱۷، ۱۸، ۱۹، ۲۰- لباس الرأس عند الشرقيين ۱۲۹، ۱۳۱، ۱۳۳، ۱۳۴، ۱۳۶
۲۲- لباس نساء الإغريق فی الإسكندرية ۱۳۹
۲۳- ألعاب الشرقيين المختلفة ۱۴۳
۲۴- الآلات الموسيقية عند الشرقيين ۱۴۷
۲۵- رسم للراقصات فی القاهرة ۱۵۱
۲۶- رسم لموكب عرس فی القاهرة ۱۵۵
۲۷- رسم لعرب مصر ۱۶۰
۲۸- كتابات هيروغليفية على صندوق قرب قلاع الكبش ۱۶۶
۲۹، ۳۰، ۳۱، ۳۲، ۳۳- كتابات هيروغليفية على صندوق من الرخام فی بولاق ۱۶۸، ۱۷۰، ۱۷۲، ۱۷۳، ۱۷۵
۳۴- كتابات هيروغليفية على مسلّات مكسورة ۱۷۶
۳۵، ۳۶- كتابات هيروغليفية على أوان صغيرة من المرمر ۱۷۷، ۱۷۸
۳۷- كتابات هيروغليفية و رموز على صندوق مومياء ۱۷۹
۳۸- كتابات هيروغليفية نقشت على الخشب و الحجر ۱۸۰
۳۹- رموز و أشكال من الكتابات الهيروغليفية ۱۸۲
۴۰- رسم لبعض الآلهة عند المصريين ۱۸۳
۴۱- منظر للصخور فی الطريق نحو جبل سيناء ۱۹۶
۴۲- موقع الدير على جبل سيناء، و إحدى المقابر ۱۹۹
۴۳، ۴۴- كتابات هيروغليفية على مقابر فی الصحراء ۲۰۲، ۲۰۶
۴۵، ۴۶- منظر للدير على جبل سيناء ۲۰۸، ۲۰۹
۴۷، ۴۸- كتابات على طريق السويس نحو جبل سيناء ۲۱۲، ۲۱۴
۴۹- منظر لمدينة السويس و الطور(۲۱۶ (To ?r
۵۰- محيط الطور ۲۲۱
۵۱- منظر لمدينة ينبع(Janbo) و لمدينة جدّة ۲۲۷
رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۹
۵۲- صورة لحاج تركی ۲۲۸
۵۳- خارطة مدينة جدة ۲۳۵
۵۴- صورة لصياد فی جدة ۲۳۹
۵۵- صورة لامرأة من جدة ۲۴۲
۵۶- وضع مدينة ينبع و القنفذة(۲۴۷چGh (nfude
۵۷- صورة لامرأة عربية من تهامة ۲۵۴
۵۸- خارطة لمدينة مخيّة ۲۵۷
۵۹- منظر لمدينة بيت الفقيه و محيطها ۲۶۲
۶۰- خارطة لمدينة بيت الفقيه و محيطها ۲۶۷
۶۱- منظر فی محيط قرية بلقاص(Bulg ce) ، و للجبال التی تنتج البن ۲۷۸
۶۲- صورة لامرأة عربية من الجبال المنتجة للبن ۲۷۹
۶۳- منظر لهدية(۲۸۲ . (H die.
۶۴- خارطة مدينة تعز ۳۰۵
۶۵- منظر لمدينة تعز ۳۰۶
۶۶- منظر لقصر يريم، و لمنزل فی بير القصب ۳۲۹
۶۷- تصوير لجلسة بحضور إمام صنعاء ۳۳۱
۶۸- خارطة لمدينة صنعاء ۳۳۸
۶۹- لباس أصحاب الشأن من العرب فی اليمن ۳۳۹
۷۰- وضع مدينة المخا(Mochha) و مرفئها ۳۴۶
رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۱

المقدمة

شغلت هذه الرحلة الشهيرة حيزا مهما فی التاريخ الأدبی لقرننا هذا، حتی أن إحدى الإمم التی حاولت أن تستأثر بالفنون و العلم حسدت عظمة هذه الرحلة. و اهتم علماء البلاد قاطبة بنجاح هذه المهمة فحاولوا قطف ثمارها دون أن يقاسمونا مخاطرها. و عاد السيد نيبور وحده من شبه الجزيرة العربية من بين الخمسة الذين تشرفت الدانماركية بإرسالهم بكنوز علمية أهم من فروة كولشيد الذهبية الشهيرة، و قد حاول بعض النامين الحساد الادعاء أن موت زملاء الأول أودى بثمار الأبحاث كافة، لكن ما إن أصدر وصفه لشبه الجزيرة العربية حتی سارع العلماء البارزون إلی مدحه و الثناء على ملاحظاته المفيدة و البنّاءة.

و لا يجهل أحد فی عالم الأدب انطلاقة هذه الرحلة و تطوراتها و نتائجها، كما نجد هذه المعلومات مفصلّة فی مقدمة أسئلة السيد ميكائيليس و مقدمة وصف شبه الجزيرة العربية، مما دفعنا إلی الاكتفاء بما لم يرد فی مقدمة الأعمال السابقة التی انتشرت و نالت الإعجاب.

استهل السيد نيبور عمله بالإشارة إلی أن «سكان اليمن، أی سكان الجزء الجنوبی لشبه الجزيرة العربية، الذی يعرفه الأوروبيون باسم العربية السعيدة Felix Anabia ، كانوا فی العصور الغابرة متحضرين و مشهورين بتجارتهم مع الأجانب». و أضاف إن «هذا البلد لا يزال الأهم بنظر العلماء، لذا استحق أن يعرف بدقة أكبر. و كنا قد استفدنا من اللغة العربية فی ترجمة مقاطع عدة من الكتاب المقدّس، لكن هذه اللغة تنقسم إلی لهجات محلية عدّة شأنها فی ذلك شأن اللغات القديمة المستخدمة فی بلاد شاسعة، و تبقی لهجة اليمن لغزا يحيّر علماء أوروبا. و يمكن لشبه الجزيرة العربية أن تشكل حقلا واسعا للاكتشافات بالنسبة لعلماء الطبيعيات، فقد يجد مترجمون فی الأسماء التی يطلقها العرب على النبات و الأحجار و غيرها تفسيرا لأسماء كثيرة وردت فی الكتاب المقدس. و تحصد الجغرافيا فوائد عدة من رحلة كهذه، إذ تكثر عندنا الكتب العربية القديمة حول التاريخ و الجغرافيا التی ينبغی معرفة وضع الجزيرة الحالی لفهمها، كما أتت الكتابات المقدّسة

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۲

على ذكر مدن عربية عدة. و يمكننا ذكر أسباب أخرى، جعلت محبی العلوم يتمنون أن تقوم بعثة علماء برحلة كهذه».

و بعد ذكر أسباب الرحلة و نتائجها فی مقدمة وصف شبه الجزيرة العربية، يضيف الكاتب: «بالرغم من أن الموت غيّب رفاقی، فلا ينبغی اعتبار أعمالهم و كأنها هباء منثورا، إذ إن السيد فورسكال قد قام بعمل جبّار حتی مرض، و زوّدنی بمعلومات مهمّة حول التاريخ الطبيعی، كما ترك السيد دی هافن معلومات دقيقة حول الرحلة من كوبنهاغن إلی القاهرة، و من السويس إلی جبل سيناء».

و يضيف السيد نيبور: «إن الذين يقرؤون العمل للتسلية و إزجاء الوقت، يستمتعون حين يروی المسافر قصصا هزلية عن طريقة حياة

الغرباء، و عن المصاعب التي واجهها الخ». و يعترف قائلا «إن هذا أكثر إمتاعا من وصف جاف للمدن و الطرقات التي مرّت بها البعثة، و ليسهل على جمع عدد كبير من هذه القصص اللافتة و الممتعة، فلقد تكبّدت مشقة كبيرة حين رسمت خرائط المدن و وضعت تفاصيل الطرق. لكن محاولة تسلية القارىء ستدفعني إلى إهمال الأبحاث المفيدة هدف الرحلة. لكني لم أتمكن من كبت شعوري حين وجدت أن العرب لا يقلّون إنسانية عن الأمم الأخرى التي تدّعي الأدب و التهذيب، و لقد أمضيت في البلاد التي زرتها (كما ينبغي أن يتوقع كل مسافر) أياما ممتعة و أخرى مزعجة. و كنت قد كلّفت دراسة الجغرافيا، و الذين يعرفون هذا الميدان، يقدرون ما ينبغي تكبده من متاعب لجمع معلومات في بلد غريب، و لا يجهلون أهمية مهمتي، و بالتالي يستطيعون إطلاق حكم سليم حول مدى إنجازي لها».

و أدرج السيد نيبور في نهاية عمله، رواية رحلات المرتد الهولندي الذي جال في مناطق عدة من اليمن و هي المناطق التي لم يتمكن من زيارتها بنفسه، ثم أتت ملاحظاته حول الجو لاحقا، على أن يتركها للجزء الثاني، و هي ملاحظات سجلها بين كوبنهاغن و بومباي.

ثم تواجه عالمنا مع عدد من الصحافيين الذين أوردوا مقتطفات من عمله، فأثنى على الذين تحدثوا عنه بإنصاف و عقلانية و منطق، و لكنه لم يتوان عن تشبيه الذين أطلقوا عليه حكمهم- دون أن يسمعوه- بالسراج(Seradji) ، فقال: «لا يحق لهم أن ينصبّوا حكّاما شرعيين على الآداب، على غرار السراج بين قضاة مصر». و استفاض بلوم الصحافي دى لمغو(de Lemgo) الذي أسند إليه ملاحظات بعيدة كل البعد عن تلك التي عرضها، و قد أورد أمثلة عدة على ذلك. يقول الصحافي «نستنتج من روايات الكاتب أن الجو في شبه الجزيرة أقل صفاء من جو أوروبا، و أنّ أهل الزوج يعتبرون الزوجة إرثا لا ينتقل إلى أيد غريبة، و أنّ بطليموس لم يلغ لغة الفراعنة كما فعل بلغة الأقباط، و أنّ القرآن كتب على الأرجح بأحرف قبطية، و أنّ الأفاعي خطيرة بوجه الإجمال في شبه الجزيرة، و أن العرب لا يحتاطون من البرص انطلاقا من قناعة دينية، و أن المنّ يكثر بعد تساقط الأمطار بغزارة، و أنّ الخصوبة تضاعف بألف، الخ ...». و إن راجعنا

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۳

وصف شبه الجزيرة العربية، لكونّا فكرة مغايرة عن الموضوع. و يبرهن كاتبنا بفصاحة أن مقتطفات كهذه تسيء إلى العمل، و يجب ألا تقتضب أقوال كاتب بهذه الطريقة العنيفة، و ينبغي أن نتوقع أن يقوم البعض بإسدال ستار خداع على أسلوب كتاب يريدون مدحه، انطلاقا من تحيز أعمى و متصلّب، فيما يقوم آخرون بالسخرية من العمل عبر إظهار نقاط ضعفه و حسب. و للردّ على هؤلاء، طلب السيد نيبور من السيد ميكائيليس إصدار حكمه، و يبدو لنا أنّ هذا الأخير أجدر الناس بالحكم على العمل لاطلاعه، و بالتالي يمكننا إلقاء نظرة على المقتطف الذي كتبه عن وصف شبه الجزيرة العربية و الذي ورد في آخر أسئلته.

نأمل أن يلاقي هذا العمل إعجاب القراء. و أن يسعى أبناء عصرنا وراء الاكتشافات العظيمة، و أن يهتموا بالأمور المفيدة، و لا نشك في أنّ كتابا كهذا يسلّط الضوء على جزء من الكرة الأرضية مثير للاهتمام و مجهول، لذا سيلاقي بين هواة المعلومات الحقيقيين التقدير و الإعجاب.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۵

الرحلة من كوبنهاغن إلى القسطنطينية

إلى القسطنطينية

اجتمعت بعثتنا التي أعدّت العدة للسفر إلى شبه الجزيرة العربية في كوبنهاغن، و تلقت الأمر من الملك بالتوجه إلى أزمير على متن أسطول حربي فركبنا السفينة في ۴ كانون الثاني ۱۷۶۱. و تبين لنا أولا أننا نتمتع بكافة وسائل الراحة و التسلية الممكنة أثناء هذه الرحلة. و كانت السفينة بقيادة السيد هنري فيشر، فجهز لنا غرفتين واسعتين بقدر ما تسمح به السفينة، و اعتدنا تناول طعام الغداء و العشاء في غرفة القبطان، و قد برهن هذا الأخير فضلا عن ضباط الطاقم عن لطف و تهذيب فائقين. و لقد اضطررنا إلى البقاء في المرفأ ليومين بانتظار رياح مؤاتية فلم نبحر إلا في السابع من شهر كانون الثاني، ففي ذاك اليوم هبّت رياح جنوبية مواتية لكنها كانت هادئة فبلغنا بصعوبة مرفأ هلسنيوري(Helsingo ?r) عند المساء بالرغم من التيار. و في الأيام التالية، استحالت الرياح قوية، و بالرغم من أننا رفعنا الأشرعة في ۴ كانون الثاني، لم تدم الرياح المواتية طويلا، فهبّت في الليلة التالية عاصفة هوجاء استمرت دون توقف حتى صباح السادس عشر من الشهر نفسه. و دهمنا في هذا الوقت خطر شديد، فالجو مظلم، و قد استحال علينا تحديد موقعنا بسبب التيار الذي يتجه في الكاتغيت(Kattegat) تارة نحو الشمال و طورا نحو الجنوب. و في صباح السادس عشر من كانون الثاني، خشينا أن نكون قرب شواطىء السويد، لكن الشمس التي بانت قليلا عند الظهر سمحت لنا بتحديد موقعنا قرب جزيرة ليسويه(Lesso ?e) . و بما أن الريح لم تكن مواتية، عاد الجو مظلما من جديد، قررنا في السابع عشر العودة إلى هلسنغر، فوجدنا في المرفأ السفن التي غادرته معنا، و اعتقدنا

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۶

أن السفن التي لم تعد إما التجأت إلى مرافىء أخرى أو غرقت. و عند ما غادرنا هلسنيوري، عبرنا سوند(Sund) ، أطلقنا ثلاث طلقات مدفع تحية، ردّت، عليها قلعة كورنبرغ(Corenberg) بثلاث طلقات، و قلعة هلسنيوري بأربع طلقات، فالسويديون يحيون بطلقات مزدوجة، فيما يحيي الدنماركيون بطلقات مفردة، لكن هذه العادة لم تتبع عند عودتنا، لأننا حاولنا مرارا المغادرة، فالأساطيل الحربية التي تمرّ في سوند لا تحيي إلا في المرة الأولى التي تبحر فيها و بعد العودة من رحلتها.

و لقد حرصت في الرحلات كلها على قياس ارتفاع القطب عند الظهر و في المساء، و استخدمت لهذه الغاية ثمنية هادلي(Hadley) . و للملاحظات المسجلة فوق البحر فائدة كبرى و إن كانت لا تتمتع بدقة تلك التي تسجل على الأرض و بالتحديد حين يكون الطقس شتاء حيث لا ترتفع الشمس كثيرا فوق الأفق. و يمكننا تحديث الخرائط الجغرافية و البحرية و جعلها أكثر دقة إذا ما تأكدنا من موقع الأماكن الرئيسة و يسعدني أني تمكنت من تحديدها بدقة كبيرة، و لكن لا جدوى من إدراج الملاحظات و الحسابات الفلكية التي سجلتها في عرض البحر هنا، و سأكتفي بذكر تلك التي سجلتها قرب الشواطىء و أولها في ۱۸ كانون الثاني حيث كنا قرب هلسنيوري جنوبا. و حدّدت ارتفاع القطب على ۵۵؟ ۵۷؟، و كانت الإبرة المغنطة تميل ۱۴ درجة نحو الشمال.

ثم في ۲۶ كانون الثاني (يناير) غادرنا هلسنيوري للمرة الثانية، و كانت الرياح مواتية، و في اليوم التالي حل الضباب طيلة النهار فرأينا في الشمال عند الظهر قوس قزح ضبابيا، لا يختلف عن القوس قزح العادي إلا بكونه أبيض و من غير ألوان. و عند ظهر اليوم التالي، في ۲۸ كانون الثاني، تبين لي أن ارتفاع القطب يبلغ ۵۷؟ ۷۴؟، و استنتجت ذلك من انحراف الإبرة المغنطة التي تميل في هذا المحيط نحو الشمال إلى ۱۴ درجة و نصف. و حين يبعد المكان الذي نحاول تحديد ارتفاع القطب منه، ينبغي التحلي بنظرة ثاقبة و خبرة لتحديد المسافة الفاصلة بين المكان و السفينة، و بما أنها رحلتي الأولى راجعت الضباط و الملاحين مرارا لأنهم أصحاب خبرة أكثر مني في هذا الميدان. و اعتبروا أننا نبعد ۳ أميال و نصف عن مارشراند(Marstrand) ، لذا، تم تحديد ارتفاع قطب قلعة مارشراند على ۵۷؟ و ۴۹؟، فيما قطب صكاغن(Skagen) على ۵۷؟ و ۳۸؟ حسب تقديرنا.

و ساعدتنا الرياح حتى أواخر كانون الثاني (يناير)، فتمكنا من اجتياز الكاتغيت(Kattegat) و وصلنا بحر الشمال. و في بداية شهر شباط (فبراير) عاكستنا الرياح، و عصفت بقوة في ۲ شباط (فبراير) و الليلة التالية حتى أننا لم نجرؤ على إشعال النار في السفينة. لكننا جالدنا، لأننا علمنا أنه لا بد من تحمل هذه المشقات في البحر، و تأسفنا لفقداننا أحد البحارة بعد أن وقع عن السفينة و لم نتمكن من إنقاذه بسبب الظلام الدامس و الأمواج العاتية. و هدأت العاصفة، لكن الرياح بقيت معاكسة فتراجعنا بدلا من أن نتقدم.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۷

و صعد على متن السفينة في ۵ و ۶ شباط/ فبراير ربّان من براكفياد(Brackefiad) و آخر من فلكرو(Fleckero ?e) ، لكن قائد السفينة رفض المساعدة التي عرضاها عليه لاعتقاده بأن السفينة في مأمن و لا داعي للجوء إلى أيّ مرفأ. و في ۸ شباط/ فبراير تعرّضنا لعاصفة هو جاء أخرى، و طلبنا المساعدة، فما لبثنا أن رأينا مركبا صغيرا يتجه نحونا من الشاطىء، لكن العاصفة ازدادت حدة و تساقطت الثلوج بغزارة فاضطررنا إلى العودة نحو عرض البحر و لم نعد نرى المركب. و استمرت الرياح تعصف في اليوم التالي، و لم نعد نتوقع تحسنا في حال الطقس، أو نأمل باللجوء إلى أحد مرافىء النروج، فاجتزنا بحوالى ۳۰ ساعة المسافة التي أخذت منا ۱۵ يوما عند الانطلاق، فرسونا في ۱۰ شباط/ فبراير قرب حصن كرونبرغ(Cronenburg) .

في ۱۲ شباط/ فبراير، تبين لي أن ارتفاع القطب، على بعد ربع ميل إلى الجنوب من كرنبرغ هو ۵۵؟ و ۵۹؟، لذا نستنتج أن ارتفاع

قطب هذه القلعة الواقعة إلى الشمال و قرب مدينة هلسنيورى هو ۵۶؟.

و عانى البحارة الأمرّين من جراء الطقس الردىء، فمات بعضهم و مرض بعضهم الآخر، و بما أنه لا يجوز القيام برحلة طويلة كهذه مع كل هؤلاء المرضى، كتب قائد السفينة إلى كوبنهاغن طالبا النصح، فتلقى الأمر بالعودة. و فى أثناء ذلك، تحوّلت الرياح جنوبية- شرقية و جنوبية كما تمنينا منذ فترة، فأرسلوا إلينا بسرعة المزيد من المؤن و البحارة كى لا نتأخر. لكن يبدو أنه كتب علينا أن نكون لعبة فى يد الرياح التى عصفت غربا قبل أن نتمكن من رفع المرساة. و يدّعى البعض أن الهواء فى هذا المحيط يعصف من الجهة الغربية للهاجرة خلال تسعة أشهر من السنة، و هذا الأمر محتمل للغاية إذا ما أخذنا بعين الاعتبار كم أرجأت هذه الرياح رحلتنا.

و أصيب رفاقى الأربعة بدوار البحر، لكنهم رفضوا ترك المركب باستثناء السيد دى هافن الذى لم يتأقلم مع السفر بحرا. و بما أن السفينة سترسو فى مرسيليا، طلب إذنا من الملك كى يسافر إلى هذه المدينة برا، و ما إن حصل على الإذن حتى غادر السفينة فى ۱۷ شباط/ فبراير. و لم أعان كالآخرين لأننى لم أصب بدوار البحر حتى خلال العواصف الهوجاء، كما سلّمت أمرى للرب و اتكلت على مهارة ضباطنا و بحارتنا، فكنت آوى إلى فراشى كلما هبّت عاصفة فى حين كان هؤلاء يجاهدون للحفاظ على السفينة رغم البرد و المطر و الرياح.

و فى ۱۹ شباط/ فبراير مساء، تركنا مرفأ هلسنيورى للمرة الثالثة، آملين أن تساعدنا الرياح المواتية، لكن ما إن وصلنا صكاغن(Skagen) ، حتى تحولت الرياح إلى غربية و أجبرتنا على الإبحار فى قناة الكاتغيت.

و فى ۲۲ ظهرا، كان رأس كول(Kull) على بعد خمسة أرباع الميل إلى الشرق، و كان ارتفاع القطب ۵۶؟ و ۲۰؟، و بالتالى ارتفاع قطب الرأس ۵۶؟ و ۱۹؟؛ و عند المساء، ألقينا المرساة قرب هلسنغر.

منذ غادرنا كوبنهاغن، قطعنا ۴۵۰ ميلا لكننا لم نقترب من البحر المتوسط إلا ۴ أميال، و نكتشف مما

تقدم المخاطر التى يتعرض لها من يسافر بحرا و كم يصعب على البحار تحديد زمن وصوله و لا سيما فى هذه المناطق الشمالية حيث الرياح غير منتظمة بعكس المناطق المدارية.

و استأنا لعودتنا للمرة الثالثة، لكن ما لبثنا أن سررنا لوجودنا فى مرفأ لأن عاصفة هو جاء هبّت فى اليوم التالى، فحمتنا الشواطىء من غضب الطبيعة، لكننا اضطررنا إلى إنزال عارضات الصارى و الصوارى كى لا تعانى السفينة من الرياح العاتية. و أخذت الأمواج تلطم السفينة بعنف كما لو كنا فى بحر الشمال، فأنزلنا مرساة ثالثة خوفا من ألّا تكفى الأوليان لإيقاف الباخرة. و هبّت الرياح من الغرب و دامت حتى الخامس من شهر آذار/ مارس ثم هدأت تدريجيا.

كان لا بد لنا، بحسب تقديرنا و بحسب يوميات المسراع ، من أن نتقدم أكثر نحو الشمال عند مغادرتنا، و نحو الجنوب عند عودتنا، فراقبت المسراع، و تبين لى أن خطه قصير بعض الشىء و أن الرمل لا يسيل إلا ۲۹ دقيقة، و اعتقدت أن فى الأمر خطأ ما، لكن تبين أن البحارة قلصوا خط المسراع عمدا لأنه يتمدد لاحقا بعد الاستعمال، و بالتالى يتم تصحيح الخطأ الناتج عن قصره تلقائيا. أما سبب عدم سيلان رمل النصف دقيقة ۳۰ ثانية فيعود إلى عدم إمكانية إيقاف الخط فى الوقت المحدد الذى تعطى فيه الإشارة و لا سيّما حين تكون السفينة مسرعة. إذا، لهذه التصحيحات فائدتها، خاصة فى عرض البحر و حين تكون الرياح مواتية، و تجعل البحار أكثر انتباها حين يخشى المرور فى مكان خطر، أو حين يدفع التيار السفينة بشكل ملحوظ. لكن حين تكون القناة ضيقة كالكاتغيت، و حين تعاكس الرياح سير السفينة كما حصل معنا، قد تؤدى هذه الوسائل إلى نتائج غير محمودة، لأننا نرى الخطأ عادة إلى قوة التيار و تنوعه. و مهما حاولنا اتباع القواعد الواردة فى كتب الملاحة بدقة، تطالعنا صعوبات جمّة عمليا فلا يمكننا تحديد مكان تواجدنا بدقة حين تتعدد الرياح المعاكسة. و حرىّ بالملاحين اعتماد الملاحظات الفلكية للتأكد من تقديراتهم، فمراقبة القمر تسمح بتحديد خط الطول فى عرض البحر بدقة. و اعتمد البروفسور ماير هذه الطريقة التى تنتشر بين الإنكليز، فقد صادفت فى بومباى ربّان سفينة و بحارا من مركبين مختلفين تابعين لشركة الهند الغربية يستعملان هذه الطريقة بنجاح كبير. و قد قمت بنفسى بدراسات عدة خلال الرحلة، فأرسلتها من مرسيليا إلى البروفسور ماير الذى سعد بتلقيها، و أمر بإرسالها إلى إنكلترا و هو على فراش الموت ليبرهن فائدة ألواحه القمرية. و طبعت هذه الدراسات فى إنكلترا مرفقة بلوائح السيد ماير المصححة.

فى ۱۰ آذار/ مارس غادرنا مرفأ هلسنيورى للمرة الرابعة، و عند الظهر أصبح رأس كول على مسافة ميلين و ثلاثة أرباع منا، ما بين الجنوب الشرقى و جنوب الجنوب الشرقى، و أضحى ارتفاع القطب ۵۶؟

و ۲۷؟، مما يعنى أن ارتفاع قطب رأس كول يبلغ ۵۶؟ و ۱۸؟. و فى ۱۲ آذار/ مارس، أضحى ارتفاع القطب ۵۷؟، ۵۸؟، على بعد ۴۰ ميلا نحو الغرب، إلى الشمال من صكاغن(Skagen) ، و تبين لنا هنا

أن الإبرة المغنطة تميل نحو الشمال ۱۷؟؛ كما لاحظنا أن المياه أصبحت أكثر ملوحة كلما اقتربنا من بحر الشمال. و أشار المكحال لدىّ فى المياه العذبة إلى ۳۲۶ د و فى مرفأ كوبنهاغن إلى ۳۳۰، و قرب هلسنيورى إلى ۳۳۱، و قرب رأس كول إلى ۳۳۲، و قرب نسّ(Nesse) إلى ۳/ ۴ ۳۳۳ و إلى ۳۳۸ حيث كنّا. و بما أن السيد فورسكال كان يملك مكحالا أكثر دقة من مكحالى و يعمل على تسجيل درجة ملوحة المياه بدقة، لم آبه كثيرا بالموضوع. كما بحث عن سبب و ميض المياه المالحة و أظنه اكتشف السبب خلال الرحلة، فقد اعتاد أن يجمع أنواعا عدة من الحيوانات البحرية و من بينها أنواع مختلفة من الميدوزا (قنديل البحر) ، و بعد رمى بعض منها من النافذة ليلا لاحظنا أن شرارات صغيرة تظهر على كل ما تلمسه المياه التى تعيش فيها هذه الحيوانات. ثم أعاد تجربته و تأكد ظنه بأن و ميض مياه البحر ناتج عن هذه الحيوانات الصغيرة اللزجة التى تكثر فى البحار.

و بما أن ارتفاع القطب بلغ ۶۰؟ و ۲۹؟، و حوالى ۹۸ و ۴۳؟، نحو غرب هاجرة باريس، لاحظنا فى ۱۶ آذار/ مارس أن الإبرة المغنطة تميل نحو ۲۲؟ و ۳۰؟. أما فى ۱۸ آذار/ مارس فمالت ۲۵؟، وفقا لدراستنا، علما أن ارتفاع القطب ۶۰؟ و ۲۴؟، و حوالى ۱۱؟ و ۱۰؟ نحو غرب هاجرة باريس.

و استمرت الرياح مواتية لنا أكثر مما كانت عليه فى الرحلات السابقة العقيمة، و عند ما اقتربنا من نسّ، و بدلا من أن نعود إلى هلسنيورى كما فعلنا سابقا، هبّت فى ۱۲ آذار/ مارس عاصفة مناسبة جعلتنا نتقدم ميلين و نصف الميل فى بعض الأحيان. لكن فى ۱۹ آذار/ مارس هبّت رياح معاكسة استمرت حتى آخر الشهر و عنفت فى بعض الأحيان، و وقع بحاران عن الصارى فكسر ساق أحدهما و جرح الآخر لكنه ما لبث أن عاد إلى أعماله. و لم نتعرض لخطر عظيم لأننا فى عرض البحر و على متن باخرة متينة، و لم نشعر بعنف حركة المركب إلا حين هدأت العاصفة فجأة، فعند ما تعصف الرياح لا يميل المركب إلا من جهة واحدة، لكن حين تتوقف الرياح فجأة، لا يمكن للسفينة إلّا أن تتبع حركة المياه حتى يهدأ البحر الذى أثارته العاصفة.

و دفعتنا الرياح المعاكسة حتى ۶۳؟ و نصف من ارتفاع القطب أى قرب شواطىء إيسلنده، و بدأت طلائع الربيع تظهر فى ۳۱ آذار/ مارس فعرفنا أجمل وقت فى العالم، لكن الهدوء ساد طويلا فلم نتمكن من التقدم. و بلغ ارتفاع القطب ۶۶۱، ۶۱۸؟، و خط الطول الغربى فى باريس حوالى ۱۴؟

و ۳۰؟، و تبين لنا وفقا لدراسات عدة و للنتيجة الوسطية أن الإبرة المغنطة تميل نحو ۲۳؟، ۶۱۶.

و ربما أن السماء فى المناطق الشمالية نادرا ما تكون صافية، لم نر أى شفق قطبى شمالى، علما أن رؤيته أمر شائع على اليابسة فى هذه المنطقة. و فى ۳ نيسان/ أبريل مساء، شاهدنا قوس قزح متعدد الألوان، لكن السحب ما لبثت أن غطّته و حرمتنا من هذه المشهد الرائع.

فى ۵ نيسان/ أبريل، و أثناء عاصفة هوجاء، لاحظنا من أعلى الصارى نورا خفيفا يطلق عليه البحارة عادة اسم القديس جرمان أو

نار القديس ألم(St. Elme) ، لأن الاعتقاد ساد فى الماضى أن هذه الشعلة الخافتة هى علامة ظهور القديسين، لكن منذ اختراع الكهرباء توصلوا إلى تحديد هذه الظاهرة بشكل أصح. و عصفت الرياح الجنوبية الغربية التى منعتنا من التقدم ميلا واحدا طويلا، لكن فى ۶ نيسان/ أبريل أصبحت الرياح مواتية فقطعنا ۳۹ ميلا- و نصف الميل خلال ۲۴ ساعة. و فى اليوم التالى، قطعنا مسافة أطول، لأننا فى السابع من الشهر نفسه، عند الظهر، كنا على خط عرض ۵۷ و خط طول ۳۶، و فى الثامن من نيسان/ أبريل كنا على خط عرض ۵۴ و خط طول ۴۹. و فى ۱۶ نيسان/ أبريل لاحظت أن الإبرة المغنطة تميل إلى ۶۱۶، ۶۱۷؟، و نحن على خط عرض ۴۲ و خط طول ۳۹. فى ۱۸ نيسان/ أبريل رأينا سنونو البحر و سمكا يعرف باسم نوردكابر(Nordkaper) ، فاستنتج الضابط معنا أنها دلائل عاصفة قادمة، ما لبثت أن هبّت بعد الظهر. و خلال هذه العاصفة، لاقى أحد البحارة حتفه بعد أن سقط فى البحر، و منعتنا الأمواج العاتية و

سرعة السفينة من إنقاذه.

ثم مرت أيام لم نر فيها اليابسة، لكن في ٢١ نيسان/ أبريل، و عند المساء، شاهدنا رأس القديس فنسان في الجنوب الشرقي، على بعد خمسة أميال و نصف الميل. و كان الضباط و التلامذة البحريون و الملاحون قد حدّدوا موقع السفينة استنادا إلى يوميات المسراع، لكن تقدير قائد السفينة كان الأكثر دقة لأنه لم يخطىء إلا بحوالى ۴۴ دقيقة و هي تعادل ثلاثة أرباع الدرجة. و أعطاني القائد نسخة عن تقديراته تظهر موقع السفينة اليومي عند الظهر منذ الحادي عشر من شهر آذار/ مارس و حتى الحادي و العشرين من شهر نيسان/ أبريل، و سأدرجه هنا حتى يتمكن من تحديد مسارنا عبر بحر الشمال على الخارطة كل من أراد ذلك. زد على ذلك، أني لا أرى ضرورة رسم خارطة هذه الرحلة و بالتالي زيادة عدد الرسوم، علما أني وضعت تقديرا للطريق التي سلكنا و سجلته على الخارطة الهيدروغرافية.

تحديد لموقع السفينة، يظهر موقعها يوميا عند الظهر منذ الحادي عشر من آذار/ مارس ۱۷۶۱ و حتى الحادي و العشرين من شهر نيسان/ أبريل:

في ١۴ آذار، نقل الرأس من الخارطة المسطّحة إلى خارطة بحر أسبانيا المصغرة. و تواجدت على خط عرض ۴۶۱ ۱۸؟ شمالا و خط طول ۴۱۶؟ ۴۸.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۲

في هذا الوقت عينه، كان رأس القديس فنسان على بعد ۵ أميال إلى الجنوب الشرقي. و سجل موقع هذا الرأس على الخارطة على خط عرض ۴۶ ۴۵؟، أي إن الفرق ۴۴؟ و صفر؟

أضحت رحلتنا أكثر إمتاعا في البحر المتوسط، فبعد أن أمضينا شتاء عاصفا في الكاتغيت و بحر الشمال، دخلنا هذا المناخ اللطيف في أجمل فصل من فصول السنة. و في حين لم نر في المناطق الشمالية- حيث أمضينا الشتاء- إلا بعض الجبال البعيدة، شاهدنا هنا جبالا تارة على الساحل الأوروبي و طورا على الساحل الإفريقي، و أحيانا على الساحلين في آن واحد، و تضفي هذه الجبال على المنظر العام جمالا. و إن ضايقتنا العواصف في بحر الشمال، فلقد أزعجتنا الهدوء التام أحيانا في البحر المتوسط، و لا سيّما و أن المياه العذبة شحّت على متن السفينة، لكن ضباطنا لم يجدوا هذا الأمر سببا كافيا لدخول مرفأ ما. و اكتفى السيد بورانفند(Baurenfeind) برسم بعض المناظر و منها جبل طارق و سبتة اللذان رسما على اللوحة الأولى. و في ١۴ أيار/ مايو، رسونا قرب سان أستاش(St .Estache) ، على بعد ميل و نصف إلى الغرب من مرسيليا، و صادفنا هناك سفنا حربية من إسبانيا و هولندا و السويد و مالطا. و كان مرفأ مرسيليا يعجّ بالسفن التجارية الفرنسية التي لم تكن تجرؤ على مغادرته بسبب الحرب بين فرنسا و إنكلترا. فضلا عن سفن البلاد المحايدة التي استأثرت بالتجارة بين فرنسا و الشرق و بلاد أفريقيا، كما صادفنا مركبا إنكليزيا يعيد إلى مرسيليا سجناء حرب فرنسيين. دخلنا المدينة عند المساء، و التقينا رفيقنا السيد دي هافن الذي غادر السفينة في ١٧ شباط/ فبراير و وصل مرسيليا عبر البر بعد أن اجتاز ألمانيا و فرنسا.

سعدنا بالإقامة في مرسيليا بعد هذه الرحلة الطويلة، و عملنا على زيارة المكاتب و متاحف الهواة و أولئك الذين يجمعون حيوانات البحر و يبيعونها للهواة و صيادي المرجان الأحمر، فضلا عن الأبوين

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۴

اليسوعيين الشهيرين السيد بزيناس(Pezenas) و السيد لاغرانج(La Grange) اللذين يملكان مرصدا مجهزا بأفضل المعدّات الإنكليزية. و لا حاجة هنا للحديث عن التجارة المزدهرة بين مرسيليا و الشرق، و عن وضع هذه المدينة، و مرفئها و حصونها و جنائنها الغنّاء و غير ذلك من الأمور، لأنها وصفت سابقا بشكل مفصّل، لكن السيد بورنفند رسم المدينة قبل مغادرتنا سان استاش، فطلبت تثبيت هذا المنظر على اللوحة رقم ۱۱ لأني لم أشاهده في مكان آخر.

صادفنا هنا ثلاثة مراكب تجارية دانماركية على استعداد لمرافقتنا إلى أزمير، صعدنا على متن السفينة في أواخر شهر أيار/ مايو. على أن نبحر من سان أستاش مع هذه المراكب الثلاثة، لكن أبجر سفينتنا انقطع و مضى النهار بأكمله قبل أن نتمكن من رفع المرساة. و في اليوم التالي، عاكستنا الريح، فلم نتمكن من الإبحار قبل ٣ حزيران/ يونيو، و في الخامس منه، من بعد الظهر شاهدنا من بعيد أربع سفن و تبين لنا من الأعلام المرفوعة أنها سفن إنكليزية. و كنا قد صادفنا خارج مضيق جبل طارق إحدى سفن الأسطول التابع للأميرال سندرز(Saunders) ، و توقعنا أن نصادف سفنا أخرى تابعة لهذا الأسطول في البحر المتوسط. و لم تكن الحرب معلنة بين الدانماركي و إنكلترا، لذا لم نتوقع أي اعتداء على سفينتنا، لكن بما أن سفننا التجارية كانت في مرفأ فرنسي، و لم نكن نعلم إن كان الإنكليز سيفتشونها، اتخذ قائد السفينة الإجراءات اللازمة لمنعهم. و بقيت سفننا التجارية ملازمة لنا، و تمّ تحضير المدافع، و توزيع الأسلحة، و وضعت الأسرّة بما في ذلك أسرّة الضباط و المسافرين في شباك المتاريس، و وزعت المرشات حيث يجب وضعها، و باختصار تحضّرنا للقتال. عند المساء، سمعنا صوت مدفع، رددنا عليه في الحال، لكن الهدوء منع الإنكليز من الوصول إلينا في ذاك اليوم، و بعد منتصف الليل، وصلت إحدى سفن الأميرال سندرز الأربع بقربنا، و بعد مفاوضات قليلة تابع كل منا طريقه. و في السابع من الشهر نفسه، عند المساء، تحضّرنا مجددا للقتال، لأننا رأينا عشر سفن في البعيد، لكنها ابتعدت خلال الليل و لم نرها منذ ذلك الحين. و في اليوم الثاني، طلب قبطان إنكليزي، و هو آمر سفينة بحرية، زيارة سفننا التجارية، لكن قائد سفينتنا رفض السماح له بذلك. و عند ما رآنا على استعداد للدفاع عنها، انسحب على مضض.

في ۶ حزيران/ يونيو، راقب علماء الفلك ظاهرة نادرة و هي مرور كوكب الزهرة أمام الشمس، و تحضّر العلماء لدراسة هذه الظاهرة في أوروبا، كما أرسل علماء إلى أماكن مختلفة من العالم، و تلقيت الأمر بمراقبة هذه الظاهرة أينما كنت. و بما أن السفينة لم تكن قد ابتعدت كثيرا عن اليابسة، لن تكون لملاحظاتي فائدة كبيرة كما لو كنت على اليابسة، و صعب عليّ القيام بهذه الدراسة بالدقة المطلوبة، فحركة السفينة و إن كانت بطيئة تؤثر في عمل كهذا. و بما أن البحر كان ساكنا لأيام عدة، فإنني استعديت لدراسة هذه الظاهرة بأفضل طريقة ممكنة، و سأورد ملاحظاتي، علما أن الخبراء لن يستفيدوا منها إلا- إذا أرادوا معرفة مدى خطئي. و في ۶ حزيران/ يونيو، و عند شروق الشمس، كان كوكب الزهرة

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۶

أمام قرص الشمس، و بما أنه كان مغطى بغيمة سميكة عند انجلاء القسم الأول لهذا الكوكب، لم أر سوى انجلاء القسم الأخير منه. بعد مراقبة الكوكب، قست ارتفاع الشمس مرارا، و احتسبت ارتفاع القطب حيث كنا، ثم صححت الساعة بعد مراقبة القطب في اليوم الثاني عند الظهر. و تبين لي من هذه الدراسة، الوقت الصحيح أن انجلاء الجزء الأخير لكوكب الزهرة عن قرص الشمس هو الساعة ۹ و ۳ دقائق، و ۵۳ ثانية، على خط العرض ۴۴۰ ۴۶؟، قرب خط هاجرة مدينة مارسيليا.

وصلنا جزيرة مالطا في ١۴ حزيران/ يونيو، ورسونا في المرفأ الكبير، بالمدينة، لأن عاصمة هذه الجزيرة مقسّمة إلى مدن عديدة صغيرة، محاطة بمجموعة خلجان تشكّل مرافىء آمنة. و يبدو منظر المدينة رائعا من هذه الناحية، و قد بنيت منازلها على الطريقة الشرقية، أيّ مسطّحة من الأعلى و تستند إلى مرتفعات و عرة، و هي من الحجر المقصوب، حتى الحصون بنيت بالطريقة نفسها أو حفرت في الصخر. أما الصخر الذي تقوم عليه الجزيرة فمن الحجر الكلسي اللين الذي يمكن حفره بسهولة كالخشب. و لا ينبغي أن نستغرب إن وجدنا الكثير من الكنائس و القصور الرائعة لأن الجزيرة غنية بالمال و بالمهندسين الماهرين .

و تبقى كنيسة القديس يوحنا أبهى كنائس مالطا، فقد سخا عليها سادة المدينة الكبار و زينوها بقبورهم الرائعة. و يقال إنها جمعت كنزا لا يصدّق، من ضمنه زينة ذهبية و فضية ثقيلة الوزن كالتماثيل و الثريات و غيرها فضلا عن شمعدان كبير مع سلسلة ذهبية يقال إنها كلّفت ۵۰۰، ۰۰۰ قطعة نقدية من نقد مالطا. و نجد العديد من الأشياء الثمينة ضمن الكنوز المحفوظة في الكنائس المتاخمة، و من بينها صليب من الذهب الصافي، يزن ۲۴ ليبرة، و جزء من مهد يسوع المسيح المرصّع بالأحجار الكريمة. باختصار؛ فإن ثروة هذه الكنيسة تفوق كنوز الكعبة في مكة، كما تفوق كنوز ضريح محمد في المدينة. و نجد في المدينة مستشفى جيدا، يستقبل كافة المرضى من دون استثناء و يعنى بهم، و يقال إن الطعام يقدم بأطباق من فضة، و لعل هذا الأمر الأخير يخصّ به الفرسان المرضى أو ذوي الشأن. أما اهراءات الحنطة الكبرى فمحفورة في الصخر، و يتم جرّ المياه إلى المدينة من نبع يبعد عنها ثلاثة أميال تقريبا، و ذلك بواسطة أنابيب بنيت في بداية القرن السابع عشر. يبلغ طول جزيرة مالطا أربعة فراسخ و ثلاثة أرباع أما عرضها ففرسخان و ربع. و تتميز الجزيرة بشاطئها المتعرّج في الجنوب و شاطئها المستقيم في الشمال، حيث نجد العديد من الخلجان، و حيث تمّ بناء العديد من الأبراج و الحصون لصد هجوم الأعداء، فأصبحت الجزيرة بالتالي محصّنة كليا. و لا نجد سوى مساحة صغيرة مزروعة، لكنها أرض

غنية بكافة الفواكه الشهية، و يكثر

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۷

السكان في هذه الجزيرة بسبب الحرية التي يتمتعون بها.

و شاهدنا في مرفأ مالطا السفينة الحربية التركية، التي فر بها العبيد المسيحيون من جزيرة ستانشيو(Stanchio) في ۱۹ أيلول/ سبتمبر ۱۷۶۰، حين كان القبطان التركي و مساعدوه على اليابسة. و بقي العبيد الفارون في جوار هذه الجزيرة، حتى بعث إليهم أهالي مالطا الذين لم يفهموا كيف تجرأت سفينة تركية على الاقتراب من جزيرتهم. و وعد العبيد بتسليم السفينة و المدافع شرط أن يسمح لهم بمقاسمة باقي الغنائم، فدخلت السفينة المرفأ في ۶ تشرين الأول/ أكتوبر من السنة نفسها. و عاد العقلاء من العبيد إلى موطنهم مع حصتهم من الغنيمة، في حين بقي قسم آخر منهم في مالطا و عملوا جاهدين على تبديد حصتهم. و عثر على متن السفينة على ۸۳ مدفعا، ۶۶ منها من البرونز، وضع عدد منها في الامبراطورية و عدد آخر في البندقية و عدد في المصانع التركية. و قد بني المركب على الطراز التركي و بطريقة متينة للغاية، و نجد قرب الصاري مجلسا صغيرا، اعتاد الضباط الجلوس فيه، كما نجد في وسط السفينة و من الجهتين مقاعد مشابهة، لأن الأتراك لا يحبون التنزه على متن السفينة أو على اليابسة. أما متن السفينة فضيّق، و نجد بين الغرفة السفلية و العليا للقبطان عشرات المدافع، و نصب بعض منها على الكوثل حيث ينام العبيد. صوّب المسيحيون هيكل السفينة و جعلوها على النمط الأوروبي، لكننا علمنا لاحقا في مصر، أن فرنسا اشترتها و أعادتها للسلطان كهدية. و بدا هذا الأمر مستغربا حتى لفرنسيي الشرق، نظرا إلى أن أمّتهم بأمسّ الحاجة للمال و السفن لمتابعة الحرب ضد الإنكليز، لكن الفرنسيين يسعون إلى مراعاة السلطان بغية تسهيل تجارتهم مع الشرق. و يبدو أن ديانة مالطا، التي لا تسعى إلى القضاء على الكفّار، لم تمانع كثيرا في إعادة السفينة. و يتخوف أهالي مالطا كثيرا من غضب السلطان، لذا يعملون جاهدين على ترميم القلاع الصغيرة الواقعة على شاطىء البحر، و يمرنون سكان الجزيرة، و نجد لديهم ثلاث سفن حربية فيها ۶۴ و ۶۲ و ۲۰ مدفعا و ۴ سفن شراعية حربية فضلا عن السفينة التركية، و قد جهزت كل سفينة شراعية بثلاثة مدافع و خمسين مجذافا يحركها سجناء قيدوا بها و هم من الأشقياء و من العبيد المسلمين من أفريقيا و تركيا.

و قلّما نسمع بمالطيين يأسرون أتراكا أو يتغلبون عليهم منذ أن حرّمت عليهم المعاهدات بين ملك نابولي و السلطان دخول الأرخيل، لكننا نجد بين المسيحيين أناسا لا يطلبون أكثر من القتال من أجل الدين حين لا يجدون فرصة أخرى لجمع ثروة، لأن الأمل بالغنيمة يفوق عندهم حماستهم الدينية المسيحية. يقال في الشرق، إنهم حين يحصلون على سفينة مجهزة لا ينقصهم سوى إذن مرور أو أمر من أمير موناكو أو أي أمير إيطالي آخر يعرف باستعداده لمحاربة المسلمين المسالمين الذين لا يعرفونهم على الأرجح، كما قيل لي إنه يسمح لكل صاحب سفينة مسيحي بإحضار غنائمه إلى مالطا. و لا ينبغي أن

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۸

نستغرب أن ينسب المسلمون إلى المالطيين ما ننسبه نحن إلى المغاربة، و الجزائريين و التونسيين و الطرابلسيين، إذ يعيش هؤلاء البرابرة على الأقل بسلام مع بعض الأمم المسيحية في حين أن فرسان مالطا يعادون الأمم الإسلامية كلها.

زرت و السيد فورسكال الملّاحات التي تبعد أميال و ۳/ ۴ الميل عن المدينة، و هي مؤلفة من ۱۶ مربعا، يبلغ طول و عرض الواحد منها ۱۰۰ قدم و كلها مطلية. يتم ملؤها بماء البحر مرتين سنويا، فتتبخر المياه خلال شهر تاركة الملح في القعر، و يقال إنه يتم جمع ۷۰۰ سلم كل مرة، و يبلغ ثمن السلم الواحد ۴ سكودي(Scudis) . و بالتالي، يكسب السيد الأكبر الذي يعود إليه هذا المردود حوالي ۵۶۰۰ سكودي سنويا من ماء البحر. و نجد بالقرب من هذه المربعات، ملاحات أخرى غير مطلية و تنتج بالتالي ملحا سيىء النوعية يستخدم لتمليح السمك و دفع أجور العمّال. و نرى الفقراء في أماكن أخرى، يحملون مياه البحر إلى الصخور و يجمعون القليل من الملح الذي تتركه بعد تبخرها. و نلاحظ قرب الملاحات وجود قبة صغيرة.

على ضفاف البحر يمكن وضع زورق صغير تحتها، و يقال إن سفينة القديس بولس غرقت في هذه المنطقة، فتمّ بناء كنيسة تحمل اسمه و يبلغ طولها ۵۵ قدما و عرضها ۴۵ قدما. و قصدنا في يوم آخر سان أنطوان بوسكيه(St Antoine ,Bousquet) ، و هما منزلان ريفيان للسيد الأكبر، تحيط بهما الحدائق و أشجار الليمون، و بقربهما كهف جميل للغاية.

لا تبعد سيتا- فتشيا، عاصمة الجزيرة كثيرا، لكنها لم تعد آهلة بالسكان، و يلفت الأنظار فيها معبد رائع يعلوه كهف صغير، يقال إن القديس بولس التجأ إليه خلال الأشهر الثلاثة الأولى بعد غرق سفينته.

و لا نرى في هذا الكهف لصغره سوى تمثال للقديس و كومة من الحجر الصخري الذي حفرت فيه المغارة، و يدعي البعض أن لهذه الحجارة قدرة عجائبية، و أن من يحمل معه قطعة منها لا يخشى عليه من لسعة الأفاعي، لذا ترسل قطع من هذه الحجارة إلى كافة بلاد العالم التي تدين بالديانة الكاثوليكية- الرومانية. كما يعرض في المعبد تمثال الكونت روجر النورماندي الذي طرد العرب من مالطا. و تقع في جوار المعبد تلة يقال إن القديس بولس وعظ من أعلاها و دعا الناس إلى الدين، و إحياء لهذه الذكرى أقيم له تمثال و هو يعظ. و نجد في محيط سيتا- فتشيا الكثير من المساكن المحفورة في الصخر، و قد سدّت مداخل العديد من الممرات كي لا يضيع المرء داخلها. و تتألف هذه المساكن من عدة غرف صغيرة، فضلا عن قبو كبير يبدو و كأنه استخدم للتجمعات، و تطالعنا آثار طاحونة صغيرة في مكان آخر. و مهما كان هدف هذه المساكن المحفورة في الصخور، لا بد أنها كانت مأوى مناسبا للسكان قديما في زمن القيظ و لا سيّما و أنهم لم يعتادوا العيش في ترف و لم يكونوا ليخشوا النهب و السرقة. و حافظ أهالي مالطا على كتابة فينيقية نقشت على حجر لكني لم أرها بنفسي. و جمعنا ملاحظات حول طول جزيرة مالطا و عرضها، أوردنا ذلك في يوميات و ملاحظات الفيزياء و الرياضيات و علم النبات للأب فاي(Feuille) ،

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۹

و قد حصلت على نسخ من خارطة المدينة و خارطة لجزيرة مالطا و جزيرة غوزن(Gosen) ، لكني أعتقد أن هناك خرائط دقيقة مطبوعة، و لم أشأ زيارة اللوحات المحفورة.

غادرنا جزيرة مالطة في ۲۰ حزيران/ يونيو و لم نر الأرض حتى الخامس و العشرين من الشهر نفسه.

و عند ظهر ذاك اليوم، كنا على خط عرض ۳۶؛ ۱۱؛ و كانت جزيرة سابينزا(Sapienza) بحسب تقديرات الربان على بعد سبعة أميال نحو الشمال، نستنتج من ذلك أن ارتفاع قطب هذه الجزيرة هو ۳۶؛ ۳۹. و دخلنا مجموعة الجزر في ۲۶ حزيران/ يونيو، و بعد مراقبة دقيقة للشمس في الهاجرة، تبين أننا كنا على ۳۶؛ ۱۰؛ في ذاك اليوم. و قدّر الربّان المسافة التي تفصلنا عن الجزر المجاورة، و وفقا لتقديراته تقع جزيرة سريغوتّو(Serigotto) على خط عرض ۳۵؛ ۵۲؛ أما جزيرة أوفو(Ovo) فعلى ۳۶؛ ۹؛ و رأس سان أنجيلو(St .Angelo) على ۳۶؛ ۲۶؛. و نجد هذه الجزر على مسافة أبعد نحو الشمال على خارطة الأرخبيل التي وضعها السيد دانفيل(D'Anville) بانتباه و ذكاء، و التي نشرت في باريس سنة ۱۷۵۶. و كنت أتمنى أن أتابع ملاحظاتي و دراساتي الجغرافية، لكن نزيفا حادا أصابني، حتى أني فقدت الأمل في رؤية القسطنطينية و حتى شبه الجزيرة العربية. لكني شكرت القدر الذي أصابني بعلة، في وقت أمكنني فيه الحصول على المساعدة و الراحة، و بالرغم من أنني عانيت من الحرارة لكني كنت بين أوروبيين، و قد قدّم لي قائد السفينة كل المساعدة التي يمكن الحصول عليها على متن سفينة. في ۳ تموز/ يوليو، وصلنا و المراكب الثلاثة التي رافقتنا من مرسيليا إلى مرسى أزمير، و نزل رفاقي إلى اليابسة، لكني لم أتمكن من مغادرة السفينة و اكتفيت بمشاهدة هذه المدينة الشهيرة بتجارتها من زجاج غرفتنا. في ۱۰ تموز/ يوليو، رفعنا المرساة و وصلنا في ۱۳ من الشهر نفسه قرب جزيرة تنادوس(Tenados) حين رأينا بعض الآثار التي نظن أنها تعود لطروادة(Troye) . و هنا تلقينا الأمر بمغادرة السفينة و التوجه إلى عاصمة الأمبراطورية العثمانية برفقة المترجم الذي أرسله للقائنا سفير الملك في القسطنطينية السيد دي غابلار(De G bler) . و لم أتجرأ على القيام بهذه الرحلة على متن مركب صغير مكشوف يمكّننا من الوصول بسرعة، كما لم نتمكن من إيجاد مركب مزوّد بغرفة في جزيرة تنادوس، فاضطررنا إلى انتظار مركب آخر من الدردنيل. و ما إن وصل، حتى استأذنا قائد السفينة و ضباطها الذين شاركناهم أوقاتا صعبة وسط العواصف الهوجاء و الرياح المعاكسة و أوقاتا طيبة أخرى. و جرّبنا للمرة الأولى السفر مع المسلمين، إذ صعد العديد من الأتراك على متن المركب حين كنا قرب تنادوس و من بينهم رجل ذو شأن جاء لتذوق خمر قائد سفينتنا. بدت لنا لهجتهم، و لباسهم و طريقة عيشهم غريبة للغاية حتى أننا لم نعد نأمل بقضاء وقت ممتع بين الشرقيين. و لم تساعدنا الرياح في رحلتنا بين تنادوس و القسطنطينية التي لم نصلها إلا في ۳۰ تموز/ يوليو، و رسونا قرب غلطة(Galata) و منها رافقنا المترجم إلى منزل السيد دي غابلار في بيرا(Pera) مباشرة. و قد قابلنا هذا الوزير بلطف و طيبة لا مثيل لهما، حيث قام بإيوائنا جميعا في بيته، و قدّم لي كل ما يمكنه أن يساعدني على استرداد صحتي و عافيتي.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۰

ملاحظات من القسطنطينية

وردنا الكثير من الوصف للقسطنطينية أو اسطمبول، كما يسميها الأتراك، فلا يسعني إضافة أشياء جديدة و مهمة و لا سيما أني لم أبق في المدينة لوقت طويل، كما لم تتسنّ لي فرصة رؤية الكثير فيها. و ما إن تحسنت صحتي حتى انتقلنا إلى مصر، لكن بما أني تعرفت عن كثب و في طريق العودة على مكان إقامة السلطان سأورد هنا بعض الملاحظات و يسرني أن أذكر أمورا لم تكن معروفة من قبل.

إن مدينة القسطنطينية كبيرة بلا شك، لكن إذا ما اعتبرنا كاراغاش(Kara Ag sch) ، و غلطه(Galata) و بيرا(Pera) ، و دولما باغش(Dolma Bagsche) و غيرها، و هي واقعة في الجهة الأخرى للخليج فضلا عن أسكدار(Scudar) قاضي كوي(Kadi Kaj) الواقعتين في الجهة الأخرى للبحر و بالتالي في آسيا، مدنا أو قرى بحد ذاتها، لا يمكننا عندها مقارنة مساحة القسطنطينية مع ضاحيتها أجيب(Ajub) ، و الأحياء الواقعة خارج الأسوار على ضفاف البحر بمساحة لندن أو باريس. و لا يمكن تحديد عدد سكان مدن الشرق، لأن عادة إحصاء المواليد و الوفيات غير متبعة بعد، و أقصى ما يمكن أن يفعله المسافر في هذا الإطار هو تحديد مساحة المدينة و معرفة إذا ما كانت مسكونة بالكامل. أعتقد أن مدننا مكتظة بالسكان أكثر من مدن الشرق، أما سقوف المنازل في الشرق فمنخفضة مقارنة مع المنازل الأوروبية، و يحلو للشرقيين ترك مساحات خضراء وراء منازلهم. أما المسافرون الذين يعتبرون مدن الشرق مكتظة للغاية فيعتمدون في حكمهم هذا على العدد الهائل للأشخاص الذين نصادفهم في الشوارع التجارية. لكن ينبغي الانتباه إلى أن الشرقيين لا يحبون اصطحاب الأجانب إلى المنازل التي تقيم فيها عائلاتهم، مما منع دخول التجار و الحرفيين إليها. و يعمل هؤلاء الأخيرون في محال صغيرة على طول الشوارع التجارية، لذا لا نرى في بعض الأحيان سوى نجارين في أحد الشوارع، و حدادين في شارع آخر، أو صائغين أو تجار حرير أو تجار جوخ أو صانعي أمشاط أو غيرهم. و يتوجه الآلاف من هؤلاء إلى القسطنطينية صباحا، ليغادروها عند المساء إلى منازلهم القائمة في ضواح بعيدة أو في قرى واقعة على المضيق قرب البحر الأسود. هذا الكم الهائل من الأشخاص الذي لا نرى إلا القليل منه في شوارع أوروبا، هذا الحشد من الرجال و النساء الذي يؤم الشوارع التجارية للعمل أو للتسلية يبدو استثنائيا بالنسبة لأجنبي لأن الشوارع ضيقة للغاية، لكن لو اعتاد المسافرون زيارة الأحياء البعيدة لما صادفوا الكثير من الناس كما في مدن أوروبا.

و تبقى خارطة القسطنطينية التي وضعها القبطان الأفضل بين الخرائط التي شاهدتها كلها، لكن

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۱

المقياس الذي اعتمده صغير بحسب رأيي مما أظهر المدينة أكبر من حجمها الطبيعي. و قد تبدو الطريقة التي اعتمدتها لقياس المدينة غير دقيقة بالنسبة لعلماء الرياضيات لأني لم أستخدم إلا البوصلة و أقدامي.

و بما أنني قست الخطوط الأساسية كلها أي محيط المدينة و العديد من الشوارع في القسطنطينية و الضواحي و المدن المتاخمة، لا أظن أن الخطأ سيكون فادحا، و لعلّي أخطأت ببضعة أقدام و حسب، لكن هذا الخطأ ليس بحجم الخطأ الذي يمكن أن أرتكبه لو اكتفيت بتحديد مساحة المدينة استنادا إلى الزاوية المقاسة من خارج الأسوار. أظن أنه لا يمكن الطلب من المسافرين إلى بلاد الشرق قياس المدن بدقة أكبر من نتيجة القياس الذي يعتمد البوصلة و القدم، لأنه يصعب وضع خارطة للمدن دون إذن من القاضي.

و لن يبحث أحد عن كافة الشوارع في خارطة مدينة شرقية، لكن ينبغي أن تكتفي بمساحتها و موقعها و ساحاتها الكبرى، و هذا ما نجده في الخارطة التي وضعتها للقسطنطينية على اللوحة الثالثة، فضلا عن خرائط مدن الشرق الأخرى، و أعترف أن معظم الشوارع في خارطة القسطنطينية مسجلة اعتباطا و لملء الفراغ. و إليكم تفسيرا للأرقام المدوّنة على هذه اللوحة. ۱) باغجه قبو، ۲) بالف بازار قبو، ۳) زندان قبو، ۴) أودون قبو، ۵) أيازمه قبو، ۶) أون قباني، ۷) جبالي قبو، ۸) أيا قبو، ۹) يكي قبو، ۱۰) يذري قبو، ۱۱) فنر قبو، ۱۲) يالاد قبو، ۱۳) عيوان سداي قبو، ۱۴) أكري قبو، ۱۵) أدرنة قبو، ۱۶) طوب قبو، ۱۷) يكي قبو، ۱۸) سلوري قبو، ۱۹) يدى قله قبو، ۲۰) أدرنه قبو، ۲۱) ساماطيه قبو، ۲۲) داود باشا قبو، ۲۳) يكي قبو، ۲۴) قوم قبو، ۲۵) غاتلادي قبو، ۲۶) أخور قبو، ۲۷) بالوق خان قبو، ۲۸) داغرمان خان قبو، ۲۹) طوب قبو، ۳۰) يالي يوسف قبو، ۳۱) دمير قبو، ۳۲) سالوق جيسم قبو، ۳۳) بابا حمام قبو، ۳۴) دامو قبو، ۳۵) وليد يامع، ۳۶) مسرجرشي(۳۷ (Misrtscharschi) قصر الوزير أو الباب، ۳۸) مسجد آيا صوفيا، ۳۹) مسجد آيا صوفيا الصغير، ۴۰) السلطان أحمد الجمزي و الميدان، ۴۱) حظيرة للحيوانات المتوحشة، ۴۲) الترسانة، ۴۳) العمود المحروق، ۴۴) على باشا الجمزي(۴۵ ، (J masi) عثماني جمزي، ۴۶) السلطان بجزات جمزي، ۴۷) وزير خان، ۴۸) بزستان أو شوارع تجارية مقببة و محال تجارية، ۴۹) السراي القديم، ۵۰) سليماني جمزي، ۵۱) قصر آغا الإنكشاري، ۵۲) القناة، ۵۳) شاه زاد جمزي، ۵۴) السلطان سليم جمزي، ۵۵) كنيسة البطريركية للروم، ۵۶) فاتي جمزي، ۵۷) آثار قصر قسطنطين، ۵۸) أدرن قبو جمزي، ۵۹) السلطان محمد جمزي، ۶۰) الميدان أو حيّ الانكشاريين، ۶۱) حيّ آخر للانكشاريين، ۶۲) مستشفى المجانين، ۶۳) على باشا جمزي، ۶۴) داود باشا جمزي، ۶۵) الأبراج السبعة، ۶۶) دفتردار أسكاله سي، ۶۷) مسجد وب، ۶۸) الماء العذب، ۶۹) بانيو، مكان حجز العبيد، ۷۰) ميت أسكاله سي، ۷۱) مقر إقامة سفير الدانماركي، ۷۲) مقر إقامة سفير السويد، ۷۳) مقر إقامة سفير إنكلترا، ۷۴) مقر إقامة سفير بروسيا، ۷۵) مقر إقامة سفراء نابولي و روسيا و هولندا و البندقية و فرنسا و فينا، ۷۶) أج أغلان سروج، قصر يربى فيه عدد كبير من الخدم، ۷۷) خزان مياه لقناة السلطان محمود، ۷۸) كوجك قوله قيوسي و بيوك قوله

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۲

قيوسي، و نجد في غلطه عشرات أبواب أخرى و هي: طوب خانه قبو، كرج قبو، أكرى قبو، موم خانه قبو، قور بشونلي مخزن، قره كوي قبو، بالق بازار قبو، أسكي ياغ قبان، كور كجي قبو، أزاب قويسي ۷۹). منازل السلطان الريفية،L L إشارة إلى المقابر.

و يبلغ ارتفاع قطب سراي السلطان ۴۴۱؟، ۴۱؟، لأن ارتفاع قطب بيرا، بحسب دراساتي، يبلغ ۴۴۱؟، ۴۲؟. أما شكل مدينة القسطنطينية فمثلث، غير متساوي الأضلاع و غير مستو، و لا يتعدى حرم المدينة، وفقا لقياسي ۱۳۰۰۰ قدم مزدوج، علما أن معظم الرحلات تعتبره أكبر. و تحيط بالمدينة أسوار، لا تنفع للدفاع عنها، و يظن الأتراك أنهم محصنون بفضل الحصون الأربعة الصغيرة الواقعة على القناة من جهة الأرخبيل، و الأربعة الأخرى الواقعة على القناة من جهة البحر الأسود علما أنها حصون غير ذات أهمية. و نجد على طول المرفأ أو الخليج، خارج أسوار المدينة، و من ضاحية أيوب و حتى السراي طريقا واحدا، كما تطالعنا من حين إلى آخر منازل بنيت الواحدة وراء الأخرى، و بعضها في الماء جزئيا. و يتم ردم المرفأ يوميا في بعض الأحيان، لزيادة المساحة و بالتالي للبناء مما يجعل الأسوار غير مجدية للدفاع عن الشعب و المدينة. و في السنوات الأخيرة، قام الأتراك بردم مساحات شاسعة و بناء أحياء كبيرة قرب بعض الأبواب، انطلاقا من السراي و حتى الأبراج السبعة، لكن أسوار المدينة في معظم هذه الأمكنة لا زالت قريبة من البحر. و يحيط بالمدينة من جهة اليابسة بدءا من الأبراج السبعة و حتى ضاحية أيوب سور مزدوج و حفرة واسعة، و اكتفى السكان منذ زمن اليونان بتصليح السور، أما الحفرة فقد ردمت تقريبا. و أما القصر المسمى الأبراج السبعة فصغير و يصلح في حاله اليوم، كسجن، أكثر مما يصلح للذود عن المدينة. و يبقى مدخل المرفأ و المضيق الواقع من جهة البحر الأسود الأكثر تحصينا، فقد جهزا بالمدافع التي نصبت بجانب السراي قرب طوب خان و في كيس كلّسي،(lesiچKiss K) ، لكنها غير قادرة على الدفاع عن المدينة بشكل فعّال ضد أسطول، يهاجمها من الجهة الأخرى، بعد أن يجتاز الدردنيل. و يعتبر هذا الجزء من القسطنطينية الواقع من جهة المرفأ و البحر كثير السكان، و يعزز هذا الشعور باكتظاظ المدينة البيوت المتكئة على التلال التي تبدو و كأنها متلاصقة. أما من جهة اليابسة، بين أدرن قبو و الأبراج السبعة فنجد العديد من الحدائق الكبيرة داخل الأسوار. و تغطي سراي السلطان، و السراي القديم و هو مسكن ارامل السلاطين، فضلا عن المساجد الكبيرة و العديدة مساحة شاسعة، كما يعملون على بناء مساجد جديدة، لكن عدد السكان لن يتزايد مع تزايد عدد دور العبادة. و يؤكد البعض أن القسطنطينية اكتظت بالسكان في السنوات الأخيرة مما اضطر السلطان إلى إبعاد عدد من الناس إلى المقاطعات و الريف.

و تطل هذه المدينة على مناظر رائعة لا سيما من جهة البحر، و تتكىء القسطنطينية و المدن و القرى المجاورة على التلال حيث بنى على قمتها أجمل المساجد، و يفصل بين المنازل عدد من الحدائق المزروعة بالأشجار. لكن هذا المنظر الجميل لا يتفق و داخل المدن حيث الأزقة ضيقة و طريقة البناء سيئة و عشوائية،

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۴

و تبنى المنازل من الخشب الرقيق حتى ليظن المرء أن هيكلها أقفاص للطيور، أما الجدران فمن الآجر غير المشوي. و تبنى القصور و

الأبنية العامة من الحجارة و بشكل متين، لكن لا يظهر منها من جهة الشارع إلا الجدران الشاهقة، و للقصور و المنازل العادية مساوئها، فالمنازل المبنية من الآجر تدفن من فيها عند أقلّ هزّة أرضية، و القصور المضاءة بالمشاعل تحرق ساكنيها. و هذان النوعان من الحوادث شائعان في هذه المدينة. و يبقى مرفأ القسطنطينية أجمل مرفأ في العالم، و هو يمتد على مساحة شاسعة، و يمكن للمراكب أن ترسو في أي جهة منه و بأمان تام، كما يمكنها الاقتراب من الشاطىء و تحميل ما جاءت من أجله. إن موقع القسطنطينية بين البحر الأسود و الأرخبيل، فضلا عن الأعمال المزدهرة التي تجذب سكان الضواحي و المدن المجاورة تجعل من هذه المدينة محطة للسفن و المراكب، حتى أن البحر يبدو و كأنه مرصّع بها.

يقع سراي السلطان على مرتفع عند الطرف الشرقي للمدينة، عند مدخل المرفأ، أمام المضيق الممتد إلى البحر الأسود أي البوسفور، و هو بالتالي مطلّ على مناظر جميلة من كافة الجهات، كما نستنتج من الخارطة التي أوردتها هنا. و يفصله عن المدينة سور عال، يمكنه أن يدفع عن السلطان غضب رعاياه لكنه لا يحمي المدينة، لكن تحيط به من جهة المياه مجموعة من المدافع القادرة على الدفاع عن مدخل المرفأ و المضيق الممتد نحو البحر الأسود. و يمتد السراي على مساحة شاسعة و يضم الكثير من الجنائن، و تبدو الأبنية العامة كلها و كأنها مطلية بالرصاص. لم ألج سوى الفناء الخارجي للسراي، فلا يسمح بالدخول إلى حرمه، لم أر فيه ما يلفت الأنظار سوى بيت المال السيىء البنيان فضلا عن بعض الإسطبلات. نقرأ في بعض الأعمال التي وصفت القسطنطينية أن عبارة «الباب» أو «الباب العثماني» المستخدمة في أوروبا تأتي من مدخل هذا الفناء الخارجي لكن لست أدري عمّا استندوا في حكمهم هذا. يطلق الأتراك على الباب اسم قبو كما يطلقون الاسم نفسه على القصر، لكن يشار بهذا الاسم في القسطنطينية إلى قصر الوزير. و قيل لي إنه إذا ما أرادوا استخدام هذه الكلمة للدلالة على قصر السلطان، ينبغي أن يقال سلطان قبوسي، كما يقال آغا قبوسي للدلالة على قصر آغا الانكشاريين.

و يقصد مترجمو السفراء الأوروبيين يوميا تقريبا الباب أي قصر الوزير، لأنه محل إقامة مترجم السلطان كي يبقى قريبا من الوزير أو الريس أفندي إذا ما أراد محادثته أو التكلم مع مترجم أوروبي. و لعل الأوروبيين الذين سمعوا أولا بالباب أو بمحكمة الوزير، ظنوا أن المقصود هو بلاط السلطان، لذا أطلق اسم الباب العثماني على بلاط سلطان العثمانيين. و لست على اطلاع على اللغة التركية للادعاء بأنه من الخطأ الإشارة إلى بلاط السلطان باسم الباب، لكن لا أظن أن أصل الكلمة يعود إلى الباب الخارجي لبلاط السلطان.

إليكم أسماء المساجد الكبرى أو مساجد السلطان كما تسمى هناك: آيا صوفيا: حوّل الأتراك هذا

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۵

المعبد الذي بناه الأمبراطور جوستنيان إلى مسجد، و نجد في كتب عدة رسومات لهذا المسجد، و يمكن انطلاقا من هذه الرسوم تكوين فكرة واضحة عن شكل المساجد الأخرى التي سآتي على ذكرها، إذ يبدو أن هذا المسجد يشكل نموذجا لكافة المساجد التركية. مسجد السلطان أحمد وليد، و قد بنت هذا المسجد والدة السلطان. مسجد السلطان عثمان، السلطان بايزيد.(B jazet) ، السلطان سليمان، شاه زاد و قد بنى هذا المسجد في عهد السلطان سليمان، السلطان سليم، السلطان محمد، مسجد بناه محمد الثاني الذي فتح القسطنطينية، و قد دمره الزلزال كليا في عام ۱۷۶۶. أدرن قبو جمزي، مسجد بنته إحدى بنات السلطان سليمان و قد تضرر كثيرا من جرّاء الزلزال نفسه. و لا يمكن مقارنة أي من هذه المساجد مع آيا صوفيا من حيث البناء، لكن العديد منها يفوق الأخير من حيث المساحة. و تضفي هذه المساجد على المدينة جمالا، و قد بنيت على أعلى مرتفعاتها، و طليت قبيها و مناراتها المتعددة بالرصاص.

و تقوم هذه المساجد وسط ساحات عامة واسعة، محاطة بحائط أو بمساكن لأولئك الذين يهتمون بها و للفقراء، و تبنى المدارس قرب المساجد حيث توزع يوما الصدقة إما من الخبز و إما من المأكولات. و يتم دفن مشيدي المساجد فيها، حتى أننا قلّما نجد اليوم أضرحة رائعة للعائلات الكبرى في أية مدينة من العالم كما نجد في القسطنطينية. كما نرى في هذه المدينة العديد من المساجد التي بناها السلاطين و زخرفوها، لكنها ليست محط أنظار كتلك التي أتيت على ذكرها. نجد في مدينة أسكودار(Scudar) و حدها أربعة مساجد بنتها سيدات مسنات من العائلة الحاكمة، و بالرغم من أن السلاطين غير ملزمين ببناء مسجد إلّا حين ينتصرون على أعدائهم و يستولون على مساحات كبيرة من أرضهم كافية للإنفاق على المسجد و على الأشخاص الذين يخدمونه، بنى السلطان مصطفى، الحاكم اليوم، مسجدين، الأول في أسكودار على مرتفع يواجه السراي و بيرا و الثاني في القسطنطينية، و هو مسجد صغير. أما مسجد أيوب فأهمها لأن السلاطين الجدد يقلّدون فيه السيف عند وصولهم إلى العرش، و نجد في القسطنطينية العديد من مساجد الوزراء و الأغنياء الجميلة، فضلا عن كنائس الروم التي حوّلت إلى مساجد، و نجد مسجدا صغيرا في كل حيّ تقريبا. و تنتشر في المدينة الخانات أو الفنادق العامة، و البزستان أو الشوارع التجارية المقببة، فضلا عن الحمامات الرائعة مما يزيد من جمالها و يسهل الحياة فيها. كما نجد في المدينة منازل توزّع المياه مجانا، و يقع أحد هذه المنازل أمام الباب الخارجي للسراي، و قد بنى بذوق رفيع و هندسة رائعة، فهو مفتوح من كافة الجهات و طليت قضبانه الحديدية بالذهب، و نجد في داخله أناسا يحملون أوان من النحاس الذهبي مربوطة بسلاسل و مليئة بالماء.

إن هذه المدينة تتغذى بالمياه العذبة من ثلاثة خزانات كبيرة، يبعد الواحد منها عن الآخر ثلاثة أميال، و كل خزان منها هو صورة مصغّرة عن سدّ مأرب الشهير، لأن المياه المتدفقة من الجبال المجاورة و المتجمعة في الوادي يحجزها حائط متين، و يتم تصريفها تدريجيا. لكن كلفة بناء السدود أمام الخزانات لا تقارن مع الكلفة الباهظة لنقل المياه إلى قصور الحكّام، فالأرض غير مستوية، مما يتطلب جرّ المياه تارة عبر التلال

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۶

و طورا من حولها، و حيث توجد الوديان، تمّ بناء سدود عالية و متينة، لنقل المياه إلى خزانات أخرى كبيرة في القسطنطينية، و تتم صيانة هذه المنشآت على نفقة السلطان. و لعل البعض يعتقد أن الأتراك يدينون لليونان بهذه المنجزات الرائعة، لكن أكّدوا لي أن أحد الخزانات التي ذكرتها- الواقع إلى شمال قرية برغاس(Burg s) - قد بناه السلطان الحاكم حديثا، و أن خزان الماء قرب بانجه قوي و القناة الممتدة حتى القرى قرب البوسفور و حتى غلطه بنيا في عهد السلطان محمد. و الدليل الآخر على أن سلاطين الأتراك لا يهملون رعاياهم كليا، أمر السلطان مصطفى، الحاكم حاليا، ببناء ممرّات عند طرف السراي و من الحصن الأخير في الجهة الآسيوية و حتى البحر الأسود، كي يتمكن البحارة من سحب المراكب بسهولة، و لا سيما و أن التيار قويّ للغاية.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۷

و نعلم من الروايات التي وصلتنا بوجود مسلّة ضخمة و أفعى ثلاثية مشوّهة في الميدان قرب مسجد السلطان أحمد، كما وردت في الكتب الرسوم المنقوشة على قاعدة المسلة، فضلا عن الكتابات اليونانية الممحوة جزئيا لأنها مغطاة بالتراب. لكننا لا نجد نسخة عن الحروف الهيروغليفية، و لعل السبب يعود إلى أن أحدا لم يجرؤ على نقلها في ساحة عامة وسط المدينة و قرب السراي. و أعترف أني خلال إقامتي الأولى في القسطنطينية، لم أجرؤ على تفحص هذا النصب التاريخي، بسبب الأخبار التي سمعتها عن المسلمين، لكن في طريق العودة، نقلت الحروف الهيروغليفية المنقوشة على المسلة كلها (اللوحة الرابعة) من دون أن أخشى أكثر من ۱۵۰ تركيا تجمعوا حولي لمشاهدة عملي. و تكفي الإشارة في خارطة القسطنطينية إلى موقع الصرح الذي تحفظ فيه الحيوانات البرية، و إلى الميدان، و قصر قسطنطين، و العمود المحروق و ساحات أخرى استفاض الآخرون في وصفها. و نجد في القسطنطينية منازل فسيحة تحت الأرض أو أقبية تسندها أعمدة عدة يطلق عليها اسم «ألف عمود و عمود»، و يعيش الحانكون في هذه الأقبية التي تبدو و كأنها كانت فيما مضى خزانات مياه. و شاهدت في أحد الأقاليم ۳۲ عمودا من الرخام على الطراز الكورنثي، كما رأيت في إقليم آخر عددا من الأعمدة العالية غير المتناسقة أشكك في أن تكون من صنع مهندس معماري يوناني، أو من عمل الأتراك، و قد رسمتها على اللوحة الخامسة، أ. و نجد في جوارها بابا مسدودا، و يؤكد البعض أنه يمكن الانتقال منها إلى غاليولي عبر ممر تحت الأرض، و هذا ما أعتبره تضخيما لكل ما يتعلق بالعصور القديمة.

و يحيط بمدينة غلطه سور، لكن نرى فيها آثار حائطين قديمين و متينين، يقسمانها إلى ثلاثة أحياء أو إلى ثلاثة حصون خاصة. و تستند هذه المدينة إلى مرتفع و عر، قبالة القسطنطينية و هي مكتظة بالسكان، و يعيش فيها معظم التجار الأوروبيين و المسيحيين الشرقيين. و يقيم السفراء الأوروبيون في بيرا و هي ضاحية من ضواحي غلطه، و منهم سفير بلاط فرنسا و سفير بلاط إنكلترا، و سفير جمهورية الأقاليم المتحدة فضلا عن بايلو البندقية(Bailo) ، و سفراء الدانماركي، و السويد، و نابولي و بروسيا و القاصد الرسولي، و سفير روسيا المقيم. و لقد قدّم أول سفير بروسيا أوراق اعتماده إلى السلطان في العام ۱۷۶۱ قبيل وصولنا و يقيم مندوبو الجزائر و

تونس و طرابلس و راغوز(Raguse) فی القسطنطینیة و إنما لیس بشکل مستدیم، و لا یعتبرهم الأتراک سفراء أجانب شأنهم فی ذلک شأن مفوضی أمراء مولدافیا الیونانیین و والاشیا. و یرسو أسطول السلطان فی ترس خانه(Ters Ch na) (قرب الترسانة)، فی خط مستقیم قرب الشاطیء، و هو فی حالة مزریة بالرغم من أن المراکب مطلیة بشکل جمیل، و نجد فی طوب خانه، مبنی کبیرا تصنع فیه المدافع، یجاوره مسجد رائع. إن عدد السکان فی أیوب، و قاره أغاش، و غاسکوف، و قاسم باشا، و بیرا، و سان دیمتری، و طوب خانه، و فندقلی، و قبداش قلیل للغایة.

رحلة إلى شبه الجزیرة العربیة/ تعریب عبیر منذر، ج۱، ص: ۳۸

و یقع قسم من إسکودار فی واد، و قسم آخر یستند إلى تلال و القسم الثالث یعلوها، و تکثر فی هذه المدینة الحدائق، و نجد خارج أسوارها مداخن واسعة مزروعة بالسرو. و یقع قس قولی أو البرج علی صخرة صغیرة فی الماء، أما قاضی کوی(Kadi Koj) ، فیما بعد خلقدونیة، فلم تعد سوی قریة کبیرة، و أجمل ما فیها کنیستها الیونانیة، حیث عقد المجمع الدینی الشهیر.

و یملک السلطان العدید من المنازل الریفیة فی أیوب، و قره آغاش قرب الترسانة، و منزل السلطان محمود فی دلمه باغجه، و منزل السلطان مراد بین إسکودار و قاضی کوی، کما یملک العدید منها علی مضیق البحر الأسود. لکن السلطان الحالی قلما یزور هذه المنازل باستثناء منزل قره آغاش حیث المیاه عذبة، و لأنه منفرد و بالتالی کئیب مما یتلاءم و مزاج السلطان. و تتداعی المنازل الریفیة الأخری، حتی أن السلطان أمر بهدم بعض منها بغیة استخدام المواد لبناء المساجد و الحمامات.

و للروم فی القسطنطینیة ۲۳ کنیسة، أما الأرمن فلهم ثلاث، کما تملک هاتان الأمتان کنائس فی غلطة و الضواحی. و یقیم فی بیرا رجل دین برتبة مطران. و یقیم فی بیرا و غلطه رهبان من الروم الکاثولیک یتبعون ۶ رهبانیات مختلفة، لکل منها کنیستها التی تقع تحت حمایة أحد سفراء أوروبا، کما یملک کل من سفیر انکلترا و هولندا و السوید کنیسته الخاصة. و یملک الیهود العدید من المعابد فی القسطنطینیة و المدن و القری الأخری المذکورة أعلاه، و غالبیة یهود ترکیا من التلمودیین، لکن القَرائین(Karaites) یملکون معبدا فی غاسکوف، و یقال إنه یمنع علی أی طائفة أجنبیة، إسلامیة أو وثنیة، بناء معابد فیها، لکن العدید من الطوائف تجتمع هناک من دون أن تکترث الحکومة للأمر.

رحلة إلى شبه الجزیرة العربیة/ تعریب عبیر منذر، ج۱، ص: ۳۹

الرحلة من القسطنطینیة إلى الإسکندریة

ما إن تحسنت صحتی حتی أخذنا بالأهبة لمغادرة القسطنطینیة، قاصدین مصر، و کان بإمکاننا الحفاظ علی لباسنا الأوروبی فی الإسکندریة، لأن سکّان هذه المدینة اعتادوا رؤیة الإفرنج أی الأوروبیین. لکن لباسنا هذا و المغایر لبساطة لباس العرب یمکن أن یعرّضنا فی القاهرة و فی شبه الجزیرة لأسئلة مزعجة و لسخریة السکان، فضلا عن أنه سیشکل عبئا علینا فی غیاب المقاعد و وسائل الراحة الأخری التی نجدها فی أوروبا. و حصلنا فی القسطنطینیة علی ملابس طویلة کتلک التی یرتدیها الشرقیون. و اشترینا عدة للطبخ، و مؤنا ضروریة لرحلتنا المقبلة. و زوّدنا السید دی غابلر، الذی أحسن وفادتنا فی القسطنطینیة، بإذن مرور من السلطان، و رسائل توصیة، و نقود مصریة، و فی ۸ أیلول/ سبتمبر، أبحرنا علی متن سفینة من دلسینیو(Dulcigno) ، و هو مرفأ بحری علی الخلیج الأدریاتیکی، غیر بعید عن جمهوریة راغوس. و کنا نأمل بالانطلاق فی الیوم التالی، لکن الریاح المعاکسة أعاقتنا و أخّرتنا القبطان الذی لم تکتمل حمولة مرکبه. و غادرت السفینة المرفأ و ابتعدت عنه، لکن البضائع استمرت تصل إلیه حتی فی أثناء اللیل. و لم ننطلق بالفعل إلّا فی ۱۱ أیلول/ سبتمبر، لکن الریاح لم تسعفنا، فلم نصل إلی الدردنیل و لم نرس قرب قوم قلّة أی الحصن الواقع فی الجهة الآسیویة إلّا فی ۱۵ من الشهر نفسه. و یصعد علی متن السفن الآتیة من القسطنطینیة، رجال من الجمارک لمعرفة ما إذا کانت تحمل عبیدا فارین أو بضائع لم یبلّغ عنها لجمرک القسطنطینیة. و مرّ الیوم الثانی فی التفتیش مما سرّنی، لأننا لم نتوقف إلا لساعات قلیلة فی هذا المکان، فی طریقنا إلی القسطنطینیة، و کنت مریضا للغایة فلم أتمکن من النزول إلی الیابسة، فحملت عدّتی، و تمکنت من دراسة هذا المکان الشهیر.

و مساحة قصور الدردنیل لیست بالکبر الذی نتوقعه، فالقصر الواقع من جهة آسیا لا یتعدی کونه مربعا صغیرا من الأسوار السمیکة و المحاطة بالأبراج. أما المدافع التی تحمیه فضخمة للغایة، بید أنها نصبت علی الأرض مباشرة أو علی أخشاب غلیظة، و قد عاینت بعضها فتبین لی أنها لم تعمل منذ أمد بعید، وحشی بعضها الآخر بقذائف من حجارة مغطاة بالرمل و التراب. و مضیق الدردنیل ضیق فإذا ما قصفت المدافع من جهة وصلت القذائف إلی الجهة الأخری، و هو متعرج للغایة، فیصعب اجتیازه فی لیلة واحدة حتی و إن کانت الریاح مؤاتیة. و بوسع الأتراک تصویب مدافعهم علی تعرجات المضیق بکلفة متدنیة، و بالتالی لا یمکن لأسطول معاد أن یمرّ و یهاجم القسطنطینیة من جهة البحر، و إذا افترضنا أن جیوشا ساندت الأسطول برا و هدمت القصور و مدافع المضیق و أمّنت تراجعه، یخشی علی الأسطول الغرق عند

رحلة إلى شبه الجزیرة العربیة/ تعریب عبیر منذر، ج۱، ص: ۴۰

أدنی عاصفة إذ تکثر المواقع غیر المنخفضة القعر بین الدردنیل و القسطنطینیة. و إذا ما أرادت القوی المسیحیة إسقاط عاصمة الأمبراطوریة العثمانیة من جهة البحر، ینبغی أن تفرض علیها حصارا و تمنع عنها المؤن التی تصلها من ما وراء البحر الأسود أو الأرخیل، فإذا ما شحّت بعض المواد الضروریة و ارتفعت الأسعار قد یستسلم الأتراک. و تبقی خرائط السید دی أنفیل التی تحمل عنوان: شواطیء الیونان و الأرخیل أفضل الخرائط التی وصلتنا عن تلک البلاد. و تقع قتیم قاله علی خط عرض ۴۴۰، ۹۸۰.

ثم أبحرنا مجددا فی ۱۷ أیلول/ سبتمبر، و فی الثامن عشر من الشهر نفسه مررنا أمام القصرین الواقعین عند مدخل المضیق، و قیل لی إن اسمهما القصر القدیم و القصر الجدید، و یبعدان عن الدردنیل حوالی ۳۶ میلا- وفقا للقیاس الترکی. و صادفنا قرب) سفینتین حربیتین ترکیتین کانتا تنقل هذا السفیر إلی القسطنطینیة، إذ اتفق السلطان و جمهوریة البندقیة، علی أن Tenedos

لا تتجاوز أیة سفینة حربیة مضیق الدردنیل و أن ینقل السفیر الذی یتغیر کل ثلاث سنوات إلی تندوس و منها إلی القسطنطینیة علی متن سفن ترکیة، و ذلک إثر خلاف حول بعض السفن من البندقیة فی مرفأ القسطنطینیة.

فی ۱۹ أیلول/ سبتمبر ظهرا، تبین لی أن جزیرة ساموس(Samos) تقع علی خط عرض ۴۳۷، ۴۴۶، و جزیرة فورنا(Furna) علی خط عرض ۴۳۷ ، ۴۴۲، و جزیرة أیکاریا(Icaria) علی خط عرض ۴۳۷، ۴۴۴. و فی ۲۰ أیلول/ سبتمبر، مررنا أمام جزیرة ستنشیو(Stanchio) ، و أراد قبطان السفینة التزود بالمیاه العذبة، لکننا لم نتوقف لأننا ننقل علی متن سفینتنا قبطانا ینبغی أن یتسلم قیادة سفینة حربیة فی رودس، و لأن الریاح مواتیة للغایة. و فی ۲۱ أیلول/ سبتمبر، رسونا فی مرفأ مدینة رودوس، و التقینا الکابتن باشا أو قائد أسطول السلطان، مع بعض السفن البحریة، فحییناه بثلاث طلقات مدفع و ردّ بطلقة واحدة.

و لا تحب أیة مدینة فی الشرق تلقی زیارة أسطول السلطان، لأنه ینبغی تقدیم هدایا قیمة لقائده، و لعدم انضباط البحارة. و لقد نزلت و السید فورسکال و السید بورفیندر إلی الیابسة ما إن وصلنا إلی رودوس و ذلک بغیة التحدث إلی قنصل فرنسا، لکن منزله کان مقفلا لتجنب سوء تصرف البحارة، و ما سمحوا لنا بالدخول لأننا ترتدی الثیاب الترکیة لو لم نلتق مصادفة براهب کیوشی ردّنا من حیث جئنا. و أرسل القنصل معنا مرافقا للتجوال فی المدینة، لکننا سمعنا الکثیر من الأخبار السیئة حول الأتراک فتجنبنا کثرة التجوال.

لاحظنا أن منازل هذه المدینة مبنیة بشکل متین، و فی الشارع المسمی شارع الفرسان، رأینا البعض یرتدی درعا، أما قصر السید الأکبر فمهدّم تقریبا. و بما أن الأتراک لا زالوا یذکرون کلفة الاستیلاء علی هذه المدینة، و یعتبرونها صعبة المنال، بالرغم من أنهم ترکوا التحصینات فی الحالة نفسها التی أضحت علیها حین استولوا علی المدینة، و ترکوها فیما بعد لتصبح أنقاضا. لکن تبقی رودوس أمنع قلاع الامبراطوریة العثمانیة، و کان التمثال الشهیر المخصص للشمس یقوم قرب هذه المدینة فیما مضی، لکن یصعب تحدید موقعه حالیا، و یقوم عند مدخل المرفأ برج من کل جهة، و یعتقد أن هذین البرجین قاعدة لقدمی التمثال، لکن یبعد الواحد عن الآخر حوالی ۴۰۰ إلی ۵۰۰ قدم، و هی مسافة کبیرة تجعل الأمر غیر قابل للتصدیق.

رحلة إلى شبه الجزیرة العربیة/ تعریب عبیر منذر، ج۱، ص: ۴۱

و قررنا للمرة الأولی أن نأکل فی مقهی ترکی، کان الطعام شهیا إنما مکلفا، أکلنا علی منصدة واسعة من الخشب، فی الشارع، من دون سکین أو شوکة و فی طبق من الآجر السیئ، ثم انتقلنا لزیارة یهودی، یزوّد الأوروبیین بالنبیذ. کانت عنده فتاتان، یدّعی أنهما ابنتاه، و هما تتکلمان الإیطالیة، و قد قدمتا لنا أکیاسا صغیرة صنعتاهما بنفسهما، وفاقت کلفة هذه الزیارة الیهودیة کلفة الغداء الترکی.

لا زال العدید من الیونان یعیشون علی الجزیرة، لکن لا یحق لهم البقاء فی مدینة رودوس(Rhodus) . فی الیوم التالی، رافق السید

دى هافن و السيد كرامر بعض اليونانيين الذين أرادوا زيارة المطران المقيم فى قرية قرب المدينة، و ما إن وصلوا، حتى لحق بهم بعض الموسيقيين الأتراك، لكن المطران لم يكن يهتم بموسيقاهم، فرفضوا المغادرة من دون أن يكسبوا بعض المال. و قام خلاف بينهم، و قبل أن يغادروا، استبدل أحد الموسيقيين حذاء السيد دى هافن الجديد بحذائه القديم. و لو عدنا إلى أوروبا مباشرة بعد ذلك، لما شكرنا بهذه العادة- عند الشرقيين- التى تقضى بنزع الحذاء قبل دخول المنزل. لكن أمرا مماثلا لم يحصل لأى من رفاقنا فيما بعد، فلم نعد ننظر إلى هذه الحادثة كأمر كبير.

و أراد قبطان سفينتنا الإبحار فى ۲۲ أيلول/ سبتمبر صباحا، مما منعنى من تحديد ارتفاع بعض النجوم ليلا، أما على متن السفينة فيقتصر أفقنا على الهاجرة، لأن جزيرة رودوس تقع إلى الجنوب و اليابسة قريبة منا نحو الشمال. لكن بما أننا لم نبحر إلّا قرابة الظهر، استخدمت الثمنية لتحديد ارتفاع الشمس فى أوقات مختلفة، كما سجّلت الوقت بين ارتفاع و آخر استنادا إلى ساعتى التى تعمل بالثوانى، و تبين لى أن سفينتنا قرب رودوس كانت على خط عرض ۳۶، ۴۲۶.

و لم نبتعد طوال الرحلة عن شواطىء القارة أو الجزر منذ القسطنطينية و حتى رودوس، لذا لم أجد داعيا لتسجيل ملاحظات حول الطريق الذى اتخذته السفينة. و عند ما لم أعد أرى اليابسة بين هذه الجزيرة و مصر، ظننت أن قائد السفينة سيستخدم الثمنية، لكن تبين لى أن الأتراك لا يستخدمون هذه الوسائل.

و لقد كان المركب مزودا بخرائط بحرية جيدة، و رمال، و مسراع، و بوصلة عادية فضلا عن بركار سمتى، لكنهم لم يستخدموا المعدات التى أخذوها عن قبطان أوروبى منذ سنوات.

و لعل قبطان سفينتنا سرق هذه المعدات كلها، لأن الأتراك متهمون بأنهم يدعون كونهم جزائريين أو تونسيين أو طرابلسيين فيستولون على سفن الأمم الأوروبية العاقدة معاهدات سلام مع الأتراك، و حين لا يتجرؤون على سرقة السفينة بأكملها، يعملون على سلب الخرائط، و البوصلات و بعض المؤن، و قد تحدّثت فى الإسكندرية إلى قبطان تعرّض لعملية سطو كهذه. و كان قبطان سفينتنا يخشى أن يقع فى المصيدة نفسها على هذه الطريق، لأن الشائعات تسرى أن مالطيين أو بالأحرى قراصنة، يحملون جوازات مرور و يرفعون علم بعض الأمراء الإيطاليين، يجولون شواطىء مصر و سوريا. و لقد كان مركبنا مثقلا بالحمولة، و لم تكن المدافع الموجودة على متنه لتنفعنا لأنها مربوطة جزئيا بحبال، و سلك القبطان الطريق مباشرة من رودوس نحو الإسكندرية، و كان الهواء مواتيا، و إلّا لما وصلنا إلى المرفأ دون التعرض

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ۱، ص: ۴۲

لمخاطر عدة، لأن شواطىء مصر منخفضة للغاية مما يجعلها خطرة جدا بالنسبة إلى المراكب القادمة.

و اعتدت قياس ارتفاع الشمس كل يوم عند الظهر، و كنت أدلّ القبطان على مكان وجودنا على الخارطة و أحدد له كم نبعد عن الإسكندرية، مما أسعده، فطلب من أمين سره أن يراقب هو أيضا الشمس ليحدد المسافة التى تفصلنا عن المدينة، لكن حين رأى هذا الأخير أن هذه الدراسة تتطلب جهدا كبيرا و الكثير من الحسابات لتحديد ارتفاع القطب فضّل الاكتفاء بالوسائل القديمة.

يتكلم كل من القبطان و أمين سره و البحارة القليل من الإيطالية، و قد زار أمين سرّه البندقية و مرافىء أخرى فى إيطاليا حتى أنه وصل إلى فينا. و روى له الكاثوليك أخبارا عن غيرهم من المسيحيين أغرب مما يرويه السنّة عن غيرهم من المسلمين. و سألته يوما، إن كان هناك و ثنيون فى البلاد الواقعة تحت حكم السلطان فأجابنى بوجود الكثيرين منهم فى ألمانيا و هنغاريا، و يطلق عليهم هناك اسم اللوثريين، و ليس لديهم أدنى فكرة عن الله و أنبيائه، الخ. و أظهر، خلال النقاشات حول الدين، أنه مسلم حقيقى، و حاول أحد العلماء فى بعثتنا إقناعه بحقيقة الدين المسيحى، فغادر قائلا إن من يؤمن بغير الله هو ثور و حمار. و هكذا أعلمنا الرجل بضرورة ترك كل شخص لإيمانه، و لاعتقاده بأن ديانته هى الأفضل طالما لا يشكك هو بالأمر، لكن حين راجعت لا حقا بعض المسلمين حول مبادىء دينهم، أطلعتهم بعض الشىء على الديانة المسيحية، من دون أن أشير إلى أنها أفضل من مبادىء القرآن، و لم يغضب بالتالى أحد منهم.

و كان أمين السر يقوم بمهام الإمام على متن السفينة، فبعد أن يتحضر المسلمون للصلاة، أى بعد الاغتسال وفقا لأصول معينة، يبسط الإمام أمام الآخرين سجادته على أن يستقبل مكة. يصطف الآخرون جنبا إلى جنب، وراء الإمام، كى يتمكنوا من رؤية حركاته، و يوجهوا وجوههم شطر مكة. و عند بدء الصلاة، يضع الإمام إبهاميه وراء أذنيه، للإشارة إلى أنه يتعالى عن الأمور الدنيوية و يحصر فكره بالله وحده، و يقلّده كل من يصلى وراءه. كما يقلدونه حين يركع و يسجد، و يرددون وراءه كلمة الله أكبر حين يقولها. و باختصار، يقلّد المسلمون فى أثناء الصلاة من يؤمّهم، و بما أننى، لم أكن أعرف هذه الأئمة عن كثب، خشيت أن أثير استياءهم إن حضرت صلاتهم. لكنهم لا يخجلون من تواضعهم أثناء الصلاة و لا من الشعائر التى يتبعونها عند ذكر الله، و لهذا السبب، لا ينشغلون عن صلاتهم بوجود أجانب يتبعون ديانة مختلفة عن ديانتهم. و كنت مرة فى منزل حاكم السويس، و عند وصول الإمام، و فيما أخذ الحضور فى التحضر للصلاة، أردت المغادرة، لكن الحاكم نفسه أشار بإمكانية البقاء. و يبقى الشعب هو الوحيد الذى لا يحتمل وجود مسيحى فى المسجد و لا- سيما فى أوقات الصلاة. و نرى الكثير من المسلمين الذين يصلّون فى منازلهم، فلا يتوجهون دائما إلى المساجد أو إلى أماكن التجمع حيث يكون الإمام، إنما يصلّون فى مكان تواجدهم ساعة الصلاة و إن كانوا فى الشارع. و هكذا يصلى كل منهم على متن السفينة حين يتسنى له ذلك أثناء النهار. و كانت صلاة المساء تتم جماعة، بعد مغيب الشمس مباشرة، و يختمونها قائلين: «اللهم اجعل رحلتنا سعيدة!».

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ۱، ص: ۴۳

حجزنا لأنفسنا حجرة القبطان، مع حجرة أخرى طويلة وضيقة تجتاز السفينة، مما يسمح لنا بالابتعاد كليا عن الأتراك حين نملّ رفقتهم. و تقع فوق حجرتنا، حجرة أخرى مخصصة للنساء من القيان المميزات أى اللواتى يرين كنساء كريمات النسب فى تركيا. كان لقائد السفينة و البحارة حجراتهم تحت حجرة القبطان التى نقيم فيها و أمام تلك التى تقيم فيها النساء. و يبقى التجّار و الركاب الآخرون أيضا بأكملها، على سطح المركب. و تجلس القيان فى زاوية تحت سطح السفينة، أما الرجال فيحاولون إيجاد أماكن لهم من دون إزعاج الآخرين، و تتم معاملتهن بشكل جيد، لأنهن أعددن للبيع فى مصر، لذا يحاول صاحبهن الوصول بهن إلى مصر معافين. كنت و السيد فورسكال نجلس غالبا بين متاعنا للقراءة أو للكتابة، و فى يوم ما، سمعنا فوقنا صوت بعض النساء، و لم تمالك أنفسنا من النظر عبر النافذة لاكتشاف المزيد، و بما أن القيان لم يعتدن هذه الحشرية، و حين اكتشفن أننا أجانب (لأننا لم نعتد اعتمار العمامة فى غرفتنا كما يفعل الشرقيون) أخذن بالصراخ، و بإطلاق الشتائم. لكن ذلك لم يخفنا، حين رأينا إحداهن تحاول تهدئة الأخريات، و اعتدن تدريجيا على رؤيتنا. و عرضنا عليهن أنواعا عديدة من الفواكه و السكاكر المصنّعة فى أوروبا، فكنّ ينزلن محارمهن من النافذة كى نضع فيها ما استطيع، و قدمّن لنا بدورهن بعض الهدايا البسيطة. و لم نكن نتكلم التركية و لم يكنّ يتكلمن أية لغة أوروبية فاكتفينا بالإشارات، و رددت لى أجملهن بعض الكلمات، فسألنا أمين سرّ السفينة عن معنى بعض الكلمات التركية، لنفهم ما قالته، فعلمنا أنها أشارت إلينا بضرورة توخى الحذر و بعدم الظهور إلا فى أوقات الصلاة، و حتى فى وقت كهذا قد نتعرض لمفاجأة. أخيرا، اعتدن إعلامنا عند ما يكنّ وحيدات بالضرب على نوافذهن، و هكذا تسليت و السيد فورسكال مرارا، لكن لا أنصح أحدا بأن يحاول التعرّف على القيان التركيات و إن كان بهدف التسلية مثل ما فعلناه. و لم يكن من السهل أن يرانا ركاب السفينة و طاقمها لأن نوافذها من جهة الكوثل، و لو اكتشف أمرنا، لأوقعتنا حشريتنا فى مأزق.

فى ۲۵ أيلول/ سبتمبر ظهرا، و بعد أن قست ارتفاع القطب، علمت أننا لا زلنا بعيدين عن الشواطىء المصرية، لكن قائد السفينة اعتقد أننا اقتربنا، فأمر بإنزال الأشرعة فى الليلة التالية. و لم نر اليابسة إلا فى السادس و العشرين ظهرا، و كنا إلى الشرق فيما الرياح تتحول نحو الغرب فلم نصل ميناء الإسكندرية إلا فى المساء و بعد جهد جهيد. و للمدينة مرفآن، أحدهما يسمى القديم و هو الأكبر و الأعمق و الآمن، فرسونا فيه، فيما تضطر السفن الأوروبية إلى الرسو فى المرفأ الشرقى السيىء. و لم نغادر السفينة إلّا فى اليوم التالى، بينما نزل معظم الركاب الآخرين فور رسونا، أمّا النساء العبيد، فتمّ نقلهن ليلا و بسريّة تامة. و توفى ستة إلى ثمانية أشخاص من ركاب السفينة أثناء هذه الرحلة القصيرة و من بينهم ملّاح اعتاد التردد علينا فى الأيام الأولى، و يعتقد أن الطاعون قضى عليهم، لكن لعل أسبابا أخرى عجّلت بموتهم. و لم تصب بعثتنا، بفضل الرب، بأى مرض معد بالرغم من أن طبيبنا عاد العديد من المرضى.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ۱، ص: ۴۴

ملاحظات من الإسكندرية

تقع مدينة الإسكندرية أو سكندرية كما يسميها العرب و الأتراك على لسان أرض، بين شبه الجزيرة و أسوار المدينة القديمة و بين المرفأين، على خط العرض ۳۱، ۲۱؟؟؟. أما الأرض التي بنيت عليها المدينة فمنخفضة حتى ليقال إن القسم الأكبر منها غمرته المياه فيما مضى، و تضفي المساجد، و أبراج المعابد، و بعض الصروح الكبيرة، و بقايا أسوار المدينة القديمة، و عمود بومبي(Pompe ?e) ، و مسلّة كليوباترا، و أشجار النخيل حلّة جميلة على المدينة، كما يراها القادم من أوروبا. و لقد أشرت سابقا إلى أن المرفأ القديم واسع و عميق و آمن، على عكس المرفأ الجديد حيث ترسو السفن القادمة من أوروبا، فهو غير سالك تقريبا، و يزداد سوءا يوما بعد يوم. أما قاعه فمليء بالحجارة، حتى أن البحارة يضطرون إلى ربط العارضات و العوامات بالمرساة لإبقائها ممدودة و لمنع احتكاكها بالحجارة. و نجد في المحيط بقايا أسوار قديمة، و أعمدة مكسورة و حجارة ضخمة، لكن هذه الأمكنة الرائعة و غيرها التي ذكرها الكتّاب القدامى، تغيرت للغاية فلم أتمكن من التعرّف إلّا على القليل القليل من الأشياء استنادا إلى وصف هؤلاء الكتّاب، مما يجبرني على ردّ الذين يتوقعون الحصول على تفاصيل حول هذا الموضوع إلى كتب أخرى و لا سيما كتاب بوكوك(Pocok) الذي درس الآثار بحرص و انتباه.

و تقع أمام الإسكندرية الحديثة و مرفأيها شبه جزيرة كبيرة، يطلق حاليا على الجزء الغربي منها و الواقع أمام المرفأ القديم اسم رأس التين. و لم أقع فيها على أثر يستحق الذكر سوى قلعة صغيرة، هي مسكن متداع، و ملّاحة و الكثير من أشجار التين، و منها نال هذا الجزء من الجزيرة اسمه. و نجد في الطرف الشرقي لشبه الجزيرة حصنا يرابط فيه ۵۰۰ انكشاري، و يقع هذا الحصن على صخرة صغيرة، و يشغل على الأرجح حاليا مكان القناة القديمة الشهيرة. و يمتد سدّ يبلغ طوله حوالي مئة قدم من هذا الحصن حتى مدينة الإسكندرية الجديدة، و بما أن الأمواج ترتطم بهذا السد بعنف عند هبوب الرياح الشمالية، تمّ بناء جسور كي تصب المياه في المرفأ. و نجد قبالة هذا الحصن، و عند مدخل المرفأ حصنا آخر صغيرا قائما على صخرة، و يمكن العبور إلى اليابسة من فوق سور يبلغ طوله ۱۵۰۰ إلى ۱۶۰۰ قدم، و تمّ فتح ثغرات فيه كي تنسكب المياه فلا تهدمه.

و لقد بحثنا عبثا عن دلائل على مساحة مدينة الإسكندرية كما كانت حين أسست. لأن الأسوار الحالية للمدينة القديمة بناها العرب، و يتجلى ذلك في الكتابات العربية المنقوشة عليها، و في هندستها، و في أبراجها المزوّدة بأعمدة رخامية. إن مساحة حرم الأسوار القديمة، كما هي عليه اليوم، أصغر من المساحة

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ۱، ص: ۴۵

التي نسبها المؤرخون للإسكندرية الكبرى، لكن هذه الأسوار التي بناها العرب عظيمة و عالية و طويلة.

و وجدت أن ارتفاعها يبلغ ۴۳ قدما، إلى ۵۰ قدما، بما في ذلك الحاجز أي قرب باب الرشيد، لكن هذه الأسوار مهدمة في مواقع عدة، و تتم الحراسة في بعض الأبراج كما أشار نوردن و بوكوك و غيرهما .

و لم تهجر الإسكندرية فجأة، إنما تراجعت تدريجيا، مع تراجع عدد السكان و افتقارهم. و لم يتركوا من القصور القديمة الرائعة إلّا ما لم يكن بالإمكان نقله أو استخدامه في أبنية جديدة، كما تمّ نبش أساسات الأسوار، لذا نرى الكثير من الآثار القديمة، و بما أن الإسكندرية الجديدة تفتقر للمياه العذبة باستثناء تلك التي تجمع من النيل و الأمطار، يضطر السكان إلى الاهتمام بعدد كبير من الخزانات تكفي مياهها لحاجتهم السنوية، و لهذا السبب، يعملون على منع انسداد القنوات التي تحمل مياه النيل إلى الخزانات. و بالرغم من أن القناة الممتدة من النيل و التي تجرى قرب أسوار المدينة غير قابلة للملاحة منذ سنوات، يقومون بتنظيفها سنويا و فتحها، بعد أن يرتفع منسوب النيل إلى حدّ معين. و تمّ جرّ المياه من الجهة الشرقية للمدينة عبر قناة صغيرة تحت الأرض لتصب في الخزانات و حين تمتلىء هذه الخزانات، تجرّ المياه الزائدة في قناة صغيرة عبر أسوار المدينة القديمة لتصبّ في المرفأ القديم.

أما أفضل أثر من الآثار القديمة الموجودة داخل حرم المدينة و الذي لم يتمكن المسلمون من نقله هو مسلّة كيلوباترا، و هي من الغرانيت الصلب الأحمر اللون، مكونة من قطعة واحدة ككل المسلات التي اكتشفت قرب قصور و معابد المصريين القدامى. و قد غاص قسم من المسلّة في الأرض، لكن بقي منه ۶۱ قدما، و ۱۱ بوصة من حيث الارتفاع، و ۷ أقدام و ۳ بوصات من حيث العرض . و يبلغ عمق بعض الكتابات الفرعونية المنقوشة على المسلّة بوصة واحدة، و يبدو من ذلك، أن المصريين القدامى سعوا لتخليد كتاباتهم، لكن خلفاءهم لم يتمكنوا من قراءتها، و قد رسم السيد نوردن هذه المسلّة بشكل جيد. و نجد مسلّة أخرى قرب الأولى، و يبلغ عرض كل جهة منها ۶ أقدام و ۳ بوصات، و هي غير منتصبة بل مكسورة و مغطاة جزئيا بالتراب.

و لم يبق من معابد الإسكندرية القديمة الرائعة ما يستحق الاهتمام سوى كنيسة سان الباناز(St .Albanase) ، و هي كنيسة واسعة للغاية، و يدّعي البعض أنها مزينة بعدد كبير من الأعمدة الجميلة، و أنها تضمّ مجموعة غنية من الكتب اليونانية. لكن تمّ تحويل هذه الكنيسة الجميلة، منذ زمن، إلى مسجد، لذا يمنع دخولها على المسيحيين. و نلاحظ قرب الكنيسة على بعض الأعمدة الغرانيت الحمراء، و بقايا قصر واسع.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ۱، ص: ۴۶

و لا تتميز كنيسة القديسة كاثرين التابعة للروم، بكبرها أو بروعة هندستها، إنما بحجر الرخام الأبيض المرقّط بالأحمر الذي بنيت منه، و يدّعي الرهبان الروم أن رأس القديسة كاثرين قطع على هذا الحجر، و هنا تكمن أهميته، و ما النقاط الحمر إلّا دليل على ذلك. و تقع كنيسة القديس مرقس الإنجيلي، التابعة للأقباط على مقربة من الأولى، و يعرض فيه قبر هذا القديس الذي لم يعد يفتحه الأقباط، لأنهم يقولون إن رجالا من البندقية استولوا على رأس الإنجيلي، فيما يؤكد الروم الكاثوليك أنهم تمكنوا من تخليص الجثة بأكملها من سجن الملحدين و أن الأقباط يسيئون إليهم حين يدّعون أن رجال الدين من الروم لم يأخذوا إلّا رأس القديس، و يتذكرون التدابير الحذرة التي اتخذها إخوانهم للنجاح في هذه المهمة. يقال إنهم قطّعوا الجثة و لفوها، و أوهموا الجميع أنها لحم خنزير كي لا يكتشف المسلمون و اليهود عند الجمارك هذا الكنز العظيم فيستردّوه من جديد. و يصعب إرسال الجثث من الإسكندرية إلى البلاد المسيحية، و قد منع الأتراك نقل المومياء لأنهم يعتبرون ذلك حشرية لا طائل تحتها هي التي تدفع الأوروبيين إلى نقل هذه الجثث القديمة من مكان دفنها، لكن، بما أن اليهود يسيطرون حاليا على الجمارك في الإسكندرية أصبح نقل الجثث إلى خارج مصر أسهل من إرسالها إلى أوروبا على متن المراكب الإيطالية. و قد وصلت صناديق عدة، تحمل مومياءات إلى متن المركب بأمان، لكن البحارة أرادوا مغادرة المراكب إن لم يعد القبطان جثث الكفرة هؤلاء، لذا اضطر السيد ماريون المكلّف بإيصال المومياء إلى أوروبا إعادتها، كما اضطر القبطان الإيطالي الآخر الذي نقلها إلى إخفاء أمرها و حقيقتها عن بحارته. و يعرض في كنيسة القديس مرقس كرسي، يقال إنه صنع تماما كالكرسي الذي جلس عليه الإنجيلي و هو يعظ و يبشر، و تجدر الإشارة إلى أن بعض البروتستانت دفنوا في هذه الكنيسة. و نجد ضمن حرم أسوار الإسكندرية التي بناها العرب ديرا لرهبان الفرنسيسكان و بعض منازل العرب المتداعية فضلا عما ذكرته عن المسجد الكبير و الكنيستين، أما باقي المدينة فموحش.

كان عمود بومبي جزءا لا يتجزأ من المدينة في زمن اليونان، لكنه حاليا خارج الأسوار و على بعد ربع ساعة من مدينة الإسكندرية التي بناها العرب، و قد أحسن نوردن رسم هذا العمود. و بما أن الجميع غير متفق حول ارتفاع هذا الصرح، عمدت إلى قياسه بنفسي و وجدت أن طوله (من دون الأساسات) يبلغ ۸۸ قدما و ۱۰ بوصات . إذا، و استنادا إلى رأيي الخاص، لا يبلغ هذا العمود الارتفاع الذي يدعيه المسافرون الآخرون، لكن هذا لا يمنع اعتباره قطعة رائعة من العصور القديمة لأنه مصنوع كليا من

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ۱، ص: ۴۸

الغرانيت الأحمر، و قسم هذا العمود إلى ثلاثة أقسام، كل منها ضخم للغاية؛ لم أستطع تمييز إلا القليل من الكتابات المحفورة على الجهة الجنوبية الغربية من العمود، و لقد حاول السيد دى هافن جاهدا، اكتشاف المزيد، لكنه لم يتمكن من معرفة القدر الذي يدّعي الآخرون اكتشافه قبلنا. و يبدو أن المهندس المعمارى اليونانى لم يشأ تخليد اسمه بهذه الكتابات أو أنه لم يكن يعرف طبيعة الحجر كما عرفها المصريون القدامى، لأن اليونان لو حفروا هذه الكتابات على العمق نفسه الذي حفر فيه المصريون الحروف الهيروغليفية على المسلّات لأمكن قراءتها. و نلاحظ أن قدماء المصريين اعتادوا الكتابة على جهات المسلّات الأربع، أما اليونان فقد كتبوا على الجهة الوحيدة من العمود التي عانت الأكثر من عوامل الزمن. و كانت أساسات العمود قد تعرّضت للكثير من الأضرار، عند وصول نوردن، و قد عمل تشربتشى على إصلاحها، لكن لا يمكننا أن نستنتج أن العمود الكبير قائم على عمود آخر أصغر حجما كما يؤكد بعض المسافرين. و هذا دليل على أن المسلمين لا يعملون جميعا على إلحاق الضرر بالأثريات، و تجدر الإشارة إلى أن العديد منهم يحاول الاستفادة من هذه الآثار، و لا يختلفون في ذلك عن الأوروبيين. و لنفترض أن رجلا فقيرا وجد في حديقة منزله عمودا أثريا جميلا، إذن لآثر جعله رحى يستفيد منه. و توازي زوايا مسلّة كليوباترا الأربع أركان العالم الأربعة، لكن زوايا قاعدة عمود بومبي

تنحرف حوالى ١٢ درجة، إذا، يحتمل أنهم اعتمدوا على موقع الصروح المحيطة ببناء هذا العمود و ليس على موقع الهاجرة كما حصل عند بناء الأهرام.

و لقد لاحظت خلال إقامتنا في الإسكندرية، أن العرب يتسكعون حول المدينة و بين الآثار، و لم أشأ التعرض للسلب عند وضع خارطة للمدينة، و لا سيما و أننا نملك واحدة ممتازة و هي تلك التي وصفها السيد نوردن. و بما أنني أستطيع رؤية جزء كبير من أسوار المدينة القديمة من على المرتفع الذي يقوم عليه عمود بومبي، قمت بقياس بعض الزوايا من هذا المكان، على أمل أن أسجل قياسات أخرى من أماكن مختلفة. و دفعت الحشرية أحد التجار الأتراك الحاضرين للنظر عبر المنظار الذي وجهته نحو المدينة، فتخوّف من رؤية برج مقلوب، و شاعت الأخبار أني جئت المدينة لأقلبها رأسا على عقب، و وصلت الشائعة إلى أذني الحاكم. و رفض الانكشارى المخصص لحراستي مرافقتي و أنا أحمل معي معداتي، و بما أني كنت أعتقد أنه لا يسمح لأوروبي الخروج في المدينة دون أن يرافقه انكشاري، لم أكمل عملياتي الحسابية. و في وقت لاحق، رأى عربي في رشيد مركبا مقلوبا عبر منظاري فكاد يرميه في الأرض، مما دفعني إلى توخي الحذر في أعماقي، و اضطررت إلى ذلك طالما لم أتمكن من التحدث معهم لجهلي لغتهم. و حضر فلاح شريف ورزين الدراسات الفلكية التي قمت بها على الطرف الجنوبي للدلتا، و لكي يرى أمرا مثيرا، أدرت المنظار ناحية القرية، فهلع عند رؤيته المنازل المقلوبة، و سأل خادمي عن السبب فأجابه أن الحكومة مستاءة من سكّان القرية فأرسلتني لأدمرها، فأصيب الرجل بالجزع و طلب مني الانتظار كي يضع زوجته و أولاده و بقرته في مكان آمن، و أكّد له خادمي أن أمامه ساعتين فأسرع عائدا

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج١، ص: ۴۹

إلى منزله، و أفلت عائدا إلى الباخرة ما إن اجتازت الشمس الهاجرة. و لا ينبغي أن يفاجأ المرء من ردة فعل المسلمين إزاء أمور كهذه، إذا ما فكّر في أن الأوروبيين، منذ وقت غير بعيد، كانوا يعتبرون أي شيء لا يفهمونه سحرا.

كان يتمّ دفن الموتى فيما مضى غرب الإسكندرية، و نجد حاليا الكثير من المدافن هناك. أما نوعية التربة فكنوعية التربة في مالطا، كلسية و لزجة مغطاة بطبقة خفيفة من التراب و الرمل، لذا يتبين لنا عند التجوال على ظهر جواد أن الأرض مفرّغة في بعض الأمكنة. و على مقربة من عمود بومبي، و قرب مصلى صغير، دخلت سراديب للأموات، شبيهة بتلك التي وصفها بوكوك في هذا المكان، أصغر من التي شاهدتها.

و تتألف السراديب من غرفتين محفورتين في الصخر، إحداها خلف الأخرى، و للأولى ١٢ فجوة من كل جهة على مستويين، و يبلغ ارتفاع كل فجوة قدمين و نصف، أما عرضها فقدمان و عمقها حوالى ستة أقدام، و قد صممت كلها كمدافن، ل ۴۸ شخصا. أما في الغرفة الثانية فلم أجد سوى ۶ فجوات، و رأيت في عمق الغرفة قبالة المدخل، فجوة صغيرة في الحائط، يصل ارتفاعها إلى ۴ أقدام و عرضها إلى قدمين و نصف. و على بعد فرسخ من الإسكندرية، نحو الغرب، زرنا سراديب أوسع و أبهى، و كان المدخل شبه مسدود بالرديمات، و حتى في داخل السراديب اضطررنا أحيانا إلى الزحف لتجنبها. و لقد رأينا في أعلى الممر الأول، بعض الكوى التي يمكن أن تكون قد استعملت لوضع الشموع أو القناديل منحوتة في الصخر، ثم انتقلنا إلى غرفة مربعة، لها من كل جهة باب، و بعض الزينة الهندسية البسيطة. أما الباب الشمالي فيختلف عن الأبواب الأخرى لوجود بابين صغيرين بجانبه، لكن بما أن الركائز التي تفصلها عن الأول قد دمّرها الزمن، لم يعد يشكل معه سوى مدخل وحيد. و بدت الغرفة من هذه الجهة مستديرة و مقببة، و يبلغ قطرها ٢٠ قدما. و شاهدنا ثلاث غرف صغيرة إلى جانب الغرفة الكبرى، و هي تشبه المقابر السورية القديمة و مقابر الملوك قرب القدس، لأن هناك فجوات في الجوانب، يتم وضع الموتى فيها، و قد رسمتها على اللوحة الخامسة، الحرف ب. ثم انتقلنا من الغرفة، التي ذكرتها، عبر باب آخر و ممرات عدة يصعب سلوكها حاليا، إلى ساحة واسعة للغاية، لكنها استحالت واطئة بسبب كميات الغبار و الرمال التي ملأتها و التي دخلتها من فتحات غير معروفة، و لعلهم اعتادوا تخزين القمح في هذا المكان.

و بما أن هذه الساحة كبيرة جدا، سنّدت بصفوف من الركائز التي يبلغ حجمها ٣ أقدام مربعة، صنعت من الصخر دون أية زخرفات. و نجد هنا أيضا العديد من الممرات و الأقبية التي حفرت في الصخر، لكنها أضحت ملجأ للحيوانات المفترسة فقررت عدم المخاطرة. و ينبغي التزود بضوء لزيارة هذه السراديب، كما يتم إطلاق النار قبل دخولها لطرد الحيوانات المفترسة التي قد تتواجد فيها. و نجد غرب هذه السراديب مرفأ صغيرا أو خليجا، و يبدو و كأن قصرا قد شيّد على أحد شواطىء الخليج فيما مضى، لأننا نعثر على الكثير من قطع الرخام التي استخدمت على الأرجح لرصف الأرض أو تزيين الجدران. و نشاهد هنا أيضا غرفتين حفرتا في الصخر و كأنهما خزانان للمياه، لأن النزول إليهما، يتمّ عموديا عبر فتحة صغيرة، تعلو

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج١، ص: ۵۰

درجات تمتد على جهتي الصخرة التي حفرت فيها بعض الأماكن للجلوس بعيدا عن الشمس و القيظ مع التمتع بمنظر البحر. كما تطالعنا أدراج طويلة أخرى حفرت في الصخرة نفسها، و لعل أهم الآثار حمامات بومبي(Pompe ?e) ، و هي مؤلفة من ثلاث غرف متحاذية و محفورة في الصخر، و لكل غرفة باب من جهة المرفأ تدخل منه مياه البحر، أما الغرفة الأخيرة ففي آخرها فتحة صغيرة في الصخر تسمح للمياه بأن تسيل، و تركت مقاعد حفرت في الصخر. و لم أنتبه إلى نسبة ارتفاع أو انخفاض المياه في هذه الأماكن، لكني أعتقد أنها تصل إلى مستوى المقاعد، و نستنتج من ذلك، أن منسوب المياه لا ينخفض كثيرا قرب الإسكندرية.

و لا يتعامل الأجانب مع سكان الإسكندرية، لكن السفن التجارية القادمة من أوروبا و أفريقيا إلى مصر ترسو أمام هذه المدينة فضلا عن تلك التي تأتي لتحميل البضائع من مصر لتنقلها إلى أفريقيا و أوروبا، مما يجعل مردود الجمارك مهما للغاية. و يقيم في الإسكندرية العديد من التجار الأوروبيين، فضلا عن قنصل فرنسا و البندقية و هولندا و راغوز، و يمثّل إنكلترا قنصل هولندا أيضا، أما السيد ماريون فنائب قنصل الدانماركي و السويد و توسكانه و البندقية. و يتكلم أهالي الإسكندرية و مصر عامة اللغة العربية، أما الأجانب الذين يجهلون هذه اللغة فيعتمدون اللغة الإيطالية، و قد صادفت في الإسكندرية وحدها مسلمين يتكلمون الفرنسية، و الدانماركية و السويدية كما لو أنهم ولدوا في تلك البلاد. و هذا ما يجعلني أميل إلى الاعتقاد بأن أهالي الإسكندرية أكثر قابلية لتعلم اللغات الأجنبية من باقي المسلمين، لكن يبدو أن أمل الكسب و الربح فضلا عن عدم التعلّق بالدين يدفعانهم لتعلم هذه اللغات. و يستحيل أن يمارس مسلم شعائر دينه بين البحارة الأوروبيين، و بالرغم من ذلك نجد إسكندرانيين يعملون لسنوات تحت أمرة قبطان مسيحي، و حين يتعلمون اللغة يكسبون بالتالي الكثير من المال، و بسهولة.

يخضع حاكم الإسكندرية لوصاية القاهرة، و بالتالي لسلطان القسطنطينية. و تدفع القبائل العربية التي تجول في مصر مبالغ معينة للحاكم التركي، و هي مسالمة أحيانا، تتصرف كحليف للأتراك لكنها تعود و تتمرد فيضطر الحاكم إلى إرسال المئات بل الآلاف من العسكر لطردها إلى داخل البلاد. و خلال إقامتنا في الإسكندرية، اقترب هؤلاء الرحل من المدينة و أخذوا يزعجون الفلاحين العرب. و في ١١ تشرين الأول/ أكتوبر، ضرب المئات منهم خيامهم على بعد نصف فرسخ من المدينة، و عند الصباح، أراد قبطانان من البندقية رؤية عمود بومبي، فأوقفوهما البدو و أمروهما بتزع ثيابهما و بتسليم كل ما يملكان، فقال لهم الانكشاري الذي يرافقهما، إنّ هذين الأوروبيين لم يسيئا لهم و إن كان هناك حساب بينهم و بين الحاكم فليصفوه، فتركوا القبطانين و شأنهما و حاولوا سلب الانكشاري الذي لم ينج منهم إلا بعد أن تمزقت ثيابه. و حين يأتي هؤلاء العرب المدينة للتسوق، يدخلونها الواحد تلو الآخر كي لا يلاحظهم السكّان، لكن في ذاك اليوم، دخلوا الإسكندرية بأعداد كبيرة، و جرت حادثة لم أر مثلها في رحلاتي كلها، و قد

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج١، ص: ۵۱

تابعنا ما جرى من شرفة منزلنا أو من على سطحه: يقول البعض إن سكان الإسكندرية أخبث شعب في الأمبراطورية العثمانية، فحين رأوا أعداءهم، أرادوا الانتقام من الفوضى التي خلّفها هؤلاء خارج المدينة، فيما يعتقد البعض، أن ابن أحد الشيوخ، اشترى رصاصا و بارودا، و أراد تجربة بندقيته في المدينة، فأطلق النار على المنزل المقابل للمتجر الذي اشترى منه. عندئذ، وجّه إليه صاحب المنزل كلاما فظا كما لو أنه من العامة، وردّ عليه الشيخ الشاب كما لو أنه يخاطب أحد أتباعه في الصحراء، فدبّ الخلاف بينهما أولا. و هبّ عرب آخرون لمساندة الشيخ، و سارع سكان المدينة لمساعدة جارهم، فتجمعوا في ساحة كبيرة قرب منزلنا و من الجهة التي ينبغي أن ينسحب العرب منها. و كان يمكن للفرسان بينهم أن ينسحبوا بسهولة، لكنهم رفضوا ترك رفاقهم الراجلين، فأخذوا يكرّون بأفراسهم على جماعات الأعداء فيشتتونها، لكن ما أن ينسحبوا حتى يرشقهم أهالي الإسكندرية بالحجارة إلى أن يصل بعضهم مسلحا. و عند ما تبين للعرب البدو أن أهالي الإسكندرية يفوقونهم عددا، حاولوا ألّا يقتلوا أحدا، لكن أعداءهم لم يعاملوهم بالمثل، فقتلوا فارسا رشقا بالحجارة و آخر بالرصاص. و أخيرا، فرّ البدو بعد أن فقدوا خمسة عشر رجلا و بعض الجياد، و أساء الإسكندريون معاملة السجناء،

فتوفى اثنان منهم من كثرة الضرب. عندها، حاصر العرب المدينة، و سلبوا السكان الكثير من المواشى، لكن السلام استتب بعد يومين و أعيدت الغنائم إلى الطرفين.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۵۲

الرحلة من الإسكندرية إلى القاهرة

يسلك الأوروبيون، الذين نشروا أخبار رحلاتهم من الإسكندرية إلى القاهرة، الطريق نفسه، فيقصدون رشيد أولا ثم ينتقلون إلى القاهرة، مبحرين نحو عالية النيل، و كنا نودّ السفر برا لرؤية المناطق المصرية التى لا تزال مجهولة. لكننا نعلم مما تقدّم أن العرب الرحّل يجعلون هذه الرحلة مستحيلة، إلّا إذا كنا لا نكترث إن تعرّضنا للنهب. و هذا ما عانى منه لاحقا أحد رفاقنا، و هو السيد فورسكال الذى أراد التوجه من القاهرة إلى الإسكندرية برا، فأجبر على إعطاء اللصوص الأعراب كل ما يملك. و لم يعيدوا إليه سوى ثيابه الداخلية.

استأجرنا مركبا صغيرا للتوجه من الإسكندرية إلى رشيد، و غادرنا المدينة فى ۳۱ تشرين الأول/ أكتوبر، لكن الرياح المعاكسة لم تسمح لنا بالتقدم كثيرا، فتوقفنا فى أبوقير(Abukir) على بعد أربعة فراسخ من الإسكندرية. و يوجد هنا خليج، ترسو فيه السفن التى لا تستطيع الوصول إلى مرفأ الإسكندرية، فضلا عن حصن صغير فيه بعض الجنود قرب القرية. ثم فى ۱۱ تشرين الثانى/ نوفمبر، كانت الرياح ما تزال معاكسة، مما دفع رفاقى إلى الانضمام إلى بعض الأتراك الذين انتظروا الرياح المواتية طويلا، و متابعة الطريق عبر البرّ، فاستأجروا زورقا صغيرا لعبور بحيرة تصب فيها مياه النيل و تصب هى فى البحر المتوسط، ثم اجتازوا منطقة رملية على ظهور الجياد و الحمير، و لم يجدوا فيها ما يلفت الانتباه سوى عشرة إلى اثنى عشر عمودا حجريا، تدل على الطريق حتى رشيد. و على الرغم من ذلك، لم يصلوا قبلى بكثير، فقد هبت رياح مواتية، و وصلت إلى المدينة فى ۲ تشرين الثانى/ نوفمبر.

إن الطريق من الإسكندرية إلى رشيد خطيرة جدا فى الشتاء، إذ يغرق العديد من السفن فى مصب النيل. و بالرغم من أن منسوب المياه فى النهر لم ينخفض كثيرا، فاعتذر قبطاننا قائلا إن مجرى النهر يتغير غالبا فى هذا المكان. و لا خوف على المصريين من هجوم سفن معادية عبر ساعد النهر هذا، و لذا أعتقد أنّ المصريين، تركوا الحصون المحيطة تتداعى. لكن، بقى حصن على الضفة الغربية للنيل بين المصب و رشيد، و هو حصن قديم و عال، إنما مهجور كليا، و لا يلفت الأنظار فيه سوى بعض الكتابات العربية و بعض المدافع الحديدية القديمة، كما نجد حصنا صغيرا، غير جدير بالاهتمام، على الضفة الشرقية للنهر.

و اشتهرت مدينة رشيد، أو روزويت كما يقول الأوروبيون، فى تاريخ شبه الجزيرة العربية منذ القدم، لكن يبدو أنها ازدهرت بعد تراجع التجارة فى مدينة فوه الواقعة على النيل نحو الشمال. و هى اليوم مخزن للبضائع التى تنقل من القاهرة إلى الإسكندرية إلى القاهرة، لأن السفن الآتية من

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۵۴

القاهرة تصل حتى رشيد فقط، و ينطبق الأمر نفسه على تلك المنطقة من الإسكندرية. و رشيد مدينة كبيرة، تقع على الضفة الغربية للنيل، و على مرتفع يطل على النهر من جهة و على مصبه من الجهة الأخرى، و هى على خط عرض ۳۱، ۲۲. و نجد فى جنوبها مرقبا قائما على مرتفع، رسم من أعلاه السيد بورنفند منظرا للمدينة حفر على اللوحة السادسة. و على مقربة من هذا المكان، قرب قرية أبى مندور، يتعرّج النيل بشكل جلى، و فى هذا المكان، تمّ اكتشاف ۲۰ عمودا من الرخام فنقلت إلى القاهرة، و ظنّ الأوروبيون المقيمون فى رشيد أنهم وجدوا فى هذا المكان مدينة كانوبوس(Canopus) . و تقول الروايات المصرية إن ساعدا كبيرا للنيل يمتد من هذه المنطقة نحو الغرب، و يمرّ عبر بحيرات صغيرة أشرنا إليها فى اللوحة العاشرة، ليصب أخيرا فى البحر قرب أبو قير ، لكن هذا الممر مسدود كليا بالرمال التى تحملها الرياح بسهولة و التى تكثر فى هذه المنطقة.

و يقيم فى رشيد قنصل فرنسا و البندقية و بعض التجّار الأوروبيون الذين يؤمّنون نقل بضائع أصدقائهم بين القاهرة و الإسكندرية، و قد أقمنا فى المدينة عند الآباء الفرنسيسكان. و يشيد الأوروبيون بتهذيب و لياقة سكّان هذه المدينة، لذا يمكن أن نقيم فيها لمدة أطول من تلك التى نمضيها فى المدن المصرية الأخرى حيث لا يتمتع الأوروبيون بالاحترام اللازم. لكننا سارعنا بالوصول إلى القاهرة، ففى ۶ تشرين الثانى/ نوفمبر، غادرنا رشيد على متن مركب صغير و وصلنا فى اليوم نفسه إلى منتود(desچMent) ، و أجرنا الهواء المعاكس على الإرساء هناك.

فى ۷ تشرين الثانى/ نوفمبر مساء، بلغنا بلدة ديروط، فحملت ساعتى و نزلت إلى اليابسة، لأن الجو صاف و لا يخشى علىّ من سكان المنطقة، و بعد مراقبة ارتفاع نجمة فى الهاجرة، وجدت أن ديروط تقع على خط العرض ۳۱، ۲۱، و حاولت مرارا القيام بدراسات فلكية، لكن محاولاتى باءت بالفشل، فاضطررت إلى الاكتفاء بملاحظة تعرجات النيل و الوقت الذى لزمنا للانتقال من مكان إلى آخر، و لسوء الحظ التقيت بأصحاب مراكب رفضوا إعطائى أسماء القرى أو كانوا يجهلونها، إذ ينبغى اجتياز هذه المنطقة مرارا لحفظ كافة الأسماء. و سافرنا فى بعض الأحيان ليلا، فلم أستطع رؤية القرى كلها. و بما أن المسافة بين ديروط و القاهرة أكبر من أن يضع المرء خارطة جيدة لمجرى النيل من دون أن يسجل ارتفاعات القطب المختلفة، حددت خلال رحلات قصيرة قمت بها لاحقا، عند ما كنت فى القاهرة، موقع وردان على خط عرض ۳۰، ۹۳، و سأوردها لاحقا بشكل أوضح فى الدراسات الفلكية.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۵۵

فى ۸ تشرين الثانى/ نوفمبر، مررنا أمام مدينة فوه، و قد فقدت هذه المدينة مجدها و ازدهارها السابقين.

يقال إننا يمكن أن نرى حتى اليوم الجمارك، و منزل قنصل البندقية الذى أقام فى هذه المدينة. و نجد بالقرب منها قناة، تتحد مع أخرى أكبر من منها رشمانى، و بعد رىّ الحقول المجاورة، و ملء خزانات المياه فى الإسكندرية، تصب فى البحر قرب هذه الأقنية غالبا، و كوّنت هذه الأتربة تلالا لا نجدها فى أماكن أخرى فى هذا البلد المسطح. و ترسو السفن المتوجهة من رشيد و دمياط إلى القاهرة فى مرفأ بولاق الذى وصلناه فى ۱۰ تشرين الثانى/ نوفمبر مساء.

إن الرحلة ممتعة للغاية فى هذا الفصل حيث يكتسى الريف ثوبا أخضر، و تحيط بالنهر القرى على الضفتين. و بالرغم من أن المنازل حقيرة بشكل عام، لأنها مبنية من الآجر غير المشوى و مسطّحة من الأعلى، يحيط بها الكثير من أشجار النخيل، و تكثر أبراج الحمام المميزة فى هذه البلاد، مما يضفى على المشهد العام طابعا ممتعا و غريبا بالنسبة لأوروبى وصل البلاد لتوه. و نشاهد قرب العديد من القرى، بقايا مدن قديمة، كما نجد قرب تيران(Ter ne) كميات كبيرة من الملح أو ملح البارود الذى يستقدم من أماكن مختلفة، لنقله عبر النيل، و إرساله إلى الخارج. و لم أر تماسيح فى هذا النهر بين رشيد و القاهرة و دمياط، و يعتقد المصريون، أن حجابا وضع فى السور فى المكياس(Mikkias) قرب القاهرة يمنع هذه الحيوانات من التوجه نحو أسفل مجرى النهر.

و لكل مركب و إن اختلف قليلا عن غيره اسم مختلف فى اللغة العربية كما فى اللغات الأوروبية، أما تلك التى تقتصر رحلتها على الإبحار بين الإسكندرية و القاهرة فصغيرة و مسطحة القعر. و قمنا برحلتنا بين الإسكندرية و رشيد على متن مركب يحمل اسم شرم(Scherme) ، و فيه حجرة واسعة مريحة، و كان يتم جزء حين يكون الطقس هادئا، لذا لم تستغرق رحلتنا طويلا. و يكثر الحديث عن قراصنة يجوبون النيل، لكنهم لا يثيرون القلق، شرط أن نقوم بالحراسة ليلا، و أن نطلق النار غالبا، كى يدركوا أننا نحمل أسلحة نارية. و نبقى عادة مصباحا مضاء أثناء الليل، ليعرفوا أن المركب يحمل أوروبيين، و هم يعلمون أنه يصعب مفاجأتهم و هم نيام. و فى شهر آذار/ مارس من العام ۱۷۶۲، تمّ نهب ثلاثة مراكب على ساعد النيل هذا.

و يسود الاعتقاد بأن هؤلاء القراصنة قلّما يهاجمون مركبا بأكمله، إلا إذا علموا مسبقا بأن عدد ركابه قليل أو إذا كانوا على اتفاق مسبق مع الريّس(Re ?is) . و هناك أمثلة على (ريّاس) تقاسموا الغنيمة مع القراصنة، لذا ينبغى على المسافر الاستعلام لمعرفة لمن يسلّم أمره. و يعرف قراصنة النيل عملهم جيدا، و بما أنهم تعلموا السباحة ككافة سكّان ضفاف النهر، إما لقضاء ساعات حلوة فى الماء عند اشتداد القيظ أو لاجتياز النهر بأقل كلفة، يصعد هؤلاء على متن المركب حين لا يجرؤون على الظهور مع مراكبهم الخاصة، و يحملون كل ما تقع عليه يدهم على سطح السفينة ثم يقفزون إلى الماء مع ما سلبوه. و لدينا أمثلة على أنهم لم يدخلوا المركب فى بعض المرات، بل اكتفوا بمدّ أيديهم، و سرقة الأغراض من تحت

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۵۶

رؤوس النيام. و يروى الأتراك القصة التالية عن أحد القراصنة: خيّم أحد الباشاوات، الذى وصل حديثا إلى مصر، على ضفة النيل، و قام رجاله بحراسته جيدا فألقوا القبض على لص أراد سلبهم متاعهم. و عند الصباح، أحضر اللص أمام الباشا الذى هدّده بقتله على

الفور، فلم يطلب السجين سوى إذن القيام بلعبة خفّة فريدة، على أمل أن ينال عفو الباشا على حدّ قوله. و سمح هذا الأخير بذلك بعد أن دفعه حب الاستطلاع إلى تعلّم هذه اللعبة، عندها جمع اللص ثياب الباشا و ما وجده في الخيمة في صرّة، كما يلف المصريون ثيابهم عند ما يريدون الانتقال من ضفة إلى أخرى سباحة. و بعد أن قام بألعاب خفة عدة، ألقى بنفسه في النيل، و فز إلى الضفة الأخرى و هو يحمل غنيمته على رأسه قبل أن يتمكن الأتراك من جلب بنادقهم لإيقافه.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۵۷

رحلة دمياط و العودة إلى القاهرة

بعد أن رسمت ساعد نهر النيل الممتد من القاهرة إلى البحر الأبيض المتوسط، شعرت برغبة في رؤية الساعد الآخر الذي يمر بمحاذاة دمياط و ذلك في سبيل رسم خارطة صحيحة لهذا الجزء من بلاد مصر الذي يسميه الأوروبيون اليوم الدلتا؛ هذا هو الجزء الناقص على الخارطة التي رسمها السيد نوردن لمجرى النيل، بدءا من الشلال الأول و وصولا إلى البحر. و كنت على استعداد للسفر إلى دمياط فور وصولي إلى القاهرة و لكنني اضطررت لإرجاء هذه المهمة إلى شهر أيار/ مايو من السنة القادمة لأن الطقس الممطر و الغائم كان يمنعني من الرصد الجوي. و لكنني لم أندم على تأجيل الرحلة، لأنني استفدت من هذه الفترة و حاولت أن أتقرب من الشرقيين نظرا لجهلي التام بعاداتهم و لغتهم.

يطلب الأوروبيون الذين يتنقلون في هذه البلاد الحماية من الحاكم ظنا منهم أنه لمن المستحيل التنقل بأمان إن لم يعط الحاكم قادة السفن و الأشخاص الذين يؤجرون الجمال للسفر برا، الأمر بالاعتناء بهم.

و غالبا ما يقوم أحد خدام الحاكم باستدعاء أول ربّان يصادفه أو ينتظر منه هدية؛ و حين يعلم هذا الأخير أن شخصا مرموقا يطلب منه الاعتناء بأحد المسافرين، يخال أنه سيجني ثروة طائلة؛ فيستغل الفرص لتقديم خدماته للشخص الموكل إليه، و يحاول أن يختلق المخاطر في كل مكان، حتى يثبت شجاعته.

و لطالما اعتقدت أن اللجوء إلى كبار التجار في هذه البلاد، هو الحل الأنسب في الظروف المماثلة؛ فهم يدركون أكثر من سواهم المخاطر التي قد تعرض لها في الأماكن التي ننوي زيارتها؛ كما و أنه يعمل لحسابهم قادة سفن و جمالون ينقلون لهم البضائع، و يسعون لنيل حظوة لدى التجار أكثر منه لدى حاكم لا يجنون منه شيئا. و من الصعب رسم خارطة صحيحة لبلد غريب، خاصة إن كان المرشد لا يعرف أسماء القرى التي يمر بها، أو أنه لا يريد إعطاء أسمائها للرحالة. و لقد كنت أبحث عن ربان قطع عدة مرات الطريق المؤدية إلى دمياط، و يعرف القرى جيدا و لا يحبذ السفر ليلا، حتى تتاح لي فرصة مراقبة مواقع القرى و تعرجات النيل. فطلبت من أحد التجار أن يعلمني بموعد سفر الربان الذي يتمتع بالصفات المطلوبة، فأوصاني بربان ماهر للغاية، أما السيد بورانفيند الذي لم يغادر القاهرة إلا لماما خلال إقامتنا فيها ففقر مرافقتي في هذه الرحلة. فاستخدمنا انكشاريا للسهر على راحتنا و خادما آخر لتحضير الطعام لنا، و عدنا إلى بولاق في ۳۰ نيسان/ أبريل ۱۷۶۲. كان المركب الصغير الذي نقلنا إلى دمياط يحمل اسم كنج، و تتوافر فيه كافة وسائل الراحة التي نعمنا بها في المركب الذي سافرنا به إلى رشيد.

و في صباح الأول من أيار/ مايو غادرنا بولاق و لم أستفق إلا بعد أن قطعنا عدة أميال و لكنني لم يفتني

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۵۸

شيء لأنني اجتزت هذه الطريق من قبل. و عند الطرف الجنوبي للدلتا شاهدنا قصر القاهرة. و يطلق العرب على هذه البقعة اسم بطن البقرة؛ و هم يؤمنون بالأسطورة القديمة التي تقول إنه في زمن الوثنيين، عثر في هذه البقعة، على تمثال ضخم، على شكل بقرة. و يمتاز النيل بسعته و كثرة جزره بدءا من القاهرة و وصولا إلى الدلتا. و يؤدي ارتفاع منسوب مياه النهر إلى جرف هذه الجزر من مكان إلى آخر؛ و لما كانت مياه النهر تعلو و تنخفض جدا في هذه البقعة، لا حظنا أن عدد الجزر قد زاد عن شهر تشرين الثاني/ نوفمبر؛ و ذلك لأن منسوب المياه ينخفض في شهر أيار/ مايو. و كنا نشاهد في القرى المحاذية لنهر النيل، خفرا مهمتهم إعلام الناس بوصول بواخر القراصنة. لكن سكان بعض القرى كانوا يرسلون مراكبهم ليلا، و كل من يطلب حمايتهم يتعرض للسلب. في ذلك اليوم، ألقينا المرساة قرب تعبل(Tabble) لأن الربان كان يخشى القرى الأخرى؛ فأنزلت المزولة لأحدد ارتفاع القطب؛ و لكني لاحظت أن الدقران مكسور.

فأعدت الأداة إلى مكانها دون أن أتمكن من تدوين أي ملاحظة.

غادرنا تعبل صباح الثاني من أيار/ مايو؛ لكن الرياح القوية أرغمتنا على الإرساء في «مصدر الشادر».

و لما كنت قد أصلحت آلتي، استطعت بصعوبة تحديد بعد الشمس عن خط المراقبة العمودي حتى أتمكن من تقدير بعد هذه البلدة عن خط العرض. و مع اقتراب المغيب، بلغنا «ميت العطار»؛ و رغم هدوء الرياح مع حلول المساء، عادت لتهب بعد نصف ساعة من الجهة الجنوبية- الغربية، حاملة معها عواصف قوية، و غبارا و رمالا. و لما كانت مراكب النيل مزودة بأشرعة كبيرة لا يحسن القادة التحكم بها، فغالبا ما تؤدي العواصف القوية إلى قلبها؛ و فضّلنا بالتالي أن نلقي بالمرساة في تلك الساعة.

عند الساعة الخامسة من صباح الثالث من أيار/ مايو، تابعنا طريقنا و بلغنا قرية «زفتة»، حيث رصدنا ظهرا ارتفاع الشمس. و يتبين لي أن القرية المذكورة تبعد عن خط العرض ۳۰ دقيقة و ۴۲ ثانية. و تبعد بلدة زفتة عن ساعد النيل، الممتد من القاهرة إلى رشيد ۶ فراسخ و هي تقع بين القاهرة و دمياط، وفقا لحسابات ربابنة السفن. يحكم هذه البلدة وال من القسطنطينية، يقيم في القاهرة حيث عين قائم مقام له؛ و نجد فيها ۳ جوامع وقبة مبنية على قبر نبي يقدسه الناس. و يزيد عدد منازل الأقباط فيها على ۳۰۰ منزل؛ و قد وجهوا لي دعوة لزيارة كنيستهم المتداعية. تغطي أرض هذا المعبد حصر قذرة تتكاثر فيها البراغيث من شدة الحر و نجد فيه عددا كبيرا من العكازات التي يستند عليها الأقباط خلال إقامة شعائرهم؛ و يظن الأوروبيون أن هذا الأمر يسيء لزينة الكنيسة خاصة و أن لوحات الأقباط قبيحة للغاية؛ فقد شاهدت في إحدى كنائس «مصر العتيقة» لوحة ليسوع المسيح و مريم العذراء و بعض القديسين، و هم يمتطون حصانا.

و لعل الأقباط يرون أن الحمير لا- تتلاءم مع هذه الشخصيات المقدسة رغم أنه يحظر عليهم ركوب دواب أخرى في القاهرة. تتميز كنيسة زفتة بعتبة بابها التي كانت قديما تمثالا لأحد آلهة الإغريق. تقع مدينة ميت غمر على الضفة الشرقية للنيل قبالة مدينة زفتة. و نجد فيها ۶ جوامع و كنيسة للأقباط. و بالرغم من

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۶۰

أن جميع منارات الجوامع مستديرة الشكل، لاحظنا أن إحدى منارات ميت غمر مربعة، مما يدفعنا للظن أنها كانت قديما جرس كنيسة. مما لا شك فيه أن السكون الذي يسود عند المساء، يساعد البواخر القادمة من القاهرة على الإبحار ليلا، دون أن يخشوا ردة فعل سكان القرى المحاذية للنيل، و خاصة و أن الرياح الشمالية تهب في النهار؛ و في ذلك اليوم حالت الرياح القوية دون متابعة طريقنا، لكن بعد أن هدأت ليلا غادرنا زفته، ترافقنا باخرتان أخريان. و ما كدنا نقطع مسافة صغيرة، حتى رأينا سفينة للقراصنة متوجهة نحونا؛ لكنها بدّلت و جهتها بعد أن أطلقنا النار عليها. و شاهدنا لاحقا، في ظل الأشجار، و خلف الجزر الصغيرة، زوارق مختلفة، ظن الربّان أنها تابعة للقراصنة؛ و لكن لم تجازف أي منها بقطع الطريق علينا. و في اليوم التالي، رأينا عوامات محمّلة بالأواني و الأباريق الفخارية، من مصر العليا. و في سبيل صنع عوامة مماثلة تعلق الأواني و تربط إلى جانب بعضها تحت خشب النخيل الخفيف الوزن، و يتراوح طولها بين ۴۰ و ۷۰ قدما و عرضها بين ربع و نصف قدم؛ يقودها ۶ أو ۷ رجال، يستعملون أغصان الشجر لدفعها، و يحملون عليها كل ما يلزم لتحضير الطعام في تدبير أمورهم. و يقال إنهم ينقلون في الأواني الفخارية بضائع غالية الثمن.

لكن لا يبدو لي ذلك صحيحا، لأن المياه تتسرب إلى الأواني و تتلف كل ما فيها. و الجدير ذكره أن هؤلاء الرجال يستعملون (التّقافة) للدفاع عن أنفسهم ضد القراصنة. و بعد أن يبيعوا الأواني الفخارية و العوامة، يعودون إلى مصر العليا مشيا على الأقدام. و في ذلك النهار، لم يلفت نظري إلا بلدة المنصورة حيث سجن لويس الحادي عشر. و مع أنها لا تبدو أكبر حجما من دمياط إلا أنني لم أستطع مشاهدتها إلا عند مرورنا بقربها. فقد بنى على هذه الضفة من النيل، سور كبير، يمتد حتى بحيرة باهر، و هذا السور يحول دون تدفق المياه بكثرة لري الأرياف المجاورة الغنية بالأرز. ثم عند وصولنا إلى المنصورة، هبت الرياح الشمالية و أجبرتنا على بلوغ الشاطىء. فاغتنمت هذه الفرصة لتحديد ارتفاع القطب على بعد نصف ميل من البلدة الشمالية- الشمالية الشرقية؛ فتبين لي أن المنصورة تقع على بعد ۳۱ دقيقة و ۳ ثوان من خط العرض. و في الخامس من أيار/ مايو أنهينا رحلتنا إلى دمياط. و لم يلفت انتباهنا في الطريق، سوى ۲۰ مركبا، محمّلة بالنحل؛ و كان سنجق المنصورة قد حطّ رحاله مع ۴۰ عبدا و خادما بين قريتي بدوي و كفر بدوي بغية تحصيل أرباح النحل؛ إذ كان كل مركب يحمل ۲۰۰ خلية نحل، مما يعني أن العشرين مركبا كانت تنقل ۴۰۰۰ خلية، يبلغ طول كل واحدة منها

ثلاث أقدام، و قطرها قدم واحد.

مما لا شك فيه أن موقع بلدة دمياط ملائم للتجارة، شأنه في ذلك شأن بلدة رشيد؛ فالبضائع الآتية من سوريا و البلدان المجاورة تمر في دمياط حتى تنقل بعدها إلى القاهرة. و في المقابل لا نجد فيها تجارا أو كهنة أوروبيين، رغم أنها تضم بعض الموارنة و المسيحيين الشرقيين الذين ارتبطوا بالكنيسة الرومانية، و يحكى أنه كان يقيم قديما في دمياط قنصل و تجار فرنسيون؛ لكن بعد أن لاحظ السكان تعلّق الأوروبيين

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۶۱

بنساء المسلمين، قرروا قتلهم جميعا. و منذ ذلك الحين، منع ملك فرنسا رعاياه من الذهاب إليها. فكانوا يتندبون مفوضين عنهم للاهتمام بمصالحهم في تلك البلدة، أو يجرون تبادلاتهم التجارية على سطح السفن. غير أنني قابلت ربانين فرنسيين مقيمين في تلك البلدة؛ و كان يبدو عليهما الخوف من السكان الذين لم ينسوا الحملات الصليبية، و لا الحادثة التي أتيت على ذكرها آنفا. و أكّدا لي أنهما لن يتجرآ على إخبار سفير فرنسا في القسطنطينية عن سوء معاملة السكان لهما؛ كما و أنهما لا يتوقعان أن يساعدهما أحد. و لا حظت أن هذين الربانين يعتمران عمامة على رأسيهما و يرتديان الأزياء التركية، و يستعملان اللغة المحكية في المنطقة، حتى لا يحاول الرعاع إساءة معاملتهما. كنت أحمل رسالتي توصية إلى تاجر إغريقي و آخر إيطالي، كان قديما تاجرا معتمدا في القاعدة؛ و بعد أن غرق في الديون، لم يتجرأ على العودة إلى بلاده و فضل اعتناق الإسلام. و كان يأمل أن يجمع ثروة طائلة في مصر خاصة و أن واحدا من كبار البهاوات في القاهرة، تكفل بحمايته. و لكن بعد أن فقد صديقه هذا حظوته اكتفى الإيطالي بأنه يشغل وظيفة في جمارك دمياط. و يقال إنه كان يعيش حياة مترفة من جراء تعامله مع الأوروبيين؛ فهو يسهل عليهم عملية نقل البضائع التي يرسلونها عبر دمياط أو يرعى مصالحهم في هذه البلدة. و رغم اعتناقه الإسلام منذ عدة سنوات، لم يكف عن مجاملة الأوروبيين علما أن المرتدين عن الدين يكرهون الأوروبيين أكثر من المسلمين الأصليين.

يتبيّن لي من خلال الرصد الجوي أن بلدة دمياط تقع على بعد ربع ميل شمالي رشيد و على بعد ميلين من البحر الأبيض المتوسط، أي إنها أبعد من رشيد الواقعة على الضفة الأخرى للنيل. و استنادا إلى تقرير أحد الربابنة الذي يرتاد غالبا السواحل الممتدة بين دمياط و رشيد، يقع رأس برولوس على بعد ميل و نصف الميل شمالا. و منذ فترة و جيزة، ارتفع عدد اللصوص في هذه المنطقة، و باتت طريقها محفوفة بالمخاطر.

فمن الجهة الغربية للهند، بدءا من دمياط شمالا، وصولا إلى مصبّ النيل، و رأس برولوس غربا، تمتد طبقة رقيقة من الرمال، تجعل الأرض قاحلة. لم أر أثرا لأسوار مدينة دمياط؛ و لعل أحدا لم يحاول إعادة بنائها، بعد أن دمّرت عام ۶۴۸ للهجرة استنادا لأقوال أبي الفدا. و لكنني استطعت رؤية المكان الذي سدّ فيه مجرى نهر النيل بسلسلة؛ فعلى الصفحة الشمالية داخل البلدة، نجد برجا قديما حيث لا يزيد عرض النهر على ۱۰۰ قدم، كما و نجد على الضفة الغربية، أنقاض برج مماثل مدمّر كليا.

و بما أنني لم أقض وقتا طويلا في دمياط، لم أتمكن من تحديد مواقع شوارع هذه المدينة كلها. و بعد أن قست طول السوق، الذي يخترق البلدة كلها، و طول السور وضعت الخارطة التي تراها على اللوحة ۷.

كما و رسم السيد بورانفيد منظرا عاما للبلدة (راجعوا اللوحة ۸). و تكثر في المناطق المحيطة بدمياط قنوات المياه المخصصة لري حقول الأرزّ فيها. و تشير الأحرف الموضوعة على خارطة مدينة دمياط إلى مواقع الأماكن التالية: ۱) برج قديم مزود بنقوش عربية، (خارطة الطابق الثاني للبرج)، ۲) بقايا قصر قديم، ۳)

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۶۲

كنيسة حوّلها المسلمون إلى جامع؛ و يقال إنها تضم لوحات من عهد الإغريق، ۴) مغسل القطن، ۵) مقابر، ۶) جامع بناه السلطان، ۷) المنشية، ۸) مكان ذبح الدواب، ۹) منطقة شيخ عباس، ۱۰) دير الإغريق، ۱۱) الجمارك، ۱۲) الجامع الكبير.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۶۳

و قمت برحلة صغيرة من دمياط إلى مصبّ النيل أو بوغاز(Boghas) ؛ و خلافا لمصب رشيد، لا يشكل هذا المصب خطرا على البواخر، إذ تكثر فيه الأرصفة الرملية و المنارات و زوارق الإنقاذ، المعدّة لإغاثة البحّارة الغرباء. تجتاز هذا المصب بواخر ضخمة متوجهة نحو البلدة؛ لكن نظرا لانخفاض منسوب المياه على هذا الساحل، تلقى معظمها المرساة على بعد ميل عن اليابسة. تمثل اللوحة ۹ حصنا قديما يبعد عن البحر ۷۰۰ قدم. و قد قست هذه المسافة بدقة حتى يتمكن الرحالة اللاحقون من تحديد بعد مصر عن البحر. و يبلغ طول هذا الحصن ۵۸ قدما و عرضه ۲۳. و يزعم خادمي أنه قرأ تحت النقوش على بوابة الحصن «۱۶۹».

و الجدير ذكره أن لا أحد يجرؤ على السكن في هذا الحصن خوفا من الأشباح؛ فعند اقترابنا منه، راح المسلمون يتلون الصلوات. و عند وصولنا، تلوا صلاة أخرى قرب المدافع الضخمة؛ فاضطررت للعودة معهم إلى المركب دون أن أشاهد الجزء الداخلي من الحصن، كانت هذه المرة الأولى التي أشاهد فيها مسلمين خائفين من الأشباح. و لم أتجرأ على ذكر الموضوع أمام العرب. و نرى غربي النيل، نحو الجنوب، على بعد ۱۵۰ قدما عن الساحل حصنا جديدا مأهولا، من العام ۱۱۱۶؛ أي إنه لم يمض على وجوده ۵۹ سنة قمرية. يتخذ هذا البناء شكلا مستديرا كما يبدو على الخارطة أوب من اللوحة ۹. و نرى عند الأسفل قاعدة مستديرة فيها مدفعان برونزيان، و ثلاثة حديدية. كما و نجد خمسة مدافع صغيرة في الطبقة الثانية من المبنى، و إن تقدمنا أكثر نحو الجنوب نر برجا قديما متداعيا، مأهولا بالسكان. أما في الجهة الشرقية، قرب قرية القولي، فنرى قواعد مدفعية مهدمة طولها ۲۰ قدما، و فيها مدفع قديم مكسور، و آخر أكله الصدأ.

أتيت على ذكر بحيرة باحر، في وصف شبه الجزيرة العربية، تمتد هذه البحيرة من دمياط شرقا وصولا إلى غسا(Ghassa) ؛ نشاهد على جزر هذه البحيرة بقايا بلدات قديمة. و قبل سنوات خلت، قدم مضيفنا لربان فرنسي كتابا مطبوعا بالأحرف الأوروبية، و حجارة من هذه الجزر، موضوعة في صندوق حديدي؛ و حين أقول إن الكتاب مطبوع بأحرف أوروبية، أقصد أنها أحرف غريبة عن مضيفنا، لأن الشرقيين يعتبرون كل حرف أو نقش لا يفهمونه من أصل أوروبي. و نشاهد على مقربة من المتوسط، قرب قرية مطارد، أنقاض بلدة ستانوس أو تنوس، التي تحمل اسمها إحدى مصبّات النيل. سمعت الناس يتحدثون عن أنقاض هذه البلدة، و لكن لم يرها أحد منهم. و عرفت أنه يمكننا السفر برا إلى دمياط و العودة منها بعد ثلاثة أيام. فمع ارتفاع عدد اللصوص، باتت هذه الطريق محفوفة بالمخاطر أكثر من طريق باحر؛ فسكان هذه المنطقة فقراء و لا يحبذون أن يعود الرحالة بحقائبهم كلها. و تقع في الجهة الجنوبية غرب دمياط، بلدة ديمشلي حيث يصنع النسيج، و لا تزال حتى اليوم بلدة بلباس غنية عن التعريف، و لكن أحدا لم يحدثني عن موقعها؛ و هي تضم عددا وافرا من النصب القديمة .

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۶۵

كنت أتمنى أن أشاهد بقايا تنسوس قبل مغادرة هذه المنطقة، فضلا عن زيارة ديمشلي و منصل، و المرور بباحر للذهاب إلى المنصورة. و لكنني أخاطر بخسارة معداتي، و خاصة و أنها زيارات ثانوية، و علينا التوجه لاحقا إلى شبه الجزيرة، التي تشكل أساس رحلتنا. لذلك غادرت و السيد بورانفيد دمياط في ۱۲ أيار/ مايو. و لما كنت قد رصدت ارتفاع القطب خلال توجهي إلى دمياط، اكتفيت في طريق العودة، بمشاهدة تعرجات النيل، و نقل أسماء القرى و المسافة التي تفصل بينها بغية التحقق من ملاحظاتي الأولى. و الجدير ذكره أن الرياح أسعفتنا كثيرا في طريق العودة، حتى أننا بلغنا القاهرة في ۱۵ أيار/ مايو.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۶۶

ملاحظات حول سير الرحلة من رشيد إلى القاهرة و دمياط، استنادا إلى الخارطة على اللوحة ۱۰

يتحدث التاريخ القديم عن بلاد مصر الشهيرة المكتظة بالسكان؛ و يأتي التاريخ الشرقي على ذكرها عدة مرات. لكن علماء الجغرافيا يسعون إلى دراسة بنيتها الحالية، بغية فهم الوصف الذي أعطاه المؤلفون القدامى لها. ممّا لا شك فيه أنه تتوافر لدينا خرائط مفصّلة و مرسومة بذكاء؛ لكنني لا أظن أن واضعيها استطاعوا الاعتماد دوما على الأبحاث التي استعملوها لتنفيذ عملهم. و من بين كل الأشخاص الذين زاروا مصر، لم يستطع أحد رسم خرائط دقيقة لها مثل الأب سيكار و الكابتن نوردن؛ و لكن لم تتح الفرصة لأي منهما للتحقّق من صحتها من خلال الرصد الجوي. غير أن مراقبة خطوط العرض و خاصة في مصر، تساعد على وضع خرائط جغرافية صحيحة؛ إذ تقع الأماكن الأكثر أهمية على ضفاف النيل، أو على مقربة منه، و هو يجري بشكل مستقيم من الجنوب إلى الشمال. و يمكننا بالتالي قياس المسافة التي تفصل القرى بعضها عن بعض انطلاقا من خطوط العرض المختلفة.

و لا- يمكننا أن نطلب من الرحالة الذى لا يقيم فى مصر إلا لفترة وجيزة أن يضع خارطة للبلاد؛ و لا أظنه يقدم لنا معروفا بأن ينقل خارطة قديمة و يدخل عليها بعض التعديلات. و فى هذا الإطار وضعت خارطة لسير رحلتى، و أشرت إلى المبادىء التى استعملتها فى رسمها. و خلافا للخرائط الأخرى، لا تجدون عليها عددا كبيرا من القنوات و الأنهر و البحيرات الصغيرة. إن الشريف الإدريسى يتحدث عن أنهر طويلة، لا- تزال موجودة حتى يومنا هذا، كما و أكّد لى المصريون أن بلادهم تحوى عددا كبيرا من القنوات و البحيرات الصغيرة، التى تظهر عند ارتفاع منسوب مياه النيل؛ بيد أننى لم أشاهد ذلك فى الأماكن التى رأيتها بأم عينى أو تلك التى حدثنى عنها أشخاص يعرفون البلاد جيدا؛ فلو حاول الرحالة كلهم أن يحذوا حذوى، لاستطعنا أن نقدر الخدمات التى يقدمها كل واحد منهم لعلم الجغرافية الحديث. و إننى أفتخر بنفسى لأنى استطعت أن أحدد بدقة مجرى الفرعين الأساسيين للنيل، من القاهرة إلى المتوسط، فضلا عن موقع البلدات و القرى المحاذية له. و لعل الرحالة الآخرون قد يزورون المناطق المصرية الأخرى و يرسمون خرائط مماثلة عن سير رحلاتهم.

إننى أتمنى على الأوروبيين كافة الذين يزورون البلاد أن يكسبوا صداقة الأقباط الذين يعملون أمناء سر أو محاسبين لدى البهاوات؛ لأننى واثق كل الثقة أنه من الصعب الحصول على لوائح كاملة بأسماء

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ۱، ص: ۶۷

القرى التى تخضع لنفوذ أرباب عملهم. لكننى لم أحاول سلوك هذه الدرب؛ و أظن أنكم ستعذروننى لأن خارطة مدينة القاهرة أخذت الكثير من وقتى فضلا عن أننى لم أجرؤ على توطيد علاقاتى بسكان البلاد و الاستعلام عن الأمور كلها. و مما لا شك فيه أن الرسم المفصل لمصر الحديثة يساعد الرحالة على تقديم وصف جغرافى دقيق لبعض المناطق و أظن أن بعض علماء أوروبا سيجمعون هذه التفاصيل لرسم خرائط كاملة لهذا البلد.

لا حظت فى مقدمة كتاب «وصف شبه الجزيرة العربية»، أنه من الصعب كتابة أسماء المدن و القرى بلغتنا، خاصة إن كان يلفظها أشخاص يستعملون لهجة مختلفة، و لا يحسنون لغتهم الأم. لهذا السبب، كتبت أسماء القرى نفسها بطريقة مختلفة، معتمدا بذلك على لفظ عدة أشخاص. و إليكم ما فعلته للحصول على الأسماء العربية للقرى و المدن فى مصر؛ فبعد أن دوّنتها كلها خلال الرحلة باللغة الأجنبية، طلبت من لغوى عربى فى القاهرة أن يكتبها لى بالعربية وفقا للسان القوم الذين رافقونى. و إننى لفخور بنفسى لأننى استطعت كتابتها بلغة عربية صحيحة، حتى يتمكن كل أوروبى من أى بلد كان أن يكتبها بلغته الأصلية. و على كل شخص يحمل لائحة بأسماء المدن المصرية أن يتلوها على نفسه ليعيد كتابتها بالأحرف الأوروبية. و غالبا ما يكتب العرب الأسماء العربية المألوفة عندهم من دون نقاط؛ أما الأقباط فيبدلون مكان النقاط أو ينسون وضعها. لهذا السبب يتعذر على الأجنبى قراءتها بشكل صحيح، كما يتعذر على المترجم كتابة الأسماء بشكل لائق. و سأذكر فيما يلى الأسماء الواردة فى كتاب «جغرافية السودان»، علما أن معظمها مشوه للغاية حتى أن الأشخاص الذين لا يحسنون كتابة العربية لن يتمكنوا أبدا من التعرف عليها.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ۱، ص: ۶۹

و لعلّى لم أرض القارىء حين أدرجت أسماء المدن و القرى الواقعة على طرفى النيل، فى وصف سير رحلتى من الرشيد إلى القاهرة، و من القاهرة إلى دمياط؛ فجمعت بالتالى هذه الأسماء، و تعرجات النهر، فى قسم منفصل، حتى يتمكن الجميع من مراجعتها. و قد يظن البعض أن إدراج اللائحة برمّتها، غير ضرورى، خاصة و أن بعض القرى متلاصقة للغاية، و ذكرها كلها يتطلب خارطة أكبر. و سآتى أيضا على ذكر رحلة السيد فورسكال من القاهرة إلى الإسكندرية. و أظن أنه لى كامل الحق فى ذلك، لأننى أعطيت صديقى هذا بوصلة قبيل انطلاقه، و رجوته أن يدوّن لى أسماء القرى التى يمر بها. و يحدد لى مواقعها؛ و عند عودته سلّمنى هذه اللائحة بنفسه.

و مما لا شك فيه أننا نستطيع الاستفادة من هذه المعلومات كلها، لرسم خرائط محدّدة، إن جمعنا معلومات وافرة عن مصر السفلى.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ۱، ص: ۷۶

رحلة اى الجزيرة العربية و الى بلاد اخرى

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ۱، ص: ۷۸

(نجد فى هذا المكان قناة تنبع من ساعد النيل و تمر أمام دمياط و طنطا، حيث دفن أحمد البدوى و هو وليّ مصرى شهير. و يقال إن العديد من الحجاج يزورون يوميا قبر المذكور حيث يقام سوق كبير. و هذا سبب وجيه لجذب الأجانب.)

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ۱، ص: ۸۱

أسماء المدن و القرى التى ذكرها السيد فورسكال خلال رحلته من القاهرة إلى الأسكندرية من القاهرة إلى الإسكندرية

اشارة

باب البكرى ۱) منية السرج، جنوبى- غربى القاهرة ۲) شبرا المكاسة، جنوبى- غربى القاهرة ۳) دمنهور ۴) باسوس، غربى- جنوبى- غربى الأهرام ۵) أبو الغيط، جنوبى- غربى- جنوبى الأهرام، أبو المنجه: جسر ۶) خراقانيه، جنوبى- غربى الأهرام ۷) بهاده ۸) سفيته، ساعد النيل الذى يمر أمام دمياط ۹) شبرا الشهابيه ۱۰) كفر الحمه ۱۱) شنادان؛ يمتد الطريق نحو الشمالى- غربى ۱۳) فرعانيه- شمالى- غربى الأهرام ۱۴) سمان: لا ترى منها الأهرام الخضرة ۱۵) قلته: ساعد من ساعدى النيل ۱۶) ثلولنا ۱۷) فيشه النصارى ۱۸) سرس القته ۱۹) منوف العلا ۲۰) تنشا و غمرين ۲۱) منيه الواط ۲۳) سلمون عشمة ۲۴) دمشه شمالى- شمالى- غربى أبو كلس ۲۵) بشادى ۲۶) عمروس، على النيل- كومازن ۲۷) طنوب ۲۸) الزعيره؛ يمتد الطريق شمالا على مقربة من النيل ۲۹) النجيلة، شمال النيل: تقع فى منتصف الطريق بين القاهرة و الإسكندرية- مليحة ۳۰) كفر بريم، شمالى- غربى- غربى بلاقوش ۳۱) بريم ۳۲) نقيده ۳۳) صفه العنب ۳۴) أبراج الحمام ۳۵) رمسيس، شمالى- غربى- شمالى دقدوقة- النقراش ۳۶) النيرة، شمالى- غربى ۳۷) أبو زينة، شمالى- غربى بهاى ۳۸) دنشان، شمالى- غربى- شمالى عوجه ۳۹) تسونس ۴۰) دمنهور البحيرى الواقعة فى ثلثى الطريق بين القاهرة و الإسكندرية ۴۱) القروى ۴۲) بركة غطاس ۴۳) كريون، شمالى- غربى- شمالى نشو ۴۴) عكريشة العجوز ۴۵) كفر سليم؛ تقع بلدة أبو قير على شمالى- غربى هذه المنطقة ۴۶) بيضه، و هى مدينة مهدمة ۴۷) الإسكندرية.

من الإسكندرية إلى الرشيد

بحيره سبخة عراما؛ حصن أبو قير؛ سد؛ بحيرة المعدية؛ قرية الزاوية القريبة من قرية الشيخ حصر؛ أدكوى، العلامات، أو ۱۱ دعامة حجرية على طريق الرشيد.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ۱، ص: ۸۲

من الرشيد إلى القاهرة

۱) شيخ منصور ۲) سلمية ۳) محلة الأمير ۴) دبيى ۵) تفينة: ساعد النيل الذى يمر أمام الرشيد ۶) أمطوبس ۷) شمشيرة ۸) سنديون؛ فى منتصف الطريق بين الرشيد و محلة الكبير ۹) فوا ۱۰) محلة العلوى ۱۱) محلة مالك ۱۲) سلميه ۱۳) شرفا ۱۴) سيدى إبراهيم الدسوقى ۱۵) دماجون ۱۶) محلة أبو على الغربية ۱۷) جمينة ۱۸) شباس الشهدة، الواقعة شرقى- جنوبى- شرقى الطريق ۱۹) شباس الأمير، شرقى- جنوبى- شرقى الطريق ۲۰) طويلة، شرقى- جنوبى- شرقى الطريق- شيخ حاوس البدوى ۲۱) روينة النطاح شرقى- جنوبى الطريق ۲۲) سخا، شرقى- جنوبى- شرقى الطريق ۲۳) جنوبى- شرقى شرقى الطريق ۲۴) نمرة، شرقى- جنوبى الطريق ۲۵) مهتندية، جنوبى- شرقى الطريق ۲۶) سندسيس ۲۷) محلة الكبيرة ۲۸) شرنبابل ۲۹) العجازية، جنوبى- شرقى الطريق ۳۰) متحاسى، جنوبى- شرقى الطريق ۳۱) شبرا، جنوبى- جنوبى- شرقى، غربى النيل- سنباط، ۳۲) دهتورا- حانوت ۳۳) دمسيس، شرقى النيل ۳۴) أبو النهان، جنوبى- شرقى الطريق ۳۵) عشنة جنوبى شرقى النيل ۳۶) نعمان ۳۷) كفر نعمان، قبالة سنباط ۳۸) سرنكه، قبالة داكورا ۳۹) كفر سرنكه، على مقربة من النيل ۴۰) أبو نغا ۴۱) دقادوس ۴۲) ميت غمر ۴۳) زفتة، غربى النيل ۴۴) أولاد عنان؛ يمتد بعدها الطريق جنوبى- جنوبى- غربى الدلتا ۴۵) فرسين ۴۶) ميت الرخا ۴۷) شرنبخون ۴۸) بقسه ۴۹) ميت يره؛ ينعطف بعدها الطريق إلى داخل البلاد ۵۰) ميت الحوفين ۵۱) دامله جنوبى- غربى- جنوبى النيل ۵۲) بره ۵۳) وروره ۵۴) كفر الجزار ۵۵) بطا ۵۶) عرب أرمل ۵۷)

مسيد الخضر، غربى النيل ۵۸) طحله شرقى النيل ۵۹) كفر الرحلات؛ نرى الأهرام جنوبا ۶۰) أميه، جنوبى- غربى الطريق ۶۱) خراب ۶۲) أكهور الورد جنوبى- غرب الأهرام ۶۳) قرنفيل ۶۴) سندابيس ۶۵) كفر الحارث جنوبى- شرقى الطريق ۶۶) كفر الجديد جنوبى- شرقى الطريق ۶۷) قليوب، جنوبى- شرقى الطريق، و جنوبى- غربى الأهرام، و جنوبى القاهرة- جسر أبو المنكه ۶۸) المكاسة ۶۹) منيه السراج ۷۰) مصر القاهرة.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۸۳

مواقع بعض المدن المصرية القديمة

تكثر فى الكتب المصرية القديمة أسماء مدن شهدت تغيرات جذرية، حتى أننا لم نعد نستطيع تحديد موقعها؛ و نسمع اليوم الناس يتحدثون عن دمياط و المنصورة و محلة الكبير و زفته و ميت غمر و رشيد و فوه و منوص و كالجوب، و غيرها من المدن التى لم تظهر إلا منذ وقت قصير. و لما كانت الإسكندرية قد قضت على ممفيس و فسطاط الإسكندرية و فسطاط القاهرة، سقطت المدن المصرية الأخرى تباعا و حلّت محلها مدن أخرى، دخل معظمها طى النسيان أيضا. أما بالنسبة للمدن الأخرى، فقد شهدت بدورها تقلبات كبيرة؛ فبعد ترسيخ الدور السياسى فى البلاد، اتحد السكان و حققوا معا ازدهارا صناعيا باهرا؛ و لكنهم ما لبثوا أن دخلوا عهد الانحلال. و اللافت للنظر أن مدن الدلتا كلها عرفت تغيرات جذرية؛ يقول هيرودوس فى كتابه الثانى، إن بوفيروس (المعروفة اليوم بأبو صير)، كانت تقع فى وسط الدلتا؛ و يبدو أن هذا الجزء من مصر الذى كان يعرف قديما بالدلتا كان أكثر اتساعا منه اليوم، و أنه كان يحدّه من الشرق تارة مويس، حيث تصب القناة الكبيرة الممتدة بين قطربب و القاهرة، فى بحيرة باهر. أما عدد المدن المصرية الحالى، فلا يوازى عدد المدن التى كانت موجودة قديما فى البلاد؛ و هذا الأمر لا يثير الدهشة، لأن الفرس و اليونان و الرومان و العرب و الأتراك الذين حكموا مصر تباعا، عمدوا إلى تدمير هذا البلد الخصب، من خلال حكامهم، بعد أن جنوا منه أموالا طائلة، فراحوا يقلصون سبل عيش السكان، الذين اضطروا للهجرة منه و التخلى عن قراهم و مدنهم.

لا أظن أنه من السهل تحديد موقع معظم المدن المصرية القديمة التى ازدهرت خلال الألفى سنة الماضية. لكننا نستطيع استرجاع موقع عواصم بعض الأقاليم و المدن، مع الأخذ بعين الاعتبار السدود التى شيّدها المصريون القدامى، لحماية أنفسهم من فيضانات نهر النيل، و خاصة تلك التى نجدها قرب بقايا المدن القديمة، من هضاب و قطع صوان، و رخام و خزف، و الجدير ذكره أننا لا نجد فى مصر السفلى كميات كبيرة من المعالم القديمة الجميلة، فقد غطى التراب معظمها مع مرور الزمن، كما و نقلت كافة المواد، حتى المدفونة منها تحت الأرض، إلى مناطق أخرى، لتستعمل فى تشييد الأبنية الحديثة. و لم يكف المصريون عن التنقيب فى الأماكن الأثرية بغية استخراج الحجارة اللازمة لبناء الجوامع و المنازل و حتى الأكواخ المتواضعة؛ كما و أنهم يبحثون عن كنوز أسلافهم الأثرياء فيخربلون الأرض المحفورة بحثا عن الفضة و الذهب و الحجارة المنحوتة. و سأذكر لكم المناطق التى فى زرتها فى مصر السفلى حيث تمّ العثور على بقايا مدن قديمة. و يمكنكم مقارنة مواقعها على خارطتى. أما بالنسبة للأسماء فسأترك للعلماء الذين يحسنون قراءة كتب المؤلفين القدامى، عناء تحديدها.

عند وصول المسافر إلى هذه الجهة من مصر، يرى آثارا قديمة قرب الإسكندرية الجديدة؛ و لقد قدمت

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۸۴

وصفا مفصلا لها سابقا؛ و الجدير ذكره أن اسم هذه المدينة غير مشكوك فيه لأننا نعرف تماما من بناها، و أنها احتفظت باسمها الأصلى. و رغم أن هذه المدينة تعد قديمة مقارنة بالمدن الأوروبية و مدن مصر الحديثة، فهى تعتبر حديثة مقارنة بالمدن القديمة فى هذه البلاد؛ كما و أن بانيها شخص غريب. أتيت على ذكر بلدة كابوبوس و يقال إنها كانت تقع قرب بلدة أبو مندور فى الجنوب، فى جوار رشيد، و إنها مغطاة اليوم بطبقة من الرمال الرقيقة، جرفتها الرياح شيئا فشيئا. و نشاهد على مقربة من هذا المكان، بقايا بلدة قديمة فى جوار منتوس؛ لم أشاهد هذه البلدة رغم أننى سمعت عنها فى القاهرة. أخبرنى السيد فورسكال أنه خلال سفره برا من القاهرة إلى الإسكندرية، عثر على بقايا بلدة قديمة، غربى النيل، بين دمنهور و بريم على مقربة من قرية رمسيس. و علاوة على ذلك، نرى اليوم آثارا قديمة قرب سلحجر فى الدلتا؛ يعود اسم هذه البلدة إلى أصل عربى، لكن البلدة التى كانت تحمل هذا الاسم ازدهرت زمن المصريين القدامى.

و شاهدت فى بولاق صندوقا من الصوان عليه أحرف هيروغليفية، منقولا من سلحجر. فسافرت إليها خصيصا من القاهرة بعد أن أكدوا لى أنها تحوى آثارا قديمة رائعة. لكننى لم أر إلا معالم البلدة التى تحدثت عنها آنفا، و بعض الأعمدة الشبيهة بتلك التى رسمها نوردن و بوكوك فى مصر العليا، و التى استعملها سكان هذه القرية الفقراء لدعم منازلهم. اكتفيت برسم الحجارة التى عثرت عليها أمام معصرة للزيت (راجعوا اللوحة ۱۱، د) و تدل الرسوم الهيروغليفية على هذه الحجارة، على أن المصريين القدامى قاموا بنحتها؛ فهى منقوشة عليها شأنها شأن الرسوم التى رأيتها على الحجارة الأخرى؛ و لكن اللافت للنظر هو أن الصور الوسطى كانت بارزة أكثر من سواها. و خلال هذه الرحلة شاهدت قرب قرية القم مرتفعات ضخمة، قيل لى إنها بقايا مدينة قديمة.

تكثر فى الجهة الشرقية للدلتا معالم مدن قديمة. ذكرت سابقا أنه فى مدينة ستانسوس المطلة على باحر، نجد معالم مدينة قديمة كثيرة، و أننا نستطيع بالتالى تحديد موقع بلدة تانوسس القديمة. و ذكرت اسم بلدة أبو صير الصغيرة، الواقعة على ساعد النيل الذى يمر أمام دمياط، و اسم بلدة بوصير الشهيرة؛ تقع قرب هذه المنطقة بلدة بعليت حيث شاهد بوكوك و سيكارد معالم رائعة الجمال. و يقال إن الآثار القديمة تكثر قرب ميت بعذ و قناطر الويش، و الغال و سمنّود. و من الواضح أن هذه المنطقة من الدلتا مميزة جدا و تستحق أن يتوقف فيها الرحالة للقيام بأبحاثه؛ و يزعم أنه فى عهد هيرودوس كان المصريون يحجون إلى هذه الشوارع؛ و يزور الأقباط سنويا كنيسة فى جميان؛ و يمكننا مرافقة هؤلاء الحجاج خلال سفرهم دون التعرض للمخاطر. فهم ينزلون فى سمانود؛ إنها بلدة صغيرة جدا و لكنها تقع فى الموقع نفسه الذى كانت تقع فيه قديما بلدة سبانتوس؛ و نجد صوب الجنوب مرتفعات ضخمة فى جوار قرية قطريب. و هذه المرتفعات هى بقايا بلدة قطريبس. و بعد عناء طويل، أقنعت ربان السفينة بإلقاء المرساة فيها، لأن سكانها من القراصنة. و أدركت لاحقا أنهم نقلوا الحجارة التى يمكن استعمالها و لم يتركوا إلا الصوان و الرخام.

كان سيد هذه المنطقة، صديقا لى، و يقوم بأعمال التنقيب فى هذه المنطقة؛ حتى أنه كان يغربل الأرض بحثا عن حجارة أو خواتم أو شيء من هذا القبيل. فقدم لى خنفساء ذهبية، استخرجها مؤخرا من

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۸۶

الأرض، (ترونها على اللوحة ۱۱، ج) من الصعب قراءة الأحرف المكتوبة عليها و كأنها نقشت بواسطة إزميل شبيه بذلك الذى يستعمله النحاتون اليوم. و لقد شاهدت خنفساء فى البصرة، عند السيد ريغو، و لكنها لا تضاهى هذه جمالا. و نرى فى الصورة أ، قطعة من الخزف اللماع، و كأنها غطاء وعاء ما.

و أظن أن الصور محفورة بالطين، و هى شبيهة بالعناوين التى نراها على أغلفة الكتب؛ و هذا يثبت أن المصريين القدامى عرفوا الإزميل و الطباعة.

حدّد علماء الجغرافية القدامى و الحديثون موقع بلدة هليوبوليس بدقة شديدة. و نرى بقاياها قرب بلدة مطاره فى الجهة الشمالية- الشمالية الشرقية، على بعد فرسخين من القاهرة أو ۳ فراسخ من فسطاط أو مصر العتيق. و لكن لم يتبق منها إلا سدود كبيرة و مرتفعات من الرخام و الصوان و الخزف و بقايا سفنكس (أبو الهول)، و نصب عمودى، لم يتمكن السكان من نقله نظرا لثقله؛ فهو مصنوع من الصوان و مغطى بالرسوم الهيروغليفية على جهاته الأربع؛ أما زواياه فهى موجهة نحو جنوب- الجنوب- الشرقى، و شمال- الشمال الغربى، و الشرق- جنوب- شرق، و الغرب- جنوب- غرب.

قارنت الصورة الأصلية برسوم نوردن و اتضح لى أنها صحيحة. ثم فى ۲۴ كانون الأول/ ديسمبر كانت المياه تغمر المكان، فلم أستطع الاقتراب جيدا من النصب العمودى لرؤية النقوش. و ترون فى الصورة ج، من اللوحة ۵، أننى حاولت قياس الارتفاع كما يلى: رسمت خطا من أ إلى ب طوله ۸۴ ۹. بوصته؛ و من ب إلى د طوله ۵ أقدام و ۷ بوصات؛ مما يعنى أن القاعدة طولها ۸۸ قدما و ۸ بوصات. و يبلغ طول الزاوية ه- و- س ۳۰ درجة؛ كما يبلغ طول النصب فوق الأفق ۵۱ قدما و ۴ بوصات؛ و الخط من ب إلى س ۶ أقدام و ۹ بوصات و بالتالى يبلغ ارتفاع النصب من الطبقة السفلى ۵۸ قدما و بوصة؛ وضعت هذه القطعة الأثرية الجميلة فى المعبد الشهير المخصص لعبادة الشمس، فى بقعة منخفضة جدا. حتى أن مياه النيل تصل إلى ارتفاع ۵ أقدام و ۸ بوصات عند بلوغها ذورة علوها. و رغم أن المعبد يشكل جزءا من البلدة، إلا أنه كان محاطا بمرتفعات ضخمة لحمايته من فيضانات النيل. و يقول السكان القدامى إنه

تم بناء بعض المنازل على هذه المرتفعات. و لقد حاول الدكتور شو في الطبعة الجديدة لكتاب رحلاته، أن يثبت أن هذا الجزء من مصر المعرض لفيضانات النيل قد ارتفع كثيرا منذ عهد هيرودوس. فلا بد إذن من الحفر قرب هذا النصب لمعرفة الارتفاع الذي غطى فيه البلاط بالتراب. لكن الشعب المصري لا يحب أن ينقب الأوروبيون في الأماكن التي تكثر فيها الأثريات، ظنّا منهم أننا نبحث عن الكنوز. لكنهم لم يمانعوا حين ذكرت لحاكم المنطقة الأسباب التي تحثّنا على القيام بهذه الأبحاث، طالبا منه مساعدة الفلاحين لنا. و ميّا لا شكّ فيه أنني أثرت فضول سكان مطاره و أنا أقيس ارتفاع النصب؛ فوقفوا على مقربة من المكان. لأنه خيّل لهم أنني سأرمي هذه الحفنة من الحجارة في الهواء و آخذ الكنز المدفون تحتها. لكنهم لم يوجهوا إليّ أي عبارة فظّة، بعد أن اتضح لهم أنهم أخطأوا الظن. و يسمي الكتّاب العرب هيليوبوليس عين شمس و مصر.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ۱، ص: ۸۷

و نشاهد على بعد فرسخين شمالي- شرقي هيليوبوليس، آثار قرية قديمة، يطلق عليها العرب اليوم اسم تل اليهود أي مقابر اليهود. و ممّا لا شكّ فيه أن أرض غصن تشكل جزءا من هذه المنطقة. و لعل معبد اليهود الشهير الذي بناه أونياس، يقع في هذه المنطقة و ليس في هيليوبوليس، كما يظن البعض. فمن الممكن بالتالي العثور في الجوار على آثار يهودية. و لم أشاهد هذه الهضاب إلا بعد انطلاقي من القاهرة، على بعد فرسخين منها. و قالوا لي إنه تقع قربها قريتا سبين و ميت الدمانة.

أعطى سكان بلدة فايديه، المجاورة للقاهرة، السيّد فورسكال أسماء المناطق الأخرى الواقعة في هذا الأقليم، التي كانت مجهولة، نظرا لكونها مأهولة باليهود. و لمّا كانت هذه المناطق تستحق الزيارة، سأذكر فيما يلي الأسماء التي جمعها السيد فورسكال: ۱) لبلب(Liblab) ، عين سيدنا موسى، على بعد فرسخين و نصف من قاعديه. و يقال إنه وجد قديما في هذا المكان عين مياه عذبة ۲) مرقاب سيدنا موسى، على قمة جبل، على بعد فرسخ و نصف من لبلب، من جهة مصر العتيق. ۳) طرطور اليهود، على بعد ۴ أو ۶ فراسخ من قاعد بيه؛ و نشاهد فيها بقايا قصر قديم ۴) فاسكيتا البطقية(Faesqita bataqiae) الواقعة على بعد فرسخين من قاعديه، على الجهة الشمالية- الشرقية. و تكثر في هذا المكان ينابيع المياه، و التربة الحمراء التي تغطي الأراضي و الجبال ۵) تنور فرعون أو جبل فرعون، الواقع على بعد فرسخ من قاعديه، نحو الشرق ۶) مقابر اليهود على بعد ۶ فراسخ من قاعديه. و لقد وجدت قديما، في هذا المكان، بلدة كبيرة مأهولة من اليهود (لعلها البقايا نفسها المذكورة آنفا في تربة اليهود) ۷) قلعة راى على بعد ۷ أو ۸ فراسخ من قاعد بيه. و نجد هنا بقايا قصر قديم من عهد موسى. و يضيف السيد فورسكال، أنه أخبر هؤلاء العرب، أن أولاد إسرائيل اجتازوا البحر الأحمر، جنوبي السويس، قرب عين سيدي موسى.

من الملاحظ أن العلماء الحديثين، ترددوا في تحديد موقع بلدة ممفيس، نظرا لكثرة البقايا من زمن (أبو الفدا) و الشريف الإدريسي؛ كما و أن الكتاب العرب و الأوروبيين، حددوا موقع هذه البلدة بدقة شديدة.

أما السبب الذي حال دون أن نسمع شيئا عنها، فيعود إلى أننا نسينا أن العرب أطلقوا على عاصمتهم اسم مصر، بينما كانوا يسمون العاصمة القديمة مصر العتيق و سموا بالتالي مصر، كلا من هيليوبوليس، و ممفيس و الفسطاط و القاهرة، بينما تحمل اليوم القاهرة كلا من الأسماء التالية: مصر، و فسطاط و مصر العتيق. تقع مدينة ممفيس على الضفة الغربية للنيل، على مسافة يوم بكامله من مصر، استنادا لرأي أبو الفدا؛ لكن الشريف الإدريسي يقول إنها تقع جنوبي مصر، أي الفسطاط، أو عاصمة مصر في تلك الحقبة. و من جهة أخرى يؤكد بنيامين دو تودلا أن ممفيس تقع على بعد فرسخين من فسطاط العام ۱۶۹۷، و لقد شاهد مايي(Maillet) بقاياها حيث كان يتمّ التنقيب عن المومياء؛ فطلب شهادة بلينيوس الأكبر(Pline) ، الذي قال صراحة إن الأهرام تقع بين ممفيس و الدلتا مما يعني أن ممفيس تقع جنوبي

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ۱، ص: ۸۸

الأهرام التي لا تبعد كثيرا عن الجيزة. و لقد شاهد بوكوك في هذه المنطقة بقايا مدينة قديمة حسبها بقايا مدينة ممفيس . أما أنا فلم أشاهد إلا الأهرامات الأولى، لأنني لم أقصد جنوبي مصر؛ فلم أر بالتالي معالم بلدات أخرى. لكنني سمعت أنه في جوار سقاره نرى بعض معالم مدينة ممفيس، كما و أنني رأيت في القاهرة، حجارة مستخرجة من هذه الأنحاء، استعملت في بناء المنازل الحديثة و الجوامع في العاصمة الجديدة. و لن أذعن لرأي السيد شو، الذي يدّعي أن ممفيس كانت تقع في الموقع نفسه الذي تقع فيه اليوم الجيزة، رغم نفوره من بوكوك و كل من يعارضه الرأي حول هذا الموضوع. و سأحاول مناقشة بعض المقاطع، التي نقلها هذا العالم عن عدة مؤلفين، و ذكرها في الصفحة ۲۹۶، من كتابه «رحلات و ملاحظات» المطبوع في لندن العام ۱۷۵۷؛ رغم أنني لا أظنها تثبت شيئا مما نريد إثباته. و في سبيل ترسيخ فكرته، يستشهد الدكتور شو، ب (ديودور(Diodore ديودورس الصقلّي (ص ۲۹۶). الذي يقول إن ممفيس تقع في النقطة التي ينقسم فيها النيل إلى عدة فروع. و هكذا فاستنادا إلى هذا المقطع، لا يمكنني القول: إن هذه المدينة تقع في موقع الجيزة، بل في الجهة الجنوبية؛ لأن النيل لا يبدأ بالتفرّع عند الطرف الجنوبي للدلتا، بل في البقعة الواقعة بين الجيزة و الأهرام. و هو يقول في الصفحة ۲۹۷، إن للدلتا حدودا ثابتة و غير متغيرة، على منأى من ممفيس؛ بيد أنني لا أوافقه الرأي؛ فرغم أن حدود الدلتا هي بطن البقرة أي في جوار قرية ضروة، فمن الممكن القول إن حدود الدلتا كانت تمتد قديما نحو الجنوب. فساعد النيل الذي رسمته على الخارطة، بدءا من أم دينار وصولا إلى الورايق ليس قناة ضيقة، بل ممر عريض، تجتازه السفن المسافرة من بولاق إلى رشيد، نظرا لعمقه. و من الممكن القول إذن إن حدود الدلتا كانت قديما قرب الورايق أو سواها. و لما كان هذا لمجرد تخميني، سأراجع ملاحظات بطليموس التي يستعين بها الدكتور لإثبات وجهة نظره. أما بطليموس فيقول: إن ممفيس تقع على بعد ۲۹ دقيقة و ۵۰ ثانية من خط العرض، و الدلتا على بعد ۳۰ دقيقة منه؛ بينما يبلغ ارتفاع الجيزة ۳۰ دقيقة أيضا؛ فإن كانت ممفيس تقع على بعد ميلين و ربع الميل جنوبا، لا يمكن القول إنها كانت تقع في موقع الجيزة، و يحاول الكاتب تحديد موقع ممفيس وفقا لبعدها عن الأهرام (ص ۲۹۸). و يمكننا الاستنتاج أن هذه المدينة كانت واقعة جنوبي النيل على مسافة متساوية من الأهرام. أما سترابون فيؤكد بأننا نستطيع رؤية الأهرام من بابل و أن ممفيس واقعة قبالة هذه المدينة؛ و يحاول الدكتور شو أن يثبت، استنادا لهذا المنطق (ص ۲۹۹) أن ممفيس كانت واقعة في البقعة التي نشاهد فيها اليوم الجيزة. و صحيح أننا نشاهد الأهرام من قصر القاهرة القديم أو بابل القديمة. لكن الكتّاب الذين أتيت على ذكرهم آنفا، و الذين شاهدوا بأم عينهم بقايا ممفيس، يؤكدون أن

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ۱، ص: ۸۹

هذه المدينة كانت تقع جنوبا على مقربة من فسطاط، و بابل؛ و هذا ما يحثنا على الاعتقاد أنها لم تكن واقعة غربا، بل قرب بابل. و لقد أراد سترابون القول إن ممفيس كانت تقع قبالة بابل؛ و هو يستشهد بهيرودوس، الذي يؤكد أن ممفيس كانت تقع في القسم الضيق من مصر. انطلاقا من هذا المبدأ، بحثت عن موقع المدينة في الجهة الجنوبية، خلافا للدكتور شو، رغم أنه يدّعي أن الجيزة واقعة في القسم الضيق؛ لأنني اكتشفت أن هذا المكان يقع جنوبا، في أرض مكشوفة، محاطة بهضاب، بنيت عليها الأهرام، التي تشكل القسم الأكثر ضيقا في مصر. و إن صحّ القول إن الأهرام واقعة في جوار ممفيس، فذلك يعني أنها أخذت عنها لعبتها و بعبارة أخرى، أظن أن الكتّاب الذين ذكرهم الدكتور شو، لا يقدمون لنا البراهين اللازمة، للقول إن مدينة ممفيس كانت واقعة في المكان نفسه الذي نرى فيه اليوم الجيزة، بل يحاولون إقامة الدليل على أنها كانت تقع بين الأهرام و سقاره. و لكن المدهش في الأمر هو أن هذا العالم الكبير لم يلحظ في كتاب «جغرافية السودان»، و لا في كتاب «وصف الرحلة»، اللذين يذكرهما في الصفحة ۳۰۶، للتحقق من موقع مدينة هيليوبوليس، أن موقع مدينة ممفيس، محدد فيهما، كما أنه لم يحاول مقارنة وجهة نظره بشهادة مؤلفي هذين الكتابين.

و يبدو أن اختلاف وجهات النظر بين شو و بوكوك، حول موقع مدينة ممفيس، أثار خلافا بين العلماء الإنكليز. و إليكم ما يقوله مؤلفو «التاريخ العالمي الحديث»، الجزء الأول، (ص ۳۲۸): «كانت مدينة ممفيس تقع في موقع الجيزة الحالي نفسه؛ و هذا ما يؤكده لنا الدكتور شو، الذي تعتبر ملاحظاته الجغرافية حول مصر و شبه الجزيرة العربية، جديرة بالقراءة أكثر من سواها، نظرا لصحتها و دقتها، و استنادا إلى أبحاث علمية سليمة، و انتقادات سوية ... و بعبارة أخرى سيصمد كتابه في وجه الحملات الموجهة ضده، و بعد أن يدخل كل من حمل قلمه و حاول تقليده أو الحط من قدره طي النسيان، أو يواجه بازدراء، جدير به الجدارة كلها».

و بما أني كنت أجهل السبب الذي حثّ العلماء الإنكليز على إصدار هذا الحكم التعسفي بحق الرحالة كافة، و اعتبار الدكتور شو زعيما لهم، فلن أستطيع أن أقدم تفسيرا ملائما لهذا القرار. و لكنني أقرّ بأنا لا نجد وصفا للرحلات خاليا من العيوب، أو رحالة معفى من الأحكام المسبقة؛ لذلك من الأفضل عدم الدفاع عن آرائنا بعناد. و لعل يهود و أقباط مصر يستطيعون تحديد مواقع مدن هذه البلاد القديمة، لكن الأوروبيين لا يسعون أبدا لتوطيد صداقتهم بهؤلاء الأشخاص و يفضلون استشارة سواهم، في حال لم يعطهم، أول شخص يصادفونه، أجوبة مرضية .. و لم أحاول أبدا الاستفادة من هذه الفرصة؛ و لكنني أنصح الرحالة اللاحقين، باستغلال هذا الأمر.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۹۰

وصف القاهرة و بولاق و مصر العتيقة و الجيزة

اشارة

شهدت المناطق المحيطة بالقاهرة تغيرات جذرية خلال الأحد عشر قرنا الماضية، أى بعد أن حكم المسلمون مصر و دمروا بعض المدن، و أهملوا أخرى، و بنوا بعضها الآخر فى مكانها. بعيد وصولهم إلى مصر، استولوا على مدينة مصر، بعد أن غادر المقوقس و لا يزال موقع هذه المدينة غير محدّد، رغم أن مؤلفى «التاريخ العالمى» يؤمنون بأنها مدينة ممفيس الشهيرة. و لكن استنادا إلى رواية المؤرخين الشرقيين، انسحب المقوقس مع حاميته إلى إحدى جزر النيل بينما سلك اليونانيون الذين كانوا يساندونه الطريق المقابلة باتجاه الإسكندرية .

كانت مصر تقع إذن على الضفة الغربية للنيل؛ بينما يقع كل من ممفيس و الإسكندرية على الضفة الشرقية منه. و عند مغادرتهم هذه المدينة، لم يضطر اليونانيون لاجتياز النيل، حتى يعودوا إلى الإسكندرية. و لعل مصر هذه هى بابل، التى تحدث عنها المؤلفون اليونان، و الواقعة جنوبى القاهرة، بين جبل المقطّم و النيل، إننا نجد فى هذه المنطقة، أنقاض كنائس قديمة، يجلّها الأقباط؛ كما و أن اليهود، الذين كانوا كثرا فى مصر ، يملكون مقبرة فى هذا المكان، رغم بعده عن القاهرة، و خطورة السبل المؤدية إليه.

أطلق المسلمون على المدينة الأولى التى بنوها اسم الفسطاط؛ و تحدث بعض المؤلفين العرب عن أصلها . فبعد أن استولى عمرو، قائد الخليفة عمر، على هذا القسم من مصر كان يستعد هو و رجاله للتقدّم نحو الإسكندرية. و لكنه ترك فى تلك المنطقة خيمة، بنت عليها حمامة عشها، فقال العرب إن هذا الأمر فأل حسن، و ارتأوا بناء مدينة فى تلك البقعة. و لكن كانت لديهم أسباب أخرى للاستقرار فى هذه المنطقة؛ فالمسلمون الذين وصلوا حديثا إلى تلك البلاد، فضّلوا عدم الإقامة داخل المدينة، بين السكان المسيحيين. و ارتأوا أن يبنوا مكانا لهم خارجها، حيث حطّوا رحالهم، و ذلك فى سبيل حماية أنفسهم. فاستقر قربهم العرب الذين كانوا يعملون فى مصر، فضلا عن المسيحيين الذين اعتنقوا الإسلام؛ فأدّى ذلك إلى ولادة مدينة الفسطاط. و لئن كان اليونان و الرومان قد جعلوا من الإسكندرية عاصمة البلاد نظرا لقربها، فقد اختار العرب ضواحى الفسطاط للسبب نفسه. كما أن الحاكم المقيم فى وسط

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۹۱

البلاد، يستطيع أن يرسل الجيوش، من هذه البقعة إلى الأقاليم كافة، إن دعت الحاجة لذلك.

و بعد أن أصبحت الفسطاط عاصمة بلاد مصر، سميت مصر؛ و لكنها لم تستمتع طويلا بهذا الشرف، إذ بدأت تضعف شيئا فشيئا، و القاهرة تزداد قوة. و بعد أن تحولت القاهرة إلى عاصمة للبلاد، أسميت مصر أيضا، بينما عرفت الفسطاط، التى كانت تحمل هذا الاسم أصلا، بمصر العتيقة. و رغم ذلك حافظ المصريون على الأسماء القديمة، و أطلقوا على مدينة مصر، اسم القاهرة، و على الشارع الطويل المطل على النيل، و الذى يشكّل جزءا من مصر العتيقة، اسم الفسطاط. و الأوروبيون وحدهم بدّلوا اسم هذه المدينة الأخيرة؛ فهم يسمّون الفسطاط أو مصر العتيق. القاهرة القديمة، رغم أن سكان البلاد الأصليين لم يسموها أبدا القاهرة.

نعلم جيدا أن مدينة القاهرة قد بنيت عام ۳۵۸ أو ۳۵۹ للهجرة، على يد جوهر، قائد جيش الخليفة الفاطمى المعزّ و لكن هذه المدينة الجديدة لم تعتبر ضاحية الفسطاط إلا عام ۵۷۲، بعد أن سوّرها صلاح الدين، و بنى فيها جوامع جميلة، و مدارس و مستشفيات؛ فالشريف الإدريسى، الذى وضع كتبه قبل هذه الحقبة، لم يأت على ذكر القاهرة، و اكتفى بالتحدث عن الفسطاط، التى كانت معروفة يومها بمصر. نشاهد اليوم فى القاهرة بقايا سورين من أسوار المدينة: يقع السور الداخلى بين باب الفتوح و باب نصر و باب غريب و باب المشرق و باب الفولى؛ و يقع السور الخارجى بين باب الحديد و باب الشارى بين باب المشرق و القصر، قرب باب القرافه. و أنا لا أعرف أيا من هذين السورين بناه صلاح الدين لأننى لم أنقل أية نقوش عربية من هذه البلدة، رغم توافرها بكثرة؛ و لكننى أعتقد أنه بنى السور الداخلى. و كانت حدود مدينة القاهرة كما وصفها جان ليو، على النحو التالى: تشمل ضواحى هذه المناطق، و الأماكن الواقعة خارج باب الفتوح و باب النصر و باب الفولى؛ فهذه البوابات الثلاث تضاهى الأخريات عظمة و جمالا. و لا حظ الأمير رادزفيل الذى وصف حدود القاهرة كذلك، أن الشارع الممتد من باب الفولى إلى القصر يعد من الضواحى. و يقول السيد جان وايلد الذى قضى عدة سنوات فى القاهرة فى بداية القرن السابع عشر، إن المدينة كانت مسورة؛ و أظنه يقصد السور الخارجى.

و من الصعب أن نعرف إن كانت مساحة مدينة القاهرة قد زادت أو تقلصت خلال القرون الأخيرة، و لا نملك خارطة لها.

ثم إنه من خلال وصف جان ليو لهذه المدينة، يمكننا القول إنها لم تشهد تغيرات جذرية منذ عهده؛ و رغم أن شارع تيلون(nجTeil) قد صغر بعض الشىء و أن القرافة تضم عددا أكبر من المقابر؛ و رغم أن عدد المنازل بين القاهرة و بولاق و مصر العتيقة كان فى تلك الحقبة يفوق عددها الحالى؛ علينا أن نأخذ بعين الاعتبار أن هذا المؤلف لا يأتى على ذكر شوارع كثيرة واقعة على الطرف الآخر للمدينة. و لعل الضواحى لم تكن متلاصقة، و لا قريبة من القاهرة، كما هى اليوم. و هو لا يشير إلى تاريخ هذه المدينة

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۹۲

أبدا؛ و لذلك سأكتفى بالتحدث عن موقعها و مساحتها. انطلاقا من هذا المنظار، رسمت خارطة للقاهرة و المدن المجاورة لبولاق و مصر العتيق و الجيزة (اللوحة ۱۲). و الجدير ذكره أن تنفيذ هذه الخارطة تطلب عناء طويلا، كما و أن فظاظة سكان القاهرة تجاه كل من يتبع ديانة مختلفة عن ديانتهم، زادت الأمر خطورة و لا إخال أن أحد الأوروبيين حاول الإقدام على هذه الخطوة من قبل. و لكننى جازفت بقياس الشوارع، خاصة تلك التى لها منفذان، و بتحديد موقعها بواسطة بوصلة صغيرة. نجد بين هذه الشوارع الرئيسية أحياء مختلفة، تضم شوارع صغيرة لها منفذ على الشوارع الرئيسية. و يقطن فى هذه الأحياء الحرفيون و السكان الفقراء الذين يعملون فى المدن الشرقية فى دكاكين صغيرة فى السوق. و لما كان الزوج يغيب عن منزله طوال النهار، و لما كان الشرقى غير معتاد على زيارة زوجة صديقه أو ابنته، فالأجنبى الذى يشاهد فى حى مماثل، هو حتما تائه، و يحاول أول شخص يصادفه، إعلامه بأن الشارع لا ينفذ إلى الطرف الآخر و عليه أن يعود أدراجه. و بالتالى لا يتمكن الأجنبى إلا من زيارة الأحياء المنفصلة. يبد أنه أتيحت لى فرصة رؤية بعض الأحياء الشعبية؛ و قد أشرت إليها على خارطتى، لأعطى مثالا عن مواقع شوارع القاهرة المميزة. و على غرار كافة المدن التى رأيتها فى الشرق، عمدت إلى الإشارة إلى موقعها و مساحتها و أبوابها على الخارطة. فى حين أنه قلّما يهم الأوروبيين التعرف إلى شوارع مدن الشرق، و لا أحد يجبر الرحالة على التعرض لهذه المخاطر من أجل مسألة سخيفة إلى هذا الحد. و سأشرح لكم فى ما يلى معنى الأحرف و الأرقام التى تشاهدونها على اللوحة المذكورة:

على خارطة مدينة القاهرة أو مصر

أ- محل إقامة الباشا الحاكم، ب- حى الانكشاريين أو بمعنى آخر، القصر، ج- حى الغربيين؛ تقع الأماكن أ و ب ج على صخرة، تسمى القصر أو الحصن، د- محلة قره ميدان، ه- محلة الرميلة، و- قلعة الكبش؛ و هى عبارة عن قصر متداع، يقع بقربه جامع طولون- سلطان حسن؛ و هو عبارة عن جامع رائع، على مقربة من سوق عقال، حيث يجتمع التجار كلهم، ح- جامع الأزهر، و هو جامع و معهد، ط- بطركية الأقباط؛ يقيم فيها بطرك مصر الإغريقى، ى- كنيسة القديس نقولا اليونانية؛ و نجد على مقربة منها عقال حمزاوى، ك- كنيسة قبطية مبنية فوق أنقاض كنيسة أرمنية، ل- كنيسة و مقر أسقف جبل طور اليونانى، م- مقر القاضى، ن- خان الخليل، س- المارستان أو الحجر الصحى، ع- مقر القنصل الفرنسى و التجار الفرنسيين، ف- مقر قنصل البندقية، ص- حى اليهود ق- قبة الغربيين؛ كانت قديما مقر جيوش الغربيين، و فيها حصن و جامع كبير؛ لكن فى هذا المكان يستقبل سكان القاهرة الباشاوات الذين يصلون برا، ر- مقابر البندقيين و الأقباط، ش- المسلخ، ت- فرن لتنقيس البيض؛ و نجد أيضا فى هذا الحى مصنعا للبارود، ث- فرن الكلس.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۹۳

أسماء الجسور على القناة التى تجتاز القاهرة

أ- قنطرة فم الخليج، ب- قنطرة الجنينة، ج- قنطرة السباع، د- قنطرة أمرشى، ه- قنطرة الجماميز، و- قنطرة سنقر، ز- قنطرة عبد الرحمن كخيا، ح- قنطرة باب الخرق، ط- قنطرة الأمير حسين، ى- قنطرة الموسكى، ك- قنطرة الجديدة، ل- قنطرة باب الشعرية، م- قنطرة الخروبى، ن- قنطرة الضاهر بيبرس.

أسماء البرك

س- برکة الشیخ قمر، ع- برکة الرطلی، ف- برکة الیزبکیة، ص برکة الفواله، ق- برکة أبو شوارب، ر- برکة النصریة، ش- برکة القصارین، ت- برکة أیوب به، ث- برکة الفیل.

أسماء أبواب القاهرة

۱- باب النصر، ۲- باب الفتوح، (راجعوا اللوحة(۳ XIII- باب المدبح، ۴- معمل النشی، ۵- باب الشعریة، ۶- باب البکری ۷- باب الشیخ شایب، ۸- باب الحدید، ۹- باب ولاد عنان، ۱۰- باب الهوی، ۱۱- باب الفواله، ۱۲- باب سوق البکری، ۱۳- باب المدابغ، ۱۴- باب الشیخ ریحان ۱۵- باب الناصریة، ۱۶- باب غیط الباشا، ۱۷- باب أیوب به، ۱۸- باب سقی زینب، ۱۹- باب طولون، ۲۰- باب الخلیفی، ۲۱- باب القرافة، ۲۲- باب الجبل، ۲۳- باب لیسار، ۲۴- باب قره میدن، ۲۵- باب العزب ۲۶- باب الانکشاریة، ۲۷- باب الوزیر، ۲۸- باب الحطاب، ۲۹- باب المعروف، ۳۰- باب الغریب، ۳۱- باب السویلی.

فی بولاق و مصر العتیقة و الجیزة

۳۲- الهالة، صرح متداع یستقبل فیه سکان القاهرة الباشاوات الذین یعبرون النیل ۳۳- متجر خشب ۳۴- مستودع قدیم للأسلحة ۳۵- متجر الملح ۳۶- الجمارک ۳۷- سوق کبیر أو قیساریة ۳۸- مصنع آجر ۳۹- أماکن تنزل فیها حجارة ممفیس، و غیرها من المدن القدیمة، و ینقل منها سکان القاهرة میاه النیل علی الجمال ۴۰- منزل بیه ریفی کان یقیم فیه الباشا الذی عزله سکان القاهرة ۴۱- المصطبة حیث یتعلم أسیاد القاهرة لعبة رمی القوس. ۴۲- کفر العین، صرح کبیر یسکن فیه حالیا الدراویش ۴۳- منزل متواضع ینزل فیه الباشا عند حفر سد القناة؛ و تشید العروس بین النیل و السد، عند تنظیف القناة ۴۴- کنائس و مقابر قبطیة؛ و یقال إن الهیاکل العظیمة تتحرک فیها مرة فی السنة ۴۵- صرح ۵ شاهق، له خمس نواعیر، ترفع بواسطتها میاه النیل، لتنقل بعده إلی خزان قرب القصر ۴۶

رحلة إلی شبه الجزیرة العربیة/ تعریب عبیر منذر، ج۱، ص: ۹۵

- جامع کبیر ۴۷- جامع أبو زکی، بانی القناة ۴۸- کنیسة قبطیة ۴۹- جامع عمرو ۵۰- بقعة مسورة، یسکن فیها المسیحیون ۵۱- متجر یوسف للقمح ۵۲- البزار ۵۳- الجمارک ۵۴- فرن فی الجیزة ۵۵- مصانع فخار.

لم أرسم سوی میاه البرک، التی لم تکن جافة فی شباط/ فبرایر و آذار/ مارس. و لم أستطع تحدید سعة الجنائن المغلقة، علی هذه الخارطة؛ و لکنها تکثر فی الأماکن التی رسمت فیها أشجار، و تمثل إشارة L L L L المقابر فحسب. و تحمل شوارع القاهرة أسماء الأبواب و الجسور المحاذیة لها.

تقع بلدة القاهرة، مصر أو القاهرة الکبیرة، کما یسمیها الأوروبیون، علی بعد فرسخ عن بولاق و النیل، فی بقعة رملیة، علی سفح جبل المقطم. و یمکننا رؤیة المدینة جیدا من قمة الجبل علما أنها محاطة من الجهات الأخری بمرتفعات من الأقذار التی تجمع یومیا من المدینة و تنقل إلیها علی ظهر الحمیر. و رغم أن القاهرة مدینة کبیرة، لا یمکننا القول إنها مکتظة بالسکان أکثر من المدن الأوروبیة التی توازیها مساحة. نجد فی هذه العاصمة المصریة مستنقعات کبیرة، تتحول إلی بحیرات صغیرة عند ما تمتلیء بالمیاه.

و تحتل الجوامع المساحة الأکبر من هذه المدینة. و نری فی بعض الأحیاء کحی باب الفولی و طولون و حنفی و باب اللوق، و التی لا أعرف شوارعها الأساسیة جیدا، رغم أننی أشرت إلیها علی خارطتی، حدائق فسیحة و أماکن فارغة خاصة بین القناة و برکة الفوال، التی عاینتها عن کثب. و علی خلاف المنازل الأوروبیة، لا تتمیز منازل القاهرة بارتفاعها. کما و أن معظمها مبنی من القرمید غیر المشوی و لا یتألف إلا من طبقة واحدة. یخال، بعض الأوروبیین، أن مدینة القاهرة مکتظة بالسکان، علما أنهم لم یعیروا مواقع الأحیاء انتباها. ففی بعض الأماکن، یستطیع جاران، أن یتبادلا الأحادیث من خلف منزلیهما، رغم أنهما یقطنان فی حیین منفصلین؛ بینما یتوجب علیهما قطع ربع فرسخ لیلتقیا معا؛ إذ إن الحی له منفذ واحد علی الشارع الرئیسی. و بالتالی، یری الأجنبی هذه الشوارع الکبیرة مکتظة بالناس خلال النهار، خاصة و أنها تشبه شوارع مدن الشرق کلها من حیث ضیقها. لکننا غالبا ما نجد الطرقات الأساسیة خالیة من الناس، خاصة و أنها بعیدة عن وسط المدینة، و لا یکثر فیها الحرفیون؛ و یبدو الفرق جلیا عند دخولنا إلی الأحیاء المنفصلة.

قدمت لنا الکتابات الأخری شرحا مفصلا للغایة عن أحیاء مصر و أبنیتها، حتی أننا نستطیع الاکتفاء بذکر موقعها علی الخارطة. و لکنتی سأضیف بعض الأشیاء علی ما سبق و ذکر. یقع القصر بین المدینة و جبل المقطم علی صخرة منفصلة عنه. و لا یمکننا تحدید زمن تشییده علی هذا الارتفاع و یقال إنه کان مأهولا بالسکان و یشکل جزءا من بابل مصر، التی کانت خاضعة آنذاک لحکم الیونان. یطلق بنیامین دوتودالا علی القصر اسم الصوان؛ و یبدو أن یهود مصر، کانوا یعتقدون أن مدینة زوان، المذکورة فی

رحلة إلی شبه الجزیرة العربیة/ تعریب عبیر منذر، ج۱، ص: ۹۶

الکتاب المقدس، کانت تقع فی هذه المنطقة و اللافت للنظر أن موقع هذه الصخرة ملائم للغایة، حتی أن البعض یظن أن المسلمین وجدوها حصینة. لعام ۲۱۷ للهجرة. و لقد بنی الخلیفة المأمون علی جبل المقطم، قبالة القصر المذکور، قصر قبة الهوی، و لکنه مهجور تماما .

یتألف القصر من ۳ أقسام؛ جناح الباشا، جناح الانکشاریین، و جناح العفافرة. أما جناح الباشا، فمهدم کلیا، و لا یلیق بحکام مصر. و لما کان الباشاوات لا یطیلون البقاء فی منطقة واحدة، لم یحاول أی منهم بناء قصر جدید؛ و بالتالی فهم ینزلون فی أماکن لا تلیق بهم. یتصل هذا الجناح بالجناحین الآخرین، عبر بابین منفصلین؛ و لکن الباشا لا یحتفظ بمفتاحیهما، بل بمفتاحی البابین اللذین یؤدیان إلی المیدان، و الجبل و الحقول. و عملا بتقلید هذا البلد، تقفل الأبواب لیلا بواسطة أقفال خشبیة. و نجد فی جناح الباشا، قسما لصک الأموال، تضرب فیه عملة سکین الذهبیة، و البارة الفضیة، و البورب النحاسیة؛ و لکنها لا توازی الأموال التی تضرب فی القسطنطینیة قیمة. یشبه جناح الانکشاری قلعة منیعة؛ فهو محاط بسور محصن بأبراج شاهقة علی غرار القلعات الترکیة الأخری. یتکفل السلطان بدفع رواتب الانکشاریین؛ و لما کان معظم الضباط عبیدا عند علیة القوم فی القاهرة، نراهم أکثر تعلقا بأسیادهم من السلطان. و هم یلجؤون إلی طرد الباشا، الذی یعینه المصریون، إن رفض الانسحاب خلال الفترة التی یحددها له البهاوات. لکن العرب لا یخشون الانکشاریین، لأنهم یسرقون الأماکن المجاورة للقصر، و المأهولة بالسکان. و یقع فی هذه المنطقة، ینبوع یوسف الشهیر و الذی یزوره الرحالة کلهم. و مما لا شک فیه أن بناء هذا الینبوع یتطلب عناء و مالا وفیرا، لأنه عمیق جدا و منحوت فی الصخر؛ و لکن الصخر حجارة من الکلس اللین و العمل علیها لا یتطلب عناء کبیرا، مقارنة بالمعالم التاریخیة الأخری، مثل الباغود فی الهند، المحفورة فی الصخور الصلبة. و رسم نوردن صورة واضحة جدا لینبوع یوسف. یعتبر قصر یوسف أکثر الأماکن جمالا فی جناح العفافرة؛ و تصنع فیه الأقمشة الفاخرة (الکسوة)، التی ترسل سنویا إلی مکة علی حساب السلطان؛ و نری الیوم فی هذا البناء، أنقاضا کثیرة تدل علی عظمته السابقة. فقد زینت جدران جناح النساء بصور أشجار و منازل و خلافها و فسیفساء من عرق اللؤلؤ، و الحجارة الکریمة و الزجاج الملون. و نری الیوم فی الغرفة التی کان یطرز فیها القماش، بعض النقوش علی الجدران. و نشاهد فی غرفة ثالثة، رسومات جمیلة علی السقف. أما فوق هذا الجناح من القصر، حیث البناء مدعوم بسور ضخم فنصادف شرفة مغطاة تطل علی الأهرام و الجیزة و مصر العتیقة و بولاق، و تشرف علی منظر فاتن. و الملاحظ أننا نقع فی هذا المکان، علی أسماء بعض حکام مصر القدامی، محفورة علی الجدران. و یقال إن خلفاء مصر و سلاطینها أقاموا فی هذا القصر؛ و المدهش أن الحکام الأتراک لم یحذوا حذوهم، و لقد رآنی المشرف علی العمال،

رحلة إلی شبه الجزیرة العربیة/ تعریب عبیر منذر، ج۱، ص: ۹۷

الذین یصنعون القماش المذکور آنفا، و أنا أتأمل القصر، فدعانی لشرب القهوة فی منزله. فسألته عن یوسف الذی یحمل هذا البناء الجمیل و الینبوع المذکور اسمه آنفا، فقال لی إنهما بنیا منذ ۶۰۰ سنة، علی ید صلاح الدین. و هذا الأمر لیس خالیا من الصحة لأن الأمیر المذکور بنی عدة أماکن عظیمة.

و کان یسمی یوسف والد المظفر، ابن أیوب. أما الأسماء الأخری التی حملها، مثل السلطان و الملک و النصر، و صلاح الدین، فهی ألقاب شرف، و نشاهد قرب قصر یوسف هذا حوالی الثلاثین عمودا من الغرانیت الأحمر؛ و لکنها لا تضاهی عمود بومبی، فی الإسکندریة، جمالا و عظمة. أما الطریق المؤدی إلی صف الأعمدة هذا فهو محفور فی الصخر؛ و نشاهد علی سور أحد الأبنیة صقرا منقوشا علیه، زالت ملامحه مع مرور الزمن.

لم تعد القرافة مأهولة بالسكان؛ لكننا نرى فيها جوامع جميلة مهدمة جزئيا، و أضرحة ملوك مصر القدامى. و في هذا المكان بالذات، دفن الشافعي، مؤسس أحد المذاهب الأربعة التابعة لأهل السنة.

و كانت النساء المسلمات تزرن هذا المكان، خاصة نهار الجمعة، إما للعبادة أو للتنزه. في الجهة الأخرى للقصر، بين جبل المقطم و المدينة، نشاهد عددا كبيرا من الجوامع المتداعية، و دور عبادة مجاورة لقبور المسلمين الأثرياء، و التي يبلغ طولها حوالى الميل .

و نجد أنفسنا أمام خيارين: إما اعتبار قاعد بيه نبيا، بين هؤلاء الأثرياء المدفونين أم إنه كان يدرك أن الآخرين لن يتلفوا جامعه؛ لأن المعبد الذي شيده في هذا المكان هو في حالة جيدة و قد بنيت حوله عدة منازل و باتت تشكل قرية كبيرة. يرقد اليزبك الذي شيد جامعا كبيرا بالقاهرة، في الشارع الذي يحمل اسمه في أحد جوامع قاعد بيه، في الجهة الشمالية- الشرقية، و ضريحه محاط بعدد وافر من المنازل.

فيبدو جليا أن أسياد المسلمين في مصر، أسرفوا في بناء المعابد، شأنهم شأن سلاطين القسطنطينية؛ و لعلهم بالغوا أكثر منهم. سمعت أنه يوم كان ملك البلاد يقيم في القاهرة، كان الشيوخ الفقراء ينتقلون من جامع إلى آخر، حيث يؤمنون لهم الطعام و المأوى مجانا.

يتميز حي طولون بجامعه الكبير، الذي يبلغ طوله ۲۰۰ قدم، و بقلعة الكبش القديمة. بنى هذه القلعة المدعو أحمد بن طولون، الذي ثار، عام ۲۶۵ للهجرة في وجه خليفة بغداد. مما يعني أن هذا القصر أقدم من مدينة القاهرة و من بين جوامع هذه المدينة كلها، يعد جامع الأزهر أكثرها قدما و غنى و أكبرها مساحة. حيث يؤمن يوميا المأكل و المأوى لعدد كبير من الفقراء. و نجد هنا معهدا إسلاميا شهيرا، على

رأسه ۴ مفتين يمثلون المذاهب الأربعة: الشافعي، و الحنفي، و الحنبلي و المالكي. يتميز جامع السلطان حسن، الواقع على مقربة من الرميل، بجماله و ارتفاعه و صلابته. و لما كان يستعمل قديما كمربض للمدافع، أحيطت بوابات المعبد بالأسوار. و الجدير ذكره أن عدد الجوامع في القاهرة كبير جدا، و أظن أن تعدادها و ذكر أسمائها و الإشارة إلى موقعها على الخارطة قد يثير ملل القارىء. سأكتفي إذن بالقول: إن عددا كبيرا منها له أكثر من منارة، محاطة برواق أو أكثر، تستعمل لدعوة الناس إلى الصلاة. يقول المسلمون، إن رنين الأجراس خاص بالدواب؛ يعلقون أجراسا صغيرة بالجمال و البغال التي تستعمل في القوافل. و تقتصر زينة الجوامع على السجاد الفاخر أو الحصر البسيطة، و النقوش الذهبية على الجدران، التي تتضمن آيات قرآنية و قناديل غير جميلة معلقة أفقيا بسلسلة من الحلقات. و من الجهة المقابلة لمكة، نرى كوة من المرمر، تسمى القبلة، وضع أمامها شمعدانان كبيران فيهما شموع طويلة و خلال الصلاة يوجّه المسلمون كلهم وجوههم نحو القبلة. أما المارستان فهو مستشفى المجانين و المرضى و يقال إن مؤلفات العرب تتحدث تفصيليا عن عائدات المستشفى و الجوامع الكبيرة. و اللافت للنظر أن المشرفين على إدارة هذه الأموال يغتنون بسرعة، بينما تفتقر الجوامع شيئا فشيئا، إلا أن يظهر ورثة جدد يحاولون إصلاح الأضرار التي تسببها هذه العمليات. و مما لا شك فيه أن هذا المستشفى مجهز بكل ما يحتاجه المريض، حتى الموسيقى. و من المعروف أنه لسنوات خلت حرم المرضى من هذه التسلية؛ و لكن الفضل يعود لعبد الرحمن الكخيا في التمتع بها ثانية. و لم أر من هذا المبنى إلا جناح المرضى، الذين كانوا قلّة، مقارنة بكبر مساحة المدينة. و تكثر في القاهرة المباني الحجرية الصلبة المجهزة بغرف صغيرة و دكاكين للتجار. و من الملاحظ أيضا أن عدد الحمامات العامة مرتفع جدا؛ و رغم أن منظرها الخارجي ليس لائقا إلا أنها فسيحة و نظيفة من الداخل. فالأرض مغطاة بالمرمر الفاخر، و يسهر الخدم فيها على راحة الزوار. و الجدير ذكره أن الاحتفالات التي يقومون بها مع الذين يرتادون الحمام، تبدو في غاية الغرابة بالنسبة للأوروبي، حتى أنه يخالهم يسخرون منه. لكن هذا ليس من شيم الشرقيين. و من الأفضل أن يذعن الفرد لإرادتهم، و يحاول الاسترخاء، نجد في داخل المبنى غرفة صغيرة، وضع في وسطها عمود طوله حوالى قدمين و نصف القدم، يجلس عليه كل من يشاء انتزاع الشعر عن أعضائه التناسلية بواسطة مرهم يباع في الحمامات. و ما لفت انتباهي في هذا المكان، هو أنني رأيت بين رسومات القدامى، صورا لأشخاص عراة جالسين على هذا العمود. و هذا الأمر يدفعني للاستنتاج أن هذه العادة الرائجة اليوم في الحمامات، هي قديمة العهد. و من بين المباني العامة في القاهرة، نذكر أيضا المنازل التي يقدم أهلها يوميا الماء مجانا للمارة. و تتميز بعض هذه المنازل بمظهرها الجميل؛ و يحتفظ أهلها على الشرفات بكؤوس نحاسية نظيفة مملوءة بالمياه، تقدم للمارة.

و تكثر في القاهرة أيضا البرك التي هي عبارة عن أماكن منخفضة، تتحول في غضون ۱۲ شهرا إلى بحيرات صغيرة، لتصبح بعدها حدائق غنّاء و مروجا خضراء ثم لتمسي أخيرا صحراء. و يقيم في هذه المناطق، و خاصة في محيط بركة الفيل، أسياد المدينة. لكن المسلمين لا يظهرون أبدا عظمتهم على منازلهم؛ و لهذا السبب لا نرى من قصورهم إلا الأسوار الشاهقة.

تحدثت سابقا عن أنقاض هيليوبوليس، التي نراها على بعد فرسخين شمالي الشمال الشرقي للقاهرة.

و نجد على مقربة من هنا قرية مطاره، حيث نرى أشجار جميز يجله مسيحيو الشرق؛ إذ يزعم أنها فتحت أغصانها لتخبىء بينها العائلة المقدسة، خلال هروبها من مصر، إلى أن مر مضطهدوها. تحدث السيد بريتباخ و الأمير رادزفيل، و غيرهما عن هذه الأعجوبة و لكن يجدر بنا ألاـ نتوقع العثور هنا على الشجرة نفسها التي يزيد عمرها على ۱۸۰۰ سنة. و يقول الأمير رادزفيل إنها شاهقة و كثيفة و مشقوقة؛ بينما يدّعي و يلد أنها منقسمة إلى ۳ أقسام و لا أذكر أنني شاهدت شجرة تحمل هذه المواصفات؛ مما يجعلني أشك بأن الشجرة التي كانت تجل منذ ۲۰۰ سنة، لا تزال موجودة حتى اليوم. و لكن المسيحيين الذين يعبرون من هنا، يأخذون قطعة من هذه الشجرة التي يزعمون أنها مقدسة. و نرى بالقرب منها ينبوعا تدفقت منه المياه العذبة، عند مرور العائلة المقدسة بمحاذاته. فضلا عن شجر اللبان، الذي قضى عام ۱۶۱۵ بفعل فيضان مياه النيل، وفقا لكلام هنري رانتزوف؛ و منذ خضوع مصر لحكم الأتراك، لم يتكبد أحد عناء زراعة نباتات جديدة من هذه الفصيلة من الأشجار.

و على بعد ۴ فراسخ شرقي القاهرة، تقع بركة الحاج، التي تصب فيها مياه النيل؛ و يتجمع سنويا حولها الحجاج قبيل انطلاقهم إلى مكة، و بعد عودتهم منها. و تكثر حول هذه البركة القرى و المنازل القروية المتداعية، التي تعود لسكان القاهرة، و بعض بساتين البلح؛ و هي تتميز بالبقعة الفسيحة التي يخيم فيها الحجاج. و بعد عودتي من دمياط، في ۲۰ أيار/ مايو عام ۱۷۶۲، أي قبل يومين من انطلاق الحجاج، أسرعت لمشاهدة هذه القوافل الشهيرة قرب بركة الحاج و وصفت مشروع التخييم (راجعوا اللوحة ۱۴) بيد أنني لم أنقل بصورة صحيحة الفوضى التي كانت تعمّ المخيم؛ فكل مسافر ينصب خيمته حيثما يحلو له. لكن أمير الحج وحده هو الذي كان يملك خيما كثيرة، كان ينصبها بشكل منظم. و إليكم شرحا للأحرف المشار إليها على الخارطة المذكورة آنفا. أ- خيم أمير الحج، و في وسطها خيمة صغيرة يوضع فيها القماش الفاخر، الذي سينقل إلى مكة، ب- مقر الأمير خلال النهار؛ نجد أمامها ۳ مدافع صغيرة؛ و أربعة أمام المقر (ج)، د- خيم بانعي المؤن. و تمثل الخطوط المستقيمة الحبال التي تربط فيها الخيول و الجمال، ه- قربة فقيرة، و- منازل قروية ملك أسياد القاهرة. تشير الأحرف المتبقية إلى خيم مستديرة و مستطيلة. و إنني لم أشاهد هذه القافلة و هي تغادر القاهرة؛ و لكن تناول بعض الكتاب هذا الموضوع بتفصيل دقيق. و ينضم إلى هذه القافلة المغربيون أو عرب الغرب، و يتابعون رحلتهم برفقتها؛ علما أن المغربيين الذين يمارسون الأعمال التجارية، يسافرون مع المصريين؛ أما الجزائريون و التونسيون، و أهالي طرابلس الغرب، فيسبقون الآخرين أو يحطون رحالهم بعدهم بيوم واحد؛ كما و أنهم لا يدفعون رسم العبور للحكومة المصرية.

يقام في بولاق بازار كبير يعرف بالكيساري(Kissarie) ؛ أخبرني صديق لي مقيم في القاهرة، أن الأباطرة الإغريق أو الرومان أطلقوا عليه هذه التسمية. و لكننا نجد في مدن أخرى، كبيروت مثلا، أسواقا هائلة، تسمى كيساري(Kissarie) ؛ فهذه التسمية مرادفة إذن للبزستان في القسطنطينية، و عقال في

القاهرة . و تعد بولاق اليوم مدينة مهمة، و مرفأ أساسيا من مرافىء القاهرة؛ إذ تمر فيها كل البضائع التي ترسل عبر النيل، من دمياط و رشيد إلى العاصمة، أو إلى المتوسط؛ مما يعني أننا نجد فيها أهم مركز للجمارك. و تكثر في بولاق مستودعات الأرزّ، و الملح، و البارود الأبيض و الخشب، و الزعفران، الذي ينمو في مصر العليا، و لكن الزعفران الذي تنتجه مصر الوسطى يصدّر إلى القاهرة. و نجد أيضا في بولاق مستودعا خاصا بالسلطان، يجمع فيه القمح الذي يرسل سنويا من مصر إلى مكة و المدينة و آخر قديما، يوضع فيه عتاد السفن العائدة إلى الحقبة التي كانوا يملكون فيها أسطولا في السويس.

تعد الفسطاط أو مصر العتيقة- كما اعتاد الأوروبيون على تسميتها، مدينة بحد ذاتها- و لكنها صغيرة جدا مقارنة بمدينة الفسطاط القديمة، التي كانت عاصمة مصر. و نجد فيها مركزا للجمارك تدفع فيه رسوم عبور البضائع المرسلة من مصر العليا، فضلا عن مكان

فسيح محاط بسور حصين تجمع فيه الحكومة القمح فى الهواء الطلق؛ و لقد شيّد هذا البناء فى عهد الخلفاء المسلمين. أما المؤلفون الذين يؤكدون أن يوسف بنى مستودع القمح هذا، فقد خدعهم بنيامين دوتولا، الذى يقول فى سير رحلته (ص ۱۰۴) إنه وجد فى مصر العتيق بقايا مستودعات قمح، بناها يوسف. و لكنه يتحدث عن ممفيس الواقعة على بعد فرسخين من مصر العتيق. و يقع الجامع الذى بناه القائد العربى، عمرو بن العاص، بين مصر العتيق و جبل المقطم. يزوره عليه القوم فى القاهرة مرة فى السنة احتفاء بذكرى بناء المسجد الأول فى المكان نفسه؛ و نرى فى الجوار بناء محاطا بسور قديم. (راجعوا الصورة على اللوحة ۱۲) و لعل حصن مدينة مصر، المذكورة فى حديث العرب عن غزو مصر، كانت مبنية فى هذا المكان؛ و الجدير ذكره أن هذا الحصن المتداعى مأهول اليوم بالمسيحيين. و نجد فى هذا المكان أيضا عدة كنائس و مقابر إغريقية و قبطية و ديرا للنساء الأقباط، و مغارة مقدسة، إذ يقال إن العائلة المقدسة أقامت فيها لبعض الوقت. يحتفظ الإنكليز و الفرنسيون بمقبرة هنا، و كنيسة صغيرة، يقيم بقربها راهب فرانسيسكانى. تشتهر كنيسة القديس غريغوريوس الإغريقية بعجائبها الكثيرة، يقال إن المجانين من المسلمين و المسيحيين على حد سواء، يستعيدون رشدهم إن أوثقوا بغلا مربوطا بأحد أعمدة الكنيسة، و تليت الصلوات لراحة أنفسهم. و على مقربة من الكنيسة، شاهدت بئرا عميقا، يمتلىء سنويا بالمياه عند ارتفاع منسوب مياه النهر. و قيل لى، إن ضفة النيل، كانت قديما فى هذه البقعة؛ و هذا الأمر ليس بعار تماما من الصحة، إن أخذنا بعين الاعتبار تغير مجارى الأنهر مع مرور الزمن، خاصة فى النقاط التى تمر فيها أمام المدن. و بالتالى فالقناة الممتدة بين الفسطاط و جزيرة الروضة تبقى جافة عند انخفاض منسوب المياه. و لقد أشار الأمير رادزفيل، أنه منذ حوالى ۲۰۰ سنة كان الناس يعبرون من مصر العتيق إلى جزيرة الروضة مشيا على الأقدام، نظرا لانخفاض منسوب المياه. و لعل ضفة النيل الشرقية لم تشهد تغيرات ملحوظة منذ عدة قرون.

رسمت على الخارطة القناة التى تنقل بواسطتها مياه النيل إلى قصر القاهرة، و التى شيّدت حسب

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۰۲

تقرير مارای على يد السلطان الغورى الذى استلم الحكم العام ۱۵۰۱ ميلادية، و نجد على الضفة الأخرى للقناة التى تجتاز القاهرة و على مقربة من النيل، صرح كفر العين الذى تعلوه قبة. و يشير الدراويش الذين يقطنون فيه حاليا- و يجنون منه مبالغ طائلة- إلى البقعة التى قتل فيها السلطان سليم. كما و أنهم يملكون طرائق أخرى معلقة فوق باب هذا الدير، و منها حذاء يبلغ طول نعله ۲۲ بوصة، قيل إن درويشا يدعى إبراهيم ارتداه فى عهد السلطان بيبرس؛ و غليون رأسه كبير، و غيرها من النوادر التى جمعتها هذه الأخوية خلال رحلاتها، و احتفظت بها للذكرى. و على مقربة من هذا الدير، اعتاد أسياد القاهرة و أفراد عائلتهم، التمرن بالبنادق و الأقواس، نهارى الأربعاء و السبت؛ إذ أقام بعض منهم فى هذا المكان حجارة تدل على بعد مرمى السهام.

تقع مدينة الجيزة على الضفة الغربية للنيل، قبالة مصر العتيق؛ إلّا أنى أجهل أصل هذه المدينة. و لكنها ليست بجديدة نظرا للمرتفعات المحيطة بها التى تشكلت بفعل القمامة التى تجمع من الطرقات و تنقل خارج المدينة. و أخالها برزت مع بروز مدينة الفسطاط، و انحت مع انحلالها. أما سكانها فمعظمهم من الحرفيين، الذين كانوا يعملون فى الفسطاط، و ارتأوا العودة إلى القاهرة، بعد انحلال الفسطاط. لم يلفت انتباهى فى الجيزة إلا المنازل القروية و بعض المصانع.

تقع جزيرة الروضة بين مصر العتيقة و الجيزة. و خلال القرون العشرة الأخيرة، لم يطرأ أى تغير على مساحة هذه الجزيرة؛ و إن شئنا وصف مساحتها و صورتها، علينا أن نقرأ كتاب الشريف الإدريسى. ففى زمن هذا المؤلف شهدت مصر العتيق ازدهارا ملموسا. بينما كانت تضم هذه الجزيرة حدائق غناء و منازل قروية جميلة، و نظرا لتكاثر أعمال سكان العاصمة على الضفة المقابلة للنيل، بنى جسر للسفن بين الفسطاط و الروضة و بين الروضة و الجيزة. لكن أصبحت القاهرة العاصمة، و هدم الجسر الذى يصل الفسطاط بهذه الجزيرة؛ إذ نقل سكان القاهرة منازلهم القروية إلى مصر العتيق و بولاق، و بركة الحاج.

و بالتالى، فقدت الروضة معالمها المميزة باستثناء سور كبير على الطرف الجنوبى، و بعض الصروح القديمة و منها الجامع الذى يحوى المقياس الشهير. رسم عدة رحالة هذا الصرح؛ و لكن نوردن وحده الذى أجاد رسمه. و الجدير ذكره أن الصورة أجمل من الأصل الذى نقلت عنه.

لست أدرى إن حاول أحدهم قياس عرض النيل؛ و لقد قسته بواسطة قاعدة طولها ۲۳۳ قدما و زاويتين متلاصقتين فوجدت أن عرض النيل قرب الجيزة يبلغ ۲۹۴۶ قدما بما فيها عرض جزيرة المقياس التى ظهرت منذ سنوات قليلة. لكن يبلغ عرض النيل قرب رشيد ۶۵۰ قدما و قرب دمياط ۱۰۰ قدم فى الواقع. و يرتفع منسوب النهر فى شهر حزيران/ يونيو لمدة ۴۰ أو ۵۰ يوما حتى يعود و ينخفض شيئا فشيئا؛ إذ إن السماء تمطر بغزارة خلال أشهر الصيف الحارة، فى الحبشة و الجهة الغربية لجبال اليمن، مما يؤدى إلى فيضان مياه النيل. كما و أن أنهر اليمن تفيض فى الموسم نفسه، لتصب فى البحر أو تمتصها الرمال؛ بينما تتجمع الأنهر و الجداول فى الحبشة لتشكل نهرا واحدا يجتاز بلاد مصر كلها. و لما لم يسمح لى بقياس انخفاض منسوب المياه قرب المقياس، بحثت فى الجيزة على أحد الجدران الوعرة على دليل عن أعلى

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۰۳

نسبة لفيضان مياه النيل الأخير، و وجدت أنه فى ۳۰ كانون الثانى/ يناير ۱۷۶۲، كانت على ارتفاع ۱۵ قدما، فوق سطح المياه، و انخفضت بمعدل ۲۴ قدما فى الأول من حزيران/ يونيو التالى. من المؤكد إذن أنه فى ضواحى القاهرة ترتفع مياه النيل بمعدل ۲۴ قدما. بينما أكدوا لى فى دمياط و القاهرة أن ارتفاع منسوب المياه لا يزيد على الأربعة أقدام، فإن تأملنا فى فيضان النيل، نر أنه فى البقعة التى يضيق فيها المجرى يرتفع منسوب المياه فى أكثر من جهة المتوسط و ذلك بعد أن يروى الحقول اليابسة المجاورة للقاهرة، و يملأ البرك أو البحيرات الصغيرة و ينقسم إلى فروع صغيرة. و لكن لا أحد يتوقع هذا الفرق فى ارتفاع منسوب المياه ضمن هذه المسافة الصغيرة. و عند ارتفاع منسوب النيل، تسد و تنظف القنوات التى اشتقت من النهر الكبير لدى الأرياف المجاورة؛ و لا تفتح إلا بعد أن يبلغ منسوب المياه ارتفاعا محددا. مقياس جزيرة الروضة وحده الذى يحدد هذا الارتفاع. و قد أوكلت لأحد الشيوخ مهمة الإعلان عن ارتفاع منسوب المياه. و يسارع الفقراء الذين يسمعون الخبر فى مصر العتيق و الفسطاط إلى القاهرة لنشره فى شوارعهم و أحيائهم. و يعودون بعدها إلى الفسطاط، ليصرح لهم الشيخ من جزيرة الروضة عن مقدار ارتفاع منسوب المياه. فينشر هذا الخبر أيضا، إلى أن يبلغ النيل الارتفاع المطلوب، لفتح القناة التى تجتاز القاهرة؛ و هذا يعنى أنه يتوجب دفع الضريبة للسلطان، و أنه لا داعى للخوف من الجفاف. و لكن لا أحد يعتمد على الأخبار التى تذاع حول فيضان النيل. الشيخ وحده يقترب من المقياس، و يعلن فى البداية عن ارتفاع بسيط لمنسوب المياه، ليخبرهم لاحقا عن تدفقها بشكل قوى؛ فإن لم يرتفع المنسوب كثيرا، فلا يخشى السكان من عدم بلوغه الارتفاع المطلوب قبل فتح القناة. شاهدت مصبها فى القاهرة، و حاولت مراقبة اختلاف ارتفاع منسوب المياه على سور وعر؛ و فى اليوم نفسه قيل فى البلدة إن منسوب المياه ارتفع ۳ مرات أكثر مما كنت أظن. و كنت أتمنى أن يشيد يوما ما، تاجر أوروبى من القاهرة، أو أحد رهبان هذه المدينة، أو رحالة أوروبى، مقياسا شبيها بمقياس المسلمين. و إليكم أفضل طريقة للقيام بذلك. فعند بلوغ منسوب المياه أدنى ارتفاع، يقاس علو السور المحاذى للنهر، و تحصى الحجارة التى تعلو سطح المياه، و يراقب ارتفاع منسوب المياه يوما بيوم. خلال ارتفاع منسوب المياه، نلاحظ أحيانا انخفاضه بشكل فجائى؛ و لعل ذلك عائد إلى صب المياه فى أحد القنوات. و هذا يؤدى إلى اختلاف واضح فى فيضان النيل. فى السنة التى قصدت فيها بلاد مصر، نشر للمرة الأولى فى ۲۹ كانون الثانى/ يناير أن منسوب مياه النيل بدأ بالارتفاع؛ و نشر فى ۸ آب/ أغسطس أن ارتفاعه بلغ ۱۶ ذراعا. عند ذلك شيّد سد القناة التى تجتاز القاهرة، فى ۹ آب/ أغسطس، و رافق ذلك احتفالات تقليدية تحدث عنها مطولا عدة مؤلفين.

انتظرنا طويلا لنشاهد تدفق المياه فى المدينة، و لكن انتظارنا ذهب سدىً؛ لأن القناة لم تنظف جيدا تلك السنة، و لم نشاهد تدفق المياه إلا مساء العاشر من آب/ أغسطس. و أثار هذا الحادث الاستثنائى بلبلة بين سكان القاهرة؛ و قيل إنهم سيتلون العقاب بكل من أساء تنظيف القناة؛ و لكنه دفع مبلغا كبيرا للملك، و بنى على حسابه سدا جديدا للقناة، و وضع حجر الأساس له فى ۱۲ آب/ أغسطس، بعد حفر قناة القاهرة، فتحت القنوات الأخرى شيئا فشيئا؛ إذ لا يحق لكل منطقة بترح ماء النيل عند ارتفاع منسوبها.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۰۴

و لهذا السبب وضع المصريون قوانين خاصة بهم تنظم عملية سد القنوات الصغيرة. و تبقى مجارى البرك فى القاهرة و ضواحيها مسدودة ثلاثة أيام حتى تصب مياهها فى القناة التى تجتاز القاهرة. و فى تلك السنة، لم تصل المياه إلى بركة الأزبكى إلا فى ۱۸ آب/ أغسطس.

بين سد القناة التى تجتاز القاهرة و النيل شيّد عمود من التراب فى وسط القناة؛ و يطلق المصريون على هذه الحفنة من التراب اسم

العروس. و لقد علمت أن المصريين الوثنيين كانوا يقدمون سنويا عذراء كأضحية للنيل. لكن المسلمين أرادوا بناء مقياس للشعب من خلال عمود العروس هذا؛ قبل أن يبنى السد، فمجرى المياه ليس قويا كفاية إذا لم يصل لقلب العروس التى تدل على مدى ارتفاع منسوب مياه النيل. لكن بعد القيام ببناء السد أمكن التخلى عن خدمات العروس؛ و لما كان المجرى يقوى كثيرا فى القناة خاصة فى الأيام الأولى فالمياه ستقلبها حتما. و ذكر غابريال سيونيتا فى ملحق كتاب الشريف الإدريسى، أن المصريين يجرون اختبارات لتحديد ارتفاع منسوب مياه النيل مسبقا. و يقال فى بلاد مصر، إنه من مساء ۱۷ حزيران/ يونيو إلى ۱۸ منه، يبدأ منسوب مياه النيل بالارتفاع فى الحبشة، أو تسقط النقطة التى تسبب فيضان النيل. و فى الليلة المذكورة، تضع النساء عجينا على سطوح منازلهنّ؛ فإن زاد وزنه فذلك يشير إلى سقوط النقطة؛ و من خلال هذه التجربة، يحاول المصريون تحديد مدى ارتفاع منسوب مياه النيل و أسعار الفاكهة للسنة المقبلة. و لما كانت الحرارة فى بلاد مصر، معتدلة جدا، فقد يتساقط الندى ليلا فى ذلك الفصل و يؤدى إلى زيادة وزن العجين. و لما كانت النساء تعرضّن العجين للمرة الأولى فى الليلة المذكورة، فذلك يعزز إيمانهنّ بصحة اختبارهنّ. بيد أن النساء لم يتّفقن تلك السنة حول الليلة التى سقطت فيها النقطة؛ إذ إن بعضا منهنّ لم يحسنّ الترتيب الزمنى القبطى. من المؤكد إذن أنه تجرى كل سنة فى بلاد مصر، تجارب لتحديد زمن ارتفاع منسوب مياه النيل و التنبؤ بالجفاف أو بوفرة المياه. لكن علماء المسلمين يعتبرون هذا الأمر مجرد تسلية نسائية. و قال لى أحدهم إن علماء الفلك العرب يسمون النقطة دخول الشمس فى برج السرطان؛ و لعل هذه التسمية حثّت الناس على القيام بهذه التجارب التافهة. و أظن أن السيد فورسكال قام بنفسه ببعض التجارب؛ و إليكم شرحه لهذا الموضوع:

و فى ليلة ۱۷ حزيران/ يونيو ينتظر سكان القاهرة سقوط النقطة؛ و لما كانت أشهر المسلمين لا تصادف دوما فى الموسم نفسه فهم يتبعون الترتيب الزمنى القبطى. يظن المصريون أن النقاط تتساقط من السماء فى الليل فى النيل، و تؤدى إلى فيضان النهر بعد أسبوعين أو ثلاثة. و يتم التكهن حول فيضان النيل المقبل، و خصوصا السنة القادمة. فى هذه الليلة بالذات. و إليكم ما يفعلونه: يوضع رطل من الطين فى وعاء عميق، يضاف إليه رطل من ماء النيل و نتركه يرتاح طوال الليلة التى نتوقع فيها سقوط النقطة سواء داخل المنزل أو خارجه. فإن شرب الطين الماء كانت السنة جافة؛ لكن إن بقى بعض الماء كانت السنة غنية بالمياه.

قمت بنفسى بهذا الاختبار عدة مرات؛ و كانت المياه تبقى فى الوعاء دوما. غير أننى لا أظن أن تراب

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۰۵

النيل، يمتص كمية كبيرة من المياه؛ و الدليل على ذلك فيضان نهر النيل سنويا. فالكمية المتبقية من المياه لا تعنى شيئا؛ غير أن كل إنسان يحاول التكهن بما يحلو له.

و إليكم طريقة أخرى للتنبؤ: تصنع ۱۲ علبة صغيرة من الورق، و يكتب على كل منها اسم شهر قبطى. و يوضع فى كل علبة حبة قمح من الوزن نفسه. لكن إن زاد وزن إحدى العلب، قيل إن مياه النيل ستفيض فى الشهر المدون على العلبة. بيد أننى أجد هذا الاختيار أكثر غرابة من الأول.

و يقال أيضا إن العجينة التى توضع فى الهواء الطلق عشية سقوط النقطة، تتحول إلى خميرة. و إن شاء أفراد العائلة أن يتسلوا وضع كل واحد منهم قطعة من العجين فى صحن منفرد؛ و من ترفخ عجينته أكثر سيسعد أكثر من سواه. أجريت هذا الاختبار عدة مرات. و فى الليلة التى سبقت ۱۷ حزيران/ يونيو، لم ترفخ العجينة؛ و لكن فى الليالى الثلاث التالية رفخت كثيرا. و مما لا شك فيه أن ارتفاع الحرارة هو الذى أدى إلى ذلك، و ليس النقطة العجائبية.

ذكرت لكم سابقا أنهم ينظفون قناة القاهرة سنويا؛ لتستعمل بعدها كشارع؛ غير أن ذلك لا يدوم طويلا، لأن السد سيخرق قريبا. خلال الأشهر التالية، و يستمتع أصحاب المنازل الواقعة على الضفاف بالمياه الجارية؛ و لكن سرعان ما تتكدس عليها أوساخ المدينة كلها باعثة رائحة كريهة للغاية.

لا تتوافر مياه الشفة فى القاهرة؛ و هى تنقل إليها يوميا من المناطق المجاورة، على ظهر الجمال و الحمير.

و نجد تحت المساجد الكبيرة خزانات عامة، تملأ بالمياه لتزود المدينة بها، عند ارتفاع منسوب مياه النيل، و تعكر صفوها. لكن إن فرك داخل الأوعية باللوز أصبحت المياه صافية و صالحة للشرب. و يقال إن مياه النيل تسبب طفحا جلديا، فى أحد فصول السنة؛ غير أنه ليس مزعجا و لا يضر بالصحة.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۰۶

سكان مدينة القاهرة و شكل الحكم و التجارة فيها

إن غالبية سكان القاهرة من العرب و الأتراك و غيرهم من المسلمين من كافة الولايات التركية. و هناك المغربيون أو عرب بلاد البربر و الأفريقيون و التر و الفارسيون. و المسلمون أبا عن جد هم من أهل السنة و ينتمون بغالبيتهم إلى المذهب الشافعى. و يعتبر الأقباط المسيحيون الأكثر عددا بعد المسلمين. و هم ينحدرون من المصريين القدامى و الأتراك يدعوهم بسخرية: خلف فرعون. و يسكن الأقباط فى الشوارع الكبيرة المجاورة لبركة البزبكية(Birket el Jsbekieج) و لقنطرة الشرق(Kantaret el Charq) و لباب شيخ رهان(B b Schech Rih n) و فى أماكن أخرى. لهم كنيستان فى القاهرة و عدة كنائس أخرى فى مصر العتيق(Masr el atik) و هى المدينة التى اتخذها البطريرك القبطى مسكنا له علما أن كافة الكهنة الأقباط فى مصر يخضعون له كما و يرسل إلى الحبشة رئيسا للإكليروس.

أما اليهود فيحتلون المرتبة الثالثة من حيث العدد بعد المسلمين و الأقباط. ينقسم اليهود إلى الفريسيين و التلموديين و أيضا القرائين(Karaites) و لهم كنيس خاص بهم بالرغم من صغر عددهم. يحتل التلموديين مركزا جيدا فى مصر، فلقد وضعوا يدهم منذ عدة سنوات على كافة الجمارك فى بولاق(Bul k) و مصر العتيقة و الإسكندرية و دمياط. و لهذا السبب، يمكنهم أن يحصلوا على الحماية و الدعم فى مصر أكثر من ولايات الإمبراطورية التركية حيث يكون رجال الجمارك من جماعة الباشاوات أو مدير عام الجمارك الذى يسكن فى القسطنطينية. و نذكر من أهم الأدلة على نفوذ اليهود فى الجمارك أن الدوائر الجمركية تقفل أيام السبت فى وجه كافة البضائع سواء كان أصحابها من المسلمين أو من المسيحيين و لليونانيين كنيستان فى القاهرة يستقر فى إحداها بطريركهم و فى الثانية مطران جبل سيناء. و يقل عدد الأرمن فى القاهرة لكن لديهم كنيسة صغيرة جميلة تابعة لكنيسة الأقباط فى قنطرة جديد.

أما فيما يتعلق بالجاليات الأوروبية فهناك قنصلية فرنسية فى القاهرة و أخرى هولندية و ثالثة إيطالية. كما و نجد تجارا فرنسيين و إيطاليين، أما التاجر الهولندى الوحيد الذى كان قد استقر فى القاهرة قبل مجيئنا إليها بقليل فقد عاد إلى إزمير و نحن لا نزال فى القاهرة. و يكثر الكهنة فى هذه المدينة من يسوعيين و كبوشيين و آباء التبشير و آباء الأرض المقدسة و الفرنسيسكان يجدون للحصول على أتباع لهم و غالبا ما ينجحون فى هداية بعض مسيحيى الشرق إلى الكنيسة الرومانية. و مع أن هؤلاء المهتدين الجدد يسوء سلوكهم كمواطنين على حسب ظن المسلمين، إلا أن الحكومة لا تتدخل فى منع المبشرين الأوروبيين لأن الشجار غالبا ما يندلع بين المهتدين الجدد و المخلصين للكنيسة القديمة فيضطر الفريق المعتدى إلى دفع غرامة

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۰۷

للباشاوت و أحيانا يضطر الرهبان أنفسهم إلى دفع مبالغ طائلة.

يلتزم زمام الحكم فى القاهرة باشا لكن سلطته ليست كبيرة مثل الباشاوات فى الولايات الأخرى، ذلك لأنه يخضع خضوعا شبه كامل للجمهورية أو لديوان الجمهورية أى للبهوات و لرؤساء الجيوش المصرية و لغيرهم من المديرين فى القاهرة. و لأن نمط تفكير المصريين يختلف عن نمط تفكير الباشا، يعتبره هؤلاء جائرا و يقصونه عن الحكم عند ما لا يكون سياسيا محنّكا يعرف كيف يحرّض الأحزاب بعضها على بعض. و عند ما كنت فى الإسكندرية، قام أهل القاهرة بطرد أحد الباشاوات. أما مصطفى باشا فقد عيّن مرتين وزيرا كبيرا ثم مرة ثالثة لا حقا. و كان قد تلقى الأمر بالتوجه إلى جدة لكنه ادّعى المرض و لم يذهب مع القافلة الكبيرة التى كانت متجهة إليها بل أرسل مكانه وزيرا مفوضا مطلق الصلاحية و بقى فى مصر. ثم بعد ذلك اختاره المصريون باشا عليهم و تصرفوا بطريقة جعلت السلطان يعينه حاكما على مصر بالرغم من استيائه من مصطفى باشا و من المصريين. إلا أن هذا الأخير لم يشغل منصبه إلا لمدة سبعة أشهر إذ أرغم على التخلى عنه لصالح باشا آخر قادم من القسطنطينية إلى القاهرة. و تبع الاثنان كايجى باشى(Kapidsji B schi) لكن الباشا الجديد توفى فجأة أثناء الليلة التالية. و هكذا فقد توالى على الحكم ثلاثة رجال فى الفترة القصيرة التى مكثت فيها بمصر. كما و يستبدل قاضى القاهرة الأول كل سنة بقاض آخر من القسطنطينية. و لست أدرى إذا ما كان هناك مناصب أخرى فى القاهرة تخضع مباشرة لقرار السلطان أو المفتى الكبير.

بعد منصب الباشا أو حاكم السلطان، يأتي مباشرة منصب البهوات. و مع أن السلطان هو الآمر الناهي في موضوع تعيينهم إلا أن المصريين هم الذين يقترحون أسماء المرشحين. و كثيرا ما يكون هؤلاء من المسيحيين الذين أحضروا في سن مبكرة من جورجيا إلى القسطنطينية و منها إلى القاهرة فيعوا بستين أو مئة قرش إلى البهوات و المسؤولين الكبار في القاهرة فيعلمهم هؤلاء و كأنهم أبناؤهم تماما كما كان الأسياد المسلمون المحترمون يعاملون عبيدهم. ثم كانوا يدربون لهم وظائف مدنية أو عسكرية في فرقهم الخاصة إذا ما وجدوهم أهلا لهذه المناصب إذ كان لكل بيه حراسه الخلّص أو حتى جيش صغير خاص به كمؤشر على عظمته و كوسيلة لحفظ الأمن في الولاية و المقاطعات التي يسيطر عليها. و لأن هؤلاء العبيد يدينون بكل ما لديهم لأسيادهم، نجدهم يخلصون لهم الإخلاص كله. و عند ما يلاحظ أحد الأسياد في عبده قدرات واعدة و إخلاصا كبيرا، يسخو في تنشئته و يصرف عليه أموالا تفوق الأموال التي يصرفها على نفسه لأنه يساهم بهذه الطريقة في تعزيز شأنه في الحكومة. و لقد عرفت أحد التجار الأغنياء و كان لديه خادم واحد و حمار واحد يمتطيه عند ما يخرج لإدارة أعماله. لكنه كان قد وضع بعض عبيده في مناصب ضباط رفيعي المستوى في الجيش المصري و كانوا يظهرون بأبهة و جلال في الشوارع لكن ذلك لم يحل دون تفانيهم في الدفاع عمّن أحسن إليهم. يحكى عن رجل يدعى حسن الكخيا(Hassan

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۰۸ Kichja)

أوصل عبيده إلى مراكز رفيعة جدا. و من بين هؤلاء رجل هو عثمان الكخيا كان بدوره سيدا لعبد هو إبراهيم الكخيا. و قد دفع هذا الأخير أموالا طائلة لتنشئة عبيده و خدمه و وضعهم في أرقى المناصب حتى استطاع في السنوات الأخيرة أن يحكم تقريبا مصر بكاملها مع أن منصبه الشخصي كان متواضعا فقد كان (الكخيا) أي كان يشغل المنصب الأول بعد آغا الانكشاريين. في الوقت الذي كنت فيه بمصر كان يحكم البلاد عبد الرحمن الكخيا ابن حسن الكخيا الآنف الذكر. و لم يكن لديه نفوذ كبير لكنه كان مسنودا من قبل عدد كبير من البهوات و الآغاوات لأنهم كانوا يدينون بثرواتهم لعائلته و لأنه كان غنيا و لديه فرق عسكرية عديدة و حائزا على احترام رجال الدين و الشعب. و يقال إن بهوات مصر كافة ينحدرون من أهل مسيحيين و إنهم بيعوا كعبيد في سن مبكرة: لكن ثمة بهوات مسلمون أبا عن جد و لم يكونوا يوما عبيدا. و هذه قائمة بأسماء بهوات مصر كافة في الوقت الذي مكثت فيها:

۱- خليل بيه، اشتراه إبراهيم الكخيا و ربّاه، و عام ۱۷۶۲ تولى منصب دفتردار مصر أي أمين الصندوق.

۲- حسني بيه و كان في العام نفسه «أمير الحج»(Emir Hadsj) أو قائد قافلة مصر و قد كان عبدا عند إبراهيم الكخيا.

۳- علي بيه، من عبيد إبراهيم الكخيا، كان يحتل منصب شيخ البلد أو حاكم مدينة القاهرة. كان يطلق عليه اسم الصغير أو علي بيه الصغير. في السنة التالية قام هو و حزبه بإجبار الباشا أن يأمر عبد الرحمن الكخيا الذي كان يصحب رفاقه إلى بركة الحاج(Birket el Hadsji) في طريقهم إلى مكة آلا يعود إلى القاهرة و أن يرحل هو و القافلة. و هكذا أصبح علي بيه أكثر نفوذا من عبد الرحمن الكخيا. إلا أن سلطته لم تدم كثيرا إذ أخرج هو الآخر من مصر و أرسل إلى غزة. عام ۱۷۶۸ عاد إلى القاهرة و قتل أربعة بهوات في ليلة واحدة و أرغم الباشا على عدم السماح لأربعة بهوات آخرين بالعودة إلى القاهرة بعد أن كانوا قد هربوا منها. و منذ ذلك الحين أصبح رئيسا لحزبه الذي لم يكن قد حلّ، و الآمر الناهي في القاهرة. و لقد علمت من المجلدات أنه طرد الباشا و أعلن نفسه ضد السلطان إلى أن جاء محمد أبو الذهب و طرده فلجأ إلى الضاهر عمر(D hher Omar) والي عكا. و لم أوفق في معرفة المناصب التي كان يشغلها البهوات الآخرون لكن إليكم أسماء البهوات الثلاثة الذين ذكرتهم آنفا.

۴- عثمان بيه و كان من عبيد إبراهيم كخيا.

۵- حسن بيه و كان عبدا عند سليمان آغا.

۶- حسن بيه من عبيد عمر بيه الألكتار(Elecete r) و كان يسمى حسن بيه رضوان لتمييزه عن حسن بيه السابق.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۰۹

۷- خليل بيه الملقّب بالبلفي(Belf ?ie) . كان والده يدعى إبراهيم بيه و بالتالي كان ينحدر من أصل مسلم. و لقد كان رجلا مميزا.

۸- حسن بيه الملقّب باسم داماد(dچDam) . كان عبدا عند سليمان آغا.

۹- صالح باشا و كان من عبيده مصطفى بيه الكرد(El Kerd) .

۱۰- عثمان بيه الملقب بأبي سيف لأنه يحسن استعمال السيف. كان تركي الأصل من القسطنطينية و لم يكن عبدا قط. كان في خدمة إبراهيم كخيا الذي رقاه إلى أفضل المناصب في الجيش ثم أعطاه لقب بيه.

۱۱- خليل بيه الملقب بالسكران، كان عبدا عند حسين بيه أمير الحج.

۱۲- أحمد بيه السكّري، أبوه بائع سكر مسلم في القاهرة. فهو لم يكن مسيحيا قط و لقد نشأ في منزل إبراهيم كخيا، و في أيامي كان حاكم السويس.

۱۳- إسماعيل بيه، من عبيد إبراهيم كخيا.

۱۴- محمود بيه، من عبيد عثمان كخيا.

۱۵- حمزة بيه ابن حسن بيه عباسة و هو مسلم الأصل.

۱۶- محمد بيه الملقب باسم حنفي. كان عبدا عند سليمان آغا.

۱۷- محمد بيه دالي(D li) . هو ابن إسماعيل بيه الدالي أي مسلم الأصل.

۱۸- علي بيه الملقب بعلي بيه الكبير لتمييزه عن شيخ البلد، و لأنه كان واسع النفوذ في القاهرة منذ بضع سنوات. عند ما كنا في مصر، أرسل إلى غزة ثم عاد إلى القاهرة قبل رحيلنا منها و مات بعد ذلك بقليل، و يعزى موته إلى عباءة مبطنة بفرو مسموم أهداه إياها أحد أصدقائه البهوات.

علي بيه كان من عبيد إبراهيم باشا، اشتراه هذا الأخير و أنشأه عنده. يقال إن والده كاهن من جيورجيا و إن أهله و أشقاءه و شقيقاته كانوا يأتون لزيارته في القاهرة و قد بقيت عنده شقيقة و شقيقان من أشقائه و بعد أن تظاهر هذان الأخيران باعتناق الدين الإسلامي، عيّنهما علي بيه حاكمين على مقاطعتين صغيرتين.

إن عدد البهوات في مصر هو ۲۴ لكن هذا العدد لم يكتمل أبدا ربما لأن عائدات البلد لم تعد كافية كما في السابق أو ربما لأن الباشاوات و البهوات يقتسمون فيما بينهم عائدات الآخرين و مداخيلهم. و إليكم أسماء الذين يتّبعون البهوات في ديوان القاهرة:

۱- الآغا أو رئيس فوج المتفرقة(Metaf rraka) . أما الشخص الذي يشغل حاليا هذا المنصب فلقد كان عبدا عند إبراهيم كخيا.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۱۰

۲-(Katschuda Tsjausch n) و كان عبدا عند عثمان كخيا.

۳- آغا فوج الغلمان(ml nچDsj) . كان عبدا عند إبراهيم كخيا.

۴- آغا فوج التفكشان(Teffeksch n) ، من عبيد إبراهيم كخيا.

۵- آغا فوج الشركس(Tsjaraksa) ، من عبيد عثمان كخيا.

۶- آغا الانكشاريين. إن الشخص الذي يشغل هذا المنصب كل سنة من عبيد إبراهيم كخيا.

۷- آغا فوج أصّب(Assab) ، من عبيد إبراهيم كخيا.

و بالإضافة إلى هؤلاء كلهم، هناك أشخاص آخرون يقيمون في ديوان الباشا ككخيا الأفواج و عدد كبير من رجال القانون و رجال الدين ... و لأني لا أعلم شيئا عن مهامهم، لن أستطيع أن أنقل أخبارهم.

كنت أتمنى لو أن السيد مايّه(Maillet) دخل في تفاصيل شكل الحكم في مصر لأنه أمضى سنوات عديدة في هذا البلد و تعرّف على أهم رجالاته لذا فهو من سينقل أخباره. و يبدو أن شكل الدولة لا يزال حتى اليوم كما هو و كما وجده الأتراك و كما لم يستطيعوا تغييره بالرغم من كبريائهم و سلطتهم.

قد يظن البعض أن الأمن ينعدم في القاهرة لأنها معقل عدد كبير من الطغاة المتناصرين فيما بينهم على السلطة. لكن الجدير بالذكر أن أخبار السرقات و جرائم القتل هي أقل بكثير في القاهرة من غيرها من المدن الكبيرة في أوروبا. فإلى جانب القاضي الكبير، هناك قضاة آخرون مجبرون على عقد جلسات يومية في الشوارع التي تعيّن لهم و في بعض المنازل لإحقاق الحق. و للانكشاريين وجود في كافة الشوارع للحفاظ على الأمن. و لكل مهنة خبير محلف يعرف كل الذين يعملون فيها و حتى فتيات الهوى و اللصوص لديهم مخاتيرهم في بلاد الشرق، لكن لا يحق للصوص السرقة إلا أنه عند ما يشتكي أحد الناس من سرقة شيء ما و يتوجه إلى مختار

اللصوص يمكنه غالبا أن يستعيد الشيء المسروق لقاء مبلغ ما . و يقوم مسؤولو العدالة و الشرطة بالتنقل ليلا و نهارا في شوارع المدينة لمراقبة الكيل و القياسات و البضائع المتوجهة نحو السوق و للقبض على الأشخاص المشتبه بأمرهم لضربهم و لشتمهم حالا من دون أي محاكمة في حال وجدوا متلبسين. و هكذا، فإن الخوف من القضاة و من هذه الإجراءات الصارمة يرمي الرعب في قلوب المشاغبين. و لقد لاحظت الذعر بين المصريين عند ما يصادفون أحد هؤلاء المسؤولين في الشارع و كان خادمي المسلم يتمنى أن يعود أدراجه في كل مرة يصادف فيها أحد هؤلاء المسؤولين في الشارع خوفا من أن يشاهدوه بصحبة غريب في شوارع لا يمر بها الأوروبيون و لو لا

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۱۱

إصرارى على الذهاب إليها لما وافق على مرافقتي. و يساهم عدد الأبواب الكبير في المناطق المنفصلة و في الشوارع الأساسية من المدينة في زيادة اطمئنان سكانها لأنها تغلق كل ليلة ما عدا شهر رمضان. و أمام كل باب يقف بواب، و لقاء أجر زهيد يفتح الباب لكل من يأتي في عمل ما إلى المدينة أثناء الليل حاملا بيده قنديلا، إلا أنه يغلق الباب في وجه الأشخاص المشبوهين. و هكذا فإن اللصوص الذين يخرجون أثناء الليل للسرقة لا يمكنهم الابتعاد كثيرا. و على كل حال، هناك غرف بالقرب من هذه الأبواب تتسع لانكشارى أو اثنين. و لا أحد يعرف متى تنتهي نوبة حراستهم و هم لا يقدمون السلاح عند مرور أحد شخصيات المدينة و يمكن أن يشغلوا منصبهم هذا لمدة سنوات أحيانا فيمضون أيامهم في التدخين و لعب الشطرنج ... و ينام أحدهم على الأقل في الغرفة أثناء الليل. و إن واجب هؤلاء هو حفظ الأمن في الأحياء مقابل أجر محدّد. و عند ما يهملون واجبهم يخسرون مورد رزقهم. و هم يلعبون دورا بارزا في الشجارات التي تنشأ بين كبار شخصيات المدينة. في هذه الحال، تغلق الأبواب لمنع الناس من التجمهر. و يقال إن البهوات يتعاركون دائما في المدينة و في الريف، من دون أن يؤدي عراكهم إلى أي شغب بين صفوف البورجوازيين.

كنت قد ذكرت في «وصف شبه جزيرة العرب» أنه لا يسمح لليهود أو النصارى و حتى الأوروبيين بامتطاء دابة غير الحمار في القاهرة و إنهم يجبرون على الترجل عن دابتهم عند ما يلتقون بأحد البهوات أو أعيان المدينة. و هؤلاء لا يظهرون في الشارع إلّا على ظهر أحصنتهم و يتبعهم أحد خدمهم الوقحين حاملا بيده عصا غليظة فيقول لليهودي أو المسيحي الذي يصادفه في الطريق «انزل» إذا لم ينزل من تلقاء نفسه.

و في حال عصى أمره بادره الخادم بالضرب مباشرة دون أن يكلف نفسه عناء تحذيره مرة ثانية. و منذ سنوات، تسببت حادثة مماثلة بعطب تاجر فرنسي لبقيّة حياته. كما و تعرض طبيبنا للشتم لأنه لم يترجل في الوقت المناسب. لذا، لا يمكن لأي أوروبي أن يخرج على ظهر دابته إذا لم يرافقه رجل يعرف الأسياد كلهم الذين يفرضون على أبناء الديانات الأخرى أن يترجلوا لدى رؤياهم. و كنت أجعل انكشاريا يسبقني و خادما يتبعني و كانا كلاهما من المسلمين، فيقيان على حماريهما بينما أترجّل و حدي. و لشدة ما كنت أشعر بالذل من هذا الأمر، قررت أن أخرج دائما مشيا على قدمي. و فاتني أن أذكر أن اليهود و النصارى لا يتجرؤون على البقاء على ظهر مطيّهم أمام بيت القاضي الكبير و أمام ۲۴ بيتا آخر حيث يعمل القضاة، و قرب باب الانكشاريين و جامع الأزهر و المساجد الأخرى، و يسمح لهم بالمرور أمامها على أقدامهم. غير أنه لا يسمح لهم بالمرور سواء مترجلين أو غير مترجلين بالقرب من مسجد الست زينب بجوار قنطرة السبع(Kantaretes Sab) و بالقرب من مسجد مجاور لباب نصر و مساجد أخرى لحكام القاهرة السابقين، و لا حتى في شارع القرافة(El Kar fe) بل يحتم عليهم تغيير وجهة سيرهم. و لقد لاحظت وجود مساجد كبيرة من جهتي هذه الشوارع. و لا بدّ أن عامة الشعب تعتبر المرور بين هذه المساجد مقدسا. و لست أكيدا من أنه يمنع على الأوروبيين امتطاء الخيل. فمنذ فترة غير بعيدة، عاش في

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۱۲

المدينة قنصل إنكليزي ثري و كان يرتدي زي سيد تركي و يمتطي الخيل. و كانت ثروته الكبيرة تسمح له بتقديم الهدايا و الولائم لكبار شخصيات القاهرة الذين كانوا يعاملونه بالمثل. عند ما كان يظهر في الشوارع، كان يوزع الأموال على الناس فكان الشعب يحبّه. أما اليوم فما عاد القناصل يمتطون الخيل إلا يوم يذهبون للجلوس في حضرة الباشا، فيرتدون الزي الأوروبي و يزينون أنفسهم بأبهى زينة. و لا أتفاجأ قط عند ما أجدهم يسمعون آلاف الشتائم تنهمر عليهم من قبل عامة الشعب إذ إن الشرقيين يعتبرون لباسنا القصير غير محتشم خاصة أن أهل القاهرة لا يزينون ثيابهم لا ذهبا و لا فضة. و في الأيام العادية، يرتدي القناصل لباس الأتراك الطويل و عليهم- شأنهم شأن التجار الأوروبيين و النصارى الشرقيين و اليهود- أن يترجلوا عن حميرهم عند مرورهم في المناطق الآنفة الذكر، أو عند مرورهم بسيد مسلم.

و مع أن كثافة السكان في مصر قد انخفضت، إلا أن منتجات البلد لم تنقص، و لأنها العاصمة و لأنها تقع في موقع استراتيجي بالنسبة للتجارة، فيها عدد كبير من التجار الأغنياء الذين يتعاطون التجارة مع أوروبا و آسيا و أفريقيا. تتلقى مصر عبر الخليج العربي كافة منتجات الهند و بلاد فارس و شبه الجزيرة العربية. و يسهل النيل التجارة مع السودان و من جهة البحر المتوسط مع سوريا و تركيا و بلاد البربر و أوروبا.

أما القوافل الكبيرة التي تأتي سنويا من الأقطار و التي تصل برا فهي تقايض بضائع بلادها الفاخرة بما ينقصها من بضائع أخرى. و مع أن أضخم عمليات التجارة في بلادنا تجرى عن طريق المراسلة و أنه في المدن الكبيرة يجتمع التجار بالسوق في ساعة معينة من النهار إلا أن التجار الشرقيين بغالبيتهم يسافرون بنفسهم أو يرسلون عبيدهم و خدمهم. و كل الذين يأتون من القطر نفسه و الذين يحملون البضائع نفسها، ينزلون في المكان نفسه كلّ على حدة كمسيحيي القاهرة الذين يقيمون في الحي نفسه أو بجوار بعضهم البعض. و هكذا يعلم الناس مقرّ التجار الأجانب. و يكثر عدد السماسرة و بواسطتهم يكتّف الباعة معارفهم كما و يسهل على الزبائن إيجاد البضائع. و لا شك أن المسافرين يفضلون المكوث إلى جانب بعضهم لأنهم بذلك يؤدون بعض الخدمات لبعضهم.

لست مؤهلا للحديث على كافة تفاصيل التجارة عند المصريين، لكني تعرفت عن كتب على الاستيراد و التصدير بفضل المعلومات التي أعطاني إياها تاجر فرنسي و سوف أنقلها إليكم لنعرف ما هي المنتجات التي تعزز في هذه البلاد و تلك التي تستورد من الخارج.

يشكل الجلد الخام إنتاجا مهما تصدره البلاد. في كل سنة، تصدر ۷۰ إلى ۸۰ ألف قطعة من الجلد منها عشرة آلاف قطعة من جلد الجاموس تذهب إلى مرسيليا. و تصدّر كميات أكبر من الجلود إلى إيطاليا منها جلود الجاموس و الثور و البقر و الجمل. تصدّر جلود الجاموس إلى سوريا خاصة و تتميز هذه الجلود بأنها ليست كبيرة بل أكثر سماكة و وزنا من غيرها. و لعل أفضل جلود هي التي تأتي من مصر السفلى حيث المراعي الشاسعة، و يستحسن قتل الحيوانات في أشهر كانون الثاني/ يناير و شباط/ فبراير و آذار/ مارس

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۱۳

و نيسان/ أبريل لأنها ترعى العشب في هذه الآونة بينما تأكل من العلف في الأشهر الباقية. يمكننا الحصول على الجلد الخام على مدار السنة و خاصة بعد عيد الأضحى عند ما يجتمع الحجاج في مكة و على جبل عرفات. في هذه الأيام تذبح كميات هائلة من المواشي في مصر كما في سائر الدول الإسلامية. و في أيام إبراهيم كخيا الذي حكم مصر وحده لمدة عشر سنوات تقريبا، ترسّخت هذه التجارة ثم أنشأ المزارعون متجرا في الإسكندرية لبيع الجلود بالمفرّق و صاروا يتحكمون بسعرها. و منذ سنوات، عادت هذه التجارة لتصبح حرة لكننا لم نعد نشعر أن الأسعار تختلف كثيرا.

يحصد الزعفران في نهاية شهر أيار/ مايو و مطلع شهر حزيران/ يونيو. ينقل الزعفران الذي يحصد في القاهرة إلى السوق لكن لا يستطيع التجار الحصول عليه إلا مع نهاية شهر حزيران/ يونيو و مطلع شهر تموز/ يوليو. و يثمر الحصاد عن ۱۵ إلى ۱۸ ألف قنطار من الزعفران تذهب كميته الكبرى و الأفضل نوعا إلى مرسيليا و ليفورن و البندقية أما الباقي فيتجه نحو إزمير و سوريا و جدة لأنه لا يستهلك في مصر. و في مصر أكثر من عشرة أصناف من الزعفران لكنه يصنف وفقا لتسميات أربع هي: البلدي و القبلاوي(Keblawi) و البحري(Bahhari) و الصعيدي. يعتبر الصنف الأول الأفضل من حيث النوع و يزرع حول مدينة القاهرة، أما الصعيدي فهو الأسوأ.

يحصد الكتان في شهر تموز/ يوليو و يعتبر الشتاء الفصل الأفضل لشرائه. تشتهر منطقة رشيد بتجارة الكتان و تنقل الكميات غير المستهلكة منه إلى تركيا و ليفورن، و تركيا و سوريا و جدة و حتى اليمن، و يكون نسيج الكتان على عدة أنواع. يزرع القطن في مصر السفلى و يحصد في شهر تموز/ يوليو، و يعتبر شهرا كانون الأول و الثاني/ ديسمبر و يناير الفترة الأكثر ملاءمة لشرائه. ينقل القطن الذي لا يستهلك في مصر إلى مرسيليا و ليفورن. أما حصاد الأرز فيكون في شهر تشرين الأول/ أكتوبر لكن الأرز الجديد لا يباع إلا

فى شهر كانون الأول/ ديسمبر. و لا يسمح للأوروبيين اليوم بتحميل الأرز إلّا إلى دمياط و لقد توطدت تجارته منذ بضع سنوات. تختص مصر العليا بزراعة قصب السكر الذى يحصد فى شهر حزيران/ يونيو لكن سعر السكر لا ينخفض إلا فى شهرى تشرين الثانى/ نوفمبر و كانون الأول/ ديسمبر أى فى الوقت الذى ينقل فيه من الصعيد إلى القاهرة. و من غير المتفق عليه فى مصر كيفية تحضير السكر من القصب، و على كل حال يمكن للأوروبيين الحصول عليه بالسعر نفسه من أميركا. و يمكن شراء الملح بسعر أدنى من رشيد، خاصة فى فصل الشتاء. و يحمل ثلثا الملح إلى مرسيليا و ليفورن بينما يوزع الباقى على الولايات التركية. و لقد ارتفع سعر الملح كثيرا فى الآونة الأخيرة لأن تركيا طلبت كمية منه تفوق المعتاد.

يشكل الصمغ العربى إحدى البضائع التى تمر بمصر و التى يشترى منها الأوروبيون. و فى شهر تشرين الأول/ أكتوبر من كل سنة، تحمل قافلتان أو ثلاث قوافل مؤلفة من العرب القادمين من طور سيناء من ستمئة إلى سبعمئة قنطار من الصمغ إلى القاهرة. تنحصر هذه التجارة بالتجارة المسلمين و لا يدخل هؤلاء

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۱۴

بضاعتهم إلى المدينة بل يقفون على بعد ربع ميل من القاهرة مما يضطر المصريين إلى الخروج لملاقاتهم. و لا يبيع هؤلاء التجار بضائعهم وفقا لوزن معين بل فى جلود صغيرة غير مخاطة. و قلما يسمحون للمشترى أن يفتح قطعة الجلد قبل إنهاء الصفقة و فى حال لم تعجبه البضاعة لا يقبلون أن يردّها إليهم. و بعض هؤلاء العرب يخلطون الصمغ بأحجار صغيرة أو بالرمل و الخشب. و هم عادة لا يقبلون بيع أحد بالدين بل يقايضون بضائعهم لقاء ثياب و أسلحة و أشياء أخرى يحتاجون إليها و يحملونها معهم إلى الصحراء.

و لست أدرى ما إذا كان كل ذلك يدل على أن العرب نصابون أم تجار تنقصهم الخبرة. و هم يحبون الحربة و يكرهون الخطابات الطويلة. و الجدير بالذكر أنه يمكن تكرير صمغهم ثم بيعه بأسعار تفوق أسعار الشراء بكثير. يحتل القسم الأكبر من هذه البضاعة إلى مرسيليا و ليفورن. فى أشهر نيسان/ أبريل و أيار/ مايو و حزيران/ يونيو من كل سنة، يصل عدد أكبر من القوافل الإفريقية التى تحمل معها أصنافا ثلاثة مختلفة من الصمغ بالإضافة إلى العاج و التمر الهندى و العبيد المخصيين و غير المخصيين، و طيور البغاء و قراصنة الذهب و فى المقابل تحمل معها فى طريق العودة نسيج الكتان و اللآلىء المزيفة و أحجار المرجان و العنبر الأصفر و الخناجر و كافة أشكال الملابس التى يعدها المصريون خصيصا لتنال إعجاب الإفريقيين.

و لقد انخفض قبل بضع سنوات سعر الصمغ العربى أو قلّ الإفريقى كثيرا فلم تحمل القوافل معها منه إلا كميات قليلة. لكنه عاد و ارتفع فصارت تصل منه كميات تتراوح ما بين ۴ إلى ۵ آلاف قنطار. و حتى الآن تصل كميات الصمغ من الحبشة إلى جدة و منها عبر السويس إلى القاهرة إلا أنها ليست جيدة النوعية مثل التى تحضرها القوافل. كما و ينقل قسم منها إلى أوروبا.

أما السفن التى تبحر من جدة إلى السويس فهى تحمل معها سنويا بين ۲۲ و ۲۵ ألف طرد من البن اليمنى. و لأن القهوة هى الشراب المفضل عند الأتراك، يمنع استيراد البن من أميركا أو من أوروبا كما يقال فى الشرق كما و يمنع تصدير البن العربى إلى أوروبا. إلا أن هاتين التجارتين تمارسان و يكفى لتحقيق ذلك إرسال الهدايا إلى الحكومة و إلى مسؤولى الجمارك. و هكذا، تمرر ما بين ۴ إلى ۵ آلاف طرد من البن العربى سنويا من مصر إلى البندقية و ليفورن و مارسيليا. أما السفن القادمة من جدة و القوافل الآتية من مكة فتحمل معها كافة أنواع البهارات من الهند، و أوراق السنف من اليمن و الحبشة، و المرا ممكاوى، و ما يتراوح بين ألفى و ثلاثة آلاف فرد من البخور اليمنى و العربى. و فى هذه الأيام، انخفضت كمية البخور التى ترسل إلى مرسيليا و أصبحت من النوعية الأكثر تدنيا. و تأتى كميات أخرى إلى البندقية و ليفورن أما الباقى فيرسل إلى تركيا. و تأتى كميات كبيرة من السفى من مصر العليا و يرسل القسم الأكبر منها إلى أوروبا. إن هذه التجارة تعود على الحكومة سنويا بما يعادل ۶۰ بورصة علما أن كل بورصة تساوى ۵۰۰ قرش.

فى أيامنا هذه، يركز الفرنسيون تجارتهم فى المشرق على نسيج لانغدوك(Languedoc) الذى تحتاج

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۱۵

منه مصر كل سنة ما بين سبعمئة و ثمانمئة طرد. يشتد الطلب على هذا القماش فى شهر رمضان خاصة لأن الأغنياء و الفقراء فى هذه الفترة يرتدون ثيابا جديدة بمناسبة عيد الفطر. و القافلة التى تنطلق من القاهرة إلى مكة فى السابع و العشرين من شهر شوال من كل سنة تحتاج وحدها من ۶۰ إلى ۸۰ طردا من هذا القماش حيث يستخدم أمير الحج أو قائد العربة معظمه فى خياطة الثياب التى ينبغى إعطاؤها للعرب الذين يمرّون فى أراضيهم و لسكان مكة. و إن تجارة هذا القماش تدر أموالا طائلة على التجار الفرنسيين فى القاهرة الذين باتوا يمسكون بها. إلا أن هذه التجارة كانت حرة فى فرنسا أثناء الحرب الأخيرة مع الإنكليز و قد قام المسيحيون الشرقيون بشحن كمية كبيرة من أقمشة مرسيليا إلى ليفورن و منها إلى مصر. و لقد ساهم انقطاع تجارة الفرنسيين مع الهند الشرقية أثناء هذه الحرب بالتأثير على تجارتهم مع المصريين، ففى نهاية الحرب كانت تمرّ بجدّة من متى إلى ثلاثمئة طرد من القماش و كان أغلبها يصل إلى بلاد الهند. يستخدم أهل القاهرة كثيرا أقمشة الحرير المصنّعة فى أوروبا و خاصة منذ بدأت جزيرة سيوه(Sio) بصناعة أقمشة فاخرة من الذهب و الفضة. و من الملاحظ أن هذه الملابس تروق لأهل الشرق أكثر بكثير مما تروق للفرنسيين و الإيطاليين. لذا تحتاج مصر فى كل عام من ۶۰ إلى ۸۰ بر أميال من الشراتق، و أثناء الحرب الأخيرة كانت تصل إلى الهند حمولة ۲۰۰ بر ميل عبر مصر. و تحضر مصر من فرنسا كل سنة ۴۰۰ طرد من البهار يتألف الواحد من ۳۰۰ رطل. و منذ وقت غير بعيد، بات جزء من هذه البضائع يصل عن طريق جدة. و تصل إلى القاهرة من أوروبا كميات من كبش القرنفل و التوابل. و تستلم القاهرة كل عام من ۵۰ إلى ۶۰ بر أميال من القصدير، و كميات مماثلة من المطيلة و خيوط الحديد و الزنجفر و الزنجبيل و الإبر و اللآلىء الملونة و الخواتم الزجاجية و الزئبق و الرصاص بالإضافة إلى السكاكين. و من البندقية و مرسيليا يصل ما يقارب ۱۰۰ طرد من الورق يستهلك قسم منها فى القاهرة و القسم الآخر يرسل إلى جدة. و قبل استخدام الورق للكتابة، يجب صقله لأن أهل الشرق يستعملون ريشا من القصب مع حبر شديد الكثافة. و تستخدم كميات هائلة من الورق فى مصانع السكر و المتاجر.

و يعلق الحرفيون الورق على النوافذ المشبكة بالخشب أو الحديد إذ قلّما نجد زجاجا على النوافذ فى هذه البلدان الحارة.

لقد زالت تجارة البن الأمير كى بين فرنسا و مصر أثناء الحرب الأخيرة. و بات المصريون يشترونه ليغشوا به البن العربى، لكن سعره فى السنوات الأخيرة ارتفع كثيرا حتى صار أغلى ثمنا من البن العربى. فى الماضى، كان بن المارتينيك(Martinique) وحده يستعمل فى مصر العليا؛ إلا أنه أصبح غاليا ثم فرض إبراهيم كخيا ضريبة كبيرة على البن القادم من شبه جزيرة العرب عبر السويس فبحث سكان مصر العليا عن سبيل أقصر للحصول على البن، و أصبحوا يحضرونه من قصير(Kossir) . و حاليا لديهم البن اليمنى و سعره قريب من سعر بن المارتينيك الفرنسى.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۱۶

لست أعرف الكثير عن الكيل و الأوزان المستعملة فى مصر لكننى سأفيدكم بالقليل الذى أعرفه.

تتراوح الأوزان فى القاهرة بين الرطل و الأوقية و المثقال و الدرهم و القيراط. تعادل كل ۱۶ قيراطا درهما واحدا، و الدرهم و نصفه يساويان مثقالا واحدا، و كل ۱۲ درهما تساوى أوقية واحدة، و الاثنتا عشرة أوقية تساوى رطلا. ثم إن الأوزان الثقيلة تقاس بالقنطار لكن القنطار فى مصر يختلف باختلاف البضاعة فيرى بعض التجار أنه يساوى مئة رطل أما بالنسبة لغيرهم فهو يساوى ۱۰۲ أو ۱۰۵ أو ۱۱۰ و حتى ۱۵۰ رطلا. و من غير المجدى فى هذا الإطار ذكر البضائع التى تحول من القنطار إلى أرطال. إن هذا التحويل لا يهم إلا بعض التجار الذين يتاجرون فى مصر و يمكن أن يجدوه فى لائحة الأسعار للجوء إليه فى تجارتهم من مصر إلى البلدان الأخرى. و أنا لن أقدم لكم أسعار البضائع المستوردة و المصدرة لأنها كثيرة التقلب، فالتجار الشرقيون شأنهم شأن غيرهم يبحثون دائما عن مرسلين جدد للحصول على البضائع بأسعار رخيصة أو لإرسالها إلى بلاد أخرى بأسعار مربحة.

يسمى أكبر مقياس للحبوب رأيته عند تجار القمح فى بولاق «بالوهبة»(We ?hbeh) . و تساوى الوهبة الواحدة أربعة أرباع؛ و الربع يساوى أربعة أقداس(Kuddes) . و يبلغ القطر الواحد لكل وهبة ۱۸ بوصة دانماركية أما كثافة الخشب فتعادل ۷/ ۸ البوصة. و هكذا فإن قطر القياس يبلغ من الداخل ۱۷ بوصة و نصف. يبلغ قطر المقياس من الأعلى ۱۲ بوصة و من دون سماكة الخشب يبلغ ۱۱ بوصة و نصف. أما الارتفاع العمودى من الحافة العليا و حتى العمق فيبلغ ۸ بوصات. و عند القياس، تترك الحبوب التى تجاوزت حافة المقياس و تجمع حتى تؤلف مخروطا. يبلغ سعر ربع واحد من الحنطة فى القاهرة من ۵ إلى ۵، ۶ بريزة. و هكذا فإن الوهبة الواحدة تكلف من ۲۰ إلى ۲۶ بريزة، أو من ليرتين إلى ليرتين و ثمانية قروش بالعملة الدانماركية. إن ارتفاع الربع الذى قسته فى القاهرة يبلغ ۶/ ۸ ۶ بوصات.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۱۷

الآلات التى تعمل على الماء، الطواحين، معاصر الزيت، أدوات الفلاحة، فرن النشادر و آلات تفقيس البيض فى مصر

يجب أن نولى أهمية خاصة لآلة السقاية المستخدمة فى مصر بعد عودة النيل إلى حدوده. و يمكن سقاية الحقول بعدة طرق. و الآلة الأكثر استعمالا فى مصر هى الموجودة فى الصورةI من اللوحة(XV) الخامسة عشرة و تسمى ساقية الثور لأنها تحرّك بواسطة الثيران. تتألف العجلة الكبيرة (أ) من هذه الآلة من دائرتين (د، ه). الدائرة (ه) هى الأكثر متانة و تتصل بالمحور بواسطة عدد من الشعاعات. أما الدائرة الأولى (د) الموصولة إلى الدائرة الأولى بواسطة قضبان أفقية فدورها الإمساك بالجرار و حسب. فى الأسفل، داخل العجلة التى تعمل على الماء، يوضع الحوض (ز) الذى يستقبل الماء. يختلف عدد الجرار المربوطة إلى حبال من القش أو النخيل و المعلقة حول العجلات وفقا لعمق الماء و لقوة العجلة و الثور. و لقد لاحظت وجود ۲۲ جرة حول الآلة التى اتخذتها مرجعا لأقوم بهذا الرسم. الجزء (أ) هو عريش متحرك بالقرب من (ج) يعلق على رقبة الثور. من العريش (أ) تخرج حبال تعلّق بالعريش (ب) و هو أضخم من الأول و يقال له العريش الأساسى لأنه يحرك العجلات (ج، ب، أ) و بالتالى. لجرّ الماء إلى الجزء المرتفع من البستان حيث تقع الآلة، نلجأ إلى رفع العجلات إلى أقصى الحدود حتى يكاد الثور يمر من تحتها، كما يظهر فى خريطة مصر السفلى فى كتاب الأسفار لشو(Shaw) . نجد فى البساتين المصرية عددا كبيرا من القنوات الصغيرة التى تساعد على رى أجزاء البساتين جزءا بعد آخر. و تتميز هذه القنوات بدقة صناعتها خاصة تلك التى تستخدم فى جرّ الماء إلى جذور النبات و حسب.

إليكم وصفا لآلة أخرى يستخدمها المصريون لسقاية الأرض و لعلها هى نفسها التى يتكلم عنها موسى فى الكتاب المقدس ۱۱- ۱۰، تدعى هذه الآلة «ساقية تدار بالرجل» أو آلة تعمل على الماء و يمكن تحريكها بواسطة الرجل. هذه الآلة أصغر حجما من السابقة لكنها تشبهها إلى حد بعيد. وجدت واحدة منها فقط فى مصر و بالتحديد فى بركة اليوزبكير فى القاهرة لكنى وجدت مثلها فى الهند. رأيت الأولى فى القاهرة و كانت تستعمل فى بستان صغير. تتألف هذه الآلة من عجلة واحدة فيها ثمانية شعاعات معلّقة بالمحور و أربعة آخرين أصغر حجما وضع كل اثنين منهما بجانب من جانبى العجلة. لاستعمال هذه الآلة نحفر بئرا نضع عليه رافدتين و يجلس عليها العامل. لا يحتاج العامل إلى مسند آخر لكنه يعمل بيديه و رجليه كما يظهر فى الصورة. و يكون الحوض محكم التثبيت تحت الجرار من داخل العجلة فتمنعها من التحرك.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۱۹

تستعمل الآلة(III) فى محيط دمياط لأن ارتفاع النيل لا يتغير كثيرا هناك و لأن العجلات التى يبلغ قطرها من ۱۰ إلى ۱۳ قدما يمكن أن تلمس الماء. تعتبر هذه الآلة الأغلى ثمنا لكنها قادرة على نقل كميات أكبر من الماء. تقسم حافة العجلة (د) إلى عدة أقسام فيها فتحات من جهة المحيط بالقرب منه، و هى محكمة الصناعة من الداخل، فبعد دخول الماء من الأسفل داخل المحيط و ارتفاعها إلى فوق، يمكن أن تسيل من إحدى الجهات لتصب فى حوض قريب من العجلة. و لخفض كمية المياه المهدورة، لا تكون هذه العجلة مسطحة بل مائلة قليلا إلى خارج إطارها. و لتحريك بعض الآلات، يدور الثور حول العجلة الكبيرة و لتحريك الآلات الأخرى ليمر بين العجلة الكبيرة و بين العجلة ذات الأسنان. فى الحالة الأخيرة، يمدّد العريش على العجلة الأفقية كما يبدو فى الآلة (ط) و أحيانا تربط ثلاثة ثيران على عدة عرائش لجرّ هذه الآلة.

أما السكان الذين يعيشون فى أطراف النيل و الذين لا يسقون إلا جزءا صغيرا من الأرض فيستعملون الآلة الرابعة. و لأن الخشب و الحجارة باهظا الثمن فى مصر، يستعمل الفلاحون أوتادا و ثقالة من الفخار.

عند ما ينخفض مستوى الماء فى النيل نرى أحيانا فى القاهرة أربع آلات تعمل معا مما يدل على أن سقاية الحقول بهذه الطريقة مزعجة و صعبة عند ما تقتصر مهمة المصريين على حمل المياه إلى ارتفاع بسيط، أو على تجفيف خندق، يستعمل هؤلاء سلة بأربعة حبال يقودها شخصان و ذلك بدلا من الرفش. تسمّى هذه السلة قفة و يمكن رؤيتها فى الصورة الخامسةV .

لم أر قط فى مصر طواحين تدور على الماء أو الهواء. أما طاحون القاهرة العام الذى يستعمل فى طحن القمح فموجود فى اللوحة السادسة عشرة(XVI) . تشير الصورة (أ) إلى الرسم البيانى و الصورة (ب) إلى ارتفاع هذه الآلة. أما الحرف (ج) فيشير إلى العريش الذى يربط إليه الحصان و حرف (د) يشير إلى عين الطاحون حيث يوضع القمح. و يستخدم هذا الطاحون أيضا فى طحن الحبوب التى يستخرج منها الزيت.

أما المصريون فيستعملون المطاحن اليدوية لطحن القمح و هى مصورة فى اللوحة السابعة عشرة(XVII) .

و يستعملونها أيضا فى جرش حبوت الفول التى تشكل طعام الحمير. تتألف الآلة (ب) من حجرة ممددة أفقيا و من مسنّ عمودى يديره الثور. و هى لا تستعمل فى طحن القمح بل فى عصر الزعفران. بعد ذلك تستخلص العصارة باليد. إن شعيبة هذه الزهرة فى القاهرة قد تعود إلى طريقة تحضيرها إذ يكتفى سكان مصر العليا بتجفيفها بعد تقطيعها. و يختلف الطاحون (ج) عن الطاحون (ب) بمسنّه المنحنى قليلا و يستعمل فى طحن الجبس و كربونات الكلسيوم.

تحيط بالآلة حافة صغيرة لمنع الثور الذى يديرها من سحق الجبس الذى يتساقط منها. و تظهر فى الصورة (د) عصارة الزيت التى تستعمل فى مصر. يشير الرقم (۱) إلى صندوق كبير ملىء بالحجارة و الخشب. أما الرقم (۲) فيشير إلى إحدى نقاط ارتكاز الصندوق على الحافة و الرقم (۳) إلى حجر كبير يدور فيه اللولب الذى يرتكز عليه الطرف الآخر من الصندوق. يظهر فى الرقم (۴) أسطوانة من الحبوب المطحونة بواسطة الطاحون المصوّر فى اللوحة(XVII) ، و قد جمع على حجر على حصيرة مدورة مصنوعة من القش، و فى الرقم (۵)

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۲۰

نرى قدرا معدنية يجمع فيها الزيت المعصور. إذا أردنا أن نضع شيئا تحت هذه الآلة، يدير الثور المربوط إلى العريش رقم (۶) اللولب إلى أن يقوم الحبل الموصول بالصندوق بإيقاف الآلة فتصبح الأسطوانة (۴) فى الأسفل و يدار اللولب بالاتجاه المعاكس إلى أن يرتكز الصندوق على الأسطوانة و يرتفع الحجر (۳) عن الأرض فيساهم بذلك فى زيادة الضغط على الحبوب. بعد ذلك، تصبح نقطة ارتكاز الصندوق على الحافة (۲) أعلى من الأسطوانة (۴) فيوضع الخشب فوقها كما يظهر فى الصورة.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۲۱

إن أدوات الفلاحة التى يستعملها المصريون سيئة جدا، و المحراث فيها ليس أفضل من تلك التى يستعملها العرب و التى ذكرتها فى وصفى لشبه الجزيرة العربية، بدلا من استعمال الأمشاط لتمهيد الأرض، يلجأ المصريون إلى شجرة أو خشبة سميكة يربطون على طرفيها حبلا. و يعلقونها بالثيران. يوضع النعّاف عادة على الشجرة أو الخشبة لأن فلاحى مصر لا يحبون السير خاصة عند ما تسنح الفرصة لجرّهم. و لا يزال المصريون حتى اليوم يستعملون الثيران لطحن القمح كما كان يفعل الإسرائيليون فى أيام موسى (الكتاب المقدس، الفصل ۲۴، ۴) إلا أن الآلة التى يستخدمونها ليست حجرا كالذى يستعمله العرب، كما و أنه ليس مصنوعا من الأخشاب المزودة من الأسفل بأحجار محدّدة كالذى يستعمله السوريون، و كما ذكرت فى وصف شبه جزيرة العرب، بل هو زلاجة تظهر فى اللوحة السابعة عشرة جانبا و من فوق؛ و يشار إليها بحرف (ه). تسمى هذه الآلة نورج و هى مزودة بثلاث لفيفات تدور حول محاورها و قد زوّدت كل واحدة بقطع حديد مستديرة و ملساء. و فى بداية شهر حزيران/ يونيو، شاهدت أنا و السيد فورسكال كيفية طحن القمح فى جوار الجيزة. كان كل فلاح يختار بقعة أرض موحدة يبلغ محيطها من ۸۰ إلى ۱۰۰ قدم. و كانوا يحضرون رزما من القمح يحملونها على ظهر الحمير و الجمال و يجمعونها على شكل دائرة يتراوح عرضها بين ستة و ثمانية أقدام و يبلغ ارتفاعها قدمين. و كان يجر المزلاج السابق ثوران. و المراقب يجلس على الكرسى الذى نراه على المزلاج و كان يسمح للثيران بالتبوّل على القش و الحنطة لكنه يسارع فى النزول من كرسيه إذا أرادت أن تفعل شيئا آخر فيضع يديه على مؤخرتها و يتلقى ما يخرج منها ثم يستعملها لإيقاد النار بعد خلطها بالقش. تطحن كميتان مماثلتان من القمح كل يوم و تقلب كل واحدة ثمانى مرات إلى خمس بواسطة مذراة واحدة مصنوعة من الخشب.

ثم يرمى القش فى وسط الدائرة و يكدّس ثم يقلّب. و كلما أضفنا المزيد من القش فى وسط الدائرة قلّبناه من جديد حتى يصبح مفروما. ثم يلقى الكل بواسطة المذراة بالاتجاه المعاكس للهواء فيطير القش و يبقى القمح غير المطحون. ثم يأتى رجل و يجمع كتل الرمل التى علق بها القمح و يرميها داخل الغربال. ثم توزع الأكوام بشكل مستدير و تكون لا تزال تحتوى على عدد كبير من السنابل فيجىء الفلاحون بما يعادل عشرة ثيران و يمررونها عليها لمدة ۴ أو ۵ ساعات رابطين كل ثورين ببعضهما إلى أن تفصل حبوب القمح عن سنابلها فترمى فى الهواء بواسطة الرفش بغية فصلها عن الأقذار. أما إعداد الشعير فلا يتطلب الكثير من الوقت.

و إنى لم أر فى مصر أو فى شبه جزيرة العرب أية عربة أو طنبر. و عند ما جرت القناة إلى خارج القاهرة، ربط الفلاح ثورين بالآلة (و)

المصورة فى اللوحة السابعة عشرة و جلس عليها فأخذ يمرّ بين الأراضى الجافة إلى أن ملأها ماء. و فى المدينة حيث لم تكن القناة قد جفّت بعد، نثر الغبار داخل الوحل ثم سكب فى السلال و نقل خارج المدينة على ظهر الحمير. و لا شك أن الأوروبيين سينفذون هذه المهمة بكثير من الصعوبة.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۲۳

يحصل المصريون على كميات كبيرة من الأمونياك من السخام المحروق. ذهبنا أنا و السيد فورسكال لزيارة معمل مماثل فى الجيزة و سألنا رئيسه عن كيفية استخلاص هذا الغاز ثم رسمت الفرن الذى يستعملونه فى اللوحة السابعة عشرة تحت الحرف (ز). يشير الرقم (۱) إلى فوهة الفرن. أما الحافة (۲) فقد بنيت بشكل قوس كما يظهر من خلال الارتفاع. يظهر الرقم (۳) حوجلات مصنوعة من الزجاج السميك الغامق اللون عنقها واسع و قصير. و كان لصاحب المعمل فرن خاص به لصناعة هذه الحوجلات.

و قبل استعمالها، تدهن من الخارج بالصلصال أو بوحل النيل الممزوج بالكتان و ذلك أربع مرات. و بعد كل مرة، تترك فى الهواء الطلق لتجفّ. و الجدير بالذكر أن هذا الدهان ضرورى جدا إذ بدونه لا يمكن للزجاج أن يقاوم الحرارة. بعد ذلك، تملأ الحوجلات بسخام الزيل المحروق. و بعد ملء الفرن بالزيل الجاف، توضع الحوجلات بالقرب منه على الفتحات الموجودة بين الأقواس من دون إقفالها. ثم توزع قطع من القرميد حولها و تملأ الفراغات بالتراب إلى أن يغطى ثلثى ارتفاع الحوجلات. بعدئذ، تشعل الزيل داخل الفرن و كلما أكلته النار أضفنا المزيد منه لمدة ثلاثة أيام و ثلاث ليال متتالية. و يجب أن تبقى درجة الحرارة هى هى خلال هذه الفترة أو أن تكون فى البداية أقوى مما هى فى النهاية. إن هذه العملية شديدة الدقة فإذا أهملنا النار لبضع ساعات أو نسينا سدّ الثغرات فى التراب حول الحوجلات يؤثر ذلك سلبا على الأمونياك، فيلاحظ صاحب المعمل ذلك عند ما يستخلص الملح من الحوجلات و يعاقب العمال على إهمالهم. بعد مضى ۱۸ ساعة، نجد أن الأمونياك الناتج عن السخام قد سدّ عنق الحوجلات. و بعد ثلاثة أيام تكسر الحوجلات فى مكانها من الفرن و يسحب منها الملح الذى يكون فى الأعلى. أما باقى محتوى الحوجلات فهو رماد أخضر لا ينفع لشىء. نسحب من كل حوجلة كمية تتراوح بين سبعة و اثنى عشر رطلا من الأمونياك. يباع القنطار الواحد المؤلف من ۱۰۰ رطل بستمئة بريزة. و الجدير بالذكر أن الحرارة المرتفعة تجعل الفخار حول الحوجلات أكثر صلابة من القرميد.

أما الزبل، مصدر الأمونياك، فقلما يهم إذا كان زبل جمال أو خيل أو ثيران أو خرفان أو أى حيوان آخر. و فى هذا البلد، غالبا ما يسافر الناس على ظهر الجمال و الحمير، فتقوم فتيات صغيرات بلملمة الزبل من الطرقات. و تضاف كميات من القش المهشّم إلى الزبل فتخلط به و تصنع لتجففها أشعة الشمس.

تكون سقوف غرف أهل الريف عادة مغطاة بالصلصال الذى لم يصبح بعد قرميدا آجرا. فيستعمل هؤلاء قوالب الزبل الجافة لتدفئة الغرف فى فصل الشتاء من خلال حرقها مع القش أو مع سيقان النباتات و ذلك فى أوان حجرية. إن السخام الذى ينتج عن الدخان يعلق تحت السقوف و يباع بأسعار متدنية لمعامل الأمونياك. كما و يستعمل السخام الناتج عن دخان الزبل فى أفران المعامل الآنفة الذكر. و كان صانعو السخام يتذوقونه لمعرفة كمية الملح فيه. و قيل لنا إن السخام الناتج عن دخان الخشب لا يحتوى على الأملاح و بالتالى لا يمكن أن يستخلص منه الأمونياك. و هناك مناطق فى أوروبا لا يتوافر فيها الخشب فيلجأ سكانها إلى حرق زبل الحيوانات و لربما استطاعوا أن يصنعوا منه الأمونياك لو أنهم يحاولون.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۲۵

و لقد قام مسافرون آخرون بإعطاء معلومات دقيقة عن كيفية تفقيس البيض فى الأفران. إلا أن رسومهم تختلف قليلا عن الفرن الذى رأيته فى القاهرة بالقرب من باب الشريعة(B b es Scharie) و بركة الرطلى(Birket er Roteli) الذى بينته فى اللوحة الثامنة عشرة(XVIII) . و لقد كان هذا الفرن مبنيا بكامله داخل تلة. تشير المساحة (أ ب) إلى خريطة الأفران الداخلية و (ج د) إلى خريطة الأفران الخارجية و (ه و) إلى قطر المبنى من حيث الطول و (ز ح) إلى قطره جانبيا. تشير (أ) إلى المكان الذى يجلس فيه المسؤول عن تفقيس البيض و (ب) إلى الغرفة التى يحفظ فيها الرماد و النار و (ج) إلى غرفة البيض و (د) إلى مدخل الأفران: يقع الباب فوق الطابق الأرضى و هو باب صغير الحجم يغلق جيدا بعد إشعال النار. تشير الصورة (ه) إلى أفران الطابق السفلى و (و) إلى أفران الطابق العلوى. فى هذين الطابقين يوجد ما يشبه القنوات الصغيرة من الأمام و من الخلف يشعل الزبل الجاف فيها. أما (ز) فتبين الفراغات الموجودة فى الحائط التى تخصص للإنارة. و كما يظهر فى الرسم، هناك ۱۲ فرنا فى كل طابق من المبنى و الكل موجود داخل التلة حتى أن المنافذ الأكثر علوا فوق الرواق (ح) و فوق الفرن (ط) تقع فى الأرض. و قد قيل لنا إن ذلك ضرورى للحفاظ على درجة الحرارة نفسها فى كافة الأرجاء. على سبيل الاستعداد لتفقيس البيض، تمدّد حصيرة على أرض الفرن و يفرش القشّ عليها.

توضع طبقة من البيض على القش ثم طبقة أخرى عليها بغية حشرها. لا تضرم النار إلا فى القنوات الواقعة أمام أفران الطابق العلوى و خلفها. فى المسافة الفاصلة بين الفرن الأعلى و الفرن الأسفل، و هناك فتحة مستديرة تخرج منها الحرارة اللازمة لتبلغ الطابق السفلى. لدى إضرام النار، تقفل الفتحات الخارجية كلها بواسطة الزبل أو الفخار أو الكتان لتسريع عملية تسخين الفرن، و إن القاعدة الوحيدة المتبعة لتحديد درجة الحرارة هى معادلتها مع حرارة الحمامات. و لا يهم أن تكون الحرارة مرتفعة جدا فى البداية، المهم تخفيضها تدريجيا عند ما يشرف البيض على التفقيس. و يحرّك البيض مرتين خلال النهار و أربع مرات خلال الليل لكن بخفة حتى أن عملية التحريك تقتصر على تمرير اليد على البيض.

و بعد مضى ثمانية أيام، تفحص كل بيضة على الضوء لمعرفة التى سيخرج منها صوص، ثم يرمى البيض المتبقى. فى اليوم الواحد و العشرين أو الثانى و العشرين، تخرج الصيصان وحدها فتخفض الحرارة و إلّا تموت. و على أرض الممر بين الأفران، هناك فواصل مرتفعة على شكل مربعات، تحشر فيها الصيصان جيدا حتى لا يبقى فيها أى مكان شاغر. حيث تشكل هذه المربعات الأماكن الأفضل لتربية الصيصان فتجد فيها هذه الأخيرة حرارة الأم.

ذهبت لرؤية هذا الفرن مع السيد فورسكال فى منتصف شهر حزيران/ يونيو. و كان العمل فيه متوقفا لأن تفقيس البيض لا يتم إلا فى الأشهر الستة الأكثر بردا لأن تفقيس البيض يمكن أن يفسد فى الأشهر الحارة. و مع أن النيران لم تكن مشتعلة فى الفرن إلا أن أشعة الشمس القوية التى كانت تصل إليه جعلتنا نتصبب عرقا. و قد علمنا أن مثل هذه الأفران لا توجد إلا فى القاهرة و أنها ملك للباشا. و عند ما يحضر

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۲۶

الأجانب بيضهم لتفقيسه فى الفرن، يتفقون مع رئيسه على كمية المواد اللازمة للتفقيس. و يضع صاحب البيض اسمه على كل بيضة مما يجبر مسؤول التفقيس على الاحتفاظ بالبيض الذى لم ينجح. تباع الصيصان و هى صغيرة بثمن ۲۰ بريزة عن كل ۳۰ صوصا. يؤلف كل ثلاثين صوصا ما يسمى بالربع و هى التسمية التى تستعمل فى قياس الحبوب فى القاهرة. لذلك، كان الأمر يختلط على بعض الأجانب الذين قالوا إن الصيصان تباع بالمكيال فى مصر و هذا ما رواه لنا أصحاب الفرن.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۲۷

لباس أهل الشرق

يرتدى الأتراك و العرب و كل المسلمين ثيابا طويلة و فضفاضة: إلا أن كل أمّة تتميز منذ النظرة الأولى بنمط خاص فى الملبس. و يغير أهل الشرق الذين يقيمون فى المدن طريقة لبسهم تماما كالأوروبيين. فى عامى ۱۷۰۷ و ۱۷۰۸، أحضر السيد دو فاريول(De Ferriol) رسما للباس الشرقيين فنشر فى نورمبورغ(Nuremberg) تحت عنوان تصوير البلاط العثمانى. لعل هذه الصور قد نقلت بأمانة زى الشرقيين فى ذلك الوقت لكننا إذا ما قارناها مع اللوحتين ۱۴ و ۱۵ من كتاب روسال(Russel) و عنوانه وصف حلب، نجد أن طريقة الملبس قد تغيرت كليا بغاليتها. إن ثياب الشتاء الشائعة حاليا بين الباشاوات و آغاوات الانكشاريين و القضاة و الخدم الأتراك لم تتغير عن الصورة التى قدّمها الكتاب الآنف الذكر و كذلك بالنسبة إلى لباس عامة الشعب الأتراك و الدراويش و المسيحيين. إن لباس المديرين من أهل القاهرة يشبه لباس الأتراك إلى حد بعيد لأن الموضة فى البلاد الشرقية تخضع لذوق أسياد عاصمة الأمبراطورية.

و لأننا نحن أيضا كنا نرتدى ثيابنا على الطريقة التركية، سوف أقوم بوصف لثيابى الشخصية.

إن القميص الذى يرتديه الأتراك يشبه قمصان النساء الأوروبيات إلا أن الأكمام تكون أكثر اتساعا و يرتدى أهل الشرق تحت القميص، لا فوقه، سراويل واسعة من نسيج الكتان الأبيض. و يغطون أرجلهم بواسطة خفين من نسيج الكتان و ينتعلون من فوقه بابوجا

من جلد ناعم يسمى ترليق(Terliks) و من فوقه خف من الجلد يسمى مست(Mests) قد خيط إلى سروال أحمر شديد الوسع يسمى شقشير(Schokschir) . أما نعال الترليق و المست فهي مصنوعة من جلد ناعم جدا و لأنها لا تستعمل إلا للمشي على السجاد و الحصر و على كل ما هو نظيف و حيث يمكن للمرء أن يجلس. أما لما تبقى، فيتعل الناس أحذية شبيهة بأحذيتنا فوق الترليق و المست، إلا أنها من دون كعب. و من فوق القميص و الشرشير، يرتدى الشرقيون ما يسمى أنطارى(Entari) ، و هو مبطن بنسيج الكتان و يتدلى كمه إلى تحت الركب.

و فوق الأنطارى يرتدى الناس القفطان الذى يجب أن يتدلى إلى ما فوق القدمين. يلفون فوقه حزاما على خصرهم يساعدهم على تثبيت القفطان و على المشى بحرية و يمكن أن يظهر من تحته كل من الأنطارى و الشقشير. إن ارتداء هذا القدر من الملابس يذكّر بالخادم الذى صوّره روسال فى اللوحة الخامسة عشرة من كتابه. حيث يحمل الأتراك فى حزامهم خنجرا يكون أحيانا مرصعا بالذهب و الفضة و بالأحجار الكريمة. من فوق القفطان، يرتدون عباءة محشوة فى الشتاء و غير محشوة فى الصيف. و يكون كماها قصيرين يصلان إلى الكوع. من فوق العباءة، يرتدون فروة تصل إلى الأرض. يمكن رؤية الفروة فى اللوحة ۱۵ من كتاب وصف حلب لروسال و البنيش(Benisch) الذى يمكن ارتداؤه بدلا منها فى اللوحة

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۲۸

۱۶ من كتابى وصف شبه جزيرة العرب. إن أكمام الأنطارى و القفطان و البينيش ليست شديدة الوسع لكنها طويلة جدا تخرج عن حدود اليد، لذا، يلجأ الناس إلى لفها على ذراعيهم و أحيانا يربطون الأنطارى فوق يديهم فى أيام البرد. و لأن هذا القدر من الثياب مكلف بالنسبة للفقراء، يكتفى بعض الناس بارتداء السروال المصنوع من نسيج الكتان مع قميص و الأنطارى و البينيش، و تكتفى عامة الشعب بالسروال و القميص. لكن لا أحد يتجاهل الحزام. و لا يرتدى الأتراك الشقشير فى أسفارهم بل يفضلون عليه السروال و يكون لونه أزرق. و يغلف المسافرون الشرقيون أرجلهم بشرشف كبير من الصوف و يتعلون فوقه جزمة كبيرة مما يزعجهم فى السير، إلا أن هذا الشرشف يحمى الأرجل من البرد أكثر من الجوارب العادية. و غالبا ما يرتدى الناس أثناء السفر ثيابهم الخارجية من تحت السروال و حينئذ يشبهون الفارس التركى المصوّر فى اللوحة الرابعة و الثلاثين من كتاب «مجموعة الرسوم المائة» أو من كتاب «وصف البلاط العثمانى». و غالبا ما يرتدى الانكشاريون الأنطارى و القفطان تحت السروال مع معطف من دون أكمام مع خفين أحمرين. و لا يسمح للمسيحيين و لا لليهود بارتداء الألوان الزاهية و يجبرون على ارتداء لون غامق عند ما يريدون تلويث منازلهم. و يمكن للمصريين أن يختاروا بحرية ألوان ثيابهم باستثناء اللون الأخضر، لأن المسلمين الخاضعين للنظام التركى يحتفظون بحق ارتدائه حصريا. و لا أظن أن هناك قانونا صريحا فيما يتعلق بهذا الموضوع. و إذا تجرأ أحد و ارتدى اللون الأخضر، فيمكن أن يتعرض للشتم من الشعب لذا فمن المستحسن عدم ارتدائه و يحق للأوروبيين أن يتعلوا أخفافا صفراء و مست لكن ذلك يمنع على المسيحيين و اليهود الشرقيين باعتبارهم من رعايا السلطان و عليهم أن يكتفوا بالجلود الحمراء و الزرقاء و السوداء.

و لعل القطعة الأكثر تغيرا فى لباس الشرقيين هى التى تغطى رؤوسهم. هناك ثلاث فئات رئيسية تختلف كثيرا فيما بينها. فيعتمر بعضهم قلنسوة عالية مغلفة بغطاء و مبطنة بالقطن و يغطونها بقطعة كبيرة من نسيج الكتان الناعم. تسمى هذه القلنسوة قاووق(Kaouk) و هى تركية الأصل. و يعتمر البعض الآخر قلنسوات صغيرة ملفوفة بقطعة طويلة من نسيج الكتان و تسمّى الشاش(Sasch) أو العمامة و هى بالأحرى عربية الأصل. أما الفئة الثالثة فتتألف من قلنسوة عالية مبطنة بالقطن يغلفها القماش من فوق و من جلد الحمل من أسفل تدعى قلبق(Kalp k) يرتديها المسيحيون و التتر الشرقيون. بالإضافة إلى ذلك يعتمر أسياد القسطنطينية أنواعا من القلنسوات الخاصة بأعمالهم: فضباط السلطان من جميع الفئات و جنود بعض القطع يعتمرون قلنسوات خاصة: و لو كان لدينا الوقت الكافى و الرغبة فى مشاهدة كافة أشكال القلنسوات التى يعتمرها أهل الشرق لألفنا منها مجلدا كاملا. و لأن هذه القطعة من اللباس تهدف إلى التمييز بين مختلف الشعوب الخاضعة للأتراك و بين الطبقات الاجتماعية و لأنها خاضعة دائما للتغير، قررت أن أصفها كلها. إلا أن مجموعتى ليست كاملة. كما و لا يمكننى أن أؤكد أن القلنسوات التى رأيتها على رأس أهل طبقة معينة لا يمكن أن يرتديها غيرهم من الناس.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۳۰

يحلق الشرقيون رؤوسهم (ما عدا الدراويش و الأولياء فى مصر) و يتركون خصلة صغيرة على قمة رأسهم كما يظهر فى الرسوم. و لست أدرى ما هى أهمية هذه الخصلة لكنى دخلت يوما إلى دكان الحلاق فرأيته يربط خصلة شعر تركى عجوز بخيط بغية إحكام إمساك رأسه فوق المغسلة لغسله خاصة أن الشرقيين يجدون شيئا من اللذة و هم بين يدى الحلاق. و كل الناس يعتمرون مباشرة على رأسهم تحت القاووق أو العمامة أو القلبق قلنسوة حمراء تدعى الطربوش(F s) . فى الماضى كان الأوروبيون فى مصر يعتمرون عمامة بيضاء لا تختلف عن عمامة المسلمين إلا من الأعلى حيث كان عليها خط أحمر من جانب واحد. و كان التجار يسعدون بهذه العمامة لأنها يمكن أن تضلل شعب القاهرة الذين كانوا يظنون أنهم من المسلمين. أما اليوم فما عادوا يظهرون فى الشوارع من دون القلبق الذى يظهر فى الصورة الثالثة من اللوحة التاسعة عشرة. تلك هى العلامة الفارقة التى يتميز بها المترجمون الأوروبيون فى القسطنطينية و يستعملونها ليحيّوا بها تماما كالقبعة. إن إلقاء التحية بهذه الطريقة هو أمر غريب بالنسبة للشرقيين الذين لا يكشفون عن رأسهم حتى أمام الباشا أو السلطان. يعتمر الأوروبيون فى بيوتهم القاس و يغلفونه بنسيج الكتان أو الشاش أو العمامة. على أن كل إنسان يحضّر عمامته على طريقته. إن بعض الإيطاليين الذين يعيشون منذ زمن بعيد فى مصر لا يزالون يحتفظون بالعادة القديمة و يعتمرون فى منازلهم و خارجها عمامة على شكل سفينة (الرسم رقم ۱). و لقد رأيت مسلمين يرتدون العمامة نفسها لكنها كانت بيضاء و عمامة الأوروبيين كانت سمراء. تشير الصورتان ۴ و ۵ إلى القاووق الذى كان يعتمره الأسياد الأتراك.

يكون القاووق مزينا بقماش أصفر و مغلفا بنسيج الكتان الناعم الأبيض إذ لم يكن مرتديه من الشرفاء لأن هؤلاء يحيطون القاووق أو العمامة دائما بقماش أخضر. و فى الحقيقة قلما نرى أحد الشرفاء فى القاهرة لأن غالبية البهوات و الأسياد الكبارهم مسيحيو الأصل و قد أحضروا إلى مصر و هم لا يزالون من العبيد.

تشير الصورة السادسة إلى القاووق الذى يعتمره الأسياد الأتراك الذين يخدمون الباشا، و تشير السابعة إلى قاووق الضباط التابعين للباشاوات و للبهوات المصريين. أما الثامنة فهى صورة القاووق الذى يعتمره كبار الضباط فى القاهرة و طرفها مغلف بكتان ناعم. و يظهر فى الصورة التاسعة القاووق الخاص بضباط قطعة الانكشاريين.

نجد فى الصورة العاشرة عمامة الانكشاريين البسيطين فى مصر. و أحيانا يبدلونها بعمامة من الحرير الأسود. أما الصورة ۱۱ فتمثل عمامة الانكشاريين فى القسطنطينية. إن القلنسوة رقم ۱۲ هى التى يرتديها هؤلاء أثناء الاحتفالات فى القسطنطينية و هم لا يعتمرونها إلا عند ما يذهب السلطان إلى المسجد أو إلى الاحتفالات. و فى هذه الحال، يعتمر ضباط هذه القطعة قلنسوات مزينة بالريش مطوية من أمام و من خلف كما يظهر فى صورة اللوحة الثلاثين فى «وصف البلاط العثمانى» بقلم السيد فريول. القلنسوة رقم ۳ هى قلنسوة البستنجى و هى مغطاة بقماش أحمر سميك. و البستنجيون هم حرس السلطان و فى الماضى كانوا مسؤولين عن بيوت أسيادهم الريفية و عن العناية بحدائقها و لا شك أن سبب تسميتهم يعود

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۳۲

إلى مهمتهم السابقة. و يقول البعض إن طباخى السلطان كانوا يعتمرون قلنسوات مماثلة إلا أنهم استبدلوا بها لاحقا قلنسوات من اللبد تظهر فى الصورة الرابعة عشرة. و يتميز بعض ضباط السلطان و الباشاوات بقلنسواتهم التى هى بمثابة لباس موحد. و تمثل الصورة الخامسة عشرة القلبق الخاص ببعض ضباط الباشا.

إن رأس هذا القلبق مزين كثيرا و مغطى بالقماش. أما السادسة عشرة فهى قلبق البرطولى(Kolp k des Bar toli) و هم فريق المشاة الخاضع لباشا بغداد. و لقد رأيت القلنسوات نفسها فى ولايات أخرى مما جعلنى أظن أنها العلامة الفارقة التى يتميز بها بعض الضباط. يشير الرقم السابع عشر إلى بعض الفرق الخيالة التى هى فى خدمة باشاوات بغداد و الموصل و ديار بكر التى تسمّى لفند(Lavend) . و يعتمر الأتراك المتسكعون فى سوريا القاووق نفسه. فى الصورة ۱۸ نرى القلبق الخاص بفرق الخيالة فى حلب التى تسمى دلى(Deli) . أما الصورة ۱۹ فهى عمامة بحارة أسطول السلطان. تكون ثياب هؤلاء قصيرة كعامة الشعب اليونانى فى جزر الأرخبيل. الرقم ۲۰ يبين قلبق التتر. و يشبه ما تبقى من ثيابهم ثياب البولونيين و الفرس أكثر من ثياب الأتراك.

إن الصورة ۲۱ تشبه عمامة المفتى فى المدن التركية. أما الصورة ۲۲ فهى قاووق كبير مضرّب بالقطن ترتديه فى القسطنطينية طبقة معينة من رجال القانون الذين يعقدون جلساتهم فى الديوان. و الصورة ۲۳ تشير إلى عمامة رجال القانون فى القاهرة. أما الصورة ۲۴ فهى قاووق رجال الدين الرئيسيين فى تركية كلها. و القاووق رقم ۲۵ هو ما يرتديه الشيوخ أو رجال الدين المميزون فى القاهرة. أما

القاووق رقم ۲۶ فهو ما يرتديه بعض رجال الدين في الأناضول. و فيما تبقى فإن لباس رجال الدين الأتراك يشبه لباس العلمانيين إلا أن ثيابهم الخارجية هي واسعة الأكمام كثياب العرب. و لن نتجرأ على وضع الأولياء المزعومين في عداد رجال الدين في مصر. إن هؤلاء الخرقى يرتدون ما شاؤوا من اللباس و بعضهم لا يرتدي ثيابا على الإطلاق. تظهر في الصورة ۲۷ قلنسوة شتى مراتب الدراويش و تكون عادة من اللبلد الرمادي. انظروا إلى الصورة ۲۸. إن مسيحيي قيصر يعتمرون القلنسوة نفسها. لكن عند ما يغلفونها بقماش أبيض يجبرون على وضع علامة زرقاء عليها حتى يميّزهم جباة الخراج. و نرى في الصورة ۲۹ قلنسوة عالية و مسننة من اللبد الرمادي مغلفة بقطعة قماش كبيرة و هي تهدف إلى تمييز الأكراد الذين يسكنون في سوريا.

تشير الصورة ۳۰ في اللوحة ۲۲ إلى قاووق من اللبد يرتديه الناس في محيط قطيّة(Ku t hja) . أما الصورة ۳۱ فهي عمامة هندي مسلم شاب و هي العمامة الوحيدة التي كانت مغلفة بهذا الشكل.

العمامة ۳۲ هي عمامة أقباط القاهرة و القاووق ۳۳ هو قاووق باقي أفراد الأمة نفسها. إن غالبية مسيحيي القاهرة الأقباط يعتمرون العمامة أو القاووق بعد أن يغلفوها بنسيج الكتان المقلم باللونين الأبيض و الأزرق. أما اليسوعيون و دعاة المسيحية في مصر فيعتمرون القاووق نفسه و يرتدون ثيابا مماثلة لمسيحيي

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ۱، ص: ۱۳۵

البلد. إلا أن الفرنسيسكان و الكبوشيين يحافظون على لباس إخوتهم في الأمبراطورية العثمانية بكاملها و عادة تكون أيديهم و أرجلهم شديدة الاتساخ. و بما أن النظافة تعتبر واجبا دينيا شديد الأهمية بالنسبة إلى المسلمين، نرى هؤلاء يشمئزون كثيرا من هذه الوساخة؛ و من هنا ينظرون إلى هؤلاء الآباء الطيبين نظرة الأوروبيين إلى أولياء مصر المزعومين. نرى في الصورة ۳۴ قلنسوة رجال الدين اليونانيين التي تكون عادة من اللبد الأسود. يترك هؤلاء شعرهم ينمو و يطول لكن الأرمن و غيرهم من الكهنة الشرقيين يحلقون رؤوسهم باستمرار. العمامة ۳۵ هي التي يرتديها بعض التجار اليونانيين من جزر الأرخبيل الذين رأيتهم في مصر. أما العمامة رقم ۳۶ فهي التي يعتمرها بعض المسيحيين السوريين في القاهرة. إن عمامة أو قاووق اليهود المصريين لا تختلف عن عمامة المسيحيين في القاهرة لكن بدلا من اللون الأبيض المقلم باللون الأزرق، يلف اليهود عمامتهم بقماش أسمر اللون يميل إلى النبي. و لقد أشرت في «وصف شبه جزيرة العرب» أن اليهود الشرقيين يشيرون إلى أنهم من سلالة إبراهيم من خلال الشعر الذي يتركونه ينمو في القسم الأعلى من ذقنهم. القلبق رقم ۳۷ هو قلبق اليونانيين و رقم ۳۸ هو قلبق الأمن. يكون قلبق اليونان و الأرمن مزينا بالفراء و يختلف حجمه باختلاف الموضة في عواصمهم.

إن القلنسوة التي تظهر في الصورة ۳۹ من اللوحة ۲۳ هي قلبق الأرمن في قره حصار(Karahissar) في الأناضول. أما القلبق رقم ۴۰ فهو قلبق خدم المسيحيين. الصورة ۴۱ هي قلنسوة من قماش أحمر و حافة من المخمل الأسود يتميز بها أرمن بلاد فارس الذين سكنوا الأناضول. أما القاووقان ۴۲ و ۴۴ فهما يخصان مسيحيي حلب و دمشق و قد صنعا من القماش الأحمر المغلف من الأسفل بنسج الكتان المقلّم.

و القاووق رقم ۴۳ هو الذي يرتديه عامة الشعب من مسيحيي الأناضول.

و يختلف ملبس النساء و يتنوع في مختلف بقاع الشرق: في ديار بكر تعتمر نساء النصارى و اليهود قبعة من الشبهان أو القماش المطبع بالفضة كما يظهر في الصورة ۴۵ التي تمثل القلنسوة التي ترتديها نساء الدروز و هي أيضا من الشبهان أو القماش المطبع بالفضة. أما القرويات فيرتدين قبعات من الكرتون.

و بالنسبة إلى زينة الرأس الظاهرة في الصورة ۴۷ فهي تناسب ذوق الأوروبيات و هي مصنوعة من الشبهان أو من الفضة. و لقد رأيت النساء اليونانيات يعتمرن القبعات نفسها في الأناضول لكن داخل بيوتهن فقط إذ يغطين رأسهن بكامله عند ما يخرجن إلى الشارع و يشبهن بالتالي نساء المسلمين و الدروز و النصارى في ديار بكر. أما الصورة ۴۸ فتشير إلى زينة الرأس الخاصة بزوجة شيخ في وادي فران(Far n) بالقرب من جبل سيناء و هي تشبه ثياب النساء في مصر. حيث كانت هذه المرأة تضع على رأسها منديلا كبيرا أسود اللون شأنها شأن سائر نساء القاهرة و بعض المدن الألمانية. و كانت تلف جبينها بضفائرها التي رصعتها بحجارة من المرجان. و كسائر النساء المصريات تغطي وجهها بقطعة قماش طويلة و ضيقة معلقة من ثلاثة مواضع إلى شريط اى من الطرفين و من فوق الأنف فلا يظهر من المرأة سوى عينيها. و كانت الأقراط في

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ۱، ص: ۱۳۷

أذنيها مصنوعة من الفضة على شكل دائرة كبيرة القطر حتى أنك لتخالها سوارا. و كانت تلف عنقها بعقد غليظ من الفضة و تصنع حول قدميها خلاخل من الفضة. بالإضافة إلى ذلك كانت تلف حول عنقها شريطا من الحرير الملون و من جانبي رأسها أشرطة صغيرة مماثلة يتدلى منها حجر من المرجان.

و تضع في خنصريها خاتمين من الفضة مرصعين بالأحجار الشعبية. و لقد رأيت أن زينة ذراعيها تعيق الحركة تماما كزينة قدميها. إذ تلف ذراعها بسوار من العظام المشغولة (كانت بعض النساء تضع سوارا من الكهرمان) بالإضافة إلى سلسلة من الفضة و سلسلة أخرى. أما ذراعها الأيسر فقد لفت عليه سوارا من الشبهان و آخر من عظام بشكل دائرة بالإضافة إلى سوار من زجاج ملون و سلسلة من الفضة. أما فيما يتعلق بلباسها فلا أستطيع وصفه لأني لم أعلّق عليه منذ البداية.

إن نساء المشرق كلهن يرتدين على أجسادهن العارية سراويل شديدة الاتساع. و ترتدي القرويات المصريات و النساء من عامة الشعب في القاهرة فوقه قميصا واسعا أزرق اللون يتميز بكميه الواسعين الطويلين اللذين يتدليان من الكتفين إلى الوركين. و غالبا ما يزيّن شعرهن المجدول بأجراس صغيرة و كانت الفتيات الصغيرات يعلقن مثل هذه الأجراس على أقدامهن. و تلف الفتيات حول رؤوسهن صفوفا من النقود الذهبية إلا أنهن لا يظهرن هذه الزينة و هنّ في الشارع و لا يظهر من وجوههن إلا ما نراه في الصورة رقم ۴۸ . و تضع النساء من عامة الشعب أقراطا في آذانهن و أحيانا في الأنف بينما تضع أخريات أساور حول الذراع و خلاخل حول الأقدام. و تضع بعض النساء زينة سوداء أو حمراء على شفاههن و ذقنهن و صدورهن تماما كما تفعل بعض المسيحيات اللواتي طبعن بعض العلامات على أذرعتهن عند ما كنّ في القدس. كما و تصبغ النساء أيديهن و أرجلهن باللون الأصفر و أظافرهن باللون الأحمر.

إن القطعة الأكثر أهمية في لباس النساء الشرقيات هي البرقع الذي يغطين به وجوههن في حضور الرجال. و يحكي عن إنكليزي أنه رأى يوما مصادفة امرأة تستحم في الفرات بالقرب من البصرة. و عند ما تنبهت المرأة إلى وجوده سارعت إلى إخفاء وجهها و لم تهتم بستر جسدها العاري أمام الغريب . في الحمامات الشعبية تلف النساء قماشا قطنيا حول الوركين يسمّى الإحرام(Ihhram) و قد ذكرته في «وصف شبه جزيرة العرب». و أخبرتني فتاة من القسطنطينية أنها كانت يوما جالسة في غرفة الانتظار التابعة للحمام و كانت إحدى خادمات الحمام- و هي تركية- تقف معي فدخل علينا رجل بغتة فما كان

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ۱، ص: ۱۳۸

من التركية إلّا أن سارعت إلى تغطية وجهها بالإحرام. و قلما يعطي الفلاحون المصريون فتياتهم قمصانا قبل بلوغهن السابعة أو الثامنة من عمرهن إلا أنهن يرتدين قماشا قطنيا طويلا و ضيقا يربط حول الرأس حتى يسدل على الوجه فتغطيه الفتيات إذا مررن برجل غريب. و لقد رأيت بنفسي القرويات الشابات يسارعن إلى رؤيتنا و هن عاريات لم يحجبن إلا وجوههن.

إن الذين يودون معرفة لباس نساء الطبقات الراقية في الشرق عليهم أن يعودوا إلى رسائل مايلادي مونتاغو(Miladay Montagu) . فلقد دخلت المرأة الإنكليزية هذه إلى حريم أحد الأسياد الأتراك و قد حاولت أنا الدخول لكنهم لم يسمحوا لي لأني رجل. و وفقا لسلوك المسلمين، من غير اللائق أبدا تأمل أي امرأة في الطريق مهما كان لباسها ساترا. و أنا لم أستطع مشاهدة المسلمات من الطبقات الراقية إلا عن طريق استراق النظر إليهن. و مع أن بعض الناس يشككون في مضمون الرسائل الآنفة الذكر حول روعة الحمامات و الحريم في الشرق إلا أني أرى أنها غير مبالغ فيها قط و أستند بذلك إلى ما رأيته بعيني في بيوت طبقة معينة من المسيحيين و المسلمين. لكنني أظن أن الكاتبة قد اكتفت بنقل محاسن الأتراك و أنها قد غضت الطرف عن سيئاتهم. و تصور الرسوم رقم (ب) من اللوحة رقم ۲۸ اللباس الذي تخرج فيه نساء القسطنطينية إلى الشارع. فهن يغطين رأسهن و وجههن و عنقهن بأقمشة قطنية كبيرة و لا يظهر منهن إلا عيونهن. و يغطين أجسادهن بفستان خارجي ضيق ينزل من عنقهن حتى أخمص القدم. و في القاهرة ترتدي ذوات النسب من النساء فستانا واسعا من نسيج الكتان الشعبي فوق ثيابهن الفاخرة و يغطين رؤوسهن بحجاب كبير و وجههن بقطعة من القماش القطني الطويل الضيق كما رأينا آنفا. لكن لدى وصول النساء إلى الحمام أو إلى بيت صديقة ما، يخلعن هذه الثياب ليعرضن ما يلبسن من حلي و من ثياب فاخرة.

إن عددا كبيرا من أوروبيى المشرق يتزوج من نساء يونانيات أو من أصل يونانى لذا فلا يصعب على المرء مجالستهن. و هناك فرق بسيط جدا بين لباس هؤلاء و لباس النساء التركيات. سوف أصف لباسهن تماما كما رأيته و سوف أزوّد القراء بصورة للباس النساء اليونانيات كان السيد بورنفايند(Baurenfenid) قد رسمها فى الإسكندرية. أحيلكم إذا إلى اللوحة الرابعة و العشرين. كما و يمكن مراجعة اللوحة ۱۶ من كتاب روسل «وصف حلب» لمشاهدة زى النساء التركيات. و جميعهن يرتدين سراويل طويلة تصل إلى أقدامهن. ينتعلن فى أرجلهن خفين من الجلد الناعم و من فوقهما حذاء من دون كعب. و من فوق السروال يرتدين قميصا من نسج الكتان الناعم و من فوقه سترة طويلة الكمين و من فوقها حزام عريض.

تقفل سترة اليونانيات من الأمام أما سترة التركيات فتفتح على عرض اليد. و يرتدين فوق السترة فروة مزودة بكمين يتألف طولها من عرضى اليد. إن قصّة هذه الثياب معرضة دائما للتغيير لكن التغيير الأكبر هو الذى يطرأ على لباس الرأس و هو يشغل النساء الشرقيات و الأوروبيات، على حد سواء. و لا بد أن

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۴۰

أعترف أن لباس الشرقيات أجمل بكثير من لباس الباقيات و أنا شخصيا أفضل لباس رأسهن على لباس رأس الأوروبيات لكن يجب ألا نراهن إلا و هن يجلسن على ارائكهنّ إذ طريقتهن فى السير بشعة جدا كيف لا و هن يجلسن متربعات فى غالبية الأوقات و ينتعلن خفا من الجلد داخل أحذيتهن الواسعة. هناك بعض النساء الأوروبيات الأصل فى القسطنطينية و هن يرتدين الزى اليونانى و ينتعلن أحذية أوروبية. لكن يمكننا أن نعرف من خلال طريقة سيرهن إذا ما كن يجلسن على الطريقة الأوروبية أو الشرقية.

يمكن أن تتجول ذوات النسب من نساء القسطنطينية فى عربات إلا أنهن لا يستعملنها إلا نادرا فى القاهرة حيث يقل عدد العربات قليلا مما يجبر النساء الرفيعات المستوى على امتطاء الحمير بدلا من السير على الأقدام. و الجدير بالذكر أن النساء المسيحيات و اليهوديات لسن مجبرات على الترجل عن الحمير عند ما يلتقين بأسياد القاهرة. و العربات التركيات تشبه العربات الأوروبيات إلى حد بعيد: و لأن الأتراك يتربعون فى عرباتهم، نجد فيها اريكة كبيرة و تغيب عنها الأبواب العالية. و يمكن الصعود إلى هذه العربات بواسطة سلم صغير يتدلى عادة من خلف العربة. و بدلا من مراياتا الجميلة، يستبدل بها الأتراك مشربية. و خلال سفر ذوات النسب من النساء، يستعملن محملا يحمله بغلان أو جملان.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۴۱

التمارين و التسليات التى يقوم بها الشرقيون فى أوقات فراغهم

ليس من المهم معرفة كيف يمضى الشرقيون أوقات فراغهم. إن الألعاب الأكثر شعبية ما بين عامة الشعب هى بغاليتها قديمة الأصل. و بما أن هذا الموضوع يمكن أن يلقى الضوء على بعض العبارات التى استعملها الكتّاب القدامى، سوف أذكر فى هذا الإطار ما علمته عن التسليات التى يلجأ إليها أهل الشرق. و إنى أعترف أننى لم أبذل أى جهد للتبصّر فى هذا الموضوع.

إن «العثمليين» أى كبار الشخصيات التركية يمضون أفضل أوقاتهم على ظهر الخيل كما و يشكل ركوب الخيل أهم تمرين من تمريناتهم العسكرية. يجتمع كبار القوم فى القاهرة مرتين فى الأسبوع فى ساحة كبيرة تسمى مصطبة. و أحيلكم هنا إلى خريطة القاهرة. و يتبع هؤلاء القوم مجموعة كبيرة من العبيد و الخدم و يكونون جميعا على ظهر الخيل. فيتجه بعضهم إلى التمرين «بالجريد»(Dsjerid) فينقسمون إلى جماعتين تتألف الواحدة منهما من شخصين و يمسكون بيدهم قضيبا من النخيل يصل طوله إلى أربعة أقدام (إن هذا المشهد يذكّر بالتركيين اللذين كانا يلاحقان بعضهما بالرمح، راجع اللوحة السادسة) فيرمونه أفقيا على بعضهم. و إذا لم يكن الذى يتلقى القضيب مستعدا يمكن أن يقع عن حصانه و أن تكسر عظامه. و لقد عرفت سيدا كسرت يده و رجله فى هذه اللعبة عند ما كان شابا و يتسلى بعضهم بوضع إناء يسمى بردك(Bardak) على الرمل و يصوبون عليه أهدافا و هم يسيرون بسرعة على ظهر الخيل. و مع أن المصريين لديهم قريبنات مزودة بلولب إلا أنهم يستعملون سلاحا بفتيل عند ما يمارسون هذا التمرين لأن الهواء الذى يهب فجأة يعيق شرارات صوّانة البندقية فيمنعها من الوصول إلى البارود.

و لا يزال ذو الشأن من الناس يتدربون على القوس و النشاب و قد شيّدت بعض الدعامات على شرف أمهر الناس فى هذا التمرين. و عند ما يرتفع مستوى الماء فى النيل يتسلّى أبناء القاهرة فى الإبحار بمراكبهم الفاخرة على مياه البركة الكبيرة و يشعلون حينئذ الألعاب النارية و لا ينسون الموسيقى. و بعد ذلك يمضى كل سيّد ليلته فى حريمه فلا يستطع المسافرون الأوروبيون معرفة ما يفعل هناك. و قد أخبرنى أحد سكان طرابلس أن باشا المدينة كان ينصب اسقالتين مرة فى السنة و كان يضع بينهما سفنا صغيرة تحمل مدافع ضخمة جدا و كان يمكن سحب السفن بواسطة الحبال. و كانت هذه السفن المعلقة فى الهواء تجعل الناظر إليها يعتقد أنه يشاهد حربا بحرية. و كان يجلس بالقرب من كل اسقاله قبطان يدير مناورات سفينته، أما الرابح فكان الذى يصيب سفينة غيره بالأضرار. لقد قيل لى إن هذه المعارك ليست إلا على سبيل التسلية

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۴۲

لكن لا بد من القول إنها كانت أحيانا سببا لخلافات تنشب بين الضباط. إلا أن هذه التسلية قد ألغيت بعد أن افتعل رئيسا سفينتين معركة حقيقية.

شاهدت خدم بعض الأسياد المصريين يتمرنون على رمى قضيب يبلغ طوله من خمسة إلى ستة أقدام فى اتجاه أفقى. (راجع الصورة (أ) من اللوحة (۱۵). إن هذا التمرين هو الذى يعدّهم لرمى الجريد على ظهر الخيل. كما و أن عامة الشعب و الفلاحين يتسابقون باللعب بالوحى وفقا لبعض القواعد. (راجع الصورة ب) و تجرى العادة على أن يقوم المتبارون ببعض الحركات بالعصا قبل بداية اللعبة و بعد ذلك يحاول كل واحد أن يضرب رأس خصمه بالعصا فيسارع الثانى إلى رد الضربة بعصاه. و نرى فى الصورة (ج) مصارعين مصريين آخرين، يمسك كل منهما بعصا بيده اليمنى و أريكة بكم فى اليد اليسرى و يوجه كل منهما ضرباته على ذراعى خصمه. و تسمى هذه اللعبة لعب الحكم(L b El H kkem) . و لقد رأيت فى الشوارع محاربين يرتدون سراويل ضيقة و لا شىء غيرها، و كانوا قد دهنوا أجسادهم بالزيت. و الحق أنهم ليسوا ماهرين و لا يتجرّؤون على عرض لعبهم فى بلاد فارس. كما رأيت فى شيراز بيتا يتجمّع فيه الناس و منهم أشخاص بارزون للتمرن على القتال و لممارسة تمرينات أخرى للمحافظة على صحة جيدة. رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر ؛ ج۱ ؛ ص۱۴۲

سوف أدرج الرسم فى الجزء الثانى من كتاب «رحلتى».

و حكى مسافرون آخرون عن التسليات الشعبية التى تجرى فى القاهرة عند رحيل الحجاج إلى مكة و عند جرّ مياه النهر عبر المدينة. كما و لكل مؤسس مسجد عيده السنوى فيتجه بعض الشيوخ بصحبة جماهير من الناس إلى المسجد و يتسلى الشعب فى ساحة مجاورة. عند ما تبدأ المسيرة عند المساء، يحمل المصريون بيدهم مشواة موصولة إلى قضبان و يحرقون بها قطعا من الخشب بدلا من المشاعل. و كان بعضهم يحمل أداة على شكل سكاكر القاهرة تكون من الخشب الخفيف المغطى بالورق و المثبت على قضيب يوجد فى أسفل هذه الأداة ما يقارب العشرين قنديلا زجاجيا و تكون مزدانة عادة، و فى هذه الحالة تحوى عددا أكبر من القناديل.

أثناء الاحتفالات الكبرى الخاصة بالمسلمين و الأقباط يرفع الناس فى الساحات العامة الأدوات (د، ه، و) فيديرها بعض الرجال و الأطفال لقاء أجر زهيد. يشير الحرف (د) إلى أرجوحة عادية بثلاثة حبال يتألف مقعدها من خشبة مثلثة الشكل و هى أكثر راحة و أمانا من أرجوحاتنا ذات الحبلين. أما الأرجوحة (ه) فهى مشابهة للأرجوحة السابقة و يجلس عليها ولدان أو ثلاثة فى آن معا. أما الحرف (و) فيشير إلى أرجوحة مؤلفة من عارضات أفقية تتدلى من أطرافها صناديق صغيرة تدار كما تدار الأحصنة الخشبية التى نراها فى أوروبا. و يمكن رؤية الآلة (ز) فى قرى الأتراك بأوروبا.

إن ألعاب الأطفال فى القرى تكون مشتركة عند كافة الشعوب و إنى أذكر أنى رأيت على ضفاف نهر الفرات بين البصرة و الحلّة(Helle) أطفالا يلعبون بخمس حجارات فيرمون واحدة فى الهواء ثم يلتقطونها بعد أن يكونوا قد لموا حجرة أو أكثر أو الأربع التى كانت على الأرض. يطلق العرب على هذه اللعبة

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۴۴

اسم اللقوط(d جLa K) . و هناك ألعاب أخرى منها اللعبة التى تسمى «تختين و خمسة»(Tachtejn u Kamse) و التى يركض فيها الأولاد ثم يقفزون فى الهواء. و فى بلاد فارس، رأيت القرويين يلعبون لعبة الراضية (ضرب من ألعاب كرة المضرب). و يتسلى العرب و الأتراك بلعبة القسوم و الإفرادى. و يلعب الشرقيون لعبة طاولة النرد التى يسمونها «طاولة» و لعبة الداما علما أن داما هو اسمها

العربى. و يتسلمون بالشطرنج و يمضى بعض الناس نهارهم بكامله فى هذه اللعبة. أما أحجار الشطرنج فتكون عادية جدا ليس لأن المسلمين يبتعدون عن كل ما يشبه الأصنام بل لأن حرفييهم لا يجيدون نحتها أو لأنهم لا يتقاضون لقاء ذلك أجرا كبيرا. و بدلا من طاولات الداما و الشطرنج خاصتنا المصنوعة من خشب فاخر، يستعملون قماشا قطنيا طرزت عليه مربعات من مختلف الألوان و تلف به الأحجار عند نهاية اللعبة. أما الصورة (ح) من اللوحة ۲۵ فهى تصور ما يسمى بالعربية «المنقلة». تتألف المنقلة من خشبتين فى كل منها ستة ثقوب.

يمكن لشخصين أن يلعبا هذه اللعبة و إليكم الطريقة: يضع اللاعبان فى كل من الثقوب ستة أحجار أو ست صدفات. بعد ذلك، يأخذ أحدهما كافة البيادق الموجودة فى ثقب ما و يضع فى كل ثقب بيدقا واحدا مبتدئا من اليمين إلى أن تنفد كلها. لكن إذا صادف أن لقى اللاعب الأرقام ۲ أو ۴ أو ۶ فى أحد الثقوب التى وضع فيها بيدقه الأخير، يربحها كلها بالإضافة إلى كافة البيادق الموجودة فى الثقوب المجاورة. و عند ما تنفد البيادق فى اللعبة، يعدّ كل لاعب مجموعه و يربح الحائز على العدد الأكبر. و هناك لعبة أخرى تدعى «أدريس تلاتة» صوّرتها فى الصورة (ك). تلعب هذه اللعبة بواسطة أوان ملونة. تحمل اللعبة (ل) أو (م) اسم إدريس تيسا. أما اللعبة المسماة لعب ألقاب(Laib El K b) فتلعب بعظام مستخلصة من ركب الخراف و الماعز بشرط اتباع بعض القواعد التى تحدد قيمة الجهات الأربع الموجودة فى الأعلى. و لعل هذه اللعبة هى التى أدّت إلى اختراع النرد. و يشتهر الشرقيون بلعبة «طاب ودك» التى حكى عنها العالم هايد(Hyde) و التى تمارس بواسطة أوان من كافة الألوان يبلغ عددها ۲۱ فى سوريا و ۱۷ أو ۱۹ فى مصر أو بأى عدد إفرادى توضع جميعها فى الصف الخارجى عند ابتداء اللعبة. لقد رأيت هذه اللعبة عند الموارنة فى القاهرة و كانت تتألف من خشبة فيها أربعة صفوف و فى كل صف ۲۱ مربعا كما يظهر فى الصورة (ص). يضاف إلى ذلك أربعة قضبان مسطحة سوداء من طرف و بيضاء من الطرف الآخر. أثناء اللعب فى الهواء الطلق ترمى القضبان على سكين مثبت فى الأرض أو على إبرة مغروزة فى كنبة. و عند ما يمارس اللعبة بعض التجار فى بيوتهم، يبدأ اللاعب الأول من جهة اليمين و الثانى من جهة اليسار حتى تلتقى البيادق ببعضها. عند ما يحصل الأول على طاب أى ثلاثة بيض و واحد أسود يقدّم أحد البيادق من الصف الأول إلى الخانة المجاورة فى الصف الثانى. و إذا لم يحصل على

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۴۵

طاب، يقوم اللاعب الثانى بهذه العملية شرط أن يحصل هو أيضا على طاب. إذا، لا يمكن تحريك أى بيدق من الصف الأمامى إلا عند الحصول على طاب. و إليكم ما يمكن الحصول عليه أيضا:

۱- دوق و نجم أى ۲ من اللون الأسود ۲ من اللون الأبيض عند الحصول على ذلك، نتقدّم بالبيدق خانتين.

۲- دوق و طلعة أى ۳ من اللون الأسود ۱ من اللون الأبيض. حينئذ يمكن أن نتقدم بالبيدق ثلاث خانات.

۳- أربعة أو أربعة سود فيتقدم البيدق أربع خانات.

۴- ستة أى عند ما نحصل على ۴ بيض فيتقدم البيدق ست خانات و عند ما يحصل اللاعب على طاب أو أربعة أو ستة، يمكنه أن يحتفظ بالدور. و يمكن للاعب الذى يوصل بيادقه إلى الصف الثالث دون أن يأخذها منه خصمه، يمكنه أن ينتقل إلى الصف الرابع طالما يوجد عليها بيدق من بيادق الآخر و إلا يتقهقر من الصف الثالث إلى الثانى و ذلك إلى أن يفقد أحدهما بيادقه كافة. و رأيت فى القاهرة بعض المسيحيين و قد غرزوا نقودا فى الأرض ثم يرمون طابة للمسها. و هناك قواعد لتنظيم هذه اللعبة كما يجب أن يحصل عند ما تصطدم طابة لاعب بطابة لاعب آخر. و لن أستفيض فى ذكر تفاصيل الألعاب كلها لأن القارىء و لا شك سيملّ منها. و لم أجد المسلمين يلعبون قط بالورق على عكس يونانيى القاهرة و قونية(Ko ?nie) . و يعتبر العرب لعب الورق قمارا. و لقد رأيت فى بومباى تجارا عربا يلعبون بالورق الصينى السميك و غير المريح فى اللعب، و أذكر أنى رأيت أربعة أشخاص يلعبون بالورق الصينى و يمسكونه بصعوبة بكلتا يديهم. و يمنع القرآن المسلمين من اللعب فى سبيل تحقيق المال، لذا لا يلعبون إلا على سبيل التسلية. إلا أن بعضهم لا يمتثل لأحكام القرآن. ففى يوم ذهبت لزيارة معارفى من المسلمين فى بومباى فوجدتهم مشغولين باللعب بالورق. و عند ما أخبرهم الخادم عن قدوم غريب إليهم، هرعوا يخفون المال خوفا من أن يكون هذا الغريب أحد المسلمين المسنين. و لم تمض دقائق على وجودى معهم حتى استأنفوا اللعب. لكن المال الذى طرح فى اللعبة كان زهيدا جدا لدرجة أن الخسارة كانت تنحصر بدرهم واحد فى النهار كله.

و لعل تمضية الوقت المفضلة عند أهل مصر و سوريا و العرب على حد سواء هى السهر فى القهوة لتدخين الغليون و للإصغاء إلى الحكواتى و الموسيقيين و المغنين الذى يقصدون هذه الأماكن لقاء أجر زهيد. و كنت قد ذكرت فى كتاب «وصف شبه جزيرة العرب» أن أهل الشرق يحبون الجلوس فى القهوة و يمضون ساعات كاملة فيها من دون التحدث إلى جيرانهم. و فى مصر يستعمل الناس غليونا

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۴۶

طويلا. خشبى القصبة و تكون هذه أحيانا مغلفة بالحرير أو بالقماش الناعم. فى أيام الحر الشديد، يرطب بالماء لجعل الدخان أقل حرارة. و عادة تكون قصبة الغليون مصنوعة من القصب الرقيق الشائع، أما محرق التبغ فيكون عادة من الفخار. و يستعمل الناس أيضا الغليون الفارسى الذى يمر فيه الدخان من خلال الماء. أما الغليون الذى يستعمله عامة الشعب فهو بسيط جدا: يتألف من جوزة هند مع محرق تبغ من الفخار علقت على طرفه قصبة من الخشب و أخرى من القصب السميك، و يمكن مشاهدته فى الصورة (ص) من اللوحة ۲۵. أما طريقة استخدامها فهى سهلة. بعد ترطيب التبغ يحشى فى المحرق (أ). فى كل مرة نود فيها تدخين نفس جديد، يعبّا نصف جوزة الهند بالماء إلى أن يصل الماء إلى الطرف السفلى من القصبة (ب). و عند ما تضخ القصبة (ح) الهواء من فوق الماء، يطرد الهواء الخارجى الدخان من خلال القصبة (ب) و الماء ليملأ الفراغ. و لا يلجأ الشعب إلى مثل هذا الغليون للتسلية و حسب بل بسبب الحرارة التى يؤمنها. و أثناء الرحلة التى قمت بها فى فصل الشتاء عبر نهر الفرات كان البحارة مجبرين على النزول فى الماء مرارا و لم يكونوا يتجرؤون على شرب الكحول فكنت أقدم لهم خدمة العمر كلما أعطيتهم غليونا ليدخنوه لأنهم بهذه الطريقة يدخلون الهواء الساخن إلى زواياهم. نرى فى الصورة (ع) شكلا آخر من الغليون لا يزال موجودا فى بلاد فارس. الفرق الوحيد بينه و بين الغليون السابق هو أنه يوجد فى أسفل جوزة الهند رأس من الفضة أو الشبهان. و بما أنه لا يمكن وضع هذا الغليون على الأرض إذا لم نشأ مسكه بيدنا، يمكن أن نستعين بأنفية خاصة نحملها معنا لوضعه عليها. نرى فى الصورة (ق) الغليون الشائع حاليا فى بلاد فارس. و هو عملى جدا أثناء الأسفار و المفضل عند الحاكم كريم خان. يسمّى هذا الغليون «كريم خانى». إن غليون ذوى الشأن من الفارسيين يكون أحيانا كله من الفضة لكنه عادة يكون من التنك المرصّع بالفضة أو الزجاج مع قصبتين من خشب. و فى الهند، تكون أدوات التدخين أقصر و أعرض من الأسفل كى لا تصبح عرضة للوقوع بسهولة لأن الهنود المميزين لا يمسكونها بيدهم. أما القصبة فتكون من الجلد الناعم. إن كل هذه الأنواع من أدوات التدخين لا تختلف أبدا بين بعضها من الداخل. شكلها الخارجى وحده الذى يختلف باختلاف الأذواق. و يمكن أن نرى فى اللوحة ۱۵ من كتاب روسل «وصف حلب» الغليون الأكثر رواجا بين كبار الأتراك. إن هذا الغليون و غليون كريم خانى يصنعان من الزجاج فى شيراز و غالبا ما يكونان مرصعين بأزهار من كل الألوان تكون ملصقة من الداخل. يعتقد ذوو الشأن من الأتراك أن تعلم الموسيقى و الرقص يقلل من شأنهم. إن كبار القوم فى الشرق ليسوا من خبراء الموسيقى و الذين يعزفونها لا يحصلون على أجور جيدة، لذلك ليس غريبا أن يسبقهم الأوروبيون فى هذا المجال. و لم أعثر فى مصر و شبه جزيرة العرب و بلاد الهند على أى عازف يجيد وضع لحن ما. و مع أنى سمعت عن عازفين ماهرين فى القسطنطينية، إلا أنى لم ألتق بأحد يعرف النوتات و ذلك حتى فى صفوف الدراويش المولويين و هم من أهم الموسيقيين فى تركيا. و مع كل ذلك، لا يمكن أن

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۴۸

نقول إن موسيقيى الشرق و مغنيه ليسوا ماهرين و لقد سمعت بعض الشيوخ يرتل القرآن و كنت أعجب بترتيلهم فهم لا يصرخون أبدا فى محاولة رفع صوتهم. كما و حضرت بعض الحفلات الموسيقية التركية فى بغداد و القسطنطينية، و مع أنها لا تشبه حفلاتنا إلا أنى أكيد أنها ستعجب أى أوروبى لا يطلب المستحيل. إن أكثر ما يسمعه المسافر الأوروبى فى البلدان المشرقية هو الموسيقى السيئة التى تعزف فى الشوارع. قبيل سفرنا من القاهرة إلى دمياط، غنّى لنا البحارة أغنيات حب شبهوا فيها حبيباتهم بخيار دمشق و عيونهن بعيون الغزال و تغنّوا بجمال أيديهن الصفراء و أظافرهن الحمراء ... و كان أحدهم يبدأ بغناء مقطع فيكرر الباقون الكلمات نفسها و اللحن نفسه ثلاث أو أربع أو خمس مرات كل مرة بطبقة موسيقية مختلفة. و بدلا من الطبلة كانوا يصفقون معا. و لن يعجب أى أوروبى بالزغاريد التى تطلقها الراقصات المصريات كما أن موسيقانا لا تعجب الأتراك و العرب. و تكون ألحان الشرقيين عادة بسيطة و هم

يحبذون أن يفهم السامع كل كلمات الأغنية. عند ما يعزف اللحن بعدة آلات موسيقية مع مرافقة غنائية، نسمعهم جميعا يؤدون النغم نفسه. و سأذكر لكم مثلا على أن موسيقانا ليست من ذوق الشرقيين كما أن موسيقاهم ليست من ذوقنا. أقمنا حفلا موسيقيا فى القاهرة تألف عازفوه من بعض التجار و الرهبان و السيد بورنفايند و أنا. و فى أثناء عودتنا إلى المنزل، كنا أكيدين من أن عزفنا قد لاقى إعجابا شديدا فى هذا البلد فالتقينا فى الظلام برجل مصرى يغنى و بآخر يصحبه على الناى. و لشدة ما أعجب أحد خدامنا بهذه الموسيقى صرخ: باركك الله، هذه موسيقى جميلة. عجبنا من قول الخادم و سألناه عن رأيه فى موسيقانا فأجاب أنها تشبه الضجيج الصاخب الذى لا يمكن أن يتلذذ فيه المرء. و لقد عزفنا أحيانا أنا و السيد بورنفايند لبعض العرب من الطبقات الرفيعة، و مع أنهم لم يبدوا عدم إعجابهم بموسيقانا مباشرة إلا أنهم اعتبروا أن موسيقاهم فيها رجولة أكثر من موسيقانا و أنها أجمل منها.

و لأنى عازف سيىء لم أجد الوقت أو الفرصة لتعلم موسيقى الشرقيين و وجدت أن خير سبيل لأعطى الأوروبيين فكرة عنها هو عن طريق رسم آلاتهم الموسيقية. و سأحيلكم فى هذا الإطار إلى اللوحة ۲۶.

الآلة (أ) هى التى يستعملها اليونانيون الآتون إلى مصر من جزر الأرخبيل. تسمى هذه الآلة «طمبورة» باللغة العربية. فيها و تران من الفولاذ. يسمى اليونانيون الآلة (ب) سووری(Sewچri) و هى تتألف من أربعة أوتار من الفولاذ و من وتر مزدوج من الشبهان. يسمى اليونانيون الآلة (ج) بقلاما(Baglam) و طمبورة(Tambچra) . و ربما يطلق اليونانيون على الآلات الموسيقية الوترية كافة الاسم الأول و العرب يطلقون عليها الاسم الثانى. لا تختلف هذه الآلة عن سابقتها إلا بالحجم و هى تتألف من ثلاثة أوتار واحد من الفولاذ و اثنان من الشبهان. تلف حول مقبض هذه الآلات حبال من معى الحيوان لجعل الأنغام أكثر ارتفاعا بتلمس هذه الأوتار بواسطة ريشة و غالبا ما يرافق الموسيقى الغناء. و يتألف هيكل هذه الآلات من الخشب الرقيق و لا يكون خوانها مقوسا و لا الملوى قريبا من المقبض.

الصورة (د) هى صورة آلة بكمان (مقوس) يسميها اليونانيون ليرا(Lyra) . فيها ثلاثة أوتار من معى الحيوان لا تلمس من الأعلى بل

من الطرف و بواسطة الأظافر كما نلمس أوتار القيثارة بواسطة المرعشة، و أظن أننا أحيانا كنا نمرّر القوس على الأوتار الثلاثة معا للحصول على نغم عميق و خفيض. ليست هذه الآلة مرتفعة لكن للعزف عليها نقف فى الوضعية نفسها كما لو كنا نعزفّ على الأوتار الغليظة فى الكمان الأوسط و يكون القوس فيها سيئا شأنه شأن كافة الآلات التى تكون أوتارها من معى الحيوان و التى تشيع بين العرب. إن هذه الآلات تتألف من خشبة صغيرة أخذت مباشرة من الشجرة. يتكون هيكل الليرا من الخشب الصلب. و هناك نافذتان صوتيتان فى الداخل و مشط مركز فى النافذتين هاتين. ثم إن الرسم (ه) هو لآلة بقوس يسميها اليونانيون رباب(Rep b) و العرب كمنجة(Seme ?ndje) . قيل لى إنها كانت تتألف فى السابق من ثلاثة أوتار من معى الحيوان لكن التى رأيتها فى القاهرة كانت تحتوى على وترين كما وقوسها سيىء مثل قوس الليرا. أما قدمها فهى من الحديد. يتألف هيكلها عادة من جوزة هند أو من خشب قاس. و خوانها من جلد مشدود كجلد طبولنا. تلك هى الآلة التى يستعملها العازفون السيئون الذين يرافقون الراقصات المصريات. يمكن أن نجد النوتات الموسيقية بالقرب من هذه الآلة. و نرى فى اللوحة ۲۷ أن العازفين المصريين يتخذون أثناء عزفهم على هذه الآلة الوضعية نفسها التى يتخذها موسيقيونا عند ما يعزفون على الأوتار الغليظة فى الكمان الأوسط. إن الصورة (و) من اللوحة ۲۶ تبين آلة بقوس شائعة الاستعمال بين العرب تسمّى مرابا(Mar bba) قيل لى إن لها وترين لكن الآلة التى حملتها معى إلى الفندق لأرسمها كانت وحيدة الوتر. لا تتجاوز سماكة هذه الآلة الأصبعين و هى مغلفة من فوق و من تحت بجلد مشدود و هناك نافذة صوتية بالقرب من المقبض. و هكذا يمكن القول إن هذه الآلة هى فى الوقت نفسه كمان و طبل. و كان الموسيقى الذى يستعملها ماهرا فيتعامل معها مرة على أنها كمان و يضرب الخوان مرة أخرى كأنها طبل. و جدير بالذكر أن ألحان المرايا تنسجم مع أصوات العازفين العاديين. الآلة (ز) هى أيضا آلة بقوس فيها وتر و جلد مشدود يحل محل الخوان و قد رسمت صورتها فى البصرة. شاهدت آلات موسيقية أخرى فى بلاد الهند و بغداد و القسطنطينية لكنى كنت منشغلا بأمور أخرى غير تصوير رسومها. و الحق أننى كنت قد اعتدت على آلات الشرقيين فما عادت تلفت انتباهى كالسابق.

يحب المصريون الآلات الموسيقية الصاخبة إلا أن سكان المناطق الإفريقية الجنوبية يفضلون الموسيقى الهادئة. و قد رأيت بين يدى البربر آلة موسيقية تشبه القيثار (الصورة (ج)) كانوا يسمونها قنبر(Kussir) بينما يسميها العرب طمبورة و هو الاسم الذى يطلقونه على كافة الآلات شديدة الصخب. يتألف هيكلها من صحن خشبى فى أسفله نافذة موسيقية. و هى مغطاة من الأعلى بجلد رقيق أكثر علوا فى الوسط من الجوانب. هناك قضيبان معلقان بثالث أعلى منهما يمرّان منحرفين من خلال الجلد الذى يحمل خمسة أوتار من معى الحيوان المثبتة بمشط. و لا نجد أى ملوى فى هذه الآلة و يعلّق كل وتر حول القضيب بواسطة حزقة صغيرة من نسيج الكتان. و تشير النوتات المصورة قرب الصورة إلى النغم الذى يجب أن تضبط عليه. و يمكن العزف على هذه الآلة بطريقتين فإما أن ننقرها أو أن نمرّر قطعة جلد على

الأوتار و كان البربرى الذى يعزف عليها يرقص فى الآن نفسه. و لقد كان هناك شريط خلف الآلة يمكن استعماله لتركيز اليد أو الأصابع على الأوتار. و كأن هذه الآلة تشبه قيثار داود؟

و من بين المزامير كافة الموجودة فى تركيا، تعتبر الآلة التى يسميها المصريون صرم(Surme) الأكثر صخبا. و يتألف الصرم من سبعة أجزاء و يشبه بوقا إلى حد بعيد. (راجع الصورة ن). و يطلق المصريون اسم صرم أيضا على الآلة (ك). و يشبه الصرم المزمار و فيه سبعة ثقوب و ثقب ثامن الإبهام. ثم إن هناك مزمارا آخر يشبه السابق و يبلغ طوله ۲۱ بوصة. أما النغمات الصادرة عنه فهى عميقة و منخفضة. و إن الآلات الموسيقية الثلاث المستعملة لعزف الموسيقى العسكرية هى الطبل على أنواعه و البوق و المزمار و جميعها تصدر أصواتا لا تعجب الأوروبيين. و تساهم هذه الآلات فى الدلالة على الرتب. الصورة (ل) هى صورة السلمانية(Salamanie) أو الناى التركى المصنوع من القصب و المزوّد بحلقة من الفولاذ من جهته العليا إلا أنه يكون أحيانا مصنوعا بكامله من الخشب الجيّد. ثم إن وضعية العزف عليه هى نفسها التى يتخذها عازفو الناى الأوروبى الهادىء. أما فم هذا الناى فهو صعب لأنه خال من أى لسان و مفتوح بكامله من الأعلى. و لقد رأيت هذه الآلة بين يدى رعاة الغنم الأتراك فى بلاد فارس. فالأتراك إذا قد حصلوا عليها من أسلافهم فى تركستان. و يبرع الدراويش المولويون الذين يسميهم الأوروبيون الدراويش الراقصين فى العزف على هذا الناى. لأن هؤلاء أدخلوا الموسيقى إلى عقيدتهم فأصبحوا من أهم الموسيقيين الأتراك و هم يفضلون الناى على سائر الآلات الأخرى. ثم إن الحرف (م) يشير إلى مزمار يسمى زمّارة(Sum ra) يتألف من قصبتين واحدة قصيرة و أخرى طويلة و من فتحتين. و يمكن تقصير القصبة الطويلة أو تطويلها بواسطة بعض القطع الصغيرة المعلّقة عليها و ذلك وفقا للنغم المعروف. أما الصورة (ن) فهى لمزمار القربة الذى يسمّى زمارة القربة(Sum ra El Kچrbe) و يستعمل فى مصر.

الجزء الأعلى من هذين المزمارين مكوّن من الخشب السميك. أما الفتحات الكبيرة السفلى فهى كالبوق.

ليست هذه الآلة عظيمة الشأن إذا ما قارناها بمزمار القربة البلغارى فأنا لم أبتهج لسماعى أى آلة من آلات الشرقيين كما ابتهجت عند سماعى المزمار البلغارى، و لست أدرى إذا ما كان السبب يعود إلى براعة العازفين أو إلى النغمات البلغارية التى هى أقرب إلى أذن الأوروبيين منها إلى أذن العرب و الأتراك.

تختلف أشكال طبول أهل الشرق و قياساتها. و تشير الصورة (س) إلى ما يسميه العرب بالطبل الذى يمسك أفقيا و يضرب عليه من جهة بقضيب من الخشب صنع خصيصا لهذه الغاية، و من الجهة الأخرى بعود صغير. يشكل هذا الطبل جزءا من الآلات المستعملة لعزف الموسيقى العسكرية و فى حفلات الزفاف فى القاهرة. فالصورة (ع) هى صورة دائرة واسعة مغلفة من جهة بجلد طرى. تكون حافته عادة مزينة بصفائح معدنية رقيقة و مستديرة تزيد من صوته. و يمسك هذا الطبل بيد من الأسفل بينما تستعمل اليد الأخرى للضرب عليه. إن هذه الآلة هى الأكثر شيوعا فى تركيا و تستعمل فى الحفلات التى تقيمها

النساء داخل الحريم، أما الاسم الذى يطلق عليها فهو «الدف»(Do ?ff) . يشير الحرف (ك) إلى نوع آخر من الطبول يكون قعره أحيانا من الخشب و أحيانا أخرى من النحاس. أما الطبل (ص) فيتألف من آنية من الفخار مغطاة بجلد مشدود. يحمل تحت الذراع و يضرب عليه باليد الأخرى و يسمى دربكّة. يلجأ بعض الشحاذين فى اليمن إلى غناء بعض الأناشيد للإعلان عن حضورهم و يرافقون غناءهم بضرب على الطبل. و بما أنه من غير المريح مسك الآلة بيد و الضرب عليها باليد الأخرى، يصنعون طبلا صوّرته فى الصورة (ث) و يعلقون عليه من الجهتين كرة. و هكذا، عند ما يديرون الطبل بسرعة تضرب الكرات حافته و يصل الشحاذون إلى مبتغاهم من

دون غلبة. و أذكر أني رأيت بعض الدراويش الكلندريين أو القرندليين ينفخون في بوق كبير أمام منازل المسلمين ليعلموهم بوجودهم و ليحصلوا على الصدقة. و من الآلات الموسيقية الأخرى الشائعة في الشرق نذكر الصناجات التي تحملها الراقصات فتضع الواحدة منهن اثنتين في كل يد واحدة حول الإبهام و أخرى حول إصبع آخر. ثم لعزف الموسيقى العسكرية تستعمل صحون معدنية على شكل الصناجات. أما المزمار الذي رأيته بين يدي فلاح في القاهرة فكان مصنوعا من القصب. و لقد رأيت السنطور في بغداد و طريقة العزف عليه تشبه طريقتنا. إذ كانت العازفة امرأة من الإسكندرية و كانت تلمس أوتاره بأصابعها بعد أن سلحتها بأظافر من فضة بدلا من لمسها بقضبان صغيرة.

إنه من غير المحتشم أن يرقص المسلمون الذكور لكن ذلك لا ينطبق على النساء. و هن لا يتدربن على الرقص لإرضاء أزواجهن و حسب بل للتبارز فيما بينهن أيضا. و لقد أخبرني أحد سكان طرابلس في كوبنهاغن عن طريقة رقص سيدات مدينته أثناء الأعراس و أظنها لا تتغير في تركيا و شبه جزيرة العرب.

و مع أن هذا الرجل لم يشاهدهن بأم عينه إلا أن زوجته كانت قد نقلت له كل شيء بالتفصيل. و قال لي إنه ما من امرأة تتجرأ على الظهور في هذا الجمع الغفير لو لم تكن جميلة أو تظن نفسها جميلة و ترتدي ثيابا فاخرة. و في أعراس الأشخاص البارزين، نجد عادة أكثر من ۵۰ امرأة شديدة الجمال يرتدين أفضل ما لديهن من ملابس. و تحضر كل واحدة منها أجمل خادماتها أو جارياتها اللواتي يجلسن في قاعة مجاورة إلى جانب صناديق مليئة بالثياب. بعد تقديم المرطبات للسيدات، تدخل خادماتهن الجميلات فيبدأ بالرقص و الغناء لتسلية الحضور. ثم تبدأ أكثر السيدات تميزا بعرض مواهبها في الرقص لكن بعد برهة تذهب إلى القاعة المجاورة و تبدل ثيابها كلها، حتى حذاءها الجميل المقصّب ذهبا أو فضة. إلا أنها تحافظ على زينة رأسها و أساورها المرصعة بالجواهر الثمينة. في هذه الفترة ترقص أخريات ثم يتركن الجمع لتبديل ملابسهن. و هكذا، فإن كل سيدة تبدل ثيابها من ۸ إلى ۱۰ مرات تقريبا في الأمسية الواحدة. و تحاول كل سيدة أن تحظى بإعجاب الجمع مما يجعل الباقيات يتركن الحفل مستاءات و حتى اليونانيات يبدلن ثيابهن أثناء الاحتفالات. و لقد أخبرني أوروبي في القسطنطينية ذهب يوما لزيارة صديقه اليوناني أن زوجة هذا الأخير بدلت ثيابها أكثر من خمس مرات في مدة ساعتين. أما الأوروبيون الذين يتذمرون من كون

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۵۳

نسائهم يصرفن أموالا كثيرة على ملبسهن فيمكن تعزيتهن بأن الشرقيات أكثر إفراطا في الإنفاق من نسائهن بكثير.

و يحلو للرجال مشاهدة الراقصات أثناء الأعراس أو في المجتمعات، و تسمى الراقصات في القسطنطينية تسيغان(Tschingane) و المصريات في القاهرة غازيات. تعيش هؤلاء بعيدا عن المسلمين و نادرا ما يتزوجن من غرباء. يمارس أزواجهن عادة مهنة المشير و يسمحون لنسائهن و بناتهن بالرقص و الغناء في الاحتفالات لقاء أجر ما. يصحب هؤلاء رجل واحد يعزف على الكمنجة بالإضافة إلى نساء مسنّات يراقبن سلوكهن. و من المعروف أن هؤلاء النساء لسن الأكثر عفة بين المسلمات. و بالرغم من ذلك، يمكن لأي مسلم أن يحضرهن إلى منزله من دون أن يعترض أحد. و يمكن لمسيحيي الشرق و للأوروبيين المتزوجين أن يحضروا هؤلاء النساء للرقص في منازلهم، لكن ذلك محظور على الأوروبيين غير المتزوجين و على التجار الفرنسيين لأن الملك يمنعهم من الزواج في الشرق. لذلك كنا نكتفي بمشاهدتهن في الطرقات أو في منازل أصدقائنا المتزوجين أو حتى في بعض المواخير خارج المدينة. و لأن منازل بعض التجار الأوروبيين الذين يسكنون القاهرة تقع على إحدى ضفاف القناة التي تمر بالمدينة، فإن الغازيات يستفدن كثيرا منهم في أيام تنظيف القناة قبل أن يصل النيل إلى الارتفاع المطلوب ليصبّ ماءه في القناة. لقد شاهدت هذه الأيام مباشرة قبل ذهابي إلى الصحراء لشدة ما كنا خائفين من سفرنا المقبل، كنا نحاول تمضية الوقت من خلال مشاهدة الغازيات يرقصن و يغنين في القناة الجافة التي كانت تستعمل كطريق. في بادىء الأمر لم تكن مشاهدتهن تسلّينا فقد كانت موسيقاهن تعتمد على الآلات أكثر من الصوت و كانت سيئة جدا، و كانت النساء يتخذن أوضاعا جسدية غير محتشمة. و لقد وجدناهن قبيحات و أصابنا الاشمئزاز من أيديهن المطلاة باللون الأصفر و من أظافرهن المطلاة بالأحمر و من الزينة السوداء و الزرقاء على وجوههن و أذرعتهن و صدورهن و من خلاخيلهن و أقراطهن و الكميات الهائلة من الدهون على شعرهن التي كنا نشمّ رائحتها حتى من بعيد ... و مع أن أصواتهن كانت جدّ قبيحة، صرنا نظن في النهاية أنها جميلة و أنهن و سيمات و صرنا نشاهدهن و نسمعهن بفرح كما لو كنا نشاهد و نسمع أمهر الراقصات و المغنين في أوروبا. لقد رسم السيد بورنفايند إحدى هذه الفرق في اللوحة ۲۷. فيلاحظ أنه لا تختلف ثيابهن الخارجية عن ثياب عامة الشعب من المصريات. و أثناء الرقص يرفعن القماش السميك و الضيق الذي يغطي وجوههن ثم يرمينه من الخلف. ثم يخلعن ثيابهن الخارجية و يبقين في ثيابهن الداخلية التي تشبه ثياب النساء التركيات أي قميص أبيض و تحته سروال طويل و واسع بالإضافة إلى تنورة تكون دائما مفتوحة من الأمام و من فوقها حزام بزرين كبيرين يكونان غالبا من الفضة. و وفقا للوصف الذي سمعته عن التسيقان في القسطنطينية، رأيت أن هؤلاء يرقصن تماما كالغازيات في مصر في بعض الملاهي الليلية اليونانية في غلطه(Galata) ، تلك الملاهي التي يرتادها الأتراك العاطلون عن العمل، و رأيت صبيانا يرقصون بثياب خاصة. إن تجارة بعض المسيحيين بغيرهم من أبناء دينهم بغية تسلية المسلمين يجب أن

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۵۴

تحتقر أكثر من ممارسات المصريات التي تكلمت عليها آنفا.

لكل من الشعوب المسيحية المقيمة في الشرق موسيقاها و رقصها الخاصان بها كالإنكليز و الفرنسيين و الألمان و البولونيين ... أذكر أني رأيت يوما في الموصل دائرة مغلقة يرقص فيها اليعقوبيون و النسطوريون و يرقص اليونانيون في حلقة مفتوحة فيمسك بعضهم بعضا و يقود الرقص واحد منهم. إن أكثر الناس حبا للرقص هم اليونانيون و رقصاتهم جميلة جدا خاصة حين تقود جميلاتهن الفرقة. و للبلغاريين أيضا رقصهم الخاص إلا أنه ليس أجمل من رقص اليونانيين. و أنا لم أر أي روسي يرقص لكن البولونيين يقولون إن الرقص الروسي مليء بالقفزات و يتألف عدد الراقصين من اثنين.

و لأن الأتراك لا يرقصون أبدا، قد يظن البعض أن الأوروبيين في القسطنطينية يحذون حذوهم إلا أن هؤلاء يدّعون أن المسلمين يقبلون بكافة عاداتنا و تقاليدنا. و الحقيقة أنه لا يوجد في بيرا(Pe ?ra) لا اوبرا و لا كوميديا، لكن هناك حفلات تنكرية و حفلات رقص. و أظن أن الأحرى بالأوروبيين أن يمتنعوا عن ملذاتهم في هذه البلاد لأن طبقات المسلمين الدنيا هي التي ترقص فيها، لذا فليس، عجيبا أن يقارنونا بهم.

و قد سمعتهم مرارا يقولون أشياء سيئة عن الأوروبيين و عن الحرية التي تتمتع بها نساؤهم. و لا شك أنهم كانوا سيحترمون نساء الأوروبيين أكثر لو أنهم لم يسمعوا أنهن يرقصن في الشارع مع الغرباء. أما عن الحفلات التنكرية، فإليكم هذه الحادثة التي رويت لي في الشرق: لدى عودة أحد الأتراك من أوروبا سئل عن الأشياء الغريبة التي رآها في البندقية فقال إنه في فترة من السنة، يصيب الجنون الناس كافة فيركضون في الشارع مقنعين مما يجعل رجال الدين و من بينهم بعض السحرة يقودونهم إلى الكنيسة (أربعاء الرماد) فيضعون بعض الرماد على رأسهم فيهدأ الناس و يعود كل واحد إلى عمله.

نرى في اللوحة ۲۶ حفل عرس على طريقة مسلمي القاهرة و لقد صور الحفل السيد بورنفايند. يشير الحرف(A) إلى العروس المغطاة من رأسها حتى أخمص قدميها و أمام وجهها هناك كمية من النقود الذهبية. يشير الحرف(B) إلى الجواري و الخادمات بالزي القسطنطيني. تقود هؤلاء العروس و تمسك واحدة منهن بمذرّية و تضرب الأخريات على الطبل. يشير الحرف(C) إلى لباس عامة الشعب من النساء في القاهرة، و الحرف(D) إلى بعض الموسيقيين الجالسين على الحمير. أما الحرف(E) فيظهر عامة الشعب من سكان القاهرة، عمل منهم أربعة ما يشبه الظلة فوق رأس العروس بينما يرشها آخر بالعطور. يشير الحرف(F) إلى رجال يقومون بألعاب الخفة. و هناك النساء اللواتي يزغردن احتفالا بالعرس. و لقد رأينا خارج الإسكندرية عروسا عربية على ظهر الجمل يتبعها كل ما تلقت من هدايا الزفاف من دواب و أثاث ... و كان الموكب يسير ببطء و يتوقف أحيانا. و كان العرب يعزفون الموسيقى و يطلقون الرصاص و النساء تزغردن.

يقوم أهل زوجة المسلم المتوفى باستئجار نساء لندب الفقيد إذا رأوا أنه يصعب عليهم بكاؤه و ندبه مطولا. فتقوم هؤلاء بالصراخ منذ وفاة الرجل و حتى دفنه. و إن عادة تغطية الوجه مفيدة لبعض النساء لأنه

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۵۶

لا تسمح بمعرفة ما إذا كنّ يذرفن الدمع أم يكتفين بالعويل. و في الشرق هناك عدد معين من الأيام و فترة معينة من كل يوم على النساء أن يبكين فيها أمواتهن إما في منازلهن أو في المساجد أو على القبور. فمن غير العجب إذا، في هذه البلاد أن نرى النساء،

يمررن سعيدات فى الشارع فى ساعة معينة من النهار ثم يتوجهن فى ساعة أخرى إلى قبور أمواتهن أو إلى المسجد، ثم يبكين لساعة كاملة بعد ذلك، ثم يرحلن من دون أن يبدو عليهن أى أثر للحزن. و النساء وحدهن يقمن بهذه الطقوس. فالرجال أقل خبثا منهن و أحيانا يهدئون من روع النساء اللواتى يستفضن بالصراخ. و لا تنحصر عادة البكاء على الموتى بالنساء المسلمات و حسب بل إن زوجات المسيحيين الشرقيين يمارسن الطقوس نفسها و يستأجرن أحيانا بعض النساء لهذه الغاية.

و قد نعتقد أنه لا وجود للحفلات المسرحية فى مصر إلا أن فى القاهرة فرقة كبيرة من الممثلين مؤلفة من مسلمين و نصارى و يهود. من مظهر هؤلاء نعرف أنهم لا يحصلون على أجور جيدة. و هم يقبلون بالتمثيل أمام أى كان مهما كان الأجر زهيدا. يستعملون باحة المنزل كمسرح أو يمثلون فى الهواء الطلق.

و فى جزء من مكان التمثيل، هناك ستار يغيرون ثيابهم خلفه. و لأن عددا كبيرا من الأوروبيين لم يكن قد شاهد أى مسرحية عربية، اتفقنا مع هؤلاء الممثلين أن يعرضوا لنا تمثيلهم فى منزل تاجر إيطالى متزوج. إلا أننا لم نعجب لا بالموسيقى و لا بالممثلين. و لم أكن بعد أجيد اللغة العربية لأفهم كلامهم و لم أجد ضرورة فى طلب التفسير لأن التمثيلية بكاملها كانت سيئة. و جل ما فهمت أن الممثل الأساسى كان امرأة (بل رجل فى ثياب امرأة فشل فى إخفاء لحيته) و كانت تدعو المسافرين إلى الدخول إلى خيمتها حيث تسليهم مالهم بطريقة فائقة التهذيب ثم تطردهم منها. كانت قد سرقت عددا كبيرا منهم و بدا أن آخرين كانوا سيحظون بالمصير نفسه. إلا أن أحد التجار الشبان ملّ من رؤية هذه السخافات فأيده بعض المشاهدين و طلبوا من الممثلين إنهاء المسرحية التى لم تكن قد بلغت منتصفها.

الدمى المتحركة هى الأكثر شيوعا فى القاهرة. لقد شاهدت عرضها مرارا فى الشارع. فيمكن لشخص واحد أن يحمل المسرح المصور تحت الحرف (خ) من اللوحة ۲۶. لكن لا شك أن المسرح الحقيقى أكبر منه بكثير. يقف الممثل وراء المسرح أو قل عليه حتى يتمكن من رؤية المشهد و المشاهدين من خلال الثقوب فى اللوحة (أ) دون أن يراه أحد. ثم بعد ذلك، يمرّر دماه من خلال الثقوب (ب) و يحركها إلى الأمام و الخلف و كيفما شاء من خلال خيط من الحديد يمسكه بيده. و لتغيير صوته، يستعمل الممثل آلة صغيرة يضعها فى فمه و لو أن مضمون عرضه كان أفضل لكانت المسرحية رائعة. فى بداية العرض تبدأ الدمى بإطراء بعضها ثم تتشاجر و ينتهى العرض بالضرب. و لعله فى ذلك يجارى ذوق مشاهديه إذ بدا الحضور معجبا بالمسرحية. و من الشائع أيضا فى مدن الشرق القيام بعروض على الحائط بواسطة الظلال. إلا أنى لم أحب حضور مثل هذه العروض لأنها تسخر من ثياب الأوروبيين و من عاداتهم و تقاليدهم.

من بين المشعوذين الذين يؤمون القاهرة، رأيت واحدا لديه منع متقطع من الحجارة كالذى يحمله

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۵۷

الدجالون. يسيل الماء منه لفترة ثم ينقطع ثم يستأنف السيلان. و لأنه يعرف طريقة عمل هذه الآلة، يدعى أنه يأمر الماء بالسيلان ثم بالانقطاع حسب الظروف و كان الناس يعطونه قروشا معدودة لقاء شعوذته.

و كان آخر يرمى الغبار فى وعاء ثم يسحبه جافا. و كان لثالث كأس مزودة بقعرين و بغطاء. فى الجزء الأعلى هناك بيضة و فى الجزء السفلى هناك صوصان. بعد حديث طويل و خطابات على أنواعها، كان ينفخ على صدفة كبيرة و يسحب الغطاء ثم يظهر البيضة. و فى مرحلة ثانية و بعد خطابات مماثلة، كان يسحب الكأس الثانية مع الغطاء و يبيّن تحوّل البيضة إلى صوصين. و كان يعيد الكرة بواسطة كأسين آخرين و فى الجزء الأعلى رمل و فى الجزء الأسفل منها علف للدجاج علما أن هؤلاء لا يسألون أحدا عن أجر لقاء ألعابهم. فعند نهاية العرض يتركون للحضور حرية إعطائهم شيئا.

كما و يعتاش بعض المصريين من قرودهم و هى غالبا ما تكون من النوع المتوحش الذى يعيش جماعات جماعات فى غابات اليمن. إن مالك هذا الحيوان غالبا ما يكون لديه حيوانات أخرى كالحمار و العنزة و الكلب. بعض الناس يرقّصون الثعابين. قد يعجب البعض من ذلك خاصة إذا كان لا يعلم شيئا عن غرائز هذه الزواحف لكن هناك أنواع من الثعابين تحب الموسيقى فعند ما تسمع صوت الطبل ترفع رأسها و الجزء الأعلى من جسمها فيقال إنها ترقص. كما و من السهل تعليم القرود الرقص. و قد أكد لى قبطان من الشركة الإنكليزية لبلاد الهند أنه رأى على شاطىء كورومنديل(Coromandel) هياكل قديمة تسكنها القرود من دون الخوف من سكانها الوثنيين و أنه أدخل الطبول عدة مرات إلى هذه الهياكل المهجورة فما كان من القرود حتى الأمهات منها إلا أن خرجت للرقص على إيقاعها و كانت الأمهات تحمل أطفالها بيدها و ترقص وسط قرود أخرى. و لأن الثياب الشرقية الطويلة لا تناسب هذه الحيوانات التى تسير على أربع قوائم، غالبا ما يلبس الناس قرودهم الزى الأوروبى. إن من شأن ذلك أن يجعل المسلمين يقارنون بينا و بين القرود. و هذا ما يحصل دائما عند ما يرون أوروبيين مكشوفى الرأس يحملون سيفهم أفقيا فيخرج من ثيابهم من الخلف و كأنه ذيل القرد.

و كما يقوم بعض البحارة الذين احتجزوا لبضع سنوات فى بلاد البربر بإعطاء الشعب الأوروبى أفكارا مشينة عن سلوك المسلمين تجاه المسيحيين عامة، كذلك يقوم بعض أهل مصر بسرد أخبار كثيرة عن قسوة الأوروبيين. سأكتفى بالتكلم على ذلك الرجل الذى صادفته مرارا فى القاهرة. كان يجلس فى وسط الطريق و يظهر للناس القيود الضخمة التى كانت تكبّله عند ما كان محتجزا فى مالطا و يحكى لهم عن الآلام التى عانى منها أثناء فترة عبوديته كإجباره مثلا على رعاية الخنازير أثناء النهار و على النوم فى حظيرتها أثناء الليل. و لشدة ما كان المسلمون يتعاطفون مع هذا الشحاذ كانوا لا يمطرونه بالحسنات و حسب بل بشتى أنواع السباب التى يوجهونها إلى الشعب الأوروبى الهمجى.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۵۸

آثار مصر

ما من آثار مصرية تاريخية تسترعى الانتباه بقدر الأهرام، و قد بنيت الأولى منها على خط منحرف قبالة القاهرة، أى من الجهة الغربية للنيل، و على التلة الأولى من جهة هذا النهر. عند ما يصل أوروبى إلى القاهرة، لا يغادر مصر قبل رؤية هذه الآثار المذهلة عن كثب، لذا وصلنا أكثر من وصف مفصل لها، لكن لا أظن أن ملاحظاتى حول هذه الأهرام و دراستى لها ستكون من دون جدوى بالنسبة للقراء.

و فى أول مرة أردت فيها رؤية الأهرام، شاركت فى رحلة صيد مع الأوروبيين المقيمين فى القاهرة الذين يملكون بيتا ريفيا فى الجيزة، فاجتزنا جسرا يعلو ساعدا عظيما من النهر، فى الطريق بين الجيزة و الأهرام. و عند ما وصلنا إلى هذا المكان، عادت البعثة، و لم يرافقنى إلى الأهرام سوى السيد فورسكال، و أخذنا معنا بدويين التقينا بهما لتوّنا عند الجسر المذكور أعلاه، ليكونا دليلينا. كانا يمتطيان جوادين فى حين ركبنا نحن حمارين، و كنت قد حملت معى اسطرلابا (آلة قديمة لقياس ارتفاع الشمس أو النجوم) لاستخدامه إذا ما تسنت لى الفرصة. و عند ما وصلنا سفح التلة التى تقوم عليها الأهرام، شكّلت قاعدة أ، ب من ۲۰۳ قدم (راجعوا اللوحة الخامسة، الصورة د). فى المحطة الأولى، وجدت أن الزاوية الأفقية د، أ، ب الواقعة بين القاهرة و زاوية الهرم من الشمال الشرقى هى ۳۷°، ۲۰؟، و أن الزاوية العمودية د، أ، ج هى ۴۱°، ۳۴؟ فى المحطة الثانية، وجدت أن الزاوية د، ب، أ هى ۴۱°۱۴؟، ۳۰؟ و الزاوية د، ب، ج هى ۴۱°، ۳۶؟ و عند البحث عن الضلع أ، د للمثلث د، أ، ب، و الضلع د، ج للمثلث د، أ، ج، تبين أن ارتفاع قاعدة الهرم الأول فوق أفق الآلة بلغ ۱۷۰ قدما. و بما أن الآلة كانت على ارتفاع ۳۰ قدما بالنسبة للنيل، نستنتج أن قاعدة الهرم الأول أعلى من ضفة النيل بحوالى ۲۰۰ قدم.

و كان من السهل على تحديد ارتفاع الهرم لو استطعنا اختيار موقع لقياس ارتفاع رأسه، لكن رأينا عربيا يعدو نحونا، و لأننا لم نكن قد اعتدنا بعد على البدو، سارعنا إلى إخفاء الآلة. كان هذا البدوى ابن أحد الشيوخ، و يبدو أكثر تميّزا من مرافقينا، فسألنا بأدب و احترام عن سبب تواجدنا وحدنا فى هذا المكان المعزول و عند ما سمع جوابنا، عرض علينا مرافقتنا حتى الأهرام و إلى أين ما شئنا. رفضنا عرضه لأننا لم نكن بحاجة إلى دليل ثالث، لكنه أراد البقاء معنا، فأجبناه بطريقة جافة أننا لن نمنعه من مرافقتنا فأكد لنا أنه لن يزعجنا. و اقتربنا من الأهرام، و حين وصلنا وراء تلّة صغيرة، رمى الشاب رمحه أمام السيد فورسكال و منعه من التقدم أكثر إن لم يعطه مالا، لكن هذا الأخير رفض إعطاءه أو وعده بشىء. و كنّا عزلا نمتطى حمارين و بالتالى غير قادرين على مقاومة الشاب لا سيّما و أننا لا نستطيع الوثوق بالدليلين.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۵۹

و أسرعت نحو التلة، و لم أكد أصرخ لصديقى فورسكال أن هناك أناسا فى السهل يعملون حتى استعاد الشيخ هيئته المجاملة و اللطيفة. و لم نشأ التقدم أكثر، فعدنا إلى قرية تبعد عن الجيزة حوالى نصف ميل، وعدنا العرب بإيصالنا إليها. خلال الطريق، تصرّف

الشيخ معنا بطريقة وقحة للغاية، و حاول إفقادنا صبرنا، و عند ما افترقنا، طالبنا بالنقود، و كان ليكتفي بمبلغ لا بذكر لكن السيد فورسكال قرر عدم إعطائه المال. و حين رأى أنه لن يحصل على مبتغاه بالحسنى، نزع عن رأس صديقي عمامته، فما كان من هذا الأخير إلّا أن توجه إلى مرافقينا قائلا: «أيها البدويون، يظنون في بلادنا أن الإفرنج في مأمن حين يكونون تحت حمايتكم، و أنا الآن تحت حمايتكم. لكن إن كنتم ترضون أن يسلبني صديقكم، سأروي لمواطنيّ ما يحصل، و أعلمهم أنكم غير صادقين و غير أمينين».

أثارت هذه الكلمات حمية العربيين فأجبرا الثالث على ردّ العمامة، لكننا لم نتخلص منه، فتحوّل نحوي، و لم أشأ إعطاءه المال، فأراد الاستيلاء على أسطرلابي الذي وضعته أمامي على ظهر الحمار. و لم أضبط أعصابي كصديقي، بل أمسكته بقطعة القماش الكبيرة التي تلف خصره، و بما أنه لم يكن ممسكا بلجام جواده، انطلق هذا الأخير و وقع الأعرابي أرضا. و اعتبر الشاب أنه تعرض لإهانة كبرى، إذ رماه أرضا مسيحي، فأخذ مسدسه وصوّبه نحو صدري، و لا أنكر أني أحسست بأن نهايتي اقتربت، لكن المسدس لم يكن محشوا. و حاول الأعرابيان الآخران تهدئة الشيخ، و نجحت كليا في ذلك حين منحته المال. و حين عدنا إلى الجيزة، سخر الآخرون منا، فقد أعلمونا بعدم الوثوق بالبدو و بأننا سنتعرض للنهب و السلب، لكني أعتبر أننا لو وعدنا الأعرابي الثالث منذ البدء بالمال، لجلنا في الأهرام بأمان. و لا يشكل العرب خطرا كبيرا بقدر ما يتصوّر الأوروبيون قبل اكتشاف طريقة تفكيرهم و تعلم لغتهم.

يعلو ذراع النيل الذي ذكرته و الذي يجري بين الجيزة و الأهرام جسران جميلان للغاية، يبلغ طول الأول ۶۰ قدما مزدوجة و الثانية ۵۰ قدما مزدوجة. ينقسم كل جسر إلى ۱۰ قناطر. ۹ منها مسدودة بالتراب أو بسور مرتفع بعض الشيء. كي لا تمر مياه النيل بسرعة عند ارتفاع المنسوب أو تتراجع بسرعة عند انخفاضه. و نجد من كل جهة، و بين الجسور سدا مبنيا من الآجر و من الحجارة المقصوبة، و يبلغ طوله حوالي ۱۵۰۰ قدم مزدوجة. يبدو لي أن المسلمين قاموا ببنائه، أو على الأقل عملوا على ترميمه، لأن الجسور تحمل كتابات عربية حديثة. و شاهدت في محيط الجيزة جسرين آخرين يقوم الأول على خمس قناطر و الثاني على ثلاث قناطر، و يحملون كتابات عربية .

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۶۱

و بعد فترة، توجهنا مجددا إلى الأهرام يرافقنا عدد من التجار، و قاد البعثة السيد مينار، و هو تاجر فرنسي، أقام لسنوات عديدة في مصر و قصد الأهرام مرارا. و قد حاول حمايتنا قدر المستطاع، لكن إيطاليا حديث الوصول إلى البلاد تعرّض للسلب، بالرغم من عددنا الكبير. فحين وصلنا الأهرام، كان عدد كبير من سكان القرى المجاورة و بعض البدو قد اختلطوا بخدمنا العرب و بسائقي حميرنا. و خلعنا ثيابنا لدخول الأهرام، و سلّم كل منا ثيابه إلى خادمه الخاص أو إلى خادم يعرفه، باستثناء الإيطالي الذي سلّمها لأوّل عربي تقدم لأخذها، فما كان من هذا الأخير إلّا أن أخذها و رحل. و عند ما خرجنا، فقد كلّ منا بعض الأغراض، ففقد هذا مسدسه و الآخر حذاءه الخ. لكني أرفض نعت العرب باللصوص كما يفعل غيري من المسافرين، فهم لم يفعلوا إلّا ما يحصل في أوروبا عند ما تكثر الجموع. و في هذا اليوم، رسم السيد بورنفايند لباس العرب في هذه المنطقة على اللوحة ۲۹.

و كان هدفي الرئيسي، من هذه الرحلة، هو تحديد ارتفاع الهرمين الكبيرين، و استنادا إلى البوصلة الصغيرة، تقابل جهات الهرم الأربع الغرب، و الشرق و الجنوب و الشمال، و نجد من كل جانب أكواما من الأنقاض و الرمال التي تجمعت بفعل الزمان أو الرياح. و نرى عند زوايا الأهرام الصخرة التي قامت عليها، لأن الهواء يعصف بشدة فيحمل ارمال و الأنقاض التي تساقطت من الأهرام شيئا فشيئا. و لتحديد ارتفاع أحد الأهرام، يكفي أن نقيس الزاوية التي تشكلها قمته في إحدى الزوايا مع الأفق (أو في الزاوية الممتدة،

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۶۲

لأننا لا نرى القمة من أسفل الزاوية)، و أن نقيس الجوانب على مسافة متوازية. و عند ما نفتقر للوقت في دراسة هذه الأصرحة الهائلة، و نكون محاطين بأناس نعتقدهم لصوصا، لا نختار السبيل الأسهل و الأدق، لذا أظن أن قياسي ليس بالدقة التي كنت أرجوها. و لم أقس جوانب الأهرام إلا بالقدم، و افترضت أن الخط أ، ب (راجع اللوحة الخامسة، الصورة ه) بين الزاويتين الأقرب بين الهرمين تشكل خطا مستقيما مع الخط الممتد بين الزاوية و وسط قاعدة هذين الصرحين مع انحراف بسيط. بالرغم من ذلك، يمكن أن يكون لقياسي فائدة ما، لذا قررت نشره بواسطة حبل لمسح الأراضي، كنت قد قسته و وضعته مسبقا، و تبين لي أن الخط أ، ب أو المسافة بين الزاويتين الأقرب بين الهرمين الكبيرين، تبلغ ۵۶۵ قدما. و تبلغ الزاوية العمودية ب، أ، ج ۹۳، ۱۰؟، و ارتفاع الآلة ۳ أقدام، لكن عند قياس الخط ب، ج للمثلث ب، أ، ج، تبين أنّ طوله ۳۴ قدما أي إن قاعدة الهرم الثاني ترتفع ۳۴ قدما أكثر من قاعدة الهرم الأول.

و يبلغ عرض الجهة الشمالية للهرم الثاني أو الخط ب، ك ۱۴۱ قدما مزدوجة، مما يعطينا طول الخط ب، ل أو المسافة بين زاوية الهرم و وسطه، إذا ما افترضنا أن جهات الهرم الأربع متساوية من حيث الطول. و يمكن تحديد ارتفاع الهرم الثاني، عند قياس ارتفاع قمة الأول من إحدى الزوايا. و وفقا لتقديري، يبلغ طول ب، ك ۷۰۵ قدم، و ب، ل ۴۹۸ قدما، و أ، ج أي القاعدة المصغّرة أ، ب ۵۶۲ قدما، و الزاوية د، أ، ج ۲۴؟، ۹؟، و أ، ل ۱۰۶۰ قدما، و د، ن أو ارتفاع قمة الهرم الثاني فوق أفق الأول ۴۷۷ قدما.

و لا حظت أن قاعدة الهرم الثاني ترتفع ۳۴ قدما أكثر من قاعدة الأول، أي إن ارتفاع الهرم الثاني يبلغ، بحسب تقديري، ۴۴۳ قدما.

و يبلغ عرض الجهة الجنوبية للهرم الأول أو الخط أ، ط ۱۴۲ خطوة مزدوجة، أو حوالي ۷۱۰ أقدام.

إذا، يبلغ عرض أ، م ۵۰۲ قدم، أو حوالي ۶۰۰ نظرا إلى أن هذا الهرم لا يملك قمة. أما عرض أ، ج فيبلغ ۵۶۱ قدما، لأني لم أستطع وضع الإسطرلاب قرب الزاوية ب، و تبلغ الزاوية «ه، ب، و» ۴۲۰، ۴۴۸؟. و يرتفع «ه، و» أو ارتفاع قمة الهرم الأول ۴۰۳ أقدام بالنسبة لأفق الآلة، لكن بما أن الخط ب، ج أو الآلة ترتفع عن قاعدة الهرم الأول ۳۷ قدما، يبلغ ارتفاع هذا الصرح ۴۴۰ قدما. و قد لاحظت أن التلة التي يقوم عليها هذا الهرم، تقع على ارتفاع ۲۰۰ قدم، و بالتالي، نستنتج أن قمة هذا الهرم أعلى من ضفة النيل بحوالي ۶۴۰ قدما.

و ورد ارتفاع الهرم الأول في الأعمال التي وصفت مصر، لكن أحدا لم يعتقد أنها منخفضة كما ذكرت، و كادت ملاحظات العلماء الآخرين المشهورين تدفعني إلى عدم ذكر ملاحظاتي. لكن فضّلت أن أنشرها، و إن لم تكن غايتي في الدقة، بدلا من أن أنسخ ما ذكره الآخرون حول ارتفاع الأهرام .

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۶۳

و تغطى الرمال أبا الهول جزئيا، و تبين لي أن ارتفاع الذقن يبلغ ۱۰ أقدام و ۶ بوصات، أما طول الرأس فسبعة عشر قدما، أيّ إن ارتفاع الرأس و الرقبة فوق الرمال يبلغ ۲۷ قدما و ۶ بوصات.

و قد بنى الهرمان الكبيران من نوعية حجارة الصخرة التي يقومان عليها نفسها، و هي أحجار كلسية لينة، إذن، لا بد أنهم جمعوا الحجارة من المحيط و من حول تمثال أبي الهول، لأن هذا الأخير يبدو و كأنه حفر في الصخر، أما ذاك الذي يسند الهرم الثاني فهو مسطّح و يشكل جزءا لا يتجزأ من هذا النصب.

و بالغ بعض المسافرين في وصف الأعمال الضخمة و الكلفة العظيمة لهذه الكتل أو الجبال الحجرية، و أشاروا إلى أنها كانت مغطاة بالرخام، و يؤكد بول لوكا(Paul Lucas) أنها كانت مطلية بالإسمنت، لكن هذه الأقوال عارية عن الصحة، على الأقل بالنسبة للهرم الثاني. و نرى في أعلى هذا الصرح، حول قمته، جزءا كبيرا من الرأس : و بالرغم من أنه يبدو متماسكا من بعيد، و من حجارة صلبة، لا سيما حين يقع عليه ضوء الشمس، فهو مبني من الحجر الكلسي اللين نفسه الذي بني منه الهرم. و لدراسة هذا الأمر، تسلقت الهرم حتى قمته، و جلبت قطعة منه، و أعتقد أنه ليس من أوروبي تكبّد هذا العناء، إذ لا يتسلق المسافرون إلّا الهرم الأول و لا يسترعي الثاني انتباههم لأنهم لا يستطيعون الوصول إلى القمة.

و يبدو أن عمل مهندس هذا الصرح الأخير قضى بقصّ الحجارة الناتئة، و تسوية الجهات الأربع من القمة و حتى القاعدة، و هكذا يتصدى للعوامل الطبيعية و للزمان أكثر مما لو كانت الأحجار متدرجة. و مع ذلك، وقع قسم كبير من سقف هذا الهرم، و حمله الرياح، و نستنتج من ذلك أن الأهرام نفسها ستضمحل يوما تحت تأثير عوامل الزمن، لكن ينبغي انتظار آلاف السنين. و لماذا يتكبد المصريون عناء إحضار الحجارة من قمة الأهرام الكبيرة، في حين أنهم يستطيعون الحصول عليها بسهولة أكبر من جبل المقطّم أو من التلة التي تقوم عليها الأهرامات؟ لم أجد دليلا على وجود رأس في أعلى الهرم الأول، و لعل الأمر يعود لقدمه أو لأنه مبني من أحجار لينة و بالتالي معرّض للهواء أكثر من الجزء الأعلى للهرم الثاني. و لا أظن أن بانيها يسعى إلى أن يتسلق الناس الهرم الأول، لأن ارتفاع درجاته غير متساوية كما في الهرم الثاني، و الذي يحاول صعوده من أمكنة عدة، لن يجد عدد الدرجات نفسه.

و نجد قرب الهرم الثالث، المبني من حجارة كلسية، عددا من أحجار الغرانيت، مما يدفعنا إلى الاعتقاد بأنه كان مغطى فيما مضى بهذه الحجارة، كما يؤكد المؤرخون القدامى. لكني لم أكتشف، في الوقت القليل الذي تبقى لي لدراسة هذا الهرم، ما يؤكد أن الطبقة الخارجية كانت من الغرانيت. و تجدر الإشارة إلى أني وجدت بين الحجارة الكلسية أحجارا كبيرا من الغرانيت غير مقطعة موازية

كأحجار سقف الهرم الثانى، لكنى أجهل إذا ما كانت تحمل كتابات مصرية قديمة. و لم أر هذه الحجارة عند دراستى للهرمين الكبيرين، كما لم أتوقع ذلك، لأن الحجارة الخارجية المغروسة فى الأرض لم تعد موجودة.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۶۴

و تسلقت الهرم الأول للاستمتاع بالمشهد الذى وصفه العديد من المسافرين، كما دخلت هذا الهرم و رأيت ما ذكره العديدون. لكن لم يحالفنى الحظ لأكتشف الغرفة التى كانت لا تزال مجهولة و التى اكتشفها بعد رحيلنا السيد دافيسون(Davison) الذى زار مصر مع السيد مونتاغى(Montagu) . و بما أن السيد مايه(Maillet) الذى يفاخر بأنه دخل هذا الهرم أكثر من ۴۰ مرة ، لم يلاحظ هذه الغرفة، سيسامحنى القراء و العلماء لأننى لم أقم بأبحاث من هذا النوع و اكتفيت بدراسات أخرى. و استنادا إلى وصف السيد مينار(Meynard) ، تقع هذه الغرفة فوق الغرفة الكبيرة المعروفة التى تحوى الصندوق، و هى تحتل المساحة نفسها، لكنها أقل علوا، و يعلو مدخلها المنحدر الذى يؤدى إلى الغرفة الكبرى بثلاثين قدما.

و نجد فى الحجارة الكلسية للأهرام، و على الصخرة القائمة عليها، أشياء متحجرة بحجم الدوكا إنما أسمك، و يطلق عليها العرب اسم فضة أبى الهول، كما نجد أشياء متحجرة أخرى على شكل العدس، من نوع الحلزونيات التى جمعتها فى «أبو قير»، على الشاطىء المصرى. و قبل لسترابون إنّ هذه المتحجرات الصغيرة تكوّنت فى الفتات الذى أوقعه الذين بنوا الأهرام . لكن نجد كميات منها فى صخور جبل المقطم قرب القاهرة. و يشير غرانجر(Granger) إلى أن الصخور قرب شيخ حارى(Schech Harre) ? فى مصر العليا مليئة بهذه المتحجرات على شكل العدس. إذا، يحتمل أن تكون كافة الصخور فى مصر الواقعة تحت خط عرض معين، مكوّنة من هذه المتحجرات، لأننا نعلم أن صخور القسم الأعلى للبلاد مكوّنة من الغرانيت. و يدفعنا هذا إلى التفكير حول قدم مصر، كم من السنوات مرّت، قبل أن يولد هذا الكمّ الكبير من الحلزون الصغير و يموت، كى تبلغ هذه الجبال علوها هذا؟ كم من سنوات مرّت، قبل أن تجف مصر لا سيّما إذا ما تراجعت المياه فيما مضى عن الشاطىء بالبطء الذى تراجعت فيه فى القرون العشرة الأخيرة؟ كم سنة مضت قبل أن يكثر السكّان فى مصر، و قبل أن يفكروا ببناء الهرم الأول؟ كم سنة مضت قبل أن تبنى هذه الأهرام التى نراها حاليا فى مصر؟ و لا نعرف حاليا بدقة فى أى قرن و بأمر ممن بنى الهرم الأخير.

و لقد كان من الممكن أن نعرف تاريخ هذا البلد القديم، لو تمكنّا من قراءة كتابات سكّانه القدامى، لأننا لا نجد فى أىّ بلد فى العالم صروحا تكثر عليها الكتابات القديمة بقدر ما نجد فى مصر. لكن لن نستفيد من جهد السكّان القدامى الذين حاولوا تخليد كتاباتهم بحفرها على حجارة صلبة لأننا لا نفقه منها شيئا. و لا نجد سوى القليل من العلماء بين المجموعة الكبيرة الموجودة فى أوروبا، الذين يتمتعون بالصبر و الذكاء الكافيين لدراسة الآثار، و لا تسنح لهم الفرصة عادة لرؤية هذه الآثار إلّا فى مكتباتهم، و لعلهم لم يحصلوا حتى اليوم على نسخ عن الكتابات المصرية القديمة. و إنى على ثقة بأنهم سيفسرون

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۶۵

العديد من الأمور، إن زودهم المسافرون بنسخ كثيرة، لا سيّما إذا كانوا على معرفة بلغة الأقباط التى كانت منتشرة فى مصر قبل وصول اليونانيين، لأن معرفة هذه اللغة ضرورية لتفسير الحروف الهيروغليفية.

و لقد حافظ الأقباط الأوائل، على الأرجح، على كتابات أسلافهم الوثنيين، كما حافظ العرب المسلمون على الكتابة الكوفية. و يبدو أن مصر لم تلق مصير البلاد الأخرى التى قهرتها أمم أجنبية، فأدخلت إليها دينها و لغتها، و قد اختبرت مصر هذا لاحقا، و لم يكن أحد ليهتم بكتابة السكّان القدامى، و خاصة و أن الأغلبية كانوا يعتقدون بحقهم المستمد من السماء لاستئصال الديانة القديمة بالحديد و النار. و قد أشاد بعض اليونان المطلعين الذين زاروا مصر، بحكمة سكّان البلاد القدامى، و لا زالت الكتابات المتعددة و الأصرحة الرائعة التى خلّفها هؤلاء تثير إعجابنا و استغرابنا. و إلا لجعلناهم فى عداد الشعوب الوثنية الأخرى، و اعتبرنا أنهم لم يعرفوا الكتابة كما لم يعرفوا الله.

و ينبغى تشكيل مجموعة كتابات هيروغليفية كاملة إلى حدّ ما، كى يقوم بتفسيرها العلماء، لذا يجب أن يقيم أحد المسافرين بعض الوقت فى مصر العليا، و أن ينسخ كافة الكتابات الكاملة (غير الناقصة) التى تملأ على ما أعتقد جدران المعابد القديمة، كما سيجد الكثير منها فى مدافن المومياء قرب سقارة. و لعلنا سنجد فى مساكن الموتى الجافة هذه، آثارا و غرائب جديدة و حتى كتبا فضلا عن المومياء و الأوانى المغطاة بالكتابات؟ من هو الأوروبى الذى تكبّد عناء كسب محبة عامة الشعب ليدرس كل هذا معهم كيفما شاء؟ نسارع عادة بالعودة إلى القاهرة ما إن نحصل على ما نريد لقاء بعض المال. و يبدو أن المسافرين يكتفون بنقل موقع الحجارة و شكلها و لا يهتمون بنسخ الكتابات المحفورة عليها. و يشتكى البعض منهم من الملل الذى أحسوا به لرسمهم البقايا و حسب، مع أن هذا الأمر لا يتطلب الكثير من الوقت، كرسم الكتابات الهيروغليفية التى لا ينبغى إهمال أىّ خط منها إذا ما أردنا الحصول على نسخ دقيقة ليفسرّها العلماء. إذا، إن المشقات و المصاعب التى يتوقع أن يلاقيها المرء فى مصر، عند الاهتمام بهذه الأمور، كادت أن تثنينى عن عزمى، لا سيّما و أن القاهرة ليست بالمكان الذى تكثر فيه الكتابات الهيروغليفية، و أنى لم أكن مكلفا بالأبحاث حول الآثار. لكن، حين كنت أرسم خارطة القاهرة، وقعت على كتابات هيروغليفية، فقررت نسخها لإرضاء نفسى، و تطلب نسخ الكتابات الأولى الكثير من الجهد لأننى كنت أجهل كافة الرموز، لكن نسخ الثانية بات أسهل، و فى النهاية، أصبحت الرموز الهيروغليفية مألوفة لدى، فاستطعت نسخها بالسهولة التى أنقل بها الحروف اليونانية أو الكوفية. و سأورد هنا الكتابات التى نسختها فى مصر، و لا أشك فى أن بعض الرموز ستساعد فى تفسير و فهم الكتّاب القدامى.

إن أعظم كتابات رأيتها فى مصر هى تلك الموجودة على صندوق كبير من الغرانيت الأسود، قرب مسجد طولون(nجTeil) ، بالقرب من قلعة القبش(Kall el K bsch) ، راجعوا اللوحة ۳۰ رسم بوكوك هذا الصندوق الذى أطلق عليه اسم «نبع الكنز»(The Fountain of Treasura) ، على اللوحة الثانية

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۶۷

«لوصف الشرق»(Description of the East) ، كما رسم بيرى صندوقا مماثلا و الحروف الهيروغليفية المنقوشة عليه على اللوحة ۳۳ من «رؤية للمشرق»(View of the Levant) . و يبلغ طول هذا الصندوق حوالى ۷ أقدام، و هو أعرض من الأعلى منه فى الأسفل، لذا من الطبيعى أن نستنتج أنه تابوت لمصرى ما كريم النسب. و قد وضع الصندوق فى مشكاة ، و بالتالى لا يمكن أن نرى سوى الكتابات المنقوشة على الجهة الأمامية، و يحمل الصندوق على الأرجح كتابات من الجهات الأخرى. كما نجد رموزا هيروغليفية داخل الصندوق، لكنها مغطاة بالكلس لأنه يستعمل حاليا كمسقى. يفترض مايه(Maillet) أن هذا الصندوق الذى يسميه نبع العشّاق، أخذ من أحد الأهرامات و نقل إلى القاهرة، لكن الصندوق الذى نراه فى الهرم الكبير غير مستدير من الأعلى. و لا يحمل كتابات هيروغليفية. و أظن أن بعض الأشخاص الكريمى النسب فى مصر، و الذين لا يتحملون نفقة بناء أهرام، أو الذين توفوا بعد أن ولّت عادة بنائها، دفنوا فى هذه الصناديق الفخمة.

سجّل بعض اليونانيين، الذين كانوا فى مصر فى زمن كان المثقفون يجيدون قراءة الحروف الهيروغليفية، معنى بعض الرموز، لكنى أشك فى أن تفيد هذه التفسيرات لفهم الكتابة الهيروغليفية بحد ذاتها. و قد تصرفوا كما يتصرف المسافرون حاليا، إذ اكتفوا بالرموز الكبيرة التى تلفت الأنظار للوهلة الأولى. لكنى أعتقد أن هذه الرسوم لا تمت لكتابة المصريين القدامى بصلة، و يبدو أنها رموز تدل على أشخاص معيّنين أو أحداث معينة، و تثبت معظم الكتابات التى نجدها اليوم ما تقدمت به دون أدنى شك.

نرى ثلاثة من هذه الرسوم و بعض الرموز الصغيرة ضمن الكتابات المحفورة على الصندوق قرب قلعة القبش و الذى أتيت على ذكره آنفا. و تشكّل الرموز الصغيرة ما أسميه الكتابة الهيروغليفية، و أظن أنها نقشت لتفسير الرسوم الكبيرة، و يبدو من هذه اللوحة أن المصريين كانوا يرسمون الصور بشكل مستقيم و بالمقلوب، كالطيور على سبيل المثال التى تدير وجهها يمنة فى أحد الجوانب و يسرة فى جانب آخر.

و تجدر الإشارة إلى أن بعض الخطوط العمودية متساوية تقريبا فيما بينها، و الصور وحدها تأتى معكوسة كما ذكرت سابقا، مما يدفعنا إلى الاعتقاد بأن المصريين نقشوا كتابات مختلفة تحمل الفحوى نفسها على حجر واحد فإذا ما تلفت إحداها بقيت الأخرى واضحة. و بالرغم مما تقدم، سأنقل للعلماء الكتابات الموجودة على جانب الصندوق و أترك لهم مهمة تفسيرها.

و لأكشف الحقيقة للذين سيتوهمون أنى لم ألاق صعوبات فى نقل هذه الكتابات الهيروغليفية، سآتى على ذكر المصاعب التى واجهتنى و أنا أرسم هذه اللوحة. ظننت أنه من الأفضل القيام بهذا العمل بحضور مسلم مثقف، فقصدت المكان بصحبة شيخ. و بما أن الصندوق فى شارع يكثر فيه مرور الناس، كثر من حولى المتفرجون، و لم يوجّه إلى أحد أية إهانة، لكنهم تفاجؤوا من حشرية

الأوروبيين، و أعجبوا

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۶۹

بقدرتي على نسخ الرموز كما هي على الصندوق و ذلك بواسطة عود (قلم) لا أغطه في الحبر. و ما إن نسخت ربع الكتابات حتى وصل سراج و هو حارس في خدمة البهاوات، يحاول أن يعطي لنفسه أهمية أمام عامة الشعب، و لا سيّما حين يستطيع شتم و إهانة يهودي أو مسيحي ما، لأن هذين الأخيرين لا يتجرآن على إهانة المسلم أو ضربه حتى و لو أسيئت معاملتهما. و لا أعلم إن كان مكلفا الحفاظ على الهدوء و الأمن في المنطقة، و لم يتحمل رؤية هذا الحشد أو أنه أراد إظهار سلطته في حضور هذا العدد من المشاهدين، لكنه تلفظ بكلام جارح، و رأى الشيخ الذي يرافقني ضرورة الرحيل إلا إذا أردت التعرض للضرب. ركبنا حمارينا، وعدنا، لكني كنت غاضبا من السراج، و أردت الاستعلام عن سيّده لأرفع إليه شكواي، لكن صديقي الذي يعرفهم أحسن مني، لم ينصحني بذلك و حاول تهدئتي راويا لي حالات مماثلة لم تفض الشكوى إلى شيء. و قال لي: هل يمكنك منع كلبك من النباح ضدك، أو حين يرفسك حمارك هل تضربه بدورك؟ يمكنك أن تعود لا حقا و تنسخ ما تشاء على مهل. و بعد أيام، عدت و صديقي إلى قلعة القبش، و منحت أحد حراس الحيّ بعض المال ليحميني من أصدقائه، و تجمّع حولي الناس و من بينهم سراج سألني عمن أعطاني الإذن لنقل الحروف الهيروغليفية عن الصندوق، فأجابه سراجي إن الإذن صدر عن معلمه، فرد الأول إن معلمه يرفض السماح لي بذلك. و هكذا غادرنا المكان، و بعد أيام عدت للمرة الثالثة، و لم أكن قد انتهيت من عملي كليا، حين أخذ أحد الأئمة الذي رآني من منزل مجاور للمسجد يحدث ضجة، و لم أجد داعيا لأن أتعرض لمشاكل جديدة، فجمعت أغراضي و غادرت المكان.

و نسخت بهذه الطريقة الكتابات شبه كاملة، من دون أن أتكلّف الكثير من المال. و لو أني توجهت إلى إمام المسجد أو إلى بعض الباهاوات، لكلفني الحصول على الإذن هدية قيمة، أو لعلهم منعوني من نسخ أيّ حرف. و لا ينبغي أن يطلب الأوروبي، الذي يسافر إلى البلاد الشرقية، حماية الأشخاص النافذين بين المسلمين إذا ما أراد إرضاء فضوله. و أعترف أن الأمر يتطلب شجاعة و برودة أعصاب، فلو أني سمحت للسراج الأول بإخافتي، لما نسخت إلا القليل من الكتابات الهيروغليفية و الرموز. و باختصار، يجب توقّع المصاعب حين نسعى لرسم الآثار في بلاد الشرق، لكننا لا نتعرض لمخاطر جسام، و يبقى الأهم أن ينال المرء مبتغاه.

يدّعي البعض أن باحات المساجد في القاهرة تضم العديد من الصناديق التي نقشت عليها حروف هيروغليفية و التي تستخدم حاليا كأحواض. و منذ حوالى ۲۰ عاما اكتشف عثمان كخيا صندوقا، و نقله في النيل لوضعه قرب مسجد، لكنه كسر عند وصوله إلى بولاق، فوضعت أجزاؤه حول شجرة لتغطية جذورها بالتراب بسهولة أكبر. تحمل اللوحات(XXXII، XXXIII، XXXIV XXXV XXXI)، الكتابات الهيروغليفية المنقوشة على أجزاء هذا الصندوق، و نجد بينها رموزا، لكن السطر الأعلى لا يعدو كونه للزينة، كما يمكن أن يكون للرسوم التي تتكرر معنى معين و كتبت حروف اللوحات الثلاث الأولى بشكل مستقيم، أما الأخريات فبالمقلوب. و نجد الصورة الكبيرة نفسها المحفورة على اللوحة(XXXIII)،

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۷۱

۳۳ ليرى(Perrey)، لكن الحروف الصغيرة التي ترافقها و التي تفسرها تختلف كليا عن تلك التي ترافق صورتي الكبيرة، و ينبغي مقارنة حروف لوحة بيرى الهيروغليفية مع حروف لوحتي التي ذكرتها، و نجد قطع هذا الصندوق في ساحة كبرى أمام منزل الحاكم، و أمضيت هناك ساعتين رسمت خلالهما الرموز بحضور الكثير من المشاهدين و من دون أن أتعرض للإساءة. لكن حين عدت مرة أخرى، و بعد أن عملت لبعض الوقت، حضر سراج و طلب مني مرافقته لرؤية سيده الحاكم، و سألني هذا الأخير عن سبب نقلي للكتابات الفرعونية، و عرضت عليه و رقتي، التي أعطاها لكبار القوم الحاضرين، فضحكوا من حشرية الأوروبيين التي بدت لهم غير مجدية. و أخيرا، أخذ السراج أوراقي و خرج من الغرفة، فرجوت الحاكم أن يردّها لي، فأجابني بأن أطلبها من حارسه، مما يعني أنه يسمح لهذا الأخير بأخذ الأوراق. و اضطررت إلى منحه بعض المال، فأعاد لي الورقة، و سمح لي برسم رموز هذا الصندوق المكسور.

و تحمل اللوحة(XXXVI) قسما من الكتابات الفرعونية المنقوشة على المسلتين الصغيرتين المكسورتين.

و استخدمت القطعة أ، و هي من الرخام الأسود كعتبة لمسجد قصر القاهرة، و بين الصور التي أوردتها، فإن التي أشرت إليها بنجمة تستحق اهتماما خاصا، لأنها كانت ناتئة و بارزة في إحدى التجويفات. أما القطعة ب و هي من الغرانيت فاستعملت كدرجة أمام أحد المنازل قرب القنطرة الجديدة(K ntared Sjedid)، و يبلغ عرضها ۵ أقدام و ربع، و يمكن أن نستنتج من هنا أنّ الصور المنقوشة كبيرة، و قد حفرت الصورتان المشار إليهما بنجمة بشكل عميق إنما ظاهر في الوسط.

تعتبر الأواني الصغيرة و جرار المرمر من بين الآثار المحفوظة جيدا و التي تحمل كتابات هيروغليفية، و قد رسمها نوردن بشكل جيد على اللوحة ۵۵، لذا اكتفيت بنقل الكتابات الهيروغليفية التي رأيتها في مصر على خمس جرار و ذلك على اللوحة ۳۷ و ۳۸. و نقش رأس امرأة على غطاء الإناء الذي يحمل الحرف أ، و رأس كلب على الذي يحمل حرف ج، و رأس عصفور على ذلك الذي يحمل حرف د، فيما فقد غطاء الإناءين الآخرين. و يبلغ ارتفاع الحرف أ، ۶ بوصات و نصف، أما ج، و د فسبع بوصات و ربع.

و يندر أن نجد في بلاد أخرى كتابات قديمة محفورة في الصخور الصلبة كهذه، كما نجد في مصر رسوما و كتابات مرسومة على الخشب و على القماش و هي قديمة جدا و قد حافظت على رونقها. و رأيت هذه الكتابات عند قنصل فرنسا في القاهرة على غطاء صندوق مومياء من الخشب، و نقلتها على اللوحة ۳۹. و وجدت هذه القطعة غريبة للغاية، لأنها تبرهن أن الكتابة الهيروغليفية المنقوشة في الوسط من الرأس و حتى القدمين مؤلفة من حروف تشكّل كتابة المصريين، لكن الرسوم التي تغطي باقي الغطاء من الجهتين و التي ينبغي أن تكون أكبر مقارنة مع الكتابات الهيروغليفية و التي لم أرسمها، لا بد أنها رموز مستوحاة من الأساطير. و تحمل اللوحة(XI) العديد من الكتابات القديمة، و قد نسخت الصف أ عن تمثال خشبي للمومياء، و الصف ب عن غطاء صندوق مومياء، أما الكتابات الصغيرة ج فنقلتها عن جرّة صغيرة، يحمل

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۷۳

غطاؤها رأس عصفور، و الصفوف الثلاثة ج نقلتها عن تماثيل خشبية صغيرة لمومياء، يبلغ طولها ۱۰ بوصات، و هي مرسومة بشكل سيء. و نسخت الكتابات حبا بالصورتين الموجودتين في الأسفل و يبدو أنهما رمزان، و لم تكونا مرسومتين إنما محفورتين في حجر كلسي ليّن استخرج من مدافن المومياء في سقارة.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۷۴

و يبدو أنّ الذين يهتمون بتفسير الكتابات الهيروغليفية، لم يعملوا إلا على الرسومات الكبيرة أو الرموز، لكن أود أن ينتبه العلماء للحروف التي تشكّل الكتابات الهيروغليفية. أما الذين يودون التعمق بالكتابة الهيروغليفية، فعليهم الحصول على الحروف و الرسوم المختلفة التي تشكل هذه الكتابة. و بما أن النقوشات التي نسختها غير محفوظة كلها بشكل جيد، جمعت على اللوحة(XLI) كافة الحروف الظاهرة بوضوح في رسوماتي، و من السهل إضافتها إلى الكتابات الهيروغليفية الأخرى المرسومة بشكل جيد، و إذا ما عمل المسافرون الذين يزورون مصر العليا على نسخ هذا النوع من الكتابات الأثرية، ستتمكن من معرفة كافة الحروف التي تشكّل الكتابة الهيروغليفية. و سنكتشف أن بعض الحروف ترد أكثر على المسلات، و أن غيرها ينقش أكثر على أحجار الأضرحة، الخ. و ستساعد هذه الأمور على توجيه العالم الذي سيعمل على تفسير الهيروغليفية.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۸۱

أخيرا، تحمل اللوحة(XLII)، بعض الأشكال التي نقلتها من مصر: الشكل أ مصنوع من النحاس، و قد صبّ في قالب، يبلغ طوله ۵ بوصات و ۴/۳ من أخمص القدمين و حتى أعلى القلنسوة، و نستنتج من هذا حجم الأشكال الأخرى الكبيرة. ثم الشكل ب، من النحاس أيضا، و قد قولبت جيدا، له كالأول دسار تحت القدمين، و قد نحتت المرأة و هي جالسة، لكن المقعد من مادة أخرى فلا أثر له، و هي تلبس أساور و حلقات حول القدمين كما يفعل الشرقيون حاليا، و لا ترتدي سروالا كما هي العادة عند النساء في الشرق، إنما تلف قماشا قطنيا حول وركيها كما تفعل الغسالات عند ضفاف الأنهر و شواطىء البحار. و قد تزين الولد، الذي تضعه في حضنها بعقد يحمل قلادة تصل حتى صدره، و نرى من الجهة اليمنى للرأس جديلة طويلة تصل حتى أكتافه، و يبدو أن للأم و للولد خصلة شعر مجدلة على الجبين، كالمرأة في وادي فاران. و قد لحق الأذى بأعلى زينة رأس هذا التمثال، كما يفتقد الشكل ج إلى ما كان يحمله بين يديه و إلا فهو من النحاس المقولب، و يبدو قديما للغاية. أما الشكل د فمن النحاس، و قد وجد في مصر، لكنه يبدو أنه صنع على يد فنان يوناني و لعله كيوبيد (إله الحب) يحمل حمامة في كل يد، و هي حمامة بأجنحة مزدوجة أو مطوية من الأسفل. صنع الشكلان «ه» و «و» من الفخار المشوي، و لهما حلقة على الرأس، و قد استخدما على الأرجح كزينة، أما الشكل «و» فمغطى بطلاء

أخضر اللون.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۸۴

سير الرحلة من القاهرة إلى السويس و إلى طور سيناء

تشكل شبه الجزيرة العربية، و خاصة القسم الجنوبي منها، موضوع رحلتنا الأساسي. و لما كان يحظر على المسيحيين السفر برا من القاهرة إلى مكة برفقة الحجاج، اضطررنا لانتظار الفصل الملائم للسفر برا من السويس إلى جدة. كما أننا لم نستطع القيام برحلتنا إلى طور سيناء، لاكتشاف جبل المقطم أو جبل النقوش، الذي شغل الأوروبيين في السنوات الأخيرة. خلال فصل الصيف، كان سكان القاهرة يحاربون القبيلة العربية الصغيرة المقيمة في ضواحي الطور(To ?r) و إليكم سبب اندلاع هذه الحرب: وصلت إحدى السفن التي يرسلها سنويا سكان القاهرة من السويس إلى جدة، محمّلة بالقمح إلى المرفأ المذكور، بغية التزود بالمياه، لأنها عذبة و مجانية، على عكس مياه السويس. فلم يستطع العرب الرحل المقيمون في جوار الطور، رؤية سفينة محملة بالقمح دون أن تخالجهم الرغبة بالسطو عليها. فأخذوا الربان و البحارة و الركاب أسرى لديهم، بعد أن غادر معظمهم السفينة للتزود بالمياه و لرؤية أصدقائهم، علما أن الأتراك يرفضون رفضا قاطعا منحهم جزءا من حمولة سفنهم. و استعانوا بزوارق الإنقاذ و مراكب الصيد الخاصة بسكان الطور لنهب السفينة. فأثارت هذه الحادثة بلبلة كبيرة في القاهرة، و لم يعد يتجرأ عرب هذه القبيلة الصغيرة التي كانت تنقل بمساعدة عرب المنطقة البضائع من الطور إلى السويس، الذهاب إلى مصر حيث سيحاسبون على لصوصيتهم في البداية، لم يكترثوا للأمر. لكن بعد أن نفدت الغنيمة راحوا يسعون للتصالح. فكانوا يزعجون كل القوافل المسافرة من السويس إلى القاهرة و يقتلون الجمال غير المحمّلة، أو يسرقونها. و أعلموا سكان القاهرة، أنهم صمّموا على سرقة القوافل كلها، إن لم يستعيدوا حق مشاركة العرب الآخرين في نقل البضائع بغية كسب رزقهم. كانت هذه نقطة ضعف الحكومة المصرية، و حاكم هذا البلد المكتظ بالسكان، و سلطانها الذي يعتبر نفسه سيدا على شبه الجزيرة العربية. فهذه القبيلة العربية الصغيرة، كانت تجرؤ على غزو المدن، الواحدة تلو الأخرى، دون أن تهاب أحدا. أجبرتنا هذه الأحداث على التوقف في مصر سنة تقريبا. كانت الحكومة المصرية عاجزة عن معاقبة عرب الصحراء، و تخشى أن ينهبوا القمح الذي ترسله إلى مكة؛ كما و أن التجار كانوا قلقين على بضائعهم، و العرب الذين يهتمون بنقلها غير مستعدين لخسارة جمالهم؛ و بعبارة أخرى، كان الجميع يسعى لإحلال الأمن. و لقد استشرنا تجار البلاد بشأن التدابير التي يجب اتخاذها لرحلتنا المقبلة؛ فرأوا أنه من الأفضل انتظار عودة القافلة الكبيرة من مكة، للتأكد من سلامة الطريق غير أنهم علموا أن أمير الحج قد تلقى الأمر بالتصالح مع العرب خلال الرحلة. فأرجيء سفر القوافل إلى ذلك الحين، مما دفعنا لتأجيل رحلتنا.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۸۵

يستحسن أن يعرف كل أوروبي يسافر إلى الشرق، لغة البلاد معرفة سطحية كما و أن السفر بصورة مريحة يتطلّب استخدام خدم، جابوا البلاد من قبل. و عند انطلاقنا من القاهرة، لم نكن نعي جيدا هذا الأمر. فخادمنا الأوروبي، المولود في السويد، و الذي رافقنا من كوبنهاغن، لم يسبق له أن زار الشرق.

و طباخنا اليوناني، المولود في إحدى جزر الأرخبيل، لم يحب الصحراء من قبل علما أنه عمل عند تجار أوروبيين في القاهرة. و علاوة عنهما، كان يعمل في خدمتنا يهودي من صنعاء، عمره ۲۶ سنة، قام برحلة مماثلة إلى بلاد مصر، فضلا عن بلاد الهند و بلاد فارس؛ و لكن المسلمين المسافرين برفقتنا احتقروه أشد احتقار. كان الطبيب غرامر ملزما بالتحدث مع مرافقينا المسلمين؛ و كم سرّ باصطحاب مترجم معنا؛ و هو يوناني الأصل، اضطر لاعتناق الإسلام بسبب سلوكه الشائن. تزودنا بكل ما يلزمنا للرحلة من مؤن و خيام و أسرّة. و الجدير ذكره أن عددا كبيرا من الرحالة، قدّموا لنا شرحا تفصيليا عن الأشياء اللازمة للرحلة في هذه البلاد، و هي بمعظمها مريحة للغاية، حتى أن الجيوش الأوروبية تستطيع استعمالها. كنا نحمل أواني مطبخية نحاسية، مقصدرة من الداخل و الخارج. أما الزبدة، فكانت موضوعة في ظرف من الجلد السميك، و استبدلنا بالطاولة قطعة جلدية مستديرة، زيّن طرفها بحلقات من حديد، نعلق فيها الطاولة بالحمل.

و وضعنا فنجانين القهوة في علبة خشبية مغطاة بالجلد و أخرى شبيهة بها، تحوي الشموع؛ و كان غطاؤنا مزودا بقسطل يوضع عليه الشمعدان. و كنا نحمل معنا علبة خشبية أخرى لها عدة أغطية و تضم و تحوي الملح و البهار و التوابل. و استبدلنا بالأواني الزجاجية أخرى نحاسية مقصدرة من الداخل و الخارج.

و كانت القناديل المصنوعة من النسيج الكتاني تطوى كالقناديل الورقية الصغيرة، التي يصنعها الأطفال في أوروبا. و كان كل واحد منا يملك إبريق ماء من الجلد السميك، يستعمله للشرب، و لم نكن نتوقع أن نصادف ينبوع ماء قبل بضعة أيام، فحرصنا بالتالي على ملء المطرات المصنوعة من جلد الماعز، و إضافتها إلى المؤن؛ حتى أننا أخذنا معنا و عاءين من الحجارة، للتزود بالمياه خلال رحلتنا من السويس إلى جدة.

و وضعنا النبيذ في قوارير زجاجية، تتسع كل واحدة منها ل ۲۰ قنينة؛ و لكنها تتكسر بسرعة إذا ما وقع الجمل، أو اصطدم بغيره. توضع جلود الحيوانات المخصصة لنقل المياه، في الخارج، بينما توضع تلك المخصصة لنقل النبيذ في الداخل؛ و هي مطلية جيدا بالزفت حتى لا يلتقط الكحول طعما سيئا. فإن كانت تبدو هذه الطريقة لحفظ المشروبات مقرفة، إلا أنها تحول دون تسرب النبيذ على الطريق، كما حصل معنا في بداية الرحلة. و نادرا ما يتزود الرحالة بالحطب أو الفحم؛ ففي الأماكن التي اعتادت القوافل أن تحط رحالها فيها، يكثر زبل الدواب التي تستعمل للتدفئة خاصة إن لم يتوافر الحطب أو الأشواك.

في ۲۷ آب/ أغسطس ۱۷۶۲، سمعنا طلقة مدفع من قصر القاهرة؛ هذا يعني أن القافلة الكبيرة قد بعثت رسولا لتحديد الوقت الذي سيعود فيه الحجاج إلى بركة الحاج، حتى يتمكن كل من يريد مقابلة أصدقائه أن يوافيهم إلى هناك. و يمكننا الاستنتاج بالتالي أن عرب الطور كانوا مطمئنين إلى أن قافلتنا

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۸۶

ستجوب البلاد في أمان. و في اليوم نفسه قصدنا مخيم الشيخ الذي حط رحاله قرب قرية سرياغوس، ليبيت فيها أهل بيته و خدامه. و كنا نرى قصر القاهرة في الجهة الجنوبية- الغربية و بعض البقايا في الجهة الشمالية على بعد ساعتين. يسمي العرب هذه البقايا تل اليهود أو تربة اليهود. لم نصادف أي قافلة في طريقنا على عكس ما كنا نتوقعه؛ و لكن العرب و كل من استأجر جمالا نقلوا حمولهم إلى ديارهم، و تفرقوا كل في طريقه.

و في صباح الثامن و العشرين، لم نكن قد تأكدنا بعد إن كانت القافلة ستجتمع اليوم أم لا و لكن عند اقتراب بعد الظهر، بدأنا نشاهد بعض الجماعات، فبدأنا الاستعداد للرحيل. انطلقنا من سرياغوس، و مررنا بقرية حانقي، المجاورة لبركة الحاج و عند سلوكنا طريق السويس، كنا نتقدم شرقا مع انحراف بسيط نحو الجنوب. و لم نشاهد في الطريق منازل أو ينابيع مياه، أو حتى مساحات خضراء. كان الطريق معبدا و معظم الدروب الضيقة ممهدة بواسطة الجمال التي تنتقل على حريتها، حتى و إن كانت محملة بالأغراض. شاهدنا على بعد فرسخين و ۱۰ دقائق من بركة الحاج، أرضا منبسطة و تسمى المصطبة؛ يستقبل فيها أسياد القاهرة أمير الحاج عند عودته من مكة. و يسمي العرب المكان الذي يبعد ۵ فرسخات عن البقعة التي حططنا فيها، فرن البهاد(El Furn Beh d) .

غالبا ما تكون القافلة الأخيرة التي تنطلق قبل البواخر إلى السويس كبيرة جدا. و لما كنا نريد مغادرة القاهرة بأقصى سرعة، كانت قافلتنا تتألف من ۴۰۰ جمل، محملة كلها بالقمح، و معدات بناء السفن، و التي تصنع في السويس؛ و كان يلزمنا جملان أو ۴ لحمل المراسي. لم أشاهد في مصر أو شبه الجزيرة العربية عربات نقل أبدا. يترأس القافلات الكبرى المسافرة إلى مكة، أو التي تنتقل بين البصرة و حلب، أو تجتاز صحارى أخرى شاسعة، و بالتالي أراضي العرب المستقلين، كروان باشا أو سانق يدفع الضرائب اللازمة، ليجمعها لاحقا من الرحالة. و لكن القوافل الأخرى التي تقوم برحلات صغيرة لا يعين على رأسها شخص مماثل. يقتدي المسافرون بكبار التجار أو بالعرب الذين يتحملون كافة الأعباء. فحين يحط هؤلاء رحالهم، يحذو الجميع حذوهم؛ و حين يستعدون للرحيل يسارع المسافرون إلى حزم أمتعتهم دون الإعلان عن ساعة الانطلاق؛ فلا أحد يحب البقاء وحيدا علما أنه قد يتعذر عليه اللحاق بالقافلة. لم نكن نخشى أبدا أن تتعرض قافلتنا للاعتداء؛ و لكن بعض الرحالة الذين يسبقون سواهم، أو يتأخرون عن القافلة يخاطرون بالتعرض للسلب؛ لهذا السبب، حرصنا على البقاء في وسط القافلة. أما في الأماكن الآمنة، فكنت أسبق التجار للاستراحة قرب أحد الينابيع و تناول الطعام. لم يسافر في قافلتنا إلا عدد قليل من الجمالين، الذين كانوا يحملون بنادق دون أسياخ أو قوارير فارغة أو سيوف صدئة. أما الشيوخ الذين يملك معظمهم جمال القافلة فركبوا وحيد السنام، مزودين بالحراب و السيوف و البنادق. و لكننا لم نحاول الاتكال

عليهم؛ لأن العربى لا- يخاطر بحياته فى سبيل إنقاذ أموال التجار الأتراك. و الجدير ذكره أن معظم التجار يتسلحون جيدا فى سبيل الدفاع بيأس عن بضائعهم.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۸۷

و لقد اختار رفاقى الأربعة القيام بهذه الرحلة على الحصان، بينما فضلت ركوب وحيد السنام بدافع الفضول فحسب رغم أنى كنت أخشى فى البداية الوقوع من على ظهر هذه الدابة الضخمة. يبرك وحيد السنام أرضا حتى يركبه الفارس؛ و حين يريد النهوض يرفع مؤخرته أولا و على الفارس، أن يتمسك جيدا كى لا يقع من الأمام؛ و هو يمشى الهوينا شأنه شأن أى جمل بينما تسرع الأحصنة تارة فى سيرها و تتهادى طورا حتى تبقى قرب القافلة و لا حاجة لإيقاف وحيد السنام لركوبه؛ فهو معتاد على الانخفاض أرضا، حتى يضع الفارس رجله على عنقه؛ يمتاز سرج الجمل بالحزم المتدلية من الجنبين كى لا تضغط على سنامه و لا يختلف سرج الجمل أو وحيد السنام عن سرج الحصان؛ مددت عليه مرتبتى و جلست عليها بارتياح، خاصة و أننى كنت أبدل وضعيتى حسب ما يحلو لى. بينما أجبر رفاقى المسافرون على الحصان على الحفاظ على الوضعية نفسها؛ و عند حلول المساء، لم أكن أشعر بالتعب إطلاقا و كأننى أمضيت النهار كله جالسا على كرسى. مما لا شك فيه أن سير هذا الحيوان الضخم يثير الإزعاج؛ و لكن الجمال تخطو خطوات كبيرة و تمشى الهوينا حتى لا يشعر راكبها بالهدهدة. عند الساعة الرابعة من صباح ۲۹ آب/ أغسطس رفعنا الخيام من جديد؛ و بعد أن سرنا خمس ساعات و نصف حططنا الرحال فى مكان يسميه العرب يسرا(Dsjasra) و كنا ننوى الاستراحة فيها عدة ساعات؛ و لكن لم يتسنّ لنا الوقت حتى نتناول الطعام، فحملنا الجمال ثانية و قطعنا فرسخين و نصف، حتى بلغنا جبل وهبة(Webbe) الواقع جنوبى الطريق. و مع حلول بعد الظهر كنا قد قطعنا خمسة فراسخ فحططنا على مقربة من جبل طاجا(Taja) ؛ و كانت القافلة العائدة من مكة قد حطت فى هذه البقعة فى الليلة السابقة. و كنت أرغب برؤية مسيرتها، بيد أنها اتجهت جنوبا. و فى هذه المنطقة بالذات، كان العرب يثيرون خوف القوافل الصغيرة، عشية ذاك النهار أكّد لهم أمير الحاج، على لسان حكومة البلاد، أنهم يستطيعون العودة مع جمالهم دون أن يخشوا شيئا.

و فى ۳۰ آب/ أغسطس، غادرنا طاجا عند الساعة الواحدة صباحا و بعد أن سرنا ۴ ساعات ثم بلغنا قصرا تركيا مهدما، يسمى الأجرود، قربه ينبوع مياه عذبة؛ و يمكننا القول إنه يقع عند طرف الصحراء.

بالنسبة للقادمين من القاهرة (سفر الأعداد، الفصل ۳۳) و عند مدخل الصحراء بالنسبة للقادمين من السويس (سفر الخروج الفصل ۱۳) تمر القوافل المسافرة من القاهرة إلى جبل سيناء أو إلى مكة شرقا، عند طرف البحر الأحمر؛ و لكننا انعطفنا جنوبا (سفر الخروج الفصل ۴) حتى بلغنا بئر السويس، حيث

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۸۸

تستخرج المياه يدويا، بواسطة أوان أو أكياس جلدية، و لكن هذه المياه ملوّثة و غير صالحة للشرب. يحاط هذا البئر بسور شاهق مزود بباب حديدى يقفل من الداخل لتجنب العرب الأعداء. و بعد أن قطعنا الأجرود كان الخليج العربى يقع شرقا حتى أننا لم نتمكن من العبور إلى الضفة الأخرى دون المرور به أو التوجه شمالا لندور حوله. و يتطلب الانتقال من بئر السويس إلى مدينة السويس حوالى الساعة. و تشير حساباتى إلى ما يلى:

من القاهرة إلى بركة الحاج ۴ فراسخ

من بركة الحاج إلى المصطبة فرسخان و ۱۰ دقائق

من المصطبة إلى فرن البهاد ۵ فراسخ

من فرن البهاد إلى جفرا ۵ فراسخ و ۳۰ دقيقة

من جفرا إلى وهبة فرسخان و ۱۵ دقيقة

من وهبة إلى طاجا ۵ فراسخ

من طاجا إلى أجرود ۴ فراسخ و ۴۵ دقيقة

من أجرود إلى السويس ۴ فراسخ

و بالتالى تبعد القاهرة عن السويس ۳۲ فرسخا و ۴۰ دقيقة .

فإن كان الفرسخ يوازى ثلاثة أرباع الميل فذلك يعنى أن المسافة بين هاتين البلدتين تقدر ب ۲۳ ميلا.

و تقع السويس على بعد ميل و نصف جنوبى القاهرة، أى على خط العرض ۲۹؟ و ۵۷؟. و يختلف خط الطول بين هاتين المدينتين بفارق ۸ دقائق و ۳۰ استنادا للرصد الجوى.

فى الأيام الغابرة يوم كانت السفن تمر شمالا فى الخليج العربى، كنا نشاهد فى هذا المكان الذى بنيت عليه لا حقا مدينة السويس، مدينة كلثوم الشهيرة جدا فى كتب المؤلفين العرب. و لم يتبق منها اليوم سوى بعض الأنقاض و الآثار التذكارية التى لا تلفت الانتباه؛ أما اسم هذه المدينة فظل متداولا لأن أنقاضها تسمى اليوم أنقاض كلثوم. و لعل هذه المدينة نفسها حملت اسم كليسما و كليوباترا و أرسينوا؛ لأن الاسم اليونانى كليسما، يتألف من الأحرف الصامتة نفسها التى يتألف منها الاسم العربى كلثوم و لعل اليونانيين أطلقوا على هذه المدينة تسميات مختلفة فى صحفهم؛ إلا أن سكانها حافظوا على اسمها القديم. يطلق اليونانيون مثلا على مدينة بتولومى اسم عكون(Acon) ؛ غير أنها تعرف اليوم باسم عكّا(Acca) ، الذى يتداوله سكانها منذ زمن طويل. تبدو السويس مدينة حديثة. لم يأت السيد دو بريتباح الذى عبر العام ۱۴۸۳ الجهة الشرقية للخليج قرب موقع هذه المدينة على ذكرها إطلاقا؛ و فى تلك الحقبة كانت تور المرفأ الأساسى بين القاهرة

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۸۹

وجدة. يقول أندريه كورسال، إنه العام ۱۵۰۹ الذى بدؤوا فيه بناء السفن الشراعية؛ و استنادا لتقرير مؤلف كتاب «رحلة سليمان باشا»، بدؤوا بناء السفن فى السويس العام ۱۵۳۸.

لا تزال صناعة السفن فى هذه المدينة مزدهرة للغاية، علما أن الخشب و الحديد و خلافه، ينقل من القاهرة على الجمال، و يؤدى إلى ارتفاع الأسعار ارتفاعا ملحوظا. و لا تسافر هذه السفن أبعد من جدة؛ و هى تسمى سفن القاهرة لأنها ملك سكان هذه المدينة. نسيت أن أعد بنفسى المراكب التى فى السويس و المرافىء الأخرى و أكدوا لى أن أربع أو خمس سفن تنقل سنويا القمح من السويس و قصير إلى جامبو وجدة، ليوزع بعدها فى مكة و المدينة فضلا عن أن أربع عشرة سفينة تجارية محملة بالبضائع و الركاب تبحر من السويس إلى جدة، و لفتت انتباهى الرادفة الكبيرة تحت دفة السفينة (راجعوا مركب المدينة تور اللوحة ل أ)، و تلك التى تمتد من أمام غرفة الربان، حيث علقت أسلاك طويلة، و تجتاز رادفة الدفة حتى تتحكم بها. و رغم أن هذه الأسلاك معلقة فوق الماء، غالبا ما تلامس سطح البحر نظرا لثقلها معيقة بذلك سير السفن، لذا غيّر الأتراك و الهنود دفات سفنهم، و جعلوها مشابهة لدفات السفن الأوروبية؛ و لكن ربابنة هذه المناطق شديد و التعلق بعاداتهم القديمة حتى أنهم بدلوا دفة إحدى السفن المبنية فى السدرات و المباعة لأحد سكان القاهرة، حتى تتلاءم مع أهوائهم . لم أر على متن هذه السفن مضخات للمياه؛ و لكن المياه المالحة كانت تستخرج بواسطة الأكياس الجلدية و للاستعاضة عن البراميل، كانت هذه السفن تحمل على متنها خزانا كبيرا للمياه موضوعا قرب صارى السفينة؛ و هو لا يأخذ مكانا كبيرا على خلاف البراميل الأخرى، و لكن إن تسربت المياه منه، تتبلل البضائع الموضوعة فى جواره؛ كما أن المياه العذبة ستنفد من السفينة خاصة بعد ابتعادها عن المرفأ. تعرفت على رحالة إنكليزى عاش هذه التجربة بين سورات وجدة.

تقع مدينة السويس على الضفة الشرقية للخليج العربى، و ليس عند طرفه. و الجدير ذكره أن هذه المدينة ليست محاطة بالأسوار؛ و لكن منازلها محصنة جيدا، ضد هجومات العرب المفاجئة، و جدرانها متلاصقة جدا حتى أننا لا نستطيع الدخول إلى البلدة إلا من خلال شارعين فقط: واحد مفتوح يمر بمحاذاة البحر غربا، و آخر رئيسى يغلق بواسطة بوابة غير ثابتة. أما بقايا القصر الذى بناه الأتراك على أنقاض مدينة كلثوم فلم يعد له أثر. لا نجد فى المدينة منازل، أو فنادق كثيرة (شمس و عقال) و كما أن عدد سكانها ليس كبيرا؛ و نجد بينهم عائلات يونانية و قبطية. و لا تعج هذه المدينة بالناس إلا عند انطلاق البواخر إلى جدة أو العودة منها. تحيط بالمدينة سهول صخرية مغطاة بالرمل و الحجارة؛ و هى أرض قاحلة و جافة و لا- ترى فيها أثرا للنبات، باستثناء بعض الأشجار و الحدائق و الحقول . يشترى سكان هذه المدينة سلعهم

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۹۰

الغذائية الأساسية من مصر، على بعد ثلاثة أيام، أو من جبل سيناء على بعد خمسة أو ستة أيام أو من غزة، على بعد سبعة و ثمانية أيام؛

الأسماك و الأصداف فقط هي التي تكثر في هذه المدينة. علما أنها تشكل الغذاء الأساسي للمسيحيين المقيمين فيها، خاصة زمن الصوم. تفتقر هذه المنطقة للمياه العذبة الصالحة للشرب؛ ذكرت لكم آنفا أن مياه بئر السويس ملوثة، غير أنها الأقرب لمتناولهم؛ لذلك يقصد السكان بئر السويس يوميا ليوردوا جزءا من القطيع، و يجلبوا المياه لما تبقى منه. و الجدير ذكره أن مياه أفضل بئر من آبار موسى ملوثة أيضا؛ زد على ذلك أنها بعيدة جدا عن البلدة و تقع على الضفة الأخرى للخليج. تستخرج المياه الصالحة للشرب في السويس من بئر نبا(Naba) ؛ و يبلغ سعر جلد الماعز المليء بهذه المياه ٣ أو ۴ قطع نقدية من عملة لوبيك.

يقع البئر المذكور على بعد فرسخين شرقي البلدة على الضفة المقابلة للخليج.

خلال إقامتنا في السويس، كان يحكمها بيه أو سنجق من القاهرة؛ و رغم أن عدد أفراد حاشيته كبير جدا لم يكن العرب يولونه اهتماما بالغا. فإن استاؤوا من الحاكم التركي أو من سكان المدينة، توقفوا عن تزويدهم بالمياه، و منعوهم من الوصول إلى الآبار التي أتيت على ذكرها آنفا حتى لا يستخرجوا المياه منها بأنفسهم. و من السهل عليهم تدمير المدينة برمتها، في الوقت الذي لا تعج فيه بالرحالة، خاصة إن كانوا لا يكترثون لجمع المال من نقل البضائع بين السويس و القاهرة على جمالهم و من تزويد المدينة بالمياه. و لما تخلّف العرب الذين رافقونا إلى جبل سيناء عن الإيفاء بوعودهم رفضنا أن ندفع لهم المبلغ الذي طلبوه معرّضين أنفسنا لفظاظتهم. و في كل مرة كنا نغادر فيها المدينة كانوا يهددوننا بقتلنا رميا بالرصاص، إن التقوا بنا في الريف. و في المقابل، عرضنا أمامهم أسلحتنا التي كانت تضاهي خناجرهم و حرابهم و بنادقهم قوة.

و هددنا أحد وجهاء هؤلاء العرب بمنعنا من استخراج مياه بئر بيا حتى نموت عطشا إن تجرأنا على المرور بقربه. فرد السيد هافن على الشيخ قائلا له إن الأوروبيين ليسوا من شاربي الماء، و يفضلون احتساء النبيذ و بالتالي فتهديده ليس في محله. أثار هذا الجواب غير المتوقع ضحك الأتراك و المسيحيين. بينما أحدث بلبلة كبيرة بين العرب و في اليوم التالي تمنى علينا بعض المسلمين الكريمي النسب أن نتصالح مع العرب. في أسرع وقت ممكن. و قال لنا الحاكم إنهم هددوا بحرمان المدينة من المياه بغية الانتقام منا؛ ففضلنا أن ندفع لهم ما يطلبونه حتى لا تتفاقم الأمور أكثر.

وفور وصولنا إلى السويس سألنا اليونانيين الذين زاروا طور سيناء من قبل عن جبل المقطم المشهور في أوروبا؛ فأجابونا جميعا أنهم لم يسمعوا أبدا بهذا الاسم. و أحضروا لنا شيخا من قبيلة سعيد، يدعى أنه قضى حياته بين السويس و طور سيناء؛ و هو لم يسمع أبدا عن اسم الجبل المذكور. لكن بعد أن علم أننا سنمنح جائزة قيمة لمن يدلنا عليه، عاد في اليوم التالي برفقة شيخ من قبيلة صويلحة يزعم أنه يعرف جيدا

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۹۱

الجبل المذكور و المناطق الصحراوية التي تكثر فيها النقوش. لكن بعد أن طرحنا عليه بعض الأسئلة، اتضح لنا أنه لا يعرف المكان الذي نريد زيارته. و في نهاية الأمر، أحضروا لنا شيخا من قبيلة لغات، استطاع أن يقنعنا من خلال حديثه أنه رأى حجارة نقشت عليها أحرف غريبة. و بعد أن أدرك أن الجبل الذي يثير فضولنا هو جبل المقطم أطلق على جبله الاسم نفسه، بعد أن أكد لنا أن العرب الذي يعرفونه يطلقون عليه التسمية نفسها.

و لقد شعرنا بالارتياح بعد أن عثرنا على مواطن واحد من الصحراء قادر على إرشادنا على المكان الذي تكثر فيه النقوش القديمة. فأردنا أن ننطلق على الفور؛ لكن رسامنا السيد بورنفايند أصيب بألم في رأسه قبيل وصولنا إلى السويس زادت حدّته بعد بضعة أيام حتى أننا فقدنا الأمل في شفائه. بيد أنه كان علينا الذهاب إلى جبل المقطم و العودة منه إلى السويس، قبل انطلاق السفن الأولى، أي في غضون شهر؛ علما أن الإبحار في أواخر أيلول/ سبتمبر أو في أوائل تشرين الثاني/ نوفمبر، أكثر أمانا. فالسفر من السويس إلى جدة في شهري تشرين الثاني/ نوفمبر و كانون الأول/ ديسمبر، محفوف بالمخاطر لأن الهواء الشمالي يهب في ذلك الوقت من السنة . و لما طال مرض الرسام، غادرنا السويس، تاركين برفقته الطبيب كرامير فضلا عن السيد فورسكال، الذي ارتأى أن لا يترك صديقنا المريض وحده خاصة و أننا نستعين به لرسم نوادر الطبيعة. فقصدت جبل النقوش إذا برفقة السيد دوهافن.

و كان الشيخ قد أخبرنا أن الجبل يقع قرب منزله؛ فحسبنا أنه علينا الانتقال معه وحده ليأخذنا لمشاهدته. و لكن الشيوخ الآخرين الذين أحضروه إلينا، اعترضوا على ذلك و أيّدهم سكان السويس الرأي، بعد أن أكّد لنا معظم القبائل العربية، المقيمة بين السويس و العقبة و الطور خاصة قبائل سعيد و صوالحة و لغات، تحتل الطريق المؤدي إلى جبل سيناء؛ و علينا بالتالي أن نأخذ غفيرا من القبائل الثلاثة حتى نتنقل بأمان في هذه المنطقة و قيل لي إن هذا الغفير ضروري للغاية في هذه البلاد، و إن البحارة المسلمين و الذين يسافرون من السويس إلى جدة، و البحارة اليونانيين المقيمين في السويس يختارون حاميا ممائلا لهم.

و يقدمون لهم هدية صغيرة بعد انتهاء الرحلة على خير و إن غرقت إحدى السفن بين السويس و رأس محمد و أنقذت البضائع المحمّلة فيها، يحاول كل واحد الاستعلام عن غفيره؛ و غالبا ما نجد هذا الأخير بين العرب الذين يسارعون لنهب السفينة؛ و تعود البضائع إلى السويس أو إلى القاهرة، دون أن يعترض أي عربي غريب على ذلك. و إن تغيب الغفير توضع البضائع على حدة و ترسم حولها دائرة على الرمل، و يحظر عليهم لمسها إلى أن يعلم الغفير بالأمر. لكن إن ارتأى أحد الرحالة عدم استخدام غفير لديه، تعرض حتما للسلب مسيحيا كان أم مسلما. و لا نجد بين المسافرين بحرا عددا كبيرا من المرشدين العرب؛ إما لأنهم يطلبون هدايا ثمينة، لأن التجار الأتراك يرفضون توطيد صداقتهم بشيوخ العرب؛ لأن

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۹۲

هذه الرحلات القصيرة ليست محفوفة بالمخاطر؛ فالعرب المقيمون بين الخليج العربي وجدة لا يكترثون إطلاقا لأمر الغفراء بين رأس محمد و السويس. أما نحن فكنا بحاجة إليهم. اتفقنا مع شيوخ القبائل الثلاثة على الذهاب إلى جبل المقطّم و طور سيناء. فأجّرونا جمالا لنا و لخدمنا، و من بينهم اليهودي و البحار اليوناني الذي عمل كطباخ لنا خلال هذه الرحلة علما أن طباخنا الأساسي بقي قرب صديقنا المريض.

شهد القاضي و حاكم السويس على الاتفاق الذي تم بيننا و بين العرب، و كان سنجق مصر هذا منفيا من القاهرة، كما سبق و ذكرت، و هو يكنّ احتراما كبيرا لأسرار العالم التي يدعي الشرقيون التنبؤ من خلالها بالمستقبل. فطلب مني الفحص في النقوش الغريبة، التي نتوقع العثور عليها في الصحراء لتحديد مدة نفيه. فأردت أن أشرح له رأي الأوروبيين في هذا النوع من التنبؤات؛ و لكنه أكّد لي أن عالما مسلما حدّد له موعد عودته، و هو يريد أن يطابق تكهنات نقوش الصحراء بهذه النبوءة. و أعترف بأنني لم أتوقع أن يؤمن هذا الرجل الرفيع المستوى بالخرافات إلى هذا الحد. و لكن مهمتي في هذه البلاد لا تقضي بتحرير الناس من هذه الآراء السخيفة؛ لذلك اعتذرت منه لأنني لم أكن ملما بهذا العلم العظيم.

و في السادس من أيلول/ سبتمبر، عبرت و السيد دوهافن الخليج الغربي في زورق صغير؛ و نمنا في المساء التالي في الهواء الطلق على الضفة الشرقية للخليج المذكور قبالة السويس حيث اجتمع مرافقونا العرب الجدد. صباح السابع من أيلول/ سبتمبر، بدأنا رحلتنا إلى جبل المقطم برفقة الشيوخ الثلاثة المذكورين آنفا، و عدد من أصدقائهم و خدمهم الذين أوكلت إليهم مهمة نقل المياه من بئر نبا إلى السويس منذ فترة طويلة، و وجدوا هذه الفرصة مناسبة لزيارة أهلهم في الصحراء خاصة و أننا نتكفل بمصاريف الرحلة كلها.

فحين يسافر رجل عربي كريم النسب، يؤمن الطعام لمرافقيه كلهم؛ و لما كنا ندفع أموالا طائلة، لمشاهدة بعض النقوش القديمة في الصحراء ظنوا أننا غاية في الثراء. يمتد الطريق نحو الجهة الجنوبية- الشرقية؛ ليتحول بعدها نحو الجهة الجنوبية- جنوبية- شرقية، وصولا إلى عيون موسى حيث حططنا الرحال، تحت أشجار النخيل. و تقع السويس في الجهة الشمالية الغربية على بعد ۳۰ درجة، و الخليج الفارسي في الجهة الغربية على بعد نصف فرسخ و يبدو أن عرض الخليج في هذه البقعة يفوق عرضه في المنطقة الممتدة من السويس إلى جبل عتقة؛ و تكثر آبار المياه في هذا المكان على عمق قدم فحسب؛ كما و أن عيون موسى التي يبلغ عددها ۵ ليست أكثر عمقا. و هي تمتلىء أولا بالتراب و الأوساخ كما و أن الرمال تمتص الكمية الأكبر من مياهها. و قال لنا العرب، إن مياه عين واحدة منها صالحة للشرب؛ أما ما تبقى منها فهو ملوث. و لما كانت تحمل اسم موسى ظن العرب أن أولاد إسرائيل عبروا الخليج الفارسي في هذه البقعة فحملت بالتالي هذه العيون اسم زعيم الشعب اليهودي. و تكثر في هذه البقعة الأصداف التي تدل على تراجع مياه البحر بشكل ملحوظ.

و بعد أن غادرنا عيون موسى، عبرنا سهول الطواريق و وردان و الطي في الجهة الجنوبية- شرقية و الجهة

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۹۳

الجنوبية- جنوبية- شرقية؛ يسمي العرب هذه السهول أودية، لأن المياه تتجمع فيها بعد هطول الأمطار بغزارة. و بعد أن قطعنا خمسة

أميال حططنا الرحال في السهل الأخير، على الرمال و في الليل هبت رياح قوية و حملت معها الرمال؛ و الجدير ذكره أننا لم نشعر بانزعاج كبير منها رغم أننا كنا سنعاني أكثر لو واجهنا ظرفا مماثلا في أوروبا.

تعد المنطقة التي عبرنا فيها الأكثر تميزا في الشرق لأنها الطريق التي مر بها أولاد إسرائيل و رسمها لنا موسى. و حرصت على قياس الطريق الذي قطعناه، و دراسة كل ما يمكنه مساعدتي على تصحيح الخرائط و على توضيح بعض المقاطع في الكتاب المقدس. أما الصعوبة الأكبر فكانت تكمن في حفظ الأسماء الصحيحة للأودية و الجبال لأن العرب حرصوا على إعطائنا أسماء خاطئة، بعد أن عجزوا عن فهم سبب فضولنا هذا. و لكنني نجحت في كسب ثقة عربي من جماعتنا سواء بتقديم الهدايا له أو بالسماح له بالركوب خلفي على الجمل؛ و كنت أستجوبه في طريق الذهاب و الإياب علّه يعطيني الأسماء نفسها. لم يشأ رفيقي في الرحلة أن يوطد علاقاته بهؤلاء البدو الذين كانوا يعطونه تارة أجوبة خاطئة و طورا غير سارة. استطعت تحديد وجهة الطريق بواسطة بوصلة صغيرة دون أن يلاحظ العرب الأمر أو يثير استياءهم؛ و رغم أن العلماء المسلمين يستعينون ببوصلة لوضع القبلة في جوامعهم، لا يحسن العرب البدو استعمالها بتاتا. و لا يمكننا بالتالي الاعتماد على كافة الكتب التي تناولت وصف شبه الجزيرة العربية، و خاصة تلك التي تزعم أن القوافل كانت تحدد مسارها بواسطة البوصلات. و مما لا شك فيه أن سير القوافل منتظم للغاية. كنت أعد يوميا، عدد الأقدام التي أقطعها سيرا على الأقدام صبحا و مساء، و عند حر الظهيرة؛ فوجدت أنني كنت أقطع ۱۵۸۰ قدما في الحر، و ۱۶۲۰ في الطراوة؛ أي بمعدل ۱۶۰۰ قدم في ظرف نصف ساعة إن كانت الطريق معبدة. و كان علي بالتالي أن أدرس وجهة هذه أو تلك المنطقة و الوقت الذي تأخذه للوصول إليها. و انطلاقا من هذه المبادئ، قست طول الطريق بالأقدام و الأميال؛ فحسبت أن ۱۱۸۰ قدما توازي ربع ميل. في وصفي لشبه الجزيرة العربية لم أذكر إلا القياس الأخير؛ و لما كنت أخشى الدخول في تفاصيل مملة لبعض القراء، أطلب منكم مراجعة اللوحة ۲۳ من وصف رحلتي حيث يمكنكم إلقاء نظرة على رحلتي إلى طور سيناء. و أذكركم أن الأماكن التي تحمل إشارة تضم ينابيع مياه.

لا تدخل خطوات الجمال ضمن حساباتي؛ و لكنني أعرتها اهتماما خاصا بغية إعطاء القراء فكرة عن سرعة سير هذه الدابة. تقطع جمال قافلتنا الصغيرة ۱۴۰۰ قدم في ظرف نصف ساعة؛ و الملاحظ أن خطوات الجمال ليست كلها متساوية. أما جمال الصحراء فهي الأسوأ بين كافة الجمال التي رأيتها خلال رحلتي.

انطلقنا في الثامن من أيلول/ سبتمبر، قبل شروق الشمس، و عبرنا سهل عيزدان الواقع في الجهة

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۹۴

الجنوبية- الشرقية، و بعد أن قطعنا ثلاثة أميال بلغنا حجر الرقبة؛ و هو عبارة عن كتلة حجرية، وقعت من أعلى الصخرة و اعتاد العرب على الاستراحة في جوارها و ارتشاف القهوة. في منتصف الطريق تسلقت هضبة مرتفعة، لا تطل على الخليج العربي. و سلكنا بعدها الطريق الجنوبي- الشرقي- الجنوبي لنبلغ وادي غيراندیل على بعد ميل تقريبا(Girandel) ؛ و اتجهنا لاحقا جنوبا- جنوبا- غربا، لنصل إلى جبل حمام فرعون. قطعنا في ذلك النهار خمسة أميال و نصف الميل و كنا نبعد عن السويس عشرة أميال و نصف الميل.

خلال فصل الشتاء تسيل المياه الغزيرة في هذا الوادي لتصب بعدها في الخليج العربي. بيد أنه كان جافا في ذلك الوقت مع أننا عثرنا على ينبوع مياه عذبة؛ و لكننا اضطررنا للحفر في الرمال، على عمق قدم و نصف القدم أو على عمق قدمين، لأنها لم تمطر منذ فترة طويلة. و لما كانت المياه لا تنضب في هذا الوادي كثرت فيه الأشجار المثمرة التي يحبها المسافر من القاهرة. ذكرت في كتاب «وصف شبه الجزيرة العربية» ص ۳۴۸، أنها قد تكون أشجار إيليم(Elim) المذكورة في الكتاب المقدس . يقطن عدد كبير من العرب الرحل في هذه المنطقة علما أنهم لا يحطون رحالهم قرب الطريق. لم أسمع أحدا يتحدث في هذه المنطقة عن جبل مراح، الذي أتى على ذكره الرحالة الآخرون؛ و لم أحاول الاستعلام من العرب المرافقين لنا عن أسماء الجبال و الينابيع، بعد أن لا حظت أنهم يجيبون بالإيجاب على هذا النوع من الأسئلة، و يسارعون لإرشادنا إلى الأماكن التي يخالونها تحمل الأسماء المذكورة. و الجدير ذكره أن الحجارة التي شاهدنا ذاك النهار، تبدو كلسية، مع أنها بيضاء و مصقولة.

و في صباح التاسع من أيلول/ سبتمبر أرسلنا خدمنا و المؤن إلى طور سيناء، لأدخل برفقة السيد دوهافن و اثنين من الشيوخ وادي غيروندل؛ فسلكنا الطريق الجنوبي- الغربي، عبر غابة صغيرة، لنصل إلى حمام فرعون، بعد أن قطعنا ربع ميل.

يمتاز هذا الحمام، الواقع على ارتفاع ۱۰ أقدام عن مستوى المياه بفتحتيه المحفورتين في الصخر، فضلا عن بخار الكبريت و المياه اللذين يتصاعدان منه. و يقال إن المرضى يؤمون هذا الحمام حيث ينزلون في الفتحتين المذكورتين بواسطة الحبال فيستحمون ۴۰ يوما في المياه الحارة؛ و خلال هذه الفترة لا يأكلون سوى فاكهة اللسفة(Lassafa) التي تكثر في هذه المنطقة. لا أعرف ما هي نتائج هذا العلاج غير أنني شاهدت مقبرة كبيرة في الجوار. قال لنا العرب أنفسهم الذين ادعوا من قبل أن أولاد إسرائيل عبروا البحر الأحمر قرب عيون موسى، إن ذلك حصل قرب وادي غيراندیل. فعلى حد قولهم يرقد الملك فرعون الذي قضى في البحر الأحمر، خلال مطاردته الإسرائيليين في الفوهة التي يتصاعد منها البخار و الكبريت و المياه الحارة؛ و لهذا السبب لا يحمل الحمام وحده اسم هذا الأمير بل أيضا جزءا من الخليج العربي المعروف اليوم ببركة فرعون.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۹۵

إنه مما لا شك فيه أن الضفة الغربية للخليج العربي، بدءا من السويس وصولا إلى جبل حمام فرعون كلها أرض سوية، باستثناء بعض الهضاب الصغيرة التي نراها على الجهة الأخرى؛ أما الضفة الشرقية فهي جبال شاهقة يفصل فيما بينها و اديان يقع الأول قبالة العطى و الثاني قبالة غيراندیل. يظن بعض العلماء أن أبناء إسرائيل اجتازوا الوادي الأول؛ بينما يؤكد بعضهم الآخر أنهم اجتازوا الوادي الثاني، ليعبروا بعدها البحر الأحمر. و لقد ذكرت في وصفي لشبه الجزيرة العربية أن النظريتين غير صحيحتين؛ فرغم أن البحر الأحمر يبدو ضيقا جدا شمالي بركة فرعون، إلا أنه واسع و عميق للغاية حتى يتمكن موسى عبوره مع الإسرائيليين.

و لقد كان أحد الشيوخ مستاء للغاية خلال الرحلة و لم يشأ إعطاءنا أجوبة مرضية فاصطحبه السيد دوهافن خلف أحد الجبال حتى أتمكن من قياس عرض البحر. فأسرعت لنصب الإسطرلاب و غرز حربة في الأرض و قياس طول القاعدة و تحديد الزوايا اللازمة، قبل أن يعود العربي و يأخذ الحربة. و من خلال عملية القياس هذه التي ليست صحيحة تماما، اتضح لي أن بركة فرعون المجاورة لحمام فرعون، تبعد خمسة أميال عن هذا الأخير. كانت القاعدة صغيرة جدا بالنسبة إلى هذه المسافة الكبيرة علما أن الظروف لم تسمح لي باستعمال واحدة أكبر. و تجدون ملاحظاتي حول المد و الجزر في هذا المكان، في وصفي لشبه الجزيرة العربية، و لم يشأ العرب منحي المزيد من الوقت لدرس هذه الأمور بدقة؛ فأسرعوا للحاق بالقافلة، و كان علي أن أحذو حذوهم.

ثم مررنا في واد ضيق و عميق حفر في الصخر بفعل الأمطار الغزيرة. و كنا نسلك تارة الطريق الشمالي و طورا الشرقي أو الجنوبي أو الغربي؛ و ضربنا الخيام في عصيتو(Usaite) ، حيث كان الخدم و مرافقونا العرب في انتظارنا. يقع وادي عصيتو في الجهة الجنوبية- الشرقية على بعد ميل تقريبا من البقعة التي حططنا فيها رحالنا آخر مرة. مع حلول بعد الظهر قطعنا أميالا جنوبا و نصف الميل شرقا، حتى بلغنا جبل تعل(T l) ، حيث وجدنا ينبوع مياه. و تابعنا طريقنا و قطعنا نصف ميل جنوبا و أربعة أميال شرقا و نصف ميل غربا لنحط بعدها الرحال في سهل الحمر قرب جبل العطى. و كان هذا المأوى يبعد عن المأوى السابق أربعة أميال و ربع الميل و عن السويس أربعة عشر ميلا و نصف.

و قبل ساعة من نصب الخيام اتجه بعض المسافرين شمالا للحصول على الملح. كنا نرغب بمرافقتهم، بيد أننا اكتفينا بالاستعلام عن الجبل الذي يستخرج منه الملح، علما أننا نعتمد كليا على شيوخنا، الذين لم يسمحوا لنا بالقيام بجولات صغيرة. و تتميز الجبال الممتدة من السويس إلى الحمر بحجارتها الكلسية.

و شاهدت شرقا سلسلة جبال مغطاة بحجارة من البارود و بأصداف متحجرة تكثر اليوم في الخليج العربي؛ و إن ابتعدنا أكثر رأينا صخرة قاسية و سوداء و عروقا من الغرانيت التي يزداد عددها مع اقترابنا من طور سيناء.

و في العاشر من أيلول/ سبتمبر ارتأى العرب رفع الخيام عند الساعة الخامسة صباحا قبل شروق الشمس. فاعتمدت على النجوم لتحدد و جهة الطريق و وجدت أننا نتجه شرقا- جنوبا- شرقا. و بعد شروق الشمس، حططنا رحالنا في سهل ورسان، تحت صخرة صغيرة حفر عليها اليونانيون، الذين

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۹۷

يحجون إلى طور سيناء، أسماءهم. في طريق العودة أطلقت اسما على هذه الصخرة نظرا لغرابتها (راجعوا اللوحة(XLIII . نصبة هي مكان إقامة بعض العرب الرحل؛ أرسلنا خدمنا إليهم لطلب الماء، إلا أن غفيرنا من قبيلة لغات، أرسل هؤلاء الخدم لإعلام العرب

بوصولنا، بغية زيارة أصدقائه؛ و لم نستطع مغادرة المكان إلا عند الواحدة ظهرا لأنه اضطر لارتشاف القهوة مع الجميع. كما و أن نهارنا لم يشهد أي أحداث مهمة، لأننا تحولنا عدة مرات عن الطريق الرئيسي و ضربنا الخيام جنوبا قرب مقر إقامة شيخ بني لغات المجاور للجبل الذي يطلق عليه العرب اسم جبل المقطم. و كان هذا المكان يبعد ثلاثة أميال عن مأوانا الأخير و ثماني عشرة ميلا عن السويس.

و لقد كنت في غاية السرور لأنني سأرى اليوم أخيرا النقوش الشهيرة التي تشكل موضوع رحلتنا في الصحراء حتى أنني كنت أخال الجبال مغطاة بها من جميع الجهات. لكن حديث العربي جعلني أظن أن رحلتنا كانت سدىً. قال لنا إن النقوش الوحيدة التي شاهدها تقع على قمة جبل شاهق و وعر لا يستطيع اصطحابنا لرؤيته إلا في الغد لأنه يتوقع زيارة صديق له؛ كما و أن عرب نصبة، يريدون تهنئتنا على عودتنا من الصحراء. فبدت لنا هذه الاحتفالات غير ملائمة في ذلك النهار، و غير متوقعة من البدو، و رغم أن العرب يعيشون في أماكن مختلفة، إلا أنهم غاية في التهذيب فحين يلتقي صديقان لم يتقابلا منذ فترة طويلة يتصافحان بشدة و تتلاصق خدودهما عدة مرات و لا يكفّان عن السؤال: كيف حالك؟ هل الأمور على ما يرام؟ و عند دخول الشيخ تقضي اللياقة بالوقوف له؛ بينما يصافح الأجنبي أفراد الجماعة كلهم و يقبلهم. يدعي بعض الأوروبيين الذين تكلموا عن عادات العرب أنهم يسألون بعضهم بعضا: كيف حال جمالكم؟ و لما أراد السيد دو هافن أن يقوم باختبار صغير، قالوا له إن هذه الأسئلة لا تطرح للمجاملة . و بما أن العرب لا يصدرون الجرائد، لا تشكل السياسة محور كلامهم، خلافا للأوروبيين؛ و بما أن حالة الجو عندهم أقل تقلبا من الجو عندنا، فهم لا يتناولونه أيضا في أحاديثهم. و تدور أحاديث العرب البدو حول أعمالهم فإن حدث و سأل بدوي صديقه عن حال جماله أو حيواناته الأخرى، فهو يحذو حذو الفلاحين الأوروبيين الذين يسألون بعضهم عن القمح، و الماشية و خلافه.

اجتمع حوالي ۱۰ أو ۱۲ شخصا يحمل معظمهم لقب شيخ و يرتدون ثيابا أنيقة؛ فاستنتجت بالتالي أن هذا اللقب، يوازي لقب سيد في بلادنا. و استمتع الضيوف كلهم بارتشاف القهوة و تناول الطعام؛ و في الليلة نفسها، ذبح جدي و التهم على الفور. و في اليوم التالي ذبح جديان آخران و بعد أن تناول شيخ قبيلة سعيد الطعام مع الشيخين الآخرين في بستان وادي فران، دعى الجميع للالتقاء عند عودتنا من طور سيناء، في مكان ما قرب الطريق، بغية ذبح جدي و التهامه.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۹۸

لا يختلف نمط حياة هؤلاء العرب عن نمط حياة العرب الرحل و الأكراد و الأتراك؛ فخيمهم مشابهة لخيم عرب مصر كما يبدو جليا في لوحة نوردن رقم ۶۵. ترتكز الخيمة على سبع أو تسع عصي، ثلاث منها أعلى من سواها، و الوسطى هي الأكثر ارتفاعا. يتألف الفسطاط من قماش كتاني سميك أسود اللون، أو مقلم بالأبيض تحيكه نساء الصحراء بأنفسهن. تقسم الخيمة إلى جناحين أو ثلاثة واحد للنساء و آخر للرجال، و ثالث للحيوانات، أما الذين لا يملكون ثمن خيمة فيضعون القماش على ۴ أو ۶ أوتاد، ليقيهم من الحرارة و الأمطار؛ فالهواء العليل الذي ينسم تحت الأشجار ينعشهم و يمنحهم شعورا لطيفا في هذه البلاد الحارة. و يقتصر أثاث الخيم على الحصر التي تستعمل كطاولة و مقعد و سرير. و يحتفظ العرب بثيابهم في أكياس مغلقة موضوعة في شق القماش؛ كما و أن نقل الأدوات المطبخية سهل للغاية: فالأواني و الصحون مصنوعة كلها من النحاس المبيّض، و بعد نصب الخيام، توضع الأواني على الحجارة أو في حفرة في الأرض و لا يستعملون الملاعق و الشوك و السكاكين. و تحل رقعة جلدية مستديرة محل غطاء الطاولة، يحتفظون فيها ببقايا الطعام. أما الزبدة التي تذوب في البلاد الحارة، فتنقل في أوعية من الجلد.

و أما المياه فتوضع في جلد الماعز لتسكب بعدها في طاسات من النحاس المبيّض من الداخل و الخارج. و من المؤكد أن سكان هذه البلاد لم يسمعوا بطواحين الهواء أو المياه؛ و لكنهم يطحنون القمح بواسطة مطحنة يدوية صغيرة. و لا نجد في الصحراء أفرانا للطهو؛ و بعد أن يعد العرب قالب حلوى مسطّحا يخبزونه على صفيحة معدنية مستديرة؛ و إن لم تتوافر هذه الصفيحة، أعدوا كبيسات من العجين و وضعوها فوق الجمر، و غطوها حتى تنضج جيدا. و يشكل الخبز الطازج غذاء الشرقيين الأساسي؛ فيتزودون بالتالي بكميات كبيرة من الطحين خلال تنقلهم في الصحراء.

و رغم أنه كانت تجتاحني رغبة شديدة في رؤية نموذج من تلك النقوش القديمة، لم أستطع إقناع أي عربي بمرافقتي في ذلك النهار. و لما كانت أرض غفيري غير محفوفة بالمخاطر جبت وحدي الوديان المجاورة و تسلقت الهضاب الوعرة. و لكنني عدت عند المساء منهكا من دون أن أعثر على أي أثر للنقوش.

و خلال نزهتي شاهدت خلف إحدى الهضاب خيمة صغيرة منعزلة أكبت فيها زوجة الشيخ و أخته على طحن القمح و طهو الخبز. و لا تحرص نساء عامة الناس عند العرب على حجب وجوههن عند اقتراب رجل غريب منهنّ؛ خرجت إحداهن من الخيمة من دون أن تضع النقاب على وجهها و قدمت لي الصمغ و أظنها كانت تتوقع هدية في المقابل، لأنها قبلت المال الذي قدمته لها. و أعتقد أن العرب اعتادوا على تقديم الهدايا للأجانب. و لقد قابلت في مكان آخر ابن الشيخ قرب قطيع الماعز. و كان يعلم أن والده يرافقني في رحلتي بالصحراء. و بعد أن تحدثت إليه طويلا، أعجبت بثقته بنفسه، التي ظهرت من خلال رده على أسئلتي. و رغم أنني لم أكن أحسن اللغة العربية جيدا، و أنه لم يتحدث من قبل مع رجل أجنبي لم يشعر أبدا بالخوف الذي ينتاب أولاد الفلاحين في وضع مماثل. و دعاني إلى منزله لشرب المياه العذبة.

و كان ودودا معي للغاية، حتى أنني لم أستطع رفض دعوته رغم أن الوقت كان متأخرا. و لقد لا حظت أن عرب هذه المنطقة يسمون خيمهم بالبيت أو الدار.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۰۰

ركبت صباح ۱۱ أيلول/ سبتمبر، و السيد دو هافن الجمال، و انطلقنا برفقة العرب المزودين بالأسلحة، باتجاه جبل المقطم المزعوم، و كان هذا الجبل شاهقا و وعرا للغاية حتى أننا اضطررنا إلى تركك الجمال عند سفحه؛ و بعد أن سرنا ساعة و نصف تقريبا بلغنا القمة، فخلنا أننا سنعثر على النقوش محفورة في الصخر خاصة و أننا بذلنا عناء كبيرا للوصول إلى تلك البقعة. و كم كانت دهشتنا عظيمة حين رأينا مقبرة مصرية في وسط الصحراء و على قمة جبل و عر؛ و أقول إنها مقبرة مصرية لأن الأوروبيين يطلقون عليها هذه التسمية، رغم أنهم لم يشاهدوا شيئا مماثلا في مصر، حيث دفن الزمن معظم الآثار القديمة في الرمل.

و شاهدنا في هذه البقعة عددا كبيرا من الحجارة التي يبلغ طولها خمس أو سبع أقدام و عرضها حوالي القدمين؛ و هي مغطاة برسوم هيروغليفية مصرية؛ و هذا الأمر جعلني أؤكد أنها حجارة ضريح. و نستطيع أن نرى في اللوحة(XLIV) ، صورة صرح قديم، لم يتبق منه إلا أسواره؛ و يبدو أن داخله أكثر عمقا من الأرض المحيطة به. يحوي هذا الصرح عددا من الحجارة المغطاة بالصور الهيروغليفية. و نرى في الجهة العريضة منه غرفة صغيرة مدعومة بركيزة مربعة مغطاة أيضا بالرسوم الهيروغليفية. و نجد أيضا في هذا الصرح تماثيل نصفية تتلاءم مع أذواق المصريين القدامى، و نصبا قديمة تدل على فن الهندسة المعمارية، مشابهة لتلك التي رسمها نوردن في مصر العليا، و عمودا مربعا له أربعة تيجان. و اللافت للنظر أن هذه الآثار كلها من الحجارة الرقيقة الصلبة علما أن النصب المصرية القديمة المغطاة بالرسوم الهيروغليفية مصنوعة كلها من الغرانيت الصلب.

و لقد سمح لنا العرب بفحص المكان كله و تدوين الملاحظات اللازمة. لكنني أردت نقل بعض هذه النقوش، حتى أتمكن من إثبات انتمائها للهيروغليفية المصرية عند عودتي إلى أوروبا و اتضح أن العرب كانوا ينتظرون هذه اللحظة، إذ أسرعوا جميعا لمنعي من نقل أي شيء من دون موافقة شيخ هذا الجبل.

و لما كان الغفراء يعلمون أننا لم نأت لمشاهدة النقوش فحسب، بل نرغب بنقلها أيضا، اتفقوا على العشاء أن يعطوا أحد أصدقائهم الشيوخ، لقب شيخ جبل المقطم، حتى يقبض منا مبلغا من المال. و عند وصولنا إلى قمة الجبل، وجدناه في انتظارنا و لم يمنعنا من تفحص كل شيء بدقة. و لكنه قال إنه لن يسمح لنا بنقل النقوش عن الحجارة إلا مقابل مئة ريال، مدّعيا أنه لا يستطيع الموافقة على أن يضع الأجانب أيديهم على الكنوز المطمورة تحت التراب. و يظن هؤلاء العرب أن الأوروبيين و المغتربين أو عرب الغرب، قادرون على اكتشاف الكنوز المخبأة تحت الأرض، و على نقلها إلى بلادهم، للحصول على النقوش. و لكنني أعتقد أنهم يختلقون هذه الأعذار للحصول على المال؛ كما و أن العربي لن يتوانى عن المطالبة بحقه في الكنوز التي لا يأمل يوما الحصول على جزء بسيط منها. و في سبيل بلوغ هدفنا علينا إتقان لغتهم، و فهم طريقة تفكيرهم، و معاملتهم بطريقة حسنة؛ و بعد أن يقروا بالكنوز المخبأة نحاول إقناعهم بخطئهم. اقترحوا على عدة عروض حتى أعد شيخ الجبل بإعطائه ربع الكنز الذي سأعثر عليه و ربعه الآخر للغفراء، في حال رفضت دفع مئة ريال للشيخ أو احتفظت بالكنز كله لنفسي. و بذلت قصارى جهدي لإعطائهم ردا

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۰۱

ملائما. فرحت أهزأ من اقتراحاتهم، مؤكدا لهم أنني لا أعرف شيئا عن الكنوز المدفونة، و أنني أريد نقل النقوش فحسب، و أنهم يستطيعون الاحتفاظ بالكنز لأنفسهم. و بعد أن لاحظت أنني لن أتمكن من العمل ذاك النهار، اتفقت سرا مع الغفير أن يحضرني وحدي إلى هذا المكان بعد عودتنا من طور سيناء و أن يمنحني الوقت اللازم لنقل النقوش، على أن أعطيه في المقابل أربعة ريالات. و لعل شيخ الجبل كان سيكتفي بهذا المبلغ؛ و لكنني لم أكن أرغب بإعطائه شيئا حتى لا يذهب تسلق هذا الجبل الشاهق و الوعر هباء؛ و جلّ ما جنيته من هذه المسألة هو تكبد عناء تسلق هذا الجبل ثانية. و في طريق العودة و في الغفير بوعده، و نقلت أكبر عدد من الصور الهيروغليفية. (راجعوا اللوحتين(XLV) و(XLVI) . و مما لا شك فيه أن هذه الصور هيروغليفية حقا. لأننا شاهدنا معظمها على النصب القديمة في مصر. و لفت نظري في هذه المنطقة، التي تكثر فيها الماعز، بروز صورة هذه الحيوانات على كل الحجارة تقريبا؛ بينما تقع غالبا في مصر، على صور الأبقار محفورة على النصب التذكارية نظرا لكثرة الحيوانات القرنية في هذه المنطقة.

و لئن أثارت هذه النصب التذكارية فضول الرحالة الآخرين، أتمنى عليهم أن يحفروا الأرض في هذه البقعة، علهم يعثرون على بقايا جثث قديمة. و من الصعب أن يقنع أوروبي العرب بهذا الأمر، و لكن الخدم الشرقيين و خاصة إن كان الغفير شيخا مستقيما من بني لغات، قد ينجحون في إتمام هذه المهمة في المنطقة المجاورة للجبل.

إن جبل المقطم هذا، لا يشبه الجبل الذي وصفه رؤساء الأديرة الفرنسيسكانية في القاهرة؛ و لكن يبدو لي أكثر تميزا، خاصة بعد أن تأكدنا من أن النقوش التي تكثر على الجبال ليست قديمة أو جميلة بل هي من فعل الرحالة السابقين؛ غير أن الرسوم الهيروغليفية التي أتحدث عنها، توازي رسوم مصر الهيروغليفية جمالا. و هذا يثبت أن الفنون ازدهرت في هذه المنطقة التي كانت تحوي مدينة قديمة غنية بالثروات؛ و يقال إن بعض سكان مصر الذين لم يحنّطوا موتاهم، كانوا يقدسون هذه الصحراء و ينقلون إليها جثث الموتى. و لقد لاحظت أن المياه ليست نادرة في الصحراء، كما و أن هذه المناطق الجبلية مأهولة بالسكان، خلافا لما كان يظنه الرحالة؛ إذ يصطحبهم العرب دوما إلى أماكن خالية من الخيم. و لعل هذه البلاد، كانت قديما مكتظة بالسكان، و كانت تشهد عمليات تجارية برية مكثفة بين شبه الجزيرة العربية و مصر، ساهمت في ازدهار مدن هذه البلاد.

ثم ألا تقع في هذه المنطقة ضرائح الطمع (قبورت هتأوة)، المذكورة في سفر العدد الفصل ١١، أو جبل هور المذكور في سفر العدد الفصل ٣٣؟ و سواء كانت مقبرة للإسرائيليين أم لسكان هذه البلاد القدامى فهي تشكل موضوع دراسة للعلماء. إنه لم يكن محظرا على الإسرائيليين استعمال الرسوم الهيروغليفية أو صور الإنسان و الحيوانات؛ و لكن لم يسمح لهم عبادتها. و لا يزال الإسرائيليون، حتى اليوم يحفرون صورا و رسومات على ضرائحهم.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۰۳

و عند نزولنا من الجبل المذكور، شاهدت حجرا مغطى ببعض الصور التي تسلي برسمها أحد الرعاة.

(راجعوا اللوحة(Le و لكننا لا نتوقع أن يعطي السكان المقيمون في هذه المنطقة منذ ۱۰۰ سنة أو أكثر نتاجا أفضل.

تتطابق الأوصاف التي أعطيت لجبل آخر، يحمل اسم جبل المقطم و يقع في هذه المنطقة مع أوصاف الجبل الذي نبحث عنه؛ و تبين لنا أننا نحتاج إلى شهر على الأقل لنقل النقوش التي يزعم أنه مغطى بها؛ بيد أنه كان يلزمنا يوم واحد لإرضاء فضولنا حول هذا الموضوع. فقررنا متابعة طريقنا إلى جبل سيناء، علما أن السفن لن تنطلق قريبا من السويس. فمررنا في ۱۲ أيلول/ سبتمبر، من الجهة الشمالية للجبل الذي قرأنا أوصافه. و بعد أن سرنا ساعتين، شاهدنا طور سيناء او جبل موسى في الجهة الجنوبية- الشرقية؛ بنيت في هذه البقعة، مقبرة للعرب، كانت تنقل إليها الجثث من أماكن بعيدة و مررنا بعد ذلك، بوادي شامل الذي تحدّه من الجهتين جبال صخرية فيها عروق من الغرانيت؛ مع حلول بعد الظهر، عبرنا واديي ديبور وبراك، حيث أخذنا قسطا من الراحة قرب جبل طمعان. شاهدنا في هذا المكان مقبرتين مبنيتين من الحجارة المتراصة منذ عدة قرون. و احتجزنا في وقت لاحق احد الجبال، لنصل إلى وادي عصريت(Asraite) ، حيث وجدنا ينبوع مياه عذبة. عند المساء، حططنا رحالنا في وادي الجن حيث عثرنا على ينبوع مياه لذيذة على بعد نصف ساعة منه. و الجدير ذكره أننا قطعنا، بعد ظهر ذلك اليوم ميلين و نصف، و كنا نبعد ۲۳ أميلا عن السويس.

قلما يهم العلماء مشاهدة الجبال و الوديان و لكنني رسمت في طريق العودة منظر وادي عصريت، لأثبت لهم أننا نستمتع أحيانا بالمناظر الخلابة التي تقدمها لنا الصحراء. (راجعوا اللوحة(XLIII . و صادفنا في هذا الوادي، امرأة عربية برفقة خادمها؛ و لكنها بدلت وجهة سيرها، و ترجلت عن جملها، و مرت أمامنا سيرا على الأقدام، احتراما للشيوخ الذين كانوا يرافقوننا . و التقينا بامرأة أخرى، محجبة كليا في وادي الجنى؛ فجلست على حافة الطريق، و أدارت لنا ظهرها حتى نستطيع المرور. و تذكرت في هذه المناسبة قصة ثمار. و لما لاحظ العرب جهلي التام لعاداتهم قالوا لي إنها أدارت لنا ظهرها احتراما للأجانب، و أنه ما كان يجدر بي أبدا إلقاء التحية عليها.

يقع منزل غفير بني سعيد في وادي فران، بمحاذاة الطريق المؤدية إلى جبل سيناء؛ و عند اقترابنا من تلك المنطقة ركب الغفير وحيد السنام، و تقدمنا جميعا، ليلقي التحية على أهله فلحقنا به جميعا، في ۱۳ أيلول/ سبتمبر، و عبرنا وادي عرتيم(Ertame) ؛ و كانت هذه المنطقة تبعد ۲۴ ميلا عن السويس. و انحرفنا عن الطريق المؤدية إلى جبل سيناء، و سرنا شمالا قرابة النصف ساعة، مرورا بجبل سيربال حيث مقر قبيلة شيخنا. نصب العرب خيمتنا قرب الأشجار و طلبوا منا أن نرتاح قليلا بينما يذهبون للقاء أصدقائهم في حدائق البلح المحيطة بالمكان. علمت أن في هذه المنطقة بقايا مدينة قديمة، و شعرت برغبة شديدة برؤيتها؛

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۰۴

و بعد أن لاحظ العرب الأمر، تركوني من دون أن يزودوني بأية معلومات حول الموضوع. يتألف مخيم شيخنا من تسع أو عشر خيم تكثر حولها الماعز، و الجمال و الحمير و الدجاج و الكلاب.

بلغنا إذن وادي فران الشهير؛ و لم يتغير اسم هذه المنطقة منذ أيام موسى. قال لنا العرب إن هذا الوادي يمتد نحو الجهة الشرقية- الشمالية على بعد نصف نهار من البقعة التي خيمنا فيها و نحو الجهة الغربية- الجنوبية على بعد نهار من الخليج العربي. و تحد هذا الوادي جبال و عرة من الحجارة الكبيرة الممزوجة بالغرانيت و المبقعة بالأحمر و الأسود. كان الوادي جافا في ذلك الوقت؛ و لكن بعد هطول الأمطار بغزارة، تغمره مياه الجبال المجاورة، إلى حد أن العرب يضطرون لرفع خيمهم من عدة بقع و الهرب إلى المرتفعات. شاهدنا جزءا صغيرا من هذا الوادي، مكسوا ببساط أخضر؛ و أكد لنا العرب أنه تكثر في الجوار بساتين البلح التي تطعم عددا كبيرا من الناس. كما و أن عرب هذه المنطقة و أولئك المقيمين غربي جبل موسى، ينقلون سنويا إلى القاهرة و السويس كميات وافرة من البلح و العنب و التفاح و الإجاص و غيرها من الفواكه. و يبيع العرب الآخرون في المدينتين المذكورتين الماعز و الصمغ و الفحم الخشبي و مسنات المطاحن اليدوية؛ و هم يشترون منها في المقابل المواد الغذائية و الملابس التي يحملونها معهم إلى الصحراء.

إننا نعلم جيدا أن العربي يستطيع أن يتزوج أربع نساء في آن واحد. لكن يكتفي معظمهم باتخاذ زوجة واحدة له، و يبقى مخلصا لها طوال حياته، شرط أن تخضع لإرادة زوجها. كان شيخ بني سعيد متزوجا من امرأتين، واحدة منهما تقيم قرب خيمتنا، و تراقب الخدم الذين يحرسون الماشية؛ أما الثانية فتقيم في مكان آخر، و تهتم ببستان البلح. تقوم إذن هاتان المرأتان بالأعمال المنزلية، حين يذهب الزوج لمقابلة أصدقائه أو حين يقصد السويس لجمع المال من نقل الماء، أو حين ينقل البضائع إلى السويس و القاهرة. و قامت سيدة المخيم الأولى، بزيارتنا بعد الظهر، برفقة أربع نساء عربيات أخريات، و قدمت لنا دجاجة و بيضا، و رغم أنني أقمت فترة طويلة في البلاد الشرقية إلا أنها المرة الأولى التي أتحدث فيها مع امرأة مسلمة، باستثناء الراقصات في القاهرة. و لقد رفضت النساء العربيات الدخول إلى خيمتنا و فضلن الجلوس في الخارج، في الظل، حتى نتمكن من محادثتهنّ بسهولة. و كم أعجبن بالقانون الذي يحظر على المسيحي اتخاذ أكثر من زوجة له، من بين كل ما أخبرناهنّ عن العادات الأوروبية، و تذمرت زوجة شيخنا من ضرتها التي يحبها زوجها أكثر منها، رغم أنها الزوجة الأولى. و تركت لرفيقي في السفر حرية التحدث مع هذه السيدة، فأخبرته أن زوجها يقضي معظم أيام السنة متنقلا بين السويس و القاهرة و يطلق على مصر اسم الريف، الذي ليس المقصود به مصر العليا و الدلتا فحسب، كما ظن بعض العلماء. و لقد قال دون كافترو و الأب لوبو إن مصر العليا تحمل الاسم نفسه. بينما كان السيد دوهافن مسترسلا في الحديث مع هذه السيدة العربية، رحت أرسم لباسها، كما صورته على اللوحة(۴۸ ، (XL VIII. تلفت هذه الملابس و خاصة أقراط الأذن و عقد الرقبة و أساور اليد و الرجل انتباه العلماء، خاصة و أن الإسرائيليين أقاموا في هذه المنطقة، و أن الأزياء لم تتبدل كثيرا بين نساء العرب الرحل.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۰۵

سأصف لكم ملابس عرب هذه المنطقة: فمن يمارس الأعمال التجارية في المدينة يتبع صيحات الموضة؛ فهم يعتمرون عمامة و

يرتدون قمصانا فضفاضة، و سراويل مريحة، تعلوها أثواب مريحة، تضم على الردفين بحزام عريض. و لفت انتباهي أحذية هؤلاء العرب التي نراها في اللوحة(II) ؛ فهي ليست مشغولة بمهارة، كما تشير إليه صور الرسامين الأوروبيين؛ بل مصنوعة من الجلد الخام. و لم أشاهد في هذه المنطقة العباءة التي يرتديها عرب شبه الجزيرة العربية، و يستبدل بها عرب مصر ثوبا كتانيا طويلا، يلتفون به، كما هو ظاهر في اللوحة(XXIX) . و يفتخر العربي بسرجه الذي نراه في اللوحة نفسها المصنوع من الحديد الثقيل؛ و هو يحمل دوما على خصره خنجرا مستدق الرأس، يسمى الجمبة؛ كما و أنه يحمل أسلحة أخرى عند تنقله في الصحراء؛ و نذكر منها السيف الذي يتدلى في حزام جلدي يعقده حول كتفه الأيسر؛ إن كان العربي معتادا على استعمال يده اليمنى، أما الأعسر منهم، فيضعه حول كتفه الأيمن.

و يحمل العربي عادة بندقية لها فتيل واحد و يعلق جعبة الرصاص حول خصره. و رغم أن العرب يملكون أسلحة نارية. إلا أنه غالبا ما تنقصهم الذخيرة اللازمة لها. و هم يحملون دوما الحراب، عند امتطائهم الجمال أو الأحصنة؛ و من يفضّل منهم السير على الأقدام يحمل حرابا أقصر من الأخرى. و لم أشاهد لدى العرب أقواسا أو سهاما أو نقافات.

استقبلنا في اليوم نفسه عددا كبيرا من الرجال الذين أحضروا لنا بلحا أصفر طازجا. عاد الغفير عند المساء فانطلقنا صباح ۱۴ أيلول/ سبتمبر، و قطعنا نصف فرسخ من الطريق نفسها التي سلكناها سابقا، وصولا إلى جبل سيناء. و بعد أن اجتزنا جنوبي- شرقي وادي فران، بلغنا سفح جبل موسى. و بعد أن قطعنا ميلا و ربع الميل باتجاه الجنوب- الشرقي، عبر دروب و عرة، حططنا رحالنا مساء على بعد ۲۷ ميلا عن السويس قرب صخرة قطرها ۱۶ قدما تقريبا. لاحظت أن الصخرة المذكورة مشقوقة في الوسط؛ و لكن العرب قالوا لنا إن موسى شقها بواسطة سيفه. تكثر على هذه الجبال ينابيع المياه العذبة المنعشة التي استمتعت بشربها أكثر من النبيذ؛ و لا داعي للعجب لأني لم أشرب مياها لذيذة إلى هذا الحد لا في مصر و لا في المناطق المجاورة للسويس.

و لقد شاهدت في ذلك النهار نقوشا غريبة نقلت بعضا منها في طريق العودة (راجعوا اللوحةXLIX) ، أ، ب، ج، د). و تكثر على حافة الطريق الصخور الوعرة التي جوفت معظمها مياه الأمطار المتدفقة من أعلى.

و عند حلول الخامس عشر من أيلول/ سبتمبر كان علينا قطع فرسخ و ربع الفرسخ، نحو الجهة الجنوبية الغربية لجبل موسى وصولا إلى دير القديسة كاثرين. و أظن أن الدير المذكور يقع على بعد ۲۸ فرسخا و ربع الفرسخ من السويس راجعوا اللوحة(XLIV) . و تتميز الأرض التي بنى عليها الدير بانحدارها أي إنها أكثر ارتفاعا من الجهة الجنوبية- الغربية منه من الجهة الشرقية، و يبلغ طول الدير ۱۲۰ قدما و عرضه ۵۵ قدما و هو مبني من الحجارة المنحوتة، التي يتطلب العمل فيها مالا وجهدا كبيرين. و نرى أمام هذا

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۰۷

الصرح صرحا آخر، أصغر منه، و أقل منه جمالا. و لا يملك الدير إلا بوابة واحدة مسورة؛ فترفع بواسطة حبل يمر في بكرة. نرى أمام الدير بستانا مملوءا بالأشجار المثمرة؛ و لقد أكد لي العرب أن الكهنة يستعملون سردابا للدخول إلى الدير و الخروج منه.

يحظر استقبال الغرباء في الدير أو الأوروبيين، إلا إذا كانوا يحملون رسالة من أسقف طور سيناء، المقيم في القاهرة. و علمنا بالأمر في مصر، و حاولنا مقابلة الأسقف المذكور؛ و لكنه كان يقوم بزيارة القسطنطينية؛ فلم نستطع الحصول على رسالة من قبله لكهنة الدير. غير أن سفير إنكلترا في القسطنطينية سلمنا رسالة من البطريرك المعزول الذي أمضى أكثر من ثلاث سنوات في هذا الدير و عاد إليه منذ فترة قصيرة. و لم يخطر في بالنا أبدا أنهم لن يسمحوا لنا بالدخول بناء على توصيته. و انتظرنا وقتا طويلا قبل أن يرسل لنا الكهنة موفدا عنهم. و لما علم أننا أوروبيون، طلب منا رسالة الأسقف، فشرحنا له ما حصل و حاولنا أن نعرض عليه رسالة البطريرك المعزول. و لكن طلبوا منا الانتظار قليلا قبل أن يقترحوا علينا إدخالها من خلال حفرة في السور.

في تلك الأثناء، تجمع العرب الذين رأوا من الجبال المجاورة، وصول أجانب إلى الدير. و يقال إنهم كانوا يطلقون النار على الدير من أعالي الجبال و يختطفون الزوّار عند خروجهم من الدير، و يطلبون فدية مقابل إطلاق سراحهم. كما و أنهم يطلبون مبلغا محددا من كل حاج يحمل الإذن بالدخول إلى الدير، و خلال زيارة الأسقف تبقى بوابة الدير مفتوحة، و يقدم الطعام لكافة العرب الذين يؤمون الدير خلال هذه الفترة؛ و هذا الأمر يكلف الكهنة أموالا طائلة، خاصة و أنهم يعيشون من الصدقات؛ علما أنهم يجلبون مؤنهم من مصر، و تتعرض قوافلهم للسلب في الطريق. و شاهدنا نموذجا عن معاملة العرب للكهنة. و احتد واحد من الذين أتوا بدافع الفضول لمقابلة الأجانب لحث الكهنة على إعطائه خبزا. و لما حاولت تهدئته نعتهم بالوحوش، لأنهم رفضوا إعطاء الخبز لكائن حي دق بابهم جائعا.

خلال انتظارنا أمام بوابة الدير، اغتنمت الفرصة لرسم الصرح و جزء من الجبال التي يطلق اليونانيون على واحد منها اسم جبل سيناء راجعوا اللوحة(XLVIII) . و رسمت لا حقا الدير من زاوية أخرى، و من على مسافة بعيدة (راجعوا اللوحة(XLVIII)) .

و بعد أن درس الكهنة أمرنا مطولا، أعيدت الرسالة دون أن تفض. و اعتذروا عن استقبالنا في الدير، رغم أن الرسالة موجهة من البطريرك؛ فهم لا يستطيعون فضها، لأنها ليست مرفقة برسالة من الأسقف الذي يحق له وحده منح الإذن بالدخول. عدنا إذن أدراجنا حتى نحول دون تجمع المزيد من الناس حول

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۱۰

الدير، و نعرض الكهنة للإزعاج فأرسلوا لنا على الفور هدية عناقيد عنب مقطوفة من بستانهم؛ و مما لا شك فيه أنها كانت لذيذة، خاصة و أننا أمضينا وقتا طويلا في التنقل في أراض قاحلة.

و لما تعذر علينا الدخول إلى الدير أردت تسلق جبل سيناء. و علمنا أننا تقدمنا كثيرا في الصحراء.

و كنت أتمنى أن يرافقني أشخاص يعرفون البلاد حق المعرفة حتى يعرضوا علي الأماكن المميزة فيها؛ و لما كنت محاطا بمجموعة من العرب المنتمين إلى هذه المنطقة، كان علي أن أختار الشخص الملائم ليصطحبني اليوم بالذات إلى ذلك الجبل الشهير. و لكن عرض علي الغفراء اصطحابي في الغد، حتى أشبع فضولي. و لاحظ العرب الذين اجتمعوا حول قافلتنا أنني أنوي اختيار واحد منهم لمرافقتي إلى جبل سيناء؛ فتشاجروا حول هذا الموضوع مع الغفراء، ظنا منهم أنهم سيجنون بعض المال. و لكنني لم أكن أعرفهم جيدا، و لا أريد أن أتخاصم مع مرافقينا؛ لذلك فضلت الإذعان لمشيئة هؤلاء المرافقين.

و في صباح السادس عشر من شهر أيلول/ سبتمبر، أحضر لي الغفراء شيخ جبال سيناء؛ الذي انضم إلينا على مقربة من المكان. و قد وقع عليه الاختيار لمرافقتي إلى الجبل مقابل مكافأة جيدة. و فضلت عدم الاعتراض على ذلك، حتى لا أضيع المزيد من الوقت. فعدت إلى الدير مع الشيخ العتيد و أحد الغفراء.

و فضل السيد دو هافن، الذي جرح رجله في السويس، و ذاق الأمرين خلال تسلّق الجبال، حيث وجدنا نقوشا غريبة، فضل العودة مع العرب الآخرين، مسافة ربع ساعة على طريق السويس لأن المكان الذي أمضينا فيه الليل، ليس آمنا على حد قول العرب.

قلت إن طور سيناء يقع جنوبي الدير؛ و هو وعر للغاية و لا يعقل أن يكون موسى قد تسلقه من هذه الجهة. و لكن اليونانيين، شقوا درجات في الأماكن الوعرة حتى يسهلوا على الناس تسلق الجبل. و على بعد مئة قدم من الدير شاهدنا ينبوع ماء لا ينضب أبدا؛ فهو مغطى بصخرة كبيرة تقيه أشعة الشمس و مياه الأمطار. تعلو هذا الينبوع كنيسة صغيرة ركم أمامها الشيخ و المرافق العربيين و راحا يصليان بورع؛ و عند دخولنا إليها قبلا صورة السيد المسيح و العذراء مريم، رغم أنهما مسلمان. و لعلهما رأيا الحجاج اليونانيين يفعلون ذلك فحذوا حذوهم إرضاء لي و بذلت عناء كبيرا لإقناع العربيين بمتابعة الطريق. و بعد أن لاحظا إصراري على الذهاب وحدي، ارتأيا مرافقتي. فاجتزنا بوابتين صغيرتين، تؤديان إلى سهل واسع، فيه مصلى للمسلمين و كنيسة صغيرة لليونانيين. فصلى العربيان أمام الصور و قبلاها كلها بيد أنهما لم يعرفا لمن خصصت هاتان الكنيستان أو أنهما لم يشاءا إخباري بذلك. و كانا يصران على أنني بلغنا قمة جبل سيناء؛ غير أن السيد بوكوك يقول: إن هناك ۵۰۰ درجة من الدير إلى الينبوع المذكور آنفا و ۱۰۰۰ درجة من الينبوع إلى كنيسة السيدة العذراء و ۵۰۰ أخرى إلى السهل، حيث شاهدنا الكنيسة المبنية تكريما للنبي إيليا. و يعد بوكوك ۱۰۰۰ درجة أخرى لبلوغ قمة طور سيناء التي لم أصل إليها بعد. رأيت في السهل المذكور، شجرتين كبيرتين اعتاد العرب على ذبح المواشي تحتهما خلال الأعياد و التهامها على

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۱۱

حساب اليونانيين. و أثناء تسلق الجبل رأيت بعض النقوش العربية على الحجارة و خلتها أسماء فحسب؛ و كان جبل القديسة كاثرين يقع في الجهة الجنوبية- الغربية؛ أما من الطور، فكنا نشاهده في الجهة الشمالية- الشرقية. و استنادا إلى ملاحظاتي الفلكية تقع تور على خط العرض ۲۸ و ۱۲؟؟؟، علما أنها تبعد ستة أو سبعة أميال عن جبلي القديسة كاثرين و سيناء. و تقع حال و عقبة و عيلا في الجهة الشرقية- الجنوبية على بعد خمسة أو سبعة أيام من الطريق، و ذلك استنادا إلى أقوال الشيوخ؛ و لكنني لا أستطيع الاعتماد على

كلامهم لأنهم لم يقوموا بهذه الرحلة، من طور سيناء. و لقد أشرت في كتاب «وصف شبه الجزيرة العربية»، إلى أن خليج العقبة ليس بالعرض الذي كما يظهر فيه على الخرائط.

لم أستطع إقناع الشيخ و المرافق بمتابعة الطريق أو بمرافقتي إلى جبل القديسة كاثرين؛ فعدنا أدراجنا و انضممنا إلى القافلة. و في ذلك النهار، غادرنا جبل موسى و ضربنا الخيام في وادي فران.

استنادا إلى ما تقدم، لا يقع الجبل الذي يسميه اليونانيون جبل سيناء، في سهل شاسع كما يظن بعض الناس. كما و أن سيناء اليونانيين يختلف عن سيناء الحقيقي؛ لأن العرب يطلقون على سلسلة الجبال الممتدة من وادي فاران، إلى طور سيناء، حيث يقع الدير، اسم جبل موسى. و يظن العلماء الأوروبيون الذين عاينوا هذه المنطقة بدقة، أن موسى تلقى الشريعة فوق هذا الجبل. و لكننا لا نجد من هذه الجهة، قرب طور سيناء مكانا ليحط فيه شعب إسرائيل- الكثير العدد- رحاله؛ و لعلنا نقع في الجهة الأخرى على سهول فسيحة أو أنهم ضربوا خيمهم قرب جبل موسى و بالتالي في وادي فاران.

و في ١٧ أيلول/ سبتمبر قطعنا ثلاثة فراسخ فحسب، أي إننا بلغنا مضرب خيام شيخ بني سعيد. تركنا الغفراء وحدنا ليقصدوا بساتين البلح في وادي فاران. و في ذلك النهار انضم إلى قافلتنا شاب عربي ثمل يركب جملا وحيد السنام. و لما علم أننا مسيحيون، امتحن صبرنا، و راح يسخر منا، كما سخر الأوروبي الثمل من اليهود. و يبدو أن العرب البدو يصنعون النبيذ بأنفسهم. و إنني أشكر السماء لأن محمدا حظّر على أتباع القرآن احتساء الكحول المركزة؛ و رغم أن المسلمين يثملون في المدن، فهم يخفون ذلك حتى لا يعاقبوا، أو لأنهم يخجلون من خرق القانون. و لا أذكر أنني شاهدت خلال رحلتي عربيا ثملا و فظا، باستثناء هذا الأخير.

و لقد عاد الغفراء مساء يوم ١٩ أيلول/ سبتمبر، و تابعنا سيرنا في العشرين منه سالكين الطريق نفسه الذي أتينا منه صباح ٢١ منه. و سبقت الآخرين، لأتسلق مرة أخرى الجبل الشاهق، الذي أسماه العرب جبل المقطم، و لأنقل بعض النقوش كما أشرت سابقا و انضممت بعد الظهر إلى القافلة قرب سهل وردان المذكور سابقا.

و في ٢٢ أيلول/ سبتمبر اجتزنا نهارا المنطقة التي عبرناها ليلا في طريق الذهاب و لا حظت أن الصخور الوعرة المغطاة بالنقوش الغريبة، تحد الطريق من الجهتين؛ و أظنها مشابهة لتلك التي نقلتها من جبل المقطم.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج١، ص: ٢١٣

فترجلت سريعا عن وحيد السنام، لتفحصها عن كثب و نقلها؛ غير أن العرب اعتبروا ذلك مضيعة للوقت؛ فبذل السيد دوهافن جهده لإقناعهم بالانتظار قليلا؛ فنقلت النقوش ه، و، ز، ط، ى، ك، ل، م، ن، خلال هذا الوقت القصير (راجعوا اللوحات ش، XLIV أ). قال لنا تاجر يوناني في القاهرة، إنه على حافة الطريق المؤدية إلى جبل سيناء، نجد ممرا ضيقا يعرف بأم الرجلين تكثر فيه النقوش المنحوتة على الصخر. لست أدري لماذا ادّعى العرب أنهم لا يعرفون اسم هذا المكان و لا سمعوا عن النقوش الموجودة فعلا. و الواقع أنه قلما أثارت هذه النقوش اهتمام الغفراء، و إلا لأطلقوا على أم الرجلين اسم جبل المقطم أيضا أو على أي صخرة أخرى مغطاة بالنقوش؛ و لو فعلوا ذلك لما اكتشفنا المقبرة، المصرية القديمة، التي تحدثت عنها سابقا.

و حين نشر أسقف كلوغر، كتاب «رحلة قس فرانسيسكاني من القاهرة إلى طور سيناء»، كان أول شخص يلفت انتباه العلماء إلى نقوش الصحراء و لكن نيته أتى على ذكرها في كتابه Sieben Y ?johrige Weltbeschaug ص ١۴۵، ١۴٩، ١۵٣، ١۵٨، ١۶٧. كما نجد صورا عدة في كتاب مونكونيس «رحلات» ص ۴۴٩، و في مؤلف بوكوك (راجعوا اللوحتين ۵۴ و ۵۵). استنادا إلى تقرير مدير دروس الآباء الفرانسيسكانيين، و لا أظن أن الجبال المغطاة بالنقوش التي شاهدها، تبعد كثيرا عن المكان الذي قصدناه. علاوة على ذلك لا أخالها مثيرة للاهتمام أكثر من تلك التي نقلتها أنا و بوكوك؛ كما و أنها لا تستحق أن يتكبد علماء أوروبا عناء فك رموزها؛ فهي لم تحفر يدويا على الصخر بل بواسطة خنجر مستدق الرأس على السطح الخشبي منها. فضلا عن أن خطوطها ليست متساوية و لا مستقيمة. و لا أظنها تدل على شيء باستثناء أسماء الرحالة الذي حذوا حذو اليونانيين الذين يحفرون أسماءهم على جبل سهل و رسان، المذكور آنفا. و النصب التذكارية فقط هي التي تدل على الذرية و هي التي تثير اهتمامي؛ و أظن أن الحجارة القبرية التي عثرنا عليها على الجبل، كما أشرت سابقا، و النقوش التي شاهدتها على صخرة برسيبوليس تنتمي إلى هذا النوع. فصخرة برسيبوليس تمتاز بصلابتها و استوائها، أما الخطوط التي تغطيها فهي مستقيمة، و حروفها واضحة.

و نقل السيد دوناتي، النقوش س، من الصحراء و أعطى نسخة عنها لأسقف طور سيناء. و خطر لي أن أدرجها في هذا الفصل، لأن حروفها تختلف عن تلك التي عثرت عليها في هذه المنطقة و لأنه لم تسنح لهذا العالم الإيطالي فرصة العودة إلى أوروبا، و قد لا تطلع أوراقه أبدا.

و في سبيل قياس عرض الخليج العربي ابتعدت في ٢۴ أيلول/ سبتمبر عن القافلة، حوالي ۵ أميال جنوبي السويس، باتجاه سهل العطى أو الطوارق، كما يقول العرب. و استنادا لملاحظاتي و حساباتي، كانت تبعد حوالي ثلاثة أميال. و لكنني لم أستطع هذه المرة أيضا بناء قاعدة طويلة لأقيس العرض بدقة.

و في ٢۵ منه عدنا إلى السويس، و وجدنا أن السيد بورانفيد قد تماثل للشفاء. و أكد لنا الغفراء أننا قد

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج١، ص: ٢١۵

نضطر لحط رحالنا بضع ساعات قبالة المدينة، نظرا لحركات مياه البحر، إلا إن كنا نفضل أن ندور حول الخليج أو اجتيازه في زوارق صغيرة. و عند وصولنا، لم يكن منسوب المياه قد ارتفع كثيرا، فعبرنا ساعد النيل الشمالي و بلغنا أنقاض كلثوم الواقعة غربي الخليج.

لا أذكر أنني قرأت يوما أن أوروبيا اجتاز البحر الأحمر قرب السويس مشيا على الأقدام. و لعل منسوب المياه كان مرتفعا عند عودتنا من طور سيناء، فارتأوا اجتياز الخليج في الزوارق بدلا من البقاء في الصحراء. فعند ارتفاع منسوب المياه، تكثر الزوارق الصغيرة، التي يسارع أصحابها إلى الضفة عند مشاهدتهم الرحالة العائدين من جبل سيناء، أو العرب الذين ينقلون المياه من بئر نبا. غير أننا لم نشاهد أي زورق على الضفة الشرقية للخليج، عند وصولنا .

و لقد قست قرب السويس عرض الخليج بدقة بالغة؛ فوضعت الإسطرلاب على الضفة الشرقية للبحر؛ و كان عرض القاعدة يبلغ ٨٣ قدما مزدوجة؛ و وجدت أن الزاوية بين قاعدتي و الطرف الجنوبي- الشرقي للمدينة تبلغ ٧۶، ٩۵؟؟؛ و يمكننا الاستنتاج بالتالي أن عرض ساعد البحر الأحمر يبلغ ٧۵٧ قدما مزدوجة أو ٣۴۵٠ قدما. يغطي المد الجزر المجاورة للسويس؛ أما بعضها الآخر فمرتفع جدا عن سطح المياه حتى أننا نستطيع مشاهدتها خلال المد العالي.

و مما لا شك فيه أن عبور الإسرائيليين من هذا المكان، زاده شهرة؛ و كان على بالتالي أن أرسمه بدقة متناهية. غير أنني وضعت هذه اللوحات في كتاب «وصف شبه الجزيرة العربية»، و لم أشأ إعادة نشرها من جديد. و تمثل اللوحة ٢٠ في هذا الكتاب رحلتنا من القاهرة إلى السويس، و اللوحة ٣٣ رحلتنا إلى جبل سيناء، و اللوحة ٣۴، رسم طرف الخليج العربي، و مدينة السويس. رسمت اللوحتين الأوليين، بناء على الملاحظات التي دونتها خلال رحلتي مع القافلة. و لكني اضطررت للمخاطرة و الابتعاد وحدي عن المدينة، بغية رسم اللوحة الأخيرة؛ و كانت مخاطرة فإن صادفنا في هذه المنطقة غربا رحلا، تعرضنا للسطو، أكثر من احتمال ذلك في الصحراء. إذ لم يتجرأ أي عربي على مرافقتي في هذه النزهة، باستثناء شاب شجاع؛ فغادرنا السويس سالكين الخط؛ كما ورد في اللوحة ٣۴، و اتجهنا غربا على طول الضفة، بغية الوصول إلى سفح جبل عتقة؛ لكنني وجدت الدرب طويلة جدا؛ فاتجهت شمالا نحو بئر السويس، لنعود بعدها إلى البلدة. و خرجنا من السويس في اليوم التالي، و درنا حول طرف الخليج، وعدنا إلى البلدة في القارب برفقة العرب المحملين بمياه بئر نبا. و ما إن شاهد مرافقي العرب من بعيد حتى راح يرتجف

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج١، ص: ٢١٧

خوفا؛ غير أن من حسبناهم أعداء كانوا يخافون منا أيضا؛ و كان أحد رجال العرب الذين رأيناهم من بعيد يمتطي جمله، و يتأرجح في الهواء؛ فخلته في البداية شبحا غريبا؛ و لكن اتضح لي لا حقا أنه تأثير انكسار الأشعة فحسب. و خلاصة الكلام قمت بالدراسات اللازمة لوضع خارطة طرف الخليج الغربي؛ و أظن أنني استطعت معاينة هذه المنطقة أكثر من أي أوروبي آخر. و تجدون في اللوحة(LI) منظرا عاما لمدينة السويس، كما رسمه السيد بورانفيد.

و لقد بدا لي ساعد الخليج المجاور للسويس ضيقا للغاية حتى يطوى في جوفه الفرعون و جيشه؛ كما و أنه لم يخطر في بالي خلال إقامتي في السويس أن الإسرائيليين قد عبروا البحر الأحمر قرب كلثوم؛ و ذلك لأنني لم أحدد الساعة التي عبرنا فيها البحر في هذه النقطة، خلال عودتنا من جبل سيناء. و لكن بعد أن عاينت الخرائط التي رسمتها لهذه المنطقة، و قرأت كتب المؤلفين الآخرين الذين تحدثوا عن هذه الحادثة، تأكدت من أن الإسرائيليين عبروا من هنا، كما سبق لي أن أشرت في كتاب «وصف شبه الجزيرة العربية». و

أتمنى على الرحالة اللاحقين أن يعاينوا أنقاض كلثوم بدقة أكبر.

و لم أستطع جمع معلومات وافية عن القناة المتصلة بالنيل، و تلك التى تصل البحر الأبيض المتوسط بالخليج العربى؛ كما و أننى لم أنجح فى إقناع العرب بمرافقتى فى نزهة فى الجوار، إذ زعموا أن أعداءهم يقطنون فى هذه البقعة. و لم أشاهد فى المناطق المجاورة للسويس إلا وادى مصيحة، الواقع بين بئر السويس و المدينة. فبعد هطول الأمطار بغزارة تتجمع المياه فى الوادى بكثرة فينقل السكان بعضا منها؛ و بعد أن تجف ينبت العشب مكانها.

***

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۱۸

الرحلة من السويس إلى جدة

خلال رحلتنا إلى طور سيناء، وصلت إلى السويس قوافل عديدة صغيرة، فمعظم التجار و الحجاج الذين يريدون الذهاب إلى جدة بحرا، لا يغادرون القاهرة إلا قبل إبحار السفن بقليل و يشكّلون قافلة كبيرة.

و وصلت هذه القافلة فى ۲۹ أيلول/ سبتمبر، و أصبحت مدينة السويس فجأة أكثر ازدحاما من القاهرة مقارنة مع حجمها. و إن لم نسمع بقراصنة فى الخليج العربى. يفضّل السفر ضمن قوافل، و كان ينبغى أن تبحر أربع سفن فى آن واحد، ربما كى تعظم القوافل الآتية من القاهرة إلى السويس فتتمكن من مواجهة العرب، و ربما خوفا من البدو فى محيط طور الذين نهبوا مركبا رسا وحيدا فى المرفأ، كما ذكرت آنفا.

لكن المسافرين كلهم حجزوا أماكن معينة لهم على المراكب، و كان بعض تجار القاهرة قد زودونا برسائل توصية لرئيسين، فتفحصنا مركبيهما، و حجزنا لنا وحدنا الغرفة العليا فى المركب الأكبر، كى نتبعد عن المسلمين حين نود البقاء فى معزل عنهم. و بالرغم من أننا سافرنا من قبل مع مسلمين بحرا و برا، و بالتالى اعتدنا عليهم، لم نشعر قط بخوف كخوفنا من هذه الرحلة بين السويس وجدة، لأننا كنا لا نزال نعتقد أن المسلمين يعتبرون المسيحيين غير جديرين بالقيام بهذه الرحلة التى يعتبرونها مقدسة. و أكد لنا اليونان أننا سنمنع من انتعال الأحذية على المركب للسبب نفسه، و هذا بالفعل ما تمّ إعلامنا به ما إن غادرنا غرفتنا. و لا أظن أن السبب يعود إلى أن المسلمين يعتبرون الرحلة مقدسة بل لأنهم ينظرون إلى سطح السفينة كله كشقة لذا يخلع الجميع حذاءه. و نجد على المركب العديد من الحجاج البسطاء الذين ينظرون شزرا إلى المسيحيين، شأنهم فى ذلك شأن راهب من الفرنسيسكان يصادف فى طريقه إلى القدس ملحدين أو مشككين. و حين لا حظ بعض المسلمين خوفنا، استفادوا من الوضع على حسابنا، كما يفعل المسيحيون مع اليهود، و هم يعلمون أن هؤلاء لن يتجرؤوا على الرد، و نادرا ما يدافع عنهم العقلاء من المسيحيين، طالما أن الأمر لا يتعدى السخرية. إذا، لم نكن مرتاحين خلال الرحلة، لكن لحسن الحظ كان لدينا غرفتنا الخاصة التى لا يدخلها أحد من دون إذننا، و استطعت أن أقوم فيها بدراساتى الفلكية من دون أن أتعرض للإزعاج. و بالرغم من أن وجهتنا هى الجنوب، كنا نبحر معظم الوقت نحو الشرق إذ تمكنت من رؤية الشمس فى الهاجرة بسهولة من على متن السفينة، و عند ما ترسو كانت مؤخرة السفينة تتجه نحو الجنوب بسبب الرياح الشمالية المستمرة.

و لقد كانت سفينتنا محمّلة للغاية، و كان هناك فى الغرفة السفلى و الأكبر من غرفتنا ما يفوق الأربعين امرأة و جارية مع أولادهن. و أقام قبالة غرفتنا خصى أسود ثرى، كان متجها إلى المدينة، و كان يملك كالأسياد الأتراك حريمه الخاص. و أحاط كل تاجر المكان الذى حجزه على ظهر السفينة بالصناديق و الطرود، فلم يبق له سوى مكان ضيق يغلى فيه قهوته و يحضّر نرجيلته، و ينام فيه. و لم يكن سطح

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۱۹

السفينة محملا بالأشخاص و البضائع فقط، إنما علّق العديد من الطرود الخفيفة على جوانب السفينة الخارجية. و لا تقوم هذه السفن إلا برحلة واحدة سنويا بين السويس وجدة، لذا أظهر البحارة عدم مهارة، و افتقروا إلى المساحة اللازمة للعمل، فعند ما ينبغى طوى الأشرعة، كانوا يتزلون السارية، و كان البحّارة، و هم بغاليتهم من اليونان، يضطرون أحيانا إلى الدوس على بضائع التجار، فتنشب الخلافات بين الطرفين. و لقد كان ريس سفينتنا- و يدعى شريب(Schoreibe) - تاجرا من القاهرة، و غير خبير بقيادة السفن لذا أوكل الأمر لربانيه اللذين بقيا على مقدمة السفينة للتنبه بنفسهما للصخور الناتئة فى المحيط.

و أظن أنهما أكثر مهارة و انتباها من الربابنة الأوروبيين الذين يبحرون دوما فى عرض البحر، لأنهما تمكنا من الانتقال من السويس إلى جدة قرابة الشاطىء و عبر الأرصفة البحرية المتعددة. أما مراكب الإنقاذ فغير موضوعة على سطح السفينة كما فى أوروبا بل معلقة وراءها، و كان مركبنا الذى يتسع لأربعين أو خمسة و أربعين مدفعا، يحمل أربعة مراكب، يرفع أكبرها شراعا. أما المراكب الباقية فتجرها السفينة، و نجد فيها كلها باستثناء أصغرها، مسافرين و جيادا و خرافا، و نساء من العامة يقصدن مكة لنيل لقب حاجة أو للبحث عن الثروة خلال الرحلة. و لحسن الحظ، يهب الهواء باستمرار على الخليج العربى، و إلا لما أبحر فيه أحد، بعد كل ما ذكرته.

و لو أننا أبحرنا على متن مركب أوروبى، لما اضطررنا إلى الصعود إليه أولا، لكن بما أننا كنا نعرف أن سطح سفينتنا كان سيمتلىء بالصناديق و الطرود، ركبنا فى ۵ تشرين الأول/ أكتوبر، كى لا نحتك بالمسلمين الذين سنمر أمامهم محملين بمتاعنا. و كنا قد دفعنا كلفة السفر من السويس إلى جدة سلفا، ما إن اتفقنا مع قائد السفينة، كما أعطينا البحارة بعض المال قبل أن ينقلوا أغراضنا إلى متن السفينة، و فاجأنا ذلك، فاضطررنا للخضوع لعادات البلاد. و نجد فى الشرق، كما فى أوروبا، مسافرين يعدون البحارة بمكافآت عظيمة، و لا يعطونهم شيئا فى نهاية المطاف، لذا يطالب بحارة السويس بالدفع سلفا، و حين يصلون إلى جدة، يغادر المسافرون السفينة من دون أن يسألوهم مزيدا من المال.

فى ۶ و ۷ من الشهر نفسه، صعد التجار إلى متن السفينة. و فى ذاك اليوم، و عند الظهر، قست ارتفاع الشمس، و وجدت أن سفينتنا فى مرسى السويس تقع على خط عرض ۲۹؟، ۵۵؟، و يبلغ ارتفاع المياه أربع باعات و نصف الباع. و لم يركب الريّس إلا فى ۸ تشرين الأول/ أكتوبر، أما الأمر الوحيد الذى بقى يؤخر إبحارنا فهو عادة حاكم السويس بتفحص كافة السفن التى توشك على الإبحار للتأكد من أنها غير محمّلة كثيرا، أو على الأرجح ليجمع المال بفضل هذه المهمة الموكلة إليه، و هذا ما فعله فى التاسع من الشهر نفسه قبل الظهر. و ما إن غادر حتى أبحرت قافلتنا المؤلفة من أربعة مراكب، و دارت ساعة و نصف للتأكد من أنها محملة كما يجب، بعدها، رسونا فى مكان يبلغ عمق المياه فيه ۱۴ باعا، و تم نقل البضائع من جهة إلى أخرى فى كل مركب، استنادا إلى رأى الريّس بغية تسهيل الملاحة.

و بغياب الصخور البارزة بين السويس و جيروندل(Girondel) ، أبحرت السفن الأربع فى ۱۰ تشرين

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۲۰

الأول/ أكتوبر بعد منتصف الليل بنصف ساعة، و وصلنا قرب جيروندل قبل الظهر، و بما أن السفن لم تعتمد الذهاب أبعد من ذلك فى اليوم الأول، رسونا قرب الشاطىء فى مياه يبلغ عمقها ۱۳ باعا، و على خط عرض ۲۹؟، ۱۰؟. و نزل كل من السيد فورسكال و السيد كرامر إلى اليابسة لرؤية حمّام فرعون الواقع إلى الجنوب، لكنهما وجدا الطريق طويلة فعادا. إن هذا الجزء فى الخليج العربى، المسمى بركة فرعون، و الذى سنمرّ فيه أعرض بكثير من الدرب بين السويس و جيروندل، لكنه ليس خطيرا بالنسبة للسفن المبحرة نحو الجنوب. و أبحرنا فى الساعة التاسعة مساء، و فى الحادى عشر رأينا الكثير من الأرصفة المرجانية التى لم نكن لنمر من بينها من دون أن يحدق بنا الخطر إذا ما هبّت رياح معاكسة. لكن الرياح كانت مؤاتية، فوصلنا فى الثالثة من بعد الظهر قرب الطور(To ?r) ، خلف رصيف مرجانى تكاد لا تخفيه المياه أثناء الجزر، و رسونا فى مياه يبلغ عمقها ۵ باعات و ۳/۲ الباع. و ينتصب تمثال حجرى على الطرف الأكثر ارتفاعا لهذه الصخرة، يتبه البحارة إلى وجوب توخى الحذر، علما أن الأرصفة المرجانية تكثر على هذا الشاطىء.

و نظريا، يبلغ عرض البحر هنا أكثر من خمسة إلى ستة أميال، و تشير البوصلة من السويس إلى طور تقريبا إلى الجنوب و الجنوب الشرقى أو الجنوب الشرقى الجنوب، و تميل سلسلة الجبال، التى تمتد من حمّام فرعون على طول الشاطىء إلى داخل البلاد على بعد حوالى فرسخ و نصف إلى الشمال من تور، ثم تتجه نحو الجنوب، و تشكل على الشاطىء سهولا واسعة ترتفع فيها التلال حتى رأس محمد.

و تبين لى من دراستين دقيقتين أننا كنا على خط عرض ۲۸؟، ۱۲؟، كما يقع جبل القديسة كاترين، و هو أعلى من الجبال الأخرى المحيطة به و بالتالى أعلى من جبل سيناء إلى الشمال الشرقى، و قد رسم السيد بورنفايند هذا المنظر على اللوحة LI .

يحيط بمرفأ طور العديد من القرى الصغيرة، و كانت قلعة الطور فيما مضى حصنا، لكنه تداعى و لم تقم فيه حامية منذ مدة طويلة. و يعيش في البلاد النصارى الروم، و يملك الرهبان ديرا في المكان الذى قامت فيه إيليم(Elim) على ما يدّعون. و يقيم المسلمون في قرية شاذلى قرب بلاد النصارى، و يعيش سكان هذه المنطقة من الصيد، و يقع البئر الذى يؤمن حاجاتهم من مياه عذبة قرب المكان الذى رسونا فيه، و هى مياه أفضل من مياه آبار نابه(Naba) قرب السويس، لكنها ليست بأعذب من المياه التى يزود بها العرب السفن حين ترسو في هذا المكان و التى يحملونها على الجمال من المناطق الجبلية. و تثير قرية الجبل الاهتمام، إذ يقيم فيها كافة الربابنة الذين يقودون السفن من السويس إلى جدة و يعيدونها من جدة إلى السويس. و يتلقى كل ربّان ۵۰۰ ريال مقابل كل رحلة، فضلا عن الأرباح التى يجنيها و الأموال التى يقبضها من أولئك الذين يعلّمهم مهنته، لأننا عادة ما نجد على متن السفينة فتيانا أتوا لتعلم هذه المهنة أو على الأرجح لتعلّم كيفية التنبه للأرصفة الرملية و الأرصفة المرجانية و اكتشافها.

رسمت على اللوحة(LII) خارطة محيط طور، استنادا إلى نظرى و إلى روايات الربابنة لا استنادا إلى

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۲۲

دراسات هندسية كانت لتعرضنى للخطر. و كان السيد فورسكال الوحيد الذى ابتعد أكثر من بئر طور، و لم يجد في بلاد النصارى سوى كاهن واحد، أكرمه في منزله و أرسل معه مرافقين حتى اليم المزعومة حيث رأى العديد من الحدائق المزروعة بالنخيل و التى يملك جزءا منها الروم و الجزء الأخير المسلمون. و قد أثار غيابه الطويل تساؤل العرب، و أعلموا بعض الانكشاريين من القاهرة، فقرروا البحث عن الإفرنجي الذى نزل إلى البرّ لرسم جبالهم، و سارعوا إلى بلاد النصارى، و صادفوا السيد فورسكال و هو عائد من الحدائق فأعادوه إلى السفينة على الفور و بكل أمان. هل نجد الكثير من المسيحيين الذين يتكبدون مشقة قطع نصف فرسخ لإنقاذ يهودى لا يعرفونه من خطر محدق؟ لم أكن أتوقع هذه الشهامة و هذا الكرم من المسلمين بشكل عام و من الانكشاريين بشكل خاص. لكن هؤلاء كانوا من التجار الذين اعتادوا التعامل مع الأمم الأجنبية، فظنوا أن من واجبهم حمايتنا، كأجانب نبحث عن أمننا بينهم.

و في الرابع عشر من تشرين الأول/ أكتوبر، خرجنا من مرفأ طور بعد أن هبّت رياح رملية، و توجهنا نحو الجنوب أولا، ثم نحو الجنوب الشرقى و ذلك بين أرصفة المرجان. و بعد الظهر رسونا قرب رأس محمد أو رأس محمود كما يقول البعض، على عمق ۱۰ باعات. و بعد قياس ارتفاع نجمتين، تبين لى أننا على خط عرض ۲۷؟، ۵۴؟، تقريبا، علما أن الأفق لم يكن صافيا كليا، لكن هذه الملاحظة دقيقة بما يكفى لتصحيح الخرائط البحرية. لا حظت أن البحر أعرض هنا منه قرب طور، و يمتد الشاطىء أبعد نحو الجنوب ثم نحو الشرق حيث نجد الخليج الثانى للبحر الأحمر و الذى يمتد حتى العقبة. و حتى الآن، لم نبحر سوى قرب اليابسة، و رسونا كل ليلة، لكن بين رأس محمد و شاطىء شبه الجزيرة العربية، اضطررنا للإبحار في عرض البحر لأيام و ليال عدة. و سيعتبر كل أوروبى هذه الطريق آمن من الطريق بين السويس و جدة في غياب الأرصفة المرجانية و الصخور، لكن المسلمين، الذين لم يعد باستطاعتهم رؤية اليابسة، اعتبروها خطرة، و كانوا يفضلون على الأرجح لو مررنا من رأس محمد إلى جزيرة تيران(Tyr n) و منها إلى شواطىء شبه الجزيرة العربية، لكن الرياح كانت مؤاتية لنا للسفر في طريق مستقيم. و بقيت الرياح شمالية إلى شمالية غربية فتمكنا من التوجه نحو المرفأ الذى نصبو إليه.

في ۱۵ تشرين الأول/ أكتوبر و عند الظهر، كنا على خط عرض ۲۷؟، ۲۹؟، و كنا قد مررنا صباحا أمام جزيرة سفن البحر(Saf ni el Bahhr) ، و كانت جزيرة شدوان(Schedu n) مباشرة إلى الغرب على بعد ۴ أميال، و بالتالى على خط العرض نفسه. و كانت جزيرة تيران الواقعة أمام بحر العقبة إلى الشمال الشرقى على بعد حوالى ۵ أميال (استنتجت ذلك من تغيرات البوصلة) و على خط عرض ۲۷؟، ۴۳؟.

و عند غياب الشمس، كانت الشواطىء المصرية لا تزال بادية أما شبه الجزيرة العربية فغابت عن أنظارنا.

ثم في ۱۶ من الشهر نفسه، و عند الظهر، كنا على خط عرض ۲۶؟، ۹؟، أما عند المغيب فأصبحنا على خط عرض ۲۵؟، ۵۴؟، و شاهدنا على الشاطىء المصرى جبال الزمرد التى تحدث عنها الكتّاب

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۲۳

القدامى من يونان و عرب. إذا ما احتسبنا وسط كافة الاتجاهات التى سلكناها، و استنادا إلى بوصلتنا الخاصة نجد أننا أبحرنا باتجاه الجنوب و الجنوب الشرقى منذ رأس محمد. و لم يتبع ربابنة السفن الاتجاه نفسه حتى و إن كانت الرياح مؤاتية للغاية. و وضع الريس بين بوصلتيه- حيث يضع الأوروبيون عادة الضوء- قطعة كبيرة من المغنطيس، ظنا منه أنه يحافظ على مزاياهما، لأنه قيل له إن المغنطيس يعيد المزايا لمن فقدها. و نستنتج من ذلك، جهل البحارة في هذه البلاد لذا لم نلاق صعوبة في إقناع الريس بنزع المغنطيس من مكانه لأنه يضلل البوصلة.

و في ۱۷، تحضرت في الجانب الصغير وراء غرفتنا لمراقبة كسوف الشمس، و سجلت نهايته عند الثانية عشرة و ۲۸ ثانية ظهرا بواسطة منظار كبير بأربع قوائم. و منعتنى حركة السفينة، و إن كانت خفيفة، من تحديد خط الطول، لا سيما و أنه كان يتوجب علىّ تحديد ارتفاع القطب، و استخدام ثمن الدائرة حينا و المنظار حينا آخر. و كنا على خط عرض ۲۵؟، ۳۳؟، و بعيدين عن شاطىء شبه الجزيرة، فبالكاد نرى جبل الغراب. و أبحرنا خلال ال ۲۴ ساعة الأخيرة تقريبا نحو الجنوب و الجنوب الشرقى.

و حدّث السيد فورسكال ربسنا مسبقا عن الكسوف الذى سيحدث في ذاك اليوم، و لإسعاده و القيام بتجاربى من دون التعرض للإزعاج، قمت بتسويد بعض العدسات التى استخدمها السيد فورسكال ليشاهد الريّس و بعض التجار هذه الظاهرة و قد أعربوا جميعا عن رضاهم. و يعتبر الذين يستطيعون التنبؤ بالكسوف بين المسلمين أطباء ماهرين، عالمين بالقوانين الدينية و المدنية، فاقتنع المسلمون أن السيد فورسكال طبيب عظيم لأن الواقع أظهر صحة تنبوئه، فكثر المرضى بينهم. و طلب كل منهم دواء لمرضه المزعوم، و أشار إليهم الطبيب الجديد بالعلاج الأفضل، فنصح العديد منهم بالنوم و باتباع حمية غذائية أفضل. و أخيرا، تقدم منه حاج اشتكى من أنه لا يرى شيئا أثناء الليل، فنصحه السيد فورسكال بإشعال شمعة فأثارت هذه النصيحة موجة من الضحك، و بدا أن جميع المرضى السابقين أضحوا أصحّاء. و لا يكسب العلم الأوروبى عطف المسلمين و احترامهم دوما، بل ينجح في كسبهما إذا ما اتّبع عاداتهم و احترمها، و هكذا كسب السيد فورسكال، مع القليل الذى يعرفه عن الطب، محبة العرب أكثر من أىّ طبيب عظيم.

و في ۱۸ تشرين الأول/ أكتوبر، كنّا على خط عرض ۲۵؟، ۴؟، كان جبل هوان(Hawa Y ?ne) ، الذى يقع على شاطىء شبه الجزيرة العربية، على بعد خمسة أميال إلى الشمال الشرقى، أى إنه يقع على خط عرض ۲۵؟، ۵؟. و خلال الأربع و عشرين ساعة الأخيرة، أبحرنا تقريبا نحو الجنوب الشرقى و الجنوب، و كذلك الأمر بالنسبة للأربع و عشرين ساعة اللاحقة. في ۱۹ تشرين الأول، ظهرا، كنا على خط عرض ۲۴؟، ۱۰؟، و كانت أكبر جزيرتى حسانى و أكثرهما إلى الجنوب إلى شمال مركبنا، على بعد حوالى ثلاثة أميال و نصف. و ترسو المراكب الآتية من رأس محمد عادة قرب هذه الجزيرة، و هى تقع على خط

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۲۴

عرض ۲۴؟، ۲۴؟. و بعد الظهر دنونا من الشاطىء بعد أن درنا حول رصيف مرجانى كبير، و رسونا قرب مهار(Mahar) . فأرسل الريّس بطلب عربيا كان يمشى على الشاطىء ليسأله إن كانت القبائل المختلفة في حالة حرب أم في حالة سلم. و وصل أحد المراكب التى أبحرت معنا من رأس محمد في اليوم نفسه أما المركبان الأخيران فلم يتمكنا من اللحاق بنا.

و بما أن الرياح كانت مؤاتية للغاية، نجونا من الخطر المحدق بنا، فاثنان من المراكب الثلاثة التى انطلقت متأخرة قليلا من السويس في السنة الماضية، غرقت في هذه المنطقة. و كان على متن سفينتنا، بعض الأشخاص الذين مرّوا بهذه التجربة، ورووا لنا أن عاصفة فاجأتهم قرب حسّانى، فسادت الفوضى في السفينة، و سارع الركاب و البحارة إلى مراكب الإنقاذ و توجهوا نحو اليابسة، ورأوا من هناك المركب الأول يتكسّر على الصخور. و عند المساء، هدأت الرياح، و شاهدوا في اليوم التالى المركب الثانى يطوف على سطح الماء، مما دفع بالريس و بحارته إلى العودة نحوه، لكنه عاد و غرق قبل أن يغادروا اليابسة. و قام الريّس الثالث بعمله بشكل أفضل، إذ خشى أن يلوذ البحارة بالفرار ففكّ الحبال التى تربط مراكب الإنقاذ بالسفينة ما إن عمّت الفوضى بين الركاب، و عوّض نفسه بالتالى لغضبهم. لكن حين عرض لهم المخاطر التى تتعرض لها سفينة من دون قبطان، و حين ادّعى قدرته على إنقاذهم و بضائعهم، إذا ما أفسحوا له و لرجاله المجال ليعملوا، هدؤوا و ساهموا في العمل، و استطاعوا النجاة، فأكملوا طريقهم و وصلوا بأمان.

و كادت تحلّ بمركبنا كارثة غير الغرق بين رأس محمد و حسّانى، و ذلك بسبب طيش النساء اللواتى يسكنّ الغرفة السفلى و التى يزعجننا دائما بصراخهن و نقاشهن، فقد شبّ حريق مرتين بسبب قطع من القماش، و كاد هذا الحادث أن يؤدى بنا إلى كارثة لو لم

يصرخن طلبا للنجدة. و حين شبّت النيران للمرة الثانية، خاف المسلمون، مما اضطر الريس إلى إرسال أحد البحارة إلى الحريم، فأخذت النساء أولا بإصدار أصوات مزعجة تمّ حلّ صمت عميق دام ۲۴ ساعة من دون انقطاع.

بعد اجتيازنا الدرب المهلكة بين رأس محمد و حسّاني، عمّت السعادة، و أطلق المدفع طلقات عدة.

و عند المساء، تمّ إشعال كافة القناديل و المصابيح، و أطلقت النار ابتهاجا، و تعالت الزغاريد الشائعة بين الشرقيين من الجهات كلها. و توقّع الربان مكافأة جيدة من المسافرين لقاء الخدمات العظام التي قدّمها، كما طلب البحارة بعض المكافآت الصغيرة لقاء تعبهم و سهرهم طوال الليل. و استخدم هؤلاء مركبا صغيرا، كما يصنع الأولاد في أوروبا، لجمع المكافآت، ثم رموه في البحر، و لم يجمعوا الكثير لأن لكل واحد من الركاب الحرية في إعطاء ما يشاء.

و في ۲۰ تشرين الأول/ أكتوبر، و عند شروق الشمس، أبحرنا من جديد، و كان الهدوء سائدا، و كنا عند الظهر لا نزال على خط عرض ۲۴؟، ۳۲؟. و كانت مهار(Mahar) تبعد عنّا حوالي فرسخ و نصف إلى الشمال و الشمال الشرقي، إذا، نستنتج أننا رسونا على خط عرض ۲۴؟، ۳۷؟، و بعد الظهر، رسونا إلى الجنوب في أبي دبي(Abu D bea) و هي على خط عرض ۲۸؟، ۲۸؟، و يصل ارتفاع المياه فيها إلى عشرة باعات، و تمتد أرصفة المرجان على طول ۲۰۰ قدم. في ۲۱ من الشهر نفسه، و منذ الصباح،

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۲۵

كانت الرياح معاكسة تماما، لكنها ما لبثت أن تغيرت، و تقدمنا نحو الجنوب و الجنوب الشرقي.

و عند الظهر، كنا على خط عرض ۲۴؟، ۲۴؟ و كانت جبال النبط(Nabat) مباشرة إلى الشرق أمام جبال رضوى(Radwa) الكبيرة. و عند المساء، درنا حول جمم أو السبعة رؤوس و الخطر يحيق بنا لأن الصخور تكثر في هذا المكان، و كان الظلام قد حلّ، و رئسنا قد ثمل. فما إن وصلنا إلى متن السفينة حتى طلب منا الكحول بحجة أنه لا يمكنه التعرف على الشواطىء و الجبال ما لم يشرب القليل من الخمر، فرفضنا إعطاءه لأنه مسلم و لكي لا نقع في متاعب مع المسافرين الآخرين في حال ثمل، و كان يطلب منا كل صباح ربع زجاجة عن طريق خدمه، و لعل التجار اليونانيين اعتادوا إعطاءه الكحول. ثم في وقت متأخر من تلك الليلة، رسونا قرب قبة ينبع(Kubbet Yanbo) ، و هي جزيرة صغيرة تحوي رفات قديس مزعوم.

في ۲۲، لم نتمكن من التقدم بسبب الرياح المعاكسة، التي هبّت من الشرق نحو الجنوب و إلى الغرب، و سجلت ظهرا، ارتفاع القطب، و وجدت أن قمة ينبع تقع على خط عرض ۲۴؟، ۱۴؟. و في اليوم التالي ۲۳، أبحرنا نحو الجنوب الشرقي و الجنوب، و عند الظهر كنا على خط عرض ۲۴؟، ۱۰؟، و صادفنا رصيف مرجاني إلى الغرب، و القسم الجنوبي لجبال رضوى الشاهقة في الشمال الشرقي. و كانت السماء مبّدة بالغيوم، أثناء هذين اليومين، ثم مررنا بعد الظهر أمام مرسى جيد، يطلق عليه اسم شرم، و رسونا قرب مدينة ينبع. إننا لم نر منزلا واحدا منذ غادرنا طور. و الآن ظهرت مدينة ينبع تحيط بها الأسوار، و يبدو منظرها العام جيدا من جهة البحر، أما مدخل المرفأ فضيق للغاية، لكن المرفأ بحد ذاته آمن حتى أننا لا نحتاج لإنزال المرساة، لذا اكتفينا بربط حبل من سفينتنا بحجر من رصيف المرجان الذي تغطيه المياه بالكاد أثناء الجزر.

و لقد غادر المسافرون الذين ينوون التوجه إلى المدينة مباشرة و من ضمنهم الخصي الذي ذكرته سابقا. و تمّ تحضير مركب الريس الخاص له و لبعض المسافرين ذوي الشأن، و لوّث أحد أعضاء بعثتنا هذا المركب إذ لم ينتبه إلى أنه تحت غرفتنا، مما أغضب البحارة الذين نظفوه و غطوه بالسجاد. و لحسن حظنا، لم ينس أحد طيش النساء اللواتي يسافرن في الطبقة السفلى، فاتهمن بهذه الفعلة بالرغم من إنكارهن لذلك. و كانت غرفهن ملاصقة لغرفتنا، و هي غرف واسعة يمكن أن يقيم في كل واحدة منها أربعة إلى خمسة أشخاص، لكن النزول إلى غرفتنا يتطلب استخدام السلالم. و لم أفاجأ بسماع أصوات نساء بالقرب مني، و دفعتني حشريتي إلى البحث عن فتحة، و وجدت واحدة صغيرة. و منذ رحيلي من السويس، و بصعوبة رأيت وجه مسلمة مكشوفا، لكن في أثناء هذه الرحلة كنت أرى أحيانا و عند الصباح ۳ أو ۴ نساء عاريات يغتسلن.

و بقيت على متن السفينة، لأقوم بدراسات فلكية، و لأحدد موقع ينبع التقريبي، راجعوا اللوحة(LVIII) ، و قد رسم السيد بورنفيد منظر هذه المدينة على اللوحة(LIII) . و نزل إلى اليابسة ثلاثة

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۲۶

أشخاص من بعثتنا، و حمل كل منهم سيفه كباقي المسافرين و لم يكونوا يعلمون أن ذلك سيجلب لهم المشاكل. إذ رمى أحد سكان المدينة عليهم السلام، بعد أن ظنهم مسلمين بسبب اللباس التركي الذي يرتدونه، و حين علم أنهم إفرنج، استشاط غيظا، بسبب الخطأ الذي ارتكبه بإلقاء السلام عليهم، و راح يشتم الكافرين الذين وصلت فيهم الجرأة حدّ النزول إلى الشاطىء مسلحين. و من حسن حظهم أن العرب الحاضرين المسالمين أكثر لذلك لم يمنعوهم من العودة إلى السفينة.

و سرّني أني رأيت بعض النجوم في الهاجرة، لكن الانتظار أتعبني. و في ۲۴، تبددت الغيوم قبل إبحارنا، و تمكنت من قياس ارتفاع القطب، فوجدت أن ينبع تقع على خط عرض ۲۴؟، ۹؟ و عند الظهر، كنا لا نزال على خط عرض ۲۳؟، ۵۷؟، و كانت مدينة ينبع إلى الشمال و على ۱۸؟، إلى الشرق، على بعد ميلين و نصف، و لأنني كنت على ارتفاع ۱۸ قدما فوق مستوى المياه أمكنني رؤية منازل المدينة بوضوح. و بعد الظهر، شاهدنا الكثير من أشجار النخيل على الشاطىء، و عند المساء، رسونا قرب ديار(Dsjar) ، على خط عرض ۲۳؟، ۳۶؟، و في مياه يبلغ عمقها ۱۴ باعا.

في ۲۵ ظهرا، كنا على خط عرض ۲۳؟، ۲۹؟، و إلى الغرب من وسط جبال صفرا(Safra) ، و كنا نبحر على بعد ميل و نصف من الشاطىء، و تحيط بنا صخور مرجانية كبيرة. و عند المساء، رسونا قرب أبو أعين(Abu Aij n) على خط عرض ۲۳؟، ۱۶؟. و في ۲۶، أبحرنا نحو الجنوب و الجنوب الشرقي كما فعلنا خلال معظم الرحلة، و مررنا بين الأرصفة المرجانية، كما شاهدنا قناة على صخرة كبيرة من المرجان، يطلق عليها اسم جيراد (جيب رعد)(Dsjebr d) . و عند الظهر، كنا في الجنوب الغربي، على بعد ميل و نصف من مدينة مستورة(Mastچra) الواقعة على سفح جبل يحمل الاسم نفسه، و بعد الظهر اجتزنا رأس وردان(Ward n) ، و رسونا مساء قرب رابوخ(Rabogh) على خط عرض ۲۲؟، ۴۵؟، بين بعض الجزر الصغيرة، و هي قرية أو مسكن ثابت للبدو، و قيل لنا مسبقا إن عرب الرابوخ يحملون الماء و الزاد إلى الشاطىء ليبعه، و وجدنا الكثير منها بالفعل.

و لقد كنت قد ذكرت سابقا في وصفي لشبه الجزيرة العربية، أن على المسلمين، الذين يحجّون للمرة الأولى، أن يرتدوا لباس الإحرام، إذا ما سمحت صحتهم بذلك. و هذا ما يجب أن يفعله القادمون من السويس بحرا، لدى وصولهم إلى رأس وردان الذي اجتزناه في هذا اليوم. و لباس الإحرام هو قطعة من القماش تربط حول الخصر كما في الحمّامات، و هو اللباس الذي يسمح للحاج الجديد بارتدائه حتى يزور الكعبة في مكة. كما يمكنه ارتداء قطعة أخرى من القماش فوق كتفه، كذاك التركي الذي رسمه السيد بورنفاند على اللوحة(LIV) . و حافظ العديد من المسافرين الحجاج على ثيابهم العادية، إما لأنهم مرضى و إما لأنهم يدّعون ذلك، في حين ارتدى العديد من المسلمين المتدينين لباس الإحرام من دون أن يلزمهم القانون بذلك بما أنهم زاروا مكة من قبل. و هكذا، رأينا عند المساء، العديد من المسافرين على متن سفينتنا يرتدون ملابس مغايرة لتلك التي كانوا يرتدونها عند الصباح.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۲۹

قد نستغرب أن يأمر محمد أتباعه بزيارة الكعبة للمرة الأولى حاسري الرأس و شبه عراة. و لعله يقصد عامة الشعب من عرب الحجاز و اليمن و عمان و مكة بهذا الزيّ. و لعله لم يسع إلّا إلى جعل الحجاج يدخلون أرض مكة خاشعين متواضعين، أي مرتدين اللباس نفسه كعامة الشعب. و أعتقد أنه لم يكن ليضع قانونا كهذا، لو علم أن حجاجا من البلاد الباردة سيقصدون مكة يوما ما، فالإحرام غير مريح للأتراك، و قد يؤذي صحتهم لأنهم اعتادوا الإكثار من الثياب حتى في الصيف و يناسب لباس الإحرام عربيا أحرقته الشمس، لكنه لا يناسب تركيا حاسر الرأس، و ملتحيا ذا بشرة بيضاء كليا.

و منذ انطلقنا من السويس، أبحرنا نحو الشرق، فتمكنت من رؤية الشمس في الهاجرة، و أنا في المقصورة. في ۲۷ تشرين الأول/ أكتوبر، و قبل الظهر بدقائق، توجهنا نحو الجنوب مباشرة، مما منعني من تحديد ارتفاع القطب بدقة، لكن لا أظنني أخطىء كثيرا إن اعتبرت أن جبل قلع(Kleia) الذي لم نكن بعيدين عنه يقع على خط عرض ۲۲؟، ۲۳؟، استنادا إلى ارتفاع الشمس الأخير. و بعد الظهر، أبحرنا نحو الجنوب و الجنوب الغربي، و يمتد شاطىء شبه الجزيرة جنوبا حتى جدة. و عند الساعة الواحدة، مررنا أمام أم المسك، و هي جزيرة صغيرة قرب الشاطىء، و بعد الساعة الثانية، كانت جزيرة حرام، و هي جزيرة صغيرة أخرى، إلى الغرب منا. ثم بعد ذلك، أبحرنا في قناة ضيقة للغاية بين أرصفة المرجان، و يحاول أي بحّار أوروبي التوجه إلى عرض البحر، لكن ريس سفينتنا ارتأى عدم الابتعاد عن الشاطىء حتى يتمكن و الركاب من الهرب إلى اليابسة إن غرقت السفينة. و عند المساء، رسونا قرب رأس

الحطبة(R s el Hatba) في مياه يبلغ عمقها ١٥ ذراعا. و يقع كل من جبل قليع و هذا المرسى تحت خط الهاجرة نفسه تقريبا، لكن الشاطىء الذى يمتد بينهما يشكل انحناء كبيرا نحو الشرق. و لم أتمكن طوال الليل من مراقبة نجمة واحدة ثابتة، و يقع رأس الحطبة، وفقا لدراستى، على خط العرض ٢٢؟، ٣؟.

و فى ٢٨ ظهرا، وصلنا قبالة جبل و كر(Wakr) ، و أمضينا الليلة أمام أبحر(Obh r) ، حيث يدخل الخليج عميقا فى اليابسة حتى ليظنه المرء نهرا. إن مدخل هذا المرسى ضيق للغاية، لكنه آمن حتى أننا لم نزل المرساة، و اكتفينا بربط السفينة من الجهتين بحجارة كبيرة فى أرصفة مرجانية. و تقع أبهر على خط عرض ٢١؟، ١٠؟، إلّا فى حال وجود شاطىء مستقيم بعيد يقع قرب الهاجرة، جعلنى أخطىء فى تقديرى.

و فى ال ٢٩ منه صباحا، غادرنا أبحر بعد هبوب رياح رملية، و وصلنا عند الثانية من بعد الظهر إلى جدة، و رسونا على بعد نصف ميل إلى غرب المدينة، على خط عرض ٢١؟، ٢٧؟ بين أرصفة المرجان.

و فيما يلى، حددت موقع جدة على خط العرض بدقة بواسطة ربع الدائرة. و بقينا فى السفينة ليومين بعد مغادرة كافة المسافرين المسلمين للسبب نفسه الذى دفعنا إلى الصعود على متنها قبلهم (كى لا نزعج المسلمين). و دخل العديد منهم المدينة إما لزيارة الأصدقاء و الأهل و إما لاستقاء الأخبار، و إما لإدخال

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۳۰

أموالهم على دفعات و سرا، لأن رسم الدخول يبلغ ٢ إلى ٢ و نصف بالمئة. و تمكن البعض من دخول المدينة من دون أن يدفع المال، أما الذى تكثر الأغراض معه، فتم توقيفه و إجباره على دفع الموجبات.

و يبدو أنهم لا يعرفون معنى لحجز الأغراض و معاقبة المخالف، و قيل لنا إنهم يكتفون بالسخرية ممن يحاول خداع الجماركى و لا يفلح فى ذلك. و أذكر أنى سمعت فى مناطق أخرى تركية، أن من يحاول إدخال بضاعة ما خلسة يدفع المبلغ المستحق مضاعفا. و تعرّض أحد أصدقائنا، الذى حاول إدخال ماله من دون أن يدفع، لعقاب أكثر صرامة، فحين نزل من السفينة، انفتح كيس ماله، الذى ربطه حول خصره، و وقع منه حوالى ١٠٠ درهم فى البحر.

و بما أن الذين، عادوا من المدينة اشتكوا من أن الجماركى صارمة هذه السنة أكثر من المعتاد، اتخذنا كافة التدابير الممكنة كى لا نتعرض للمشاكل. و لم نكن ننقل بضائع و بالتالى ما من شىء نخشاه من هذه الناحية، لكن المسلمين لا يستخدمون الكمبيالات، لذا اضطررنا إلى إبدالها بالمال فى القاهرة، و سعينا إلى إخفاء الأمر عن العرب كى لا تسوّل لهم أنفسهم القيام بأمر ما. و لم نكن نحمل سوى نقود البندقية التى تستخدم فى جدة أكثر من النقود الذهبية التى ضربت فى تركيا، و كان يمكن لكل منا أن يخفى حصته لو لم نخش التعرض للتفتيش. فقررنا إخفاء مالنا فى جرار الأدوية، و هى أفضل طريقة لإخفائه عن عيون العرب الذين لا يتوقعون أن يحمل طبيب ما المال، و بالرغم من أن المسلمين لا يحبون أن يدفعوا المال لأطبائهم، يرحبون بهم أينما حلّوا.

و لم يتمكن من اللحاق بنا سوى مركب واحد من المراكب الثلاثة التى انطلقت معنا من السويس ثم من رأس محمد، و قد وصل إلى جدة حين وصل مركبنا، فيما وصل الثانى فى ٢ تشرين الثانى/ نوفمبر، بعد أن فقد أحد مراكب الإنقاذ و عانى الأمرّين للحفاظ على المراكب الأخرى، و لم يصل الثالث إلا فى ١٢ تشرين الثانى/ نوفمبر صباحا. و عند المساء، ما بين الساعة الثامنة و الساعة التاسعة، سمعنا فجأة صوت دوى مدفع، و هى الإشارة إلى حصول كارثة ما لأحد المراكب الراسية. و خشى أن تكون النيران قد اندلعت فى إحداها، فأرسلت كافة المراكب الصغيرة النجدة، و بعد حين عاد بعض منها لإخبارنا أنّ المركب الذى وصل متأخرا قد انقلب، و أن كمية من البضائع وقعت فى الماء لأن البحارة أثقلوا الحمل و أكثروا من البضائع و الصناديق بعد أن رجاهم التجّار إذ أرادوا الحصول على بضائعهم فى اليوم التالى.

و أرادت القلة التى بقيت على متن المركب إرسال إشارة إلى الضباط و البحارة الذين نزلوا إلى البرّ كى يرجعوا و يساعدوا فى إعادة المركب إلى وضعه الصحيح. هؤلاء هم الناس الذين تسلّم لهم حياتك بين السويس و جدة، فشكرنا الرب و حمدناه لأننا أنهينا رحلتنا بخير و سلام، هذه الرحلة التى تجدون خارطة لها على اللوحة ٢٠ فى وصف شبه الجزيرة العربية.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۳۱

ملاحظات فى جدة

لم يساورنا الشعور بالخوف قط من سكّان مدينة بقدر ما خفنا من سكان جدة قبل أن ندخلها، و ذلك بعد أن رأينا الازدراء الذى يعامل به الأوروبيون فى مصر، إذ ظننا أن عداوة المسلمين للمسيحيين ستزداد مع اقترابنا من المدن التى يعتبرونها مقدسة، و قد زادتنا طريقة تصرف سكّان ينبع مع رفاقى اقتناعا بهذا المنطق، لكن تبين لنا أننا على خطأ. إذ لم يعتد أهالى جدة إلا على رؤية الأوروبيين القادمين من الهند للتجارة، و هم يرتدون الملابس الأوروبية، و بما أننا قادمون من منطقة أخرى، و قد لبسنا الثياب الشرقية، ساور أهالى المدينة الشك تجاهنا فى البداية، لكنهم ما لبثوا أن اكتشفوا خطأهم. و قد عرفنا من قبل العديد من المسافرين الذين وصلوا حديثا، و لم يعد سكان المدينة يعيروننا اهتماما لأنهم لم يجدوا فى لباسنا ما يريب. فزرنا المقاهى و الأسواق، و تنزهنا قرب البحر و فى المدينة و محيطها دون أن يتعرّض لنا أحد. و الأمر الوحيد الذى لا يسمح به أهالى المدينة لغير المسلمين هو الاقتراب من الباب الواقع من جهة مكة، و قد أعلمنا بالأمر، فالتزمنا به.

و ساعدتنا رسائل التوصية التى حملناها، فقد أوصى بنا السيد دى غابلر الباشا حاكم جدة و الذى يعرفه معرفة شخصية من القسطنطينية. و كنا نحمل رسالتى توصية من تاجرين فى القاهرة إلى أكبر تجار جدة، و أخرى من شيخ إلى كخيا المدينة، و هذا الشيخ هو كاتب أحد أكبر علماء جامع الأزهر فى القاهرة. و لم نكن نتوقع الكثير من رسالة التوصية التى زودنا بها الشيخ، لكنها أفادتنا أكثر من الأخريات.

و هذا الأخير هو من من أصل تركى، و بالتحديد من الجزء الأوروبى منها، و قد سمع فى موطنه و فى القسطنطينية الكثير عن تفوق الأوروبيين على المسلمين فى مجال العلوم، و لم يكن بإمكانه قراءة كتبنا، و لم يصادف علماء أوروبيين من قبل، فاعتاد زيارتنا. و بالرغم من كونه مسلما مؤمنا، و متطيرا للغاية، و متفاخرا حيال أتباع الديانات الأخرى، إلا أنه رجل شريف و صديق و فىّ لغيره من الرجال. و علّمه السيد فورسكال كيفية استخدام المجهر، و أعطاه معلومات عامة عن النباتات، أما أنا فعلّمته الرسم، و دلته على توابع الزّهرة، و حلقات زحل و غيرها من الأمور التى لم يسمع بها من قبل، و قد شهد ليال طوالا معى و أنا أقوم بدراساتى الفلكية. و استفدنا من وجوده إذ تمرّنا على اللغة العربية، و اطلعنا على أمور ما كنّا لنعلم بها لولاه. و كان هذا الشيخ قد علّم الكخيا(Kichja) فى جدة كيفية استخدام الكرة، و كتب له يوصيه بنا و يحثّ برسالته مع آخر قافلة من دون أن يعلمنا، ثم أعطانا رسالة موجهة إلى الكخيا يطلب منه الاهتمام بنا، و سألنا أن نعلّم هذا الأخير ما أطلعناه عليه.

و قررنا تسليم الرسائل الموجهة للباشا و الكخيا شخصيا، فأرسلنا خادمنا اليونانى إلى المدينة و هو يحمل

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۳۲

الرسالتين المبعوثتين للتاجرين و رجوناهما أن يجدا منزلا- لكن، حين علما بكثرة عددنا، و علما منهما بأن الأوروبيين لا يستطيعون العيش كالعرب بسهولة، اعتذرا عن تقديم هذه الخدمة لنا. و أحسسنا بسيئات كثرة العدد مرارا، فلو كنا قلائل لتمكنا من استئجار بعض الغرف فى فندق عام. و حين لم يجد لنا خادمنا منزلا مع رسائل التوصية التى نحملها، توجّه إلى أحد مواطنيه، و هو صائغ شريف مكة و يحظى بمكانة جيدة عند الباشا و الكخيا، فأعلمه أن هذا الأخير على علم بوصولنا و قد طلب منه مساعدتنا على النزول إلى اليابسة، و عرض علينا منزله لليلة و أكدّ لنا أنه سيستأجر لنا منزلا آخر. أسعدنا هذا الخبر، و فى ٣١ تشرين الأول/ نوفمبر نزلنا إلى البرّ، و استقبلنا الصائغ بتهذيب عميق.

و سارعنا بتسليم الكخيا رسالة الشيخ، و استقبلنا الأول بالترحاب، و سألنا عن أحوال الشيخ و غيره من الأصدقاء فى القاهرة. و اعتدنا بعد ذلك زيارته، و كان يطرح علينا أحيانا أسئلة حول الدين و العادات و التقاليد عند الأوروبيين، و استفدنا من الفرصة لإعطائه و الحضور فكرة أفضل من تلك التى يملكونها عن بلدنا. أما فكرتهم عن الأوروبيين فشبيهة بفكرتنا عن الصينيين. و يعتبرون أنفسهم أكثر حكمة من الأمم الأخرى، بالرغم من أنهم لا- ينكرون جهلهم للعلوم أكثر من الشعوب الأخرى. و أريت الكخيا الكواكب من خلال المقراب، و كان يحلو له التحدث عن علم الفلك. و دفعه السيد فورسكال، الذى اعتاد التردد عليه أكثر من غيره، إلى إنشاء حديقة قرب منزله، خلال إقامتنا فى جدة، و استقدام بعض النباتات و الشجيرات التى تنتج بلسم مكة من محيط المدينة. و استغرب

العرب كيف لم يفكروا بالموضوع، علما أنهم يلاقون صعوبة في الحصول على هذا البلسم.

و بعد أيام، سلّمنا الباشا رسالة السيد دي غابلر. و كان الباشا يميل نحو علم الفلك. و أراد مني أن أحضر ساعتي الشمسية و أقيس ارتفاع الشمس أمامه، و طلب مني إعطاءه وصفا مفصلا للآلة، و أجبر أحد العلماء على احتساب خط عرض جدة استنادا إلى ارتفاع الشمس الذي راقبته. و أعطيت الأفضلية لآلتي على حساب الساعات الخشبية الصغيرة التي يستخدمها علماء الفلك المسلمون، و بما أن حساباتي اختلفت قليلا عن حسابات الشيخ، أعطيت الأفضلية للوائح علماء الفلك الأوروبيين. و لا يتكلم الباشا و الشيخ سوى التركية، لكني كنت محاطا بالمترجمين، فخادمنا اليوناني يتكلم التركية، فضلا عن ثلاثة مرتدين يعملون لدى الباشا، أحدهم فرنسي و الآخرين إيطاليين، لكن أيّا منهم لم يكن ضليعا بمصطلحات علم الفلك، فاضطررت لشرح الأمور للكخيا بالعربية مما تطلب مني جهدا كبيرا لأني قلما أتحدث مع العرب في مواضيع كهذه.

وزرنا منازل عدة منذ اليوم الأول، و استأجرنا واحدا كبيرا، يقع على البحر. في ۱ تشرين الثاني/ نوفمبر، نقلنا متاعنا إلى اليابسة، و كان الكخيا حاضرا في الجمارك، و لم يبق في غرفة منفردة كما يفعل الأوروبيون، بل جلس مع بعض الموظفين في مكان مرتفع تمرّ به كافة البضائع. و تبين لنا أن هناك من يسهل لنا أمورنا، فلم يكتف الموظفون بفتح صناديق التجار، بل قاموا بعدّها و تفتيشها بدقة، و بما أن

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۳۳

الكخيا مقتنع بأننا لم نقصد البلاد بهدف التجارة، و أراد مساعدتنا اكتفى الموظفون بفتح صناديقنا. و لم يقوموا بتفتيش صندوق الأدوية لشدة حاجتهم إليها، و بهذه الطريقة، لم يعثروا سوى على ۲۰۰ دوكا كنا قد وضعناها لهذا الهدف في مكان بارز لنظهر أننا لا نحمل سوى هذا القدر من المال الكافي لإقامتنا في هذه المدينة. و حين يتعامل موظفو الجمارك العرب بأمان و صدق مع المسافرين يتوقعون الحصول على مكافأة شأنهم في ذلك شأن موظفي الجمارك في أوروبا، لكن تعطى المكافأة خفية لهؤلاء الأخيرين، فلقد قام الصائغ اليوناني المكلّف بالاهتمام بمصاريفنا، بمكافأة موظفي جمارك جدة بحضور الجميع.

و انتشر خبر وصول أوروبيين، و بينهم عالم فلك بين الناس حتى وصل إلى مكة. و كان أخو الشريف الحاكم قد جمع جيشا عظيما، و هدد بمهاجمة المدينة، فأرسل الشريف الصائغ اليوناني، الذي ذكرته مرارا، ليسألني ما إذا كان سيحافظ على الحكم أم سيضطر للتنازل عنه لأخيه. و اعتذرت عن الرد على موضوع كهذا، متحججا بجهلي لكيفية التنبؤ بالمستقبل، و أضفت أن الأوروبيين طوروا علم الفلك لتحسين الملاحة، و هو الرد الذي أعطيه كلما استشارني أحدهم بصفتي عالم فلك. و ترضى هذه الإجابة المسلمين دوما، لأنهم يعلمون أن الأوروبيين يقطعون أشواطا كبيرة بحرا، اعتادوا خلالها على قياس ارتفاع الشمس. و أجاب السيد دي هافن، الذي كان حاضرا حين طرح علي السؤال، أن النصر سيكون حليف من يشبه الحسن بن علي الذي يتحدر من سلالته الشرفاء كلهم. و أرسل الصائغ هذا الجواب إلى مكة و أظن أنه لاقى استحسانا، و بقي الشريف في الحكم، و لعله تخيّل أنه يشبه الحسن تمام الشبه. و في يوم آخر، أعلمني أحد وجهاء جدة أن ۲۰۰ دوكا سرقت منه، و تمنى عليّ اكتشاف اللص، فاعتذرت قائلا إني أترك هذا العلم العظيم لعلماء المسلمين، من بعدها أظهر أحد كبار الشيوخ جهله للأمر، فقد صفّ الخدم كلهم صفا واحدا، و صلى طويلا، ثم وضع في فم كل منهم ورقة صغيرة، و أمرهم بابتلاعها بعد أن أكد لهم أنها لن تضرّ البريء و أن قصاص السماء سيحلّ على المذنب. بعدها، تفحص فمّ كل منهم، و اعترف أحدهم، إذ لم يبتلع الورقة، بأنه سرق المال. لكن لا يسهل إخافة لصوص المسلمين كلهم، إذ علمت من تاجر من بغداد، أن خادمه لم يأبه لأي رقية، بالرغم من أن معظم الشكوك كانت تحوم حوله، و أسف التاجر على العشرة قروش التي دفعها للشيوخ أكثر من أسفه على المال الذي سرق منه.

و استنادا إلى روايات العرب. لم تتراجع مياه البحر المحيطة بشواطىء هذه البلاد أبدا أو بشكل لا يذكر، منذ تكوّن العالم و حتى اليوم، و يدلونك على ضريح حوّاء قرب جدة . لكن هذا الشاطىء،

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۳۴

برأيي، تعرّض لتغييرات عدة، و نجد في شمال غرب المدينة، و على مسافة قريبة من الضريح المذكور، تلالا عالية، تكثر فيها الأصداف و أحجار المرجان المتحجرة أو المدفونة في الرمال، و يكفي أن نراها و أن نقارنها مع صخور المرجان الموجودة بكثرة تدريجيا في هذا المكان. و لا أظن أن مدينة جدة تقوم حاليا في المكان نفسه الذي قامت فيه المدينة التي تحمل الاسم نفسه و المذكورة في سيرة محمد . و تتوسع جدة أكثر و أكثر نحو الغرب، أما مستوى مياه المرفأ فمنخفض للغاية، حتى أن المراكب الصغيرة تضطر لانتظار المدّ لتنقل البضائع إلى اليابسة أو لتحمّلها.

و لا تحافظ مياه البحر التي تغطي هذه الشواطىء على الارتفاع نفسه طوال فصول السنة، إنما ترتفع تدريجيا من شهر تشرين الثاني/ نوفمبر و حتى شهر نيسان/ إبريل، حين تهبّ الرياح الجنوبية، ثم تنخفض أثناء الأشهر الستة الأخرى، حين تهب الرياح من الشمال . و لا يظهر الفرق شاسعا بشكل عام، لكن، حين وصلت إلى جدة، رأيت المسافة بين المرفأ الكبير و مرفأ السفن الشراعية جافة خلال الجزر، و عند ما حان موعد رحيلنا، وجدت المياه تغطي المكان باستمرار. كما تغطي المياه، حين يرتفع مستواها، سهلا، يقع في الجنوب خارج المدينة، و بعد أن تتبخر بفعل حرارة الشمس المرتفعة تترك وراءها ترسبات من الملح.

زد على ذلك أن ضواحي جدة رملية و غير صالحة للزراعة.

رسمت خارطة هذه المدينة و محيطها على اللوحة(IV) ، لكن تجدر الإشارة إلى أني لم أقس إلا الجزء الواقع من جهة البحر، و لم يكن بإمكاني أن أجول في المدينة كلها كما ذكرت سابقا. لكني حددت موقع جزء من السور، و عددت من بعيد خطى عربي رأيته يمشي قرب هذا السور. و لم أستطع إدراج كافة الشوارع، إذ لم يكن يسمح لي بالاقتراب من الباب الواقع من جهة مكة. و نجد في هذا الحيّ عددا من الأكواخ الخشبية، المغطاة بالقش أو بالعشب، و قد نجد بعض المنازل الحجرية المتفرقة حيث أشرت إلى وجود أكواخ فقط. و سأضيف هنا تفسير الأرقام التي دوّنتها على الخارطة: ۱) منزل الباشا، ۲) باب الشريف، ۳) باب الحديد، ۴) باب مكة، ۵) مراقب قرب الدرب المؤدي إلى مكة، ۶) سهل، يجمع منه الملح الذي تركته المياه بعد تبخرها، ۷) مدافن المسيحيين، ۸) برج، تهدم كليا، و فيه مدافع، ۹) مرفأ السفن الحربية، و لم أسمع بسفن حربية يملكها الباشا في الخليج العربي، ۱۰) منزلنا، و بالتالي المكان الذي أجريت فيه الدراسات الفلكية، ۱۱) الجمارك، ۱۲) منزل الكخيا، ۱۳) أمنا حوّا أو ضريح حوّاء، ۱۴) تلال عالية مغطاة بالأصداف و أحجار المرجان، ۱۵) مرسى السفن القادمة من السويس و الهند.

إننا لا نجد إلّا القليل من المياه في الخليج الصغير الذي يسمى مرفأ السفن، و بما أني غالبا ما ترددت إلى هذا المكان، لمراقبة المدّ و الجزر، تسنّى لي أن أرى كيف يصطاد العرب البط. حين تظهر إحدى هذه

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۳۶

الطيور في المياه، يتعرى الواحد منهم و يغطي رأسه بالطحالب، و يغطس تحت المياه حتى يقترب من البطة التي لا تفزع من الطحالب، ثم يمسك بها من قائمتيها و يأخذها .

يروى في تاريخ ملوك مصر، الذي كتبه ماراي(Marai) و ترجمه ريسك(Reiske) ، أنّ في العام ۹۲۰ للهجرة (۱۵۱۴)، أمر السلطان الغوري(Sult n el Guri) بتحصين مدينة جدة، خوفا من البرتغاليين الذين تعاظمت قوتهم حتى أنهم أرسلوا سفنا حربية إلى الخليج العربي. و لا تزال هذه المدينة محاطة بسور من جهة اليابسة، لكنه متداع في أكثر من مكان حتى أن المرء يمكن أن يتخطاه ليدخل المدينة أو ليخرج منها. و لا يعتبر المرفأ أكثر حصانة، لأن البطارية مخربة كليا، و لا تضمّ سوى مدفع وحيد قديم لا يستخدم، أما المدافع القليلة الموضوعة أمام منزل الباشا، في الجهة الأخرى للمدينة و قرب المرفأ، فلا تستخدم إلا لرد تحية السفن. و قصر الباشا غير منظم شأنه في ذلك شأن مساكن الأسياد في مقاطعات السلطنة الأخرى، إذ لا يبقى الواحد منهم في الحكم نفسه طويلا، فلا يهتمون ببناء قصر عظيم لخلفائهم.

و نجد في المدينة- و لا سيّما من جهة البحر- العديد من المنازل الجميلة و فنادق كبيرة و محال مبنية من حجر المرجان، و هي أحجار سهلة الاستعمال، يزيد الهواء من بياضها، مما يضفي لمسة جميلة على المنظر العام. و لا يشرب السكان سوى المياه التي يجمعها العرب في خزانات كبيرة بين الجبال، و ينقلونها تباعا إلى المدينة على ظهور الجمال.

و تزدهر في جدة التجارة، لكن هذه المدينة لا تتعدى كونها مخزنا للبضائع الأجنبية، إذ تصل إليها مرة في السنة السفن المحمّلة من السويس و الهند فضلا عن القوافل الكبيرة التي تقوم برحلة واحدة في السنة من مصر و سوريا إلى مكة و جدة، و تحمل معها كميات من البضائع الثمينة. و لم أسمع في المدينة ببضائع محلية تصدّر إلى الخارج باستثناء لوز الطائف، الذي ينقل منه الإنكليز وحدهم إلى

الهند حوالى ۶۰۰ بالة، و يبلغ وزن الواحدة ۸۰۰ ليبرة. و يصدّر التجّار أيضا بلسم مكة، و المسك و الزباد، لكن البلسم ينتج فى ضواحى المدينة، و يأتى المسك و الزباد على الأرجح من الحبشة. و تشترى جدة و مدينتا مكة و المدينة المقدستان الكثير من الحنطة، و الأرز، و العدس، و السكر، و شراب السكر، و العسل و الزيت و غيرها من مصر، حتى أن سكان مكة اعتادوا القول إنه إن بادت البلاد المجاورة، باستثناء مصر، لن تصاب شبه الجزيرة العربية بخسارة كبيرة، و إن العالم كله، من دون مصر، لن ينفعها. و تزوّد القاهرة جدة بالكثير من الصبغة الصفراء أو الزعفران المزيف (من زهرة تستخدم للصباغ باللون الأحمر)، و بالشباك العريضة، و خيوط الذهب و الفضة، و ملح النشادر، و البارود، و تبغ سوريا الخ. أما بالنسبة إلى البضائع الأوروبية،

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ۱، ص: ۲۳۷

التى تصدّر جزئيا، فتزوّدها مصر بالجوخ الفرنسى، و بالورق، و بالقصدير، و بالرصاص، و بالحديد، و بصفائح الفولاذ، و بالزئبق، و بالإبر، و بالسيوف، و بالسكاكين، و بالزجاجيات الملوّنة و الأساور التى تستخدمها النساء من عامة الشعب للزينة. و ينتقل سنويا من جدة إلى اليمن و الهند عدد كبير من دوقيات البندقية، و النقود الألمانية. كما تموّن جدة القاهرة بمنتجات اليمن من بن و أوراق حنة فقط، فيما تموّنها الهند بالشباك الناعمة و الأقمشة الثمينة، و الأحجار الكريمة، و اللؤلؤ، و العطور المختلفة، و البهارات و غيرها من البضائع القيّمة. و ينبغى دفع الرسوم لجدة على هذه البضائع إن جاءت من مصر، أو اليمن أو الهند، و تبلغ هذه الرسوم عشرة بالمئة من قيمتها التى تقوم الجمارك بتحديدها فيضطر التجّار أحيانا إلى دفع ۱۲ إلى ۱۵ بالمئة. و يتمتع الإنكليز- و هم الوحيدون بين الأمم الأوروبية الذين يقصدون جدة اليوم- بالأفضلية على التجار الهنود المسلمين، و على رعايا السلطان، فلا يدفعون سوى ۸٪ من قيمة البضاعة، و لا يدفعونها نقدا بل يستعيضون عن المال بتقديم البضائع. أما بالنسبة لتلك التى تباع بالوزن، كالسكر، و البهارات، إلخ فيضطرون إلى دفع ۸٪ نقدا استنادا إلى القيمة التى تحددها الجمارك.

و يعتقد مايه(Maillet) أن قيام تجارة فى الهند، تمرّ عبر مصر و الخليج العربى تفيد الفرنسيين، لكن إن اضطروا إلى دفع الرسوم، يخشى ألا يربحوا الكثير من المال، و لا نضمن أن يسمح لهم بعبور مرفأ جدّة.

و منذ سنوات قليلة، لم يتمكن مركب من السراة(Sur t) ، دفعته الرياح الجنوبية بقوة نحو الشمال، من الوصول إلى هذا المرفأ، فتوجه إلى السويس و منها عاد إلى الهند. و فى السنة التالية، أرغم التجار على دفع الرسوم عن هذه الشحنة، و زجّ القبطان، و هو مسلم من الهند، فى السجن حتى دفعت كفالته. و لم يمنح أحد الأوروبيين على الأرجح إذنا بالتوجه من جدة إلى السويس، و سمعت أن تجارا من جدة عرضوا حمولة ما على قبطان إنكليزى- و لا أشكّ أن التجار المسلمين يفضلون استخدام السفن الأوروبية- لكن حاول ربابنة القاهرة، و هم من كبار التجار، وضع العراقيل فى طريقهم كى لا يفقدوا أرباحهم، و يمكنهم و بسهولة أن يسببوا مشاكل عدة للربابنة الأوروبيين الذين يقصدون السويس. و قد أمضى تاجر إنكليزى سنوات عدة فى هذا العمل، لكن هذه الأمة تستفيد أكثر حاليا من عودة رعاياها و سفنها سنويا.

و يتقاسم باشا المدينة و شريف مكة مردود جمارك جدة، لهذا، يبقى كخيا الباشا و مندوب الشريف، الذى يحمل لقب وزير، يوميا فى الجمارك عند وصول السفن و قبيل رحيلها. و لا يبدو أن كخيا جدة خاضع للباشا فقط، كما هو الحال فى المقاطعات التركية الأخرى، إذ يبقى فى منصبه لسنوات عدة فى حين يتمّ تغيير الباشا تقريبا سنويا، علما أن الباشا، حين كنا فى جدة، أرسل موظفا آخر إلى الجمارك لأن الكخيا رفض تفتيش البضائع بالصرامة التى يطلبها، لكنه استمر فى تأدية المهام الأخرى المسندة إليه.

و يخضع رعايا الشريف، المقيمين فى جدة، لسلطة الوزير الذى ينبغى أن يكون من إحدى العائلات التى يحقّ لها المطالبة بمهام السيادة فى مكة أو بلقب الشريف. و إن استدعى الشريف، أى المولود فى إحدى عائلات الحجاز الأولى النبيلة، للمثول أمام القضاء، يرفض المثول أمام قاض أدنى منه من حيث المستوى الاجتماعى.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ۱، ص: ۲۳۸

و تفتقر الحكومة دوما للمال أو على الأصح، بما أن المسلمين لا يحسنون استخدام الأموال العامة، لا يبقى منها إلا القليل لمصاريف الدولة، و غالبا ما يضطر تجار الهند و مصر إلى دفع مبالغ مالية معينة سلفا لجمارك جدة. على أن تحتسب لهم فى رحلتهم القادمة. و طلب الأمر نفسه من الإنكليز الذين يترددون على هذا المرفأ، لكنهم رفضوا حتى اليوم دفع المال سلفا للجمارك أو لغيرها، و قد أوردت مثلا على ذلك فى وصفى لشبه الجزيرة العربية.

و لقد كنت قد أشرت سابقا إلى أن المركب الذى غادرنا السويس على متنه كان يعجّ بالتجّار الذين يدّعون أنهم انكشاريون. إن تجار القاهرة و المدن التركية الأخرى يلتحقون بالجيش كانكشاريين، للتأكد من أن الحكومة لن تستولى على بضائعهم أو لن تعاقبهم بطريقة ما، لأن من يلتحق كانكشارى و إن كان لا يقبض أجرا و لا يخدم فى مكان ما، و إنما يمارس مهنة مدنية، يتمتع بامتيازات عدة مرتبطة بهذا الفوج. و لا يخضع للمحكمة المدنية إنما للفوج الذى ينحيه أو يعاقبه. يقال إن الانكشارى الذى يسافر فى البلاد الخاضعة للسلطان، لا يدفع رسما جمركيا على صندوق وقفتين و هذا ما يعود بالفائدة عليه كتاجر، و قد عرفت تجارا، و ربابنة و بحارة من الانكشاريين و يرتدون الزىّ الخاص بهم، لكنهم لا يتمتعون بالميزات نفسها التى يتمتع بها رعايا السلطان، و التحقوا على الأرجح بهذا الفوج ليكتسبوا مكانة بين الأتراك فى جدة و البصرة، و ليحصلوا على مساعدة رفاقهم عند الحاجة. و حين كنا فى جدة، حاول التجار الانكشاريون عصيان الكخيا و الوزير علنا، لأنهما، برأيهم، يأمران بتفتيش متاعهم تفتيشا دقيقا، مما دفع الباشا إلى إرسال عدد كبير من الجند لمرافقة الكخيا إلى الجمارك يوميا، كما حضر الوزير و معه عدد من جند الشريف، فاضطر الانكشاريون إلى الانصياع حتى انتهاء عملية تفتيش أغراضهم. و بعد رحيلنا بمدة قصيرة، اجتمع الانكشاريون مجددا، و تسلحوا، لكن ما إن علم الباشا بالأمر حتى أمر بتصويب المدافع نحو المنزل الذى يجتمع فيه زعماء هذه الحركة، فتفرق الجميع من دون القيام بأية محاولة أخرى.

و لا تسكّ أية عملة فى الحجاز، و تستعمل فى البلاد النقود المستخدمة فى القسطنطينية أو فى القاهرة خصوصا، كالقطع النقدية الذهبية التى تأتى من البندقية، و تتداول فى القاهرة و القسطنطينية أو الدرهم، و نصف الدرهم، و ربع الدرهم الألمانى، أو البريزة فى القاهرة و القسطنطينية و التى تسمّى فدّا(Fadda) .

لكن يتمّ العدّ فى جدة بعملة وهمية و هى القرش و الديوانى(Diw ni) : فيساوى الدرهم ۹۲ بريزا فى جدة فى حين يساوى ۸۵ فى القاهرة، و تعادل أربع برايز من القاهرة ۵ ديوانيات. كما يعادل ۴۰ ديوانى قرشا فى جدة، و بالتالى يساوى الدرهم الواحد قرشين و ۳۵ ديوانى. و يعادل الديوانى ۲۰ جديدا، و هى قطع صغيرة من النحاس لا تحمل أية كتابات أو أية علامة. و يقدّر التجار الإنكليز أن ۲۵۰ قرشا من جدة تعادل ۱۰۰ درهم أسبانى.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ۱، ص: ۲۴۰

و قد يبدو غريبا للقارىء، أن يعادل الدرهم ۸۵ بريزة فى القاهرة و ۹۲ فى جدة، فى حين أن العملة الصغيرة فى البلاد الأخرى تندر فى المدن البعيدة أكثر من المكان الذى تسك فيه. و يعود الأمر برأيى إلى أعداد الحجاج الكبيرة التى تتوجه إلى مكة، محمّلة بالكمية الكبيرة من القطع النقدية الصغيرة لحاجاتها اليومية و للتصدق بها. و الصدقة فرض رئيسى فى الديانة الإسلامية، و يمارسه المؤمنون و لا سيّما حين يتوجهون إلى مكة. و تنتقل القطع النقدية الكبيرة بمعظمها إلى اليمن و الهند، و بما أن إعادة القطع الصغيرة إلى مصر أمر عسير تصبح أقل قيمة فى الحجاز منها فى الأقاليم التركية الأخرى. و لا أظن أن تذويب هذه القطع النقدية الصغيرة أمر يعود بالفائدة، لأن قيمة النقد الأصلية فى الشرق كما فى أوروبا أدنى من سعره العادى.

و بما أننا نحب فى أوروبا رؤية لباس الأمم الغريبة، أدرجت بعض الرسومات التى رسمها السيد بورنفانت فى جدة. و تصوّر اللوحة(LVI) صيّادا يحمل الأسماك التى اصطادها إلى السوق. و لا يرتدى بدو هذه البلاد سوى الإحرام و زنّارا. أما هذا الصياد و عامة الشعب فى جدة فلا يلبسون الإحرام بل يكتفون بقميص (جلباب) واسعة و زنّار حول الخصر يدسون فيه سكينا صغيرا يقطعون به أعناق الأسماك ما إن يصطادونها. و يتبع الأعيان فى جدة طريقة الأتراك فى القاهرة و فى القسطنطينية فى اللباس، باستثناء القماش فهو أرق لأنهم يعيشون فى مناخ حار. تحمل اللوحة(LVII) صورة امرأة تبيع الخبز، و ترتدى الثياب نفسها كنساء العامة فى مصر أى قميص واسعة من دون زنار (جلباب)، و تضع على رأسها حجابا، و أمام وجهها خمارا صغيرا. و تحمل فى يدها قطعة من أوراق النخيل المشبوكة لإبعاد الذباب، و تجلس على حصيرة من القش عرضت عليها خبزها، أما المظلة الكبيرة التى تقيها من الشمس فمبطنة بحصيرة.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ۱، ص: ۲۴۱

الرحلة من جدة إلى مخيّة

و طلب منا التوجه في أسرع وقت ممكن إلى مملكة اليمن، و ألّا نتوقف إلّا في حالة الضرورة، و لم تبقنا في جدة سوى الرياح الشمالية التي منعت مراكب اليمن المحملة بالبن من أن تسير نحو عالية الخليج العربي، و هي الطريقة الوحيدة لمغادرة جدة. و في بداية شهر كانون الأول/ ديسمبر، وصلت بعض هذه السفن، و كان بينها سفينة قادمة من عمان، فنصحنا الأصدقاء بالسفر على متنها، و يطلق عليها اسم طزاد(Tar d) . فسارعنا لرؤيتها، و نحن نتوقع أن نجدها كبيرة و مريحة، ففوجئنا حين أشاروا إلى مركب أشبه بعربة مكشوفة منه بسفينة، إذ لا يتعدى طوله سبع قامات و عرضه قامتين و نصف القامة، و يفتقر إلى سطح، كما لم أر فيه أي مسمار، بل أخشاب رقيقة و كأنها مخيطة ببعضها، و قد نزعت صواريه و وضع أرضا لإصلاح هيكله. و كان الريّس يرتدي زي عامة الشعب من العرب، أي إنه شبه عار، تحيط برد فيه قطعة قماش، يعلوها حزام، يتدلى منه خنجر معكوف (راجعوا الصورة ١٠ على اللوحة(XVI) في وصف شبه الجزيرة العربية). أما البحارة فمن العبيد، استقدم قسم منهم من أفريقيا و يتميز بشفاهه الغليظة و أنفه الأفطس، و القسم الآخر من شواطىء مالبار، حيث يشبه السود الأوروبيين تقريبا، أما بشرتهم فليست سوداء و لماعة كبشرة الأفريقيين. كانوا يعتمرون قلنسوة صغيرة أو عمامة، و يحملون حبلا حول خصرهم، و يضعون قطعة من القماش بعرض اليد بين افخاذهم لستر عوراتهم. و لم يشأ أي منّا تسليم أمره لهؤلاء البحارة و لمركبهم، لكن كافة أصدقائنا نصحونا بالسفر مع هذا الريّس لا مع ريّس من اليمن، لأن أشرعة سفينته ستكون من الحصر، و يعرف عنهم أنهم بحارة غير ماهرين، بينما الربابنة من مسقط و مرافىء عمان الأخرى يستخدمون أشرعة كأشرعة الأوروبيين و الأتراك و الهنود، و هم بحارة ماهرون.

و تأكدنا من أن إنكليزا من الهند سيصلون إلى المخا، و ارتأينا أننا بحاجة لعونهم لدخول البلاد، فقررنا التوجه إليها مباشرة من جدة. و كنا لا نعرف لحية و الحديدة و هما المرفآن الخاضعان لسيطرة الإمام، و جلّ ما كنا نعرفه أنه علينا اجتياز مسافة كبيرة برا للوصول إلى المخا، و هي مسافة أقلقتنا لأن رأينا بعرب اليمن لم يكن أفضل من رأينا ببدو مصر و الحجاز. و علمنا أن الريس سيتوجه إلى الحديدة لتحميل كمية من البن لمسقط، و أكدوا لنا أن اجتياز القسم الجنوبي للخليج العربي، في هذا الموسم، يتطلب وقتا طويلا بسبب الرياح المعاكسة. و نصحنا أصدقاؤنا بالنزول في لحية، مضيفين أن الطرقات آمنة في دول الإمام لذا يمكننا الوصول في وقت قصير إلى المخا برا. و بالتالي، اتفقنا مع الريّس على إيصالنا حتى الحديدة، و زوّدنا كل

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ۱، ص: ۲۴۳

من الكخيا برسائل توصية لأصحاب الدولة في لحية و الحديدة، و التجار لتجار آخرين في المدينتين المذكورتين، لأنهم يعرفون أن الريس سيتوقف في لحية لأعماله الخاصة و إن لم نقرر نحن النزول من المركب في هذه المدينة. و أمر الباشا بتركنا أمتعتنا تمرّ من دون تفتيش، و هكذا صعدنا على متن السفينة في ١٣ كانون الأول/ ديسمبر.

و بالرغم من أننا استأجرنا المركب بأكمله، وجدناه محمّلا بالبضائع، و اعتذر الريّس معللا بأن مركبه الخفيف لو حمّل أمتعتنا فقط لما تمكن من الإبحار. و كانت أسرّتنا، و هي عبارة عن قاعدة مربعة و مستطيلة، محشوة بحبال من قش، و قد علّقت فوق الصناديق و الرزم، فكانت لنا مجلسا خلال النهار، و مكانا للنوم في العراء عند ما يحلّ الليل. و لا ينبغي أن يفكر المرء بالتنزه على هذا المركب، فهو ملىء بالبضائع، باستثناء زاوية صغيرة في مقدمة السفينة خصصت لطهو طعامنا و لتحضير خبز العرب. و منذ الليلة الأولى، فقد طيبنا ساعته بين الألواح الخشبية، و الحصر التي مدّت مسبقا على هيكل المركب كي لا تبلل البضائع إذا ما بلغت المياه المركب، و فقدنا الأمل برؤيتها، قبل إنزال البضائع كلها، و هذا ما لن يحصل في وقت قريب. و ظنّ السيد كرامر أن ساعته فقدت، لأن المياه التي تتسرب عبر الألواح الخشبية ستعطلها، إنما حين نزل في لحية وجدها بحالة جيدة. إذا، لا بد أن هذه المراكب لا تسرب المياه بعكس ما يبدو للأوروبي للوهلة الأولى.

و لم نر إلّا القليل من القرى و المدن بين السويس و جدة، و بين هذه المدينة و اليمن. لكن بما أن البعض قد يهتم بمعرفة أسماء الأماكن غير المسكونة في هذه البلاد و المجهولة في أوروبا، سأستمر في إعطاء أسماء الجزر و المراسي التي نراها خلال رحلتنا كما تقال لي. و لا تضاهي المرافىء على هذه الطريق، المرافىء الممتدة بين السويس و جدة، لأن كلمة مرسى تطلق على كافة الأماكن التي يمكن لمركبنا الصغير أن يرسو فيها. و كان الريس غريبا عن هذه الناحية، لكن القبطان و هو من الحديدة يعرفها خير معرفة و هو الذي زودني بأسماء الأماكن التي سترد لاحقا، و كان مهذبا للغاية معي، فلا أظنه أعطاني أسماء خطأ لغاية في نفسه.

و في ١۴ كانون الأول/ ديسمبر من العام ١٧۶٢، أبحرنا و الرياح مواتية، و في اليوم نفسه رأينا أبي سعد، و هي أكبر الجزر الأربع قرب جدة، ثم رأس العلم، و جبل الهداء(Dsj bbel Hadda) و رأس أسود(R s Aswad) . و نجد قبالة هذا الرأس الأخير، و على الشاطىء الغربي للخليج العربي، رأسا يدعى رأس عبود(R s Abچd) . و إلى الجنوب، دلّتني القبطان على مرفأين صغيرين على شاطىء شبه الجزيرة و هما سروم(Sarچm) ، و ملك سروم(Malek Sarچm) أو صعدة(S ade) . و عند المساء، رسونا قرب غيدان(Ghed n) ، و يقع هذا المرسى في الجنوب، على بعد حوالى ١٠ أميال من جدة، إذ تقدر المسافة بين هذين المكانين بيومين سفر برا. و لم نر أرصفة مرجان بالرغم من أننا كنا على بعد ميل و نصف من الشاطىء، لكن يدّعون أن هذه الأرصفة تكثر في الغرب، و أن أخطرها هو المسمى مسمارى حيث اعتاد قادة السفن الأوروبية المتجهة إلى جدة اتخاذ قبطان لاجتيازه.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ۱، ص: ۲۴۴

في ١۵ كانون الأول/ ديسمبر، و قبيل بزوغ الشمس، انطلقنا مجددا، و رأينا في الصباح، على شاطىء شبه الجزيرة العربية، جبلا شاهقا، يحمل اسم عمر كبير(Amer Kbir) . و عند الظهر، وصلنا خط عرض ۴٢٠، ۴٢٨، و كان رأس محرم إلى الجنوب الشرقي، على بعد ۵ / ۴ الميل، و نستنتج بالتالي أنه يقع على خط عرض ۴٢٠ ، ۴٢۵. و عند المساء، اجتزنا مرافىء مرشد(March d) و أشرا(Oschera) أو كشر(Kuschera) ، لنرسو قرب سمّار(Sum r) و يقع جبل حادم(Haddem) على مقربة منها. و يمتد الشاطىء من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، و في ذاك اليوم، رأينا بعض الأسماك الطائرة التي يطلق عليها العرب اسم جراد البحر، لكنها لا تكاد ترتفع عن الماء حتى لتعود و تغطس فيها.

في ١۶ كانون الأول/ ديسمبر، هبّت رياح جنوبية، و عند الظهر، كنا على خط عرض ۴٢٠، ۴۴، و كانت جزيرة عبلة(Abell t) إلى الجنوب، على بعد ميل و ربع منا، أيّ إنها تقع على خط عرض ۴١٩، ۴۵٩. و كان مرسى إبراهيم إلى الشمال الشرقي، على بعد ميل و نصف أي على خط عرض ۴٢٠، ۴٨.

و بعد العشاء، مررنا أمام قارسي(Karsi) ، ثم رسونا قرب رقة(Rakka) في مياه بلغ عمقها ٣ أذرع.

و لا حظت يومها أن الشاطىء يمتد نحو الجنوب الشرقي.

في ١٧ كانون الأول/ ديسمبر ظهرا، أصبحنا على ارتفاع ۴١٩، ۵٠؟، و كان بندر جلاجي(Bender Dsjeladsjie) إلى الشمال الشرقي، و رأس العسكر إلى الشرق. و نجد من هنا و حتى القنفذة(nfudeچGh) و جزيرة السبايا(Sabaia) ، العديد من الجزر الصغيرة البعيدة عن الشاطىء. و يشكّل المرور، في بعض الأماكن، بين هذه الجزر، خطرا نظرا لكثرة أرصفة المرجان المحيطة بها. و يمتد شاطىء شبه الجزيرة العربية في هذا المحيط نحو الجنوب و الجنوب الغربي، و اشتدّ الهواء بعد العشاء، فاضطررنا للرسو قرب جزيرة صغيرة لم أعرف اسمها.

و أبحرنا مجددا في ١٨ كانون الأول/ ديسمبر صباحا، و بعد ساعات قليلة رأينا إلى الغرب منا، و على جزيرة سرين(Serene) جبلا شاهقا، و تعتبر هذه الجزيرة من أكبر الجزر من محيط رأس العسكر، و فيها مرسى جيد، و جاء كتاب الجغرافيا، الطقس ٢، ص ۵٠، على ذكر حصن، يسمى سرين، في هذا المحيط، على بعد ۵ أيام من حالي، و لعله على هذه الجزيرة أو قبالتها على اليابسة. و عند الظهر، كنا على خط عرض ۴١٩، ۴٣۴، و كانت جزيرة الظهر(Add hhr) إلى الجنوب منا، و جزيرة الغراب إلى الشمال الشرقي، و رأس كفيل(R s Kefil) إلى الغرب، فيما بندر دجي(Bender Dodsja) إلى الشرق. و يمتد الشاطىء في هذه الناحية إلى الجنوب و الجنوب الشرقي. و بعد الظهر، رسونا قرب جزيرة الغراب الصغيرة حيث وجدنا الكثير من حطب التدفئة.

و في ١٩ كانون الأول/ ديسمبر، عاكستنا الرياح للغاية، فاضطررنا إلى الرسو و لم تكن الساعة قد تعدّت العاشرة. ثم أبحرنا مجددا قبل الظهر بقليل، و تمكنت من تحديد ارتفاع القطب ۴١٩، ۴٢١،

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ۱، ص: ۲۴۵

بصعوبة، لكن الرياح كانت عاصفة، و حركة مركبنا الصغير قوية. و كانت جزيرة فراء(Far) على بعد ٣/ ۴ الميل منا إلى الجنوب الغربي، أي إنها تقع على خط عرض ۴١٩، ۴١٩. و عند الساعة الواحدة و النصف من بعد الظهر، اضطررنا إلى إنزال المرساة قرب جزيرة صغيرة بسبب الرياح المعاكسة، و هذا دليل على أن مركبنا أفضل من مراكب اليمن التي لا يمكنها أن تغادر المرفأ إذا ما هبت

رياح خفيفة معاكسة بسبب أشرعتها المصنوعة من الحصر. و رأينا خلال هذه الرحلة العديد من المراكب الصغيرة المحمّلة بالبن و القادمة من اليمن إلى جدة، و لم تكن هذه المراكب تتنقل في قوافل إنما منفردة، مما يدل على أن العرب لا يخافون من غيرهم من العرب مثل الأتراك.

و أبحرنا في ۲۰ كانون الأول/ ديسمبر نحو الجنوب خلال ساعتين و نصف، ثم لساعة و نصف نحو الشرق، و وصلنا مرسى سيئا يسمى ساروم الخشم(Sarچm el K chme) و يقع على خط عرض ۱۹؟، ۱۳؟. و أمر الريّس بجلب المياه التي وجدناها غير صالحة للشرب. و نرى من هذا المكان مدينة القنفذة(Ghچnfude) الواقعة في الجنوب الشرقي. لكن تكثر أرصفة المرجان على شواطىء هذه الناحية، فاضطررنا إلى التوجه نحو الجنوب و إلى الدوران حول جزيرة صغيرة لدخول المرفأ بمركبنا الصغير، بعد أن أبحرنا في ۲۱ من الشهر نفسه قبل بزوغ الشمس. رسونا بين الجزيرة المذكورة و المدينة على ارتفاع ۱۹؟، ۹۷.

و القنفذة مدينة كبيرة، لكنها سيئة البناء، فمعظم المنازل لا تتعدّى كونها أكواخا في لغة الأوروبيين، و تتميز المدينة بمياهها العذبة و بمؤنها الأخرى. و تضطر السفن الآتية من اليمن، و المحملة بالبن، إلى دفع رسوم تبلغ قيمتها، إن لم أكن مخطئا، بالة واحدة لكل حمولة، و تحصل بالمقابل على إيصال. و في طريق العودة، يسمح لها بالمرور، لكن إذا ما رست، تلزم بدفع ريالين نقدا، أو هذا على الأقل ما طلبه منا الريّس، بحجة أنه سيضطر لدفع هذا المبلغ إذا ما دخل المرفأ. و يخضع حاكم القنفذة لشريف مكة وجدة، و ليس لسلطان القسطنطينية أية سلطة عليه. و يقيم في هذه الجزيرة الصغيرة التي ذكرتها، لكنه ينزل إلى المدينة يوميا ليتواجد في الجمارك.

البحر، و بعض المدافع على الجزيرة، قرب برج صغير يسمى حصن.

في ۲۲ كانون الأول/ ديسمبر، أبحرنا قبيل طلوع الشمس، و شاهدت على بعد ميلين، إلى الجنوب من القنفذة، جزيرتين صغيرتين يطلق عليهما اسم فدعة و جيس(Fad ha((Dsjabis(. و عند الظهر، كنا على خط عرض ۱۸؟، ۵۴؟، و كان رصيف المرجان الكبير المسمى ليندە(Lind h) أو أندە(And h) على بعد ميل إلى الجنوب الشرقي، فيقع بالتالي على خط العرض ۱۸؟، ۵۰؟، و بعد الظهر، رأينا رصيفا مرجانيا آخر. و مررنا أمام مرسى يسمى أبي كلب(Abu K lb) ، ثم رسونا على مقربة منه، قرب رأس حالي(R s H li) . و أمضيت الليل في قياس ارتفاع بعض النجوم، لكن الظلمة، و الأفق الضبابي لم

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ۱، ص: ۲۴۶

يمكنني من قياس إلّا ارتفاع المشتري، و لم أستطع بالدقة اللازمة. لكن هذه الدراسة، سمحت لي بتحديد موقع رأس حالي على خط العرض ۱۸؟، ۳۶؟. و عند المغيب، رأينا جبل صبيا(Sabia) ، على الجزيرة التي تحمل الاسم نفسه، و ذلك إلى الغرب، و على مسافة بعيدة من اليابسة، على مقربة من رأس حالي، على حدود الحجاز كما كانت في أيام أبي الفدا. و تعتبر الإمارات الصغيرة، الواقعة إلى الجنوب من حالي، جزءا من مملكة اليمن.

و في ۲۳ صباحا، و في الساعة المعتادة، أبحرنا لكن الرياح عاكستنا. و عند الظهر، كنّا على خط عرض ۱۸؟، ۲۰؟، و كان رأس يشوف(Yachasچf) على بعد حوالي ميل إلى الجنوب و الجنوبي الشرقي، و بالتالي على خط عرض ۱۸؟، ۳۱؟. و يمتد الشاطىء تقريبا من الشمال إلى الجنوب، و مررنا في ذاك اليوم فوق رصيف مرجاني، في مياه بلغ عمقها ثلاثة أذرع. و نجد إلى الغرب، بحسب ما قال لنا القبطان، جزيرة كبيرة تحمل اسم ميركت(Meerket) ، و عند المساء، رسونا على خط عرض ۱۸؟، ۲۰؟، قرب فجّ الثعالب(Fedsj el Sj lbe) ، على مسافة بعيدة من اليابسة. و تتميز أرصفة المرجان في هذا المحيط بحجمها الكبير و ارتفاعها مما اضطرنا إلى استخدام مراكب الإنقاذ الصغيرة، و القيام بمحاولات عدة للنزول إلى الشاطىء، و حين تمكّنا من ذلك أخيرا، مررنا في مياه عميقة للغاية مرات عدة بغية الوصول إلى بعض خيام العرب.

و يخضع العرب، الذين يقيمون بين حالي و عطود(Attue ?d) - و هي حدود شريف أبي عريش- لشيوخهم المستقلين، و يتبعون ديانة أخرى غير الإسلام. (راجعوا وصف شبه الجزيرة العربية) و يدّعي البعض أنهم يحبون لباس المسافرين كثيرا، لأنهم يجدونه أفضل مما يلبسونه، و يقال عنهم إنهم لا يقتلون امرأ لا يقاومهم، شأنهم في ذلك شأن البدو كافة. و ارتديت و السيد فورسكال أبسط ثيابنا أي إننا لبسنا قميصا واسعا كالذي يلبسه العرب، و سروالا، فيما غطى أفراد طاقم المركب، الذين لم يعتادوا هذا اللباس، أردافهم و رؤوسهم بأقبح القماش، و نزلنا إلى اليابسة، عزّلا كي لا يظنونا من الأعداء. و يصل شعرهم إلى أكتافهم، و هذا ما لم نسمع به من قبل، و يضعون حبلا حول رؤوسهم بدلا من العمامة، و يعتمر بعض منهم نوعا من القلنسوة مصنوعة من أوراق النخيل الخضراء المتشابكة، و لا يرتدون سوى قطعة قماش يلفونها على أردافهم، كما يحمل كل منهم رمحا في يده. و بعد السلام، أخذ اثنان من البحارة رماح العرب، و كأنهما يريان شيئا فريدا، و أراد ريّسنا الحصول على رمح الأكبر سنا، فاستنتج العربي أننا نرتاب به، فسلّم رمحه للريّس، مؤكدا لنا أننا في مأمن بينهم، و رموا جميعا رماحهم أرضا لتأكيد ذلك. و بما أننا رسونا بهدف شراء المؤن، رافقنا العرب إلى خيامهم القريبة، و حين دنونا منها، لاقتنا امرأتان، و قبلتا يد الشيخ باحترام بالغ، فردّ بتقبيل رأسيهما. و لم يكن وجههما مغطى، و قد رسمتا عينيهما و رموشهما بالكحل، المصنوع من الرصاص، و زيّنتا جبينهما، و خدودهما، و ذقنيهما بنقوش سوداء.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ۱، ص: ۲۴۸

و طلبت هاتان الحسناوتان منا الكحل و الحنة لزيادة محاسنهما، و تأسفنا لأننا لم نفكر بحمل هدايا كهذه من جدة للجنس العربي الجميل. و يبدو أن هؤلاء العرب متحضّرون نوعا ما، بالرغم من أنهم يتسكعون في الصحراء، و لا يتعاملون مع سكان المدن. فقدموا لنا الحليب الذي يحفظونه في جلد الماعز، و الزبدة التي تصنّع في جلود الماعز، و الخبز السيىء بالرغم من أنه أفضل ما يخبزون. و اشترينا بعض المؤن، لكن العرب اضطروا إلى الصعود على متن المركب لقبض المال و قد وافقوا على ذلك دون صعوبة تذكر.

في ۲۴ صباحا، أبحرنا و الرياح شمالية شرقية، و مررنا قرب مرفأ صغير يسمى نهود(Nhچd) . و عند الظهر، كنا على خط عرض ۱۸؟، ۴؟، و كانت ظبان(Dhab n) إلى الشرق، و الوسّوم إلى الجنوب الشرقي، لكنهما بعيدتان، و يمتد شاطىء شبه الجزيرة العربية تقريبا نحو الجنوب و الجنوب الشرقي. و عند المغيب، رسونا بين كرمبل(Kolچmbel) و اليابسة، و كرمبل جبل صغير في البحر كان فيما مضى بركانا، على ما يدعي العرب، و مما جعل هذه الجزيرة الصغيرة مميزة هو أننا اضطررنا لإعطاء القبطان بعض المال.

و لم أتمكن من تحديد ارتفاع القطب إلا بتحديد ارتفاع المشتري، و بالتالي كنا على خط عرض ۴۱۷، ۵۵۷، قرب كرمبل. و قيل لنا إنه لا يوجد جزر أخرى بين هذه الجزيرة و جزيرة فران(Fir n) إنما العديد من أرصفة المرجان.

و في ۲۵ ظهرا، كنا على خط عرض ۴۱۷، ۳۹، و كان جبل عطود و المرسى الذي يحمل الاسم نفسه إلى الجنوب الشرقي، استنادا إلى أقوال قبطاننا، لكن على مسافة بعيدة، و عند المساء، رسونا على مسافة كبيرة من اليابسة، إلى الغرب و الجنوب الغربي من جبل عطود(Attuie) أو عطود أي على الحدود الشمالية لإمارة أبي عريش. و منذ غادرنا جدة، لم نر سوى جزء صغير من هذه السلسلة الجبلية التي تقطع شبه الجزيرة العربية بالطول، و في هذا اليوم لم نر منها شيئا لكثرة ما ابتعدنا عنها.

و في ۲۶، رأينا من بعيد مرسى شط البقر(Chabt el Bakkar) ، و مرسى حمرين(H merejn) . و عند الظهر، كنا على خط عرض ۴۱۷، ۴۲۲، و لم نر من حولنا جبلا أو مرسى، أو جزيرة. و عند المساء، رسونا قرب شعب الكبير(Sch b el Kabir) ، و كانت جزيرة فرسان التي يكثر فيها صيد اللؤلؤ إلى الجنوب الغربي منا. و تبين لي أن ارتفاع شعب الكبير هو ۴۱۷، ۹۱۲، استنادا إلى ارتفاع زحل الذي قسته بدقة، و لا حظت في ذاك اليوم أن الشاطىء يمتد نحو الجنوب الشرقي و الجنوب.

و في ۲۷ صباحا، مررنا أمام جزيرة الدروجي(Dsjesiret ed Dre ?dsji) ، و مرسى(Mersa) ، الطرفة(Turfa) ، و رأس جيزان(R s Dsjes n) ، و يبرز هذا الرأس الأخير كثيرا في البحر، و لا ينبغي خلطه بالجبل أو بلسان الأرض الذي تقوم عليه مدينة جيزان، و عند الظهر، أبحرنا في عرض البحر، فلم نعد نرى اليابسة مما منعني من تحديد موقع أي مكان على الارتفاع الذي كنا عليه أي على ارتفاع ۴۱۶، ۵۵۶.

و بعد الظهر، مررنا قرب جزيرتي أبي شريجة(Abu Schureija) و دراكة(Duraka) . و عند الرابعة

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ۱، ص: ۲۴۹

و النصف كنا بين جزيرتي هابور(Habo ?r) و جيزان(Dsjes n) ، لكننا لم نرس لأن شريف هذه البلاد مشهور بسوء استقباله للأجانب و لرعايا إمام اليمن، لذا لا يمكنني أن أقول سوى أنّ مدينة جيزان تقع على لسان أرض و قرب جبل متقدم في البحر. و على بعد حوالي ميل إلى الجنوب من جيزان، حددت ارتفاعنا على ۴۱۶، ۹۳۹، استنادا إلى ارتفاع زحل، و على بعد ربع ميل نحو الجنوب، أصبح ارتفاعنا ۴۱۶، ۹۴۰، استنادا إلى ارتفاع المشتري. و منعتني الظلمة من القيام بهاتين الدراستين بالدقة اللازمة، لكن إذا ما انطلقنا

من الوسط، تقع مدينة جيزان على خط عرض ۱۶؟، ۴۴؟. و أبحرنا طوال الليل، لأن الرياح كانت تدور حول الشفق، و بالتالى كانت مؤاتية لنا أكثر منها خلال النهار حيث استمرت تعاكسنا. فى ۲۸ ظهرا، كنا على خط عرض ۱۶؟، ۱۲؟، و كانت جزيرة الغراب الصغيرة على بعد ميل منا إلى الجنوب و الجنوب الشرقى أى على ارتفاع ۱۶؟، ۹۸؟، أما جزيرة بيكيلام(Bikill m) فإلى الشمال الغربى. و كنا بالكاد نرى القارة، و بعد الظهر مررنا أمام جزيرة بحيس(Baheis) ، و أمام قرية صغيرة على اليابسة أعطت اسمها للجزيرة، و هى تحوى قبر أحد كبار أولياء المسلمين.

و فى ۲۹ صباحا، وصلنا مرفأ مخيّة، و رسونا على بعد ۳/ ۴ الميل من المدينة. و خلال رحلتنا من السويس إلى المخيّة، سمعنا عن كثير من الأسياد المستقلين الذين لا يهتمون بالتعامل مع الأجانب، و لهذا يصعّبون عليهم مرورهم فى بلادهم التى ظنناها رائعة لفرط ما سمعنا عن الأمان فى المناطق التابعة لإمام اليمن. و علمنا، خلال الرحلة، أن الشيخ مكرامى من نجران يخيّم مع جيشه فى منطقة أبى عريش، و بالتالى عزز الإمام حامية المخيّة، و أمر حاكم المدينة ببناء برج جديد أو حصن كما يسميه العرب، خوفا من أن يزحف الشيخ مكرامى على مدينة المخيّة. و وددنا أن نتوجه مباشرة عبر البحر إلى المخا أو على الأقل إلى الحديدة، لكن تاجرين من المخا، رافقانا من جدة، قررا متابعة الرحلة عبر البر. و كنا قد تعبنا من السفر بحرا بسبب الرياح المعاكسة، فنزلنا إلى اليابسة و توجهنا إلى منزل الحاكم، لنعرف منه إن كنا نستطيع السفر بأمان من المخيّة إلى المخا عبر البر.

و يطلق عرب اليمن لقب صاحب الدولة أو أمير على حكّام المدن. أما حاكم لحية فيدعى الأمير فرحان، و هو أفريقى، أسود البشرة. أتوا به إلى اليمن حين كان فتى ليبيعه، فاشتراه باشا يدعى الماس، و كان صاحب الدولة فى بيت الفقيه لسنوات عدة ثم أصبح أحد أبرز وزراء الإمام فى صنعاء. و بعد أن علّم الباشا فرحان، أمّن له وظائف صغيرة، لكن قدراته جعلت نجمه يلمع فى البلاط، فرقّى إلى رتبة بايلى(Bailli) أو حاكم إقليم كبير. و هو سيد مهذب، مستقيم السيرة، و صديق للأجانب، قلنا له إننا أوروبيون، و إننا نستعد للذهاب إلى المخا عبر الحديدة و من ثم إلى الهند الشرقية على متن مراكب إنكليزية، و إن كخيا جدة حمّلنا رسالة توصية موجهة إليه و إن السيد يحيى رمضان أحد أبرز التجّار فى جدة أعطانا واحدة أخرى لمحسن المكاويش(M hsen el Mak wisch) ، أبرز تاجر فى مخيّة

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۵۰

لاستخدامهما إذا ما توقف المركب لأيام فى المدينة. و كنّا نرتدى ثيابا طويلة، و قد أرخيت و السيد فورسكال لحيتا، و كان الأمير قد عاشر الكثير من الإفرنج فى مخا، لكنه لم يرحب يوما بهذا المظهر، كما لم يسمع يوما بأوروبيين يقصدون اليمن عبر الخليج العربى، و عرف النصارى ورآهم يرتدون ثيابا طويلة كما هى العادة فى الشرق. و سألنا إن كنا نصارى أم افرنج، فأجبنا أننا ندين بالنصرانية و أننا من أوروبا، لأننا نعلم أن المسلمين ينظرون إلى المسيحيين نظرة أفضل من تلك التى ينظرونها إلى من يتبع الديانات الأخرى، و لم نكن ندرى إن كانوا يعتبرون الأوروبيين و ثنيين. سلّمنا الأمير الرسالة و استقدم كاتب التاجر محسن لاستلام الرسالة لأنّ هذا الأخير مريض، و لقراءة الفقرة التى تعنينا للحاكم.

و لم يعرف الحاكم، حتى هذا اليوم، من الأوروبيين سوى التجار الذين تدفعهم تجارتهم نحو اليمن.

و بعد قراءة الرسائل، تبين له أن أحدنا طبيب، و الآخر يبحث عن النبات و الثالث يهتم بالنجوم، الخ. و أننا لا نحمل معنا أية بضائع تدفعنا إلى استعجال وصولنا إلى المخا، فطلب منا أن نبقى فى لحية لبعض الوقت، و وعدنا بنقلنا إلى المخا على إبله. و رجانا التاجر، الذى كان بأمس الحاجة لطبيب، أن نأتى لزيارته، و قدم لنا أحد منازله للإقامة فيه، و لم نكن نتوقع عروضات كهذه من العرب. لكن، لنخفى هدف رحلتنا الأساسى و أعنى رؤية أكبر عدد ممكن من المدن و السفر برا فى اليمن، تحججنا بخوفنا من أن تندلع الحرب بين الشيخ مركامى و شريف أبى عريش فتمنعنا بالتالى من السفر بأمان فى البلاد. عندها، أكد لنا الأمير، أن لا خوف علينا فى لحية، و أنه بإمكاننا السفر بكل أمان على كافة أراضى الإمام، سيده. ثم عرض لنا صعوبات السفر بحرا مع الرياح المعاكسة التى تسيطر خلال هذا الفصل فى محيط مكرم، و أضاف أن السفر برا أكثر راحة، و باختصار، فإن أفضل نصيحة يسديها لنا هى أن نغادر المركب. و سعدنا للقائنا مسلمين أكثر تحضرا كلما ابتعدنا عن مصر، لا سيّما و أن سكان هذا البلد، الذى نسعى لزيارته و إجراء دراسات فيه، عاملونا بأدب و تهذيب. و بما أن الفرصة تسنت لنا لزيارة هذه المنطقة من شبه الجزيرة العربية، من دون أن نثير الشك، بأننا نود الانتقال إلى اليابسة، لم نتردد فى ترك المركب.

و دخلنا المدينة لرؤية المنزل الذى خصّصه التاجر لإقامتنا. و لم يطلب الريّس منا أن ندفع كلفة الرحلة كاملة سلفا، كما يفعل الذين يملكون قوارب بين القاهرة و السويس، فخشى ألّا ندفع له الكلفة الكاملة حتى الحديدة، و رجا الأمير، كما قيل لنا لا حقا، ألا يدعنا نسافر أو أن يجبرنا على دفع أجره كاملا فوعده هذا الأمير بدفع المبلغ إن نحن تخلفنا عن ذلك، لكن الريّس لم يرض بالجواب، فتوجه إلى التاجر محسن الذى عرض عليه أن يضمننا. و فى الواقع، لم نكلف هذين السيدين هذا العناء، لكن بدا لى عرض هذين المسلمين كريما للغاية، فبالكاد تلاقى بعثة عربية هذه المعاملة فى أوروبا.

و ما إن قررنا نقل متاعنا إلى اليابسة، حتى أمر الأمير طاقم مركبه بجلبها، و لم يرض بأن يكلفنا أىّ شىء سوى الإكراميات المعتادة للبحارة، و كى لا نتعرض لأى إشكال مع موظفى الجمارك أو الحمّالين،

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۵۱

عمل كاتب التاجر على إرضائهم. و عند المساء، أرسل لنا الأمير نعجة للترحيب بقدومنا، مع رسالة مجاملة للغاية، راجعوا اللوحة(XIV) فى وصف شبه الجزيرة العربية، دعانا فيها ضيوفه و أكد لنا أننا نلقى الترحيب فى مرفأ اليمن هذا كما يمكننا البقاء فيه بكل أمان.

و كان مركب الأمير، الذى استخدم لنقل متاعنا، مبنيا بطريقة متينة، لكن، و وفقا لعادات البلاد، صنعت الأشرعة من الحصر التى لا يدفعها الهواء و التى يصعب التحكم بها، لذا عدنا متأخرين، و بما أن المياه تتسرب كليا تقريبا أمام المدينة عند المدّ، اضطررنا إلى التنظار أول جزر لنرسو عند الجسر. و لم نتمكن من نقل متاعنا إلى اليابسة فى تلك الليلة، فسألنا إن كانت فى مأمن قرب الشاطىء، و حين علم الأمير بقلقنا أرسل جنديا لحراسة المركب طوال الليل. و أكّدوا لنا أننا يمكن أن نسلّمه كل ما نملك، لكننا لم نكن لنثق بجندى عربى، فبقى أحد أعضاء البعثة و خادمنا على متن المركب، و تمّ نقل أسرّة الآخرين إلى اليابسة من دون أن يطالب أحد بتفتيشها. و بقيت عدّة الطبخ فى المركب، فأرسل لنا التاجر عشاء لذيذا، أعاد لنا نشاطنا، إذ لم نأكل طبقا ساخنا منذ غادرنا جدة. و لم يكن ينقصنا سوى النبيذ، و بقى لدينا القليل من الكحول السيئة التى حملناها معنا من المدينة، و استعلمنا أولا عن إمكانية الحصول على مشروبات روحية، لكنها غير متوفرة فى لحية، و لم يكن بإمكاننا استقدامها من صنعاء حيث تكثر عند اليهود، إذ ينبغى نقلها فى أوعية نحاسية مما يجعلها مضرّة للصحة. و أخيرا، أحضروا لنا شرابا قويا، ظننته بوظة(Busa) ، لكنه تسبب لنا غثيانا قويا، فقررنا الاستغناء عن المشروبات الروحية لبضعة أشهر.

و فى اليوم التالى، نقلت صناديقنا إلى الجمارك حيث تمّ فتحها، و خشينا أن يفتشوها بصرامة و دقة، لكن الموظفين قاموا بعملهم بتهذيب فائق. و لا حظنا أن الأمير يود رؤية معداتنا و معرفة كيفية استخدامها، فعرضنا له ما ظننناه يسعده و الأعيان الذين اجتمعوا فى الجمارك. و طلب السيد فورسكال- الذى كان يعرض على الحضور أشياء عدة تحت المجهر- من الخدم إعطاءه قملة حيّة، و بدا أن هؤلاء أحسوا بالإهانة إذ ظن الأوروبى أنهم مصابون بهائيّة كهذه، لكن حين وعدهم بدفع بعض المال، قدم له أحدهم ما طلبه، و لم يسعد الأمير شيئا بقدر ما أسعده رؤية هذه القملة مكبّرة، و تأملها كافة الأعيان، و أخيرا، نادى على الخادم الذى أقسم أنه لم ير قملة عربية كبيرة كهذه، و لا بد أن هذه الموضوعة تحت الزجاجة قملة أوروبية. لكنه روى لأصدقائه أنه باع فى ذاك اليوم للأوروبيين قملة واحدة بأربعة قروش، و كان الجميع يعلم أننا لسنا من أولئك التجار الأوروبيين الذين يأتون من الهند إلى المخا، فظن الشعب أننا تجار من نوع آخر، و أننا نجيد استعمال القمل أحسن من العرب، لذا حضر فى اليوم التالى شخص و عرض علينا قبضة من القمل، ثمن الواحدة قرشا. و فيما بعد، طلب السيد فورسكال من الصبية جمع البزاق و حشرات أخرى متنوعة مقابل بضعة قروش، فجاءنا آخرون، يعرضون الحشرات للبيع، و نستنتج مما تقدم أن سكان اليمن أقدر على التجارة من باقى العرب. و من بين كافة الأدوات التى عرضتها على عرب لحية، أثار

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۵۲

منظارى الفلكى، الذى يظهر الأشياء مقلوبة، الإعجاب. و رأوا من بعيد سيدة تسير، و تفاجؤوا حين رأوها تسير و قدماها إلى الأعلى دون أن تنقلب ملابسها، الخ. و عند كل جديد، كانوا يصرخون الله أكبر، و سعد الجميع بوجود أجانب فريدين فى مدينتهم، و سرّنا

أن نلاقي هذا القدر من المودّة بين سكان هذه البلاد.

أما المنزل، الذي خصّصوه لإقامتنا، على الطراز الشرقي، حول ساحة مربعة، فلم تكن فيه غرف مؤثثة بشكل جميل، إنما تحيط به محال يمكن إقفالها، و أمامها ممر مفتوح. و يعتبر هذا المكان سيئا إذا ما قورن بفنادق أوروبا الجيدة، لكنه عملي و مريح في تلك البلاد. خلال الأيام الأولى، عجّت الساحة بالعرب الذين دفعهم فضولهم إلى المجيء لرؤية الأوروبيين، لكن وجودهم أزعجنا في بعض الأحيان، لأنهم يستغربون كل ما يرونه حتى ما لا يدعو للاستغراب. و دفعنا هذا إلى توظيف بواب، أمرناه بعدم إدخال أحد إلّا أصحاب بعض المهن، و هكذا ارتحنا قليلا، لكن جاءنا الكثيرون بحجة رؤية الطبيب. و حين يستعلم هذا الأخير عن أوجاعهم، يصفونها بشكل يثير ضحكنا. فقد طلب أحدهم من السيد كرامر أن يجس نبضه و أن يطلعه على ما ينقص، و لم يستطع شخص آخر النوم فجاء يسأل الطبيب عن السبب الخ. و لم يدع صيت السيد كرامر في هذه المدينة إلا حين وصف لباش كاتب مقيتا، فقد أعطى هذا الدواء مفعوله من الأعلى و الأسفل حتى فقد المريض عزمه. لكن بما أن العرب يفضلون المسهلات القوية، طلب العديد منهم من السيد كرامر دواء كالذي استعمله الباش كاتب. و استدعى الأمير بحر(Bahhr) ، و هو المشرف على المركب، و الذي يمنع دخول أو خروج أية بضاعة لم تدفع الرسوم، لطبيبنا.

و حين لم يذهب على الفور، قيل له إن حصان الأمير بحر ينتظره أمام بابنا و عليه سرجه، و يتم وضع السرج على الجياد العربية في الإسطبلات كي تمتطى في أي وقت كان. و ظنّ السيد كرامر أن الأمير أرسل الجواد ليسرع إليه، فأراد امتطاءه، لكن أشاروا إليه أن الحصان هو المريض الذي ينبغي شفاؤه. و لا يخجل الطبيب العربي من ممارسة مهنته على الحيوانات بعكس السيد كرامر، لكن لحسن حظنا اكتشفنا طبيبا آخر في بعثتنا، و هو خادمنا، الذي خدم لسنوات في فوج الخيالة السويدي، و تعلّم العناية بالجياد، فعمل على علاج الجواد و نجح في ذلك، فاعتبره العرب طبيبا، و استدعى لعلاج الناس.

و في أحد الأيام، حضر عربيان لرؤيتنا تأكل على الطريقة الأوروبية، و أحدهما شاب من أعيان صنعاء، تظهر تصرفاته أنه تلقى تربية حسنة، أما الآخر فمن قحطان، حيث قلما يرون أجانب، و هو رجل ذو مكانة بين شعبه لكنه بسيط، و بدا لنا أن رفيقه اصطحبه معه ليتسلى و يهزأ به. و كان القحطاني قد سمع أمورا غريبة عجيبة عن الأوروبيين، و حين دعوناه ليأكل معنا، أجاب ببساطة أعوذ بالله من الأكل مع الكفّار الذين لا يؤمنون بالله. و سجلت اسم موطنه، و طرحت عليه بعض الأسئلة حول مدنه و قراه، فسألني: «بم يهمك موطني؟ أتنوي التوجه إليه و الاستيلاء عليه؟» و بما أننا كنا لا نزال نعيش على النمط

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۵۳

الأوروبي قدر المستطاع، أثارت الطاولة و المقاعد و الصحون و الملاعق و السكاكين و الشوك استغرابه. و طرح بعض الأسئلة و أعطى ملاحظات جدية حول عاداتنا، و لما ضحكنا من بساطته، خرج خجلا، لكن صديقه نجح في العودة معه مرات عدة. و يقدم العرب اللحم مقطعا، فرأى على مائدتنا فراريج مشوية كاملة، و كنا قد أكثرنا من الطعام برأيه، فظنّ أن علينا التوقف عن الأكل، إنما حين رأى السيد دي هافن يتحضر لتقطيع فروج آخر، شده من ذراعه و سأله عن الكمية التي ينوي التهامها، و أثار سؤاله ضحكنا، فخرج الرجل بسرعة و لم يتمكن صديقه من اللحاق به. و تمنى علينا هذا الأخير ألّا نستاء من قلة التهذيب التي أظهرها رفيقه لشدة بساطته و انسحب بدوره. لا بد أن هذا العربي سيروي في موطنه الأخبار عن غرائب عادات الأوروبيين، و سيستمع إليه الجميع بحماسة كما يستمع الأوروبيون لأولئك الذين يروون مغامراتهم المزعومة في بلاد بعيدة.

و استمتعنا بإقامتنا في المخيّة، حتى طاب لي و للسيد بورنفند أن نعزف على كمانينا عند المساء كتنائي.

مما جعل جيراننا و المارة يظنون أننا موسيقيون. و طلب منا تاجر عجوز، سمع بأخبار موسيقانا، أن نزوره و نحضر معنا القيان، لكننا رفضنا لعلمنا أن الموسيقيين لا يتمتعون بالمكانة و الاحترام اللازمين بين العرب.

و دفعت الحشرية لرؤية الأوروبيين هذا العجوز، الذي لم يكن قادرا على السير، إلى الطلب من خدمه بأن يضعوه على حماره، و أن يسندوه كي يتمكن من زيارتنا. و كان الرجل مهذبا للغاية و أكّد لنا أنه لا يكره المسيحيين، و أن ديانته لا تسمح له بذلك لأن الله خلق الناس أجمعين و يتقبّل الديانات كلها، و أنه يفضّل المسيحيين على أولئك الذين يتبعون ديانات غريبة، و ذكر لنا حديثا من الصحيح يقول فيه محمد إنه يمكن أن تأمن جانب المسيحي أكثر من اليهودي. و بعد تناول مواضيع متعددة، تحوّل الحديث إلى الموسيقى، و أعرب العجوز عن رغبته برؤية آلاتنا، و بسماعنا نعزف عليها، فقمنا بعزف بعض المقطوعات الهادئة التي تعجب الشرقيين و إن كانوا لا يتذوقون موسيقانا. و سرّ العجوز كثيرا، و أراد إعطاء كل واحد منا نصف درهم لدى مغادرته، و لا يردّ العرب عامة أيّة هدية مهما كانت صغيرة، لذا فاجأ رفضنا للمال العجوز الذي كان يعتقد أن ما من أحد يتكبّد مشقة تعلّم العزف إلّا لكسب المال، و أننا نحتاج لبعض المساعدة لأننا نصرف الكثير من دون أن نكسب من تجارة ما.

و كان هذا التاجر من القلائل الذين رأيت لحاهم مصبوغة باللون الأحمر، و لم يذكر لي أي سبب لذلك سوى أنّ اللحية الحمراء أجمل من اللحية البيضاء، في حين يرى الآخرون أنه يحاول إخفاء تقدمه بالسن. و استنتجت من ذلك أن العاقلين بين العرب لا يوافقون على عادة صبغ اللحية باللون الأحمر، و لا حظت في هذا المناسبة، و في مناسبات أخرى، أن المسلمين لا يكترثون أبدا لسنّهم. و حين نستعلم عن أعمارهم يجيبون أنهم ولدوا حين كان فلان أو فلان في الحكم أو أنهم كانوا فتيانا حين وقع هذا الحدث أو ذاك، لكن تاجرنا هذا أوضح الأمور أكثر، فهو يعلم أنه في السبعين من عمره و لا يظن أنه تجاوز

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۵۵

الثمانين، في حين أن معارفه يعتقدون أنه قارب التسعين. و توطدت الصداقة بيننا حتى أنه دعانا مرارا لزيارته و قدّم لنا أفخر القهوة و التبغ و المربى، و لم يتزوج يوما وفقا للأصول لكنه يتبجح بأنه غرر بعدد من الجواري (۸۸ إن لم أكن مخطئا)، و أنه باعهن فيما بعد، أو تزوجهن، أو أعتقهن. و قال لنا إنه يملك، منذ بضع سنوات، جاريتين شابتين و جميلتين و أنه يتمنى أن يفعل بهما ما فعل بسالفاتهما و بعدها يموت عن طيب خاطر، و وعد طبيبنا بهدية قيّمة إن مكّنه، بفضل علمه، من تحقيق رغبته. و كنا قد تعرفنا على تاجر ثري في جدة، زرناه غالبا، يعاني المشكلة نفسها، و كان في العقد الخامس، و يملك منزلا في مكة يقصده لبضعة أشهر، لكن من دون طيب خاطر، إذ يملك فيه جاريتين جميلتين تسعيان دوما لتأجيج نار حبه لكن خيبته تجعله حزينا، فقدّم لطبيبنا مئة ريال إن استطاع مساعدته ليشفي غليله مرّة واحدة. و لفرط ما تناول من أدوية وصفها له الأطباء الإنكليز لم يتمكن السيد كرامر من مساعدته . لكن أعود لوصف مدينة لحية: بنيت هذه المدينة منذ حوالي ۳۰۰ عام، على يد ولي مسلم، يدعى الشيخ صالح(S lei) ، و يعتبر اليوم شفيع هذه المدينة لأن عرب تهامة من أصل السنّة و يجلّون كثيرا هؤلاء الأولياء المزعومين بالرغم من أن دينهم يحرّم تقديسهم. بنى هذا الشيخ لنفسه كوخا على شاطىء البحر، خارج لحية، في المكان الذي نجد فيه اليوم ضريحه، و عاش فيه متنسكا. و بعد موته، تمّ بناء قبة فوق قبره، و مع الأيام، تمّ تكبيرها، و تجميلها، و اعتبارها وقفا: و بما أن المسلمين المؤمنين يتوقعون أن يباركهم الله في هذه الدنيا و في الآخرة، إذا ما أقاموا و ماتوا في جوار هذا المزار، بنوا لهم بيوتا في محيطه. و في ذاك الوقت، كان حاكم الإقليم يقيم في مرابع(Mar bea) ، و هي مدينة صغيرة، على بعد ميل إلى الشمال من لحية، لكن حالة مرفئها ازدادت سوءا، فهجرت المدينة، و توسعت لحية، و أضحت فيما بعد مكان إقامة صاحب الدولة. و أشير هنا إلى أن ذرية أولياء السنّة في التهامة يتمتعون بمكانة ذرية محمد في العالم الإسلامي كله إنما بقدر أقلّ، و يطلق عليهم لقب شيخ، كما يطلق على سلالة محمد لقب، شريف، و سيّد، و أمير و مولى، و يعتقد الناس أن التقوى و حب الفضيلة من شيم هؤلاء أكثر من عامة الشعب. و يتمتع زعماء العائلات هذه بهيبة و احترام بين الناس لأنهم ولدوا رجال دين، لذا لا يستغرب أن يشيدوا بقداستهم، و يحاولوا أن يجعلوا من أنفسهم قديسين. و يعتبر ابن الشيخ صالح المدفون في مور(Mo ?r) ، و ابنه الآخر المدفون في بهاس(Bah s) شفيعي هذين المكانين.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۵۶

و تقع مدينة لحية في مكان مجدب، و قاحل، و في بعض الأحيان على جزيرة، لأن الأرض منخفضة نحو الشمال حتى أن الرياح الجنوبية حين تعصف لوقت طويل، و تعلو المياه، يغطى المدّ هذا الجزء من المدينة، و قلما يحدث هذا خلال عام واحد. و هي على خط عرض ۱۵؟، ۴۲؟، و على بعد فرسخين و ۳۹ دقيقة و ۱۴ ثانية على خط الطول إلى الشرق من باريس. و هو المرفأ الأكثر إلى الجنوب في المناطق الخاضعة للإمام، لكن حالته سيئة إذ إنّ المراكب الصغيرة التي تقصده تضطر للرسو على مسافة بعيدة من المدينة، حيث الجزر فلا تستطيع القوارب الصغيرة الاقتراب منه. و تبقى التجارة الأولى في هذه المدينة هي البن الذي ينتزعون بزوره و يبيعونه. و لا يضاهي هذا البن جودة بن بيت الفقيه الذي يتم نقله عبر مخا و حديدة، و هو أرخص ثمنا، و لا تعتبر كلفة نقله إلى جدة عالية نظرا إلى أن المسافة التي تفصل المنطقتين ليست بكبيرة. و لهذا السبب، نجد تجّارا من القاهرة يقيمون في لحية و يشترون البن

لأصحاب عملهم أو أصدقائهم فى جدة، و مصر و تركيا، كما يقصد الكثير من أبناء القاهرة لحية سنويا لشراء البن لحسابهم الخاص. و يقيم حوالى ۴۰ بنيانيا فى المدينة، لكن غالبيتهم من الحرفيين الفقراء أو من الخدم لدى من يتعبون الديانة نفسها.

و بالرغم من أن مخية غير محاطة بالأسوار، فهى ليست بالمدينة المفتوحة كليا، إذ نجد فيها ۱۲ برجا من جهة اليابسة، يبعد الواحد منها عن الآخر ۱۲۰ خطوة مزدوجة، و تشبه هذه الأبراج أبراج المراقبة القديمة فى ألمانيا، فأبوابها مرتفعة لا يمكن و لوجها من دون الاستعانة بسلّم. و يقيم الجنود، الذين يشكّلون حامية المدن التركية، قرب الأبواب أو فى المدينة نفسها، و نجد حراسا فى كل برج من أبراج لحية تقريبا.

و كان معظم جنود المدينة يجلسون فى الفيء فى أسفل الأبراج، يدخّنون النرجيلة و يشربون الكيشر (و هو شراب يحضّر من سنفة البن)، لكن رؤيتى فى هذا المكان المنعزل أثارت انتباههم. و جدير بالذكر أن تسجيل الخطوط و الزوايا فى طرف كهذا يشكل خطرا علىّ فى تركيا و فى أوروبا، لكنى لم أكن أخشى شيئا بين العرب، حتى أن الضابط المسؤول دعانى للجلوس بينهم، و مشاركتهم بما قدموه لى من اهتمام، و سألنى عن كيفية بناء الحصون فى أوروبا، فضلا عن طريقة خوض الحروب، الخ. و استمعوا إلىّ باستغراب و أنا أقص عليهم أخبار أوروبا، و عرضت عليهم اختراع الكتابة من دون حبر (بقلم)، و أخذت أسجل أمامهم الخطوط و الزوايا من دون أن يرتابوا بالأمر، حتى أنهم نادوا رفاقهم فى الأبراج القريبة ليروا الغرائب التى رأوها. و هكذا، رسمت خارطة مدينة لحية و محيطها على اللوحة(LX) ، فيما حملت اللوحة(LXI) منظرا عاما للمدينة.

بنيت غالبية هذه الأبراج بطريقة تمكّنهم من الدفاع عنها بالسلاح الأبيض. أما البرج، الذى أمر الأمير فرحان ببنائه فجهّز لوضع مدافع فيه، و نجد قرب البرج الخامس مبنى فيه بعض الأسلحة. و نشاهد أمام البرجين الرابع و الخامس حفرة فى الصخر. و تعتبر هذه التحصينات غير مجدية، حتى أن عرب حاشد،

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ۱، ص: ۲۵۸

منذ سنوات، اجتازوها و أحرقوا المدينة، لذا لا يتكل أهالى مخية عليها كثيرا، إذ علمنا، فى شهر أيار/ مايو فى مخا، أن عددا كبيرا منهم لجأ إلى جزيرة يرموك(kجOrm) الصغيرة، و نقلوا إليها أغلى ما عندهم حين علموا أن بضع مئات من رجال حاشد و بكيل دخلوا تهامة و تقدموا حتى مور(Mo ?r) . و غادر العديدون بيت الفقيه، و توجهوا إلى مرفأ الحديدة، ليتمكنوا من الانسحاب بسرعة نحو بعض الجزر إذا ما تقدم العدو أكثر، لكنه تراجع حين لاقاه الأمير فرحان مع جنده .

بنى العديد من منازل مخية من الحجارة، لكن معظمها كتلك المرسومة فى الصورةI للوحة الأولى فى وصف شبه الجزيرة العربية أى كمنازل تهامة عامة، و لا يكلّف بناء منزل كهذا الكثير من المال فهيكله من الخشب الرقيق الذى يقطع من الأشجار أو الدغل، و تطلى الجدران بالصلصال الممزوج بالروث ثم تطلى من الداخل بالكلس، و تصنع السطوح من أعشاب تكثر فى هذه البلاد. و تفتقر هذه المنازل للنوافذ، و تسدّ الأبواب بالحصر المصنوعة من القش. و يؤثث داخل هذه المنازل بالأسرة كتلك المرسومة فى الصورة «ز» من اللوحة الأولى فى وصف شبه الجزيرة العربية، و لا تغطى هذه الأسرة سوى بحبال من القش، و هى مريحة جدا للجلوس و النوم، لا سيما أن أرض تهامة رملية، لجدبها، مما يجعل النوم عليها مزعجا للغاية.

و لا تقسم هذه المنازل إلى غرف عدة، و حين تكون عائلة العربى كبيرة و يملك ماشية، يقوم ببناء أكواخ عدة و يحيطها بسور عال، لذا تحتل المنازل مساحة واسعة و لا يمكن أن نعتبر عدد سكان تهامة بعدد سكان أى مدينة فى أوروبا و تركيا تمتد على المساحة نفسها.

نجد خارج المدينة العديد من أفران الكلس، حيث تكلّس أحجار المرجان الكبيرة المستخرجة من البحر عند الجزر. و تكسر هذه الحجارة، و تكلّس فى الهواء الطلق دون بناء أفران، و فى وسط هذه الحجارة المكسورة شاهدنا عددا من الأصداف المستطيلة المخية. و نجد فى الخليج العربى الكثير من الأصداف و الأسماك الجميلة. و قد أعطيت سابقا فكرة عن مراكب الصيادين فى لحية فى وصف شبه الجزيرة العربية.

و تعتبر مياه مخيّة غير صالحة للشرب، و تشرب العامة من مياه الوادى و من مياه بئر نعمان الذى يقع على بعد ۳/ ۴ الميل إلى الشرق من المدينة، أما مياه بئر كندى الواقع على بعد ميلين و ۲/ ۳ الميل إلى الجنوب الشرقى فأعذب، و تبقى أفضل مياه فى مخية هى مياه فتيت التى تقع على مسافة ميلين و نصف الميل إلى الشمال الشرقى من المدينة. و لا ينقل أهالى مخيّة الماء إلى المدينة فى عربات بل على ظهور الحمير و الجمال، و لا يستخدمون لذلك جلود الماعز، كما فى السويس، أو الأكياس الجلدية، كما فى تركيا و القاهرة، إنما جرارا حجرية بيضاوية الشكل، تتدلى عن جانبى الجمل، كما تظهر فى اللوحة ۱۶

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ۱، ص: ۲۵۹

فى وصف شبه الجزيرة العربية. و إلى الشرق من مخيّة و على بعد ميل و ۳/ ۴ منها، نجد جبلا صغيرا يحمل اسم كوخشا(Ko ?scha) و تكثر فيه الأملاح المعدنية التى تستخرج منه بسهولة.

و جمعنا فى مخيّة كمية كبيرة من الغرائب الطبيعية، و بما أن نقلها برا مكلف للغاية، أرسلناها إلى المخا بحرا مع أمتعتنا التى لم نكن بحاجة إليها خلال رحلتنا عبر اليابسة. و أضاف الأمير فرحان إليها رسالة موجهة إلى صاحب الدولة فى المخا، يرجوه فيها أن يسمح بإبقاء أمتعتنا فى الجمارك لحين وصولنا. و بعد أن جمعنا كافة المعلومات التى تهمّنا حول هذه المنطقة من شبه الجزيرة العربية، أعربنا عن رغبتنا بزيارة مدن أخرى من هذه المملكة. و وجدنا الحجة المثلى فى خبر وصلنا عن مركب إنكليزى وصل إلى المخا من الهند فى أواسط شهر شباط/ فبراير، و أعلمنا صديقنا الأمير فرحان بنيتنا التوجه إلى بيت الفقيه، و الاستراحة فيها ثم إكمال طريقنا إلى المخا. فسألنا عمّا يثير استياءنا فى مخيّة و أكد لنا أنّ ما من حاكم فى بلاد الإمام سيهتم لأمرنا بقدره هو، و كان محقا فيما قاله. و بعد ذلك أصبح الحكّام، الذين لم يأبهوا لأمرنا من أعزّ أصدقائنا. و كان الأمير فرحان يعلم أن ما من مركب يعود إلى الهند قبل حزيران/ يونيو، و أراد أن نبقى عنده حتى ذاك الحين، لكن حين أعربنا عن حاجاتنا للتحدث مع مواطنينا (يصبح الأوروبيون كلهم مواطنين فى هذه البلاد البعيدة) وافق على ما أردناه، فقمنا باستئجار الجمال و الحمير فى الحال لنقلنا و متاعنا إلى بيت الفقيه.

و يوم أردنا توديع الأمير فرحان، لم نتمكن من التحدث إليه لمرض ألمّ به فى ذاك اليوم، فطلبنا إعلامه بسبب زيارتنا، و بأننا سنسافر إلى بيت الفقيه فى اليوم التالى. و طلب منا البقاء ليوم أو يومين فى مخيّة، لكننا لم نشأ ذلك لأننا كنا جاهزين للمغادرة، فأرسل بطلبنا فى وقت متأخر من الليلة نفسها. و كان قد طلب منى حين وصلنا إلى مخيّة أن أعيره جهاز رصد النجوم الإنكليزى الرباعى القاعدة خلال فترة إقامتنا فى المدينة. و لم أرغب بطلبه منه، لأن أىّ مسلم كان ليظن أنى قدمته له هدية، لكن الأمير فرحان وضعه أمامه بعد أن لفّه بقطعة قماش حريرية و جعل عليه كمية كبيرة من الدراهم الألمانية و هى أكبر عملة تستخدم عادة فى اليمن، و بعد أن سألنا، إن كنّا لا نزال نصرّ على السفر فى اليوم التالى، و قال مازحا للعرب الحاضرين إن الإقامة فى مخية لا تعجبنا- دون شك- لأننا نغادر المدينة بسرعة، الخ، أراد إعادة الجهاز لى، لكنى رجوته أن يحتفظ به، فأكّد لى بعد اعتذارات جمّة أنّ هذه الهدية تسعده للغاية. ثم منح طيبينا قطعة القماش و فيها ۲۰ درهما فاعتبر الأخير أن بإمكانه قبولها لأنه أعطى الأمير أدوية عدة.

و قدم لنا مبلغا من المال لدفع بدل استئجار الحمير و الجمال التى ستنقلنا إلى بيت الفقيه، فرفضناه معللين السبب أننا لم نأت شبه الجزيرة العربية لنعيش على حساب أهلها. و بما أننا كنا نوى التجوال فى كافة البلاد الخاضعة للإمام، فخشينا ألا يساعدنا حكام الأقاليم الأخرى، الذين قد يفتقرون لكرم الأمير فرحان، إن شكوا بأننا ننتظر منهم أن يقدموا لنا الهدايا. و فاجأ رفضنا العرب كثيرا، إذ لم يكتف بعض

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ۱، ص: ۲۶۰

المسافرين الأتراك الذين وصلوا إلى مخية بطلب المال لرحلتهم بل طالبوا بمعاش لهم. و لم يكن خادمنا الأوروبى، الذى شفى أحد خيول الحاكم، حاضرا فأرسل له عشرة دراهم كمكافأة، و لم ير هذا الأخير أى داع لردّ المال.

و بما أن الأمير قدم لطيبينا و لخادمنا الهدايا دون موافقتنا، و بما أننا لم نشأ أن ندين لعربى بشىء، قررنا أن نقدم له بالمقابل ساعة أسعدته كثيرا، و إن أصرّ لبعض الوقت على رفضها قائلا إنه لا يستطيع أن يقبل هدية كهذه منا لأننا مسافرون. و سببت لنا لياقتنا مع الأمير فرحان الطيب الكثير من المتاعب لا حقا، فقد ذاع خبر كرمنا تجاهه، فظن حكّام المدن الأخرى أن من حقهم توقّع هدايا منا قبل أن يقدموا لنا أية خدمة. و لم يكن الأمير فرحان يملك ساعة و لا يعرف كيفية استخدامها، لكن تاجرا من القاهرة، من بين الأجانب الذين اعتادوا زيارة الأمير يوميا، كان يملك فيما مضى ساعة، فوعد بتعبئتها كل يوم.

و من بين العرب الذين اعتادوا زيارتنا، مثقفان فقيران، أعطياني توضيحات عدة حول الجغرافيا و حول مواضيع أخرى، و قد استخدمتها

فى وصفى لشبه الجزيرة العربية، لذا لا داعى لذكرها هنا.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۶۱

رحلة من مخيّة إلى بيت الفقيه

فى اليمن يمتطى الناس عادة الحمير- ليس لأنه لا يحق للمسيحيين ركوب الخيل كما فى القاهرة- بل لأن استئجار الخيل صعب فى هذا البلد. إلا أن الحمير المستعملة فى المدن الشرقية و للسفر هى من جنس خاص فهى كبيرة الحجم و شجاعة و لا تزعج فى السير. و لشدة قدرة هذه الحمير على المشى، يجبر الرجل الذى يسير خلفها على القيام ب ۱۷۵۰ خطوة مزدوجة فى نصف ساعة. و كنت بحاجة لأدقق فى هذا الموضوع لأتمكن من تصحيح خارطة اليمن. بعد أن عرفت سرعة سيرنا، لم يبق لى إلا مراقبة الوقت الذى نستهلكه للانتقال من مكان إلى آخر و تحويله إلى خطوات مزدوجة و أميال لأتمكن من معرفة طول المناطق . لمعرفة وجهة الطريق اكتفيت باستعمال بوصلة جيب تماما كما فعلت للذهاب إلى طور سيناء.

و لا شك أنه لا يمكن قياس الزوايا بدقة بواسطة آلة صغيرة لكن على ظهر الحمار تصبح عملية المراقبة أسهل. و حرصت أثناء الرحلة على قياس ارتفاع القطب كلما وجدت ذلك ضروريا. و كنت كلما سرت بضعة أيام، أصحح اتجاه الطريق من خلال قياس ارتفاع القطب و البوصلة. ثم جمعت أسفارى إلى اليمن كافة و صرت أملأ المكان الشاغر بأسماء المدن و القرى التى لم أكن قد رأيتها بل تأكدت من وجودها.

و هكذا، دوّنت خريطتى التى أضفتها إلى هذا المجلّد.

و لا يمكن أن نتوقع أن الخارطة التى رسمتها لليمن هى شديدة الدقة كتلك التى رسمها مسافرون أوروبيون لجؤوا إلى الملاحظات الفلكية و الهندسية. إلا أنى لم أوفر جهدا لمعرفة جغرافية البلد و لأوجّه أسفارى لمعرفة مواقع الأماكن الرئيسية التى يسيطر عليها الإمام. و إنى أعلم أن قارئى سيملّ من قراءة كافة الأسماء الغريبة التى تعود إلى هذه الأمكنة: لكن بما أننا نجهل مناطق شبه الجزيرة العربية قررت ألا أكتفى بذكر أسماء القرى بل أيضا أسماء الأكواخ التى تعتبر كالمقاهى و التى تكون معزولة على طول الطريق. و غالبا ما تسمى هذه الأكواخ باسم القرى المجاورة و يمضى صاحبها نهاره كله فيها لكنه يبيت ليلة فى القرية فى منزل عائلته. من هنا نعلم أن هذا الجزء من شبه الجزيرة شديد الاكتظاظ بالسكان.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۶۳

و لأن السفر إلى تهامة آمن تماما كالسفر إلى أوروبا، لم نكن بحاجة إلى انتظار انتقال القافلة. لكن بما أننا توقفنا فى ۲۰ آذار/ مارس للذهاب إلى مخيّة أرسلنا فى ذلك اليوم جمالنا محملة بأغراضنا بالإضافة إلى خادمين ليهتموا بها. و بعد مرور ساعات، لحقنا بهم على ظهر الحمير. ثم مررنا بمنطقة قاحلة و صحراوية بالقرب من الخليج ثم ارتحنا فى مقهى ليس سوى كوخ قريب من قرية تدعى عكام(Oke ?m) .

تقع هذه القرية على الخط المستقيم الذى يبعد ميلين ألمانيين عن جنوبى شرقى مخيّة و تبعد قليلا عن البحر و لا نجد فى جوارها ماء عذبا.

و خلال وصفى لهذه الطريقة سأستعمل دوما كلمة كوخ للإشارة إلى المقهى و يسمى العرب هذه الأكواخ مقيلة(Mokeija) . و حتى لا يظن القارىء أن الخدمة فى هذه الأكواخ جيدة مثل خدمة المقاهى الأوروبية سأقول لهم أولا إن هذا المقهى سيىء البناء لدرجة أن بيوت مخيّة الأكثر فقرا تظل أفخر منه.

فأحيانا لا نجد فيه أى سرير و تنحصر فيه الضيافة على القهوة التى تقدم فى فناجين من فخار. و العرب الأثرياء الذين لم يعتادوا على شرب القهوة فى أقداح مماثلة يحملون معهم أثناء السفر فناجينهم الصينية المصنوعة من الخزف. و يقدم الماء العذب مجانا فى هذه الأكواخ و يعتبر المرطب الوحيد.

انطلقنا فى اليوم نفسه من «أقام» و بعد أن اجتزنا أربعة أميال إلى الجنوب الشرقى، وصلنا إلى قرية الجالية عند منتصف الليل. و لقد كانت المياه فيها سيئة للغاية و كنا فى هذا اليوم قد سرنا ستة أميال ألمانية.

فى ۲۱ شباط/ فبراير توجهنا نحو الجنوب الشرقى و وصلنا إلى حميان(Hamj n) و هى القرية الأولى التى وصلنا إليها بعد أن اجتزنا ميلا و ربع الميل. و من حميان وصلنا إلى سبأ(S bea) التى تبعد ربع ميل عنها و منها إلى منير(Meneyre) و هى تبعد ربع ميل عن سبأ. إن قرية منير متوسطة الكبر و فيها مسجد جميل و نزل يقصده المسافرون فيتلقون الخدمة مجانا لو شاؤوا الاكتفاء بنمط حياة أهل البلد فيستقبلون فى كوخ مشترك و يعطون سريرا و خبز الذرة الساخن و حليب الناقة و الزبدة. و جدير بالذكر أن مثل هذا النزل لا يفرغ أبدا من المسافرين. و لو كانت هذه الضيافة موجودة فى أوروبا لكان عدد النازلين هنا أكبر بكثير. ثم ما إن علم صاحب نزلنا بوجود أشخاص أوروبيين فى دياره حتى سارع إلينا شخصيا لمعرفة ما إذا كنا نحظى بمعاملة حسنة و لو أننا تمكنا من المكوث لفترة أطول لذبح نعجة على شرفنا. و لقد خبز لنا خبز الحنطة و هو نادر فى القرى ثم أحضر لنا خدمه حليب البقر بعد أن لاحظوا أننا غير معتادين على شرب حليب النوق. و يقال إن هذا الحليب منعش و صحى فى البلاد الحارة لكنه لزج كثيرا فإذا وضعنا إصبعنا فيه ثم رفعناه، يمتد الحليب مثل الخيط. و رأى خدامنا العرب أن صاحب النزل سيستاء إن نحن عرضنا عليه دفع مصروف إقامتنا عنده لكن إذا أخذنا بعين الاعتبار ما حدث لا حقا لكنا عرضنا عليه هدية و حسب. فلقد استأذنا للرحيل دون أن ندفع شيئا و دون أن يسألونا أن ندفع شيئا لكن الخادم الذى لم يتجرأ على طلب أى شىء فى حضور سيّده تبعنا للحصول على هديّة بعد أن تأكد أننا ابتعدنا مسافة لا تسمح لسيّده برؤيته.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۶۴

يقع جبل القمة فى الجنوب الغربى من المنير. و قرب هذا الجبل من جهة الغرب هناك قرية كبيرة تدعى صعدة(S die) و لقد ذهب السيد فروسكال لرؤيتها عند ما كان يجمع الشعب فى وادى سردد(Surdچd) .

انطلقنا من المنير و سرنا مسافة ميل و ربع نحو الجنوب الشرقى فوصلنا إلى بيت الفقيه. أما المعجم(El M hhj m) الذى ذكره أبو الفدا فليس بعيدا من هنا لكنه مدمّر ما عدا المسجد القديم الشهير الذى رقمه الأمير فرحان. و كان يلزمنا نصف ميل للوصول إلى بيت الشيخ و منه ميلا للوصول إلى الضحى(Dahhi) حيث قضينا الليل. و فى هذا اليوم لم نمش إلا أربعة أميال و نصف الميل.

تعتبر الضحى قرية كبيرة فيها مسجد و قبر ولى من الأولياء و قلما نرى فيها منازل من الحجارة. و فى خارج القرية هناك مصبغة و معمل قرميد حيث يشوى القرميد لا فى الفرن لكن فى الهواء الطلق. كما و رأينا فى ثلاثة أماكن مختلفة كمية كبيرة من الآنية التى يصنع فيها اللون الأزرق. إن ثمن هذا اللون رخيص فى اليمن إذ يباع كل ۲۵ رطلا بدرهم واحد إلا أنه سيىء النوعية. يستعمل هذا اللون كثيرا فى اليمن لأن النساء كافة يرتدين قمصانا و سراويل زرقاء. يقيم فى ضاحى و فى الجالية مساعد صاحب الدولة الذى يكون على رأس مجموعة من العسكر علما أن هاتين القريتين تخضعان لحاكم مخيّة. و كان الأمير فرحان الذى أعطانا رسائل توصية قد أمر السكان أن يعطونا نعجة. إلا أننا أبينا خاصة أننا وصلنا إلى الجالية فى ساعة متأخرة لكننا علمنا لا حقا أن أحد خدم الأمير فرحان الذى سافر معنا بغية تحصيل أعماله الخاصة تقاسم ثمن هذه النعجة مع قاضى القرية. و بعد أن علمنا أن الفلاحين يدفعون على كل حال، أخذنا منهم فى الضحى كل ما أمرهم حاكم مخيّة بدفعه.

و قضينا يوم ۲۲ من شباط/ فبراير فى الضحى، و استطعنا قياس ارتفاع هذه القرية ۹۱۵؟، ۹۱۳؟. للذهاب من مخيّة إلى صنعاء يجب المرور بهذه القرية.

أما الطريق الأقصر للذهاب من الضحى إلى بيت الفقيه فهو من خلال المرور بمروة(Mar ua) . لكن بما أن هذه الطريق خالية من الماء و من القرى، تركنا ضاحى فى ۲۳ شباط/ فبراير و بعد أن اجتزنا غابة صغيرة وصلنا بعد سيرنا ۳/ ۸ الميل إلى كوخ يدعى سباريد(Sabarid) . تشكل نقطة هذا الكوخ الحدود بين مخيّة و بيت الفقيه. و بعد ذلك سرنا ميلين و وصلنا إلى مكان فيه عدة قرى مبعثرة يسميها القرويون كافة بنى عفيف. رأينا بئرين على الطريق، و على مسافة ربع ميل وجدنا القرية المسماة شرجو(Schirdsj u) . و على مسافة ۳/ ۸ الميل من هذه القرية و إلى غرب الطريق تقع قرية دير الخليل و بعدها ب ۵/ ۴ الميل تقع دير العفة. و كانت الطريق مزروعة بالآبار هنا و هناك.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۶۵

إلى هنا كنا قد مشينا باتجاه الجنوب الشرقى و بعد أن سرنا نصف ميل آخر بالاتجاه نفسه وصلنا إلى وادى شعب الحجر الذى يتلقى

الماء فى أيام المطر من جبل برّه(Burra) و فى شماله هناك جبل آخر يدعى حفاش(Hof sch) و يمتد إلى صنعاء. و بعد اجتياز ثلاثة أرباع الميل جنوبى شرقى شعب الحجر نصل إلى قرية لم اعرف اسمها. تتميز آبار تهامة كافة بأرضيتها المنحنية فترى الرجال و الثيران و الحمير تنزل للحصول على مياهها مما يسهل عليهم هذه العملية. و يرفع الماء فى أكياس كبيرة من الجلد تكون مربوطة إلى حبل معلق على بكرة. و الجدير بالذكر أن هذه الآبار عميقة بمجملها. يبلغ انحدار البئر ۳۴ قدما أو من ۱۶۰ إلى ۱۷۰ خطوة من حيث الطول و هذا هو طول الحبل و بالتالى عمق البئر. من هناك مررنا بوادى شعب دفين حيث لا نجد الماء الجارى إلا فى أيام المطر. و بالقرب من هذا الوادى من جهة الشرق و على بعد نصف ميل من الطريق، هناك قرية كبيرة تدعى مدوّر. و على بعد ۲ ۳/ الميل من البئر السابق رأينا قرية صغيرة تدعى دفين(Defنج) و هناك ربع ميل من دفين إلى قرية غانمية القريبة من الجبال على ارتفاع ۴۱۴؟، ۴۵۸؟. إن هذه القرية كبيرة مثل ضاحى تقريبا لكن ليس فيها أى بناء حجرى سوى المسجدين. و حتى مساعد صاحب الدولة الخاضع لحاكم بيت الفقيه كان يعيش فى مسكن شعبى يشبه البيوت العادية فى تهامة.

فى ۲۴ شباط/ فبراير تركنا غانمية و توجهنا نحو الجنوب الغربى و بعد أن سرنا ميلا- و ثمن الميل وصلنا إلى قرية كبيرة تدعى قطية(Kataja) . حيث هناك نزل مجانى فى القرية لاستقبال المسافرين لكننا لم نتوقف فيه. فى الفترة الباقية من النهار سرنا نحو الجنوب أحيانا بسرعة و أحيانا ببطء مما حال دون تمكنى من أخذ طول الطريق من خلال الوقت الذى صرفناه فى اجتيازها. و بالقرب من جبل عال فى شرق الدرب رأينا «قرى» كثيرة تدعى كلها شعارى(Sch ra) على اسم قبيلة أو عائلة عربية. بعد ذلك وصلنا إلى وادى شام و هى شأنها شأن سائر و ديان تهامة، لا تغمرها المياه إلا أثناء المطر. و فى منتصف الطريق بين غانمية و بيت الفقيه هناك واد آخر واسع يدعى البلى(El Belle) و قربه قرية تحمل الاسم نفسه. ثم وصلنا إلى قرية تدعى التمانى(El Te ?am ni) و رأينا بعدها عدة قرى أخرى. أخيرا وصلنا بعد منتصف الليل بنصف ساعة إلى كوخ أو ما يشبه مقهى ففضينا الليل فيه و لم نجد فيه إلا شابا لديه ستة أصابع فى كل يد و كل قدم.

ثم فى ۲۵ شباط/ فبراير كنا على بعد ميل واحد من بيت الفقيه. وصلنا إلى بيت الفقيه فى الصباح الباكر فنقلنا أغراضنا أولا إلى الجمرك لكن لم نتمكن من فتح صناديقنا إلا- عند الظهر. و فى هذه الأثناء سلّمنا رسالة من محسن المكويش(Machsen el Mekawisch) من المخيّة إلى عنبر سيف أحد أهم تجار بيت الفقيه الذى استقبلنا بحفاوة بالغة و لم يكتف بأن نقل أغراضنا من الجمارك إلى منزل استأجره لنا بل دعانا جميعا إلى العشاء فى ضيافته لأننا لم نكن قد استقررنا بعد.

إن بيت الفقيه هى مسكن صاحب الدولة الذى يحكم ولاية كبيرة تقع على ارتفاع ۴۱۴؟، ۴۳۱؟.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۶۶

و هناك قلعة فى هذه المدينة يعتبرها أهلها شديدة الأهمية. ثم إن المدينة مفتوحة و المنازل بعيدة عن بعضها و هناك الكثير من الحجارة المستعملة فى تدعيم البناء إلا أن غالبية المنازل قد بنيت على الطريقة الهندسية فى تهامة أى إنها تتألف من أكواخ طويلة مستديرة السطوح و مغطاة بالعشب. نزلنا فى بناء حجرى هرب منه صاحبه للتخلص من حشرات حجمها كحجم النمل تسمى أرضة(Ard) . كانت هذه الحشرات الموجودة فى كافة الغرف تشق طريقا لها مغطى بالتراب اعتبارا من الأرض و حتى المكان الذى تبحث فيه عن الطعام. و هى تأكل الفاكهة و الثياب و كل ما تجد، فليس إذا من الغريب أن يكره العرب شغل منزل تملؤه الحشرات. كما و تحدث هذه الحشرات أضرارا كبيرة فى المنزل. تشق طريقها من جذور الشجرة حتى رأسها فتأكل الخشب الجديد و تقضى على الشجرة. و يقال إنها لا تهجم على كافة الأشجار بل تقصد الشجر ذا الخشب الناعم. و لأن البستانيين يعرفونها يقومون بتدمير ممراتها. أما نحن فطمرنا طرقاتها فى الغرف لكنها كانت تعيد شقها دائما. و تعمل هذه الحشرات بسرعة فى الظلام لكن حركاتها تبطئ على ضوء الشموع. و على طول الطريق فى تهامة رأينا نباتات كبيرة مغطاة بالتراب و عند ما كنا نهزها لإبعاد التراب عنها كنا نرى أعدادا من هذه الممرات المغطاة و كانت النباتات جافة تماما.

إن موقع هذه المدينة يعتبر استراتيجيا بالنسبة للتجارة فهى تبعد مسافة نصف يوم عن الجبال التى تنتج البن و مسافة يوم و نصف عن مرفأ حديدة و مسافة أربعة أيام عن المخا و أربعة أيام و نصف عن مخيّة و ستة أيام عن صنعاء. و فى بيت الفقيه تقوم أكبر تجارة للبن على صعيد اليمن كلها و ربما على صعيد العالم بأسره. تجتذب هذه التجارة إلى المدينة تجارا من الحجاز و مصر و سوريا و القسطنطينية و فارس و المغرب و الحبشة و الساحل الشرقى فى شبه الجزيرة العرب و بلاد فارس و بلاد الهند و حتى أوروبا. و من سكان هذه المدينة هناك و ثيون من الهند و غالبية من الديو(Diu) . يتمتع هؤلاء بحرية ممارسة دينهم علنا لكن يمنع عليهم حرق موتاهم و إحضار نسائهم معهم إلى اليمن؛ و من هنا نجدهم يسرعون إلى العودة إلى بلادهم ما إن يجمعوا بعض المال. و فى أيامنا كان فى المدينة أكثر من ۱۲۰ من البانيان و الراسبوت منهم التجار الأثرياء و الحرفيون البارعون.

ليست مدينة الفقيه بالمدينة القديمة لأن عمرها بعض القرون مثل مخيّة. و يعود أصلها إلى شيخ شهير يعتبره العرب فى تهامة فقيها لذا فإن اسمها أى بيت الفقيه يعود إليه. يدعى هذا العربى أحمد بن موسى و لا يزال ضريحه قائما إلى اليوم داخل مسجد مبنى على تلة رملية خارج المدينة. و حتى اليوم يحتفل به الشعب مرة كل سنة فى شهر ربيع الأول. و فى السنوات الأولى كان المؤمنون يشيدون منازلهم حول ضريح فقيههم.

ثم مع تدهور الحركة فى مرفأ غلفقة، تدهور حال التجارة فيها كما فى زبيد و بدأت تزدهر فى مدن أخرى منها بيت الفقيه. و بعد أن كبرت هذه المدينة لدرجة أن سيّد الولاية قرر أن يشيّد فيها قلعة، اختار مكانا يسهل فيه جلب المياه لكن ذلك كلفه عناء كبيرا. فمن دون ذلك لما كانت القلعة شديدة الأهمية. و لا شك

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۶۸

أن العرب بعد ذلك وجدوا أن صاحب الدولة و القلعة يوفران الأمن أكثر من فقيههم. و صاروا يشيدون بيوتهم قرب القلعة، لذلك لا نجد قرب مسجد أحمد بن موسى إلا بعض الأكواخ.

و إليكم بعض الكرامات التى تعزى إلى هذا الفقيه المسلم: كان أحد الباشاوات الأتراك محجوزا لأكثر من ۲۰ سنة فى إسبانيا و كان قد تضرع من دون جدوى لعدد كبير من الأولياء، إلى أن تذكر الفقيه أحمد فتضرع إليه. فما كان من الفقيه إلا أن أخرج يده من ضريحه و فى اللحظة نفسها وصل الباشا من إسبانيا إلى بيت الفقيه مكبلا بالسلاسل و مربوطا إلى حجرين. و يقال إن هذه المعجزة حصلت أثناء الليل بينما كان الناس يحتفلون بعيد الفقيه أحمد و فى حضور عدد كبير من الناس و لا تزال السلاسل و الحجران موجودة إلى جانب ضريح الولى.

و باعتبار أن هذه المدينة ليست عريقة الأصل، فلن أتوقف عند آثارها. فانا لم أجد فيها إلا الكتابة الكوفية القديمة التى أدرجتها فى اللوحة السادسة من كتاب «وصف شبه الجزيرة العربية». و لقد نقلت الكتابة فى حضور عدد كبير من المشاهدين دون أن يتهمنى أحد بالتنقيب عن الكنوز أو بممارسة الشعوذة كما فعل المصريون، و كما يفعلون عادة بغية الحصول على المال. لقد كان المشاهدون شديدى التهذيب و خاصة الشيوخ و العلماء المسلمون منهم. و لقد شعر هؤلاء بالغبطة لرؤية أجانب يتكبدون عناء فك رموز كتاباتهم لتعلم اللغة العربية القديمة.

تقع بيت الفقيه فيما يشبه الوادى. و مع أنها ليست شديدة الخصوبة إلا أن الزرع لا ينقصها، كما يظهر فى اللوحة(LXII) التى حددت فيها القرى التى رأيتها على الطريق. و المناطق التى بدت مغطاة بالعشب الأخضر فى هذه اللوحة هى المناطق غير المزروعة و الموصلة المغطاة بالعشب الذى يفرش على سطوح المنازل فى تهامة. و تشير العلامة إلى الآبار المحفورة فى كافة الأرجاء. و هناك مصنع قرميد فى جنوب المدينة، و تقع القلعة فى الشمال (راجع الخريطة أ). كما و نرى فى اللوحة(LXI) منظرا عاما لبيت الفقيه.

بعد أن علم حاكم لحية أن السيد فروسكال بقى مرة وحيدا فى مور رأى أن سفرنا وحدنا يعرضنا للخطر. و سمح لنا بالذهاب حيث شئنا شرط إعلامه مسبقا لتزويدنا بأحد الجنود و لإرسال رسائل لمساعديه و لغيرهم من رؤساء القرى؛ و كنا نتخلى بسرور عن صحبة هؤلاء المرافقين إذا اشتبهنا فى أنهم ينقلون أخبارنا و أخبار أبحاثنا إلى الحكومة ثم إن سكان اليمن كانوا شديدى التمدّن لدرجة أننا لم نكن بحاجة لحماية أحد حتى القضاة. و لم يكترث بأمرنا صاحب الدولة فى بيت الفقيه فنعمنا بالحرية الكاملة فى هذه المدينة. و لقد تعرّفنا على فقهاء فقراء و على تجار و حظيت بمعلومات كثيرة حول الجغرافيا و غيرها من الأمور التى أدرجتها فى كتاب «وصف شبه جزيرة العرب».

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۶۹

رحلة من بيت الفقيه إلى غلفقة و الحديدة و الزبيد و التحيتا(Tahate) و القحمة(Kahhma) و هدية و إلى الجبال المنتجة للبنّ

كثيرا ما نسمع فى تهامة بالمدن التى يذكرها أبو الفدا و غيره من الكتّاب العرب و التى تهدمت كليا فلم تعد تمثل شيئا اليوم. و لأن قدامى الكتّاب العرب يهتمون كثيرا بموقع هذه المدن قررت أن أذهب بنفسى إلى أماكنها ليس لأحدد موقعها الجغرافى و حسب بل لأقوم بدراسات على الآثار المتبقية. و مع أنى لم أجد سوى بعض الكتابات القليلة الأهمية رأيت أنها تهم أولئك الذين يدرسون اللغات لمعرفة أى حرف عربى كان يستعمل فى تلك العصور فى بهذا الجزء من شبه جزيرة العرب.

و بعد أن اطمأنيت إلى أن السفر آمن إلى تلك المنطقة قررت الذهاب أولا إلى غلفقة و الحديدة. و لم أجهّز نفسى كثيرا لهذه الرحلة. ثم استأجرت حمارا لنقلى و خرجا وضعت فيه بعض الثياب و الكتب.

كانت ثياب سفرى تنحصر فى عمامة و معطف من دون أكمام و قميص واسع على الطريقة العربية بالإضافة إلى سراويل واسعة من نسيج الكتان و زوج من الأحذية. و مع أن السرقة شبه منعدمة فى تهامة إلا أنه لا بد للمرء أن يتسلّح. لذا زوّدت نفسى بسيف يتدلى من تحت ذراعى بالإضافة إلى زوج من المسدسات تحت حزامى. أما المكارى الذى كان فى الوقت نفسه دليلى و خادمى و الذى كان يتبعنى مشيا على القدمين فكان يحمل سكينا كبيرا و سيفا و ترسا. و جدير بالذكر أن فقراء العرب يحملون فى أسفارهم رمحا و فأسا صغيرة بدلا من السيف. كنت أستعمل سجادة عتيقة كغطاء و كطاولة و كرسى داخل البيت و كشراشف أثناء الليل. و كنت أحمل معى أريكة صغيرة أضعها على السرج أثناء النهار و تحت رأسى أثناء الليل. و كنت أتغطى ليلا بقماش كبير يضعه العرب عادة فوق كتفهم للاتقاء به من الشمس و المطر. كما و حملت معى جرة للماء علقتها على السرج. إن أى عربى كان معه فى سفره قدرته(Kiddre) و هى الغليون الموجود فى الصورة (س) من اللوحة ۱۵ فى صرّة فى الجلد إلا أنى لم أتكبد عناء حملها معى لأنى لم أكن معتادا على التدخين و لقد عودت نفسى على العيش على الطريقة العربية فلم أحتج إلى الملاعق و الشوك و السكاكين. ثم إن ذوى الشأن من العرب يحرصون على تأمين سبل الراحة أثناء السفر إلا أن ذلك مكلف جدا و يعرضهم إلى بعض المخاطر بسبب غناهم.

فى ۷ آذار/ مارس تركت بيت الفقيه متجها إلى الغرب نحو باب غلفقة الذى كان ذائع الصيت فى السابق. و إليكم أسماء القرى التى رأيتها على يمين الطريق و يسارها: حاجى آجى(Hadsji Adsji) ، ثمانية، حضارة، مقوشية(Makauschia) ، و خضرية(Choddrie) . و من هذه القرية حتى غلفقة لم أشاهد أى

قرية لكن على بعد ۳ أميال رأيت أربعة آبار محفورة مما يدل على وجود قرى قريبة منعتنى الجنيبات من رؤيتها. و لقد كانت المسافة من البئر الأخير و حتى غلفقة ميل و نصف. و كانت الطريق مغطاة بالرمال من هنا و هناك مما جعل دليلى يضلّ طريقه أحيانا لأن الهواء غير الكثبان المؤلفة من الرمل و كنا أحيانا نعود أدراجنا بسبب الكثبان الحديثة التكوين. و وفقا لهذا الحساب هناك مسافة ۵ أميال و ۳/ ۸ من بيت الفقيه إلى غلفقة و هناك مسافة مماثلة منها إلى زبيد.

كانت مدينة غلفقة شهيرة فى الماضى لأنها كانت مرفأ زبيد إلا أنه لم يعد ناشطا، ليس لأن مياه الخليج العربى تراجعت و لأن أرصفة المرجان تضخّمت و حسب بل أيضا بسبب التلال الرملية التى كوّنها الهواء فى هذا المكان منذ بضع سنوات. و تقتصر غلفقة اليوم على ۲۰ أو ۳۰ كوخا حقيرا مشتتا بين شجر النخيل، و يعتاش أهل هذه القرية من التمر و الخراف لأن صيدهم شديد التواضع. ثم إن ثروة هذا الشاطىء هى الملح و يسمح لأى كان بأن يأخذ منه قدر ما يشاء شرط أن يدفع للحاكم (و هو أمين سر صاحب دولة بيت الفقيه) ضريبة على كل حمولة جمل. إن الجدران المقلوبة التى تبقت من مقام السيد على المدفون فى مشيد هى التى تراها فقط فى هذه المدينة القديمة. و لا يزال سكان غلفقة إلى اليوم يوجهون صدقاتهم إلى السيد على. و فى أماكن عديدة على طريق الحديدة وجدت مياها غير صالحة للشرب كالتى وجدتها فى غلفقة.

و لقد رأيت فى مقبرة هذه المدينة حجرين عليهما كتابة كوفية و كان واحد منهما لا يزال واقفا بينما الآخر ممددا على ضريح ما. و عند ما كنت أنقل الكتابة عن الحجر الأول مرّ بى بعض سكان القرية البسطاء فاستغربوا ما أفعل، و فى اليوم الثانى عند ما جئت أنقل كتابة الحجر الثانى لم أجده و لا بد أن القرويين قد أخفوه ظنا منهم أنى سأستعمل الكتابة لألحق الضرر بأهل القرية أو لأجنى بعض المال. ثم توجهت إلى حكيم القرية و وعدته بمبلغ زهيد إن أمّن لى هذا الحجر. فقادنى فى طرق ضيقة إلى أن وصلنا إلى كوخ حقير مبنى على قبر شيخ يسمى صالح و أكد لى أن سكان البلد لم يخفوا الحجر بل هو هذا الشيخ الذى أخذه ليحميه. و بالرغم من ذلك نقلت الكتابات دون أن أخشى إغضاب الشيخ صالح و عرض علىّ الحكيم نقل الحجر إلى بيت الفقيه لقاء مبلغ من المال. و تجدون هذه الكتابات فى اللوحتين السابعة و الثامنة من كتاب «وصف شبه جزيرة العرب».

فى اليوم التالى غادرت غلفقة بصحبة المكارى و حسب و بعد أن سرنا غالبية الوقت على طول الشاطىء باتجاه الشمال و الشمال الغربى وصلنا إلى الحديدة. فوجدنا على جانبى الطريق أشجار النخيل لكن المنازل قليلة العدد. و وفقا لحساباتى هناك ميلان و ثلاثة أرباع الميل من غلفقة إلى الكوخ المسمّى قرام(Kure ?m) الذى يبعد نصف ميل عن قرية شرام الشروم. و فى شمال القرية نجد بعض المنازل وسط النخيل لكن أصحابها لا يسكنون فيها إلا عند ما يثمر البلح. و هناك مسافة نصف ميل بين شرام

و سماحى. ثم بعد ذلك سرت فى الليل ميلين ألمانيين خلال ساعتين و أربعين دقيقة إلى أن وصلت إلى الحديدة. إذن إن المسافة الواقعة بين غلفقة و الحديدة هى خمسة أميال و ربع تقريبا.

إن مرفأ الحديدة أفضل من مرفأ مخيّة إلا أن السفن الكبيرة لا ترسو فيه. و يخضع صاحب دولة الحديدة إلى الإمام مباشرة إلا أن ولايته لا تمتد إلى خارج المدينة أما عائداته فيأخذها من الضرائب المفروضة على البن المصدّر. و تتألف منازل صاحب الدولة و الجمرك و التجار الأساسيين من الحجارة أما المنازل الباقية فهى تتماشى مع إمكانات العامة أى تكون مبنية بطريقة سيئة جدا. و هناك قلعة صغيرة من جهة البحر. دفن فيها شفيع الحديدة الشيخ صادق و تقع خارج المدينة. و يحتفل بذكراه فى ۱۵ شعبان.

التقيت السيدين دوهافن(De Haven) و كرامر(Cramer) و كانا قد قاما بجولة فى الحديدة لتسليم رسائل توصية من أصدقائنا فى جدة و من صاحب الدولة إلى تاجر استقبلهما بحفاوة بالغة. و لأننى لم أرغب بإضاعة الوقت فى الزيارات الرسمية، عدت إلى بيت الفقيه فى اليوم التالى أى فى ۹ آذار/ مارس.

فى هذه الفترة من السنة، لا يسافر الناس إلى تهامة إلا أثناء الليل. و باعتبار أن هذا الأمر يمنعنى من رؤية الأماكن و من رسم خارطة البلد، لذا فضلت التخلى عن برودة الليل و السفر خلال النهار و فى حرارة الشمس. تمتد الطريق باتجاه الشرق و الجنوب الشرقى و قليلا نحو الجنوب. و نجد على طول الطريق عددا من الأكواخ يستريح المسافر لارتشاف القهوة فيها، لكن المنازل تغيب تقريبا و لقد قيل لى إن هذه الأكواخ أخذت أسماءها من القرى التى كانت بقربها. و تبعد الحديدة ۳/ ۴ الميل عن مشورية(Muschuria) التى تبعد ربع ميل عن أسوية(Iswie) و منها لأشيل(Uschile) مسافة ربع ميل. أما المياه فهى عذبة فى هذا المكان لذا يقصده سكان الحديدة لهذه الغاية. و تبعد أشيل مسافة ۷ / ۸ الميل عن مخاخ(Maschdadsje) التى تبعد ثلاثة أرباع الميل عن شبير(Chabeiar) و منها ثلاثة أثمان الميل عن موسى(Mussie) و هى القرية الأولى التى رأيتها على الطريق و تبعد ۳/ ۸ الميل عن وادى عباسى. ثم إن القرية التى أعطت اسمها لهذا الوادى تقع فى جنوب الطريق و فى الشمال هناك قرية تدعى لوع تقع على بعد ربع ميل من غارى(Garri) . و من غارى هناك ثمن الميل إلى قرية قاما(Qama) التى تبعد ۳/ ۴ الميل عن مشفور و منها نصف ميل حتى الكوخ المسمّى شعبيّ(Sh bbie) . من هذه القرية اجتزت مسافة ميل و ثمن الميل إلى أن وصلت إلى المدينة. إذا هناك مسافة سبعة أميال و ثمن الميل من الحديدة إلى بيت الفقيه اجتزتها كلها فى يوم واحد على ظهر حمار استأجرته و برفقة دليلى الذى كان يسير على قدميه.

و لأننى لم ألق أى ازعاج من العرب أثناء رحلاتى، قررت القيام بالمزيد منها فتركت بيت الفقيه فى ۱۱ آذار/ مارس متجها نحو زبيد لأرى ما تبقى من هذه المدينة التى كانت فى الماضى عاصمة تهامة و لأزور مدينة التحيتا(Tah te) الصغيرة القريبة منها بعد أن أكد لى سكان بيت الفقيه أنى سأجد فيها بعض الكتابات الكوفية. و لقد رافقنى فى رحلتى هذه عربى فقير لكنه يجيد القراءة و الكتابة و اغتنم فرصة الذهاب معى ليزور أحد معارفه فى زبيد. و لقد سعدت لذهابه معى.

تمتد الطريق إلى الجنوب الغربى من بيت الفقيه. و تقع قرية جنة على بعد ۳/ ۸ الميل من المدينة. ثم على بعد نصف ميل من المدينة نجد كوخ أثم(Ussum) حيث يمكن ارتشاف القهوة. و بعد أن سرت نصف ميل تقريبا وصلت إلى وادى كوة و هو واد صغير نجد

فيه الماء فى أيام المطر و يؤدى طريقه المتجهة نحو الجنوب الغربى إلى كوخ يدعى مفتّة(Mef tea) يبعد عنه ثلثى الميل. و هناك مسافة ۳/ ۸ الميل إلى كوخ يدعى دمنة(Dimne) يقع على بعد نصف ميل من قرية المحلّة(Meh lle) باتجاه الجنوب الشرقى.

و لقد رأيت بئرين على هذه الطريق. و من المحلّة نجتاز مسافة نصف ميل لنصل إلى قرية أخرى هى قرية مهاد. و لقد رأيت على هذه الطريق ثلاثة آبار محفورة. إن هذه القرية تقع فى واد واسع و خصب يسميه سكان المنطقة وادى المهاد. يتلقى مياهه فى أيام المطر من جبل ربما(Re ?ma) قبل أن تتوزع فى عدة قنوات. و يكثر شجر النبلة فى هذه الوادى.

بعد أن اجتزت ربع ميل جنوبى غربى المهاد وصلت إلى كوخ يسمى جرة و يمر بقربه ساعد من سواعد وادى ربما. و لقد وجدت فيه بعض الماء لكن المياه بدت راكدة و عند ما مررت به مرة أخرى فى ۲ آب/ أغسطس وجدت المياه لا- تزال هى هى. لكن من الممكن وجود نبع فى هذا المكان. و يقول الناس إنه على بعد ربع فرسخ جنوبا كانت هنالك مدينة كبيرة تدعى المهاد لكن لم يتبق منها أى منزل.

فإذا توجهنا من جرة نحو الجنوب و اجتزنا نصف ميل نصل إلى كوخ جبل و من هذا الكوخ هناك مسافة نصف ميل وصولا إلى زبيد. إذا فالمسافة بين بيت الفقيه و زبيد هى خمسة أميال ألمانية و ۳/ ۸ الميل و قد اجتزناها خلال ست ساعات و خمسين دقيقة. و على بعد ربع ساعة من المدينة، أرانى دليلى كومة من الحجار قائلا إنها ما تبقى من قلعة كانت لا تزال موجودة منذ بضع سنوات و إنه فى العصور الماضية كان هناك مدينة كبيرة فى هذا المكان و كانت تسمّى البود(El Baud) .

تقع مدينة زبيد بالقرب من الوادى الأكبر حجما و الأكثر خصوبة فى تهامة كلها. و كان هذا الوادى جافا لكن موسم المطر يحمل إليه كميات هائلة من الماء تصب عليه من الجبال فيصبح نهرا كبيرا مثل النيل فى مصر يسقى القرى المجاورة و يخصّبها. و فى الماضى كانت هذه المدينة مكان إقامة أمير مسلم و كانت من أهم المدن التجارية فى تهامة. لكن بعد أن أصبح مرفأ غلفقة غير صالح و بعد أن انتقلت التجارة إلى المخا و الحديدة و مخية و بيت الفقيه لم يتبق من زبيد إلا شهرة الماضى البائدة. لكن لا بد من القول إن زبيد تتمتع بأفضل مظهر خارجى من بين مدن تهامة كافة و يعود الفضل فى ذلك إلى رجال الدين الذين عرفوا كيف يجذبون الكثير من الثروات، علما أن السكان لا يحصلون اليوم إلا على خمس عائدات المدينة و البقاع المجاورة و يحصل الأمير على الخمس الثانى بينما يحتفظ رجال الدين بالأخماس الثلاثة الباقية. لذلك نجد فى المدينة الكثير من المساجد و القبب التى تبيّض قبيل حلول شهر رمضان. و هذه القبب هى بناء صغير يوضع على قبر المسلمين الأثرياء الذين يعتقد الشعب أنهم بمثابة أولياء. و يقال إن

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۷۳

القبة المسماة جامع ابن عمر عبد الأحد حيث يؤدى صاحب الدولة الصلاة كل يوم جمعة قد شيّدها إمام كان يقيم فى جبلة(? Dsjo bla) و إن قبة الأشعر(El Ash r) قد بناها أحد صحابة الرسول محمد.

و يقال إن مسجد باش القريب من باب شباريق و المسجد القريب من باب القرطاب و غيرها من المساجد هى من بناء الباشاوات الأتراك الذين كانوا يقيمون فى المدينة و أن مسجد الإسكندرية الذى يقع اليوم داخل القصر بالإضافة إلى مسجد كمالية المجاور له قد بنتهما نساء تركيات. و نرى فى هذه المدينة دور عبادة أخرى يقول أهلها إنها رائعة الجمال. و يمكننا مشاهدة آثار قناة ماء تمر فى الجبال و تصل إلى المدينة و لا شك أن أحد الباشاوات الأتراك هو الذى بناها. إلا أن هذه القناة لم تعد صالحة منذ عدة سنوات.

و حاليا يجلب السكان الماء من الآبار المحفورة علما أن مياه المدينة ليست سيئة. حيث نجد فى زبيد و فى جوارها بساتين غناء كثيرة.

يزعم أبو الفدا أنه كان لزبيد فى الماضى ثمانية أبواب إلا أننى لم أسمع إلا بخمسة أبواب؛ كان باب النحل يقع فى جنوب المدينة الغربى و قد اقتلعته المياه من أساسه منذ سنوات. و لا- يزال باب القرطاب قائما لكنه فى الأغلب سيلقى مصير الباب السابق. و باب شباريق يقع فى الشمال الشرقى و باب الشام فى الشمال. و لم يبق من هذا الباب الأخير إلا الجدران الجانبية. و لقد هدت أسوار المدينة بكاملها تقريبا لأن الفقراء من سكانها يقومون ببيع حجارتها. و لقد دققت فى أبواب المدينة و أسوارها و استغرق منى المرور حولها ساعة و بضع دقائق. و بالكاد تحتل المدينة اليوم نصف المساحة التى تقع داخل السور لكن لا نزال نجد فيها عدة مساجد و قبب.

إن جلّ ما تتميز به زبيد هو المدرسة الإسلامية التى تحتاجها تهامة كما يحتاجها قسم كبير من بلاد اليمن. إن هذه المدرسة ذائعة الصيت منذ سنوات. و لا يزال شبان السنة يتعلمون فيها إلى اليوم العلوم الشائعة بين المسلمين. و بالإضافة إلى صاحب الدولة الذى يعيش فى هذه المدينة هناك أيضا مفت و قاض من المذهب الشافعى، و قاضيان آخران من المذهب الزيدى كما ينتمى إمام صنعاء إلى هذا المذهب نفسه و كذلك أتباعه فى المناطق الجبلية؛ كما ذكرت فى «وصف شبه الجزيرة العربية».

لم ألتق بين المسلمين كافة بعربى أكثر فخرا من ذلك الذى التقيت به فى نزل زبيد. و لقد كان يعتاش من التجول فى البلاد على حساب أثرياء الدين. و كان قد زار الحبشة و مصر و سوريا بهذه الطريقة. و كان شريفا من الشرفاء و يسبغ على نفسه صورة الأسياد العظام. ظننت فى بادىء الأمر أن حديثه سيعود علىّ بالفائدة لأنه قد زار الكثير من المدن لكنه لم يستطع إخبارى بخصائصها و جلّ ما استطعت أخذه من حديثه هو أن الشيوخ و أصحاب الدولة و الباشاوات و غيرهم كانوا يكرمونه خير إكرام عند ما يحلّ عليهم لأنه شريف سيد من الدرجة الأولى. و كان يؤكد لأصحابه أنه يتكلم التركية و الإيطالية و الفرنسية و اللغة الحبشية لكنى وجدت أنه لا يعرف من اللغات الثلاث الأولى إلا شتيمة أو بعض الكلمات التى يسمعها من الأوروبيين و الأتراك الذين يمرّون ببلاد اليمن. و بدلا من أن يقوم المسافر كما فى أوروبا باستئجار غرفة

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۷۴

مفروشة فى النزل عليه أن يكتفى فى اليمن بأن يستأجر لكل شخص كرسيا أو سريرا يجلس عليه أثناء النهار و ينام عليه أثناء الليل. و لأن الشريف السابق الذى لم يكن معه ما يكفى من المال لاستئجار سريرين له و لابنه البالغ من العمر اثنا عشر عاما ادعى أنه يفضّل أن ينام ابنه بجواره فى السرير نفسه لأنه يخشى عليه أن ينام وحده. و كان يرسله أحيانا ليقول للخدم أن يقوموا بمهمة ما إلا أننا اكتشفنا أن الصبى المسكين كان يؤديها بنفسه لأن الشريف لم يكن عنده أى خادم. أما عن زوجته المسكينة فكان يناديها بلقب «شريفة» و قد حكى لى بالتفصيل عن أصلها و فصلها من بعد أن فصّل لى شجرة عائلته بالطبع و ذلك لإخبارى أن أحدا من أسلافه الذين يصلون إلى على بن أبى طالب لم يتزوّج امرأة من عامة الشعب كان يحتقر نسب شرفاء تركيا و أسياد اليمن لأنهم تزوجوا من نساء غربيات. و كنت قد سألت يوما تركيا إذا كان باستطاعة ابن أحد الشرفاء من أم أمة أن يحافظ على لقب الشرف فقال لى إن عراقة هذا الابن تفقد جزءا من قيمتها فتصبح تماما كقطعة الذهب المخبأة داخل خرقة من القماش البالى. إلا أن الشريف الذى كنت بصحبته أخبرنى أن هذا التشبيه ليس صحيحا. و قال لى إن ابن الإمام الذى كان أسلافه من الأسياد البيض هو شديد السواد لأن أمه أمة حبشية. و كان الشريف ينادى ابنه بالشريف أحمد لكن عند ما يخرج الولد عن طوعه يسمّيه كلب ابن كلب و عند ما سألته إذا ما كان يسمح للشرفاء بالتفوه بكلام كهذا قال لى إن ذلك لا يؤثر أبدا على العراقة.

كلنا يعرف أن اسم «أبو» لا- يعنى بالضرورة والد. يسمّى العرب رجلا- له شاربان أبو شوارب مثلا، و أبو حمار رجلا يملك حمارا. كذلك يسمّون المرأة التى تبيع الزبد أم الزبد. و على الطريق بين البصرة و زبير هناك مكان سقط فيه حمار مرة فأوقع حمولته من الحنطة فى الماء. و منذ ذلك الحين يسمى ذلك المكان أم الحنطة ... و قد أخبرنى المسلمون مرارا أنه لا يمكن تسمية المسيح بابن الله لأن الله لم يجعل مريم تلده بالطريقة التى نولد بها نحن. ظننت إذا أن كلمة ابن باللغة العربية لا تعنى إلا الولد من نسل أمّه و أبيه و لعله لهذا السبب لا يسمّى المسلمون المسيح ابن الله بل روح الله. إلا أن شتيمة ابن كلب لها عدة معان.

و بعد أن قمت بالأبحاث اللازمة فى زبيد، انطلقنا فى ۱۲ آذار/ مارس باتجاه التحيتا(Tah te) و وصلنا إليها بعد أن اجتزنا مسافة ميلين و ربع إلى الشمال الغربى. سرنا كل الوقت فى وادى زبيد. و هذا الوادى جاف عادة كما فى جوار مدينة زبيد، لكن فى الأماكن حيث لم يحضر الشلال معه الحجارة تتوضع الأتربة الخصبة فترى أجمل الحقول . و يشتهر هذا الوادى بشجر النيل الذى يكثر فى وديان تهامة.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۷۵

و قرب قرية التحيتا هناك أكثر من ۶۰۰ مكان مختص فى صناعة اللون الأزرق.

إننا لا نزال نجد فى هذه القرية عددا من المساجد و البيوت الحجرية المبنية على قبور الأثرياء من السكان و الأولياء منذ كانت التحيتا لا تزال مدينة. و ابن حسن هو اسم أحد هؤلاء الأولياء و مع أن مسجده ليس الأكثر جمالا إلا أن الناس لا يزالون يشعلون القناديل كل ليلة أمام ضريحه كما و يملك أحد أهل بيته نزلا مجانيا فى القرية. لكنى دخلت إلى نزل آخر غير مجانى و ما إن علم صاحبه أنى

غريب حتى جاء بنفسه ليطلب منى التوجه إلى النزل الآخر. لكن لأنى لم أشأ تغيير مسكنى لتلك الليلة، أرسل إلى عشاء شهيا بدلا من الطعام العادى الذى يتناوله العرب. و لقد قيل لى فى منير إن أصحاب النزل لا يأخذون المال لكن هديتى المالية قبلت بعرفان الجميل نفسه الذى قبلت به العشاء.

و كما فى زبيد، لم أجد فى التحيتا أى أثر قديم جدير بأن أنقله. و قد قال لى العرب إن هناك كتابات كوفية داخل المساجد لكنى لم أتجرأ على الدخول إليها خوفا من إثارة نعرات عند السكان.

فى ۱۳ آذار/ مارس عدنا من التحيتا إلى بيت الفقيه. سرنا مسافة ميلين إلى الشمال الغربى قبل أن نصل إلى مزة(Murra) . و على طول هذه المسافة لم أر أى منزل و جل ما وجدته كان بئرا محفورا، و مزة هى قرية كبيرة تقع فى وادى المهاد تحتوى عددا من القبب و على نزل كبير يقدم فيه الطعام يوميا إلى ۳۰ أو ۴۰ شخصا. من هذا النزل إلى الكوخ المسمى الدمنة(Dimne) و الواقع على الحدود بين بيت الفقيه و زبيد هناك ۵/ ۴ الميل. و لقد وصفت آنفا الطريق من الدمنة إلى بيت الفقيه لكنى لم أجد شيئا يستحق النقل.

و باعتبار أنى أعرف أن السفر فى اليمن أكثر أمانا منه فى البلدان الأوروبية كلها، فما أن عدت من سفرتى الثانية حتى بدأت أخطط للثالثة. لكن بما أن شهر الصوم رمضان كان على و شك الحلول فى ۱۶ آذار/ مارس خشيت أن يصبح مسلمو تهامة شديدى التقوى فى هذا الشهر مثل مسلمى مصر. فقد كان مسلمو مصر الذين رافقوا السيد فورسكال من القاهرة إلى الإسكندرية شديدى التقيد بأصول الصيام كما لو كانوا فى بيوتهم؛ فما كانوا يأكلون أو يشربون شيئا طوال النهار و كانوا يستاؤون عند ما يأكل السيد فورسكال أو عند ما تكون الرحلة شاقة. إلا أن مسلمى اليمن لم يكونوا شديدى التقيد بأصول دينهم إذ يصومون شهر رمضان عند ما يكونون فى بيوتهم و يأكلون و يشربون كالعادة إذا كانوا على سفر و يبررون ذلك بقولهم إنهم سيعيدون صوم هذه الأيام فى أيام أخر، إلا أنهم غالبا لا يفون بوعدهم. و بعد أن تأكدت أن عرب اليمن يأكلون و يشربون فى أثناء السفر فى شهر رمضان، استأجرت حمارا و انطلقت نحو (القحمة) فى ۱۹ آذار/ مارس بصحبة المكارى. إذ كنت قد علمت بوجود بقايا مدينة قديمة تدعى ليلو(Le ?lue) . و لأنى لم أشأ أن أبوح للعرب بأنى أجول فى بلادهم بهدف رسم خريطتها، تذرّعت بأنى أبحث عن الكتابات فى ليلو لمعرفة الحروف التى كان يستعملها العرب فى الكتابة بالعصور الغابرة.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۷۶

إننا نجد على هذه الطريق و على بعد نصف ميل من بيت الفقيه مكانا يدعى الأقصى لم يبق منه سوى مسجد لا يزال بصورة حسنة. يحتوى المسجد قبر ولى مسلم يدعى شيخ الأقصى و هو ابن أحمد الموسى الشهير ولى مدينة بيت الفقيه و شفيعها. و من الأقصى نصل إلى كوخ يسمى ركتان(Rachte ?n) يقع على بعد ۳/ ۸ الميل و منه إلى القحمة مسافة ميل واحد. إذا تقع هذه القرية على بعد ميل و ۳/ ۴ الميل عن بيت الفقيه و عند الشمال الشرقى من المدينة. و لسلك هذه الطريق ينبغى أن نمرّ بوادى الحنش و هو شأنه شأن باقى الوديان فى تهامة؛ تغمره المياه أثناء مواسم المطر فيلتقى بوادى الريما و يصب فى الخليج العربى بين شرام(Schure ?m) و سماحى بعد أن يأخذ اسم وادى عباسى.

و بعد وصولى إلى القحمة مباشرة جمعت معلومات حول آثار مدينة ليلو لكنى لم أجد إلا مقبرة تملؤها حجارة مخمسة الزوايا يبلغ إطارها ثماني بوصات تقريبا و طولها من أربعة إلى خمسة أقدام.

و لشدة ما كانت هذه الحجارة شديدة الدقة فى القياس ظننت بادىء ذى بدء أنها من صنع أحد النحاتين؛ إلا أنى سرعان ما اكتشفت بالقرب من المقبرة تلة تدعى جبل قحم تتألف من حجارة مماثلة قام السكان بنقل بعض منها إلى المقبرة. و لقد كانت طبقات الحجارة فى هذه التلة مصفوفة عموديا الواحدة قرب الأخرى و الواحدة فوق الأخرى و كأن بنّاء وضعها. ثم فى ۲۱ آذار/ مارس و فى ۱ آب/ أغسطس رأيت أعمالا- مماثلة من أعمال الطبيعة فى أماكن أخرى و بعد عودتى إلى كوبنهاغن قرأت فى مخطوطة السيد كونيغ و هو عالم دانماركى أنه رأى فى إيسلندا أحجارا مماثلة مخمّسة الزوايا يبلغ ارتفاعها من ثلاثة أذرع إلى ثلاثة أذرع و نصف و قطرها نصف ذراع. كانت هذه الأحجار مستقيمة و مصفوفة طبقات طبقات الواحدة فوق الأخرى. و من القحمة عدت إلى بيت الفقيه و أنا أخطط إلى رحلة رابعة.

كان السيد فروسكال متفرغا للقيام بأبحاث حول النبات فى الجبال؛ تماما مثلما كنت أنا متفرغا للقيام بأبحاث جغرافية فى تهامة. و لشدة ما كان بحثه الذى تناول المناطق المنتجة للبن ناجحا؛ رافقه السيدان كرايمر و بورنفاند فى المرة التالية. أما أنا، فبعد أن تفحّصت محيط بيت الفقيه من جهة الجنوب و الشمال و الغرب ذهبت فى ۲۱ آذار/ مارس إلى الجبال و فى نيتى الانضمام إلى أصدقاء رحلتى بغية تنشق الهواء البارد النقى و شرب المياه العذبة سرت ۵/ ۸ الميل نحو الشمال الغربى لبيت الفقيه و وصلت إلى الجلّ(Dsjelle) و العمرية(Amerie) بعد أن تجاوزت ۵/ ۸ الميل إلى الجنوب الشرقى. و لقد كان هنالك قرية بين هاتين السابقتين إلا أننى لم أجد أى أثر لها. و بعد أن سرت ۳/ ۴ الميل نحو الجنوب الشرقى وصلت إلى «صعيد». حيث هناك مسجد كبير فى هذه القرية له قبة جميلة. و تقع سراب(Sor b) على مسافة ۳/ ۴ الميل، و على بعد ۱/ ۸ الميل منها تقع قرية قفل(Kufl) و على بعد ۵/ ۸ الميل عن قفل تقع قرية سنّف(Sennef) القريبة من الجبال. و من هذا المكان نرى مدينة هادية(Hadie) الصغيرة لكن كان علىّ السير لمدة ۴/ ۷ الساعة قبل الوصول إليها. إن الطرقات فى هذا المكان و عرة لكن يمكننا أن نرى هنا و هناك بقايا طرق يقال إن الأتراك قد شقوها.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۷۷

كان رفاق سفرى فى الجبال حيث ينمو شجر البن. فتبعتهم فى اليوم ذاته سالكا طريق القرمة(Kusma) و وصلت إليهم بعد ساعتين بالقرب من قرية بو القوف(Bulgo ?fe) التى تعيش من البن. إنه لا يمكن الوصول إلى هذا الجبل إلا مشيا على القدمين و مع أن الطريق شديد الوعورة إلا أننى أحببته، كيف لا و أنا الذى قضيت رحلتى بين حقول تهامة القاحلة، و الآن وجدت نفسى محاطا هنا بالبساتين و أشجار البن من كل مكان.

لم أر بالقرب من القحمة إلا تلة واحدة مغطاة بالصخور المخمسة الزوايا لكن كانت الجبال بغالبيتها هنا على هذا الشكل. إن منظر هذه الصخور جميل جدا خاصة فى الأماكن التى تسيل منها المياه من رأس الصخور على شكل شلالات مسنودة إلى أعمدة مستقيمة. و من السهل انتزاع هذه الأحجار عن الصخور و يمكن استعمالها كدرجات على الطريق أو كجدران لتثبيت بساتين البن عند منحدرات الجبال.

إن شجرة البن معروفة فى أوروبا. و لقد رأيتها مزهرة هنا قرب بو القوف تنبعث منها رائحة زكية. تقع البساتين الواحد فوق الآخر و بعضها لا يتلقى الماء إلا من الأمطار بينما هناك برك فى البساتين العليا تجر منها المياه العذبة إلى كافة البساتين الأخرى. و لشدة ما تكون الأشجار مرصوصة الواحدة قرب الأخرى يصعب على أشعة الشمس اختراقها. قيل لى إن الأشجار التى تسقى من غير مياه الأمطار لا تثمر إلا مرتين فى السنة و إن ثمارها لا تنضج إلا مرة واحدة و إن الثمار التى لا تنضج تكون أقل جودة من الناضجة.

و بما أن الحجارة لا تنقص هنا، فإن المنازل كلها مصنوعة منها. و مع أنها سيئة البناء بالمقارنة مع منازل أوروبا إلا أن منظرها جميل من بعيد و خاصة تلك التى تقع على أعلى القمم و الجبال و التى تحيط بها الحدائق و البساتين المزروعة شجرا و التى تكون على شكل جلول. و لقد كنا فى منطقة أعلى من تهامة لكن فى منتصف الطريق المؤدية إلى القرمة يقع منزل صاحب دولة هذا الأقليم على رأس أعلى جبل. إن المنظر جميل من كل النواحى. و فى مكان آخر حيث منزل مشيد خلف صخرة منحرفة، رأينا منظرا رائعا رسمه السيد بورنفايند (راجع اللوحة(LXIII) .

قضينا الليل فى بو القوف حيث جاء عدد كبير من عرب القرية لزيارتنا. و بعد رحيلهم، جاءت مضيفتنا مصحوبة ببعض النساء و الفتيات الراغبات برؤية أوروبيين. لم يظهر أى ارتباك عليهن لأنهن بعكس مسلمات المدينة لم يكن يرتدين نقابا على وجههن و كن يتكلمن معنا بحرية تامة. رسم السيد بورنفايند لباس قروية كانت متجهة لجلب الماء، يمكن رؤيته فى اللوحة(LXIV) . كان قميصها و سروالها من نسيج الكتان المقلم بالأبيض و الأزرق. و كان القميص مزينا بعدة ألوان مطرزة بالإبرة حول العنق و أمام الركبتين و السروال من الأسفل حول الرجلين. و بما أن مناخ الجبال أقل حرارة من تهامة، وجدت بشرة الناس فيه أكثر بياضا.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۸۰

نزلنا من الجبال فى ۲۲ آذار/ مارس و اتجهنا نحو هاديّة. حيث غالبا ما يأتى التجار الأوروبيون من بيت الفقيه إلى هذا المكان لقضاء بضعة أيام لأن المناخ غير حار و الطبيعة جميلة و الماء أكثر عذوبة من ماء تهامة. و من المستحسن لو تسمى هادية بالقرية الكبيرة بدلا من المدينة الصغيرة. فبيوتها فقيرة و ينحصر نشاطها بتجارة البن. و فى أيام معينة من الأسبوع، يحضر سكان الجبال كميات من البن

إليها فيعطون بعضا منها إلى صاحب دولة القزمة على أنها خراج ثم يحملون الباقي على ظهر الجمال إلى بيت الفقيه أو مباشرة إلى حديدة.

إن منظر المنطقة من بيت مساعد صاحب دولة هادية لرائع خلاب. فأمام البيت نرى واديا عميقا فيه جلول مزروعة قمحا و بقولا و وراءه هناك جبال منحدرة و لشدة ما كان المنظر جميلا رسمته في اللوحة(LXV) .

عدنا من هادية إلى بيت الفقيه من الطريق عينه الذي حثنا منه و الذي وصفته سابقا.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۸۱

سير الرحلة من بيت الفقيه إلى عدن، و جبلة و تعز و حاس

لم نواجه في بيت الفقيه عراقيل تعيق أبحاثنا لأن السكان لم يعيرونا اهتماما بالغا، خاصة و أنهم اعتادوا على مشاهدة تجار القهوة الأوروبيين باستمرار؛ و إن حاولوا الاستعلام عن جولاتنا قلنا لهم إنها مفيدة للصحة. تعجب العرب الذين كنا نستشيرهم دوما حول هذا المكان أو ذاك، من استعدادنا الدائم للتنقل من مكان إلى آخر، رغم شدة الحر؛ فهم يفضلون ملازمة منازلهم، خلال فصل الصيد و عدم مغادرتها إلا عند الضرورة القصوى. و لما كنا نوي السفر إلى فرانكبار في بلاد الهند نصحونا بتفادي الجولات الخاصة حفاظا منهم على صحتنا و كانوا يسألون عن السبب الذي حثنا على قطع هذه المسافات كلها، رغم أننا لا نرغب بممارسة الأعمال دون الحصول على شيء في المقابل. خطر لهم أننا نحسن صناعة الذهب؛ و لهذا السبب كان عالم النبات يجوب الجبال بحثا عن نبتة ضرورية لهذه الصناعة، حسب ظنهم. و خطر لهم أيضا أنني أمارس السحر، خاصة و أنني أرصد النجوم.

لم تخطر هذه الأفكار إلا لأصدقائنا من العرب. فصاحب الدولة لم يرسل أحدا ليستعلم عن موضوع رحلاتنا؛ فاستغليت هذا الظرف للقيام ببعض الرحلات الجغرافية. و كنت أعرف جيدا مناطق تهامة، و خاصة القسم الشرقي من مملكة اليمن؛ و كنت أنوي التعرف على المناطق الباقية خلال رحلتي إلى المخا؛ لأننا اقترحنا الانتقال من المخا إلى تعز و صنعاء، و العودة بعدها إلى بيت الفقيه. كنت آمل إذن أن أشاهد خلال هذه الرحلة القسم الجنوبي و الشرقي و الداخلي من المنطقة الجبلية في هذه البلاد. و في سبيل رسم خارطة لليمن خطر لي أن أتعرف على طرقات بيت الفقيه الواقعة في وسط تهامة، و على مدن أخرى واقعة في وسط المنطقة الوعرة. أما بالنسبة لطرقات عدن، و جبلة و تعز فهي واقعة شمالا.

يستطيع المرء التنقل في تهامة ليلا و نهارا دون التعرض لأي سوء؛ و لكن لا أحد يحب السفر ليلا في المناطق الجبلية، كما و أن التنقل وحيدا على الطرقات المنعزلة محفوف بالمخاطر. خاصة و أنني لا أجيد اللهجة التي يستعملها عرب الجبال. فطلبت من صديقي فورسكال مرافقتي في هذه الرحلة، حتى يترجم لي اللغة السائدة في البلاد؛ فبعد إقامته في الجبال حيث ينمو البن تعلم عددا كبيرا من الكلمات التي لا تستعمل أبدا في تهامة و بالتالي غريبة عني كليا. فلم يتردد بالقيام بهذه الرحلة التي ستأتي عليه بالفائدة أيضا؛ فاستأجرنا حمارين من عربي رافقنا سيرا على الأقدام، و قام مقام مرشد سياحي لنا، و خادم و ترجمان. و كنا قد أرخينا لحيتنا مثلما يفعل العرب، و ارتدينا ثيابا طويلة أضفت علينا طابعا شرقيا، غير

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۸۳

أننا استعملنا اسمين عربيين حتى لا يتعرف علينا الأوروبيون؛ و بعد أن اتخذنا هذه التدابير كلها، شكك سائق الحمير في أمرنا، و حسبنا من مسيحيي الشرق.

في ۲۶ آذار/ مارس انطلقت برفقة السيد فورسكال و السائق من بيت الفقيه؛ و بعد أن قطعنا نصف ميل جنوبا، بلغنا قرية محل القوس؛ فاتجهنا من هناك جنوبا أو جنوبا- شرقا، لنصل إلى كوخ دياب، حيث ارتشفنا القهوة. و بعد أن سرنا حوالي الميل و نصف الميل، بلغنا قرية عربين الواقعة في وادي المهاد.

و سلكنا لاحقا الطريق الجنوبي- الغربي، لنصل إلى منجد، و منها إلى قرية بساد، على بعد نصف ميل، و إلى قرية أرجود على بعد ربع ميل. و تبعد هذه القرية نصف ميل عن محلة الشيخ المجاورة لربوع؛ و هي قرية كبيرة يقام فيها أسبوعيا سوق كبير، يجتمع فيه التجار و الحرفيون و العاطلون عن العمل من القرى المجاورة بهدف جني المال أو اللهو (راجعوا كتاب «وصف شبه الجزيرة العربية» و من يقطن في قرية ربوع شيخ يخضع لصاحب الدولة في زبيد؛ و يبدو بالتالي أن ربوع تبعد خمسة أميال و نصف الميل عن بيت الفقيه.

و في ۲۷ آذار/ مارس، غادرنا (ربوع) عند شروق الشمس؛ و بعد أن قطعنا نصف ميل جنوبا وصلنا إلى عقبي، و منها إلى سلامة، الواقعة عند سفح الجبل الذي يبعد نصف ميل عن مشعل، شاهدت قرب هذه القرية للمرة الأولى مياها جارية في اليمن؛ هي نهر وادي زبيد قبل أن يدخل إلى تهامة. و اللافت للنظر أن مجرى هذا النهر عريض جدا في هذه البقعة؛ و لكن الأمطار لم تهطل منذ فترة طويلة، و لذلك لم يكن عرضه يتعدى ۲۰ أو ۲۴ قدما. و بعد أن يدخل النهر أراضي تهامة القاحلة، تصب مياهه في الأرياف المجاورة، و تضيع بكاملها. ثم عبرنا قرب المياه جنوبي الجبل و اهتدينا إلى النهر قرب متعة و هي القرية الأخيرة التي نشاهدها في هذه الجهة من زبيد.

و يمكننا تحديد موقع المدن إن جبنا المناطق السهلية في هذه البلاد: و لكننا نخفق في ذلك بالمناطق الجبلية، نظرا لتعرجات الطرقات و وعورتها. و لتدارك هذه العقبة، غالبا ما نستعمل البوصلة، لتحديد المسافات بدقة متناهية. و استنادا لحساباتي، تقع متعة في الجهة الجنوبية- الشرقية، على بعد نصف ميل من مشعل. و بعد أن قطعنا ميلا و نصف الميل، وصلنا إلى جبل سلام. و لقد قال لي عربي في الحديدة إننا نجد في هذا المكان صورا منقوشة على الصخور و على الجبل لكافة أنواع الحيوانات. و بناء على هذه المعلومة كنت آمل اكتشاف نقوش قديمة، و هيروغليفية في هذه البقعة؛ و لكن آمالي ذهبت هباء. فقد حفر عربي عاطل عن العمل على هذه الصخور صورا كتبية، كتلك التي تحدثت عنها سابقا.

و على بعد نصف ميل من جبل سلام، توقفنا في كوخ سلام لارتشاف القهوة؛ و هو يبعد ربع ميل عن قرية سلام، حيث يقام أسبوعيا سوق شعبي. و كنا نسير تارة في وادي زبيد، و طورا بمحاذاة هذا الوادي الشاسع؛ و بعد مضي ساعتين تقريبا، بلغنا ضفاف النهر الجنوبية؛ و شاهدنا من بعيد قريتين صغيرتين، لم

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۸۴

يفصح لي أحد عن اسمهما و رقدنا تلك الليلة في مشعا(Mascha) ، الواقعة جنوبي- شرقي سلام.

لا يسلك الرحالة هذه الطريق إلا لماما؛ فهي وعرة و خالية تقريبا من السكان و محفوفة بالمخاطر؛ لكن منذ بضع سنوات عين سيد عدن في مشعا نائبا لصاحب الدولة يعاونه على حفظ الأمن عدد من الجنود؛ و لقد قيل لنا إن هذا النائب يعوض على الأشخاص الذين يتعرضون للسرقة في مناطق نفوذه و أن لا شيء يدعو للخوف. و فرض علينا نائب صاحب الدولة دفع ربع ريال للمرور في المنطقة. فوجدت أن هذه الضريبة و غيرها من الضرائب التي تفرضها الحكومة العربية على الرحالة زهيدة للغاية مقارنة بتلك التي تفرض في أوروبا.

و يقام في مشعا، سوق شعبي مرة في الأسبوع؛ و هي تمتاز بأكواخها الرديئة المصنوعة من الأنسجة المصلبة، و المغطاة بالقصب و بعد عناء طويل، وجدنا كوخا صغيرا لنبيت فيه؛ غير أننا لا نستطيع الوقوف وسطه بارتياح كما و أن أرضه ضيقة للغاية، و لا تتسع لاثنين منا؛ و كان يكفي أن يوضع في داخله سرير واحد من تلك التي تكثر في منازل تهامة؛ غير أن هذه الأسرة لا تستعمل إطلاقا في مناطق اليمن الجبلية؛ و يفضل الجميع الجلوس أرضا شأنهم في ذلك شأن سكان مصر و تركيا. أما عامة الشعب في مناطق اليمن الجبلية، حيث درجات الحرارة منخفضة فيستعملون أسرة مختلفة عن تلك المستعملة في تهامة. يندس العربي الجبلي عاريا في كيس كبير، دون أن يقفله فوق رأسه؛ فتحول حرارة لهاثه دون إحساسه بالبرد، و يوضع الكيس مقلوبا في النهار على سطح المنزل حتى لا تتكاثر الحشرات الطفيلية ليلا. و لم أحاول أبدا أن أنام في الكيس، و لكنني اعتدت على تغطية وجهي خلال الليل، خاصة في الهواء الطلق، تفاديا للندى المضر بالصحة، و الرياح المؤذية (وصف شبه الجزيرة العربية) و لم نجد في القرى الواقعة على طريقنا إلا بعض الخبز السيء المصنوع من الذرة و كميات قليلة من حليب النوق؛ لكني وجدت المياه لذيذة للغاية في الجبال الواقعة خارج تهامة.

و في ۲۸ من شهر آذار/ مارس، غادرنا مشعا؛ و سلكنا طرقات متعرجات و وعرة حتى بلغنا مصيل(Masil) بعد أن قطعنا ميلا تقريبا. ثم عبرنا بين هاتين القريتين سهلا فسيحا تكثر فيه الأشواك و الأعشاب؛ و لا حظنا أن الأراضي أكثر خصبا و المنازل أكثر جمالا؛ فهي مبنية من الحجارة المتراصة و التي يعلوها سقف ترابي. و يقع وادي زبيد على الجهة الشمالية للطريق على مسافة بعيدة جدا عنه.

و يقام سوق شعبي في مصيل؛ غير أننا لم نكن نحمل جوازات سفر أو رسائل توصية، و نفضل التنقل متخفين و تجنب الأماكن

المكتظة بالناس؛ لهذا السبب تابعنا طريقنا دون أن نتوقف للهو قليلا. و يقع على الطرف الآخر للبلدة جبل نخيل الشاهق الذى يتطلب تسلقه حوالى ۴۵ دقيقة؛ شاهدنا على سفح هذا الجبل رمالا لماعة أو حجارة الميكا؛ و هذا ما حثّ عرب العامة على الاستنتاج بأن هذا الجبل يحوى عروق ذهب. و عند الظهر وصلنا إلى كوخ حيران حيث شربنا القهوة بعد أن مررنا أمام قبة تعلو ضريح أحد

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۸۵

الأولياء، و بئر يستعمل الناس مياهه لإرواء الماشية التى تمر فى هذا المكان و أظن أن حيران تقع على بعد ربع ميل جنوبى- شرقى مصيل.

ثم مررنا فى وقت لا حق بقرية سهل، الواقعة على قمة الجبل، و أمام قبر الشيخ تارى الواقع على قمة جبل آخر. زعم السيد فورسكال أن جبال هذه المنطقة غنية بعروق الحديد. و لقد توقفنا ليلا قرب كوخ الوشفاد، بعد أن أنهك التعب الحمير، حتى يتمكن السيد فورسكال من جمع الأعشاب قرب جدول صغير. و لم نصادف فى تلك المنطقة إلا صبى القهوة. و كانت المنازل متداعية و خالية تماما حتى لتحسبَ المكان مهجورا حقا. أما الطريق الممتد من حيران إلى الوشفاد فيمتاز بتعرجاته الكثيرة. و تبلغ المسافة بينهما حوالى الربع ميل. و يمكننا بالتالى القول إن مشعا تبعد ثلاثة أميال عن الوشفاد.

لما كان سكان المنطقة يتوقعون هطول الأمطار فى أوقات متقاربة، بنوا قرب الجبال سدودا من الحجارة و الأشواك حتى تصب المياه المتدفقة من أعالى الجبال فى الحقول المجاورة؛ فهذه الحقول متدرجة و لها من الجهة السفلى سور ترابى، يحول دون تسرب المياه. يجدر بالبلدان الأخرى أن تقلد هذه الطريقة فى رى الحقول. غير أننى لا أحبذ أبدا طريقتهم فى قطع الخشب؛ فهم يشعلون النار عند أسفل الجذع، حتى يشتعل جيدا و تقع الشجرة كلها.

و فى ۲۹ آذار/ مارس، غادرنا عند الساعة الثانية ظهرا الوشفاد، فعبرنا الجدول الصغير الذى أشرت إليه سابقا، و بعض الهضاب الصغيرة حتى بلغنا جدولا آخر ينبع من شرقى أعالى الجبال، و يصب فى وادى زبيد بعد أن ينضم إلى سواقى المنطقة فشاهدنا أولى بساتين البن، على الطريق التى قطعناها من بيت الفقيه؛ و لو اعتبرنا الطريق مستقيمة، وقع هذا المكان على بعد نصف ميل من الوشفاد. و لقد صادفنا فى طريقنا ثلاثة جبال شاهقة، و شاهدنا على الأخير جامعا متداعيا توقفنا قربه لارتشاف القهوة. و بعد مرور نصف ساعة عدنا إلى وادى زبيد، الذى لم نشاهده منذ مغادرتنا مشعا. و تكثر فى هذه المنطقة بساتين البن. ثم عبرنا لاحقا ساعد الوادى الآخر الذى كان جافا، و مليئا بقضبان القصب، التى يبلغ طول كل واحد منها ۲۰ قدما، منصوبة على جانبى الطريق أو على ضفاف الجدول الجاف. و الجدير ذكره أن عدن تقع على مقربة من هنا استنادا إلى حساباتى و تبعد الوشفاد ميلين عن الجامع أو ما يعادل أربع ساعات و نصف.

إن مدينة عدن مفتوحة و صغيرة؛ لا يزيد عدد منازلها على ۳۰۰ و هى مبنية من الحجارة و الملاط يمر أمام البلدة من الجهة الشمالية جدول يصب فى وادى زبيد. و الجدير ذكره أن الطريق الممتدة من تهامة إلى عدن شبه خالية من السكان؛ بينما يحتشد الناس فى أماكن أخرى من هذا الأقليم. و يؤمن البن مردودا كبيرا علما أن بن عدن هو الأفضل فى اليمن و فى العالم أجمع و لا أظن أن الإمام يعين صاحبا للدولة فى هذا المكان، تستلم عائلة الشيخ التى تقيم فى قصر خارج البلدة زمام السلطة؛ غير أن الشيخ العالم يخضع لسيادة الإمام.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۸۶

ثم غادرنا عدن صباح ۳۰ آذار/ مارس، و بعد أن قطعنا ربع ميل، بلغنا وادى زبيد الغنى بالقصب.

و بعد أن اجتزنا ربع ميل آخر، بلغنا بلدة شيخ شهارى، حيث صادفنا كوخ حطبة على جبل مسعد فتوقفنا فيه لارتشاف القهوة. و كانت عدن واقعة على الجهة الغربية. قطعنا من الكوخ المذكور نصف ميل لنبلغ وادى زبيد. و بعد أن سرنا صعودا حوالى النصف ميل بلغنا بلدة عصل(Osle) ؛ و شاهدنا فى جوارها حقولا مزروعة بقصب السكر و رغم أن عصل مرتفعة عن سطح المياه إلا أننا سرنا ۹ أرباع الساعة للوصول إلى قمة الجبل.

و لقد كانت طريق هذا الجبل الوعر مبلطة جزئيا. و لكن لم يحاول أحد ترميمها منذ عدة سنوات.

و لا حظت أن سكان اليمن يتخذون إجراءات كثيرة لتأمين الراحة للرحالة؛ فقد وجدنا على هذا الجبل ثلاثة خزانات صغيرة مليئة بالمياه العذبة مخصصة لاستعمال المارة. يبلغ عرض هذه الخزانات قدمين و نصف و طولها خمس أو سبع أقدام و هى مستديرة أو محددة الرأس من الأعلى و لها فتحة واحدة تسكب منها المياه. و نجد أحيانا قرب هذه الخزانات يقطينة مقعرة، أو مجرفة خشبية؛ و لكن يستحسن أن يجلب المسافر معه كأسه أو إبريقا للرحلات الطويلة و لما كانت الأمطار تهطل بغزارة فى هذه المنطقة الجبلية خلال وقت محدد من السنة بنى على هذا الجبل منزلان أو قبتان يحتمى فيهما المسافر من وابل الأمطار. تقع بلدة رعكة(R ka) على ارتفاع ۳/۲ من الجبل بينما نجد بلدة مشوار على الجهة الشمالية من الطريق. و إن وقفنا على قمة الجبل شاهدنا مدينة عدة على الجهة الغربية وعب على الجهة الشرقية.

و تقع مدينة جبلة خلف جبل شاهق على بعد ميل تقريبا؛ مما يعنى أن عدن تبعد ثلاثة أميال عن جبلة.

لقد حملنا معنا محر ريومور الذى كنا نعود إليه فى كافة الظروف، بينما كان السيد بورانفايند يقيس الارتفاع فى بيت الفقيه مستندا إلى محر فهرنهايت. أما محر ريومور فسجل ذلك النهار عند الواحدة ظهرا، ۱۷ درجة و نصف، بينما سجل محر فهرنهايت ۷۱ درجة؛ و فى الوقت عينه، سجل محرى فى بيت الفقيه ۵۶ درجة؛ و هذا يعنى أن الطقس كان ألطف حيث كنا منه فى تهامة. و تعتبر الملابس نوعا آخر من العناصر التى تشير إلى الفرق فى الحرارة. فينما ينتقل سكان تهامة شبه عراة يرتدى عامة الشعب فى هذه المنطقة الوعرة جلد الخراف.

و لقد شاهدنا بين الجبل المذكور و جبلة عدة قرى منها مدينتا بنى حسان و عقاب. و كانت التلال مغطاة بحقول الثيلم المتدرجة، غير أن البن لا ينمو فى هذه المنطقة رغم خصوبتها.

إن عرب اليمن يعترضون- و خاصة الجبليون منهم- المارة و يسألونهم عن القرية التى غادروها عند الصباح، و تلك التى ينوون قضاء الليلة فيها؛ و لما كانت غايتهم الاطمئنان عليهم فحسب فمن قلة التهذيب عدم الإجابة على هذه الأسئلة كلها. فأعطيناهم أجوبة صريحة على السؤال الأخير. و فضلنا التكتم حول السؤال الأول: لأننا كنا نردد دوما أننا قادمون من الشام (الشمال)؛ و الشام هى دمشق فى سوريا.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۸۷

و إن حاول أحدهم أن يسألنا إن كنا أتراكا قلنا له إننا نصارى؛ فظن أننا يونانيون أو أرمن. و فى الحقيقة كان باستطاعتنا الاعتراف بهويتنا الأوروبية من دون التعرض لأى سوء؛ لكننا حاولنا أن نتجنب هذا الأمر كى لا نثير فضول الشعب. و لقد ظنت صاحبة أحد المقاهى فى أجرود أننا رجال دين أتراك؛ لأنها طلبت منا أن نتلو لها الفاتحة (و هى صلاة شائعة عند المسلمين). و قبل مغادرتنا المكان عند وصولنا إلى جبلة، أسماني أحدهم الحاج أحمد، و ادعى أنه يعرفنى بهذا الاسم منذ عدة سنوات. و لم يحاولوا الاستعلام عن جوازات السفر، أو ضرائب العبور أو أى شىء آخر يفرض على الرحالة الأوروبيين؛ و رغم أننا كنا فى شهر رمضان وجدنا فى بعض المقاهى- و بشكل خاص- فى المنعزلة منها أشخاصا يعدون الطعام للمسافرين.

تعد جبلة عاصمة إقليم أم علا(Iemo Ala) ، و مقر صاحب الدولة. يبلغ طولها ۵۰۰ قدم هندسية و تقع قرب واد ضيق و عميق؛ و لكنني لا حظت أنها ليست كثيرة العرض مما يجعلنى أظن أن عدد منازلها لا يزيد على ال ۶۰۰.

و تمتاز هذه المدينة بطرقاتها المعبدة، و منازلها الكبيرة المبنية على الطراز العربى؛ غير أنى لم أر فيها قصورا أو سورا، و لم أحاول أن أوطد علاقاتى بسكان البلدة الأصليين الذين يعرفون الجوار جيدا كى لا أثير الشكوك حولى و لقد لا حظت أن اليهود يقيمون خارج البلدة و يبلغ طول شارعهم ۱۰۰ قدم و يقع غربى المدينة.

إن مدينة جبلة قد اشتهرت منذ عدة قرون؛ غير أننى لم أشاهد فيها نقوشا ذات أهمية كبرى.

اصطحبونا خارج البلدة لمشاهدة جامع متداع و بعض الصروح القديمة التى ادعوا أن عمر بن سعيد المعروف بصاحب الكلام الذهب هو الذى بناها. لكن النقوش التى رأيتها على بقايا الجدران ليست أثرية إلى هذا الحد. و قيل لى إننا نجد قرب قرية عقاب جوامع هائلة مهدمة، غير أنها لا تستحق عناء الذهاب لرؤيتها. و عند مغادرتى المدينة، أرشدونى إلى صرح صغير شرقى البلدة محاط بالأسوار، دفن فيه باشا تركى. و لم يسمح لى الوقت لنقل النقوش التى تغطيه؛ و لا يهمنا أن نعرف اسم باشا جبلة الذى توفى منذ ۱۵۰ سنة.

ثم فى ۳۱ آذار/ مارس، غادرنا جبلة بعد العشاء و سلكنا طريق تعز. و قضينا الليلة فى خان واقع على الجهة الجنوبية لجبل محراث،

حيث تبعد محراث عن جبلة حوالى ثلاث ساعات أو ميل و نصف فى الجهة الجنوبية- الشرقية.

و فى صباح اليوم التالى، استخدمنا مرشدا سياحيا و تسلقنا جبل شدرا الشاهق لنرى بقايا أحد القصور.

و يعد جبل محراث عاليا جدا مقارنة بالوادى الواقع جنوبا؛ لكن كان يلزمنا ساعة تقريبا لتسلق جبل شدرا. و بعد أن بلغنا أعلى قمة، رأينا آثارا قديمة شبيهة بتلك التى نشاهدها فى ألمانيا قرب القصور المتداعية الواقعة على الجبال. و تتألف جدران هذا القصر العربى و أبراجه من الحجارة الصلبة غير المنحوتة. و رأينا فى

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۸۸

إحدى جهات السور فتحات طويلة و ضيقة، كانت تستعمل قديما ككوى لإطلاق السهام. و لقد انهارت مبانى هذا القصر كله و لم يتبق منه إلا خزان كبير مربع و آخر مستدير لا تزال آثار المدافع بارزة على جدرانه. و يقال إن هذا القصر و آخر على جبل ثقل(Tkel) ، المجاور لبلدة جبلة، قد بنيا على يدىّ حسان الجاهلى؛ و غالبا ما يستعمل العرب كلمة جاهلى للدلالة على أسلافهم الملحدين.

و لم أسمعهم يوما ينعتون الملحدين بالكفار رغم أن هذه العبارة رائجة الاستعمال. و لم أجد أثرا للنقوش فى قصر جبل شدرا؛ لكن طريقة بناء الحجارة تدل على انتمائه للعصور القديمة.

و من أعالى هذا الجبل نشاهد جنوبا حوالى ۲۰ قرية و بلدة؛ و لما كنت أخشى تدوين أسمائها فى حضرة المرشد اكتفيت بمراقبة موقع تعز و بلدة الشروق فى الجهة الجنوبية- الغربية، و جناد فى الجهة الجنوبية، و خان محراث فى الجهة الجنوبية- الغربية، و جبل أحبور فى الجهة الشرقية- الجنوبية، و جبل شيرمان فى الجهة الجنوبية- الشرقية.

ثم فى الأول من نيسان/ أبريل، غادرنا الخان الساعة ۱۱ صباحا. و الجدير ذكره أن كل البضائع التى تنقل من المخا إلى صنعاء تمر بهذا المكان؛ و لهذا السبب يعد الطريق الرئيسى للبلاد؛ كما و أن العرب يعتنون أكثر بالطريق الذى يمر أمام هذا الجبل الوعر من ذلك الذى يمر بين جبلة و عدن قرب الحادى و أماكن أخرى لا يتردد عليها الناس كثيرا. و رغم أن الطريق كثير التعرجات، إلا أنه معبد معظمه مما يجعل التنقل عليه أكثر سهولة . و بعد مرور نصف ساعة وصلنا إلى كوخ شربنا فيه القهوة و وجدنا على بعد ۲۰ دقيقة من هذا المكان كوخا آخر شبيها به. اقتضى إذن النزول من الجبل ۵۰ دقيقة تقريبا؛ أى ما يعادل الربع ميل تقريبا.

اتجهنا جنوبا، لنصل إلى قرية كمدى، الواقعة على إحدى الهضاب. و مررنا بعدها بسهل فسيح، لنبلغ بلدة عماقى(Am ki) ، التى تبعد ميلين و نصف عن جبل محراث. و بعد أن قطعنا حوالى الميل، اتجهنا شرقا لنتعطف بعدها جنوبا و نبلغ كوخ جعفر الذى يحمل اسم الشيخ جعفر المدفون على مقربة من هنا.

و خلال الرحلة كنت أدوّن أسماء الأماكن المميزة، التى كنا نعبر فيها أو نراها من بعيد، فضلا عن الملاحظات التى كانت تخطر على بالى؛ و هذا ما فعلته للمرة الأخيرة فى جبلة. إذ سجلت أسماء المدن التى شاهدتها لا حقا على محفظتى؛ و لكننى أضعتها فى ذلك النهار و لم أعد أذكر أيّا من تلك الأسماء.

و عند وصولنا إلى كوخ جعفر، كان الظلام قد هبط، ففضلنا قضاء الليل فيه، رغم أن صاحب المقهى رفض فى البداية الذهاب لاحضار العلف لحميرنا. و رغم بساطة العشاء الذى تناولناه تلك الليلة استمتعنا به للغاية بعد أن أمضينا نهارا متعبا جدا.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۸۹

غادرنا جعفر صباح الثانى من نيسان/ أبريل، و بعد أن قطعنا ميلا فى السهل بلغنا تعز. و يقع فى الجهة الجنوبية لهذا السهل جبل صابر الشاهق و الخصب و الذى يضم ثلاث خانات و مجلسين. و استنادا لحساباتى، تبعد تعز عن محراث خمسة أميال و ۷/ ۸ الميل، و عن جبلة سبعة أميال و ۳/ ۸ الميل. و الجدير بالذكر أننا لا نستطيع رؤية تعز إلا من فوق هضبة مجاورة للبلدة؛ بينما يظهر حصن قاهر، الواقع على الجبل المحاذى لأسوار تعز عن بعد. رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر ؛ ج۱ ؛ ص۲۸۹

لما كنا نوى العودة ثانية إلى تعز و نخشى أن يتعرف علينا أحدهم، و يحاول الاستعلام عن جولاتنا اكتفينا بأخذ قسط من الراحة فى أحد المنازل، و تابعنا بعدها طريقنا. و تبعد تعز عن قرية قرة(Kerra) حوالى ميل و ۳/ ۸ الميل؛ أما طريقها فوعر و كثير الحجارة، و تحده المرتفعات من الجهتين. و تبعد قرة عن بلدة ربيع(Robey) ، التى يقام فيها أسبوعيا سوق شعبى، نصف ميل تقريبا؛ و نشاهد شرقا حصن قاهر الواقع على قمة الجبل. و بعد أن غادرنا ربيع، سلكنا دربا كثيرة الحجارة لنصل إلى بقعة ينفصل فيها طريق تعز عن طريق المخا الذى يمتد جنوبا. و بعد أن نزلنا جبلا شاهقا بلغنا بلدة ربى(Roba) ، حيث تقام أسبوعيا سوق شعبية. و تقع ربى على بعد ۵/ ۸ الميل من ربيع، و نجد قربها مجلسا.

و فى صباح الثالث من نيسان/ أبريل، غادرنا ربى بعد أن تزودنا بالمؤن من خبز، و بيض، و خلافهما، و بعد أن اجتزنا الجبال، رأينا على بعد نصف ميل تقريبا البئر الثانى. على هذه الطريق؛ و على مسافة ۳/ ۴ الميل من هنا، عبرنا أمام مجلس لنبلغ بعدها ينبوع مياه يتفرع منه جدول صغير؛ و الجدير ذكره أن المنطقة التى مررنا بها ذاك النهار، كانت شبه خالية من السكان. أما الأراضى القليلة الصالحة للفلاحة على طول الطريق فهى مغطاة كليا بالحصى، التى تحول دون جفاف الأرض من شدة حرارة الشمس؛ غير أننى لم أر الحقول مغطاة بهذه الحصى فى المناطق اليمنية التى تشهد ازدهارا زراعيا ملحوظا. ثم شاهدنا لا حقا نهرا صغيرا و خان الشيخ عيسى الواقع فى سهل فسيح تكثر فيه أشجار البلح، و يبعد حوالى ۳/ ۸ الميل عن الينبوع المذكور آنفا. و بعد أن سرنا حوالى الميل و ۱/ ۸ الميل، بلغنا قرية حيدان، الواقعة فى منطقة نفوذ ابن عقلان. و اللافت للنظر، أن أراضى هذه المنطقة الصالحة للزراعة لم تكن مغطاة بالحصى كتلك التى أشرت إليها سابقا؛ غير أن معظمها كان بائرا، و الأسوار المحيطة بها متداعية، و هذه هى مخلفات الحرب؛ فلسنوات خلت، كانت هذه الولاية التى تخضع اليوم لسلطة شيخ من بنى عقلان مستقلة تماما؛ و مما لا شك فيه أن الشيخ المذكور يمتثل اليوم لأوامر الإمام، و لا يملك حق حشد الجيوش. و كان علينا أن نسير حوالى الميل و ۳/ ۸ الميل لبلوغ خان بنى سيف؛ و شاهدنا على طول الطريق، عدة آبار محفورة فى الأرض و خانات كثيرة، لم أحفظ أسماءها كلها. ثم وصلنا فى وقت لا حق إلى خان عودة(Oude) المنعزل، حيث لم يعتد المسافرون على قضاء الليل؛ و لكن أكد لنا المرشد أن الخان التالى يقع على مسافة بعيدة من هنا؛ فارتأينا قضاء الليلة فيه، و طلبنا من صاحب الخان الذى حزم أغراضه كلها عند وصولنا أن يعود إلى

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۹۰

أقرب قرية، ليقضى الليل وسط عائلته. و الجدير ذكره أننا لم نشعر أبدا بالانزعاج فى هذا الكوخ كما و أننا لم نتذمر من عدم توافر وسائل الراحة التى نتمتع بها فى فنادق كوبنهاغن؛ بل كنا فى غاية السرور، لأن رحلتنا كانت تسير حتى الآن على خير ما يرام دون أن نتعرض للأخطار.

و غادرنا عودة صباح الرابع من نيسان/ أبريل، و اجتزنا طرقات وعرة، و هضابا مرتفعة، و وادى سراجى، و نهرا غزير المياه دون أن نصادف أى قرية؛ غير أننا شاهدنا شمالا جبل سودان الشاهق.

لقد اكتشف السيد فورسكال بعد ميل من عودة شجرة بيلسان مغطاة بالزهر؛ و بعد أن أجرى عليها تجارب كثيرة، أيقن أنه عثر على الشجيرة التى تعطى بلسم مكة. فطار فرحا باكتشافه هذا؛ كما و أنه احتفظ بكمية من الأزهار ليقدم دليلا على اكتشافه هذا، و ليثبت صحة وصفه . و يسمى العرب هذه الشجرة أبو الشم، أى الشجرة الطيبة الرائحة؛ و يقال إنها تكثر فى اليمن؛ و لكن السكان يحرقونها للاستمتاع برائحتها، و لا يحسنون استعمالها لشىء آخر.

قطعنا من هنا طرقا وعرة و أودية صغيرة تصب كلها فى واد كبير، بمحاذاة الطريق؛ و بعد أن سرنا ميلا و نصف بلغنا خان مضروب. و تقع على الجهة الجنوبية من الطريق سلسلة جبال مرتفعة(Embarascha) ؛ التى بنى على مقربة منها خانا حمارة و حسيب. و بعد أن غادرنا مضروب مررنا أمام خانين آخرين، و وادى دامى(Dhami) ، الذى يصب فى وادى سراجى الكبير. و بلغنا أخيرا بلدة سلامة، التى تبعد ميلا و ۲/ ۳ الميل عن مضروب. حيث تكثر فى هذه البلدة القبب، أو دور العبادة المبنية فوق أضرحة المسلمين الكريمى النسب. و كان علينا أن نقطع بعد ۵/ ۸ الميل لنصل إلى حاس. و بعد أن جمعت هذه المسافات الصغيرة، وجدت أن مدينة تعز تبعد ۱۲ ميلا و نصف الميل عن حاس.

أما بلدة حاس الصغيرة فتقع فى تهامة؛ و هى تعد عاصمة منطقة عصاب الأسفل، حيث يقيم صاحب الدولة فى حصن صغير، و تكثر فيها مصانع الفخار، و المنازل الحجرية. و تتميز بغناها بالقمح و البلح؛ غير أن مناطق نفوذ آل عقلان تمتد إلى حاس و شرح، التى تبعد ميلا غربا، و تشكل جزءا من إقليم زبيد.

ثم غادرنا هذه المنطقة فى الخامس من نيسان/ أبريل، قبيل شروق الشمس؛ و بعد أن قطعنا ۳/ ۸ الميل، بلغنا خانا عند سفح جبل دباس. و سرنا بعدها ۷/ ۸ الميل لنصل إلى خان مسقط، المجاور لجامع مهدم.

و فى الطريق عبرنا قرب أربع قرى لم أستطع حفظ أسمائها. و اجتزنا من مسقط نصف ميل تقريبا لنصل إلى وادى فراجى (كتبت اسم هذه البلدة استنادا للفظ عربى من البلاد غير أنه كان يجدر بى القول وادى سراجى) فوجدناه جافا، شأنه فى ذلك شأن و ديان تهامة الأخرى.

و سرنا بعدها حوالى ۲/ ۳ الميل لنصل إلى بلدة قرطاب و منها إلى وادى زبيد الخصب أو المنطقة التى

.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۹۱

تتعدى منه. و انتقلنا بعدها إلى معت(M te) و منها إلى زبيد، بعد أن سرنا ميلا عبر الأرياف الجميلة و يمكننا أن نستنتج بالتالى أن حاس تبعد عن زبيد أربعة أميال و ۳/ ۴ الميل.

كان الحر شديدا فى تهامة، عند خروجنا من المنطقة الجبلية، حيث الطقس بارد بعض الشىء. و ترجلنا عن الحمير فى قرطاب قرب خان خارج البلدة. و كانت جدران هذا المنزل الأربعة مبنية من الأحجار الخام الموضوعة الواحدة منها فوق الأخرى. و رغم أن الحر لا يحتمل فى الخارج، شعرنا فى الداخل بالهواء المتسرّب من الشقوق فمنحنا إحساسا لذيذا بالانتعاش. و كان يجدر بى أن أتغطى بالقماش القطنى الطويل، الذى يلف عادة حول الكتف؛ إلا أننى تمددت أرضا و استرسلت فى النوم بعد أن أنهكنى الحر، و تعب السفر. فأصبت بالحمى يوم وصولنا إلى زبيد. و بعد أن تحسنت حالتى تابعنا فى السادس من نيسان/ أبريل طريقنا من زبيد إلى بيت الفقيه، سالكين الطريق نفسها التى و صفتها آنفا. و لكننى عانيت لبعض الوقت من الحمى الثالثة التى أضعفتنى كثيرا إلى حد أننى لم أعد أقوى على فعل أى شىء.

و عند عودتنا إلى بيت الفقيه وجدنا السيد دوهافن متوعكا، نظرا لإصابته بداء الحفر؛ فهو يشعر بالاشمئزاز من طبيعة الحياة التى كنا نعيشها خلال رحلتنا. فمنذ فترة طويلة لم نستطع التزود بالنبيذ و المشروبات الروحية و اكتفينا بشرب المياه و القهوة. و مياه تهامة كانت بمعظمها ملوثة فضلا عن أن القهوة تهيج الدم. أما الكينين فمذاقه لا يعجبنا، رغم أن العرب يعتبرونه مفيدا للصحة. و لقد طلبوا منا أيضا أن نمتنع عن أكل اللحمة؛ و كان هذا صعبا علينا خلافا لحال سكان البلاد الذين يتزودون بأطعمة أخرى أكثر بساطة، فيمكنهم الاستغناء عنها بسهولة. غير أن طباخنا لم يعثر فى شبه الجزيرة العربية على مكونات أخرى لتحضير أطباق أوروبية شهية؛ لهذا السبب كنا نتناول اللحوم يوميا فى مقرنا العام، إن كان يصح أن أطلق على المكان الذى أقمنا فيه هذه التسمية؛ فتدهورت بالتالى صحة الأشخاص الذين لا يتنقلون كثيرا خاصة السيد دوهافن الذى لا يغادر المنزل، و لا حتى مقعده أو سريره إلا لتناول الطعام.

فى تلك السنة، صادف اليوم الأول من عيد الفطر، فى بيت الفقيه فى ۱۴ نيسان/ أبريل، حيث غادر صاحب الدولة البلدة برفقة عدد كبير من السكان، و قصدوا صرحا كبيرا محاطا بالأسوار يسمى المصلّى (راجعوا اللوحة(LXII) بغية الصلاة فى الهواء الطلق. يستمر هذا العيد ثلاثة أيام، لا يمكنك خلالها إقناع أى عربى بالسفر معك، أو بتأدية خدمة لك إلا إن دعت الحاجة الماسّة لذلك.

و فى ۱۷ نيسان/ أبريل، شاهدت فى بيت الفقيه مثالا على صلابة العرب فى المآسى. اندلعت النار فى ذاك اليوم فى منزل واقع فى الجهة الجنوبية للبلدة؛ و لما كان الهواء الجنوبى يعصف بشدة التهمت النيران جزءا كبيرا من المدينة. غير أن العرب لم يفقدوا رباطة جأشهم، و لم نسمعهم يصرخون أو ينتحبون؛ و إن عبّر أحدهم عن أسفه لحالهم، قالوا له إنها إرادة الله. كنا نقيم فى منزل حجرى على مقربة من المدينة المشتعلة؛ و رغم أن الأكواخ المحيطة بنا تحولت رمادا لم تتعرض لأى سوء. و عند ما صعدنا إلى السطح

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۹۲

شاهدنا سكان المنازل الحجرية تتأمل الحريق بأعصاب باردة. و لقد أتى لزيارتنا يومها فقيه من البلدة، بعد أن وضع أثاث منزله فى مكان آمن؛ و أعلمنا بنبرة تنم عن عدم المبالاة أن منزله يحترق. و أظن أن خسارة العربى فى ظرف مماثل لا- توازى أبدا خسارة الأوروبى؛ فهو يحمل متاعه على ظهره و ينتقل إلى حى آخر، أو يقيم فى الهواء الطلق، إن احتدمت النيران أكثر؛ فلا يخسر بالتالى سوى كوخه الذى يستطيع إعادة بنائه بسهولة؛ و مما لا شك فيه أن هذه الخسارة تعد فادحة بالنسبة إلى الفقراء منهم.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۹۳

لرحلة من بيت الفقيه إلى المخا

بعد أن عاينا محيط بيت الفقيه معاينة دقيقة، و بعد أن استعدنا أنا و السيد دوهافن عافيتنا، استعدت القافلة كلها للسفر إلى المخا؛ فغادرنا بيت الفقيه فى ۲۰ نيسان/ أبريل، بعد تناول العشاء، و سلكنا الطريق نفسها التى و صفتها آنفا.

و غالبا ما نسافر ليلا فى تهامة؛ و لكننى قررت أنا و السيد فورسكال، أن نسبق الآخرين مع حمار، حتى يتمكن هو من جمع الأعشاب و أنا من تحديد موقع القرى؛ بينما تتابع القافلة سيرها ليلا مع الخدم و المتاع. و لقد نصبت المزولة عشية وصولنا إلى زبيد؛ و بعد أن حددت ارتفاع نجمتين وجدت أن هذه المدينة تقع على خط العرض ۱۴؟. و فى صباح ۲۱ منه، تابعت أنا و السيد فورسكال طريقنا إلى وادى زبيد، عبر حقول مروية بالماء؛ و بعد أن قطعنا نصف ميل بلغنا قرية طوارق، الواقعة فى وادى جرصة؛ الذى يقع على الساعد الصغير لوادى زبيد؛ و هو يتفرع من ساعده الأكبر، لإخصاب أكبر مساحة من أراضى تهامة. إن حقول هذه المنطقة تحاط بسدود ترابية تساعد على تجميع الكميات اللازمة من المياه لرى الأراضى المجاورة. و بعد مغادرتنا طوارق قطعنا ۳/ ۸ الميل، و بلغنا صاحب القواس، و منها إلى جواهر على مسافة ۳/ ۴ الميل؛ على مقربة من هذا المكان، تنتهى الحقول التى يرويها وادى زبيد و التى يبلغ عرضها ميلا و ۱/ ۸ الميل، بما فيها الأنهر الأخرى. إننا لا نجد قرى كثيرة بين وادى زبيد و المخا، حيث الأرض رملية قاحلة، تكثر فيها الجنيبات التى تستعمل فى تهامة لتغطية سطوح المنازل. و نظرا لشدة الحر فى هذه المنطقة الرملية سارعت أنا و السيد فورسكال إلى الظل و أخذنا قسطا من الراحة فى خان جواهر الحقير. ثم غادرنا الخان عند الساعة الثالثة بعد الظهر. و بعد أن قطعنا نصف ميل وصلنا إلى قرية عدج(Udge) ، المطلة على جبل سوكار الواقع على جزيرة صغيرة فى الخليج العربى. و بعد أن سرنا ربع ميل بلغنا قرية جوهار، و منها إلى قرية شيرج التى تبعد ثلاثة أميال و ۳/ ۸ الميل، أو أربعة فراسخ و ۲۴ دقيقة من زبيد. و عند وصول قافلتنا و متاعنا نصبت مزولتى لأقيس شيرج عن خط الطول الذى بلغ ۱۳؟، ۵۹؟.

يقول أبو الفدا إن الشرقية هى مرفأ على البحر؛ لكن إن كان هذا المكان يقع فى عهده على الخليج العربى فمياهه تراجعت بشكل ملحوظ، و القرية لا تمت إلى وصف أبى الفدا بصلة إلا من حيث رداءة منازلها. و يقيم اليوم فى شيرج شيخ (قاض) يخضع لسلطة صاحب الدولة فى زبيد.

فى ۲۲ نيسان/ أبريل، سبقت أنا و السيد فورسكال و المرشد المرافق لنا، الآخرين و وصلنا إلى مشيد

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۹۴ (Mauschid)

. و لم نشاهد على هذه الطريق سوى خانات للقوافل. سرنا ۵ / ۸ الميل لنصل إلى جوربان(Dsjurb n) ، و منها إلى النهارى(Ennah ri) ، التى تبعد نصف ميل. و رأينا قرب هذا الكوخ ضريح نبى مزعوم علق بعض المسافرين قطعة من ثيابهم على الجنيبات المحيطة به حتى يذكرهم الشيخ فى صلواته، و تستجاب دعواتهم. ثم قطعنا بعدها ۳/ ۸ الميل لنصل إلى دونان(Do ?nne n?) ، و منها إلى مهجان(Moheij n) . و عند الثالثة من بعد الظهر، و بعد أن قطعنا نصف ميل جنوبا وصلنا إلى جبلى. و منها إلى قرية مشيد الكبيرة الواقعة على بعد منة قدم تقريبا من البحر. و بالتالى إلى شيرج التى تبعد أربعة أميال و ۱/ ۸ الميل عن مشيد، أو ۵ ساعات و ۴۰ دقيقة.

و عند وصولنا إلى مشيد، سمعنا الناس يتحدثون عن حرب عائلية قتل خلالها أحد المحاربين تحت أشجار النخيل المجاورة للبلدة. فخفنا أن تصاب قافلتنا بمكروه، خاصة و أننا نتوقع وصولها ليلا. و لكن أكد لنا السكان أن هذه الخلافات لا تعكر الأمن العام أبدا. حين يقتل عربى من تهامة عربيا آخر، تختار عائلة المغدور حلا من ثلاثة: إما الثأر من عائلة القاتل، أو تسليمه للقاضى الذى سيقتله بدوره؛ أو مبارزة القاتل أو أحد أفراد عائلته ؛ و فى الحالة الأخيرة يلزم القاتل بالدخول إلى السجن إلا أن يدفع للقاضى ۲۰۰ ريال إن لم أكن مخطئا. و لسنوات خلت، قتل أحد الفلاحين فلاحا من مشيد؛ فأعلنت عائلة الفقيد أنها ستنتقم بنفسها من القاتل أو من أحد أفراد عائلته لكن عشية وصولنا، التقى رجلان من الفريقين المختصمين فى المكان المذكور و تعاركا حتى الموت؛ غير أن عائلة الفقيد الأول فجعت ثانية بموت فرد آخر من أفرادها فاضطر القاتل إلى أن يدفع مبلغا آخر للقاضى، كما و أن عائلة الفقيد وجدت نفسها مضطرة لقتل شخصين أو للتصالح و وضع حد لهذه الحرب. و فى صباح اليوم التالى التقيت أنا و السيد فورسكال برجل من الفريق المنتصر فى خان على طريق المخا و لم يكن مستاء أبدا من هذه الحرب، لأنها مسألة شرف؛ غير أنه اشتكى من المبالغ التى اضطرت

عائلته لدفعها إلى القاضى خلال فترة قصيرة.

و بعد ذلك وصلت القافلة فى ساعة متأخرة من الليل أو فجر ٢٣ نيسان/ أبريل. فسارعت لاستعمال مزولتى. كانت السماء ملبّدة بالغيوم التى حجبت النجم الظهرى؛ غير أننى تمكنت أخيرا من مراقبة ارتفاع النجم من النسر الواقع الذى يشير إلى بعد مشيد بمسافة ۴۱۳؟، ۴۳؟، عن خط العرض. و يقيم فى مشيد نائب لصاحب الدولة و بعض الجنود التابعين لصاحب الدولة فى حاس. و لما فرضوا على جمالنا المحمّلة بالأغراض دفع رسم عبور فى زبيد، خطر لى أنهم سيفرضون علينا رسوما مماثلة فى المناطق الأخرى فاتفقنا مع جمّالنا على أن يتكفل بهذه المصاريف الصغيرة غير أنه اتفق مع موظفى الجمرک على فرض رسم العبور علينا، و إلا فتشوا متاعنا فاعترضنا عليه و طلبنا مقابلة القاضى الذى سمح لنا بالرحيل على الفور لعدم صحة ادعاءاتهم.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ۱، ص: ۲۹۵

كنت أنوى الوصول هذا المساء إلى المخا قبل أن تغلق الأبواب؛ فانطلقت برفقة السيد فورسكال عند طلوع الفجر رغم أنه لم يغمض لنا جفن فى الليلة السابقة. بعد أن سرنا ١/ ٣ الميل بلغنا خان دربه، و عبرنا لاحقا منطقة مملح التى تنقل إليها مياه البحر و تبخر حتى يجمع الملح و يرسل جزءا منه إلى المناطق الجبلية، شاهدت فى جوار عدن جمالا محمّلة بالملح، و بعد أن قطعنا تربة(Turbo) وصـــــــــــــــــلنا على بعد ٨/ ٧ الميل إلى خان جردان(Djurden) ؛ و منه إلى خان سمعال(Sema Y ?hhle) ؛ حيث تمر بين هذين الخانين الحدود التى تفصل بين المخا و حاس. و بعد أن غادرنا سمعال، وصلنا إلى خان سهارى، بعد أن قطعنا ١/ ٨ الميل. و سرنا بعدها ميلا تقريبا لنصل قرية رواس(Rua Y ?s) ، حيث أخذنا قسطا من الراحة نظرا لارتفاع الحر. و يتفرع من رواس طريق يؤدى إلى المخا مرورا بقبة سابا؛ و هى دار عبادة تضم أضرحة سبعة أشقاء. غير أننا سلكنا طريقا آخر مختصرا، رغم أنه رملى و وعر. و بعد أن سرنا ١/ ٨ الميل، وصلنا إلى بلدة عشتيل التى تبعد ميلين عن المخا. و استنادا لهذه الحسابات تبعد مشيد عن المخا خمسة أميال و ٣/ ۴ الميل؛ لكن أرصادى الجوية تشير إلى أنهما يقعان على بعد ستة فراسخ، قطعناها فى ظرف سبع ساعات على ظهر الحمير؛ و مما لا شك فيه أننا كنا نسرع فى سيرنا.

يمر المسافرون إلى المخا برا بمدينة باب شاذلى؛ و يتبع الأوروبيون العادة المشينة السائدة فى القاهرة للدخول من بابها، أى إنهم يترجلون عن حميرهم و يدخلون سيرا على الأقدام. ترجلنا إذن عن الحمير حتى يفتشوا الخرج. و لم يحاول أحد طرح الأسئلة حول أسمائنا و جوازات سفرنا على خلاف المناطق الأخرى؛ فمررنا بالتالى دون أن يتعرف علينا أحد. و أرشدونا إلى خان، اعتاد الأتراک على النزول فيه، حتى نلتقى بمواطنينا حسب رأى موظفى الجماركِ.

و كان يقيم فى المخا تاجر إنكليزى وصل إليها على متن باخرة من بومباى. و لكن العرب استقبلونا بالترحاب فى اليمن، حتى أننا لم نجد من داع للتحدث إليه أولا كما و أننا لا نحمل رسائل للإنكليز.

و كنا نخشى أن يحسبنا متشردين أو خونة، غير أننا كنا نحمل رسائل توصية متعددة، واحدة من كخيا جدة إلى صاحب الدولة فى المخا، و أخرى من تاجر فى جدة إلى سمسار الإنكليز، و ثالثة من تاجر فى بيت الفقيه، إلى تاجر فى المخا يدعى سيد صالح. فلم نعلم جيدا أن الأمير فرحان لم يكتف بأن يوصى بنا فى رسالته صاحب الدولة فى المخا، بل كتب له فى مناسبة أخرى معددا له ميزاتنا. و علاوة على ذلك، وطدنا صداقتنا فى المخا بابن سيد صالح و اسمه إسماعيل. كان والده قد أرسله إلى جدة لنقل كمية من البن، فحاول أن يكسب صداقتنا و قدم لنا شهادة تثبت أنه كان مترجم الربابنة الهولنديين فى المخا، علما أنه تعلم الهولندية من أحد المرتدين عن الدين؛ و كم كانت دهشتنا عظيمة لأننا لم نقابل منذ فترة طويلة مسلما يحسن لغة أوروبية. و لما كان يحسن الإطراء على الأوروبيين، و يمتاز برزانته رافقناه من جدة إلى مخيه.

أحسنا صنيعا بمقابلة سمسار الإنكليز عند وصولنا إلى المخا؛ فقد كان يعدّ من كبار تجار المدينة الذين حظوا بثقة صاحب الدولة فيهم؛ غير أنه كان بانيانيا، أو ملحدا من بلاد الهند؛ و لا حظنا فى بيت الفقيه

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ۱، ص: ۲۹۶

و مخيّة أن المسلمين لا يعيرون هذه الأمة اهتماما، كما أننا لا نعير اليهود اهتماما لذلك فضلنا أن لا نتقرب منه. قصدت برفقة السيد فورسكال منزل إسماعيل الذى استقبلنا بالترحاب، و أمّن لنا منزلا لنقضى الليل فيه؛ و رغم أنه مسلم، قدم لنا شراب البانش، الذى أنعشنا كثيرا خاصة و أننا لم نحتس الكحول منذ فترة طويلة. و لكن إسماعيل لم يذق البانش و أحضر لنا شخصا هنديا مرتدا عن الدين المسيحى، يعمل تاجرا فى المخا، و يسرف كثيرا فى شرب الكحول. و كنا على و شک أن نثمل برفقته لو لم نع أن الشراب قوى للغاية. غير أن إسماعيل شدّد على صداقته لنا، و عرض علينا خدماته، و اقترح علينا حلق ذقوننا و ارتداء ملابس أوروبية، شأننا شأن الإنكليز الذين يحبون ممارسة التجارة فى المخا، و عدم التحدث بالعربية، حتى لا يظن أحد أننا أصبحنا مسيحيين. لكننا حسبنا كلامه مزاحا. و بعد أن استشرناه حول الطريق الأسرع للوصول إلى صنعاء و غيرها من المدن الجبلية، حذرنا من القيام بهذه الرحلة واصفا الجبليين بالفظّين و القليلى التهذيب؛ و أضاف أن الإمام المسلم يعامل بازدراء من أتباع الديانات الأخرى.

و الجدير ذكره أننى كنت أعرف اليمن أفضل من إسماعيل الذى لم ير من بلده سوى الطريق من المخا إلى مخيّة؛ فأخبرته تفصيليا عن الرحلات التى قمنا بها، بدءا من مخيّة؛ و شكرته على استقباله الحسن لنا الذى لم نحظ بمثله فى أى مكان آخر. غير أنه ادعى معرفته بسكان المخا أكثر منا؛ و أكد لنا أن شعبها يكره الأوروبيين كرها شديدا؛ و لكن والده يتمتع بمكانة مرموقة فى المدينة و يستطيع أن يقدم لنا خدمات كثيرة.

كان إسماعيل يحب التقرب من الأجانب لمصلحته الشخصية؛ و لعله انكب على تعلّم اللغة الهولندية من أجل هذه الغاية فحسب. و كتب والده عدة رسائل إلى باتافيا عبر المرتدين الهولنديين الذين كانوا فى المخا، و استطاع إقناع التجار الهولنديين بإرسال مركب لهم. فوصل هذا الأخير منذ سنتين تقريبا قبل عدة أشهر من وصول الإنكليز؛ و لما كانت المرة الأولى التى يزور فيها الربان المخا، قصد أولا منزل سيد صالح الذى أعطاه فكرة مريعة عن سكان هذه البلدة، و خاصة البانيانيين منهم؛ فشكر الهولندى الله لأنه وقع بين يدى رجل طيب إلى هذا الحد. و استأجر له سيد صالح منزلا و وضع ابنه فى خدمته فأمن له كل ما يلزمه، إلى حد أن الهولندى اعتمد كليا على سيد صالح و ابنه. و حين أتى بعض التجار الهنود الذين يحسنون اللغة البرتغالية لزيارته طردوا من المنزل؛ كما و أن الخدم الذين يتكلمون البرتغالية مع الربان كانوا يؤكدون له ادعاءات إسماعيل حول فظاظة سكان المخا، خوفا من إسماعيل و أبيه لكى لا يتسببا فى طردهم من عملهم. أما التجار العرب فلا يثيرون القلق، لأنهم لا يحسنون إلا العربية و إسماعيل يترجم كلامهم كما يحلو له. فأخذ الهولندى عن سكان المخا فكرة سيئة للغاية حتى أنه كان يتفادى الخروج إلى الشارع خوفا من أن يأخذوه رهينة. و بقيت هذه الأفكار راسخة فى ذهنه إلى حين وصول الإنكليز الذين أثبتوا له أنه وضع ثقته فى أشخاص أشرار؛ غير أنه كان قد تورط جدا مع إسماعيل و أبيه، و لم يعد باستطاعته التنصل منهما؛ و لا أظن أن تجار باتافيا سيرسلون مركبا آخر إلى المخا، بعد وقوع ذاک الهولندى ضحية الخداع.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ۱، ص: ۲۹۷

و خلال الرحلة من جدة إلى مخيّة حاول إسماعيل إقناعنا بأن الدانمركيين أيضا يجنون أموالا طائلة من ممارسة التجارة فى المخا. و لكن بعد أن لاحظ عدم رغبتنا بالتورط فى الأعمال التجارية حاول تضليلنا قدر المستطاع. و نلاحظ بالتالى أن المسافر يقع بسهولة فى الفخ، إن لم يحسن لغة البلاد، أو إن وضع ثقته بأول شخص يصادفه و يعرض عليه خدماته. و هكذا لم يفلح إسماعيل بخداعنا و لكنه سبب لنا خيبة أمل كبيرة؛ فلو أتينا إلى المخا من بلاد الهند دون أن نتعلم العربية و وضعنا ثقتنا فيه، لما حاولنا التعرف على سكان البلاد و لما كانت دراستنا مطابقة للواقع. و عند وصولنا سلمنا رسالة التوصية الموجهة إلى سيد صالح لابنه إسماعيل و لم نقابل والده إلا فى اليوم التالى الواقع فيه ٢۴ نيسان/ أبريل. و لما كان تجار مخيّة و بيت الفقيه، الذين أوصوا بنا، قد دفعوا لنا رسوم الجماركِ و نقلوا لنا متاعنا، طلبنا من سيد صالح و ابنه أن يؤديا لنا الخدمة نفسها؛ فأظهرا استعدادهما التام للقيام بذلك. غير أننى أخالهما يضمران لنا نية مختلفة و يسعيان لإقناع موظفى الجماركِ بتعذيبنا.

و عند الساعة التاسعة صباحا، وصلت القافلة و الخدم و المتاع. و عملا بعادة هذا البلد نقل المتاع إلى الجماركِ حيث كان صاحب الدولة موجودا بنفسه. فطلبنا أن تفتش أولا الأغراض التى نقلت برا حتى تأخذ أوانى المطبخ و الأسرّة؛ لكن موظفى الجماركِ ارتأوا تفتيش الصناديق التى وصلت إلى مخيّة و المخا بحرا، و من بينها برميل صغير فيه أسماک من الخليج العربى؛ و طلب السيد فورسكال عدم فتحه حتى لا يتبخر عرق النبيذ أو تفوح رائحة السمک الكريهة؛ غير أن الموظف فتحه و أخرج الأسماک و حرک السائل بقضيب من حديد ليتأكد من أننا لا نخفى داخل البرميل أحجارا كريمة؛ و رغم المساعى التى بذلناها أوقع البرميل وفاحت رائحة

الأسماك و عرق النبيذ في المكان، و يمكنك أن تتخيل ردة فعل العرب في ظرف مماثل، خاصة و أن ديانتهم تحظر عليهم شرب الكحول فضلا عن الإحراج الذي شعرنا به أمام صاحب الدولة و مساعديه. لقد طلبنا منهم أن يفتشوا أسرتنا أولا؛ و لكنهم فضلوا البحث عن النوادر الطبيعية؛ و كنا قد حملنا معنا من مخبأة حشرات بحرية تبعث أيضا روائح نتنة أثارت سخط الحاضرين و حملتهم على شتم الفرنسيين؛ أما الأصداف التي كنا قد حزمناها بعناية فائقة فانتزعوا بعضها من قعر الصندوق بينما ثقبوا بعضها الآخر بواسطة قضيب حديدي مستدق الرأس؛ إذ لا يصدق العرب أن رجلا عاقلا يجمع هذه الأشياء بغية استعمالها لاحقا؛ بل خطر لهم أننا أرسلناها لنسخر من صاحب الدولة و موظفي الجمارك. و ظن آخرون أننا خبأنا بين هذه الأغراض بضائع ثمينة. و لكن صاحب الدولة لم يصدق أبدا هذه الادعاءات. و أحضروا له أخيرا حقيبة وضع فيها السيد فورسكال أنواعا مختلفة من الأفاعي؛ فأثار هذا المنظر خوف الجميع. فزعم أحد خدام صاحب الدولة أن الفرنسيين أتوا إلى اليمن ليدسوا السم للمسلمين و أحضروا معهم طبيبا كي ينفذوا هذه المهمة بنجاح. و كان صاحب الدولة يظهر تعاطفه نحونا دون أن يكنّ لنا الاحتقار؛ لكن عند ما سمعهم يقولون إننا نوى إلحاق الضرر بالسكان ثار غضبا و قال: أقسم بالله أن هؤلاء الأشخاص لن يمضوا الليلة في بلدتنا و أقفلوا مركز الجمارك دون إعطائنا حاجاتنا الأساسية من أوان مطبخية و أسرة.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ۱، ص: ۲۹۸

ثم جاءنا أحد الخدم مسرعا لإخبارنا أنهم رموا الكتب و الحقائب التي نقلناها على ظهر الحمير من النوافذ؛ و أنهم أقفلوا المنزل؛ و لما أراد السيدان فورسكال و دوهافن الاستعلام عن السبب أجابوهما إنها أوامر إسماعيل. و مما لا شك فيه أن وصف إسماعيل لسكان المخا قد ثبتت صحته حتى الآن. و لكننا اضطررنا للاستماع إلى كلامهم بصبر و أناة. كان إسماعيل و والده قد اختفيا عن الأنظار ما أن بدأ موظفو الجمارك بإزعاجنا. و لم نستطع العثور عليهما أو على صاحب المنزل؛ فرحنا نبحث عن منزل آخر علما أن الجميع رفضوا إيواءنا في هذه الظروف خوفا من أن يعاقبوا. و في نهاية المطاف قبل أحدهم أن يؤجرنا منزله شرط أن يؤكد له القاضي أن الحكومة لن تتعرض له. كان قضاة تركيا يهتمون بحبهم الشديد لمصلحتهم الخاصة على خلاف قضاة اليمن بمن فيهم قاضي المخا الذي أثبت لنا استقامته.

و قصدناه برفقة النيل ليؤكد له أنه يستطيع أن يؤجرنا منزله.

و لقد أرسلت حكومة بومباي في تلك السنة سفينتين إلى المخا مع تاجر يدعى فرانسوا سكوت و هو اسكوتلندي الأصل. وصل هذا الأخير، إلى المدينة على متن السفينة الأولى منذ بضعة أشهر. فأعلم بوصولنا و بحجز أغراضنا في مركز الجمارك. و رغم أننا لم نحاول الاتصال به، دعانا إلى العشاء؛ و أعد لنا طاولة مليئة بالأطايب التي لم نذق مثلها منذ مغادرتنا القاهرة؛ و أثبت لنا أنه صديق مخلص و وفي.

فسلمناه عندها رسائلنا إلى سمساره و اكتشفنا متأخرين أننا أخطأنا بعدم الاتصال به أو بالسيد سكوت فور وصولنا. و رغم أننا استرجعنا شجاعتنا إلا أننا لم نحاول إبداء رأينا الحقيقي في إسماعيل و والده مخافة أن يثيرا لنا مشاكل جديدة.

و لم نستطع حلّ المشكلة مع الجمارك و في ۲۵ نيسان/ أبريل؛ نصحنا إسماعيل بأن نعرض على صاحب الدولة ۵۰ دوقية بغية كسب رضاه. و كنا قد ارتأينا أن نقدم له هدية. و لكن ليس بهذا الحجم؛ كما و أن الشكوك ساورتنا في مسألة إرسالها مع إسماعيل؛ و لما كنا نوى الذهاب إلى صنعاء و قضاء سنة بكاملها في البلاد. و لما كان أمر مغادرتنا المخا مرهون بموافقة صاحب الدولة، قررنا أن نضحي بهذا المبلغ، و أن نسلمه له بأنفسنا حتى نستغل الفرصة و نحاول أن ننال حظوة لديه. و كان خدمه يمنعوننا من مقابلته كلما قصدنا منزله؛ و أكد لنا إسماعيل أن صاحب الدولة لا يتنازل و يتحدث مع المسيحيين؛ و في ۲۶ نيسان/ أبريل قررت المجموعة أن أسلمه ال ۵۰ دوقية بنفسي. علمت في الطريق أنه أصيب عند الصباح برصاصة في رجله بينما كان يدرب جنوده؛ فعدت أدراجي عند سماعي هذا الخبر آملا أن يستدعي طبيبنا لمعالجته و نحتفظ بالتالي بالمال. و لكن أحدا لم يستدع السيد كرامر؛ فحين اقترحوا على صاحب الدولة استدعاءه رفض رفضا قاطعا لأنه لا يثق بالفرنسيين الذين قد ينتقمون منه و يستعملون عقاقير مسخنة؛ فالعرب يميزون بين العقاقير المسخنة و العقاقير المنعشة و يعتبرون الأولى مضرة بالصحة. و لعل العبارة وحدها تثير خوفهم نظرا لشدة الحر في بلادهم. استغل نبيل من نبلاء العرب هذه المناسبة ليقول لنا

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ۱، ص: ۲۹۹

إن الله عاقب صاحب الدولة لأنه أساء معاملتنا؛ غير أننا كنا على ثقة بأنه ليس شريرا و أن بعض الأشخاص السيئي النية أثاروه ضدنا؛ و لذلك لو أتيحت لنا فرصة التعرف عليه من قبل لعاملنا بطريقة مختلفة تماما.

و في ۲۷ نيسان/ أبريل، أعاد لنا موظفو الجمرك أسرتنا بعد أن فتشوها تفتيشا دقيقا؛ و في ۲۹ منه، أعادوا لنا بعض الأشياء البسيطة بعد أن عاينوها بدقة؛ فبدا لنا واضحا أنهم يريدون إرغامنا على تقديم هدية قيمة. فقررنا حينها أن نضحي بال ۵۰ دوقية المخصصة لهذه الغاية؛ و كان إسماعيل قد استطاع طوال هذه الفترة رشوة الخدم حتى لا يسمحوا لنا أبدا بمقابلة صاحب الدولة؛ فكانوا يرددون لنا إنه لا يسمح لأحد بالتحدث في شأننا باستثناء إسماعيل و والده؛ و لكن في ذلك النهار لم يطردوا السيد فورسكال خاصة بعد أن علموا أنه يحمل الهدية؛ فلقد قبل صاحب الدولة ال ۵۰ دوقية و وافق على طلب السيد فورسكال الذي سأله أن يسمح لنا بالدفاع عن قضيتنا بأنفسنا؛ و كم كانت دهشته عظيمة حين أدرك أننا نحسن اللغة العربية و لم نحاول الاتصال به منذ البداية. و في اليوم التالي أرسل لنا هدية بدوره و هي أربع نعاج و كيسين من الأرز. و علمنا في الوقت نفسه أن موظفي الجمارك تلقوا الأمر بإعادة متاعنا دون فتحه. و تحسنت علاقتنا بإسماعيل على الفور خاصة و أنه تكفل بدفع مصاريف موظفي الجمارك و الحمالين بدلا منا رغم أنها بلغت ثلاثة أضعاف المبلغ الذي دفعناه في مخبأة و بيت الفقيه.

و اقترح أعيان البلدة على صاحب الدولة أن يستدعي طبيبنا؛ لكنه كان يخشى أن يعطيه دواء مضرا بالصحة بغية الانتقام منه. بيد أن القاضي أكد له أنه لم يتلق أي شكوى ضدنا و أن احتفاظ الطبيب بأفاع ميتة لا يثير القلق لأن سمّها يستعمل في بعض العقاقير؛ و أن الأصداف و الحشرات البحرية لها فائدة كبيرة. أرسل صاحب الدولة في طلبنا في ۴ أيار/ مايو بعد أن استعان ب أربعة أو خمسة أطباء دجالين و بعد أن زاد مرضه خطورة. و كم كانت فرحتنا كبيرة حين أدركنا أن صاحب الدولة لم يعد يخشانا؛ فأرسل الطبيب كرامر يعلمه بموافقته على تقديم خدماته له. و ما إن تبلغ ردنا حتى أرسل لنا صاحب الدولة أحد خدامه مع بغل لينقل السيد كرامر إلى منزله.

أتيحت لنا لا حقا الفرصة لزيارة صاحب الدولة عدة مرات و التأكد من صداقته لنا؛ و في أحد الأيام أخبره السيد فورسكال أن أحد النبلاء شتمه في الشارع يوم كان صاحب الدولة مستاء منا؛ و دون أن يسعى للتأكد من صحة الموضوع وعد بالتعويض عليه وزج النيل المزعوم في السجن. و صدم إسماعيل برؤية صديقه معاقبا بسببنا و أكد لنا أن السكان ثائرون ضدنا و أن حياتنا باتت في خطر حتى داخل المنزل، فقصد السيد فورسكال منزل صاحب الدولة على الفور طالبا منه إطلاق سراح السجين على أن يعده بأن يعامل الأجانب بطريقة حضارية من الآن فصاعدا. لبى صاحب الدولة طلبه معربا له عن استعداده لزجه ثمانية أيام في السجن إن شتنا ذلك.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ۱، ص: ۳۰۰

و بعيد وصولنا إلى المخا أصبت بإسهال حاد لم أشف منه إلا بعد مضي خمسة عشر يوما؛ أما توعك السيد دوهافن الذي ظهرت بوادره في بيت الفقيه فازداد سوءا في المخا؛ فكان يشعر بالارتياح عند حلول المساء خاصة إن ذهب في نزهة في الطراوة؛ غير أنه لم يكن قادرا على احتمال حرّ النهار. و في ۲۲ و ۲۳ أيار/ مايو نام على سطح المنزل في الهواء الطلق حتى يستمتع بالهواء العليل.

إنه و رغم هبوب رياح قوية في اليوم التالي جازف في ۲۴ و ۲۵ منه بالنوم على السطح فأصيب بالبرد و لم يعد يقوى على النزول وحده إلى المنزل. و راحت صحته تتدهور حتى أن نبضه بدأ يخف تدريجيا؛ كما و أنه طلب كتابة وصيته. و لكننا لم نفقد الأمل في شفائه؛ و عند الساعة الثامنة مساء راح يهذي بكلمات لا معنى لها تارة بالعربية و طورا بالفرنسية و مرة بالإيطالية و أخرى بالألمانية؛ غير أنه ما لبث أن استرسل في سبات عميق ليلفظ أنفاسه الأخيرة عند الساعة العاشرة ففقد العلم بالتالي واحدا من كبار رجال الأدب الشرقي.

إن سكان البلاد لا يضعون شاهدة على قبور موتاهم؛ غير أننا صنعنا واحدة و أرسل لنا الربان في ۲۶ أيار/ مايو ستة بحارة كاثوليكيين لدفنه خارج المدينة في مقابر الفرنسيين. فسار إنكليز المخا كلهم خلف النعش و حضروا الجنازة التي جرت على الطريقة الأوروبية على خلاف جنازة السيد فيرو قنصل البندقية التي جرت في القاهرة في ۴ نيسان/ أبريل ۱۷۶۳، إذ عند خروج النعش من المنزل عبر الحتمالون الشارع بسرعة حتى لا يتجمع الرعاع حولهم فتفرق الأوروبيون الذين كانوا يتبعونهم- في القاهرة- و تجمعوا لا حقا خارج

البلدة قرب الضريح؛ و لما كنا نخشى أن يسرق بدو مصر الجثة ألبسنا الفقيد ثوب ناسك حقير لا ينتفع منه العرب بشيء. أما في المخا فيدفن الناس أمواتهم دون أن يخشوا تعرضهم للسلب أو للنهب من قبل الرعاع.

و بعد موت السيد دوهافن ارتأينا مغادرة المخا و التوغل أكثر في البلاد؛ و رغم أن بعض أفراد المجموعة كانوا يفضلون قضاء سنة أخرى في اليمن لزيارة قرى المنطقة الجبلية كلها ارتأى البعض الآخر العودة سريعا إلى أوروبا. علما أننا واجهنا مشاكل جمّة في المخا. لم نكن نعلم كيف سيستقبلنا السكان داخل البلاد خاصة بعد عودة الإنكليز إلى بلاد الهند. و لما كنا قد زرنا الجزء الأكبر من اليمن و لم يتبق لنا من مناطق نفوذ الإمام إلا الطريق المؤدية من المخا إلى صنعاء؛ قررنا الذهاب إلى العاصمة في أسرع وقت ممكن علّ الإقامة فيها تروق لنا أو إن لم ترق لنا حتى نتمكن من العودة إلى المخا قبل رحيل الإنكليز.

كان باستطاعتي أنا و السيد فورسكال أن نقوم بجولات خاصة، كما فعلنا خلال إقامتنا في بيت الفقيه؛ و لكن رفيقانا في السفر كانا يتوقان مثلنا لمشاهدة مقر إقامة الإمام. و الجدير ذكره أننا لم نستطع مغادرة المكان قبل أن يعالج طبيبنا رجل صاحب الدولة و يشفيها تماما. فادعينا أننا لم نعد نحتمل الحر الشديد خاصة و أن أحد رفاقنا قد قضى بسببه و نفضل الذهاب إلى صنعاء حفاظا منا على صحتنا و البقاء

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۰۱

فيها حتى يقرر السيد سكوت العودة إلى الهند. و في البداية رفض صاحب الدولة طلبنا هذا مدعيا أنه يريد إعلام رئيسه أولا برغبتنا هذه حتى يعطينا الإمام الإذن بدخول صنعاء؛ فقد كان يظن أننا نسعى لمقابلة الإمام؛ و قد جرت العادة في البلاد أن يبلغ الإمام مسبقا بقدوم الأجانب الذين يرغبون بمقابلته و تقديم الهدايا له بغية الحصول على بعض الامتيازات التجارية. غير أن صاحب الدولة وعدنا بمراسلته سريعا و بإعلامنا برده فور تبلغه إياه.

و لما رفضوا السماح لنا بالذهاب حالا و إلى صنعاء قررنا الذهاب إلى تعز في انتظار رد الإمام؛ غير أنهم رفضوا هذا الطلب أيضا و سمحوا لنا بالذهاب إلى موسى(Mussa) . و أكد لنا البعض أن صاحب الدولة لن يأذن لنا بمغادرة المخا قبل أن تشفى رجله تماما؛ و لا يمكننا أن نلومه على ذلك لأنه لن يجد في شبه الجزيرة العربية طبيبا واحدا ماهرا. فاقترحنا بالتالي تركَ طبيبنا في المخا شرط أن يسمحوا لنا بالرحيل؛ غير أن العرب خافوا أن يخفق في العلاج من شدة حزنه على رحيل أصدقائه.

فاشتكينا أمام أعيان البلاد من رفض حاكمهم السماح لنا بالذهاب لإنفاق أموالنا في مكان آخر.

فسألوا عن سبب رفضنا انتظار انطلاق السفن من المخا و حذرونا من التجول في المناطق الجبلية، في هذا الفصل من السنة؛ فمن ينتقل من حرّ تهامة إلى برودة الجبال قد يصاب بحمى قوية. و لما كان هدف رحلتنا التعرف على هذا الجزء من شبه الجزيرة العربية لم نستطع العدول عن قرارنا.

سر صاحب الدولة بشفاء رجله خلال أسابيع قليلة؛ فقد قال طبيبنا إن جرحه ليس بالغا و لكن شفاءه يتطلب وقتا طويلا . ثم وصل رجل عربي إلى المدينة و وعد صاحب الدولة بشفائه في ظرف ثمانية أيام؛ فاستقبل الطبيب الجديد بالترحاب و لبى صاحب الدولة طلبنا؛ و أعطى السيد كرامر الإذن بالرحيل و قدم له بغلا و سرجا و بعض الملابس العربية. و تلقينا في الوقت نفسه الأمر بالذهاب إلى تعز فحسب، لأن صاحب الدولة ينتظر رد الإمام. و علاوة على ذلك أعطانا صاحب الدولة رسالة توصية لصاحب دولة تعز و أرسل معنا أحد خدامه حتى نسافر بأمان و راحة. و كنا نتمنى أن لا يفعل ذلك لأن هذا الخادم كان يراقبنا باستمرار؛ مما جعلنا نتوخى الحذر في تصرفاتنا.

و لما كنا نجهل إن كان بوسعنا العودة إلى المخا خلال هذه السنة اتخذنا الإجراءات المناسبة كافة؛ فأخذنا معنا الأغراض اللازمة علما أننا قد نقضي سنة تقريبا في المناطق الجبلية. و لكننا فضلنا أن نحتفظ بجزء من أموالنا النقدية مع سمسار الإنكليز الذي حملنا رسائل لبانياني تعز و صنعاء.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۰۲

الرحلة من المخا إلى تعز

غادرنا المخا في ۱۳ حزيران/ يونيو عند غروب الشمس؛ سرنا ليلا حوالي ست ساعات أو أربعة أميال و نصف لنصل إلى موسى. وجدنا قرب المخا بئر الشاذلي الشهير؛ الذي يشرب منه الفقراء فقط علما أن السكان يفضلون مياه بئر بليل الذي يبعد فرسخا عن المدينة؛ أما الأثرياء فيجلبون الماء من موسى. و تمتاز المنطقة الممتدة من المخا إلى موسى بجفافها و خلوها من السكان؛ و لم أر على الطريق إلا خانات دبولي(Dabulie) و بصي(Bsie) و فترا(Fatra) . و تقع بلدة موسى على مدخل المنطقة الجبلية؛ و يقيم فيها صاحب الدولة و عدد من الجنود في حصن صغير. و غالبا ما يزور الأوروبيون القادمون من الهند إلى المخا بلدة موسى لقضاء وقت ممتع؛ غير أنني لا أظنهم يستمتعون كثيرا؛ إذ لا نجد فيها سوى مياه عذبة و منازل حقيرة و حرا شديدا. و بعد أن استنتجنا أن مياه الخليج العربي قد تراجعت في هذه البقعة؛ كان علينا أن نبحث هنا على مرفأ موسى الذي يتحدث عنه علماء الجغرافيا اليونانيون. تمتد مناطق نفوذ أولاد يقظان من موسى على طريق سفار و جبل الشرق (سفر التكوين الفصل ۱۰).

و في ۱۰ حزيران/ يونيو غادرنا موسى عند الساعة الرابعة من بعد الظهر متجهين شمالا و بعدها شرقا؛ فعبرنا واديا كبيرا تصب مياهه بعد هطول الأمطار الغزيرة في بحر مجاور لمخا، لتتلاشى بعدها في أراضي تهامة. و لقد سلكنا بعدها طرقات وعرة حتى بلغنا خان الميجم(El Meij m) ، و منه إلى خان سبلة الواقعة على بعد ۸/۳ الميل. و قطعنا ذاك النهار ميلا و نصف الميل لنصل إلى بلدة عريش الواقعة على حدود المخا حيث يقام سوق شعبي كل نهار أحد. و على مسافة نصف فرسخ من البلدة المذكورة نجد منزلا صغيرا تدفع فيه مبالغ زهيدة على حمولات الملح التي ينقلها العرب من رواس إلى إقليم جاوه المستقل؛ غير أن لا أحد يطالب بدفع رسوم على البضائع التي تنقل من المخا و تعبر صنعاء أو غيرها من المدن الواقعة في مناطق نفوذ الإمام.

قابلنا ذاك النهار فردا من سلالة الشيخ الشاذلي الشهير. و رغم جنون هذا الشاب كان يضحك و يلعب مع بعض شبان مجموعتنا الذين كانوا يحثونه على القيام بهذه الدعابة أو تلك؛ و لكن لم يحاول أحد إهانته رغم أنهم لم يكنوا له أي احترام. لأننا نعرف أن المجانين في مصر يعدون من الشيوخ و حتى أنهم يعدّون من الأنبياء بعد وفاتهم؛ غير أننا اكتفينا بتسميته شيخا تيمنا بالشيخ الشاذلي الذي يتحدر من عائلته. و يقال إنه لسنوات خلت أفقد أحد النجارين عقله بعد أن احتال عليه.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۰۳

و نظرا لوعورة الطرقات في هذه المنطقة الجبلية ارتأينا عدم السفر ليلا؛ ففي ۱۱ حزيران/ يونيو غادرنا عريش عند شروق الشمس و سرنا شمالا مرورا بدحواحة(Dahuaha) ، فوصلنا بعد مسافة ميل و ۱/۳ الميل إلى بلدة البراش(El Brach) ، حيث يقام أسبوعيا سوق شعبي. و تقع شرقي الطريق جبال كامار الخصبة؛ و هي تخضع لنفوذ شيخ ابن عقلان المقيم في دوربات؛ علما أن السكان لا يخشونه كثيرا. فمنذ بضع سنوات علم الشيخ بمقتل شخصين من المنطقة؛ فأرسل فرقة من جنوده للبحث عن الجناة دون جدوى؛ فقد اختبأ هؤلاء الآخرون في أعالي الجبال حيث لا يتمكن الجنود من القبض عليهم. ثم غادرنا هذه المنطقة و قطعنا ۴/۳ الميل لنصل إلى خان متراح حيث اجتمع ذاك النهار عدد كبير من المسافرين؛ فدخلنا إليه لنرتاح قليلا من حرّ النهار. فما لبثت أن هبت عاصفة رعدية قوية ترافقت مع أمطار غزيرة أدّت إلى تدفق المياه من أعالي الجبال معيقة بذلك طريقنا علما أن الدرب تحولت إلى سيل جارف.

ثم غادرنا متراح في ۱۲ حزيران/ يونيو، و بلغنا على مسافة ۴/۳ الميل إلى ميسار و منه إلى مقهى رحابة(Rehabe) ، الواقع على بعد ۴/۳ الميل؛ و تقع بين هذين الخانين قرية دجانة(Dj ne) الجبلية. و بعد أن سلكنا طريقا وعرة للغاية وصلنا إلى مقهى الباب و منه إلى دربات على بعد ۸/۳ الميل؛ مما يعني أن دربات تبعد ۶ أميال و نصف عن موسى.

و تعد دربات عاصمة مناطق نفوذ ابن عقلان و مقر الشيخ المتحدر من العائلة الحاكمة حاليا. يقيم فيها عدد من جنود الإمام و تدفع لهم في المقابل رواتب مرتفعة. تقع هذه البلدة على قمة الجبل، و تتميز بسجنها الأكثر بشاعة في اليمن كلها؛ و أظنه يشبه المغارة البغالية السوداء حيث قضى منذ بضع سنوات عدد كبير من الإنكليز خنقا من شدة الحرّ. حفر سجن سوق دربات في الصخر، بحيث لا يتسلل إليه الضوء إلا عبر كوة صغيرة دخل منها السجناء. و يقع قبالة هذه الكوة، السجن العام حيث يحجز مرتكبو الجرائم البسيطة بعد أن يقيدوا بسلاسل طويلة.

بعد مغادرتنا دوربات سرنا ۱/۴ الميل لنصل إلى مقهى شوفادى(Chofadie) ، و منه إلى بلدة سلامة حيث يقام سوق شعبي كل أسبوع. و رأينا على الطريق مقهى آخر، و خزانين للمياه، و بئرين. و أرغمتنا العاصفة القوية التي هبت بعد ظهر ذلك اليوم على قضاء

الليل فى سلامة؛ و فى صباح ١٣ حزيران/ يونيو، قطعنا ٨/٥ الميل لنبلغ مقهى رماد(Rhom de) . و بعد أن سلكنا طريقا متعرجة شاهدنا قرية ربع التى يقام فيها سوق شعبى كل أسبوع و هى تطل على حصن قاهر الواقع على جبل مجاور لتعز؛ غير أن الطريق المؤدى إليها يمر بقرية قرة(Kerra) على بعد ٣/١ الميل، و بمقهى رحسن(Rahssen) على بعد ميل تقريبا، وصولا إلى تعز؛ مما يعنى أن تعز تبعد ٤ أميال و ٨/١ الميل من دربات. و الجدير ذكره أننا شاهدنا على الطريق من سلامة إلى تعز ثلاث خزانات للمياه مخصصة لراحة المسافرين.

وفور وصولنا إلى تعز، أرسلنا خادم صاحب دولة المخا الذى لم يؤد لنا أى خدمة حتى الآن ليسلم

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج١، ص: ٣٠٤

صاحب الدولة فى هذه المنطقة رسالة معلمه. فأرسل فى طلبنا على الفور و بدا لنا لطيف المعشر. فقدم لنا الكيشر و التراجيل و شاهدنا على الأريكة أفنان شجرة يمضغها العرب فى أوقات اللهو، كما نمضغ التبغ، و كما يمضغ الهنود التنبول. غير أن هذه الحلوى العربية لم ترق لنا أبدا. و أخبرنا صاحب الدولة أنه يقال فى تعز إننا نحمل معنا من المخا صناديق مليئة بالأفاعى: هكذا يغالى العرب فى نقل الأخبار. و اصطحبنا إلى أحد المنازل التى زج صاحبها فى السجن منذ فترة و جيزة؛ و أرسل لنا نعجتين و كمية من الطحين و الشعير. فقدمنا له فى المقابل قطعة قماش من الهند توازى قيمتها ٢٤ ريالا؛ كان خادمنا الأوروبى قد قصد بيت صاحب الدولة ليسلم له هديتنا فاعترض البواب طريقه طالبا منه أن يدفع له بقشيشا فما كان عليه إلا أن رد قائلا: إن جرت العادة فى بلادكم أن يتبادل الخدم البقشيش فعليك أن تدفع لى مبلغا كبيرا من المال لأننى أحمل هدية لسيدك فضحك البواب منه و سمح له أن يتابع طريقه.

ثم فى اليوم التالى سلمنا الرسائل التى أوصانا بها أصدقاؤنا فى المخا إلى أصحابها؛ و منها واحدة للباش كاتب، و ثانية للقائم بأعمال عائلة أحمد الذى كان أمير تعز، و ثالثة لنبيل يدعى سيد، و رابعة لبانيانى؛ و الجدير ذكره أن الجميع استقبلنا بالترحاب غير أن خادم صاحب الدولة فى المخا كان يلاحقنا حيثما ذهبنا؛ حتى أنه كان يدخل إلى غرفتنا حين يأتى أحدهم لزيارتنا؛ و لعله كان يحاول أن يعلم العرب أننا نسافر تحت رعاية سيده، و لكن تصرفاته هذه كانت تحد من حريتنا و تثير سخطنا. فحاولنا أن نفهمه أن وجوده ليس مشجعا فى هذه المناسبات. و من ناحية أخرى كان الطقس فى تعز جميلا جدا؛ فبدلا من الحرارة الخانقة و الجفاف اللذين يسودان فى تهامة، كانت السماء تمطر كل مساء حاملة معها هواء منعشا.

إن مدينة تعز تقع شمالا، عند سفح جبل صابر الخصيب، على خط العرض ١٣؟ ٣٤؟ و هى محاطة بأسوار تتراوح سماكتها بين ١۶ و ٣٠ قدما، و تعلوها أبراج صغيرة؛ كما و أنها مغطاة من الخارج بآجر مشوى؛ و نجد داخل الجدران صخرة متعرجة يبلغ ارتفاعها حوالى ۴٠٠ قدم بنى عليها حصن قاهر المنيع.

و للمدينة بابان، باب الشيخ موسى، و باب الكبير، يصلان على الطريق المؤدى من المخا إلى صنعاء؛ و هما مبنيان على الطراز العربى؛ و نجد بابا آخر يصل قصر قاهر بجبل صابر، و بابا رابعا فى سور المدينة بين قاهر و باب الكبير؛ و الجدير ذكره أننا لم نشاهد أثرا للمدافع إلا فى قلعة قاهر، و على بابى المدينة؛ لكن خلال إقامتنا فى تعز، تم بناء برج جديد وضع عليه عدد من المدافع. تتألف حامية تعز من ۵٠٠ أو ۶٠٠ عنصر يقيم ۶٠ منهم فى القصر، بينما يوزع الباقون على أبواب و أبراج المدينة.

و قد تبدو تعز محصنة جدا ضد الأعداء؛ لكن وفقا للأسلوب الذى يعتمده الأوروبيون فى حروبهم، لا أظن أن بلدة تعز و حصنها قد يصمدا طويلا أمام العدو. و إليكم ما تدل عليه الأرقام التى وضعتها على اللوحتين(LXVI) و(١ : LXVII) باب الشيخ موسى، ٢) باب الكبير، ٣) البرج الجديد الذى وضعت

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج١، ص: ٣٠٧

عليها المدافع، ۴) قصر المرحوم سيد أحمد، ۵) جامع الشريفة الكبير الذى يعلو أقبية تستعمل لتخزين القمح، ۶) إسماعيل ملك أو جامع تعز الكبير؛ و هو كبير جدا، و يعلو أقبية تستعمل كمخازن للأسلحة، ٧) قبة الحسنية المبنية على ضريح باشا تركى، ٨) جامع قصر، ٩) السوق، ١٠) جوامع متداعية خارج البلدة، ١١) المصلى حيث يصلى صاحب الدولة أيام الأعياد. و نجد فى كافة مدن اليمن أماكن مماثلة يصلى فيها المسلمون فى الهواء الطلق، خلال الأعياد و المناسبات. غير أن بعضها يفوق بعضها الآخر جمالا. أما هذا المصلى فهو محاط بسور كبير فيه بعض الحجرات التى يستعملها المسلمون للوضوء قبل أداء صلاتهم ١٢) طريق صنعاء ١٣) طريق المخا. قست حرم المدينة و حددت موقعها بواسطة البوصلة مع أننى لم أتعرف على شوارعها كلها. و أشرت على اللوحة(LXVI) إلى ارتفاع الهضاب التى بنيت عليها أسوار المدينة.

و يدعى ولى مدينة تعز إسماعيل ملك. و يقال إن هذا الولى الذى يجلّه سنّة اليمن كان ملكا؛ و هو يرقد فى جامع يحمل اسمه؛ لكن منذ أن تبين أنه يصنع العجائب، حظّر على الجميع الاقتراب من ضريحه. و إليكم وقائع القصة التى رووها لى: طلب متسولان صدقة من حاكم تعز فلم يتصدق إلا على واحد منهما؛ فلجأ الآخر إلى قبر الملك إسماعيل و تضرع إليه أن يغيثه؛ فلم يشأ إسماعيل الذى كان كريما جدا فى حياته أن يدع هذا الرجل المؤمن يرحل دون أن يلبى له طلبه. ففتح ضريحه المطين و سلم المتسول رسالة إلى الحاكم تقضى بدفع ١٠٠ ريال لصاحبها. و بعد معاينة الرسالة بدقة تبين أن إسماعيل كتبها بيده و مهرها بختمه. فما كان من الحاكم إلا أن استجاب لطلب هذا الملك النبى العظيم؛ غير أنه حظر بعدها الدخول إلى القبر حتى لا يتلقى بعد اليوم رسائل مماثلة.

إننا نجد قرب جامع إسماعيل ملك، حديقة جميلة كانت مخصصة لعيسى بن إسماعيل ملك.

و هى تضم حوض ماء كبيرا يحيط به بقل زراعى تمر فوقه القنوات التى تنقل المياه إلى هذه الحديقة.

شاهدنا خارج أسوار المدينة جامع نبى شهير يدعى الشيخ موسى الذى يحمل اسمه أحد أبواب المدينة. أما فى الجهة الشرقية للمدينة فنشاهد جامعا رائع الجمال و صرحا يعلو ضريح أفضل و عائلته.

فعاينت بدقة هذين الصرحين و لا حظت أن هندستهما المعمارية شبيهة من حيث أبعادها و زخرفاتها بالهندسة المعمارية التركية؛ مما جعلنى أستنتج أن أفضل هذا كان باشا من تعز. و تكثر هنا كما تكثر فى الجوامع الأخرى النقوش العربية الحديثة التى تتشابك أحرفها إلى حد بعيد حتى أن العربى الأصيل لا يستطيع قراءتها بسهولة. و مما لا شك فيه أن المدينة تعج بالمساجد الصغيرة و لكن معظمها متداع جزئيا.

و رغم أن أسياد تعز كانوا زيديين و ليسوا من أهل السنّة إلا أنهم يفوقون أسلافهم نباهة. فقد بنوا قصورا فخمة ليستمتعوا بالعيش فيها فى حياتهم، بدلا من استعمال هذه الأموال لترميم الجوامع

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج١، ص: ٣٠٨

و المساجد. و اكتفى كل واحد منهم ببناء قبة خلف منزله استعملها كمصلى له فى حياته و مدفنا بعد مماته.

و الجدير ذكره أن الحرب هدمت معظم المنازل و جعلت الحقول و البساتين شبه مهجورة.

نجد فى جوار تعز بقايا مدينتين قديمتين؛ و منها مدينة عدين، المقابلة لمدينة تعز؛ لم يتبق منها إلا أنقاض جوامع صغيرة. يقول العرب إنها كانت قديما مقر الملوك أو أسياد هذه المنطقة. و يروى أن إسماعيل ملك، بدأ بتشييد ضريحه و جامعه عند سفح جبل قاهر؛ فتبعه سكان عدين الذين كانوا يعانون من تسلق الجبل أو الذين كانوا يفضلون الإقامة قرب نبيهم؛ و يمكننا القول بالتالى إن تعز تدين بأصلها إلى النبى محمد المسلم شأنها شأن مخيّرة و بيت الفقيه و المخا. أما المدينة الأخرى فهى تهيد(Thaheid) ، الواقعة جنوبى شرقى تعز، على بعد نصف ميل تقريبا. و نشاهد اليوم بقايا أسوار المدينة و جامعا كبيرا متداعيا و أنقاض جامع مسقط الحمر المبنى من حجارة حمراء غريبة؛ و لقد لفتت انتباهى فى هذه البقعة نقوش غريبة نقلتها فى اللوحة(IX) من كتاب «وصف شبه الجزيرة العربية».

و لم أستطع جمع معلومات وافرة عن تاريخ مدينة تعز؛ فالثورات التى وقعت فى السنوات الأخيرة كانت ستحتل مكانا مميزا فى التاريخ. لو أن العرب احتفظوا بالتواريخ أو لو أتيحت للأوروبيين فرصة الاطلاع على تفاصيلها. و سأروى لكم باختصار ما سمعته من أقاويل حولها: عين الإمام المنصور حسين أخاه حاكما أو صاحبا للدولة فى هذا الإقليم. فاستمتع هذا الأخير بمنصبه كثيرا إلى حد أنه رفض لا حقا التخلى عنه. فأرسل الإمام جيوشه لإرغامه على الخضوع لمشيئته، غير أن أحمد استطاع الصمود ١٢ سنة، بمساعدة حاميته التى يبلغ عددها ٢٠٠٠ عنصر؛ فصك عملة باسمه فى المدينة، و فرض ضرائب على البضائع التى تعبرها، و أجبر رعايا الإمام على سلوك طريق عدن خلال سفرهم من المخا إلى صنعاء.

و خلال حديث السكان عن هذا الحاكم كانوا يسمونه ملكا أو إمام تعز. أما هو فكان يكتفى بأن ينادوه سيدى أحمد، و هو لقب يحمله أمراء عائلة الإمام كلهم.

لقد ترك سيدى أحمد ستة أبناء: عبد الله، على، و جاشا، و محسن، و يعقوب، و حسين. استلم البكر عبد الله الحكم بعد وفاة أبيه و عاش فى وئام مع الإمام و عند وفاته عام ۱۷۵۹ ترك ابنا يدعى عبد الكريم، و يبلغ من العمر ۱۳ سنة؛ و كان يفترض به أن يخلف والده، و يستلم الحكم غير أن حب السلطة كان يسيطر على أعمامه الثلاثة: على، جاشا و محسن، فشكل كل واحد منهم حزبا بغية السيطرة على مدينة تعز و الأراضى المحيطة بها. فاستولى واحد منهم على قصر قاهر، و آخر على باب الشيخ موسى، و الثالث على باب الكبير؛ غير أن إيراداتهم كانت ضئيلة للغاية، و لا تسمح لهم بإعالة الجنود أو حتى شراء الذخائر؛ فإن جمع أحدهم بعض المال استعمله لشراء الذخائر و إطلاق النار على أخيه حتى نفادها دون أن يبلغ هدفه المطلوب.

و فى وسط هذه الظروف، اضطر الأمير عبد الكريم لبعث رسالة للإمام الحالى الإمام المهدى يرجو منه

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۰۹

فيها أن يهب لنجدته، للمحافظة على أراضى والده و أجداده. فأرسل الإمام النقيب أو القائد الماس، على رأسه جيش كبير إلى تعز للسيطرة على المدينة، و جلب المتمردين إلى صنعاء. غير أن النقيب المذكور لم يزود بالمدافع اللازمة لإرغام المتمردين على الاستسلام.

و لما كانت جيوش الإمام تبذل جهدها لمحاصرة تعز كان الشيخ عبد الرب و أتباعه يتقدمون نحو المخا؛ فهذا الأخير نصب نفسه حاكما على الحجيرية بعد أن فصلها عن مناطق نفوذ الإمام. و لما كان الإمام عاجزا عن رد هذا الشيخ إلى صوابه، قرر أن يتصالح معه و يستغله لغزو تعز. فأقرت معاهدة السلام بحضور النقيب الماس الذى كان على رأس جيوش الإمام، و النقيب أحمد الحمر، قائد حلفاء حاشد و بكيل الذين يخضعون لنفوذ الإمام؛ و تم الاتفاق على أن يضم عبد الرب جنوده إلى جيوش الإمام و يساعدهم على غزو تعز. فانضم عبد الرب و أتباعه إلى الجيوش التى كانت تحاصر تعز؛ غير أنه كان يفتقر للمدافع اللازمة لمهاجمة المدينة؛ فخطر له أن يتبع الخطة التالية: كان الجنود موزعين على الأبراج التى تعلو أسوار المدينة؛ فوعد عبد الرب ۱۲ جنديا منهم ب ۱۰۰۰ ريال إن حفروا كوة فى البرج ليعبر منها رجال الإمام. و بعد أن وافقوا على ذلك، تسلل رجال الإمام ليلا إلى المدينة التى نهبت برمتها؛ و كان ذلك عام ۱۷۶۰.

و بعد غزو تعز، أظهر الإمام محبته العميقة تجاه سلالة سيدى أحمد و عبد الرب، و دعاهم لزيارة صنعاء. و رغم خوف عبد الرب من زيارة هذه المدينة، إلا أنه لبى الدعوة نظرا للخدمات التى أداها للإمام، و بناء على إلحاح النقيبين الماس و أحمد ابن النقيب على الحمر. غير أن الإمام خان ثقة الأبطال العرب و قادته المخلصين فيه، عند وصولهم إلى صنعاء؛ و قد شرحت هذه الحادثة تفصيليا فى روايتى تاريخ اليمن «وصف شبه الجزيرة العربية». كما و أنه لم يحاول أن يرسخ سلطة الأمير عبد الكريم فى مناطق نفوذ والده. و عين صاحبا للدولة فى تعز و فى الأقاليم الأخرى. و قابلت فى وقت لا حق الأمير شاب فى صنعاء؛ كان ذلك نهار الجمعة، بينما كان ذاهبا على حصانه إلى الجامع. و عند وصول سيدى جاشا و سيد محسن إلى صنعاء، اقتيدا على الفور إلى السجن. غير أن سيدى على بقى حرا لأنه والد زوجة الإمام.

كان صاحب دولة تعز ضابطا فى جيش الإمام و يحمل لقب نقيب. و لسنوات خلت كان ضابط الحرس، و مفتشا فى الجمارك عند باب الشاذلى فى المخا. و الجدير ذكره أنه لا يد لأصله النبيل فى حصوله على هذه الوظيفة شأنه فى ذلك شأن معظم أصحاب الدولة الآخرين. و مما لا شك فيه أن المنطقة الواقعة تحت نفوذه شاسعة للغاية لأنها تضم جبل صابر و مناطق يوفروس و الحجيرية. غير أننا نجد فى جبل صابر و فى منطقة الحجيرية عددا لا بأس به من الشيوخ الذين احتفظوا بسيادتهم فى مقاطعاتهم رغم أنهم يدفعون الضرائب للإمام؛ و هم يفتخرون بأصلهم النبيل شأنهم شأن العرب الذين يقطنون على حدود

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۱۰

الأقاليم التركية؛ كما و أنهم يحتقرون أصحاب الدولة كما يحتقر أولئك الباشاوات فوجد صاحب دولة تعز نفسه مجبرا على التخلص من مضايقات شيوخ جبل صابر؛ فزج واحدا منهم، أتى إلى البلدة برفقة عبدة من عبيداته- و حاول مقاومته- فى السجن؛ و وضع العبدة فى مكان آمن. و رغم مطالبة الشيوخ الآخرين بالإفراج عنه لم يطلق سراحه إلا بعد تدخل القاضى. عند ذلك قصد الشيخ صنعاء ليحضر أمرا من الفقيه أو وزير الدولة إلى صاحب الدولة ليسلمه العبدة على الفور. غير أن هذا الأخير، استشاط غيظا وزج الشيخ ثانية فى السجن. ثم أطلق سراح الشيخ و عبدته. و لكن صاحب الدولة بقى حاقدا على شيوخ جبل صابر و أرسل لهم فى أول مناسبة خمسة أو ستة جنود تصرفوا معهم بفظاظة، بناء على طلب معلمهم. غير أن الشيوخ لم يحتملوا أن يهانوا فى عقر دارهم، فقتلوهم جميعا. و منذ ذلك الحين لم يعد يجازف أى جندى بالذهاب إلى قرى جبل صابر. و خلال إقامتنا فى تعز قيل إن عددا من الأشخاص، قتل خارج البلدة قرب جبل صابر. و يظن الناس أن الشيوخ لن يرتاحوا قبل أن يرسل الإمام صاحبا جديدا للدولة إلى تعز.

و كان السيد فورسكال يتأمل يوميا جبل صابر، حيث تنمو وفق كلام العرب كافة أنواع الأعشاب فى العالم. غير أنه كان عاجزا عن جمعها بسبب الخلافات القائمة بين الشيوخ و صاحب الدولة. فكان يفكر فى استدعاء أحد الشيوخ ليرافقه فى هذه الرحلة، حتى لا يتعرض لأى سوء؛ غير أن صاحب الدولة لم يسمح له بذلك. و عند ذلك طلب الإذن بالذهاب إلى جبل سوراق(Saurak) ؛ و لقد وافق صاحب الدولة على طلبه، و أرسل جنديا ليرافقه فى رحلته. كان السيد فورسكال قد أكد لنا فى المخا أنه يريد الإسراع فى الذهاب إلى تعز بغية جمع الأعشاب من جبل صابر. فأمر صاحب دولة المخا خادمه بمرافقة السيد فورسكال إلى جبل سوراق، علما أنه كان يجهل نشوء خلافات بين صاحب دولة تعز و الشيوخ.

غير أن الخادم المذكور حثّه جندى صاحب دولة تعز على رفضه الذهاب إلى جبل سوراق، بحجة أن الأعياد على الأبواب. ظنا منه أنه لا يجدر به السماح لرفيقه فى السفر لجمع الأعشاب إلا على جبل صابر. فأعلم صديقى صاحب الدولة الذى هدد الجندى بالسجن إن لم يرافقه على الفور. فغادر السيد فورسكال المدينة مساء ۱۸ حزيران/ يونيو؛ غير أنه لم ير جبل صابر إلا من بعيد. فى ۲۰ حزيران/ يونيو، ثم وصل إلى بلدة مهجورة تماما لأن صاحب الدولة أساء معاملة أهلها، ففضلوا الذهاب لكسب رزقهم فى مكان آخر. و لما علم أن معظم القرى التى ينوى زيارتها قد هجرها أهلها، خاف أن يعوزه الطعام، أو أن يعرّض حياته للخطر فغادر إلى تعز مساء ۲۰ حزيران/ يونيو.

نادرا ما نجد بين المسلمين علماء يدرسون كسوف الشمس و خسوف القمر بغية وضع جدول زمنى؛ يستطيع الحاكم بوساطته أن يعلن قبل بضعة أسابيع أو أيام عن موعد حلول الأعياد. فلقد زعموا فى تعز أنه فى ۲۱ حزيران/ يونيو يصادف عيد عرفة أو الأضحى حيث يذبح حجاج جبل عرفات قرب مكة،

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۱۱

و المسلمون كافة الجمال و الثيران و النعاج. و بهذه المناسبة تلقى صاحب الدولة و غيره من أعيان المدينة عددا وافرا من النعاج و الهدايا الأخرى ليلة ۲۰ حزيران/ يونيو؛ فالعيد يدوم يومين أو ثلاثة تقفل خلالها الأسواق كلها؛ و على القرويين أن يتزودوا بكل ما يحتاجونه عشية العيد. فابتعنا لخدمنا المسلمين، الطحين و السكر و العسل لنصنع لهم قالبا من الحلوى، فضلا عن نعجة صغيرة؛ بعبارة أخرى استعدت البلدة كلها لاستقبال العيد. لكن قبيل غروب الشمس، وصل مرسال يقول إن العيد قد أرجىء إلى اليوم التالى لأن القمر ظهر متأخرا فى صنعاء. أما فى المناطق التى لم تعلم شيئا عن الأمر الصادر من صنعاء فاحتفلت بالعيد فى ۲۱ حزيران/ يونيو، بينما راح سكان تعز يتأملون بحزن التحضيرات التى أعدوها. كما و أن البلدة لم تشهد حركة ملحوظة إلا عند غروب الشمس؛ و عندئذ أطلقت ثلاث طلقات من مدافع باب الشيخ موسى و طلقتان من قصر قاهر للإعلان عن الاحتفال بالعيد فى اليوم التالى.

فى ۲۳ حزيران/ يونيو أطلقت المدافع طلقات جديدة حين غادر صاحب الدولة المدينة برفقة أتباعه قاصدا المصلى لتأدية الصلاة فى الهواء الطلق؛ و بعد حوالى ساعة سمعت طلقات مدفعية أخرى و عاد صاحب الدولة و أتباعه إلى المدينة. و انصرف الجنود إلى تأدية تحركاتهم التعبدية. كما اعتادوا أن يفعلوا كل نهار جمعة عند عودة صاحب الدولة من الجامع، بينما راح أعيان البلاد يتدربون على حمل الرمح و هم على ظهر أحصنتهم. و لقد كان الأمير فرحان من لحية ماهرا جدا فى هذه اللعبة، كما سبق لى أن أشرت فى «وصف شبه الجزيرة العربية». و عاد بعدها الجميع إلى منزله و أكل اللحم، و مضغ العشب و أشعل الطيب فى منزله و استلقى على الأريكة، و أشعل غليونه الطويل.

كانت إقامتنا فى هذه المدينة خالية من المشاكل. و كنت أتمنى أن أقوم بجولات داخل هذه المملكة كما فعلت فى بيت الفقيه. غير أننى لم أجازف بمغادرة المدينة، نظرا للظروف الراهنة. و لما كنت قد قمت بدراسات فلكية فى تعز، و وضعت خارطة و رسما منظوريا لها، لم يتبق لى سوى زيارة قصر قاهر. و كنت أتمنى ذلك بهدف نقل النقوش المنحوتة على باب الصناديق. أما السيد

فورسكال فلم يفقد الأمل بعد زيارة جبل صابر. و لما كان صاحب الدولة يستقبلنا بالترحاب قرر السيد فورسكال أن يطلب منه ثانية السماح له بإحضار شيخ من جبل صابر، لمرافقته في رحلة علمية إلى الجبل المذكور، فضلا عن إعطائي الإذن بنقل النقوش التي تحدثت عنها آنفا. فاستجاب صاحب الدولة لمطلبينا، بيد أنه عند منتصف الليل أبلغنا قرارا آخر. استدعى خادم صاحب دولة المخا، و أبلغ أن سيده بعث رسالة إلى صاحب دولة تعز يطلب فيها عودتنا إلى مدينته؛ فصدر لنا الأمر بالرحيل في ۲۵ حزيران/ يونيو و تذكرنا أن صاحب دولة المخا وعدنا بإبلاغنا رد الإمام بشأن ذهابنا إلى صنعاء. و عند الصباح الباكر، كانت الجمال في انتظارنا عند الباب؛ غير أننا رفضنا الانطلاق على الفور بحجة أننا لم نحزم أمتعتنا بعد. فغادر الجمالون المكان على أن يعودوا في وقت لاحق.

خطر لنا أن صاحب الدولة يحاول ابتزازنا للحصول على هدية قيمة كتلك التي قدمناها لصاحب

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۱۲

دولة المخا؛ كما و أنه مستاء لعدم تلقيه هدية منا عشية العيد؛ علما أننا لم نأخذ هذا التقليد بعين الاعتبار.

و لعله غضب أيضا من إلحاح السيد فورسكال عليه للذهاب إلى جبل صابر؛ فلو عاد سليما معافى، لثار سكان تعز ضده، لأن الرحالة الفرنسيين يتنقلون على هواهم في المنطقة، بينما أبناؤهم يموتون قتلا؛ و لو قتل في الجبل لطلب الإمام من صاحب الدولة أن يثأر له. لهذا السبب تفهمنا جيدا سبب رفض صاحب الدولة السماح لنا بالتجول في جبل صابر.

و لقد طلبنا مقابلة صاحب الدولة لنعرف شخصيا سبب رفضه هذا. غير أننا لم نستطع رؤيته، بعد أن أكد لنا الخدم أنه مريض. فاستشرنا أصدقاءنا في الموضوع؛ و نصحونا بالتحدث مع الباش كاتب؛ فقال لنا إنهم قد يسمحون لنا بالبقاء بضعة أيام أخرى بانتظار وصول معلومات مفصلة من المخا؛ غير أن كلامه كان دون جدوى خاصة و أن صاحب الدولة أرسل لنا في ۲۶ حزيران/ يونيو خدمه مصطحبين معهم الجمال و الحمير، و طلبوا منا حزم متاعنا؛ فأكدنا لهم أننا لن نغادر المكان قبل مقابلة سيدهم؛ و أرسلنا أحد خدامنا ليبلغ صاحب الدولة قرارنا هذا؛ غير أنه لم يستطع مقابلته و طرد خادمنا من بيت الحاكم؛ غير أنه قال لرجال الحاكم بأنه لن يبرح مكانه قبل أن يحصل على موافقة صاحب الدولة بمقابلة واحد منا؛ و تكفل السيد فورسكال بهذه المهمة، و حاول إرضاءه قدر المستطاع متجنبا التطرق إلى مسألة السفر إلى جبل صابر، على أمل أن يأذن لنا بالبقاء في تعز، حتى تبلغ رد الإمام بشأن ذهابنا إلى صنعاء. غير أن صاحب الدولة رفض اقتراحاته هذه و أمرنا بالاستعداد فورا للرحيل.

و بعد أن حزمنا أمتعتنا استعدادا للرحيل و فقدنا الأمل في البقاء مدة أطول في تعز، أو في الذهاب إلى صنعاء تبدل فجأة مجرى الأحداث إذ وصل وفد من قبل صاحب دولة المخا حاملا لنا رسالة مختومة فيها واحدة موجهة للإمام و أخرى للفقيه أحمد وزيره الحالي و ثالثة لصاحب دولة تعز. و هو يعلمنا فيها أن الإمام أعطانا الإذن بزيارة صنعاء شرط أن نأخذ معنا مجموعة النوادر التي جمعناها من كافة أنحاء البلاد.

و هذا يثبت أن الرسالة التي أبلغنا بوصولها قبل بضعة أيام كانت ملفقة. فحمل السيد فورسكال هذا الخبر إلى صاحب الدولة، و لكنه لم يستطع مقابلته؛ لأنه دخل إلى الحريم و نادرا ما يتخلى حاكم مدينة عربية عن رفقة نسائه اللواتي يخصصن لهنّ الليل بكامله، بعد أن يقضي نهاره محاطا بالرجال. فسلم السيد فورسكال الرسالة لخدمه.

حسبنا أن سفرنا إلى صنعاء بات محتوما؛ و كنا على و شك أن نغادر البلدة دون أن نأخذ موافقة صاحب الدولة أولا، و لكننا لم نستطع أن نستأجر حميرا و جمالا. فالتجار الذين يبحثون عن الجمال يتحدثون أولا مع محلف المجموعة الذي يحدد عدد الجمال اللازمة للسفر. و بعد أن أبلغ صاحب الدولة باستعدادنا للرحيل، أعلمنا أن الجمال جاهزة لاصطحابنا إلى المخا، علما أنه لم يتلق الأمر بإرسالنا إلى صنعاء، و أن هذه المسألة تتعلق بصاحب دولة المخا وحده. فأدركنا حينها أن الله وحده هو معيننا، لأننا لا

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۱۳

نستطيع مواجهة رجل يعمل تحت أمرته ۵۰۰ أو ۶۶۰ جنديا و يرفض الخضوع لأوامر سيده. فأخبرنا أصدقاؤنا قصة صاحب الدولة المذكور و شيخ جبل صابر حتى يوحوا لنا بفكرة اللجوء إلى القاضي. فقد سمعنا الكثير عن طيبة قلب قضاة اليمن. فأخذنا بعين الاعتبار الإشارة التي أعطونا إياها؛ و قصدنا القاضي و عرضنا عليه الرسائل التي استلمناها من المخا. فاعتبر القاضي تصرف صاحب الدولة تجاهنا مشينا؛ فبعث له على الحال رسالة حذره فيها من معارضة أوامر الإمام. فرد عليه صاحب الدولة قائلا إنه لا ينوي أن يثنينا عن رحلتنا إلى صنعاء، و لكنه يطلب منا الانتظار يوما آخر حتى يتسنى له الوقت لكتابة الرسائل التي سيبعثها معنا. فاقترحنا تأجيل رحلتنا ثلاثة أيام إن كان صاحب الدولة يبغي ذلك. لكن صباح ۲۷ حزيران/ يونيو أتى خدمه لزيارتنا و طلبوا منا الذهاب على الفور إلى المخا. و بعد أن لاحظنا أنهم يؤدون مهمتهم على مضض، أكدنا لهم أننا لن نرحل اليوم. و لما أعلمنا القاضي بالأمر كتب إلى صاحب الدولة ما يلي: «لا تحاول أن تخدم مصلحتك لأنهم من الأجانب».

أثبت لنا هذا الكلام أن صاحب الدولة يحاول ابتزازنا للحصول على هدية غير أنه سبب لنا مآس كثيرة في الأيام الأخيرة، حتى أننا لم نعد نرغب بتقديم أي شيء له، علما أن القاضي نفسه اعتبر طلبه هذا غير منصف. و عند الظهيرة، أرسل الباش كاتب في طلبنا. فأعرب عن دهشته لتقديمنا شكوى ضد صاحب الدولة أمام القاضي خاصة و أنه لم يعترض أبدا على ذهابنا إلى صنعاء؛ و أكد لنا أن خدمه تحدثوا باسمه كذبا و طلبوا منا مغادرة المخا على الفور. إثر ذلك سألنا القاضي أن يمد لنا يد العون لمتابعة رحلتنا.

حسبنا أن خادم صاحب دولة المخا سينحاز إلينا ضد صاحب دولة تعز بعد أن استلم رسائل سيده؛ غير أنه فضل أن يمتثل لأوامر صاحب دولة تعز نظرا لأنه يقيم في مناطق نفوذه. فارتأينا أن نعيده إلى المخا و نقدم له هدية مقابل الخدمات التي قدمها لنا سيده. غير أنه كان يجدر بنا أن نصطحب معنا عربيا يعرف البلاد جيدا و يحسن التحدث مع الحاكم، إن دعت الحاجة لذلك. فلجأنا إلى القاضي ليدلنا على مرشد سياحي ملائم. فأرسل لنا على الفور رجلا رافقنا إلى صنعاء و عاد برفقتنا إلى المخا.

حددنا موعد الرحيل في ۲۸ حزيران/ يونيو و وصلت الجمال بعد ظهر ذلك اليوم. و ما إن بدأنا نحمل متاعنا حتى أرسل صاحب الدولة في طلبنا؛ غير أننا لم نحظ بشرف مقابلته بسبب توعكه الصحي؛ فبعد أن وقفنا في جهة و اضطر لتقديم بعض التنازلات لنا، احتقره السكان و عكروا صفو مزاجه. و أبلغنا الباش كاتب أنه تلقى في اليوم السابق أمرا من الإمام بإرسالنا إلى صنعاء؛ و لهذا السبب رفض السماح لنا بمغادرة المكان من قبل؛ و أضاف الباش كاتب أن صاحب الدولة أمر أحد خدامه بمرافقتنا في رحلتنا حتى لا يعترض أحد طريقنا. كان الخادم يهودي الأصل اعتنق الإسلام منذ ۲۸ سنة و يتلهف لرؤية أهله في صنعاء، غير أنه لم يتوان عن تحديد المبلغ الذي يريده بحضور الباش كاتب و بعض الرجال العرب. أما القاضي فحملنا رسالة إلى الفقيه أحمد، كتب فيها ما يلي: «إن تحدث أحدهم أمامك بالسوء عن هؤلاء

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۱۴

الأجانب، إياك أن تصدقه». و كنا قد اتفقنا على إهدائه ساعة، كما فعلنا مع صديقنا الأمير فرحان في مخية. و لكن الخادم الذي أرسله لنا، أكد لنا أنه لن يقبلها مخافة أن نظن أنه حاول مساعدتنا لخدمة مصلحته الشخصية؛ اكتفينا بالتالي بتقديم جزيل شكرنا لهذا الرجل الذي أغدق علينا أفضاله. و الجدير ذكره أنه عند عودتي إلى أوروبا، تحدثت عنه طويلا لأثبت أن القضاة العرب ليسوا جميعا خبثاء و ظالمين شأنهم شأن القضاة الأتراك.

و بلغنا بالتالي هدفنا و أجبرنا صاحب دولة تعز على منحنا حرية السفر إلى صنعاء. غير أننا عانينا الكثير من المآسي خاصة و أن مرض السيد فورسكال أخذ يتفاقم. فخلال الأيام الأخيرة من إقامتنا في تعز، بدأ يشعر بالتوعك؛ غير أنه أخفى عنا ذلك، حتى لا يؤخر سفرنا. فأخذ مرضه يزداد خطورة، إلى أن أدى إلى وفاته، علما أننا لم نكن نجد في طريقنا أماكن ملائمة لنرتاح فيها.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۱۵

الرحلة من تعز(TAA'S) إلى صنعاء

يوم غادرنا تعز وصلنا فندقا قرب المدينة و لم نبتعد أكثر، ثم رحلنا في اليوم التالي أي في ۲۹ حزيران/ يونيو، قبل أن تفتح أبواب المدينة. و بما أن الفوضى كانت تعمّ في قافلتنا الصغيرة، مما اضطرنا للبقاء قرب الإبل، لم أتمكن من تحديد المسافة بين الأماكن بالدقة نفسها التي اعتمدتها في الأماكن الأخرى حيث كنا نسبق القافلة على حميرنا. لكن استطيع تحديد الآتي: إذا توجهّنا إلى الشرق من تعز، يمرّ الدرب قرب مقهى يسمى عدن، و يؤدي إلى جعفر التي تقع على بعد فرسخين. و لقد زار السيد فورسكال، أثناء الرحلة، جبل سراق(Saurek) ، الذي إذا ما تقدمنا منه فرسخين نحو الشرق و الشمال الشرقي، لوصلنا جناد(Dsjennad) ، التي اشتهرت فيما مضى بمسجد معد بن جابل، لكن لم يبق منه حاليا سوى المسجد المذكور و بعض المنازل المعدودة. و تسمى المنطقة المحيطة

بجعفر هبان(Hauban) ، و قد أخذت اسمها من جبل هبان الواقع إلى جانب جبل صابر(Sabber) .

و يؤدى الطريق من جعفر باتجاه الشمال و الشمال الشرقى إلى عماقى(Am ki) ، و لا نقع فى هذه الدرب سوى على قرى حقيرة و هى: قرف(Korff) ، عبّاد(Ob de) و عمور(Amجr) . أما عماقى فتقع فى سهل خصيب، و كانت فيما مضى مدينة صغيرة لكنها تعرضت منذ سنوات للدمار، فلم يبق فيها سوى بضعة منازل. و يقام فيها سوق أسبوعيا، و إذا ما توجهنا من عمّاقى إلى الشمال و الشمال الشرقى نصل إلى كعده(Kaade) .

فى ۳۰ حزيران/ يونيو، وصلنا إلى سمسرا فى محراس(Simeser Mh rras) بعد أن انطلقنا من كعدة نحو الشمال الشرقى. أما القرى الواقعة إلى غرب هذه الدرب فهى: جان المرستان(Gannue el Mursete ?n) ، غرافا(Gurafa) ، حمّارا(H m ra) و دراس(Derras) ، و دشرق(Duschruk) و هى مدينة صغيرة بين هذه القرى. و نرى إلى الشرق القرى الآتية: دمن(Dimne) ، منسل(Mensil) ، و نهل(Nahhl) . و لقد حفرت المياه التى تتدفق من الجبال فى هذه المنطقة، مجرى واسعا و عميقا بين الصخور، و عند ما هبّت عاصفة هوجاء، بعد الظهر، كوّنت سيلا عظيما و سريعا، لكن بما أن مياه هذه الأمطار تندفع بعنف من الجبال، جفّت مجارى السيل هذه كليا بعد ساعتين. و مما يجدر ذكره أنه تمّ بناء جسر حجرى صلب للغاية بعقد واحد قرب سمسرا على أحد هذه المجارى.

و تسمى النزل الكبيرة، التى تصادفها من تهامة و حتى هنا مطرح(Mattrach) ، و هى لا تتعدى كونها

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۱۶

منازل خاصة لا يدفع أصحابها الكثير لصيانتها، و يكتفون بتأمين مأوى للضيوف و البضائع. و نجد من محراس حتى صنعاء، سمسرات كبيرة مبنية من الآجر المشوى، تبعد الواحدة عن الأخرى يوم سفر أو نصف يوم أحيانا. و قد بنى هذه الصروح فضلا عن الخانات أو الكرونسيرا فى تركيا، رجال أغنياء لراحة المسافرين؛ لكن السمسرا تفتقر إلى وسائل الراحة المتوافرة فى الفنادق فى أوروبا، فالمسافر الذى لا يكتفى بالقهوة، و الأرز، و الخبز و الزبدة التى لا تقدم هذه النزل غيرها، ينبغى أن يحمل أطعمة أخرى. زد على ذلك، أن هذه الأماكن ليست آمنة للغاية، ففيها باب واحد يقفل فى المساء و قبل فتحه عند الصباح، يطلب من المسافرين فى بعض الأماكن تفقد أغراضهم كى لا يفقدوا شيئا منها.

و فى ۱ تموز/ يوليو، غادرنا النزل، و كنا نعرف أن تسلق قمة جبل محراس يحتاج إلى ۳/ ۴ الساعة.

و كنت فى أثناء رحلتى الأولى إلى هذه البلاد، قد لا حظت أن نزول الجبل انطلاقا من النزل يتطلب ۵۰ دقيقة، و من هنا يمكننا أن نستنتج تقريبا مدى ارتفاعه. أما الطريق الذى يؤدى إليه فمرصوف جزئيا، كما ذكرت سابقا، و نجد على قمة الجبل قرية نجد و هى قرية كبيرة إلى شرق الدرب. و تسمى المنطقة الممتدة من هذه النقطة و حتى أود(Ode) - و هى قرية تقع إلى شرق مدينة جبلة- شيبان(Scheb n) . و ينحدر الطريق من أود إلى أرما، و فيها مقهى بوعورة، و نجد هنا أيضا مسجدا قديما مزينا بقبّة. أما الأراضى الصالحة للزراعة التى تأخذ فى هذه المنطقة الخصبة شكل مدرجات كالكروم فى أوروبا فتضفى على المكان جمالا و روعة. و تبعد أرما عن آب(Abb) حوالى نصف ميل، و تقع هذه القرية على بعد ميل من جبلة(Dsjo ?bla) إلى الشمال الشرقى، كما تبعد السمسرا عن جبل محراس حوالى ميل و نصف إلى الشمال الشرقى و على خط مستقيم. و لا حظت وجود ستة مجالس(Madsjils) على هذه الطريق القصيرة، و رأيت قرب أحدها، و هو لا يبعد كثيرا عن أرما، مسقى للمواشى التى تمرّ بالمكان، كما نجد ۴ منازل مبنية جيدا، إنما غير مسكونة، و هى تستخدم كملجأ للمسافرين الذين تفاجئهم الأمطار فى المنطقة.

و تتبع مدينة آب قضاء اليمن الأعلى، و يخضع صاحب الدولة فى هذه المدينة لذاك المقيم فى جبلة.

و تقع المدينة على قمة جبل، تحيط بها الأسوار و الحصون، أما شوارعها فمرصوفة، و منازلها مبنية من الحجارة ككافة المنازل فى البلاد الجبلية. و يقدّر عدد المنازل فى آب بربع المنازل الموجودة فى جبلة، فلا نجد فيها بحسب تقديرى إلا ۴۰۰ إلى ۵۰۰ منزل. و يملك العرب ۸۰۰ منزل فى آب و ۱۲۰۰ فى جبلة. و يقال إنّ فى المدينة عدد كبيرا من المساجد الصغيرة، لكنى لم أر سوى مسجدين بمنارات، و لعل الأمر يعود إلى أن الزيديين لا ينفقون الكثير على مساجدهم كأهل السنّة. و يتبع العرب من آب و حتى سنّا(Sunna) المذهب الأول، فيما يتبع عرب تعز و تهامة المذهب الأخير (أهل السنة).

و نرى إلى شرق المدينة جبلا شاهقا يحمل اسم بعدان(Baadan) ، تجرّ منه المياه فى قناة يبلغ طولها ۳۰۰ قدم إلى مسجد كبير و منه إلى المساجد الأخرى و إلى منازل المدينة. و بما أن المسجد يقع فى

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۱۷

منخفض، يضطر الأهالى إلى غرف المياه كما لو أنهم يستخرجونها من بئر. و تمّ بناء سور عال قرب الخزان الكبير لهذه المياه، تعلوه بكرة عليها حبل غليظ ربط بأسفله دلو من الجلد أو على الأصح قربة واسعة. و يعمل الرجال و الحمير و الثيران على نقل المياه حتى خزّان آخر فتفرّغ فيه ثم توزع إلى أحياء المدينة المختلفة. و نجد هنا، كما فى أماكن أخرى، فى أعلى الآبار، فى الريف، بكرات عدة الواحدة فيها جنب الأخرى، لكنها تحتاج إلى جهد كبير مضن، و هى متعبة أكثر من الآلات التى تعمل على المياه و التى تستخدم فى بلاد أخرى من الشرق.

و نجد على مسافة قريبة من آب و جبلة نبعين، يجرى أحدهما نحو الغرب فى جداول صغيرة عدة، ليصب بعد الأمطار فى الخليج العربى تحت اسم وادى زبيد. و يجرى الآخر فى الجنوب، و يطلق عليه اسم ميدام(Meidam) ، و بعد تساقط الأمطار، يعظم و يصب أخيرا فى البحر قرب لحج(Lahadsj) و عدن.

فى ۲ تموز/ يوليو، غادرنا آب، و نزلنا جبلا وعرا للغاية على مسافة ۳/ ۴ الفرسخ، لكن الدرب كان مرصوفا و بالتالى يمكن سلوكه إلى أقصى حدّ ثم دخلنا السهل، و توجهنا نحو الشمال و نحو الغرب بعض الشيء، فوصلنا قرية لهود(Lahuad) التى تبعد حوالى ۷/ ۸ الميل عن آب. و بعد أن اجتزنا ۵/ ۸ الميل إلى الشمال، بلغنا قرية تدعى سوق(Sجk) ، و صادفنا على الدرب بين آب و هذا المكان ثلاثة مجالس و مآوى.

ثم تصبح البلاد جبلية بعد سوق، و لقد قطعنا ميلا و ۲/ ۸ الميل لنصل إلى مشادر(Mechader) و رأينا على هذه الطريق خمسة مجالس، و ثلاثة مآوى. و تبعد آب عن مشادر ميلين و ۵/ ۸ الميل.

و تقع مشادر، و هى مدينة صغيرة، على جبل، و نجد بالقرب منها، و على مرتفع قصرا صغيرا يقيم فيه صاحب الدولة، و يقام فى المدينة يوم الخميس سوق. و يمكننا أن نرى من هذا المكان قرى عدة منها دلم(Dolme) فى الغرب، طلاب(Tullab) فى الشمال و شنن(Schanen) فى الشرق، كما نجد فى المنطقة جبلا يحمل اسم سهول(Sahجl) . أما بالنسبة إلى قرية سهول و الوادى الذى يحمل الاسم نفسه و اللذين ذكرهما أبو الفدا، و يقال إنهما بالقرب من جناد(Dsjinnad) ، فلم يتمكن أحد من إعطائى معلومات عنهما.

و كان السيد فورسكال مريضا للغاية فى ذاك اليوم، فاضطررنا إلى التأخر عن الجمال التى سبقتنا إلى قرية لهود، و عند ما اجتازت مشادر، و قطعت نصف ميل أبعد من سمسرا برقان(Barke ?n) ، فأجبرنا على اللحاق بها. و يتكوّن قرب برقان سيل عظيم، يضيع فى الجبال.

و فى ۳ تموز/ يوليو، سبقتنا الإبل منذ الصباح إلى(Mensil) ، و لحقنا بها بعد شروق الشمس. و قطعنا حوالى ۷/ ۸ الميل فى خط مستقيم، و أثناء ال ۳/ ۴ الميل الأولى، لم يكن الدرب صعودا، إنما فيما بعد و حتى جبل سمراء يصبح الدرب وعرا، حتى يستحيل سلوكه على الجمال المحمّلة لو لم تهيأ فيه تعرجات تجعل بلوغه ممكنا بصعوبة، و لو لم يرصف فى أماكن عدة. إن هذا الجبل أعلى و أكثر وعورة من جبل محراس و الجبل

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۱۸

العالى بين عدن و جبلة. و نجد فى قرية منسل، التى تقع فى نصف جبل سمّراء، سمسرا رائعة بنى كل ما فيها من الحجارة المقصوبة لا من الخشب بما فى ذلك السقف و العارضات. و لقد بقى الجمّالون و المكاريون فى الأسفل مع الحقائب و مع بهائمهم. و كان على سطح هذه السمسرا شقة يمكننا البقاء فيها وحدنا، لذا وجدنا المكان مريحا للسيد فورسكال الذى يحتاج للراحة بسبب مرضه.

و فى اليوم التالى (۴ تموز/ يوليو) بقينا فى منسل، و قست ارتفاع الشمس فى الهاجرة، و حددت بالتالى خط العرض الذى تقع عليه القرية و هو ۱۴؟، ۱۰؟. و أحسست يومها، بعد الظهر ببعض الحمّى، و بما أن وضع السيد فورسكال كان يزداد سوءا، قررنا إطالة إقامتنا فى هذا المكان حتى يتحسّن. لكن الجمّالين و المكارين أعلمونا أن هذا المكان لا يستطيع أن يؤمّن العلف للدواب و الطعام لهذا

العدد من الأشخاص، و أكدوا لنا أن مدينة يريم(Yerim) تقع على الجهة الأخرى لجبل سمّراء و تفصلها عن منسل إلى الشرق المسافة نفسها التي تفصل هذه الأخيرة عن برقان إلى الغرب. و وعدونا بتأمين أناس ليحملوا مريضنا حتى أعلى الجبل، و من هناك يمكنه أن يقطع بسهولة على ظهر الجمل المسافة القصيرة المتبقية حتى يريم.

و أغرتنا هذه الوعود فغادرنا في ٥ تموز/ يوليو. و سبقت و السيد بورنفاند، يرافقنا واحد من المكارين الذين مع البعثة عند الصباح كي نستفيد من برودة الجو، لكننا دفعنا ثمن هذه المجازفة غاليا، إذ لم أكثر من الثياب في هذا المناخ البارد و أصبت بالتالي برشح مزمن، و لكثرة ما رأينا من مياه قرب الطريق بين تعز و منسل، لم نشككك للحظة أننا لن نجد قطرة واحدة في ذاك اليوم، و ارتفعت الحرارة، و كان لا يزال أمامنا ساعة مسير، حين صادفنا في الريف فلاحا أعارني إبريقه، و كنت بحاجة ماسة للمياه لأني لم أعان يوما من ظمأ مضن كهذا. و لحسن الحظ، وصلنا أخيرا إلى يريم، و تبين لي أن المسافة إلى هذه المدينة من منسل هي حوالي ميلين و ۷/ ۸ الميل إلى ثلاثة أميال، إلى الشمال الشرقي، و هناك طرقات أكثر مما قال لنا الجمّالون. و أثار انتباهي على هذا الطريق قصر مهدّم يقع قبالة منسل على قمة جبل سمّراء، و يملكه آل حسن. و يؤدي الطريق من قصر بني حسن، نزولا إلى مسجد صغير و إلى قرية مدّراس(Maddrasse) ، و تلفي نحو الشرق سهلا منبسطا تقريبا لأن التضاريس التي نراها فيه لا تقارن بالجبال الممتدة بين سمراء و تهامة. و لم أر على طول الطريق، بين مدارس و يريم، إلّا قريتين صغيرتين هما ربعة القلعة(Rab d el Kalla) و منسل الثاني(Mensil Asse ?ni) . و تعيش في هذه البلاد قبيلتا بنو يربع و بنو سعيد(Beni Se ?id) ، لكنهما لا تقيمان في الخيام إنما في أكواخ، و تجدر الإشارة إلى أننا لا نجد بدوا في المناطق الخاضعة للإمام.

و بقي السيد كرامر مع خدمنا الأوروبيين بانتظار الأناس الذين ينبغي أن ينقلوا مريضنا إلى جبل سمّراء، لكن هؤلاء لم يستدعوا إما لأن العرب الذين يرافقوننا و الذين قدروا المسافة بين المنطقتين بميل واحد من دون المنعطفات، يعرفون أنها ثلاثة أميال أو لأن العرب الآخرين لم يرضوا بحمل مسيحي، و بالتالي تم ربط السرير و المريض على ظهر جمل. و بالرغم من أنهم سافروا ببطء شديد، و اتخذوا كافة

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۱۹

التدابير اللازمة لإراحته، وصل عند المساء إلى يريم و قد أصابه الإعياء، و اشتد عليه مرضه. و كنا قد اعتدنا على العيش و السفر كالعرب، فلم نعد نحس بالانزعاج طالما أننا بصحة جيدة، لكن في مناسبة كهذه عشنا تجربة المرض و صعوبته في تلك البلاد حيث لا يتمكن المرء من الحصول على الطعام و الشراب- و هذا شيء ما تعودناه في أوروبا- و تجربة المرض خلال الرحلة دون أن يتمكن المريض من الوصول في الوقت المناسب إلى مكان يرتاح فيه و يستعيد فيه عافيته كان شيئا جديدا علينا.

و كنا قد قررنا الإقامة في يريم في نزل، لكن حشد المتفرجين الذين دفعتهم حشريتهم لرؤية الأوروبيين و سماعهم لم تسمح لنا بالراحة، فعزمنا على استئجار شقة في المدينة نقيم فيها بانتظار شفاء رفيقنا. و تمكنا هنا من معرفة السبب الحقيقي الذي منع العرب في منسل من نقل السيد فورسكال إلى أعلى الجبل، و هو أن خادمنا العربي لم يرض بنقله من منزل إلى آخر، و لذلك اضطررنا لنقله بأنفسنا مع خدمنا الأوروبيين.

و يريم مدينة صغيرة أو على الأصح بلدة كبيرة، لكن صاحب الدولة يقيم في قصر صغير على تلة و عرة في وسط البلدة. أما منازلها فجزء منها مبني من الحجارة، و الجزء الآخر من الصلصال المدهون بمعجونة مؤلفة من الطين و روث البقر. و لم أتمكن من التعرف على المدينة و التجوال فيها بسبب مرضي و مرض رفيقي، لذا لا يمكنني الحديث عنها كثيرا، إلا أنني رسمت من نافذة غرفتنا واجهة القصر و قسما من المدينة على اللوحة(LXVIII) . و تقع يريم وفقا لدراساتي على خط عرض ۱۴؟، ۱۷؟.

و على مقربة من مدارس إلى الجنوب و الجنوب الغربي من يريم، قامت فيما مضى، بحسب روايات عرب عدة، مدينة تدعى جعفر، لم يبق منها أي منزل وفقا لما يقال. لكن نجد فيها، كما أكّد لي شيخ البلد، حجرا ضخما يحمل كتابات لم يتمكن اليهود أو المسلمون من فهمها، لذا تستحق زيارة أوروبي جاء البلاد لهذا الغرض. و يبدو أنه المكان الذي قامت فيه مدينة ظفار(Tdaphar) ، التي جعلها المؤرخون القدامى مكان إقامة الحميريين، و إذا ما تمكّنا من الحصول على كتابات حميرية، فستكون من دون شك من تحت هذه الأنقاض. و عند ما نجد أحرفا كوفية عادية أو كتابات أخرى لا تثير الاهتمام كثيرا يمكننا الاكتفاء بها، لأنني لطالما خدعت و أعطوني آمالا كاذبة بإيجاد كتابات قديمة و مجهولة. و يحلو للعرب أن يؤكدوا أن مدينة جعفر، كانت منذ ۸۰۰ عام، في أوج ازدهارها، و كانت مكان إقامة سعد الكامل حاكم شبه الجزيرة كلها، و أنها دمرت على يد العباسيين. و لم يرد ذكر حاكم يدعى سعد الكامل في كافة كتب التاريخ حول شبه الجزيرة العربية التي نملكها في أوروبا، و كلما استعلمت عنه في اليمن، قيل لي: إنه بطل عربي عظيم، و ملك شهير، أقام في جعفر. و يقال: إن في نجرا(Nedsjera) ، بإقليم عمران(Amran) ، ضريح ملك عظيم يحمل الاسم نفسه، لكننا لا نعلم إن كان نفسه الذي حكم جعفر.

و بما أن مدينة جعفر تقع إلى الشرق من موسى(Musa) ، و على سفح جبال عالية، استنتجت أننا يمكن أن نبحث هنا عن «سفار»(Sephar) التي جاء على ذكرها موسى. لكن قد تكون هذه المدينة هي جعفر،

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۲۰

لأن حضرموت و سبأ و مدنا أخرى و بلادا أخذت أسماءها من أولاد قحطان، لا تقع بين يريم و موسى، بل بين هذا المرسى و ميزا. (راجعوا وصف شبه الجزيرة العربية). و كان الطقس في شرق جبل سمراء مغايرا لطقس غربه، ففي تعز و آب و القرى المجاورة لمنسل، تساقطت الأمطار لأيام عدة في فترات بعد الظهر، و رأينا أراض خصبة صالحة للزراعة، و باختصار يكثر في المنطقة الزرع و يطغى اللون الأخضر على الطبيعة.

لكن، لم تسقط الأمطار في يريم منذ ثلاثة أشهر، و إن سمعنا الرعد في البعيد كل مساء تقريبا. و لقد تكاثر الجراد فالتهم كافة الثمار، لذا قرر أهالي يريم التوجه في ۸ تموز/ يوليو بعد الظهر إلى مكان تقام فيه الصلاة جماعة خارج المدينة، للاستسقاء. و كانت المسيرة تتألف من شيوخ حقيري الملابس كما ينبغي في يوم تضرّع كهذا، يرأسها شيخان جليلان يحمل كل منهما على رأسه علبة مفتوحة فيها كتب، و يتبعهما الشيوخ الآخرون و الناس، و هم يغنون و يرددون صلوات قصيرة لم أفهم منها سوى «لا إله إلا الله». تمّ كل ذلك في جو من التقوى و الورع، و بدا أن هذه الشعائر التقية أعجبت القدير، فما إن عادت المسيرة إلى المدينة، حتى هبّت عاصفة، و تساقط البرد ثم المطر عند المساء. و في ۹ تموز/ يوليو، أعاد سكان يريم صلواتهم خارج المدينة، لكنها لم تكن فعالة كاليوم السابق لتجلب المطر. و بعد أيام، تساقطت الأمطار، إما لأن الله استجاب لصلاة المسلمين المؤمنين و إما لأن موسم الأمطار قد حلّ، و لا سيما و أن هذا موعدها المعتاد كما هي الحال في غرب جبل سمراء و في بلاد مدارية أخرى.

و كان الجراد يباع في الأسواق كلها بأرخص الأسعار، لكني لم أر يوما هذا العدد الذي شاهدته في سهل جبل سمراء القاحل و في يريم، حيث كان بالامكان التقاطها باليد. و رأينا عربيا يملأ كيسا من الجراد ليجففها و يحفظها كمؤونة للشتاء. و حين تتساقط الأمطار بتقطع و لساعات فقط، إلى الغرب من الجبل، تهاجم جحافل الجراد من الشرق حتى أن فلاحي منسل يضطرون إلى طردها من حقولهم كي لا تقضي كليا على نتاجهم، فتراهم يتراكضون يمنة و يسرة، حاملين عصيا طويلة ربط بأعلاها قطعة قماش، و يطلقون صيحات عالية. و لا تنفع هذه الوسيلة في يريم التي اعتاد عليها الجراد و كأنها موطنه لقلة ما تمطر.

و شاهدنا في يريم عريسا جديدا، يتوجه إلى الحمّام، و يتقدم المسيرة مجموعة من الشباب تمرح و ترقص على وقع الطبول، تليها مجموعة كبيرة من الناس من أعمار مختلفة، يلهو بعضهم بإطلاق العبارات النارية، و يختمها أخيرا العريس و بعض أصدقائه. و تعود الجموع عند المساء ببطء. فنرى عند الغسق عددا من المشاعل التي تشبه مشاعلنا إلى حدّ ما و إن كانت في حالة سيئة، لذا أعجبتني أكثر من تلك التي تستخدم في مصر و التي ذكرتها سابقا.

و في يوم آخر، رأينا مصارعين يعرضان قدراتهما أمام بعض الناس في الشارع، و كانا يرتديان القليل من الثياب، و يضعان على وجهيهما قناعا كبيرا (و هو الأول الذي رأيته في الشرق)، مع لحية طويلة و شعر

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۲۱

يتدلى على أكتافهما. و يحملان في اليد اليمنى خنجرا طويلا و في اليسرى درعا كبيرا، و ظننا أنهما سيظهران براعة فائقة و لا فتة في المبارزة، لكنهما اكتفيا بالوثب على وقع الطبول و بالقيام ببعض ألعاب الخفّة.

وصف الشريف الإدريسي في كتابه أسواق اليمن، و لم أحاول دراستها لأني كنت أتجنب الجموع الكثيرة. لكن بعد أن بقيت لبضعة أيام في يريم دون أن أغادر المنزل، توجهت إلى السوق كي أبدد كآبتي، و كان قد تجمّع فيه عدد من الناس جاؤوا من القرى

المجاورة لشراء المؤن و المواد الضرورية للعائلة و بيعها. و لم أر في السوق أي محال غنية، بل خياطين، و إسكافيين، و حدادين و حرفيين آخرين يحيطون بالشارع أو على الأرجح بالساحة، أو يتوزعون حولها ضمن جدران منخفضة و سيئة البنيان و يعملون في الهواء الطلق. و صادفت هناك حجامين يشرطون و يجرحون العرب بسكين عادي ثم يضعون على الجرح قرون تيس قصّت من جذورها، و لا يملك هؤلاء معدات أفضل و هي كتلك التي استخدمت لشفاء الأب لوبو من الحمى .

و بدا أن السيد فورسكال يتماثل للشفاء في الأيام الأولى التي أمضيناها في يريم، لكن المرض استشرى من جديد حتى فقدنا الأمل بشفائه، ثم غطّ في سبات عميق في ١٠ تموز/ يوليو مساء، و وافته المنيّة في هذه الحالة، في اليوم التالي أي في ١١ تموز/ يوليو قرابة الساعة الواحدة و النصف. و أسفنا لفقدانه كثيرا، لأن تعاطيه مع عامة الشعب، بسبب حبّه لجمع النبات، مكّنه من تعلم اللغة العربية أفضل من كافة أعضاء البعثة، فضلا عن اللهجات المختلفة، فأصبح بالتالي الناطق باسمنا جميعا، كما أن نجاح رحلتنا كان من أبرز همومه، و كأنه ولد ليقوم برحلة إلى شبه الجزيرة العربية، فلم تكن الصعوبات تثنيه، و لا نقص وسائل الراحة يرده عن هدفه. اعتاد أولا على طريقة عيش السكان، و هو أمر ضروري إذا ما أردنا السفر في شبه الجزيرة العربية و الوصول إلى الهدف المرسوم، و لا يمكن لعالم عظيم من دونه أن يقوم بالكثير من الاكتشافات في هذه البلاد. و كان يتوجب علينا إعلام الحاكم بوفاة رفيقنا و شراء مكان لقبره، فأرسلنا خادم قاضي تعز إلى صاحب الدولة و قاضي البلاد، فدلّه هذا الأخير على عربي يمكننا أن نشتري منه مكانا لدفن صديقنا. و باعنا الرجل بالفعل أرضا لكن هذه العملية التجارية لم تتمّ، إذ إن المكان يقع قرب قناة صغيرة تجرّ فيها المياه لريّ الحقول المجاورة، فهدد الجيران المالك بجعله يدفع الثمن إن شحّت المياه بسبب جسد هذا الإفرنجي. و بما أن الرجل يفضل عدم كسب المال على إثارة غضب و نقمة جيرانه الجهلة، اضطررنا إلى البحث عن مكان آخر و وجدناه بالسعر نفسه. و طاب لصاحب الدولة بعدها الاجتماع بأحد أعضاء البعثة و التشاور معه، فقال لي إنه يملك و بصفته حاكم هذه المقاطعة، حق الوراثة على تركة اليهود و البانيان الذين يموتون خلال سفرهم في منطقته، فأجبته أن الميت ليس يهوديا و لا بنيانيا

إنما أوروبي، و أن صاحب الدولة في المخا لم يطالبنا بتركة صديق لنا توفي في مدينته. عندها، شرح لي ابن صاحب الدولة قصد والده، و أعلمني أنه يتوقع منا على الأقل هدية قيمة، و حين قلت له إن الأوروبيين لا يدفعون قرشا من دون إيصال، و أنا نحتاج إلى كتاب حول المبلغ الذي يطلبه بسبب وفاة رفيقنا في مقاطعته، توقفوا عن إزعاجنا بهذا الموضوع. و كان صاحب الدولة يعلم بنيتنا السفر إلى صنعاء، و لعله خشي أن نقدّم شكوى ضده لوزير الإمام إن طالبنا بما لا يحق له طلبه.

و وقعنا في مأزق كبير عند دفن صديقنا إذ لم نتمكن من إيجاد حمّالين، و إن وعدنا بالدفع بسخاء، و وافقنا على دفنه ليلا، و في النهاية، حضر ستة رجال. لكنهم لم يحضروا لنقل الجثمان إلا في الصباح، ما بين الساعة الثالثة و الساعة الرابعة، حين يكون الجميع نياما، و سارعوا إلى تنفيذ مهمتهم خلسة، فاستنتجنا أن المسلمين لا يرضون بحمل رجل من دين آخر و دفنه. أما أنا، فلم أتجرأ على الخروج في ساعة كهذه، لحضور الدفن، لأنني كنت مريضا، فيما رافقه إلى مثواه الأخير السيد كرامر و السيد بورنفايند، و الخدم الذين رافقونا من تعز، و خادما القاضي و شيخ البلد في يريم.

و لم نكن لنعتبر أننا أكملنا واجباتنا اتجاه رفيقنا، لو لم ندفنه في تابوت، لكن كان حريّا بنا أن نلفه بكفن و ندفنه. لأن وجود التابوت دفع العرب إلى الاعتقاد بأن الأوروبيين يدفنون كنوزا مع موتاهم، و هذا ما شاع خبره حين طلبنا بصنع التابوت. و علمنا، فيما بعد في صنعاء، أن أحدهم نبش القبر بعد رحيلنا من يريم، و كسر التابوت، و سرق الكفن. و حين علم صاحب الدولة بالأمر، أجبر اليهود على إعادة دفن الجثة، و منحهم التابوت حين طالبوا بأجورهم.

و بعد دفن رفيقنا، أخذنا نستعد لمتابعة رحلتنا من يريم إلى صنعاء في ١٣ تموز/ يوليو. لكن في الليلة التي سبقت رحيلنا، هطلت الأمطار بغزارة فلم نتمكن من الانطلاق إلا في وقت متأخر من النهار، و بعد أن قطعنا ميلا و ٣/ ٨ الميل إلى الشمال الشرقي، وصلنا إلى رباد(Rab d) ، و بعد ميلا و نصف الميل إلى الشمال وصلنا إلى ديقسوب(Dikes) ، و من بعدها إلى ذمار(Dam r) بعد أن اجتزنا ميل و نصف نحو الشمال، و هي تقع على جبل صغير يحمل اسم نمارا(Numara) . إذا، تبعد يريم عن ذمّار أربعة أميال، و لقد لزمنا ست ساعات لنصل إليها، أما طريقها فحجرية، و أرضها قاحلة. و صادفنا في أماكن مختلفة أناسا يبيعون الكشر للمارة، لكنهم على الأرجح لا يجنون أرباحا طائلة من هذه التجارة، لأنهم لا يعيشون حتى في أكواخ إنما ضمن أربع شقات جدران، ترتفع قدمين إلى أربع أقدام و من دون سقف.

و بسبب إقامتنا الطويلة في يريم، كان سكان دمار على علم مسبقا بأننا سنمرّ في قريتهم لنتابع طريقنا إلى صنعاء. و بما أن البلاد لم تشهد زيارة أوروبيين منذ سنوات عدة، أثار قدومنا حشرية الشعب، حتى أنهم لاقونا على مسافة ربع ميل خارج مدينتهم. و تزايد عدد الناس، و بما أننا كنا نخشى التعرض للإزعاج في الفندق من قبل المتفرجين، استأجرنا منزلا لنرتاح و نمضي الليلة التالية، و اضطررنا للانتظار طويلا في الشارع فتجمهر المواطنون حولنا خارج المدينة، مما دفعنا إلى شق طريقنا بينهم لنصل إلى منزلنا. و عمل

السيد كرامر الذي ركب البغل المهدى إليه من صاحب دولة المخا على فتح الطريق لنتمكن من المرور.

فوقع البعض على الأرض، و أخذ الموجودون يتهامسون حول وقاحة الكفّار. و سارعنا في الوصول إلى منزلنا، و رشق بعضهم بابنا و نوافذنا، أو على الأصح فتحات النوافذ إذ لا يعرف العرب استخدام الزجاج، بالحجارة، فأرسلنا خادمنا إلى الشارع لتفريق الجموع، لكننا لم نسترح إلّا لفترة. و أردنا طلب حرّاس من صاحب الدولة، لكن قيل لنا إنه لا يملك إلا ٣٠ جنديا و أنه يخشى المواطنين. و لم يظن أحد أننا في خطر، و قيل لنا إنّ هناك عددا كبيرا من الطلاب في الشارع، يودون رؤيتنا، و أنهم أرادوا لفت انتباهنا برشق نوافذنا بالحجارة. و زارنا شيخ البلد، و طلب من السيد كرامر أن يعطيه بعض الأدوية، و أملنا أن يتوقف رشق الحجارة احتراما لهذا الرجل الجليل، لكنهم استمروا في ذلك. و بما أن شيخ البلد و صاحب المنزل ارتأيا أنه ينبغي ترك الشباب و شأنهم، أوصدنا الأبواب و النوافذ، فملّوا هذه اللعبة.

و تقع ذمار في منطقة خصبة و منبسطة، اشتهرت في اليمن بمرابط الخيل الجميلة، و هي عاصمة إقليم مشارب العنز(Me ?chareb el Anes) و بالتالي مكان إقامة صاحب الدولة. و نجد فيها جامعة شهيرة للمسلمين، و تسمى الجامعة الزيدية، و أكدوا لي أنها تضم حوالى ٥٠٠ طالب شاب، أي إنهم يتعلمون فيها القراءة و القرآن. و نشاهد قرب المدينة قصرا ضخما، أما المدينة نفسها فمفتوحة، و واسعة، و حسنة البنيان، و أشك أنها تحتوي على ٥٠٠٠ منزل كما يؤكد شيخ البلد. و يعيش يهود هذه المنطقة على طريقة أهل البلاد في قرية خارج المدينة، و نجد بعض البانيان الذين يعيشون بين المسلمين كما في المدن اليمنية الأخرى. و لم يحط بطبيبنا هذا العدد من المرضى في أيّ مكان آخر من اليمن، و بما أنه رفض مغادرة المنزل بسبب الإهانة التي لحقتنا حين رشقوا منزلنا بالحجارة، أحضروا له مريضا على فراشه إلى المنزل، و سافر آخر معنا إلى صنعاء بسببه.

و يجرى على مسافة قريبة من ذمار نهر صغير، و يتوجه نحو الشمال ليضيع في رمال بلاد يوف(Yof) ، و لعله من الأنهار التي تتجمع في بلاد مأرب(Mareb) في سدّ أهل سبأ القديم . و نجد في الشرق، على بعد أميال من دمار، جبلا يسمى حيران(Hirr n) ، حيث نجد أحجارا ناعمة، لونها أحمر قان، و يقع هذا الجبل إلى شمال غرب المدينة. و لقد ذكرت هذا الحجر الكريم في وصف شبه الجزيرة العربية.

وقع خادمنا الأوروبي فريسة المرض في يومنا الأخير، و لم يقو على السفر إلى صنعاء معنا، لذا تركناه في ذمار كي يتبعنا على مهل بحسب ما تسمح له قواه. و حين لحق بنا، اشتكى من أنه لم يجد مأوى أثناء محنته لأن العرب خشوا أن يموت عندهم فيتحملوا عناء دفنه، لكنه وجد الكثيرين ليؤجروه حميرا و يسافروا معه بالبطء الذين يشاؤه.

و في اليوم التالي (١٤ تموز/ يوليو)، سافرنا ليوم كامل تقريبا باتجاه الشمال، حيث نجد إلى شرق الدرب الذي سلكناه سهلا واسعا، و إلى غربه جبلا أجدب. و رأينا على بعد ٥/ ٨ الميل من ذمار، و إلى الشرق، قرب الطريق: قرية مواهب(Mawahheb) التي يقيم فيها الإمام، و التي زارها كاتب رحلة إلى شبه الجزيرة العربية السعيدة في بداية القرن. كما نجد إلى غرب الدرب قرية تسمى ماضي(Madi) ، و بقي علينا اجتياز ربع ميل لنصل إلى سمسرا. التي تبعد عن قرية ممراد(٨ /٣ (Mamrade الميل، و تبعد هذه القرية عن قرية سعاد(٤ /٣ (Sau d الميل. و إذا ما سرنا ميلا في منطقة المستنقعات هذه، لوصلنا إلى سمسرا التي تحمل اسم سعاد، و من بعدها يمسي الدرب حجريا، و قلما نجد حتى سراج على بعد ميلين، سهولا مزروعة. و نصادف من هذا المكان الأخير و حتى

صنعاء، و قرب القرى كلها، عددا كبيرا من الحدائق المزروعة بالكرمة الجميلة و الشهية فضلا عن فواكه أخرى، في حين أن الجبال جرداء و قاحلة.

و تبعد ذمار عن سراج، وفقا لتقديري ثلاثة أميال أو ستة فراسخ و ٣/ ٤ الفرسخ، و هطلت الأمطار الغزيرة أثناء رحلتنا كما تساقط البرد مترافقا مع عواصف رعدية عنيفة. و لم نجد هنا أيا من المنازل التي يستخدمها المسافرون كمأوى أثناء العواصف و التي نصادفها في إقليم اليمن الأعلى، كما لم نر في ذاك اليوم سوى مجلس واحد قرب سمسرا.

في ١٥ تموز/ يوليو، توجهنا نحو الشمال لكن الدرب لم يكن سهلا كما في الأيام السابقة. انطلقنا من سراج، و سرنا ميلا و ٣/ ٤ الميل في الجبل، و وصلنا قرية عودي(Audi) على الحدود التي تفصل إقليم سراج عن بلاد شولان الصغيرة. و نجد على مقربة من هذا المكان قرية صغيرة تدعى حدّانة(Hadd sa) ، و تقع على تلة وعرة حيث نقشت، كما يقال، كتابات مثيرة للاهتمام على حائط قديم. و كنت قد علمت في تعز، أننا نرى كتابات عبرية في بلاد عتز لأن المسلمين لا يعرفون أي حرف منها، و لأنهم لم يسمعوا بلغة أخرى غير العبرية، باستثناء الكوفية و العبرية و العربية، لذا يظنون أنها باللغة العبرية. و وعدني جمالونا و مكاريونا باصطحابي لرؤيتها، لكني كنت أظن أن بلاد عتز هو اسم قرية، و علمت في ذاك اليوم أنه اسم إقليم، فاستعلمت من أحد المواطنين و علمت أن هذه الكتابات موجودة في حداثة. و كنا قد تجاوزنا هذه القرية بحوالي فرسخ و نصف، و أخفى عليّ الجمّالون و المكاريون الأمر عمدا كي لا أؤخرهم في رحلتي. و علمت لاحقا في صنعاء من يهود رأوا هذه الكتابات مرات عدة، أن الحروف ليست حروفا عبرية و أنهم لم يتمكنوا من فهمها شأنهم في ذلك شأن المسلمين. و بما أن حداثة تقع قرب الطريق المؤدي من المخا إلى صنعاء، أودّ لو يتكبد أي أوروبي، يسافر إلى تلك البلاد، مشقة نسخ هذه الكتابات، لأنها قد تكون من زمن الحميريين، و قد تساهم في تسليط الضوء على كتابة هذه الأثرة و اكتشافها. و يعتقد يهود صنعاء أنهم رأوا كتابات أخرى مجهولة في نقيل أسور(Nakil Assur) إلى الجنوب الغربي من صنعاء.

و نجد قبالة حداثة قرية تدعى كمن(Komen) ، و تؤدي الدرب منها إلى سمسرا تسمى ظيلة(Dsile) ،?

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج١، ص: ٣٢٥

يجري قربها نهر يبقى داخل البلاد. و نجد على مسافة قريبة من هذا المكان مقهى مقيل(Makil) ، على بعد ٣/ ٤ الميل من عودة. و قطعنا من مقيل ٧/ ٨ الميل و وصلنا سمسرا التي تحمل اسم سنان(Sinn n) و تقع في سهل واسع، و يلزمنا ٣/ ٤ الميل لنبلغ نجدا و هو مكان مهجور تقريبا إلا في اليوم الذي يقام فيه السوق حيث يقصدها التجّار الصغار و العمّال فيجدون أكواخا فارغة أو أماكن محاطة بسور منخفض.

و نجد في الجوار قرية صغيرة تدعى مسعود(Messaud) ، ثم سرنا في نجد ميلا فوصلنا إلى سيّان(Seiyan) و هي قرية كبيرة، عدد من منازلها مهدم. و يأخذ أمراء عائلة الإمام حصة من مردود مسعود و سيان. و يبعد هذان المكانان عن بعضهما، أربعة أميال و نصف أو سبعة فراسخ، وفقا لحساباتي، و لم نر على هذه الطريق سوى مجلس واحد أي خزان تسكب منه المياه للمسافرين.

و بما أن الأمطار لا- تتساقط في هذه البلاد بغزارة كافية لترويها كلها، نجد في أماكن مختلفة خزانات كبيرة و رائعة من مختلف الأشكال بنيت على سفوح التلال. و يصعب جمع مياه الأمطار من الجبال و التلال في الأماكن المنبسطة، لذا نرى آبارا عظيمة وضعت في أعلاها أحيانا ست بكرات الواحدة جنب الأخرى. و تستخدم في رفع المياه بقوة الذراع لريّ الحقول، مما جعل الزراعة مضنية و مكلفة.

و لقد أملنا دخول صنعاء في ١٦ تموز/ يوليو، و كنا قد اعتدنا على طريقة العرب بعدم ترتيب هندامنا، لكن أردنا الظهور بمظهر حسن في مكان إقامة الإمام، فارتدينا ثيابا كالأتراك. قبل مغادرتنا سيان، و هي ثياب أفضل من تلك التي نرتديها حاليا و إن لم تكن فخمة. و اتجهنا نحو الشمال الغربي، فوصلنا قرية تدعى ابن عاد(Ibn Had) ، و مررنا قرب أرض شيخ أو نبيل عربي، و بلغنا رامة(Rama) ، و هي قرية تقع على مرتفع، على بعد ميل و ٥/ ٨ الميل من سيان. و يؤدي الدرب من هذه القرية إلى سهل واقع في الشمال الغربي، و نجد في هذه المنطقة نهرا صغيرا، تحيط بضفيته السهول الخصبة، لكنه لا يقطع مسافة طويلة، إذ يضيع في الرمال أو في الحقول، و يعلو هذا النهر جسر حجري. و اجتزنا من رامة ١/ ٨ الميل لنصل إلى مقهى قرب قرية حدّ، حيث يملك الإمام منزلا ريفيا، و حديقة تكثر فيها الدوالي، و أشجار البندق و المشمش و الإجاص و غيرها. و تقع قرية دار سلم(Darshelm) قبالة حدّ(Hadde) ، و تبعد عن أسوار صنعاء حوالي ميل و ١/ ٤ الميل، و بالتالي تبعد سيان عن صنعاء ثلاثة أميال أو حوالي أربعة فراسخ و ١/ ٤ الفرسخ.

و في ذاك اليوم، أرسلنا باكرا أحد الخدم و حمّلناه رسالة موجهة إلى الفقيه أحمد، و هو وزير الإمام، نعلمه فيها بوصولنا، لكنه علم بالأمر مسبقا و أوفد واحدا من أهم كتّابه يستقبلنا على بعد نصف ميل من المدينة. و أبلغنا هذا الموفد بأن الجميع بانتظارنا منذ فترة، و أن الإمام استأجر لنا منزلا ريفيا في بئر القصب(Bir el Assab) لمدة شهر كامل، و لم يحمل لنا سوى أخبار حسنة. و علمنا أن الفقيه يملك بيتا للراحة في بئر القصب، و لما وصلنا إلى الحديقة، طلب منا الكاتب الترجل، فظننا أنه سيقودنا إلى الفقيه أحمد و أن

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج١، ص: ٣٢٦

منزله في الجوار، لكن تبين لنا أنه بقي و الخدم المسلمين على ظهور حميرهم، و أن مسافة طويلة تفصلنا عن المنزل الذي سنقيم فيه، و استقبلنا أسوأ استقبال في ذاك اليوم كما لم يحصل معنا قط من قبل في أية قرية يمنية. و كان يمكن أن نصادف في منزل ما، أناسا يوفرون لنا الماء و الخبز، فيما لم نجد في منزلنا سوى غرف فارغة. و بما أننا كنّا نتوقع دخول عاصمة المملكة في ذاك اليوم، لم نتزود بالمؤن اللازمة، و انتظرنا طويلا لنحصل على مرطبات من المدينة، و كنا نودّ أكل العنب. عدا ذلك، لم نقم منذ فترة طويلة في منزل نزه كذاك الذي خصصه لنا الإمام، ففيه شقق جميلة، و تحيط به حديقة غنّاء تكثر فيها الأشجار المثمرة التي تبدو و كأنها نمت من دون زراعة، و قد تمّ تنسيقها على الطراز العربي، فلا تجد فيها فيئا أو ممرات.

و في اليوم التالي لوصولنا إلى بئر القصب، أي في ١٧ تموز/ يوليو صباحا، أرسل لنا الإمام هدية، و هي خمسة خراف، و حمل ثلاثة جمال من الخشب، و كمية كبيرة من الشمع، و الأرز، و التوابل المختلفة.

و اعتذر المكلّف بتقديم هذه الهدية منا، لأن الإمام غير قادر على استقبالنا في هذا اليوم و في اليوم التالي لأنه مشغول بدفع أجور جنود حاشد و بكيل الخاضعين له. و لم يؤثر علينا هذا الخبر إذ لم نقصد صنعاء بهدف تقديم الطاعة للإمام بل لزيارة المدينة و المناطق المجاورة و للتعرف على أناس يعطوننا معلومات حول هذه البلاد. لكن فرض علينا عدم الخروج من المنزل قبل مقابلة الإمام، و أثار هذا الأمر استياءنا، إذ لم نشأ تضييع الوقت، و لم نكن واثقين كل الثقة من أن الإمام سيدعونا بعد يومين.

و لم يعلموا بأن استقبال شخص من أهالي البلاد، قبل مقابلة الإمام، مخالف لأصول اللياقة تجاهه؛ و كنا قد تعرّفنا من قبل على شخص من صنعاء و هو يهودي، سافر معنا من القاهرة إلى لحية. و بالرغم من أنه من أغنى عائلات اليهود و أهمها، رافقنا كخادم لتوفير مصاريف الرحلة من جهة، لأن يهود شبه الجزيرة العربية يعرفون قيمة المال كإخوانهم في أوروبا، و للسفر في حمايتنا بسهولة أكبر من جهة أخرى، لأن الأتراك، الذين يحجون من القاهرة إلى جدة، يحتقرون اليهود و يسيئون معاملتهم حين يصادفونهم.

و حين علم هذا اليهودي بقدومنا، زارنا مع واحد من أكبر علماء الفلك عندهم، ليشرح لي الاسم العبري لبعض النجوم التي ذكرت في الكتب المقدسة (وصف شبه الجزيرة العربية). و وصل في الوقت نفسه كاتب الفقيه أحمد، فوقف اليهوديان لكنه لم يسرّ لرؤيتهما، و استاء من كونهما تجرآ و دخلا بيتنا قبل أن نقابل الإمام، و طردوهما من بيتنا كما كلّف خدمنا المسلمين بمنع دخول أي شخص كان قبل أن يرانا سيّده. و أثارت هذه الأعراف العربية استياءنا، لكن السفراء العرب لدى الملوك الأجانب يلتزمون بها، و لم يرض سفير باشا طرابلس بتوجيه الكلام إلى أحد عند دخوله كوبنهاغن قبل مقابلة وزير الدولة. و لعل الكاتب المذكور أعلاه ظن أن رفقة اليهود لا تسرّنا كما لا تسعده هو، و أنه أسدى لنا معروفا بطردهم من منزلنا.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج١، ص: ٣٢٧

و في ١٩ تموز/ يوليو صباحا، تمّ تبليغنا بأن الإمام سيستقبلنا، و قادنا كاتب الفقيه أحمد إلى قصر بستان المتوكل. و كنا نتوقع أن ندخل على الإمام بحضور بعض ضباطه و مسؤوليه، لكن فوجئنا بالتحضيرات الكثيرة. و كان فناء القصر يعجّ بالخيول، و المسؤولين، و غيرهم من العرب، و كان من الصعب علينا شق طريقنا وسط هذا الحشد، لو لم يصل النقيب خير الله(Nakib Gheir Allah) ، و هو عبد سابق و مروّض لجياد الإمام حاليا، حاملا عصا طويلة، ليفسح لنا المجال. أما مجلس الإمام فهو في قاعة مربّعة و مقببة، و تتوسطه بركة كبيرة، ترتفع مياه النوافير فيها حوالي ١٤ قدما. و نجد وراء الحوض تعلية يبلغ طولها قدما و نصف، و عرضها خمس إلى خمس أقدام فوق مستوى المجلس كله، و يليها إعلاء صغير يقوم قرب أدراج عرش الإمام مباشرة. و يغطي السجاد العجمي الأرض كلها، بما في

ذلك محيط الحوض و العرش، و لم أر على العرش سوى أعلاه رباعي الزاوية مغطى بأقمشة حريرية، وضعت و سائد عريضة و مطرزة وراءه و على جانبيه. و تربع الإمام على عرشه بين الوسائد، على طريقة الشرقيين، و كان يرتدي ثوبا أخضر اللون، بأكمام واسعة و طويلة على الطراز العربي ، و علّق على جانبي صدره، ككبار الأتراك، شبكة ذهبية كبيرة و اعتمر عمامة بيضاء عريضة. و جلس أبناؤه إلى يمينه و إخوته إلى يساره، فيما جلس الفقيه أحمد قبالته، و بقينا على الإعلاء الأول، و بالتالي على مستوى منخفض بالنسبة للفقيه، و جلس على جانبي القاعة نفر من إخوة الإمام و أولاده و عند الباب عدد من وجهاء العرب، يلاصق أحدهم الآخر.

و قادونا مباشرة إلى الإمام، كيّ نقبّل ظهر يده اليمنى و راحتها، فضلا عن طرف ثوبه، و يسمح الأمراء المسلمون بالأولى و الأخيرة، و هي نعمة عظيمة حين يسمحون للأجانب بتقبيل راحة يدهم. و كان الصمت سائدا في القاعة، لكن ما إن لمس أحدنا يد الإمام حتى تلفظ أحد البشراء ببعض الكلمات التي تعني: «ليحفظ الله الإمام»، و ما إن صمت حتى ردد الحضور كلماته بصوت عال. و بما أني كنت أول شخص في الوفد، و كنت أحاول التركيز للفظ إطرائي بلغة عربية صحيحة قدر المستطاع، و أخذت أفكر بهذا الحفل الباذخ الذي لم أر يوما مثيلا له في شبه الجزيرة العربية، و لم أتمكن من إخفاء اضطرابي من هذا الحشد الصاخب، لا سيّما حين أخذوا يصرخون عند ما لمست يد الإمام، لكني عدت و تمالكت نفسي. و عند ما هتفوا من جديد فيما كان رفاقي يقبّلون يد الإمام، تذكرت أن الأمر نفسه يحدث عند ما يصرخ طلّاب الجامعات في ألمانيا «يعيش» إكراما لشخص ما، و يرددونها مرارا.

و تختلف لغة البلاط في صنعاء اختلافا عظيما عن لغة العامة في المناطق الجبلية، فضلا عن تهامة، و لم نكن نتكلم إلا لهجة هذه البلاد الأخيرة و بركاكة، فاستعنا بخادمنا الذي اعتاد سوء لفظنا، و هو رجل من المخا، كناطق بلساننا، فيما ترجم الفقيه أحمد، الذي أقام طويلا في تهامة و تعلّم اللغة العامية، كلام الإمام.

و لم أتمكن من فهم الكثير من كلامهما، حين كانا يتحدثان معا، و ينطبق الأمر ذاته على خادمنا الذي ولد

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ۱، ص: ۳۲۸

في المخا و بالتالي في هذه المملكة، و الذي أكدّ لنا أنه لم يفهم الكثير من الإمام. و بما أننا لم نتمكن من التحدث مباشرة، إنما عن طريق غرباء، أوجزنا الحديث، و لم نر ضرورة لإعلامهم بأننا قطعنا هذه المسافات الطويلة، فأوضحنا للإمام أننا أبحرنا عبر الخليج العربي لأنه الطريق الأقصر للوصول إلى الهند من أوروبا. و لم ننس أن نذكر، أننا سمعنا الكثير من الإطراء و المديح حول الثقة و الأمن المستتبين في الدول الخاضعة للإمام، فدفعتنا رغبتنا لرؤية هذه المملكة قبل رحيل آخر سفينة إنكليزية، كي نتمكن، بصفتنا شهود عيان، من الثناء على هذه البلاد. فردّ الإمام مرحبا بنا في بلاده، و منحنا حرية الإقامة فيها بقدر ما يحلو لنا أو بقدر ما تسمح به أعمالنا. و بعد أخذ ورد، استأذنا، بعد أن قبّلنا يد الإمام من جديد وسط الهتافات المعتادة، و قطعنا صالة طويلة ثم خرجنا من الباب دون أن نضيف أية إطراءات. و لقد حفرت هذه الجلسة على اللوحة(LXIX) .

و عند عودتنا، أرسل لنا الإمام أحد عشر كيس نقود، واحد منها لخادمنا من المخا، الذي عمل كمترجم لنا، يحتوي على ۹۹ خماسي و هي قطع نقدية تبلغ قيمة كل ۳۲ منها درهما واحدا. و احتفظ الصرّاف لنفسه بدرهم بالمئة، إما لأنها عادة في البلاد و إما إنه يفعل ذلك من دون علم الإمام. و قد تبدو هذه الهدية التي أرسلها الإمام بالعملة المحلية منافية للياقة، لكن إذا ما اعتبرنا أنّ ما من إنسان يمكن أن يعيش في هذه البلاد بالدين، أو في فندق، و أننا مضطرون لشراء حاجاتنا من السوق نقدا و لتحضير طعامنا بأنفسنا، تعتبر هذه الفعلة لطفا منهم اتجاه الغرباء، كي لا يخدعهم الصرافون و لتجنيبهم هذا العناء.

و احترنا في قبول أو عدم قبول هذه الهدية لا سيّما و أننا لم نشأ العيش على حساب العرب كي لا نعطيهم حجة ليتمنوا رحيلنا، لكن رفضها سيعتبر إهانة لذا قررنا الاحتفاظ بها.

و لا يقابل السلطان، في تركيا، شخصا ما إن لم يكن الوزير قد رآه، لكن العادة مختلفة في اليمن فبعد أن نلنا شرف مقابلة الإمام في الصباح، أرسل الفقيه أحمد بطلبنا بعد الظهر إلى منزله الريفي في بئر القصب، و طلب منا إحضار الغرائب التي شاهدها معنا الأمير فرحان في لحية، و بعض أعيان العرب في المدن الأخرى. لكن هذه النوادر الجميلة لم تكن سوى المجاهر و المحراث، و المناظير، و الكتب العربية المطبوعة، و الألواح، و أدوات الرسم فضلا عن الخرائط الجغرافية و الهيدروغرافية، و الإبر الممغنطة الخ و التي حملناها معنا لاستعمالنا الخاص، لكننا عرضناها لاحقا عن طريق الإمام. و تبينت أن خوفي هذا لم يكن مستندا إلى أيّ أساس منطقي، لأن الفقيه استقبلنا بتهذيب و أدب بالغين، و أعرب عن إعجابه بما عرضناه أمامه، و طرح علينا بعض الأسئلة التي دلّت على اطلاعه على العلوم أكثر من أبناء بلاده الآخرين، و على كثرة تعامله مع الأجانب من أتراك و فرس و هنود، مما مكنه من جمع معلومات واسعة حول الجغرافيا.

و يظن معظم العرب أن أوروبا تقع إلى الجنوب من بلادهم، لأن السفن الأوروبية التي ترسو في مرافئهم تأتي من المناطق الجنوبية، لكن الفقيه أحمد يعرف موقع دول أوروبا كافة، و يعرف الدول الأقوى برا

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ۱، ص: ۳۳۰

و بحرا. و هل يمكن أن نتوقع أكثر من ذلك من عالم في شبه الجزيرة العربية، لم ير يوما خرائط جغرافية؟

و للرد على اللطف الذي أحاطونا به، و الهدايا الصغيرة التي تلقيناها، و لأننا قرأنا في كتب عدة أن ما من أوروبي يتجرأ على مقابلة أحد أعيان العرب من دون أن يحمل له هدية، قررنا أن نستغل هذه الفرصة لنقدّم هدية للإمام و للفقيه، و هي عبارة عن قطع ميكانيكية أوروبية كالساعات و أدوات الفيزياء و غيرها، و هي أشياء تندر في اليمن. و عرفنا لا حقا أنهما لم ينتظرا منا هدية لأننا لسنا تجارا، و لا نطلب أية حظوة من الإمام و إنما من المفترض أن نسافر كالدراويش، لكن الهدية لاقت إعجابهما. يعتبر الأتراك هدية الأوروبيين لهم، إن لم أكن مخطئا، ضريبة يدفعونها، و يظنون أنهم يظهرون لنا شرفا عظيما حين يقدمون لنا قفطانا مقابل هدية مميزة. و نستنتج من المعاملة المميزة التي تلقيناها في صنعاء أن الإمام و وزيره لا يريدان أية هدية مجانية من الغرباء.

تكثر الأشجار المثمرة في حديقة الفقيه أحمد، و لم يكن بيته كبيرا جدا، إنما لا حظت أنه مفتوح كليا من جهة الجنوب، في حين أن الشمس في هذه المنطقة تتواجد في أشهر القيظ إلى شمال سمتها. و نجد في الوسط، قبالة المبنى حوض ماء كذلك الذي رأيناه عند الإمام، و ترتفع المياه فيه أعلى من مياه قناة آب.

كما نجد قرب البئر حائطا يبلغ ارتفاعه ۲۰ إلى ۳۰ قدما، يخفي وراءه أرضا يبلغ انحدارها ۳۰ إلى ۳۶ درجة، يتحرك فيها مكاري و حماره نزولا و صعودا لإخراج المياه. و لا تضفي هذه النوافير جمالا على الحديقة، إنما تساعد في ترطيب جو المنزل و تبريده، و هي نعمة في بلد حار كهذا. و رأينا في حدائق أعيان صنعاء نوافير كهذه أيضا.

و تقع مدينة صنعاء على خط عرض ۱۵°، ۲۱°، و على سفح جبل يحمل اسم نقوم(Nikkum) أو لقوم(Lakkum) ، نرى عليه بقايا قصر قديم، بناه سام، على حدّ اعتقاد العرب، و يجري في جهة أخرى، أي في غرب المدينة، جدول صغير. و نجد من جهة الجبل القصر الواقع، بحسب ما أكدوا لي، على تلة خمدان(Chomd m) الشهيرة، و يمتد إلى جانب النهر بستان المتوكل، و هو حديقة فسيحة، أو على الأصح ضاحية بناها الإمام المتوكل، و زينها الإمام الحالي بقصر بناه فيها. و يحيط بالكل حائط واحد، أو بالأحرى، حاجز من تراب، مغطى بالصلصال، و يعلو فوقه عدد من الأبراج الصغيرة يبعد الواحد منها عن الآخر ۶۰ قدما. و تفصل الأسوار المدينة عن القصر من جهة و عن بستان المتوكل من الجهة الأخرى. و لا تعتبر مساحة المدينة و القصر، إذا ما استثنينا بستان المتوكل، شاسعة، و يمكننا زيارتها بساعة و ثماني دقائق.

و أردت رسم خارطة المدينة بدقة، لكن حين كنت أتجول في الشوارع، كانت الحشود تحيط بي، تدفعها إلى ذلك حشريتها، و تسير معي كيفما تحركت، فرأيت أنه من الأفضل، في ظروف كهذه، عدم استعمال البوصلة لكني رسمت خارطتها على اللوحة(LXX) . و للمدينة أربعة أبواب هي: ۱) باب اليمن(El Yemen) ۲) باب السبع(B b es Sebb) ۳) باب شعيب(B b Scha) ۴) باب الستران (B b es Str n)

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ۱، ص: ۳۳۲ .

و لم يفتح الباب الأخير و الذي يؤدي إلى القصر منذ سنوات عدة، كما نجد أيضا ثلاثة أبواب صغيرة أخرى هي ۵) باب الشارة(B b Sch r ra) ۶) باب الحديد(B b Hadid) ۷) باب الصغير(B b Sogair) . يبدو أن عدد السكان في صنعاء مرتفع، كما نجد فيها عددا كبيرا من الحدائق و بالتالي قد لا يكون حرم المدينة مبنيا بالكامل. و لم ألاحظ سوى تسع إلى عشر مآذن تعلو المساجد، و يقوم الجامع أو الجامع الرئيس في وسط المدينة تقريبا و تعلوه منذنتان. أما المساجد الأخرى فبمئذنة واحدة و تحمل الأسماء التالية: المدرسة(El M drasse) ، صلاح الدين(Salech eddin) ، الطعس(El Tha s) ، و البكيرى(El Bekirie) ، فضلا عن

مسجد القصر. و قد بنى بعض هذه المساجد باشاوات أتراك، كما شيّد الإمام الحاكم حاليا مسجدا جميلا، و جرّ إليه الماء للرجال و الحيوانات، و بنى إلى جانبه ضريحا صغيرا لرفاته. و لا يتعدى عدد الحمامات الكبيرة الاثنى عشر حمّاما، لكن نجد فيها قصورا رائعة بنيت على الطراز العربي و منها: بستان السلطان، و دار الفتح التي شيّدها الإمام الحالي. و نجد بالقرب منها قصر الإمام المنصور، و أبنية عظيمة أخرى تملكها عائلة الإمام الكبيرة و أعيان آخرون. إن القصور العربية لا تبنى بما يتلاءم و الذوق الأوروبي، لكنها مبنية من الآجر المشوى و بعضها من الحجر فيما تبنى بيوت العامة في صنعاء من الصلصال . و أظن أني لم أر زجاجا في فتحات النوافذ إلّا في قصر واحد، أما نوافذ المنازل الأخرى فمزودة بمصراعيين يبقيان مفتوحين في أيام الصحو و مغلقين أثناء موسم المطر، و يدخل النور إلى المنازل عبر نوافذ صغيرة مستديرة تعلو المصراعين. و نجد في منازل أعيان العرب زجاجا مرسوما عليه، يستقدمونه من البندقية.

و نجد في صنعاء، كما في كافة المدن الكبرى التجارية في الشرق، نزلا للتجّار و المسافرين، فضلا عن ساحات خاصة أو أسواق يباع فيها الخشب، و الفحم، و الحديد، و العنب، و القمح، و الزبدة، و الملح و الخبز.

و لا نرى في سوق الخبز سوى النساء، كما نجد في صنعاء سوقا حيث يمكنك أن تستبدل بثيابك القديمة ثيابا جديدة. و يملك البضائع تجار من الهند و بلاد فارس و تركيا، فضلا عن أولئك الذين يبيعون التوابل على أنواعها، و الأدوية، و الذين يبيعون أوراق القات(K d) ، و الفواكه المجففة أو الطازجة من إجاص و مشمش و دراق و تين الخ، و النجارون، و الحدادون، و الإسكافيون، و الخياطون، و صانعو السرج و الحجّارون، و الصاغة، و الحلاقون، و الطباخون، و مجلد و الكتب، و حتى الكتّاب الذين يخطون عريضة للإمام لقاء بضعة قروش أو لبعض الأعيان، فضلا عن أنهم يعلمون الأولاد و ينقلون الكتب، أماكنهم

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۳۳

المحددة في محالهم الصغيرة المحمولة. أما خشب البناء فمرتفع الثمن في اليمن و لا يقل خشب التدفئة عنه غلاء في صنعاء لأن الجبال جرداء، فيتطلب نقل خشب التدفئة يومين إلى ثلاثة أيام ليصل إلى المدينة، و تبلغ كلفة حمل الجمل الواحد عادة درهمين، لكن يتم التعويض عن نقص الخشب بالفحم الحجري.

و رأيت الكثير من الخثّ في تلك البلاد، لكنه سيء للغاية فيضطرون إلى خلطه بالقش ليؤججوا النار فيه.

و تكثر الفواكه في صنعاء، إذ نجد في أسواقها أكثر من عشرين صنفا من العنب، و بما أنها لا تنضج في وقت واحد، يمكننا أن نشتري عنبا جديدا خلال أشهر عدة من السنة، كما يقوم بعض العرب و بعض الأتراك في الأناضول بتعليق عناقيد العنب في سقوف الأقبية، فتتوفر هذه الفاكهة اللذيذة على مدار السنة. و يعصر يهود المنطقة العنب لصنع النبيذ، و يمكنهم الحصول على كميات ضخمة فيجعلون منها بالتالي تجارة مربحة شأنهم في ذلك شأن أرمن شيراز. لكن يبدو أن العرب كالفرس يكرهون المشروبات القوية، فيضطر اليهود إلى اتخاذ إجراءات عدة عند ما يريدون تزويد البعض بالمشروبات في المدن الأخرى، إذ يعاقبون بشدة إذا ما تمّ العثور على النبيذ بحوزتهم و هم ينقلونه إلى أحد العرب. و يتم تجفيف الكثير من العنب لتصديره، و من بينها عناقيد عنب بيضاء تبدو و كأنها من دون بزور، لكن نجد في داخلها بدل البزر القاسي حبوبا طرية لا نحس بها أثناء الأكل إنما يمكن رؤيتها عند قطع حبة العنب.

و يقع قصر صنعاء كما ذكرت سابقا على تلة حمدان التي اشتهرت في الماضي، و يقسم إلى جناحين يحملان اسم دار الذهب و دار عمر. و رأيت الكثير من بقايا الأبنية القديمة، لكني لم أكتشف أية كتابات كوفية و بالتالي حميرية، لأن البيوت القديمة في صنعاء، كما في المدن القديمة الأخرى التي سكنت دوما، هدمت ليبنى مكانها بيوت جديدة. و يقيم الإمام عادة في المدينة، لكن بعض أفراد عائلته يعيشون في القصر.

و يضم القصر المبنى الذي تسكّ فيه الأموال، و سجون مختلفة، كبيرة و صغيرة للأعيان أو للعامة، و لم يسمحوا لي برؤية أعلى مكان في القصر، أي مركز المدفعية، و كأنه أمر فريد للغاية، و رأيت بالفعل شيئا لا فتا و هو مدفع هاون ألماني قديم، كتبت فوقه بعض السطور، و هي كتابات رهبانية محاها الزمن تقريبا. و رأيت في هذا المركز ستة إلى سبعة مدافع حديدية صغيرة، ثبت أكبرها في الرمل، و الأخريات على ركائز مكسورة. و يعلو كل من الأبواب الثلاثة أي باب اليمن، و باب السبح، و باب شعيب مدفعان يستخدمان في المناسبات الكبرى. و تقتصر المدفعية الثقيلة في عاصمة اليمن على الأسلحة التي ذكرتها آنفا.

و تقع بئر القصب إلى الشرق من صنعاء، و هي قرية أو ضاحية، فيها مسجد كبير تزيّنه مئذنة، و تتوزع بيوتها في الجنائن قرب جدول صغير. و يمتد في الشمال على بعد فرسخ و نصف أو فرسخين من صنعاء، سهل يحمل اسم روضة(Rodda) تحيط به الحدائق و تجري فيه جداول صغيرة. و يشبه موقع هذا المكان موقع مدينة دمشق، في حين أن صنعاء التي شبهها المؤرخون العرب بدمشق تقع على ربوة قاحلة جرداء جزئيا. و بعد موسم أمطار طويل، يجري جدول صغير آتيا من تنام(Tanaim) ، و يمرّ في المدينة، ليكمل طريقه إلى الشمال نحو بلاد جوف، لكنه كان جافا كليا حين كنا في صنعاء. و نجد أقنية مياه، تمتد من

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۳۴

جبل نغوم(Nikkum) ، و تتوزع على المدينة و على القصر، فلا تشح المياه في أي فصل من فصول السنة، فالمياه رفاهية تحاول مدن الشرق كلها الحصول عليها، إما لأن المياه مشروب المسلمين الرئيسي، و إما لأن المؤمنين بهذه الديانة مجبرون على الاغتسال غالبا.

و لا يبقى اليهود في مدينة صنعاء، إنما يعيشون في قرية كبيرة خاصة بهم تسمى قاع اليهود(dجKda el Ih) ، و تقع قرب بئر القصب، و يبلغ عددهم ۲۰۰۰ يهودي. و يعامل اليهود في اليمن باحتقار كما في تركيا، لكنهم أمهر الصاغة و الفخارين و العتّال يقصدون المدينة ليعملوا أثناء النهار في محالهم الصغيرة و يغادروها عند المساء إلى منازلهم. و نجد بين اليهود عددا من التجار الأثرياء، و منهم رجل يدعى أراكي(Or ki) كسب ثقة الإمامين، و شغل منصب المفتش الأول للجمارك، و الأبنية و الحدائق لمدة ثلاثة عشر عاما أثناء حكم المنصور و لمدة خمسة عشر عاما أثناء حكم الإمام الحالي، و هو مركز مهم للغاية في صنعاء. لكن قبل وصولنا بسنتين، غضب عليه الإمام الحالي، فسجن و أجبر على دفع غرامة بلغت قيمتها ۵۰۰۰۰ درهم، وفقا لما يقوله اليهود، و في الوقت نفسه، تمّ هدم اثنا عشر معبدا من المعابد الأربعة عشر التي يملكونها. و كان في هذه القرية منازل جميلة كمنازل الأعيان المسلمين في صنعاء، لكنهم هدموا تلكم التي يتعدى ارتفاعها ۱۴ ذراعا، و منعوا أي يهودي من بناء منزله بارتفاع يتجاوز الأربعة عشر ذراعا. و بما أن المشروبات الروحية تحفظ هنا، كما في شيراز في بلاد فارس، داخل جرار كبيرة من الفخار، قاموا بكسر الجرار مسببين لهم المزيد من الأضرار. و أطلق سراح المدعو أراكي قبل وصولنا بخمسة عشر يوما، و قدّم له الإمام، استنادا إلى أقوال اليهود، ۵۰۰ درهما. و هو رجل عجوز، يملك معارف واسعة، و يرتدي ثيابا زرقاء اللون ككافة يهود اليمن، و لا يلفّ قلنسوته بأي شاش أو عمامة، و أكدوا لي أنه يفضل تغيير طريقة لباسه بالرغم من أن الإمام سمح له بذلك. و خصّني بصداقته، بعد أن روى له أحد خدمنا الذي رافقنا من القاهرة إلى مخية، و هو من أقاربه، الكثير عنا، و كان قد خرج لتوه من السجن فلم أجرؤ على زيارته مرارا كما كنت أتمنى.

و يعيش في صنعاء حوالي ۱۲۵ بانيانيا، و يضطرون لدفع ۳۰۰ درهم للإمام شهريا، في حين لا تدفع قرية قاع اليهود سوى ۱۲۵ درهما. عند ما يموت أيّ بانياني في صنعاء، يدفع ورثته للإمام ۱۰ إلى ۱۵ درهما نقدا، و إن لم يكن للفقيد أقرباء في اليمن، تعود تركته كلها للإمام. و يروى البانيانيون أن اثنين من أبناء دينهم، زجّا في السجن، منذ بضعة أشهر، فدفعا للإمام ۱۵۰۰ درهم من تركة ورثاها في الهند و لم يقبضاها بعد، كي يطلق سراحهما. و لعل الإمام طلب هذا المبلغ لسبب آخر لم يرد البانيان الاعتراف به، لئلا يقروا بذنب اقترفوه. و هذا أمر موجود في تلك البلاد كما هو موجود في أوروبا.

يزور سلطان القسطنطينية المسجد أيام الجمعة عند ما تسمح له صحته بذلك فيتبع إمام صنعاء هذه العادة الدينية أيضا فيقصد المسجد في موكب بهيّ، لكننا لم نره إلا في طريق العودة، إذ وصف لنا

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۳۵

بطريقة غريبة لأنه يسلك الدرب الطويل، و ينضم للموكب عدد كبير من الذين أدّوا واجباتهم الدينية في المساجد الأخرى. و لقد غادر الإمام الجامع الرئيس بعد أن أدّى الصلاة في ذاك اليوم (۲۲ تموز/ يوليو)، و توجه عبر باب اليمن إلى باب شرارة(Sch r ra) و منه إلى خارج المدينة. و يسبق الإمام بضع مئات من الجند، و يحمل الخدم إلى جانب الإمام و كل أمير من عائلته مظلة أو شمسية كبيرة، و هي مزيّة لا تحقّ إلا للأمراء الأقحاح، لذا لا يسمح السلطان في القسطنطينية إلا لوزيره بالحصول على نوع من الجندول المغطى من الأمام لاتقاء حرارة الشمس. و يقال إن الأمراء المستقلين في أقاليم اليمن الأخرى كمشايخ يافع و حاشد و بكيل، و شريف أبي عريش و غيرهم، يخصصون خدما لحمل هذه المظلة(Mad lla) كدليل على استقلالهم. و يتبع الإمام، فضلا عن الأمراء، حوالي ۶۰۰ رجل من الأعيان، من رجال دين و علماء، و عسكريين، يمتطي بعض منهم جيادا رائعة، و يرافق عدد من الشعب الإمام سيرا على

الأقدام. و يسير إلى جنب الإمام حملة الأعلام من الجهتين، لكنها أعلام مختلفة عن تلك التى نراها فى بلادنا أو تعلوها مجمرة عطور صغيرة من الفضة، و يقال إنها تحمل تعويذات تجعل الإمام لا يقهر. و ينتشر حملة البيارق مع مجمرات ضمن المسيرة لكن لا يبدو أن لها مكانا محددا؛ باختصار كانت المسيرة ضخمة و رائعة جزئيا، لكنها غير منظمة بحسب ما بدا لى، إذ يركض البعض، و يمتطى البعض الآخر الجياد، و يتداخلون من دون مراعاة أى نظام. و على مقربة من باب شرارة، وقفت جمال، تحمل هوادج فيها بعض نساء الإمام اللواتى يشاركن بالمسيرة لكن يقال إنها كانت فارغة و أنها نقلت إلى خارج المدينة كى لا يخالفوا العادة، و يتبع هذه الجمال بعض الإبل غير المحملة، لا يحمل الواحد منها على سرجه سوى أعلام للزينة و أطلق الجنود عيارات نارية عند باب خرارة بارتياك لم أشهد له مثيلا فى اليمن. و بما أنى كنت مريضا، لم أشأ التعرض لأشعة الشمس و أنا أتجول هنا و هناك، فعدت على أعقابى إلى بئر القصب. و أجرى الجنود بعض العروض العسكرية أمام منزل الإمام، و أظهر مسؤولوهم براعة فى السباق، و لم يجد السيد كرامر، الذى حضر الاستعراض، الجنود أبرع من أولئك الذين شاهدناهم مرارا فى الأقاليم، و يكون ذلك عند عودة صاحب الدولة من المسجد. و تقفل أبواب المدينة كلها أثناء الصلاة- على ما يبدو- للسبب نفسه الذى يدفع الأوروبيين لإقفال مدنهم خلال الوعظ، و ليس خوفا، كما قرأته فى بعض الروايات، من أن يفاجئهم المسيحيون نهار الجمعة كما تقول نبوءة مزعومة.

و استقبلنا فى صنعاء بلياقة و صداقة لم نكن نتوقعهما، و أراد بعض الأعيان إقناعنا بالبقاء لعام آخر فى اليمن، و بعدم الإبحار مع السفن الإنكليزية. و لم نكن لنخشى شيئا من الشعب لو قررنا اتباع هذه النصيحة، لكن بما أن الموت حرمنا من الأستاذين و لم نعد نأمل باكتشافات جديدة حول اللغة و التاريخ الطبيعى للبلاد، و بما أننى رأيت القسم الأكبر من مدن هذه المملكة المهمة و وضعت مشروع خارطة جديدة خاصة باليمن، و بما أننا عرفنا سمات البخل عند الإمام الحالى، و بعد أن تعرضنا لمشاكل عدة مع صاحب دولة تعز و المخا- و لو أننا لم نعد نخشى هذه الأمور- و بعد الصعوبات الدائمة التى و اجهناها،

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ۱، ص: ۳۳۶

و تغييرات الطقس و الماء التى تعرضنا لها فى الجبال و السهول، فمرضنا الواحد تلو الآخر، قررنا التوجه إلى المخا و منها إلى الهند حفاظا على أرواحنا و أوراقنا. و حصلنا على إذن مغادرة صنعاء على إذن مغادرة صنعاء ساعة نشاء، لكن كان ينبغى أن نستأذن وفقا للأصول و أن نعرض على الإمام فى الوقت نفسه ما شاهده الفقيه أحمد سابقا مما أخّر سفرنا لأيام عدة.

و أرسل بطلبنا للمرة الثانية فى ۲۳ تموز/ يوليو، و اقتدنا إلى القاعة نفسها فى بستان المتوكل حيث قابلنا الإمام فى المرة السابقة. لكن الأمور حصلت فى صمت تام ذاك اليوم، و جلس الإمام على الارتفاع الأول، لا أمام العرض، إنما فى إحدى جهات القاعة على كرسى أوروبى، صنعه هندى من القصب فى صنعاء.

و قبلّنا راحة يده و ظهرها، وفقا لعادات العرب، فضلا عن انحناء على مستوى الركبة، و لم يكن حاضرا سوى الفقيه أحمد و الكاتب الذى أحضرنا و ستة إلى سبعة عبيد و خدم. و لم يسمح لأى من خدمنا بالدخول، لأن الفقيه أحمد اعتبر أنى قادر على التكلم بالعربية. و بدا أن ما عرضناه على الإمام أثار إعجابه، و طرح علينا أسئلة حول التجارة و الفنون و العلوم فى أوروبا، و تمّ إحضار علبة مليئة بالأدوية قدمها إنكليزى للإمام فشرح السيد كرامر اسم كل دواء و كيفية استعماله و أمر الإمام بكتابة ما ذكره الطبيب بالعربية.

و غادرت المنزل مريضا، و ازدادت حالى سوءا من الوقوف طويلا، فطلبت الإذن للخروج من القاعة، و وجدت أمام الباب عددا من ضباط البلاط، يجلسون على حجارة فى الفيء و من بينهم النقيب خير الله الذى تحدثت معه فى السابق مرات عدة. و تركت لى هذا الأخير مكانه و أخذ يحمل بعض الحجارة لبناء مقعد آخر لنفسه، و طرحوا علىّ العديد من الأسئلة حول عادات الأوروبيين و تقاليدهم و من بينها عادة شرب الكحول التى لم ترق لهم. لكن حين أكدت لهم أن التبغ ممنوع على المسيحيين أيضا، و أنهم يعاقبون على ذلك، و أن ما من أوروبى عاقل يشرب أكثر مما تسمح به صحته، أغضبتهم هذه العادة أكثر من قوانينهم التى تمنعهم من شرب الكحول نهائيا فى حين أنها تكثر فى بلادهم، و أنهم يشربونها أحيانا كعلاج. وعدت إلى القاعة، و استأذنا من الإمام بالطريقة نفسها التى دخلنا بها عليه، بعد أن شرح له السيد كرامر كيفية استعمال الأدوية و أجبنا على أسئلة عدة. و بعد الظهر، و دعنا الفقيه أحمد و بعض الأعيان.

إن لسلوك الدرب الذى يمرّ عبر بريم و تعز، فى طريق العودة من صنعاء إلى المخا، سببا وجيها و مهما و هو نسخ كتابات حراتة و جعفر التى أعتقد أنها كتابات حميرية، لكن بما أن الهدف الأول للرحلة ليس البحث عن الآثار، و بما أنى لا أجد عادة سوى بقايا غير مهمة حيث يعلمنى العرب بوجود آثار شهيرة و كتابات غريبة، اخترنا أن نسلك الدرب الذى يمر فى موفاق(Mo ?fh k) و فى بيت الفقيه. و باختيارى هذا الطريق، سأتمكن من تحسين خرائطى عن اليمن، و ستتمكن من رؤية تهامة فى فصل آخر من السنة أى فى موسم الأمطار. و لم يكتف الفقيه أحمد، الذى عرضنا له صراحة أننا نفضل الوصول إلى بيت الفقيه عبر طريق لم نسلكها من قبل، بإعطائنا حرية اختيار طريقنا، بل وعدنا بأنّ يؤمّن لنا الإمام الحمير و الجمال.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ۱، ص: ۳۳۷

ثم فى ۲۵ تموز/ يوليو، أرسل الإمام لكل منا لباسا عربيا كاملا، أى قميصا و سروالا، فضلا عن رسالة موجهة إلى صاحب الدولة فى المخا كى يدفع لنا متى درهم نقدا كهدية وداع. و خشينا أن يظن الإمام أننا، وفقا لعادة رائجة بين الأتراك، لم نقصد صنعاء سوى لكسب المال لرحلتنا، أو أننا قدمنا له الهدايا ليرد لنا الصاع صاعين. لكن حين نتذكر المشاكل التى تعرضنا لها عند وصولنا إلى المخا، و أننا اضطررنا إلى دفع ۳۰ دوكا من البندقية لإخلاء سبيلنا، اهتممنا بهذه الحوالة التى ما إن أعطيناها لا حقا لصاحب الدولة حتى أرسلنا إلى صرافه، و هو بانياني، فدفع لنا المبلغ كاملا عن غير طيب خاطر.

و بالكاد صدّقنا الفقيه أحمد حين قال لنا إن الإمام سيهتم بأمر تحضير الحمير و الجمال لرحلتنا، و خشينا أن تنطلق آخر سفينة إنكليزية قبل وصولنا، لذا أردنا استئجار الدواب بأنفسنا، على أمل أن يسرّع ذلك بعودتنا إلى المخا. و تحدثنا مع كاتب الفقيه أحمد الذى شرح لنا كلام سيده، و أعلمنا بأن الإمام سيتكفل فقط بنقل أغراضنا على حسابه الخاص، و بالتالى استأجرنا حميرا لنا و لخدمنا، و لم نكن واثقين من أننا سنجد جمالا أخرى فى موفاق، فاتفقنا مع الذى أجّرنا الجمال على أن ينقل أغراضنا إلى بيت الفقيه.

و اعتقدنا أننا جاهزون للانطلاق فى ۲۶ تموز/ يوليو، لكن فى ذاك اليوم، و عند الصباح، أعلمنا الكاتب المذكور آنفا أنه يتوجب علينا دفع نصف درهم إضافى عن كل جمل للوصول إلى بيت الفقيه، فوافقنا على أمل ألا تتأجل الرحلة. و وصلت جمالنا، لكنها لم تكن بحالة جيدة، فشككنا فى أن تصل و متاعنا إلى بيت الفقيه، و قال لنا الجيّالون، الذين يجهلون أمر الصفقات المعقودة بين الكاتب و صاحب عملهم، إنهم سيعودون مع جمالهم من موفاق. و هكذا، وقعنا فى ورطة جديدة، و لم يكن بإمكاننا تحميل أغراضنا قبل التحدث إلى الكاتب و مؤجر الجمال أو بالتالى رئيس البريد عند العرب، لكن لم نجد أيا منهما.

و بالرغم من أننا نكره إزعاج الفقيه أحمد الكريم، اضطررنا إلى عرض حالتنا عليه و اكتشفنا الخدعة، فقد أعطى الفقيه كاتبه رسالة مفتوحة موقعة من الإمام فى أعلاها لا فى أسفلها، يؤمّن لنا بموجبها فى كل أقليم نمرّ فيه، جمالا أبدالا و رأس غنم (على حد تعبير العرب) . كما تلقى الكاتب لبعثتنا بعض الهدايا التى لم يأت على ذكرها، و بما أننا كنا على عجلة من أمرنا، لم نتمكّن على الأرجح من الانفاق بسرعة مع صاحب الإبل حول تقسيم الأموال المخصصة لدفع بدل الإيجار. لكن فى أثناء ذلك، طلب من الكاتب عدم تأخيرنا، و هكذا أحضر لنا رسالة الإمام المذكورة، و بعض الأقمشة لخدمنا العديدين، أما الثياب المخصصة لنا فوعدنا بتسليمها فى غضون ساعات قليلة، لكننا فضّلنا الرحيل فورا لبلوغ المخا بسرعة. إذا، احتفظ الكاتب على الأرجح بهذه الهدايا الأخيرة التى تعود لنا، فضلا عن المال المخصص لاستئجار حميرنا.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ۱، ص: ۳۴۰

و يشبه اللباس الذى تلقيته من الإمام لباس أعيان العرب فى اليمن، و قد رسمنا طريقة لباسهم على اللوحة(LXXI) . يرتدى العرب القميص فوق سروال واسع، ثم يلبسون سترة أكمامها ضيقة و فوقها معطف واسع (عباءة)، و يضعون فى زنارهم خنجرا. و ظنّ بعض أصدقائى الأوروبيين الذين رأوا هذا الخنجر، أن العرب يستخدمون هذا السلاح كما يستعمل البحارة سكاكينهم، لكنى رسمت استعمالاته على اللوحة المذكورة أعلاه. أما السلسلة التى تدلت من الخنجر فليست سوى سبحة يستخدمها المسلمون أثناء صلاتهم، كما يستعملونها للتسلية فى أوقات الفراغ. و يعتمر سكان اليمن عمامة عريضة للغاية، تتدلى من الخلف ما بين أكتافهم، كما ذكرت سابقا فى وصف شبه الجزيرة العربية، و لا يرتدون الجوارب إنما ينتعلون الحذاء أو الخفّ مباشرة.

و يبدو أن الأتراك يعرفون- أفضل منا- كيف يستغلون سخاء الإمام، إذ يتوجه الكثير من الحجاج الفقراء من هذه الأمة، من جدة إلى مخيّة أو إلى الحديدة و منها إلى صنعاء حيث يتحمل الإمام نفقتهم من أربعة إلى خمسة أشهر، كما يحصلون منه على سفتجة

(حوالة)، يدفعها لهم بعض أصحاب الدولة في أحد مرافىء البلاد كي يتمكنوا من العودة. و لا يعطى لهم هذا المبلغ الأخير على الحدود، إلا ليتأكدوا من أنهم سيغادرون البلاد و لن يتحمل نفقتهم أكثر. و عرفت بعض هؤلاء المتسولين الطفيليين، فضلا عن يونانى مرتد من عامة الشعب في بيت الفقيه، حصل على كمبيالة بعشرة دراهم يدفعها له صاحب الدولة في الحديدة، بعد أن أقام لفترة طويلة في صنعاء على نفقة الإمام. كما عرفت تركيا عمل في القاهرة لحساب شخص يدعى عبد الرحمن كخيا، و تبع سيده إلى مكة، ثم توجه من جدة إلى الحديدة و منها إلى صنعاء على أمل أن يعيّنه الإمام في منصب رفيع في جيشه، إذ يعتبر الأتراك أنفسهم بارعين للغاية في ركوب الخيل و في الحرب، و يظنون أن عرب اليمن محظوظون إن تمكنوا من ضمّ ضابط تركي إلى جيوشهم. لكن الإمام أنفق عليه لفترة في صنعاء، و أرسله عائدا إلى الحديدة، كما خصص له مبلغا من المال ليعود إلى البصرة. و رأيت هذا التركي عند عودتي من الهند في قافلتنا المتوجهة من ديار بكر إلى حلب، فروى لي أنه توجه من الحديدة إلى البصرة على متن أحد مراكب مسقط التي تقوم سنويا برحلة إلى اليمن لشراء البن، و أنه رأى كافة المرافىء الواقعة إلى جنوب شبه الجزيرة، و أن الطريق ليست أخطر من الطريق المؤدية من جدة إلى اليمن. و أدرجت هذه الملاحظة للمسافرين الذين يعتبرون أن هذه الطريق لا يمكن سلوكها.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ۱، ص: ۳۴۱

الرحلة من صنعاء إلى المخا

غادرنا صنعاء في ۲۶ تموز/ يوليو، و قطعنا مسافة ميلين و ۷/ ۸ الميل نحو الجنوب الغربي، كانت الطريق و عرة و الجبال جرداء قاحلة. أما القرى التي رأيناها فهي أسوَر(Assur) و تقع على جبل يحمل الاسم نفسه، و يحطة(Ochte ?na) ، و المسائل(El Mis kil) ، و مند(Mund) ، و نزلنا في قرية موطن(Mo ?ttene) .

في اليوم التالي ۲۷ تموز/ يوليو، سلكنا أسوأ طريق عرفته في اليمن، إذ يمرّ عبر جبال صخرية، و لم يصلّح منذ قرن، و نجد على هذا الجبل قرية حقيرة تدعى يافل(Yafil) . و تبعد قرية بعن(Bo n) ميلا واحدا عن موطن، و حالها ليست أفضل من الأخرى، لكن نجد فيها نزلا مبنيا من الحجارة، و يقام قربها سوق يوم الجمعة. يجرى قرب هذه القرية جدول صغير، يتوجه نحو الشرق، لكنه لا يلبث أن يغيّر اتجاهه، و يلتقي بجداول أخرى فيعظم و يحمل اسم خان(Schan) . و تبعد بعن عن سوق الخميس حوالي ميل و نصف و بالتالي تبعد موطن عن هذا المكان ميلين و ۲/ ۸ الميل إلى الجنوب الغربي تقريبا. و يحاذي جزء كبير من هذا الدرب جبالا جرداء، تحيط بها و ديان و قرى عدة من الجهة الجنوبية، لكني لم أعرف سوى اسم قرية واحدة و هي كملان(Kamelan) . و يقام في سوق الخميس سوق كل نهار خميس، و نجد فيها نزلا كبيرا، و مجلسا قرب القرية (خزانات مياه صغيرة للمسافرين)، و هو أول مجلس صادفته خلال هذه الرحلة.

و تتبع هذه القرية إقليم حيم(Heim) الواقع إلى الشمال الغربي من هذا المكان، و يحاذيها إقليم بلاد عنز في الجنوب الشرقي.

و سرنا في ۲۸ تموز/ يوليو، في طريق منحدر للغاية، تعلو هذه الجبال بعض النباتات و الأشجار، و صادفنا على هذه الطريق إبلا محملة بخشب سيىء للتدفئة تتجه نحو صنعاء. و لم نقطع في ذاك اليوم أكثر من ميل و ۳/ ۸ الميل من قرية خميس و حتى موفاق. و لم نر على هذا الدرب سوى قرية واحدة تحمل اسم حدين(Hadein) و مجلس يقوم بقربها. و عند الواحدة بعد الظهر، اجتاحت جحافل الجراد المنطقة لكن هبّت عاصفة قوية ترافقت مع أمطار غزيرة استمرت طوال الليل فأبعدتها.

تقع مدينة موفاق الصغيرة على قمّة جبل وعر، و نجد على سفحه بعض المنازل التي يأوي إليها المسافرون عادة، و هي على خط عرض ۱۵؟ ، ۹۶. يقيم في المدينة صاحب الدولة الذي يقدم حسابا عن إيرادات هذه المقاطعة لأحد أبناء الإمام، لكن الحامية و القضاء خاضعان للإمام. و أوفدنا خادم صاحب الدولة في تعز و خادم قاضيها ليحملا رسالة الإمام إلى صاحب الدولة في المدينة، فحضّر الجمال اللازمة

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ۱، ص: ۳۴۲

لإكمال رحلتنا إلى بيت الفقيه، و قدّم العشاء لخدمنا و حصلنا على علف لحميرنا، و رأس غنم لعشائنا، كما دفع إيجاز منزلنا.

في ۲۹ تموز/ يوليو، توجهنا من موفاق إلى سهان(Seh n) ، فسرنا ميلين و ۵/ ۸ الميل إلى الجنوب الغربي تقريبا. يحاذي الدرب الجبال حينا، و يمر فوقها حينا آخر، لكنه سيىء معظم الوقت فاحتجنا إلى خمس ساعات على الحمير، و احتاجت الجمال لثماني ساعات لقطعه. و تقع قرية جراني(Dsjurani) قرب موفاق، فيما تفصل مسافة قصيرة بين سهان و قريتي يوان(Yoan) و منقلا(M ngala) . و نجد بين موفاق و سهان، ستة خزانات كبيرة، تتجمع فيها مياه الأمطار لتستخدم للشرب لكنها غير صالحة في بعض المواسم لأن الخزانات نادرا ما تنظف، و لا تغطى أبدا. و هبت عاصفة هوجاء، بعد الظهر، ترافقت مع سقوط أمطار و برد كثيف.

و رأينا في ذاك اليوم، عائلة متشردة، و هي المرة الأولى التي نصادف عائلة كهذه في اليمن، و لم يكن يملك هؤلاء أيّ خيام، إنما يكتفون بالتخييم تحت شجرة ما، و يجزون وراءهم الحمير و الكلاب و الغنم و الدجاج.

و نسيت أن أسأل عن الاسم الذي يطلق على هذه الجماعات التي تشبه إلى حدّ بعيد جماعات الغجر، لأنهم لا يبقون مطولا في المكان عينه، بل ينتقلون من قرية إلى قرية يتسولون و يسرقون. و يتصدق عليهم الفلاحون بطيب خاطر كي يتخلصوا منهم بسرعة، و تقدمت منا فتاة حاسرة عن وجهها طالبة منّا حسنة.

في ۳۰ تموز/ يوليو، غادرنا سهان، و كان إقليم موفاق إلى الجنوب الشرقي من الدرب التي سلكناها، فيما كان الجبل و إقليم حرّاث(Harras) إلى الشمال الغربي. و أخذ الدرب يسوء، لكنه تحسن فيما بعد، و أصبح متعرجا حول الجبال إلى الجنوب الغربي تقريبا. و تقع حالسي(Halesi) على جبل حراث قرب سهان، و بعد ساعة، وصلنا إلى معبر ضيّق بالكاد يمرّ منه جمل واحد. نجد على جهتي هذا الدرب صخورا و عرة، و قد حفرت مياه الأمطار التي سقطت بغزارة في الليلة الماضية، في هذا المضيق حفرة بلغ عمقها سبع إلى ثماني أقدام، مما جعل عبوره مستحيلا على جمالنا و حميرنا. و فقد العرب الذين يرافقوننا الأمل بالوصول، و بغياب أي سبيل آخر في الجوار، رأى معظمهم أنّ علينا العودة إلى صنعاء، و منها إلى ذمار و تعز. لكن بما أننا لم نشأ سلوك هذه الدرب الطويلة، و بما أنّ الوقت لا يسمح لنا بذلك، قررنا إقامة جسر فوق هذه الحفرة، فتفاجأ العرب من مشروع كهذا، ظنّا منهم أنه يتطلب على الأقل يومي عمل.

و باشرنا بالعمل، فأخذنا نجمع الحجارة، و ساعدونا بعد أن رجونا بعضهم و قطعنا و عودا للبعض الآخر، و بعد ساعتين و نصف من العمل الجاد، تمكنّت جمالنا و حميرنا من المرور. و يعتقد العرب الذين يرافقوننا، أن صاحب الدولة الأول في اليمن، لو وصل إلى هذا المعبر لفضّل العودة إلى صنعاء على القيام بعمل كهذا.

و على مسافة قريبة من هذا المكان، وصلنا إلى مقهى يدعى أدورة(Eddora) ، و وقفنا قربه على أرض

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ۱، ص: ۳۴۳

مزروعة بالبن، و هي الأولى التي أراها منذ ۲۹ آذار/ مارس. و أمضينا الليلة في قرية بائسة تدعى سمفور(Samfجr) ، بنيت منازلها من حجارة مكوّمة، و غطّت السطوح بالقصب، و بالتالي ليست مسطحة بل على الطراز الأوروبي، و رأينا هنا كما في تهامة هياكل أسرّة تأخذ شكل الأرانك. و تقع القرية على بعد ميلين و ۳/ ۴ الميل من سهان. و يحمل النهر الصغير، الذي رأيناه قرب بعن، هنا اسم وادي سهان، و كانت مياهه كثيرة فقطعناه بصعوبة على ظهور حميرنا، و يجرى هنا أيضا بين الصخور، لكن مجراه عريض.

و فقدت البوصلة في مأوانا في سمفور، لذا لم أتمكن من تحديد موقع الأمكنة بدقة من هنا و حتى بيت الفقيه كما لم أتمكن من ذلك على الدروب المتعرجة من صنعاء إلى هذا المكان. و أعتقد أننا في ۳۱ تموز/ يوليو، توجهنا نحو الغرب. حيث تبعد سمفور عن مقهى يدعى كعبة(K ba) نصف ميل تقريبا، لكن الطريق غير سالكة في هذا الفصل لعمق المياه و سرعتها في الأماكن التي تلتطم فيها بالصخور الوعرة. و لا يتوفر الأمان في هذه المنطقة على الطرقات، لذا اضطررنا للبقاء قرب متاعنا. و ينفصل الطريق المؤدي من صنعاء إلى مخيّة هنا عن ذاك المؤدي إلى بيت الفقيه، و يجرى النهر نحو الشمال. و تبعد كعبة عن فيل(Fil) حوالي ميل و نصف الميل، و رأينا على هذه الدرب الكثير من البيلسان الذي ينمو من دون زراعة لأن سكان اليمن لا يعرفون فوائده.

و صادفنا في نزل فيل عددا من الحجاج العائدين من مكة، و من بينهم عربي من مدينة دوان(Doan) الواقعة على بعد ۲۵ يوم سفر إلى الشرق من صنعاء بحسب ما قيل لي، و على بعد ۱۲ يوم من كشين(Keschin) ، و بالتالي في منطقة لا يعرفها الأوروبيون إطلاقا. و أسفت لأني لم أتمكن من البقاء مع هذا العربي لوقت طويل، و لأن لغته بدت لي غريبة. و بدا لي أنه لا يعرف فقط موطنه حضرموت بل يعرف مناطق أخرى بعيدة كالحبشة(Habbesch) التي عاد منها للتو. و يبعد مقهى فيل عن هجير(۴ /۳)Hadsjir

الميل، و يمرّ الدرب عبر واد أخضر، يحمل اسم سير(Seir) ، حيث تصبّ المياه من الجبال المجاورة، بعد تساقط الأمطار الغزيرة، في وادي سهان. و تقع هجير على جبل في إقليم جابى(Dsje ?bi) ، و نجد فيها نزلا جيدا و مسجدا و الثاني مياه الشرب للماشية، و تستخدم مياه الثالث للاغتسال و التنظيف. و يغطى الاخضرار هذه المنطقة كما تقوم فوق الجبال قرى كبيرة، و تبعد سمفور عن هجير ميلين و ۳/ ۴ الميل استنادا إلى الحسابات السابقة.

في الأول من شهر تموز/ يوليو ۱۷۶۳، وصلنا موضعا بعيدا بعض الشيء عن هجير، حيث ألفينا نبعا ضخما يشكل جدولا، لكنه لا يلبث أن يضيع في وسط الدرب على بعد حوالي ۲۰۰ خطوة مزدوجة ، ثم يعود و يظهر من جديد بحجم أكبر، و يقطعه بعد ذلك حجر عريض، فيكمل جريانه من جهة فيما يضيع القسم الآخر في الرمل، و لا يختفي الساعد الأول كليا بقدر ما رأينا، لكن المنسوب يتراجع فيه للغاية، فلا

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ۱، ص: ۳۴۴

شك أن جزءا من الجدول يضيع تحت الأرض، و لعلنا لم نكن لنراه أبدا في هذه الأمكنة لو أتيناها في غير موسم الأمطار. و يجرى هذا الجدول المسمى قلاب(Kul be) من الجبل، و يتوزع في تهامة على الأرياف المحيطة، ثم يختفي كليا، و بالتالي لا يصل إلى الخليج العربي علما أن الآثار التي يتركها على الصخور تشير إلى أنه يعظم كثيرا في هذا الأقليم، بعد أن تتساقط الأمطار بغزارة و لوقت طويل.

و تبعد هجير عن مقهى يحمل اسم أبي كرش ميلا و ۳/ ۴ الميل إلى الغرب و الجنوب الغربي انحدارا، و يؤدي هذا الدرب إلى منحدر صعب على بعد ميل و ۳/ ۴ الميل، و يمرّ عبر وادي كلاب(Wadi Kul be) حتى حدود تهامة. نرى بعض الجبال الصغيرة بين الحين و الآخر إلى الشمال، و تغطى المنطقة الذرة التي يصنع منها العامة في اليمن خبزهم. يبنى العرب في المناطق الجبلية خياما في الأشجار لحراسة حقولهم، فيما يجعلون لها في تهامة أربعة قوائم مرتفعة للغاية يعلوها سقف .

بعد أن تركنا المكان المذكور آنفا، اتجهنا نحو الجنوب الغربي، و وصلنا حدود تهامة، و بعد ميل و نصف الميل بلغنا مقهى أنجور(Andsjor) ، بعد أن قطعنا وادي رما(Rema) . و بعد تساقط الأمطار، يلتقي هذا الوادي بوادي حنش و يحملان معا اسم وادي عباسي(Wadi Abassi) الذي يصب في الخليج. و تتكوّن الجبال، في بلاد انجور، من حجارة مختمسة الزوايا كتلك التي رأيتها في ۱۹ آذار/ مارس في كحم(Kachme) و في ۲۱ آذار/ مارس على جبال البن قرب هادي(Hadie) ، و انفصلت بعض هذه الحجارة عن الجبال و تجمعت على سفحها حيث وجدناها. قطعنا ۸/۷ الميل لنصل من أنجور إلى قرية متاهن(Matt hen) ، و رأينا بين هذين المكانين، واديا صغيرا، يختفي لا حقا و لا يصل إلى البحر. و تركنا بعض أعضاء البعثة و بعض الخدم مع المتاع في متاهن، و ركبنا حميرا استأجرناها هنا، و قطعنا في تلك الليلة ميلين و نصف الميل لنصل إلى بيت الفقيه، و بالتالي سرنا في ذاك اليوم سبعة أميال و ۸/ ۱ الميل. و تقع بين متاهن و بيت الفقيه على القرى التالية: قتف(Kitf) ، ضرب(Djurb) أبو برثن(Abuberten) ، و رحتن(Rachten) ، فضلا عن وادي الحنش. و بما أن القسم الأكبر من بيت الفقيه التهمته النيران في ۱۰ نيسان/ أبريل، فتوقعنا ألّا نجد سوى صحراء قاحلة، لكنهم أعادوا بناء غالبية المنازل أو على الأصح الأكواخ، كما تمّ تشييد منازل حجرية تقاوم النيران.

وصلت جمالنا إلى بيت الفقيه صباح الثاني من شهر تموز/ يوليو، و أبلغنا صاحب الدولة بوصولنا، و رجوناه أن يأمر بتحضير الجمال التي نحتاجها لإكمال رحلتنا. و أراد خدمنا العرب طلب المؤن منه كي يأكلوا على حساب الإمام أو على الأرجح على حساب أهالي المنطقة و كي يظهروا مكانتنا الرفيعة عند الإمام في صنعاء، لكن بما أن هذه المدينة أحسنت استقبالنا من قبل و قدمت لنا المساعدة، لم نسمح لهم بذلك و اكتفينا بطلب رأس غنم.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ۱، ص: ۳۴۵

كنت قد رأيت من قبل الطريق المؤدي من بيت الفقيه إلى المخا، و رسمت خارطة له، و نظرا إلى أن الحرارة مرتفعة للغاية في تهامة، و بالتالي مضرّة لنا بعد اعتدال المناطق الجبلية، رحنا نسافر ليلا و نرتاح أثناء النهار. و ليلة الثالث من شهر آب/ أغسطس، صادفنا على الطريق بين بيت الفقيه و زبيد، رجلان يسوقان ستة حمير محملة بالمال الذي تلقاه تجّار بيت الفقيه من مصر و تركيا لقاء البنّ الذي يرسلونه من المخا إلى خارج البلاد بغية شراء البضائع من الهند، مما يدلّ على أن أهالي هذه البلاد لا يخشون اللصوص.

في ۳ آب/ أغسطس، اضطر صاحب دولة زبيد إلى تزويدنا بالمؤن و الجمال لإكمال رحلتنا إلى المخا.

و ظننا أننا سنجد منسوب المياه في وادي زبيد، في هذا الفصل من السنة، مرتفعا، فألفيناه جافا قرب المدينة، لكن تمّ تحويل المياه في الجنوب إلى بعض الحقول المحاطة بسدود عالية، حيث حفظت في حفر عميقة. و لا يدعون المياه على الأرجح تجرى في وادي زبيد قبل ريّ كافة الحقول المجاورة، و قد تمّ بناء الحواجز المحيطة بالسهول المذكورة آنفا بطريقة فريدة. فبعد فلاحة الأرض، يربط العرب ثورين بثلاثة حبال أو ثلاث سلاسل حديدية يربطونها بخشبة عريضة للغاية، و تجرّ هذه الخشبة على الأرض المفلوحة لتمتلىء، فينقلونها إلى الحواجز المذكور كما أظهرنا في الصورة أ من اللوحة ۱۵ في وصف شبه الجزيرة العربية. و لم نصل شرح(Scherdsje) سوى في منتصف الليل، و بعد أن ارتحنا قليلا، أكملنا سيرنا نحو مشيد(Mauschid) ، التي غادرناها في ۴ آب/ أغسطس عند المغيب، و دخلنا المخا في الخامس من الشهر نفسه عند التاسعة صباحا و قد أضنانا التعب.

و استعجلنا في رحلتنا كي لا يفوتنا المركب الذي ننوى مغادرة البلاد على متنه، لكنه لم يكن بإمكانه أن يبحر بالسرعة التي تصورناها، و هكذا وصلنا باكرا إلى هذا الطقس المحرق. و كنت مريضا للغاية و في ۸ آب/ أغسطس و بعد أيام، لزم رسامنا السيد بورنفايند الفراش، و لحقه السيد كرامر فضلا عن كافة خدمنا الأوروبيين. و التقينا هنا صديقنا السيد فر. سكوت(FR .Scott) ، الذي أمّن لنا مرطبات أوروبية متنوعة أفادتنا في حالتنا هذه أكثر من أي دواء كنّا لنتناوله لو اضطررنا للعيش كالعرب.

و تقع مدينة المخا على خط العرض ۱۳؟، ۱۹؟، في منطقة جافة و جرداء لافتقارها للأمطار، و يحيط بها سور. و نجد بين المخا و بئر بليل(Beleile) كما نجد على طرفي المرفأ، قلعتين مماثلتين مزودتين ببعض المدافع. و تسمى الواقعة إلى الشمال قلعة الطيّار(Kall Tei r) ، تيمننا بولي مسلم دفن في مكان قريب، و هي القلعة الأهم و الأعظم، أما القلعة الأخرى فصغيرة، و نظرا لأن ضريح أحد أولاد الشيخ الشاذلي قريب منها حملت اسمه و هي قلعة عبد عرب(Kall Abed Urr b)

و بنى قسم من المنازل الواقعة في حرم هذه الأسوار من الحجر، و بعضها شيّد بشكل متين و جميل على طراز المنازل التي رأيناها في بئر القصب و التي رسمناها على اللوحة(LXVIII) . لكن شاهدنا داخل المدينة و خارجها منازل حقيرة كالأكواخ العادية في تهامة و التي رسمنا نموذجا عنها على اللوحة الأولى في

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ۱، ص: ۳۴۷

وصف شبه الجزيرة العربية، كما نجد خارج المدينة العديد من أشجار البلح التي تتوسطها حدائق غنّاء منسّقة. و لقد رسمت خارطة مدينة المخا و محيطها على اللوحة(LXXII) ، و تجدر الإشارة إلى أنني لم أقس إلّا حرم سور المدينة المرسوم قرب الحرف أ، و استنادا إلى سلم خارطة القاهرة. و قد أمّن لي شخص إنكليزي خارطة المرفأ و معلومات حول العمق المسجّل للمياه. و تدل الأرقام المدوّنة على الخارطة على ما يلي: ۱) باب العامود(۲ ، (B b el Amudi) باب شاذلي(۳ ، (B b Sch deli) باب صغير(B b ۴ ، (Sagair() باب صندل(۵ ، (B b Sandel) باب الساحل(۶ ، (B b Sahhel) مقر إقامة صاحب الدولة، ۷) مقبرة الأوروبيين حيث دفن السيد دوهافن، ۸) الأبراج أو القلاع الصغيرة على طريق موسى، ۹) طريق بيت الفقيه.

و اعتدت زيارة الإنكليز في المخا أكثر من العرب، لذا لم أقم باكتشافات دقيقة حول قدم المدينة، لكن من المؤكد أن المخا من المدن الجديدة في تهامة و أن عمرها لا يتعدى ۴۰۰ عام. و يقال إنه في ذاك الوقت، كان يعيش في المنطقة رجل وحيد شهير يدعى الشيخ الشاذلي و يعتبر مؤسس المدينة. و قد اشتهر بزهده و تقواه، فأخذت الجموع تؤمّ المكان للاستماع لتعاليمه. و رووا لي قصة عنه تقول إن مركبا قادما من الهند و متوجها إلى جدة، رسا في الجوار، و رأى البحارة كوخا منفردا في هذه الصحراء فدفعهم الفضول إلى النزول إلى اليابسة و استقبل الشيخ زواره أحسن استقبال، و قدم لهم القهوة و هي شراب يحبه كثيرا و يعزو إلى منافع عديدة، و اعتبر الهنود الذين لم يألفوا القهوة هذا الشراب الساخن علاجا، و ظنّوا أنه سيساعد على شفاء التاجر صاحب مركبهم، و أكّد لهم الشيخ شاذلي أن هذا الشراب و صلاته لن يشفيا المريض و حسب بل سيؤمنان له ربحا عظيما إن أنزل بضائعه. و تنبأ في اليوم نفسه، أن مدينة تجارية ستبنى يوما ما في هذا المكان، و أن الهنود سيقصدونها لبيع قسم كبير من بضائعهم. و بدا هذا الكلام فريدا بالنسبة للتاجر الذي أراد أن ينقل في اليوم التالي إلى اليابسة كي يرى بنفسه هذا الرجل المميز و يتحدث معه.

و في اليوم نفسه، زار الكثير من العرب هذا الزاهد لسماع أقواله، و كان التاجر قد شرب القهوة التي حضّرها له الشيخ و أحسّ بتحسن.

و من بين الوفود التى زارت الشيخ العديد من التجار الذين اشتروا حمولة المركب كلها، فعاد التاجر إلى الهند سعيدا، و ذاع صيت الشيخ بين مواطنيه. و بنى قرب كوخ الشيخ العديد من الأكواخ الأخرى و ازداد عدد التجار الذين يقصدون المكان عبر البر و عدد المراكب التى ترسو قربه، فتكونت قرية ثم تحولت إلى مدينة المخا التجارية المعروفة. و تمّ تشييد مسجد كبير يحمل اسم الشيخ شاذلى فوق ضريحه الواقع خارج المدينة. كما يطلق اسمه على البئر التى تؤمن المياه لعامة الشعب من الفقراء غير القادرين على دفع المال لشراء مياه أفضل، فضلا عن أحد أبواب المدينة. و تتمتع سلالته بمكانة بين الناس و يحملون لقب شيخ تيمنا به، و يقسم أبناء المخا باسمه عادة، باختصار لن ينسى هذا الشيخ طالما المخا موجودة. و أبدى تاجر من مكة، تحدثت معه مرارا فى بومباى، ملاحظة حول هؤلاء الأولياء لم أكن أتوقعها من مسلم، إذ قال إن الشعب بحاجة لشيء ملموس يحترمه و يخشاه، لذا يقسم

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۴۸

الناس باسم محمد بدلا من الله فى مكة و المدينة، و لا أثق بيمين رجل من المخا إن أقسم بالله، و أصدقه إن أقسم باسم الشاذلى الذى يرى ضريحه و مسجده دوما. و لا حظت أن الشعب فى جدة يقسم باسم محمد، و فى المخا باسم الشاذلى، و فى مشهد باسم على، و فى مشهد الحسين باسم الحسين.

و لا يعتبر الشاذلى شفيع المخا و حسب، بل شفيع أصحاب المقاهى المسلمين من أتباع المذهب السنى كلهم. و يقال إنهم يقرؤون الفاتحة كل صباح على روحه، و لا يعنى ذلك أنهم يتضرعون إليه، إنما يشكرون الله لأنه علّم الإنسان استخدام القهوة عن طريق الشيخ الشاذلى، و يرجون منه أن يرحم الشيخ المذكور و آله .

المخا هى آخر مدينة يمنية بقيت تحت سيطرة الأتراك، و يقال إن العرب لم يستردوها بقوة السلاح إنما اشتروها، و منذ ذلك الحين و هى تخضع للأئمة. جمع أحد أصحاب الدولة فى هذا الأقليم الكثير من الثروات، و أمر بحفر خندق حول المدينة، لكنه طمر فيما بعد، ثم حصّن المدينة، و أظهر ميلا إلى الاستقلال فزجّ فى السجن. و منذ ذلك الوقت، لا يبقى صاحب الدولة فى هذا الأقليم الغنى فى منصبه أكثر من عامين أو ثلاثة. و يضطر إلى تقديم حساباته سنويا بعد الموسم ، و ينتظر عندها فإما أن تجدد ولايته لعام آخر و إما يتم استدعاؤه مباشرة إلى صنعاء. و لم أعرف الكثير عن تاريخ المخا، و جلّ ما عرفته هو أن الفرنسيين قاموا بقصفها مرة، و سأورد لكم سبب ذلك: يسحب صاحب الدولة هنا غالبا، لحساب الإمام، بضائع من الهند من التجّار الذين ترسو سفنهم هنا، أكثر مما يتطلب رسم الجمارك و الرسومات الأخرى التى يتوجب عليهم دفعها، و يعد كل مرة بأن ديون الإمام ستحسم فى العام التالى من رسوم الدخول، لكن هذه الديون تتراكم أكثر فأكثر. و بلغت ديون الإمام للشركة الفرنسية للهند الشرقية ۸۲۰۰۰ درهم، و بما أنها أرادت الحصول على المبلغ، من دون أن تستخدم أساليب تفقدها تجارتها فى المخا، أرسلت فى العام ۱۷۳۸ سفنها التجارية ترافقها سفينة حربية. و أعلم القبطان صاحب الدولة أنهم قصدوا البلاد لبيع بضائعهم، لكنهم لن ينزلوها إلى اليابسة ما لم يقبضوا الديون السابقة، فحاول صاحب الدولة استمالتهم بالكلام المعسول و إقناعهم بإنزال البضائع أولا. لكن الفرنسيين أظهروا ما كان

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۴۹

بمقدورهم، و قصفوا القلعة الشمالية قبل أن يفكر العرب جديا باستخدام العنف. و استؤنفت بعد ذلك المفاوضات و اعتذر صاحب الدولة معللا أنه لا يملك المال و لا أمرا من الإمام بدفع الديون المذكورة، و طلب مهلة مدتها ۱۵ يوما حتى يتلقى ردا من الإمام. و بعد انتهاء المهلة، أطلق الفرنسيون قذيفة نحو منزل صاحب الدولة فقتلوا عربيا، و لم يؤدّ ذلك إلى أية نتيجة، فاستهدفوا المسجد يوم الجمعة فيما كان صاحب الدولة يؤدى صلاته، و قتلوا بعض العرب. عندها فقد المواطنون، الذين دفعوا دين الإمام من دمهم، صبرهم و أجبروا الحكومة على اتخاذ تدابير ترضى العدو. و بعد إقرار المعاهدة، أنزل الفرنسيون بضائعهم و استأنفوا تجارتهم كالمعتاد، و لم يفقدوا سوى أحد الربابنة الذى قتل أثناء نومه أمام باب منزله، على يد جندى مات أحد أهله أثناء القصف فثأر له. (وصف شبه الجزيرة العربية).

و نرى مما تقدم أن صاحب الدولة الذى كان عاجزا عن الدفاع عن نفسه فعل ما بمقدوره لخدمة سيده، لكن الإمام لم يسرّ بما حصل فصادر قصر الأول فى صنعاء . كما لم يسترد تجار من المخا قدموا مبلغا كبيرا لإرضاء الفرنسيين المال الذى دفعوه حتى تاريخ وجودنا فى المدينة.

و يتذكر العديدون هذه المواجهات، لا سيّما قنابل النار، على حدّ تعبيرهم، التى لا حقت صاحب الدولة، و قد كوّن العرب فكرة عظيمة عن طريقة الأوروبيين فى خوض الحروب. و لو شنت دولة أوروبية هجوما كهذا على مدينة تركية لما سلمت الأمم الأوروبية الأخرى الموجودة فى المدينة من غضب الشعب، و الدليل على ذلك أنه ما إن يقترب مركب من مالطا من مدينة يافا، حتى يدفع رهبان المدينة جزيات كبيرة. لكن الإنكليز و الهولنديين الذين كانوا فى المخا عند وصول الفرنسيين بقوا فى أمان و لم يتعرضوا للأذية.

لم أسمع بمسيحيين شرقيين يقيمون فى المخا أو فى أىّ مدينة أخرى فى اليمن، إنما نجد فيها يهودا يعيشون خارج الأسوار كما فى تعز، و جبلة و صنعاء، و غيرها. كما يعيش فى المخا حاليا من ۶۰۰ إلى ۷۰۰ بانيانى و هندى من الطوائف الأخرى. يعمل قسم منهم فى التجارة فيما يكسب القسم الآخر رزقه من مزاولة بعض الحرف و الأعمال الصغيرة، و يبقى هؤلاء فى اليمن لسنوات، لكن بما أنه لا يسمح لهم باستقدام زوجاتهم، يعودون إلى بلادهم ما إن يجمعوا ثروة. و تحتفظ الشركة الإنكليزية للهند الكبرى ببعض البيوت المستأجرة فى المخا و بيت الفقيه علما أنها لا ترسل عادة سوى مركب واحد لتحميل البن كل سنتين. و لعل تجارتهم فى الخليج العربى لا تدرّ عليهم أرباحا كثيرة، لكن التجار الإنكليز فى الهند يجنون أرباحا طائلة منها، و وصلت إلى المخا هذه السنة، لحسابهم، سفينتان من البنغال، و واحدة من بومباى و أخرى من سورات فضلا عن مركب أبحر من سورات تحت إمرة قبطان إنكليزى، كما أرسل الإنكليز فى السنة نفسها من الهند ثلاثة مراكب إلى جدة. و قد تركوا تاجرا فى المخا لسنوات، لكنه

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۵۰

تعرّض يوما لسوء معاملة من قبل السكان بغياب السفن، فقرر التجار بعد ذلك العودة إلى الهند سنويا و ترك البضائع غير المباعة مع الوسطاء. و لم يبحر الفرنسيون فى الخليج العربى منذ سبع سنوات بسبب حربهم ضد إنكلترا، لكنهم يدفعون بدل إيجار المنازل التى يقيمون فيها عادة فى المخا و بيت الفقيه عن طريق عميلهم فى اليمن، و هو رجل بانيانى. أما الهولنديون فقد أشرنا سابقا إلى أنهم أرسلوا مركبين إلى المخا منذ عامين، فيما لم يعد البرتغاليون، الذين اشتهروا فى الماضى بتجارتهم فى الخليج العربى، يرسلون سفنهم إلى المنطقة.

جئت سابقا على ذكر التجارة و القياسات و الأوزان فى المخا فى وصف شبه الجزيرة العربية. إن التجارة فيها لا يستهان بها، و تدرّ الكثير من الأموال على جمارك الإمام، و يضطر العرب و الأتراك و الهنود إلى نقل بضائعهم إلى المكتب مباشرة، و إخضاعها للتفتيش، فضلا عن دفع ۸ إلى ۱۰ بالمئة من قيمتها، وفقا للنسبة التى يحلو للموظف أن يحددها. و لا يدفع الأوروبيون سوى ثلاثة بالمئة من قيمة البضائع كلها التى ينقلونها من أوروبا و البنغال و الصين إلى المخا، و يحق لهم نقل بضائعهم مباشرة إلى محالهم فيقوم الموظفون بتفتيشها هناك. و منذ أن عظمت سلطة الإنكليز على شواطىء مالابار، و أخذ تجارهم يرسلون من بومباى و سورات إلى المخا البضائع على متن مراكبهم، بعد أن كانت المراكب الهندية تنقلها، أصبحوا يدفعون ثلاثة بالمئة كرسم لدخولها. لكن يضطر تجار المخا إلى دفع الثلاثة بالمئة المتبقية، و هكذا يحافظ العرب على اتفاقاتهم مع الأوروبيين، معززين بالوقت نفسه انتشار التجارة الإنكليزية. و يدفع الأوروبيون ثلاثة بالمئة على تصدير البن و على توضيبه، كما تضطر المراكب التى ترسو هنا إلى دفع رسم تبلغ قيمته بضع مئات الدراهم فضلا عن رسوم الجمارك، و يراعى العرب فى فرض هذا الرسم حجم المركب و عدد أشرعته فيدفع مركب بثلاثة أشرعة ضعف ما يدفعه مركب بشراعين و إن كان بالحجم نفسه تقريبا. لكن يحصل التاجر الذى يحمّل هنا مركبا أوروبيا بالبن على مكافأة قيمتها ۴۰۰ درهم من صاحب دولة المخا.

و استنادا إلى ملاحظات عربية، يهبّ الهواء فى المنطقة دوريا ستة أشهر من الشمال و ستة أخرى من الجنوب، لكن هذا لا يعنى أنهم لا يعرفون رياحا أخرى، ففى شهر آب/ أغسطس، تهبّ الرياح الشمالية، لكنها تتحول أحيانا إلى غربية، و أحيانا أخرى إلى جنوبية غربية، حتى أنها تستحيل جنوبية. و اضطرت السفن الهندية التى كانت تستعد للتوجه إلى جدة و العودة فى العام نفسه إلى الهند، إلى الإرساء فى المخا، كما وصلت إلى المخا سفينتان من سورات بقيادة مسلمين، و أخرى من البنغال بقيادة ربان إنكليزى، فى السنة نفسها لكن فى وقت لا حق، و لم تتمكن سوى السفينة الأخيرة من الوصول إلى مرفأ جدة لأن قبطانها توجه نحو عرض البحر فى وسط الخليج العربى. أما الأخيرتان اللتان أبحرتا فى الوقت نفسه من المخا فاضطرتا إلى العودة إلى هذا المرفأ و إلى الانتظار بضعة أشهر

حتى تهبّ الرياح الجنوبية.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۵۱

أما بالنسبة للسفن الإنكليزية الأربع التي كانت في المخا هذه السنة، فقد غادرت ثلاث منها نحو الهند عند عودتنا من صنعاء، و عادت أولى السفن التي أبحرت نحو جدة في ۹ آب/ أغسطس، و الثانية في ۱۰ و الأخيرة في ۱۷ من الشهر عينه إلى المخا على أن تعاود الإبحار نحو الهند. و بما أن العرب لا يملكون سوى البن يبادلون به البضائع الأوروبية، و بما أن الهنود لا يستسيغون هذا الشراب كثيرا، عادت السفن بأغلبها إلى الهند شبه فارغة، إلا أن السفن الأخيرة تكسب أكثر عند عودتها منها عند رحيلها، لأن تجار المدينة يؤجلون إرسال ثمن البضائع الهندية حتى تبحر آخر سفينة ، لذا حمل المركب الأخير القادم من جدة على متنه حوالي مليون قرش من جدة نقدا، فيما حمل المركب الذي انتقلنا على متنه إلى المخا ۲۵۰۰۰۰ درهم نقدا، و قد كلّف نقل هذه المبالغ الضخمة الكثير من المال.

و تتألف هذه المبالغ من عملة البندقية و عملة ألمانيا و عملة الأمبراطور و بالتالي من أموال أوروبية، و يمكننا أن نتصور بسهولة أن السفن الإنكليزية و الهندية الأخرى حملت معها مبالغ طائلة من جدة و المخا، كما تعود المراكب من البصرة إلى الهند محملة بالنقود التي انتقلت قبل ذلك من أوروبا إلى تركيا. و إذا ما لا حظنا كمية النقود التي تنتقل سنويا من أوروبا إلى الهند و إلى الصين، هل ينبغي أن نستغرب إذا ما فقدت أوروبا مخزونها من الذهب و الفضة، إذا ما استثنينا كنوز أميركا؟

ذكرت سابقا الأمم الأوروبية التي تاجرت و لا زالت تتاجر مع المخا، و التي تتمتع بامتيازات فيما يتعلق برسوم الدخول لا ينالها المسلمون، و إذا ما فكرت أمة أوروبية أخرى بإرسال سفن إلى المنطقة، يسهل عليها نيل التسهيلات نفسها. و عند وصول سفينة غريبة إلى مرفأ المخا، لا ينبغي أن تحيي بطلقة مدفع إنما عليها رفع علمها، فيرسل صاحب الدولة مركبا للاستطلاع و لمعرفة سبب قدومها البلاد. و إذا ما تعرض القبطان لبعض المصاعب، عليه أن يكتفي بالقول إن هدفه هو الوصول إلى الحديدة و إلى مخية، و هذا ما لا يقبله صاحب الدولة بسهولة، خوفا من أن يفقد الهدايا التي يحملها مركب كهذا، و رسوم الدخول التي يدفعها دائما. لكن الدول التي لا تملك مراكز لها في الهند، لن تجني الكثير من التجارة في الخليج العربي، إذ إن البضائع الأوروبية التي يستخدمها العرب قليلة. و ينبغي أن يحمل الأوروبيون، الذين يتاجرون مع المخا، معهم بضائع من الهند، و لا يجدون ما يشترونه بالمقابل سوى البن الذي يمكنهم الحصول عليه بكلفة أرخص مما لو أرسلوا سفينة إلى الخليج لهذا الهدف فقط، و ذلك من المراكب التي تحمّله كي لا تعود إلى الهند فارغة. و يتم استهلاك كمية كبيرة من الحديد في شبه الجزيرة العربية، كما ذكرت في (وصف شبه الجزيرة العربية)، و يشتريه الإنكليز من الدانماركيين ثم ينقلونه إلى المخا و جدة،

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۵۲

و بالتالي يمكن للدانماركيين ممارسة تجارة مربحة كتجارة الإنكليز مع مستعمراتهم و ذلك عبر بيع حديد أوروبا، و شباك البنغال و بضائع هندية أخرى ينقلونها من ترنكبار إلى الخليج.

و ألفت انتباه كافة التجار الذين يقصدون المخا إلى ضرورة التنبه للصرّافين المسلمين، و يمكنهم كالفرنسيين و الإنكليز التوجه إلى البانيانيين الذين نجد بينهم تجّارا أثرياء و صادقين، إذ يمكن الوثوق بوثني أكثر من مسلم. و يحاول تجار المسلمين في كافة البلاد إغاظة المسيحيين فيغضب هؤلاء و يلومونهم، عندها، يأخذ التجار بالصراخ بحجة أن المسيحي أساء الحديث عن الديانة الإسلامية، و يهددونه بالقضاء فيضطر إلى دفع المبالغ الطائلة كي ينالوا البراءة.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۵۳

سير الرحلة من المخا إلى بومباي

من بين السفن الهندية و الإنكليزية كلها، التي وصلت هذه السنة إلى الخليج العربي، لم يبق هنا إلا سفينة السيد سكوت التي كنا سنغادر على متنها. كان السيد سكوت يحبذ العودة سريعا إلى الهند، خاصة و أن الرياح تشهد تغيرا ملحوظا؛ غير أن تجار المخا لم يتمكنوا من تسديد المبالغ الكبيرة التي يتوجب عليهم إرسالها إلى الهند؛ و بعد أن دفعوا أجرة السفينة، قبل السيد سكوت بتأجيل الإبحار إلى ظهر ۲۳ آب/ أغسطس. غير أن السيد كرامر و السيد بورنفايند، و خادمنا الأوروبي، كانوا مرضى جميعا متوعكين، و لا أحد سواي قادر على السفر.

و في ۲۳ آب/ أغسطس، استعدّ الربّان ج. مارتن للإقلاع؛ و لكن الرياح القوية منعتنا من الإبحار، كما و أن الحرارة انخفضت بصورة ملحوظة، إذ انخفض محر فهرنهايت إلى ۸۳ درجة، بينما لم يتعد ليلا ۸۸ درجة. و عند الرابعة من بعد الظهر، هدأت العاصفة بعض الشيء، فتمكنا من الإقلاع؛ و لكنها ما لبثت أن عصفت متأخره معيقة بذلك سير السفينة. و في صباح ۲۴ آب/ أغسطس، تحسنت حالة الطقس.

و بعد أن قست ارتفاع الشمس في خط الهاجرة، وجدت أن السفينة تقع على خط العرض ۱۲، ۴۵؟؟؟، و لما كنا على مسافة ۱۰ أو ۱۲ دقيقة شمالي باب المندب، استطعت أن أقيس عرض هذا المضيق الشهير بسهولة.

فظهر لي أن عرضه خمسة أميال في البقعة الأكثر ضيقا. و تقع في هذا المضيق جزيرة بريم(Perim) ، التي تبعد ميلا تقريبا عن الساحل الإفريقي؛ و يبلغ طول هذه الجزيرة ۳/ ۴ الميل، و هي تضم مرفأ كبيرا.

و مع تقدمنا جنوبا، شاهدنا قرب الشواطىء الإفريقية جزرا صغيرة كثيرة، رسمتها كلها في اللوحة ۲۰ من كتاب وصف شبه الجزيرة العربية. و لفت انتباهي ارتفاع الجبال المحاذية للساحل الإفريقي على عكس أنوف الجبال الخارجة منها و الداخلة في البحر، في شبه الجزيرة العربية. و تعبر السفن عادة القناة الواقعة بين بريم و الساحل الإفريقي؛ غير أن مجرى المياه كان قويا للغاية، و الرياح كانت عاصفة جدا ففضلنا الاتجاه نحو القناة العريضة الواقعة بين الجزيرة و الساحل الإفريقي؛ و أتيحت لنا بالتالي الفرصة للسير عكس الرياح دون أن نخشى شيئا.

و سأنقل لكم الملاحظات التي دوّنتها خلال عبوري باب المندب؛ أما بالنسبة للسؤال الذي أرسله لنا أحد الوزراء الألمان بشأن الآثار التي تثبت أن طرفي كل من شبه الجزيرة العربية و الحبشة، كانا يلتقيان في مضيق جرفته المياه أو هدمته الزلازل؛ فإنني أعترف بعجزي عن إعطائه ردا حاسما؛ و لا أظن أن الرحالة

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۵۴

على استعداد لإعطاء أجوبة مرضية على هذا السؤال و على الأسئلة الأخرى التي وجهها لنا السيد باستور، إلا بعد مراجعة دراسات الشرقيين و ملاحظاتهم .

و لم نستطع أن نثبت بعد، تحدر الحبشيين من الأصل العربي؛ علما أنهم من الزنوج؛ و قد أكدوا لي أن العرب المقيمين غربي الخليج العربي لم يقترنوا بالحبشيات، و أنهم احتفظوا دوما ببشرتهم البيضاء. و يدّعي بعض العلماء أن الطقس الحار أدى إلى اكتشاف سلالة البرتغاليين المقيمين على الضفة الشمالية اللون الأسود؛ و شاهدت في الهند عددا من هؤلاء البرتغاليين الزنوج؛ لكن إن كان الطقس الحار يؤدي إلى اكتساب هذا اللون الأسود، لماذا احتفظ البرامانيون و البانيانيون و غيرهم من الشعوب الذين يتفادون الارتباط بالأجانب، ببشرتهم البيضاء رغم أنهم يعيشون في منطقة مناخية حارة، شأنهم شأن زنوج أفريقيا و سواحل مالابار؟ و إن تساورنا الشكوك في مسألة اختلاط العرب و الحبشيين بجيرانهم في الأيام الغابرة فعلينا أن نلقي نظرة على كتاب (وصف شبه الجزيرة العربية)، حيث و صفت مركب صيد استعمل في القرون الأولى لعبور باب المندب وصولا إلى الخليج العربي.

ثم في ۲۵ آب/ أغسطس ۱۷۶۳، دخلنا في القناة التي تصل الخليج بالمحيط، على خط العرض ۱۲؟، ۱۹؟. كانت تقع تحت أنظارنا سواحل القارتين، فضلا عن رأس القديس أنطونيوس، الواقع على بعد ۲۱ دقيقة من الجهة الشمالية الشرقية، أي على خط العرض ۱۲؟، ۳۲؟.

و في ۲۶ منه، راقبنا السواحل الإفريقية و سواحل شبه الجزيرة العربية، انطلاقا من خط العرض ۱۲؟، ۳۳؟؛ و كانت الرياح تتلاءم مع خط سيرنا، حتى أننا استطعنا الانحراف قليلا نحو الشرق. و لا حظنا في ۲۷ أننا تقدمنا شمالا بعض الشيء؛ فتابعنا سيرنا بخط مستقيم، إلى أن رأينا صباح ۲۸ الجبال على الساحل الجنوبي؛ و كنا عند الظهيرة قد بلغنا خط العرض ۱۲؟، ۴۰. أبحرنا بعد الظهر باتجاه الشرق، و لا حظت ليلا أن ارتفاع القطب لم يتعد ۱۱؟، ۵۸؟، علما أنني قست النسر الواقع شمالا و العقاب جنوبي السمت.

و لقد لاحظ الرحالة الآخرون، الذين وصفوا رحلتهم إلى المخا، سرعة مجرى مياه هذه القناة؛ و هذا ما أثبتته ملاحظاتنا لأنه كان يدفعنا تارة صوب الشمال و طورا صوب الجنوب؛ غير أن سرعته خفت مع طلوع النهار.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ۱، ص: ۳۵۵

فى ۲۹ منه، كنا على خط العرض ۱۲؟، ۳۰؟، و فى ۳۰ منه، على خط العرض ۱۳؟، ۲۹؟ جنوبى رأس غردافة.

و كانت صحة السيد كرامر تتحسن منذ إبحارنا. أما السيد بورنفايند، فكان مرضه يزداد سوءا إلى أن بلغ منه مبلغا، و لم يعد قادرا على الإجابة على أسئلتنا؛ و استرسل بعدها فى سبات عميق، لم يكن يستفيق منه إلا لتناول الأدوية و الطعام. غير أنه ما لبث أن أسلم الروح فى ۲۹ آب/ أغسطس عند الساعة الحادية عشرة مساء.

و لا داعى لأن أثنى على أعمال هذا الفنان، المتناثرة فى هذا الكتاب، و التى تشهد على مهارته و فعاليته. غير أننى آسف جدا، لعدم تمكنه من العودة إلى الدانمارك، ليقدم أعماله بنفسه للناس.

كان خادمنا برغرن مريضا جدا عند صعودنا إلى الباخرة؛ و قد عمل فى خدمة رجل سويدى، قاد حروبا عدة ضد البروسيين. و عند مغادرتنا من كوبنهاغن، كان يتميز بنية قوية قادرة على احتمال متاعب الرحلة إلى شبه الجزيرة العربية؛ غير أنه ما لبث أن أصيب بالمرض و لفظ أنفاسه الأخيرة فى ۳۰ آب/ أغسطس؛ فرميت الجثتين فى البحر.

و بعد عبورنا رأس غردافة، انتقلنا إلى مناخ مختلف كليا، فالهواء كان باردا للغاية إلى حد أننا ارتدينا ملابس سميكة. و كان الهواء شماليا غربيا من باب المندب إلى رأس غردافة؛ غير أنه كان جنوبيا غربيا من هنا إلى ساحل مالابار؛ و إن كان الربّان محنكا، استطاع أن يحدد موعد وصول السفينة إلى سورات أو بومباى، ما إن يبلغ رأس غردافة.

و يدّعى الإنكليز الذين عبروا عدة مرات من ساحل مالابار إلى الخليج العربى، أن المسافة التى تفصل بين بومباى و باب المندب تقع على خط الطول ۳۰ درجة؛ غير أن هذه المسألة لم تتعد ۲۶ درجة فى طريق العودة، نظرا لسرعة مجرى النهر، الذى كان يدفعهم نحو الشرق. أما السفن الأوروبية الأولى، التى أبحرت بهذا الاتجاه، و لم تستطع العثور على ساحل مالابار بفعل الأمطار و الضباب، فقد تعرضت لخطر الغرق على سواحل بلاد الهند. و لكننا نستطيع اليوم القيام بهذه الرحلة، دون التعرض لأى خطر، لأننا نشاهد شرقى بومباى فى قعر المياه، و غربها أفاع مائية، يتراوح طولها بين ۱۲ و ۱۸ بوصة، تطفو على سطح المياه. فما إن يبعد الربابنة ۲۴ درجة شرقى باب المندب، يبدؤون بالبحث عن هذه الأفاعى التى تشير إلى ابتعادهم عن الساحل درجتين تقريبا .

شاهدنا الأفاعى المائية، لأول مرة فى التاسع من أيلول/ سبتمبر؛ فعند الواحدة من بعد الظهر، كان عمق المياه يبلغ ۵۳ باعا؛ و مع اقترابنا من السواحل، راح مستوى المياه ينخفض. حرص الربّان على التقدم

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ۱، ص: ۳۵۶

شمالا، لأن الرياح الجنوبية كانت تعيق عملية الإرساء. و بعد عناء و جهد، ألقينا المرساة فى ۱۱ أيلول/ سبتمبر فى مرفأ بومباى، و دخلنا إلى المدينة، صباح اليوم التالى.

علم القراء أن ملك سردينيا، أرسل إلى البلدان الشرقية، مجموعة من العلماء، أثاروا خلافات حادة عند وصولهم إلى الاسكندرية فى مصر، و لم يسمح إلا للسيد دوناتى، الذى كان يترأس المجموعة، بمتابعة الرحلة بينما عاد الآخرون إلى أوروبا. و يبدو أن أحدا لم يسمع شيئا عن السيد دوناتى، حتى العام ۱۷۷۲، لذلك وجدت نفسى مجبرا على ذكر الموضوع. فالذين أتيحت لهم فرصة التعرف على هذا العالم، فى الشرق، يثنون على مهارته فى التاريخ و على فعاليته فى الأبحاث الأثرية، و أخبرنى القنصل فيرو فى القاهرة القصة التالية: وصل السيد دوناتى إلى القاهرة، آتيا من الإسكندرية؛ و عبر بعدها النيل ليصل إلى مصر العليا. و فى أحد الأيام، غادر سفينته ليرسم بعض الآثار، فاعترض فارسان عربيان طريقه؛ فتوسل إليه خدمه و بعض التجار المرافقين له، أن يعود أدراجه، حتى لا يقع ضحية هذين اللصين؛ غير أنه تابع الرسم، بينما عاد رفاقه إلى السفينة. انقض الفارسان على السيد دوناتى، و حاولا ضربه برماحهما؛ و لكنه كان مسترسلا للغاية فى الرسم إلى حد أنه لم يعرهما اهتماما، و لم تظهر عليه بوادر الخوف منهما. فتعجب الفارسان من تصرفات هذا الرجل؛ فترجلا عن جواديهما، و جلسا بقربه، إلى أن أنهى الرسم، و تركاه بعدها يعود سليما معافى إلى سفينته. و لعل الناس غالوا فى رواية هذه القصة، غير أن السيد دوناتى تابع أبحاثه بثقة و نشاط؛ و على كل رحالة يبغى الاستفادة من رحلة مماثلة أن يحذو حذوه.

قبل ستة أشهر من وصولنا إلى القاهرة قصد السيد دوناتى دمشق، و منها إلى بغداد و إلى البصرة برفقة خادم إيطالى، و شاب من القاهرة يجيد اللهجات الشرقية كلها. و بعد وصوله إلى البصرة، أبحر برفقة أربعة رهبان كرمليين إلى مسقط، على متن زورق إنقاذ صغير، علما أنه لا تكثر فى ذلك الفصل السفن المغادرة إلى الهند. و بعد أن ملّ من مسقط، أبحر ثانية برفقة الرهبان المذكورين آنفا، باتجاه مرفأ مانغلور، على ساحل مالابار. غير أنه مرض فى الطريق، و أسلم الروح بعد ثلاثة أيام، قبل أن يبلغ مركبه المرفأ المذكور. ترك دوناتى مبلغا من المال لترجمانه، حتى يتمكن من العودة إلى مصر، و لخادمه، ليعود إلى إيطاليا؛ فقصد بومباى، و منها إلى مسقط، قبل بضعة أشهر من وصولى إلى المدينة. قبل لى فى البصرة إن تاجرا إنكليزيا اصطحب الترجمان معه إلى حلب. أما الخادم الإيطالى فخسر جزءا كبيرا من أمواله فى بومباى، و اعتنق الإسلام فى مسقط.

يبدو أن السيد دوناتى اتخذ الإجراءات اللازمة، ليبلغ بلاده بآخر أخباره، و يرسل إلى إيطاليا أوراقه و أمواله مع الرهبان الأربعة. و لقد قابلت فى بومباى أحد الرهبان الكرمليين، الذى أكّد لى أنه سلّم أغراض السيد دوناتى إلى السيد فيربير. مما يشير إلى أنهم لم يستلموا شيئا فى تورين، كما و أنهم لم يعرفوا شيئا

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ۱، ص: ۳۵۷

عن أخبار هذا العالم العظيم؛ و شاع فى إيطاليا أنه رحل إلى بلاد فارس حاملا معه أمواله كلها، و اعتنق الدين الإسلامى.

و لما كان من الصعب العثور على الأوراق التى تركها السيد دوناتى، علما أنه تمّ استجواب الرهبان الكرمليين، الذين قصدوا عام ۱۷۶۲ أو ۱۷۶۳، ساحل مالابار، فضلا عن نائب ملك غوا، يمكننا الافتراض أن نفقات ملك سردينيا على هذه المجموعات قد ذهبت سدى.

أما بالنسبة إلى مجموعتنا، فلم يصل منا إلى بومباى، سوى السيد كرامير و أنا. غير أن الموت ما لبث أن سلبنى رفيقى فى السفر، بعد بضعة أيام من وصولنا إلى هذه المدينة. فلم يتبق بالتالى من المجموعة التى أرسلها ملك الدانماركى إلى شبه الجزيرة العربية سواى أنا. غير أننى أرجو أن لا تؤثر هذه الأحداث على حب الملوك لدعم هذه الرحلات أو على حماسة العلماء للقيام بها. فلو لم يسرع السيد دوناتى بالذهاب إلى الهند، و لو كنا ملقحين ضد الزكام؛ و لو حاولنا أن نعتاد على طريقة عيش الشرقيين؛ و لو أظهر أفراد هذه المجتمعات انفتاحا أكبر تجاه بعضهم بعضا و لم يعرقلوا سير رحلاتنا، لعدنا جميعا إلى أوروبا. و لنفترض أننا متنا فى هذه الرحلة، فإنه لفخر لنا أن نقضى فى سبيل العلم. و إن عدنا سالمين إلى بلادنا استرجعنا بالذاكرة المتاعب التى واجهناها، و الشعوب التى تعرفنا عليها، و التى تختلف صورتها كليا عن تلك التى وضعها لها الأوروبيون.

و فى هذه المناسبة، سأنقل لكم قصة عالم آخر، أرسلته فرنسا إلى الشرق، و لم يسمع به أحد فى أوروبا الشمالية. كان هذا العالم يدعى سيمون، و هو عضو فى جمعية العلوم فى باريس، و يعمل عالما بالطبيعيات و طبيبا و عالم فلك؛ أبحر هذا العالم من فرنسا إلى حلب. و حاول مواطنوه المقيمون فى هذه المنطقة، أن يجعلوا إقامته فيها ممتعة. غير أن رحلته ليست بهدف الاستمتاع برفقة الرعايا الأوروبيين. فقرر عندئذ الانتقال إلى ديار بكر، علّه يستطيع متابعة أبحاثه من غير إزعاج. فلم يقابل فى هذه المنطقة سوى رهبان كبوشيين استقبلوه فى ديارهم بالترحاب؛ غير أن هذه الجماعة كانت تعانى من الانشقاق؛ و أخذ الرهبان ينغصون على السيد سيمون عيشه، خاصة بعد أن لا حظوا أنه يجنى أموالا طائلة من ممارسة الطب، مقارنة بالمكاسب التى يجنونها. و لما عجز السيد سيمون عن تحمل تصرفات الأوروبيين معه، قرر اللجوء إلى الجامع الأكبر و اعتناق الإسلام. فبذل الرهبان الكبوشيون قصارى جهدهم لثنيه عن مراده، غير أنه أصرّ على الخضوع لعملية الختان. و لعله ظن أن الأتراك سيغدقون عليه المال، نظرا لمهاراته، التى لا مثيل لها فى بلادهم. و رغم أن الأتراك سمحوا له بممارسة مهنته بحرية، إلا أنهم لم يكفوا عن احتقاره لأنه ارتدّ عن دينه و خان بلاده. و عند ذلك، انتقل السيد سيمون إلى بغداد حيث كان بيع العقاقير، و يمارس الطب. و رغم كل ما جرى له، لم يفقد حبه لمهنته و لعمله. و فى تلك الحقبة كانت بلاد فارس تعانى من الحروب المدنية، فقد اكتسب أحد الضباط الفرس و اسمه نادر شاه: لقب خان، و حاول الفرس بقيادته السيطرة على عدة أقاليم مثيرين بذلك حروبا دموية. ثم أصاب المرض الخان، بعد أن استولى على إحدى

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ۱، ص: ۳۵۸

المدن المحاذية للحدود التركية؛ و لما علم بأمر الطبيب الأوروبى المقيم فى بغداد، أرسل بطلب السيد سيمون، الذى رفض تلبية هذه الدعوة. فغضب الضابط الفارسى من رفض الطبيب طلبه هذا، و كان عاجزا عن إخراجه بالقوة من بغداد؛ لذلك استغل فرصة خروجه إلى الجبال لجمع الأعشاب و أرسل رجاله ليقبضوا عليه، و ليرغموه بالقوة على معالجة الخان، لخطورة حالته. و الجدير ذكره أن الفرس لا يدفعون أجرا للأطباء. و إن قضى المريض ألقوا اللوم على الطبيب المعالج. و بعد موت الخان، تعرّض السيد سيمون للضرب

و زجّ فی السجن. غیر أنه استلم الحکم فی البلاد خان آخر، مصاب أیضا بالمرض؛ و لما علم بوجود طبیب أوروبی فی السجن أطلق سراحه علی الفور؛ و بعد أن عالجه، و ساهم فی شفائه، طلب الطبیب من الخان الإذن بالعودة إلی بغداد. فما کان من هذا الأخیر إلا أن أجبر السید سیمون علی مرافقته فی غزواته لیقضی الطبیب فی واحدة منها.

و لقد أسف الأوروبیون، الذین تعرفوا علی السید سیمون لموته. الذی کتب للسفیر الفرنسی خلال إقامته فی بلاد فارس، فی البصرة رسائل غریبة للغایة، جعلت البعض یقول إنه مضطرب عقلیا. و لعله قرر اعتناق الإسلام فی دیار بکر، خلال إصابته بإحدی نوباته المشؤومة.

رحلة إلی شبه الجزیرة العربیة/ تعریب عبیر منذر، ج۱، ص: ۳۵۹

سیر رحلة هولندی فی مناطق یمنیة لم تذکر فی الصفحات السابقة

اشارة

هذا الهولندی هو المرتد نفسه الذی تحدثت عنه فی کتاب (وصف شبه الجزیرة العربیة)؛ فقد عرض علی الملاحظات الجغرافیة التی دوّنها خلال رحلاته فی الیمن؛ و لا حظت أنه یصف فیها مدنا لم أزرها، فطلبت منه نسخة عنها؛ و حرصت علی ترجمتها من الهولندیة و إدراجها فی هذا الکتاب علما أنها تروق لهواة علم الجغرافیا. غیر أننی نسیت أن أدوّن اسم هذا الرجل الطیب، لأننی أصبت بالمرض خلال إقامتی فی المخا؛ و الجدیر ذکره أنه دوّن فی نهایة روایاته، الأحرف التالیة(DWIIR) ؛ و هی تمثل الأحرف الأولی من اسمه.

I- الطریق المؤدیة من صنعاء إلی بیت الفقیه عبر ریما

عند مغادرتنا صنعاء، نقطع ثلاثة فراسخ تقریبا لنصل إلی قریة حوص المسوّرة؛ و نعبر بعدها و دیانا و جبالا لنبلغ قریة ویسان(Weisan) الغنیة بالمزروعات؛ و هی ملک عائلة إسحاق ابن الإمام المهدی أحمد، صاحب شار. و علی مقربة من قریة ویسان، نشاهد قصرا کبیرا، مبنیا علی قمة جبل شاهق. قطعنا بعده طرقات وعرة، مرصوفة بمعظمها لنبلغ قریة ضفة الصغیرة؛ و نری علی مقربة منها بقایا صرح قدیم، و حجارة مقصوبة، مغطاة بنقوش غریبة . تمتد علی بعد ثلاثة فراسخ تقریبا من ضفة أراض قاحلة، تضم قریتین صغیرتین، و تؤدی إلی بلدة منجا، حیث نجد خانا للقوافل مبنیا من الحجارة. و تقع، علی مسافة نصف فرسخ ضواحی مدینة دوران؛ یحد بها من الشمال سهل فسیح، و من الشرق و الجنوب و الغرب، مرتفعات و هضاب. و شق علی الجبل الوعر، الذی تقع علیه المدینة، طریق مرصوف یصل إلی القمة؛ و نصادف فی منتصف الطریق، بابا مطینا یشرف علی مقر الشیخ حسان کابالی. أما علی قمة الجبل، فنجد جامعا کبیرا، یعلو قبر المتوکل إسماعیل بن قاسم الکبیر، الذی یقدسه الناس؛ و علی مقربة من هنا، نجد ضریح حسان بن قاسم الکبیر، و الإمام المجدد بلال بن المتوکل؛ فضلا عن مخزنین محفورین فی الصخر، یسمیان جهنام و البئو . یبلغ طول مساحة الجبل، یوم سفر بکامله؛ و التربة فیه محروثة جیدا.

رحلة إلی شبه الجزیرة العربیة/ تعریب عبیر منذر، ج۱، ص: ۳۶۰

عند مغادرتنا دوران، نجد قریة صغیرة، علی الیسار و قریة أخری علی الیمین، و بعد أن نسلک منحدرا وعرا، نصل إلی مقر نقیب من بیت الکرمی، و منه إلی خان جرف ابن عامر، الواقع علی حافة جدول صغیر، بین الجبال فی إقلیم جمیل، تکثر فیه مزارع البن؛ و نتابع بعدها طریقنا نزولا، لنعبر سهلا رملیا، و نصل إلی مضیق دیک ابن عامر؛ و یبلغ طول هذا المضیق الواقع عمودیا، حوالی فرسخ تقریبا بینما یتراوح عرضه بین ست و سبع أقدام. و نقع بعدها علی نهر راما الذی ینبع من هذا الأقلیم. غیر أننا اضطررنا لعبور النهر المذکور الذی تحدّه جبال وعرة حتی نبلغ خان زومان. و بعد أن قطعنا ثلاثة فراسخ، و هضابا و أودیة متعرجة، بلغنا مدینة العبید؛ و هی بلدة کبیرة، تقع علی تلة خصبة بالقمح، و بمزارع البن.

و بعد أن سرنا خمسة أمیال و نصف من عبید، بلغنا مضیقا شمالی الجبل، یبعد فرسخین تقریبا عن بلدة سوق الحد. و مررنا لا حقا بقریة لوما، و قریة سوق السبت، و قصر شیخ سیلفیا الواقع علی جبل شاهق، المحاذی لخان القوافل مبنی من الحجارة؛ کما و أن قصر المدعو علی بن منصور واقع علی القسم الأعلی من الجبل نفسه، و سلک الهولندی بعدها منحدرات کثیرة، و لا حظ فی طریقه، أشجارا غریبة؛ لکن من خلال وصفه لها، تبین لی أنها شجرة التین المعروفة فی الهند، التی تکثر علیها حشرة المغافیر؛ و شاهد أیضا علی هذه الطریق بساتین ینمو فیها البن تحاذی مقهی سقل(Sochol) . و مرّ بعدها بقریة مقیجا العین، و بمقهی بیت الشفلی، و وادی دهیجان؛ غیر أنه اتجه بعدها یمینا لیصل إلی خان سوق الهال.

یتفرّع من هذه المنطقة طریقان؛ واحدة تؤدی یمینا إلی جبی و أخری یسارا إلی قسمة؛ ففضل رحالتنا أن یتجه یسارا لیصل إلی مقهی عشب، و منه إلی قصر منور(ManoY ?r) . و بعد أن قطع فرسخین و نصف، شاهد علی یساره، قصرا متداعیا کلیا؛ فتابع طریقه، لیبلغ مقهی متاع. و بعد أن قطع الجبال و التلال المجاورة، وصل إلی بلدة قسمة حیث یقیم صاحب دولة هذا الأقلیم؛ و بعد نصف فرسخ جنوبی غربی المدینة، یقیم الشیخ محسن بن أحمد الدیر.

یتمیز الطریق المؤدی من قسمة إلی بیت الفقیه بمنحدراته الوعرة، و بساتین البن الکثیرة، و قراه المتناثرة هنا و هناک و منها قریة منیرة، و خان العرس. و مقهی قبة الشریف. و إن تابعنا طریقنا إلی ألوج(Aludjse) ، قطعنا طریقا رملیا، یتحول إلی سیل جارف، خلال فصل الشتاء. تضم بلدة ألوج سوقا شعبیا و خانا للقوافل؛ و هی تبعد فرسخا علی مقیا الدرایة، و فرسخین و نصف عن أرض مغطاة بالأشجار، تمتد بعد الجبال الوعرة التی تصل هذا الإقلیم بتهامة.

تتمیز الحقول المجاورة لجبال تهامة بغناها بالمزروعات. و فی طریقنا من ألوج إلی بیت الفقیه، نعبر أولا بقریة سعید، الواقعة علی بعد فرسخ من الجبل و نصف فرسخ جنوبی مطاحن. و أظن أن قریة سعید هذه هی قریة صعود(SauY ?d) ، التی مررت بها فی طریقی إلی حدی(Hadie) ؛ و مما لا شک فیه أن هذا الهولندی، سلک الطریق نفسه الذی و صفته سابقا، للوصول إلی بیت الفقیه.

رحلة إلی شبه الجزیرة العربیة/ تعریب عبیر منذر، ج۱، ص: ۳۶۱

فی الطریق من مدینة العبید إلی قسمة نستطیع أن نسلک طریقا مختصرة و مریحة؛ غیر أن العرب یدّعون أن هواءها ملوّث، و بالتالی، لا أحد یمر بها، تسمی هذه الطریق وادی دهیسان، و هی توصل منطقة سیلفیا عن مقاطعة أتوما(Othuma) ، و تمتد إلی منطقة مسوار(Masu r) ، و منطقة دوبارا لتنتهی فی منطقة جمان(J man) ؛ و نقطع بعده منحدرات و مرتفعات کثیرة، لنصل إلی منطقة زیل الشفا(Ze ?l el Siva) ، علی سفح جبل قسمة الوعر. و نجد علی هذه الطریق أربعة مقاه؛ نسی الهولندی اسم أولها. أما البقیة، فهی بیت الغزیلی، المجاور لمقر الشیخ صحیی حسین الغزیلی و لجامع جمیل مزین بقبة، و مقیة معن، و مقیة السیفا.

II- الطریق المؤدیة من قسمة إلی جبی

للذهاب من قسمة إلی سوق الهال، علینا أن نسلک طریق عبید؛ و هی وعرة بمعظمها، و متعرجة حول الجبال، و تؤدی إلی مقر المدعو الشیخ سید بن مفید، و إلی قصر محمد بن مفید شقیق الشیخ المذکور.

و بعد أن نتجه نزولا نصل إلی جامع صغیر و خزان للمیاه. و تقع علی مقربة من هنا بلدة سوق التلعب(SuY ?k el TeluY ?b) ، علی سفح جبل وعر. و علی بعد فرسخ من هنا، بلدة جبی حیث یقیم صاحب دولة هذا الأقلیم. و یقام کل نهار ثلاثاء سوق شعبی؛ و أحیطت هذه البلدة بسور عال و بنی لها بابان.

III- الطریق المؤدیة من جبی إلی بیت الفقیه

ینحدر الطریق من جبی، شرقا و تحد به من الجهتین قری صغیرة، و یؤدی علی مسافة فرسخ و نصف إلی فندق ابن هذان المجاور لجامع رائع، حیث بنی خزان للمیاه. و بعد أن نقطع فرسخین من الأراضی المزروعة، نصل إلی قریة تضم قبر النبی العلوی، الذی یحتفل بعیده فی شهر شعبان، و بعد أن نسیر قرابة الساعة، مرورا بوادی رباط النهری، نصل إلی بلدة کبیرة، یقام فیها سوق شعبی؛ و نشاهد علی الجبل المحاذی لها، ضریح النبی عمر النهری، الذی یعلوه جامع جمیل، فضلا عن مقر المدعو زید بو الغیث النهری، الذی یهتم بالجامع المذکور، و یدیر نزلا کبیرا، یلجأ إلی المسافرون للراحة. و نمر بعدها ببلدة بلیبل، و مقیة الخادم، و مطاحن، لنصل إلی بیت الفقیه؛ و یمکننا القول بالتالی إن جبی تبعد مسافة نهار و نصف عن بیت الفقیه (أظنه یقصد نهارین و نصف).

IV- الطريق المؤدية من جبى إلى سمفور

تتميز هذه الطريق بكثرة تعرجاتها حول الجبال، و هى تؤدى إلى بلدة قطفان، التى تضم خانا للقوافل.

و بعد أن نبعد عن الوادى، نصل إلى قرية سوق الجمعة الواقعة على سفح الجبل، و نعبر بعدها قرية مقية الفيل، لنرحل إلى سمفور. و يمكننا القول بالتالى إن هذه الطريق تحتاج نهارا و نصف.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۶۲

V- الطريق المؤدية من صنعاء إلى قسمة عبر لومة

بعد مغادرتنا صنعاء، مررنا ببلدة حسيس الصغيرة و المذكورة آنفا؛ و انتقلنا بعدها إلى بلدة سوق الآسس(k el AssچS) ، الواقعة على الجبل، حيث تكثر مزارع البن. و بعد مغادرتنا هذا المكان، بلغنا بلدة سوق الحد، و منها إلى سوق الجمعة، التابعة لدوران. و بعد اجتيازنا مناطق جبلية وعرة، غنية بالأشجار وصلنا إلى قرية لومة التابعة لنفوذ حاكم سوق السبت؛ و منها إلى قسمة التى أتيت على ذكرها سابقا؛ و يمكننا القول بالتالى إن صنعاء تبعد مسافة ثلاثة أيام عن لومة.

VI- الطريق المؤدية من ذمار إلى دوران

خلال سفرنا من ذمار إلى دوران، نعبر فى جوار بلدة حيران، لنصل إلى قرية الخاما(El Kha Y ?ma) ، و منها إلى قباتل(Kubatel) . و بعد أن نعبر سهولا رملية، و جبالا وعرة نصل إلى قرية مابر(Maber) حيث يقيم عدد كبير من النساجين، و تقع على مقربة من هنا، قرية منجا، المحاذية لمدينة دوران.

VII- الطريق المؤدية من صنعاء إلى صعدة

بعد مغادرة صنعاء، نمر ببلاد همدان، التى تبعد نصف نهار عن بلدة جربان، و نهارا بكامله، عن عمران. و هذه البلدة المسوّرة تقع فى أرض وعرة، جميلة و خصبة. فيها بابان، يقام قرب الباب الشرقى منها سوق شعبى كل أسبوع. و بعد أن نجتاز منطقة سوية و خصبة، تعرف ببقاع البون، نبلغ بلدة خباذ المسوّرة، و منها إلى دوبار، و جبل علا، و نجد على بعد فرسخ منها، خان رهيد، المبنى على سفح جبل تقع على قمته بلدة بيت الأدهم.

يمتد الطريق من رهيد غربا، إلى بلدة حمدة حيث يقام سوق شعبى كل خميس. أما الطريق الشرقى الذى يمر بسوق زيد و خان الشمس فيؤدى إلى دبين.

و يمتد من رهيد طريق آخر شمالا نحو جبال مزروعة مرورا ببلدة سبرا و قرية مهامة الواقعة على بعد نصف فرسخ؛ و نرى شرقا قرية جليدى(Djelledi) الكبيرة. و إن تابعنا طريقنا عبر الجبال و السهول الخصبة نصل إلى قريتين، تقع الأولى على منحدر وعر، و الثانية فى سهل منبسط، و تسمى مفاس، و تخضع لنفوذ بنى كلبان. و نجتاز بعدها قرية القصر المسوّرة، لتتابع طريقنا نحو قرية غولة، علما أن القرى الصغيرة، تحد الطريق من الجانبين. و ننتقل بعدها إلى مدينة شامير التابعة لإمام صنعاء؛ الذى عيّن سيدى ابن محسن، شقيق المرحوم الإمام المتوكل قاسم بن حسين، حاكما عليها؛ و الجدير ذكره أن منطقة شامير تقع فى مناطق نفوذ بنى سريم. و على مسافة أربعة فراسخ نصل إلى خان مقية بن عامر الذى يبعد فرسخا عن بلدة أسيرة. و نقع بعدها على مقر إقامة المدعو النقيب صلاح بن نصر، من عائلة حاشد؛ و تسمى هذه

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۶۳

المنطقة بنى شعر. و نصادف بعدها قريتى مفوة و قاطرين، شرقى الطريق؛ و نمر فى بلدة حود المسورة الواقعة بين جبلى الجمار و رومية فى مناطق نفوذ بنى أسمد. على بعد فرسخ و نصف شمالا نصل إلى البلدة التى تقيم فيها عائلة النقيب على بن واسر الأحمر الذى قطع رأسه فى صنعاء. و إن تقدمنا فى البلاد بلغنا مقهى الفوق؛ لتتوجه بعدها إلى بلدة شوان المفتوحة، و المجاورة لبقايا قصور الأئمة الذين حكموا صنعاء فى الماضى. (تعود هذه البقايا إلى زمن بنى توبة الذين أشرت إليهم فى كتاب وصف شبه الجزيرة العربية).

و تقع غربى الطريق قريتا بوبان، و بيت التوبة. و بعد أن نجتاز جبل أسود، نصل إلى بلدة سوق الحرف، فى إقليم سفيان، ثم على بعد نصف فرسخ من هنا تقع بلدة مبروكة المسوّرة التابعة لعائلة جيش. و بعد مغادرتنا سوق الحرف نجد على مسافة أربعة أو خمسة فراسخ بلدة بركان على حدود إقليم سفيان.

يسمى الإقليم الممتد من بركان إلى بلدة قدة(Kuddet) ، أماسيا(Amasia) ؛ و هو إقليم شبه خال من السكان و يشكل خطرا على المسافرين. ثم نجد فى منتصف الطريق خزانا للمياه، اعتاد المسافرون على المبيت بقربه. و بعد أن نقطع نصف نهار فى الأراضى الخصبة، نصل إلى مدينة سعد المسورة، و التى تفوق صنعاء مساحة؛ و لها ثلاثة أبواب: باب هادى، باب منصور، و باب القصر. و تضم قصرا كبيرا و حصنا منيعا فضلا عن جامع مزين بقبة و ضريح الإمام المهدى، نبى الأنبياء. و يقول صاحب هذه الرحلات إن معظم سكان هذه المدينة هم من اللصوص و النصابين؛ و هم يرفضون منح حاكمهم يوسف بن قاسم مقرا له فى المدينة، علما أنه يقطن على بعد نصف نهار غربى سعد. و نجد على مسافة فرسخين أو ثلاثة من سعد، جامعا كبيرا، يدّعى العرب أنه ضريح أيوب، المعروف بصبره . تكثر فى سعد مناجم الحديد؛ و يقال إنها تبعد سبعة أيام عن صنعاء.

VIII- الطريق المؤدية من صنعاء إلى كوكبان

عند خروجنا من صنعاء نعبر فى بئر الغرب، و منه إلى خان مطيخ، الواقع على حدود إقليم حمدان.

و نقع على بعد فرسخين و نصف على خان طويلة الكبير. و الجدير ذكره أن الجبل يحد الطريق من يمنيها.

و بعد أن نقطع حوالى فرسخ و نصف نصل إلى خان بيت النوم. و نمر بعدها بجدول صغير، و جبل شاهق، محاذيين لقرية مناكب، الواقعة فى واد رملى؛ و ننتقل بعدها إلى قرية حجر سيد، التى تضم قصرا كبيرا.

أما إقليم حيم فيقع جنوبى الطريق، و إن تابعنا طريقنا، نصل إلى مقهى، على الحدود الفاصلة بين همدان و كوكبان، و إن قطعنا فرسخا آخر عبر أرياف مزروعة نصل إلى بلدة شبام المسوّرة و الواقعة على سفح جبل وعر. و نشاهد خارج البلدة، بساتين جميلة و جامعا كبيرا يضم قبر محمد بن حسين ابن سيدى أحمد الحاكم حاليا. و إن قطعنا نصف فرسخ عبر طريق مرصوف، فى جبل متعرج، نصل إلى مدينة

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۶۴

كوكبان؛ و هى مسورة من الشمال، و لها ثلاثة أبوب محصنة بثلاثة أبراج؛ منذ بضع سنوات، و لقد بنى الملك الحاكم، قصرا فخما على جبل نقم، قرب صنعاء.

VIIII- الطريق المؤدية من شبام إلى عمران

على الطريق المؤدية من شبام إلى عمران، نقطع أولا بساتين خصبة، و منها إلى مناطق وعرة، لنصل على بعد فرسخ و نصف إلى بلدة تولا، المسورة؛ و هى تتميز ببرجيها: باب هادى و باب عمران؛ و نجد أيضا هنا قصرا محصنا مبنيا على صخرة وعرة، علاوة عن ضريح أحد أبناء الإمام الهادى، الذى دفن فى جامع فى صعدة. و على بعد فرسخ و نصف نزولا نصل إلى قرية دهان المسورة، و منها إلى بلدة قريتين، بحيث يمتد الطريق عبر أرياف مزروعة، مرورا بقرية نجرا، و منها إلى عمران، على بعد فرسخ تقريبا.

طريق كوكبان، عبر حشيش فى تهامة

بعد مغادرتنا كوكبان، نقطع حوالى ثلاثة فراسخ فى سهل واسع، لنصل إلى مقهى محاذ لجدول صغير. و نشاهد فى طريقنا، قرى صغيرة متعددة، مرورا ببلدة طويلة المفتوحة، التى تضم قصرا محصنا مبنيا على صخرة وعرة، و سوقا شعبيا. و بعد أن نسير حوالى فرسخين عبر طريق متعرجة نصل إلى قرية أخرى تضم خانا للقوافل. غير أننا نسلك بعدها دربا سويا و رمليا لنجد على اليسار قصرا عاليا. و نتابع بعدها الطريق نزولا، و نعبر أراض مغطاة بالأشجار، لنبلغ قرية واقعة شمالى الطريق. إلا أن الطريق الممتد إلى إقليم حبشة

يؤدى إلى قرية رجم، الواقعة على منحدر وعر؛ و منها إلى بلدة مهاود، حيث نجد بقايا قرى قديمة؛ و تعد بلدة مهاود من البلدات الكبيرة، و يقام فيها نهارى الثلاثاء و الأحد، سوق شعبى؛ و إن تابعنا طريقنا من هنا، نشاهد بعض القرى على حافتى الطريق، و بعض الأراضى المغطاة بالأشجار المثمرة؛ و نصل إلى مقهى على حدود إمارة كوكبان؛ غير أن الطريق الممتدة من هنا، محفوفة بالمخاطر، و مغطاة بالغابات الكثيفة؛ و هى تؤدى إلى جبل وعر، يعرف بجبل حفاش(Hofasch) ، يبعد فرسخا تقريبا عن مركز لحرس صاحب دولة سفكين، حيث يتم تفتيش المسافرين؛ و يبعد هذا المكان حوالى فرسخين عن بلدة سفكين حيث يقيم صاحب دولة إقليم حشيش.

تكثر الطرقات التى تؤدى إلى سفكين فى تهامة؛ و تقع واحدة منها غربا، و تؤدى إلى حدود محافظة حشيش و يتفرع من هنا طريق باتجاه و لاج، مرورا بملهان.

ملاحظة: تبعد صنعاء عن روضة مسافة خمسة أيام.

و تبعد روضة عن قطبة مسافة يومين، و تعز عن قطبة يومين تقريبا، و قطبة عن عدن ثلاثة أيام و نصف ، و تعز عن عدن أربعة أيام و المخا عن عدن ثمانية أيام.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ۱، ص: ۳۶۵

ملاحظات حول الجوّ فى كل من القسطنطينية و القاهرة و شبه الجزيرة العربية و بومباى

إن محرّ فهرنهايت الذى استعملته فى سفرى كان من صنع تمونتغ و قد أشرف على صناعته البروفسور هولمان و هو معروف بدقته الشديدة. أما محرّ ريومور فهو من صنع مارسيليا تحت إشراف السيد نويبى.

و كان البروفسور كراتزنشتاين قد بيّن فى القسم العاشر من دراسات الأكاديمية الملكية للعلوم فى كوبنهاغن (ص ۳۲۹) و فى كتاب الفيزياء (ص ۳۰۰) أن محرّ ريومور الجديد لا تتفق نتائجه مع محرّ ريومور الأصلى. أما عن الملاحظات القليلة التى قمت بها حول محرّ ريومور فقد حولتها إلى مقياس فهرنهايت لكنى لن أذكرها هنا.

و فى دراساتى كافة كان المحرّ معلقا فى الهواء الطلق و فى الظل. ففى بيرا(Pera) علقته على نافذة مفتوحة باتجاه الشمال الشرقى تقريبا، و فى القاهرة و جهته نحو جنوب الجنوب الشرقى و فى جدة نحو غرب الشمال الغربى و فى لحية و بيت الفقيه نحو الشمال. أما غرفتى فى المخا فلم تكن تسمح بهذه الدراسات. لذا كنت أضع المحرّ كل يوم عند الظهر فى غرفة على مصطبة المنزل و كنت أفتح النوافذ و الأبواب كى أسمح للهواء بالدخول بحرية. فكنت أعلقه فى الصباح و أخرجه من البيت أثناء الليل.

و بما أن الشمس هى المصدر الأساسى لحرارة الجو، و بما أن القراء لا يعرفون بالضرورة تحديد موقعها خلال فترة زمنية ما و فى مكان محدّد، قررت أنه من الضرورة أن أحدد فى كل جدول درجة ابتعاد الشمس عن سمت المدينة التى قمت فيها بوضع هذه الملاحظات.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ۱، ص: ۳۶۶

تدوين السيد كرايمر فى السويس لدرجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهايت خاصتى أثناء رحلتى إلى جبل سيناء عام ۱۷۶۲.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ۱، ص: ۳۶۷

درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهايت فى القاهرة فى شهر تشرين الثانى/ نوفمبر ۱۷۶۲.

تنخفض جدة بنسبة ۲۱؟ ۲۸؟، عن القطب. فى ۳۰ ت ۲/ نوفمبر كانت الشمس تبعد عن السمت بمسافة ۴۳؟ ۱۱؟.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ۱، ص: ۳۶۸

درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهايت فى جدّة فى بداية شهر كانون الأول/ ديسمبر ۱۷۶۲

ملاحظات محرّ ريومور حول الخليج العربى بين جدّة و لحية فى شهر كانون الأول/ ديسمبر ۱۷۶۲، و قد سجّلت على محرّ فهرنهايت فى المكان نفسه.

إن المسافة التى كانت تفصل الشمس عن السمت فى ۱۰ كانون الأول/ ديسمبر ۱۷۶۲ فى جدة كانت توازى ۴۴؟، ۴۲۶؟.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ۱، ص: ۳۶۹

درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهايت فى مخيّة فى شهر كانون الثانى/ يناير ۱۷۶۳

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ۱، ص: ۳۷۰

درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهايت فى مخيّة فى شباط/ فبراير ۱۷۶۳

درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهايت فى الشهر نفسه فى بيت الفقيه

فى ۱۹ شباط/ فبراير كانت الشمس فى لحية على مسافة ۲۶؟ ۵۸؟ من السمت فى ۲۸ شباط/ فبراير و كانت على مسافة ۲۲؟ ۲۲۸؟، فى بيت الفقيه.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ۱، ص: ۳۷۱

درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهايت فى بيت الفقيه فى شهر آذار/ مارس ۱۷۶۳

إن بيت الفقيه على ارتفاع ۱۴؟ ۳۱؟ من القطب. و فى ۳۱ آذار/ مارس عند الظهر كانت الشمس تبعد عن السمت ۱۰؟ ۲۲؟ إلى الجنوب.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ۱، ص: ۳۷۲

درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهايت فى بيت الفقيه فى شهر نيسان/ أبريل ۱۷۶۳

فى ۱۹ نيسان/ أبريل عند الظهر كانت الشمس على بعد ۴۳ ۲۰؟ عن جنوب السمت.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ۱، ص: ۳۷۳

درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهايت فى المخا فى شهر أيار/ مايو ۱۷۶۳

يبلغ ارتفاع القطب فى المخا ۱۳؟ ۱۹؟. و فى ۱ أيار/ مايو عند الظهر كانت الشمس على مسافة ۴۱ ۴۵؟ عن السمت و فى ۳۱ منه كانت على بعد ۴۸ ۳۶؟ عن شمال السمت.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ۱، ص: ۳۷۴

درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهايت فى جدة فى بداية شهر كانون الأول/ ديسمبر ۱۷۶۲

فى تعز فى نهاية شهر حزيران/ يونيو ۱۷۶۳

إن ارتفاع القطب فى تعز يبلغ ۱۳؟ ۳۴؟. و فى ۲۵ حزيران/ يونيو كانت الشمس على بعد ۴۹ ۵۲؟ عن شمال السمت.

خلال سفرى من تعز إلى صنعاء لا حظت ارتفاع مستوى محرّ ريومور.

ريمور فهرنهايت في ۲۹ حزيران قبل طلوع الشمس بقليل على سهل جوبان(۱۳ (Haub n؟ ۱/ ۲ ۶۱؟

في ۳۰ حزيران قبل طلوع الشمس بالقرب من معد ۱/ ۲ ۱۰ ۱/ ۲ ۵۵

بعد الظهر عند الواحدة تقريبا في محرّس(۷۶ ۱۹ ۲ ۱/ ۲ (Mharras

في ۳ تموز عند الظهر في منزل(۷۲ ۲ ۱/ ۱۸ (Mensil

في ۳ تموز في منزل قبل طلوع الشمس ۱۳ ۶۱

في ۱۰ تموز قبل طلوع الشمس في يريم ۱/ ۴ ۸ ۵۲

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۷۵

درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهايت في تموز/ يوليو ۱۷۶۳ في بئر القصب قرب صنعاء

درجات الحرارة وفقا للمحرّ نفسه في المخا في شهر آب/ أغسطس ۱۷۶۳

تبعد بئر القصب عن ارتفاع القطب ۱۵؟ ۲۱؟. في ۲۴ تموز/ يوليو، و عند الظهر كانت الشمس على بعد ۴؟ ۳۵؟ من السمت إلى الشمال و في ۲۰ آب، و عند الظهر كانت تبعد صفر؟ ۴۹؟ عن النقطة العمودية نفسها.

إن السيد بورنفايند هو الذي لاحظ في نهاية شهر آذار/ مارس و بداية نيسان/ أبريل ۱۷۶۳ في بيت الفقيه ارتفاع مستوى ميزان فهرنهايت المذكور في ص ۳۹۲ و ۳۹۳ (من النسخة الفرنسية). و في هذا الوقت كنت أجول في الجبال و كنت أنقل من وقت إلى آخر ارتفاع مستوى ميزان ريومور. و سنلاحظ في هذا الإطار اختلافا كبيرا في حرارة البقاع المختلفة من بلاد الإمام الصغيرة.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۷۶

في ۲۸ آذار بعد الظهر بربع ساعة كنت في حيران على طريق عدين(Udde ?n) فهرنهايت ريومور و كان المحرّ يشير إلى ارتفاع ۸۵؟ ۱/ ۲ ۲۳؟

في ۲۹ عند السادسة صباحا في الوصفد(۱۵ ۶۶ (Wachf d

في المكان نفسه عند الظهيرة ۸۸ ۲۵

في ۳۰ عند السادسة صباحا قرب عدين ۷۷ ۲۰

عند الثانية بعد الظهر على الجبل العالي بين عدين و جبلة ۷۱ ۱/ ۲ ۱۷

في ۳۱ عند السادسة و الربع صباحا في جبلة ۶۷ ۱/ ۲ ۱۵

في ۲ نيسان عند السادسة و الربع على بعد ميلين من شرق تعز على السهل ۵۵ ۱/ ۲ ۱۰

في ۳ نيسان الساعة السادسة و الربع في ربعة شرقي تعز ۷۱ ۱/ ۲ ۱۷

في ۴ نيسان الساعة السادسة و الربع صباحا في عود(۱۷ ۷۰ (Oude

و في لهية و صنعاء دوّنت ارتفاعات البارومتر في ساعات معينة سأعاود كتابتها هنا لنرى كيفية تحرك المحرّ صعودا و نزولا في هذا البلد:

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۷۷

درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهايت في بيرا(Pera) قرب القسطنطينية في شهر آب/ أغسطس ۱۷۶۱

في بيرا يبلغ ارتفاع القطب ۴۱؟ ۴۲؟. و في ۳۱ آب/ أغسطس كانت الشمس على مسافة ۳۲؟ ۳۱؟ من السمت.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۷۸

درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهايت في القاهرة في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر ۱۷۶۱

و يبلغ ارتفاع القاهرة ۳۰؟ ۳۳؟. في ۳۰ تشرين الثاني/ نوفمبر، و كانت الشمس على مسافة ۵۱؟ ۴۸؟ من السمت.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۷۹

درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهايت في القاهرة في كانون الأول ۱۷۶۱

في ۳۱ كانون الأول/ ديسمبر، كانت الشمس تبعد ۵۳؟ ۸؟ عن السمت.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۸۰

درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهايت في القاهرة في كانون الثاني/ يناير ۱۷۶۲

في ۳۱ كانون الثاني/ يناير كانت الشمس تبعد عن السمت ۴۷؟ ۲۰.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۸۱

درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهايت في القاهرة في شباط/ فبراير ۱۷۶۲.

في ۲۸ شباط/ فبراير كانت الشمس تبعد عن السمت ۳۷؟ ۵۴؟.

ملاحظة: في ۱ و ۲ و ۳ شباط/ فبراير كنت في الجيزة أي بالقرب من النيل.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۸۲

درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهايت في القاهرة في آذار/ مارس ۱۷۶۲

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۸۳

درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهايت في القاهرة في نيسان/ أبريل ۱۷۶۲.

في ۳۰ نيسان/ أبريل كانت الشمس على مسافة ۳۰؟ ۱۳؟ عن السمت.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۸۴

درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهايت في القاهرة في شهر أيار/ مايو ۱۷۶۲

في ۳۱ أيار/ مايو كانت الشمس على بعد ۹۸ ۴۶ من السمت.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۸۵

درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهايت في القاهرة في شهر حزيران/ يونيو ۱۷۶۲.

في ۳۰ حزيران/ يونيو كانت الشمس تبعد عن السمت مسافة ۴۶ ۵۲؟.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۸۶

درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهايت في القاهرة في شهر تموز/ يوليو ۱۷۶۲

في ۳۱ تموز/ يوليو كانت الشمس على بعد ۱۱؟ ۴۸؟ من السمت.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۸۷

درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهايت فى القاهرة فى شهر آب/ أغسطس ۱۷۶۲

فى ۲۴ آب/ أغسطس كانت الشمس تبعد ۱۸؟ ۵۸؟ عن السمت.

فى بومباى على ارتفاع ۱۸؟ ۵۵؟ كنت أراجع محرّ فهرنهايت ثلاث مرات فى اليوم. لكن بما أن الحرارة هنا كانت ثابتة لم أجد ضرورة فى وضع أى جدول كامل. لذا كنت لا أدوّن إلا أهم الأحداث آخر الشهر و سوف أدرجها هنا:

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۸۸

فى شهر أيلول/ سبتمبر ۱۷۶۳

فى الأيام الأولى من وصولنا إلى بومباى أى من ۱۱ إلى ۱۵ أيلول/ سبتمبر، كانت السماء صافية. ثم من ۱۶ إلى ۲۴ كانت الأمطار تهطل كل يوم و أحيانا طوال الليل و النهار. فى هذه الفترة إن أقصى ارتفاع بلغه المحرّ كان فى اليوم الثالث و العشرين و كان ۱/ ۲ ۸۳ أما المستوى الأشد انخفاضا فهو ۷۹؟

و قد سجّل فى ۱۹ أيلول/ سبتمبر فى الصباح الباكر. و فى الأيام التى يتساقط فيها المطر من دون انقطاع بقى ارتفاع الزئبق هو هو. و منذ اليوم ۲۴ و حتى نهاية الشهر صار الجو لطيفا و ارتفع الزئبق فى اليوم الثلاثين حتى المستوى ۸۸؟.

فى شهر تشرين الأول/ أكتوبر ۱۷۶۳

فى هذا الشهر كانت الدرجة العليا التى وصل إليها المحرّ ۹۱؟ و ذلك فى اليوم ۱۷. أما الدرجة السفلى فكانت ۷۹؟. و إن الفوارق فى كل يوم كانت فى بداية الشهر ۴؟ أما فى نهايته فقد تراوحت بين ۸؟

و ۹؟. إن اليوم ۱۱ هو الوحيد الذى أمطرت فيه. لكن حتى نهاية الشهر ظلت السماء صافية. فى اليوم ۲۳ هبّ هواء شديد القوة.

فى شهر تشرين الثانى/ نوفمبر ۱۷۶۳

فى بداية هذا الشهر بلغ ارتفاع المحرّ فى بومباى ۸۸؟، أما فى نهايته فانخفض إلى ۸۱؟ و فى اليوم التالى فى الصباح إلى ۷۳؟. أما التراوح فسجل ۹؟. و فى ليل ۲۷- ۲۸ هبّ هواء قوى جدا من الشرق، و فى اليوم التالى كان الطقس سيئا.

فى شهر كانون الأول/ ديسمبر ۱۷۶۳

كان المناخ سيئا منذ بداية الشهر و حتى ۱۵ منه و فى اليومين الأخيرين هطلت الأمطار. ارتفع مستوى المحرّ فى هذا اليوم إلى ۷۲؟ فى الصباح و إلى ۸۴؟ بعد الظهر، و فى ۲۰ ك ۱/ ديسمبر سجل ۱/ ۲ ۸۷؟.

لكن فى نهاية الشهر انخفض فى الصباح إلى ۷۱؟ و بعد الظهر إلى ۸۲؟.

فى شهر كانون الثانى/ يناير ۱۷۶۴

تراوحت الحرارة على طول هذا الشهر بين ۷۱؟ و ۶۹؟ و بعد الظهر بين ۸۰؟ و ۸۳. و فى ۲۶ ك ۲/ يناير انخفضت فى الصباح إلى ۶۴؟ و سجلت بعد الظهر ۷۶؟.

فى شهر شباط/ فبراير ۱۷۶۴

بقى المحرّ طوال هذا الشهر مسجلا ۶۹؟ بينما تراوح بعد الظهر بين ۷۹؟ و ۸۲؟. و فى اليوم التاسع هطلت بعض الأمطار.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۸۹

فى شهر آذار/ مارس ۱۷۶۴

فى ۱۱ آذار/ مارس ارتفعت الحرارة إلى ۸۸؟ بسبب الهواء الشمالى الغربى العنيف و فى ۱۳ آذار/ مارس بلغت ۸۹؟. و فى الأيام التالية و حتى منتصف آذار/ مارس لم تتجاوز ۸۳؟ فى بومباى.

فى الأيام الخمسة عشر المتبقية من شهر آذار/ مارس، توجهت إلى سرات(Sur t) و هى مدينة واقعة على بعد ۲؟ ۱۲؟ عن شمالى بومباى و ما يقارب ثلاثة أميال ألمانية عن البحر. حيث هنا ارتفعت الحرارة إلى ۹۳؟ و فى اليوم ۲۹؟ إلى ۹۸؟ بسبب الهواء الشمالى. و كان محرّ ريومور قد تحطم فى شبه جزيرة العرب. فى الطريق إلى سرات تعطل محرّ فهرنهايت فلم يبق لى أى أداة لإكمال أبحاثى عن حال الطقس. و فى بومباى بلغت الحرارة وفقا لمحرّ أحد الجراحين ۹۳؟.

و لقد أثبتت التجربة أن مستوى الزئبق فى الميزان يمكن أن يختلف فى المدينة نفسها. فمثلا لو أن أحدا لا حظ معى فى مثل هذا المناخ ارتفاع الزئبق فى منطقة منخفضة و كثيفة السكان فى القسطنطينية أو غالاتا لما حصل على الارتفاع نفسه الذى حصلت عليه فى بيرا المعرّضة للتأثر بالريح بسبب موقعها على هضبة.

كما وجدت فروقات كبيرة فى مستوى الزئبق فى الجيزة و القاهرة. فعلى ضفاف النيل لم ترتفع الحرارة عن ۵۵؟ لكن فى اليوم الرابع من الشهر بلغت ۶۶؟ فى القاهرة. إذا لا يمكن أن نتوقع الحصول على الحرارة نفسها فى مدينتين تقعان على الارتفاع نفسه و على البعد ذاته عن الشمس لأن هناك عوامل عديدة يمكن أن تتحكم بالحرارة و بالتالى بمستوى الزئبق فى المحرّ، كموقع المدينة: قرب البحر أو على سهل مزروع أو غير مزروع أو على رأس جبل أو فى أسفله أو فى منطقة تهيمن عليها الرياح الدافئة أو الباردة ...

فلا عجب إذا أن أكون قد وجدت الحرارة مرتفعة فى لحية فى شهر كانون الثانى/ يناير حتى أكثر ارتفاعا من حرارة صنعاء فى شهر تموز/ يونيو؛ علما أن هاتين المدينتين تقعان على فرق دقائق معدودة من حيث الارتفاع: تقع الأولى فى سهل منخفض و قاحل عند الخليج العربى بينما تقع صنعاء فى منطقة جبلية مرتفعة و خصبة. و عند ما كنت فيها كانت الأمطار تتساقط كل يوم. و يمكن أن يشير المحرّ إلى الحرارة نفسها فى مدن أخرى تقع على ارتفاع مختلف شرط أن تكونا متساويتى الارتفاع عن البحر و الابتعاد عن الشمس.

إن الفرق فى الارتفاع مثلا بين كوبنهاغن و لحية هو ۴۰؟ تقريبا. و تقع هاتان المدينتان على الساحل لكن إحداهما تقع فى مكان خصب و الأخرى فى سهل جاف. و فى كوبنهاغن تكون الشمس فى شهر تموز/ يونيو على مستوى البعد نفسه عن السمت كما فى لحية فى شهر كانون الثانى/ يناير و اكتشفت أن الحرارة فى لحية فى هذا الشهر كانت أكثر ارتفاعا من الحرارة فى كوبنهاغن بشهر تموز/ يوليو كما وجدها البروفسور كراتزنشتاين.

و باعتبار أنى لم أصرف كثيرا من الوقت فى التحقق من درجة الحرارة فى غالبية المدن المذكورة أعلاه.

لن يستطيع القارىء معرفة درجة الحرارة فيها بدقة. إن هذه المهمة تتطلب سنوات عديدة. لكن يمكن أن

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۹۰

يستفيد الفيزيائيون من هذه الأعمال الأولية للتدقيق فى حرارة البلاد التى و صفتها حتى الآن ثم يقارنها مع ملاحظات الآخرين. ففى شهر تموز/ يوليو فى صنعاء كان المستويان الأكثر انخفاضا و الأكثر ارتفاعا فى المحرّ موازيين تقريبا للمستويين الأعلى و الأكثر انخفاضا فى كوبنهاغن فى الشهر نفسه حسب ملاحظات البروفسور كراتزنشتاين. كما و قد لا حظت أن الحرارة فى شهر كانون الثانى/ يناير فى القاهرة قريبة جدا من حرارة كوبنهاغن فى شهر أيار/ مايو. لكن لا تكون الحرارة فى شهر شباط/ فبراير فى القاهرة أكثر ارتفاعا منها فى شهر تموز/ يوليو بكوبنهاغن. فى شهرى آذار/ مارس و نيسان/ أبريل فى القاهرة يكون مستوى الزئبق فى المحرّ أعلى منه بكوبنهاغن فى أشهر الصيف الأكثر حرارة. إن حرارة شهر آب/ أغسطس فى بيرا و حرارة شهرى تشرين الثانى/ نوفمبر و كانون الأول/ ديسمبر فى جدة و حرارة شهر حزيران/ يونيو فى تعز تكون تقريبا متوازية. و فى شهر تشرين الأول/ أكتوبر فى القاهرة و شهر آب/ أغسطس فى كوبنهاغن يكون ارتفاع المحرّ هو هو، أما ارتفاعه فى كانون الأول/ أكتوبر فى القاهرة فهو قريب جدا منه فى كوبنهاغن فى حزيران/ يونيو. فى المخا و القاهرة تكون الحرارة هى نفسها فى شهر حزيران/ يونيو. و فى منتصف هذا الشهر، تكون الشمس على مستوى الارتفاع نفسه فى هاتين المدينتين و بالتحديد على ۱۰؟

إلى الشمال فى المخا و ۱۰؟ جنوبى السمت فى حلب. لكن كلنا يعرف أن مدينة حلب شديدة الارتفاع عن سطح البحر.

ملاحظات حول حرارة الهواء فى القسطنطينية

فى بداية شهر آب/ أغسطس كان المناخ جيدا فى القسطنطينية. و فى ١٢ آب/ أغسطس وصلت عاصفة من الشمال محمّلة بالبرق و الرعد و فى ٢٠ منه تساقطت الأمطار. و فى ٢٤ و ٢٥ من الشهر نفسه كان الطقس عاصفا و ممطرا و فى ٢۶ خيّم الضباب على المنطقة لكن عند نهاية الشهر كانت السماء صافية.

فى الإسكندرية

فى شهر تشرين الأول/ أكتوبر ١٧۶١ استمرت الريح بالهبوب من الشمال أو الشمال الشرقى.

و لقد جاء فى أقوال بعض المسافرين و بعض مقولات الكتّاب غير الموثوقين أن المطر لا يتساقط أو نادرا ما يتساقط فى مصر. إلا أن مصر شديدة الامتداد من الشمال إلى الجنوب. و إن جزءها الواقع فى أقصى الشمال و هو الجزء الأكثر وسعا يمتد على طول الشاطىء و ليس بقربه أى جبل. ثم إن الجزء الجنوبى منها ضيق فى بعض الأنحاء و فى طرف أو طرفين منه هناك جبال عالية. و هكذا فإن الفيزيائيين الذين لا يهتمون إلا بموقع هذا البلد يقررون أن حرارة الهواء لا يمكن أن تكون متشابهة فى كافة المناطق. و قد حاول البعض أن يؤكد لى أن بعض المناطق فى مصر العليا لا ترى المطر أبدا.

أما فى مصر السفلى فغالبا ما يتساقط المطر كل يوم فى شهرى تشرين الثانى/ نوفمبر و كانون الأول/ ديسمبر. و ليست الأمطار نادرة فى القاهرة كما زعم البعض و قد قالوا لى إنها تمطر أحيانا مرات

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج١، ص: ٣٩١

معدودة فى السنتين، لكن أثناء إقامتى فيها هطل المطر كثيرا و سأفصّل ذلك لا حقا.

فى القاهرة

تشرين الثانى/ نوفمبر: بعد وصولنا إلى القاهرة مباشرة فى تشرين الثانى/ نوفمبر ١٧۶١ هطلت الأمطار بشدة فى ليل ١٣- ١۴ فدخلت المياه إلى مصطبة منزلنا و أجبرت على تغيير مكان سريرى.

و لأن شوارع القاهرة غير مرصوفة، أصابتها الأمطار بأضرار بالغة فصار من المستحيل التجول فيها فى اليومين التاليين دون التّلوث بالوحول. ثم فى الأيام التالية صارت السماء شديدة الصفاء لكنها عادت و اكفهرّت لا حقا.

كانون الأول/ ديسمبر: فى ٣٠ من هذا الشهر بعد الظهر، هطل الماء بغزارة لمدة عشر دقائق. فى اليوم السابع من الشهر هطلت بعض الأمطار عند الظهر. و فى مساء اليوم العشرين كثر البرق و الرعد و فى ليل اليوم ٢١ هطلت الأمطار من جديد. و فى صباح اليوم ٢٢ تساقط المطر لمدة ساعتين و بعد الظهر لمدة ست ساعات دون انقطاع. لكن سرعان ما صفا الجو. ثم فى ليل ٢٧- ٢٨ تساقطت الأمطار بغزارة كذلك فى ليل ٢٨- ٢٩ و خيّم الطقس الكئيب على الأجواء من ٣ إلى ٩ و من ١٧ حتى نهاية الشهر.

كانون الثانى/ يناير: فى اليوم الأول من الشهر استمرت الأمطار من طلوع الشمس حتى الساعة العاشرة و بقى الجو متكدرا طوال النهار. و بعد ظهر اليوم السابع تساقط المطر بغزارة و فى اليوم الثامن تساقط قليلا. ثم منذ اليوم ١١ و حتى نهاية الشهر أصبح الطقس لطيفا. و فى صباح اليوم ١٣ وجد أحد خدامنا العرب جليدا على ملفوفة أحضرها الفلاحون إلى المدينة. و عرضها على عدد من الأوروبيين متباهيا بوجود الجليد فى مصر.

و فى الأيام الأخيرة من الشهر صارت الريح تهبّ من الشمال و كانت شديدة. أما فى اليومين ٢٧ و ٢٨ و حتى اليوم ٣٠ فلقد كان الضباب يغطى الأرجاء فى الصباح و تتلبّد السماء أثناء الليل.

شباط/ فبراير: فى بداية هذا الشهر تساقط المطر بغزارة و هبّت عاصفة قوية آتية من الجنوب طيلة بعد الظهر. و فى صباح اليوم السادس لم تمطر كثيرا. أما فى اليومين التاليين فلقد كان الجو متلبدا. ثم أمطرت فى ليل اليوم ١۵ و صباح اليوم ١۶.

آذار/ مارس: لم تمطر قط فى القاهرة طوال هذا الشهر. إلا أن الجو كان متلبدا فى الأيام ٣، ۴، ٨، ٩، ٢۴، ٢٩. أما فى اليوم السابع فقد هبّت عاصفة قوية.

نيسان/ أبريل: فى اليوم الثانى من هذا الشهر هبّت ريح قوية من الشرق. و فى اليوم الثالث تجهم الجو و تساقطت الأمطار. ثم فى اليوم ١٧ هبّت ريح ساخنة من الشرق أى من جهة ليبيا و لشدة ما كانت هوجاء امتلأ هواء القاهرة بالغبار و الرمال التى شكّلت سحبا كثيفة. و عند ظهيرة اليوم ١٨ هبّت ريح عاصفة. أما فى اليوم ٢٠ فهبّت رياح شمالية شرقية. و تسمى الريح الحارة فى القاهرة (الخماسين) لأنها تهبّ فى الأيام الخمسين بين عيد الفصح و عيد العنصرة عند الأقباط و عادة تأتى من الجنوب الغربى. و إن الغبار الذى تحمله معها دقيق للغاية فلا يكتفى بالتسرب من خلال النوافذ المحكمة الإقفال إلى بيوت

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج١، ص: ٣٩٢

الأوروبيين بل و يدخل فى القوارير المغلقة. لا شك أن هذا الغبار هو سبب العمى فى مصر. و هكذا فإن البخار الفاسد الذى يتصاعد من القناة التى تجرى فى القاهرة يتسبب بموت عدد من الأطفال أو بآلام فى عيونهم. و فى اليوم ٢٧ ظهر البرق خلف الشفق ثم أمطرت. و فى اليوم ٣٠ اشتد المطر.

و فى أيار/ مايو: رافقت السيد بورنفاينذ إلى دمياط فى هذا الشهر. راقب السيد كرايمر فى غيابى ارتفاع مستوى الزئبق فى المحرّ و حرارة الهواء فى القاهرة. و فى اليوم الثانى هبّت فى المدينة و على الطريق المؤدية إلى دمياط ريح جنوبية عاصفة جعلت غيوما من الغبار تملأ الأجواء. و فى اليوم السابع هبّ هواء قوى من الجنوب و فى اليوم ٣١ هبّت ريح أخرى هوجاء من الشمال.

و فى حزيران/ يونيو: فى اليوم الأول من الشهر هبّت ريح قوية من الشمال و رافقتها سحب كثيرة.

و فى اليوم الثانى بدأت الرياح تعصف من الجنوب ثم من الغرب و كان الهواء محملا بالغبار. ثم فى اليوم السادس كان الجو مكفهرا. و فى السابع هبّت ريح هوجاء من الشمال و فى اليومين ٢۴ و ٢۵ تلبّدت السماء بالغيوم فى شهرى أيار/ مايو و حزيران/ يونيو و لكن لم يتساقط المطر قط.

أما فى تموز/ يوليو: فلم تمطر قط فى القاهرة أثناء هذا الشهر. لكن السماء كانت دائما ملبّدة بالغيوم عند الصباح و أحيانا خلال باقى النهار.

آب/ أغسطس: فى اليوم ١٣ من شهر آب/ أغسطس كان الضباب كثيفا فى القاهرة و كان يتحول إلى مياه. فى اليوم ١۵ بعد الظهر هبت عاصفة قوية محمّلة بالأمطار على النيل و فى المدينة و فى منتصف الطريق بين القاهرة و رشيد.

الأشهر الثلاثة الأخيرة شديدة الحرارة فى مصر لكن فى القاهرة يمكن الهرب من أشعة الشمس اللاذعة داخل المبانى المؤلفة من أكثر من طابق واحد. كما و أن شوارع المدينة ضيقة لذا فهى تؤمن بعض الظل.

أضف إلى ذلك أن الشوارع تسقى عدة مرات فى اليوم الواحد و خاصة أمام بيوت الأعيان لترطيب الجوّ.

كما و تلعب الريح الشمالية دورا فى تخفيف حدة الحرارة عن سكان مصر فيضع الأعيان أنبوبا قصيرا على الدار فى بيتهم يكون نقبه الأعلى موجها نحو الشمال بغية جذب الهواء البارد . فى هذه الغرف لا تكون الحرارة مرتفعة أبدا لذا لا نعجب إذا رأينا فيها أهل الطبقات الرفيعة يجلسون النهار بكامله و يغطون أنفسهم بالفراء. كما و يملك بعض السكان الأغنياء مياها جارية فى الغرف المكشوفة من منازلهم.

و باختصار أقول إن الأغنياء من المصريين يعرفون كيف يستعملون مواردهم ليردّوا عنهم الحرارة و هم أمهر من سكان البلدان الشمالية الذين يحاولون حماية أنفسهم من البرد.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج١، ص: ٣٩٣

و الجدير بالذكر أنه فى أيام الحر الشديد فى مصر تكثر الغيوم و يهب هواء الشمال باستمرار و فى الأيام نفسها تمطر كل يوم تقريبا فى الحبشة و فى المناطق الجبلية فى اليمن.

فى شبه جزيرة العرب

تشرين الأول/ أكتوبر ١٧۶٢: قضينا الجزء الأكبر من هذا الشهر على الخليج العربى بين السويس وجدة. و فى الأيام ٢١ و ٢٢ و ٢۴ كنا

نرى البرق كل ليلة من جهة الغرب و فى اليوم ۲۳ من جهة الشرق و الجنوب الشرقى و فى اليومين ۲۷ و ۲۹ من جهة الشفق. فى نهاية الشهر كان الجو مكفهرا خلال النهار و الليل.

تشرين الثانى/ نوفمبر: فى ليل ۱۲- ۱۳ كنا نرى البرق فى جدة من جميع الجهات. فى اليوم ۱۳ كان الجو مكفهرا و سمعنا أصوات الرعد. فى اليوم ۱۷ كان الجو عاصفا. فى اليومين ۱۸ و ۱۹ كان الجو قاتما فأمطرت و كنا نسمع البرق و الرعد أحيانا. بعد ظهر اليوم ۲۰ بدت السماء صافية و بعد ظهر اليوم ۲۱ قرب جدة هطلت الأمطار الغزيرة القادمة من الشمال الغربى. عند صباح اليوم ۲۲ رأينا البرق من جهة الشمال الغربى.

كانون الأول/ ديسمبر: فى بداية هذا الشهر حافظت الحرارة على استقرارها فى جدة و فى اليوم الرابع هبّ هواء قوى من الجنوب و فى مساء اليوم الخامس هبّ هواء آخر من الشمال الغربى. و فى اليوم التاسع عند المساء سمعنا الرعد و هطل المطر من الشمال الغربى. فى اليوم ۱۶ بدا الجو قاتما فى الخليج بين لحية وجدة. فى اليوم ۱۷ بقى الجو قاتما و جاءت عاصفة فى المساء و هطلت الأمطار. فى اليوم ۱۸ عند المساء رأينا البرق فى الشمال على الشفق و فى اليومين ۲۴ و ۲۵ بدت السماء متلبدة بالغيوم.

و فى شهر كانون الثانى/ يناير ۱۷۶۳: فى مساء اليوم السادس و طيلة اليوم السابع بدا الجو قاتما فى لحية. و فى صباح اليوم الثامن هطل وابل من المطر و بقى الجو متكدرا إلى اليوم التاسع مساء. و منذ اليوم ۱۷ و حتى نهاية الشهر كنا نرى الجو متكدرا كل صباح. و فى ليل ۱۹- ۲۰ هبّت ريح قوية من الجنوب و فى ۲۱ هطل المطر بغزارة. ثم فى مساء اليوم ۲۵ عبرت السماء عدة غيوم شفافة و بدا مدار القمر متوجا بإطار جميل رأينا مثله فى مساء اليوم ۲۸. و لقد دام الأفول منذ التاسعة و حتى العاشرة و الربع، و الثانى دام أكثر من ساعتين و نصف. إن نصف القوس هذا كان فى كل مرة على ۲۳؟ و ربع.

و فى شباط/ فبراير: فى بداية هذا الشهر هطلت بعض الأمطار فى لحية لكن اشتد المطر من ۱ شباط إلى ۵ منه. فى اليوم السادس و اليوم السابع كان الجو متكدرا ثم عاد الصفاء بعد ذلك. فى ليل ۲۵- ۲۶ هطلت بعض الأمطار على بيت الفقيه.

و فى آذار/ مارس: فى اليومين ۶ و ۱۲ كان الهواء فى بيت الفقيه أقوى من العادة فامتلأ الهواء بالغبار و الرمل. و مما لا شك فيه أن هذا الغبار الدقيق قدم من غلفقة إذ غالبا ما كانت التلال الرملية تغير مكانها

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۹۴

كما ذكرنا فى السابق. و فى اليومين ۲۴ و ۲۵ اشتد الرعد ثم هطلت الأمطار. و فى الأيام التالية بقى الجو صافيا.

و نيسان/ أبريل: من اليوم ۱۱ و حتى اليوم ۱۹ كانت السماء متلبدة بالغيوم فى بيت الفقيه و رأينا فى المخا اعتبارا من ۲۴ نيسان/ أبريل و حتى نهايته الكثير من الغيوم لكن دون مطر. و كانت تمطر بغزارة فى الجهات الجبلية حتى أنه فى اليوم ۲۸ تدفقت المياه فى واد جاف فجرفت معها عدة أكواخ من خارج أسوار المدينة. و بعد فترة غير طويلة عاد قعر الوادى إلى الجفاف.

و فى أيار/ مايو: فى بداية هذا الشهر كنا نرى البرق على الشفق فى المخا. فى ليل ۴- ۵ و ليل ۵- ۶ هبّت ريح هوجاء من الجنوب. و فى اليوم الثامن عند الظهر، هبّت عاصفة قوية مصحوبة بالأمطار. و فى اليومين التاسع و العاشر اشتد صوت الرعد و هطلت الأمطار طوال الليل.

و فى حزيران/ يونيو: بعد ظهر اليوم الأول، سمعنا الرعد فى المخا و بقيت السماء ملبدة بالغيوم طوال الليالى إلى خروجنا من هذه المدينة. و بما أن موسم المطر كان قد حلّ فى البلدان الجبلية قبل وصولنا إليها، وجدنا الطقس فى تعز مختلفا عن الطقس الذى اعتدنا عليه فى تهامة. و سمعنا البرق و رأينا المطر فى فترات بعد الظهر كافة ما عدا فى الأيام ۱۵ و ۱۶ ۲۴. أما فى اليوم ۲۳ فتساقط القليل من المطر. علما أن الجو فى هذه الأيام لم يكن أقل تكدرا من السابقة. فى رحلتنا من تعز إلى جبل سمارة(Sum ra) كانت تمطر فى فترات بعد الظهر كلها.

و فى تموز/ يوليو: أثناء فترة إقامتنا فى صنعاء كان الجو لطيفا طيلة الأيام منذ شروق الشمس و حتى الساعة ۱۱ لكن كانت السماء تتلبد بالغيوم بعد الظهر و أثناء الليل فتحجب الشمس أو النجوم. و كانت تمطر أحيانا بعد الظهر و نادرا أثناء الليل. و يحكى عن وجود الجليد أحيانا فى فصل الشتاء لكنه سرعان ما يذوب بفعل حرارة الشمس خلال النهار. و فى طريق عودتنا إلى صنعاء تساقط المطر أحيانا. أما فى المخا فكانت الأمطار تهطل بغزارة مصحوبة بالرعد فى ۲۹ تموز/ يوليو.

و فى شهر آب/ أغسطس ۱۷۶۳: عدنا إلى تهامة فى بداية هذا الشهر و قلّما تمطر السماء فى تهامة.

فى ليل ۱۵- ۱۶ اشتد الرعد و المطر فى المخا. أما خلال باقى الشهر فكان الجو لطيفا و الهواء ساكنا مما جعل الحرارة لا تطاق فى هذه المدينة.

تتفاوت الحرارة فى مختلف مناطق شبه الجزيرة الهندية تماما كما فى شبه الجزيرة العربية. لا يبدأ موسم المطر على ساحل كورومندال(Coromandel) و فى إقليم البنغال(Bengale) إلا عند ما ينتهى على شاطىء ملابار(Malabare) . أما فى هذه المنطقة أى فى غرب الجبال الكبيرة التى تخترق الهند من الشمال إلى الجنوب تمطر ابتداء من منتصف حزيران/ يونيو و حتى منتصف تشرين الأول/ أكتوبر أى فى الموسم نفسه حيث تمطر فى المناطق الجبلية من اليمن و فى الحبشة. و يقول البعض إن موسم الشتاء فى بومباى يبدأ برعد

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۹۵

قوى و ببرق آت من الشمال الشرقى ثم ينتهى بعد ذلك. و عند ما كنت فى بومباى شهدنا فى بداية شهر أيار/ مايو الرعد المصحوب بالمطر الغزير ثم صفا الجو بعد ذلك. و فى نهاية أيار/ مايو و بداية حزيران/ يونيو بات الجو متكدرا. و من ۱۰ إلى ۲۸ حزيران/ يونيو صار المطر ينهمر قليلا و أحيانا كانت تمر أيام بكاملها و الجو شديد الصفاء. أما فى مساء ۲۹ حزيران/ يونيو فقد وصلت عاصفة هوجاء من الشمال الشرقى و منذ ذلك الحين لم تمض ۲۴ ساعة من دون أن تتساقط فيها الأمطار. و بعدها سيطر مناخ لطيف على الأجواء و ذلك حتى ۲۰ تشرين الأول/ أكتوبر إذ انتهى موسم الشتاء بعاصفة من الشمال الغربى.

كلّف السيد بوير Boyer نفسه و هو تاجر من مرسيليا مقيم فى القاهرة بتسجيل ارتفاع مستوى الزئبق فى محرّ ريومور لمدة سنتين. لكن بدلا من وضع المحرّ فى الهواء الطلق وضعه فى غرفة مغلقة. أضف إلى ذلك أنه لم يدوّن ساعات الصباح و المساء بدقة بل اكتفى بتدوين ساعات الظهيرة. و سوف أرفق بهذا الكتاب النسخة التى أعطانى إياها لربما اهتم بها الفيزيائيون.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۹۶

ارتفاع مستوى الزئبق فى محرّ ريومور فى القاهرة طيلة الأيام عند الظهيرة على مدى عام ۱۷۵۹

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۹۷

ارتفاع مستوى الزئبق فى محرّ ريومور فى القاهرة طيلة الأيام عند الظهيرة على مدى عام ۱۷۶۰

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۹۸

ارتفاع مستوى الزئبق فى محرّ ريومور فى القاهرة طيلة الأيام عند الظهيرة على مدى عام ۱۷۶۰

الجزء الثانى

فهرس المواد التى يتضمنها الجزء الثانى

ملاحظات فى بومباى و سورات وصف جزيرة بومباى تجارة الشركة الانكليزية للهند الشرقية فى هذه البلاد و سلطتها و تجارة موظفيها فى مرافىء أخرى فيما وراء رأس الرجاء الصالح. سكان جزيرة بومباى من اوروبيين، و كاثوليك مولودين فى الهند أو برتغاليين مزعومين، و هندوس أو وثنيين، فارسيين أو عبدة النار و مسلمين وصف لباغود (هيكل) جزيرة الفيل. وصف لمدينة سورات سلطة الانكليز فى سورات. السكان الاخرون الخ .. الخ .. ۱۳

الرحلة من بومباى إلى مسقط و بوشهر الرحلة من بومباى إلى مسقط. وصف لهذه المدينة و سكانها. الرحلة من مسقط إلى بو شهر. ۷۸

ملاحظات فى بوشهر و شيراز و برسيوليس وصف لمدينة بوشهر. ملاحظات خلال الرحلة إلى شيراز. فى الأكراد و التركمان البدو و

في جيش من الفرس اجتاح البلاد. ملاحظات في شيراز وصف لبقايا قصر برسيبوليس و لآثار أخرى في هذه البلاد. ملاحظات لاحقة في شيراز. العودة إلى بوشهر ۸۸

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۶

ملاحظات في الخرج(Charedesch) موقع هذه الجزيرة الخاضعة للهولنديين. الحرب بين الفرس و سيد بندريغ(Benderrigh) و التي شارك فيها الانكليز. ملاحظات في الخرج و حول سكانها. الرحلة إلى البصرة ملاحظات حول البوصلات العربية. ۱۶۵

ملاحظات في البصرة وصف هذه المدينة و طريقة الحكم فيها. سكانها. موقع البصرة القديمة. حرب قبيلة كعب العربية ضد الغفس، و الاتراك و الانكليز، ثم ما بين قبيلة كعب و قبيلة متنفج، و سرقة بساتين البلح في البصرة. الدروب عبر الصحراء من البصرة و بغداد إلى حلب. بريد الحمام الزاجل ۱۸۳

الرحلة من البصرة إلى بغداد الرحلة على الفرات من البصرة إلى لملوم(Lemllum) . مدن هذه البلاد و قبائلها العربية. رحلة من الرماحية(Rumahie) إلى مشهد علي. وصف هذه المدينة و مسجد الشيعة الرائع الموجود فيها، فضلا عن بقايا الكوفة. رحلة إلى ضريح حزقيال، والي الحلة(Helle) و مشهد حسين وصف كربلاء و ضريح الحسين. الفرق بين السنة و الشيعة، تغيير ديانة هؤلاء الاخيرين تحت حكم نادر شاه، معلومات أخرى حول بطل بلاد الفرس هذا. وصف مدينة الحلة موقع جنائن بابل المعلقة، و معبد بيلوز(Belus) . الرحلة من الحلة إلى بغداد ۲۰۱

ملاحظات في بغداد وصف هذه المدينة، و موقع بغداد القديمة. ضريح موسى الكاظم، و أبي حنيفة مؤسس أحد مذاهب السنة. عقرقوف(Agerkuf) و المؤلف. تجارة مدينة بغداد. تاريخ بغداد الحديث.

طريقة حكم هذه المنطقة. سلطة الباشا. ملاحظات حول كردستان، بما في ذلك المنطقة الخاضعة لحاكم بغداد و الاخرى المستقلة. ۲۳۷

الرحلة من بغداد إلى الموصل ملاحظات في ينكشا(Yankasha) ، الطاق(Tauk) ، كركوك، التان(Altan) ، كوبرى(Kupri) ، اربيل أو اربيلا. مبادىء اليزيدية التي يقال إن اتباعها يتعبدون الشيطان. ملاحظات في كرمليس(Carmelies) ، و التقدم الكبير الذي أحرزه المرسلون الكاثوليك في هذه البلاد. في اللغة

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۷

الكلدانية الحية في بعض الاحياء. موقع مدينة نينوى. الطرق المختلفة بين الموصل و بغداد.

وصف مدينة الموصل و سكانها. أسماء القرى التابعة لولاية هذا الباشا. ۲۶۴

الرحلة من الموصل إلى ماردين تحضيرات الشرقيين للسفر في الصحراء. رحلة قافلة كبيرة إلى نصيبين(Nissabin) .

ملاحظات حول هذه المدينة القديمة و الاقاليم الواقعة على طرفي الطريق بين الموصل و ماردين.

وصف مدينة ماردين و حكمها، و سكانها المختلفين سيّما الشمسيين و هم أتباع ديانة قديمة للغاية وضعوا أنفسهم تحت حماية بطريرك اليعقوبيين. ۲۸۸

الرحلة من ماردين إلى حلب عبر ديار بكر وصف مدن ديار بكر، سوبريك(Sovereck) ، عرفه و بيراجيك(Biradsjik) ، و ملاحظات أخرى حول الطريق من ماردين إلى حلب. لائحة بأهم قبائل الاكراد و التركمان التي تهيم مع خيامها في ارمينيا و الاناضول و سوريا. المسافة بين مدن عدة في ارمينيا و في الاناضول. ۳۰۷

ملاحظات حول سوريا و لا سيما سكان جبل لبنان أقسام هذه البلاد. الامم و اللغات المختلفة. في السنة و المتاولة و اليهود و المسيحيين.

ملاحظات حول الدروز، أصلهم، و طبعهم و دينهم. منازل النصيريين و الاسماعيليين و ديانتهم. طريقة الحكم عند الدروز. تاريخ هذه الامة الحديث. النبلاء منهم. وصف جغرافي لمنطقتهم. سيطرة الموارنة على جبل لبنان. النبلاء بين الموارنة. امراء جبل لبنان المزعومون. وصف منطقة كسروان و مدينة بيروت. احياء طرابلس الخاضعة لولاية الباشا و التي يسكنها المسيحيون. تغيرات جديدة في جبل لبنان. ۳۲۹

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۸

فهرس بلوحات الجزء الثاني

۱- جزيرة بومباي ۱۵

۲- أ، ب، ت ثلاثة حروف مختلفة للهنود ث، ج حروف الفرس و ح حرف الصابئة. ۲۷

۳- تصميم لمعبد جزيرة الفيل ۳۴

۴- تنسيق اعمدة المعبد ۳۷

۵- رسم لصور المعبد الرئيسة، قرب الارقام ۱، ۲، ۳ على تصميم اللوحة۳۸ III

۶- رسم للصور قرب الرقم ۴، اللوحة۳۹ III

۷- رسم للصور قرب الرقم ۵، اللوحة۴۱ III

۸- رسم للصور قرب الرقم ۶ و ۱۲ اللوحة۴۳ III

۹- رسم للصور قرب الرقم ۷ اللوحة۴۴ III

۱۰- رسم لأهم صورة قرب الرقم ۹ اللوحة۴۶ III

۱۱- رسم للصور قرب الرقم ۱۳ و ۱۴ اللوحة۴۷ III

۱۲- أ. هكريس(۶۶ (Hakkris

ب. لباس الهنود ۶۶

ج- المعطف الواقي من المطر عند الفلاحين الهنود ۶۶

۱۳- أ. محفّة يستخدمها الهنود في الصيف ۶۷

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۹

ب- محفّة يستخدمونها في الشتاء ۶۷

۱۴- موقع مدينة سورات على نهر ثابي(Tappi) ، و خارطة لحديقة قرب سورات ۷۶

۱۵- خارطة لمدينة مسقط ۸۱

۱۶- خارطة لمحيط بوشهر ۸۷

۱۷- خارطة السير من بوشهر إلى برسيوليس ۱۰۶

۱۸- تصميم لآثار قصر برسيوليس ۱۰۸

۱۹- صورة لبقايا برسيوليس ۱۰۹

۲۰- أ. ب: رسم للحيوانات الموجودة على السور أو على اللوحة۱۱۳ XVIII

۲۱- صورة لرسوم السور ج اللوحة۱۱۵ XVIII

۲۲- صورة لرسوم السور د اللوحة۱۱۶ XVIII

۲۳- صور لرسوم السور «د» الاخرى، اللوحةXVIII ، و حروف الكتابة الفارسية القديمة الاخرى. ۱۱۸

۲۴- كتابات متنوعة من برسيوليس بحروف ابجدية ثلاثة مختلفة ۱۲۵

۲۵- أ. ب، رسم لعامود من برسيوليس، ج، رسم لشخص من الاعيان، لا بد أنه كاهن د. ه. رسم لأبطال قدامى و. ز، ح، ط، ك، جرار حملها أشخاص آخرون رسموا في هذه البقايا. ۱۲۶

۲۶- مشهد للصرح «ز» اللوحة۱۲۸ XVIII

۲۷- كتابات كوفية، عربية، و غيرها من برسيوليس، نقشي رجب و نقشي رستم. ۱۳۰

۲۸- منظر للصرح «ط» اللوحة۱۳۱ XVIII

۲۹- رسم للصور الموجودة على عواميد البابين۱۳۴ W .W
۳۰- رسم للصور الموجودة على عواميد البابين۱۳۷ XX
۳۱- كتابات من برسيبوليس بحروف ابجدية ثلاثة مختلفة. ۱۳۸
۳۲- رسم الصور الموجودة قرب نقشى رجب. ۱۴۳
۳۳- رسم لبعض صور نقشى رستم. ۱۴۴
۳۴- كتابات نقشى رستم. ۱۴۷
رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۱۰
۳۶- المشهد العام لمدينة شيراز. ۱۵۳
۳۷- تمارين الفرس. ۱۵۷
۳۸- خارطة مدينة خرج و قلعتها. ۱۶۴
۳۹- خارطة مدينة البصرة. ۱۸۲
۴۰- خارطة سير من الخليج الفارسى حتى السماوة. ۲۰۳
۴۱- خارطة السير من السماوة حتى قره طوبه. ۲۱۱
۴۲- خارطة مدينة مشهد علي (أ) مشهد عام لمسجد هذه المدينة الكبير (ب) خارطة مسجد الكوفة (ج) مشهد عام لمسجد مشهد الحسين (د) (ه) حجارة من الطين يستخدمها الشيعة فى صلاتهم. (و) سيف علي الشهير. (ز) ختم محمد النبوى (ح) مشهد عام لمسجد موسى الكاظم قرب بغداد. ۲۱۴
۴۳- أ، ب، ج، د، كتابات من الكوفة. ه، جزء من كتابة طينية من بغداد. و، كتابه من اسكى موصل ز، كتابة على حجر فى قصر شنيج على الطريق بين الموصل و نصيبين. ۲۱۷
۴۴- خارطة مدينة بغداد. ۲۳۶
۴۵- خارطة السير من قرة طوبة حتى زاخو(۲۷۵ (Sacho
۴۶- خارطة مدينة الموصل ۲۸۲
۴۷- خارطة مدينة ماردين، و قرية نونيه ۳۰۳
۴۸- خارطة مدينة ديار بكر ۳۱۱
۴۹- كتابات كوفية على سور مدينة ديار بكر ۳۱۳
۵۰- خارطة السير من عناد حتى اورفة ۳۱۶
۵۱- خارطة السير من اورفة حتى عدن ۳۲۱
رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۱۱

إشعار من الكاتب

أقدم اعتذارى للقراء الذين انتظروا طويلا ظهور الجزء الثانى من عملى بعد وصفى لرحلتى.

و أرجو ألّا يلومنى هواة التاريخ الطبيعي، لأنهم جمعوا، منذ صدر الجزء الاول من هذا العمل، ثمارا أخرى من الرحلة و ذلك من «شبه الجزيرة»، و من «وصف الحيوانات و النبات فى مصر و بلاد العرب»، و هما ما كتبه المرحوم البروفسور فورسكال، فضلا عن «الايقونات الطبيعية» التى طلب من الرسام بورنفند رسمها استنادا إلى الصور الاصلية. و منحنى الملك، الذى يشجع عادة العلوم و يطلع العلماء على الملاحظات حول الرحلة إلى شبه الجزيرة العربية، شرف مساعدته، و طلب منى العمل على نشر الكتب المذكورة أعلاه، فقمت بهذه المهمة انطلاقا من واجبى و بفرح لأحيى ذكرى رفاق رحلتى الذين أصبحوا ضحايا العلم.

و بما أننى فقدت رفاقى فى بداية العام ۱۷۶۴، عدت وحيدا من الهند عبر البصرة و حلب، لا يتوقع منى عشاق التاريخ الطبيعي ملاحظات من هذا النوع فى بلاد زرتها وحيدا، و ينبغي أن يستخدموا نتاج هذه الرحلة التى أمر بها عاهل الدانماركى. لكنى واثق من أنّ الجغرافيا جنت الكثير، و ترتدى هذه الملاحظات الجغرافية طابعا من الأهمية سيّما و أن البلد الذى زرته هو أقدم بلد نعرفه. حاولت فى كافة الأمكنة وضع خرائط للمدن التى صادفتها كى يتمكن العلماء من تحديد مساحتها، و عدد سكانها، و استخدمت لذلك المقياس نفسه لذا يمكن أن نقارن مساحة المدن بعضها ببعض بسهولة. و لا نجد أثرا لبابل و نينوى، هاتين المدينتين اشتهرتا فى ما مضى، فقد بنيتا فى مناطق منخفضة و رطبة حيث تندر حجارة البناء، فاستعملوا لتشييدها مواد سيئة، نقلت منذ زمن إلى مدن أخرى أو هدمت كليا.

و قد يهتم هواة الآثار برسوم الآثار الهندية فى جزيرة الفيل(Ile d'Elephauta) و لا أظن أن رحلتى إلى برسيبوليس(Persepolis) لا جدوى منها، بالرغم من أننا نملك اكثر من وصف مفصل لهذه المدينة، و سيجد هواة اللغات هنا بعض الكتابات التى لم يروها من قبل أو لم

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۱۲

يحصلوا عليها واضحة. و بما أن رسومات الاثار التى نشرها كل من شاردان و لوبرن(Chardin ,le Brayn) مختلفة من نواح عدة، ليحكم القارىء و ليرى من أخطأ. و سيجد هواة الديانة الإسلامية معلومات وافية حول المذاهب المختلفة التى لم يعرفوها حتى اليوم أو سمعوا باسمها فقط و اعتبروها و ثنية.

و سأخصص الجزء الثالث لرحلتى من حلب إلى جزيرة قبرص و القدس و الى مدن أخرى فى هذه البلاد، فضلا عن رحلتى من حلب إلى القسطنطينية عبر الأناضول، والى بولونيا غير القسم الاوروبى من تركيا، زد على ذلك مجموعة من الملاحظات حول افريقيا. و سأصدر هذا الجزء الثالث قريبا، إن أطال الله بعمرى و أمدنى بالصحة، و سأختمه بفهرس للمواد التى تضمنتها الاجزاء الثلاثة.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۱۳

ملاحظات فى بومباى و فى سورات

اشارة

شغلت تقع جزيرة بومباى على الشاطىء الغربى للهند و تملكها منذ مئة عام الشركة الانكليزية للهند الشرقية التى أقامت هنا وصاية تخضع لها المصانع على طول هذا الشاطىء نحو الشمال من سيلان و حتى البصرة.

و تتميز بمرفئها الكبير و المحمى من الرياح مما يجعله ثروة للأمة، أما الجزيرة نفسها فليست بشاسعة كثيرا، إذ لا يتعدى عرضها فى بعض الاماكن نصف ميل و طولها ميلان إن لم نضف اليها جزيرة صغيرة قريبة يطلق عليها الانكليز اسم «جزيرة النساء المسنّات». و يتكون قعر البحر بين هاتين الجزيرتين من صخرة ضخمة، يمكنك العبور عليها من جزيرة إلى اخرى اثناء الجزر من دون أن تبتل. و حول ما اذا كانت المياه تتراجع على شواطىء مالابار كما فى الخليج العربى و فى مناطق أخرى من العالم، نملك هناك الدليل على ذلك إذ تؤلف بومباى و جزيرة النساء المسنات جزيرة واحدة احيانا. و تشتهر بومباى بإنتاج جوز الهند و الارز كما تؤمّن الشواطىء الملح، و يضطر السكان كلهم تقريبا إلى تأمين مؤنهم من اليابسة سيّما من سلفات(Slfet) و هى جزيرة كبيرة و خصبة لا يفصلها عن بومباى سوى مضيق صغير. كانت تخضع فى ما مضى للبرتغاليين، و يملكها حاليا الماراتيون. و منذ رحيلى عن تلك البلاد، حاول الانكليز السيطرة على هذه الجزيرة و قد تمكنوا من ذلك وفقا للأخبار التى وردتنى لكنى لست واثقا من قدرتهم على الدفاع عن أجهزة سلفات ضد قوات الماراتيين. تمثل اللوحة الاول خريطة بومباى التى نسختها على الجزيرة نفسها ثم قمت بتقليص حجمها.

و تقع مدينة بومباى فى وسط الجزيرة على ارتفاع القطب ۱۸، ۵۵، ۴۳، و يبلغ طولها حوالى ربع ميل أما عرضها فقليل للغاية. و تقع من جهة البحر على قصر قديم لا يثير الاهتمام، أما

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۱۴

من جهة اليابسة الجزيرة فهى محاطة بسور ضخم، و بخفرة واسعة، و بحصون نصف دائرية أمام ابوابها الثلاثة.

و قد بنيت هذه التحصينات بمعظمها خلال الحرب الاخيرة ضد الفرنسيين، اذ يؤكد البعض أن الانكليز صرفوا سنويا ۳۰۰۰۰۰ روبية (حوالى ۲۰۰۰۰۰ درهم) لتحصين هذه الجزيرة، و بما أن السلام كان قد حلّ منذ فترة عندما زرت البلاد، لم يكن العمل فيها حثيثا، لكن هدف الانكليز إلى انهاء هذه التحصينات تباعا وفقا للرسم الجديد حتى تصبح بومباى فى ما بعد من أمنع المدن و أقواها فى الهند. و تؤمّن الجزيرة نفسها الحجارة المستخدمة فى بناء التحصينات و هى تتميز بليونتها فى المقالع مما يجعل استخراجها و استعمالها سهلا، لكنها تستحيل صلبة للغاية مع مرور الوقت و تعرضها للهواء.

و نجد على جزيرة بومباى، فضلا عن القلعة الرئيسية، العديد من الحصون الصغيرة كذاك القصر الصغير الواقع قرب ضاحية ماحيم(Mahim) فى شمال الجزيرة، و الحصون قرب ريفال(Rivale) ، و صيون(Sion) ، و سورى(Sure) ، ? و مازاغون(Mazagon) ، و ورله(Worle) ? و غيرها. و بالرغم من أن هذه التحصينات ليست عظيمة إلّا أنها قادرة على مقاومة الاعداء لا سيّما هجوم الهنود.

و يتمتع سكان بومباى بالحرية تحت الحكم الانكليزى، لذا يزداد عددهم منذ طرد البرتغاليين من المنطقة. و أكّد لى انكليزى، قدم إلى الجزيرة منذ أقل من عشرين سنة، أن عدد السكان فى ذلك الوقت لم يتعد ۷۰۰۰۰ شخص و أنه يتجاوز اليوم، أى فى العام ۱۷۶۴، ۱۴۰ الف نسمة.

و يشكل الاوروبيون نسبة قليلة من السكان أما البقية فمن الهنود الكاثوليك أو البرتغاليين كما يدعون هنا، و من الهندوس أو الوثنيين، و من المسلمين لا سيّما السنة و الشيعة منهم، فضلا عن الفرس أو عبدة النار. و تنسجم هذه الديانات المختلفة بعضها مع بعض، فتمارس كل منها شعائرها الدينية بحرية و أمان فى معابدها، كما تقيم مسيرات عامة من دون أن يبدى الاخرون انزعاجا.

و صادفت بعض الارمن و اليونانيين فى بومباى، و لا أدرى إن كنا نجد فى تلك البلاد مسيحيين من أتباع القديس توما الذين يترأسهم أسقف لعموم سوريا يقيم فى حلب.

يسيطر فى بومباى مناخ معتدل من جراء هواء البحر المنعش و الامطار الغزيرة التى تهطل فى الاشهر التى تكون فيها الشمس فى الموقع الاقرب من السمت . و منذ تمّ تجفيف بعض المستنقعات فى المدينة و محيطها، لم يعد الهواء غير صحى كما وصف فى ما مضى . لا يزال

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۱۶

بعض الانكليز هنا يموتون ميتة فجائية، لكن يردّ السبب برأيى إلى تصرفهم الخاص، إذ يأكلون الكثير من اللحوم الشهية كلحم العجل و لحم الخنزير التى منع المشرعون القدامى الهنود من أكلها.

كما يشربون خمرا مركزا من البرتغال فى ساعات القيظ الشديد، زد على ذلك أنهم يرتدون هنا كما فى أوروبا ثيابا ضيقة لا تصلح لهذه البلاد لأنها تلتصق ببعض أعضاء الجسد فتعيق الدورة الدموية و تجعلهم اكثر تأثرا بالحرارة من الهنود الذين يرتدون ثيابا طويلة و فضفاضة.

و يحلو لهم أن يقللوا من الثياب التى يرتدونها عند المساء مما يعرضهم للاصابة برشح خطير، فى حين أن الشرقيين يأكلون أول وجباتهم عند الصباح، و يتناولون وجبتهم الاساسية عند المغيب و يقللون من أكل اللحوم و شرب الكحول، و يغطون عند المساء رؤوسهم و صدورهم مما يقيهم من أمراض البلاد الحارة و يجعلهم يعمّرون طويلا.

يقيم الاوروبيون فى وسط المدينة، فى الحى الذى يقوم فيه منزل الحاكم، و هو منزل كبير ورائع، و تقع بالقرب منه كنيسة ضخمة، و لا يعتمد الاوروبيون فى بناء منازلهم السطوح المتساوية انما تلك المائلة المغطاة بالقرميد. و يستخدم الانكليز الزجاج لنوافذهم، أو أصدافا رقيقة جدا مرصوفة فى الخشب مما يجعل الشقق مظلمة، إلّا أنّ هذه النوافذ أفضل عند هطول المطر من الشبابيك الخشبية أو الحديدية و من المصراعين، لأن الاولى لا ترد المطر كليا فيما تحجب الأخيرة النور عن الشقق. و يحب الشرقيون التمتع بالهواء فى المواسم الجافة لذا يقيمون فى منازل مفتوحة من إحدى الجهات، و لا تتوفر فى هذه المنازل وسائل الراحة كما لا تلفت هندستها الانظار.

و من بين التحسينات التى أضفاها الانكليز على بومباى لتسهيل التجارة و الملاحة، يبقى الرصيف أهمها و اعظمها، اذ كان يتسع، حين كنت فى البلاد، لوضع مركبين، الواحد وراء الآخر و اصلاحهما، و كانوا يعملون على توسيعه لمركب ثالث. شيّد جزء من هذا الرصيف من الصخور و الجزء الاخر من الحجارة المقصوبة. و لا بد أنه كلّف الشركة كثيرا لأنها لا تسمح فقط لتجار بلدهم بالدخول و تصليح سفنهم إنما يستعين به الاجانب فقط، كما رست بقربه حين كنت فى بومباى سفينة حربية من سفن امام عمان. و يرتفع منسوب المياه هنا عند ما يكون القمر بدرا أو جديدا و يصل من ۱۶ إلى ۱۸ قدما، و تسجل أعلى نسبة عند مدخل المرفأ (حوالى ميل و ۱/ ۴ أو ميل و ۱/ ۲ نحو الجنوب من بومباى) فى الساعة الحادية عشرة، و قرب المدينة قرابة الساعة الثانية عشرة، و يرتفع المدّ فى بعض فصول السنة (استنادا إلى اقوال البحارة) الليل اكثر منه اثناء النهار، و يحصل العكس فى فصول أخرى. و كانت الابرة الممغنطة تميل حوالى درجتين نحو الغرب.

تملك شركة الهند الشرقية فى مستعمراتها على شواطىء مالابار، و التى تعتبر بومباى مركزها،

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۱۷

سبع عشرة سرية مشاة و ثلاث سرايا مدفعية، مؤلفة بمعظمها من أوروبيين و الباقى من التوباز أى الهنود الكاثوليك الذين يرتدون اللباس الاوروبى.

و تتألف كل سرية من ۱۰۰ إلى ۱۲۰ رجلا و اذا ما انضم اليها بعض المجندين من اوروبا و أضفنا التوباز يصل العدد إلى ۱۷۰ عنصرا. و يخضع للانكليز فى جزيرة بومباى وحدها حوالى ۳۰۰۰ جندى هندى، و معظمهم من المسلمين أو الوثنيين، و هم يرتدون اللباس الهندى و يخضعون لضباطهم الخاصين الذين يعاونهم رتباء أوروبيون يعلمونهم القتال، كما يخضع لهم فى سورات بعض العرب الذين يقبضون رواتب أكبر من رواتب الهنود، واكد لى ضباط انكليز أن هؤلاء أشجع من الهنود، و لكثرة ما يشاد بقيمة العرب و شجاعتهم (يبدو أن المقصود هم عرب عمان أو الخليج الفارسى و ليس عرب اليمن)، ما من امير وثنى إلا و يجعل بعضا منهم فى خدمته. و يقدم الهنود خدمات جيدة ما إن يخضعوا لإمرة الاوروبيين.

إن حالة المدفعية الانكليزية فى بومباى جيدة جدا. ففى العام ۱۷۵۱ أو ۱۷۵۲، أرسلت الشركة إلى البلاد مهندس سويدى (عمل لسنوات فى فرنسا) و نقيب مدفعية مع سرية كاملة جنّدها بنفسه من المانيا مما مدّ الجزيرة بحرفيين بارعين من نجارين و بنّائين، و نجد العديد من الالمان و الهولنديين الذين يقصدون الانكليز، و نرى العديدين منهم فى عداد الجنود و الضباط الاكفاء.

لا يمكن للاوروبيين الاجانب أن يثروا هنا من التجارة، لكن لا يتم التفريق بينهم و بين الانكليز و الايرلنديين و الاسكوتلنديين على الصعيد العسكرى، و قد صادفت هنا بين الضباط، ضابطا بولونيا و بعض السويسريين و الهولنديين و السويديين فضلا عن العديد من الالمان. و يبدأون جميعهم كتلاميذ بحريين، ثم يتدرجون بحسب أعمارهم حتى يصبحوا آمرى سرية. و هذا ما يحصل بسرعة لأن الكثيرين يريدون العيش هنا على النمط الاوروبى فتوافيهم المنية بسرعة. و يقضى غيرهم اثناء الحروب. و يتحول آخرون نحو التجارة، و يعود القليل منهم إلى أوروبا للتمتع بما جمعوه من ثروات أو لأنهم لم يجدوا فى الهند ما كانوا يتوقعونه. و كان الضابط الاول من رتبة رائد حين كنت فى بومباى. و يتلقى العسكريون أجورا جيدة هنا، و هذا ما يجعل التجار يستسيغون الخدمة العسكرية، لأن أقل رجل علم قد يغدو جنرالا (رئيسا، حاكما) فى بومباى. و يظن هؤلاء الشباب أنهم أهم من الضباط المسنين الذين خاطروا بحياتهم أكثر من مرة بغية حماية تجارة الانكليز.

و بما أن الملاويين(Malvanes) ، و السنغاريين(Sangeriens) ، و الكوليين(Kulis) و غيرهم من الأمم الصغيرة على هذا الشاطىء، فضلا عن عرب الخليج الفارسى هم من القراصنة، تضطر الشركة إلى الاحتفاظ بسفن حربية، فلها فى بومباى و سورات عادة من ثمانية إلى عشرة مراكب حربية صغيرة، فضلا عن العديد من المراكب الصغيرة المسلحة. أما ضباط هذه المراكب و ربابنتها

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۱۸

فمن الانكليز، و يعمل على متنها و على متن المراكب التجارية بحارة من الهنود الكاثوليك و المسلمين، و يسهل على الانكليز القضاء على هؤلاء القراصنة لأنهم لا يجنون أى فائدة من ذلك، إذ إن سفنهم الحربية و التجارية تحمّل البضائع أولا، و إن أرادت السفن الهندية بعد ذلك الانتقال من مرفأ إلى آخر تشكّل قافلة و تطلب مواكبة من الانكليز و تدفع لقاء ذلك مبلغا من المال.

و لا يخشى الانكليز أحدا على شواطئهم، باستثناء المارايون لأنهم أسياد اليابسة و الجزر المحيطة بومباى، و يمدونهم بجزء كبير من

مؤنهم، و يقيم رئيسهم في بونا(Puna) ، و لا يملك قوى بحرية عظيمة أو على الاقل لا يخشاه الانكليز، لكن اكدوا لي أن بإمكانه جمع حوالى ۸۰۰۰۰ فارس مما يجعل قواته البرية خطيرة بالنسبة لجيرانه. و لا تزال هذه الامة الوثنية قوية في الهند حتى أن اورنجزاب(Aurengzeb) الاكبر اضطر إلى التنازل لها عن ربع رسم الدخول إلى العديد من مدن امبراطوريته لتتركه و شأنه و ليسود السلام، كما اضطر المغول إلى قبول وجود موظف من هذه الامة في جماركهم يسجّل ايرادات. إن زعيم هذه الأمة و كبار موظفيها هم من البراهمانيين(Bramans) الواسعي النفوذ شأنهم في ذلك شأن المسلمين، و يدعون ان النظام و العدالة يسودان بينهم و أن الزراعة و الصناعة مزدهرتان لذا يكثر السكان في بلادهم. و يتحينون الفرص للانقضاض على الاقاليم المجاورة التي يحكمها المسلمون، فيسرقونها و ينهبونها و يحرقونها كالبرابرة كما يتصرفون بكبرياء ازاء الانكليز أنفسهم. و في العام ۱۷۶۴، قادوا طرّادة من بومباي إلى مرفئهم، و توقّع الجميع ان يعلن الانكليز الحرب عليهم لكن بما أنهم أرسلوا الجيوش إلى البنغال و مدارس، و أعدوا العدة لمهاجمة الملاويين(Malvanes) في العام الثاني، و لأن حكومة بومباي، التي لن تبقى في مكانها طويلا، لم تشأ الاساءة إلى تجارتها الخاصة مع الماراتيون، سعت إلى حلّ هذا الاشكال سلميا.

و يختلف شكل حكم الانكليز في الهند عن حكم الهولنديين و الفرنسيين و البرتغاليين، اذ تخضع مستعمرات هذه الامم الثلاث الاخيرة في الهند لحكومة باتافيا(Batavia) ، و بونديشاري(Pondicherie) و غوا(Goa) ، فيما تتوزع السلطة عند الانكليز على أربعة مراكز رئيسة: ۱) بومباي على شواطيء مالابار ۲) كالكوتا في البنغال ۳) مدارس على شواطيء الكورمندل ۴) بنكولا في سومطره. و هي مراكز مستقلة كليا بعضها عن بعض و لا تتلقى اوامرها إلا من لندن مباشرة، لكنها ملزمة بمساعدة بعضها بعض عند الحاجة. عندما كنت في الهند، تم إرسال قوى من بومباي إلى البنغال على أثر مشاكل وقعت في هذه المنطقة الاخيرة من دون انتظار أوامر انكلترا. تتم محاكمة كافة المواطنين هنا أيّا كانت جنسيتهم و ديانتهم وفقا للقوانين الانكليزية من دون محامين أو قضاة يعرفون هذه القوانين.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۱۹

تتألف حكومة بومباي من شخص الحاكم أو الرئيس و اثنى عشر مستشارا، و جميعهم من التجار باستثناء الرائد الذي يملك الصوت الثالث في المجلس . أما الموظفون المدنيون الآخرون في الشركة فهم إما تجار كبار، و إما مساعدو تجار، و إما وسطاء و إما كتاب، و يتدرجون عادة بحسب اعمارهم من وظيفة كاتب إلى مركز مستشار، لكن إن عاد الرئيس إلى انكلترا و توفي هناك، يخلفه المستشار الذي يتمتع بصداقات واسعة في لندن- و يتم نقلهم أحيانا من منصب إلى آخر كما حصل مع السيد سبنسر، و هو رجل مستقيم و بارع كان مستشارا في بومباي عند وصولي و عيّن حاكما للبنغال قبيل رحيلي.

و ينبغي أن يقيم الحاكم على الجزيرة بشكل مستديم، و يضطلع المستشارون بمهامهم هنا، فمنهم أمين الصندوق، و مفتش المحال و ماسك الدفاتر الخ أو يعملون كمدراء للتجارة في مستعمرات أخرى تابعة لهذه الحكومة. و حين كنت في تلك البلاد، كان للحكومة مستشار في سورات(surat) و آخر في تليشري(Tellichery) و ثالث في انجنغو(Anjengo) ، و تملك الشركة في هذه الاماكن الثلاثة قصورا و حاميات عديدة، و كان لها في البصرة مستشارا. كما أرسلت واحدا إلى بلاد الملاويين في بداية العام ۱۷۶۵ (أي بعد رحيلي) بعد أن تغلبت عليهم، و سيطروا منذ رحيلي على بردش(Baradsh) و هي مدينة كبيرة إلى شمال سورات، لها حاكمها الخاص، و يملك فيها الهولنديون مركزا تجاريا مهما، فأقام فيها مستشارا في بومباي، كما يملك الانكليز على هذا الشاطيء العديد من المؤسسات الصغيرة، يرسلون اليها التجار و المساعدين و الوسطاء كما في تاتا(Tatta) و هي مدينة كبيرة يقيم فيها زعيم بلاد السند، و في لاربندر(Lar Bunder) و في شاه بندر، ثم في بوشهر في الخليج الفارسي، و في كمباي(Cambay) و في اونور(Onor) ، و في كلكوتا(Calecut) ، و في حصن فيكتوار. و يقع هذا الحصن الاخير على ساعد نهر كبير، يجري داخل البلاد و يصل إلى بونا مقر اقامة زعيم الماراتيين، و قد بادله الانكليز ببعض القرى الواقعة قبالة غيري(Gueri) و هي قلعة استردوها من القرصان الشهير انجريا(Angeria) . و أملوا بهذه الطريقة أن يقيموا تجارة مثمرة مع بلاد الماراثيين، لكن هذا المشروع لم ينجح على النحو المتوقع، إنما استفادوا من الماشية في هذا المكان حيث يكثر المسلمون في حين أن الوثنيين في محيط بومباي لا يذبحون الحيوانات و لا يبيعونها لتقتل. و يتم نقل الكتّاب و التجار و حتى المستشارين أحيانا

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۰

و ينالون بحسب أعمارهم مراكز مربحة اكثر، مما يتيح لهم الفرصة للتعرف على تجارة كافة الامكنة، و بالتالي يعود عليهم ذلك بالفائدة عندما يحتلون منصبا في مجلس بومباي يتطلب منهم مراقبة كافة الأعمال.

إن الأجور التي تدفعها الشركة لموظفيها في الهند قليلة للغاية، لكنها تسمح لهم بالتجارة في كافة المرافيء بدءا من دلغوا(Delegoa) قرب رأس الرجاء الصالح في الشرق و حتى الصين، و حتى جدة و البصرة في الشمال، و يجمعون بهذه الطريقة الثروات الضخمة التي ذاع صيتها في اوروبا. و يؤدي ذلك إلى تجاوزات، تعاني منها الشركة احيانا، لكنه تدبير جيد بشكل عام اذ إنه يدفع الموظفين إلى الجدّ، فيؤمنون للشركة فوائد اثناء سعيهم لتوسيع تجارتهم الخاصة ما كانت لتنالها لو لا ذلك، و يسمح للجميع بممارسة التجارة و ذلك بدءا من رئيس المؤسسة و حتى اصغر كاتب. تفرض السلطة التي تتمتع بها هذه الحكومة احترام علم بلادها، و تدفعها ثرواتها إلى نشر تجارتها أكثر فأكثر، ذكرت في الجزء الأول أن الأوروبيين لا يتجاوزون عادة مرفأ جدة و يبحرون مباشرة من الهند إلى السويس، لكن منذ ذاك اليوم حاول الانكليز ذلك. في البدء، حين أخذ الاوروبيون يترددون على مرفأ جدة كانت رسوم الدخول و غيرها المفروضة عليهم قليلة مقارنة بتلك المفروضة على التجار المسلمين، اذ إن السلطات سعت لتشجيع الاولين على زيارة مرافئها اعتقادا منها ان الاخيرين مضطرون للمرور فيها. و اتسع نفوذ الانكليز، و كثرت رحلاتهم نحو الخليج العربي في حين أن عدد مراكب التجار المسلمين تراجع تدريجيا مما أثر سلبا على جماركِ جدة.

و لم يكن بالامكان مطالبة الاوروبيين بدفع رسوم اكثر من تلك المحددة في الاتفاقات، لكن فرض على التجار الذين يشترون منهم نسبة مئوية، فتمكنت الحكومة من جمع مبالغ اكبر مما لو وصلت البضائع على متن سفن التجار المسلمين، و استاء الانكليز من هذا الوضع اذ اضطروا إلى بيع بضائعهم بأسعار أرخص، و قد اعتاد هؤلاء في الهند على تحديد ما يعطونه للحكام و للمغول حسب ما يشاؤون، لذا لم يحتملوا تصرف مسؤولي الجماركِ في جدة، و كان بامكانهم القضاء على تجارة هذه المدينة لو ارسلوا بعض السفن الحربية الصغيرة و اوقفوا كافة السفن المتوجهة من السويس إلى الهند، و لكنهم يخاطرون بفقدان تجارتهم في هذه المناطق، و بما أن الباشا و الشريف التزما بهذه المعاهدات ظاهريا، قد يعتبر السلطان انه تعرّض للاهانة، و يطرد الانكليز كلهم من الشرق. و هدد الانكليز بتجاهل مرفأ جدة و التوجه إلى السويس مباشرة انتقاما من هذه الاجراءات، لكن احدا لم يصدق أنهم يتجرأون على الابحار في طريق يعتبرها كافة البحارة الاخطر في العالم، و لعلهم هم نفسهم لا يودون ذلك لأنهم لا يملكون خارطة لهذا الجزء من الخليج. و اخيرا، فكر السيد هولفرد، و هو بحار ماهر تعرض لمشاكل عدة في جماركِ جدة، جديا بتنفيذ هذه التهديدات،

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۱

فحصل على نسخة عن الخارطة التي وضعتها للخليج العربي (وصف شبه الجزيرة اللوحةXX) و التي سلمتها لصديق في بومباي. و لا يمكن أن يتوقع السيد هولفرد الكثير من المنفعة إلّا من خارطة بحرية دقيقة، لأن الاوروبيين يبحرون في عرض البحر في حين أن المركب التركي الذي قمت بالرحلة على متنه حاذى الشواطيء لذا لم أضع سوى تصميما لهذه الاخيرة، لكن الانكليز وجدوها ملائمة لهم و لم يكن ينقصهم سوى تأكيد حاكم القاهرة انهم يستطيعون نقل بضائعهم بأمان و انزالها في المدينة. في الامبراطورية العثمانية، حيث يتم استئجار الاقاليم، يسعى كل حاكم وراء مصلحته الخاصة من دون أن يأبه للباشاوات الآخرين، و قلما يترك فرصة كهذه تفوته. و لا تستفيد حكومة القاهرة من الأقمشة الرائعة التي تنتقل من البنغال إلى جدة و منها برا بواسطة القافلة الكبيرة إلى مصر، و لم يكن على بك صاحب السلطة المطلقة حينذاك ينتظر من الانكليز دفع رسوم كبيرة و حسب بل حمل هدايا قيمة له، لذا لم يهتم بردة فعل باشا جدة و شريف مكة و حتى السلطان، فوعد الانكليز بتنفيذ ما طلبوه.

عندما، ارسل تجار البنغال إلى السويس، في العام ۱۷۷۲، مركبا لم يكمل الرحلة بل عاد إلى البلاد إثر تعرضه لأضرار في خليج البنغال. و في العام ۱۷۷۳، قام السيد هولفرد بهذه الرحلة و نجح فأصبح بالتالي أول انكليزي يقود مركبا إلى السويس. و في السنة التالية، وصلت مراكب أخرى، و يقال إن خمسة مراكب خاصة، في العام ۱۷۷۶، قامت بالرحلة مباشرة من الهند إلى السويس ، و قد استخدم هذا الطريق اكثر من مرة كطريق للبريد، لأن حكومة الهند أخذت ترسل بريدها في حالات الضرورة من السويس إلى انكلترا فتتلقى الرد بوقت أقصر مما لو أرسلت رسائلها إلى أوروبا

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۲

عبر الطريق المعتادة. أى عبر رأس الرجاء الصالح. و تتوجه سفن الشركة، القادمة من اوروبا، إلى أحد المراكز الاساسية، فتلك المخصصة لساحل مالابار تتجه نحو بومباى مباشرة، و تستغرق هذه الرحلة خمسة أشهر تقريبا حين ينطلقون فى فصل مناسب، و قد قام أحد الربابنة بهذه الرحلة خلال ثلاث أشهر و ثمانية عشر يوما، و هى أقصر رحلة سجلت. و قلة هى السفن التى تعود من بومباى إلى انكلترا، فمنها من يقوم برحلة إلى فوكه فى الخليج الفارسى و البنغال، و مدارس، و بنكولا و حتى إلى الصين، و يكسب ربابنة هذه السفن الكثير من المال اثناء هذه الرحلات التى لا يتمتعون بحرية القيام بها إنما يخضعون للرئيس الذى يرسل من يشاء مساعدته و تفضيله، و يأتى سنويا إلى هذه البلاد أربع سفن من لندن، و خلال الحرب الأخيرة قلّ عددها، لكن خلال عام ۱۷۶۴، توقع وصول ست سفن. كانت كل سفينة تحمل فى ما مضى ۴۰۰۰۰ درهم نقدا إلى بومباى فضلا عن الاموال التى ترسلها انكلترا إلى مراكزها الاخرى، لكن أكدوا لى أن الاموال لم تعد ضرورية منذ سيطرت الشركة على البنغال و أنها قادرة أيضا على ارسال الكثير من المال إلى الصين.

و يبقى القماش أهم بضاعة يحملها الانكليز من بومباى إلى بلاد فارس و البصرة، أما البضائع الاخرى فهى دودة الحرير، و العاج، و الحديد، و الصلب، و القصدير، و النحاس، و الحديد الأبيض، و المراسى، و المدافع و أسلحة أخرى، و يحمل أصحاب السفن بضائع أخرى بغية بيعها لحسابهم الخاص. و تباع البضائع الاوروبية فى المزاد العلنى ما إن تصل السفن، و بالتالى، و فى مواسم معينة يعرفها كافة التجار الهنود، يتم ارسال ما لا يباع هنا إلى المستعمرات الصغيرة. و يتم ارسال توابل من سواحل مالابار، و ملح النشادر من السند، و أقمشة مختلفة من سورات إلى انكلترا عبر بومباى، كما يتم ارسال عدد كبير من هذه الاقمشة من لندن إلى غينيا، و ينقل أصحاب المراكب لحسابهم الخاص العطور و الصمغ و العقاقير المختلفة من الهند و الخليج العربى و الفارسى.

أشرت آنفا إلى أن الانكليز يملكون كنيسة كبيرة و جميلة فى بومباى، يشرف عليها كاهن لكنه توفى. و بالتالى لم يعد هناك رجل دين انكليزى واحد على طول الساحل بانتظار وصول احدهم من اوروبا، و لا تضم السفن الانكليزية التى تتوجه إلى الهند كاهنا ضمن) بالرغم

من أن عدد الانكليز المقيمين فى هذه المدن مرتفع. و حين يود المقيمون فى المدينتين الاخيرتين تعميد ولد من اولادهم، يستقدمون كاهنا دانماركيا، لكن عدد المتزوجين بين الانكليز الموجودين فى الهند قليل للغاية و بالتالى قلما نسمع بعمادة طفل فى بومباى. إن نسبة الكاثوليك المقيمين فى الهند اكبر من نسبة البروتستانت، و لا ينقصهم كهنة، و علمت أن البابا أرسل منذ سنوات مطرانا إلى بومباى لكن الحاكم أعلمه عند وصوله أن لا حاجة للبلاد برجل دين يحمل

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۳

هذا اللقب الرفيع. و نجد هنا اربعة رهبان كرمليين، يرأسهم عدد من الكهنة درسوا فى غوا(Go) أو فى بومباى، و قد أقام الأكبر سنا بين الرهبان فى هذه البلاد لسنوات، ثم عاد إلى أوروبا، ليعود من جديد إلى بومباى، و هو أمر لا يلام عليه لأنه يعيش هنا بحرية أكبر وراحة أكثر، فضلا عن أنه يتمتع هنا باحترام أكثر مما لو بقى فى ديره فى أوروبا. و يخدم الثانى فى كنيسة (سيدة الرجاء) سينيورا اسبرانزا، و هو صرح رائع خارج المدينة لم يكتمل بناؤه، و الثالث فى كنيسة سان ميشال فى محيم(Mahim) ، أما الرابع ففى كنيسة سلفاسيونى(Salvatione) . و يملك الكاثوليك ايضا كنيسة صغيرة فى المدينة و أخرى فى مازاغون، و كان للآباء اليسوعيين ديرا جميلا قرب قرية باريل(Barell) فى وسط الجزيرة، لكنّه تحوّل منذ سنوات إلى منزل ريفى للحاكم، و أصبحت الكنيسة غرفة طعام و رقص رائعة لا مثيل لها فى الهند كلها.

يمنح الانكليز رعاياهم حرية الاعتقاد، لكنهم لا يسمحون للرهبان بهداية الناس كما يحلو لهم، فحين يود شخص من دين آخر أن يصبح كاثوليكيا، يضطر الرهبان إلى إبلاغ الحكومة مسبقا، فتدرس الاسباب التى دعت المعنى إلى اتباع الدين و إن وجدتها مقنعة سمحت بتنصيره، لكن يبدو أن هذا نادرا ما يحصل لأن الراهب الكرملى فى محيم اشتكى من أنه لم يحصل على إذن تنصير امرأة و ثنية، تعيش مع كاثوليكى كزوجة له و قد انجبت له أطفالا عدة. و يحضر عبيد الانكليز و البرتغاليين قدّاس الكنيسة الكاثوليكية، و حين يصل افريقيون جدد إلى البلاد يعتادون لبس قلادة تحمل صورة احد القديسين، و اشتريت هنا فتى اسود، فى السادسة عشرة من العمر، ولد من أبوين افريقيين اتبعا الديانة الكاثوليكية، و علّمته الديانة المسيحية على يد كاهن كاثوليكى. و أردت اصطحابه معى إلى الدانماركى عبر الصين، لكن حين قررت العودة عبر البصرة و تركيا، فضلّت اهداءه لأحدهم فى بومباى خوفا من أن يأخذه المسلمون منى، و قد أتعرض لمشاكل عدة بسببه لأن العادة لم تدرج فى تركيا أن يحصل الاروبيون على عبيد من افريقيا، و لعلهم اتهمونى بأنى آخذ إلى اوروبا فتى من أبوين مسلمين لأجعله مسيحيا.

و يسمى سكان هذه البلاد القدامى، و الذين نصادف الكثيرين منهم فى بومباى، هندوس أو هنود، و قد اعتدنا نحن الاوربيين على تسميتهم كفرة أو وثنيين، لذا نكوّن فكرة خاطئة عنهم. لكن يتبين للذين يتعرفون اليهم عن كثب أنهم لطفاء، و فاضلون و جادّون و يتجنبون الاساءة إلى غيرهم أكثر من أىّ أمة أخرى، و لكنهم من جهة أخرى الامة الاكثر انطواء على نفسها خوفا من رجال الدين عندهم فيعيشون منفصلين عن الأمم الأخرى و لا يتواصلون مع بعضهم البعض. و بالرغم من أن اليهود و الشيعة يعتبرون اتباع الديانات الاخرى غير طاهرين و لا يأكلون معهم، يأكل اليهودى مع اليهودى و الشيعى مع الشيعى من أىّ بلد كان، فى حين أن صاحب النسب الرفيع عند الهندوس

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۴

كالبراهمى مثلا الذى يخدم أحد البنيان الاثرياء لا يتجرأ على الأكل لأنه أعظم منه نسبا. استنادا إلى المعلومات التى جمعتها و الافكار التى كونتها عن الهندوس فى الشمال، ينقسم هؤلاء إلى أربع قبائل رئيسة:

۱- البراهمانيون أو رجال الدين ۲) الرسبوطيون أو الجنود ۳) البنيان أو التجار ۴) الفلاحون.

و تنقسم كل قبيلة من هذه القبائل أو كل فئة من هذه الفئات إلى طبقات عدة أدنى، و لا يأكل أعضاء الطبقة العليا مع الطبقة الادنى منهم. و أكدوا لى أن لكل طبقة، و هى تتعدى الثمانين، شعائرها الدينية الخاصة، و لا أدرى إن كانوا يتبعون الديانة نفسها من حيث الجوهر، و ينبغى اعتبارهم بالتالى مجموعات مختلفة، لكل منها رئيسها الخاص، و كهنتها المعتمدين، و الهها الثانوى الذى يكرّم فى مناسبات معينة عبر شعائر خاصة.

و يسود الاعتقاد فى أوروبا، أنّ الابن فى الهند يتبع خطى ابيه و يعمل فى المهنة نفسها، لكن هذا ليس ضروريا لأن البرهمانيين و هم رجال دين يمكن أن يكونوا حكّاما كما رأينا آنفا عند الماراتيين. و يحتل البراهمانيون عند الأمراء الوثنيين الآخرين من الرسبوطيين وظائف مدنية، و يعملون عند المسلمين كموظفى جمارك أو كمزارعين. و عرفت تجارا من البراهمانيين و حرفيين من البنيان أو الرسبوطيين، إنما يحملون اسم قبيلتهم التى ولدوا فيها، على ما يبدو كى لا ينسوا مركز اجدادهم، و كى تتمكن ذريتهم من الانضمام اليهم حين يحلو لها، أو كى يكرموا بعض القديسين من اسلافهم.

و لا ينتقل أىّ هندى من جماعة إلى أخرى أعلى منها شأنا، و قد سمعت بأمير علمانى أضحى من البراهمانيين و أصبح بالتالى أنبل لكن هذه القضية ترافقت مع الكثير من الظروف و الكلفة فلا أظنّ أن أحدهم سيتبع مثله. يحكى أن شخصا من طبقة الجنود فى جنوب الهند أخذ يخضع تدريجيا جيرانه فأمسى سيد بلاد شاسعة و غنية للغاية، ثم أراد أن يصبح من البراهمانيين. اعترض الكهنة على ذلك و اعتبروا الأمر مستحيلا لأنهم يدّعون تحدرهم من الالهة و أن المولود كرجل عادى لا يمكن أن يولد من جديد، لكن تمّ له أخيرا، ما أراد شرط أن يبنى معبدا ضخما و أن يقدم له بقرة من ذهب، عظيمة الحجم حتى أنه يمكن لرجل ما أن يدخلها من دبرها و يخرج منها من الفم، فقام الامير ببناء المعبد و قدّم للبراهمانيين البقرة الذهبية (و معها ايرادات طائلة تكفى لعدد كبير من الكهنة على الأرجح) و مرّ شخصيا أكثر من مرة بالبقرة حسب الطريقة المذكورة آنفا، فاعتبر بعد ذلك من البراهمانيين. و قد ينظر العالم بأسره إلى هذا الامر على أنه مهين حتى لرجل من العامة، لكن فى الهند حيث تقدّس البقرة الحيّة، لا بدّ أن الكثيرين تمنّوا أن يمروا عبر بقرة كهذه (لأن الامر يستحيل مع بقرة حية) و لم ينالوا هذا الشرف. و لا بد أن البراهمانيين، و بهذه الشعائر، أى بإدخال الامير من دبر البقرة يذكرونه

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۵

بأصله الوضيع و بإخراجه من الفم يعلمونه أنّ الاله اعتبره من سلالته أى براهمانى.

و إذ يصعب أن ينتقل الشخص من طبقة الجنود إلى طبقة الكهنة، و يصعب أن يتدرج من طبقة دنيا إلى طبقة أرفع، يستحيل أن ينضم

مسيحي أو مسلم أو أي إنسان من أية ديانة أخرى إلى إحدى الطبقات الهندية. أي إن الهنود لا يستقبلون مهتدين جدد. و هذا هو برأيي السبب الرئيس الذي جعل الهنود في الوضع المزري الذي هم عليه اليوم، لأنهم لو رضوا بجعل الافغان و التتار الذين سيطروا أولا- على بلادهم من البراهمانيين أو الرسبوطيين، لاعتق هؤلاء مع الوقت ديانة أهل البلاد كفاتحي الصين، و لأصبحت الهند اليوم مملكة مزدهرة، لكن بهذه الطريقة بقوا رعايا هادئين و مكافحين تحت سيطرة أسيادهم الأغراب كما لو أنهم يخضعون لزعمائهم، و بقوا فخورين بأصلهم الهندي.

و لا- يلائم الحكّام الأجانب ألّا يتمكنوا من أن يتجنسوا في بلاد يحكمونها استبداديا، و ألّا يرضى السكان بالأكل معهم حتى أنهم يعتبرونهم غير طاهرين، لكنهم يحتملون ذلك لأن الوثنيين يملؤون خزاناتهم بالمال. و يتقبل الفاتحون المسلمون كأبناء دينهم أولئك الذين يصرحون علنا باعتناقه، لكنهم لا يحاولون هداية الكفّار بالاقناع أو بالاكراه و ذلك لأن الهنود الذين يعتنقون الدين الإسلامي يكفّون عن العمل الجاد و يصبحون مجرد جنود، في حين أن الزعماء المسلمين يستقدمون الافغان و التتار لإبقاء هذه البلاد الغنية تحت سيطرتهم و لتوسيع نفوذهم. و ما لم يهدمه المسلمون، هدمه لاحقا الاوروبيون الذين ارادوا جمع الثروات على حساب الهنود المادحين. إنما نجد في البلاد امراء هنود واسعي النفوذ. و تخلّص الحكّام المسلمون في الاقاليم الكبيرة تدريجيا من سلطة زعيمهم المشترك المغولي، إذ إن سلطة هذا الأخير ضعفت للغاية حتى عزله ملك بلاد فارس، و أخذ ملك الأفغان أي أبناء دينهم و من بعدهما التجار الانكليز في الهند. و لا يخضع المغولي وحده لسلطة الانكليز بل بعض الحكّام الكبار أيضا مما جعل حكم المسلمين ضعيفا للغاية في الهند. و اذا ما امتدت سلطة الانكليز حتى تلك البلاد النائية، و هذا ما قد يحصل في وقت أقرب مما نتوقعه اليوم، قد يستعيد الهنود قوتهم و يعيدون ضم الأقاليم التي كانت مكتظة بالسكان، و التي خربتها الامم الغربية إلى دولتهم المزدهرة.

يعتبر الهنود الامة الأكثر تسامحا في العالم، ففي أيّ بلد أوروبي يسمح لأناس من ديانة أخرى أن يدعوا علنا إلى ديانة تخالف تلك المسيطرة في البلاد؟ يبدون في الهند و كأنهم لا يكترثون للأمر، كما أن طريقة حكمهم تختلف عن تلك المعتمدة لدينا أو لدى الامم الاخرى. و تحرص كل طبقة على حسن تصرف أعضائها. و بالتالي نادرا ما يضطر القاضي إلى معاقبة تجاوز ما. حين يخالف أحدهم القوانين، يفرض عليه القيام بحج أو دفع غرامة نقدية أو أي عقاب آخر، و حين

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۶

يرتكب جريمة كبرى، ما من وسيلة لتأديبه سوى إقصائه عن طبقته أو قبيلته، و عندها لا تستقبله هو و ذريته أية طبقة أخرى باستثناء أدناها، فيعيش دوما في الفقر و المهانة. و يعتبر وجود المسلمين و المسيحيين بالنسبة لهؤلاء الهنود نعمة إذ يبحثون عن ملجأ لهم بينهم، و أكدّ لي أوروبيون أمضوا سنوات عدة على سواحل الكورومندل(Coromandel) أن الذين يعمل المبشرون الاوروبيون على هدايتهم إلى الدين في الهند هم اناس من هذا النوع أو من أحقر الطبقات أو القبائل، يعتنق هؤلاء المسيحية أو الإسلام ليتمكنوا من العيش بكرامة في المجتمع إن هم اجتهدوا في عملهم. و في بلاد الاتراك، يدفع الرهبان الاوروبيون كاهنا ما أو حتى اسقفا من طائفة مسيحية أخرى للاعتراف بالبابا كرئيس للكنيسة لقاء مبلغ سنوي معين، لكنهم يكسبون الكثير في المقابل لأن العديدين يتبعون مثل رجل ذي نفوذ كهذا. يقال إنهم لم يتمكنوا في الهند من هداية أي براهماني بالرغم من جهلهم و فقرهم المدقع، و يقال إن اليسوعيين على شواطىء الكورومندل استمالوا يوما فتى يافعا من البراهمانيين، و قاموا بتربيته على الدين المسيحي الكاثوليكي، و لم يكتشفوا له عن أصله إلا حين تأكدوا من أنه مسيحي متديّن إلى حدّ أنهم قرروا الاستعانة به كمبشر. و أعطوه البراهين القاطعة بأنه من سلالة البراهمانيين كي يمكنوه من التقرب من مواطنيه، لكن ما إن علم بذلك حتى توجه، حسب ما يروى، إلى أبناء طبقته، و تلقى عقابا صارما أو على الاصح عانى الامرين حتى الشهادة ليتطهر من المسيحية بحسب رأيه و ليتقبلوه كبراهماني.

يصعب علينا نحن الاوروبيين أن نعرف ديانة الهنود و مذاهبهم المختلفة لأن كتب الشريعة القديمة لديهم و التي يعتبرونها إلهية كتبت بلغة قلة هم الذين يفهمونها بين علماء البراهمانيين و لأن الهنود اليوم يتكلمون لغات مختلفة و تتنوع طرق كتاباتهم. يمكننا رؤية ذلك على اللوحةII ، من كتابات مختلفة أخذتها عن بنيان لا تبعد أمكنة ولادتهم عن بعضها كثيرا. و لم تكتب الحروف بشكل جيد للغاية، لكني أعتقد أن محبي اللغات سيقدرونها بانتظار الحصول على نسخ أفضل، و لا أظن أنّ أي مسافر أوروبي يعرفها.

أ. حروف الأبجدية التي يستخدمها البنيان في مقاطعة كوجورات(Guzurat) و قد أخذتها عن تاجر هندي في المخا؛ ب، حروف ابجدية هنود ملتي بنجاب(Multuni Ben Penjab) و كتبها بنياني في خرج، و سلمني الحروف الابجدية «ج» بنياني من دفولي(Devuli) في أبي شهر. إن الرموز التي يستعملها الهنود كأرقام أقرب إلى الأرقام التي نستخدمها عن تلك التي يستعملها العرب.

و من المؤسف بالنسبة لمسافر اوروبي يودّ الاستعلام عن ديانة الهنود، أن العلماء البراهمانيين لا يهتمون ابدا باللغات الأجنبية. و لا أظن أنه من الصعب، على من يستطيع التحدث معهم، أن يكسب صداقة رجل منهم، و أن يحصل بالتالي على معلومات قيمة لأنهم لا يحيطون مبادىء

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۸

دينهم بالسرية كالدروز و النصيريين و الزيديين الذين يعيشون تحت سطوة الاتراك فيدّعون انتماءهم للإسلام. و لم أتمكن من التفاهم مع علماء الهنود سوى بواسطة مترجم لذا لم أجمع الكثير من المعلومات حولهم، لكن نجد بين التجار الهنود من يتكلم البرتغالية و الانكليزية، و منهم بعض الاشخاص المطلعين على الدين و قد أكّدوا لي أن المثقفين و الحكماء بينهم لا يعبدون كخالق لكل شيء، سوى إله قدير، حاضر و غير مرئي، لكن البراهمانيين اخترعوا آلهة ثانوية أعطوها أشكالا معينة و وظائف محددة لأن الشعب البسيط عاجز عن فهم الأفكار المجردة . و يطلقون على آلهتهم الثلاثة الرئيسة الأسماء التالية: براهما(Brama) . فيشنو(Wistnu) و مادو(Madeo) ، و يعلمون الشعب أنّ براهما هو الخالق الأعظم الذي أوكل لفيشنو مهمة العناية بكافة المخلوقات الحيّة، و لمادو مهمة العناية بأرواح الموتى . اختلق البراهمانيون على مدى السنين روايات مقدّسة، و كلفوا أتباعهم بشعائر كثيرة حتى أن معظمهم نسي ديانته القديمة. و يعتني البنيان الذي أكدوا لي أنهم لا يعبدون سوى الاله القادر، الأبدي و غير المنظور، بأبقارهم إلى حدّ كبير و كأنها الهة، و حين ابديت ملاحظات حول هذا الموضوع، أكدّوا لي أنهم يمجدون الخالق عبر مخلوقاته، و أن على الانسان أن يشكر الرب الذي أهداه هذا الحيوان الوديع الذي يحرث حقله و يؤمن له الحليب.

عندما رأيت هذه العناية الفائقة التي يوليها البنيان للأبقار و سعيهم الدائم لحصول على تماثيل مختلفة، تساءلت إذا كان بين المصريين القدامى من اتبع إحدى هذه المذاهب الهندية، و حتى بين الاسرائيليين الذين أرادوا صنع عجل من ذهب قرب طور سيناء، لكن دراسة كهذه ليست من اختصاصي اذ قد أخطيء.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۹

يعتقد الهنود أن نفس الانسان تنتقل من جسد إلى آخر حتى تتطهر كليا، و أعلمني بعض البنيان أنهم يعتقدون أن روح الانسان قد تنتقل إلى جسد حيوان ما. لكن هذا ليس بالسبب الذي يمنع البنيان و البراهمانيين من تناول ما ينبض بالحياة لأن الرسبوطيين (و هم من الوثنيين أيضا) يأكلون لحم الخراف، و لا يمنع الامراء الهنود رعاياهم من مسيحيين و مسلمين من ذبح الأبقار. و تحدثت مع قبطان سفينة أوروبية و تاجر زنجًا في السجن عن الماراتيين، فأعلنا أنهما لا يستطيعان العيش من دون لحم فقدموا لهما يوميا لحم الخراف و الدجاج . و لو اعتقد الهنود بأن أرواح أسلافهم تعيش في هذه الحيوانات لما سمحوا لرعاياهم المسيحيين و المسلمين بذبح أيّ من هذه الحيوانات لا سيّما الأبقار و لما قدّم البراهمانيون لسجنائهم لحم الخراف و الدجاج.

و لعل الهنود لا يأكلون لحم الأبقار لأسباب صحية، فمسلمو مصر و سوريا و حتى القسطنطينية، حيث الحرارة ليست مرتفعة كما في الهند، يعتبرون أن لحم البقر غير صحي لا سيّما في الفصول الحارة لذا قلما يأكلون منها. و لعل المشرّعون اليهود، ظنّوا أنه ضروري للصحة تحريم اللحم لأن الشعب يتبع المعتقدات الدينية أكثر من نصائح الطبيب، كما اعتقد أن القوانين الدينية الشرقية أمرت بتنظيف الجسد مرارا لأسباب صحية أيضا.

إن البراهمانيين و البنيان متعاطفون جدا مع كافة الحيوانات، و قد اعتاد تاجر ثري من المخا أن يحمل كل صباح الشعير حتى سطح منزله لإطعام الحمام و الطيور التي تحط عليه. و في بومباي، رأيت خادم أحد البنيان يطعم الطيور الكواسر خارج المدينة، و بدت هذه الطيور و كأنها تعرفة اذ تحلقت حوله ما إن رأته، أما رؤيتها و هي تلتقط كسرة الخبز أثناء طيرانها فمتعة للعين. و قد أكدوا لي أن الهنود يطعمون النمل، و قال لي التجار أنه يضع في متجره طعاما للفئران و الجرذان كي لا تقترب من بضائعه، و يدعى البعض أنهم لا يرمون الماء أرضا خوفا من أن يقتلوا بعض الحشرات.

و يستغلّ بعض اتباع الديانات الأخرى حبّ الهنود للحيوانات، فقد اعتاد جندى أوروبى فى بومباى أن يجرّ كلبا بحبل فى الشارع التجارى و أن يهدده و يضربه، فيتقدم منه أحد الوثنيين و يقدم له شرابا ليمنعه من إساءة معاملة مخلوق برىء . و يبيع صياد و الأسماك المسلمون فى المخا سلاحف للبنيان كى يقوم هؤلاء بعمل صالح بإطلاق سراحها.

يضع البنيان موتاهم على كومة حطب و يحرقونهم عند المدّ، حتى يحمل اول جزر رمادهم معه،

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۳۰

و هذا ما شاهدته شخصيا و أكثر من مرة . و يتم دفن أولادهم الذين لم يتعد عمرهم ثمانية عشر شهرا، و يقال إنهم يشقون بطن المرأة الحامل و ينتزعون الجنين و يدفنونه فى حين أنهم يحرقون الأم.

و قلما يسمح فى بومباى و فى مدن أخرى خاضعة لحكم المسلمين بحرق النساء و هنّ أحياء مع أزواجهن المتوفين، حتى أن هذا الأمر لا يسمح به غالبا فى مناطق حكم الهنود. روى لى تاجر من البراهمانيين فى مسقط أن عائلته نالت شرفا عاليا يفوق العائلات الاخرى لأنه سمح لها بحرق جدته مع زوجها المتوفى، و لأن هذا الشرف لا يمنح إلا للتى تثبت للقاضى بأدلة قاطعة عفتها و حبها لزوجها.

يقسم البراهمانيون الوقت منذ تكوين العالم و حتى نهايته إلى أربع فترات، تمتد كل منها كما يلى:

۱) وقت ساتا ياغ(Sata Jug) ، و يمتد على ۱۷۲۸۰۰۰ عام

۲) وقت تريتا ياغ(Treta Jug) ، و يمتد على ۱۲۹۶۰۰۰ عام

۳) وقت دوبور ياغ(Doapor Jug) ، و يمتد على ۸۶۴۰۰۰ عام

۴) وقت كالا ياغ(Calla Yug) ، و يمتد على ۴۳۲۰۰۰ عام

و قد مرّ من الفترة الاخيرة ۴۸۶۵ سنة و ذلك فى نهاية العام ۱۷۶۴ للميلاد، و بالتالى، و وفقا لحسابات البراهمانيين، بقى للعالم ۴۲۷۱۳۵ عام.

و نجد ما حصل فى الفترات الاربع فى الكتب التالية:

۱) كتاب راغر ويد(Ruger Wed) حول وقت ساتا ياغ.

۲) كتاب سدسفور ويد(Sudsfur Wed) حول وقت تريتا ياغ.

۳) كتاب شام ويد(Scham Wed) حول وقت دوبور ياغ.

۴) كتاب اتوروا(Attorwa) حول وقت كالا ياغ .

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۳۱

يحسب الهنود الزمن أيضا وفقا لنظام آخر، فيعتبرون العام ۱۷۶۴ للميلاد هو العام ۱۶۸۶ بعد شاه ليوان(Schach Liw un) (الذى يسميه البعض سلاوان(Sallawan) و سنكه راديه(Radsia) (Sancka) ملك منجيياتان(Mundsijipatan) . و يبدو أن تغييرات عدة طرأت على النظام السياسى و الكهنى فى عهده. تدوم هذه السنة ۳۶۵ يوما و ست ساعات و اثنتى عشرة دقيقة، أما الأشهر فهى:

جيتر ۳۱ يوما(Scheiter) .

بيشاك ۳۱ يوما(Weis ck) .

دياد ۳۱ يوما(Dfiad) .

آشار ۳۱ يوما(Afar) .

أسفو ۳۰ يوما(Asfo) .

كارتك ۲۹ يوما(Kartig) .

موكشر ۳۰ يوما(Mogfir) .

بوش ۲۹ يوما(Poos) .

شرابن ۳۱ يوما(Srauren) .

بدروا ۳۱ يوما(Badrowa) .

ماك ۳۰ يوما(Maag) .

بالكن ۳۰ يوما(Paggen) .

استنادا إلى الحساب المدنى، يعتبر هنود ساحل مالابار نهاية العام ۱۷۶۴ للميلاد، العام ۱۸۲۱ بعد راجا وير و يكرام ماندى(Radsja Wir Wilkkram Mandsji) ملك يوج(Udsje) فى مالاوا(Mallawa) و الد الشاه ليوان الذى ذكرته آنفا. و هى سنوات قمرية، تبدأ أشهرها عند التقاء الشمس و القمر، و يتم أحيانا زيادة شهر بأكمله، كى تقع أيام الأعياد فى الموعد دائما، و تسمّى هذه الأشهر اديك مينو(Adik Meino) أى الشهر المضاف، لكنه لا يعتبر مقدسا أكثر من أىّ شهر آخر فى السنة العادية.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۳۲

تبدأ السنة المدينة عند هنود قوجارات و السند بالشهر الذى وصل فيه بطلهم العظيم رامشى، الذى يقيمون له احتفالات عدة، إلى مقاطعاتهم، لذا يحتفل برأس السنة فى قوجارات و فى بومباى فى شهر كارتك فى حين أن سكان السند يحتفلون به فى شهر آشار. و تلى الأشهر المدنية بعضها البعض بترتيب الأشهر الفلكية نفسها. أما بالنسبة لأيام الأعياد عند الهنود، فما عرفته يطلعنا على كبار قديسيهم و أبطالهم و يعطينا فكرة عن ديانتهم اليوم.

و تدوم حفلة الدوالى(DWali) أو رأس السنة ثلاثة أيام، و تمتد من اليومين الأخيرين للسنة الماضية و اليوم الأول للسنة الجديدة، لكن بما أن السنة لا تبدأ فى اليوم نفسه فى كافة الأقاليم، يحتفل بهذا العيد فى أوقات مختلفة. و يطلق الهنود الاسهم النارية و المفرقعات فى أعيادهم كما يضيئون بيوتهم بالقناديل.

خطف راوان(RaWan) ، و هو ملك جبار فى سيلان، يوصف بأنه ذو عشرة رؤوس و بأنه غول كجدته، زوجة راجا رامشى(Radsja Ramcshi) ، ففقد هذا الاخير سيلان و قضى على راوان وجدته. و احتفاء بهذه المناسبة، يحتفل بعيد هولى(HUlli) فى ۱۲ و ۱۳ و ۱۴ و ۱۵ من شهر ماك. و عندما نرى الهنود، المعروفين بجديتهم، خلال هذه الأيام، نحكم عليهم كما حكم التركى على الأوروبيين أثناء الكرنفال و اعتبرهم مجانين اذ يصبغون ثيابهم و وجوههم و أيديهم باللونين الأحمر و الأصفر كما كانت ثياب رامشى و جماعته مخضّبة بالدماء بعد معركة سيلان. و يركضون فى الشوارع بأيديهم الملوّنة و حقن مليئة بالألوان يرشقون بها أبناء دينهم و لا يسمحها أحد منهم لأن آخر سيعود و يلوّنه بها. و قد منع القاضى المسلم هنود سورات من الاحتفال بهذه المناسبة علنا لكنه عاد و سمح بذلك لقاء مبلغ من المال. و حين كنت فى بومباى، تمّ الاحتفال بهذه المناسبة مع كافة الشعائر.

و يعتبر اليوم الاول من شهر جيتر يوم عيد لكنى لا أعرف مناسبة ذلك، و يصادف فى التاسع منه يوم عيد فى ذكرى قصة ما لبطلهم رامشى. و يصومون فى ۱۴ و يزاكه فى ذكرى نشيغا و انتر(Neschinga Wanter) . و فى الخامس من شهر شرابن، ترمى ثمرة جوز الهند ذهبية فى الماء و يترافق ذلك مع شعائر عدة، و هو يعتبر يوم عيد ايضا. و يروى الهنود حكاية حول هذا اليوم و هى أنّ براهمانى تنبأ لراوان، الذى ذكرته آنفا، أن فتاة ما ستهلكه، فشدد عليها الحراسة منذ ذاك الحين. و عندما بلغت الستة أشهر، هطلت أمطار غزيرة فغرق من حولها كلهم، لكن المياه حملت الفتاة الموضوعة فى صندوق من جزيرة سيلان حتى اليابسة قرب شاطىء شخص يدعى راجا(Radja) الذى سعد برؤيتها فأخذ يرمى سنويا جوزة هند فى البحر فى الموعد نفسه. و تزوجت هذه الفتاة لاحقا رامشى الذى قضى على راوان. و لا يقتصر هذا العيد، الذى يقام تخليدا لبقاء

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۳۳

هذه الفتاة العجائبى على قيد الحياة، على هنود سواحل مالابار، و يحتفلون به دائما عند نهاية موسم الامطار. و يبقى البحر ثائرا هائجا فى الأشهر التى تسبق هذا الاحتفال، فلا يتجرأ أى مركب هندى على الخروج من المرفأ، لكن ما أن يضحّى بجوزة الهند، إذا ما صحّ التعبير، يبحر الوثنيون من دون خوف. و يصادف هذا الاحتفال فى السند قوجارات فى الشهر التالى، و لعل الامر يعود إلى أن الأمطار تتوقف عن الهطول فى وقت لاحق.

فى ۱۱ شرابن، يحتفل بولادة كيش ناوانتر(Kisch NaWanter) ، و يدّعون أن المعجزة التالية حصلت فى ذاك اليوم: تنبأ براهمانى لملك عظيم يدعى كنس(Kauns) أن أخته ياسادا(Jassada) المتزوجة من المدعو نودادجى(Naudadsji) ، ستضع

فتى يغدو فى ما بعد رجلا عظيما و يقتله، فأمر كنس بقتل أولادها الستة. و حين حملت من جديد، قيدها بجدار منزلها.

و أنجبت طفلا اطلقت عليه اسم كيتس ناوانتر أى كيتس الجبار. و اتّسم الفتى بالذكاء، فأوصى لأبيه أن يبادله بفتاة ولدت فى الوقت نفسه الذى ولد فيه، لكن هذه الفتاة تعيش على الضفة الأخرى من نهر عظيم و عميق، و حار نانجى كيف يقطعه فقال له ابنه أن يكمل طريقه بأمان، فاجتاز النهر سيرا على الأقدام و بادل ابنه بالفتاة و عاد إلى منزله. و ما إن علم كنس بأن أخته انجبت حتى أمر بقتل الرضيع، فماتت الفتاة.

و فى ۱۰ أسفو، يحتفل الهنود بعيد يسمونه دسفارا(Desfara) ، و يتم فى هذا اليوم تعظيم و تمجيد شجرة الساموری(Samorie) لأن رامشى جلس فى فيئها حين جمع جنده للتوجه إلى سيلان و قتل راوان. و رأى فى هذا اليوم طيرا يطلق عليه اسم نيلشاه(Nilschahs) ، فأمل أن تمرّ عليه سنة سعيدة.

سأورد المعلومات الاساسية التى تلقيتها حول الوضع الحالى لديانة الهنود. اذا ما قارناها اليوم بما علمه الفلاسفة القدامى فى الكتب التى يعتبرونها مقدسة و التى ترجم الكولونيل دوی(Dow) شيئا منها لوجدنا أن ديانة الهنود كديانات غيرهم شهدت تغييرات عظيمة خلال القرون التى مرّت عليها و إن حاول العلماء البراهمانيون المحافظة على ديانة أسلافهم كاملة.

و يقتصر غذاء الهنود الاساسى على الأرز و الحليب و الزبدة، و يكتفى عامة الشعب بخبز الذرة، و يحبون اضافة التوابل سيّما الحرّ إلى أطباقهم كما يحبون السكّر، و لا يأكل أى جندى، من أى طائفة كان، لحم البقر، لكن الراسبوطيين أو طبقة الجند تأكل لحم الخراف و ربما لحوما أخرى.

و تعتبر قوانين البراهمانيين فى ما يتعلق بالطعام أصعبها، إذ لا يتجرأون على أكل ما هو نابض بالحياة، و اذا ما أرادوا التقيّد بدقة بما تفرضه عليهم طبقتهم لما أكلوا البصل و الفجل و خضارا أخرى تأكلها الطبقات الأخرى بحرية مطلقة. و ينبغى أن يحضّر براهمانى الطعام الذى يأكلونه، و أن

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۳۵

يحضر الماء الذى يشربونه فى انائه الخاص و ذلك فى وقت لا يحضر فيه أحدهم الماء من البئر نفسها، كما يصومون نصف أيام السنة و لا يأكلون خلالها إلّا أصناف محددة. باختصار، إن واجبات البراهمانى متعددة و صعبة للغاية، حتى أن تاجرا براهمانيا فى مسقط أكّد لى أن قلائل من طبقته هم الذين يتمكنون من التقيّد بهذه التعاليم و تنفيذها كلها من دون استثناء. و لا يأكل البنيان أيضا ما ينبض بالحياة، لكنهم لا يتوافقون على العيش كالهنود، و نادرا ما يصاب هؤلاء الأخيرون بالأمراض، كما يتجدّدون دائما فى عملهم، على عكس الأوروبيين الذين لكثرة ما يأكلون و يشربون و فى أوقات غير منظّمة لا يقوون على العمل و يصابون بأمراض تؤدى إلى موتهم غالبا.

وضع البراهمانيون قواعد عدة للهنود حول الأكل و الشرب، فيجلسون متربعين على سجاد أو أرائك كالاتراك و العرب و بعيدين عن بعضهم البعض حتى أن ملابس أحدهم لا تلمس ملابس الآخر. و لا يستخدمون للأكل شوكة أو سكينة أو ملعقة، بل صحونا هى عادة أوراق كبيرة يرمونها خارجا ما أن ينهوا و جبتهم، و لا يشربون أبدا من إناء استخدمه شخص من ديانة أخرى. عندما أبحرت نحو جزيرة الفيل، كان البحارة يحتفظون بجرّة مياه مشتركة، يشربون مباشرة من دون أن تلمس الجرة شفاههم، و لعل الجرّة تعود لوثنيين. و هناك بين البحارة مسلمون أو أن الوثنيين من طبقات أخرى. و يطلب الهنود المحافظة على نظافتهم، حتى أكثر من المسلمين، فلا يكتفون بالاغتسال قبل الوجبات و بعدها و فى اوقات معينة، انما ينبغى أن يغتسلوا كليا صباحا و مساء.

و نجد فى الهند حاليا، حيث ازدهرت الفنون و العلوم فى الوقت نفسه الذى ازدهرت فيه فى مصر، أعمالا قديمة تثير العجب. لكن يبدو أن الأوروبيين لم يكترثوا لها، فقد ذكر العديد من المسافرين المعبد الوثنى القديم على جزيرة الفيل الصغيرة قرب بومباى عرضا. و ألفيته غريبا و جديرا باهتمام محبى الآثار، حتى أنى زرته ثلاث مرات و رسمت كل ما أثار انتباهى. و يقع هذا المعبد عاليا فى الجبل حيث حفر فى الصخور الصلبة، و يبلغ طوله ۱۲۰ قدما و عرضه المساحة نفسها تقريبا اذا ما استثنينا المذابح القائمة على الجهتين، و نجد رسما له على اللوحةIII . و يقوم المدخل الرئيس فى الجهة الشمالية و يمتد أمامه سهل نَسَق بفن و يطل على البحر و الجزر المجاورة، كما نجد مداخل من جهتى الغرب و الشرق لذا لا يفتقر المعبد للهواء المنعش اذا ما نظّف، لكنه يستخدم حاليا كزريبة للحيوانات لا سيّما ذوات القرون التى تدخله عند اشتداد القيظ. إن سطح المعبد غير مرتفع بسب الغبار الذى يحمله الهواء و التراب الذى تجرفه الامطار، لكن الكمية قليلة مما يدعو للاعتقاد بأن المعبد نظّف منذ سنوات.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۳۶

و يبلغ ارتفاع الصرح الرئيسى الداخلى أربع عشرة قدما و نصف. و يستند الجبل الذى حفر المعبد فيه إلى اعمدة عدة نحتت من الصخرة نفسها، و هدمت العوامل الطبيعية و عامل الوقت بعضها من الأسفل، و قد أشرت اليها بنقاط على الرسم. و أشير إلى أننا نرى على بعض هذه الاعمدة، عند النقطة من اللوحةIV ، صورة للإله غونيس(Gonnis) و هو إنسان برأس فيل، لكنى لم أوردها هنا.

و نجد أيضا فى الصرح الرئيسى غرفة أ، لوحةIII ، حفرها البانى فى الصخر حين بنى المعبد، و لها أربعة مداخل و تطالعنا صورة بشرى من كل جهة من هذه الابواب يبلغ ارتفاعها ثلاث عشرة قدما و هى ناتئة فلا يستند إلى الحائط سوى الظهر، و قد نحتت فى الصخر نفسه عند بدء العمل. و قد تعرضت هذه الصور الثمانى للأذى من الأسفل، و لا يعود السبب إلى قصف البرتغاليين كما يدعى المسافرون إنما لمياه الأمطار التى تتساقط على المعبد منذ سنوات و تبقى فيه لوقت طويل. و لو أراد البرتغاليون إلحاق الضرر بهذه الصور الوثنية لما حملوا المدفعية على جبل عال كهذا و اكتفوا باستعمال المطرقة، و لعل البعض استخدمها بالفعل لهدم بعض التماثيل و المنحوتات.

و تكثر الصور العالية، و المنحوتة فى الصخر على الجدران الجانبية، و لا بد انها تصوّر تاريخ آلهة الهنود و أبطالهم، لذا تفتح آفاقا جديدة امام العلماء و تزودهم بمواضيع للدراسة. و لا يضاهى جمال هذه التماثيل جمال المنحوتات الاغريقية و الرومانية لكن رسمها و موضعها افضل من الرسومات المصرية و أبهى نظرا لقدمها. نجد قرب الرقم ۱ من الخارطة و بالتالى عند المدخل التمثال الاساسى الذى يمثل على ما يبدو راما فشنو و مادو أو إلها آخر بنى المعبد من أجله. و قد رسمته على اللوحةV مع التماثيل الموجودة قرب العامودين ۲ و ۳، و هو عبارة عن تمثال نصفى بثلاثة رؤوس، و أربع أيد، و يبلغ ارتفاعه ثلاث عشرة قدما. و يتميز هذا التمثال كغيره بشفاه سفلى غليظة، و أقراط كبيرة تتدلى حتى الاكتاف و هى موضة ما لا زالت سائدة فى الهند اليوم. و يحمل أحد الرؤوس شاربين، أما الرأسان الآخران و التماثيل الاخرى فلا تحمل شاربين أو ذقنا (يطلق الشباب الهنود شواربهم و يرخى العجزة ذقونهم). و يتميز و جهان من هذه الوجوه بسمات جديدة أما الوجه الثالث فيبتسم لحيّة (كوبرا كاييلا) ، و لا يمكن اكتشاف ما يحمله التمثال فى يديه اليسريين. تمّ حفر القبعات بمهارة، و يبدو أنها من المعدن، استنادا إلى الزينة التى تعلوها، و يبدو أن التمثال الأمامى كان يحمل على جبينه حجرا كريما و فى رقبته عقدا رائعا من الأحجار الكريمة و اللؤلؤ. أما الرأس الذى يحمل شاربين فيعلو قبعته رأس ميت.

يبلغ ارتفاع التمثال الموجود إلى يمين المذكور أعلاه و قرب الرقم ۲ على الخارطة، عشرة

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۴۰

أقدام، لكنه فقد قدميه و إحدى يديه مع الزمن، و يبدو و كأنه يتكىء بيده اليمنى على رأس شخص آخر يجلس قربه مبتسما. و يستند التمثال الرئيسى من الجهة الاخرى (قرب الرقم ۳ على الخارطة) بذراعه اليسرى على رأس قدم، و يلتف حبل رفيع حول اكتاف التماثيل الكبيرة، و تتدلى من آذانهم أقراط ثقيلة، و يزيّن سواعدهم سوار فوق الكوع و آخر تحته، كما يظهر على اللوحة.

نرى قرب الرقم ۴ على الخارطة حوالى ۳۰ تمثالا تمثّل من دون شك مغامرات بطل ما أو اله ما من آلهة الهنود، و اكتفيت برسم اهمها على اللوحةIV . أما التمثال الرئيسى فيمثل امرأة بثدى وحيد، و أربع أيد، و لعلها فارسة تستند بيدها اليمنى الامامية على رأس ثور، و تمسك بيدها اليمنى الخلفية أفعى، و بيدها اليسرى الأمامية قطعة قماش أو ما شابه ذلك، و بالخلفية ترسا صغيرا. و تعتمر القبعة نفسها التى تعتمرها التماثيل الاساسية فى هذا المعبد، و تضع ايضا اقراطا و عقدا و حزاما، فضلا عن الاساور فى يديها. و تقوم على صخرة منحوتة لكن العوامل الزمنية حتّتها، أما فى الجهة الشمالية، فنجد امرأة صغيرة تحمل فى يدها مذبّة كتلك التى تستخدم فى الهند حاليا.

و اثار انتباهى تمثال يقوم إلى اليمين و قبالة رأس الفيل، فله ثلاثة رؤوس و أربع ايد و رسم على مقعده عيون، و نرى الصورة المحفورة على كتف احد التماثيل فى أماكن اخرى. اذا ما كانت الصور تمثّل نبتون الهند، و اذا ما كانت التى تتحرك فى الأعلى تمثّل الملائكة، و ما يعنى كل هذا أتركه لعلماء الآثار الهندية، و لعلنا اذا ما حصلنا على معلومات حول ديانة الهندوس و اذا ما أطلع

بعض المسافرين علماء البراهمانيين على هذه الصور نتمكن من تفسيرها.

يمكن أن نرى المغارة على اللوحةVII و على الخارطة قرب الرقم ۵. يبلغ طول التمثال الرئيسي إحدى عشرة قدما و يتكىء بيده اليسرى الأمامية على قرم ينظر إلى الأعلى بطريقة تدعو إلى الرثاء كما يشتكى من ثقل وزن معلمه. و يحمل القزم بيسراه مذبّة كبيرة و تلتف حول يده اليمنى حيّة، و يعتمر ما يشبه العمامة. و يستند تمثال المرأة الكبير على أنثى قرم تبدو و كأنها ترزح تحت هذا الثقل، و نرى إلى اليمين امرأة صغيرة ترتدى سروالا.

و تطالعنا قرب د. (على الخارطة المرسومة على اللوحةIII) شقق مظلمة، تكثر فيها المياه، فى الفصل الذى زرت فيه المعبد، و هى مياه تعبّ منها الابقار التى ترتاد المكان، و نجد قرب «۵» شقة كبيرة مظلمة ايضا. و قد اعتاد المسافرون، حين يزورون السرادیب أن يطلقوا عبارات نارية لطرد الحيوانات المفترسة التى تختبىء فيها، أما أنا ففضلت ألا ألجأ هذه المغارة أو غيرها. حيث يحتمل وجود حيوانات مفترسة لا سيّما حين لا أكون متأكدا من وجود مخرج آخر لها أو امكانية لتراجعها بعد اخافتها. اطلق الكسندر هاملتون عيارا ناريا فى أحد الممرات، فخرجت أفعى يبلغ

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۴۲

طولها ۱۵ قدما و عرضها قدمين ففرّ و رفاقه من المعبد و اضطر إلى انهاء دراساته كما أطلق ضابط من بومباى النار فى معبد مماثل فى كنارى فى جزيرة سلفت(Salfet) ، فهاجمه سرب من الزنبور و رماه أرضا، و سارع أصحابه حين سمعوا الطلق النارى لرؤية اذا ما تعرض لهجوم أىّ حيوان مفترس فوجدوه فى حالة مزرية. و تعيش هذه الزنابير فى أعشاش كبيرة مستديرة معلقة فى القبة، و لم تكن لتهاجم الضابط لو لم يزعجها أولا .

تمثل الصورة أعلى اللوحةIIIV مغارة حدد موقعها قرب الرقم ۶ على خارطة هذا المعبد يظهر التمثال الرئيس جالسا، و له أربعة اذرع، ثلاثة منها مقطوعة، و فقد التمثال الصغير الجالس إلى يمينه رأسه كما لحق الضرر بأسفل الصخرة التى يقومان عليها. و نجد فى الجهة اليسرى للتمثال الرئيس امرأة تحمل طفلها كما تفعل نساء الهند حاليا .

و تختلف هذه المغارة عن غيرها لوجود تمثالين و كأنهما غارقان فى الارض، و يبدو على وجههما الالم، أما ما يضعه احد الشخصين على رأسه فيشبه الشعر المستعار مما يدفعنا للاعتقاد بأن الاوروبيين ليسوا أول من عرف هذه الزينة. و يعلو هذين التمثالين، عدد من التماثيل التى تطير فى الهواء و من بينها واحد بلحية.

و نرى قرب الرقم ۷ مغارة اللوحةXI ، أما التمثال الاساسى هنا فامرأة بأربعة أذرع تمثل على ما يبدو أحد الآلهة، و نجد إلى الشمال تمثالا بأربعة أذرع واقفا. يعلو الها جالسا و له ثلاثة رؤوس، كما نلاحظ على هذه اللوحة تسريحات عدة شبيهة بالشعر المستعار.

تم إلحاق الضرر عمدا بتماثيل المغارة الواقعة قرب الرقم ۸ على الخارطة، إذ إنها فقدت رؤوسها، و يبدو التمثال الرئيسى جالسا، و له ستة أذرع و يمسك بيده امرأة. و نرى قرب الرقم ۹، اللوحةIII تمثالا كبيرا للغاية بثمانية أذرع كما يبدو على اللوحةX ، و قد فغر فاه و بدا عليه

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۴۵

الغضب كما فقد يديه و رجليه الاماميين بفعل الزمن. و يمسك هذا التمثال بيده اليمنى حساما كبيرا، و الاخرى طفلا من ساقه، أما بيده اليسرى فيحمل حوضا، و بالتالية جرسا صغيرا، و يرفع بيديه الخلفيتين حبلا طويلا. و نجد حول هذا التمثال الكبير، العديد من التماثيل الاخرى الصغيرة التى يبدو عليها الخوف.

اعتبر بعض المسافرين هذا المشهد صورة الحساب الاول لسليمان، و قال لى هندى انه يمثّل كوس(Kos) أو كنس(Kanus) الذى اتيت على ذكره سابقا، و الذى قتل عددا من أولاد عائلته يظهرون هنا على شكل سلسلة رؤوس، و يشير الصحن إلى أنه جمع فيه دماء الاطفال، فيما يعلن الجرس قدومه. فى النهاية، أتيه ضميره للغاية عندما تذكر الجرائم التى ارتكبها، فحاول ان يتوارى عن أنظار الناس و هذا ما يشير اليه الحبل الذى يرفعه بيديه الخلفيتين.

شوّهت تماثيل المغارة القائمة قرب الرقم ۱۰ (اللوحةIII) كليا تقريبا، و نجد فيها العديد من التماثيل الشبيهة بالتى وصفتها سابقا باستثناء واحد يمتطى جوادا.

إن التمثال الموجود قرب الرقم ۱۱ ضخم للغاية، له ستة أذرع، لكنه تعرّض للضرر و نرى إلى شماله ثلاث نساء و الى يمينه تمثال يحمل رمحا فى يده، و نلاحظ فوقه رأس فيل و شخصين يجلس احدهما فوق الاخر، و قبالته شخص جالس و له ثلاثة رؤوس. كما نجد بين التماثيل الصغيرة المعلقة، اذا ما صح التعبير، فى الهواء غونيس أوهاناوانت(Gonnis ou Hannawant) شاهرا سيفه و سأصفه بالتفصيل لاحقا.

يبلغ الارتفاع الداخلى للمصليات حوالى ۹ أقدام و بالتالى ليست أعلى من الصرح الرئيس، و قد حفرت ايضا فى الصخر. و نجد خلف احداها غرفة صغيرة «ج» لم أر فيها سوى حجر مقلوب، و تغطى التماثيل الجميلة جدران المصلى الأمامى الجانبية، و هى تضاهى تماثيل المعبد الكبير من حيث الجمال لكنها أصغر من حيث الحجم.

رسمت التماثيل الاساسية فى المغارة الموجودة قرب الرقم ۱۲، اللوحةII على اللوحةIIV قرب الحرف «ب». و يبدو الشخص الرئيسى جالسا بالطريقة نفسها التى يجلس فيها الشرقيون اليوم، عندما يكونون وحيدين أو مع أمثالهم مع فارق بسيط و هو أن إظهار باطن القدم يعتبر اليوم مناف للآداب. و يجلس الشخصان الموجودان إلى جانب التمثال الاول على عقبيهما كما يجلس مسلم من طبقة دنيا فى حضرة شخص من الأعيان . و نرى فى الأعلى تماثيل أخرى صغيرة لكنها تعرضت للضرر.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۴۸

و نجد الصور الثلاثII ، اللوحةIX ، قرب الرقم ۱۳ من اللوحةIII ، و هى لم تتعرض للضرر.

يبلغ طول التمثال الاساسى ۶ أقدام و بوصتين، يقف على جانبيه قدمان غطّاهما شعر مستعار ضخم، و يحمل أحدهما أفعى كبيرة على كتفه. و نقع بالقرب منه على مغارة أخرى فيها تماثيل عدة متضررة، و كان للتمثال الرئيس فيها أربعة أذرع، و نلاحظ بين التماثيل الصغيرة، واحدا فوق الآخر و للأعلى أيضا أربعة أذرع فيمثّل إنسانا بثلاثة رؤوس يركب جاموسا عظيم القرنين فضلا عن حيّة كبيرة.

إن المصلى الواقع فى الجهة الأخرى للمعبد أكبر من ذاك الذى وصفته، لكنه بالارتفاع نفسه.

و قد تعرضت عواميد المدخل الرئيس لعامل الزمن. فبالكاد نكتشف أثرا لها، لكن الرسوم المنحوتة على الحائط لازالت فى حالة جيدة. نرى قرب الرقم ۳ من اللوحةIII كهفا رسمت منحوتاته الاساسية قرب الحرف ب على اللوحةIX ، يبلغ ارتفاع أكبرها سبعة أقدام و نصف و يستند برمح على رأس امرأة صغيرة وضعت عليه و سادة لهذه الغاية على ما يبدو. و من بين الرسوم التى لم أنسخها، شخص بثلاثة رؤوس يجلس على مقعد مزّين بالعيون، و شخص بأربعة أذرع يجلس على كتفى شخص آخر و يعلوها رسوم صغيرة عديدة.

تعرضت الرسوم على الحائطين ۱۵ و ۱۶ لأضرار عديدة بفعل مرور الزمن، أما الرسوم الاساسية فكبيرة الحجم و بالتالى أقل تضررا. و هى تمثل إلها ثانويا هو غونيس أوهاناوانت. إن قصته معروفة، و قد أوردها مسافرون عدة، لكنى سآتى على ذكرها هنا كما سمعتها على لسان البحارة الذين أوصلونى من بومباى، رووا لى أن بارفوتى(Parvotti) زوجة ماديو(Madeo) كانت تسبح يوما فى نهر، و طاب لها المقام فلم تعد باكرا إلى المنزل، لذا صنعت من الاوساخ التى غسلتها عن جسدها فتى اسمته غونيس و أرسلته إلى المنزل ليحرسه أثناء غيابها. فى هذه الاثناء، عاد ماديو و سأل الفتى عن نفسه و عما يفعله فى المنزل، فأجابه أنه ابن بارفوتى و أنها أرسلته لحماية المنزل، فغضب ماديو غضبا شديدا و قطع رأسه. بعد ذلك، روت بارفوتى لزوجها كيف كوّنت ابنها، و تبين لماديو أن زوجته ليست بمذنبة، فتأثر لجريمته و أراد بعث الفتى غونيس من جديد لكنه لم يجد رأسه و بما أن الفتى لا يمكن أن يعيش من دون رأس، قطع ماديو رأس فيل صغير و وضعه على جسد الفتى. و لهذا السبب، يصوّر غونيس كرجل برأس فيل، و يعبده سكان شواطىء مالابار اليوم.

و لا يهتم سكان جزيرة الفيل، و هم حوالى مئة عائلة فقيرة، إلا بهذا المصلى الصغير فى المعبد كله، و لازالوا يرتادونه اليوم و هذا ما رأيته شخصيا، ففى أحد الأيام، بينما كنت فى المعبد الكبير، دخل أحد هؤلاء و أخذ يصلى. و تتم المحافظة على نظافته، و قد صنع تمثال غونيس فضلا عن بعض الحجارة منذ فترة وجيزة باللون الأحمر. و تمثّل هذه الحجارة، على الأرجح، بعض الآلهة

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۴۹

الثانوية أو بعض الابطال أو القديسين، لأننا نجد مثلها فى بومباى غالبا، لا سيّما تحت بعض الاشجار التى يعتبرها الهنود مقدسة. و

تفاجأت لوجود هذه الحجارة في معبد تكثر فيه هذه الكمية من الابطال و الالهة، لكن لعل الهنود لا يعبدون حاليا من آلهة البلاد القديمة الا غونيس و لعل كومة الحجارة تمثّل بعض الابطال الجدد الذين لا نجد لهم تماثيل من هذا المعبد و لا يجيد البراهمانيون رسمهم بغياب نحاتين ماهرين أو مؤمنين اغنياء. و أترك لمن سيسافر لاحقا أمر الاستعلام حول هذا الموضوع من البنيان.

و نرى قرب الرقم ۱۷ من اللوحة III رسما كبيرا لشخص يحمل حيّة بيده اليمنى الثانية و يتكيء بكوعه الامامي الايسر على تمثال صغير، و نشاهد قرب الرقم ۱۸ تمثالا كبيرا و آخرين صغيرين لكنها مشوّهة.

و نجد في هذا المصلى غرفة «ب» حفرت في الصخر كالغرفة «أ»، لكنها تختلف عنها بكونها بمدخل واحد، و بأن جدرانها مستوية، و نلاحظ أنها أعلى من المصلى لأن السقف نظيف، و تطالعنا في وسط هذه الغرفة حفرة سدّت بحجر. و بالتالي، لكل معبد غرفة خاصة، خصصت على الأرجح للغرض نفسه، و اترك للآخرين اكتشاف ما اذا تمّ دفن رماد المؤسسين هنا، أو ما اذا تم الاحتفاظ هنا بالاشياء المقدسة التابعة للمعبد، أو استخدمت لأغراض دينية، و أشير إلى أنني لم أجد أية كتابات.

و لا يعرف سكان الجزيرة الصغيرة الحاليين شيئا حول الاثار و حول تاريخ هذا المعبد، و استنادا إلى رأيهم، وصل، في يوم من الأيام، و عند المساء، أناس إلى المنطقة و حفروا هذا المعبد في الصخر ثم غادروا عند الصباح. و هي الفكرة التي تسود بين المصريين حول الاضرحة الرائعة التي خلّفها اسلافهم.

و يدّعون أن معبدا آخر صغيرا حفر في الصخر يقع بالقرب من هذا المكان، لكنني لم أره و بغياب طريق ممهد و مع ارتفاع العشب لم يتجرأ الدليل الذي يرافقني على التقدم خوفا من الافاعي و الحيوانات المفترسة الاخرى.

و نشاهد على مقربة من شاطيء البحر فيلا مصنوعا من حجر أسود صلب. و لعل الاوروبيين اطلقوا على هذه الجزيرة اسم جزيرة الفيل لهذا السبب علما أن الهنود يسمونها غالي بوري(Gali Pouri) . و لا يضاهي حجم هذا التمثال حجم الفيل الكبير الذي رأيته في سورات، و هو يحمل على ظهره شيئا يصعب اكتشاف ماهيّته، و قد تعرّض هذا التمثال للعوامل الطبيعية فكاد أن ينهار.

أما بالنسبة للحصان الذي أتى على ذكره كل من اوفنغتون و هاملتون فلم أره.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۵۰

و نجد في جزيرة سلفت، التي تحدثت عنها، العديد من المعابد الاثرية المحفورة في الصخور كتلك الموجودة على جزيرة الفيل، و تخضع هذه الاخيرة للماراتيين، لكن صغر حجمها و قلة السكّان فيها لا تجعلها موضع اهتمام فيقصدها الانكليز ساعة يشاؤون. لكن إذا أراد اوروبي ما زيارة المعابد القديمة على جزيرة سلفت الخصبة و الكبيرة، فعليه أن يطلب الاذن من حاكم تانا(Tana) ، و من قائد الماراتيين في بونا(Puna) .

و لم أقم بالرحلة لأن الماراتيين، استولوا قبيل وصولي إلى بومباي، على مركب دانماركي، و احتجزوا بعض الاشخاص. كما وقعت خلافات بينهم و بين الانكليز، لذا لم يكن من الحكمة طلب الاذن.

و نجد بالقرب من حصن فيكتوار، حسب ما قيل لي، معبدا كبيرا حفر في الصخر، أو ۲۵ منزلا مع غرف حفرت في الصخر على حدّ تعبير البعض. و اكدّ لي ضابط انكليزي انه وقع قرب تريجانابولي(Teridschonapoli) على معبد عظيم حفر في الصخر. باختصار، نجد لدى هذه الامة العريقة العديد من البقايا الاثرية التي تستحق عناية و اهتمام العلماء الاوروبيين، اهتماما أكبر من الذي أبدوه حتى اليوم.

إن هذه الاضرحة لا تظهر للعيان واضحة كأهرام مصر، لكنها استلزمت الكثير من العمل و الفن، لأن بناء الاهرام الموجودة قرب القاهرة لم يتطلب سوى المال و العمال، و قد وجد المهندس قربه الحجارة التي تلزمه و هي حجارة كليسة لينة تسهل معالجتها و لا يستوجب تكديسها و وضعها

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۵۱

الواحدة فوق الاخرى سوى آلات بسيطة لأن الاهرام عالية لكن قاعدتها عريضة مما يجعل رأسها على شكل منحدر سهل يمكن رفع الحجر اليه بواسطة بكرة. و بعد أن يتم تكديس الحجارة بعضها فوق بعض على شكل درجات، تقطع الزوايا الناتئة فتصبح الاهرام مستوية، و هذا ما نتبينه من بعض البقايا قرب الهرم الثاني.

و يتطلب بناء أحد هذه المعابد الهندية التي ذكرناها الكثير من العمل، لحفر الصخور و نقش هذا العدد الكبير من التماثيل على جدران الكهوف، كما يستوجب مهارة في الرسم و النحت، و هي مهارة يفتقر اليها المصريون.

تطابق ديانة الهنود القدامى ديانة المصريين إلى حدّ كبير، و لا نعرف عن تاريخ آلهة المصريين القدامى و أبطالهم سوى ما نقله اليونان و هم بالتالي أمة غريبة، لأن المصريين خضعوا غالبا للأمم الأخرى، فتغيّرت لغتهم و تبدل دينهم كما فقدوا كتبهم. و تعرضت كل من ديانة الهنود و لغتهم لتغييرات عدة، على مرّ السنين، لكن ليس بقدر ديانة المصريين و لغتهم، اذ لم يتأثروا كليا بالأمم الأجنبية، و بقوا على دينهم في الاقاليم الخاضعة لسيطرة المسلمين، و لا زالوا يحتفظون بالكتب القديمة التي يجيد البراهمانيون قراءتها. و إن كان هناك آلهة ثانويون و أبطال قدامى نقشت رسومهم على جدران المعابد و بطلت عبادتهم حاليا، نجد براهمانيين يعرفون تاريخهم، لذا ينبغي ارسال عالم متجرد و نزيه إلى الهند يرافقه رسّام ماهر، و يجب أن يتعلم الاول اللغة الهندية ليتمكن من التحدّث إلى البراهمانيين. و بعد أن يرسم النقوش الموجودة في المعابد، و ما رسمته في جزيرة الفيل لا يشكل سوى جزء صغير منها، يتوجه إلى البراهمانيين بالسؤال و لا بد من أن يجد من يشرحها له، فلربما ساهم هذا في فهم الكتّاب اليونان و الوثنيين القدامى.

لا يمكن أن نطلب من عالم ما أن يسافر إلى الهند على حسابه الخاص ليقوم بأبحاث حول الآثار و لغة السكان و دينهم، فإن قدرات العالم محدودة و حين نجد عالما ثريا قد لا يرضى بتكبّد هذا العناء. و قد أرسل ملك الدانماركي بعثة من خمسة اشخاص إلى شبه الجزيرة العربية هدفها تقدّم العلوم، فهل نأمل بأن ترسل أمم أخرى، قامت بفتوحات عدة في الهند، بعض الاشخاص للتعرف عن كثب على هذا البلد الشهير، شرط أن يتمنى العلماء ذلك بشدّة. و تتوفر هذه الفرصة للإنكليز اذ يمكنهم

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۵۲

السفر على متن سفن أمتهم إلى بومباي، و العيش في الهند بين مواطنيهم في أغلب الاحيان، و لن يضطروا إلى قطع مسافات بعيدة عن مستعمراتهم. و لن تكون هذه الرحلة بكلفة و صعوبة الرحلات إلى الشرق التي أمر بها فردريك الخامس و مؤلها حتى نهايتها كريستيان السابع. و إن لم يقوموا بمبادرة كهذه، سيبقى الهنود بالنسبة لنا أمّة غريبة، علما ان الانكليز سيطروا لمئة عام على بومباي و لا تبعد هذه الاخيرة كثيرا عن جزيرة الفيل و عن سلفت. و يقوم كل اوروبي يزور بومباي تقريبا برحلة إلى المعابد الرائعة المجاورة، لكننا لا نجد حتى اليوم سوى تقارير غير مكتملة حول هذه الاضرحة الاثرية، لذا لا يمكن أن نتوقع المزيد، لأن المسافرين يهتمون بأمور أخرى لا تسمح لهم بصبّ اهتمامهم على هذه المعابد. و قد خضعت كل من سلفت و جزيرة الفيل، منذ قرون، لسيطرة البرتغاليين، حتى أنهم حوّلوا أحد المعابد في كناري إلى كنيسة، و بالتالي أتيحت لهم الفرصة لإعطائنا تفاصيل و رسوما حول هذه الآثار الغريبة، لكنهم غطّوا عوضا عن ذلك هذه التماثيل الرائعة المنحوتة في الصخر بالكلس ليطويها النسيان كليا.

و يقيم في الهند الكثير من الفرس الذين طردهم العرب المسلمون من موطنهم منذ ۱۱۰۰ عام، و اذا ما أراد شخص ما الاستعلام عن ديانة قدامى الفرس، يكفي أن يقرأ كتابهم الاساسي الذي نشر السيد انكاتيل ترجمته الفرنسية منذ فترة وجيزة. و قام هذا الاخير برحلته إلى الهند للحصول على كتب شريعة الفرس و لتعلم اللغة القديمة التي كتبت فيها، و بالتالي قام بأبحاث واسعة حول ديانتهم و عاداتهم اكثر من تلك التي قمت بها شخصيا لانشغالي بأمور أخرى، لكني سأورد هنا ما عرفته حول هذا الموضوع من أحاديثهم و ما لاحظته.

يعبد الفرس، اتباع زرادشت، إلها واحدا قادرا و أبديا، خالق الكون و حافظه، لكن بما أن الانسان بحاجة لشيء ملموس يذكّره بالخالق، وجّه الفرس صلواتهم للشمس و القمر و النجوم و الى أمور أخرى أهمها النار على أنها أكثر العناصر طهارة و نقاء و فعالية، لذا يبقون النار مستعرة في معابدهم و يأججونها بأخشاب عطرية، كما يجعل التجار الاغنياء في منازلهم نارا مماثلة. في احد معابدهم في بومباي، بقيت هذه النار مشتعلة حوالى ۲۰۰ عام، و تصل عبادتهم للنار إلى حدّ أنهم لا ينفخون على شعلة خوفا من أن يدنسوها بأنفاسهم كما لا يطفئون النار بالماء حتى لو أحرقت منزلهم بالكامل. إن تطهير الجسد نقطة اساسية في ديانة الفرس، فضلا عن المسلمين و الهنود كما يؤدّون صلاتهم وقوفا، و قلما يقومون بختان اولادهم شأنهم في ذلك شأن الهنود، و يزوجون اولادهم كهؤلاء الاخيرين قبل بلوغهم سن السادسة و يكتفون بامرأة واحدة فإن كانت عاقر يتزوج

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۵۳

الرجل امرأة اخرى. و لا يتجرؤون على شرب الخمر و الكحول، كما لا يحرم عليهم دينهم و قانونهم أكل لحم البقر، لكن لدى

وصولهم إلى الهند وعدوا الامير الوثنى الذى حماهم بعدم قتل هذه الحيوانات، و استحال هذا الوعد مع الايام قانونا صارما لدى الفرس فامتنع عن اكله حتى أولئك الذين يعيشون فى المناطق الخاضعة لسيطرة المسلمين أو الأنكليز، و يعتبر القواع (الارنب البرى) الحيوان الاكثر نجاسة عندهم . و يلبسون الزىّ الهندى تقريبا، و يحلقون شعر رأسهم، لكنهم يتركون فوق أذنيهم خصلة شعر كاليهود. و يعتبر الفرس ضليعين بعلم الفلك ككافة الامم الشرقية المتحضرة و العريقة، و يستشيرون هذا العلم عند ولادة أى ولد و عند الزواج و فى الحالات المهمة الاخرى، مما ساهم فى ابقائه و تناقله.

و يمكننا أن نفهم بسهولة ان علم الفلك لم يتطور و يتقدم عند الفرس بالرغم من أنهم يستخدمون أفضل الالواح فى بلاد الشرق، و هى الاولوغ بيغ(Ulugh Beigh) التى أخذوها عن أبناء دينهم، فضلا عن التى أخذوها عن المسلمين يحتسبون أيامهم منذ شروق الشمس و حتى الشروق الجديد، و تضم سنتهم اثنى عشر شهرا يتألف كل منها من ثلاثين يوما، لكن يضاف إلى الشهر الاخير خمسة أيام، فتصبح سنتهم ۳۶۵ يوما. و لا يعلمون شيئا عن السنة الكبيسة، لكن كى يصادف عيد رأس السنة الجديدة فى الموعد نفسه يضيفون، كل ۱۲۰ عاما، شهرا كاملا إلى السنة فضلا عن الخمسة أيام المذكورة أعلاه، فتصبح السنة بالتالى مؤلفة من ۱۳ شهرا. يبدأ توقيتهم للأحداث بعد يزدجرد(Jesdejerd) ، ملكهم الاخير الذى طرده المسلمون من الحكم، و ذلك فى خريف العام ۶۳۱ بعد الميلاد، لأن الخامس و العشرين من شهر تشرين الثانى ۱۷۶۴ تزامن و اليوم العاشر من الشهر الثانى للعام ۱۱۳۳ عند الفرس فى بومباى. و صادف يوم رأس السنة عندهم فى ۱۸ تشرين الاول ۱۷۶۳، و ۱۷ تشرين الاول ۱۷۶۴ (و هى سنة كبيس).

و أكدوا لى أن توقيت الفرس فى كرمان(Kirman) يفرق شهرا بأكمله عن توقيت فرس الهند و نستنتج من ذلك أن هؤلاء الاخيرين انفصلوا كليا عن فرس كرمان. و لعل السبب يعود إلى أن الفرس فى بلاد فارس استخدموا الواح المسلمين المصححة، أما اسماء الاشهر الفارسية فهى:

۱- فروردين(Forwardin) .

۲- اردىبهشت(Ardibescht) .

۳- خرداد(Gordad) .

۴- تير(Tir) .

۵- مرداد(Amerdad) .

۶- شهريور(Scherwar) .

۷- مهر(Mer) .

۸- آبان(Auan) .

۹- آذر(Ader) .

۱۰- دى(Dah) .

۱۱- بهمن(Boman) .

۱۲- اسفندار(Asfendar) .

و لم استعلم حول الاسم الذى يطلق على الشهر الذى يضاف كل ۱۲۰ عاما، لكنه لا يعتبر مقدسا اكثر من غيره من الاشهر.

يحتفل الفرس بأعيادهم فى أيام معينة تسمى غمبار(Ghumbar) ، يكرمون خلالها عملية الخلق، و تستمر الاحتفالات خمسة ايام متتالية. يحتفلون فى الغمبار الذى يبدأ فى ۱۱ اردىبهشت بخلق السماء، و فى الذى يبدأ فى ۱۱ تير بخلق الماء، و من ۲۶ إلى ۳۰ شهريور يحتفلون بخلق الارض، و من ۲۶ إلى ۳۰ مهر بخلق العشب و النبات، و من ۱۶ إلى ۲۰ دى بخلق الحيوانات.

و يحتفل الفرس فى الايام الخمسة التى يضيفونها إلى السنة بذكرى خلق الله للانسان، و هو أكبر أعيادهم و يطلق عليه اسم غاثا غمبار.

لم ألاحظ شعائر ظاهرة يمارسها الفرس فى هذه الاعياد، كما يفعل الهنود فى عيد جوز الهند و الهولى(Hulli) ، و السنّة فى عيدى الفطر و الأضحى و الشيعة فى الحسين، الخ. بل يحتفلون بالعبادة فى منازلهم و معابدهم، و يحسنون من هنادمهم و يزورون أصدقاءهم. و استعلمت حول ما اذا كان كهنتهم ينشغلون بالتنبوءات فى هذا اليوم خاصة، و إن كانوا يؤجلون اعراسهم و امورهم الرسمية الاخرى حتى هذا اليوم، فقيل لى العكس. و يعيش هؤلاء بشكل عام بسلام و طمأنينة، و يمارسون الاعمال المختلفة و يجدّون فيها، و يتمتعون بمكانة جيدة بين الهنود، فيزداد عددهم فى هذه البلاد فى حين أن عدد أتباع ديانتهم يتراجع فى بلاد فارس تحت نير المسلمين. و يساندون

فقراءهم و لا يسمحون لأى شخص من دينهم بطلب الاحسان من اتباع ديانة أخرى و حين يلقى القبض على أحدهم، لا يألون جهدا و لا مالا لتخليصه، لكن إذا اساء شخص ما التصرّف و لم يتمكنوا من رده إلى الطريق المستقيم، يطردونه من جماعتهم. و قد تمّ اعدام فارسى شنقا حين كنت فى البلاد بتهمة الشذوذ، لكن قيل لى إنه ليس من أمتهم أصلا، و إن تاجرا اشتراه كعبد. و لا يستبعدون اتباع الديانات الاخرى كما يفعل الهندوس بل يستقبلون المهتدين.

و يتبع الفرس طريقة فريدة فى دفن موتاهم، فلا يرضون بتركهم فى باطن الارض كاليهود و المسيحيين و المسلمين، و لا يحرقونهم كالهنود، بل يتركونهم لتأكلهم الطيور الكواسر . و يملكون فى بومباى برجا مستديرا على جبل، بعيدا عن المدينة، مسقوفا بأخشاب، يضعون فيه أمواتهم، و بعد أن تلتهم الطيور اللحم يجمعون العظام و يرمونها فى قعر البرج، فاصلين الرجال عن النساء.

و تم اغلاق هذا المبنى، منذ أن زار عاشق عشيقته الشابة الجميلة التى ماتت فجأة و دفنت على الفور فى هذا المكان الكئيب.

و بما انى تمكنت من الحصول على حروف ابجدية قديمة يستخدمها الفرس قمت بحفرها على اللوحة التالية، و تسمى المشار اليها بحرف «ه» البهلوى(Pelvi) و هى الحروف المستخدمة لتدوين كتبهم المقدسة، أما تلك المشار اليها بحرف «ه» فهى الحروف الجنحان(Dsjnanchan) و يستخدمونها للكتب الاخرى. و قد كتب هذه الحروف احد رجال الدين المهمين فى سورات، و هو واحد من الذين اجبرهم السيد انكاتيل على مساعدته فى ترجمة زند افستا، لكنى لم اتلقاها منه مباشرة بل من الأب ميدارد، و هو كاهن كبوشى من الالزاس، تربطه به صداقة منذ سنوات لذا اعتقدها صحيحة . كتب الاب ميدارد اسماء الاحرف المختلفة استنادا إلى لفظ الكاهن الذى ذكرته آنفا.

عرف القارىء فى نهاية الجزء الاول اننى وصلت و السيد كرامر إلى بومباى فى أيلول/ سبتمبر العام ۱۷۶۳ مريضين، و ساعدنا هنا طبيب انكليزى ماهر، كما حصلنا على الراحة التى حرمنا منها فى شبه الجزيرة العربية. و أملنا ان نبحر إلى البصرة على متن سفينة ستغادر بومباى فى كانون الثانى/ يناير ۱۷۶۴، لكنى كنت ضعيفا و تدهورت حالة السيد كرامر، ثم وافته المنية فى العاشر من

شهر شباط/ فبراير. و لم يبق من بعثتنا الكبيرة غيرى، و حين فكرت بطريق العودة المرسوم لنا عبر البصرة و منها تركيا، توقعت مصاعب كتلك التى تعرضنا لها أثناء رحلتنا من مصر إلى بومباى لذا تضاءل املى برؤية أوروبا. و اعتبرت أن أول واجباتى هى المحافظة على صحتى لأنى اذا متّ قد لا تصل اوراقى إلى أوروبا ، و دفعتنى هذه الفكرة و غيرها إلى اتخاذ القرار بالسفر مباشرة من بومباى إلى لندن على متن سفينة من الشركة الانكليزية للهند الشرقية، لكنى وجدت سفينة انكليزية كبيرة (القبطان جيمس مساتJames Massat) تستعد للابحار نحو سورات حيث ستحمل بضائع للصين، فقررت أن أسافر على متنها إلى هذه المدينة التجارية الشهيرة.

الرحلة من بومباى إلى سورات

فى ۲۴ اذار/ مارس ۱۷۶۴ قبل الظهر، غادرنا مرفأ بومباى، و كانت الرياح مؤاتية فوصلنا عند المساء إلى مهيم . و من هنا أصبحت أسرع، لأننا رسونا فى ۲۶ صباحا فى مرفأ سورات على ارتفاع ۲۱ درجة، و تبعد المدينة عن المرسى حوالى ثلاثة أميال، لكن بما أن الريح و حركة الموج عاكستانا، توجهت و القبطان و بعض الانكليز إلى دوموس(Domus) ، لنكمل الرحلة عبر البرّ إلى سورات.

و دوموس هى قرية صغيرة، لا يلفت الانتباه فيها سوى أن رتباء اوروبيين يقيمون بها، و يضطرون إلى اعلام التجار المقيمين فى المدينة بالمراكب التى تصل كلها، كما نجد هنا شجرة عظيمة تستخدم كعلامة للتجارة. و تتميز هذه الشجرة بأن أغصانها تنمو الاسفل، و ما أن تلمس الافنان الارض حتى تضرب جذورها و تسند بالتالى الشجرة، و هذا الامر ليس بنادر فى الهند لذا

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۵۷

وصفه المسافرون القدماء منهم و المعاصرون. كما يعبد الهنود هذا النوع من الاشجار، لأنه حين يعمّر، يمتد أكثر و تكثر جذوعه فتغذّى رأس الشجرة حتى و إن فسد الجذع الاساسي.

و سافرنا من دوموس إلى سورات على عربة بعجلتين تجرها الثيران، و لم أنزعج يوما من الغبار في قوافل الجمال و الخيول و البغال بقدر ما انزعجت على هذه الدرب حيث أحاطت بنا غيوم كثيفة من الغبار في غياب أيّ هواء، و لكن ينبغي التأقلم مع الاماكن و الاوقات اثناء الرحلات.

ملاحظات في سورات

تقع مدينة سورات في سهل خصيب، و على ضفة نهر كبير يدعى تابي(Tappi) نجد خارطة صغيرة له على اللوحةXIV . و تأخذ المدينة شكل نصف قمر، يحيط بها سور من جهة النهر و سور مزدوج من ناحية اليابسة، فتنقسم بالتالي إلى مدينة داخلية، و أخرى خارجية. و هي مدينة كبيرة، تتطلب الجولة فيها ساعتين و ربع ، لكن ربع المدينة الخارجية أو الجزء الممتد بين السورين مسكون أما المساحة الباقية فتكثر فيها الحدائق. و يقع القصر على ضفة النهر و في المدينة، و تحيط به حفرة تمتلىء بالمياه في موسم الامطار. و نجد في السور الواقع من جهة الماء خمسة أبواب، و في السور الداخلي للمدينة من جهة اليابسة ستة، أما في السور الخارجي فاثنى عشر بابا . و بما أنّ المدينة خضعت لفترة طويلة لسيطرة المسلمين، نجد العديد من المساجد، لكنها ليست رائعة مقارنة مع المساجد التركية، و قلّة هي تلك التي تعلوها مآذن، في حين أن المساجد

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۵۸

التركية الكبيرة تعلوها مئذنتان أو أربع احيانا. أما سطوح المنازل الكبيرة فمستوية كبيوت شبه الجزيرة العربية، يتوسطها فناء مربع، في حين أن سطوح المنازل الاخرى مائلة. كما نجد في هذه المدينة مساحات فارغة و شوارع واسعة أكثر من القاهرة، لكنها قلما تكون مرصوفة كما في المدن الشرقية الاخرى، مما يجعلها مزعجة بسبب الغبار الذي يتصاعد منها. و لكل شارع رئيسي باب يغلق ليلا لا سيّما في فترات المشاكل الداخلية التي تكثر هنا كما في العاصمة المصرية.

و تعتبر سورات المرفأ الاساسي لامبراطورية المغول كلها، لذا لا تشهد التجارة فيها ازدهارا عظيما، و يرسل تجارها سفنهم إلى الخليجين العربي و الفارسي. و الى الشواطىء الافريقية، و شاطىء مالابار و كورمندل و حتى إلى الصين. أما بالنسبة لكمية البضائع الكبيرة التي تحضّر في أقاليم و مدن الامبراطورية المختلفة، فتصل المدينة في قوافل كبيرة. و يقلّد السكان الاوروبيين فيما يتعلق ببناء السفن لكن نوعية سفنهم جيدة، و يجدون في الهند نفسها معظم المواد التي يحتاجونها و بأسعار معقولة، و يستخدمون لهذه الغاية خشبا لا تجرؤ الديدان على نخره لشدة سماكته، لذا تبقى سفنهم صالحة من ۸۰ إلى ۹۰ عاما، و بالتالي فهي أفضل من سفننا . و يمكن شراء المؤن في هذه

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۵۹

المدينة بأسعار رخيصة، أما هواؤها فصحي، و ينعم الجميع بحرية المعتقد فيها، و بما أن هذه البلاد لا تعرف الاستاذية، يتمتع كل شخص بحرية كسب رزقه بطريقة شريفة. زد على ذلك، أن الهندي الفقير سعيد في كوخه. فبالكاد يرتدي ثيابا، و لا يشرب سوى الماء و لا يأكل سوى خبز الذرة و الزبدة و يعمل جادا، فلا يستغرب أن تكون مدينة كسورات مكتظة حيث المواطن المجتهد يكدّ دائما، و لا يفتقر التاجر للبضائع. لكن عدد سكانها ليس كبيرا كما يعتقد البعض، حتى أن الاوروبيين الذين أقاموا لسنوات يعتبرون أن عدد السكان يبلغ مليون نسمة، لكن إذا ما أحصيناهم أخشى ألّا يتعدى عددهم الثلث.

يبلغ ارتفاع القطب في سورات، وفقا لتقديراتي، ۲۱، ۲۱، و ترتفع الحرارة في المدينة خلال شهر آذار/ مارس فتصل في الايام الاكثر برودة إلى ۹۲ درجة على مقياس فهرنهايت، و وصلت في ۲۹ آذار/ مارس و بسبب الرياح الشمالية إلى ۹۸، في حين أن الحرارة في بومباي الواقعة على ۲، ۱۶، لا تصل في شهر أيار/ مايو إلّا إلى ۹۳ كما ذكرت في الجزء الاول.

لم أتمكّن هنا من مراقبة حركة المدّ و الجزر، لكن استنادا إلى معلومات وثيقة، عند أقصى مدّ، و عند ما يكون القمر هلالا أو بدرا، تبلغ المياه أقصى ارتفاع لها عند الساعة الثانية عند المرسى، و عند الساعة الرابعة قرب المدينة. أما الفرق بين أقصى مدّ و أدنى جزر فثمانية عشر قدما قرب المرسى و اربعة عشر قدما قرب المدينة، و لا يدوم الجزر عادة قرب المدينة الا ثلاث ساعات في حين أن المدّ يستمر تسع ساعات. و تبقى مياه النهر هنا عذبة خلال ثمانية أشهر، و تصبح مالحة قليلا خلال الاشهر الاربعة الباقية، و يدعون أنهم لاحظوا أن المدّ يرتفع أثناء النهار خمسة أقدام أكثر منه أثناء الليل و ذلك خلال تشرين الثاني/ نوفمبر و كانون الاول/ ديسمبر كانون الثاني/ يناير و شباط/ فبراير حين تعصف الرياح الشمالية، و أن المدّ يرتفع في الليل ستة أقدام أكثر منه أثناء النهار و ذلك في الاشهر الاخرى. و يرتفع المدّ في خليج كمباي(Cambay) أكثر مما يرتفع في منطقة سورات، و أكّد لي تاجر، أقام لسنوات في كمباي أن السفن، عندما يكون القمر هلالا أو بدرا سيّما في الربيع أو الخريف، تبدو في الجهة الاخرى للخليج و كأن قسما منها يبحر من جهة و القسم الاخر من الجهة الاخرى، و يعود السبب على الارجح إلى المدّ القوي للغاية في هذا الخليج.

و تكثر في التابي الارصفة الرملية، و سيصبح من الصعب في المستقبل انزال سفن جديدة فارغة بنيت في سورات إلى النهر. لكن منسوب المياه يرتفع احيانا، في موسم الامطار، ليبلغ ۲۸ قدما

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۶۰

قرب المدينة فتجرف الارصفة الرملية و يمكن للسفينة المحملة عندها الوصول اليها. و اذا ما فكر الحاكم باحتواء النهر ضمن حدوده بواسطة سدود، لاستفاد السكان من أرض صالحة للزراعة تفيض عليها المياه حاليا و لتخلص النهر من الارصفة و أضحى صالحا للملاحة، لكن اهتمام الحاكم المسلم برعاياه لا يصل إلى هذا الحد.

خضعت سورات منذ سنوات للامبراطور المغولي، لكن منذ أن نهب نادر خان دلهي(Delhi) ، لم يعد رجال الحكم في أقاليم بعيدة يهتمون بالمغول، و بقيت سورات خاضعة لهم بالاسم. سيطر حكام هذه المدينة على الحكم بالقوة أو بالحيلة، ثم جعلوا الامبراطور المغولي يثبتهم في منصبهم، كما يفعل الباشاوات في بغداد اذ يعينون انفسهم ثم يجبرون السلطان على تأكيد سلطتهم. كان للمغولي حاكمان في سورات مستقلين عن بعضهما كليا، و لكل منهما جيشه الخاص الصغير.

و يحكم احدهما في المدينة و الآخر في القصر، و كان الاخير في الوقت نفسه قائد أسطول المغولي، و يتقاضى ايرادات كبيرة من بعض الأقاليم ليدفع لجيشه و للبحارة و لإبقاء اسطوله الصغير في حالة جيدة بغية مواجهة القراصنة. و سعى البلاط في دلهي إلى تعزيز الخلافات بين الحاكمين ليظلا خاضعين له، لكن تك بغ خان(Teck Beg Khan) ، و هو حاكم المدينة، نجح في تعيين اخيه حاكما للقصر عندما كان حكم دلهي ضعيفا. و اتحد الاخوان و أخذا يعتبران سورات و ضواحيها ملكا لهما، و جمعا ثروات ضخمة و لم يعودا يهتمان بأوامر المغولي.

توفي تك بغ خان في العام ۱۷۴۶، و وزع الثروات الضخمة التي جمعها خلال فترة حكمه للمدينة بين أهله و خدمه. و هكذا، أصبح البعض منهم نافذين فطمعوا بالحكم، أو أخذوا يساندون أحد أقرباء معلمهم ضد الآخر. و في العام ۱۷۴۷ توفي أخوه حاكم القصر مخلفا وراءه أرملة غاية في الثراء و الطموح، فحاولت جعل صهرها حاكما للقصر و حاكما للمدينة أيضا، مما أدّى إلى حروب داخلية شارك فيها أعيان المدينة كلهم، فأخذ كل منهم يجمع الناس حوله ليسيطر على الحكم لنفسه أو لأحد أصدقائه. و راح هؤلاء الطغاة يهاجمون بعضهم البعض و يعلنون هذا أو ذاك حاكما للمدينة أو للقصر، في هذه الاثناء، لم يرسل المغولي حاكما آخر أو جيشا ليثبت شخصا ما في الحكم، و إن تمكن أحدهم من الحصول على فرمان من البلاط يعلنه حاكما، لا يتورع الاخرون عن طرده من مركزه إن استطاعوا ذلك.

و عرفت الامم الاوروبية التي تتاجر في سورات كالهولنديين و الانكليز نفوذا واسعا، و كان لكل منها جندها و مدافعها في المدينة للدفاع عن مصالحها في حال حصول شغب طارىء. و خلال الحرب الداخلية الطويلة، أحضر الاوروبيون المزيد من الجند و السلاح و الذخيرة، كما أقاموا تحصينات في منازلهم و حدائقهم كأعيان البلاد. و رأى الاخيرون ضرورة اكتساب صداقة هؤلاء

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۶۱

التجار. و بما أنهم يدفعون أموالا طائلة و يعدون بمكاسب عدة إن ساندوهم للوصول إلى الحكم، زودهم الاوروبيون بالذخائر و شاركوا معهم في القتال. و أرادت كل من الامم الاوروبية الاعتراف بالحاكم الذي يعدها بمكاسب اكثر، و لعل الاتفاق مع كل طرف

نصّ على ألّا تمنح الامم الاخرى الامتيازات التجارية و الحرية نفسها.

كما طلب بعض هؤلاء المستبدين مساعدة الماراتيين، و نال هؤلاء مكاسب عديدة لأنهم اعتادوا أن يطالبوا من يصل إلى الحكم بتنفيذ و عود من جاؤوا لمناصرته و إلا فيهددونه بالحرب و يضطر للدفع لتجنب المواجهة معهم.

و منذ ذاك الحين، يحصل الماراتيون على ثلث الرسوم التي تدفع في سورات، في حين كانوا يحصلون على الربع في ما مضى، و يبقى في الجمارك حاليا أحد ضباطهم لمراقبة المداخيل.

و في خضّم هذه المشاكل الداخلية، عرفت التجارة ازدهارا ملفتا، فحين كانت الصراعات تنشب بين الطغاة، كان سكان المدينة يقفلون أبواب الشوارع الاخرى و يعودون إلى اعمالهم (كما فعل سكان القاهرة اثناء الحرب الاهلية بين البكوات).

و لم يتعرض البرجوازيون للنهب، و إن حصل ذلك أو شبّت النيران في منزل أحدهم، يتم التعويض عليه عادة.

أخيرا، طرد الحاكم الذي يسانده الانكليز من سورات، ثم عاد في العام ۱۷۵۸، و لم يأل حماته، الذين ذكرتهم آنفا، جهدا و لم يوفّروا مالا- حتى أن الحاكم الموجود تنازل له تلقائيا عن الحكم. و كان الانكليز يسعون للسيطرة على القصر، فأرسلت حكومة بومباي في بداية العام ۱۷۵۹ السيد سبنسر (أحد المستشارين، و هو رجل يحبه الاوروبيون و الهنود على حد سواء) إلى سورات على رأس قوة عظيمة، و لزمهم وقت طويل للوصول بسفنهم إلى المدينة بسبب الارصفة الرملية في التابي.

و وصلوا المدينة، و أكّدوا لحاكمها أنه سيبقى في منصبه إن فتح للانكليز أبواب مدينته و إن لم يعيقهم في عملية الاستيلاء على القصر، فوافق على ذلك، و استسلم القصر بعد بضعة أيام من دون أن يقع الكثير من الضحايا.

في هذه الاثناء، لم يكن الانكليز ليربحوا الكثير إن اضطروا إلى صيانة القصر و إعالة الحامية اللازمة من مردود تجارتهم في سورات. و إن كانوا واثقين من صداقة الحاكم، وجدوا بين أعيان المدينة معارضين نافذين يرفضون الخضوع لسلطة أمة أوروبية.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۶۲

و خشي التجار أن تتعرض مصالحهم للخطر على يد اعداء انكلترا لا سيما الفرنسيين منهم، لذا بقي على السيد سبنسر وضع أمور عدة في نصابها بعد السيطرة على القصر، لكنه تخطى هذه العقبات كلها بفضل حذره و لطفه. أكّد للسكّان بأنهم لن يعتبروا رعايا انكليز، و أن الانكليز لم يسيطروا على القصر لمصلحتهم الخاصة إنما باسم المغولي، و قام برفع علم هذا الاخير على القصر. و ذكّر أعيان المدينة بأن الاسياد الذين سيطروا على الحكم في السنوات الاخيرة، استخدموا الايرادات لمصلحتهم الخاصة في حين أنها مرصودة لصيانة الاسطول و لتغطية التجارة و بأن البحر يعجّ بالقراصنة. و وعد، من جهة أخرى، بأن الانكليز سيدافعون عن تجارتهم، إذا ما منحهم المغولي المردود المخصص لصيانة الاسطول و التحصينات و لتمويل الحامية. فتيّر التجار بهذه الوعود، و لم يشكّوا في أن الانكليز التجار سيقضون على القراصنة في حين أن أسلافهم استخدموا الاموال التي جمعوها لزيادة عدد جيشهم للبقاء في الحكم.

و أرسل حاكم بومباي إلى الامبراطور في دلهي تفصيلا عما حصل في سورات، و أورد أن المدينة عانت الامرّين خلال هذه الحروب الداخلية، سيّما و أن الطغاة أهملوا الاسطول و مكّنوا القراصنة من مهاجمة سفن المدينة، و أن السكّان رجوا الانكليز أن يحموهم. و قد وقّع هذا الكتاب أعيان و تجار عدة من المدينة، و طلب الانكليز من المغولي أن يعيّن مدير تجارتهم المقيم في سورات حاكما للقصر و قائدا للأسطول، مما يعني أنهم يطالبون بالإيرادات المرتبطة بهذين المنصبين، و بما أن المغولي لم يكن قادرا على القضاء على بعض العصاة في المدينة، كان أمله بطرد الانكليز من القصر ضعيفا، لا سيّما و أنّ هذا الاخير بعيد عنه و قريب من أهم مراكز الانكليز، فمنحهم ما طلبوه.

إذا يتولى الانكليز، منذ ذاك الحين، منصب حاكم القصر في سورات، و قائد الاسطول تحت سيادة المغولي، و يحصلون على ثلث الرسوم و على مبالغ أخرى ضخمة تكفي لصيانة القصر و اعالة الحامية اللازمة فضلا عن العديد من المراكب الحربية التي تساعد تجارتهم. و لو أرادوا حكم البرجوازيين لتكبدوا إذن الكثير من العناء و التعب، لذا فإنهم يتركون هذه المهمة لحاكم آخر يخضع للمغولي بالاسم فقط، و يملك قواته الخاصة، لكن يرجع للانكليز ابقاؤه في منصبه أو خلعه و بالتالي عليه أن يحكم وفقا لإرادتهم و يسمحون له بدخل كبير للغاية يمكّنه من العيش في بذخ و ترف، لكنه يحدّون من امتيازاته كي لا يغدو ثريا و ذا نفوذ. و يحافظون بدقة على حقوق الحكّام السابقين، حتى أنه أثناء مسيرات الاعياد، حين يمارس السنة شعائرهم الدينية في ساحة خارج المدينة، يرافقهم انكليزي على ظهر جواده و سأورد في ما بعد مثالا على ذلك.

و لم يعد يخشى التجار الكبار في سورات، و هم اصدقاء للانكليز، أن يحاول الحاكم الحصول

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۶۳

على مبالغ ضخمة منهم كما كان يحصل في السابق، لكنهم يبدون غير راضين من جهة أخرى عن الحكم السائد حاليا، اذ يضطرون مثلا- إلى الحصول على إذن مرور لسفنهم من مدير التجارة الانكليزية، و إن اراد الانكليز ارسال سفنهم نحو هذا المرفأ يهمهم ألّا يسبقهم أحد اليه. و من هنا، يقال إنه غالبا ما يتم حجز اذونات السفن الهندية حتى نهاية المنسن(Monson) و أن السفن لا يمكنها أن تصل إلى المرفأ في هذا الموسم. و صادفت سفينة من سورات في بومباي، كانت متوجهة إلى جدّة، لكنها عادت من سقطره(Socatra) ، و بقيت في المرفأ لبضعة أشهر بانتظار الفصل الذي تستطيع فيه أن تكمل رحلتها إلى الخليج العربي، مما يشكّل خسارة كبيرة للتجار.

و وصلت المراكب الانكليزية، التي يقودها ربابنة أوروبيين، و بالتالي بحّارة أفضل من المسلمين، في الوقت الملائم إلى جدة و بالتالي نالوا أسعارا جيدة لقاء بضائعهم.

و يأتي الهولنديون في المرتبة الثانية بعد الانكليز من حيث الحضور و النفوذ في سورات، و يمثلهم فيها مدير، و تاجر أول، و تجار، و مساعد و تجار، و عدد كبير من رجال الدين الاوروبيين، فضلا عن الموظفين و بعض الجنود. لكن تجارتهم لم تعد بالحجم الذي كانت عليه، و يبدو أن أمورهم غير منظمة، انما لا يعود لي ابداء ملاحظات حول هذا الموضوع.

أما حال تجارة الفرنسيين (۱۷۶۴) في هذه المدينة فأسوأ مما وصفه فراير(Freyer) قبل مئة عام . و إن لم أكن مخطئا، لا يرفعون علما فوق كنائسهم، و هو امتياز يتجح به الاوروبيون هنا، و لم يتلق و كيلهم أو مديرهم أيّ إعانة منذ أن فقدوا بوندیشری(Pondichery) ، و لم يعد يتوفر لديه المال ليعيش عيشة بسيطة. كان الاب مدارد و هو راهب كبوشي من هذه الامة، ذكرته سابقا، يعيش هنا جيدا بالنسبة لوضعه، و يحظى بمحبة الاوروبيين و الشرقيين على حد سواء. و يقيم الكبوشيون في سورات منذ العام ۱۶۳۸ و العام ۱۶۷۶، و قد سجلوا كافة التغييرات المهمة في الحكم و بين الاوروبيين المقيمين هنا، و هي ملاحظات مختصرة، دونوها لاستعمالاتهم الخاصة ليتذكروا تاريخ هذا الحدث أو ذاك، لكنها بالتالي تفيد كل من يود معرفة التغييرات التي طرأت هنا منذ مئة عام و حتى اليوم.

إن تجارة البرتغاليين في سورات محدودة، و يمثلهم وكيل أو مدير لتجارتهم و هو يهودي من مواليد هامبورغ .

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۶۴

و لا تملك أية أمة أوروبية أخرى غير الانكليز، و الهولنديين، و الفرنسيين، و البرتغاليين وكالة لها في سورات. حين استولى الانكليز على القصر، كان هناك سفينة دانماركية تعمل في التجارة في المنطقة، و لم يكن التجار الانكليز يتمتعون بالنفوذ كاليوم، زد على ذلك أن قبطان هذه السفينة اعتاد أنّ يؤدي لهم خدمات عظام فتركوا له المكاسب التي يمكن أن ينالها. و بعد سنوات، وصلت المدينة سفينة سويدية، و حصلت على إذن من حاكم المدينة للتجارة لقاء بدل مالي معين. و بما أن السويديين يبيعون الحديد و النحاس بأسعار أرخص من أسعار الانكليز، نفدت حمولة سفينتهم، لكن حين استعدوا للرحيل إلى الصين، طالبهم الحاكم بمبلغ طائل قيمته مئة الف روبية (حوالي ۱/ ۲ ۶۶۶۶۶ درهم) و أمر التاجر بعدم مغادرة المدينة و بالتالي عدم الابحار قبل دفع هذا المبلغ. و وقع السويدي في مأزق، اذ لم يكن بإمكانه طلب المساعدة من الانكليز، حتى انه كان مقتنعا بأن هؤلاء الاخرين أعطوا الحاكم فكرة المطالبة بالمال، و ظنّ أن أفضل ما يمكن أن يفعله هو الطلب من قبطان السفينة أن يرفع المرساة و يكمل رحلته إلى الصين، و بقي هو في المدينة فاكتفى الحاكم بمبلغ ۲۰۰۰۰ روبية، و شكّل هذا الامر انذارا و تنبيها له بعدم العودة ثانية، و منذ أن سيطر الانكليز على القصر، ابتزّ الحاكم بالطريقة نفسها ۹۰۰۰۰ روبية من الهولنديين و أجبرهم على ازالة مدافعهم كلها من سورات، باستثناء بعض القطع الخفيفة التي يستعملونها لاداء التحية. و هكذا، أخذ الانكليز يسيطرون تدريجيا على تجارة هذه المدينة، و فقدت الامم الاوروبية رغبتها بالسعي وراء الثروات فيها.

و يتبع الحاكم و الموظفون المهمون الديانة الإسلامية، لكن يبدو أنهم لا يتقيدون بتعاليم دينهم كأمثالهم في مصر و تركيا، فعلى سبيل

المثال يملك أحد الحكام الذين خلعوا من منصبهم، كلبا كبيرا يجلسه بجانبه و يلاعبه في حين أن الاتراك و العرب يعتبرون أن الكلب نجس لذا فهو ينجسهم ما ان يلمس ثيابهم، كما يشغّل الهنود المسلمون اموالهم بالفائدة، و يشربون الخمر علنا.

و يتكلم الاعيان في الهند اللغة الفارسية و يستعملونها في مراسلاتهم، كما تعتبر لغة البلاط، في كافة الاقاليم الخاضعة لسلطة المسلمين. و تستخدم الطبقات الوسطى و الدنيا الاحرف الهندية، فلا نجد بينهم من يتكلم الفارسية.

في ۲ نيسان/ أبريل، و عند العاشرة مساء، أعلم الحاكم المدير الانكليزي، السيد هوجز، أن الهلال ظهر و طلب منه اعلان انتهاء شهر رمضان و بدء أيام عيد الفطر بطلقات من مدفع القصر.

و تم ذلك في كافة الحصون كي يتمكن الشعب من التحضير للعيد، و لأنهم لا يعتمدون تقويما و لا يترقب الجميع القمر أو يستعلم لدى القاضي الذي يتوجب عليه التنبه لهذه الامور و ابلاغ الحاكم بها من الضروري اعلام العامة بانتهاء الصوم. و بما أن الانكليز يدّعون أنهم حكّام القصر باسم المغولي و يستفيدون من العائدات المرتبطة بذلك، كان بامكانهم أن يظهروا القليل من الاهتمام

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۶۵

و ابلاغ السكان المسلمين بأن اليوم الثاني هو يوم عيد، لكن السيد هوجز أبلغ الحاكم أن الوقت متأخر لإطلاق ضربات المدفع و أن كل شيء سيكون من جهته جاهزا للعيد، أي إن تاجرا انكليزيا بصفته حاكم القصر، و فرقة من الجند سيرافقان المسيرة حتى مكان الصلاة خارج المدينة ثم يطلقون عددا محددا من طلقات المدفع. و لم أر المسيرة إلا عند عودتها و اليكم النظام المتبع:

يرأس المسيرة عدد من البرجوازيين الذين يركبون عربات صغيرة و خفيفة بعجلتين، و نرى رسما لها على اللوحةIIX قرب الحرف «أ». يجلس السيد داخل العربة أو على الاصح فوقها متربعا على و سادة، و تكون العربة مغطاة من الاعلى و الخلف، و عادة ما يضعون ستائر حريرية من الجهات الثلاث الأخرى. و يجلس الحوذي على عريش عريض مصنوع من الخيزران، فيما يجر العربة ثوران كبيران، تنتهي قرونهما برأس من فضة أو من الشبهان. و لا تلائم هذه العربات المسافر الاوروبي و قد اشتكيت آنفا من رحلتي من دوموس إلى سورات، لكن تلك التي سافرت فيها لم تكن حسنة الصنع اذ لم تتعد كونها صندوقا كبيرا ينقل فيه الفلاحون المؤن إلى المدينة، و بما أننا كنا نرتدي ثيابا أوروبية لم يكن من السهل التربع فاضطررنا للجلوس قرب الحافة و ازعجنا الغبار المتصاعد من الارض الجافة. و يجدها الهنود الهاكرى التي يستعملونها للتنقل في المدن مريحة للغاية و هي كالعربات ذات العجلتين الاوروبية، لكن الثيران لا تسرع كالجياد. و يدفع هنا ۶۰۰ روبية (۴۰۰ درهم) لقاء زوج من الثيران البيضاء حتى أن اوروبيين في بومباي يستخدمونها احيانا لجرّ عرباتهم، و لهذه الثيران قطعة شحم كبيرة على ظهورها فوق القائمتين الاماميتين.

و تلي العربات المسيرة بحد ذاتها التي يرأسها الموسيقيون و هم يحملون آلات موسيقية عسكرية تركية، و يحمل بعضهم ابواقا يبلغ طولها ۵ إلى ۶ أقدام، و تصدر أصواتا أشبه بصراخ الحيوانات.

و لا أذكر إن كان هناك حاجب يعلن وصول الحاكم، لكني لا أشك في ذلك إذ علمت لاحقا أنها العادة في سورات عندما يخرج الحاكم على صهوة جواده و حين يخرج بعض مدراء الوكالات الاوروبية في عرباتهم أو على جيادهم. فحين يخرج المدير الانكليزي مثلا، يصرخ حاجبه باللغة الهندية «افسحوا الطريق، للسيد فلان قائد اسطول المغولي و حاكم قصره في سورات، مدير الشركة الانكليزية للهند الشرقية في المدينة، الخ» .

و تلي ستة مدافع صغيرة، و ضابط مدفعية، و بعض المدفعيين مع اعلام صغيرة على ظهر فيل، ثم عدد من الاعيان على صهوة جيادهم العربية و الفارسية الرائعة (نقش على بعض منها بالحنّاء كثيران العربات)، و يسبق هؤلاء الاخيرين فرق من الجند و موسيقيون عسكريون.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۶۸

ثم يأتي التاجر الانكليزي على فرسه، بصفته حاكما للقصر، و يرتدي لباسا أوروبيا، يمشي إلى جانبيه خادمان يحملان مذبّتين، و امامه فرقة من الجند، تحمل اسلحة اوروبية في ما يحمل جند الحاكم بنادق بفتيل.

و نرى بعد ذلك بعض المحفّات الرائعة، التي يأمر الاعيان بحملها فارغة لإضفاء المزيد من الترف على المسيرة، و يستخدم الاوروبيون و الاعيان بين الهنود هذه المحفّات لتنقل عوضا عن العربات التي نعرفها في اوروبا. و نجد رسما لها على اللوحةXIII ، و يشار إلى المحفة الصيفية بالحرف «أ»، و تغطى عادة بستار كبير يقي من الشمس لكني لم أرسمه كي أظهر بوضوح التفاصيل الاخرى، و يتبين لنا أن المحفة ليست سوى سرير صغير مربوط بقصبة خيزران سميكة، يحمله أربعة رجال من الطرفين، و يعلوه أزرار كبيرة مغطاة بالفضة. و تصنع الارجل من المعدن نفسه فضلا عن قبضة عقدة الحرير الرائعة، و يغطى الفراش و الوسادة قماش حريري رائع، باختصار، نجد محفات تكلف اصحابها مئات أو الآف الدراهم، و لن يتفاجأ القارىء مما تقدّم لو علم أن كلفة قصبة الخيزران في محفة حاكم بومباي بلغت الف روبية (۱/ ۲ ۶۶۶ درهم) بسبب سماكتها و انحنائها الرائع . في موسم الامطار، تغطى هذه المحفّات بسقف مصنوع من أوراق شجر جوز الهند، المبطّن بالقماش، (الصورة ب). و يرفع كليا من احدى الجهات عندما يستلقي فيها أحدهم، و للمحفة نافذة من كل جهة تسمح بتنشق الهواء و رؤية المارة. و تشبه محفات النساء الهندیات الخزائن المربعة، و تحمل بعصيان مستقيمة، و هي قبيحة للغاية فلا تستحق ان نذكرها أو أن نصفها، فضلا عن ذلك، لم تشارك في هذه المسيرة محفات للشتاء أو للنساء.

ثم يتبع المحفات خدم الحاكم و بعض الاعيان فضلا عن الجنود و الموسيقيين، و أخيرا يتقدم الحاكم نفسه على ظهر فيل ضخم نقش عليه بالحنّة، و يتربع الحاكم على مقعد أو عرش رائع تظلله قبّة قائمة على أربعة أعمدة، و يجلس أمامه و وراءه خدم يحركون المذبّات، فيما يجلس الساق على عنق الفيل. و ينثر الحاكم من الجهتين أزهار الفضة (كما تسمى هناك) على الشعب، لكن هذا السخاء ليس بعظيم، كما يخيل للبعض، اذ إن هذه الازهار ليست سوى قطع صغيرة من الفضة المسكوكة حزّت اطرافها ثم طويت. و يلي الحاكم فيل غير محمل، و آخر مع طبّال ليختم المسيرة جمل هزيل جدا. ما إن تنتهي المسيرة، حتى يتوجه كل سني إلى منزله ليتناول الطعام.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۶۹

و يتمتع الشيعة بحرية تامة في بومباي و في سورات حتى أنهم يحتفلون بذكرى الحسين، و ينظمون مسيرات عامة، و هذا ما لم يكن ليسمح به في مدن تركيا و في مدن شبه الجزيرة العربية.

نجد في سورات عددا كبيرا من الهنود من طبقة البراهمانيين، و يعمل البنيان كجباة للمدينة و ملتزمي ضرائب و مكاسين لدى المسلمين لأنهم خبراء بالحساب ماهرين و رجال اقتصاد مجتهدين.

و ولدوا، اذا صحّ التعبير، تجارا، و تراهم يسيطرون على تجارة الهند، فما من أمة اجنبية إلّا و تستخدمهم كوسطاء، كما أنّ التجار هنا راضون عن عملهم أكثر من رضا تجار القسطنطينية و القاهرة على وسطائهم من اليهود. و غالبا ما يسلم الاوروبي أعماله و أمواله لأحد البنيان، و نسمع غالبا أمثلة عن وفاء هؤلاء و تفانيهم مما يثير العجب.

و بالرغم من أن التجار الهنود يملكون كميات ضخمة من الذهب، تراهم يرتدون ثيابا بسيطة من القطن الابيض (وفقا للذوق الاوروبي). و يلبسون سراويل أو أحيانا يكتفون بقطعة قماش كبيرة تتدلى نحو الاسفل و تربط حول الردفين و يضعون فوقها لباسا طويلا، ضيقا من الاعلى و واسعا بطيّات من الأسفل كتنانير النساء الاوروبيات، راجعوا الصورةXII . و يتميز هذا اللباس بأكمام طويلة للغاية لكنها ضيقة و مقلوبة نحو اليد، و يتمنطقون بحزام حول خصرهم، أما الخفّ فكبير و مرفوع الطرف كالمزلاج عندنا. و يضعون في آذانهم اقراطا ذهبية، كما يضع التجار الاثرياء لؤلؤة حقيقية كبيرة في آذانهم. و يختلف شكل عمامتهم و سكينهم الذي يضعونه في الحزام. و باختصار يختلف لباسهم كله عن لباس العرب و الاتراك و الفرس ، لكنه يلائم طقسهم. و يعيش الهنود الفقراء ككافة الفقراء في البلاد الحارة أيّ إنهم شبه عراة، يكتفون بحزام أو أحيانا بحبل حول خصرهم عليه قطعة قماش تمرّ بين أفخاذهم، كأولئك الذين يحملون المحفة «أ» على اللوحةXIII ، مع اختلاف بسيط هو أن هؤلاء يعتمرون قلنسوة صغيرة مميزة أشبه بحلة الخدم . و يعتمر عامّة الهنود عمامة، و عند ما تمطر يلبسون معطفا من أوراق النخيل و أوراق جوز الهند على الشكل «ج» على اللوحةXII ، و لا بد أنه لباس الهنود الذي وصفه هيرودوتوس في كتابه الثالث، الفصل ۹۳.

و تضع النساء الهنديات من العامة، قطعة قماش كبيرة مضلعة بالاحمر حول اوراكهن، و يرفعن الطرف عاليا بين الفخذين فيصبح اللباس أشبه بسروال قصير و واسع، و يغطين أجسادهن و رؤوسهن بقطعة قماش عريضة. إن ثديي المرأة الهندية ليسا طويلين و متهدلين كاثداء المسلمات، إذ ترفعهما

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۷۰

فى ما يشبه القراب من الحجم المناسب فى صديرية صغيرة ذات أكمام قصيرة لا تغطى سوى الصدر. و يبقى هذا اللباس الثديين فى حالة جيدة حتى أن العديد من الاوروبيات اللواتى يعشن فى الهند، يحصلن عليه كما يضطررن لتقليد الهنديات فى ما يتعلق بالنظافة كى لا يفقدن حب أزواجهن. و تعمل الهنديات باجتهاد كأزواجهن، و رأيت العديد منهن فى بومباى، و هن يحملن الحطب فيكسبن قوتهن بصعوبة. لكنهن يضعن الكثير من الحلى من ذهب و فضة و أحجار كريمة، و هى حلى سيستفيد منها اولادهن أو احفادهن. و يضعن مثلا خاتما يحمل حجرا كريما فى انوفهن، و آخر فى آذانهن، و خواتم فى أصابع ايديهن و أقدامهن، فضلا عن أساور فى معاصمهن و ارجلهن، و إذا خرجت امرأة مسلمة، تجدها محجبة كليا، كنساء شبه الجزيرة و تركيا، نساء لا يتجرأن على كشف وجوههن و حتى أيديهن امام الأجانب، فلا يمكنهن بالتالى كسب أى شىء خارج منازلهن.

لم أحضر اجتماعا للهنود خلال ايام أعيادهم إلّا مرّة واحدة و ذلك فى شبه الجزيرة العربية. كان هناك حوالى ۱۲ بنيانيا متحلقين، يحمل كل منهم طبقين من المعدن و طبل صغير، و بعد أن يغنى أحدهم مقطعا باللغة الهندية، يردد الآخرون الكلمات نفسها و هم يضربون على آلاتهم. و رافقنى فى ذاك اليوم أحد المسلمين، و لاحظت أن حضورنا غير مرغوب به بين البنيان، فغادرت المكان بعد أقل من ربع ساعة كى لا أعكر عليهم صفو تعبّدهم.

لم أتكمن من معرفة كافة المهام التى يتوجب على البراهمانى القيام بها بصفته رجل دين، لكن حين يولد طفل هندوسى، يجب أن يعرف البراهمانى و استنادا إلى قواعد علم الفلك، ما اذا كان قد ولد فى ساعة سعيدة أو ساعة تعيسة، و بعد ذلك، يعلّق على أكتاف الطفل حبلا رفيعا و هو يعتبر علامة امته المميزة و يحمله مدى العمر. و يبدو أن هذه العادة قديمة للغاية، إذ نلاحظ أن العديد من تماثيل معبد جزيرة الفيل يحمل حبلا كهذا على كتفيه. و اذا ما أراد بنيانى تزويج ابنه، و هذا ما يفكر به حين يبلغ الولد سن السادسة أو الثامنة، يجب أن يحدد أحد البراهمانيين الزمن الذى ينبغى أن يبحث فيه الاب عن العروس فضلا عن موعد الزواج، فى هذه الاثناء يبقى الاولاد فى منزل أهلهم حتى سن البلوغ، كما يتوجب على البراهمانيين تحديد أيام الاعياد و اعلام الشعب مسبقا بذلك .

يضطر كل بنيانى بعد أن يغتسل صباحا، إلى الطلب من أحد البراهمانيين وضع نوع من الختم على جبينه، و تقع هذه المهمة على عاتق كهنتهم العاديين، و رأيت يوما، مجموعة جالسة قرب النهر

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۷۱

على مقربة من القصر، حيث تأتى النساء و الفتيات للاغتسال و الصلاة عند الصباح. و تعطى كل منهن الثياب النظيفة لأحد الكهنة، ثم ينزلن إلى النهر، بعدها يبدلن ملابسهن الرطبة و يرتدين الملابس الجافة على الشاطىء، و يقمن بذلك برشاقة و سرعة و حشمة حتى أن المتنبه لا يرى الاجزاء التى يقضى الاحتشام بسترها. و يضع البراهمانى اصبعه فى صباغ أحمر و يطبع نوعا من الختم على جبين الفتاة فتثبته قليلا و إلّا صبغ جبينها كله باللون الاحمر فى لحظات. ثم يأخذ الشخص المختوم أو المطهر علبة الصباغ و يؤدى صلاة قصيرة، و يعطى الكاهن حفنة من الارز أو أكثر، و يعود إلى منزله حاملا ثيابه المبللة. و تحمل بعضهن القليل من ماء النهر معهن ليسقين شجرتهن المفضلة أو لاستعمالات أخرى.

و لا يملك الهنود فى سورات مستشفى للناس، انما مصحا كبيرا للحيوانات، فحين يعطيهم شخص من ديانة أخرى جوادا عجوزا أو مريضا، أو بقرة أو أى حيوان آخر يعتون به حتى ينفق.

و رأيت هناك سلحفاة كبيرة، عرجاء و عمياء و يعتقد أن عمرها يفوق المئة و خمس و عشرين سنة ، كما وجدت كمية من الحيوانات ذوات القرون، و النعاج، و الارانب و الدجاج الخ و كلها حيوانات كسيحة، يعمل طبيب واحد على العناية بها.

و نجد بين الهنود أناسا يختارون تعذيب أنفسهم بغية كسب رضا الله و محبته، و يقال إن بعضهم يطلبون أن يدفنوا أحياء و وجوههم نحو الاسفل. و اختار أحدهم أن يعيش ۲۰ عاما فى قفص فى الهواء الطلق، مكتف اليدين و هو يرفعهما نحو الاعلى، ثم أن ينقل فى ما بعد إلى المعبد فى دلهى ليقطع رأسه. و بقى بالفعل لسنوات فى القفص أمام حديقة خارج سورات، لكن المنية وافته قبل وصولى إلى المدينة و قبل مرور العشرين عاما المذكورين. و بما أنه لم يكن يتحرك، عقدت اعضاءه فى الوضعية التى اخذها، و لم يتلفظ بكلمة واحدة فى السنوات الاخيرة، و بقى ينظر نحو الاسفل أمامه و عيناه لا تفارقان نقطة معينة، و لم يقص شعره أو أظافره خلال المدة التى قضاها فى القفص لذا يمكن أن نتخيل منظره المرعب بسهولة. و لم ينقصه يوما الخدم الذين ظنوا أنهم يكتسبون بعض القداسة من جراء الخدمات التى يقدمونها لهذا القديس المزعوم أو الذين اختاروا أن يعيشوا من الصدقات الكثيرة التى يحضرها الناس له. و نذر شخص آخر أن تبقى ذراعه دائما مرفوعة نحو الاعلى، و يقال إن هذا ما فعله لسنوات عدة، و ظن آخر أنه يظهر ورعه لله إن حمل سلسلة غليظة تنتهى بحجر. و يقال إن امرأة اعتادت تدريجيا على الصوم، حتى أنها لم تتناول خلال ۴۰ يوما سوى بعض الماء العذب يوميا.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۷۲

باختصار، إن صوم الرهبان المسيحيين و تقشّفهم و إماتة الجسد عندهم ليست سوى نقطة من بحر العقوبات التى يفرضها الهنود على أنفسهم.

و نجد بين الهندوس أيضا رهبانيتين لقدّيسين متسولين أو حجاج. يطلق عليهم اسم بارغى و غيساين(Bargus et Gusseins) ، و هم اعداء، يسافرون دوما مسلحين و ضمن مجموعات كبيرة احيانا، و حين يلتقون فى مكان ما تقع معارك دامية بينهم. و خيّم منذ سنوات عدد كبير منهم لأشهر قرب سورات، و بدا الحاكم خائفا منهم، فلم يسمح يوميا الا لعدد قليل منهم بدخول المدينة لشراء المؤن و الحاجيات.

كما لا تخلو المدينة من دراويش مسلمين، يحلو لهم أن يجلسوا قرب حفرة أو تحت شجرة، و يجعلون قربهم جرارا كبيرة تملأها العجائز بالماء بغية تكريم الله. و لا يخل هؤلاء بالماء، كما يباركون المارّة و يدعون للاوروبيين و المسلمين و غيرهم على حدّ سواء. لكنهم فى الوقت نفسه متسولون و قحون، يجلسون احيانا أمام منزل ما، و يرفضون المغادرة حتى يدفع لهم أهل البيت المبلغ الذى يطلبونه أو المبلغ الذى يتفقون عليه معهم. و لا تتدخل الشرطة فى أمورهم حتى يضطر الناس إلى تهدئتهم بأى طريقة ليخلصوا من صراخهم و طلباتهم.

و نجد فى سورات عددا كبيرا من الفرس، و هم تجار ماهرون، و حرفيون بارعون و خدّام جيدون، كما يقيم فى المدينة بعض الأرمن و الجيورجيين و اليهود، فضلا عن العديد من الكاثوليك الهنود و يسمّى هؤلاء برتغاليون، و يجب على البرتغاليين القادمين من اوروبا تعلّم لغتهم السيئة لأنها المستعملة فى الهند، شأنها فى ذلك شأن الايطالية العامية التى يستخدمها الاوروبيون فى الشرق.

يبدأ المسلمون فى سورات يومهم عند غياب الشمس كالعرب و الاتراك، لكنهم لا يحسبونه بالساعات، بل يستخدمون طريقة سكان البلاد القدامى أى البوار،(Be r) و الغارى(Garri) و البول(Poll) و الوبيول(Wipol) ، و يقسمون الليل و النهار إلى ۷ بوار أو ۶۰ غارى، و الغارى إلى ۶۰ بول، و البول إلى ۶۰ و بيول. لتسجيل وقت الغارى، يستخدم الهنود ساعة مائية و هى كناية عن طاس من النحاس دائرية القاعدة على شكل أقداحنا الصغيرة، و فى قعرها ثقب تدخل منه المياه بقوة. و لاحظت أن المياه ملأتها خلال ۳ دقائق، وفقا لساعاتى، ثم غرقت الطاسة. لو كانت

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۷۳

الستون غارى تعادل ۲۴ ساعة، ما كان يجب أن تغرق الطاس إلا بعد ۲۴ دقيقة، لكن تبين من التجربة أن مراقب هذه الساعات لا ينتبه إلى وضع الطاس على الماء أولا والى أن الثقب الذى تدخل منه الماء يكون كبيرا احيانا. إن جرس الهنود عبارة عن قطعة نحاس مسطحة سميكة و مستديرة، يبلغ قطرها حوالى قدمين و نصف. يعلق هذا الجرس، و عند كل غارى أى كل ما لمست الساعة المائية قعر الماء يضرب بمطرقة خشبية.

إذا عادلت ۸ بوار ۶۰ غارى، يساوى كل بوار ۷ غارى و ۳/۲ الغارى، لكن هذه الحسابات لا تتبع بدقة فى الحساب المدنى، نعتبر أن أول و ثالث بوار يساويان ۷ غارى، و الثانى و الرابع يساويان ۸ غارى. حيث يمرّ بوار بأكمله، و يضرب السبعة أو الثمانية غارى، يضرب بعدها ببطء عدد البوار، لكن لا يتعدى ذلك الاربعة، كما لا تدق أجراسنا سوى الثانية عشرة. و يبدأ النهار ببوار، و فى سورات يعد ۳۲ غارى فى أطول يوم و ۲۸ فى أقصر يوم.

رأيت هذه الساعات المائية، و هذه الاجراس فى منزل حاكم مخلوع، حيث تكثر الساعات على أنواعها، و قد تمّ الاحتفاظ بها على سبيل العادة أو للترف اذ قيل لى إن الاعيان يكلّفون الخدم بحمل هذه الاجراس أمامهم فى المسيرات، لكنهم يستخدمون الساعات

الرملية عوضا عن الساعات المائية. و قلما نجد هنا ساعات تعلو الابراج كما فى تركيا و شبه الجزيرة العربية.

و تلفت الانتباه، من بين حدائق سورات، تلك التى أمر بزرعها و بنائها تك بغ خان (ذكرته سابقا)، و التى كلفته ۵ لاک روبية (حوالى ۳۳۳۰۰۰ درهم). نجد من بين أبنية هذه الحديقة العديدة، الكثير من الغرف الكبيرة المفتوحة من احدى الجهات يعلوها سقف كبير يضفى مزيدا من الفىء عليها، كما نجد حمامات رائعة، و شلال و بحيرات عدة تتصاعد منها المياه فى نوافير، و هذا ما يتلاءم و المناخ. لكن الدرب المؤدى من المدخل الرئيسى إلى المبنى الاساسى ضيق للغاية و متعرج تكثر على جوانبه الابواب حتى أن المرء يمكن أن يضيع فى وضح النهار، و ينطبق الامر نفسه على الممرات الاخرى بين الأبنية، و يعود السبب إلى أن سيّد القصر يخشى الهجمات المفاجئة. و تتميز الدروب فى الحديقة و العديد من السهول بأنها مرصوفة، لكن هذا البناء الرائع و هذه الحديقة الغنّاء لا يوليان العناية اللازمة، لأن المسلمين هنا كما فى تركيا و فى شبه الجزيرة العربية يفضلون بناء قصور كبيرة ليخلّدوا اسماءهم و يرفضون صرف المال لصيانة بناء شيّده شخص آخر.

رسمت خارطة لأجزاء هذه الحديقة الاساسية على اللوحةXIV ، لاعطاء القارىء فكرة عن كيفية تنسيقها: ۱) المبنى الرئيسى المؤلف من ثلاثة طوابق مع شرفة فى الاعلى. ۲) شرفة كبيرة على سور الحديقة. ۳) الأجنحة المؤلفة من طابق واحد، مع ديوان مفتوح لكل منها و شقق صغيرة

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۷۴

عدة. ۴) خزانات مياه كبيرة و صغيرة مع نوافير. ۵) دروب و مساحات مرصوفة بالزجاج. ۶) مركز الحرس الداخلى فى اسفل المبنى و فوقه غرف عادية. ۷) حريم مقفل أو منازل لزوجتى المالک مع حدائق و نوافير ماء، و ذلک فى مكان أعلى من الحديقة الرئيسة، كى لا يتمكن أحد من رؤية ما فى الداخل. و يتم تجهيز هذه الاماكن بطريقة تجعل كل زوجة مستقلة عن الاخرى و تتوفر لديها كل وسائل الراحلة و يمكنها أن تستخدم العديد من الخدم و الحشم ۸) مكان اقامة الزوجة المفضلة على الارجح، و فيه حمام رائع مع نوافذ زجاجية مصقولة كالمرآة. اعتاد الحاكم العجوز التوجه غالبا إلى هذا الحمام لتحيط به نساء جميلات عاريات يضطررن إلى بذل أقصى جهدهن لإثارة اهتمامه. ۹) بناء من طبقتين، فيه دواوين مفتوحة و مكاتب عدة صغيرة. ۱۰) بناء متواضع، فيه دواوين عدة مفتوحة، يمكن استخدامه كحريم.

و نجد من جهتى سور الحديقة شقفا صغيرة ملاصقة له مخصصة لخادمات و عبيد الزوجة التى يجعلها السيد تقيم فى هذا المبنى المنفرد، ۱۱) مبنى واسع مؤلف من طبقة واحدة، فيه دواوين عدة مفتوحة و حمامات و شقق صغيرة، و قد اعتاد تك بغ خان استقبال ضيوفه و عقد اجتماعاته فيه.

۱۲) مبان صغيرة قرب شلال. ۱۳) حائطان متقوبان على شكل قوس. ۱۴) باب عظيم، مع اماكن اقامة عدة للحرس، و يقع هذا الباب خارج الحديقة، اذ لا نجد فى سور هذه الاخيرة الا ابوابا صغيرة. ۱۵) ثلاثة آبار، تستخرج منها المياه بآلة تعمل على المياه على شكل ناعورة ، ثم تجمع هذه المياه فى خزانات و تجر منها إلى الينابيع و النوافير.

و تعتبر حديقة الهولنديين أجمل حديقة بين تلك التى زرعها الاوروبيون، و تتميز بموقعها قرب نهر تابى. و للاوروبيين فى سورات مقبرة خاصة، فيها بعض الاضرحة التى تستحق الزيارة و الاهتمام، أما أكبر كنيسة فى مدفن الانكليز فعبارة عن مبنى يبلغ علوه ۴۰ قدما ينتهى بقبة جميلة للغاية و ابراج على الزاويتين. و قد دفن فيها الاخوان كريستوف و جورج اوكسندن، و توفى الاول فى سورات فى العام ۱۶۵۹، و الثانى، و كان حاكما لبومباى، فى العام ۱۶۶۹. و يعود أبهى قبر فى مدافن الهولنديين لهنرى ادريان بارون رهدن فى دراكنشتين، و قد ارسلته الشركة الهولندية للهند الشرقية إلى سورات بغية مراقبة سير أعمال وكالتها و موظفيها، لكنه لقى مصير الذين اتوا قبله فى المهمة نفسها، فتوفى فى العام ۱۶۹۷، و هو فى طريقه من باتافيا إلى سورات و دفن فى المدينة الاخيرة فى مأتم مهيب.

و كانت مدة اقامتى فى المدينة قصيرة فلم تسمح لى برسم خارطتها، فضلا عن أن هذا العمل

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۷۵

أخطر فى الهند بين الاوروبيين منه بين الاتراک و العرب، و لم أشأ أن يشک بى الانكليز الذين تعاملوا معى بلياقة و أدب إن شاهدونى أرسم ممتلكاتهم . و تلقيت خارطة لمصب التابى، رسمها انكليزى منذ سنوات، صحح فيها بحار هولندى أقام لسنوات فى سورات الموقع الحالى للأرصفة الرملية، و قد طبقت هذه الخارطة على اللوحةXIV لأعطى القارىء فكرة دقيقة عن هذه المدينة.

العودة من سورات إلى بومباى

فى ۸ نيسان/ أبريل، غادرت سورات لأعود إلى بومباى على متن السفينة نفسها التى قدمت بها.

و اتفقنا على المغادرة باكرا، لكننا لم نترک المدينة الا فى الساعة العاشرة. و لم تبلغ السفينة الا فى الثالثة بعد منتصف الليل، و لم أكن مستعدا لرحلة كهذه أثناء الليل فى مركب مفتوح فأصبت بزكام شديد. و غادر جايمس ماسات، قبطان سفينتنا فى سورات، فى اليوم التالى عند الخامسة صباحا، فوصل على متن السفينة فى الواحدة بعد الظهر، و أبحر مركب صغير آخر بعد ساعة و لم يبلغ السفينة الا فى العاشرة و فى الساعة الثانية و عشر دقائق بعد الظهر، نستنتج من ذلک، أن الرياح و حركة الموج يمكن أن تعيق المسافرين فضلا عن أن سفينتنا كانت ترسو بعيدا عن اليابسة.

فى ۱۱ نيسان/ أبريل، أبحرنا مع حوالى خمسين مركبا صغيرا، اجتمعت لتصل إلى بومباى فى حمانا. فى ۱۲ من الشهر نفسه، صادفنا بعض القراصنة، أرادوا الاقتراب من موكبنا فتجمعت المراكب الصغيرة حول سفينتنا، و أطلق القبطان بعض القذائف المدفعية لكنهم لم يكترثوا للأمر حتى أصابتهم احدى القذائف. و ابتعد القراصنة لكنهم لم يختفوا كليا، مما جعلنا نخشى أن يعاودوا الاقتراب منّا ليلا لأنهم يستغلون الظلمة ليهاجموا عادة من جميع الجهات، و حين تطلق السفينة الانكليزية النار من احدى الجهات يخطفون المراكب الصغيرة من الجهة الاخرى. و لم يجسروا على الاقتراب منا، فوصلنا بومباى فى ۱۳ نيسان/ أبريل.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۷۷

عند عودتى، كان الانكليز ينتظرون سفينتين لارسالهما إلى اوروبا قبل موسم الامطار، و أملت أن أجدهما فى بومباى، لكننى علمت انهما لن تصلا قبل موسم الامطار، لأنه تم إرسالهما من البنغال و مدارس إلى باتافيا و بنكولن، و قررت أن أسافر على متن السفينة التى جئت معها من سورات إلى الصين لأبحر بعد ذلک نحو كوبنهاغن على متن سفينة دانماركية، لكن فى ۲۰ آب/ أغسطس، و عند موعد ابحار السفينة، مرضت و لم يكن بامكانى السفر من دون أن أعرّض حياتى للخطر.

و بقيت فى بومباى مرغما خلال موسم الامطار، فقررت العودة عبر البصرة حالما تسمح لى صحتى بذلک. كنت و السيد كرامر قد أرسلنا من ترنكبار كافة الغرائب الطبيعية التى جمعناها فى الخليج العربى ثم بعثت مخطوطات رفاقى كلها و جزءا من أوراقى مباشرة عبر لندن إلى كوبنهاغن. و لأننى لا يسعنى التكهن بما ينتظرنى فى طريق العودة، اعتبرت أن الحذر يتطلب أن أرسل هذه الاوراق كافة عن طريق آخر كى لا تصبح الرحلة غير مجدية اذا ماوافتنى المنية أو اذا ما تعرضت للسرقة.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۷۸

رحلة من بومباى إلى مسقط و بوشهر

تركت بومباى أخيرا فى ۸ كانون الاول/ ديسمبر ۱۷۶۴ على متن سفينة حربية صغيرة تابعة لشركة بلاد الهند كان عليها السفر من مسقط و من الخليج الفارسى. قلما تتغير وجهة الريح فى هذه الأنحاء و عادة يعرف البحارة الماهرون مسبقا أى ريح ستقابلهم فى هذا الموسم أو ذاک. فى بعض الاشهر يسافر البحارة من بومباى إلى مسقط مباشرة أو حتى إلى البصرة دون أن يحتاجوا إلى طىّ شراع مصطبة السفينة. لكن فى أشهر أخرى يجب أن يتجهوا نحو الجنوب أولا ثم ينزلوا شراعهم نحو الغرب إلى أن يلتقوا بالرياح فبواسطتها يمكنهم العودة إلى الشواطىء العربية و الخليج الفارسى. عندما حزمنا أمتعتنا للرحيل لم نكن فى الموسم الافضل و لا حتى فى الموسم الاسوأ للسفر. كان القبطان يترقب هبوب الرياح الشمالية مما جعله يحترس من التوجه كثيرا منذ بداية السفر نحو الغرب لأن الهواء الشمالى كان سيعاكسه حتما.

و على طول الساحل الهندى على بعد درجتين أو ثلاث درجات منه فقط كنا نرى حيات البحر الصغيرة التى ذكرتها فى المجلد الاول. يقال ان الخليج الفارسى ملىء بها كذلک. فى مساء ۱۲ كانون الاول/ ديسمبر اشتد لمعان مياه البحر كما لم أر مثله فى حياتى فبدا سطح الماء و كأنه مغطى بشعلات من النار على مساحة نصف ميل ألمانى بينما لم نكن نرى فى مناطق أخرى إلا لمعانا بسيطا جدا

عندما يهتاج ماء البحر . و كنت قد ذكرت سابقا أن سبب هذا اللمعان يعود إلى قناديل البحر. في اليوم التالي عندما كان الجو لطيفا رأيت كمية كبيرة من هذه القناديل و كان بعضها كبير الحجم كما لم أر مثله قط. تشير الدلائل إلى وجود حيوانات بحرية أخرى تعطي أشعة أثناء الظلام. في بومباي لطالما رأيت نورا يشبه الفوسفور على الطرقات و كنت في بادىء الامر أحسبه خشيا عفنا لكنني اكتشفت انه بقايا سمك لزج يشكل طعام الفقراء في هذا المكان.

أثناء رحلتي إلى مسقط كنت أنتظر المساء عندما يكون الجو صافيا لرؤية ضوء النجوم المشع الذي سأل عنه السيد ميكائيليس في سؤاله رقم ۸۸ خاصة و قد أكد بعض المسافرين أن النجوم الثابتة لا تلمع قط في بعض المناطق الشرقية كما في اوروبا تماما. في ۱۵ كانون الاول/ ديسمبر،

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۷۹

كانت السماء على درجة عالية من الصفاء فرأينا كوكب المشترى و كوكب الشعرى ما إن ظهرا، لكن لم نتمكن من رؤية كوكب بروريون(Proryon) إلا عندما صعد إلى ارتفاع ۲ و النجوم الصغيرة الا على ارتفاع ۱۰. أما النجوم الاكبر حجما فرأيناها تلمع على ارتفاع ۲۵ درجة كما لو لم تلمع أبدا في أوروبا في ليالي الصيف.

في ۲۱ و ۲۲ من الشهر نفسه، رأينا مجموعة كبيرة من الدلافين التي بدت و كأنها تسير معنا و التي كانت تسبقنا بالرغم من أن سفينتنا كانت تسير بسرعة ۳/ ۴ الميل في الساعة. رأينا من ۸ إلى ۱۰ دلافين تقفز في الماء دون أن تضيّع طريقها و دون أن تتأخر عنا. في هذا اليوم الأخير أي (۲۲ كانون الأول/ ديسمبر) رأينا رأس قلحت(Ras Kalhat) على ساحل عمان. اعتاد المسافرون الانكليز على اعتبار هذا الرأس جزءا من بلاد اليمن. في اليوم ۲۳ اقتربنا من مسقط. أصبح الهواء هادئا و لشدة ما كان الجزر قويا على الشاطىء تراجعنا عنه أثناء الليل ستة أميال ألمانية. في اليوم التالي، كانت وجهة الريح معاكسة بالنسبة إلينا و كان المدّ لا يزال قويا فتكبدنا الكثير من الصعاب كي نبقى بعيدين عن اليابسة. إن الساحل العماني شديد الخطورة و مياهه شديدة العمق تصل بالقرب من اليابسة إلى ۵۰ باعا. في اليوم ۲۸ كنا لا نزال بالقرب من رأس قلحت. منذ هذا اليوم حاولنا الوصول إلى عرض البحر ثم أصبحنا في مأمن من تحطّم السفينة.

خلال باقي الرحلة واجهتنا رياح معاكسة و مد و جزر إلى اليوم الثاني من شهر كانون الثاني/ يناير ۱۷۶۵. منذ ذلك اليوم كثرت العواصف و الامطار و تواصلت و بما اني لم أكن أحمل ثيابا شتوية (لأني استعدت لباسي الأوروبي في بومباي) تأثرت بالهواء البارد. لكن في اليوم الذي ذكرته آنفا أصبح الهواء جيدا و وصلنا إلى مرفأ مسقط في ۳ كانون الثاني/ يناير.

في اليوم الرابع وصلت إلى المرفأ عدة سفن هندية و كانت تعبر عن فرحها بالوصول على طريقة بلادها فتقرع الطبول و تنفخ في الابواق. رست إحدى السفن بالقرب من سفينتنا و كم عجبت لرؤية فرنسيين توجها إلى الهند بعد هزيمة بونديشري و هم يعملون في الوقت الراهن كجنود عند قبطان هندي. هناك العديد من أهل بلادنا الذين تفرقوا خلال الحرب الاخيرة و أجبروا على العمل بكد لكسب رزقهم لدى المسلمين و عبدة الاصنام.

إن صاحب مسقط هو أمير عربي يعيش في قصر و يدعى إمام عمان، أما سكانها فهم جميعا من المسلمين. إن القرآن هو كتاب شريعتهم و دينهم و هم ينتمون إلى المذهب الإباضي. و مع انه معروف جدا و قد حكى عنه الكتاب العرب لكن لم يذكره أحد من المسافرين الاوروبيين يسميهم السنة و الشيعة باسم الخوارج و هو لقب شنيع في عمان تماما كما هو اسم الارفاض بالنسبة للفرس.

تكلم ابو الفرج على الخوارج و اعتقد ان سال(Sales) ذكرهم أيضا و يسميهم البعض الخارجين.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۸۰

ان مبادئهم التي ذكرت بعضها في كتاب وصف شبه جزيرة العرب تتفق مع مبادىء الخوارج و هم لا يميزون أهل بيت محمد و على أو يفضلونهم عن أي عربي ينحدر من عائلة عريقة. لم أعرف مسلمين يعيشون بتقشف شديد مثل الإباضيين فهم لا يدخنون التبغ و لا يشربون لا القهوة و لا الكحول، إن الأغنياء منهم يلبسون مثل ثياب الفقراء. و الفرق الوحيد في الملبس يتجلى من خلال العمامة التي تكون من قماش افخر و من خلال السيف الذي يضعه في وسطه و الخنجر الذي يحمله في الجهة الامامية من جسمه. و الإباضيون لا يسمحون لأنفسهم بالانقياد وراء الشهوات و هم مهذبون مع الغرباء و يسمحون لهم بالعيش بحرية في مسقط وفقا لقوانينهم. و على عكس البانيان الذين يجبرون على دفن موتاهم في اليمن، يسمح لهم أن يحرقوهم في مسقط كما و يسمح لليهود بارتداء زي العرب إذ لا يجبرون هنا كما في البلدان العربية الاخرى بارتداء ثياب تميّزهم. في البلاد السنية عندما يعثر على يهودي أو مسيحي أو بانياني بصحبة مسلمة يجبر على اعتناق الدين الإسلامي أو على دفع غرامة نقدية ضخمة، أما عند إباضيي مسقط فلا ينزعج الحكم من هذه الظاهرة شرط أن تكون المرأة من بنات الهوى اللاتي يحصلن على المال أجرا لما يفعلن علما ان هناك عددا كبيرا من النساء المتعطلات اللواتي يقمن في حي خارج المدينة .

للشرطة سلطة واسعة في هذه البلاد فنحن لا نسمع بحوادث سرقة بالرغم من أننا نرى البضائع معروضة دائما في الشارع لأسابيع متتالية. لا يتجرأ أحد على النزول إلى الشارع ليلا من دون نور و لا يسمح لأي مركب بالرسو بعد مغيب الشمس أو بالانتقال من سفينة إلى أخرى و ذلك حفاظا على رسوم الجماركي.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۸۲

يخضع للامام كل من الوالي، و الوكيل، و هو المسؤول عن الضرائب و عن التجار و الغرباء، و القاضي. يبلغ عدد الهنود أو البانيان و التجار و الحرفيين و الخدم ۱۲۰۰ و هناك أقلية من الهنود لكن وجود الاوروبيين معدوم تماما. كنت أحمل معي رسائل توصية من بومباي إلى الوكيل و الى سمسار الانكليز و هو بانياني و قد تعاملا معي بكثير من اللطف. لم أزر الوكيل الا نادرا كي لا أكون مجبرا على الإفصاح له عن سبب تجوالي داخل المدينة و خارجها. أما الثاني فقد عرفني على عربيين و على شيخ الهند فأعطوني معلومات جغرافية قيمة عن عمان تجدونها في كتاب «وصف شبه جزيرة العرب» تجدون في اللوحة ۱۵ خارطة مدينة مسقط. لقد خصت الطبيعة مسقط بأسوار طبيعية فعلى الصخور الموجودة من جهتي المرفأ حيث تحتمي أكبر السفن من الرياح، هناك سرايا عديدة مدججة بالاسلحة و مزودة بالمدافع. من بين القلاع اثنتان تستحقان أن تذكرا هما قلعة مراني و قلعة جلالي لأنهما الاكبر حجما و بسبب موقعهما على الصخور الشديدة الانحدار و المجاورة للمدينة. أما البروج فهي صغيرة. يحيط بالمدينة سور ليس شديد الحصانة مزود بثمانية بروج مسلحة بالمدافع.

الأسوار ضعيفة من الجهة الشمالية الغربية إذ يتخلل حائط المدينة دقران من الخشب لتمر منه المياه المتساقطة بغزارة من الجبال المجاورة. أما منازل السكان فهي بسيطة جدا لأنهم لا يبحثون عن الفخامة. و حتى مساجدهم صغيران و معتمان و لا تعلوهما أية مئذنة. إن أفضل ما بني في هذه المدينة كنيستان برتغاليتان احداهما تحولت اليوم إلى منزل الوالي و الثانية إلى متجر. هناك سهل خارج المدينة، مساحته لا بأس بها بالاضافة إلى بساتين يطيب الجلوس في ظلالها في المواسم الحارة تحت شجر النخيل و غيره. يغيب الفن عن هذه المدينة أما البيوت المبنية خارج اسوارها أي في ضواحي مسقط فهي أكواخ حقيرة مغطاة بالحصر نرى مثلها أحيانا داخل المدينة. لقد قامت الطبيعة بتعزيز كل شيء. تحيط بالسهل صخور شديدة الانحدار و للسهل ثلاثة طرق تؤدي اليه يمكن نزولها بسهولة. يؤدي أحد هذه المخارج إلى صدوف(Soddof) و آخر إلى قلبو (۶)(Kolbu) و الثالث إلى مطرح(Mattrach) . إن المكانين الاولين هما قريتان حقيرتان. أما المكان الاخير فهو مدينة فيها قلعة و الكل يقع على شاطىء البحر.

إذا تقع مسقط عند طرف الخليج بين الصخور المنحدرة على رأس أو قل على شبه جزيرة على ۲۳ ۳۷ من القطب و تبعد عن بومباي ۱۲ إلى الغرب وفقا لحسابات القباطنة الانكليز. يزعم هؤلاء أنه عند ما يكون القمر بدرا أو عند ولادته يسجل أعلى مستوى للمياه عند الساعة ۱۱ و ان ارتفاع المد يصل أحيانا إلى ۱۲ أو ۱۴ قدما. أما انحراف البوصلة فهو ۴ درجات أو ۵ درجات إلى الغرب.

على قدم أحد الجبال (قرب ۸) هناك بئر يزود مسقط بالمياه المنعشة أثناء فترات الجفاف. يتم

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۸۳

جلب هذه المياه بكثير من الصعوبة بواسطة ثور في كيس كبير من الجلد ثم تصبّ في خزان و تقودها الانابيب إلى القناة. يبدو أن هذه القناة هي أيضا من عمل البرتغاليين. بالقرب من (۹) هناك أنبوبان من الحديد كانت تغلق في الماضي بواسطة حنفيات أما اليوم فتغلق بواسطة قطعة جلد يجب انتزاعها كلما أردنا الحصول على الماء. في القلعتين (۱ و ۲) هناك خزانات كبيرة للمياه تكون دائما مليئة بماء البئر الآنف الذكر.

أكد بعض المسافرين انها تمطر مرة في السنة في مسقط لكن طوال اقامتي في هذه المدينة كانت السماء تمطر و ذلك ابتداء من ۱۲ و

حتى ۱۷ كانون الثانى/ يناير. و لشدة ما كان الجو متكدرا كنت سأضطر إلى مغادرة المكان دون أن أدون أى ملاحظات قيمة تتعلق بارتفاع القطب.

أما فى أيام الصيف عندما تقترب الشمس من السمت و عندما تعكس الصخور الجرداء أشعتها تشتد الحرارة فى هذه المدينة لدرجة لم أشهدها قط فى أى مكان آخر فى العالم.

تبدو الجبال على شاطىء عمان جرداء قاحلة. أما الوديان فهى خصبة شديدة الزرع لذا نجد الكثير من الفاكهة فى مسقط. كذلك اللحوم جيدة و يكثر السمك فى المواسم . إن أهم المنتوجات التى تصدرها عمان هى البلح. تنطلق سفن محملة بالتمور من عدة مرافىء فتتجه نحو الخليج العربى و بلاد العرب و غيرها من البقاع. و تشكل مسقط مخزنا لغالبية البضائع التى تنقل من الخليج الفارسى إلى حضرموت و اليمن و الحجاز. و لقد تكلم آريان و غيره من الكتاب اليونانيين القدامى على مرفأ يدعى مسقا(Mosca) فى هذه الانحاء و بدا يشبه مسقط إلى حد بعيد فلا شك أنّه هو نفسه. فبالاضافة إلى أن الاسماء متشابهة تكثر الصخور على الشاطئين و الماء فيهما شديد العمق لذا يمكننا القول إن مرفأ مسقط لم يتغير منذ العصور السالفة. لم أجد أى كتابة حول مسقط فى كتاب أبو الفدا و فى جداول نصير الدين.

كانت صهار حينئذ أهم مدينة تجارية فى عمان. و لربما كانت حكومة مسقط فى ذلك العهد تمنع التعامل الخارجى مع الغرباء، لذا لم يرد اسم مسقط فى مؤلفات الكتّاب السابقى الذكر.

إن أحدا من الاوروبيين لم يترك مسقط ليتجول داخل البلاد إلا أن ولاية عمان تستحق أن

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۸۴

يتوغل فيها الجغرافيون و الفيزيائيون كما أن السفر فيها أكثر أمنا حتى من اليمن . لم تسمح لى حالتى الصحية بالقيام بهذه الرحلة. دائما تسنح الفرصة هنا بالذهاب إلى الخليج الفارسى على متن سفينة صغيرة يسميها العرب طراد(Tarad) أو ترانكى(Tranki) و لقد وصفت تركيبتها فى الجزء الاول. إلا انى قررت عدم القيام بهذه الرحلة نظرا إلى أن حالة الرياح لا تكون ثابتة فى هذا الوقت من السنة و بسبب القراصنة. علما اننا لا نخشاهم قط على متن السفن الاوروبية. كنت قد تركت القبطان الذى جئت معه من بومباى إلى الخليج الفارسى لأننى كنت انتظر سفينة اوروبية كانت ستتركك بومباى من بعدنا بفترة وجيزة. وصلت هذه السفينة فى اليوم ۱۲ و خوفا من الا تسنح لى الفرصة مجددا بالذهاب إلى الخليج الفارسى، تركت رحلة التوغل داخل عمان إلى من سيأتى بعدى لعل الظروف و الطقس تسمح لهم بذلك و انطلقت من مسقط فى اليوم ۱۸.

فى مساء اليوم ۱۹ منذ الساعة الثامنة و النصف و حتى الساعة التاسعة و النصف بلغت سفينتنا سرعتها القصوى فاجتزنا فى ساعة واحدة ۵/ ۴ الميل الالمانى و كان سطح الماء على مدّ بصرنا أبيض اللون كأنه سهل مغطى بالثلوج. بعد العاشرة رأينا خطا أبيض يتجه من الشرق نحونا لكنه لم يصل إلى سفينتنا. أما سبب هذا البياض الظاهر فلا شك انه نفسه سبب لمعان المياه الذى رأيته مساء ۱۲ كانون الأول/ ديسمبر بين بومباى و مسقط لكننى فى هذا اليوم لم أر أى لمعان بل خطا أبيض و حسب .

لم يكن القمر قد بلغ الشفق بعد لكن الجو كان هادئا و السماء مليئة بالنجوم مع بعض الغيوم هنا و هناك.

من مساء اليوم العشرين رأينا رأس جسك(Jask) الواقع على الشواطىء الفارسية. بعد ظهر اليوم ۲۱ كنا على ارتفاع ۲۵ ۴۸ من القطب. كان كوه مبارك المسمى بومبارك(Bombareck) على الخرائط الاوروبية يبعد ۳ ۳/ ۴ الميل شرقا باتجاه الشمال و يقع عند ۲۵ ۵۱ بعد ظهر اليوم ۲۳ كان ارتفاع القطب من السفينة يبلغ ۲۶ ۸۳ و من جزيرة سلامة ۲۶ ۸۲، لكن ربما لم يكن مرصدى هنا شديد الدقة لأن رأس مسندم كان يعيق نظرى إذ ان الجزيرة التى كانت عليه حجبت بعضا من خط الشفق عنى. فى اليوم ۲۴ وجدت ارتفاع القطب فى جزيرة طنب و كان ۲۶ ۱۴. حتى فى هذا الوقت كان الهواء شديد التقلب فيهدأ أحيانا ثم يكفهر الجو و تمطر

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۸۵

أحيانا و استمر هذا المناخ المتغير إلى ان اقتربنا من بوشهر(Abushahhr) .

منذ ۲۷ كانون الثانى/ يناير و حتى ۳۱ منه، كان الطقس متكدرا و السماء تمطر و لم استطع قياس ارتفاع القطب الا مرة واحدة. لم أكن قد شهدت قط كل هذا التغير فى الهواء لفترة وجيزة جدا. فالجو يكون هادئا تارة ثم تأتى عاصفة فجأة ثم تهب الريح باتجاه معاكس تارة أخرى كنت أتوقع رؤية أعمدة الماء التى يقال إنها تكثر فى الخليج لكنى لم أر شيئا منها. و لن أستفيض فى ذكر المخاطر التى كانت تحف بنا فى تلك الايام و هى مخاطر لطالما تعرض لها البحارة لذا فمن غير العدل أن نتذمر منها فى هذه الرحلة البحرية الوجيزة.

فى الاول من شباط/ فبراير تجاوزنا رأس بردستان(Berditsan) . يرى البحارة الهولنديون ان هذا الممر هو الاكثر خطورة فى الرحلة كلها ليس لكثرة الصخور التى تجتاح البحر أمام رأس بردستان و حسب بل و أيضا بسبب الجزيرة التى لاحظ وجودها أحد الانكليزيين و التى لم تدوّن بعد على الخارطة فيخشى أنه إذا ما انحرفت السفينة عن الصخور كى لا تصطدم بها، فلربما تصطدم بالجزيرة المغطاة بالماء كليا أثناء المدّ، مع العلم ان الانكليزى رآها فى أيام الجزر. أراد عرب بوشهر إقناعى ان هذه الجزيرة الصغيرة تقع فى الوسط بين رأس بردستان و جزيرة البحرين.

أخيرا فى مساء الرابع من شباط/ فبراير، وصلنا إلى مرسى بوشهر، لكن نظرا لضيق مدخل المرفأ و لكبر سفينتنا، ألقينا بالمرساة على بعد ميلين ألمانيين من غرب المدينة.

بعد وصولنا بقليل تلقينا الاخبار من انكليزى يدعى سازرلند يترأس سفينة من البنغال، كنا قد التقينا به فى اليوم ۲۵ من الشهر السابق قرب جزيرة صورده(Surde) ? أو شيخ صوره(Schech Sure) ? و كان قد ترك بوشهر قبل ستة أيام. و كان هو و الربابنان و رئيس البحارة أوروبيين. من بين البحارة كان هناك أسبانى من مانيلا. أما الباقون فكانوا من الهنود و هم معروفون بجبنهم لكنهم يضطرون إلى تنفيذ أوامر رؤسائهم.

لأن غالبية هؤلاء البحارة هم من الهنود الكاثوليك أو كما يقال من البرتغاليين، يضطر الانكليز و غيرهم إلى تعلم اللغة البرتغالية حتى يتمكنوا من إعطاء التعليمات و من الاستماع إلى البحارة.

و على كل فلا يهتم أحد بأصل البحارة أو بدينهم أو حتى باللغة التى يتخاطبون بها إذ انهم لم يثوروا يوما ضد قبطانهم. و كان سازرلند قد فقد عدة أشخاص خلال رحلته مما اضطره إلى أخذ ۱۲ بحارا عربيا مكانهم.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۸۶

اعتاد هؤلاء المسلمون على تلقى معاملة حسنة من أبناء دينهم. تنشأ دائما الحروب بين أصحاب الاراضى بالقرب من الخليج الفارسى. من هنا نرى البحارة العرب أكثر شجاعة من الهنود و هم يغارون على دينهم فيزدرون أصحاب الديانات الاخرى تماما كما نزدرى نحن اليهود. و لربما كان السبب فى ذلك أنهم لا يحبون الخضوع لأوامر مجموعة قليلة من النصارى أو أنهم يخشون من طريق الهند الطويلة أو أن روح القرصنة تتملكهم فينصبون أنفسهم آمرى السفينة قبل خروجها حتى من الخليج الفارسى.

بعد مرور يومين على حديثنا مع القبطان سازرلند، ألقى بالمرساة قرب جزيرة قس(Kas) بسبب عاصفة هوجاء تعرض لها. ثم أرسل أحد بحارته إلى البر لجلب الماء فاستغل البحارة العرب الفرصة للقضاء على الاوروبيين. أما ربان السفينة الذى بقى على متنها فلقى حتفه بضربة واحدة على السطح. و عندما أحس القبطان بهذه الجلبة خرج من حجرته فرموه برمح اخترقه لكنه لم يمت فى الحال فطعنوه عدة مرات بالخناجر. أراد رئيس البحارة أن يختبىء لكنهم أحضروه و قتلوه، و حتى القبطان الثانى لقى حتفه بطلقة رصاص فى الزورق. و هكذا تحول الاثنا عشر عربيا إلى رؤساء للسفينة لأن البحارة الهنود و بعض التجار الارمن اختبأوا جميعا فى أسفل السفينة و ظنوا أن الخطر بعيد عنهم، و بما أن العرب لم يكونوا يعرفون كيفية قيادة هذه السفينة الكبيرة و علما منهم انها لن تبقى لهم و لأنهم كانوا يبحثون عن السيولة و يعرفون أن سفن البنغال تحمل معها كميات كبيرة من الاموال قرروا أن يتركوا السفينة و يحملوا معهم الاموال بالاضافة إلى بضائع أخرى قيمة و صغيرة الحجم. فنادوا تاجرا أرمنيا ليدلهم على هذه البضائع لكنهم تشاجروا معه ثم قتلوه. بعدئذ حملوا كل ما وجدوا أمامهم و ركبوا فى مركب صغير و هربوا.

أما الاشخاص الذين كانوا قد ذهبوا لجلب الماء و الذين رأوا ربانهم يموت فقد توجهوا فى مركبهم إلى قس و فور علم شيخ هذه الجزيرة بثورة على السفينة حتى أرسل سفينة مسلحة إلى البحر، فلاحقت بادىء ذى بدء القراصنة الذين كانوا ينزلون من السفينة. عند ما تنبه هؤلاء إلى ما يجرى و علموا أن لا مفر لهم أرادوا العودة إلى السفينة لكن الاسبانى أطلق عليهم قذيفة مدفع فلم يجدوا مهربا من الاستسلام. فما كان من شيخ قس الا أن استولى على كل ما كان بحوزة القراصنة بالاضافة إلى حمولة السفينة. لكن سرعان ما

طالبه سيّده شيخ الشارقة(Isjarek) بحصته من الغنائم و تقاسمها مع جيرانه حاكم هرمز(Ormus) و ناصر خان حاكم لارستان(Laristan) الحالي ليتجنب نشوب حرب معهما لهذا السبب. و هكذا تم تقاسم الاموال على أحسن حال و لم يحصل أصحابها الأصليون على أي شيء منها.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۸۸

ملاحظات في بوشهر و شيراز و برسيبوليس(Perspolis)

اشارة

لم تكن مدينة بوشهر أو بوشير كما يسميها الانكليز معروفة من قبل الغرباء إلى أن سرت عادة القيام بفتوحات بحرية في نادر شاه. فقام الشاه بتشييد سفن حربية و اشترى غيرها من الاجانب ثم جهّز أسطولا من ۲۲ إلى ۲۵ سفينة تجمعت في بوشهر. أدى ذلك إلى شهرة المدينة و قد أصبحت حاليا مرفأ شيراز و تخضع أكثر من باقي المدن الموجودة على هذا الساحل إلى الوكيل أو حاكم بلاد فارس الحالي. و كما للوكيل عدة سفن كذلك لشيخ بوشهر و هو حاكم البحرين عدة سفن بحرية صغيرة و مركب كبير.

يمكننا رؤية موقع بوشهر و المدن المحيطة بها في اللوحة ۱۶ التي نسختها عن رسم قام به أحد الانكليز. المدينة مثلثة الشكل و تطل بجانب من جوانبها الثلاثة على البحر. يحيط بالجهة الثالثة سور سيء و بعض الابراج. و في أيام المدّ تغمر المياه المدينة تماما كما في لحية في اليمن فتبدو المدينة كما لو أنها تقع حينا في قارة و حينا في جزيرة. وفقا لملاحظاتي فإن ارتفاع القطب هنا يبلغ ۲۸ ۵۹ و تميل إبرة البوصلة فيها ۷ ۳۰ إلى الغرب. لا يمكن قياس ارتفاع مستوى الماء و انخفاضه أثناء المد و الجزر بدقة في هذه المدينة بسبب عدد الجزر و أرصفة الرمل الكثيرة الموجودة في الجوار. يقال إن المياه ترتفع لمدة تسع ساعات. ثم تنخفض في ثلاث ساعات يقال إن نسبة المياه تكون أكثر ارتفاعا في النهار منها في الليل في فصل الصيف و العكس صحيح في الشتاء، أما الفرق بين المستوى الاعلى و الأكثر انخفاضا فقلّما يصل إلى ستة أقدام. ترتفع الحرارة كثيرا في الصيف في هذه الأرجاء و تهطل الأمطار في الشتاء و قد ذكرت ذلك عندما تكلمت على رحلتي من مسقط إلى بوشهر. أثناء إقامتي في هذه المدينة كان الجو متبلدا في الايام ۴ و ۵ و ۶ من شباط/ فبراير و تساقطت الأمطار، أما في اليوم ۷ فسمعنا الرعد و تساقط البرد، و تغطت الجبال التي كنا نراها على بعد ۷ أو ۸ أميال بالثلج.

قبل أن تتدهور الأوضاع في بلاد فارس كان أحد مستشاري بومباي يقيم في أصفهان بينما يقيم التجار الانكليز في كرمان(Kerman) و غمبرون (بندر عباس) و كان هذا الاخير أحد أهم مرافيء بلاد فارس. و في كافة المدن كنا نلتقي بتجار من الشركات الغربية لهولندا و فرنسا. ترك الفرنسيون بغالبيتهم بلاد فارس و لم يبق من الأوروبيين إلا تاجر انكليزي في بوشهر. عندما كنت هناك كان يقيم فيها السيد جرقس و هو رجل كان يهتم بالعلوم في شبابه و يكرس لها ساعات فراغه

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۸۹

عندما ينتهي من أعمال التجارة. و لم يكن يتكلم الفارسية و حسب بل و يجيد كتابتها و قراءتها.

و كان يهوى جمع المخطوطات الفارسية . و لا شك أن العلوم ستستفيد كثيرا من مكوثه في بلاد فارس عندما سيعود إلى أوروبا. كان المسؤول عن هذه المطبعة ابن النحات الشهير ناطر(Natter) و هو معروف جدا في أوروبا. بالاضافة إلى هؤلاء يوجد راهبان هنا أحدهما يلقب نفسه بمطران اصفهان و أنا لم ألتق بأي أوروبي في بوشهر.

يرسل الانكليز إلى هذا المرفأ كميات من الانسجة الاوروبية و من البضائع الآتية من سرات و البنغال، أما عن الصادرات فهي أقمشة الحرير من يزد(Yezed) كاشان(Kashan) و الحرير الاحمر من غيلان(Ghilan) و السجاد (الأفخر نوعا هو الأصفهاني)، و الصوف الناعم و كميات كبيرة من العقاقير الطبية القادمة من بلاد فارس، بالاضافة إلى القطن. و شعر الماعز من كرمان و شتى أنواع الفاكهة الجبلية و ماء الورد و كميات كبيرة من نبيذ شيراز. إن هذه المنتوجات هي جزء من تجارة السيد جرقس الخاصة الذي عين وسيطا شابا يدير أعماله في شيراز كما و تستقدم أعداد كبيرة من البغال و الخيل من بلاد فارس إلى بلاد الهند.

أما مير مهنا التي ذكرتها في «وصف شبه جزيرة العرب» فهي في حالة حرب مفتوحة مع كريم خان حاكم بلاد فارس و بالتالي مع شيخ بوشهر المسمى مقلع الحاكم. قام مرة بمهاجمة القوافل بين بوشهر و شيراز فسبب انقطاعا في التجارة بين هاتين المدينتين. منذ فترة وجيزة أحضر كميات كبيرة من الماشية بالقرب من بوشهر. حاليا يوجد في كور موج(Kor mudsch) جيش صغير لكريم خان يستعد للهجوم على مير مهنا في عاصمته بندر رغق(Bender Rigk) و لم يكن المسافرون في هذه المناطق يخشون على أنفسهم من أي أذى لأن الاثنين كانا يحاولان كسب ودّ الانكليز كان كريم خان يريد أن يتحالف مع شيخ بوشهر للهجوم على مير مهنا من البحر في عقر

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۹۰

داره على أن تهاجمه جيوش المشاة برّا. أما مير مهنا فكان يتمنى أن تتمركز الجيوش الانكليزية في بندر رغق بدلا من بوشهر إلا أنه كان يعرف أن هذا لن يحدث إذ أن الانكليز لم يكونوا يدعمون حاليا شيخ بوشهر بل كانوا يتركونه يهرب بحرا محملا بثرواته في حال لم يستطع الوقوف في وجه جيوش كريم خان البرية. كان السيد جرقس يلعب على الحبلين لحماية تجارته الشخصية و تجارة شركة بلاد الهند. بعد وصولي بفترة وجيزة، أرسل حملة كبيرة من البضائع إلى شيراز عبر كور موج. في هذه المناسبة تجمع عدد كبير من المسافرين منهم التجار الصغار و العائلات الفقيرة و كانوا قد تركوا بلاد فارس هربا من الاضطرابات و أرادوا الآن العودة إليها. على هذا النحو تكونت قافلة لا بأس بها. و مع أنني كنت مضطرا للعودة إلى أوروبا بسرعة لم أكن أرغب بالتخلي عن فرصة الذهاب إلى شيراز و رؤية آثار برسيبوليس التي تبعد مسافة يومين و حسب عن هذه المدينة.

و هكذا اتخذت قرارا بالرحيل في ۱۵ شباط/ فبراير كواحد من ركاب القافلة.

أثناء رحلتي إلى برسيبوليس احتفظت باللباس الأوروبي الذي حملته معي من الهند لكن هذه الثياب القصيرة كانت تزعجني في القافلة. في هذا اليوم لم نصل أبعد من تنكشير(Tankesir) .

من كافة الجهات رأينا بساتين النخيل و كانت القرى المجاورة لها مهدمة جزئيا أو كليا و الأراضي و عرة بعض الشيء. وجدت عرائش عنب في كرمشير(Karmasir) مع انى كنت أستبعد وجودها في هذه البلاد الحارة. كانت العرائش تقع في أرض ملأى بالصخور أو قل في آبار يتراوح عمقها بين ستة و عشرة أقدام. كانت الأغصان العليا تستند إلى أحجار البئر و كي لا يتأذى العنب بفعل الرطوبة، حفرت قنوات لجلب المياه إلى ساق العرائش.

لم تكن قافلتنا تحتوي على جمل واحد و كانت البضائع محملة على ظهر الحمير. و كان بعض التجار قد حمّل بضائعه على الخيل أو امتطى الخيل بنفسه بينما ركب الباقون الحمير أو مشوا على أقدامهم. من بين رفاق رحلتي كان هناك تاجر أرمني ولد في فارس لكنه عاش بعض السنوات في إيطاليا و كان يرتدي الزي الاوروبي ليخاله الناس من أوروبا. لقد سررت كثيرا بصحبة هذا الرجل لأنه كان يلعب دور ترجماني أمام الفارسيين. أضف إلى ذلك انى التقيت ببعض الناطقين بالعربية في القافلة فكانت فرصة للتكلم معهم.

قبل وصولنا إلى تنكشير بقليل سمعنا أصوات المدافع و الطبول و المزامير و صيحات الفرح. ظن البعض من أصحاب سفرى ان قسما من الجيش الرابض قرب كور موج قد وصل إلى القرية و خشي البعض من الالتقاء بجيوش مير مهنا أما أنا فلم ينشغل بالي مع انى لم أكن أحمل بطاقة هوية. ادعيت انى انكليزي و لم أشك قط أن هذا الاسم سينقذني. لدى وصولنا إلى تنكشير علمنا أن الخان قد قدم إلى كور موج و أرسل إلى الرئيس (أي الشيخ بالعربية) لباسا تكريميا و كان الشعب يحتفل بهذه المناسبة.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۹۱

خيّمنا في هذا المكان بالقرب من قلعة حديثة البناء يستعملها السكان كمكان لحفظ مواشيهم في حال شنّ هجوم مفاجيء عليهم من أحد الثوار. ان هذه القلعة مربعة الشكل و يبلغ كل ضلع من ضلوعها ۱۶۰ خطوة مزدوجة. في كل زاوية هناك سور صغير يمثل برجا مستديرا بالاضافة إلى وجود برجين من كل جهة و الكل يتألف من الصلصال. في هذا السور هناك باب كبير و بابان صغيران لدرجة أنه لا يمكن لأحد الولوج منهما دون أن ينحني. يحيط بالقلعة خندق يبلغ عرضه ستة أقدام لكنه مطمور في عدة أماكن. بالقرب من الباب الكبير هناك مدفعان كبيران من الحديد.

لم أر أي بيت من حجر أو طين لا خارج السور و لا داخله و يعيش الرئيس و جماعته في أكواخ صغيرة مغطاة بالقش. كان يظن نفسه الآمر الناهي في أراضيه: مجيء جيش كورموج كان يجبر التجار المارين في أراضيه على اصطحاب مرافقيه لقاء أجر كبير من المال.

فى الليلة التالية مرّ قطيع من الخنازير البرية بالقرب من مخيمنا لكن أحدا من المسيحيين لم يكلف نفسه عناء قتل احدها لأنه لو فعل لما استطاع حملها إلى المخيم دون أن يحظى باحتقار المسلمين. إن الفرس يظهرون قدرا أكبر من الاحترام للأجانب مقارنة مع الأتراك و العرب. و لا شك أن سبب إطلاق اسم فرنسيى الشرق عليهم يعود إلى ذلك. و مع أن بعض المسافرين يقول إنهم غشاشون و إنهم لا يحترمون و عودهم إلا إنى أصر ان الاوروبيين من غير التجار يسعدون فى سفرهم عند الفرس أكثر منه عند الاتراك و العرب. و أكثر ما يزعج لدى الفرس انهم لا يأكلون و لا يشربون مع الوثنيين أو الهنود أو عبدة النار أو المسيحيين أو اليهود أو حتى المسلمين من أصحاب المذاهب الاخرى و يعتقدون أن هؤلاء جميعا مدنسون. أما السنة فلا يزعجهم تناول الطعام مع أصحاب الديانات الاخرى شرط الا يكون هذا الطعام محرّما.

فى اليوم السادس عشر أجبرنا على تمضية اليوم بكامله فى تنكشير لأن صاحب أكبر عدد من الماشية فى قافلتنا أى قروان باشى لم يكن ليغادر بوشهر قبل هذا اليوم. و هكذا سنحت لى فرصة قياس ارتفاع القطب. أضف إلى ذلك أن رحلتى هذه قد سمحت لى بوضع ملاحظات ملكية كثيرة كما لم أفعل فى أى رحلة أخرى. سجّلت بدقة فائقة مواقع القرى تماما كما فعلت عندما كنت فى شبه جزيرة العرب لكنى لا أجد ضرورة من تقديمها للقارىء. فى اللوحة ۱۷ رسمت خارطة يمكنكم فى نظرة واحدة اليها رؤية الطريق من بوشهر إلى برسيبوليس.

فى الصباح الباكر من اليوم السابع عشر تابعنا رحلتنا و رأينا المزيد من النخيل من جميع الجهات لكن لم نر الاكواخ السيئة البناء الا بالقرب من عدد ضئيل من هذه الاشجار. أما السهول التى مررنا بالقرب منها فتدعى أطّة(Utta) و دستى(Dasti) . و تدعى سلسلة التلال الممتدة غربى الدرب دراسى(Drasi) و الجبال الشاهقة من الجهة الشرقية أهرام.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۹۲

من المعروف أن العديد من الأتراك و الأكراد يجولون بقطعانهم فى بلاد فارس. فى هذا اليوم التقينا براع تركى يعزف على ناى أزرق اللون يمكن رؤيته فى اللوحة ۲۶ من الجزء الاول. كان الناى مصنوعا من القصب يزيد طوله عن القدمين و فيه خمسة ثقوب من الجهة نفسها. و بالكاد استطاع رفيق سفرى الذى ذكرته آنفا أن يفهم لغة هذا الراعى مع انه كان قد تعلم اللغة التركية فى البصرة حيث تشكل العربية اللغة الاساسية و التركية لغة البلاط. و هذا امر طبيعى لأن اللغة الواحدة يمكن ان تتخذ عدة لهجات.

بعد أن أرسلت خادمى لشراء علف للحصان، كان على أن ألعب دور الطاهى و هذا ما جعلنى ألاحظ تطير الأرمن الذى لم أكن قد لاحظته بعد. فعندما هممت بذبح دجاجة كنت ملتفتا باتجاه الشرق لكن سرعان ما أخبرنى الارمن انه على المسيحيين الالتفات نحو الشرق عند ذبح الدجاج كما لو أنهم يريدون الصلاة. إلا أن البعض ظن اننى أدرت رأسى باتجاه مكة كى يأكل خادمى المسلم من هذه الذبيحة. ثم فطنت إلى انهم يريدون معرفة صحة دينى من الطريقة التى أقطع بها رأس الدجاجة ففضلت منذ ذلك الحين عدم الخوض فى أمور كهذه.

فى اليوم ۱۸ أمضينا خمس ساعات فى سهل إلى أن بلغنا كورموج و تجاوزنا خليجا من بوشهر إلى داخل البلاد حيث يصير يشبه النهر ثم ينحرف نحو الجنوب و يصب أخيرا فى الخليج الفارسى، إن جزءا كبيرا من كرمشير هو جزيرة بكل معنى الكلمة و سيصبح يوما أرضا صلبة إذا كان الخليج ضيقا و قليل العمق فى أماكن عديدة كما فى هذه المنطقة. إن الارض بالقرب من هذا النهر خصبة. و تنغمر أحيانا بماء البحر لكن اذا ابتعدنا قليلا تصبح الارض صالحة للزراعة مع أن القسم الاكبر منها غير مزروع بسبب قلة السكان.

تقع كورموج فى منطقة جبلية وسط سهل خصب، و يسكن فيها أمير ولاية شهيرة. عندما بدأ كريم خان يستولى على الولايات الواحدة تلو الآخرى فى هذه المملكة، صار يجبر رؤساء القبائل الذين ارادوا اعتبار أنفسهم أسيادا بالوراثة أو أسيادا مستقلين على المكوث فى مدينة شيراز أو على الانخراط فى الجيش بحجة أنه يريدهم بجانبه لاستشارتهم عند ما تدعو الحاجة أو لمساندته فى المعارك لإحلال الأمن فى بلاد فارس. إلا أن نية الوكيل الحقيقية كانت وضع هؤلاء الاسياد تحت رقابته كى لا تتملكهم الرغبة فى الانتفاض عليه. من ضمن هؤلاء الاسياد هناك أيضا سيّد كورموج. عندما كان هذا الأخير يغيب كان يوكل عمه ليحل مكانه باعتبار أن عمه رجل ثقة إلا أن أخيه الامام جعفر سمل عينى العم و استولى على الحكم منصبا نفسه الحاكم و آملا فى أن أخيه لن يعود. فى هذه الاثناء أرسل كريم خان جيشا إلى هذه المنطقة و لم يكن جعفر قد اكتفى بفقء عينى عمه بل تعدى ذلك إلى ارتكاب فظاعات أخرى و لم يكن ينتظر الخير من جيش كريم خان

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۹۳

مع أنه يقال إن الامير كنيه خان سردار أو القائد كان مكلفا بإعطائه ثياب الشرف كدليل على احتفاظه بالحكم. لكن الأمير جعفر الذى كان مقتنعا بالعكس كان يحضّر نفسه للقاء عدو. احتل ممرا ضيقا فى المنطقة الجبلية حيث كان على الجيش أن يمرّ لكنه لم يكن يتمتع بقوة كبيرة فهرب إلى الجبال المجاورة لكن سرعان ما ألقى القبض عليه و رفاقه و اقتيدوا للمثول أمام القائد فأرسله إلى شيراز حيث حكم عليه بنقل تلة من المدينة إلى خارج بابها . مع تقهقر فريق الثوار هذا و تشتته و مع إخضاع مير مهنا إلى حكم كريم خان، قد يظن البعض أن قائد الجيش سيترك هذه المنطقة و سيسير مباشرة نحو بندرريغ إلا أن هذا العفو ليس من شيم الفرس أثناء المعارك. ما إن وصل الأمير كنيه خان إلى كورموج حتى قاد سكانها إلى القلعة و أجبرهم على هدم منازلهم و حرق أكواخهم و لم ينج من ذلك إلا المسجد و قبر أحد الأئمة (و يقال إنه من الأولياء). وجدنا سكان هذه المنطقة بحالة يأس شديد. استوليت على أحد منازل الأمير جعفر و كانت مدمرة جزئيا فوجدت فيها غرفتين صالحتين للاستعمال. كنت أظن أن بلاد فارس كثيفة السكان مثل اليمن حيث نام كل ليلة تحت سقف ما. لكن قبل رحيلى من بوشهر بفترة وجيزة سمعت أن احدا من المسافرين (و جميعهم من الفقراء) لا يحمل خيمة معه و بما أنى لم أشأ لعب دور الغنى لأنه مكلف فى هذا البلد، تركت خيمتى خلفى مما جعلنى أعانى الكثير أثناء سفرى إذ أمطرت كثيرا أثناء الرحلة و كنا مجبرين على النوم فى الهواء الطلق فى غالبية الليالى.

إن أسوار كورموج ليست أفضل من أسوار تنكشير. كنا نرى هنا و هناك حصى و حجارة داخل السور. إن جدران المنزل الذى سكنت فيه كانت مصنوعة من الصلصال الممزوج بالقرميد و الحصى. كان الخندق الذى يحيط بالقلعة جافا مثل خندق تنكشير لكنه أكثر عمقا و يبلغ وسعه عشرة أقدام و حيث تقع أكواخ الفقراء نجد حفرا عميقة كانت مزروعة قمحا قبل أن يقتلعه منها القائد.

عندما عاد القائد الفارسى إلى جوار قلعته حفر خندقا حول مخيّمه و بنى سورا ارتفاعه خمسة أقدام من طين و حجار و نخيل اقتلعه من أرزاق السكان. و قبل إن الجيش الذى جمعه يتألف من ۴۰۰۰ فارس و ۲۰۰۰ من المشاة إلا أن أحد الجيورجيين أخبرنى ان عدد الفرسان لم يتجاوز ۱۱۰۰ و المشاة ۵۰۰ رجل قادرين على الحرب. و كان هؤلاء بعيدين كل البعد عن النظام. نصب كل واحد خيمته أو بنى كوخه حيث أراد و ربط حصانه فى المكان الذى حلا له. إن الخيل الفارسية جميلة. يحمل الفرسان قربينات و مسدسات مزودة بحلقات إطلاق. يضع كل واحد

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۹۴

مسدسين فى وسطه، واحد من الامام و آخر من الوراء. يحمل المشاة بنادق مزودة بفتيل مع أن الأتراك لا يسمحون للمسيحيين بأن يصبحوا انكشاريين إلا أن الفرس لا يميزون بين مسيحى صالح و مسلم. و لقد التقيت فى هذا الجيش بضباط و جنود جيورجيين و مسيحيين. و مع هذا فإن الأرمن و اليونان يكونون ليّنين جدا فى حضور العثمانى الا انى وجدت الجيورجيين أخبرنى ان عدد الفخر و كان ذلك يليق بهم كثيرا. و كانوا يحملون أسلحة جميلة كالبنادق و المسدسات و السيوف و يرتدون ثياب المسلمين.

لا يزال الفرس يقيّمون جيشهم كما فى القديم و يعطون أسماء لضباطهم وفقا لعدد الجنود الذين يرأسونهم. إلا اننا لا يمكن ان نقدر عدد جيش كريم خان من خلال عدد ضباطه إذ تعرفت على ضباط يجب أن يترأسوا ۱۰۰ نفر لكنهم لا يترأسون إلا ۵۰ أو ۶۰ شخصا، إن الضابط الذى يترأس عشرة عناصر يسمّى داغ باشى(Dag Baschi) و الذى يترأس ۵۰ يسمّى ينشا باشى و الذى يترأس ۱۰۰ يسمّى أوزباشى و ينسد باشى الذى يترأس ۵۰۰ و مم باشى الذى يترأس ألف عنصر. إن رئيس المم باشى هو السلطان و هو مرؤوس من قبل الخان. من المعروف أن التر يلقبون رئيسهم بالخان و الأتراك بالسلطان. يبدو أن رؤساء الفرس الأعلون المسمون شاه و باد شاه هم الذين يطلقون على ضباطهم الرئيسيين لقب خان و سلطان لزيادة أهميتهم فى نظر أتباعهم حتى يظن الناس انهم يحكمون أعددا كبيرة من السلاطين و الخان.

عندما كنت مارا أمام خيمة الأمير كنيه خان ناداني أحدهم و طلب منى أن أجلس. وجدت القائد جالسا على سجاد فاخر يغطى أرض الخيمة لكنى لم أجد أى أريكة كما عند الأتراك. أمام الخيمة رأيت عددا من الخدم و جلادا و كانوا جميعا فى وضعية الخضوع و قد كتّفوا أيديهم أمام جسدهم و كان الضباط من خان و سلطان و أصحاب الرتب الدنيا لدى دخولهم و خروجهم ينحنون كثيرا أمامه

و قد أسدلوا أيديهم حتى تشرف على ملامسة الأرض. كان الضباط المجتمعون يتكلمون الفارسية و التركية لكن احدا منهم لا يتكلم العربية. لكن بالقرب من السردار أى القائد جلس رجل دين يتكلم العربية بطلاقة و يصلح لأن يكون مترجمى. و كان الجالسون فى الخيمة يعرفون مسبقا أن يحوزتى آلة أراقب فيها الشمس فى النهار و النجوم فى الليل. طلب منى الامير كتيه خان بأدب أن أطلعه عليها. ظننت انه على اطلاع بعلم الفلك كما كان الباشا جدة (الجزء الاول) لكنه لم يكن يعرف شيئا عن هذا العلم. و هكذا حملت بعد الظهر آلتى إلى المخيم لكن السردار أعفانى من مهمة تركيبها و اكتفى بأن رأى قدمها ظنا منه أن الحديد فيها هو مرقب لرصد النجوم. فى هذه الاثناء قدموا لى القهوة و الفاكهة و طرح على السردار أسئلة عديدة حول الحجاز و اليمن و حالة الانكليز حاليا فى بلاد الهند.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۹۵

فى مساء ۱۹ مات فجأة بغّال من قافلتنا فصار أخوه يعرب عن حزنه من خلال بكاء حاد و صريخ و عويل. و كان احيانا يضرب رأسه أو يقرع صدره أو يضرب فخذيه و لشدة ما كان حزنه صادقا حزنت من أجله و تمنيت لو أنه مات بين أهله فى المدينة كى يبكوا عليه جميعا و يحضروا نساء لندبه إذ إن أحدا من جماعة القافلة لم يشاركه حزنه.

فى اليوم ۲۰ انطلقنا من كورموج إلى لوار(Lauwar) . بعد رحيلنا بقليل أوقف الحراس قافلتنا لأنا لم نأخذ تصريح مرور من السارادار. فتوقفنا ثم انتظرنا ساعتين و حسب إلى أن أحضر القروان باشى التصريح. فى هذه الفترة تعرفت على عرب أخذهم نادر شاه بالقوة من بغداد و كانوا يعملون كجنود مرة عنده و أخرى عند خان الفرس الثانى.

تقع قرية لوار فى سهل شديد الخصوبة فى منطقة جبلية و فيها قلعة و يحكمها رئيس بالوراثة كما فى تنكشير. إن والد الريس الحالى قد مات على يد الامير جعفر السابق الذكر. و كان ابنه قد لجأ إلى كريم خان طالبا منه الثأر لأبيه و وعده بتزويد الجيش الذى سيأتى إلى المنطقة لهذه الغاية بالأعتدة. لكنه لم يستطع أن يلبى كافة طلبات الخان فعوقب بالجلد و القلق فى قلعة كورموج.

فى اليوم ۲۱ مررنا بالقرب من لوار بطاحون على الماء لم أر مثله لا فى مصر و لا فى شبه جزيرة العرب. تجر المياه على حائط طوله سبعة أقدام من جبل لا يبعد كثيرا عن الطاحون، و تكون شديدة السخونة يرتفع منها البخار . ما أن ابتعدنا عنها مسافة نصف ساعة فوجئت لرؤيتى من الجهة الاخرى للجبل مياها تحرّك الطاحون. إن مياه الأمطار التى تنحدر من الجبال كانت قد تجمعت مشكّلة ما يشبه النهر ثم قطعت الوريد مما أدى بها إلى الصب فى النهر كما لو انها آتية من المنبع. أدى ذلك إلى تعطيل عمل الطاحون مما أجبر صاحبه على إزالة الحائط من جهة الوادى الذى شكل النهر لجز ما يلزمه من ماء من جبل إلى آخر. إن الطريق الذى يجب سلوكه من الجبل الأخير يبلغ ربع ميل من حيث الطول و كانت المياه التى جرّت من الجبل أقل سخونة من المياه قرب الطاحون. إذا لا شك أن هناك مصدرا آخر لتسخين المياه لتشبه القادمة من الجبل.

إن الجبال فى هذه الانحاء مكونة من صخور هشة).

من هنا كانت طرقنا صعبة المسلك فى هذا اليوم، و أنا لم أجد أسوأ منها فى اليمن. و لشدة ما كانت ضيقة أحيانا كان الحمار المحمل يتجاوزها بالكاد كما و أجبرنا من ۱۲ إلى ۱۶ مرة على عبور جداول صغيرة. رأينا على هذه الطريق الوعرة الملأى بالحجارة هياكل عظيمة لخيل و حمير سقطت هنا. من قافلتنا وقع حمار محمّل بالمتاع فكسر رقبته. فما كان من صاحبه إلا أن سلخ

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۹۶

جلده و باعه قطعا قطعا إلى أصدقائه الذين حولوا تلك القطعة فى اليوم نفسه إلى أحذية إذ ان صناعة الأحذية كانت تقتصر على فتح ثقوب فى أطراف الجلد و وضع حزام فيها ثم ربطها إلى الأرجل.

وصلنا عند بعض أشجار النخيل ثم اتجهنا شرقا فبلغنا قرية تدعى سهو(Sehu) دمّرها لوار منذ بعض الوقت. فى مكان أكثر علوا رأينا أن أمير كورموج قد دمّر لوار و أن جيش كريم خان قد دمّر كورموج أيضا.

لا تزال أحوال الفرس مضطربة إلى اليوم و رغم ذلك كله يقال إن كريم خان قد أعاد إلى حد كبير الأمان إلى هذه المملكة. و مع ان كريم خان ليس لديه أعداء إلا أن كل سيد قرية هنا يمكن أن يطالب باستقلاليته. الجار القوى يسيطر على أرض جاره الاضعف و لا يتدخل وكيل بلاد فارس بهذه النزاعات الصغيرة إلا أن يحصل أحد ما على ثروات طائلة أو يرفض دفع الجزية حينئذ يرسل الوكيل جيشا يتابع هدم ما تبقى من القرى أو المدن التى يصادفها فى طرقه و التى نجت من المعارك الاولى. لقد استمرت هذه الاضطرابات أعواما كثيرة فى بلاد فارس، و لم نعد نعجب من أن مملكة كثيفة السكان كما كانت بلاد فارس قد أصبحت اليوم قليلة العدد.

ليس الحكم التركى أفضل من الحكم الفارسى فأهل الحكم الكبار يؤجرون للباشاوات ولايات كبيرة كانت تشكل فى الماضى ممالك قوية يؤجر الباشاوات بدورهم مقاطعات صغيرة للآغاوات و كل واحد يفتش عن مصلحته فالجار القوى يستولى على أملاك جاره الضعيف دون أن يتدخل السلطان أو الباشا و كل ما يهم هو دفع الايجار السنوى. لكن فى حال تأخر الايجار يحاسب الباشا الاغاوات و يحاسب السلطان الباشاوات و لا يكتفون بمعاقبة الجانى بل و يسلبون الأبرياء أرزاقهم. عند ما يستحيل على هؤلاء المساكين بعد ذلك كسب قوتهم من العمل أو من صناعاتهم الصغيرة، يحاولون جاهدين الانخراط فى جيش الحكام و العيش على حساب غيرهم من المواطنين و فى حال لم ينجحوا يتجمعون فى فرق كبيرة و يسرقون القوافل. و لعل هذه الاوضاع هى وراء وجود هذا العدد الكبير من الجنود و قطّاع الطرق فى البلدان الإسلامية.

فى اليوم نفسه رأينا مجموعة أخرى من سكان هذه الأنحاء و كانت تتألف من كميات هائلة من الجراد لكنه جراد مختلف لا يشبه الذى نراه فى شبه جزيرة العرب و الذى يؤكل . كان رأسه أخضر اللوان و جسمه مكسوا ببقع سوداء و كان ضخما لدرجة تعيق طيرانه.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۹۷

فى اليوم ۲۲ كانت الطريق و عرة كذلك. مررنا بقرية قاربندر التى لم يتبق منها إلا شجر النخيل، من كل الجهات كنا نرى مدافن كبيرة و قنوات ماء مهدمة و جبال واسعة بدا أنها كانت مزروعة منذ سنوات قليلة. فى هذا اليوم نصبنا خيامنا على بعد ۳ ۱/ ۳ الميل من المكان الذى كنا قد خيمنا فيه الليلة الماضية فى منطقة غير مزروعة تدعى سارمسبك أو سربيشه. و هنا أيضا دونت ارتفاع القطب.

فى اليوم ۲۳ مشينا ثلاثة أميال ألمانية نحو الشمال الغربى بدلا من الشرق. نصبنا خيامنا قرب قرية مدمرة تدعى تسانير(Tsenir) تنتمى إلى منطقة بوسقون(Busgun) التى كان رئيسها يجبر المسافرين المارين بها على دفع ضريبة مرور، أما اليوم و قد تمركز جيش بالقرب من القرية فلم يعد يتجرأ على ذلك. و كنا كلما تغلغلنا صعودا باتجاه الجبال كلما وجدنا الجو باردا. نحو الشمال الشرقى رأينا جبالا مغطاة بالثلج.

فى اليوم ۲۴ مررنا بجبل عال يدعى صندل(Sandel) و خيمّنا بالقرب من أويس(Auis) الواقعة بجانب سلسلة من الجبال الشاهقة نجد هنا عدة ينابيع مياه ساخنة و هناك واحدة نجد بالقرب منها غرفة يستعملها كل من يرغب بالاستحمام فى هذه المياه. على الطريق نرى هنا و هناك صفوفا من الحجارة كما لو أنها أساسات متينة ربما تكون بقايا القنوات التى أهملت مع مرور الزمن. منذ أشهر معدودة كانت أويس قرية معتبرة لكن مير مهنا سلبها و هدّمها فما كان من أهلها إلا أن هجروها. و يقال أيضا إن فراش بند و هى قرية أخرى قريبة قد أصبحت تحوى ربع سكانها و حسب.

من قنار بندر إلى هنا سمعت الكثير عن أتراك يعيشون بالجوار لذا عدت أدراجى قليلا للمرور بخيامهم. إن نمط حياتهم يشبه نمط حياة العرب المتجولين و خيامهم منصوبة على الطريقة العربية و قد ذكرتها فى «وصف شبه الجزيرة العربية». أما ثروتهم فتتألف من الجمال و الخيل و الحمير و البقر و الماعز. و هم لا يربون الماعز لحاجتهم اليها و حسب بل لأن الفرس أيضا يحتاجونها إذ إن هؤلاء لا يعتمرون قبعات و حسب بل و يرتدون فروات من جلد الماعز و كلما كان الجلد شديد التجاعيد كلما دفعوا لقاءه مالا أكثر. يقتل التركمان الماعز للحصول على جلدها فقط و يذبحون معها الحملان حتى قبل أن تولد. و مع أن الفرس و الاتراك و العرب فى المدن يخفون نساءهم عن عيون الغرباء إلا أن نساء التركمان لا يخجلن من إبراز وجوهن تماما كالبدويات. و من المعروف انهن نساء كادحات و يقال إنهن وراء صناعة السجاد الصغير الذى تصدّر منه بلاد فارس كميات كبيرة كل عام.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۹۸

و مع ان صناعة هذا السجاد تعتبر أدنى نوعية من الصناعات المماثلة فى المدينة إلا انك تعجب من أن هؤلاء البسطاء يجيدون صباغة الصوف و حياكة السجاد. تكلمت مع راع ينتمى إلى إحدى هذه العائلات المتجولة فى بغداد و يعمل عند تركمانى من هذه الانحاء و كان يتكلم العربية فأخبرنى أن سيده يعطيه كل عام ۱۲ حملا و هكذا علمت أن الشعوب المتجولة فى بلاد الشرق لا تزال إلى اليوم تعطى رعاة الغنم جزءا من قطيعها كما فى العهود السالفة.

فى اليوم ۲۵ نصبنا خيامنا من الجهة الاخرى لقرية خانياک الواقعة فى سهل كبير و كنا قد رأينا عددا من المستنقعات و الجداول على طريقنا و كانت مياهها سيئة. بالقرب من هذه القرية رأينا قلعة سيئة المظهر بنيت بعد موت نادر شاه و كانت هى و القرية خاليتين من السكان الذين هربوا إلى قرية مجاورة تدعى نودجون(Naudjun) . يقول ديودور(Diodore) إن سميرامس التى كانت فى بلاد فارس جعلت قومها يحملون عددا من التلال قبل أن تنصب عليها خيمتها بغية رؤية المخيّم بكامله من أعلى. نرى بالقرب من خانياک تلة مرتفعة لها شكل الوتد المقصوص. إلا أنها لا تبدو قديمة العهد إذ نرى كثيرا فى تركيا الأوروبية تلالا حملها الجيش التركى لينصب عليها خيمة السلطان و هى بالتالى حديثة العهد و من الممكن أن يكون شاه بلاد فارس قد وضع هذه التلة قرب خانياک للغاية نفسها.

فى المنطقة نفسها رأيت عائلة من الأكراد المتجولين. لم تكتف هذه الأمة بالانتشار فى بلاد فارس بل و أيضا فى سوريا و بلاد ما بين النهرين و قد حافظت فى كل هذه الانحاء على لغتها المتعددة اللهجات و التى تحتوى كلمات فارسية و تركية و عربية.

كانت قافلتنا تتألف من السنة و الشيعة و الأرمن و الجيورجين أو اليونانيين و كاثوليكى واحد و بعض اليهود. كان السنة و الشيعة يصومون منذ بداية شهر رمضان. فى هذا الشهر لا يأكلون إلا أثناء الليل و يفرطون فى الأكل لكن منذ طلوع الشمس و حتى غروبها لا يجرؤون على تناول شىء و لا حتى التدخين. إذا فصيامهم متعب. فى هذا اليوم نفسه بدأ شهر الصوم عند المسيحيين الشرقيين و لا يتجرأ هؤلاء على تناول اللحم أو السمک أو الحليب أو الزبدة طيلة هذه الفترة. إن الأرمن دقيقون جدا فى الصوم و يجبرون أولادهم الصغار على الالتزام به. و لشدة ما تعب طفل منهم يبلغ من العمر ثلاث سنوات أعطيته بنفسى بعض الحليب. لم يكن رفيقى الأرمنى الإيطالى قد تناول اللحم منذ ثمانية أيام و كنت أنا و اليهود نصوم معه معظم الأيام إذ نادرا ما كنا نحصل على اللحم. و هكذا يمكن القول إن القافلة بكاملها كانت تصوم.

فى اليوم ۲۶ لم نمش أكثر من ميلين ألمانيين و تابعنا السير إلى قرع(Cara) و هى قرية حديثة العهد قرب جدول صغير يصب فى جدول أكبر. بالقرب منها نجد على جزيرتين قلعتين اثنتين

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۹۹

حالتهما مثل حالة قلاع كورموج. لا نرى من قلعة قرية قرع القديمة إلا بعض الآثار علما انها كانت تشكل فى الماضى مكان إقامة بغ(Beg lerbeg) .

فى هذه المنطقة رأينا الكثير من الأراضى المزروعة و من القنوات المحفورة تحت الأرض و التى كانت تستعمل لجرّ الماء إلى الأراضى المفلوحة بغية ترطيبها. فى العصور الغابرة كانت الزراعة متقدمة جدا بفضل هذه القنوات.

و قد حافظ المسلمون عليها لكن منذ أن صار الحكم جائرا و بالتحديد فى أيام الاضطرابات الداخلية، أصبحت المنطقة فقيرة و خالية من السكان فلم تعد هناک إمكانية للاستمرار بهذا النشاط.

على بعد ثمانية فراسخ من قرية قرع هناک مدينة تدعى كازرون. و بين هذين الموقعين يقع جبل قمريش(Kammeritsch) و قد هزم أسد خان يوما بالقرب منه على يد كريم خان.

فى اليوم ۲۷ مررنا بجبل شديد الارتفاع لكنه لم يكن أكثر ارتفاعا و تعرجا من جبل سمارة أو معرّس(M'harras) فى اليمن. نصبنا خيامنا فى الجهة الثانية بالقرب من نهر. إن أسماء الجبال و الأنهار فى اليمن معروفة كأسماء المدن و القرى. هنا لم يعرف الناس اسم هذا الجبل العالى و هذا النهر مع انه كان كبيرا. قال لى البعض انه يدعى مسغون(Mosgun) و ربما كان هذا الاسم يطلق على قرية فى هذه الأنحاء. رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر ؛ ج۲ ؛ ص۹۹

مع أن الجبال المجاورة كانت كلها مغطاة بالثلج فى هذا اليوم إلا ان الثلج زال بكامله فى اليوم الثانى بعد هطول وابل من الأمطار.

فى ۲۸ شباط/ فبراير سرنا فوق تلال مكسوة بشجر اللوز البرى و السنديان. كانت رحلتنا متعثرة بعض الشىء بسبب الأمطار و البرد. فبعد أن سرنا ميلا و نصف الميل نصبنا خيامنا لمدة ثلاث ساعات و نصف. توجهت نحو قرية رمشون المجاورة فاستأجرت فيها بيتا أتقى فيه الطقس الردىء و أحضرت الخشب و رجوت بعض الأرمن مقاسمتى سبل الراحة هذه. ثم جاءت بعض النساء الأرمنيات مع أولادهن و كن سعيدات بالمكان الذى أعطيتهن إياه قرب الباب لكنى خرجت قليلا. فاستبدلن مكانهن مع الرجال ولدى عودتى وجدت أن الحريم قد أصبحن أمام موقدى.

كانت النساء جميعهن قد أخفين وجوههن أثناء الرحلة و ابتعدن عن صحبة الرجال الغرباء. لذا وجدت أنه من غير الأدب أن أجلس إلى جانبهن أو أن أطردهن من قرب الموقد.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۱۰۰

كنت أود إشعال النار فى جهة أخرى من المنزل لكن الرجال كانوا يدخنون فيها بكثرة و لم أكن أحتمل المكوث فى جو كهذا كما لم أستطع استئجار منزل آخر. و هكذا لم يبق لى إلا أن أنتظر بصبر أن تجف ثياب رفاق رحلتى قبل أن أقترب من النار كما اضطررت إلى التنازل عن أفضل مكان فى منزلى لتنام فيه النساء و أولادهن. كانت العاصفة هوجاء و مصحوبة بالمطر و البرد و الثلج. و لأن النوافذ لم تكن مزودة بمصاريع و لأن السقف كان شديد الرداءة، صار المطر يتسرّب إلينا. فأجبرت على نقل فراشى من مكان إلى مكان دون أن أجد مكانا جافا أقضى ليلى فيه. فى الليل طرأت حادثة أخرى: تستند منازل هذه القرية إلى جبل منحرف. كان بيتى فى الطابق الثانى و كان حصانى فى اسطبل لا يبعد عنى كثيرا إلا أن أرض الاسطبل هبطت و وقع الحصان من المنزل إلى منزل مضيفى تحتى. فى صباح اليوم التالى علمنا انه لكثرة ما ازداد مستوى المياه فى نهر كنا سنبحر فيه استحال علينا متابعة سفرنا من خلاله لكنى بالرغم من ذلک سعدت لإمكانية بقائى ۲۴ ساعة أخرى فى القرية بسبب كميات المطر و البرد المتدفقة.

كانت الجبال المجاورة لا تزال مكسوة بالثلج. يقال إنه بالقرب من رمشون هناک جبل يستخرج منه الملح الصخرى.

فى ۲ آذار/ مارس مررنا بنهر يلتقى بعدة أنهار أخرى ثم يتجه نحو قرية قرع قبل أن يصب فى الخليج الفارسى بين بوشهر و بندر ريغ. بعد ذلک مررنا بنهر آخر أكبر حجما يدعى رضيونا(Radbune) و وضعنا الرجال عند شرفه. يقال إن هذا النهر يتابع طريقه نحو فيروزآباد، و إنه بين هذين النهرين تقع قرى مفر(Mofor) و بنـــــــــــــــــــــــــــــدو و دســــــــــــــــــــــــــــــلب

أخرى.

فى ليل ۲ – ۳ آذار/ مارس تساقط البرد بغزارة و صارت طبقة الجليد فوق الماء بسماكة ظهر سكين. فى هذا اليوم مشينا ۳ أميال و نصف ألمانية و خيّمنا قرب تشينار رضّار حيث يدفع المكس فى منزل عند النهر. على الطريق بين بوشهر و شيراز هناک ستة مراكز لجنى المكوس. يقول البعض إن الأوروبيين غير مجبرين على دفع أى ضريبة إلا أن موظفى الجمارک فى بلاد فارس يحبون الحصول على بعض المال. و يستحسن فى هذه الحالات ألا نحاول التمسک بحقوقنا. إن مدينة شيراز التى وصلنا اليها فى ۴ آذار/ مارس لا تبعد عن تشينار رضّار إلا ميلا و نصف باتجاه الشرق.

لقد صرفنا إذا ۱۸ يوما للذهاب من بوشهر إلى شيراز مع ان أى كان يمكن أن يقوم به فى ستة أيام. و لم يكن سبب تأخرنا يكمن وراء رداءة الطقس و التحول عن الطريق عبر كورموج و حسب بل و أيضا لأن غالبية بضائعنا كانت محملة على حمير سيئة يصعب عليها القيام برحلات طويلة.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۱۰۱

فى شيراز نزلت عند السيد هركول و هو تاجر انكليزى ينحدر من عائلة عريقة و يهتم بأعمال السيّد جرقس فى هذه المنطقة. و لقد عاملنى السيد هركول بكثير من اللياقة و التهذيب تماما كما فعل السيد جرقس فى بوشهر.

و كان يعيش فى هذا المكان بعيدا عن العالم لأنه كان الأوروبى الوحيد فى شيراز و لأن علاقة الصداقة الحميمة لا يمكن أن تنشأ بين مسيحى و فارسى. فالفرس كالشيعة تماما يعتبرون أبناء الديانات الاخرى مدنسين و ذلک بالرغم من أنهم شديد و التهذيب فى التعامل . من بين عدد الأرمن القليل هنا، هناک ضابط فى المدفعية فى جيش كريم خان يمكن أن يزوره السيد هركول.

تعلم هذا الضابط اللغة الانكليزية عندما كان يمارس التجارة فى البنغال و كان حاليا مترجم السيد هركول. و كانت إقامة هذا الأخير فى شيراز مزعجة لأنه كان عليه احترام أسياد المدينة و تجارها الكبار كان يتكلم بطريقة معينة و ألا يظهر إلا على ظهر الخيل فى الشارع و أن يصحب معه دائما عددا كبيرا من الخدم.

فى مدن أخرى كنت أرتدى دائما ثيابى الغربية من دون أن ينتبه الناس إلى شخصى لم يكن بهمنى ما إذا كانوا يعتبروننى أوروبيا أو مسيحيا من الشرق أم شخصية بارزة أو أحد الفقراء إذ لم أكن أكترث إلا بمتابعة ملاحظاتى. فى شيراز كنت أقدم نفسى على أنى

أوروبى فحرمنى ذلك من التجول فى كافة الأنحاء بسبب مضيفى. إلا إنى تعرفت هنا على شخصيات فارسية بارزة كانت تأتى لزيارة السيد هركول و قد سعدت بمعرفتها. من بين هؤلاء هناك تاجر كبير يتكلم العربية بطلاقة. لقد أطلعنى على معلومات هامة تتعلق خاصة بالثورات الرئيسية التى حصلت فى هذه المملكة منذ موت نادر شاه إلى اليوم حيث لا يزال التاريخ مصبوغا بقصة هذا البطل أو ربما هذا الطاغية .

تقع مدينة شيراز فى سهل شديد الخصوبة، تحيط بها الأسوار و الخنادق. إلا أن السور مصنوع من الصلصال و الطين مثل باقى الأسوار الفارسية الحديثة العهد. من الداخل ثلث المدينة فيه أبنية أما المساحة الباقية فهى إما مهدمة أو مزروعة قمحا.

و يبدو أن كريم خان الذى ذاع صيته بسبب شجاعته و بأسه و وفاء الشعب له لا يألو جهدا

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۱۰۲

للنهوض بهذه المدينة و جعلها تستعيد عزّها الماضى. فقد بنى لنفسه فيها قصرا و زرع حوله حديقة رائعة الجمال و أجير عددا من الشخصيات البارزة من مختلف المناطق الفارسية على الإقامة فى شيراز نتيجة لذلك تجمّلت المدينة و صار هؤلاء ينفقون أموالهم فيها فاستعادت التجارة نشاطها. فى المدن الشرقية عادة، قلما يهتم السكان بالداخلين و الخارجين إليها، أما فى شيراز فيستطيع من شاء أن يدخل إلى المدينة، لكن إذا أراد شخص غير معروف أن يخرج منها فإن عليه أن يبرز تصريحا بالمرور للحرس. و لا يسمح لأى امرأة بالخروج من المدينة خوفا من أن يكن مساجين تنكروا بزى النساء للفرار. و هكذا كان على نساء الأرمنيّات اللواتى أتين فى قافلتنا أن يبقين بالقرب من باب المدينة.

فى الخامس من آذار/ مارس، قدّمنى السيد هركول إلى بكلربك فرستان المقيم فى هذه المدينة. امتطينا أنا و السيد هركول و المترجم الخيل بينما مشى الخدم الأرمن الأربعة أمامنا و قد أمسكوا عصيّهم بأيديهم. قلّما يذهب أى قنصل أوروبى لحضور الاجتماع العام الذى يعقده باشا القاهرة دون أن يسمع الشتائم من عامة الشعب و هذا بالرغم من أن بعض الانكشاريين يمتطون خيلهم و يسيرون أمامه، أما فى شيراز فلم نسمع أى كلمة خارجة عن حدود الأدب. عندما مررنا بشارع السوق حيث تبلغ الزحمة ذروتها من جهتى الطريق لم يخش الأرمن من تخويف المسلمين بعصيهم إذا لم يفسحوا الطريق أمامنا. بنى قصر البكلربك منذ فترة غير طويلة و يقع فى ساحة كبيرة مزروعة. المبنى الخارجى لا يختلف عن منزل أى بورجوازى و وراءه هناك السكن الأساسى و الساحة حيث يوجد خزان كبير للمياه و بعض النوافير. اقتادونا إلى صالة كبيرة تكسو أرضها سجادة كبيرة رائعة الجمال لكن بدلا من الكنبات التى نراها دائما مسنودة إلى الجدران فى غرف الأتراك لم أر إلا سجادا من اللبد أقل جمالا من السجاد الفارسى العادى كما و لم أر أية أرائك مسنودة إلى الحائط مما يدلنا أن الفرس لا يتوقون مثل الأتراك إلى الحصول على سبل الراحة. استقبلنا رئيس التشريفات أنا و السيد هركول أمام باب هذه الصالة و قادنا إلى البكلربك.

أثناء حضورى الجلسة العامة أنا و أصدقاء رحلتى عند باشا القاهرة، قبلنا جميعا طرف ثوبه. فى جدة انحنينا أمامه كثيرا. أما فى صنعاء فقد قبلنا ظهر يد الإمام و باطنها و ثوبه و ركبته. و فى كل هذه الأماكن لم يطلب منا أحد أن نجلس. هنا فى شيراز وجدنا كرسيين فى وسط القاعة جلسنا عليهما بعد أن انحنينا كثيرا لإلقاء التحية. كان البكلربك يدعى صادق خان و كان الأخ الأكبر

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۱۰۳

للوكيل كريم خان و مع ان هذا الأخير لم يتوصل إلى حمل لقب حاكم بلاد فارس كذلك أخوه لم يكن سعيد الحظ كثيرا لكن يقال إنه يتعلم منذ فترة هو و أبناءه القراءة و الكتابة فهو إذا أكثر ثقافة من أخيه الوكيل. هناك أشخاص متخصصون يديرون الأعمال الهامة فى هذه الولاية أما البكلربك فيهتم بأمور الشرطة خاصة تماما كسلطان القسطنطينية.

قبل وصولى إلى هذه المدينة بيومين أمر باعتقال لحامين يبيعان لحوما فاسدة فعلقهما بمسمار من آذانهما إلى عامود و تركهما فترة بعد الظهر كلها على هذه الحال. فى هذه المناسبة عمّم على الجميع أن كل لحام يقترف هذه الجنحة سوف يقطع إلى قسمين. و هو يتكلم وجدته و قورا جدا.

و قد أكّد انه سيقطع رأس كل من سيتعرض لى بالأذى خلال رحلتى.

كان رئيس التشريفات يمسك غصن أسل بيده و يقف بيننا و بين البكلربك تماما كما كان يقف الفقيه أحمد بيننا و بين الامام فى صنعاء. تكلم السيد هركول بالانكليزية مع مترجمه الذى خاطب رئيس التشريفات بالفارسية و هى اللغة التى يفهمها البكلربك إلا أن رئيس التشريفات عاد و كرر الكلام على مسمعه. (لست أذكر ما إذا كان هذا الاخير يتقن اللغة التركية لأن ذوى الحسب و النسب من الفرس يتكلمونها). و لاحظت أن رئيس التشريفات لا يكتفى بالانحناء عندما يخاطب البكلربك بل و يترك عصاه تسقط منه فوجدت فى الأمر الكثير من الغرابة.

بعد الجلسة قادنا أحد أصدقاء السيد هركول المقربين من بكلربك فى جولة داخل القصر و أرانى بعض الأجنحة. فى جناح منها مجاور لقاعة الجلسات كانت الجدران مغطاة بالمرمر الجميل و الأرض بالسجاد الفاخر.

على طول الجدران رأيت مرايا أوروبية الصنع و وجدت أكثر من عشر لوحات تصور أشخاصا و هذا لم أكن أتوقع رؤيته فى بيت مسلم. إلا أن الشيعة لا يخشون كالسنة من عرض صور الأشخاص خوفا من اتهامهم بالوثنية. إن رسوم الفرس سيئة لكن ألوانهم رائعة الجمال، كانت غالبية الصور تظهر أزياء فارسية، إحداها تبرز امرأة نصفها مكشوف و أخرى تبرز امرأة شبه عارية تستحمّ.

بعد ذلك زرنا حريم النساء و لم يكن قد جهز بعد و بالتالى كان خاليا من النساء. كانت غرفه صغيرة جدا. فى إحدى هذه الغرف رأيت عامودين مستطيلى الشكل ملبسين بالمرايا و فوق المرايا أعمال نحت جميلة تغطى المفاصل: رأيت مرايا بشكل نجوم فى السقف و فى غرفة أخرى كان السقف و الجدران مزينة كلها بالمرايا التى بلغ طول بعضها أكثر من قدمين. أما فى الغرف الاخرى فكانت المرآة الأكثر ارتفاعا لا تتجاوز القدم الواحدة. و جدير بالذكر ان المرايا و زجاج النوافذ

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۱۰۴

الأبيض و الملون كانت من صنع شيراز. كان البكلربك ينام فى قلعة مستديرة بناها خلف المنزل و كانت الحراسة حولها و فيها مشددة.

لم أجد فى شيراز بستانا يستحق الذكر سوى البستان الذى أمر كريم خان بزرعه. و من غير المجدى البحث عن نباتات نادرة هنا أو فى أى مكان فى البساتين الشرقية إلا أننا نرى هنا عددا من الاشجار المثمرة. فى وسط البستان هناك مبنى مستطيلا مرتفعا سقفه صينى و له جناحان. إن البهو فى المبنى الأساسى مستطيل الشكل هو أيضا و يمرّ بالطابقين. فى الأعلى هناك رواق و فى الزوايا حجرات صغيرة. أما زجاج النوافذ فصغير الحجم و كله ملوّن. فى الأسفل كانت الجدران مغطاة بالمرمر. أما ما تبقى فكان مغطى بزينة من الأزهار المكسوة باللون الذهبى و بألوان مشرقة أخرى. و حتى خارج المبنى الرئيسى رأيت لوحات تمثل الأشخاص و كانت ملونة. داخل البهو الكبير و أمامه هناك نوافير ماء فى كلا الجناحين و فى الطابق الثانى رأيت بهوا كبيرا مفتوحا من جهة. و باختصار لم أجد فى تركيا كلها و مصر و شبه الجزيرة العربية منزلا مشيدا بهذا الذوق الرفيع كما المنزل هذا. كان أحد أطراف أحد الجناحين يستند إلى جدار الحديقة و كانت فيه ساحة مربعة محاطة بجدار لا بأس به فيها مساكن صغيرة تشبه الثكنات و تستعمل عندما ينزل الوكيل هناك لبعض الوقت. من الجهة الأخرى من الساحة هناك مبنى مرتفع و ضيق المساحة يقال إن الموسيقيين يقفون تحته كالعازفين على الطبل. و النافخين فى المزمار لأن الموسيقى العسكرية الفارسية سيئة كموسيقى الأتراك. كما و يستعملون فى عزفهم آلات و ترية و آلات أخرى عذبة الصوت و تكون هذه الموسيقى أقل بشاعة من موسيقى العرب و الأتراك.

إن الزجاج الذى يصنّع فى شيراز يكون أبيض اللون بعض الشىء و نوعيته جيدة. و إنى لم أر قط زجاجا أسود اللون إذ حتى الزجاجات التى يعبأ فيها النبيذ كانت مصنوعة من زجاج أبيض أملس يغطى كليا بالسوحر.

تشتهر آلات التبغ بجودتها لأن الطلب عليها كثير و يعنى ذلك ان المصنعين يبذلون الجهود فى إتقانها شرط أن يدفع لهم جيدا. لهذه الآلات شكل غليون كريم خان المعدنى الذى ذكرته فى المجلّد الأول و المرسوم فى اللوحة ۱۵ أما قعرها فهو مغطى بزهرات زجاجية ملونة ليست مرسومة من الداخل بل ترتكز عموديا على الساق مما يعطى تأثيرا جميلا.

فى أحد الأيام رأيت هنا المدافع بالقرب من الترسانة كانت تقف كلها على عربات رديئة لها ثلاثة دواليب و بين المدافع رأيت مدفعى هاون يرتكزان على عربات مماثلة. إن المسؤول عن هذه المدافع هو جيورجى كان يخدم فى الجيش الفارسى فى الماضى ثم اعتنق دين محمد (الدين الإسلامى) و أصبح اليوم خانا يخدم عند الوكيل. و من المعروف انه من أهم عناصر المدفعية فى

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۱۰۵

بلاد فارس. يقال إن نادر شاه لطالما أراد أن يقطع هذه المدافع أجزاء صغيرة ليتمكن من نقلها على ظهر الجمال و البغال لكن ذلك يجبره على تذويبها أمام المدينة التي يريد مهاجمتها مما يكلفه الكثير من المال و الوقت، لذلك عدل عن تنفيذ فكرته هذه. و يقال إن الخان الذي تكلمت عليه آنفا ذوب عدة مدافع هنا مؤلفة من قطع صغيرة يمكن نقلها على ظهور البغال .

و قد وصفوا لي شكل أحد هذه المدافع الذي يقذف ۹۰ ليبرة من النحاس . يتألف هذا المدفع من ۴۰ قطعة يحملها عشرون بغلا. لكل من هذه القطع أو الحلقات ثمانية ثقوب حول الدائرة تمرّ فيها ثمانية قضبان من الحديد عند تجهيز المدفع. يقال إن هذه المدافع من الباب الاول من حيث الصناعة و الاستعمال و هي أفضل من مدفع آخر جمع الخان قطعه بواسطة البراغي.

في ما تبقى فإن القطع الفنية الصغيرة هذه ليس لها قيمة خاصة. لا يزال مدفعيو بلاد فارس لا يجيدون استعمال القذائف و علمت في الشارقة أن الأمير كنيه خان كان لديه مدفع قرب بندر رغق لكن القذيفة التي كان يفترض بالضابط أن يرميها على المدينة قتلت عناصر من جماعته.

إن الفرس لا يرتابون أبدا إذا عرفوا أن أجنبيا يريد رؤية آثار بلادهم و لو اني ذهبت إلى برسيبوليس دون أن أبوح بأي تفصيل لما ارتاب احد في أمري. لكن بما أن جابي الضرائب في القرى المجاورة للآثار يسكن في شيراز طلبت عنوانه من السيد هركول و رجوته إعطائي رسالة توصية أعطيها لرئيس القرية. و لم يكتف هذا السيد الفارسي بمنحي الرسالة التي أردت بل أرسل أحد خدمه لمرافقتي في رحلتي. انطلقنا في اليوم ۱۲ من شيراز. بعد أن تجاوزنا باب المدينة قطعنا جسرا طويلا عاليا بنى على نهر يجري من الشمال إلى الجنوب. على بعد ربع ميل ألماني من المدينة وصلنا إلى باب ضخم و رائع الجمال مصنوع من الحجر المنقوش.

لم يبق من المباني العديدة التي كانت تقع خارج باب المدينة و قرب الجبال المجاورة إلا أطلال حزينة و لم يتبق من الضاحية التي كانت تقع بين هذه المنطقة و شيراز إلا مسجدين. وصلنا إلى زركان بعد خمس ساعات و نصف بعد أن مشينا في طرقات جبلية و صخرية. لقد أصبحت السهول الأكثر خصوبة جرداء قاحلة و حتى الأشجار بدت و كأنها تشتكي من الحروب الداخلية التي لا تنتهي و التي تركت آثارا كبيرة في المنطقة. فالجداول و قنوات الماء التي كانت تسقي جذورها قد تحوّل مجراها أو هدمت كليا. و لم أر أي أثر لقرية كانت مبنية في الجوار. على

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۱۰۷

الطريق نفسها أروني آثار منزل واقع بالقرب من شجرة ذائعة الصيت اضطر حاكم من حكام شيراز أن يرتدي بزّة الشرف بقربها و أن يذهب على ظهر الخيل في مسيرة إلى المدينة لأن الشاه كلّفه بذلك.

يشبه شكل قرية زركان شكل الهلال و تقع على جبل عال. في طرفها الأسفل هناك سور ضعيف ارتفاعه سبعة أقدام. في جوار هذا المكان نشبت معركة منذ عدة سنوات بين خانين فما كان من الرابح، إلّا أن سجن كافة السكان و هدم منازلهم لذلك لا نجد إلا بقعة صغيرة من جهة الجبل مأهولة بالسكان. كانت جدران منازل المزارعين تتألف من الطين أو القرميد المجفّف بأشعة الشمس كما في سائر القرى الفارسية التي رأيتها أما السقوف فكانت منحنية و مغطاة بالقش. كنا في شهر رمضان شهر الصوم عند المسلمين فلم يكونوا يأكلون و يشربون طيلة النهار. و كان دليلي يأكل في المساء و بعد ثلاث وجبات ما بين غروب الشمس و شروقها. في إحدى الأمسيات أرسلوا إلى دجاجة عظامها سوداء و لست أدري إذا ما كانت دجاجة من جنس خاص أم أن العظام تصبح سوداء بسبب العلف الذي يطعمونها إياه إلا أن هذا الصنف رائج في بلاد فارس و يعتبر أفضل نوعية من الدجاج ذات العظام البيض.

في اليوم ۱۳ من شهر آذار/ مارس صرفنا ساعتين إلى أن وصلنا إلى نهر بند أمير(Bend Emir) و هو الأراكسس(Araxes) الذي ذكره الكتّاب اليونانيون. على امتداد هذه الطريق لم أر قرية واحدة. إن النهر السابق الذكر سريع جدا و يبلغ طول الجسر المبني فوقه من القرميد ۳۰۰ قدم.

منذ شيراز و حتى الجسر كنا نسلك طريق اصفهان فتركناه هنا و اتجهنا نحو الشرق مباشرة نحو آثار برسيبوليس و مع اني كنت متأكدا من عدم وجود أي قرية مجاورة أحطّ فيها رحالي إلا اني كوّنت أفكارا مسبقة عن روعة هذه الآثار وفقا لما قرأته و سمعته عنها و لم أستطع التخلي عن فكرة عدم رؤيتها. قادني دليلي عند المساء إلى مردست(Merdast) و هي قرية تعيسة تقع على بعد فرسخ جنوبي الآثار. هنا تودّدت إلى القلنطار أو رئيس القرية الذي رحب بي و استقبلني بأدب ثم دلني إلى غرفة في منزل صغير كانت تعتبر مسكنا للمسافرين.

وصف أنقاض برسيبوليس

لم تعد انقاض مدينة هليوبوليس، عاصمة مصر قديما، و انقاض مدينة ممفيس، الواقعة في منطقة سهلية خصبة، في مكانها الأساسي، فبعد تهدمها، نقلت حجارة الاصرحة إلى العواصم الجديدة، بينما دفن ما تبقّى منها تحت التراب، كما و استعملت اراضيها لزراعة القمح. أما أهم بقايا مدينة برسيبوليس، التي لا تزال تثير اعجابنا، فهي بقايا معبد أو قصر ملكي، يتميز بعظمة حجارته، و موقعه

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۱۱۰

الجميل، و ارضه المغطاة بالرخام، شأنه شأن الأهرام، في جوار القاهرة. يسمى الفارسيون هذه الآثار تخت جمشيد أي مقر جمشيد ظنا منهم ان هذا الأخير و هو أحد ملوكهم القدامى، قد وضع حجرها الأساسي. و يعرفها البعض باسم تشيل- منار أو الأربعين عاموداً، و لعلهم اطلقوا عليها هذا الاسم لأن المسلمين وجدوا فيها عامودا منتصبا عند وصولهم إلى بلاد فارس. أما اليوم فنشاهد داخل الأسوار ۱۹ عامودا، واحد في الركن الجنوبي- الغربي، و آخر على بعد ميلين و نصف، و اثنان في إصطخرIstakr . يبلغ طول الطريق الممتد من شيراز إلى تشيل- منار سبعة أميال، و تقع شيراز على ارتفاع ۲۹، ۳۶، ع، من القطب و بالتالي تشيل- منار على ارتفاع ۳۰.

ادعى بعض الرحالة ان تشيل منار كانت قديما معبدا بينما يدعي بعضهم الآخر انها كانت قصر زعيم علماني. أما أنا فأقول إنها أقرب إلى المعبد منها إلى القصر، فبدلا من أن نجد عند المدخل سفينكسا كبيرا، كما في المعابد المصرية الأخرى، نشاهدهنا حيوانات ضخمة للغاية. أما الصورة التي نشاهدها عند مقدم الضريح، أمام المذبح، علاوة عن تلك التي نراها في اللوحةXXV ، فهي صورة بعض الكهنة، لعل الزعيم الفارسي كان اميرا علمانيا و رجل دين في آن معا و ان هذا المعبد كان بالتعاقب مقرا للخلفاء أو للبابا (ان كان بوسعي ان اطلق على زعيم الديانة الفارسية القديمة هذا اللقب)، و لعل هذا المعبد تحول إلى مقر الزعيم العلماني بعد ارتداده عن دينه. و أخال انه القصر نفسه الذي حرقه الاسكندر دون روية.

و في سبيل اعطاء القارىء فكرة واضحة، عن حالة بقايا هذا القصر أو هذا المعبد، و عن موقعه، رسمت الخارطةXVIII و أشرت فيها إلى أقسامه الأساسية، غير انني لم ارسم منظرا عاما له، لأن شاردين رسمه مرتين و بدا لي كذلك الأمر و لما كنت قد رسمت صورة لنفس المكان، ارتأيت ان انقلها على اللوحةXIX ، خاصة و ان القراء لا يملكون كتب هذين المسافرين. تقع هذه الانقاض على سفح جبل شاهق و تحدها من جهاتها الثلاث، اسوار محصنة، في الجهة الشمالية الغربية، نلاحظ ان حجارة السور قد انتزعت بمعظمها و استعملت في تشييد ابنية أخرى.

تشير الأدلة إلى أن بناء هذا المكان لم يتم دفعة واحدة، فمن الجهة الشمالية، و على مقربة من الجبال، وسع السور عمدا لتوسيع مساحة البناء فنلاحظ بالتالي ان الزوايا لا تتلاءم مع خارطة البناء الجميل.

على القارىء مراجعة الخارطة، خلال مراجعته هذا المؤلف.

تتألف هذه الأسوار من حجارة مرمرية رمادية، صلبة، تتحول إلى اللون الأسود بعد صقلها. أظن أن جبل رحمة و هضابه تتألف من هذا النوع من الحجارة. مما يعني ان المقاول عثر على الحجارة

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۱۱۱

في المكان نفسه. لم يستعمل المهندسون الفرس الطين لبناء الأسوار أو الصروح، صحيح ان الحجارة قد ثبتت بواسطة مخالب حديدية، إلا انها صدأت مع مرور الزمن، دون أن تؤدي إلى تهدم الحجارة أو تداعيها بعبارة أخرى من الصعب ان نشاهد في اوروبا سورا من المرمر يضاهي سور تشيل منار اتقانا.

إن سطح الهضبة التي وجدنا عليها هذه البقايا ليست مسطحة، مما يعني ان علو السور الخارجي ليس سويا. فقد فتت الارتفاع في عدة اماكن. كما اشرت على الخارطة و وجدت انه يتراوح بين ۱۴ قدما و نصف و ۱۸ قدما في الجهة الجنوبية، و بين ۳۲ و ۴۱ قدما في الجهة الغربية، و بين ۱۶ و ۲۷ قدما في الجهة الشمالية، يعتبر الصرح (ط) الأكثر ارتفاعا (۵۰ قدما فوق الأفق) و الأكثر قدما، اما الصرح (ح) فهو الأكثر انخفاضا. يقع الصرح (ز) على الارتفاع نفسه من الصرح (ح) و لكن الأرض التي تفصل بينهما هي اكثر انخفاضا، و

هـذا ما تثبته الصور الظاهرة على السور، و التى يغطيها التراب الذى تحمله الرياح القوية. ان صف الاعمدة (ب)، و (ج) و (د) و (ه) هو أكثر انخفاضا من الشارع (ز) و أكثر ارتفاعا من الصروح (ح) و (ه) و (أ). إن الانقاض (س) و (د) هى أكثر انخفاضا من المنطقة (أ) و (أ) (ه)، و الجدير ذكره ان الصرح (ك) هو الأكثر انخفاضا، لذلك دفنت بقاياه تحت التراب. أما قرب مجموعة الأعمدة (ح) و (ط)، و على مقربة من ب. ج. د. ه. فلا نشاهد ارضا غبارا فحسب، بل حجارة مرمرية فى غاية الجمال.

تهـدم السور الخـارجى بمعظمه. و نقلت حجارته إلى إصطخر و شيراز و غيرها من المـدن. من الجهتين الشـمالية و الجنوبية، تعرض السور للتلف بفعل مرور الزمن. و للوصول إلى هـذه الانقاض نجد سلما مزدوجـا مصـنوعا من المرمر الصـلب الـذى يكـثر فى هـذه المنطقة. أما الحجارة فهى كبيرة الحجم، و رغم مرور ألفى سنة على تهدم القصر، يمكننا تسلق الدرج على الحصان.

نشاهـد عند اعلى السلم ثقوبا فى الحجارة، كانت قديما مفاصل للأبواب، مما يعنى انه كان للقصـر ثلاثة أبواب. و أن السور المحاذى للدرج كان أكثر ارتفاعا منه اليوم.

نجـد أمـام الـدرج سورين من الحجـارة الصـلبة، كانـا قـديما بابين، رغم ان عرضـهما لا يتعـدى ۱۳ قـدما أمـا الأرض فمغطاة بالمرمر المصـقول المخصص للمشاة. يبلغ ارتفاع الأسوار ۳۰ قـدما، و هى خالية من النوافذ. نشاهد على ارتفاع ۴ أقدام و ۸ بوصات من السور صورة حيوان (كمـا فى اللوحةXX ، الصورة أ)، من السـهل تحديـد كبره و المسافـة التى تفصـل بين الحافرين الأماميين و الخلفيين، و التى توازى ۱۸ قـدما. و الملاحظ ان جسم هذا الحيوان منحوت بشـكل بارز، بينما رأسه و حافراه الاماميان تتجاوز حدود السور، حتى تبقى حرة تماما و يبـدو جليا ان هـذه الحيوانات تجسـد القارن الاسطورى، الـذى تتردد صوره فى كافـة انحاء هـذه البقايا. نشاهـد فى الجهة الشرقية

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۱۱۲

سورين مماثلين، رسمت على كل واحد منهما صورة الحيوان الذى نقلته فى الصورة ب من اللوحةXX ، و هى تقع على علو ۴ أقدام و ۸ بوصات من الأرض، و تبلغ المسافة بين الحافرين الاماميين و الحافرين الخلفيين ۱۷ قدما و ۶ بوصات. و يبـدو جليا انهم حاولوا نقل رأس هـذا السـفينكس من بلاد فـارس إلا أنهم هشـموا أنفه دون ان يتمكنوا من انتزاعه. نشاهـد فوق الرسومات الأربع، ثلاثـة نقوش، تتألف حروفها من خطوط مستقيمة. و الجـدير ذكره ان الصور على السور (أ)، تجسـد الحيوانات و هى متجهة برؤوسـها صوب الغرب بينما تلك التى على السور (أ ه)، رؤوسها تتجه شرقا.

فى هذه المناسـبة، سآتى على ذكر حجارة العقيق اللتين رسمتهما فى الصورتين آ و ج، و اللتين حصلت عليهما فى البصرة و حلب. مما لاـ شـك فيه ان الرسم (ب) هو صورة مكبرة للرسم (ب) غير ان عمـل الحفـار اسوأ من عمـل النحّاس، فى الصورة (د)(D) فمخالب الحيوان و رأسه بارزة مما يدل على أنه ليس القارن المزعوم. و لكن هذه الصورة تثير فضول علماء اللغة نظرا للأحرف التى تحيط بها، و أظنها من النوع نفسه الـذى نجده على العملات ۱۷، ۱۸، ۱۹، ۲۰، ۲۱، فى اللوحةXI ، فى كتاب وصف شبه الجزيرة العربية. كما و انها حفرت بعد تهدم القصر .

مما يعنى ان عالما باللغة الفارسية القديمة يحسن فك رموزها بسهولة. و لا أخال ان الأحرف التى نشاهـدها على العملات الفارسية تختلف عن تلك المحفورة على هذه الحجارة.

نجـد بين المـدخلين (أ) و (ه) الـذين اتيت على ذكرهما آنفا. عامودين منتصبين و آثارا أخرى متهدمة. أما المنتصب منها، فلا يتعدى الأسوار ارتفاعا مما يعنى انها كانت كلها مسـقوفة. و نجـد ايضا ركائز صـروح صـغيرة و حجارة مبعثرة هنا و هناك، غير أن الرحالة لا يعيرهـا اهتمـامه لأنها لا توازى الآثار الأخرى جمالا. على مقربة من هـذه البقعة نشاهـد حوضا طوله ثلاثة أقدام و نصف مزدوجة و عرضه ثلاثة أقـدام و ارتفـاعه قـدمين عن الأرض. و نشاهـد ايضا صوب الجنوب، صف اعمـدة (ب، ج، د) يزيـد طولها عن ۸ أقدام مقارنة بالأصـرحة التى وصـفتها آنفا. و يمكننا الوصول اليها عبر ادراج يزيد عدد درجات كل منها عن الثلاثين علما ان علو الدرجة لا يزيد عن ثلاث بوصات.

تـداعت وجهـة الأدراج جزئيا، و لكننا نرى عليها بقايا صور حراب و دروع تكثر بين الانقاض، و صور اشـجار الصور، و صور الأسـد الذى يهاجم القارن الأسطورى و تغطى رسومات الاشخاص السور مثيرة بالتالى فضول هواة الآثار القديمة.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۱۱۴

اذا لا يتجاوز ارتفاعها الثمانيـة اقـدام، شأنها فى ذلك شأن السـلالم، غير انه كان لها درابزينا، تهدم مع مرور الزمن، هذا ما نلاحظه فى صف الصور العلوى، الـذى لم يتبق منه إلا نصـفه. و يحـد الدرج من الجهتين، صـفان من الصور يبلغ ارتفاع كل واحد منهما قدمين و نصف. أما الرسوم التى نراها شـرقى الـدرج فقـد نقلتها على اللوحةXXI ، غير انى حـذفت من كـل صف ۲۷ صورة، لأنها تشـبه كلها الصورة الأولى من حيث ارتداء الفرد فيها الثوب الطويل، و حمله الحية بيديه الاثنتين.

و اشير إلى أن الصف السفلى كان مغطى بالتراب، و اضطررت لمسحه، حتى انقل الصور، و لهذا السبب بالذات، لم يرسمها شارين أو براين.

لفت نظرى تشابه هذه الصور إلى حد بعيد، رغم اننا نجد فيها نوعين من الملابس، مختلفين تماما، يشبهان ملابس الفرس التى تحدث عنها هيرودوتس و كوينت كورس، و اكزونفون. و نجـد ايضا قبعات عالية، شبيهة بقاوونKauk الأتراك، باستثناء ان هؤلاء الآخرين يلفون حولها قماشا قطنيا. و الملفت للنظر ان من يعتمر هـذه القبعات، يرتدى تحتها ثوبا فضـفاضا و من يحمل الحربة، يلف حبلا حول رأسه. أما الباقون، فيعتمرون قبعـة صـغيرة، غير مطرزة، أو قلنسوة لها شريط كبير من الخلف، و يرتـدون، ثوبا طويلا، ضيق الكمين. و الملاحظ ان لحاهم مرخيـة، و شـعرهم كث، و يضـعون عقودا حول رقـابهم، و خواتم فى اصـابعهم، و حلقـا فى آذانهم. كمـا و انهم يضـعون احزمـة حول خصورهم و يحملون قوسا، أو سـلاحا آخر. غير ان خناجرهم ليسـت متشابهـة، فمن يرتدى منهم الأثواب الطويلة يضعه فى حزامه، أما من يرتدى الثوب القصير، فيتركه متدليا على ردفيه.

من الصـعب تحديد المعنى الحقيقى لهذه الصور، و لعلها تمثل مجموعة من الحراس، علما انهم مزودون جميعا بالأسلحة، و ما لا شك فيه انها تـدل على اشـخاص كريمى النسب، يعملون فى خدمة حاكم هذا المكان، أو لدى رجل دين ذى منصب مرموق، أو أمير مقيم فى المنطقـة، غير أن الأشـخاص الذين يرتدون الأثواب الطويلة و الفضـفاضة، يمثلون القادة، لأنهم يتصدرون الجميع، كما و انه توكل اليهم مهمة حراسة مدخل الصرح، علما انهم يقفون دوما عند عتبة الأبواب، حاملين الحراب فى ايديهم.

فى الصف العلوى، حيث لا يبلغ عدد الصور نصف العدد الموجود فى الصف السـفلى، نشاهد قرب السلم (ب)(۴۳ (b رجلا، يرتدون الاثواب الطويلة و يحملون الحراب؛ يليهم خمسة رجال، فى ملابس مختلفة، و ثلاثة أحصنة، و عربتان تجرهما الخيل. و اظن ان ترتيب هذا الصف له صلة بالترتيب الوارد فى اللوحة التالية.

تغطى السور (د)(d) ، من الجهـة الأخرى للدرج(b) (ب). صورا مختلفـة، و لا أظن ان الآثار الأخرى تعرضت للتلف، بقـدر آثار هذه البقعة، فقد فقدت معظم الصور رأسها، رغم أن بترها.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۱۱۷

اقتضـى عناء كبيرا. لأننا نشاهد اليوم، بقايا قليلة منها، علاوة عن صور القبعات التى كانوا يعتمرونها، كما هو ظاهر فى اللوحتينXXIII وXXII ، و ما لا شك فيه ان هـذه اللوحة تمثل استعداد الافراد لاسـتقبال العيد، غير اننى اترك للآخرين عناء الاختيار بين القول انهم يحملون الهدايا أو الغرامات لملكهم، أو انهم يحملون القربان لأحد المعابد.

يتألف كل صف من عدة أقسام، تفصل فى ما بينها أشجار السرو. يرتدى الافراد فى القسم الاول من الصف السفلى، الأثواب الطويلة، نفسـها التى تحـدثنا عنها فى اللوحة السابقة. و يحمل كل منهم جعبة على ظهره و قوسا فى اليسرى، و حربة فى اليمنى، مما يعنى انهم يمثلون فرقـة من الحرس. نجـد فى هـذا المكان (كما على الجهة الاخرى من الدرج) صورة على كل درجة، اى ۲۸ أو ۳۰ صورة، غير اننى لم أرسم إلا ۶ منها . أمّا فى القسـمين الآخرين، فلا نشاهـد إلا ضابطا واحدا من الضابطين اللذين نراهما غالبا فى اللوحةXXI . و فى اختصار، سأطلق على الضابط الذى يرتدى الثوب الطويل، لقب الاول، و على ذاك الذى يرتدى الثوب القصير، لقب الثانى.

فى القسم الثانى، يقود الاول مجموعـة من ۶ أجانب، حاملا عصا فى يده (مثل رئيس التشريفات فى شـيراز- (ص ۹۴) و ممسكا أحد الأجانب بيـده الأخرى، و اخال ان هـذا الأخير هو ممثل المجموعة أو القبيلة أو الأمة. يحمل فردان من المجموعة، مزهريتين فى يديها، بينما يضع الآخر خاتما مستطيلا، حفر عليه راسا أفعى. تتبع هـذه المجموعـة عربـة خيل، حفرت جيـدا على الصـخر، حتى ان مسامير العجلة بارزة للغاية، و يشبه سرج الخيل ذاك الذى شاهدته فى القاهرة، فى طاحونة تحركها الخيل، و فى زبيد، على ظهر ثور. يستعمل

فى استخراج المياه من أحد الآبار.

و الملفت للنظر فى هذا القسم، انه يتدلى من الأذن اليسرى لأفراد المجموعة، حجر مرجانى، معلق بخيط رفيع.

فى القسم الثالث من الصف السفلى، يقود الثانى ۶ أجانب إلى الاجتماع، و الجدير ذكره انه لا يحمل خنجرا أو يرتدى سترة بسيطة، أو كما يسميها الأتراك إنطارى(Entari) ، و لما كان هذا الذى يدل على مكانة صاحبه المرموقة أمكننا الاستنتاج ان هذه السترة مصنوعة من جلد الحيوان، كما اعتاد الفرس القدامى، الارتداء.

تبدو ملابس الآخرين أكثر بدائية، فأثوابهم شبيهة بتلك التى نراها فى اللوحة السابقة و تعرف بالبنيش، كما و ان جواربهم مصنوعة من مواد خشنة(a) .

فى القسم الرابع، نشاهد الأجانب عراة الرأس مجعدى الشعر، يرتدون جلد الخراف و ينتعلون احذية نصفية.

فى القسم الخامس، يظهر الثانى فى المقدمة، و يلف الاشخاص الذين يرافقونه حبلا طويلا حول خصرهم، و يضعون عمامة على رؤوسهم. و يقود الأخير منهم سناما، علقا فى عنقه جرسا صغيرا (تعلق اليوم هذه الاجراس. على الجمال و الحمير و خاصة فى القوافل).

فى القسم السادس يقود الاول ستة أشخاص من عامة الشعب، خمسة منهم شبه عراة. يلفون حول الردفين قطعة قماش عريضة، و أخرى حول الخصر. شأنهم شأن عامة الشعب فى البلدان الحارة.

يضع الاول، الذى يمثل الشيخ أو النائب، قماشا قطنيا حول كتفيه، بينما يسير الباقون شبه حفاة، و ينتعلون فى ارجلهم نعالا خفيفة، مختلفة عن تلك التى تنتعلها العرب اليوم.

فى القسم السابع (راجعوا الصف العلوى من اللوحةXXII) يقود الأول صديقه، و تتبعهما شخصيات مرتدية البنيش، غير ان رؤوسهم تعرضت للتلف، و لن اعرف ابدا ان كانوا يعتمرون القبعات ام لا .

فى القسم الثامن، يقود الثانى ۶ أجانب، لفوا أجسادهم بقماش قطنى ابيض، شأنهم فى ذلك شأن البدو، فى بعض المناطق من شبه الجزيرة العربية، أما الثور الذى يجرونه فله حدبة على الظهر، شبيهة بحدبة دواب شبه الجزيرة العربية، و الهند و بلاد فارس

فى القسم التاسع، يقود الاول مجموعة من الرعاة، يرتدون ثوبا ضيقا، قصير الكمين، أما قصة شعرهم فهى شبيهة بقصة شعر سائقى الجمال. غير اننى لاحظت ان احد الرعاة يرتدى جلدى خروف مدبوغين. يكثر فى بلاد الشرق هذا النوع من الخراف الذى نراه مرسوما هنا، فهى مغطاة بالصوف شأنها شأن خرافنا، غير ان النحات لم يحسن نقله، كما انه لم يحسن نقل و بر الاسد الكث.

فى القسم العاشر، نرى ان الثانى هو القائد و المجموعة التى تتبعه، ترتدى الملابس التى ترتديها مجموعة القسم السابع، غير ان قبعاتهم مختلفة، و زعيمهم يضع قوسا فى حزامه.

أما سائقو الثيران فى القسم ۱۱، (اللوحةXXII) فيرتدون ثيابا شبيهة، بثياب سائقى البغال فى القسم السادس، باستثناء انهم يرتدون فوقها ثوبا طويلا، فضلا عن ان ثلاثة منهم يحملون حرابا.

يقود الثانى مجموعة القسم ۱۲، التى يرتدى افرادها سراويل طويلة (شبيهة بثياب الاتراك) و يعقدون تحت ذقونهم قماشا قطنيا. يتدلى من حزام خمسة افراد من هذه المجموعة، غمدا للأقواس، و يحمل واحد منهم خنجرا و اثنان آخران مطارق حديدية، مما جعلنى اظن انهما حدادان.

فى الصف العلوى، نجد ۷ أقسام، أتى شاردين على ذكر هذا الصف فى اللوحة ۵۸، رغم انه لم ينقلها بحذافيرها. يلعب الضابطان اللذان أشرت اليهما سابقا، دور رئيسى التشريفات، نشاهد فى القسم الاول حصانا، و فى القسم الثانى لبوة، و فى الثالث، أيلا ملقى أرضا؛ يرتدى الاجانب سترات قصيرة، و سراويل طويلة، بينما يضع واحد منهم على كتفيه، جلد أسد. يتدلى ذيله خلفه، نشاهد فى القسم الرابع أيلا، و جلد اسد ايضا، و فى القسم الخامس ثورا، أما بقايا صور القسم السادس فشبيهة بصور القسمين الثالث و الرابع؛ نرى فى القسم السابع، جوادا. يلفت نظرنا، خلف صفوف الصور هذه، النقوش (آ)، المنقولة فى اللوحةXXIV ، علاوة عن رسم صراع القارن و الأسد نقل كامبفر و براين هذه النقوش، بصورة غير واضحة، رغم ان الأحرف بارزة جدا على اللوحة الأصلية.

تهدم السور، فى اللوحةXVIII جزئيا، و اتلفت الرسومات التى كانت تغطيه، غير اننا نجد هنا أيضا، أقساما مختلفة تفصل فى ما بينها اشجار السرو، و نشاهد فى كل قسم الضابطين المذكورين آنفا، الذين يترأسان مجموعات الاجانب. أما الحيوانات التى تكثر صورها هنا، فهى الجمال و الجياد، و الثيران و التيوس.

علاوة عن ذلك، نشاهد هنا عربة الجياد، التى اشرت اليها آنفا. و تلفت نظرنا رسومات الأرجل العارية، التى لم تتعرض حتى اظافرها للتلف؛ أما السور فهو متداع أكثر من السور، و لا يعير المسافر انتباها لرسوماته، رغم أنها تثير الفضول. قبالة السور، نشاهد صخورا ضخمة برسومات افراد يرتدون الأزياء الطويلة و يحملون الحراب فى ايديهم، و لعلها بقايا صرح منفصل، قضى الدهر على القسم الباقى منه.

يقودنا الدرج إلى مجموعة الأعمدة (ب. ج. د. ه): التى لم يتبق منها منتصبا إلا ۱۷، و قد وضعت دائرة على الخارطة، للاشارة إلى موقعها. يعلو الأعمدة قرب الموقع (ج) تاج شبيه بذلك الذى نراه فى الصور (أ) من اللوحةXXV . غير ان معظمها تعرض للتلف مع مرور الزمن. رسمت قاعدة العامودين. د، ه. فى اللوحةXXV ، و لاحظت ان العامود ه، يعلوه حيوانان، أو الاجزاء الأمامية لحيوان ما، اظنه القارن الاسطورى، الذى نشاهد رسوماته. فى كافة انحاء المكان؛ مما يعنى انه كان يجسد رمزا اساسيا للفرس القدامى.

استنادا للقياسات التى اخذتها يبلغ ارتفاع ركائز الاعمدة (ج) ۴۰ قدما، و الاعمدة (ه) ۵۲ قدما .

لا نستطيع مقارنة هذه الاعمدة بعامود بومبى فى الاسكندرية أو بركائز الغرانيت فى قصر القاهرة، من جهة وزنها أو عظمتها، غير انها توازيها جمالا، خاصة من حيث حجارتها المرمرية، و طريقة وصلها بعضها ببعض، و الجدير ذكره ان الجزء العلوى من احدى ركائز الرسم (ه) ناتىء بشكل بارز، و قد يقع إن حصلت هزة ارضية .

تضم صفوف الاعمدة هذه انقاضا كثيرة، ففى بعض الأماكن، نرى الأرض مغطاة بالتراب، بينما هى مغطاة بالمرمر الجميل فى أماكن اخرى. و نشاهد ايضا بقايا قنوات محفورة فى الصخر.

بين صف الأعمدة ب و ج. فضلا عن أربعة أسوار، كانت قديما مداخل للمكان، يظن بعض الرحالة ان هذه الاعمدة لم تكن مسقوفة يوما، غير اننى اظن ان المصطبة التى كانت تعلو الاعمدة ب. ج. د، و التى لم يعد لها أثر، قد نقلت إلى برسيبوليس، الذى كان يعرف باسم إصطخرIstakr ، بعد أن دمر الاسكندر هذا القصر.

نشاهد من الجهة الجنوبية لهذا الصف من الاعمدة، صرحا قديما لم يتبق منه الا بعض الحجارة المربعة، التى كانت تعد لوضع الأعمدة عليها.

يزيد ارتفاع الصرح (ز) فى اللوحةXVII ثمانية أقدام عن صف الأعمدة، و بالنسبة إلى عظمته مقارنة بالأبنية الأخرى، يبدو انه الأكثر حصانة و اسواره و نوافذه هى المصقولة بشكل أفضل. و لما كانت الرياح تعصف قرب صفوف الأعمدة هذه، نلاحظ ان هذا الصرح محاط بالتراب، كما و ان ارتفاع الركيزة ح (۱) من الجهة الجنوبية للصرح، لا يزيد عن قدمين و نصف. و نشاهد هنا أيضا رسوما و نقوشا مغطاة بالغبار، و لو كنت أحمل معى مؤلفى شاردين و براين، لأدركت ان الرحالة السابقون لم ينقلوها، و لنزعت عنها الغبار و رسمتها بنفسى، غير اننى اوكل هذه المهمة للرحالة اللاحقين. نشاهد فى الركن ح (۱)، درجا تعلوه صور لا يزيد ارتفاعها عن قدمين؛ و يظهر فيها الأفراد و هم يتسلقون الدرج و يحملون فى أيديهم حملا أو شماما أو غيرها من الفاكهة. أما

ملابسهم فهى شبيهة بتلك التى يرتديها ضباط الصف الثانى.

من الجهة الغربية للصرح نشاهد الدرج و(f) ، و على قمته عمودين مغطيين برسومات كبيرة لأفراد يرتدون الثوب الطويل و يحملون الحراب، كما فى رسومات السلم ب(B) . خارج الباب (ز)(Z) ، نشاهد عامودين آخرين يبلغ ارتفاع الواحد منهما ۷ أقدام و نصف. و لعل الصورة الظاهرة عليها تعود لرجل دين مرموق، يرتدى ملابس شبيهة بتلك التى نشاهدها فى اللوحةXXI ، و فى أماكن مختلفة بين هذه البقايا، و أخاله يجسد العلمانيين. غير ان قبعته مخططة، و عنقه محاطة بحلقة كبيرة، كانت قديما مغطاة بمعادن ثمينة؛ و نشاهد على الكتف، و الصدر و اليدين، ثقوبا انتزعت منها حلقات معدنية. يرتدى الخدم ملابس شبيهة بملابس اسيادهم، و يصغون حلقات

صغيرة فى آذانهم. شأنهم شأن جميع الـذين يرتـدون الأثواب الطويلة، و لكنهم لا يرخون لحاهم أو يعتمرون القبعات العالية، أو يلفون اعناقهم بأطواق. نرى على الأركان الأخرى الصور الثلاث نفسـها. علما ان الشخصـية الاساسـية تحمل مزهرية فى يدها اليسرى (الصور (و) من اللوحةXXV) و فى اليمنى قـدرا معـدنيا (الصورة (ز) من اللوحة نفسـها) و فى وسـط الصـرح الامامى، قرب الصورة (س ۴) نشاهـد ابوابا كبيرة، و على الاركان (س)، نشاهـد الصور (ج) من اللوحةXXV ، و على اركـان البـاب (ع) نشاهـد الصورة (د)، و التى تمثل شخصا حاملا شبلا بين يديه، و يبلغ ارتفاعها هذه ۷ أقدام و نصف.

يتألف هـذا الصـرح من ۳ أقسـام يضم احـدها غرفتين (الصورة ۸ من اللوحةXVIII) تتراوح سـماكة هـذه الاسـوار بين ۴ أقـدام و ۹ بوصات و ۵ أقدام و بوصة. غير أنه لم يتبق منها إلا بعض المداخل و النوافذ، التى لم يتمكن الفرس من نقل اجزائها بسـبب ضـخامتها، خاصـة و أن أركان الباب تتألف من قطعة واحدة فحسب. و نشاهد قرب اركان الباب (ب) اللوحة (ج) (من اللوحةXXV) التى تمثل خادمين أحدهم يحمل مظلة و الآخر مذبة.

تعلو هذه الصور، التى ترتفع ۱۲ قـدما عن الأرض، النقوش (ب) (ج) (د) من اللوحةXXIV ، المنحوتة بشكل مرتب. و الملفت للنظر، هو أن كل واحدة منها تضم أبجدية مختلفة، تتردد فى الركنين الاخرين فيتضح لنا بالتالى ان الفرس بذلوا جهدهم ليخلدوا انفسهم من خلال نقوشهم، شأنهم فى ذلك شأن المصريين القدامى، الذين نقشوا الأحرف الهيروغليفية على النصب العامودية.

و مما لا شك فيه ان هاتين الأمتين عمـدتا إلى نقل أبجديتيهما لنا، رغم جهلنا لرموز الأحرف الهيروغليفية المصـرية و لأبجدية الفرس القديمة، فلو تمكن العلماء من فك رموزها، لاضطر بانى هذه الصروح إلى حفرها مرتين. علما ان معظمها تضرر و تلف بمرور الزمن.

كان للنوافذ قديما مصاريع، تستعمل فى الطقس السيىء، لرد الامطار و البرد و الرياح، و تعلوها

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۱۲۳

كلها نقوش قديمة. دفعت بالرحالة للاعتقاد ان الفرس القدامى يكتبون من أعلى إلى أسفل شأنهم شأن الصينيين.

لكن ان عاينا عن كثب، النقوش التى نقلها بعض الرحالة، و قارناها بتلك التى نقلتها بنفسـى، لوجدنا ان الخطوط المستقيمة، مائلة من الطرف، مـما يعنى ان عـدد الأحرف ليس كبيرا، كمـا تـدل عليه نسـخ الرحالـة السـابقين جمعت فى اللوحةXXIII ، أحرف احـدى الابجـديات، و هى لا تزيد عن ۴۲ حرفـا. و نقلت قرب الأعمـدة أ، ب، ج، د، ه. فى اللوحةXXVII ، بعض النقوش الكوفيـة العربية و الفارسـية ، المحفورة جيدا فى الصـخر. أعطانى المدعو جان فرانسوا روسو المولود فى اصـفهان، و امين سر السفير الفرنسى فى البصرة الترجمة التالية، للنقوش ب، ج، ه، فنقلتها لكم حرفيا.

ترجمة النقوش ب

اللّه هو الحى الباقى و على أمير المؤمنين، كرم الله وجهه اين هم أولئك الملوك، الذين طغوا و تجبروا و امهلهم القدر حتى هلكوا.

كم من مدينـة رائعـة ازدهرت و توسـعت فكان مصـيرها الدمار و مصير اهلها الموت كتب هذا على ابن السـلطان خليل، ابن السـلطان حسان العام ۸۶۹ (۱۴۶۴)

«هذه كتابات اصغر الخلق، ابن حسين المسكين، عبد خليفة ملك الكون، ميرزا على عام ۸۸۱ (۱۴۷۶)

اين هم الأمراء و الفاتحون القدامى

جمعوا كنوزا لا تحصى فكان مصيرها الفناء

و مصير اصحابها الهلاك

كتب هذا ابراهيم سلطان، ابن شاروك عام ۸۲۶ (۱۴۲۲)

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۱۲۴

ترجمة النقوش ج

اعلم يا انسان، ان الله هو وحده الحى السائد إلى آبد الآبدين.

و لعلنا نشتهى جميعا ثروات هذا العالم

غير ان مصيرها الزوال لا محالة فلو منحت مملكة سليمان لمن طلبها.

صحيح ان المملكة بقيت على حالها و لكن اين سليمان؟

هذه الدعوة، و هذه العظمة و هذه الكنوز التى لا تحصى

ما الذى اخذه معه سليمان؟

تحولت كلها رمادا

فأى فائدة نجنيها من الرماد؟

فكل طبقة منه تمثل وجه انسان حر و كل قدم تطأ ذرية ملك فاكتفوا بفعل الخير

لأن اعمالكم وحدها تشفع لكم

فمن كانت الفضيلة من شيمه ما التمس سواها

كتب هذا على ابن السلطان خليل، ابن السلطان حسن، أعزه اللّه، سنة ۸۸۱ (۱۴۷۶)

انها لنعمة من الله ان اتمكن من الكتابة على هذه الحجارة.

ترجمة النقوش ه

فى شهر شوال من العام ۸۲۶ (۱۴۲۲)، و فى ظل الأحكام العادلة و المنزلة، التى فرضها خليفة الأرض، و ملكها، أكثر أباطرة بلاد فارس و طوران عـدلا، حـامى الحقيقـة و الـدين، صـاحب البطولات و الانتصارات، السـلطان ابراهيم، بارك الله بلاده، و مملكته، تحول هـذا المكان إلى أرض مقدسة، اذ نصبت فيه الخيام الحاملة لراية المملكة.

نال كمال الدين عناق، اصغر مخلوقات الله، حظوة لدى الملك، بعد أن كتب هذا الكلام، علما انه كان عبدا عنه.

كان يتمنى ان يلقى هذا الوصف رواجا،

و ان يتضرّع البعض للأولياء، لينالوا الرحمة و الشفقة.

نجـد فى السور الشـمالى لهـذه الغرفـة، ثلاث نوافذ و بابين، أما الرسومات على الأبواب فهى شبيهة بتلك التى نراها فى اللوحةXXV ، الصورة ج (۲) و هى تضم خادمين، يحمل واحـد منهما، مذبـة، و قطعـة قماش قطنى. من الجهـة الغربية، نشاهد نافذتين و بابين، تمثل رسوماتها صـراع بطل فارسى قديم مع حيوان اسطورى، يبلغ طول هذا البطل ۷ أقدام و ۴ بوصات. أما من الجهة الشرقية، فنشاهد على الباب، صورة البطل نفسه فى صراع مع أسد. و فى الركن الجنوبى- الغربى

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۱۲۷

للصرح، نشاهد حجرا كبيرا، طوله ۲۰ قدما، تعلوه ۴ نقوش برسيبوليسـية ، علاوة عن نقوش أخرى، نقلتها فى اللوحةXXVII ، الصورة (د)

و الجدير ذكره انه لم يتبق من السور الجنوبى و الغربى إلا نافذة متداعية، و باب (ك)، تغطيه صورتا شخصين يرتديان الأثواب الطويلة و يحملان الحراب. كما و انه لم يتبق من السور الشـرقى إلا جزء من حجر الزاويـة. و أظن ان معظم حجارة هـذا الصـرح قـد نقلت من هنا، إلى هضبة مجاورة لشيراز.

إليكم ترجمة السيد روسو لنقوش الصورة (د) من اللوحةXXVII .

«لو طبقت قوانين آفريـدون زهاق(Zehak) و وكام(Wakam) فى الامبراطوريـة و المملكـة الفارسـية لما تعرض عرشـها للخطر و أضعفته الثورات.

غير انه لا سبيل لمقارنتها بعرش سليمان، اعزه الله. و الذى لم يتبق منه الا الرماد فطوبى لمن احسن إلى غيره قبل رحيله.

فتعلموا ان تزرعوا شجرة الرأفة حتى تحصدوا السعادة و الخير.

كتب هذا السلطان ابراهيم بن شاروك العام ۸۲۶ (۱۴۲۴).

لم يتبق من الصرح (ح) فى اللوحة XVIII ، إلا آثار صخور، بنيت عليها الأعمدة قديما. نجد فى الصورة ق (۹) درجا مغطى بالتراب، و سورا حصينا، غنيا بالرسومات و النقوش، التى يظهر فيها الأفراد حاملين الحراب، و الأقواس، و الجعب، و نجد ايضا بين الصرحين ح، و ط. ممرا ضيقا، جدرانه مغطاة ايضا بالرسومات.

نشاهد فى اللوحة XXVIII منظرا عاما لبقايا الصرح (ط)، و إن قارناها مع بقايا الصرح (ز) فى اللوحة XXVI ، نجد أنفسنا أمام خيارين، إمّا أن الحجارة سيئة، أو ان الصرح أكثر قدما، و لعله البناء الأول، الذى شيد فى هذا المعبد أو القصر. فارتفاعه يزيد بضع أقدام عن ارتفاع الصرح (ز).

كما و انه يقع على علو ۳۱ قدما عن السطح (ص)، و بالتالى ۵۰ قدما عن الأفق، شأنه شأن السور الأساسى، المبنى على صخرة. يتألف السوران (ث) (و خ) من حجارة هذه الصخرة نفسها، تركت المهندس قرب السور (ت) سلما من حجارة الصخرة المذكورة، يتألف من ۵۲۹، لا يزيد ارتفاع الواحدة منها عن ۱۰ بوصات، مما يعنى ان هذا السلم ليس مريحا كالسلالم الأخرى التى عثرنا عليها بين هذه الأنقاض. و يبدو ان السلم الذى كان مبنيا قرب السور (خ) قد نقلت حجارته كلها.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۱۲۹

تغطى أرض الغرفة الأساسية فى هذا الصرح، صخور خام، لا يزيد ارتفاعها عن البوصتين و قطرها عن ۳ أقدام، خاصة فى الأماكن التى توضع فيها الأعمدة، مما يعنى ان هذه الغرفة كانت تحوى ۳۶ عامودا، نقل معظمها إلى المدن المجاورة.

نشاهد وسط صف الأعمدة هذا، قناة للمياه محفورة فى الصخر. كانت هذه الغرفة مسقوفة قديما، غير ان سقفها تهدم جزئيا.

للسور الشمالى بابان، لم تصبهما أضرار السنين، تبلغ سماكة ركائزها ۳ أقدام و ۳ بوصات، و عرضها ۷ أقدام و بوصتين، أما طول المدخل فيتعدى ۱۴ قدما و نصف. و نشاهد هنا أيضا الصورة (ج) (۲) من اللوحة XXV التى تصادفنا غالبا داخل الصرح (ز)(Z) فضلا عن النقوش (ه) (و) (ز) من اللوحة XXIV و نجد من هذه الناحية، خمس نوافذ، ثلاث منها بين البابين، و واحدة من الجهة الشرقية، أما النافذة الغربية فتغطيها الرسوم من الجهتين لم يتبق شىء تقريبا بين السور و الجهة الشرقية، باستثناء ركائز احد الأبواب، أما الرسومات و النقوش الموجودة عليها، فهى شبيهة بتلك التى ذكرناها آنفا .

كان لباب السور الجنوبى ثلاث نوافذ من الجهتين، تضم الواقعة منها على الجهة الشرقية، ثلاثة رسومات، على كل ركيزة من ركائزها، واحدة تجسد امرأة حاملة مزهرية (صورة (ح) من اللوحة XXV)، و أخرى تجسد رجلا حاملا مزهرية، و ثالثة، تمثل امرأة حاملة كعكة حلوى بين يديها.

لم يتبق من نوافذ الجهة الغربية، سوى ركيزة واحدة، نشاهد عليها الرسومات نفسها التى أشرت اليها اعلاه. و نجد وسط السور الغربى، بابا لم يتبق منه الا ركيزة واحدة، تظهر عليها الرسومات نفسها التى تحدثت عنها سابقا، غير ان النقوش مختلفة عن سواها. و من بين النوافذ الثلاث الواقعة من الجهتين، لم أجد سوى ثلاث ركائز مغطاة بالرسومات نفسها، التى وصفتها آنفا.

شاهدنا شمالا غرفة كبيرة، توازى الرواق كله طولا؛ و يضم احد جدرانها، بابا كبيرا، تحده من الجهتين صورتا رجلين يحملان حرابا. و نجد هنا ايضا ركيزة نافذة، عليها ثلاث صور، فضلا عن حجارة ارتفاعها ۲۲ قدما، مغطاة بنقوش شبيهة بتلك التى رأيناها فى الصرح (ز)، انها تعرضت لأضرار الزمن. يحد الرواق الكبير من الجهتين عدد وافر من الغرف، تتألف الغرفتان الجنوبيتان من ثلاثة أقسام متساوية؛ فلو كان هذا الصرح معبدا، لقلنا انها غرف الكهنة. و نشاهد على ركائز النوافذ فيها، صورة امرأة، و خلفها صورة رجل يمسك بقرنى نعجة. أما فى الغرف الوسطى فنجد آثار أربع أعمدة، علاوة على صور شبيهة بتلك التى نقلتها فى اللوحة XXV الرسم ج (۲)، غير ان معظمها تعرض للتآكل مع مرور الزمن.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۱۳۲

لم يتبق الكثير من الجدران الخارجية للغرف الشمالية، باستثناء السلم ن(N) ، و آثار أربع أعمدة، و لعل هذا السلم يشكل جزءا من الصرح ط(T) ، لأن المهندس بنى ادراجا جميلة تؤدى إلى الصرحين (ز) و (ح)، و لا أظنه نسى ان يفعل مثل ذلك بالنسبة إلى الصرح ط(T) .

بنيت الأبراج (ن)(N) بطريقة مشابهة للأدراج الأساسية أو الأدراج الكبرى، اى انه زودها فى الوسط، بمكان يستريح فيه من يتسلقه، أما الدرج الواقع بين الصرحين ط و ز، فهو مغطى تماما بالتراب؛ بينما الآخر مكشوف تماما، و يتألف من ۲۶ درجة، و هو يضم صورا مختلفة و نقوشا غريبة.

غير ان معظمها تعرض للتآكل مع مرور الزمن. حفر بين هذين السلمين رواق طويل، شبيه بقناة المياه . بنى قديما قرب منطقة (م) صرح كبير لم يتبق منه اليوم الا ركائز ۳ أبواب أو لعلها جدران ۳ مداخل، تفوق جدران الصرح (ل) عظمة. نشاهد على الجدران ث الصورة نفسها التى نقلتها فى اللوحتين XXIX و XXX . و هى تجسد فتاة جالسة على مقعد، حاملة كأسا فى يد، و عصا فى اليد الأخرى؛ و نشاهد فى الأسفل صور فتيات رافعات ايديهن صوب الأعلى. أما على الركائز الثلاث الأخرى فنشاهد الرسوم ج (۲) من اللوحة XXV . غير أنه لم يتبق الكثير من هذا الصرح (الذى كان ذا شأن عظيم نظرا لمداخله)، سوى جدران اساسية، و قاعدتى عامودين كبيرين، أما الأجزاء الباقية فهى إما مغطاة بالتراب، أو منقولة إلى مكان آخر.

يضم الصرح ك، غرفتين فحسب، أما الجنوبية منها فلها أربعة أبواب، نشاهد على ركيزة الباب الغربى صورة البطل الذى يصارع مع الأسد، علاوة على ثلاث نوافذ صغيرة، تهدم معظمها مع مرور الزمن. و نشاهد على ركيزة الباب الجنوبى صورة رجل حاملا الكأس فى يد و العصا فى اليد الأخرى؛ بينما يحمل خادما من خدمه مذبة فى يد و منشفة فى الأخرى، أما صورة الخادم الآخر فمغطاة كليا بالتراب. تغطى ركائز الباب الداخلى الصور (ج) (۲) من اللوحة XXV كما و للغرفة الثانية بابان ايضا تغطى ركائزهما صور رجال يحملون الحراب.

يعد الصرح (ل) كله الأكثر اتساعا بينها: كله؛ فلو كان صف الأعمدة ب. ج. د. ه. يشكل بناء واحدا، لشاهدنا فى كل من الجهات الأربع مدخلين، يمتاز الواقع منها قرب الصورة (ت ث) و (خ خ) بعظمته و روعته، و تبلغ سماكة السور فى الصورة (ث ث). ۶ أقدام و نصف، و هى توازى عرض الأبواب التى نشاهدها فى هذا المكان.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۱۳۳

غير ان هذا السور لا يتألف من جزء واحد؛ فركائز الأبواب (ذ. ص. أ) و (أ. ب) و (ب)، تتألف من أجزاء كبيرة مختلفة، وضعت الواحدة منها فوق الأخرى بشكل أفقى. تغطى ركائز الأبواب الأربع، فى الصرح (ت) الصور التى نقلتها على اللوحة XXIX . و يبدو ان الملك أو الزعيم الروحى، يقيم مجلسا هنا، أو يعقد المحاكمات، و يستعمل كرسيا عاليا، و مرقاة تحت رجليه . و هو يضع فى يديه اساور ذهبية، بينما قبعته أو تاجه مغطى بالمعدن. أما صورة الشخص الذى يقف خلفه حاملا مذبة، فأظنها تجسد احدى النسوة، لأنها تضع على رأسها و شاحا أو حجابا شبيها بذلك الذى تستعمله النساء الشرقيات. بينما يرتدى الخصيان ثيابا شبيهة بتلك التى يرتديها الرجال فى البلاد الشرقية. أما صور الرجال المسلحين الذين تحاكى أزياؤهم تلك التى نراها فى اللوحة XXI ، فلا بد انهم يمثلون الحرس الملكى.

نقلت فى اللوحة XXX صورة احدى ركائز البوابة خ. خ XX ، و التى يبلغ عرضها ۹ أقدام؛ و الجدير ذكره هو أن مقاييسها كلها متوازية. أما أزياء الصور السفلية، للأفراد الذين يحملون عرش سيدهم، فهى مختلفة بعض الشىء، و لذلك جمعتها فى اللوحة المذكورة. انه لغريب حقا ان نشاهد هنا صور أشخاص يرتدون أثوابا طويلة تدل على مكانتهم المرموقة فى بلاد فارس و افريقيا، كما و اننا نستطيع التعرف عليهم بسهولة علما ان شعرهم كث و شفاههم غليظة.

و نشاهد فى القسم العلوى، للمدخلين ت و (خ) صورا صغيرة تمايل فى الهواء. و يمكنكم مراجعتها فى مؤلف شاردين علما اننى لم أشر اليها فى لوحاتى. نشاهد على ركائز البوابة (ذ) البطل ج (۲) من اللوحة XXV ، غير ان منقار الحيوان الذى يصارعه معه ملوى، و البطل يمسكه بأذنه. على البوابة (ض) نشاهد البطل نفسه فى صراع مع أسد، و على البوابة (أ) مع قارن مجنح، و على البوابة ب ب مع القارن الأسطورى الذى نشاهد صورته محفورة على ادراج هذه البقايا كلها.

فى السور الشمالى نجد بابين، و تسع نوافذ، حسبها أحد الرحالة أبوابا صغيرة، و يبدو انه لم يلحظ ان علو الأرض زاد قدمين على الأقل بسبب التراب الذى نقلته الرياح إلى هنا من الجهات الغربية، و الجنوبية و الشرقية، نشاهد ايضا نوافذ مموهة، اى ان حجارتها لم يبق إلا نصفها، و يبدو ان هذا الصرح كان أيضا مسقوفا، و لعل النوافذ الفعلية قد هدمت و نقلت إلى مكان آخر. نشاهد امام الصرح سورين كبيرين (ج ج) مغطيين بالحيوان الضخم نفسه الذى نشاهده على الأسوار (أ) من اللوحة XX و نجد على ابواب هذا السور (كما على

المداخل الأساسية للأصرحة الأخرى) صور رجال حاملين الحراب، أخالهم يمثلون الحرس.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۱۳۵

انه لغريب حقا ان لا نرى في الصورة ج (۲) من اللوحةXXV (التي تكثر في الصروح الأخرى) إلا صورة الرجل الجالس على كرسيه. و لعله، كانت تقام في هذا الصرح محاكم غير دينية، أو مجالس للغرباء، نجد في هذا الصرح أجزاء اعمدة مبعثرة هنا و هناك.

و قرب الصورة س من اللوحةXVIII ، نشاهد حجارة باب، يوازي باب أ، و أ، ه عظمة. علاوة على بقايا أعمدة مصقولة، و جزء من حيوان ضخم، كان يستعمل حتما كتاج لها. و نرى صوب الغرب، مداخل واسعة، محاذية لسلم طويل، انه لشعور رائع ان يقاد الأجنبي إلى الصرح (ل) عبر هذا الطريق، بين اعمدة و أسوار من المرمر الجميل، كانت قديما مزدانة بالرسومات و مصقولة جيدا.

هذه هي بقايا قصر برسيوليس الأساسية، الذي هدم منذ أكثر من ۲۰۰۰ سنة. أما الأجزاء التي يمكن استعمالها في البناء، فقد نقلت من هنا منذ زمن طويل.

مما لا شك فيه ان ما تبقى منها يثير اعجاب الجميع. فقد نقل الفرس عن اليونانيين هندستهم المعمارية، من حيث ترتيب الصروح و تقسيمها، فهي مكدّسة، بعضها فوق بعض كما و أن تعدد زوايا سورها الأساسي شوه دائرته كلها. غير اننا لا نعرف كم من الوقت اقام فيه اصحابه، قبل ان يدمره الاسكندر الكبير؛ و سواء أكان معبدا أم قصرا، لا شك ان عدة مهندسين معماريين ساهموا في بنائه، لأن أصحابه من كهنة أو علمانيين، كانوا يزيدون عدد الصروح، كلما ازدادوا ثراء، و ازدادت حاجتهم للخدم.

يقدّر لوبراين، ان عدد الرسومات، التي نجدها اليوم بين هذه الآثار بحوالي ۱۳ ألفا و رغم انني لم أتكبد عناء عدها، لا أظن ان هذا الكاتب قد بالغ في العدد، و لا داعي ابدا لنقلها كلها، نظرا لتشابهها الكبير. تجدون في لوحاتي، صور الأزياء التي شاهدتها هنا، أما صور الحيوانات الاسطورية، فهي متوفرة في مؤلفي شاردين و لوبراين. و لا أخال أن العلماء قد يحتاجون لرسومات أخرى عن برسيوليس . و لكنني أرجو من الأوروبيين الذين قد يزورون هذا المكان لاحقا، ان

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۱۳۶

ينقلوا النقوش القديمة الموجودة، و بشكل واضح تماما، حتى نستطيع تمييز الأحرف كلها كما في الصورة الأساسية. فهذا ما لم يفعله كامفر و شاردين و لوبراين، و لهذا السبب بالذات لم يسع اي عالم لتفسير هذه النقوش. سأضيف على اللوحةXXXI أربعة نقوش، ط ح، ك، ل، وجدتها وسط السور الجنوبي الأساسي، يبلغ طول الحجارة المنقوشة عليها ۲۶ قدما، و ارتفاعها ۶ أقدام، مما يعني ان الأحرف واضحة تماما، رغم أنها تضم ثلاث أبجديات مختلفة.

خلف الصرح (ل)، و على ارتفاع جبل راشمد قرب الصرح ع من اللوحةXVIII ، نجد صرحا آخر، رائع الجمال، لم يتعرض لأضرار السنين، و هو يتميز بواجهته الساحرة التي تضم صورا.

و أعمدة و غيرها من الأشكال الهندسية الجميلة، كما و تكثر فيه الحجارة المنقوشة التي تدل على أن هذا المكان كان يتألف من صروح متعددة، نقلت اعمدتها إلى مكان آخر، أو انها كانت تستعمل كسلم للوصول إلى الصروح المذكورة. كانت عيناي قد أنهكتا من جزاء انكبابي على رسم انقاض هذا القصر، و من نقلي النقوش كلها، خاصة المحفور منها في الأجزاء العليا، و التي لا تقرأ بسهولة، حتى انني لم أجرؤ على رسم هذه الواجهة الكبيرة، و اظن انني تكبدت ذلك العناء سدى، علما ان هذه الرسومات متوفرة في عدة مؤلفات أخرى. و الملاحظ ان الصور التي نشاهدها هنا، تتشابه مع تلك الموجودة في القصر، مما يدفعنا للاستنتاج بأن السيد الذي بنى هذه الواجهة يعتنق الديانة نفسها التي يعتنقها باني القصر أو المعبد. لكن ان كانت تلك الديانة تعرف بالزرادشتية أو ديانة عابدي النار، فهذا يثير الشك؛ ففي معابد المجوس، التي نشاهد العديد منها في بلاد فارس و الهند، يقف الكاهن أمام النار المقدسة، ليؤدي واجباته الدينية، واضعا قطعة قماش امام فمه، حتى لا يدنس النار بلهاثه. أما في الصرح الذي يعلو هذه الواجهة، فيقف الكاهن امام المذبح، حيث النار مشتعلة، و وجهه مكشوف كليا، و يحمل في يده شيئا، يحرك فيه النار؛ نشاهد في الصورة المحفورة هنا، قوسا في يد الكاهن، علما انه لا يستطيع استعماله لتلك الغاية. كانت الشقق المبنية خلف هذه الواجهة، تستعمل لاقامة مراسم الجنازات؛ و قد بقيت معلقة من الخارج، لمدة طويلة، إلا انه تم خلعها، غير ان مجوس اليوم لا يدفنون أمواتهم، بل يتركون عصافير الصغنج تلتهمها.

و لكن هذه الأبنية الأثرية، هي أكثر قدما من عادة الفرس، الذين نقلوها عن المجوس؛ و حتى ملوك بلاد فارس، الذين كانوا من عبدة النار، كانوا يسعون للحصول على الإذن بدفنهم بعد موتهم. كما و اننا نجد في الهند، طبقات اجتماعية مختلفة، يعتنق اهلها الديانة نفسها، فالبعض يحرق جثث أمواتهم، و البعض يدفنها، و البعض الآخر يرميها في المياه؛ و لعل مصير جثث ملوك بلاد فارس و اسيادها كان مختلفا عن مصير جثث افراد الطبقات السفلى. و تجسد هذه الصورة

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۱۳۹

الموجودة هنا، اميرا علمانيا، يقف بعيدا عن المذبح حتى لا يؤثر لهاثه على هذا العنصر.

قرب الصورة ف من اللوحةXVIII ، نشاهد خزانا (أو بنوعا أو سواه) محفورا في الصخر، يبلغ ارتفاعه ۱۲ قدما مربعة، و عمقه ۱۳ قدما، يبدو ان فتحته العليا كانت مغطاة كليا، كما و ان الثقوب التي نشاهدها في الصخر، تدل على انها كانت قديما أبوابا تؤدي إلى صرح ما. و نجد هنا أيضا قنوات للمياه محفورة في الصخر.

نشاهد نحو الجنوب، واجهة مكان آخر تقام فيه الجنازات شبيهة إلى حد بعيد بالواجهة الأخرى، رغم تعرضها لأضرار السنين. دخلت إلى هذا المكان بسهولة فائقة، غير انني دهشت لرؤية غرفة مستطيلة، كانت تحوي ماء؛ مما لا شك فيه ان بناء هذه الغرفة الصغيرة يتطلب عناء و مالا. علما انها محفورة عاموديا في الصخر، و مزدانة بالتماثيل. و لكن لماذا بنى المصريون الأهرام؟

لم نجد فيها سوى عددا بسيطا من الغرف، لا أظن ان صرحا بهذه العظمة يبنى من اجلها، علما ان تكاليفه باهظة و بناءه صعب على بعد ربع فرسخ جنوبا حفر الصخر بشكل عامودي؛ و بنى عليه منحدر. فنقلت الحجارة من هنا لتوضع على اعلى الواجهة و نقشت على الصخر نفسه هذه الرسومات. غير ان احدا لم يعر هذه الاعمال اهتماما. و تلفت نظرنا صورة جسم مستدير يلوح في الهواء، أظن انه يجسد الشمس و صورة شخص يرتدي ثوبا طويلا- و يقف امام المذبح كليا؛ و لعل قوسا في يده، لم يتم انجازها كليا، و لعل المقاول توفي قبل انهائها أو ادخلت إلى بلاد فارس ديانة جديدة. في هذه الأثناء، انتزعت الحجارة من الصخر، دون ان تنقل كلها.

نشاهد في الوادي، في الجهة الجنوبية- الغربية من القصر، بقايا صرح مهدم، يتوسطها عمود منتصب، ترون صورته في اللوحةXIX ؛ و أظن انه العامود العشرون المنتصب بين هذه الأنقاض كلها. أما صوب الشمال؛ فنجد ركائز ابواب، متقنة البناء، لتلك التي أشرت اليها اعلاه. و تكثر عند اسفل الجبل، الحجارة المقتطعة من الصخر، و التي تستعمل لبناء القنوات المحفورة في الصخر. في منتصف الطريق الذي يفصل بين هذا القصر و بقايا «إصطخر»Istakr ، نجد غرفة محفورة في الصخرة، لا سقف لها و لا جدار أمامي؛ أما الجدران الثلاثة الأخرى فمغطاة برسومات كبيرة، تختلف من حيث اسلوبها عن رسومات تشيل- منار. و تشاهدون في الصورة (أ) من اللوحةXXXII ، الرسومات المحفورة على السور الشمالي؛ و الملفت للنظر ان رأس الصورة الاساسية التي اسماها قاضي البلدة رجبRodsgab ، فضلا عن رأس الجواد، قد شوهتا بعنف؛ أما الرسم المنحوت خلف الجواد فيبلغ ارتفاعه ۸ أقدام و نصف. نجد على هذا السور، السطور الأربع (و)، من اللوحةXXVII ، أمام الجواد، أما (ز) و (ح) فهي مرسومة على الجواد نفسه، و لا أظن ان

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۱۴۰

المعلم الذي حفر هذه الصور، قد رسم هذه السطور أيضا لأنها حديثة .

إن السطور السفلية من الأحرف اليونانية، هي أيضا حديثة، و لكنها تالفة تماما. نقلت رسومات السور الشرقي، قرب الصورة (ب) من اللوحةXXXII ، رغم انها تعرضت لأضرار السنين. و نشاهد هنا شخصين يتقاتلان حول حلقة، يتدلى منها شريط أحمر، و يقف بينها طفلان صغيران فضلا عن ثلاثة أشخاص يمثلون النساء. أما على السور الجنوبي، فنشاهد صورة شخصين على الحصان، يتقاتلان ايضا من أجل حلقة. لم أحاول نقلها نظرا لتعرضها للتآكل، غير انني اظنها مشابهة لتلك التي أشرت اليها في الصورة (ح) من اللوحةXXXIII .

على بعد ميل و نصف من تشيل- منار أو من قصر برسيوليس؛ اي على بعد ۴ ۳/ الميل شمالا و ۳/ ۴ الميل شرقا، نجد بقايا إصطخر (أي مدينة برسيوليس)، و هي تجسد بقايا القصر الذي طلبت الملكة خومىHomi بناءه في هذه المدينة؛ علما ان طرازها شبيه بطراز تشيل- منار و لا تبعد هذه البقايا كثيرا عن مقبرتي نقشي رستم اللتان تعدان علامتين مميزتين في هذا القصر.

نشاهد في هذا المكان عامودين منتصبين، يشبه تاج احدهما ذاك الذي نراه، في الصورة (أ) من اللوحةXXV بينما يعلو الثاني جزء من حيوان مفترس. تحيط بهذين العامودين؛ بقايا اعمدة مهدمة، و بعض القواعد، التي لم تنقل من مكانها. وجدت في سور صرح مجاور

لهذين العامودين.

حجارة يبلغ طولها و عرضها ۹ أقدام و سماكتها ۴ أقدام. تتألف هذه الأبنية كلها من المرمر الاسود الصلب، الذى يكثر بين بقايا تشيل- منار ايضا. نجد عند أسفل الجبل ركائز اصرحة متداعية، و بعض الحجارة المتكدسة فوق بعضها البعض، و كأنها كانت قديما بابا.

تقع بقايا قصر الملكة خومى فى واد ضيق و خصب، بين جبلين شاهقين، و بمحاذاة نهر صغير، يطلق عليه الفرس اسم(Polwar) بلور، يصب فى الأراكس. يبلغ طول هذا النهر ۳/ ۴ الميل، امتدادا من هنا إلى الوادى الكبير، حيث يقع تشيل- منار، و اظن بالتالى ان مدينة «إصطخر» أو برسيبوليس تقع بين هذين القصرين.

تقاد مياه النهر، عبر القنوات الصغيرة، إلى الأرياف الخصبة المجاورة. لم تهدم برسيبوليس دفعة واحدة، مثل قصر برسيبوليس، ففى عهد الخلفاء كانت «إصطخر» مقر حكامهم. و ان اخذنا بعين الاعتبار موقع برسيبوليس، بين الجبال و فى سهل خصب، و افتقار السكان إلى الذوق الرفيع، فى الهندسة المعمارية، و إقدامهم بالتالى على تدمير قصور اجدادهم، و بناء منازل متواضعة مكانها، لن

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۱۴۱

نتفاجا ابدا، ان لم يتبق من صروح هذه المدينة الأربعة، سوى بعض الركائز، و الحجارة الكبيرة، التى تعذر نقلها إلى مكان آخر.

نشاهد شمالى نهر بلور (على مقربة من برسيبوليس أو إصطخر) مدافن الملوك المزعومين.

و الملفت للنظر ان طبيعة الصخرة الملساء ساهمت فى جعلها واجهة لهذه المقابر دون بذل عناء كبير. غير ان هذه الأضرحة لا تضاهى تلك التى قرب القصر المذكور جمالا و روعة، رغم انها كلها متشابهة من الخارج؛ تتميز مداخلها بعلوها و ارتفاعها عن الأرض، إلى حد اننا لا نستطيع الوصول اليها دون الاستعانة بسلم، و لكن لم تسنح لى الفرصة لاتخاذ هذه التدابير كلها. بيد اننى علمت فى السنة التالية ان السيد هيرفيل، زار برسيبوليس ثانية، و كتب لى تفصيليا عما عثر عليه داخل احد الأضرحة. وجد غرفة طولها ۴۰ قدما و عرضها ۲۰، و فى جدارها الداخلى ثلاث كوات، وضع فى كل منها صندوق ارتفاعه ۴ أقدام، و طوله ۹، و عرضه ۸ مغطى بحجر كبير مسطح. و لما كنا نعتبر هذه الغرف مقابر، خطر للسيد هيرفيل انه قد يعثر فى داخلها على توابيت المومياء؛ فأخذ معه مطرقة و مثقابا لفتح التوابيت، غير انه اكتشف ان تعبه ذهب سدى، خاصة و ان الرحالة السابقين، ثقبوا الغطاء، ليمرروا عبره ايديهم، حاملين المصابيح؛ و بعد ان حذا السيد هيرفيل حذوهم، لم يجد فى الداخل سوى التراب.

يمكننا بالتالى الاستنتاج ان هذه التوابيت لم تحو جثثا أبدا؛ فمن خلال وصف السيد هيرفيل، يتضح لنا أن ثقوب الغطاء صغيرة للغاية، و لا يمكن اخراج الجثث عبرها و نقلها إلى مكان آخر؛ كما و ان عرض هذه الصناديق لا يتناسب مع طولها، شأنها شأن التوابيت الحجرية التى نجدها فى مصر، و أرض الميعاد و ناتولى، و اليونان، و يبدو لنا جليا ان هذه الصناديق لم تصنع لتبقى فارغة، بل كانت للاحتفاظ بالاشياء الثمينة فيها، و خاصة تلك التى تنقل بسهولة. غير ان هذه الغرف المنحوتة فى الصخر، كانت مخصصة لدفن الجثث، و خاصة جثث الملوك، حفاظا على ذكراهم، شأنهم شأن ملوك مصر، الذين دفنوا فى تلك الأهرام الضخمة. و رغم اننا لا نجد اليوم بقايا اجساد ميتة، لا نستطيع القول، ان هذه الصناديق لم تحو جثثا أبدا. فلعل هذه الغرف قد فتحت منذ زمن بعيد، و سرق القرويون المقيمون فى هذه المنطقة الجثث التى لم تهترىء بعد.

تكثر قرب هذه القبور الجميلة، الرسومات الكبيرة المحفورة على الصخر، و التى تمثل مآثر بطل بلاد فارس القديم، المدعو رستم؛ و هى تسمى نقشى (أى صورة) رستم ، و أظن ان واجهات

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۱۴۲

المقابر هى اكثر قدما، لأن اسلوب الرسومات يحاكى اسلوب رسومات تشيل- منار أو قصر جمشيد. تجدون فى اللوحة XXXIII صورتين للمدعو رستم؛ ففى الصورة (ح)، نشاهد صراعا فريدا من نوعه، بين البطلين اللذين نراهما واقفين فى الصورة (ب) من اللوحة XXXII ، من حول حلقة.

يسمى سكان قرية تشول Tchul القريبة من هنا، رستم سال، حامل العصا فى اليد اليسرى، و رستم كلداس، خصمه الواقف أمامه؛ يرتدى كلاهما سراويل طويلة تصل إلى اسفل أقدامهما لا يملك الفرس القدامى ركابا، و يكتفون باستعمال سرج عادى. و لكننى لم استطع ان احزر سبب تدلى تلك الكرات من اعناق الجياد، رغم انها كانت تعيق سيرها. يتميز اللجام بالحزام الجلدى المعلق فيها، الذى يمر فوق فم الجواد. أما الشخصان المستلقيان ارضا، فلا نشاهد إلا الجزء العلوى منهما، بينما يغرق الجزء السفلى تحت الصخرة. فى الصورة (د) يرتدى الشخص الذى يقف أمام الجواد ثوبا ضيقا له كمين طويلين، شبيه بذلك الذى يرتديه الهنود؛ فعند وصولهم، ينزلون أكمامهم و يغطون بها أيديهم، ليعيدوا رفعها عند انتهائهم. أما ما تمثله هذه الصورة كلها، فاترك للباقين عناء تحديد ذلك.

نشاهد على هذه الصخرة، صورا أخرى للمدعو رستم، غير اننى لم أنقلها كلها، لأنها تالفة بعض الشىء، كما و اننى كنت أتلهف للعودة إلى شيراز، خاصة و ان خادمى اصيب بمرض عضال ادى إلى وفاته.

خلف صورة الجواد (د) فى اللوحة XXXIII نشاهد لوحة كبيرة، حفرت عليها نقوش غريبة، تعرض معظمها للتآكل، و نقلت جزءا منها (ثلث العرض، و نصف الارتفاع، أى سدس اللوحة المنقوشة) فى اللوحة XXXIV ؛ و هى عبارة عن سطور متقطعة. لا نستطيع فهم فحواها؛ غير أن العلماء يستطيعون، بواسطة هذه الصورة، أخذ فكرة عن الابجدية التى كان يستعملها الفرس يوم حفرت هذه الصور. و رغم ان النقوش الأخرى التى سنشاهدها فى نقشى رستم تعرضت للتلف، نقلت بعضا منها فى اللوحة XXVII .

إن امعنا النظر فى النقوش التى نقلتها من منطقة برسيبوليس، فى تشيل- منار و فى نقشى- رستم، لا أظن انه قد يتوفر هذا العدد من الأحرف المختلفة، فى منطقة أخرى من العالم. مما لا شك فيه ان الأحرف التى نشاهدها فى اللوحتين XXIV و XXXI هى أكثر قدما من تلك التى نقلتها من قصر جمشيد (تشيل- منار)؛ فهى تكثر بين الرسومات، فى أماكن خاصة. اعتبر العلماء هذه الكتابات هيروغليفية، استنادا إلى رسومات الرحالة السابقين؛ بيد اننى لاحظت انها تتألف من ثلاث أبجديات مختلفة كليا، جمعتها كلها فى اللوحة XXIII ، فى الصور أ. ب. ز، ح، ط، أما النقوش ج، ه، ك، و (د) و (و) فهى مكتوبة بأحرف أكثر تعقيدا .. و تبعا لدرجة قدمها، تأتى أولا.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۱۴۵

أحرف اللوحة XXXIV ، و تليها خطوط الصورة (و) الأربع، و النقوش ط، فى اللوحة XXVII .

و تتبعها السطور الأربعة (ز)، و بعض سطور النقوش ط. من اللوحة XXVII .

و الجدير ذكره اننى كنت اجهل كليا الأحرف التى تحدثت عنها حتى الآن، كما و اننى لم أقع مرة واحدة على أحرف الأبجدية د و ه من اللوحة II ، و التى اخذتها عن أسلاف الفرس القدامى، الذين استقروا فى الهند. يقال ان الأبجدية الأخيرة قديمة؛ غير ان تلك التى عثرنا عليها فى برسيبوليس هى أكثر قدما، حتى ان الفرس غيروا احرفها مرات عدة. اراد اليونانيون ان يخلدوا اسماءهم هنا أيضا، غير أنهم لم يتقنوا عملهم جيدا، و حفروا نقوشهم على الأحصنة، علما انها تعرضت للتآكل مع مرور الزمن. تلى هذه النقوش، الكوفية و العربية و الفارسية؛ حتى أننا نعثر فى نقشى رستم على أحرف عربية (اللوحة XXVII ، السطر الأخير)، و اظن اننى رأيت أحرفا مماثلة بين انقاض تشيل- منار. و لكننى لا أستطيع ان أدرج هذه الأحرف، و أسماء بعض الأوروبيين فى عداد النقوش، فقد عثرت فى تشيل- منار على اسم لوبراين مكتوبا بالطبشور الأحمر.

أمام الجبل الذى يضم مقابر الملوك، و صور مآثر البطل رستم، نشاهد صرحا صغيرا من الحجارة البيضاء (و ليس من المرمر الأسود الجميل الذى استعمل فى بناء القصور)؛ تغطى هذا الصرح حجرتان كبيرتان، ساهمتا إلى حد بعيد فى الحفاظ عليه، فلا أحد يستطيع نقل الحجارة السفلية، دون ان يتعرض لخطر وقوع الحجارة العلوية عليه. أما البوابة، فليست مرتفعة كثيرا عن الأرض، و يمكن الدخول منها بسهولة، لأنها لم تتعرض للتآكل.

و لا نجد فيه سوى غرفة صغيرة مساحتها ۱۰ أقدام مربعة، و بعض الثقوب فى الحجارة، كانت مخصصة لمفصلات الأبواب. كما و انه خال من النوافذ، و لا يدخل اليه النور إلا عبر فوهة فتحة الباب، المجاور للصخرة. أما القسم السفلى من هذا الصرح، فليس مقسما إلى عدة غرف، بل يبدو و كأنه ردم منذ البداية؛ و لا أخال ان هذا الصرح كان مخصصا للسكن بل هو عبارة عن مقبرة، أو كنيسة صغيرة، توضع فيها جثث الأموات، قبل نقلها إلى الصروح الكبيرة.

قرأت فى الكتب الأخرى، التى تتحدث عن سير الرحلات، عن عامود صغير على قمة الجبل، و لكنى لم أشاهده إلا من بعيد. يقول هيرودوتس فى كتابه الاول، ان الفرس اعتادوا تسلق اعالى الجبال، لتقديم الضحايا للشمس و القمر و الأرض و النار و المياه، و الرياح؛ و لعل سكان برسيبوليس كانوا يرتقون هذه الصخرة، للغاية نفسها، علما انها تطل على منظر جميل للوادى الواقع فى الأسفل.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۱۴۶

نشاهد، على طريق قرية تشولTchul صرحين منحوتين فى الصخر، و لعلهما ضريحى و لبين مسلمين.

على بعد ثلاثة أو أربعة أميال غربا، نشاهد ثلاثة قصور، تعرف بقلعة إصطخر، و قلعة شيفاستى و ...

و يزعم ان الاول يقع فى الأسفل، و الثانى فى الوسط و الثالث فى أعلى الجبل الوعر. و لما كنت قد أهملت زيارة هذه المنطقة، لا أستطيع القول ان كان الفرس القدامى قد بنوها، أو المسلمون، غير انها الأكثر عظمة و تستحق ان يزورها الاوروبى.

ان ارتفاع القطب فى مدينتى برسيبوليس و ممفيس متساو تقريبا، غير ان عاصمة بلاد فارس كانت تفوق عاصمة مصر ارتفاعا عن سطح البحر، مما أدى إلى بروز اختلاف كبير بين مناخى البلدتين؛ خلال إقامتى فى برسيبوليس، هطلت الأمطار فى ۲۷ آذار/ مارس، و ۱ و ۵ نيسان/ أبريل، و رغم ان الجليد عم المكان فى ۲ نيسان/ أبريل، إلا انه ذاب عند الساعة ۸ أو ۹ صباحا، بعد شروق الشمس. نشاهد على أعالى الجبال، الواقعة غربى الوادى، بعض الثلج بين الحين و الآخر؛ فى المقابل، لا تمطر السماء إلا لماما فى ممفيس، كما و ان سكانها لا يعرفون الثلج أبدا.

و فى نهاية المطاف، أود التحدث قليلا عن سكان هذه المنطقة الحاليين، و عن اقامتى بينهم.

كنت اقيم فى قرية مردفMerdaft ، التى تقع على بعد ساعة تقريبا، جنوبى تشيل- منار، أما منزلى، فكان شبيها بمنازل القرويين، و هو يعرف هنا بخان القوافل، حيث ينزل بعض الرحالة الذين ينقلون من قرية إلى أخرى، حاملين معداتهم البدائية، و طالبين عملا. كان سكان مردفت، و غيرها من القرى المجاورة. يأتون غالبا لزيارتى، و فى ايام الأعياد، كنت استقبل النساء و الفتيات، اللواتى يشعرن بفضول كبير لرؤية رجل اوروبى.

و الجدير ذكره، ان هؤلاء السكان فى غاية الاخلاص و الوفاء، و كنت اشعر بالارتياح بينهم، كما لو اننى مقيم فى احدى القرى الأوروبية، و كنت أقضى نهارى كله، من الثامنة صباحا إلى الخامسة مساء فى انقاض تشيل- منار.

فى ۱۹ آذار/ مارس، و بينما كنت أرسم فى منزلى، حسب القرويون اننى احتفل بعيد النيروزNaurus . فطلب قاضى القرية منى ان اعلمه بموعد حلول عيد النيروز، أو اعتدال الربيع، الذى اخذه السكان عن أجدادهم. فأكدت له أن الليل و النهار سيتساويان فى اليوم التالى، فتقرر حينها

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۱۴۸

الاحتفال بعيد النيروز فى هذه القرية، فى ۲۰ آذار/ مارس دون الاستعلام عن تاريخ الاحتفال به فى القرى المجاورة. و هذا يعنى ان الفرس لا يستطيعون تحديد موعد ثابت لأعيادهم شأنهم فى ذلك شأن العرب و المصريين .

فى ۲۰ آذار/ مارس ارتدى القرويون ابهى حلة، و أخذوا اجازة من عملهم. و لما كان رمضان لم يشرف بعد على نهايته، لم يتجرأوا على الأكل و الشرب فى النهار، صحيح انهم يعوضون عن ذلك فى الليل، إلا انهم يفعلون ذلك دون اى ازعاج. فى ۲۲ منه، ظهر القمر، فاحتفلوا فى اليوم التالى بعيد الفطر.

تقع تشيل- منار فى الصحراء. خلال اقامتى فيها، وصلت ۱۰ عائلات من الأتراك و الأكراد الرحل الذين يقصدون مع ماشيتهم، الأرياف المجاورة. و كانوا يقتربون منى، حين يشاهدون رجلا فى ثياب أوروبية، قرب الأنقاض، و يندهشون من قيامى بهذه الرحلة الطويلة، للرسم و الكتابة غير ان أحدا منهم لم يوجه لى كلمة فظة؛ علما انى لم أصطحب معى سوى خادمى. و كان هذا الاخير، يسر بقدومهم، ليأخذ منهم الحليب، دون أن يتكبد عناء حمل زوادته معه من مردفت. فى عيد البيرم (الفطر)، وصل عدد من الفلاحين و من بينهم نساء و فتيات، من القرى المجاورة بعضهم يمتطى الحمير، و البعض الاخر يتنقل سيرا على الأقدام؛ لعلهم كانوا يرغبون بزيارة الأنقاض، أو برؤية الأجنبى الذى وصل إلى المنطقة. و ما لفت انتباهى هو ارتداء بعض هؤلاء النسوة، و أولئك اللواتى يرافقن الأكراد و الأتراك النقاب على وجههنّ. لما كان الفرس شديدى التطير، فإن معظمهم يحمل حجابا مغلفا برقعة جلدية. أو غيرها من التعاويذ.

كانت احدى القرويات تعلق على صدرها قطعة نقدية، عليها أحرف عبرية تؤمن، أنها لن تفقد أصدقاءها طالما انها تحمل هذه القطعة.

فى هذا السياق، علمت ان المسلمين لا يكترثون لدين الشخص الذى يكتب هذه الاحجية، المهم ان يتمتع بالمعرفة و النزاهة. و غالبا ما كانوا يطلبون منى ان اكتب بطاقات مماثلة؛ فى حالات المرض المستعصى، و الحوادث المؤلمة.

زارنى عربى من سوريا، يدعى انه من البحرين، ليكسب احترام الاخرين له، علما ان الشيعة يستقبلون أشهر علمائهم من هذه الجزيرة؛ و كان يوسمى التحدث معه دون ان ألجأ للترجمان. فقد كان يعيش فى بلاد فارس منذ ۳۰ سنة، و يجنى اموالا طائلة من بلدة كمارا، و يعيش عيشة رضية؛ و هو يفتخر كثيرا بأصله و يطلق على نفسه لقب شيخ، علما ان قاضى القرية الذى يحسن الكتابة و القراءة أيضا لم يحظ إلا بلقب ملّا.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۱۴۹

لما كان هذا الشيخ يدعى العلم، و يزور غالبا تشيل- منار على حصانه، للتمتع بهذه الآثار الرائعة الجمال، كنت اتمنى ان يزودنى بمعلومات حول اراء الكتاب العرب و الفرس فى هذا المجال؛ غير انه لم يقرأ اى كتاب يأتى على ذكر هذه الآثار باستثناء «كتاب مروج الذهب للمسعودى». الذى يؤكد فيه الكاتب، ان سليمان ادى صلاة الفجر فى اورشليم، و صلاة الظهر فى بعلبك، و صلاة العشاء فى تدمر و صلاة المساء فى تشيل- منار، و اظن ان هذه المعلومات تفيد المسلمين أكثر من العلماء الاوروبيين.

قمت بجولة بين الانقاض برفقة الشيخ المذكور، و قدته إلى النقوش الكوفية، علّه يحسن قرأتها و ينقلها إلى العربية. غير انه لم يجد من داع للقيام بذلك. و بعد فترة وجيزة، قام بزيارتى برفقة ابنه، الذى لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره، و وطدنا صداقتنا من جديد، علما انه رفض التحدث عن تلك النقوش. و استقبلت ايضا بعض اعيان الفرس الذين علموا خلال رحلتهم من أصفهان إلى شيراز، أن رجلا اوروبيا يقضى نهاره بين هذه الأنقاض، فغيروا وجهة سيرهم ليشاهدوا هذه الظاهرة الفريدة من نوعها.

فى ۳ نيسان/ أبريل، نقلت متاعى من مردفت إلى بلدة تشول، قرب نقشى رستم، حتى ابقى على مقربة من تلك الآثار، التى قد تشغلنى عدة أيام. بعد مرور ساعات قليلة على وصولى إلى ذلك المكان، ارسل السيد هيرفيل رسولا يعلمنى انه فى تشيل- منار، فأسرعت فى العودة إلى ذلك المكان، فى الليلة نفسها، و امضيت نهارين برفقة صديقى، قرب تلك الانقاض، حيث قضيت معظم الوقت بمقارنة رسوماتى باللوحات الأصلية، بغية اتقانها أكثر. فى الخامس من آذار/ مارس، رافقنى السير هيرفيل إلى تشيل، على ظهر حصانه.

فى شيراز، طردت الخادم المسلم، الذى رافقنى من بوشهر، و استخدمت بدلا منه خادما أرمنيا، غير ان هذا الاخير اصيب بالمرض فى مردفت. كنا نتناول الدجاج و الارز و الزبدة بكثرة؛ فكل يوم يعدون لى طبق البيلاف (الأرز المفلفل أو المبخّر)، و غيره من الاطعمة، التى لا تتوفر إلا نادرا فى القرى الفقيرة. غير ان خادمى اضطر للامتناع عن الطعام، تبعا لتعليمات كنيسته، أو بناء على إرشادات الهه، و لما كان اتباع الكنيسة الشرقية يمتنعون فى زمن الصوم عن تناول اللحمة، و السمك و الزبدة و الحليب، و البيض، اضطر خادمى الأرمنى للإمساك عن تناول الطعام، وسط القرويين المسلمين، الذين لا يحسنون تحضير الأطعمة التى تناسب صيام الأرمنى. فى الفترة الاولى من الصيام هزل جسده، و توعكت صحته فى الفترة الثانية منه عند وصولنا إلى تشول، و لهذا السبب تركته فى البلدة، عند ذهابى لملاقاة السيد هيرفيل. فى ذلك النهار قررنا ترحيله إلى شيراز فى السادس منه، غير انه توفى قبل انطلاقه. وسط هذه الأحداث، سررت كثيرا بقدوم السيد

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۱۵۰

هيرفيل، و لما كان خدامه من الارمن ايضا، و يكنون صداقة عميقة للمرحوم اهتموا بدفنه، لأن الشيعة كانوا يرفضون دفن مسيحى حتى لا يدنسوا انفسهم.

لو بقى خادمى حيا لقضيت وقتا أطول قرب هذه الانقاض. غير ان عينى أصيبتا بالارهاق، و خارت قواى، و لم أعد اجرؤ على المجازفة أكثر. فاعتبرت موت خادمى، انذارا لى، وعدت فى ۷ نيسان/ أبريل إلى شيراز برفقة السيد هيرفيل. فسرنا أربع ساعات من تشول أو نقشى رستم لنصل إلى جسر بولوخان، على نهر بندامير، الذى اتيت على ذكره آنفا، و كنا نشاهد قرى مبعثرة هنا و هناك، علما ان معظمها مهدم، فضلا عن قنوات للمياه يغطيها التراب. و اريافا قاحلة؛ نجد فى هذه المنطقة الجزء الرابع من السكان، الذين كانوا يقطنون فيها فى عهد نادر شاه؛ و لا يمكننا مقارنة هذا الشعب بذلك الذى استقر فيها زمن المسلمين، و الذى كان يعتبر الزراعة، سرا الهيا و من الضرورى اتقانها.

قطعنا من الجسر المذكور فرسخين لنصل إلى زركان؛ و رغم ان الطريق خال من التعرجات إلا أنه يصبح موحلا بعد هطول الأمطار الغزيرة.

فی ۸ نیسان/ أبریل، عدنا إلی شیراز؛ تحد الجبال الشاهقة الطریق المؤدیة من زرکان إلی شیراز، و الجدیر ذکره ان نقشی رستم تبعد ثمانیة أمیال عن شیراز.

بعد عودتی إلی شیراز، بذلت جهدی لأشفی من السعال الحاد و التهاب الحنجرتین اللذین اصبت بهما فی برسیبولیس. کانت الطریق من بوشهر إلی شیراز محفوفة بالمخاطر بسبب الحرب القائمة بین کریم خان و میر مهنا، مما دفعنی للانتظار طویلا قرب احدی القوافل، فاستغلیت هذه الفرصة لاستعادة عافیتی و مشاهدة آثار منطقة شیراز.

رحلة إلی شبه الجزیرة العربیة/ تعریب عبیر منذر، ج۲، ص: ۱۵۱

الملاحظات التی دونتها فی شیراز

علی بعد نصف فرسخ شمالی شیراز، و أمام جبل شاهق، نجد صخرة عالیة تطل علی المدینة و علی الوادی الخصب و علی الجبال العالیة البعیدة. یحاکی موقع هذه الصخرة مع تلک التی بنی علیها قصر برسیبولیس؛ شید احد المسلمین قصرا علیها، غیر انه کان هشا للغایة، و لم یتبق منه إلا عامود صغیر؛ و یقال انه نقله من تشیل- منار، خاصة و انه مصنوع من المرمر الأسود نفسه، الذی نشاهده فی انقاض برسیبولیس، علما ان صخرة شیراز؛ بیضاء لینة دعمت طلعة هذا الصرح بسورین حتی یتمکن المسلم من الصعود علی حصانه علما ان مقاول قصر برسیبولیس لم یفکر بهذا الامر ابدا. تحت المهندس تحت الصرح الاساسی، الصخرة بشکل درجات و ساق الیها میاها جاریة، لیحولها إلی شلال جمیل، غیر أن النهر استعاد مجراه الأساسی، و لم یعد للشلال أی فائدة. نشاهد علی مقربة من هنا، خزانا کبیرا، و آثار مجار للمیاه. بعبارة أخری، کان هذا القصر جمیلا جدا، استنادا لآراء المسلمین، أما الیوم، فلم یعد یستحق عناء زیارته.

نشاهد عند أسفل الصخرة، حجیرات عمیقة، کانت قدیما اسطبلات للجیاد، و غرفا للخدم. أما عند أعلی الجبل، فنری ضریح الولی باب کی، الذی یزوره المسلمون غالبا.

فی الجهة الشرقیة- الجنوبیة و علی بعد میل من شیراز، نشاهد علی احدی التلال، بقایا صرح، یسمیه کامفیر جب صعر Sjubosar، علی اسم احدی القری المجاورة، و شاردین و لویراین، جامع والده سلیمان، و هو یضم ثلاثة أبواب من المرمر، مزینة بصور شبیهة بتلک التی نراها بکثرة فی تشیل- منار، و لکنها وضعت بطریقة سیئة للغایة، شأنها فی ذلک شأن أعمدة قدامی المصریین الموضوعة فی المبانی الجدیدة.

کان ضریح الشاعر الفارسی الشهیر الحاج حافظ، (حافظ الشیرازی) موجود قدیما فی ضواحی شیراز، أما الیوم، فهو علی بعد ربع فرسخ من بوابة المدینة، و لا تصادف علی هذه الطریق الا صرحا واحدا، و جامع الشاه میر حمزة الکبیر المشار الیه علی اللوحة XXXVI و بعض المنازل الحقیرة. تکثر فی هذه المنطقة الأریاف الخصبة، و تحیط بالضریح المذکور مراع جمیلة. لم یفقد الصرح رونقه، و هو یتألف من عدة أجزاء، یؤدی إلیها سلم ضیق. نشاهد فی هذا البناء ضریح العالم المذکور، و غیره من مشاهیر بلاد فارس، و لما کانت الدیانة الإسلامیة توصی بتطهر اتباعها، نجد علی مقربة من هذا المصلی، جدولا صغیرا، یستمد میاهه من خزان کبیر، لیتشعب بعدها فی

رحلة إلی شبه الجزیرة العربیة/ تعریب عبیر منذر، ج۲، ص: ۱۵۴

الأریاف المجاورة، و من أشجار السرو العالیة، التی کانت تکثر قدیما فی هذا المکان، لم یفلت من اضرار السنین إلا القلیل منها.

نشاهد صوب الجنوب، ضریح عالم فارسی آخر، هو الشیخ سعد، و الجدیر ذکره ان هذا الصرح کان مهدما کلیا قبل أن یتبرع احد المسلمین الأثریاء بترمیمه، فلاحظت هنا طریقة حفر الفرس المعاصرین النقوش التی تکثر علی أسوار الجوامع، فالأحرف مصنوعة من الصلصال المطلی باللون الأخضر أو الأصفر أو سواه من الألوان. علما انها وقعت فی بعض الأماکن، و تناثرت أرضا.

لفت نظری فی هذا المکان، بئر مثمن الشکل، قلیل العمق، تجری تحته میاه عذبة و صافیة، ملیئة بالاسماک، علما انی لم أشاهد هذا العدد الهائل منها فی ای مکان آخر، و لکن الأسماک تعیش هنا فی رعایة الشیخ سعد، و لا أحد یتجرأ علی أخذ واحدة منها. و بعد أن ننزل سلما طویلا نبلغ المیاه، التی احیطت بأماکن مخصصة للجلوس و الاستراحة علیها، و نشاهد علی جهتی البئر المثمن قناة محفورة تحت الارض، و بمحاذاتها مقعدا من الحجارة المنحوتة. بعبارة أخری، هذا المکان رائع الجمال خاصة فی الفصل الحار. تتابع هذه المیاه طریقها وسط حدیقة تضم شلالات جمیلة و خزانات للمیاه. غیر ان الفوضی تعم هذه الحدیقة فی الوقت الحالی، فضلا عن ان الخزانات و القنوات تتداعی مع مرور الزمن. یدفع سکان بلاد فارس اموالا طائلة لحفر قنوات المیاه، و لم تزدهر تلک التی تروی الأریاف خاصة و لکن الزراعة لم تزدهر لدی المسلمین، فقد توانوا عن العنایة بهذه القنوات، و تسببوا بجفاف هذه البلاد، و بهجرة سکانها منها.

لما کنت ارتدی ملابس اوروبیة، فی بلاد فارس، تعذر علی التنقل فی کافة انحاء شیراز، کما کنت افعل فی مدن الشرق الاخری، و لم استطع بالتالی وضع خارطة صحیحة لها. غیر ان القاری یستطیع ان یکوّن فکره واضحة عن مساحتها و موقعها. استنادا إلی اللوحة XXXV ، التی اشرت فیها إلی اسماء الأبواب، قرب الصورة أ، نجد بابا رائعا لبلدة طانجی الأکبر، (ص ۹۷) و قرب الصور ب، نجد ضریح الحاج حافظ، أما سارباش، فهی تضم مصنعا للانکلیز، و نشاهد فی الموقع أ، ب، ت(a .b .c) ، انقاض مصانع الفرنسیین و الهولندیین و البرتغالیین، و نجد بالتالی بعض الجوامع فی الصورة، علما اننا نشاهدها بشکل اوضح فی اللوحة XXXVI التی رسمتها فی الصرح المجاور لضریح الحاج حافظ. و الیکم ما تشیر الیه هذه اللوحة ۱) شاه میر حمزه ۲) شاه شرا ۳) مدرسة ۴) زید الحسین ۵) شتن جمعة ۶) باب دوشیر، و هی تجسد کلها جوامع کبیرة، بقیت علی حالها، رغم تعرض المدینة للهب عدة مرات. و الملفت للنظر اننا لا نشاهد ای منارة علیها، و یقال ان هذا النوع من الأبراج غیر مستعمل فی بلاد فارس، علما أن المؤذن، أو من یدعو الناس إلی

رحلة إلی شبه الجزیرة العربیة/ تعریب عبیر منذر، ج۲، ص: ۱۵۵

الصلاة، یقف أمام الجامع أو فوقه ۷). منزل بکلربک ۸) متجر الاسلحة ۹) باب سعدة ۱۰) باب اصفهان ۱۱) کریم اباد ، و هی عبارة عن قریة صغیرة بناها الوکیل الحالی منذ فترة وجیزة.

تمتاز منازل البلدة بقرمیدها المشوی و جدرانها المبیضة أو المطلیة بالکلس، اما البازار أو السوق فهو مسقوف جزئیا، و طرقاته مرصوفة و نظیفة.

یحاکی مناخ شیراز، مناخ برسیبولیس، علما انه یختلف کلیا عن مناخ الخلیج الفارسی. فی بدایة شهر اذار/ مارس تساقطت الامطار بغزارة، کما و أن الطقس البارد استمر حتی شهری نیسان/ أبریل و أیار/ مایو مصحوبا برياح قویة، و عواصف رعدیة. و فی ۲۵ نیسان/ أبریل، شاهدنا علی قمة جبل شاهق وناء طبقة رقیقة من الثلج، ذاب نصفها تقریبا، بعد مرور شهر تقریبا فی الساعة الثامنة صباحا من ۲۳ نیسان/ أبریل، وقعت هزة أرضیة قویة، ادت إلی تزعزع البناء القدیم الذی أقیم فیه، إلی حد اننی کنت أخشی من انهیاره. کانت تکثر فی هذا الشهر من السنة، الاشجار المثمرة، التی ینمو بعضها فی اوروبا و بعضها الاخر فی بلاد الهند. فقد تعرفت هنا علی ۲۰ نوعا من العنب، یجفف بعضها و یحول إلی زبیب، و هو عبارة عن فاکهة صغیرة الحجم و بذورها طریة، و تؤکل بسهولة .

أما العنب الأسکاری، فهو من النوع نفسه، غیر ان بذوره اقسی، بینما یستخرج من الکرتشیش النبیذ الأحمر، و من الأنغورانغی نبیذ شدید الحمرة. یضاف إلی نبیذ الکرتشیش لیضفی علیه لونا جمیلا و تصدر هذه المدینة ایضا ماء الورد، و زیت الورد الثمین، بکمیات وافرة.

یصنع الأرمن نبیذ شیراز الذی یحفظ فی برمیل أو أوعیة کبیرة. و ینقل بعضها فی زجاجات محفوظة إلی بوشهر و منها إلی البصرة و الهند. و رغم جودة هذا النبیذ، إلا انی اجد النبیذ الذی یعده الیهود فی صنعاء أکثر جودة، غیر ان هؤلاء الآخرین، لم یستطیعوا الحصول علی الإذن بالمتاجرة علنا أو بتصدیره إلی الخارج، علما انه تنقصهم الأوانی اللازمة لحفظه. یقیم یهود شیراز، شأنهم شأن یهود المدن الشرقیة الاخری، فی شارع مستقل، و یعانون من الفقر الشدید. لم أقابل فی هذه المدینة سوی ۲۰ بانیانیا، غیر ان الحکومة أرتأت بناء خان للقوافل، حتی تشجع هؤلاء التجار الهنود علی العودة إلی هنا مرة أخری.

إن عدد الأرمن الذین استقروا حدیثا فی شیراز، لیس کبیرا جدا ، و هم یملکون فی سرباش،

رحلة إلی شبه الجزیرة العربیة/ تعریب عبیر منذر، ج۲، ص: ۱۵۶

حیث اقام السید هیرفیل، کنیسة صغیرة، یجتمعون فیها کل یوم لتلاوة الصلاة، و الترنیم؛ حضرت نهار السبت ۱۳ نیسان/ أبریل، قداسهم، و کنت أتمثّل محافل المسیحیین الاولین، لأن الکاهن الاول فی هذه المجموعة، کان حائکا، و یساعده فی القداس، صباحا

أحد خدام السيد هيرفيل، إسكافيا و نجارا.

كانت الكنيسة جميلة للغاية، وضع على المذبح صليب كبير، و كأس، و كتاب مزين بالفضة، و شمعدانات، أما خدام القداس، فكانوا يرتدون معاطف، خيط عليها صليب صغير. اعتاد الأرمن ان يحلقوا شعرهم، بشفرة حلاقة و ان يرتدوا قلنسوة، شأنهم شأن الشرقيين كافة، تعلوها قبعة كبيرة، شأنهم شأن الفرس. و كانوا يخلعون هذه الأخيرة في الكنيسة. بينما يبقى العرب عماماتهم أو قبعاتهم على رؤوسهم في جوامعهم، أما الكاهن، فيضع على رأسه شيئا شبيها بقبعات الرحالة الأوروبيين. يقال ان الأرمن يسجدون أرضا خلال الصلاة، كما يفعل المسلمون، و ان شعائرهم الدينية تقتصر بمعظمها على الترانيم .

لم اتوقع ان أسمع أحدهم يعظ خلال القداس، فالكاهن يحمل الكتاب الكبير الموضوع على المذبح، و يقرأ منه بعض فصول الكتاب المقدس. و بعد أن قرأ، هذا المقطع (انجيل لوقا ۱۶، الفصل ۶) حين يقول الملاك، لمريم المجدلية، و مريم أم يعقوب «لا تجزعا، فأنتما تبحثان عن يسوع الناصري الذي صلب، و لكنه قام من بين الأموات و لم يعد ههنا» صفق له الحشد. و حين قرأ المقطع الذي يدعو فيه يسوع المسيح تلاميذه إلى السلام، قبل كل واحد منهم جاره على الخدين، عندئذ وضع الكاهن قطعة قماش على كتابه، و حمله بيديه الاثنتين، و دعا الجميع لتقبيله.

كان يقف خلفه رجل يحمل عصا طويلة، تعلوها دوائر رقيقة، تمثل وجود الملاك جبرائيل بينهم.

أما باقي الكهنة فكانوا يحملون الشمعدانات في أيديهم. و عند الانتهاء من هذا الطقس، تناول الجميع كبارا و صغارا، قطعة من الخبز، مبللة بالنبيذ. عند المساء، جاء الكاهن لزيارة السيد هيرفيل، برفقة اثنين من خدمة القداس، يحمل كل واحد منه شمعدانا في يده، فقد كان يريد ان يقدم لنا البيض الملون، و يرنم بعض الاناشيد، و يمنحنا بركته.

و في اليوم التالي، تلقينا زيارة مماثلة أيضا.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۱۵۸

يملك الفرس منازل عامة تعرف سرخانه Surshone (منازل قوة)، يحق لكل فرد منهم الدخول اليها، لعرض قوته. يوم زرت هذا السرخون لأول مرة، شعرت بأن الهواء فيه ملوث، و ارتأيت أن لا أدخل اليه ثانية. غير انني عدت اليه مرة ثانية، و مكثت فيه فترة أطول، لأعطي قرائي فكرة واضحة عن التمارين الجسدية التي تقام فيه، يتألف البناء من ۴ جدران عالية، مبنية من الحجارة الصلبة، و حفرت في كل واحد منها حجيرة مفتوحة، و خصصت الباحة الوسطى، للذين يرغبون بعرض مهارتهم أو القيام بتمارين رياضية. يتميز هذا المكان بصغر بوابته و انخفاضها، فضلا عن خلوه من النوافذ، غير اننا نشاهد في أعلى القبة، ثقبا يدخل منه الضوء، علما ان المكان مزود بقناديل و مصابيح. بعبارة أخرى عند بناء هذا المكان، بذل المقاول جهده ليمنع تسرب الهواء اليه، و اظن ان هذه المسألة ضرورية، مع أنه كان يستطيع ان يضيف ثقوبا أخرى إلى القبة، لتنقية المكان من الروائح النتنة التي تزعج الناس و تضر بصحتهم.

جلست برفقة بعض المشاهدين في الحجيرة. يجلس اعيان المدينة و تجارها، الذين يقصدون المكان للقيام بالتمارين، في حجيرات أخرى، و يدخنون الغليون، كما في الصورة (أ) من اللوحة XXXVII ، و نشاهد في الصورة نفسها، مكانا لتناول القهوة، و ۳ موسيقيين في الحجيرة الرابعة، واحد منهم يعزف على الغيتار و ثان على الطبل، الذي يستعمله الشرقيون دوما في الغناء و الرقص، و ثالث يغني أغان فارسية. بعد أن ينتهي الهواة من ارتشاف القهوة و التدخين، يخلعون ثيابهم، و ينزلون شبه عراة إلى الباحة الوسطى، و يربطون حول خصورهم سراويل جلدية قصيرة، فيقفون اولا على اليدين، و يرفعون أرجلهم في الهواء، كما في الصورة ب(B) و يسجدون لاحقا، لتلاوة الصلاة، و وجوهم نحو مكة، إذ يزعم المسلمون، أنهم يصلون قبل القيام بأي شيء، و لا ينسوا تأدية هذا الفرض حتى عند ممارستهم هذه الالعاب. و يتلو بعضهم صلاته، و رأسه في الأرض، كما في الصورة ج(G) .

نقلت في الصورتين د(D) و ه(E) التمرين الاول الذي يقومون به. يقف الهواة قرب بعضهم البعض، على اليدين و أرجلهم، أما من نزل حديثا إلى الباحة، فقد اتخذ الوضعية د(D) ، باسطا يديه و رجليه، إلى ابعد حد ممكن، على أن لا يلمس بطنه الأرض. (الصورة ه(E)). و بعد اتخاذ هذه الوضعية، يرسمون دائرة برأسهم دون أن يحركوا أيديهم أو أرجلهم، و كلما اعادوا هذا التمرين، كلما زادت خبرتهم في هذا الفن، و قيل لي ان بعضهم يعيدونه ۶۰ مرة. و يمسك البعض بقطعة كبيرة من الخشب، و يضعها على كتفه (الصورة و(F))، و يحاول ان يلويها من الامام إلى الوراء. و بعد ان ينتهي من ذلك، يقفز على لوح خشبي موضوع قرب الجدار. الصورة (زZ)، أما من كان يفوق سواه مهارة، فيرفع رجليه أكثر (الصورة حH)، كما و أن الخبير في هذا الفن، يقف على رجليه كما في الصورة ب(B) .

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۱۵۹

و مما لا شك فيه ان من يمارس هذه التمارين العنيفة، يتصبب عرقا، و من يجلس في الحجيرة، يدفع مالا للخدم، حتى يفركوا له جسمه، (الصورة ط(U)) و بعد الانتهاء من ذلك يبدأ الجميع بالرقص، و بالقفز، (كK) إما على الجدار (دE)، و إما على رجل واحدة، بغية تحريك الجسم قدر المستطاع. كان البعض يستلقي ارضا على ظهره، و يضع و سادات تحت رأسه و ذراعيه، (مM) لرفع قطعتين من الخشب الثقيل و السميك، و الجدير ذكره ان عدد الذين يمارسون هذه التمارين قليل. نظرا لما يتطلبه من قوة. و كان المعلم يقف بقربهم، و يحسب عدد المرات التي يرفع فيها كل تلميذ الخشب عاليا، مما يعني ان من يأتي لاحقا، يبذل قصارى جهده ليسبق من اتى قبله.

عند ذلك، يقفون جميعا في الصف، و يتلو عليهم المعلم خطابا أو صلاة طويلة، حيث يأتي غالبا على ذكر علي أو الحسن أو الحسين، ارضاء للمصارعين.

كان من الصعب علي ان أرسم أو أصف وضعيات الجسد المختلفة، التي شاهدتها خلال التمرين.

و لم اشر إلا إلى واحدة منها (نN) لا تدوم طويلا، يقف الفرد على رجليه، و يحرك جسده تارة إلى أعلى، و طورا إلى أسفل، و مرة إلى الأمام و أخرى إلى الوراء. و يبدأ بعدها اثنان منهم بالتقاتل دون ان يلقيا التحية بعضهما على بعض، و شاهدت اثنان منهما، و قد ضما يديهما، و صنعا اشارة الصليب على جبينهما. كما في الصورة (سO)، و كأنها طريقة جديدة في إلقاء التحية، و جلسا بعدها ارضا، قبالة بعضهما البعض، و راحا يتحينان الفرص لبدء الصراع. و بعد ان يهزم أحدهما الآخر، يقبل المهزوم يد المنتصر، باحترام فائق. و الجدير ذكره انهما لا يتبادلان الضربات شأنهم شأن الانكليز، رغم ان بعضهم يجسّ ذراعه و رجله عند مغادرته المكان و كأن اعضائه تحتاج للراحة.

و لاحظت ان أحد المصارعين، كان يرمي ارضا كل من يحاول مبارزته، حتى أنه استدعى في نهاية المطاف المشاهدين لمواجهته. ان استطاع احدهم ان يثبت أنه أعلن في احدى المدن الاسلامية الأساسية، مثل أصفهان، و القسطنطينية، و دلهي انه يرغب بمقاتلة الاقوى، في الموعد الفلاني، دون ان يتمكن احد من صرعه، يحق له ان يضع على قبره اسدا منحوتا في الصخر. شاهدت في شيراز ضريحين مماثلين، واحد قرب حديقة كريم خان الحديثة، و الثاني قرب جامع شاه شيرا، ظننت في البدء انهما ضريحا شخصين من اعيان البلاد، اظهرا جدارة فائقة، إما في الحروب أو في صيد الاسود، غير انني علمت لاحقا انهما اكتسبا هذه الجدارة في المصارعة، و يمكننا بالتالي ان نفهم الأخطاء الكثيرة التي يرتكبها العلماء، في محاولتهم تفسير هذه الآثار. في كتاب «وادي الزهور الفارسية». للشاه سعد، نجد أقاصيص كثيرة حول المصارعين، سهلة الفهم بالنسبة للأوروبيين.

نجد في شيراز ثلاث سرخانات يجتمع فيها افراد الطبقتين الوسطى و الفقيرة، علاوة عن الضباط، و أصحاب المناصب العليا، بغية ممارسة هذه التمارين، و تليين أجسامهم. يخصص بعض

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۱۶۰

الاعيان غرفة في منزلهم يتمرنون فيها و يتصارعون مع اصدقائهم و معارفهم، أما أثرياء بلاد فارس فيمارسون هذه التمارين عند الصباح، و يركبون الخيل بعد الظهر.

تختلف أزياء الفرس عن أزياء العرب و الأتراك. يرتدي الضابط الرفيع المستوى، قبعة مربعة، لها شريط طويل علما ان معظم الناس يعتمرون قبعات من جلد الخراف، و يلفون حولها شريطا معقودا، و الملفت للنظر ان للفرس كلهم شاربان، قصيران، بينما يستعملون المقص للتخلص من شعر الذقن و الخدين. و هم يرتدون أثوابا طويلة، شبيهة بتلك التي شاهدتها عدة مرات بين انقاض برسيبوليس (اللوحة XXI)، و لها كمان طويلان مزوران حول المعصمين، أما على الردفين فيضعون نطاقا عريضا على غرار الشرقيين عامة.

في مخيم قرمدش، يضع الضباط و معاونيهم و جنودهم الجعب في الذراع الايسر، و قمع البارود في الذراع الايمن، أما سيفهم، فيتدلى على الردف الأيسر، و ثم يرتدون سراويل مقلمة من النسيج أو من الحرير طويلة و فضفاضة، و لكن مختلفة عن شخشير الأتراك. و

يرتدى كبار الضباط أحذية سوداء تصل إلى الركبتين و لكن كعبها عال و مقرن جدا، حتى انه من الصعب استعمالها فى المشى، فعند ترجلهم عن الحصان، يحضر لهم الخادم الخفين. (يرتدى اعيان الأتراك احذية قصيرة، صفراء، أو حمراء، و ليس لها كعب) حتى الخفّان لهما كعب عال و نعل مزين بالزهور. غالبا ما يصنع الخف من الجلد الاخضر، علما ان خف الأتراك أصفر اللون. لا يختلف زى النبيل كثيرا عن سواه، باستثناء انه يرتدى فى الشتاء عباءة مبطنة بفرو، أو بنيش باللغة التركية. يعتمر التاجر عادة قبعة من جلد الحيوان، و عباءة قصيرة مبطنة بالفرو، دون أكمام، و خفين عاليين، و جوراب قصيرة. يعتمر عامة الشعب من الفرس، قبعة عالية، لها قرنان من كل جهة (الصورة ع P) و الجدير ذكره ان الفرس نادرا ما يغيرون ملابسهم الداخلية، و يرتدون عادة قمصانا من النسيج المقلم.

أما نساء الطبقة الوسطى (لأننى لم أقابل نساء كريمات الأصل) فيعقدن الأقمشة القطنية حول أرجلهن، مما يجعلهنّ سمينات و ثقيلات، و هنّ يربطن رأسهن بخرقة رثة يتدلى منها قماش قطنى أبيض، فضلا عن قماش ابيض آخر أمام الوجه. بعبارة أخرى، لا أظن أن أزياء النساء الفارسيات، أو أحذية الأعيان تستحق التقليد. أما الأزياء المتبقية فهى افضل من تلك التى يعتمدها الاتراك، كما و أنها تحاكى ازياء البولونيين.

العودة إلى بوشهر

كنت انتظر بفارغ الصبر انطلاق قافلة من شيراز إلى بوشهر، و لكن التبادل التجارى بين المدينتين كان منقطعا، فكان على بالتالى الانتظار حتى ۱۴ أيار/ مايو، حتى يجتمع عدد كبير من

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۱۶۱

الرحالة و نتمكن من السفر دون ان نتعرض للمخاطر، كنا نسير ببطء شديد لأن أصحاب الدواب، كانوا يهتمون بتأمين العلف للبغال و الجياد و الحمير. و قلما يأبهون للوقت الذى قد نقضيه على الطريق.

فى اليوم الاول، قطعنا نصف ميل، و فى ۱۵ أيار/ مايو سرنا فرسخين و نصف لنبلغ (تشيسما صفر (اللوحةXVII)، و فى ۱۶ منه، ۴ فراسخ وصولا إلى وادى نبدو؛ تقع هذه القرية شرقى الجبل، و تحيط بها بساتين العنب، و اللوز و الدراق، و التين و غيرها من الاشجار المثمرة. فى ۱۷ أيار/ مايو اجتزنا طريقا و عرة عبر الجبال و الهضاب، لنتصب خيمنا على مسافة ساعتين من المشى.

فى ذلك النهار صادفنا قافلة، تضم ۳۰ أو ۴۰ عربيا من البحرين يقصدون جميعا مشهد لزيارة ضريح على ابن الرضى، أحد أئمة الشيعة الاثنى عشر، و نجد ايضا بينهم بعض النساء العربيات.

يفرض على كل شيعى يتمتع بصحة جيدة، و يملك ثروة صغيرة، ان يزور مكة مرة واحدة على الأقل. و لما كانت هذه الرحلة، مكلفة و محفوفة بالمخاطر، و مزعجة خاصة و ان السنة يعاملون الحجاج بازدراء، معتبرين اياهم ملحدين، يكتفى اهل الشيعة بزيارة أضرحة أئمتهم. و ان كان احدهم يملك الوسائل اللازمة للسفر إلى مكة أو لزيارة أضرحة الأئمة، يقتطع جزء من ميراثه بعد موته، حتى يسافر شخص آخر بدلا عنه، و لهذا السبب يحترف الكثيرون مهنة الحج، و يقومون بهذه الرحلة مقابل مبلغ زهيد.

كانت قافلتنا تضم ثلاثة من هؤلاء الشيعة الساعين من البحرين. قام واحد منهم بتسع رحلات مماثلة عن نفس تسعة أموات مختلفين، فالرحالة القادمون من البحرين هم بمعظمهم حجاج بالأجرة؛ و الجدير ذكره ان معظمهم كان يتنقل سيرا على الأقدام، بينما يسافر عدد قليل منهم على الحمير. و كانت ثيابهم رثة، و يحملون امتعتهم على ظهورهم. و هى عبارة عن رزمة من الخبز و البلح المجفف، و ابريق نحاسى يستعملونه للاغتسال. سررت كثيرا بمقابلة هؤلاء العرب فى بلد غريب عنى تماما، كانوا يتبادلون القبل، على الخدين و على اليدين و يستفسرون بعضهم عن صحة بعض.

و كانوا يسألون العرب المرافقين لنا، عن الطريق المؤدية إلى مشهد، بينما هؤلاء الآخرين يستعلمون عن طريق بوشهر، و أكّد الفريقان أن بلاد فارس هى الأكثر أمانا بين بلدان العالم أجمع، فى الواقع، لا أظنهم كانوا يخشون اللصوص، علما أنهم لا يحملون معهم اى شيء يذكر. و سألوا أيضا عن ليرة الخبز و الرز، و الزبدة فى المناطق التى اتوا منها. و أظن ان الفريقين ينتميان إلى مناطق فقيرة جدا و يحسبون أنفسهم ذاهبين إلى الجنة، لذلك قبلوا بكل طيبة خاطر السفر كحجاج مرتزقة. و بعد تبادل الأخبار، تنتهى المقابلة بالسلامات الحارة و التمنيات الصادقة. و المحزن فى بلاد فارس هو ان معظم الأشخاص الذين صادفناهم لاحقا (بعد مرور ۱۸ سنة على وفاة نادر شاه). فقدوا عينا

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۱۶۲

بسبب سخط هذا الطاغية عليهم، و الجدير ذكره، أن بعض عرب البحرين، كان نصيبهم مماثلا ايضا. حتى فى سورات و مسقط و البصرة و بغداد، عثرت على أدلة تثبت وحشيته، و خاصة بين التجار الأرمن و المسلمين، الذين هاجروا بعدها إلى أوطانهم.

فى ۱۸ أيار/ مايو، سبقت القافلة برفقة عدد من المسافرين إلى مردحة، فى ۲۰ منه، وصلنا إلى غراGra و فى ۲۱ إلى خانيق، و فى ۲۲ إلى عويس. و لما اقتربنا من الخليج الفارسى، ارتفعت حرارة الطقس؛ لم أشاهد يوما نجوما كبيرة إلى هذا الحد إلا فى عويس و مردحة، و لاحظت انها تضفى نورا مضيئا على مردحة و خانيق. منذ فترة ليست ببعيدة، أرسل كريم خان فصيلة من الجند إلى قرية فى اقليم كاسفرون، لقمع مجموعة من المتمردين عصوا اوامره، و لم يدفعوا ما طلبه منهم.

غير ان رئيس المجموعة فر برفقة عائلته إلى قرية مجاورة لعويس، بينما كان الجند ينهبون قريته و يدمرونها. صادفنا هنا ۲۰۰ قروى، اجتمعوا بناء على أوامر الخان، فى هذا المكان منذ أربعة أيام ليذهبوا بعدها للبحث عن المتمرد، غير انهم عادوا عند المساء و اعلموا الخان، انه فر إلى بندريغ.

هذه هى الحرب فى بلاد فارس، فمعظم الأعيان غير راضين عن حكم عائلة الأكراد. و حين يرسل هؤلاء الآخرون للبحث عن مواطنيهم المتمردين، يعلمونهم مسبقا بضرورة الفرار.

و علمنا عند المساء، ان قرويا مسافرا من غرا إلى عويس (على ظهر حماره) تعرض للنهب على الطريق. غير ان الشاه و جنوده لم يعيروا هذه الحادثة اهتماما على خلاف انكشارى قابلته فى مصر، و كان شديد الفخر بنفسه، لأن اللصوص لم يتجرأوا بعد على الدنو منه أو من اصدقائه (الذين يتولون حراسة القرية) رغم انهم نهبوا جيرانهم.

سافرنا ليلا من عويس، نظرا لشدة الحر فى النهار. و اجتزنا جبل صندل لنصل صباح ۲۳ أيار/ مايو إلى قرية بير. فى الليلة التالية مررنا Tale و صـــــــــــباح ، بلغنا جدولا صغيرا قرية قرية قطفCatfet شاوى. حيث تكثر اشجار البلح، و التى التهمها مؤخرا الجراد. ففى ۲۷ منه اجتزنا قريتى احرام و كرمسير.

و الجدير ذكره ان الاعشاب المحيطة بقرية قطف كانت تلتهمها النيران عند وصولنا، فخشيت ان تشتعل امتعتى ايضا، غير اننا بذلنا جهدنا لإخمادها بواسطة الاغطية و الحقائب، حتى لا تتكبد خسائر كثيرة. و علمنا لاحقا، ان الناس يضرمون النار فى العشب، ليحرثوا الأرض لاحقا و يزرعوها، لأن الرماد يشكل زبلا مفيدا.

غادر الأمير كنيح خان الذى التقيت به فى شباط/ فبراير، فى كرمدش البلدة هذا الصباح متجها إلى احرام، بغية محاصرة بندريغ، و لما تعذر عليه جمع الضرائب من قرويى احرام و القرى المجاورة، تركت فصيلة من الجند، فى البلدة من أجل هذه الغاية فحسب.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۱۶۳

غادرت القافلة فى احرام برفقة بعض الاشخاص على الأحصنة، و وصلت إلى بوشهر متعبا و لكن سعيدا للغاية.

نزلت عند السيد جيرفيس، الذى احسن ضيافتى إلى حد بعيد. غير ان الحر الشديد انهكنى، خاصة اننى وصلت حديثا من شيراز المعروفة بطقسها البارد، فاضطررت إلى تأجيل رحلتى المقبلة.

عند وصولى، علمت ان احدى السفن الانكليزية تستعد للابحار إلى الخرج و البصرة، غير اننى كنت مجبرا على انتظار وصول امتعتى مع القافلة، فى ۲۹ منه. و لما كانت السفينة المذكورة قد اقلعت، لم أعثر على مركب آخر يقلنى إلى الخرج خاصة و ان البحارة يخشون قراصنة مير مهنا.

فى ۳۰ منه وصل مركب صغير من الخرج، و لما كان الهولنديون على علاقة طيبة بمير مهنا و بشيخ بوشهر على حد سواء، استأجرت هذا المركب الصغير و وصلت فى ۳۱ أيار/ مايو إلى تلك الجزيرة. غير ان السفينة الانكليزية كانت قد اقلعت منها، قبل بضع ساعات من وصولى، فاضطرت لقضاء بعض الوقت فى الخرج خاصة و ان الهولنديين استقبلونى بالترحاب، كما و اننى شهدت حربا لم نعرف لها مثيلا فى اوروبا.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۱۶۵

ملاحظات حول الخرج

اشارة

أشرت في كتاب وصف شبه الجزيرة العربية، في اللوحةXIX إلى موقع جزيرة الخرج، و تحدثت في الكتاب نفسه عن حكومة هذه الجزيرة، التي كانت خاضعة للبعثة الهولندية في الهند الشرقية، و أسس البارون دو كينيوسن، هذه المستعمرة؛ فقد كان يعمل سابقا، مديرا للمصنع الهولندي في البصرة، غير ان بعض الاوروبيين، حرضوا الاتراك ضده، فزجوه في السجن، و ارغموه على دفع مبلغ كبير من المال و مغادرة البصرة. في الوقت نفسه، اعتبر السيد فان دير هولست عميلا ايضا، و أجبر على مغادرة بوشهر برفقة موظفي المصنع الهولندي الآخرين. و بينما كان موظفو البصرة يأملون ان يصل تاجر قوي، يستطيع الانتقام لهم، كان التجار الاوروبيون يحسبون ان الهولنديين سينفون من الخليج الفارسي كله. و لكن السيد دو كينيوسن، عقد اتفاقا مع والي بندريغ، يقضي بالسماح للهولنديين ببناء مصنع لهم في جزيرة الخرج، عندئذ غادر إلى بتافيا، ليعود في السنة التالية، و يعزز التجارة في الخرج، و مرغما اتراك البصرة، على إعادة كل ما أخذوه إما منه أو من ضباط البعثة الهولندية. و بعد رحيل البارون دو كينيوسن، تسلم السيد فان دير هولست دفة الحكم في الخرج، غير انه ما لبث ان اقيل، علما انه لم ينل حظوة لدى والي بتافيا، و عين السيد بوشمان خلفا له.

كان السيدان دو كينيوسن، وفان دير هولست، على خلاف مع عرب الخليج الفارسي، و خاصة سكان بندريغ، فسعى السيد بوشمان إلى معالجة هذا الوضع. فارسل مير مهنا الضابط المرافق له على رأس سرية من الجنود، لوضع حد لمسألة عالقة. و لعل هذا الضابط أراد أن يفاجيء الهولنديين، فأعطى الأمر لجنوده بالالتحاق بمراكزهم و للبحارة، بسفنهم الحربية، و لم يسمح لأحد بدخول القصر باستثناء السفير و عددا صغيرا من جنوده، و استقبلهم في الرواق برفقة امين سره و مستشاريه، بينما بقي الخدم مختبئين على جانبي الرواق حاملين السيوف بأيديهم. و بعد انتهاء المقابلة، اصطحب السفير إلى اسوار القصر ليريه المدافع التي نصبت عليها، استعدادا لصد أي اعتداء كان، و كان يتحدث اليه بكل ثقة بالنفس، و بجسارة اعتاد العرب عليها، حتى أن السفير الذي لم ير حصنا مماثلا من قبل، ربت على كتف السيد بوشمان، و قال له بصدق واضح، «ان سمحت لاحد باحتلال هذا الحصن، فلست جديرا بأن تعين حاكما عليه». و عند ذلك، غادر المكان، و نصح مير مهنا بقبول شروط السيد بوشمان،

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۱۶۶

الذي اقترح ان يمارس الهولنديون التجارة بحرية كاملة مع بلاد فارس و البصرة.

كان السيد بوشمان ابن وزير هولندي وقور. حمله رسائل توصية كثيرة إلى بتافيا، خاصة و انه شديد الذكاء. يقال إنه قبل مغادرته امستردام، ذهب برفقة اصدقائه في السفر، لمقابلة احد العرافين الذي تنبأ له بأحداث مهمة. و الجدير ذكره ان معظم تنبؤاته قد صدقت حتى الآن، و كان يتوقع بالتالي ان يلقى حتفه في الاربعين من عمره، كما قال له العراف. و كانت هذه الفكرة تقض عليه مضجعه، و تحثه على الادمان على الخمر لينساها. غير ان تصرفه هذا اثار عداوة الكثيرين له. حتى من بين مواطنيه. و قصدت ان اذكر لكم هذا المثال، كي احذر الناس من جهلهم للكشف عن ما يخبئه لهم القدر في هذه الحياة. كان هذا الرجل مثالا للصدق و الوفاء و شديد التهذيب في تعامله مع الأجانب، و يكره للغاية التملق و المديح. فمن يقبل دعوته، و ينزل بضيافته، يشعر بالراحة التامة كما لو كان في منزله. و لكن ان تردد في قبول خدماته، غضب منه اشد الغضب. شاهدته مرة يطرد من قصره ضابطين فرنسيين و ربان مركب انكليزي، ترددوا في قبول دعوته للمبيت عنده. فإن طالت المجادلات اكثر مما ينبغي استدعى الحرس ليفتحوا الباب، و يخرجوا الناس من القصر. اما الأجانب الذين لا يحسنون الهولندية، فيحسبون ان الحرس سيزجونهم في السجن، و يفضلون الفرار بأسرع ما يمكن، و بينما يصرخ السيد بوشمان قائلا لهم تصبحون على خير تراهم يسرعون لفتح الباب، و يخرجون منه بسرعة البرق. فلا يتوقفوا عن الركض حتى يصلوا إلى زورقهم.

طالب كريم خان، حاكم بلاد فارس، الهولنديين، بدفع جزية له، عدة مرات وجوبه بالرفض.

غير انه في السنوات الاخيرة نسي امرهم، خاصة و انه على خلاف مع شيوخ الساحل، و منهم مير مهنا والي بندريغ، و سليمان شيخ قبيلة كعب العربية. و الذي اصبح شيئا فشيئا والي جزر شط العرب كلها، و اقليم فارسي شاسع. فحين كان يقول لهم انه سيأتي على رأس جيش كبير، لإرغامهم على دفع الجزيات، كانوا يجيبونه، انهم يؤمنون بقدرته على طردهم من البلاد، و لكن، ان حاول ان يفعل ذلك، اختبأوا في مراكبهم حيث لا يستطيع ان يلحق لهم.

في تلك السنة، سار كريم خان على رأس جيش كبير، لمواجهة الشيخ سليمان، و أرسل سرية أخرى على رأس الأمير كنيح خان للتصدي للمير مهنا. فقضى القائد ثلاثة أشهر في كرمدش.

(كما أشرت آنفا)، باحثا عن حلفاء يملكون اسطولا صغيرا، فقد كان شيوخ المنطقة، الممتدة من رأسي بودستمان إلى حرموس، يحذون حذو مير مهنا و يرفضون دفع الجزيات. أما سكان، بلدة كنكن المجاورة لكرمدش، فكانوا ينامون كل ليلة على متن سفنهم، حتى يتمكنوا من الرحيل ان فاجأهم القرس. لم يجد كريم خان من يعتمد عليه سوى الشيخ ناصر، والي بوشهر، لأنه كان يستفيد كثيرا من التبادلات التجارية القائمة بين مدينته و مدينة شيراز، و لا يستطيع معارضة الخان،

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۱۶۷

فضلا عن ذلك، كان على خلاف مع مهنا، و قواته البحرية ضعيفة للغاية، و لا يقوى وحده على السيطرة على العدو. فالتجأ الوكيل إلى هولنديي خارج، الذين رفضوا التورط في هذه الحرب رفضا باتا. لم يشأ الانكليز ايضا التدخل في هذه القضية ايضا، و لكن وقاحة مير مهنا معهم، حثت السيد جيرفيس، على قبول مساعدة الشيخ ناصر، و ارسل المركب الطرادة (و هي سفينة حربية انكليزية في بومباي). فكان من المفترض ان يهاجم الامير كنيح العدو ارضا، بينما تهاجمه مراكب الشيخ ناصر و الطرادة الانكليزية بحرا.

خلال هذا الوقت، استطاع مير مهنا ان يتحصن جيدا، فزود بندريغ بالمؤن، بينما نزح معظم السكان إلى خارج. و لما خشي الهولنديون ان يعانوا من نقص في المواد الغذائية مع تزايد عدد السكان، خاصة و ان كريم خان و الشيخ ناصر يحظرون عليهم التبادل التجاري مع بلاد فارس، بحجة انهم يأوون المتمردين، فضلا عن ان اللاجئين قد يحاولون جذب مير مهنا إلى هذه الجزيرة، طردوهم كلهم منها. حينئذ ارسل مير مهنا عائلته و سكان بندريغ إلى جزيرة خويرى النائية، التي تبعد ۳/ ۴ الميل عن الخرج، و رغم ان الجميع ظنوا ان الشيخ ناصر قد يبذل جهده، لمنع العدو من التمركز في هذه الجزيرة، إلا انه لم يحرك ساكنا. فقد كان يخال ان مير مهنا لن يتمكن من مقاومة قوى البر، و انه لن يسر ابدا بوقوعه بين براثن القرس في بندريغ. و خلال هذا الوقت، كان يأمل ان يضعفوا العدو، حتى يتمكن بعدها من وضع يده على ثروات خويرى كلها، بمساعدة الانكليز له. غير ان هذه الجزيرة تحولت إلى مكان مكتظ بالسكان، خلال فترة وجيزة.

في أواخر شهر أيار/ مايو، و بعد ان تمركز مير مهنا في خويرى، وصل الامير كنيح خان إلى بندريغ، حيث انضم اليه الجند، الذين ارسلهم كريم خان، المتمركز في غوبان. و لكن اسطول بوشهر لم يكن مستعدا للانطلاق، مما يعني ان مير مهنا لم يكن يخشى بعد الهجومات البحرية.

غير ان عددا من جنوده، فضلوا التخلي عنه، و الالتحاق بالفريق الاقوى؛ دفعه هذا الامر إلى اليأس، فقتل الماشية و اخلى المنازل من السكان، و في الاول من حزيران/ يونيو وصل ۱۷ مركبا إلى خويرى، و من بينها ۵ سفن حربية كبيرة .

تشكل جزيرة خويرى الخصبة، منطقة نفوذ مير مهنا الحالية، علما انه كان والي اقليم فارسي شاسع. و رغم انه احضر الكثير من المؤن لرجاله، إلا انه كان ينقصه العلف، و لم ينقذه من هذه الورطة إلا طلب أحد الهولنديين منه ارسال النعاج إلى الخرج. و لما كانت الجزيرة تتألف من تلال

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۱۶۸

رميلة، قليلة الارتفاع، لم تق الاكواخ الحقيرة الناس من الحرارة الشديدة التي تسببت بهلاك معظمهم. و كان المير مهنا مصابا بالتهاب في العين، و محبطا من تطور الاحداث، فعهد إلى ضباطه تسلم زمام الامور، علما انه قطع أذن البعض، لرفضهم الاذعان لأوامره، أو لاحتسائهم الكحول حتى الثمالة. خلال هذا الوقت، علمنا ان كريم خان طرد الشيخ سليمان من بلاده و انه انسحب إلى شط العرب. في ۴ حزيران/ يونيو، خرج اسطول بوشهر العظيم، الذي سيلعب دورا كبيرا في هزيمة مير مهنا. يتألف هذا الاسطول من طرادة الانكليز، بقيادة الكابتن برايس، و من سفينة الشيخ ناصر، و ثلاث سفن حربية كبيرة، و اثنتين صغيرتين. كان السيد ناصر، امين سر الانكليز في

بوشهر، الذى سافر فى صباه مرات عديدة بحرا. يقود السفينة الحربية الكبيرة، و يثبت جدارته كأفضل ضابط حربى بين العرب. و كان ابن الشيخ يقود سفينة والده، و يسعى لاكتساب لقب اميرال بين مواطنيه، غير ان نذالته، شكلت عائقا كبيرا امام الانكليز.

ألقى الاسطول المرساة قرب الخرج، عند اقتراب المساء. كان مير مهنا قد اعاد خمس سفن كبيرة و أخرى صغيرة إلى المياه بعد أن سحب اسطوله كله. صباح الخامس من حزيران/ يونيو، كانت قد اقلعت كلها باتجاه فارس. لما كان العدو قد حسم الوضع، اقتفت سفن الاسطول مراكب مير مهنا. و تبادل الفريقان اطلاق النار، على بعد مسافة كبيرة جدا، حتى ان احدا منهما لم يتضرر، و لو لم نكن واثقين تماما انهما اسطولان متخاصمان، لقلنا انهما يتبادلان اطلاق النار كتعبير عن صداقتهما. عند غروب الشمس، كانت السفن كلها تتجه جنوبا- شرقا. و فى صباح السادس منه، كانت سفن مير مهنا الحربية تتنقل بين الخرج و خويرى، بينما الطرادة الانكليزية تقف قرب بندريغ، و مركب الشيخ ناصر على مقربة من مرفأ بوشهر. ظن الشيخ الشاب انه سيتمكن من اخضاع العدو من اليوم الاول، و لما أدرك خطأه، عاد ليلا على متن احدى السفن الحربية، لإعلام والده بمآثره، مؤكدا لمناصريه، انه كان قادرا على القضاء على الاسطول المعادى، لو أن الانكليز اخذوا بنصائحه.

كما و انه أراد ان يأخذ معه سفينة حربية ثالثة، و لكن السيد ناتر، اعترض على ذلك.

كان يقود أحد الربابنة سفينة بوشهر، التى أبحرت نحو الساحل الشرقى لجزيرة الخرج و عادت مساء. وحدهما الكابتن برايس و السيد ناتر، تابعا سيرهما باتجاه العدو، بعد أن تخلى حلفاؤهم عنهم، آملين القاء القبض عليه، و لكن هذا الاخير ألقى المرساة، و راح يطلق صواريخ مدافعه تارة باتجاه الجزيرة و طورا باتجاه السفن الحربية، فارتأى الانكليز العودة ادراجهم. و بعد ظهر ذلك اليوم، القوا المرساة قرب الخرج، حيث قضوا بضعة أيام. و كانت السفينة العربية تتنقل بين بوشهر و الخرج، دون ان تتمكن من الوصول إلى هذه الجزيرة حتى ١٥ حزيران/ يونيو، حيث رست قرب سفن الانكليز.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۱۶۹

لم يكن لمير مهنا مرفأ على جزيرة خويرى. فى العاشر منه، هبت عاصفة قوية فى المناطق الشمالية- الشرقية، أدت إلى إلحاق اضرار فادحة بالسفن الحربية و توقفها عن العمل. خلال هذا الوقت، لاحظنا فى ١٥ منه، ان ثلاث سفن حربية كبيرة و واحدة صغيرة قد غادرت جزيرة خويرى. و أبلغ الكابتن برايس ان سفن بوشهر الحربية قد خطفت و ان مير مهنا ارسل سفنه لمرافقتها.

و فى ذلك المساء، كان الوالى الهولندى سعيدا للغاية. فبعد تناوله العشاء، خطر له أن يثير شكوك الفريقين المتقاتلين. فأطلق نيران مدافعه عند منتصف الليل، عندئذ قصد اوربيو خارج القصر، علما ان بعضهم ظن ان مير مهنا أو عرب بوشهر يهاجمون الجزيرة. غير انهم ما لبثوا ان ادركوا ان السيد بوشمان يريد التأكد فحسب من أن الجميع مستعد لتلبية نداء العون عند الحاجة.

كما و انه أطلق النار باتجاه السفن الحربية المليئة بالبارود و منطقة خويرى فكان تصرفه هذا مؤات جدا للاجانب إذ أبحر مركب الانكليز و مركب بوشهر عند الفجر، و بلغا عرض البحر مع شروق الشمس. فحسب مير مهنا انه اثار ثورة فى الخرج أو أن الانكليز قد اختلفوا مع حلفائهم، أو أن الطرفين يبغيان احتلال القصر.

فى ١۶ حزيران/ يونيو، اقتربت أربع سفن حربية تابعة لمير مهنا، من سفن الشيخ ناصر الحربية، حتى خطر لنا أن المعركة البحرية باتت محتدمة. و فى تلك اللحظة وصل مركب تجارى انكليزى الخرج لنقل الربان و متابعة سيره إلى البصرة. و بعد أن توقف بين السفن المتعادية، وجدت هذه الاخيرة الفرصة مؤاتية للتراجع و الانسحاب.

بعد أن أدرك الكابتن بيرس انه لن يتمكن من هزيمة عرب بوشهر، اقترح على الفرس وضع عدد من الرجال فى خدمته حتى يغزو خويرى. فوعده الامير كينح خان بتحقيق مراده، علما انه وزع رجاله على معسكرات بندريغ. و لكن السيد جيرفيس ارتأى اقناع الهولنديين بالمشاركة فى الموضوع.

و عاد أسطول بوشهر ترافقه سفن ابن الشيخ، الذى انسحب فى الليلة الاولى، إلى الخرج، لتحقيق هذه الغاية. غير أن السيد بوشمان رفض مرة أخرى التورط فى هذه الحرب رفضا قاطعا.

فى ٢٠ حزيران/ يونيو، أبلغ ابن الشيخ ان زورقا صيد، تابعان لمير مهنا، وصلا إلى خارج.

فأعطى الشيخ الشاب الامر بمرافقة الزورقين إلى سفينته، غير ان السفن الحربية الهولندية منعتهم من الابتعاد عن اليابسة. و لما رفضوا الامتثال لهذا الامر، و حاولوا رفع المرساة، اطلق الهولنديون نيران بنادقهم عليهم. و لكن دون جدوى، فأبلغوا الوالى بالأمر ليعطى الاوامر بإطلاق نيران المدافع عليهم، و بعد ان انفجرت القنبلة الاولى أمامهم، ارتأى ربان المركب الاول أن يعود أدراجه. بينما تابع الثانى طريقه باتجاه سفينة الشيخ.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۱۷۰

فى هذه الاثناء، خرج بعض العرب إلى الشاطىء ليروا كيف سيتصرف الهولنديون مع عرب بوشهر. و بعد ان شاهدوا مسلمو الخرج الصيادين المساكين مقتولين فى زوارقهم، لعنوا مرتكبى هذا العمل الشنيع و شتموا عرب بوشهر، فأعلن هؤلاء الآخرون الحرب، و حمل عرب الخرج الخناجر و تزودوا بالحجارة (علما انهم ليسوا من الجنود و لا يحملون السيوف)، و شهدنا بالتالى مناوشات فى غاية الغرابة، إلى ان تدخل البحارة الهولنديون، و اطلقوا بنادقهم عشوائيا غير آبهين بإصابة حلفائهم. فوقع عدد كبير من الجرحى، بينما خسر عرب بوشهر سيوفهم و مسدساتهم.

فأعيدت الأموال التى نهبت من الصيادين، كما و أن القاتل أعدم ضربا بالسيف. و أصدر السيد بوشمان الامر باعتقال البحارة الذين حاولوا الفرار بالزوارق. إلى أن سلم الشيخ الشاب الباقين و اعتذر عمّا حصل.

خلال هذا الوقت، وصل إلى الخرج يخت الوكيل الانكليزى فى البصرة. و كان الكابتن براسى، الذى ابحر فى ٢٢ منه برفقة اسطول الشيخ ناصر، أخذ هذا المركب معه، لنقل الجيوش الفارسية من بندريغ، و مهاجمة خويرى. و عند اقترابهم من هذه الجزيرة، فتحوا نيران مدافعهم، فأجابهم مير مهنا بإطلاق قنبلة واحدة فحسب، معتبرا ذلك خشية خلاصه. فاثنتان من سفنه الحربية كانتا معطلتين بينما اختفت السفن الثلاث الاخرى منذ بضعة أيام، و ظن البعض انه أرسلها فى مهمة عاجلة دون ان يعرفوا وجهتها.

صباح ٢٣ منه عاد الاسطول إلى بندريغ. فى البداية، عمد الشيخ الشاب إلى الابتعاد عنا و إلقاء مرساته بعيدا عن الجزيرة، غير انه لم يتمكن لاحقا من الابحار عكس الريح. فى صباح اليوم التالى، رست السفن كلها امام الخرج. غير ان الجيوش لم تكن فى انتظارها.

كان الامير كنيح خان قد أكد للكابتن برايس انه سيضع خمسة آلاف رجل فى خدمته، بعد انتهاء عيد الحسين (عاشوراء) الذى يمتد من ١٠ إلى ٢٩ حزيران/ يونيو. و أظن انه كان حريا بالانكليز ان لا يضعوا ثقتهم فى هذا القائد الفارسى. إذ كان يفتخر بمآثره العظيمة، التى تقتصر على احتلاله مدينة بندريغ، التى هجرها سكانها و جنودها على حد سواء. فى الواقع، كان يترك للانكليز و لشيخ بوشهر عناء معالجة هذا الوضع، رغم ان سفن هذا الاخير كانت تبتعد إلى عرض البحر، عند اقتراب الكابتن برايس من العدو، مما يعنى ان الجميع كان يعتمد على الانكليز الذين وافقوا على مساعدتهم تحت تأثير الوعود. و لكن الكابتن برايس كان يجد ان الحل يتوقف على الهجوم الذى اقترحه، إذ كان يسعى لقطع المؤن عن مير مهنا. فالسفن الحربية تجول بشكل مستمر حول خويرى، و تراقب المراكب التى تعبر من هنا. علاوة عن ذلك، كانت تطلق النار بشكل دائم على الجزيرة. و لكن مير مهنا لم يحاول ابدا ان يرد بالمثل، بينما كان رعاياه يأملون ان يطلق العدو

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۱۷۱

نيران مدافعه بغزارة، إذ كانوا يحصلون على فلورين مقابل كل قنبلة يعثرون عليها على الشاطىء.

و الجدير ذكره انه بنيت على الجزيرة متاريس رملية يختبىء خلفها السكان احتماء من القنابل التى تطلق من البحر. كما و ان مير مهنا بنى متاريس مماثلة أمام السفينتين الحربيتين المعطلتين حتى يتمكن النجارون من اصلاحها فى أمان. و لما كان قد سمع عن الهجوم المذكور، اقام مرابض للمدفعية فى الاماكن التى قد يحاولون مهاجمته منها. و فى هذه الاثناء احتفل السكان بالعاشوراء، بحماسة كبيرة، زادت هذه الجزيرة حيوية، فكان اهل الشيعة يركضون هنا و هناك حاملين الخناجر أو السيوف فى ايديهم، ساعين لتمثيل معركة كربلاء، حيث خسر إمامهم الكبير حياته، أما بعضهم الآخر فكان يدق صدره و يبكى موت الحسين و ينديه، حتى حسب الانكليز ان الجزيرة تشهد مآس عظيمة، و لكنهم علموا لاحقا انهم يحتفلون بالعيد بهذه الطريقة.

فى ٢٧ منه، علمنا ان سفن مير مهنا البحرية، التى اختفت منذ بعض الوقت، هاجمت سفنا حربية آتية من البحرين و متجهة إلى بوشهر و على متنها اموال و جواهر ثمينة. و وصلت اثنتان منها إلى الخرج لإعلامنا ان السفينة الحربية الكبيرة قد هوجمت من قبل العدو، بينما تمكنتا من النجاة.

فی ۲۹ منه، کان اسطول میر مهنا الصغیر یبحر باتجاه خویری برفقة السفینة الحربیة التی استولوا علیها.

کان الکابتن برایس و الشیخ الشاب قد ألقیا المرساة فی الجهة الشمالیة- الشرقیة للجزیرة، بینما جال الیخت و السفن الحربیة الاخری التی سیسلکها الاسطول العدو، فحسبنا هذه المرة ان المعرکة حتمیة لکن عندما ادرک بحارة سفینة بوشهر ان احدی السفن التابعة لأسطولهم وقعت فی براثن العدو، راحوا یندبون أهلهم و أصدقاءهم الذین قتلوا أو أخذوا رهینة علی متن هذا المرکب، و بدلا من أن یحثهم هذا الامر علی مهاجمة العدو، عادوا جمیعا إلی السفینة الکبیرة. و لم یحاول رجال میر مهنا اقتفاء اثرهم بل فضلوا التوجه شمالی الجزیرة للتزود بالمؤن، لیعودوا بعدها و یتابعوا هجماتهم. استاء الکابتن برایس من رفض السفن الحربیة مواجهة العدو مباشرة. فأرسلها فی بدایة الامر لإطلاق النار علی الیابسة. و لکن میر مهنا کان قد ترک علی الشاطیء السفینة الحربیة المتضررة، بینما زود سفنه بالمؤن اللازمة لتبحر إلی عرض البحر. و بعد أن حاول اسطول بوشهر اللحاق بها سرا عاد فی اللیلة نفسها إلی الجزیرة حیث ألقی المرساة.

فی ذلک النهار، کان الانکلیز علی استعداد لتدمیر سفن میر مهنا الحربیة الثلاث لو لم یتخلّ عنهم العرب. و لکن الانشقاقات بدأت تظهر بینهم. فقد اعطی الکابتن برایس الأمر لجمیع السفن، بعدم الابحار إلا لملاحقة العدو، و العودة فور اتمام المهمة. غیر ان العرب ضربوا هذه الأوامر بعرض الحائط، إذ ان کبریاء الشیخ الشاب لا تسمح له بالخضوع لأوامر الأوروبیین. و عندما کان

رحلة إلی شبه الجزیرة العربیة/ تعریب عبیر منذر، ج۲، ص: ۱۷۲

الانکلیز یهاجمون العدو، کان یبتعد عن اسطولهم مدعیا ان قوة الریاح تمنعه من الدنو منه. فی الیوم نفسه اصیب مرکب الکابتن برایس بقنبلة مصدرها الیابسة، بینما کانت سفن الشیخ فی عرض البحر.

و نظرا لهذه الخلافات القائمة بین العرب و الانکلیز، جمع السید ناتر الاوروبیین الموزعین علی السفن کافة، و غادر برفقتهم المنطقة علی یخت البصرة، و علی طرادة الکابتن برایس.

فی ۲ تموز/ یولیو، خسر الشیخ مرکبین، واحد منهما تکسر علی الصخور و آخر تم الاستیلاء علیه. فی ۹ منه، وصل مرکب انکلیزی کبیر من البنغال متجها إلی البصرة. فعرض علیه الربان ان یقلنی علی متن مرکبه. غیر انه کان یرید الابحار فی غضون ساعة، دون ان یترک لی الفرصة لحزم امتعتی، کما و انبی افضل السفر علی متن مرکب صغیر، برفقة ربان عربی یعرف جیدا مصابّ نهر شط العرب و قراه. و وصل یخت صغیر من البصرة، یعلمنا أن عرب قبیلة کعب لا یضمرون الشر للانکلیز، غیر انه کان یخشی العودة لوحده، بسبب سفن میر مهنا الحربیة. فرافقه مرکب کبیر، و لحقت بهما إلی شط العرب سفن الشیخ سلیمان الحربیة.

لو رحلت برفقته، لفقدت معداتی کلها و اوراقی، ففی ۱۰ منه، شاهدنا علی مقربة من الساحل الفارسی عشر سفن حربیة، بعضها تابع لمیر مهنا، و بعضها الاخر للشیخ سلیمان الکعبی. فقد وَحد عدوا کریم خان قواهما البحریة. و بعد ان واجه الکابتن برایس مشاکل جمة مع الشیخ الشاب، اعلن فی ۱۱ تموز/ یولیو انه یرید العودة فی اللیلة التالیة. و لما کانت المؤن قد نفدت من الشیخ قرر العودة إلی دیاره، واضعا بذلک حدا للحرب.

بعد مرور بضعة أشهر، طرد میر مهنا الهولندیین من الخرج، علما انه کان علی و شک ان یهزم، لو لم یتخلّ عرب بوشهر عن الکابتن برایس و السید ناتر. وضع الهولندیون مئة رجل لحمایتهم، فضلا عن خمسین بحارا علی متن سفنهم الحربیة. و لکن کان ینقصهم ضباط ماهرون، فالضابط الوحید الذی کان یرافقهم، مات منذ فترة طویلة. عند عودة السید بوشمان إلی بتافیا، حل محله السید هوتینغ، الذی احضر معه ضابطا جدیدا، لم ینخرط فی السلک العسکری من قبل، و لم یلق حظوة لدی الجنود. و کان من المفترض ان یعاون الوالی الجدید امین سر یدعی السید تیم و لکنه قتل قبل بضعة ایام من وصول السید هوتینغ، و لما کان هذا الاخیر، یجهل لغة البلاد و عادات عرب الخلیج الفارسی، لم یحسن ادارة هذا المنصب الموکل الیه، علما انه لم یحط باشخاص حکماء، یستطیع الاعتماد علی نصائحهم. لاحظ میر مهنا ذلک، و علم ان السید بوشمان اقیل من منصبه و ان الکابتن برایس عاد إلی الهند، فبدأ یعیق اعمال الهولندیین التجاریة. فتحالف هؤلاء الاخرون مع شیخ بوشهر، و عطلوا سفن العدو الحربیة، و انزلوا رجالهم فی خویری، فی تشرین الاول/ أکتوبر. و لما انفصل الهولندیون عن حلفائهم، فاجأهم میر مهنا بشن هجوم معاکس علیهم.

رحلة إلی شبه الجزیرة العربیة/ تعریب عبیر منذر، ج۲، ص: ۱۷۳

فأنزل رجاله فی الخرج و استولی علی القصر، و بالتالی علی الجزیرة کلها و علی کمیة من البضائع القادمة حدیثا من بتافیا. فانسحبت الجیوش الفارسیة من بندریق، لیستولی علیها لاحقا میر مهنا.

لعلنی اطلت الحدیث عن حرب الخلیج العربی، التی شهدتها بأم عینی، و لکننی أردت أن أعلم قرائی، أن الاوروبی لا یستطیع الاعتماد علی تحالفه مع مسلم ضد مسلم آخر. فی هذه المناسبة، کان شیخ بوشهر یتمنی هزیمة میر مهنا، و لکنه لم یعط اوامر صریحة لربابنة سفنه. و کان ضباطه یتحاشون دوما المعارک إما خوفا علی حیاتهم، أو أن أحدهم حاول ان یرشیهم. و فی هذه الاثناء، وجد الانکلیز، و من بعدهم الهولندیون، أنفسهم لوحدهم.

کان الهولندیون یفتخرون کل الفخر بتولیهم الحکم فی هذه الجزیرة، و استیلائهم علی حصن فی الخلیج الفارسی، حتی أنهم لن یتقبلوا بسهولة مسألة خسارة الخرج .

تقع مدینة الخرج، التی بناها الهولندیون منذ بضع سنوات، شمالی- شرقی الجزیرة. علی ارتفاع ۲۹، ۱۵ من القطب. و قد أشرت إلی موقعها و مساحتها فی اللوحةXXVIII . تشیر الصورة (Aî) إلی الحصن الذی بناه البارون کینوسن، کان مقر الحاکم، یقع قدیما فی هذه البقعة. أما غرفة الضابط البحری، فتقع خلف الباب المقابل. علاوة علی ذلک، تکثر الشقق الفاخرة التی خصصها الحاکم لضیوفه. فی الجهتین الشمالیة و الجنوبیة نشاهد متجرین کبیرین، غیر انهما لا یتسعان لحمولة المرکبین اللذین یصلان سنویا من بتافیا، لذلک بقیت متاجر أخری فی المدینة. نشاهد فی الصورة (بB)، حدیقة جمیلة، بنی عند طرفها، المطبخ أما فی الصورة (جC)، فنجد خانا للقوافل. کان موظفو البعثة الهولندیة فی الهند الشرقیة، من أرمن و بانیانین یقطنون فی الصروح الحجریة الاخری، أما تجار الخردوات و الصیادون، و الحرفیون، من عرب و فرس، فیقیمون فی أکواخ حقیرة، خلف تلک الصروح، و هی تطل علی البازار أو سوق التجار. و اتخذ البروتستانت و الکاثولیک أماکن خاصة بهم، لیمارسوا فیها شعائرهم، دون ان یسمح لهم بتعیین کاهن لهذه الغایة، غیر انه غالبا ما کان یحضر راهب کرملی من بوشهر لترؤس قداسیهم. یملک الأرمن خارج البلدة قرب الصورة (دD) کنیسة صغیرة، یعلوها جرس، و هذا أمر نادر فی هذا البلد؛ احتفظ شعب کافر الأفریقی، الذی کان افراده یباعون کعبید فی خارج، بدیاناته الأصلیة. فبنوا منزلا لهم قرب الصورة (جC) تکریما لنبیهم العظیم الشیخ فرج. تقضی شعائرهم الدینیة بالرقص علی وقع الطبول، و غیرها من الآلات الموسیقیة الصاخبة.

رحلة إلی شبه الجزیرة العربیة/ تعریب عبیر منذر، ج۲، ص: ۱۷۴

علاوة عن ذلک، کانوا یعلقون سلسلة من بزور فاکهة المانغا الهندیة، حول أرجلهم حتی یضربوها أرضا، محدثین بذلک ضجة کبیرة، تدل علی قوة إیمانهم و هم یقیمون هذه الاحتفالات عند موت احدهم أو سفره، أو زواجه، أو ولادة طفل له ...

ینقسم مسلم هذه الجزیرة إلی سنة و شیعة، و هم یزورون جمیعا مسجد الامیر المدفون هنا .

و یقال ان مرکبا کان ینقل تجارا کفارا، تحطم علی الصخور و قضی کل من فیه، بعد أن ابتهل هذا القدیس إلی الله، راجیا منه ان یفعل ذلک. و یزعم ایضا، أن الکلاب کانت تخشی الاقتراب من هذه الجزیرة بسببه، و لکن منذ ان استقر الهولندیون فیها، راحت تتنقل فیها علی هواها.

ان الفرق الاساسی بین أهل الشیعة و اهل السنة، هو أن هؤلاء الآخرین قلما یکترثون لمسألة تسلم عائلة نبیهم الحکم، و احتفاظها به. فحسب اعتقادهم، شاء الله ان یعین المسلمون أبا بکر و عمر و عثمان خلفاء، و انهم وصلوا إلی الحکم قبل صهر محمد و اولاده من بعده. و لکن أهل الشیعة یکرهون هؤلاء الخلفاء الثلاثة لأنهم استلموا دفة الحکم قبل علی، و لکن الحسین قتل فی احدی المعارک، علی ید جیوش «یزید»، أحد الخلفاء اللاحقین، لأنه رفض الخضوع للحکام، مطالبا بالخلافة لنفسه. و لهذا السبب یحتفلون کل سنة بعید الحسین لمدة ۱۰ أیام احیاء لهذه الحادثة. أما فی بلاد فارس حیث المذهب الشیعی هو السائد، فتراهم یندمجون فی هذه المسألة إلی حد بعید، فیسعون إلی قتل الحسین، أو المسلم، الذی یستحق الخلافة؛ لهذا السبب، یفضل علی اتباع المذاهب الآخری، لزوم منازلهم خلال الاحتفال بهذا العید. فی الخرج، یسمح لهم بممارسة شعائرهم الدینیة، دون الاسترسال فی حماستهم، فعدد اهل السنة یفوق عددهم، کما و أن حاکمهم هولندی. حظر الحاکم علیهم البکاء و النحیب بصوت مرتفع فی المدینة خلال العید، حتی لا یزعجوا اتباع الدیانات الاخری. فکانوا یمارسون عاداتهم، خلال الایام التسع الاولی خارج المدینة. و لما کنت اجهل هذه الامور، سمحوا لهم بدخول المدینة فی الیوم العاشر (۲۹ تموز/ یولیو)، لیمثلوا مأساتهم فی الساحة العامة، فقصد مسلم الخرج کلهم المکان

للتفرج عليهم.

فكان من السهل التعرف على أهل السنة و على اهل الشيعة من خلال هيئتهم الخارجية، اذ بدا واضحا ان بعض اهل السنة تأثروا بهذه التمثيلية حول ابن نبيهم المسكين، رغم انهم حافظوا على رباطة جأشهم بينما كان أهل الشيعة يضربون صدورهم أو يعبرون عن ألمهم بطريقة أو بأخرى، حتى أن بعضهم كان يبكي بمرارة، و دموعهم تسيل على خدودهم، و هم يصرخون حسين! حسين! اما من يلعب بينهم دور اتباع الخليفة يزيد، تحت امرة القائد شمر، فكانوا يركضون شمالا و يمينا،

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۱۷۵

حاملين سيوفهم، و كأنهم يبحثون عن العدو. عندئذ وصل الحسين برفقة عدد من أصدقائه، حيث هوجموا بصورة وحشية فبدا على وجوههم اليأس، و قد صمموا على عدم التضحية بحياتهم بسهولة، فراحوا يدافعون عن انفسهم ببسالة. أما المدعو القاسم بينهم، فقد طرح أرضا عدة مرات، و كلما حاول ان يمتطي حصانه ثانية، توسلت اليه بناته ان لا يفعل و هنّ يذرفن دموعا حارة.

و لعب احدهم ايضا دور العباس، أخو الحسين، الذي بتروا له يديه، بينما كان يشرب من النبع، و كانت بعض الشخصيات تمتطي الأحصنة، و بعضها الآخر يلعب دوره سيرا على الأقدام: اذ لا تتوفر الجياد و الجمال بكثرة في هذه الجزيرة، لأن المجتمع يتألف من طبقة من الفقراء، يرتدون ثيابا رثة. أما الموسيقى التي كانت تصدح في المكان، فكانت تصدر عن أوعية معدنية، تطرق ببعضها البعض. أرغم جيش الحسين الصغير العدو على التراجع عدة مرات، إلى أن صرع بعدها الضباط، الواحد تلو الآخر، أرضا، و من بينهم الحسين، و أخذوا رهينة، و علقوا بعدها قطعا خشبية كبيرة بعنق اطفال الحسين، و طلبوا من جلاد يرتدي ثيابا مريعة ان يقودهم للمثول أمام العدو الأعظم: و احتفظ البعض منهم بكبريائه و شموخه امام الغزاة. عندها، أصدر الامر بقتلهم، و لكن الجلاد كان قد فعل ذلك مسبقا ، مما آثار غضب القائد فأمر بقتله ايضا.

من المعروف ان الحسين قد قتل في ساحة كربلاء، المجاورة لمدينة بابل القديمة. و كان الخليفة يزيد يقيم حينها في دمشق. و جسد ههنا، جالسا على كرسي اوروبي الطراز، حاملا سوطا في يده. استنادا إلى تاريخ المسلمين، رافق سفير الامبراطور اليوناني، افراد عائلة الحسين، الذين بقوا على قيد الحياة للمثول امام يزيد، و قد بدا هنا مرتديا ملابس اوروبية، و معتمرا قبعة مطرزة بخيوط ذهبية، غير انني لا أظن ان اليونانيين قد اعتمروا يوما هذا الزي، و لعل أهل الشيعة، كانوا يحاولون مجاملتنا، من خلال هذا التصرف، بغية اثبات الصداقة الوطيدة التي كانت تربط الحسين بالمسيحيين.

فعندما اقتيد علي بن الحسين، الذي لقب لاحقا بزين العابدين للمثول امام الخليفة، اقترح عليه هذا الاخير الخضوع له. أو كما يدعي الشيعة، الارتداد عن دينه، فأجابه بالرفض بشموخ و كبرياء فتدخل السفير مرتين ليبعد عنه عقوبة الاعدام. و لما اقتيد للمرة الثالثة امام الخليفة، و اثنى السفير عليه، امر الخليفة بقتل الاثنين معا . و الجدير ذكره انهم لعبوا ادوار شخصيات متعددة، لم أحفظ أسماءها، أو قصة حياتها.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۱۷۶

سأتلو عليكم في ما يلي مثالا عن تطير سكان هذه المدينة: لسنوات خلت، قتل جندي الضابط المسؤول عنه بطلق ناري من بندقيته، فأمر الحاكم بقطع يده و بشنقه لاحقا. و بعد ان بترت يده تجمعت حوله بعض النسوة، لجمع دمه المهدور، فرحنّ يتنازعن حول الرمال التي تمرغت بدمه. و بعد ان قطع رأسه، و قفنّ جميعا تحت المشنقة ظنا منهنّ ان ذلك قد يساعدهنّ على الحمل.

تقع جزيرة الخرج على بعد أربعة أو خمسة أميال من المحيط، و لما كانت قديما مغطاة كليا بالمياه، تتألف الجبال و الهضاب الواقعة وسط الجزيرة من الحجارة المرجانية و الصدف. و تكثر هنا بقايا اعمال السكان القدامى التي لا توازي بقايا نقشي رستم أهمية رغم أنها منحوتة في الصخر.

و يقال ان قصة رستم قد حفرت على أحد الجدران. رغم تعرضها للتلف بفعل مرور الزمن، و محاولة بعض السنة المتعصبين تشويهها.

و أكثر ما يلفت انتباهنا، بين هذه البقايا، هي قناة للمياه، تنقل عبرها مياه احد الينابيع، لرى البساتين المجاورة. تعلو هذه القناة ثقوب محفورة في الصخر، شبيهة بالمواقد، و بقنوات المياه في فارس. و الجدير ذكره ان مياه هذه الجزيرة صالحة للاستعمال، مما يعني ان السفن المارة من هنا، تتزود بكمية وافرة منها.

لا تضم هذه الجزيرة الا قرية واحدة. قبل وصول الهولنديين، كان سكان القرية يتمتعون بحماية والي بندريغ لهم. و لما راح يسعى كل سيد، في الخليج الفارسي إلى نيل استقلاله، و اعلان الحرب على جاره، عاني سكان الخرج الفقراء الامرين من قراصنة هذه المنطقة، و ارتأوا الهجرة من الجزيرة. فأدى ذلك إلى تحول تلك الاراضي الخصبة إلى مناطق قاحلة، اذ كانت تكثر فيها دوالي العنب، و اشجار التين و البلح و غيرها من الفواكه المثمرة. و رغم ان اللآلىء تتوفر في هذه الجزيرة، إلا إنها تكثر في قاع البحار، و استخراجها يتطلب اموالا طائلة. و الجدير ذكره انني ارسلت شجيرة مماثلة إلى كوبنهاغن، فهي خالية من الأوراق، و تغطي الاصداف، حيث ترقد اللآلىء، أغصانها.

عندما فتحت الصدفة الاولى، وجدت لؤلؤة متوسطة الحجم، غير انني لم أستطع فتح الأصداف الأخرى، لأن ذلك يقتضي انتزاعها عن الأغصان.

ترتفع درجات الحرارة في الخرج في فصل الصيف، غير ان الحر ليس شديدا على السواحل المقابلة. ففي شهري حزيران/ يونيو و تموز/ يوليو، هبت الرياح الشمالية- الغربية، المنعشة و الجافة و مصدرها الصحراء، و هي تحول الاجسام الصلبة كالزجاج و الحديد و الخشب، إلى كتل ملتهبة، حتى و إن وضعت في الظل، بينما تزيد برودة المياة خاصة ان وضعت في أوعية فخارية في الهواء الطلق. لكن ان هبت الرياح الجنوبية الشرقية، الآتية من البحر ارتفعت نسبة الرطوبة، خاصة عند

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۱۷۷

المساء، و يقال ان هذا الندى ليس مضرا ابدا بالصحة، علما اننا كنا ننام في العراء. و الجدير ذكره انني اصبت بداء العيون، السائد في هذه المنطقة.

بنى الهولنديون تحت منازلهم، غرفا صيفية، شأنهم في ذلك شأن اعيان بلاد فارس، و بغداد و البصرة. وجدت تحت المنزل الذي اعده لي السيد بوشمان غرفة مجهزة بمروحة لتلطيف الهواء، غير انني نادرا ما كنت استعمل هذا المكان، حتى ابقى معتادا على الجو الحار، و لا اظن ان المروحة تختلف كثيرا عن المدفأة، إلا بكونها مفتوحة من احدى الجهتين، ليدخل منها الهواء في الفصل الحار.

الرحلة من الخرج إلى البصرة

في ۳۱ تموز/ يوليو، غادرت الخرج عند المساء، و بلغت مصب شط العرب بين الاول و الثاني من آب/ أغسطس. يطلق العرب هذا الاسم على النهر الكبير الممتد من القرنة، حيث يندمج الفرات، و دجلة إلى الخليج الفارسي. و لا يزال العرب يطلقون على المنطقة الواقعة فوق القرنة، اسم الفرات الاول و الجل الاخير، المذكورين في الكتاب المقدس. ينقسم شط العرب، قرب البصرة، إلى عدة روافد .

و الملاحظ ان الجزر المحيطة بهذا النهر، تقع على مستوى منخفض جدا. مما يتعذر بالتالي على الاشخاص القادمين بحرا رؤية مصبات الشط، شأنها في ذلك شأن مصبات النيل، وحده الرافد الغربي المعروف بشور حالتا، يستعمل احيانا للملاحة، فغالبا ما تجد امام المصب رصيفا عاليا، يتعذر على السفن الكبيرة اجتيازه، خلال ارتفاع نسبة المياه أو عند اكتمال القمر تحد النهر من الجهتين بساتين النخيل و القرى الصغيرة و المنازل المتناثرة هنا و هناك، أما أكثر القرى تميزا فهي قرية حسان ابن الحنفية، حيث دفن المدعو حسان، شقيق الامير محمد، الذي اتيت على ذكره في سياق حديثي عن الخرج، و يقال انهما ابنا علي و حفيدا محمد. و اظن ان المكان الذي دفن فيه حسان، كان مغطى بالمياه قبل ۱۱۰۰ عام تقريبا، فالشاطىء منخفض جدا في بعض الاماكن، إلى حد ان السكان اضطروا لبناء السدود كي يحموا بساتينهم من الفيضانات. و نشاهد

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۱۷۸

في كافة الانحاء، قنوات محفورة في الأرض تنقل بواسطتها المياه إلى بساتين النخيل، حاملة معها كمية كبيرة من التراب. دمرت قرى جزيرة محرزي منذ بضعة سنوات، حين استولى عليها سليمان، شيخ قبيلة كعب، و نشاهد بالتالي انقاض قرية تعرف بسراي غير ان أحد التجار الاوروبيين في البصرة أكد لي انها انقاض البصرة، التي بناها الخليفة عمر. و الجدير ذكره ان بعض الرحالة يسمون في مؤلفاتهم، البصرة القديمة سراي و لكن مدينة البصرة التي بنيت في عهد الخليفة عمر تقع في مكان آخر. تتألف انقاض جزيرة محرزي من اسوار

من الصلصال مما يثبت انها ليست بقديمة.

لم أستطع ان ادون على خارطة اللوحةXI اسماء كل القرى الواقعة على ضفاف شط العرب، من الخليج الفارسى إلى البصرة، فمعظمها صغير للغاية و لا يستحق ان يوليه عالم الجغرافيا اهتماما.

فى مطلق الاحوال، سأتلو عليكم فيما يلى اسماء القرى كلها، رغم ان بعضها قد يبدو للقارىء غريبا بعض الشىء، و الجدير ذكره ان هذه القرى تخضع لحكومة البصرة. رغم انها لا تقع كلها بمحاذاة النهر.

نجد فى الجهة الغربية لشط العرب، اقليم دولسر، الذى يضم جوبيده و جابده، و كوة ابن خلف، و كوة خليفة، و كوة غانم، و تليها قرى سبحان و زين و قاووس، و كليسيا، و شمرته، و مطوعه صغيرة، و مطوعه كبيرة، و سلم علي، و حسينات، و بلد جان، و عاميه، و ابو بقيع و عبادة، و باب كنكى، و باب العريضة، و باب الطويل و باب الدباغ و ابو الخصب، و غيبة، و نهر خور، و ابو مغيرة و سبليات، و نهر حبابه، و البلد، و يهودى، و حنجة و كوة ابن فايز و على احمد ابن كوة، و كوه ابن الكومرلى، جزيرة على، و بلد ابن سبيع، و باب النجدى، و بلد و بوسفان، و حمدان و كربة و بلد السيد، و بلد مخزم، و بلد ياس، و مهيغران، و فجة مصلح و ابو سلال و عويسيان، و صراجي، و ميتان، و براصغية، و أم النعاج، و مناوى.

و نجد على جزيرة محرزى، قرى منوحى، خضر ابادان و باردة، و كوب بن اسماعيل، و صوينج الكبير، و صوينج الصغير، و حويش، و كوة ابن بلبول، و راس الخدة، و محيلله، و محرزى و نهر الشيخ و كوة عامر، و كوة المفتى، و كوة عيسى و كوة الملا و جزيرة المحلة.

تقع القرى التالية على الضفة الشرقية للنهر و تخضع لحكومة البصرة، عبد، سابلة، حفار، قلعة المحرزى، قلعة الحفار، كوة شيخ يعقوب، معمورية، دربن، ابو جذيع، خينى، ثمار، حمرانات، دعجى، كوة الزناد، جزيرة البارين، كوة الجوع، تنومة، شريعة، كردلان، و كوب الجلابة، و نهر يوسف، و جباسى، و كوت انجانة، و ريان، و حوطه، و شتيان، و نجاجى، و حمامله، و مغارة، و حلاف، و ام الزيط و شلهة، و مصطفاوية، و رميلية، وام التوت، و كوة الدرجة، و خلط، و سويب، و مرفأ حفيظة، و شاملى.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۱۷۹

ملاحظات حول بوصلة الشرقيين

اشارة

أكد لنا الرحالة الاخرون ان العرب لا يستعملون اسما آخر للبوصلة، غير ان العرب، الذين لم يشاهدوا هذه الآلة إلا صدفة على احدى السفن، لا يعرفونها جيدا. علما ان علماءهم لا يستطيعون الاستغناء عنها ابدا، فخلال الصلاة يديرون وجههم صوب الكعبة، مما يقتضى عليهم ان يتأكدوا من موقع مكة، قبل بناء المساجد، لتحديد المكان الذى يجب ان تبنى فيه القبلة. كان أحد علماء القاهرة يستعمل لهذه الغاية، ابرة ممغنطة تعرف بالمغناطيس، غير ان الشيخ المذكور لم يسمع قط، بمسألة انحراف الابرة أو تبدل وجهتها سنويا، فضلا عن ذلك، سمعت العرب يسمون البوصلة، ديرة أو بيت الابر. بينما سكان الخليج الفارسى يسمونها قبله نما، أو راش نعمة. ففى هذه البلاد يسمى السكان اقطار العالم استنادا إلى ظهور بعض النجوم أو غروبها، الشمال، «با» الجنوب «زيل» الشرق «متلا» الغرب مريب الشمالى شمالى شرقى متلا حسن. الشمالى شمالى غربى مريب حسن، الشمالى شرقى متلا- نعش، الشمالى- غربى- نعش مريب نعش، الشرقى- شمالى- شرقى متلا- شمالى، الغربى- شمالى- غربى، مريب سماك، الشرقى جنوبى شرقى متلا عقرب، الجنوبى غربى، مريب عقرب . رغم التسميات التى تستعملها الامم الاخرى لخطوط البوصلة لا تثير اهتمام القراء كلهم، إلا انى سأتلو عليكم تلك التى يستعملها الهنود و الاتراك و سكان ماليزيا، و السياميين.

يطلق الأتراك على الجهة الشمالية اسم يلدز و الجنوبية قبلة، و الشرقية كوندوغروسى و الغربية باطى، و الشمالية- شرقية فورياز. و الجنوبية- غربية كشتلمة، و الجنوبية شرقية لودوس و الشمالية غربية قاريل.

يطلق الهنود على البوصلة اسم هوكHokke و يقسمونها إلى ۳۲ خط أو شانChan ، قطر الواحد منها ۱۱ ۱/ ۵۲، و لها ۱۷ اسما علما ان خطوط الجهة الغربية من خط الطول الاساسى تحمل الاسماء نفسها كخطوط الجهة الشرقية منه.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۱۸۰

من الجهة الشرقية

الشمال درود

الشمالى/ الشرقى دورام

الشمالى/ شمالى شرقى ساتيفارا

الشمالى/ شرقى اوتينى

الشمالى/ شرقى بو- ايس

الشمالى/ شرقى شرقى غوسغير

الشرقى شمالى شرقى شترا

الشرقى شمالى كاتيسار

الشرقى سارا اون

الشرقى جنوبى حاران

الشرقى جنوبى شرقى لودا

الجنوبى شرقى شرقى دوجيت هول

الجنوبى شرقى كاغرا

الجنوبى شرقى جنوبى توران

الجنوبى الجنوبى شرقى تشوكى

الجنوبى شرقى اغاس

الجنوب تام

من الجهة الغربية

الشمال دورو

الشمال غربى دورام

الشمالى الشمالى غربى ساتيسار

الشمالى غربى شمالى اوتينى

الشمالى غربى بو ايس

الشمالى غربى غربى غوسغير

الغربى شمالى غربى شترا

الغربى شمالى كاتيفارا

الغربى سارا اون

الغربى جنوبى حاران

الغربى جنوبى غربى لودا

الجنوبى غربى غربى دجيت هول

الجنوبى غربى كاغرا

الجنوبی غربی جنوبی توران

الجنوبی جنوبی غربی تشوکی

الجنوبی غربی اغاس

الجنوبی تام

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۱۸۱

أعطانی برتغالی فی بومبای، بوصلة سكان ماليزيا و سيام، كان هذا الاخير قد عمل فی خدمة الاوروبيين و الهنود كربان سفن، كما و انه خدم فی جيش امام عمان، بعبارة اخری بدا لی انسانا جوالا بكل معنی الكلمة، و لكنه كان يحسن استعمال البوصلة و يعرف الكثير عنها.

فاستنادا لمعلوماته، وضع السيامیون ثمانية خطوط علی بوصلتهم. يسمونها استنادا للرياح التی تهب فی هذه الاقطار، الشمال، واو، الشمال- الشرقی اوترا، الشرق، تيبا نود، الجنوب- شرقی تاب هاو، الجنوب سلاتان، الجنوب- غرب، بريتا، الغرب، تبان توكك، الشمال- غرب، برات لوان، اما سكان ماليزيا، فلا يستعملون الا ثمانية أسماء لهذه الخطوط، الشمال اوتارا، الشمال- شرق تيمور لافاد، الشرق تيمور، الجنوب شرق سلاتان دجا، الجنوب، سلاتان، الجنوب غرب برادجا، الغرب باراد، و الشمال غرب بارا لافاد. غير ان بوصلتهم تضم ۳۲ خطا، يحمل كل واحد منها تسمية طويلة جدا فی لغتهم، مثلا، من الشمال إلی الشرق، اوتارا دی كانان ياورون بندی، من الشمال إلی الشمال شرق، اوتارا دو كانان ياورون بانجان، و من الشمال شرق إلی الشمال تيمور لافاد ياورون دو كوری ياورون باندی ..

حاول بعض الرحالة اقناعنا ان العرب البدو يستعينون بالبوصلات خلال رحلاتهم فی الصحراء غير انی لم أجد ما يثبت ذلك. فحين رأوني احملها سألوني عن سبب استعمالی له. فأجبتهم انها ساعة تحدد موقع القبلة، ای مدينة مكة، و لهذا السبب، كانوا يقصدون منزلی للاستعلام عن وجهة القبلة كلما ارادوا الصلاة. و الجدير ذكره ان هؤلاء العرب، يتنقلون دوما فی الصحراء و يعرفون الطرقات جيدا، و يستعينون ليلا بالنجوم، فلهذا السبب لا يحتاجون للبوصلة ابدا.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۱۸۳

ملاحظات حول البصرة

اشارة

تقع مدينة البصرة علی ارتفاع ۳۰، ۳۰ من القطب، علی الجهة الغربية لشط العرب، و استنادا للخارطة التی رسمتها فی اللوحةXXXIX يبلغ طول سورها حوالی الميل تقريبا، و تكثر فيها بساتين النخيل و حقول القمح، التی تزيد من نقاط التشابه بينها و بين مدينة باب القديمة.

و الجدير ذكره ان هذه المنطقة لا تضم صخورا منقوشة، إلا تلك التی نشاهدها فوق عتبة الجوامع، فمعظم الابنية مصنوعة من الخشب الثمين الذی ينقل من المناطق الاخری، تغطی الحجارة بعض الاسوار بينما استعمل الصلصال لبناء المنازل و سور المدينة الكبيرة؛ مما يعنی ان انقاض هذه المدينة، لن توازی انقاض مدينة بابل اهمية.

يبلغ عرض الشط فی هذه المنطقة، حوالی ربع فرسخ؛ تكثر فی البصرة القنوات الصغيرة، المتفرعة من النهر الكبير، و التی تساعد علی الحفاظ علی نظافة المدينة، غير انی لم أدخل مدينة اكثر قذارة من هذه اذ يستعمل معظم الناس المياه الملوثة فی مطابخهم، كما و انهم ينظفون بها شوارعهم غير المرصوفة.

تضم المدينة خمسة أبواب ۱) دراوزه أو باب الرباط ۲) دراوزه بغداد ۳) دراوزه الزبير ۴) دراوزه الصراجی ۵) دراوزه المجموعة تقع قرب الصورة ۶ من اللوحة، دار النقيب باشا، و قرب الصورة ۷ دار المفتی، و قرب الصورة ۸، ثكنة الانكليز، و قرب الصورة ۹ ثكنة الفرنسيين. و نشاهد فی المدينة مسجدا له منارتين، و ثمانية آخرين لكل واحد منها منارة واحدة، و هی تعرف بالجوامع، و يقال ان هذه المدينة تضم ۴۰ مسجدا صغيرا. و لكنتی اخالها أقرب إلی المصلی منها إلی الجامع.

لما كانت البصرة مدينة حديثة، سأتلو عليكم فی ما يلی اسماء احيائها كافة، خاصة و اننا قد لا نحظی ابدا بترجمة وافية لوصف هذه المنطقة، مع الاشارة إلی تسمياتها القديمة، مناخ، مشارق، دانيك، ابن عيد، عبايه، ميدان العبيد، الدوغ، ام البلابيل، ام البزازين، شيخ بادی، شيخ قتبر، شيخ جوهر، ام الطوق، قبلة، شيخ عمر، مدبغة، نهر النبات، شيخ حبيب، جسر اللوح، مكول، معدان، محمد تخته حمام كوت، محلة القاضی، محلة العرصة، محلة سيد رمضان، محلة الافغان، حكاله، حداده، خليلية، شربياتية، محلة اليهود، محلة مرجانة، حسن داده، كواز، بستان قصب، كوارخين،

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۱۸۴

عز الدين، محلة خان زكار، القطانة، سيف، حوش الباشا، جسر الغربان، المجموعة، مقبرة، صمغونية، محمد جواد، عروة، غمقة، بحارنه، جسر العبيد، بلد السياس، الدوغ، حلل، مقام، محلة الجديدة، نظرآن، صبغة، معصرة، الخضر، محلة الساعی، مناوی، بديهة، عباس، حصير جيه، فرسی صيمر، خضراوية، فتالة، كوث الكرملی، جسر الحوز، محصصه، خشابه.

لم تعرف البصرة الازدهار إلا فی عهد المدعو سياب، الذی كان نبيلا من البلاد، استلم دفة الحكم من الاتراك، كان هذا الاخير، يشجع الاجانب علی الاقامة فی هذه المدينة، و تأسيس مشاريع تجارية فيها، خاصة و ان موقعها مؤات للغاية. استلم ابنه علی باشا الحكم من بعده، ليخلفه فی ما بعد حسين باشا، ابن علی باشا . و كانوا جميعا يعتبرون البصرة، و القری التابعة لها، ملكا لهم. فحول علی «القرنة» إلی مكان يلتقی فيه الفرات و دجلة، و الی حدود حصينة، عززها حسين ببناء سور ثان لها. و وسع هذا الأخير مدينة البصرة، إذ بلغ السور الذی بناه نهر شط العرب، رغم بعد المدينة عنه، و ساهم بالتالی فی رفع عدد بساتين الفاكهة و حقول القمح. كما و انه حصن قرية مناوی، و استولی علی القصر و اقام فيه. علاوة علی ذلك، بنی جامعا فی البصرة، و منح المسيحيين حرية ممارسة دينهم، حتی يغريهم بالبقاء فی هذه المدينة، و المساهمة فی ازدهار التبادلات التجارية فيها. فعظم شأن حسين باشا بعد أن وضع يده علی قری عديدة كانت تابعة لحاكم بغداد، و بعد أن صد الأتراك الذين حاولوا مرة اقتحام البصرة، و لما تعذر عليه اخضاع الباشوات المجاورين لنفوذه، أرسل أحد افراد عائلته إلی القسطنطينية، حاملا هدايا ثمينة للسلطان، فوعده بأن يدفع له سنويا، مبلغا من المال، شرط أن يسلمه دفة الحكم، فوافق السلطان علی ارسال جيش صغير لمساعدته علی بسط نفوذه، علما انها الطريقة الاسهل لضم البصرة لاحقا إلی امبراطوريته. و بدلا من أن يقف سكان البصرة و القری المجاورة إلی جانب حسين باشا، أرتأوا الالتفاف حول عدوه الجديد.

أدرك ان قواه العسكرية قد ضعفت، و وجد نفسه مرغما علی الانغلاق علی نفسه فی مقره؛ و بعد ان تضاعفت قوة عدوه فی المدينة، فضل الانسحاب إلی مناوی، و منها إلی بلاد فارس، بعد مرور بضع سنوات، احتل الفرس البصرة، و لكنهم ما لبثوا ان طردوا منها علی يد الاتراك، و منذ ذالك الحين و السلطان يعين باشا من باشاواته حاكما علی المدينة. و لكن حسان باشا، والد احمد باشا الشهير، استغل القبائل العربية الكبيرة لمهاجمة الباشاوات الجدد فی الطريق و قتلهم أو ارغامهم علی العودة إلی حلب.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۱۸۵

و بعد ان رفض الجميع تسلم هذه المهمة، عرض حسان باشا دفع الضريبة العادية، لضم هذه المنطقة إلی بغداد و خضوعها لنفوذها .

خلال الفترة التی كان السلطان يرسل فيها الباشاوات من القسطنطينية إلی البصرة، كان يعين فيها ربانا من الاعيان، علی رأس ۵۰ أو ۶۰ سفينة حربية، يمنع وصول سفن القراصنة إلی الفرات و دجلة و الخليج العربی برمته. و فی سبيل اعالة هذا الاسطول خصصت له ايرادات المناطق الكبيرة فی بغداد و البصرة. و بعد ان بسط باشا بغداد نفوذه، وضع يده علی ايرادات المناطق المخصصة للربان. فمنح السلطان الباشا حرية تسهيل الاعمال التجارية بحرا. و عين الربان موظفا عنده، فعينه حاكما علی مناوی و أوقف سفنه الحربية علی الشاطیء معطيا الأمر لقادتها بإطلاق نيران مدافعهم علی الحاكم، ان مر فی مركبه غير ان هذه السفن ليست صلبة البناء، علما انها مطلية بالزفت الذی يستورد من مدينة هيتHet الواقعة علی ضفاف الفرات علی بعد بضعة أيام شمالی الحلة.

ان السفن الصغيرة، التی تتنقل بين بغداد و الحلة و البصرة، ليست أكثر صلابة، و ان الزفت يتلاءم مع المياه الحلوة، و لكن يقال انه يذوب فی المياه المالحة، و لهذا السبب لن تخاطر سفر الربان الحربية بالابحار فی الخليج الفارسی. و رغم تكاثر عمليات القرصنة فی الفرات و دجلة، قلّما يوليها الربان اهتماما ، غير انه يستدعی الضابط الاعلی، و الدفتردار و الآجال، و شيخ البندر و القاضی، إلی

الديوان، ليعالج المسائل الطارئة.

الدفتردار هو أمين الخزنة، و يخضع في المدن الاخرى لأوامر السلطان مباشرة. أما في البصرة، فهو مجرد موظف في خدمة باشا بغداد يعين سلطان القسطنطينية القاضي أو يقيله من منصبه، ليختار بديلا عنه، و يقال ان معظم القضاة يشترون شهاداتهم (او فرمان) من غيرهم و يقتبسون اسمه ايضا. لهذا السبب لا يسعنا القول ان رجلا نزيها شغل يوما هذا المنصب، و في انتظار تعيين قاض جديد، يحل نائبه محله، علما ان هذا الاخير يجيد العربية و يعرف البلاد جيدا، فالقاضي الآتي من القسطنطينية لا يحسن إلا التركية بينما سكان البصرة لا يتكلمون الا العربية.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۱۸۶

يعرف نبلاء البلاد بالأجلّاء، أما أكثرهم اجلالا فكان في تلك الحقبة الشيخ درويش القوسي، من سلالة عالم شهير، يدعى قوس، بنى جامعا جميلا في هذه المدينة.

ينتمي المفتي الحنفي إلى هذه الطبقة من النبلاء، و يقال ان هذا المنصب لا يشغله إلا العلماء.

غير ان ذلك ليس ضروريا، اذ قد يحل محله نائبا أو وكيلا- من ناحية أخرى تخضع لسلطة نقيب الشرفاء، أو رئيس خلفاء محمد كلهم، المقيمين في هذه المنطقة. لسنوات خلت، اختار سليمان باشا احد الاعيان، كمفت شافعي، فخضع له رئيس الاجل، المدعو سعيد درويش ابن سعيد طالب، الذي كان اجداده يرافقون قديما القوافل إلى حلب، و هو يشغل اليوم منصب قائد للقوافل.

علما انه الاكثر شهرة بين الشيوخ. الذين تمر قوافلهم في هذه المنطقة و يدفعون الجزية له.

يتمتع الاجل بامتيازات كثيرة، علاوة عن أخذ الحاكم بنصائحهم قبل اقدامه على اى عمل كان. فهم لا يدفعون شيئا من أرباح أرضهم، خلافا للرعايا الآخرين الذين يرغمون على دفع الجزى على بساتين البلح، مع العلم انها تشكل مصدر ثروتهم. و يحق لهم ايضا معاقبة الفلاحين، رغم انهم ليسوا عبيدا عندهم. يخضع رجال الدين، و من بينهم ناظر المدرسة و الناسخ، لسلطة المفتي القضائية، كما يخضع الاسياد و الشرفاء لسلطة نقيب الشرفاء القضائية، و هما يملكان سجونا خاصة بهما، يزجان فيها الرعايا الذين يخالفون القانون. عندما يبنى احد الاعيان جامعا، تحتفظ ذريته بحق ادارة هذا الجامع و صيانته، مع اعلام الحاكم بذلك. و تعين رجال الدين في الجامع، لكن ان تفنى عائلة باني المسجد، أو يطالب احدهم بحقه في هذا الملك، حتى يتسلم المفتي الايرادات و المصاريف و يتحول بالتالي إلى متول. قال لي معلم اللغة، الذي كان ناسخا ايضا، ان من يقدم التقارير و من يراجعها من بعده، يجنيان اموالا طائلة اذ يتقاسمان جزءا من الأرباح. سمعت المتمولين يشتكون من هذا الامر في مدن تركية أخرى، حيث الجوامع تهدمت جزئيا، إذ من الصعب صيانة الجوامع ان لم تتلق دوما مساعدات اضافية.

يتمتع الانكشاريون في البصرة كما في المدن التركية الاخرى، بامتيازات كثيرة، منها عدم معاقبتهم أو حبسهم عند اقترافهم الجرائم، كبار ضباطهم يلازمون القرنة برفقة قادتهم، بينما يعين صغار الضباط في فرقهم، عناصر منحلة، ممن يمارسون اللصوصية و غيرها من الأعمال المخلة بالأمن، و التي تسيء للحاكم و لرعاياه من الطبقة الكادحة. علاوة عن ذلك، لا يتخلى المتطوع عن عمله، و يتقاضى راتبا شهريا، و مبلغا آخر اضافيا لسهره على الأمن العام. غير انني لا أحال الانكشاري يغالي إلى هذا الحد إلا في غياب باشا بغداد. عند وفاة سليمان باشا، لم يستطع الحاكم منع الانكشاريين، من مهاجمة منازل المسيحيين، و المسلمين الذين لم يطلبوا الحماية منهم. و غالبا ما يشتم اعضاء احدى الفرق، المسلمين أو اتباع الديانات الاخرى، الذي طلبوا

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۱۸۷

الحماية من فرقة أخرى، و أدى ذلك إلى نشوب خلاف بين الانكشاريين، و اندلاع معارك حادة بينهم.

و غالبا ما كان يسقط في اليوم الواحد من ۸ إلى ۱۲ قتيلا، من بينهم اشخاص لا علاقة لهم اطلاقا بالانكشاريين. و حث هذا الامر الناس على الانخراط في فرقهم، تفاديا لوقوعهم ضحية سخط هؤلاء الحثالة. و لهذا السبب، عرف مسلمو البصرة، جميعا بالانكشاريين .

و لما كان الأجل و الانكشاريون يتمتعون بامتيازات كثيرة، يخيل الينا ان الحاكم لا يتمتع بصلاحيات عالية، لكن ان كان نبيها استطاع الحفاظ على نفوذه.

غالبا ما يشن الاعيان الحرب على بعضهم البعض، فينهون القرى التابعة لنفوذ واحدهم الآخر، ان أراد الحاكم ان يدحر أحد معارضيه، إما علنا في الديوان أو في أي مكان آخر، يصبر عليه حتى يغالي في تصرفاته. و لكن الأتراك يعظمون شأن اخطاء الأثرياء أكثر من الجرائم التي قد يرتكبها الفقراء. فيشنقون الفاعل و يصادرون جزءا من أمواله.

و لا يسع ذوو المشنوق إلا التذمر سرا من طغيان الاتراك. قدم الحاج يوسف اموالا طائلة لعلي باشا، الذي منحه في المقابل الحق في ابتزاز مبالغ كبيرة من التجار الاخرين، و الادعاء انها لحساب الآخر. فأقيل عندئذ حاكم بغداد احمد كخيا و عين مكانه حاكما آخر. و لكنه ما لبث ان أعيد إلى منصبه، حيث بذل قصارى جهده لكسب صداقة الرجل الذي تسبب في الماضي في اقالته. و لكن يوسف لم يضع فيه ثقته، و فضل ان يعين مرافقين خاصين، لإغاثته عندما تدعو الحاجة. غير انه اضطر في أحد الأيام للتعامل مع التفنكشي باشا (او قائد فيلق من المشاة) الذي كان يكن له صداقة عميقة. فأعطاه هذا الاخير الامر الصادر بشنقه. فتم اعدامه في الحال، و رميت جثة هذا التاجر الذي نال حظوة لدى الباشا، و تمتع بحماية رجال الدين له، خاصة بعد أن حج إلى مكة، في مزبلة، و استطاع احمد باشا كخيا جمع الاثباتات ضد الحاج يوسف، و تبريز تصرفاته للشعب، أما علي باشا، فكان يشعر بسرور عظيم، خاصة و انه استعاد المئتي الف قرش التي كان يدين بها للحج يوسف، فضلا عن استيلائه على جزء كبير من أموال هذا المسكين.

ابتز الحاكم نفسه مبلغا كبيرا من المال، من تاجر أرمني، لإقدامه على خطوة نالت اعجاب حكام اوروبا كلهم. و إليكم ما جرى: بنى الأرمني على حسابه جسرا من الحجارة، فوق احدى القنوات المجاورة للمدينة، و رمم الطريق العام، الذي كان يتعذر سلوكه في الشتاء نظرا لإهمال

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۱۸۸

الحكومة له. و كان قد طلب مسبقا الإذن من الحكومة، و لما لم يتلق فرمانا، دفع ثمنا غاليا ثمن تصرفاته. ففي تركيا، غالبا ما يجبر الاشخاص الذين يشيدون اصرحة جميلة، على اقراض الحكومة مبلغا من المال، دون ان تعيده لهم لاحقا. فلا عجب اذن ان لم يظهر الاثرياء من الأتراك كرما بالغا. من جهة أخرى، يتميز جهاز الشرطة في البصرة بفعالية: فرغم ان اكوام القمح لا تغطى بالحصائر في السوق، لم نسمع ابدا عن عملية سرقة من أي نوع كانت.

من الصعب الحصول على رقم محدد لعدد السكان في بلاد الشرق، خاصة و انهم لا يضعون فيها لوائح بالولادات و الوفيات. فان حاولنا الاستعلام عن الموضوع من السكان، اجابوا ان عددهم يبلغ الملايين. غير ان عدد السكان ليس كبيرا جدا، كما يسري الاعتقاد في اوروبا، تضم البصرة حوالي ۷۰ محلة أو حي. بعضها يضم ۳۰۰ أو ۴۰۰ منزلا. و بعضها الآخر ۱۰ أو ۲۰ منزلا أما المحال الاخرى، فتضم بساتين نخيل و مقابر كبيرة. أكد لي سكان المدينة، ان كل محلة تضم حوالي ۱۰۰ منزل فان حسبنا ان كل منزل يحوي سبعة أشخاص، بلغ عدد السكان الاجمالي اكثر من ۵۰ ألفا. لكن إن حاولنا احصاء السكان لما تجاوز عددهم الاربعين الفا. يعتبر المذهب السني المذهب المهيمن في هذه المدينة. خلال الحرب الاهلية في بلاد فارس، وصل عدد كبير من اهل الشيعة إلى المدينة، و لما كان السنة يكرهون هؤلاء الاخرين شديد الكره، عرف معظم الشيعة بالسنة. و يبدو ان مسلمي هذه المنطقة لا يدققون كثيرا في مسألة الواجبات الدينية. و لا يتوانى الاثرياء عن الصلاة خمس مرات في النهار، كي لا تتهمهم الحكومة بإهمال دينهم، ان لم تجد تهمة أخرى توجهها إليهم. و الجدير ذكره انه قلما يهمها أمر ممارسة الفقير واجباته الدينية أو اهمالها لها. من بين مسيحيي الشرق كلهم، تعد رعية الأرمن الأكثر عددا، علما ان معظم افرادها اتوا إلى هنا من بلاد فارس. أما عدد الصابئة فضئيل جدا، و لا أحد يعيرهم اهتماما. اعطاني احد الحدادين نسخة عن ابجديتهم (اللوحة II قرب (ط)) بينهم نجد في البصرة ايضا عائلات بانيانية و هندية. و من بين الامم الاوروبية كلها، يمارس الانكليز تجارة الجوخ الاوروبي، و النسيج البنغالي و الاقمشة على انواعها من سورات. يقيم في هذه المدينة مستشار انكليزي من بومباي، يرافقه عدد من رجال الدين، اما المستشار الفرنسي فقد رحل عنها بعد أن توقفت حكومته عن إرسال أجر محترم له. و الجدير ذكره ان الهولنديين لم يقيموا ابدا في هذه المدينة، علما ان التجار يجلبون التوابل و العقاقير من خارج. نجد في البصرة عددا كبيرا من الايطاليين، الذين يمارسون الاعمال التجارية عبر حلب باتجاه البندقية و ليفورن. فضلا عن كاهنين كاثوليكيين رومانيين، بنيا

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۱۸۹

كنيسة صغيرة، شبيهة بتلك التي شيدت في ظل حكومة حسين باشا، و التي انهارت كليا.

تمتد الصحراء الكبيرة من سفح اسوار البصرة، و تمتاز تربة هذه البقعة بخصوبتها شأنها شأن التربة التى تغطى ضفتى النهر، حيث تكثر بساتين النخيل، و حقول الأرز. و لا ينقص فى هذه البقعة، سوى قنوات المياه، التى نشاهد مثالا عنها جنوبى غربى المدينة. لثلاثين أو اربعين سنة خلت، كانت تقع فى هذه المنطقة قرية كبيرة، لم يتبق منها اليوم الا صرحا صغيرا يعلو ضريح ولى مسلم و يغطى المنطقة الممتدة إلى الزبير، الملح الذى يستعمل فى الأكل، خاصة فى البقع التى بنيت فيها سدود صغيرة، لجمع مياه الامطار و تبخيرها.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۱۹۰

موقع مدينة البصرة القديمة

تقع مدينة البصرة القديمة، التى اشتهرت فى ظل حكم الخلفاء الاولين، على بعد ميلين جنوبى غربى المدينة، التى تحمل اليوم هذا الاسم، و فى منطقة رملية شاسعة، و نجد ههنا بقايا سور من اسوار المدينة، يبلغ محيطه فرسخين، فضلا عن أسوار جامعى على البرمكى و سفران، و أضرحة الحسن البصرى الشهير، و الزبير، و ابن علوان و طلحة، و ابن عبيد، و غيرهم من الحكماء الذين دفنوا فى البصرة.

يكره اهل الشيعة هؤلاء العرب الشهيرين، لأنهم خرقوا عهد الوفاء مع امامهم الكبير، و حاربوه من اجل عائشة. أما أهل السنة، فيكنون لهم كل احترام، لأنهم تطوعوا كضباط فى جيش محمد، و ندموا كثيرا، قبل وفاتهم، لمقاومتهم على، صهر محمد، و الخلفاء الذين جاؤوا من بعده. تعلو أضرحة هؤلاء العرب منازل حجرية شبيهة بتلك التى تعلو أضرحة الأولياء الآخرين، و يقال ان الفرس دمروا هذه المنازل، زمن الهجرة (۱۱۵۶)، حين حاصر نادر شاه مدينة البصرة التى نعرفها اليوم.

و لكن اهل السنة اعادوا بناءها بعد انسحاب العدو من المدينة. و مما لا شك فيه ان العجائب التالية، حصلت فى ما بعد، استنادا لكلام رجل دين مسلم من الزبير، اضاع رجل حماره خلال سفره من البصرة الجديدة إلى البصرة القديمة، فشكا همه لبعض العمال قرب ضريح طلحة، علما انه جاب الصحراء كلها دون ان يتمكن من العثور على حماره. فحزنوا لأمره. و راحوا يشاركونه الصلاة، و الدعاء، حتى يعيد الولى له حماره. عندئذ، رأوه آتيا صوبهم بعجلة، و كان احدهم يلحق به حاملا سوطا فى يده. انهارت القبة الجديدة، التى بنيت فوق ضريح الحسن البصرى، للمرة الثانية. فظهر اثر ذلك الولى لأحدهم فى الحلم و أكد له انه لا يريد قبة فوق ضريحه، بل برجا صغيرا، على أن يوضع رأسه قرب الجدار، حتى يتمكن الناس من الدوران حول الضريح . دفن الزبير قرب جامع جميل تعلوه مئذنة. و أكد لى امام هذا الجامع، الذى اخبرنى هذه القصص كلها، ان الزبير رد عليه مرة التحية. فسألت الشيوخ الاخرين، ان رد عليهم الأولياء السلام، فأجابونى بتواضع و خشوع. إنهم خطأة و لا يستحقون هذه النعمة. و أرانى الامام الشجرة الذى فقد تحتها الزبير حياته، استنادا لتاريخ العرب. و على مقربة من هذه المدينة القديمة نجد ضريح المدعو عبد

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۱۹۱

الله بن عباس، الذى كان والده بواب محمد .

لما كان المسلمون يفضلون ان يدفنوا قرب اوليائهم، تنقل جثث الموتى من البصرة الجديدة إلى البصرة القديمة. كانت المدينة مهدمة كليا، إلى ان اعيد بناء بعض المنازل قرب ضريح الزبير، منذ ۳۰ أو ۴۰ سنة، و منذ ذلك الوقت عرفت البصرة القديمة بالزبير منذ ثمانى أو عشر سنوات، تمركز فى هذه المدينة عدد كبير من السنة، الذين طردوا من نجد على يد عبد الوهاب مؤسس احدى الديانات الجديدة، و لهذا السبب تعد الزبير مدينة صغيرة، خاصة بعد ان بنى فيها مسجد جديد علاوة عن ذلك الذى تحدثت عنه آنفا.

لم استطع ان أعرف فى الزبير متى دمرت البصرة القديمة و فى أى ظرف. يقول الامام الذى تحدثت عنه اعلاه، ان عاصفة قوية اقتلعت المنازل و الجوامع، فأعاد السكان بناء البصرة الجديدة. لكن يبدو لى ان انحطاط هذه المدينة كان ثمرة سوء حكم المسلمين، الذى دفع بسكان بلاد الكلدان إلى النزوح منها. نشاهد فى البصرة القديمة، مجرى نهر جاف، أو قناة مجوفة، يسميها العرب جارى زاد أو حاثازاد. كانت مياه هذا النهر تنبع من بلدة هيتHet ، التى تقع على بعد ستة أيام شمالى الحلة، و من الفرات فى الكوفة، ليصب على بعد ثلاثة أميال فى خليج غورابديلا (اللوحةXL). يقول العرب ان ضفتى القناة كانتا محددتين بالأشجار، و ان مياهها ساهمت فى تحويل هذه الارض إلى بقعة خصبة. و لكن مياه القناة جفت منذ عدة سنوات و تحول هذا البلد الخصب إلى ارض قاحلة لا يقطن فيها الا العرب البدو. فلا عجب اذن، ان ينزح اهل البصرة عنها، عندما جفت مياه النهر، كما و ان سكان القرى المجاورة انتقلوا إلى ضفاف الفرات، حيث المياه غزيرة جدا .

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۱۹۲

استنادا إلى تاريخ كربلاء، وقعت المعركة الشهيرة بين على و عائشة، على مقربة من البصرة، و لكن سكان الزبير، لم يحددوا ساحة المعركة بدقة. رغم انهم يدعون انها وقعت فى وادى سعيد سبان. بين البصرة و جبل سنام، حيث نجد قرية كوبيدة، التى يسميها العرب اليوم خربية.

تتميز البصرة بتنوع اجناس التمر التى تنمو فيها. و يقسمها العرب إلى نوعين نوع بارد، مفيد للصحة و نوع حار مضر بها. و هذا يعنى ان النوع البارد طعمه لذيذ رغم ان سعره مرتفع بعض الشىء، بينما النوع الحار، متوفر بكميات كبيرة، و يشكل غذاء الطبقة الفقيرة الاساسى. أما التمر الحتناوى فهو الافضل بين كافة الانواع، إذ لا يضر أبدا بالمعدة، حتى و ان تناولنا كمية كبيرة منه.

أما التمر الزاهدى، الذى يعد من أشد انواع التمر فى البصرة، فهو يرمى للمواشى أو يصنع منه شرابا مسكرا. وحدهم الفقراء الذين لا يستطيعون تأمين طعام أفضل، يتناولون هذا النوع من التمر غير ان سكان بغداد لا يحتقرون هذا النوع من التمر، لأنه ينمو بكثرة فى ارضهم، و اذكر من أنواع التمر الاخرى التى تنمو فى هذه المنطقة، الحلاوى و الاستعمران و الشكر، و الجوزى، و الدبرى و الخصاب، و الخضراوى و الاشرصى و البريم، و المكتوم (بعضه أحمر و بعضه أصفر) القنطار، الاواوى، تمر بنت السبع، الخنيزى، اصابع العروس الدقل (بعضه احمر و بعضه اصفر)، الجوزى الاشكر، الشيص، المعضاد، البمكى، القصيب، الابراهيمى. يستعمل هذا التمر لصنع الدبس، الذى يأكله العرب مع الخبز، و الجدير ذكره ان الحلاوى هو الافضل لصنع هذا الشراب المسكر. اما لب التمر فيرمى للماشية.

قرأت فى أحد الكتب ان عرب البصرة، يزرعون فى الارض لب التمر بشكل هرمى، و لا أظن ان احدا يلجأ اليوم إلى هذه الطريقة لزراعة الأشجار. تكثر فى هذه المنطقة بساتين الفاكهة، علما انها تعانى من نقص فى الخشب.

فى الفصل الحار، ترتفع الحرارة فى هذه المنطقة ارتفاعا شديدا، حتى أن البعض يقعون ارضا فى الشارع من شدة الحر، كما و ان الهواء ليس منعشا نظرا للمستنقعات التى تحيط بالمكان، و الاقذار المتناثرة فى المدينة نفسها. خلال شهر آب/ أغسطس، هبت الرياح الجنوبية الشرقية لمدة

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۱۹۳

خمسة أو ستة أيام بينما استمرت الرياح الشمالية أو الشمالية الغربية خلال الايام الاخرى، يتأثر الجسم البشرى بالحر عند هبوب الرياح الجنوبية الشرقية. لأنه يتصبب جبينها عرقا. أما فى النصف الاخير من شهر تشرين الاول/ أكتوبر، فكانت الرياح شديدة التقلب، ففى السابع من تشرين الاول/ أكتوبر، ظهرت بعض الغيوم، التى تكاثرت فى ۲۷ منه، حاملة معها فصل الشتاء.

تقيم قبيلة كعب العربية، التى تحدثت عنها فى وصف شبه الجزيرة العربية شرقى شط العرب، و تتولى زمام الامور فى المنطقة، و لا يقيم افرادها فى الخيم، كما يفعل عرب الصحراء بل فى مدن و قرى، شأنهم شأن عرب شرقى الخليج الفارسى، كان الشيخ سليمان، الحاكم الحالى للمنطقة، سيدا على مقاطعة صغيرة، تخضع لنفوذ بلاد فارس، لكن خلال الحرب الاهلية، استطاع ان يضع يده على مقاطعات صغيرة اخرى. و بعد ان اجتاح منطقة البصرة، تابع تقدمه باتجاه الشط ليبلغ منطقة دواس، على الجهة الغربية للنهر؛ بعبارة أخرى، استطاع بسط نفوذه على اقليم فارسى شاسع، و على جزر و مصبات شط العرب، التى كانت خاضعة فى السابق لحكومة البصرة. و لكنه لم يدفع شيئا لكريم خان لأنه كان يقيم فى منطقة بعيدة جدا عنه. و لما طالبه هذا الاخير بدفع الجزية، ادعى انه لا يملك مالا، لأن الأتراك، يبتزونه؛ و لما طالبه باشا بغداد بالمال، تذمر ايضا من الفرس: فقد كان يرشو أعيان مدينة البصرة، حتى يغضوا الطرف عن استيلائه على القرى، الواحدة تلو الاخرى. من جهته، رفض الحاكم شن الحرب على سليمان، خاصة و ان هذا يدفع له مبالغ طائلة، و لا اخاله قد يدفع قرشا واحدا للحاكم الجديد ان لم يسلم له بعض القرى أو يعلن الحرب عليه.

شن باشاوات بغداد حملة عليه، فارتأى دفع الجزى و اعلان نفسه تابعا للأتراك أو رشوة الشيوخ العرب، و إلهاء الباشا. و اتخذ قبان (مدينة صغيرة على الساعد الشرقى للشط) مقرا له، و بنى سدا عاليا على الساعد الاخر، لتحويل مياه النهر و جعلها صالحة للملاحة. العام ۱۷۶۵، كان يملك عشر سفن حربية و ۷۰ مركبا صغيرا للاستيراد و التصدير. فى المقابل، كان نفوذ حاكم البصرة يتقلص من سنة إلى أخرى؛ و خلال اقامتى فى تلك المنطقة، كان عاجزا عن مواجهة هذا الشيخ الصغير.

قرر كريم خان الذهاب بنفسه لجلب جزية الشيخ سليمان، فدخل تلك السنة، على رأس جيش كبير، إلى مناطق نفوذه، دون ان يحقق أي انتصار يذكر، على غرار قائده الآمر كنيج خان، خلال مواجهته مير مهنا. كان سليمان يتنقل من جزيرة إلى أخرى، على متن سفنه مخلفا وراءه مدنا و قرى خالية كليا. و كان من الصعب على كريم خان الوصول إلى الجزر، و بعد ان بذل جهدا كبيرا، تمكن من الوصول إلى احداها و لكن بعد أن هجرها سليمان. و في نهاية المطاف انسحب إلى غربي شط العرب، في ظل حكومة البصرة.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۱۹۴

أبلغ كريم خان حكومة هذه المدينة انه من الأفضل لها مد يد العون له، و القضاء على قوات الشيخ سليمان. فوعده الحاكم بتلبية طلبه، رغم انه كان يحتج دوما بانتظاره وصول السفن و الجيوش من بغداد. مما لا شك فيه ان سليمان نجح في استمالة حكومة البصرة و رشوتها؛ أو لعلها كانت تفتقر للمال اللازم لشن الحرب عليه. و لما لاحظ الفرس ان الاتراك لا يسعون لمساعدته، سحبوا جيوشهم، تاركين للعرب عناء استرجاع مناطقهم.

بعد ان أقدم كريم خان هذه السنة على طرد متمردين من مناطق نفوذهم سمح لهما بالعودة اليها. علما انها في حالة يرثى لها، اذ ترح عنها اهلها. و توقفت الاعمال التجارية فيها. و بعد ان تركت كريم خان حامية من الجند في مدن الشيخ سليمان، اضطر لتزويدها بالمؤن و الذخائر اللازمة لمتابعة هذه الحرب المستديمة و التي لن يجني منها شيئا. و لا شك ان سليمان دفع مبلغا كبيرا للفرس، حتى لا يلحقوا به ضررا لا يعوض.

حرب بين أهل البصرة و العرب

ادعى الأتراك انهم قادرون على استعادة الاراضي التي سلبها منهم الشيخ سليمان، و على تدمير جيوشه كلها، فشنوا عليه هجوما بالاتفاق مع كريم خان؛ و لكن عقائدهم الدينية، تفرض عليهم تقديم العون للعربي المضطهد، و ايوائه هو و جيوشه، في ارضهم. و لكن سليمان رفض الانسحاب من اراضي البصرة، و فضل ان ينتظر جني التمر، فأصدر باشا بغداد الامر لسكان البصرة، بإعلان الحرب على هذا العربي الخائن، و الاستيلاء على مناطق نفوذه. كان الحاكم يملك فوجا من الخدم، و فوجين من المشاة (براتولي و تافنشكي)، و لكنه ارتأى ان يجند مجموعة أخرى من الرجال، قبل بدء المعارك؛ بعبارة أخرى جمع الحاكم أربعة أو خمسة الاف رجل، ليهاجم سليمان المقيم في دواسر، الواقعة غربي شط العرب، برفقة ۱۴ أو ۱۸ رجلا. (يرجى مراجعة اللوحة XL).

عند خروجهم من المدينة، كان الجند يظهرون شجاعة بالغة، و لكنهم بذلوا جهدا بالغا ليقطعوا عشرة أميال أو اثني عشر ميلا، علما ان الحاكم كان يبعد عن جيوشه حوالي الفرسخين. كان اسطول القائد باشا، يتألف من عشر سفن حربية، و مراكب صغيرة اخرى لنقل الجنود و المؤن.

و كان الأتراك يعتمدون على مركب تجاري انكليزي، اعاره لهم المستشار الحالي، و على سفينتين حربيتين يقودهما ربانان انكليزيان. حطت الفرق الامامية رحالها على الضفة الغربية لشط العرب، قبالة الرأس الشمالي لجزيرة محرزي، و ألقت بعض سفن الاسطول مراسيها على شواطىء الجزيرة نفسها، علما ان سفن العدو الحربية كانت راسية قرب رأس الجزيرة المذكورة. كان الحاكم قد نصب خيامه على بعد فرسخين من المدينة، بينما ألقى القائد باشا المرساة على مقربة منه. لما

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۱۹۵

كان الأتراك يفتخرون بأسطولهم البحري و فرق المشاة التابعة لهم، ناموا في الليلة الاولى ملء جفونهم، و لكن عندما دقت الساعة منتصف الليلة، تسللت سفن سليمان إلى وسط اسطول القائد باشا فاستيقظ الاتراك مذعورين، و غادروا سفنهم بسرعة البرق. استنفرت قوى الحاكم في المخيم، دون ان تتاح لها فرصة الاستعداد للمواجهة، اذ انسحبت سفن سليمان، و أخذت معها المراكب الحربية الثلاث. في اليوم التالي اجتازت هذه السفن الاسطول التركي، و نهبت القرى المجاورة للبصرة، و استولت على بعض المراكب الصغيرة، و لكن سليمان كان يتردد في الذهاب بعيدا في حربه مع البصريين، فعقد اتفاقا معهم يقضي بأن يدفع لهم مبلغا كبيرا من المال، و عادت على اثره الجيوش إلى البصرة، بعد مرور ۱۸ أو ۲۰ يوما على رحيلها عنها.

استنادا إلى سياسة الوكيل الانكليزي، لن يسيء الشيخ سليمان الظن بأهل أمته، علما انه أعار البصريين احدى سفنه، و أرسل لهم عددا من رجاله ليقودوا مراكبهم الصغيرة.

و في المقابل، يقول سليمان ان الانكليز و الاتراك هددوا سلامته و حاولوا شن هجوم عليه، و انه تصالح مع الأتراك و ليس مع الانكليز، الذين لم يأت على ذكرهم في الاتفاق الذي وقعه معهم.

ارسل الوكيل يخته الصغير من الخرج إلى الشيخ سليمان، دون ان يتعرض له رجال سليمان، و لكن في منتصف شهر تموز/ يوليو، وصلت سفينة من مدارس إلى الشط، و شاهد الربان مراكب صغيرة كثيرة تجتاز النهر و لم يخطر في باله انها تابعة للعدو. لاحظ رجال سليمان ان الانكليز ليسوا مستعدين للمواجهة، فهجموا على السفينة و وضعوا يدهم عليها. قبل ان يتمكن الربان من مغادرة حجرته .

كانت السفينة الانكليزية، التي رافقت اليخت من الخرج قد بلغت مصب النهر، و صادف رجال الشيخ سليمان، الذين ارادوا نقل السفينة إلى مرفأ قبان على الساعد الشرقي، اليخت الذي يسبق السفينة، فاستولوا عليه ايضا. و لما شاهد الربان الثالث هذين المركبين الانكليزيين مصحوبين بالسفن الحربية، خطر له انهما وقعا في الاسر، ففضل العودة إلى الخليج الفارسي، حيث يستطيع التحكم بمركبه بصورة افضل، و لكن لسوء حظه وقع على الرصيف الذي يطل على المصب فانتظر العرب فترة طويلة حتى ينخفض مستوى المياه، و ينقضوا على السفينة، و يسجنوا البحارة، و ينقلوا الاسطول كله إلى قبان. لم يتوقع الوكيل الانكليزي ان يقدم سليمان على هذا التصرف. فأجرى مفاوضات طويلة لاستعادة هذه السفن، و في نهاية المطاف وضع نص اتفاق رفض سليمان التوقيع عليه، إلا بعد موافقة حكومة بومباي عليه. و في هذه الاثناء أرسل ربابنة السفن إلى البصرة، بعد مضي ثلاثة أسابيع على احتجازهم، أما البحارة فأطلق سراحهم لاحقا.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۱۹۶

يروى الانكليز قصصا عديدة تثبت جهل العرب للعادات و التقاليد الاوروبية، و منها القصة التالية:

لاحظ ضابط من ضباط سليمان ان أحد الربابنة ينظر إلى ساعته. فطلب منه أن يريه هذه الآلة الغريبة، و لما لاحظ ان شيئا ما يتحرك في داخلها، وضعها في دلو ماء ليغرق هذا الحيوان. و بعد ان ادرك ان الساعة لا تزال تعمل، رماها أرضا. فراحت تتفكك قطعها كلها، فخاف العربي منها و رماها في الماء.

بعد ظهر ۲۴ آب/ أغسطس، شاهدنا ثماني سفن حربية تابعة للشيخ سليمان، تجتاز النهر.

فوضعت المدينة في حالة تأهب. و لما كان الحاكم يخشى ان يرسى العرب السفن الحربية امام منزل القائد باشا، أو ان ينزلوا جيوشهم في المدينة، انتقل ليلا برفقة رجاله إلى مناوى. في اليوم التالي، عملنا ان رجال سليمان نهبوا قريتين صغيرتين، تابعتين لشيخ قبيلة المنتفق، و أضرموا النار فيها؛ كان هؤلاء العرب يقيمون حاليا بين البصرة و عرجة، و هم يدفعون حاليا الجزية لباشا بغداد، و يعيشون بسلام مع البصريين. أظهر عبد الله، شيخ القبيلة الحالي، استياءه من تصرف سليمان، و استعد للانقضاض على بلاده. فدعى الحاكم للمشاركة في حملته هذه، و قبل ان يصله رد الحكومة التركية، تمركزت جيوشه امام المدينة، و كان بعض العرب يعبرون النهر في زوارق صغيرة، برفقة نسائهم و اولادهم، بينما يمر البعض الاخر امام المدينة على ظهور الجمال، حاملين اكياسا فارغة، و متوجهين نحو بستان النخيل الواقع على الطرف الجنوبي، من البصرة.

عاد سليمان برفقة سفنه الحربية إلى المدينة، بينما تراجع الحاكم، إلى مناوى، و لكن سليمان لم يكن ينوي انزال جيوشه حيث يتوقع ان يلقى معارضة، فبدأ يجمع التمر من القرى المجاورة، إلى ان بلغ اقصى الجنوب؛ في المقابل، كان عرب قبيلة المنتفق يجمعون التمر من الجنوب إلى الشمال، في البصرة. في ۱۰ تشرين الاول/ أكتوبر، تابع عرب قبيلة كعب الطريق، بينما عاد عرب المنتفق إلى ديارهم، فلحق بهم البصريون، ليجمعوا التمر الذي تركه جيرانهم. فبدا لنا واضحا ان الشيخين عبد الله و سليمان قد اتفقا، بين بعضهما، على جمع تمر الرعايا الأتراك، رغم ان عرب قبيلة المنتفق أرادوا ان يثبتوا صداقتهم للبصريين و كان يصل يوميا إلى المدينة اناس يتحدثون عن المناوشات التي وقعت بينهم و بين عرب كعب، لمنعهم من نهب بساتين النخيل، حتى ان الشيخ عبد الله ارسل إلى الحاكم رأسين كان سكان البلدة يفتخران بهما كثيرا. لم يتجرأ أهل المدينة على التعبير عن رأيهم في الحرب، فهم يعتقدون ان العرب اقتطعوا رأسي رجلين مريضين. في هذه الأثناء، كانت الحكومة التركية راضية كل الرضى عن النجاح الذي حقق، لأنها كانت تخشى ان تهاجمها قبيلة المنتفق من جهة و قبيلة كعب من جهة أخرى. في نهاية الامر تقاتل عربي من المنتفق مع جندي من جنود الحاكم وارداه قتيلا،

فأبى السكان ان يقبلوا بهذه الاهانة فى عقر

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۱۹۷

دارهم، فتجمعت الفرق العسكرية كلها كافة، و تعاونت فى ما بينها لطرد العرب من المدينة.

يدفع الاوروبيون الذين يمارسون التجارة فى البصرة ثلاثة بالمئة من رسم المرور على البضائع التى يستوردونها من الهند، أما تجار الدول الشرقية فيدفعون ۷۰ بالمئة علاوة عن الضرائب التى يدفعونها لضباط الجمرك على بضائعهم. و هذا يعنى ان الحكومة خسرت الكثير من المال نظرا لعدم وصول هاتين السفينتين القادمتين من الهند، فبذلت قصارى جهدها لإرغام سليمان على اعادتهما لها. فتقدم سيد من أعيان بغداد، قبض منذ بضعة أشهر ۶۰۰ ريال من سليمان ليتوسط له امام الباشا، ليلعب دور السفير. فوصل إلى البصرة فى اواسط شهر تشرين الاول/ أكتوبر و تابع رحلته دون توقف باتجاه قبان. لكن سليمان ادعى عدم معرفته به. و لما ذكره السيد بالخدمة التى اداها له، و بالمبلغ الذى قبضه منه، رفض العباءة الثمينة التى ارسلها له الباشا، تعبيرا عن سلامة نيته. و قال ان العباءة تليق بالشيخ العربى اكثر من الخادم التركى، خاصة ان كان مرسلها شخص يعمل فى خدمة السلطان. بعبارة أخرى، كان استقبال سليمان للسيد سيئا للغاية؛ إلى حد ان هذا الاخير اضطر للعودة على الفور إلى البصرة. فى ۲۶ تشرين الاول/ أكتوبر وصل سفير آخر للباشا، و يدعى عبد الله بك، و هو عربى الاصل، كريم النسب، يعمل فى خدمة باشا بغداد، و يحبه العرب أجمعون.

فى بداية الامر، بعث رسولا- إلى قبان ليعلم سليمان بوصوله، و فى ۲۸ منه، انطلق برفقة الشيخ درويش، أحد أعيان مدينة البصرة، فاستقبلهما الشيخ سليمان بكل حفاوة، دون ان ينالا منه أكثر من الاطراء.

لما كان الباشا قد عظم من شأن سليمان، بإرساله ضابطين كريمى النسب لمقابلته، طلب من مستشاره الخاص ان يرافقهما إلى بغداد على أمل ان يتفاوض مع سيدهم للتوصل إلى اتفاق. و اظن ان هذا الامر يعد اهانة كبيرة للباشا الذى يحكم بلدا يفوق كافة الممالك الاوروبية مساحة، هذه هى نقاط ضعف الحكومة التركية فى المقاطعات النائية.

عم الحزن البصرة هذه السنة، ففى فصل الخريف كانت تستقبل عادة حوالى ۵۰ مركبا من مرافىء عمان كافة، محملة كلها بالبن من المخا و الحديدة. و أرغمت السفن الاولى على دفع رسوم مرور باهظة للشيخ سليمان، كى يسمح لها بمتابعة رحلتها إلى البصرة، كما و انها ارغمت على شراء التمر فى طريق العودة. و عندما بلغ خبر الاحداث التى وقعت على شط العرب مسامع سكان مسقط، افرغت المراكب الصغيرة البن، الذى حمل فى سفينة حربية تابعة لاسطول الامام.

و رغم انها تمكنت من الوصول بسلام إلى بوشهر، لم تجرؤ على المضى فى رحلتها. فى السنة التالية، علمت ان السفينة المذكورة افرغت حمولتها كلها فى احد مخازن الخرج، لتقع بعدها اسيرة مير مهنا.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۱۹۸

الطرق المؤدية من البصرة إلى حلب عبر الصحراء

ان اقصر طريق من البصرة إلى حلب تمر فى الصحراء، غير اننا نصادف فى الطريق قبائل عربية كثيرة، تدعى كل منها السيادة، و الحق فى المطالبة بهدايا من الرحالة؛ لهذا السبب لا يجتاز احد هذه الطريق الا برفقة قافلة كبيرة. خلال اقامتى فى البصرة، كانت الاعمال التجارية ضعيفة للغاية، و عدد التجار الذين يسافرون فى القوافل ضئيلا للغاية. لذلك اضطررت لسلوك طريق آخر. و لما اتيحت لى فرصة التعرف على بدوى قطع عدة مرات الصحراء من البصرة إلى حلب، سأذكر لكم المناطق الواقعة على هذه الطريق، كما سمعتها منه.

يبدأ الطريق بمنطقة زبير، كويبده شكره، الخفة، القصير (قصر متداع) وادى ابو المربس عيون صيد، و هى عبارة عن بركة بنتها زوجة احد الخلفاء، الغضارى، جرتمى، القايم أو الالتلة، رهامة، فى جوار مشهد على، الطقطقانة، أو الحباضة، الحسين، الاخيضر (حصن قديم تحدثت عنه سابقا) رأس العين، تمبل، الكبسة، عقلة، حوران، تغب الجاموس، المانغى، الرتقة، البردان، رشبا، (حصن قديم على الفرات) جب غنم، الحمض، جبل بشير، العزمة، الطيبه، (دمرت القرية التى تحمل هذا الاسم منذ ۲۰ أو ۳۰ سنة)، قصر الشوان، قاع، ابو الفياض، عنز الروثة، صهاريج، جبل شيبة، لحاس، حقلة عين سفيرة، أو عين ذهب، حلب .

و إذا كان هذا الطريق محفوفا بالمخاطر سلكت القوافل طريقا مختلفا، على ان تتزود بكمية كافية من المياه، فتعبر بعد مغادرتها البصرة، الزبير، و كويبدة، و شكرة، و الخفة، و الكوس، و سلمان و الأثله، و قطرى، و البذى، و حجرة، محبوز و القعر، و صواب، و الصرايم، و الضخه، و بير قديم، و ابو الفياض و الحمام، و جبل الاحص و حقلة و سفيرة و حلب فى طريقها من بغداد إلى حلب، تعبر القوافل فى غقرقوق، و الهيس، و الفوجه، و الوحلة، و ام الروس، صبنديج، هيت، المعميرة، عين الارنب و عقلة حوران. رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر ؛ ج۲ ؛ ص۱۹۹

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۱۹۹

مما لا شك فيه ان الرحلة فى الصحراء ليست مزعجة أو محفوفة بالمخاطر، خاصة ان كان السلام يسود بين القبائل العربية، أو بينها و بين الاتراك، و ان كان قائد القافلة رجلا شريفا و ان كان المسافر يفهم لغة البلاد، و يحبذ طريقة عيش الشرقيين. لاحظ القارىء، فى الصفحات السابقة، ان الحروب تنشب بسرعة فى هذه البلاد، و تنتهى احيانا بالسرعة نفسها. فحين نغادر احدى المدن، يخطر لنا ان رحلتنا آمنة تماما، و غالبا ما نصادف فى منتصف الطريق اعداء على خلاف مع الشيوخ المقيمين فى الجوار أو مع الباشاوات الاتراك، و يتوجب حينها على قائد القافلة ان يتفق مع العرب بطريقة ملائمة حتى نمر بسلام. مما لا شك فيه ان أكثر الرحلات أمانا هى تلك التى نقوم بها مع عرب بنى كلب، الذين ينقلون كل سنة عددا كبيرا من الجمال إلى حلب، بهدف بيعها.

كما و ان السفر برفقة قوافل التجار، التى يترأسها أحد اعيان البصرة، ليس محفوفا بالمخاطر، فهذا الاخير سافر كثيرا فى صباه، و تعرف على شيوخ القبائل كافة، مما ساعده على تأمين الحماية الكاملة للمسافرين. أما القوافل التى يقودها احد الاتراك، و خاصة تلك التى تذهب من بغداد إلى دمشق و الى مكة فهى مكلفة و شديدة الخطورة. غالبا ما يبيع الباشا منصب قائد القافلة إلى الشخص الذى يدفع اكثر، ففى تلك السنة، دفع احدهم ۴۰ ألف ريال لتسلم قيادة قافلة حجاج بلاد فارس، الذين يبغون السفر من بغداد إلى دمشق بعد مرور ثلاثة اسابيع، دفع شخص آخر عشرة آلاف ريال، و حظى بالمنصب المذكور. يتوجب على هذا الشخص ان يجند عددا كبيرا من الرجال، و تقديم الهدايا للقبائل العربية، التى يصادفها فى طريقه، اما المسافرون، فيشاركون فى هذه الاعباء، علاوة عن دفعهم مبلغا محترما لقائد القافلة. و يروى ان بعض قادة القوافل، يتفقون مع العرب ليهاجموا القافلة و ينهبوها. و أكد لى كبار التجار ان قادة القوافل الاتراك يتسببون فى معظم الاحيان بتعرض القوافل للنهب، على يد العرب، و قد اعطيت مثالا على هذه الاعمال فى كتاب وصف شبه الجزيرة العربية. أخبرنى شخص سافر فى قافلة مماثلة، ان التجار اجبروا على دفع مبلغ كبير من المال، قبل انطلاق القافلة، و تعهد القائد فى المقابل، بأن يوصلهم إلى وجهتهم بسلام.

غير انه شاهد بعض العرب من بعيد، و اسرع للقائهم مع عدد من رجاله فى هذه الاثناء، كان يجدر بنا الانتظار دون ان يتجرأ احد على اطلاق النار على العرب، رغم انهم كانوا يقتربون من القافلة و يهددون بنهبها. دامت المناقشات بين القائد و الشيخ وقتا طويلا، فكانا يتبادلان التهديد بحمل السلاح، و كافة انواع الشتائم و فى نهاية المطاف، توصلا إلى اتفاق فى ما بينهما، و اجبر قائد القافلة كل مسافر على دفع مبلغ من المال لمتابعة الرحلة. و الجدير ذكره ان الرحلة فى الصحراء شديدة الخطورة على اهل الشيعة، اذ تفرض عليهم ضريبة أكبر من اهل السنة، و يسىء الملحدون معاملتهم إلى اقصى حد.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۰۰

أتى بعض المسافرين على ذكر مركز الحمام الذى كان يستعمل قديما فى البلاد الشرقية .

و هى تكثر فى مدن مختلفة، و لكن من الصعب ان نصدق اننا نستطيع ارسال الحمام إلى كافة المناطق شأنها شأن اى رسول آخر؛ و لما كانت هذه المنطقة تفتقر إلى مراكز بريد محددة. درّب التجار الحمام لإبلاغ عائلاتهم بعودتهم سالمين من سفرهم. قابلت فى البصرة تاجرا من بغداد، اعتاد على استعمال مراكز الحمام هذه فى رحلاته كافة. فقد ترعرع الحمام فى منزله و اعتاد على تناول طعامه فى مكان محدد، كما و انه كان يتنقل على حريته، من مكان إلى آخر و يتعرف على المناطق المجاورة. فى رحلته الاولى، اصطحبه معه إلى الحلّة، و فى الثانية إلى لملم، و فى الثالثة إلى ارج، و اخيرا إلى البصرة، حيث ارسله إلى منزله بعد ان علق رسالة صغيرة بقوائمه. و الجدير ذكره ان الحمام الذى يترك صغاره فى المنزل يعود مباشرة اليه. و يزعم ان افضل نوع حمام هو البغدادى، و لكننى لا- أشك ان الحمام الاوروبى اهل للتدرب على هذه المهمة. و قد قيل لى ان احد الايطاليين كان يستعملها ليعرف الأرقام التى

استعملها مواطنوه في اليانصيب. و ما لا شك فيه اننا لا نحتاج مطلقا لهذا النوع من الحمام، لأننا نستطيع بعث الرسائل إلى أى بقعة فى الارض، و بأقل كلفة ممكنة.

يقول الكسندر هاملتون انه تكثر في منطقة البصرة شرقى و غربى الفرات، الغربان السوداء و البيضاء التى تتدافع و تتقاتل. و قد شاهدت بأم عينى غربانا سوداء و رمادية على ضفتى النهر، و لكن العرب لا يعتقدون ابدا ان الغربان السوداء و البيضاء قد اتخذت من الفرات حدا لها.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۰۱

الرحلة من البصرة إلى لملوم و مشهد علي، و مشهد الحسين، و الحلة، و بغداد

للانتقال من البصرة إلى بعداد، هناك طريقان، الاول عبر دجلة و الثانى عبر الفرات، و لا يستخدم المسافرون الطريق الاول عادة، لطول المسافة بسبب تعرجات النهر الكثيرة، فى حين ان الفرات لا تعرجات فيه، فضلا عن اننا نصل على هذا النهر حتى الحلّة و منها ينتقل المسافر مباشرة إلى بغداد برا، مما يجعل، الدرب أقصر، و نجد على الفرات محطات أو منازل، فحين يودّ المسافر أن يرتاح يظهر إذن الحاكم الذى يحمله، و يمكنه أن يتفق مع أناس فى محطات مختلفة ليسحبوا مركبه، بأسعار معقولة، فيصل إلى الحلّة بهذه الطريقة فى عشرة أيام على الأكثر.

و يجب أن يتمتع المسافر بصحة جيدة ليقوم برحلة كهذه فى الشتاء، و بما أن قطاع الطرق يكثرون على هذا الدرب، لا يستخدم هذه المحطات إلا رجال الحكومة الذين لا يتجرأ العرب على المساس بهم، فضلا عن أناس على عجلة من أمرهم و لا يحملون معهم سوى حاجاتهم الضرورية. أما أنا فانتظرت وصول مركب صغير ينقل بضائع إلى الحلّة و استأجرت المقصورة لنفسى و غرفة صغيرة لخادمى.

حين صعدت على متن المركب، وجدت فى الغرفة المذكورة، ضابطا من الانشكاريين يعانى سكرات الموت و يريد الوصول إلى الحلّة، و هى رفقة لم أكن أتمناها فى رحلتى سيما و أنى لا أعرف المرض الذى يعانى منه. لكن صاحب المركب كان قد قبض ماله سلفا، و أقنع خادمى، و هو مسلم من البصرة، بالتنازل عن مكانه و البقاء على سطح المركب، و كى لا أكون أقل انسانية تجاه هذا البائس من المسلمين الذين كانوا ليكرهوننى لو طردته، سررت لقرار خادمى و قررت أن أسلم امرى للقدر.

كانت الرحلة شاقة بالنسبة لجارى المريض، و بما أنى اعتدت العيش بين العرب، لم أستأ من القرار الذى اتخذته بشأن السفر على متن هذا المركب . استغرقت الرحلة ۲۱ يوما أىّ من ۲۸

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۰۲

تشرين الأول/ أكتوبر إلى ۱۹ كانون الأول/ ديسمبر حيث وصلنا لملوم و غادرت المركب، و هى رحلة طويلة لكنها اتاحت لى فرصة القيام بدراسات فلكية عدة، ساعدنى خلالها المسافرون الاخرون اذ تحلقوا حولى بثيابهم الطويلة لرد الهواء حين كنت أضع ساعتى الشمسية على الشاطىء.

سجلت ارتفاع القطب فى أماكن عدة مررت بها و هى:

فى البصرة كما أوردت سابقا ۳۰ ۳۰

فى الاول من كانون الأول/ ديسمبر قرب المنصورى ۳۰ ۵۲

فى الثانى من كانون الثانى/ يناير فى أبادا ۳۰ ۵۵

فى الرابع من كانون الثانى/ يناير فى كعد ۳۰ ۵۸

فى السادس منه فى أرجة ۳۰ ۵۹

فى ۱۲ كانون الثانى/ يناير فى غريم ۳۱ ۱۷

فى ۱۶ كانون الثانى/ يناير قرب السماوة ۳۱ ۱۹

فى ۱۸ كانون الثانى/ يناير فى منطقة أبو حروق(Abu Haruk) ۳۱ ۲۸

فى ۱۹ كانون الثانى/ يناير قرب لملوم ۳۱ ۴۳

ثم فى الحلّة ۳۲ ۲۸

و بما أن الفرات لا يجرى فى هذه المنطقة مباشرة من الشمال إلى الجنوب انما من الغرب إلى الشرق، يصعب تحديد طول المسافة لا سيما حين نسافر بعكس التيار حيث يدفعنا الجزر غالبا إلى الامام، و المدّ أو الرياح المعاكسة إلى الخلف . زد على ذلك، أننا اضطررنا إلى سحب المركب لأن منسوب المياه منخفض للغاية فلمسنا القاع، فلم ير البحارة المساكين بدا من النزول إلى المياه و العمل جاهدين لتخليص المركب. و فى أحدى المناطق التابعة لقبيلة بنى الحكم(Hackkem) ، وضع السكان سدا لتحويل المياه لرىّ مزروعاتهم فلم نجد سوى ممرّ ضيّق للغاية يعظم فيه التيار فأمضينا نصف نهار حتى تمكنا من المرور بمركبنا. و لم أتمكن من تحديد المسافة بدقة إلا استنادا

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۰۴

إلى المحطات التى نجد فيها اناسا يسحبون المراكب و هى ۱۲ محطة من البصرة إلى القرنة(Korne) ، و ۷ من القرنة إلى المنصورى، و ۱۲ من المنصورى إلى كعد، و ۲ من كعد إلى العرجا، و ۱۴ من العرجا إلى السماوة، و ۱۸ من السماوة إلى لملوم، و ۷ من لملوم إلى الديوانية، و ۱۴ من الديوانية(Diwanie) إلى الحلّة، و استنادا إلى ملاحظاتى، تبعد المحطة عن الاخرى دقيقتين و نصف إلى ۳ دقائق أى حوالى ۳/ ۴ الميل، و انطلاقا من هذا و من تسجيلى لارتفاع القطب، وضعت خرائط خط السير على اللوحتين XL و XLI التى يمكن للقارىء أن يميّز عليها مجرى الفرات من الحلّة و حتى الخليج الفارسى.

نجد بين البصرة و بغداد العديد من القبائل العربية، تدفع كلها ضرائب للباشا، أما أولها فقبيلة المنتفق(Montefik) التى ذكرتها سابقا فى وصفى لشبه الجزيرة العربية. و بما أن القرى و المدن الصغيرة الواقعة إلى غرب شط العرب و الفرات من البصرة و حتى العرجا ملكت لها فضلا عن تلك الواقعة إلى شرق هذا النهر انطلاقا من القرنة فى الشمال، تقيم القبيلة لأشهر فى نهر عنتر، و تهيم فى الصحراء مع قطعانها قسما كبيرا من السنة، حيث تعيش فى الخيام كغيرها من البدو. و غالبا ما جعلت هذه القبيلة الدرب على الفرات و فى الصحراء غير آمن، حتى انها حاصرت بغداد أحيانا، لكنها تنسحب إلى عمق الصحراء حيث لا يتجرأون على ملاحقتها ما أن تعلم أن الباشا أرسل الجيش لمقاتلها.

و لم يعاقبوا يوما و عاقبهم سليمان كخيا(Kichja) الذى أصبح فى ما بعد باشا بغداد، و الذى اعتاد و عمه احمد باشا الشهير اصطياد العرب، اذا صحّ التعبير، أىّ انهما يهاجمان القبائل بغتة. لذا كانت الطرقات آمنة أثناء حكمهما. أسر أحمد باشا يوما الشيخ سعدون أخ الشيخ عبد الله، الحاكم الحالى، لكنه عاد و أطلق سراحه مع تنبيهه بوجوب دفع الضرائب و الابتعاد عن المشاكل. و بعد فترة وجيزة، ثار ثانية، فأرسل احمد عندها صهره سليمان كخيا لقتاله مع بعض الرجال، فشن هذا الاخير هجوما مفاجئا عليه و أسره. و لا زال العرب يمدحون العنفوان الذى أظهره شيخهم فى هذا الموقف، اذ دافع عن نفسه طويلا برمحه ثم بسيفه و بعدها بالدبوس (سلاح يشبه المطرقة يحمله العرب فى سرجهم) و اخيرا بلجام جواده و ركابه، لكن من دون جدوى. و كان سليمان قد تلقى الامر بإعادة سعدون اسيرا إلى بغداد، و بصفته منتصرا طالب المغلوب ببعض الاحترام و الخضوع، لكن العربى الابى، المولود حرا رفض الخضوع، و أحصى سلالة اسلافه و سأل الكخيا كيف يمكن لشخص مثله لا يعرف اباه (أنه جورجى، بيع فى صباه كعبد) أن يطلب من نبيل عربى ان يبذل نفسه؟ و أغضب هذا الكلام سليمان فقطع رأس الشيخ و أرسله للباشا كدليل انتصاره، و رأى المشايخ الآخرون ان من الفطنة الخضوع له. و فى يوم من الايام، قصد حوالى ۱۸ شيخا من هذه

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۰۵

القبيلة الباشا ظنا منهم انهم تصالحوا معه، و رأى هذا الاخير ان الفرصة لن تتكرر فأمر بقطع رؤوسهم جميعا ، و هكذا ضعف نفوذ قبيلة المنتفق و لم تتجرأ حتى اليوم على العصيان. و يقال إن أحمد باشا الذى يقدر القيمة الشخصية حتى لأعدائه غضب من تصرف صهره، لكن غالبية الاتراك تعتبر حملة سليمان هذه دليلا على شجاعتهم فى حين أن العرب ينظرون اليها كعمل جبان و وحشى.

و تسيطر قبيلة بنو لام على دجلة، و تسبب متاعب عدة لباشاوات بغداد. حين أضحى أحمد باشا على بغداد للمرة الاولى، شنّ حملات عدة على هؤلاء العرب لكنه لم يتمكن من إلقاء القبض عليهم، لكثرة جواسيسهم فى المدينة فما أن يعلموا بأن الجيش سيخرج حتى يتراجعوا إلى مناطق نائية. و عندما وصل إلى الحكم للمرة الثانية، ضرب و رجاله الخيام امام المدينة، و قام بتحضيرات كثيرة كما لو

أنه يستعد لدخول المدينة في أبهى حلّة، و بقى عرب بنى لام، الذين علموا بالأمر، آمنين، ظنّا منهم أنه لن يهاجم طالما لم يسيئوا اليه أولا أو أنه سيدخل المدينة أولا، لكنه رفع الخيام في الليل و هاجمهم بسرعة حتى أنهم لم يعرفوا بمخططه. و كسب في هذا الهجوم عدة غنائم من إبل و جياد و ابقار و خراف، و قطع رؤوس المشايخ فأضعف القبيلة التي لم تعد تفكر بالعصيان.

و يلجم الباشاوات العرب المقيمين في مناطق حكمهم بهذه الوسائل، و يمكننا أن نتصور بسهولة أن البدو في الصحراء لا يهتمون قط بحكم السلطان و الباشاوات.

و يطلق على المنتفق و بنى لام و القبائل العربية الحقيقية الاخرى اسم أهل البعر(Ahhl el Baar) أو البدو، و يعملون في تربية الجمال و تدريبها، و يقيمون معظم الوقت في الخيام و يتركون أمر الزراعة للفلاحين، و يأتي السادة العرب في أوقات معينة من السنة لجمع الضرائب مستخدمين العنف و القسوة احيانا. و تسمى قبيلة كعب المقيمة على مصب النهر أى على شط العرب و غيرها من القبائل التي تقيم دائما في القرى و المدن، العرب الحضر.

و نصادف عربا آخرين، يعملون في تربية الجياد و الابقار و الجواميس، فضلا عن الزراعة و ينقلون أكواخهم الحقيرة من مكان إلى آخر كما يفعل البدو مع خيامهم، و يطلق على هؤلاء اسم المعدان(Moadan) . و تقيم في شرق الفرات قبيلتان من هذه القبائل، و هما بنى حاكم(Beni Hakem) و خزعل و تتبعان المذهب الشيعي. أما القبيلة الاولى فصغيرة العدد و لا تسبب مشاكل للاتراك، لكن

قبيلة خزعل التي يقيم شيخها في لملوم، فتتصرف احيانا بفظاظة و تسبب المتاعب للباشاوات، و قد هزمت قوات على باشا منذ سنوات، حين قتلت الباشا نفسه أمسى أبناؤها متغطرسين، فمنعوا أى مركب من المرور على الفرات قبل ان يدفع جزية. و قبيل وصولي، لقّن عمر باشا هذه القبيلة درسا حيث قطع رؤوس مشايخها، و عيّن شيخا جديدا حاكما لها، لكن الحاكم السابق الفار و اسمه حمود، عاد بعد انسحاب الاتراك، و بما ان الباشا لم يشأ القيام بحملة أخرى، سلمّه الحكم من جديد. و لا يتجرأ هؤلاء العرب حاليا على ايقاف المراكب، لكن الاتراك الذى يبحرون على الفرات يضطرون إلى سماع الشيعة ينعتونهم بالملحدين و يعلنون كرههم للخلفاء الثلاثة الاوائل أى أبى بكر و عمر و عثمان.

إن ضفة الفرات منخفضة جدا في المناطق الخاضعة لقبيلة خزعل، لا سيما في المنطقة المسماة ام الخنزير حيث يكثر الاسل و بالتالى الخنازير البرية، و لا بد أن للنهر سواعد عدة اذ لا يتعدى عرضه احيانا ۴۰ إلى ۵۰ قدما .

و نجد في شمال المناطق التابعة لهذه القبيلة، مرسى كبيرا يسمى حسكة، يحكمه آغا تابع لباشا بغداد يقيم في ديوانه، و يعتبر اكبر مرسى.

في نقطة حكم الباشا، يملك هذا الآغا فرقة كبيرة من الخيالة تساعده على السيطرة على العرب، لكننا لاحظنا آنفا أن هؤلاء لا يكترثون به أحيانا.

أما أهم المناطق التي نصادفها بين البصرة و لملوم فهي:

– مناوى، محل إقامة الباشا النقيب، و هي في البصرة كما ذكرت سابقا و اشرت إلى ذلك على اللوحةXXXIX . و يعتبر هذا المكان مميزا بالنسبة للمسافرين اذ يضطرون إلى دفع ضريبة للباشا.

و في الجهة الاخرى لشط العرب و قبالة مناوى، نجد قلعة مهدمة كليا و تعرف باسم كردلان.

– دير، قرية كبيرة جنوب الشط، و على بعد يوم من البصرة. و نجد هنا تلالا كبيرة هي عبارة عن بقايا مدينة شيّدها البرتغاليون استنادا إلى رأى رفاق رحلتي، لكن لم يبق من الابنية القديمة سوى منارة جميلة و هي الوحيدة التي نصادفها بين البصرة و الحلة (باستثناء القرنة).

– سويب، تقع إلى شمال الشط و على نهر ينبع في حويزة. و تدل الاثار الكبيرة على أنّ مدينة كبيرة كانت تقوم في هذا المكان في ما مضى. إن النهر الذى يصب في الشط عند نهر حاسر(Haser) هو نهر حواسيس(Choas Pis) الذى ذكره علماء الجغرافيا القدامى.

– القرنة، تقع عند ملتقى دجله و الفرات، و هي مدينة سيئة البناء، يحيط بها من جهة اليابسة سور مزدوج من الآجر، و هو بناء حديث، اذ علمت في البصرة ان الباشا علي و الباشا حسين شيّداه لصدّ الاتراك و الفرس.

و نجد هنا خمس فرق من الانكشاريين، أما التجارة في المدينة فمحدودة بالرغم من موقعها الجيد، لكن السفن التي تمرّ بها، تضطر إلى التوقف لتدفع ضريبة للانكشاريين. و لم اتمكن من قياس ارتفاع القطب في هذه القلعة، اذ سلمت ضابطا رفيع الشأن رسالة التوصية، فأظهر الكثير من اللياقة و دعاني إلى العشاء في منزله فلم أرفض دعوته. و حين علم بأني اريد التوجه إلى الضفة عند الثانية عشرة لقياس ارتفاع الهاجرة، اضطررت إلى جلب ساعتي الشمسية، التي أريته اياها لإسعاده، لكنه لم ينفك يطلب مني ان اسمح له بالنظر عبر المنظار المقرب، و تكاثرت الطلبات فأصبح عملي من دون جدوى.

– نهر عنتر و هو محل اقامة شيخ قبيلة المنتفق كما أشرت سابقا، و تدفع له السفن ضريبة في تحته(Tachte) حيث لا نجد سوى المنزل الذى يقيم فيه ضباط الجمارك. و منذ سنتين، كانت المراكب الصغيرة المحملة بالتمر تدفع مسلمين (نصف روبية) أما اليوم فتدفع ۵ روبيات.

– المنصورية و هي قرية كبيرة، تدفع رسوم المرور فيها لآغا انكشاريّي القرنة، لكن المركب القادم من البصرة في القرنة يكتفي بإبراز الوصل. و في قرية كوت أو كوت معمر تدفع الرسوم للباشا النقيب في البصرة. أما في العرجة فتدفع لآل صالح احدى ابرز عائلات قبيلة المنتفق. و كان هناك مركز لدفع الرسوم في غرام، لكن منذ أن فرغ المكان من سكانه، تجمع الرسوم في السماوة لآغا الحسكة و بالتالي للاتراك، لكن شيخ قبيلة خزعل يقبض هذه الرسوم حاليا.

و صادفت في جمارك العرجة و السماوة شيوخا و قحين، و إن جاؤوا بأنفسهم لرؤيتي، و لم يهتموا بجواز المرور الذى زودني به متسلم البصرة كما استاؤوا حين أردت اظهار فرمان السلطان الذى أحمله، فارتأيت أن ارضيهم بأى وسيلة كانت، فإن تشاجر مسيحي مع اناس من هذا النوع، و قال كلمة ما اعتبروها إهانة لهم، يجبرونه احيانا على دفع عشرة اضعاف ما يتوجب عليه، فضلا عن أنهم يسخرون منه. و تبنى المنازل في السماوة من الطين المجفف في الهواء الطلق و هي بالتالي سيئة البناء، لكنها تبدو قصورا مقارنة مع أكواخ الفلاحين في هذه المنطقة. و منذ سنوات، مات معظم سكان المدينة بسبب الطاعون الذى تفشى بينهم. و تكثر النمور و الاسود و بنات آوى في الصحراء قرب هذا المكان، كما نجد فيها الكثير من الملح.

و نصادف الكثير من القرى على ضفتي شط العرب و على ضفتي الفرات، من القرنة و من العرجة، و بعيدا عن النهر، بقيت هذه الارض الخصبة غير مزروعة لقلة السكان و الأفعية فيها، و تقوم

القرى بعيدا بعض الشيء عن النهر، و هي سيئة العمران مما يدل على أن المشايخ لا يتركون للسكان ما يكفيهم، و قد بنيت المنازل و الاكواخ من الاسل، باختصار، لم أر أكواخا بحقارة تلك الموجودة في هذه المنطقة التي انعمت عليها الطبيعة بالخصب و التي ذاع صيتها و اكتظت بالسكان في ما مضى. أما الأراضي الممتدة بين العرجة و السماوة فغير مزروعة أيضا، و لا تعتبر الاسماء الواردة على اللوحةXL أسماء قرى. تدعى المنطقة على ضفتي الفرات الجزيرة، و لعل السبب يعود إلى كثرة الافعية الموجودة و التي جعلت من البلاد في ما مضى مجموعة من الجزر.

و يتميز سكان قرى الفرات بمهارتهم في السباحة كسكان ضفاف النيل، كما يعرف عنهم أنهم لصوص بارعون، أما البحارة فمهملون، كما في مصر، و لا يحرسون أثناء الليل، لذا يستغل اللصوص الفرصة، و يصعدون على متن المركب ليلا، فإن وجدوا الركاب نياما جمعوا ما يجدون على ظهر المركب و قفزوا بما طالته ايديهم في الماء.

و في أحد الأيام، حاولوا الامر نفسه على مركبنا، لكن الانكشاري المريض فشّل محاولتهم، اذ لم يكن نائما، و في يوم آخر، جاؤوا في قوارب خفيفة و صغيرة من خلف مركبنا، و سرقوا لي حوضا للاغتسال و بعض الاشياء الاخرى التافهة، لكني استيقظت عندها فلم يتمكنوا من سرقة اشياء اخرى اذ اطلقت عيارا ناريا أرعبهم و جعلهم يقفزون من قواربهم إلى الماء.

و كان مستوى المياه بين العرجة و السماوة منخفضا للغاية حتى أن المركب لامس القاع عدة مرات، و بما أن الرياح و حركة المدّ و

الجزر عاكستنا اضطررنا إلى سحب المركب، و أوقفنا العرب مرارا. جلست على سطح المركب مسلحا، و قد اعتمرت عمامة الانكشارى المريض، و بقى بعض التجار من بغداد على مقربة منى و كأنهم ينتظرون أوامرى، و حين يسأل العرب عمن على متن المركب، اعتاد القبطان ان يجيب انه آغا من بغداد مع ستة شكدار(Tschokadars) . و لا أعلم إن كان العرب قد صدقوا هذا الادعاء، لكنهم التزموا حدود الادب و لم يطلبوا سوى بعض التمر الذى قدمته لهم عن طيب خاطر بصفتى الآغا. و منذ ثلاثة أسابيع، تم نهب مركب محمل بالتمر فى هذه المنطقة، و قتل المسافرون الذين رفضوا اعطاء ما يحملونه. و بعد ذلك، لامس مركب آخر القاع فأخذ العرب ينزلون حمولته، عندها أصبح المركب أخف فعام و أبحر القبطان كما أمر بقتل العربيين اللذين بقيا على متن مركبه و أرادا سلبه ما تبقى. و لن يلوم أى أوروبى المسافرين على فعلتهم، لكن عقلية العرب مختلفة و نظرتهم للأمور مغايرة، كانوا يعلمون أن على متن هذه المراكب أناس من القرنة و من السماوة، فطالبوا بالديّة من هاتين المدينتين، و ظننا أننا بهذا الادعاء سنرضيهم. و لو انى قتلت أو جرحت عربيا خلال هذه الرحلة، لطالب أخوه القبطان الذى بدوره سيطالبنى، و لكنت دفعت أكثر من المسلمين لأننى مسيحى أراق دم مسلم. نستنتج بالتالى ان الاسلحة النارية الجيدة ضرورية

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۰۹

للمسافر الاوروبى فى هذه البلاد ليثير ذعر العرب لا ليستخدمها فعليا.

فى ۱۹ كانون الأول/ ديسمبر، وصلنا لملوم، و هى قرية كبيرة يقيم فيها شيخ قبيلة خزعل، لكنه لا يعيش فى منزل أبهى من منازل رعاياه بل فى كوخ حقير من قصب. أما الضابط المريض الموجود امام غرفتى، فلم يتوفّه الله، و لم تتحسن صحته و كنت قد مللت رفقته فى هذه الرحلة، و علمت أن الدرب آمن نوعا ما عبر الرماحية إلى مشهد على، و هى مدينة قررت المرور بها من الحلّة، فقررت تركك المركب. و وعدت شيخا مسلما من بغداد بالسفر معى مجانا إلى مشهد على و مشهد الحسين، فأبدى استعدادا لمرافقتى، و نزولا عند رغبته و رغبة خادمى، و هما من أهل السنة إلى قرية بائسة على الضفة الاخرى للنهر تدعى ماشويرة(Mashwira) . حضّر لى الشيخ كوخا حقيرا بالكاد يتسع لثلاثة اشخاص، و لم يكن منزله افضل حالا أو أكبر لذا لم اشتكك منه، لكن الجياد التى وعدنى بها لن تصل فى اليوم التالى فاضطررت للبقاء ليلة أخرى عنده. و لم يعجبنى هذا الرجل لأنه ودىّ للغاية و لأنه تفحّص كل ما احمله معى بدقة، و ساورتنى الشكوك حوله، فقررنا القيام بحراسة المنزل كل بدوره، و تركنا القنديل مضاء طوال الليل، لكن خادمى لم يكن معتادا على السهر فنام، و لاحظ اللص ذلك، و فيما كان يسرق آلتى الطابعة، استيقظت و أثرت جلبة فسارع الشيخ و أظهر غضبا شديدا من تصرّف كهذا فى قريته. و ركض فى الحقول وراء اللص كما أرسل الفلاحين إلى نقاط أخرى لكن الجميع عاد خالى الوفاض، و لا أشك أبدا ان الشيخ و اللص واحد، لكن الفطنة تقتضى شكره على سعيه و تقديم هدية صغيرة له. و بما أنه لم يعد يأمل أن يفاجئنا أثناء نومنا، ثم تحضير الجياد للرحيل فى اليوم التالى.

و فى ۲۱ اجتزنا سبعة فراسخ و نصف أو حوالى خمسة أميال و نصف نحو الشمال الغربى حتى الرماحية. و لم أر على هذا الدرب أىّ مسجد لكن الكثير من القبب أو الصروح الصغيرة التى تعلو قبور الاولياء المزعومين، و يحيط بها ما يدل على أن بعض القرى كانت تقوم فى المكان. إن كافة الأراضى خصبة، لكن العديد من القنوات الصغيرة التى كانت تروى المنطقة جافة حاليا و قلما نصادف قرى فيها، لكن نرى قطعانا كبيرة من الغنم و الجياد. و قرب الرماحية، هناك قناة كبيرة تتلقى مياهها من الفرات يبعد عنها ميلا و نصف الميل، ثم تعود و تصب فيه قرب السماوة (راجع اللوحةXLI)، و كانت هذه القناة صالحة للملاحة منذ سنوات، لكن المياه لا تجرى فيها حاليا إلّا اذا بلغ منسوب المياه فى الفرات اعلى ارتفاع له، و ألفيتها أنا جافة تماما.

بنيت مدينة الرماحية فى سعفة، و تتألف من حوالى ۴۰۰ منزل، يحيط بها سور عال لكنه شيّد من الآجر غير المشوى كما فى البصرة و فى القرنة، و لا يعمل احد على تصليحه و صيانته فيمكن العبور من خلاله من جهات عدة. و نجد فى المدينة مسجدا عظيما و حماما مفتوحا جميلا للغاية،

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۱۰

و قد بنيت معظم المنازل من الآجر غير المشوى. يعيش السكان من الزراعة و من حدائق البلح، و يقال انهم أثرياء مقارنة على ما أظن مع فلاحى القرى المجاورة. و يجمع شيخ قبيلة خزعل رسم مرور فى الرماحية، فيبدو بالتالى إن الشيعة يسيطرون هنا.

أقمت فى الرماحية عند رجل سنىّ و قد سررنا بإقامتنا، و بقى مضيفى و هو إمام المسجد و بالتالى زميل لرفيقى فى غرفة مفتوحة من الامام، و لاحظت ان عادات المسلمين تختلف كليا عن عاداتنا.

كانت حماته تجلس امام المنزل، و امرأته تعمل على تحضير الطعام على مسافة منا، و اخبرته ان الاوروبى حين يزوّج ابنته لا يتلقى المال من الزوج، و إن كان الاب ثريا، يعطيه مبلغا من المال يسمح له بالعيش و زوجته عيشة لائقة. و أعجبت هذه العادة مضيفى، فسأل حماته اذا ما سمعت ما قلته، و أضاف: «لم تتصرفى معى بهذه الطريقة، يا أماه، و اجبرتنى على دفع المال قبل ان تعطينى ابنتك، الخ». و بعد أن استفاض الزوج على هذا المنوال، قالت الام: «آه يا بنى! كيف كنت سأعيش و ابنتى إن اعطيتك حقلى و ثمرى»؟ ثم أخبرته أنه لا يسمح للرجل بأن يتزوج اكثر من امرأة واحدة، تحت طائلة التعرض لعقوبة الموت، و أن أملاكه تعود لأولاده، فانبرت العجوز تقول:

«هل سمعت يا بنى ما قاله هذا السيد؟ لا بد أن العدالة تسود فى البلد الذى يتحدث عنه!» و تدخلت المرأة، التى بدت و كأنها لم تكن تسمع حديثا، فقالت: «آه يا زوجى، كيف يمكنك ان تطلب من أمى ان تمنحك منزلها. كنت لتعطيه لزوجاتك الاخريات فأنت تحبهن أكثر منى و أنا نادرا ما أراك». و تابعت المرأة و أمها حديثهما على المنوال نفسه، و أخيرا، سألت مضيفى عن عدد زوجاته، فأجابنى اربع، و لكن يكلّفنه الكثير، اذ لكل منهما منزلها و حديقتها حيث تعيش و اولادها، أما هو فلم يكن له منزل محدد، لأنه يجد عند كل منهن الطعام و المأوى و المبيت. و حين سألته إن كان يعيش بسلام اكبر مذ تزوج أربع نساء. فلم يصدقنى الجواب، شأنه فى ذلك شأن كافة المسلمين الذين يشيدون بتعدد الزوجات.

فى ۲۲ كانون الأول/ ديسمبر، قطعنا سبعة فراسخ أو حوالى خمسة أميال من الشمال الغربى نحو غرب مشهد على. و شاهدت على هذه الطريق العديد من الأقنية الجافة و القبب الصغيرة، و يستخدم الفقراء هذه الاخيرة بدلا عن المصليات فى غياب المساجد الجيدة، لكن نجد هنا حقولا مزروعة اكثر مما نجد فى الجهة الاخرى للرماحية. أخذت مدينة مشهد على اسمها من مسجد رائع بنى تكريما لعلى، رابع خلفاء المسلمين، و يزوره الشيعة من كافة البلاد كما يزور المسلمون كلهم مكة.

و يؤد الشيعة حتى بعد وفاتهم الحج إلى هذه المدينة التى يعتبرونها مقدسة، اذ ينقل اليها الموتى من الرماحية و لملوم و الحلّة و بغداد و غيرها من المدن المجاورة فضلا عن بلاد فارس و حتى الهند.

سمعت فى الزبير أو البصرة القديمة عن ميت دفن سنة كاملة، ثم نبش قبره و نقل إلى هذه

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۱۲

المدينة. و صادفت على الدرب بين الرماحية و مشهد على أربع جنائز، و من الاخيرة إلى الحلّة خمس جنائز، و حين سألت ان كان العدد لا يتعدى سبع جنائز تنقل من مناطق اخرى إلى هنا، أجبت ان هذا الرقم قليل للغاية، اذ يدفن هنا سنويا ما يفوق الالفى ميت غريب. و يحصل من يدفع جيدا على قبر قرب مسجد امامهم، و من يدفع اقل يدفن داخل اسوار المدينة، أما ذاك الذى يتعذر عليه الدفع فيعيّن له مكان خارج المدينة، و لا أظن أن الموتى يدفنون داخل حرم المسجد، أو على الاقل فى مساجد المسلمين الاخرى، لا نجد سوى قبر مشيّد المسجد و أحيانا قبور اولاده و نسائه.

و بشكل عام، لا يحب المسلمون أن تكون المدافن داخل حرم المدينة.

أكد لى علماء سنّة أن قبر على، صهر النبى، لا يعرف مكانه، و يبدو ان عائلته حاولت ان تخفيه عن أعدائها . لكن الشيعة يؤكدون أن على دفن فى هذا المسجد، و يقولون إنه أعطى الامر بوضع جثمانه، بعد وفاته، على ظهر ناقة، و بدقه حيث تبرك بعد اخراجها من الكوفة. و يبدو هذا الامر غريبا من سيّد عرف بذكائه كعلى، لكن هذا القبر المزعوم سمح ببناء مدينة، تقع هذه المدينة فى منطقة جرداء قاحلة كالسويس وجدة. كما تفتقر للمياه، و تجرّ تلك المستعملة للغسيل فى انابيب جوفية، اما المياه الصالحة للشرب فتنقل على ظهر الحمير من مكان يقع على بعد ثلاثة فراسخ. و يكثر الكلس فى احدى جهات المدينة، فيكفى بالتالى جرف بعض الرماد و الزبل الجاف لصنع كلس جيد للبناء، و بما ان سعر الخشب مرتفع، تبنى غالبية المنازل من الاجر المشوى المطلى بالكلس و بشكل مقبب مما يجعلها متينة. و فى الجهة الاخرى للمدينة، تطالعنا منطقة منخفضة يكثر فيها الملح، و يطلق عليها العرب اسم البحيرة(El Buheire) و اسم النجف، و يدعون انها بحيرة سرفة(Buheiret Sarve) التى جفت عند ولادة محمد.

و يتبع قسم من سكان المدينة المذهب السنى، فيما يتبع القسم الآخر المذهب الشيعى، و يكره اتباع هذين المذهبين بعضهم البعض حتى أن السنى حين يزور بلاد فارس يضطر للصلاة وفقا لعادات البلاد كى لا يسىء اليه الشعب شأنه فى ذلك شأن الشيعى الذى يقصد بعض المدن التركية. أما فى مشهد على و مشهد الحسين فيتعايشون قدر المستطاع، و يضطر السنة إلى الخضوع لإرادة الشيعة لأنهم يعملون عندهم، و يجب على الشيعة تجنب المشاكل و إلّا افسحوا المجال امام الباشا ليجعل الفرس يدفعون غاليا ثمن زيارة امامهم الاول. و يقصد حوالى ۵۰۰۰ شخص قبرىّ على و الحسين، و لا يحجّون فى أوقات معينة كالذين يقصدون مكة، لكن الشيعة يعتقدون ان صلواتهم تستجاب فى اشهر معينة، لذا يأتون المكان فى ۲۷ رجب، و فى شهر رمضان و فى

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۱۳

العاشر من محرم. و نادرا ما نسمع احدا هنا يستعين باسم الله ليؤكد كلامه، اذ يقسمون كلهم باسم على، و باسم الحسين فى مشهد الحسين، و باسم الشاذلى فى المخا. و نسمعهم غالبا يصرخون: «و اعلى! و اشهيداه، و احسيناه و اشهيداه، كرّم الله ذكراكما!»

إن المنظر الخارجى لمدينة مشهد على يشبه إلى حدّ بعيد محيط القدس اليوم، و هى تمتد على المساحة نفسها تقريبا، و قد رسمت الخارطة على اللوحة XLII . يحيط بالمدينة سور، فيه بابان، باب المشهد قرب الرقم ۱، و باب النهر قرب الرقم ۲، أما الباب الثالث الذى يحمل اسم باب الشام قرب الرقم ۳ فمسدود، و قد انهار السور من أماكن عدة حيث يمكن للمرء ان يدخل المدينة من خمسين فتحة، و نجد فى المدينة ثلاثة مساجد صغيرة فضلا عن المسجد الرائع الذى يضمّ قبر على قرب الرقم ۴، و تكوّنت التلال قرب الرقم ۵ من أقذار الشوارع التى تستقدم على ظهور الحمير. و جعلت المدافن المشتركة قرب الرقم ۶. أما الرقم ۷ فيدل على المنطقة التى تجر منها المياه إلى المدينة عبر اقنية تحت الارض.

و يلفت الانظار فى المدينة، المسجد المشيّد فوق قبر الخليفة و الامام على، و قد رسمته بقدر ما سمحت لى الظروف قرب الحرف (Aî) على اللوحة XLII . أظنّ أنّ ما من صرح فى العالم يعلوه سقف ثمين كمسجد الشيعة هذا، و قد دفع كلفته نادر شاه الشهير فى بلاد فارس، لكن الطغاة كهذا الاخير يفعلون المستحيل ليبهروا أنظار الشعب، إن طلاء القبة الكبيرة و سطح المئذنتين بالنحاس ليس بالأمر العجيب، لكن هذا النحاس كله مذهّب، و قد استعمل لكل ۸ بوصات و نصف مربعة طومان ذهبى أى عشرة دراهم المانية . و يشكل هذا المسجد مشهدا رائعا، لا سيّما حين تسطع عليه أشعة الشمس، و بما أن الصرح و المدينة بشكل عام مرتفعان، يمكن أن نرى القبة على بعد خمسة أو ستة أميال. و يرتفع فوق القبة، حيث نرى عادة فى المساجد التركية هلال أو عصا طويلة، كفا ممدودة لا بد أنها تمثل كفّ على. و تحيط بالمسجد ساحة مفتوحة يقام فيها السوق يوميا، و نجد امامه ثريا بقناديل عدة، و يقوم حول هذا كله مبان يقيم فيها بعض المسؤولين

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۱۵

عن خدمة المسجد، و لا يمكن ان يقيموا فيها كلهم، اذ ان عددهم يتجاوز المئة، بحسب ما أكدوا لى، و من ضمنهم العديد من الدراويش الذين يعيشون لشدة فقرهم عند مدخل المسجد و يعرضون صلواتهم على الحجاج لقاء مبالغ صغيرة، و قد صدمت حين علمت بالطريقة التى يقرأون فيها الصلوات لقاء صدقة أو على الاصح لدفع الشعب الفقير المتطير إلى التصدّق عليهم.

و تجرأت على الاقتراب من مكان يعتبره السنة و الشيعة على حدّ سواء مقدسا، و لو تصرفت بتهوّر و دخلت المسجد، لربما اجبرونى على اعتناق الدين الإسلامى و لم أشأ ارضاء حشريتى بهذا الثمن. لكن رفيق رحلتى و العديد من الشيعة أكّدوا لى أن المسجد يحوى ثروات طائلة، فالقبة مذهبة و قد كتبت عليها آيات من القرآن بأحرف من خزف، كما كتب على الجدران بأحرف ذهبية كبيرة، و نجد أيضا العديد من الشمعدانات من الفضة و الذهب المرصعة بالاحجار الكريمة.

و يكثر الحديث عن سعر خنجر، كذلك الذى يحمله الهنود فى أحزمتهم، معلق على قبر على المسوّر، و يقال انه مرصع بأحجار كريمة باهظة الثمن، و أن اورنك زيب(Aureng Zeb) أهداه للخليفة الذى اغتيل منذ قرون عدة. و وصفوا لى قطعا أخرى كثيرة فى المسجد حتى أنى أكاد لا أشك بما يروى عن عربى، بهرته هذا الامور، و حين ذكّروه بوجوب الصلاة، أجاب حقا، إن الأشياء الفاخرة التى زيّنت القبر انستنى ذكر اللّه.

و يهتم بهذا الكنز الكبير المتولى (المشرف على المسجد) و الحاكم، كما يرسل باشا بغداد سنويا مسؤولا كبيرا للتأكد من وجود كافة المحتويات. لكن بما ان هؤلاء هم من أهل السنة و من الاتراك، الذين يعرفون قيمة الذهب و الاحجار الكريمة اكثر من أن يتركونها فى أماكن مماثلة حيث تلهيهم عن صلاتهم، يعتقد الشيعة انهم يعملون على ابدال القطع الحقيقية بقطع مزيّفة.

و تقع مدينة الكوفة الشهيرة، على بعد خمسة أرباع الميل من مشهد على إلى الشمال الغربى، فى منطقة منخفضة و خصبة، و نجد هنا مجرى كرى سعده(Dejare Zaade) (أو بالاكوباس) لكن المياه لا تصل اليه حاليا.

خلت المدينة و محيطها من السكان، أما أبرز ما نجده فيها فهو المسجد الكبير حيث اغتيل على، كما لم يتبق منها سوى الجدران الاربعة التى رسمتها مع الخارطة على اللوحة XLII ، قرب الحرف (بB) و يسمى الباب ۱، باب الفيل، و رسمت قرب الرقم ۲ صرحا عميقا فى الارض و غير مرتفع، يبدو و كأنه خزان مياه و يسميه العرب السفينة. و قد ذكر الدليل، و هو من سكان

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۱۶

مشهد على يرافق الحجاج الفرس لرؤية الآثار، و يدّعى انه من أبناء الكوفة القدامى، أن سفينة نوح توقفت فى هذا المكان. و يطلق على الصرح الصغير المستدير قرب الرقم ۳ اسم العقاخانه(Sikke Khan) ، و كانت المياه توزع هنا كما يدل على ذلك اسمه، لكن هذا الصرح ليس بقديم اذ نلاحظ فوق الباب حجرا كتب عليه بأحرف عربية كتلك المستعملة اليوم و التى لم تكن معروفة فى زمن على. و بنى صرح صغير قرب الرقم ۴ حيث اعتاد الحسن و الحسين اداء صلاتهما، و نلاحظ فى الحائط الخلفى كوة فى المكان الذى يزعمون أن موسى الكاظم كان يصلى فيه.

و تدعى الاعمدة ۵، ۶، ۷، مقام سيدنا عيسى، مقام موسى و مقام ابراهيم الخليل، و يعتقد المسلمون ان المسيح و موسى و محمد صلّوا فى هذه الامكنة. و قرب الرقم ۸ نرى المكان الذى كان زين العابدين يصلى فيه عادة، و قرب الرقم ۹، ادّى كل من على و نوح صلاتهما، كما نجد هنا منبرا بدرجة، يبلغ ارتفاعه عشرة أقدام. و يقال إن نوح بنى اول منزل بعد خروجه من السفينة قرب الرقم ۱۰، و نجد قرب الرقم ۱۱ قبر جعفر بن معمر و قرب الرقم ۱۲ ضريح مسلم بن عقيل، و مسلم هذا هو ابن اخ الخليفة على و قد قتل مع هانى بن عروة الذى آواه فى منزله، و نجد قبر هذا الاخير قرب الرقم ۱۳. و لم يبن الشيعة هذين الصرحين إلا فى وقت لاحق، لأنهم يعتبرون مسلما و هانئا، و كل من مات من أجل على و اولاده شهداء. كما نجد بعض العوامید فى حرم المسجد المذكور، مع أجنحة صغيرة لراحة الحجاج الذين يودون البقاء لبضعة أيام.

وجدت فى غرفة مسلم كتابة عاتت قليلا- من آثار الوقت، و نستنتج منها ان من محمد بن محمود الرازى و ابى المحاسن بن احمد التبريزى، أقاما هذا الصرح فى العام ۱۸۶ للهجرة. و تقول الكتابة:

«هذه العمارة مشهد ... مسلم بن عقيل بن أبى طالب عليه السلام فى ايام الصاحبين المخدومين على الحق و الدين ... و شمس الدين والدى محمد بن محمد الجوني اعز الله انصار دولتهما يتولى ارقاب عبيدهما محمد بن محمود الرازى، و ابى المحاسن ابن احمد التبريزى عفى الله عنهما فى شهور سنة احدى و ثمانين و ستماية و صلى الله على سيدنا محمد النبى و آله».

و نلاحظ قرب لحد جعفر بن معمر الكتابة الكوفية الواردة على اللوحة XLIII قرب الحرف (Aî)، أما بالاحرف العربية الحديثة فهى:

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (۱) اللَّهُ الصَّمَدُ (۲) لَمْ يَلِدْ وَ لَمْ يُولَدْ (۳) وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ (۴). هذا قبر جعفر بن معمر رحمه الله و غفر له، صلى الله على محمد و على آل محمد».

أما الكتابة الواردة قرب الحرف (بB) و التى وجدتها على جدار المسجد، فليست سوى الآية

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۱۸

۲۵۶ من السورة الثانية فى القرآن وفقا لتقسيم ماراقيوس(Maraccius) ، و بما أن السيد ريسك ودّ ان أحفر كافة الكتابات الكوفية التى نسختها من أجل الذين يودون معرفة هذه الحروف. لم اكتف بهذه الكتابة بل اضفت كتابات أخرى صغيرة قرب الحرفين (جC) و (دD). و نجد فى بغداد حاليا، أمثلة عدة عن طريقة تزيين المنازل بالكتابات العربية بالأحرف الكوفية كما فى هذه الكتابات الأخيرة.

أمرت عادلة خاتون(Adila Chatun) ، زوجة سليمان باشا، ببناء جزء من الجدار الشمالى الغربى للمسجد و بترميم الجزء الاخر، كما أمرت بتشييد صرح صغير مع قبة تكريما لابنة نوح، و أشار الدليل إلى المكان الذى غسل فيه جثمان الخليفة على، و الى غرفة

صغيرة في هذا الصرح صنعت فيها ابنة نوح الخبز بحسب ما يزعم. و نرى صرحا صغيرا مخصصا لبنات علي الثلاث، و لعلهن دفنّ هنا.

و على بعد حوالي ربع فرسخ إلى الشمال الغربي من المسجد الكبير، أشار الدليل إلى مسجد آخر هو مسجد صاحب الزمان المهدي، و روا لي حكاية طويلة لم أفهم مغزاها. و لا نصادف حتى الكوفة إلّا بعض التلال الصغيرة و المكونة من بقايا بعض الابنية، و يبدو أن المنازل كانت تبنى من الحجارة و بالتالي لا تهدم بسهولة كما في البصرة. كما نجد بين هذه البقايا، عملات قديمة لا قيمة لها اليوم، و بما أن المسلمين لا يجمعون أمورا كهذه، و بما أن الاوروبيين لا يزورون مشهد علي (علي حدّ علمي، لم يزرها أي اوروبي)، لا يمكن للمسافر ان يتوقع شراء أيّ منها هنا.

و لم يثر اهتمام خادمي في الكوفة سوى بقايا عامود حمله علي بنفسه إلى المدينة، و هو قرب السفينة داخل المسجد الكبير، و يتميز بأنه لا يمكن لامرئ، لم تكن امه وفية لوالده ان يحضنه تماما. و أراد الموجودون من عامة الشعب القيام بهذه التجربة للتأكد من هوية والدهم الحقيقي، و سرّوا جميعا بالنتيجة باستثناء سائس واحد، و اولوا ايهامه بأن العامود يتمدد بسببه، فقام الرجل المسكين بمحاولات بائسة لحضنه كليا. و ينظر العقلاء من المسلمين إلى هذه التجربة على أنها تسلية لعامة الشعب.

في ۲۵ كانون الأول/ ديسمبر، سافرت من مشهد علي إلى كفيل(Kefil) و قطعت بالتالي أربعة فراسخ و نصف نحو الشمال، ثم اجتزت المسافة نفسها إلى الشمال الشرقي فوصلت إلى الحلّة، نستنتج من ذلك أن المساحة بين المدينتين هي تسعة فراسخ أو سبعة أميال. و تحوي كفيل قبر حزقيال الذي يؤمّه اليهود سنويا، لكن هذا النبي لا يملك كنوزا، و لا فضة، و لا ذهبا، و لا أحجارا كريمة، حتى و إن أراد اليهود تقديم هدايا كهذه له، لما تركها المسلمون طويلا، لذا يكتفون بإذن الحج، و لا نرى في مصلى النبي سوى قبر مسوّر تحت برج صغير، أما مالكة المكان أو حارسته

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۱۹

فعائلة عربية، بنت في المكان مسجدا جميلا صغيرا، تعلوه مئذنة. و لا تدفع هذه العائلة اية ضريبة للاتراك، حبا بالنبي و حسب، كما تكسب الكثير من المسافرين الذين يحلو لهم الاستراحة هنا.

و يحيط بقبر حزقيال، و بالمسجد و بمنازل العرب الحقيرة سور متين و عال، تبلغ مساحته ۱۲۰۰ قدم، و يقال إنه بني على حساب يهودي من الكوفة يدعى سليمان، و يبدو أن اليهود يقومون بترميمه حاليا. و في موعد صبح اليهود، يؤم البلاد عرب يأتون لتهنئتهم أو على الاصح لمطالبتهم بالهدايا، و من الأفضل ان يتفقوا معهم بالحسنى، لكن اليهود جبناء و خجولون. و يخيفهم عدد قليل من المسلمين و إن كانوا هم أقوى منهم مما يجعل العرب و قحاء متغطرسين، فيكتفي اليهود بالبقاء محبوسين في قلعتهم الصغيرة أو حانهم كما يسمّونه. و لا يتجرأ اليهود على اطلاق النار على أعدائهم، و لو لمرة واحدة، حتى و إن حملوا أسلحة نارية، لأن الدم الإسلامي الذي سيريقونه سيدفعون ثمنه غاليا، و لن يتوانى العرب عن ترقب قافلتهم المقبلة و مهاجمتها و سلبها. لذا يجب ان يبقى الحجاج في حانهم حتى يخلّصهم حاكم الحلّة، أو باشا بغداد، إن كان عدد العرب كثير، و يكلفهم هذا اكثر مما يطلبه العرب. و بما ان هؤلاء الاخيرين يضطرون إلى الانسحاب خاليي الوفاض تقريبا، يشكل هذا تنبيها لهم بعدم التعرض مرة أخرى لليهود.

و نصادف بين كفيل و الحلّة العديد من الانهار الصغيرة الجافة خلال هذه الفترة من السنة، و لا نرى ما يثير الاهتمام على هذه الدرب سوى بعض منازل الفلاحين المتفرقة و عددا من القبب فوق قبور اولياء المسلمين.

في ۲۶ استرحت في الحلّة، و في اليوم الثاني توجّهت إلى مشهد الحسين المبنى في المكان المشهور بين المسلمين و المعروف باسم كربلاء، و هي تقع على بعد حوالي سبعة فراسخ أو خمسة أميال إلى الشمال الغربي من الحلّة، و لا نصادف على طول هذه الطريق (اللوحةXLI) إلّا الطهمازية(Tomasie) و هي قرية كبيرة بناها الشاه عباس و نجد فيها العديد من حدائق النخيل.

لم تكن منطقة كربلاء آهلة بالسكان حين قتل فيها الحسين و بعض اهله و اصحابه، لكن هذه المعركة اتاحت للمنطقة فرصة الاستفادة، فتمّ جرّ المياه اليها من الفرات و نرى فيها اليوم غابة من اشجار النخيل ، أما المدينة فأكبر من مشهد علي و أكثر سكانا، و قد بنيت المنازل فيها بطريقة متينة لكن معظمها من الآجر كما في البصرة و الحلّة. يتخلل سور المدينة خمسة أبواب، و هو مبني من الطين و الآجر المجفف في الهواء الطلق، إنما قد انهار بأكمله.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۲۰

و يلفت الانظار في هذا المكان مسجد كبير فيه مصلى يطلق عليه الشيعة اسم مذبح الحسين و يقال انه يقوم في المكان الذي داست فيه الخيل جسد حفيد محمد و الذي دفن فيه. لكن السنة يشكّون في امكانية تحديد مكان مقتل الحسين و دفنه بهذه الدقة، و إن كانوا لا ينكرون ان المعركة دارت في هذه المنطقة. و رأيت أن رسم هذا المسجد أخطر من رسم مشهد علي، حتى أني لم أجرؤ على الظهور في فنائه أثناء النهار، لكني قصدته ليلا معتمرا عمامة تركية، يرافقني رفيق رحلتي، و بما أنه كان مضاء بسبب احتفال كبير، رسمت منظره عند عودتي على اللوحةXLII قرب الحرف (جC) مما يعطي القارىء فكرة عن بناء هذا الصرح. تكثر النوافذ في الجدار الامامي، و هو أمر ملفت في بلاد لا تعرف الزجاج ابدا، و لعلها هدية من بعض الفرس الذين ارسلوها من مصنع شيراز. و نجد وراء الصرح الامامي، قبة عالية يقال إن الحسين دفن تحتها، و تحيط بها أربع مآذن، و نرى على مسافة قريبة منها قبة أخرى أعرض من الأولى و أقل منها ارتفاعا، فلم اتمكن من اظهارها على الرسم من هذه الجهة. و يقوم كل هذا في ساحة كبيرة تحيط بها من الجهات الاربع منازل الشيوخ و الدراويش، و نلاحظ أمام المدخل الرئيس للمسجد وجود شمعدان كبير من النحاس كذاك الموجود في مشهد علي. و يغيب الذهب من الخارج، و لكن يقال إن هناك أشياء ثمينة فوق قبر الحسين لكنها لا تقارن بكنوز ضريح علي.

و يشير الشيعة هنا إلى قبور العديد من أهل الحسين و اصحابه الذين قتلوا في معركة كربلاء و يعتبرونهم شهداء، كما بنوا مسجدا كبيرا داخل المدينة تكريما لشقيق الحسين العباس، و قد رووا لي الكثير عن هذا الاخير لكني لن أورد إلّا ما يلي: كان الحسين يعاني من ظمأ شديد، فحفر العباس الارض في مكان يسمى حما قاع(Heima Kaa) ، سآتي على ذكره لاحقا، لكن لم يجد ماء، فتقدم حوالي فرسخ إلى الشمال و ملأ قربته، و في طريق العودة، هاجمه الاعداء، و حاولوا الوصول إلى الماء، و قطعوا يده فأخذ القربة بيده الاخرى فقطعوها، عندها التقطها بأسنانه لكن احد الاعداء صوّب سهما نحو القربة و خرقها فسالت المياه منها، و عاد العباس من دون أن يتمكن من إرواء ظمأ اخيه.

و من بين الامكنة التي يقصدها الحجاج هنا، المكان الذي وقع فيه جواد الحسين و خيّاله، و هو خارج المدينة، على الدرب المؤدية إلى مشهد علي، و قد تم بناء مصلى صغير هنا. و قصّ علي الدليل بالتفصيل ما قاله الامام لعائلته في هذا الموقع، و ما أمر به قادته، لكني لم أجد داع لذكر هذه الامور هنا. و نصب الحسين خيمته للمرة الاخيرة قرب حرية قاع(Heria Kaa) ، و قد تحوّل هذا المكان حاليا إلى حديقة كبيرة في الجهة الاخرى للمدينة. و نرى في المكان الذي لم يجد فيه العباس الماء بئرا عظيما، امتلأ بالماء بفضل أعجوبة و ذلك استنادا إلى رأي الشيعة، الذين يعتبرونه

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۲۱

مقدسا، فيقصده اناس من بلاد فارس ليغرقوا فيه حبا بالحسين، ظنا منهم أنهم سيعتبرون شهداء.

و نرى في الحديقة صرحا مهدّما من المكان الذي ضربت فيه خيمة الحسين، كما نرى بالقرب منه صرحا آخر منخفضا فيه قبر قاسم العريس و غيره من الشهداء. و سعدت مضيفتي، و هي أرملة عجوز و شيعية متحمسة، حين علمت اني زرت قبر القاسم. إذ انه وليّها المفضل، و روت لي و قد اغرورقت عيناها بالدمع، أن هذا الفتى الشجاع كان قد عقد قرانه اي ان عقد زواجه قد تم أمام القاضي بحضور شهود، لكن ليلة زواجه الفعلي، قتل مع الحسين و غيره من الشهداء. و تحفظ هذه العجوز حرفيا ما قاله الزوجان لبعضهما قبل بدء المعركة.

و يأتي بعض السنة إلى مسجد الحسين لأداء صلاتهم بجديتهم المعهودة، في حين ان الشيعة يطلقون صرخات يرثى لها. و كنت في المدينة عند اكتمال القمر في شهر رجب، حين يتوافد الحجاج لتمضية الليلة قرب قبر الحسين، و بما أنهم لا يملكون تقويما مطبوعا، و بالتالي لا يتأكدون تمام من أيام اعيادهم، يمضي العديد منهم ليلتين في المسجد بغية عدم تفويت اللحظة الحقيقية.

و تفاجأت حين رأيت هؤلاء الناس المتطيرين يقبلون باب الفناء بخضوع فضلا عن باب المسجد، و يقال انهم يكتفون بتقبيل البلاط داخل المسجد، بل إن بعضهم يضرب رأسه بالجدار و القضبان الحديدية تألما على مقتل الحسين. كما يروى أن بعضهم بلغ تأثره الذروة فأقدم على قتل نفسه قرب قبر امامهم الكبير ظنا منهم أنهم سيعتبرون شهداء و أنهم سيدخلون الجنة لأنهم ضحّوا بأنفسهم حبا بالحسين. و أعترف اني لم أسمع شيئا بكآبة ما يقوم به الشيعة في مسجدهم، إذ يصرخون و يبكون و يتأثرون كما لو كان الحسين أباهم أو أنه توفي لتوه، و لم يكن هذا بدور يلعبونه أو حزن يدّعونه كما تفعل الباكيات في المآتم اللواتي يبكين مقابل بعض المال،

بل تشعر أن الحزن حقيقى و صادق، فتراهم محمرّ العيون عند خروجهم من المسجد، و أظن بشكل عام أن الشيعة أكثر اخلاصا و تشددا فى هذه المدينة منهم فى مشهد على، و لو أن الحكم لهم فى هذه المدينة، لما رأيت سنيا واحدا فيها، و تمنحهم الحكومة التركية حرية اداء واجباتهم الدينية على طريقتهم فى كافة الاماكن التى يعتبرونها مقدسة لأنها تجنى فوائد عدة من ذلك. و لا يناقضهم السنة العقلاء حين يسمّون الحسين اماما و شهيدا، لكنهم لا يتجرأون هنا على لعن الخلفاء الثلاثة الاوائل، و هو أمر قاس بالنسبة لشيعى متطرف سيّما فى هذين المكانين المقدسين.

و ينبغى أن ينتبه المسافرون عامة، و الشيعة خاصة من المجموعة من الانكشاريين المتشردين التى طردت من بغداد بسبب سوء تصرّفها، و التى تحاول التعرف على الفرس الاغنياء. يروى الانكشاريون للفرس اخبارا فظيعة عن الحكومة التركية و عن السنة بشكل عام، و ما إن يبادلهم الغريب اطراف الحديث حتى يتشاجرون معه، و يتهمونه بأنه اساء إلى الحكومة أو الدين، و يجدون

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۲۲

اولا شهودا على حديثه، و اذا اراد الفارسى تجنب الوقوع فى يد العدالة اضطر إلى دفع المال بسخاء. و أراد أحدهم، و كان يبدو أنيق المظهر، التعرّف الىّ فى أحد المقاهى، ظنا منه انى تاجر ارمنى، و حين علم انى اوروبى سرّ أكثر، و أخذ يمدح الخدمات الجلال التى قدّمها له أوروبيون فى حلب و القسطنطينية، و سمّى بعض الاوروبيين الذين يعرفهم بأسمائهم، و أعلمنى باستعداده لتقديم اى خدمة لى فى بلاد أنا غريب عنها كليا، و لا يهتم سكّانها بالاوروبيين و بالمسيحيين الشرقيين.

و غالبا ما سمعت اطراءات كهذه فى بلاد فارس، و هى لا تعنى شيئا لكننى لم أعتد تلقى عروضات كهذه من عرب أو أتراك، فالتزمت الحذر و حين علمت هويّة محدّثى تجنبت الرفقة بشكل عام.

تجدر الاشارة إلى أنّ الكعبة ليست المكان الوحيد الذى يعتبر ملجأ للحمام عند المسلمين، فلا يطردونها من الجامعين فوق قبرى على و الحسين، و الجامع الرئيس فى الحلّة و فى مدن أخرى.

و بما أنى تحدثت غالبا عن الشيعة، سأذكر هنا نقاط التباين بينهم و بين السنة : يعتبر كلا الطرفين القرآن كتاب شريعتهم و نظامهم، و يؤمنون ان لا- اله إلا- الله و أن محمدا نبيّه. و يقال إن الشيعة يطهرون اجسادهم. و يصلّون خمس مرات يوميا، و يمنحون الكثير من الحسنات، و يصومون شهر رمضان، و يحجون إلى مكّة مرة على الاقل، لكنهم يفسرون فقرات عدة من القرآن بطريقة مغايرة لتفسير السنة. و بما انهم انفصلوا عن السنة لأن عائلة نبيهم لم تحصل على الخلافة، جعلوا من هذا الامر فعل ايمان يرفضه السنة، و أهمه أنهم يكرهون الخلفاء الثلاثة الاوائل أى ابا بكر و عمر و عثمان، و قد جعل هذا الامر الكراهية تستشرى بين الطائفتين.

و يجب ان يؤمن الشيعة بالاثنى عشر اماما الذين كان ينبغى ان يحكموا برأيهم، الواحد تلو الاخر، لكنهم تعرضوا للاضطهاد عن قبل الخلفاء. و الامام الاول هو على، صهر محمد الذى ذكرته سابقا، و أضاف الشيعة إلى شهادتهم ما يلى: «لا اله الا الله، و محمد رسوله، و على ولى الله»، و يؤكد بعض الكتّاب الاوروبيين أنهم يفضلون على على محمد، لكن هذا الكلام غير صحيح و إن كان لذكرى على احترام و اجلال بينهم. أما الامام الثانى فهو الحسن، الابن البكر لعلى و فاطمة، و قد دفن فى مكة. و الامام الثالث هو الحسين (الذى ذكرته سابقا) أخو الحسن، و الرابع يدعى على، و الخامس محمد و يلقّب بالباقر، و السادس هو جعفر الصادق و قد دفن هؤلاء الثلاثة فى المدينة. و امام الشيعة السابع هو موسى الكاظم الذى سآتى على ذكر قبره عند الحديث

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۲۳

عن بغداد، و الثامن هو على الرضا المدفون فى مشهد فى خراسان، و قد دفن محمد الجواد و هو الامام التاسع قرب جدة موسى فى مسجد فى مدينة بغداد القديمة. و يعتبر على الهادى و الحسن العسكرى الامامين العاشر و الحادى عشر، و نرى ضريحيهما فى سامرّاء، و هى مدينة على نهر دجلة شمال بغداد. و يحمل الامام الثانى عشر اسم محمد، و قد تعرّض للاضطهاد من قبل الخليفة فلم يعد يظهر علنا، و يقال إنه عاش لفترة طويلة فى كهف فى سامرّاء، و نجد هناك قبره. و يعتقد الشيعة ان الله أخفاه عن الارض و انه سيعود يوم القيامة تحت اسم المهدى و سيدعو الناس إلى مذهب الشيعة. إن المسجد قرب الكوفة الذى ذكرته سابقا و الذى يحمل اسم صاحب الزمان المهدى، قد بنى تكريما لهذا الامام.

و يزر الشيعة قبور الامام الاول و الثالث و السابع و الثامن و التاسع لأنها الاقرب اليهم، و يحج بعض منهم إلى سامرّاء، لكن لا ينال احد لقب حج ما لم يزر الكعبة فى مكة و لو لمرة واحدة. و لا يقصدون قبور الشهداء من اصحاب محمد إلّا فى المناسبات، و قلما نجد قرية شيعية أو سنية تفتقر إلى قبر ولىّ ما، لكن الغرباء من المسلمين لا يهتمون بها و يكتفون بصلاة قصيرة فيها من دون الاكتراث حتى لاسم هذا الولى.

و يصلى السنة عامة فى الاوقات المحددة للصلاة، اى إنهم يؤدون صلاة الظهر ما بين الساعة الثانية عشرة و الثالثة بعد الظهر، و صلاة العصر بين الثالثة بعد الظهر و المغيب، الخ ... و إن تقاعسوا عن الصلاة فى الوقت المحدد، لا يعتقدون أن الله يقبل من الانسان ان يصلح خطأه بأداء هذه الصلاة فى وقت لاحق. و يجعل بعض الشيعة (لعلهم من الجعفريين) الذين سافرت معهم فى بلاد فارس صلاتهم اسهل اذ يكتفون بالصلاة عند المساء عن النهار بأكمله، و لا يؤدى هؤلاء صلاتهم بخشوع كالسنة، فقد لاحظت ان بعضهم يتوقف أثناء صلاته للاستماع للاحاديث و يشارك فيها احيانا. لكنهم يغتسلون قبل الصلاة، و يفترشون سجادة أو عباءة كى لا يتسخوا اثناء سجودهم.

و يضعون قرصا من الارض التى قتل عليها الحسين و التى يعتبرونها مقدسة فى المكان الذى يلمس فيه جبينهم الارض لأنهم يظنون أن صلاتهم ستعتبر كما لو أنهم أدّوها قرب قبر امامهم. عند انتهائهم من الصلاة، يحملون سبحة مصنوعة من التربة ذاتها، و يكررون بعض الكلمات حتى انتهاء الحبات، ثم يسرّحون لحاهم.

و تصنع السجدة و السبحة اللتان ذكرتهما فى مصنع فى مشهد الحسين تملكه منذ سنوات عائلة تدّعى تحدرها من محمد أى إنها من السادة (السيّاد)، و تتبع المذهب الشيعى، لكنها تدفع سنويا مبلغا كبيرا لباشا بغداد لقاء هذا الامتياز. و تباع هذه الاغراض فى مبنى صغير قرب مسجد الامام، و طلبت من الشيخ شراء بعضها، و رسمت اشكالها و احجامها المختلفة على اللوحة XLII قرب

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۲۴

الحرفين (Dه) و (Kه)، فنستنتج منها أنها محفورة بشكل جميل. كما اشتريت مدرجا يبلغ طوله ستة أقدام و ثلاث بوصات، و عرضه ثمانية أقدام، عليه صور للكعبة و قبر محمد و قبور الائمة الاولين و أمور أخرى يزورها الحجاج، لكن الرسم سيىء للغاية و ملىء بالالوان فضلا عن الذهب و الفضة. و رسم على هذه الورقة البراق الذى امتطاه محمد فى رحلته إلى السماء، و جمل يحمل الوشاح الثمين الذى يرسل سنويا من القاهرة إلى مكة، و اسد (ربما يمثل على)، و جواد على المبرقش الشهير دلدل ، و عبده الوفى قنبر، و حسامه الذائع الصيت ذو الفقار، و اخيرا الختم النبوى الذى يقال إن محمدا يحمله على ظهره. و لن يروق لقارئى أن احفر هذه الصور بحجم متوسط، لكن بما أن ذكر ذو الفقار يرد غالبا فى قصص العرب، رسمته قرب الحرف (وF)، و هى صورة فريدة و كبيرة للغاية، لكن لا بد أن رجلا شهيرا كعلى و قويا مثله، اعتاد أن يحمل حساما فريدا و عظيما. و يبلغ حجم السيف المرسوم على هذه الورقة ستة أقدام و نصف مقارنة مع حجم الصور الاخرى. و سيجد الاوروبيون هذه الصورة غريبة للغاية، لكن اذا اعتبرنا ان المسلمين يجعلون سيف على ذا حدّين، و أنهم حاليا لا يعرفون سوى الحسام، لا يمكننا أن نلوم الرسامين الشرقيين الذين يتبعون مخيلتهم و يرسمون ذا الفقار بحدّين. ألا يرسم الاوروبيون أشياء من الشرق لم يروها بأنفسهم بطريقة غريبة أيضا؟

و نرى على اللوحة نفسها قرب الحرف (زG)، أثر ختم الرسالة الذى يحمله محمد، و قد كتب عليه بالعربية، لكن أكّد لى أحد رجال الدين السنة أن العلماء غير مثقفين حول طبيعة هذا الختم، و يدعى ان لمحمد عينان خلفيتان فى هذا الختم يرى من خلالهما ما يدور خلفه. و رسم البراق على الورقة على شكل جواد مسرّج، له رأس امرأة بشعرها الطويل، و جناحين صغيرين و ذنب عريض.

تعرض المذهب الشيعى المسيطر فى بلاد فارس منذ أكثر من مئتى عام، و الذى انتشر خارج حدود هذه المملكة، منذ سنوات عدة، لخطر الابادة على يد نادر شاه. و حاول هذا الاخير ذلك إما غطرسة و إما تفاخرا، كى يدّعى انه أسس مذهبا جديدا، و لعله اعتقد أن سلالته لن تضاهيه و ظن أن المذهب الجديد سيبقيها على عرش بلاد فارس. و قد نجح الشاه اسماعيل فى عمل كهذا فى ما مضى، لكن نادر لم يكن مطلعا على القرآن و تفسيراته المختلفة، و إن أظهر قيمة عظيمة و خبرة كبيرة حتى أنه لم يكتف بإخضاع بلاد فارس كلها و الهند ايضا، لكنه افتقر إلى الميزات الاساسية التى تجعل منه مؤسس مذهب جديد، لذا اساء إلى الدين بالتغييرات التى ادخلها، و قبل ان أخوض

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۲۵

فى الحديث عن محاولة هذا البطل الفارسى الكبير، سآتى على ذكر بعض الامور المتعلقة به كأصله و شخصيته.

يتحدر نادر شاه من عائلة كيركلو(Kirklu) و هى من قبيلة أشار(Aschares) ، من سلالة التركمان التى أقامت فى تركستان سابقا، لكنها عادت و سكنت بلاد فارس كبعض قبائل التركمان و الاكراد و العرب الاخرى.

إذا، هو نبيل تركمانى ولد فى بلاد فارس، و ليس هولندیا كما شاع فى اوروبا ، و يمكن مقارنته من حيث ولادته بشيخ عربى صغير وضعت عائلته نفسها تحت حماية قبيلة كبيرة ، لكنه تمكن من الاستفادة من المشاكل القائمة آنذاك فى بلاد فارس. و ثارت معظم المملكة ضد الشاه، لا سيّما بعض الامراء فى اقليم خراسان البعيد الذين اخذوا يستقلّون عندما حاول نادر شاه مع بعض الرجال أن يصبح حامى بعض القرى، و ازدادت امواله بسبب المساهمات و الجزى و أخذ يجمع الرجال حوله و يطرد الذين حذوا حذوه. و إن صادف جار أقوى منه سعى إلى كسب صداقته و وعده بمساعدته فى مواجهة جار آخر، و إن غلب هذا الاخير، عرف نادر شاه كيف يتخلص من الاخر إما بالحيلة و إما بالقوة، و كيف يستميل معظم رجاله الذين يبحثون عن قائد يسهل لهم عمليات النهب و السلب، و هكذا، امسى قائدا لآلاف من الرجال، و سيّد اقليم كبير فيه حصون عدة صغيرة. خلال هذه الحروب الداخلية فى بلاد فارس، يبرز العديد من هؤلاء الجسورين، و أضحوا اسياد مستغلين لمناطق شاسعة، حتى أن كريم خان الذى يسيطر على قسم كبير من المملكة الفارسية لا يتحدر من نسب أفضل من نسب نادر، إنما هو كردى من عائلة سند(Sand) البدوية التى تعيش من نتاج الاغنام. وضع نادر أسس العظمة التى وصل إليها، حين عرف كيف يسدى الخدمات الضرورية لطهماز شاه(Thamas) ، الذى خسر مملكته بسبب الافغان و المتمردين أمثال نادر نفسه، اذ قدّم للملك الاقليم الذى سلبه منه و خدماته لمواجهة متمرد قوىّ، فنال عفوه حين استقدم جيشا صغيرا.

كان طهماز شاه سيدا ضعيفا، غير قادر على قيادة الجيش القليل العدد الذى تركه له المتمردون، و اتكل فى هذا على قائده، و هو رجل شريف لكنه ليس بالجندى الماهر و الماكر أو على الاصح لم يكن خبيرا بقيادة الرجال كنادر. و كان بإمكان هذا الاخير ان يواجه جيش الشاه الصغير و يهزمه، لكنه فضّل تسليم الحصن الذى سلبه من صاحبه الشرعى و لم يطلب من ملكه

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۲۶

سوى شرف مساعدته، مع رجاله، و تحت إمرة القائد المذكور آنفا على طرد المتمردين. و خضع نادر فى بادىء الامر لأوامر هذا القائد، و تغلبوا على جاره و عدوّه الذى لم يتمكن من مقاومته وحده. أحب الفرس ملكهم، و لم يتخلّوا عنه إلا لأنه غير قادر على قيادة جيش بنفسه و لا يملك ضابطا كفوءا يمكّنهم من مواجهة المتمردين.

اشتهر نادر فى خراسان، و ازدادت قوة جيش الملك يوما بعد اليوم، و خضعت المنطقة كلها له، لكن البطل الشاب لم يكتف بذلك، و مع اخضاع المتمردين و طردهم، شرع يتقرّب من الشاه، و أقنعه بإعدام قائد جيشه العجوز و الوفى. و هكذا، أضحى نادر قائدا لجيوش سيده، و كثرت الاشاعات حول القائد القديم و اتهم بالخيانة، فى حين أن نادر الذى خضع للملك بارادته، و الذى سعى إلى نيل سمعة من لم يحاول الحصول على السلطة لنفسه بل مكّن سيّده من السيطرة على خراسان، اعتبر خادما وفيا. و التحقت أعداد هائلة بجيش الملك الشرعى الذى يرأسه قائد شجاع و حذر، و اخذت المناطق تخضع له الواحدة تلو الاخرى، و خشى نادر ان يتمكن أحدهم من التقرّب من سيّده فيدفعه إلى التخلص منه كما فعل هو بالذى سبقه. و للحؤول دون ذلك، أخذ يجعل من الملك أضحوكة الضابط المهيمن، و عمل على خلعه فى جلسة عامة، و تمّ تعيين أحد الامراء، و هو ولد مريض، شاها و أصبح نادر بالتالى حاكما للمملكة. بعد وفاة نادر شاه، اتّبع المتمردون السياسة نفسها، فحاول العديد منهم ايجاد احد افراد العائلة المالكة (أى متحدر من احدى الاميرات. لأن الامراء كلهم قتلوا) بحجة ايصاله إلى العرش، و حصل هؤلاء على عون اكثر من المتمردين الذى صرحوا عن رغبتهم فى الوصول إلى سدّة الحكم. كما وصل كريم خان إلى مبتغاه بهذه الطريقة أيضا، اذ استقدم فتى اسمه اسماعيل و هو ابن السيد مصطفى و ابنة الشاه حسين، و اطلق عليه اسم اسماعيل شاه و عامله معاملة الملوك، و أعلن انه لا يسعى للحصول على الحكم لنفسه انما لأحد افراد العائلة المالكة القديمة، لكنه لم يعد يخشى المتمردين، فترك اسماعيل شاه فى احدى القلاع يتمتع بأمجاد الملك التى تقدم له، فى حين لا يحمل هو سوى لقب وكيل أو حاكم، و يحكم فعليا كطاغية .

حكم نادر كوكيل للمملكة حتى وفاة الملك الشاب، فدعا إلى اجتماع الفرس فى سهل موغان(Mogan) ، و أخذ يعدد الخدمات التى أدّاها للمملكة، و ترك لكبار الامة حرية تقرير ما اذا كانوا يفضلون اعادة طهماز شاه (الذى لا يزال حيّا) إلى العرش. أو اختيار ملك آخر، و رافقه إلى الاجتماع جيش يتألف من مئة ألف رجل مخلصين له لأنهم انتصروا تحت امرته و جمعوا غنائم

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۲۷

عدة. عندئذ، قام احد حلفائه، و هو رجل واسع النفوذ و بليغ، و أعلن أن ما من احد يستحق حكم هذه المملكة اكثر من القائد الذى خلصها من الاعداء، و أيّد الجيش هذا الاقتراح، فلم يتجرأ أحد الاعيان على الاعتراض. يقال إن نادر شاه لم يكن يأبه ان عيّن شاها، حتى انه أراد ان يفكر الفرس مليا بهذا الأمر العظيم كى يختاروا أكثر الناس كفاءة كملك عليهم. كما أنه اعترض قائلا انه لا يتمنى حاليا، بعد أن استتب الامن فى بلاد فارس، سوى أن يستريح فى احدى مناطق خراسان التى سيحتفظ بها لنفسه.

أعاد نادر للمملكة معظم الاراضى التى اقتطعتها الدول المجاورة و سلبها المتمردون، و بالتالى قدّم خدمات جسام للبلاد. فإن استلم العرش، تحافظ بلاد فارس على عظمتها، لكن إن أعيد الحكم للشاه الشرعى أو تمّ اختيار احد الخانات الذين يخضعون لنادر، قد لا يعجب الامر الجيش و يتفرّق فيتقاسم القادة الذين يقودون قبائلهم الخاصة و جندهم المقاطعات فى ما بينهم، فاضطر الفرس إلى تسليم العرش لنادر. و بما أنه لم يكن يأبه لخيارهم، تمنى الفرس ان يتعب من الحرب، و أن يبحث عن السلم بصفته شاها، حبا برعاياه، و بانتظار أن يتخذ نادر قراره حول قبول الحكم أو رفضه عاش الجيش و الجموع فى قلق.

و لم يكن نادر وحده من اتباع المذهب السنى، بل القسم الاكبر من جيشه الذى يضم العديد من الافغان و التركمان و الاكراد و العرب، و يقال ان القائد كان يفضل هؤلاء على ابناء البلد من الشيعة.

و كان هذا الامر يستحق الانتباه عند اختيار ملك من مذهب مختلف، يحيط به العديد من ابناء دينه فى جيشه يرأسهم قادتهم الخاصين، لكن هؤلاء لم يهتموا يوما بالدين، و ظن الناس ان نادر يفضلهم لأنهم اعتادوا على العيش فى الخيام منذ نعومة أظافرهم و بالتالى هم جنود اشجع و أفضل من الفرس الذين يفضلون العمل بالزراعة و التجارة، و العيش فى ترف و رفاه. و لم يظهر نادر، حتى ذاك اليوم، أىّ تعلّق بالدين أو أى تطرف، و جل ما فعله هو اقتلاع كراهية الدين من جيشه و ترسيخ الوحدة بين أفراده، و أمل الفرس ان يبقى متسامحا و هو شاه كما كان و هو قائد للجيش. و أخطأ الفرس فى اعتقادهم هذا، اذ إنّ نادر، و بعد أن جعلهم ينتظرون قراره جمع كبار المملكة و أظهر لهم نتائج فرقة الدين الوخيمة، و ذكّرهم بالحرب الدامية التى دارت بين الاتراك و الفرس بسبب هذا الامر، و بوجود العديد من التركمان الشجعان و الاكراد و العرب السنّة فى الجيش الذى اخضع المتمردين، و أشار إلى انه لا يجوز ان يحتقر محرر مملكة الفرس و ان يعتبروا كفارا ، و أن يسمعوا الاهانات و اللعنات

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۲۸

التى يطلقها الشيعة على الخلفاء الثلاثة الاوائل ابى بكر، و عمر و عثمان، و قال إنّ السنة لا يعبدونهم إنما و يجلّونهم و يحترمونهم لأنهم من صحابة محمد و لأن الله اختارهم ليكونوا خلفاء و ذلك على يدّ المسلمين الذين لم يكونوا سنة أو شيعة، فضلا عن أنهم لن يسيئوا إلى انسان بعد مرور اكثر من الف عام على وفاتهم. و لن يصبح على و هو الخليفة الرابع، الخليفة الاول أو الثانى أو الثالث، و بالتالى فإنّ لعن الخلفاء الاوائل و صحابة الرسول ضرب من الجنون و التطير، و إذا ما اجتمع الشيعة و السنة سيمنعون سفك الدماء و يخضعون لإرادة الله الذى أمر المسلمين الذى يؤمنون بإله واحد أحد و بنبيه بالعيش سوية كالأخوة. اتبع الاتراك مذهب ابى حنيفة، و المصريون مذهب الشافعى، و الافارقة مذهب مالك، و غيرهم مذهب ابن حنبل، لكنهم جميعا من أهل السنة و يعتبرون بعضهم بعضا مؤمنين و أخوة. و أضاف المذهب الشيعى جديد، حين انفصل عن السنة جرّ على الامة الكثير من الاحزان، فإن كنتم مسلمين اصحاء، عليكم اعادة اللحمة بين فرقاء دين نبيّكم، لكنكم لستم مضطرون لاتباع أحد مذاهب السنة الاربعة، فأنتم تجلّون جعفر الصادق، و تعتبرونه أحد أكبر أئمتكم، و تقبلون بتفسيره للقرآن بالرغم من أنه أقدم من مذهب الشيعة! اكتفوا بذلك، و احملوا اسم الجعفريين، خامس مذاهب السنة. و إن رفضتم ذلك، و التزمتم مذهب الشيعة، و استميتم فى كره غيركم من المسلمين، فلا اريد حكم بلاد فارس». بعد هذا الاقتراح حول تغيير الدين، انسحب نادر ليترك للجموع الوقت الكافى للاتفاق حول الخطوة التى ينبغى اتخاذها، و هل يضعونه على العرش، علما ان جيشه المؤلف من مئة الف رجل كان جاهزا.

و كثر البلغاء الذين أشادوا بالقائد و بالخدمات التى أسداها للأمة، فضلا عن تقاه و حماسته للدين، و وجدوا أفكاره حول الذين هم

من غير دينه عادلة للغاية، و تصرفاته عادلة، و اعتقدوا بضرورة التنازل و تنفيذ ما طلبه هذا القائد الجسور و المنصف و الذى لا يهمه سوى راحة الانسانية، لكن بعض الحضور الذى يعرف مكامن نفس نادر، اقترح التروى فى أمر بهذه الاهمية، و طلب رأى شيخ الاسلام (المفتى) فأشاد هذا الاخير بإنجازات القائد، و اعلن ان ما من احد يمكنه اقرار السلم و الامن فى البلاد أكثر من نادر شاه الذى اخضع الاقاليم كافة. أما فى ما يتعلق بتغيير الدين، فرجا الشاه الجديد ألّا يتسرع فى ذلك و أن يسلم هذا الموضوع المهم لرجال الدين كى يدرسوه لاحقا.

عندها، علت أصوات تندد بوقاحة رجال الدين و ايثارهم لمصالحهم الخاصة، فهم يثيرون النزاعات بين المسلمين و يمارسون الاضطهادات كافة الخ، و قتل هذا الرجل العجوز على يد الرجل الهادىء الذى كان يتحدث منذ لحظات بإنسانية و محبة عن أبناء الديانات الاخرى، عندئذ، لم يعارض أحد تغيير الديانة و أعلن نادر شاها، فحرر عقدا يعلن فيه أنه يقبل بحكم بلاد فارس بناء على طلب الفرس أنفسهم و لأنهم أعربوا بملء ارادتهم عن استعدادهم للاتحاد مع السنّة، ثم أرسل فرمانا إلى

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۲۹

كافة الاقاليم يمنع فيه السكان من لعن الخلفاء الثلاثة الاوائل و يلزمهم بذكرهم باحترام، كما يمنعهم من الاحتفال بذكرى الحسين، باختصار لن يبقوا شيعة انما سيشكلون المذهب الخامس للسنّة تحت اسم الجعفريين.

و هكذا، أعلم نادر شاه الفرس، منذ بدء حكمه، ما ينبغى أن يتوقعونه منه، و وجد العديد من رجال الدين أفكار الزعيم الجديد حول الدين ممتازة، فتولوا مناصب رفيعة، و كثر الحديث عن التسامح و المحبة ازاء الديانات الاخرى فضلا عن القضاء على التطيّر الخ. و وصف الشيعة بالخبثاء الجاهلين، الذين يسيئون تفسير القرآن و يمارسون شعائر غريبة، و يظنون أنهم يتقربون من الله ببكائهم و نحيبهم على موت الحسين. لكن مهما حاول الجعفريون السخرية من أتباع المذهب القديم، انتشرت ديانتهم ببطء شديد، لأنهم لم يتمكنوا من نشرها بالطباعة، و لم يؤمّنوا وظائف لأتباعها لأن عائلة مؤسس أى مسجد، تمنح المهمات فيه. و حاولوا جاهدين، دعوة الشيعة لعدم لعن الخلفاء الثلاثة الاوائل، و عدم البكاء على الحسين، لكن هؤلاء اعتادوا منذ سنوات سبّ أبى بكر و عمر و عثمان، فيستحيل عليهم حاليا اعتبارهم اناس شرفاء، و بما أنهم وجدوا العزاء فى البكاء على حفيد نبيهم رفضوا ترك هذه العادة. و تبين بعد مراقبة تصرفات الجعفريين انهم غيّروا دينهم و لم يبدلوا طباعهم، و اذا ما اتهم رجال الدين الشيعة بالطموح، تبين أن الجعفريين يبحثون عن المكاسب و يسعون وراء النفوذ، و ان اتهم رجال الدين بالتطيّر، اتهم الجعفريون بالتشكيك اذ لوحظ أن رجال الدين لا يقصدون المسجد إلا لقاء أجر و أن العلمانيين لا يكترثون بالدين ظنا منهم أنهم يبتعدون بذلك عن التطيّر، و يتهم الشيعة بأنهم اعداء لغيرهم من المسلمين، و يدان الجعفريون بالتهمة نفسها، اذ يظهرون الاحترام و الرفق فى تعاملهم مع غيرهم من المسلمين علما أنهم يكنّون العداء لأتباع مذهب أجدادهم و هذا لا يتناسب و مبادئهم. و وصف نادر شاه بالمشكك و الكافر و مضطهد عائلة ملكهم الشرعى الذى كان على الدين الصحيح. و قيل إنه وصل إلى العرش بالخداع و بقوة السلاح، فثار الرعايا عليه كلّما اتيحت لهم الفرصة. و من جهة أخرى، استغرب نادر الذى يعتبر نفسه مخلص الفرس من نير الطغاة (و لا يحتسب وحده بينهم) من افغان و اتراك و روس، و الذى اراد أن يكسب صيت من لم يقبل بالسلطة إلّا بناء على رغبة الفرس أنفسهم، نكرانهم للجميل، فأخذ يعاقب المتمردين، و بالرغم من ذلك، استمرت الثورات و استمر فى قمعها، فأمسى طاغية متجبّرا. و لو لم يعمل نادر شاه على تغيير الديانة، لأحبه شعبه، و لتمكن من خلع السلطان التركى و نهب القسطنطينية، كما فعل بالمغولى و بمدينة دلهى، لكن حياته كلها غدت حربا متواصلة اذ توجب عليه مقاتلة اعدائه الخارجيين و قمع رعاياه الثائرين، و اخيرا، و بعد أن أتعب البلاد و قتل الكثير من سكانها، و بالرغم من انتصاراته، اغتيل فى خيمته.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۳۰

و لم يكن نادر شاه يهتم بالدين بحد ذاته، و لم يكن يتبع سوى اهوائه أى عجرفته، و طموحه و بخله. و يدّعون أنه حاول ارساء اسس ديانه عالمية مستوحاة من ديانة المسلمين و المسيحيين و اليهود، لذا أمر راهبا كاثوليكيا بترجمة الانجيل إلى اللغة الفارسية، و اليهود بترجمة التوراة، و كلف علماء مسلمين بوضع أسس ديانة جديدة من هذه الكتب و من القرآن. و لا يمكننى أن أعرف مدى صحة هذا الامر، لكنه عمل جديا على توحيد السنة و الشيعة، و قد أعطى محمد مهدى خان معلومات واسعة حول هذا الموضوع. و عند وصوله إلى العرش، و لثقته بأن السلطان لن يعارض قيام مذهب سنى خامس، لأن جعفر و أبا حنيفة و غيره من أصحاب المدارس، عاشوا قبل قيام مذهب الشيعة، أرسل إلى القسطنطينية رسولا يحمل التعليمات التالية :

۱) و بما أننا تخلّينا عن رأينا القديم و اتبعنا مذهب أهل السنة، و بما أننا نعترف بمقام جعفر الصادق السامى (سلام الله عليه)، نرجو أن يؤكد علماء الاتراك تحوّلنا و ان يعتبروننا المذهب السنى الخامس.

۲) و بما أنّ فى الكعبة، أربعة مساجد للمذاهب الاربعة ، لبين مسجد آخر باسم جعفر.

۳) و حين يرسل سنويا أمير حاج، أو قائد لحجاج بلاد فارس، يرافقه امراء من مصر و سوريا للدفاع عن الحجاج الفرس، لينضم أمير الباب اليهم للهدف نفسه .

۴) ليطلق سراح السجناء من المملكتين، و لتقام تجارة حرة بين الامتين.

۵) ليرسل حاكما المملكتين سفراء كل إلى بلاط الآخر، ليهتموا بشؤونهما، و يعززوا السلام بين الامتين».

و قبل السلطان أولا- بالمادتين الاخيرتين، لكنه اعتذر عن القبول بالاقتراح الاول حول المذهب الجديد و بالاقتراح الثانى حول بناء مسجد جديد فى مكة. أما بالنسبة للحجاج، فاقترح الا يمرّوا عبر سوريا بل أن يسافروا مباشرة عبر مشهد على و الصحراء إلى مكة، و يؤمّن باشا بغداد حمايتهم أىّ إنه يوفر لهم قائدا للقافلة. سمعت فى بغداد أن الاتراك خشوا أن يحظو لنادر شاه أو أحد خلفائه على عرش بلاد فارس، أن يحج و جيشه فينهب بهذه المناسبة الحجاج السنة و الكعبة و قبر محمد و يستولى على سوريا، و كان لخوفهم هذا اساسا من الصحة. و ارسل العديد من السفراء

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۳۱

الفرس إلى القسطنطينية، و سفراء اتراك إلى بلاد فارس للبحث فى هذين الامرين، كما كتب نادر للسلطان: «انه قرر التوجه شخصيا إلى تركيا، تدفعه إلى ذلك مشاعر الصداقة و الاخوة. لأنه يرجو أن ينهى هذه المسألة بما يرضى الطرفين خلال لقاء واحد». لكن الامور بقيت على حالها، انما ارسل قائد قافلة تركى مباشرة من بغداد إلى مكة فرافقه الحجاج الفرس.

و بما أن الاتراك رفضوا اعتبار مذهب الجعفريين من بين مذاهب المؤمنين السنة الصحيحة، حج شخصيا (فى العام ۱۷۴۳) إلى مشهد على، و جمع هناك علماء الفرس، و هم من الشيعة أصلا، فضلا عن علماء الافغان و البلقان و بخارى، و هم من أهل السنة، و كلّفهم بجمع الاسباب التى تدفعه إلى ابادة المذهب الشيعى، فضلا عن مناقشاته مع السلطان و باضافة مبادىء الدين الجديد .

فكتب العلماء الموجودون كل ذلك، و وضعت نسخة فى المسجد فيما نشرت النسخ الاخرى علنا فى بلاد فارس، لكن بالرغم من محاولات نادر شاه بقى الفرس و سكان مشهد على و مشهد الحسين على المذهب الشيعى، و هم حاليا أسوأ مما كانوا عليه من قبل.

بعد هذا الاستطراد حول نادر شاه و طريقته فى تغيير دين رعاياه، أعود إلى وصف رحلتى الخاصة. عدت فى ۳۰ كانون الأول/ ديسمبر برفقة حوالى ۲۰۰ حاج من مشهد حسين أو كربلاء إلى الحلّة، و سافر حاليا العديد من الذين لم يتمكنوا من الوصول إلى مشهد على قبل اكتمال القمر، و توجّه آخرون مباشرة من كربلاء إلى بغداد. و يبعد مشهد الحسين عن مشهد على سبعة فراسخ أو خمسة أميال.

و لا نرى على مسافة ميل من المدينة التى ذكرتها أولا سوى بلح، ثم يصبح الدرب رمليا، و لا نجد مبان سوى خان كنزع(Knesa) الذى لا يبعد كثيرا عن الكفل، و هذا الدرب غير آمن لمن يسافر وحيدا. حين كنت فى البلاد، تعرض بعض الناس للنهب فى طريق عودتهم من مشهد الحسين، و فى اليوم التالى، تعرّض غيرهم للسلب ايضا على يدّ خيالة الباشا أنفسهم المكلفين السهر على أمن الطريق، و قد أعطى المسافرون ما يملكونه فضلا عن اسلحتهم فتركوهم يمضون بسلام.

تبعد كربلاء عن بغداد ستة عشر فرسخا أى انها تبعد خمسة فراسخ عن مسيب(Museib) و هى قرية على الفرات، و اربعة فراسخ عن خان يدعى بيرالانس، و منه إلى الحلّة التى تبعد سبعة فراسخ عن بغداد.

تقع مدينة الحلّة على ارتفاع القطب ۲۳ ۲۸ ۳۰ من الجهة الغربية للفرات، و هى مدينة كبيرة، تكثر فيها بساتين النخيل، و قلما نجد فيها منازل مبنية من الآجر المشوى اذ ان معظمها

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۳۲

مبنى من الآجر المجفف فى الشمس. و نقع داخل المدينة على مسجد واحد تعلوه منذنة، أما خارجها فيقوم مسجدان أحدهما سمّى

مسجد الشمس و هو شهير بين الشيعة، و يقال إن عليا لم يتمكن يوما من أن يؤدى صلاة الصباح، فأشرقت الشمس متأخرة لتمكنه من ذلك، كما يقال إن عليا صلّى فى المكان الذى يقوم فيه مسجد الشمس. و يزعمون أنّ أى شيعى مؤمن للغاية، يوجّه دعاءه إلى على، تتحرك مئذنة هذا المسجد لتشير إلى أن عليا يتقبل الدعاء. هذا ما أكدّه لى العديدون، و حين سألتهم عمّا اذا قاموا بهذه التجربة بأنفسهم، أظهروا تواضعا و حشمة حين أجابوا أنهم غير جديرين بذلك و لا يتجرأون على الحلم بتحرك المئذنة استجابة لدعائهم. و يتبع حاكم هذه المدينة باشا بغداد، و يكلف هذا الاخير موظفا بإدارة مراكز دفع الرسوم، و هو يجنى الكثير هنا لأن تجار البصرة و بغداد يفضلون ارسال بضائعهم برا من مدينة إلى اخرى على أن يرسلوها عبر دجلة. و يبدو أن مهمة القاضى وراثية، لأن من يشغل المنصب حاليا استلمه منذ سنوات عدة و هو ابن القاضى السابق. يبلغ عرض الفرات فى هذه المدينة حوالى ۴۰۰ قدم، يقطعه جسر سبى،، ربط فيه ۳۲ مركبا صغيرا، أما مستوى المياه فيه فمنخفض، لكن اعتبارا من اواخر كانون الأول/ ديسمبر اخذ منسوب المياه يرتفع.

و لا شك أن بابل كانت تقوم فى منطقة الحلّة لأن السكان يسمّون البلاد اليوم أرض بابل كما نجد بقايا مدينة قديمة لا يمكن أن تكون سوى بابل، و استنادا إلى هذه الآثار، يبدو أن الحلّة تقوم فى حرم سور مدينة بابل، لكن عند الحديث عن الآثار البابلية، لا ينبغى ان يتوقع المرء رؤية صروح رائعة كتلك الموجودة فى مصر أو فى بلاد فارس. نجد فى برسيبوليس أجمل رخام قرب المدينة و على التلة التى شيّد عليها القصر الشهير. و تكثر الاحجار الكلسية التى بنيت منها الاهرام الكبيرة، قرب القاهرة، كما نرى فى الجنوب، و قرب النيل، جبالا من الاحجار الكلسية، و نرى فى القسم الجنوبى من مصر قرب النهر جبالا من الغرانيت، فى حين أننا لا نجد على ضفاف دجلة و الفرات سوى أراض منخفضة عن الخليج الفارسى حتى الحلّة و بغداد و أبعد من ذلك نحو الشمال. و اذا اراد أهالى بابل بناء منازلهم و صروحهم من الحجارة المصقولة لاضطروا إلى البحث عنها بعيدا، مما يجعل كلفتها عالية، لذا بنوا منازلهم من الآجر بسماكة ما نستخدمه نحن بأفضل طريقة رأيتها يوما. و لو بنوا أسوارهم من هذا الآجر مع الكلس لوجدنا اليوم المزيد من الآثار، لكنهم استخدموا مادة لا تلصق جيدا، لذا انهارت هذه المنازل القديمة تدريجيا لتبنى منازل جديدة فى المدن المجاورة و القرى الواقعة على الفرات، حتى أن الخان الجميل الذى أقمت فيه فى الحلّة بنى منذ سنوات قليلة من هذه البقايا.

أما فى ما يتعلق بالقلعة و بالحدائق المعلّقة الشهيرة الواقعة قرب الفرات وفقا لما ذكره سترابون

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۳۳

و غيره من الكتّاب اليونانيين، فنجد بقايا منها على بعد ثلاثة أرباع الميل إلى الشمال الغربى من الحلّة قرب الضفة الشرقية للنهر، و لا تتعدى هذه البقايا كونها تلالا كبيرة محفّرة.

ان الجدران التى ترتفع فوق الارض قد استخدمت منذ زمن، لكن الركائز موجودة، و رأيت بنفسى اناسا يعملون على نبش هذه الاحجار لنقلها إلى الحلّة و فى حين لا نجد فى المنطقة الممتدة من الخليج الفارسى و حتى كربلاء سوى اشجار البلح، نصادف بين التلال اشجارا متفرقة تبدو معمّرة. كما نرى فى هذه المنطقة، و على ضفتى الفرات، تلالا صغيرة محفّرة مليئة بكومات الآجر.

نجد على بعد ميل و ربع إلى الجنوب الغربى من الحلّة، و بالتالى إلى الغرب من الفرات بقايا أخرى لمدينة بابل القديمة، و منها تلة كاملة من هذه الحجارة الجميلة التى ذكرتها، يعلوها برج مليء بهذه الاحجار، لكن الخارجية منها ضاعت مع الوقت فى هذا الجدار العريض أو على الاصح فى كومة الاحجار الكبيرة هذه. و تظهر هنا و هناك فتحات صغيرة من جهة إلى أخرى، تسمح بلا شك بمرور الهواء و تمنع بالتالى الرطوبة التى تضرّ بالمبنى. و فى زمن ازدهار بابل، حيث كانت المنطقة مليئة بالمنازل، لا بد أن موقع هذا البرج كان رائعا اذ نشاهد عند اقدامه مشهد علىّ و هو مسجد يبعد عنه حوالى ثمانية فراسخ. و قد رأيت هذا البرج خلال رحلتى الاولى إلى الحلّة و ظننته مرقبا، و أطلق عليه الدليل الذى يرافقنى اسم برس أو نمرود، و روى لى أن ملكا يحمل الاسم نفسه بنى فى هذا المكان قصرا رائعا و كبيرا. و قد اعتاد هذا الملك عند اشتداد الرعد أن يطلق السهام فى الهواء معلنا الحرب على الله، و تبجح يوما بأنه جرحه و أظهر سهما سقط من الاعلى مضرجا بالدماء، فعاقبه الله و ارسل عليه حشرات، لم يأمن منها حتى فى قصره فلاحقته حتى قتلته، الخ، الخ.

و لم أتمكن من التعرف هنا على علماء مسلمين، باستثناء القاضى الذى لا يعرف عن برس و القصر سوى الحكاية التى أوردتها آنفا، لكن، بعد أن قرأت ما أورده هيرودوتس فى كتابه الاول صفحة ۱۷۰ حول بلوس(Belus) و برجه، بدا لى أنى وجدت بقاياهما، لذا أرجو أن يقوم من سيأتى بعدى إلى هذه البلاد بأبحاث دقيقة و يعطينا وصفا لها. قمت بهذه الرحلة وحدى مع الدليل، لكن ما إن وصلت إلى المكان و تفحصت بعض الحجارة حتى رأيت فرسانا عربا بقربى، فاعتقدت أن من الحكمة أن أعود إلى المدينة. و لو علمت أن هذا البرج هو برج بابل لخاطرت قليلا، لكن لجهلى الامر، لم أجد داعيا للتعرض للنهب و الخطر بسبب كومة حجارة كما لم أر ضرورة القيام برحلة أخرى إلى المكان.

و نقع فى محيط هذا البرج على قبتين بنيتا منذ حوالى ۴۰۰ عام، لكنهما انهارتا جزئيا، و نجد

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۳۴

كتابات صغيرة مثيرة للاهتمام. نعلم أن البابليين نقلوا إلى الاجيال اللاحقة دراساتهم الفلكية على الآجر، فاستنتج العلماء الاوروبيون أنهم لم يهتموا بالعلوم ، لكن إن استخدموا الوسائل المذكورة أعلاه، فرأيى مخالف تماما لرأى علمائنا. ففى بغداد و فى مدن اخرى من هذه المنطقة حيث الاحجار المصقولة نادرة للغاية و مكلفة، و حتى فى بلاد فارس حيث نجد الرخام بأسعار رخيصة، نجد كذلك كتابات على الآجر، و لا يمكننا أن ندّعى أن العرب و الفرس لم يعرفوا وسائل أخرى للكتابة و أنهم لم يكونوا ضليعين بالعلوم، بل يمكننا ان نستنتج أن البابليين قطعوا شوطا بعيدا فى فن الكتابة و فى العلوم. إذ ان أمة يمكنها تقطيع الحروف و تشكيلها و شويها بهذا الشكل الجيد، و وضع الحرف قرب الآخر فى الجدران (كما يصفّ صاحب المطبعة الاحرف) حتى انه يمكننا قراءتها بشكل واضح بعد مرور ۶۰۰ إلى ۷۰۰ عام عليها (وجدت كتابات بهذا القدم كتبت بهذه الطريقة) لا تعتبر أمة جاهلة فى فن الكتابة. و إن تسجيل البابليون لملاحظاتهم حول الظواهر الطبيعية المهمة بهذه الطريقة، يتطلب علما و براعة اكثر من الكتابات التى تهدف إلى اعلام الخلف بهوية مشيّد هذا الصرح أو ذاك. و لعل نوعية المواد العادية المستخدمة للكتابة ليست جيدة فى بابل و بالتالى لا تدوم طويلا، و لعل علماء الفلك عندهم لاحظوا، و استنادا إلى تجربة طويلة، أن دراسات هامة ضاعت أو تغيّرت بسبب النسخ المتكررة، فرأوا أن من الحكمة وضعها على الجدران، لأن كتابات كهذه، إن تعرضت للهواء لا تحتاج إلى التجديد، إلّا كل ۵۰۰ أو ۶۰۰ عام، و إن تمّ الاعتناء بها فى صرح ما لما احتاجت للتجديد إلّا بعد ألف عام أو أكثر.

بنى مسلم فى هذه المنطقة قبة صغيرة، تكريما للنبى ايليا، و يظن عامة الشعب ان هذا النبى دفن فى هذا المكان، لكن هذا غير مؤكد، كما يقال إن أيوب أقام هنا، قرب نبع على بعد نصف فرسخ إلى الجنوب من الحلّة، و لا يزور اليهود القبة القائمة فوق القبر المزعوم للنبى ايليا، كما لا يزورون نبع النبى أيوب.

فى ۵ كانون الثانى/ يناير ۱۷۶۶، غادرت الحلّة و توجهت مباشرة نحو الشمال نحو بغداد (اللوحةXLI)، أى انى قطعت أربعة فراسخ حتى مهافيه(M'havie) و منها أربعة فراسخ حتى اسكندرية(Scandrie) ، ثم اجتزت ثلاثة فراسخ لأصل إلى بيرالانس و منه إلى خان اسعد على بعد ثلاثة فراسخ ثم سرت اربعة فراسخ حتى بغداد. و نجد فى كل من هذه الامكنة خانا كبيرا بناه تاجر ثرى منذ سنوات، فضلا عن جسر قرب بغداد.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۳۵

إن رجلا كهذا يكرّم فى أوروبا بسبب الخدمات التى قدمها للراحة العامة، اما سليمان باشا فقد أجبره على تسليفه مبالغ طائلة لم يردها يوما. و يقوم قرب كل خان عدد قليل من الاكواخ، و نصادف شرق مهافيه، قرية تحمل الاسم نفسه، و نجد بين بيرالانس و خان اسعد قرية المحمدى التى اسست منذ سنوات قليلة على يد عادلة خاتون، زوجة سليمان باشا. و تبقى المساحات الاخرى غير مزروعة علما ان التربة خصبة للغاية و يمكن ريها بسهولة من دجلة و الفرات لو لم تفتقر البلاد للسكان و القلة التى تقيم فى المنطقة لا تملك الامكانات الكافية لذلك. و يقترب النهران من بعضهما البعض فى هذه المنطقة، و قد أكدوا لى انهما لا يبعدان عن بعضهما سوى ستة فراسخ و ذلك على بعد اميال إلى الشمال من بغداد.

يمكن للمسافر ان يقطع الاربعة عشر ميلا التى تفصل الحلّة عن بغداد خلال يومى سفر فى الصيف و ثلاثة ايام فى الشتاء، لكن تساقطت الامطار بغزارة و لم أكن على عجلة من امرى فاستغرقت رحلتى اربعة ايام. و لم يرافقنى خلال هذه الرحلة سوى بعض المكاريين الذين ينقلون البضائع إلى بغداد. و يتلفظ هؤلاء بكلمات بذيئة للغاية لم اسمعها من مسلم من قبل خلال رحلتى.

و فی حین أن غیرهم من العرب لا یذکرون نساءهم و بناتهم، یتمنی هؤلاء لبعضهم البعض ان تغتصب نساءهم، و یطلقون علی الام و الجدة و السلف اسماء مقززة و ذلک علی سبیل المزاح.

و هؤلاء المکاریون هم من الحلّة أو من بابل القدیمة حیث العادات منحلّة منذ غابر الزمان، لذا یمکن أن نستنتج أنهم لم یترکوا عادات اسلافهم، لکنی لم أجد سکان الحلّة مختلفین عن غیرهم من المسلمین، و لا یمکن أن نحکم علی اخلاق مدینة بأکملها استنادا إلی اخلاق المکاریین الذین یعتبرون من ادنی طبقات المجتمع.

رحلة إلی شبه الجزیرة العربیة/ تعریب عبیر منذر، ج۲، ص: ۲۳۷

ملاحظات وضعتها فی بغداد

تقع مدینة بغداد فی ولایة خالص علی ارتفاع ۳۳ ۲۰ من القطب علی الضفة الغربیة لنهر دجلة و تشکل مکان اقامة باشا من الدرجة الاولی یحیط بها سور من القرمید. إن جزءا من الاراضی داخل السور خال من السکان و غیر مزروع. إلا ان القسم المسکون فیه الکثیر من المبانی خاصة من جهة النهر و سرای الباشا حیث نجد الجزء الاکبر من المحال التجاریة أو البازار.

و بالتالی فإن بغداد کثیفة السکان بالمقارنة مع باقی المدن الشرقیة حیث تکثر البساتین. إلا ان شوارعها ضیقة و الأسواق الرئیسیة فیها مسقوفة. نجد فیها کما فی القاهرة شوارع تغلق کل مساء.

تتألف غالبیة المنازل من القرمید و هی عادة شدیدة الارتفاع. لا نری فیها نوافذ من جهة الشارع و ذلک وفقا للهندسة المعماریة الإسلامیة. فی الداخل هناک باحة مربعة الشکل تطل علیها الغرف الاکثر اهمیة. إن طریقة البناء الشرقیة هی فی نظری السبب الکامن وراء الحرّ الذی یتذمّر منه السکان. فعندما ترتفع الشمس تصبح هذه الباحات المربعة بمثابة افران ترتفع فیها الحرارة کثیرا لأن الهواء لا یدخل الیها. لهذا السبب یملک السکان المیزون سردابا فی منزلهم أی جناحا مسقوفا و مرتفعا سقفه یقع فی القبو و فیه ما یشبه المروحة أو قل الموقد، فیه فتحة من أعلی من الجهة الشمالیة لأن الهواء هنا تماما کما فی القاهرة و الشارقة یأتی فی فصل الحرّ من الشمال.

فی فصل الشتاء لا یتساقط البرد کثیرا فی بغداد کما فی بلادنا لکننا رأینا بعضا منه فی بدایة شهر شباط/ فبراير و کان ارتفاعه یبلغ نصف اصبع. کان السکان یقولون فی هذا الطقس انه شدید البرد و یزعمون ان عشرین شخصا تجمدوا فی اللیلة هذه. الا ان هذا الکلام لیس مغلوطا بکامله اذ ان الفقراء فی هذه المدینة یمشون شبه عراة و ینام جزء منهم فی الشارع.

لإعطاء القاری، فکرة واضحة عن وضع هذه المدینة و کبرها، أحیله إلی الخریطة المرسومة فی اللوحةXLIV . لهذه المدینة ثلاثة أبواب من جهة البلد، بالقرب من الرقم ۱ هناک باب المعظم(Moaaddem) و قد أخذ اسمه عن أبی حنیفة الذی یطلق علیه أهل السنة اسم آدم و الذی یبعد قبره عن هذا الباب مسافة نصف ساعة. هناک أیضا الباب الوسطانی أی باب الوسط بالقرب من الرقم ۲، و بالقرب من الرقم ۳ نجد القلعة الکبیرة المسمّاة بالطلیسم(El Talism) و کان لها باب لکن بعد ان انتزع السلطان مراد بغداد من أیدی الفرس و دخل من هذا الباب إلی المدینة قام بإیصاده نهائیا و لم

رحلة إلی شبه الجزیرة العربیة/ تعریب عبیر منذر، ج۲، ص: ۲۳۸

یفتح منذ ذلک الوقت . تقع قارولوغ کابی(Karolog Capi) بالقرب من الرقم ۴ و بالقرب من الرقم ۵ أمام الجسر هناک باب آخر هو باب الجسر. علی کل من البروج العشرة التی نجدها فی سور المدینة تقف ستة إلی سبعة مدافع لکن نصفها لیس لدیه رکائز. إن حجم هذه البروج صغیر جدا لتقف علیها المدافع. لا نری أی مدفع علی قارولوغ کابی و طلیسم و الباب الوسطانی و ربما هذا هو السبب الذی جعل احمد باشا یضع سریتی مدفعیة بالقرب من الرقم (۶). من بین هذه البروج الکبیرة هناک أخری صغیرة لا یمکن حمایتها الا بواسطة أسلحة صغیرة. فی السور نفسه هناک من الجهة الداخلیة عدد من القناطر الموزعة فی صفین، الواحدة فوق الاخری و هناک ایضا کوّات رمی لحمایة الخندق بواسطة أسلحة ناریة. إن السور شدید الضعف و الخندق جاف و لا نجد أی تعزیزات فی الخارج. و بالتالی یمکن لأی عدو أوروبی أن یسیطر علی المدینة بسهولة تامة. لکن فی هذا البلد تعتبر بغداد مدینة قویة جدا إذ إن نادر شاه حاول دائما الاستیلاء علیها دون أن ینجح.

فی الزاویة الشرقیة من المدینة هناک قلعة صغیرة تدعی اترکلّا(Yts Kalla) تستخدم کمتجر لبیع البارود لکنها لیست ذات فائدة کبیرة. و لا یسکن هذه القلعة الإنکشاریون. فی أوروبا لا یسمح للأجانب بالدخول بسهولة إلی قلعة کهذه. هنا دخلت إلیها لکن أحدا لم یستوقفنی لا فی الدخول و لا فی الخروج و لا حتی عند أبواب المدینة حیث یقف عدد من الانکشاریین لحراستها لأن الجنود الاتراک یبالغون فی تسهیل واجباتهم. فهم لا یقدمون السلاح لأحد و لا یأخذون أسماء الداخلین إلی المدینة أو الخارجین منها. و إذا کان الطقس سیئا یمکثون فی مراکز حراستهم أو أمام الباب فیدخنون أو یلعبون الشطرنج. باختصار فهم لا یأبهون بشیء شرط أن یقفوا فی مراکزهم للجهوز فی حال حدث أی شغب فی الشارع. تقع السرایا أو قصر الباشا أمام القلعة و تطل علی نهر دجلة بالقرب من رقم ۷. هی کبیرة جدا تتألف من عدة مبان غالبیتها رديئة الصنع. تقع مدرسة المستنصریة(Madrasse el Mostanserie) التی کتب العرب عنها الکثیر بالقرب من الرقم ۸ الا ان هذا المبنی لم یعد للعلماء. تحول مطبخ هذا المبنی إلی غرفة لدفع الضرائب اما الغرف الباقیة فتحولت إلی قروان سرای(Karwanseray) یسمی اوتمدانی خان(Otmedani chan) أو هدمت. علی

رحلة إلی شبه الجزیرة العربیة/ تعریب عبیر منذر، ج۲، ص: ۲۳۹

امتداد المبنی من جهة النهر نری کتابة طویلة یظهر من خلالها أن الخلیفة المستنصر بناها سنة ۶۳۰ ه (۱۲۳۲ م). و لأن نقل هذه الکتابة استحال علی بسبب مرور جماهیر غفیرة علی الجسر، طلبت من المُلّا أن ینقلها لی. قارنت کتابته بالکتابة الاصلیة و أرفقتها بهذه الوثیقة .

بعد ثلاث سنوات بنی المستنصر مسجدا رائع الجمال فی حی سوق الغاسل(Suk el Gassel) قرب الرقم ۹ لکن لم یتبق منه إلا المئذنة و الجدار الخارجی و مدخلین جمیلین بنیت علیهما قهوة قبیحة المظهر. فوق هذا المدخل نری الکتابة التی أرفقها لکم و قد وضعها بانی المسجد. أما المدرسة التی تعتبر رئیسیة. الیوم فی بغداد فقد شیّدت عام ۷۵۸ ه علی ید المدعو مرجان و هی لأصحاب المذهبین الحنفی و الشافعی.

بالاضافة إلی ذلک بنی مرجان مسجدا و مبان عامة أخری و کان یقال إنه یوسع أبحاثه فی علم الخیمیاء، أی علم صناعة الذهب. و قد حکم بغداد لسنوات عدیدة فی غیاب حاکمها الاصلی و بما أنه قام بتشیید کل هذه المبانی فلا بدّ أن یکون قد جمع ثروة کبیرة. إن الکتابة التی جعلت الملا ینقلها موجودة فی المدرسة السابقة الذکر. لکنی لم أستطع مقارنتها مع الاصلیة بسبب الناس الذین یجتمعون دائما فی هذا المکان اذ خفت الا یعجبهم ما أفعل . فی أحد الخانات المسمّی زغال(Dsjegal) و المشید عام ۹۹۹ ه، (أو ۱۵۹۰ م.) فی عهد السلطان مراد و من أموال سنان باشا، وجدت کتابة طویلة باللغة الترکیة، و تحتها سطرین باللغة العربیة. فقمت بنسخها و أرفقتها طیا .

نجد فی بغداد ما یعرف بالتکیة(Takkie) و هی أدیرة لمختلف مذاهب الدراویش کالقادریة

رحلة إلی شبه الجزیرة العربیة/ تعریب عبیر منذر، ج۲، ص: ۲۴۰

و النقشبندیة و الرفاعیة و القلندریة ... إن تکیة القلندریة هی بمثابة نزل یقصده الهنود المسلمون الفقراء بغرض الحج. إن مؤسس المذهب القادری هو الشیخ عبد القادر الکیلانی المولود عام ۵۶۰ ه و الذی عاش ۹۱ عاما و دفن فی بغداد فی المنطقة ۱۰ (خریطة اللوحةXLIV) تحت قبة کبیرة.

و لشدة ما تکثر عائدات مقامه یعتاش منه ۳۰۰ شخص و ینام فیه بعضهم مجانا. إن هذه التکیة بعیدة عن النهر لذا لدیها قناة خاصة بها تجرّ إلیها میاه دجلة. عندما کنت أتأمل القبة الکبیرة علی المسجد و ضریح عبد القادر الذی لم ید لی أکبر حجما من قصر العین علی النیل قرب القاهرة أتی درویش و دعانی بتهذیب فائق للدخول إلی منزله ثم حکی لی عن إحدی معجزات شیخه.

بینما کان عبد القادر یخطب یوما من منبره أمام عدد کبیر من الناس توقف فجأة و حمل قبقابه الخشبی (راجع الصور أ، ب، ت. من اللوحةII من کتاب وصف شبه الجزیرة العربیة) و رماه علی الحائط فاختفی القبقاب. بعد دقائق رمی قبقابه الثانی الذی اختفی بدوره. لم یفهم الحضور ماذا یجری و لا کیف اختفی القبقابان. و إلیکم تفسیر ما حدث. کان بعض التجار فی طریقهم إلی بغداد لإنجاز بعض الاعمال و لزیارة الشیخ عبد القادر عندما اعترضتهم مجموعة من اللصوص العرب فما کان منهم إلا إن استنجدوا بالشیخ فی صلواتهم فألقی بقبقابه الذی أصاب رأس أحد رؤساء العصابة. ظن اللصوص فی بادیء الامر انه قبقاب أحد التجار فصاروا یعاملونهم

بمزيد من العنف و القسوة لكن ما إن رأوا القبقاب الثانى يطير نحو رأس عربى آخر حتى اقتنعوا بوجود أحد الأولياء العظماء الذى يحمى المسافرين فأعادوا إليهم أموالهم و أغراضهم و تركوهم يكملون طريقهم بسلام. بعد أربعة أسابيع وصل التجار إلى بغداد فأعادوا إلى الولى قبقابيه و شكروه على نجدتهم و نشروا خبر المعجزة حيثما ذهبوا.

يبلغ عرض نهر دجلة بالقرب من هذه المدينة من ۶۰۰ إلى ۶۲۰ قدما. هناك جسر يصطف تحته ۳۴ مركبا صغيرا ربط الواحد منها إلى الآخر بواسطة ثلاث سلاسل ضخمة. عندما يكون الطقس جيدا و النهر قليل الهيجان يصلح الجسر للاستخدام لكن عندما يهب الهواء بعكس اتجاه المياه يصبح الجسر غير آمن على الاطلاق. و عندما يرتفع مستوى الماء فى النهر فجأة دون أن نفكك السلسلة على الشاطىء كثيرا ما تتحطم هذه الأخيرة. رأيت مثلا على ذلك فى كانون الثانى/ يناير ۱۷۶۶ عندما هبت ريح هوجاء من الجنوب الشرقى. فى بداية هذا الشهر كان الجو هادئا فذابت الثلوج على الجبال و انحدرت المياه لتصب فى دجلة فارتفع مستوى المياه فى النهر فى منتصف شهر كانون الثانى/ يناير و تحطمت السلاسل و جرف التيار السفن الصغيرة و الجسر. كما نفقت بعض المواشى أما البشر فرموا أنفسهم داخل السفن حفاظا على حياتهم. و لشدة ما صارت نسبة المياه فى النهر ترتفع خرجت عن حدودها و طافت المدينة بكاملها فى الايام ۱۹ و ۲۰ و ۲۱.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۴۱

فى اليوم ۲۰ بدأت الأمطار بالهطول لكن منسوب المياه لم يرتفع كثيرا و ذلك إلى شهر آذار/ مارس حين بدأت الثلوج بالذوبان و صار النهر يفيض شيئا فشيئا فى الموصل و بالتالى فى بغداد. يقال إن الفرق بين المستويين الأعلى و الأدنى لمياه نهر دجلة يعادل ۲۰ قدما تقريبا.

لم أستطع تحديد مكان الضاحية من الجهة الشرقية لدجلة بسبب انخفاض مستوى اليابسة و فيضان الماء عليها عندما كنت هناك. هناك عدد كبير من البساتين فى هذه الضاحية لكن عدد سكانه أقل من عدد سكان المدينة. يقع طرفها الشمالى على جزء من بغداد القديمة التى كانت تمتدّ من هنا إلى موسى الكاظم. إذ لا نزال نرى هنا آثار مبان و مسجد و قبور مسلمين ذائعى الصيت ماتوا فى المدينة. بالقرب من الرقم ۱۱ على الخارطة (اللوحةXLIV) نجد تكية الكتاشيين، و هى قديمة البناء و شديدة الارتفاع. فوق المدخل هناك كتابة تأدّت كثيرا بفعل الزمن ربما لكن يمكن أن نقرأ ما جاء تحتها . أما بانى التكية فهو قلج ارسلان ابن الملك مسعود من طائفة سلجوق عام ۵۸۴ ه (۱۱۸۸ م). حول هذا المبنى من الاعلى نجد آيات من القرآن بأحرف كوفية من الفخار. إن الجزء الأكبر منها قد أتلف بفعل الزمن، كيف لا و قد مرّت عليها ۶۰۰ سنة لكن لإعطاء القارىء فكرة عن هذه الكتابة و عن الزينة الموجودة فوقها نقلت بدايتها لأنها أقل تأذ من غيرها و هى موجودة فى اللوحةXLIII قرب الحرف (Eₒ) (بـB).

إن هذه الأحرف قريبة جدا من الأحرف الموجودة فى اللوحةIX من وصف شبه الجزيرة العربية و التى نقلتها فى اليمن. فمن هنا يمكننا ان نعرف ان العرب عملوا على تزيين ابجديتهم عندما كانت العلوم مزدهرة عندهم. و لو انهم تابعوا على هذا النحو لتكبد علماء اوروبا الكثير من المشقة لفك رموز كتابتهم. إن النقش على غطاء آنية من فخار وجدته بالقرب من تخت كسرى و نرى صورة له فى كتاب أسفار إيف(Ives) هو من الصنف نفسه. و لقد أكد الناس للمسافر الذى وجدها انها كتابة فارسية.

بالقرب من الرقم ۱۲ هناك قلعة صغيرة دفنت تحتها السيدة زبيدة الشهيرة عند العرب و هى زوجة الخليفة هارون الرشيد التى توفيت عام ۲۱۶ ه (۸۳۱ م). عام ۱۱۲۱ ه (۱۷۱۸ م) دفن حسن باشا زوجته عائشة ابنة مصطفى باشا بالقرب من زبيدة السابقة الذكر و وضع على ضريحها شاهدا نقشت عليه كتابة أنقلها لاحقا كما و حسّن البناء و شيّد أبنية أخرى للمسافرين. على مقربة من هذا

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۴۲

المكان (بالقرب من الرقم ۱۳) نجد قبر بهلول ضانه و هو من أقارب هارون الرشيد و أحد مهرجيه.

ترك هذا المهرج كتابا فيه نكات لا يزال بعض الشيوخ يرددونها فى المقاهى. فى الكتابة التى أرفقها لاحقا و التى نقشت على قبره بعد موته بكثير عام (۵۰۱) يلقّب بسلطان المجاذيب لكن وفقا للأخبار التى تحكى عنه يبدو انه لم يكن ساذجا، و إليكم إحدى هذه الحكايات: فى عهده قامت مراهنة بين شخصين، فتعهد احدهم بدفع مبلغ من المال للآخر إذا استطاع أن يعبر دجلة سباحة. لحسن الحظ استطاع الرجل ان يعبر النهر لكن امه كانت قد اعدت له نارا من الجهة الاخرى كى يجفف ثيابه و جسده بواسطتها فنشأ الخلاف بين الاثنين لأن الاول اعتبر ان الشروط لم تتضمن مساعدة أم الثانى له و رفض القاضى إعطاء رابح الرهان ماله. لم يعجب هذا الحكم بهلول ضانه فوضع فى بستان القاضى صحنا فيه لحم و رفعه إلى أعلى شجرة النخيل ثم أضرم نارا على الارض. سخر القاضى من فكرة بهلول ضانه الذى سأله كيف لا يمكن شواء هذه اللحمة و يمكن أن تجفف الام ولدها الذى قطع النهر سباحة؟ عند ما استعلم الخليفة عن هذه القصة امر الطرفين بالمثول أمامه و طلب من خاسر الرهان ان يدفع لرابحه المبلغ المتفق عليه. بالقرب من بهلول ضانه يمكننا رؤية مبنى صغير (قرب الرقم ۱۴) مع قبر يهودى يقصده اليهود للزيارة.

ففى هذه المنطقة غير المزروعة نجد مسجدا صغيرا مع برج صغير دفن تحته ولى مسلم شهير يدعى معروف الكرخى أبو ضاهر. بنى البرج الصغير عام ۶۱۲ ه (۱۲۱۵ م) و ذلك وفقا لما تقوله الكتابة.

يقول المسلمون ان معروف هذا ولد من ابوين مسيحيين و إنه لم يقبل ابدا تلاوة «باسم الاب و الابن و الروح القدس» بل إنه قال عوضا عن ذلك بسم الله الرحمن الرحيم. و يزعم البعض ان امه حبسته فى قبو مظلم بسبب ذلك و لم تعطه طوال أربعة أيام إلا الماء و الخبز. بعد هذه الفترة رأت حول ولدها هالة فريدة من نوعها ثم بحثت داخل القبو و وجدت كافة الطعام الذى زودته به فى سجنه. بعد ذلك رأت الام ان روحا شريرة تسكن ولدها فطردته من المنزل إلا انه توجه إلى موسى الكاظم ثم اعتنق دين المسلمين و أصبح عالما شهيرا ثم جعل عائلته تعتنق الاسلام.

ما بين ضريحى زبيدة و الشيخ معروف هناك مكان يجتمع فيه كبار القوم فى بغداد مرة فى

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۴۳

الاسبوع و يتدربون على رماية القوس. قام مرتضى باشا الذى كان سلحدارا (أى يحمل السيف) عند السلطان ببناء عامودين صغيرين كتب عليهما بالتركية ليسجّل المسافة التى بلغها قوسه.

بالقرب من العامودين هناك قبتان لكنهما حديثتا العهد. لو كان صحيحا ان الباشا رمى القوس من عمود إلى آخر لكان يتمتع بقوى خارقة لأن المسافة تبلغ ۶۰۰ خطوة مزدوجة أى ۲۷۰۰ قدم.

إلا ان مرتضى كان من باشاوات بغداد و يمكن ان يكون قد أبعد العمودين عن بعضهما عمدا حتى يتباهى بقواه الخارقة. نجد قرب حلب مكانا مماثلا فيه عمودين مشابهين. فى حلب ايضا طلبت من خادمى قياس المسافة و كانت ۳۲۵ خطوة مزدوجة. نجد الكثير من هذه العواميد على آق ميدان(Okmeidan) و هى تلة تقع خلف ترسانة القسطنطينية. و لقد ذكرت فى الجزء الاول من هذا الكتاب ان سكان القاهرة المهمين يتدربون ايضا على رمى القوس.

تقع قرية الكاظم الكبيرة شمالى بغداد و غربى دجلة. فى القرية هناك المسجد الكبير (ح) الموجود فى اللوحةXLII و ضريحى إمامين هما موسى الكاظم و حفيده محمد الجواد الذى ذكرته آنفا. يبدو أن هذا المزار الإسلامى كان رائع الجمال فى السابق لأن القبتين و المئذنة كانت مغطاة بحجارة مطلية على الطريقة الفارسية لكن هذه الاحجار تتساقط شيئا فشيئا. إن موقع هذا المسجد يذكر بموقع مشهد على و مشهد الحسين إلا ان هناك منازل من الجهتين. أعدم موسى الكاظم عام ۱۸۵ ه بأمر من الخليفة الذى كان يشك فى أن عددا كبيرا من مناصرى أهل بيت على يجتمع فى منزله. يقول الشيعة إنه شهيد بسبب ذلك و لا يزالون يذهبون لزيارة قبره. إن غالبية سكان هذه القرية من الشيعة و بما أن شيعة بغداد لا يستطيعون ممارسة شعائر دينهم بحرية فى بغداد فهم يتوجهون إلى هذا المسجد كل يوم. كما و أن غالبية الشيعة من سكان هذه الانحاء الذين لا يريدون أو لا يستطيعون دفن موتاهم فى مشهد على يدفنونهم بالقرب من موسى الكاظم. إن هذا كله يعود على القرية بالكثير من الاموال.

إن بغداد هذه التى بناها الخليفة المنصور كانت تقع غربى دجلة فى الجزء الشمالى من الضاحية الحالية و من قبر موسى الكاظم. عند شرق النهر كان هناك برج لكن لم يبق منه شىء و لا نجد اليوم الا قرية المعظم(Maadem) المقابلة لموسى الكاظم و التى تبعد مسافة نصف فرسخ عن بغداد الحالية. إن ضاحية بغداد العتيقة هذه مدينة بقائها لأبى حنيفة المدفون هنا. كان أبو حنيفة عالما مؤمنا يجلّه أبناء دينه لكن بالرغم من ذلك زجه الخلفاء فى السجن لأن ضميره الحى لم يسمح له بتولى مهام القاضى. بعد وفاته ازدادت محبة الناس له و لقبوه بالأعظم(El Azem) . إن أهل السنة من أصحاب المذهب الحنفى و الذين يشكل الاتراك غالبيتهم يتبعون أبى حنيفة و قد بنوا مسجدا جميلا مع مئذنة على ضريحه و أحاطوه بحصن و بست قلاع و بخندق واحد. و أهل الشيعة

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۴۴

يكرهون أبى حنيفة كرها شديدا تماما كباقى مؤسسى المذاهب السنية الاخرى و هم لا يكتفون بإهمال قبره بل و يعتبرونه مدنسا و ذلك بالتحديد عندما كان الفرس يحكمون بغداد. و قد كان هذا هو السبب الذى جعل السلطان مراد يشن هجوما على بغداد عام ۱۶۳۸ لينتزع المدينة من أيدى الفرس. فى هذا الاطار إليكم الحكاية التالية: فى أحد المساجد الاساسية و فى حضرة السلطان و بما ان أحدا لم يكن يرتاب فى أمره، أعطى له الاذن بسهولة. حينئذ عرض وضع المسلمين الحقيقيين المؤسف فى بغداد و ندّد بأفعال الارفاض أو الكفار الذين يملأون مقام الامام الاعظم بالأقذار و قال إنه من العيب على سلطان يدّعى انه من بيت عثمان و على مذهب أبى حنيفة الا يثأر لما يحصل و يطهّر بغداد من نير الكفار.

كان ضريح أحمد بن حنبل احد الائمة الاساسيين عند أهل السنة يقع بين الكاظم و المعظم(Moaddem) لكن مياه دجلة جرفته. تقع عقرقوف على بعد فرسخين و نصف غربى بغداد و هى قلعة على اتصال متين بقلعة هالة(Helle) التى ذكرتها آنفا إلا انها ليست مبنية من القرميد بل من الصلصال المجفف تحت أشعة الشمس. و بعد كل ثمانى طبقات من الصلصال هناك طبقة من الاسل سماكتها إصبعين. فى هذا المبنى نجد ثقوبا صغيرة سدّت حاليا. إن ارتفاع الجدران يبلغ سبعين قدما.

الجهة الشمالية عمودية تقريبا و يبدو انه كان لها مدخل لكنه عال جدا و يصعب الدخول منه من دون سلم. فى الجهات الاخرى حيث جففت أشعة الشمس الأرض نرى قطعا من هذا البناء حملها الهواء عنه كما نرى الاسل لأنه أطول عمرا من الصلصال و أخف وزنا. ظن الكثير من المسافرين ان عقرقوف هى برج بابل مع العلم ان هذه الاخيرة قريبة من الفرات بينما عقرقوف قريبة من دجلة. لا يمكننا ان نحدّد اليوم الغاية التى شيّد هذا البناء من اجلها. ربما كان احد خلفاء بغداد الاولين قد بنى منزله الصيفى على قطعة الارض نفسها لينعم بالهواء البارد و النقى. فى الجوار نجد تلالا عديدة عليها آثار منازل و بساتين و ربما آثار مدينة صغيرة أو حتى من آثار بغداد القديمة.

كانت المدائن فى الماضى مدينة رائعة الجمال و بقيت بعد وفاة النبى محمد بسنوات مكان إقامة الملوك الفرس. و هى تبعد مسافة اربعة فراسخ جنوبى شرقى بغداد و تقع قرب دجلة. لم يبق اليوم من هذه المدينة الا بقايا قصر كبير يدعى تخت كسرى. يتألف هذا القصر من القرميد و الكلس و لا نقرأ عليه اى كتابة. و ربما أنى لم استطع الذهاب لرؤيته لن أضيف على هذه المعلومات شيء آخر إلا ان أحد التجار أكد لى ان الذى قاس مدخل القصر قدّر عرضه ب ۸۸ قدما و ارتفاعه ب ۱۱۰ أقدام. إذا فالبناء و لا ريب كبير جدا .

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۴۵

فى هذه المدينة التى اصبحت مهجورة اليوم دفن بعض أصحاب النبىّ محمّد. إن أكثر هؤلاء شهرة هنا سلمان باك المعروف فى التاريخ العربى و الذى يسمى فى بلده سلمان الفارسى. يقال إن أهله كانوا من ذوى الشأن و إنه كان من عبدة النار لكنه أراد أن يصبح مسيحيا عندما كان فى سوريا لو لا ان احد الكهنة نصحه بالتوجه إلى شبه جزيرة العرب لملاقاة النبى الذى يبشّر من جديد بدين ابراهيم. و لكى يجتبه هذا الكاهن الوقوع فى أيدى الدجالين قال له إن للرسول علامة فارقة فى ظهره.

و لربما رأى سلمان هذه العلامة الرسولية علما ان محمد لم يخبر شيئا عن هذا الموضوع و لا تزال آراء العلماء المسلمين إلى اليوم متضاربة حول طبيعة هذه العلامة. كما و تختلف آراء مسلمى بغداد حول سلمان فيقول البعض إنه مات حاكما بينما يقول آخرون إنه مات بصفته قاضى المدائن. إلا أنه معروف بحلّاق محمّد و هو لا يزال إلى اليوم شفيع الحلاقين المسلمين. و إلى اليوم يزور قبره أهل بغداد كل عام و يحملون معهم الهدايا و يضيئون الشموع. و بهذه المناسبة نفسها يزورون قبر كل من الجمانى و عبد الله بن سلام و هما و لا شك من الرجال الكرام عند المسلمين.

هناك اكثر من عشرين جامعا مع مآذن فى بغداد، هذا إذا لم نأخذ بعين الاعتبار المساجد الصغيرة. و نجد فى المدينة نفسها اليوم أو بالاحرى فى ضواحيها ۲۲ مسجدا و أربعة خانات. أما ما تبقى فيعتبر صغير الحجم. كما و هناك عدد كبير من الحمامات العامة بالاضافة إلى مستشفى أو قل هى مكان حجر صحى فيه عدد من الاكواخ البائسة يحبس فيها المصابون بمرض البرص و الامراض الزهرية.

بالاضافة إلى التمور تشتهر ولايات البصرة و بغداد الكبيرة بالأرز و الملح و القمح و الدواب و احصنة الحروب و كلها منتوجات تسعى اليها البلدان الاخرى. إن موقع هاتين المدينتين استراتيجى إذ تقعان فى الوسط بين الهند و بلاد فارس و تركيا لذا تزدهر فيهما التجارة. بسبب الاضطرابات الداخلية فى بلاد فارس هاجر عدد كبير من الارمن إلى هاتين المدينتين و انشأوا فيهما مصانعهم.

و مع ان العلوم كانت تحتل مرتبة رفيعة فى أيام الخلفاء إلا انها ما عادت تؤخذ بعين الاعتبار اليوم و ذلك حتى فى اليمن و القاهرة. و لقد التقيت بأقلية تجيد القراءة و الكتابة. فى القاهرة لا نزال نجد متجرا يبيع كتبا قديمة اما فى بغداد فلا وجود لمتجر مماثل. إذا أراد احدهم هنا ان يجمع بعض الكتب و ان ينقلها بنفسه أو بواسطة شخص آخر عليه ان ينتظر موت أحدهم إذ تنقل كتبه و يتجول بها المنادى فى كافة انحاء المدينة كما لو كانت ثيابا قديمة ثم تعرض للبيع فى المزاد العلنى. إذا أراد أحد الاوروبيين شراء مخطوطات عربية و تركية و فارسية فخير ما يفعل هو التوجه إلى القسطنطينية حيث يجد دكاكين فيها كتبا يمكن أن يشتريها المسيحيون الشرقيون.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۴۶

ليست تجارة الاوروبيين فى بغداد واسعة. كان للشركة الانكليزية لبلاد الهند عميلا من بومباى لكنه استدعى إلى بلده فى ايامى لأن التجارة لم تكن مزدهرة. بالرغم من ذلك كان هناك تاجر من البندقية و كانت اعماله مزدهرة جدا مع انه لم يكن يشدّد على ترويجها و تسويقها كما تفعل الشركات التجارية الكبرى. و قد اعطانى السيد ليونى و هو تاجر ايطالى فى البصرة رسائل توصية لتاجر البندقية فلقينى هذا الآخر بكثير من التهذيب. يعيش هنا رجلا دين مسيحيان كرمليان احدهما مطران من بلاد ما بين النهرين و قنصل فرنسى فى بغداد، كان محبوبا جدا من قبل المسلمين و المسيحيين على السواء. ترك الكبوشيون المدينة منذ زمن بعيد. إن كافة رجال الدين الذين يأتون إلى المدينة يعرفون شيئا عن الطب مما يجعلهم يحظون بحماية الاتراك و هم جميعا من أصحاب البعثات التى لا تهدف إلى هداية المسلمين لأن فى ذلك خطرا على حياتهم بل إلى إقناع مسيحيى الشرق بالاعتراف بالبابا كرئيس للكنيسة المسيحية. و كثيرا ما يشكو رجال الدين المسيحيون الشرقيون نظراءهم الاوروبيين مما يؤدى بالحكومة التركية إلى جعل هؤلاء الاخرين يدفعون ضريبة من المال خاصة إذا كانوا أغنياء. بالرغم من ذلك استطاع الرهبان الكرمليون فى بغداد ان يجتذبوا أكبر عدد ممكن من المسيحيين الشرقيين الموجودين. أما النساطرة و هم المسيحيون القدامى فقد اجبروا على التخلى عن كنيستهم إلى هؤلاء المسيحيين الجدد. هناك الكثير من اليهود فى بغداد لكننا لا نجد فيها عبدة النار أو البانيان.

سبق و ذكرت ان معرفة الطب تؤمّن للأوروبيين حماية الاتراك لكن الاطباء الاوروبيين يجنون ثروة بصعوبة فائقة من جراء مهنتهم. يحكى عن طبيب يدعى اربل(Erbel) سافر إلى القسطنطينية مع السفير الامبراطورى ثم أراد ان يوسع اسفاره لرؤية العالم فتوغل فى أعماق آسيا لعله يجنى و لو مصاريف رحلته ثم جاء إلى بغداد. فى هذه المدينة أصبح فى البداية الحكيم باشى أى طبيب الباشا و كان يعمل على شفاء أهم شخصيات المدينة لكنه كان يجنى القليل حتى ان الباشا لم يكن يعطيه اى شيء بالرغم من تذمره. و فى النهاية قرر ان يكسب عيشه عند الانكليز فى بلاد الهند. وصل إلى خارج المدينة للتوجه إلى حاله لكنه أجبر على الرجوع بأمر من الكخيا الذى ادّعى ان الباشا كان يحارب العرب و ان كثيرا من الجرحى سيسقطون فى هذه المعركة لذا فعليه ان يبقى لمعالجتهم. فى هذا الوقت أرسل الطبيب بمساعدة الانكليز كل ما لديه إلى البصرة ثم حصل يوما على إذن بزيارة مريض هام فى مشهد على فذهب إلى البصرة و لقد التقيت به هناك و كان يستعد لركوب سفينة انكليزية متجهة نحو بومباى و البنغال، ثم عاد إلى أوروبا و لربما اعطانا وصف رحلته يوما ما.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۴۷

كنت قد ذكرت ان السلطان مراد انتزع مدينة بغداد من الفرس عام ۱۶۳۸ م اى ۱۰۴۸ ه منذ ذلك الحين حكمها الباشاوات التالية اسماؤهم :

الاسم/ الوصول إلى الحكم/ المدة

۱- كوجك (الصغير) حسن باشا/ ۱۰۴۹/ ۱

۲- درويش (الزاهد) محمّد باشا/ ۱۰۵۰/ ۲

۳- كوجك حسن باشا/ ۱۰۵۲/ ۲

۴- دلی (الغریب الاطوار) حسن باشا/ ۱۰۵۴/ ۱

۵- کوجک موسی باشا/ ۱۰۵۵/ ۱

۶- محمد باشا/ ۱۰۵۶/ ۱

۷- المقتول ابراهیم باشا/ ۱۰۵۷/ ۱

۸- ارسلان باشا/ ۱۰۵۸/ ۱

۹- شاطر حسین باشا/ ۱۰۵۹/ ۱

۱۰- الملاک (أو الوسیم) أحمد باشا/ ۱۰۶۰/ ۱

۱۱- قرة (الاسود) مصطفی باشا/ ۱۰۶۱/ ۴

۱۲- سلحدار مرتضی باشا/ ۱۰۶۵/ ۳

۱۳- آق محمد باشا (الکریم)/ ۱۰۶۸/ ۱

۱۴- خاصکی محمد باشا (نال لقب خاصکی لأنه خدم فی القسطنطینیة فی الوحدة المسؤولة عن مهاجمة قاطعی الطرق)/ ۱۰۶۹/ ۳

۱۵- کنبور (الاحدب) مصطفی باشا/ ۱۰۷۲/ ۲

۱۶- قطن (الشدید البیاض) مصطفی باشا/ ۱۰۷۴/ ۱

۱۷- سلحدار قرة مصطفی باشا/ ۱۰۷۵/ ۱

رحلة إلی شبه الجزیرة العربیة/ تعریب عبیر منذر، ج۲، ص: ۲۴۸

۱۸- ابراهیم باشا/ ۱۰۷۶/ ۲

۱۹- قرة مصطفی باشا/ ۱۰۷۸/ ۴

۲۰- السلحدار (حامل سیف السلطان) حسین باشا/ ۱۰۸۲/ ۴

۲۱- عبد الرحمن باشا/ ۱۰۸۶/ ۱

۲۲- قبلان باشا/ ۱۰۸۷/ ۲

۲۳- عمر باشا/ ۱۰۸۹/ ۴

۲۴- ابراهیم باشا/ ۱۰۹۳/ ۲

۲۵- سلحدار عمر باشا/ ۱۰۹۵/ ۲

۲۶- سرهوش (السکیر) احمد باشا/ ۱۰۹۷/ ۲

۲۷- عمر باشا/ ۱۰۹۹/ ۱

۲۸- حسن باشا للمرة الاولی/ ۱۱۰۰/ ۲

۲۹- بازرکان (التاجر) احمد باشا/ ۱۱۰۲/ ۱

۳۰- کتخدا احمد باشا/ ۱۱۰۳/ ۲

۳۱- قلیلی احمد باشا/ ۱۱۰۵/ ۱

۳۲- علی باشا/ ۱۱۰۶/ ۲

۳۳- اسماعیل باشا/ ۱۱۰۸/ ۲

۳۴- دلتبان (الذی لا یرتدی سروالا احمر) مصطفی باشا/ ۱۱۱۰/ ۲

۳۵- یوسف باشا/ ۱۱۱۲/ ۱

۳۶- علی باشا/ ۱۱۱۳/ ۱

۳۷- حسن باشا للمرة الثانیة/ ۱۱۱۴/ ۲۲

۳۸- احمد باشا للمرة الاولی/ ۱۱۳۶/ ۱۱

۳۹- حاجی اسماعیل باشا/ ۱۱۴۷/ ۱

۴۰- توبال (الاعرج) محمد باشا/ ۱۱۴۸/ ۱

رحلة إلی شبه الجزیرة العربیة/ تعریب عبیر منذر، ج۲، ص: ۲۴۹

۴۱- احمد باشا للمرة الثانیة/ ۱۱۴۹/ ۱۲

۴۲- الحاج (الذی حجّ إلی مکة) احمد باشا/ ۱۱۶۱/

۴۳- رجب باشا//

۴۴- ألشی باشا//

۴۵- محمد باشا ترياقی المهیج (هؤلاء الاربعة حکموا جمیعا و معا لمدة سنتین)// ۲

۴۶- سلیمان باشا/ ۱۱۶۳/ ۱۳

۴۷- علی باشا الاعجمی (الفارسی)/ ۱۱۷۶/ ۲

۴۸- عمر باشا/ ۱۱۷۸/ ۱۱

بقیت بغداد حتی عام ۱۱۱۴ (۱۷۰۲ م) أی السنة التی تولی فیها حسن باشا الحکم للمرة الثانیة بحالة سیئة لأن الباشاوات قبل ذلک لم یحکموا إلا لفترات وجیزة و صوریا و حسب. کان الانکشاریون هم أسیاد المدینة الفعلیین و العرب خارجها. و لم تکن التجارة محمیة فی هذه الولایة.

لهذه الاسباب صار التجار الاتراک و السوریون یسافرون إلی أصفهان حیث یلتقون بتجار من مختلف البقاع و خاصة من الهند. بقی حسن باشا مدة طویلة فی الحکم، و کافیة لیس لإذلال الانکشاریین و حسب بل العرب أیضا فثبت الامن علی أراضیه. لکنه لم یکن باشا إلا علی بغداد و علی الاقالیم التابعة لها. کان علی رأس مقاطعة شهر أسول(Schahhr essul) التی تشکل الجزء الاکبر من کردستان یحکمها باشا من الدرجة الاولی و کان هناک باشا آخر فی البصرة و کان السلطان یعین مباشرة المسؤول عن ماردین. بما أن الحروب الداخلیة الفارسیة بدأت فی عهده و لأن الاتراک حاولوا استغلالها لانتزاع بعض الولایات من الفرس. طلب العون من حسن باشا الذی بدأ بضم ماردین إلی حکومته. و صار یبسط سلطته اکثر فأکثر. و کان یعرف کیف یوقف العرب أو یعید الباشاوات الجدد أدراجهم عند ما کانوا یأتون من القسطنطینیة إلی البصرة. أحیانا عند ما کان بعضهم یصل إلی البصرة سرعان ما کان یتخلی عن الحکم لدی رؤیته بؤس سکانها و الدیون التی تغوص فیها من جراء الحرب مع العرب، فی الوقت نفسه کان حسن یسعی لإعطاء هذا المنصب لابنه احمد و حصل علیه بصعوبة بعد ان تعهد بدفع مبلغ من المال للسلطان کل عام علما ان مدفوعات السلطان فی البصرة کانت اکثر من مداخیله. ثم توفی حسن باشا من جراء مرض ما فی کرمنشاه فی قریة من قری همذان بعد ان حکم بغداد ۲۲ سنة قمریة متتالیة.

رحلة إلی شبه الجزیرة العربیة/ تعریب عبیر منذر، ج۲، ص: ۲۵۰

أما أحمد فکان یرافق والده بصفته باشا البصرة إلی القریة السابقة الذکر فقد توسع باتجاه همذان و استولی علی المدینة فی وقت قلیل. بعد ذلک ذاع صیته فسمّی باشا علی بغداد ثم استولی علی البصرة و ماردین مما زاده قوة لیتابع الحرب ضدّ الفرس. و فی عهده حاصر نادر شاه مدینة بغداد مدة ۲۸ شهرا عام ۱۷۳۲ م. قام احمد باشا بتهدئة عدو الاتراک اللدود هذا فردّ له المدافع التی کان قد أخذها من همذان. فی المرة الاولی حکم مدة ۱۱ سنة قمریة هو و والده.

و لشدة ما اشتدت الغیرة بالوزیر الذی کان فی ذلک العهد. عندما سقطت همذان طلب تعیین وزیر آخر مکانه، و اعتقد الناس ان احمد لن یترک الحکم بملء إرادته. فی هذه الحال کان الوزیر سیتهمه بالعصیان و یطالب برأسه لکن احمد سرعان ما خضع لأوامر السلطان. فی مدة سنتین أرسل السلطان باشاوات عدة لکنهم اصیبوا بالحزن علی السکان و علی العرب. کانت الفوضی تسیطر علی الحکم و بما ان القسطنطینیة کانت تخاف من ان یوسّع نادر باشا نفوذه فی بغداد طلبت من احمد باشا ان یعود الیها فعاد هذا الاخیر و راح یوسّع اراضیه. لکنه لم یرغب قط ببسط نفوذه فی فارس خوفا من نادر شاه ثم أصبح قائد الجیش الترکی فاستولی علی کردستان و علی اقالیم الدولة الاخری، و لم یبق منها إلا کرکوک و بعض القری التی أرسل الیها السلطان باشا من الدرجة الثانیة.

يزعم البعض ان نادر شاه قال فى احمد انه اذكى منه و من السلطان لأنه فى كل مرة يحاول السلطان ابعاده عن بغداد كان يستدرج الفرس للاستيلاء على البصرة فيعيده السلطان إلى منصبه و لا يكتفى بذلك فحسب بل و يزوّده بالمال و المدافع من القسطنطينية و بكل ما شاء لحماية الولاية.

و يقال ان السلطان ارسل مرارا ما يعرف بالقابدجى باشا إلى بغداد لقتل احمد باشا لكن هذا الاخير كان لديه عميل فى القسطنطينية بالاضافة إلى علاقات وثيقة مع الوزير فكان يعلم بأمر هذا الباشا قبل وصوله بل و بأمر كل ما يدبّر ضدّه. و كان لديه اصدقاء يقومون بقتل هؤلاء القابدجى و هم على الطريق بل و قبل وصولهم إلى الحدود. إلا ان احدهم استطاع ان يأتى بسرية تامة و لم يعرف احمد بأمره الا قبل ساعات من وصوله. حينئذ امتطى حصانه مع ضباطه الرئيسيين و عبيده بحجة رمى الجريدة. إن هذه اللعبة العسكرية التركية معروفة جدا فى أوروبا. لكل فارس مساعد يركض إلى جانبه حاملا على ظهره القضبان التى يبلغ ارتفاع كل منها اربعة أقدام. عند الوصول إلى النقطة المعينة يتمجلس المسنون قرب الماء لارتشاف القهوة و التدخين بينما يتجول الشبان اثنين اثنين مطلقين العنان لخيلهم منتظرين الفرصة التى تسمح لهم بتوجيه ضربة إلى خصومهم. التقى احمد باشا بالقابدجى باشى قرب المدينة و استقبله بتهذيب فائق على انه مبعوث رسمى من قبل السلطان.

و لأن لعبة الجريد هى لعبة شائعة فى صفوف ذوى الشأن من الاتراك دعى أحمد باشا ضيفه لمشاركته اياها. لدى وصولهما إلى مكان معين من قبل احمد باشا طلب هذا الاخير من ضيفه ان يلعبا معا و لم يستطع القابدجى رفض هذا الشرف فجاء خادم ناوله قضيبا فما كان من احمد إلا

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۵۱

ان اخذ عصا من مرافقه الخاص و لحق بالقابدجى و طعنه به طعنة واحدة. ثم ترجل عن حصانه مسرعا و ركض إليه محتجا بأن مرافقه أعطاه القضيب الخاطىء ذا الرأس الحديدى و انه لا يضمر له اى شىء. إلا أن مبعوث السلطان فارق الحياة فأرسل احمد باشا الاوراق التى كان يحملها إلى القسطنطينية مع وابل من الاعتذارات.

لم يترك احمد باشا الا ابنتين من زوجة واحدة. و قد وعد بتزويج البكر عادلة لأحد الاشخاص فى مناسبة خاصة. كما و كان من محبى صيد الاسود و لقد صرع أكثر من أسد على يديه و اذا حاول احدهم مساعدته غضب منه معتبرا انه لا يثق فى قدرته على مصارعة اكثر من ۴۰ شخصا من بينهم ضباط و حرس لكن أحدا منهم لم يتجرأ على مدّ يد العون له فبقوا جميعا فى الخلف ما عدا سليمان الجيورجى الذى اشتراه احمد باشا و هو صغير و اشرف على تربيته و الذى كان يلاحق سيده من بعيد. قبض احمد باشا على الاسد و ضربه برمح لكن الرمح كسر فأجبر الباشا على الهرب. عند ما رأى سليمان ما حدث هبّ لمساعدة سيّده فصرع الاسد و انقذ حياة الباشا. و هكذا وعده هذا الاخير بتزويجه ابنته البكر و وفى بوعده فتحول سليمان من صاحب مهنة عادية إلى أمين الخزينة ثم صار يتدرج فى المناصب الجيدة إلى ان أصبح كخيا و هو منصب بالنسبة للبغداديين يشبه وزير السلطان فى القسطنطينية.

بعد أن حكم احمد باشا ۲۳ سنة قمرية فى بغداد مات فى حملة شنها على الاكراد لأنهم أبوا ان يدفعوا الخراج المعتاد. إن حكام غالبية المقاطعات و المدن مدينون بثروتهم لاحمد باشا و حسن باشا. و كان الجميع راض بسليمان كخيا بسبب والد زوجته و جدّها اما فى القسطنطينية فلم يكونوا يرغبون بترك الحكم فى يدى هذا العائلة خاصة فى ولاية مهمة كهذه. فأرسل السلطان باشا جديد إلى بغداد و لإرضاء رعاياه عيّن سليمان باشا على البصرة.

إلا ان صعوبات كثيرة قد واجهت الباشاوات الجدد. هاجم العرب احدهم و هو فى طريقه إلى بغداد فسلبوه امواله مما جعل أهل المدينة يسخرون منه منذ بداية عهده، و هناك باشا ثان مات أثناء رحلته إلى بغداد. و كانت التذمرات تصل إلى بغداد و تقول بأن هؤلاء الاسياد ليسوا اكفاء لتحمل مسؤولية مهمة كهذه. باختصار أرسل اربعة باشاوات اليها فى مدة سنتين و لم يرض السكان عن اى منهم. فى النهاية جاء سليمان باشا مع جيشه من البصرة إلى السماوة(Semaue) أمره الباشا المعيّن بأن يعود أدراجه لكنه و اصل تقدّمه حتى الديوانية التى كان يحكمها على آغا الذى تمرّد على الباشاوات السابقين و الذى كان من مؤيدى سليمان باشا. إلا انه سرعان ما هرب إلى بغداد و نقل إلى الباشا أخبار سليمان التوسعية فألف الباشا جيشا من ۱۴ ألف رجل و ترأسه و سار به لمواجهة سليمان فوجده قرب الحلّة مع ۸۰۰ شخص و دهش لرؤيته ينتظره مع هذا العدد القليل

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۵۲

من الرجال. لكن أثناء اقامة على آغا فى بغداد حشد رؤساء القبائل لصالح سليمان باشا. زحف العدو مع جيشه باتجاه الباشا مباشرة كما كان متفقا مع على آغا، فهرب الباشا بعد فترة وجيزة و استسلمت الفرق البغدادية إلى الرابح. لدى عودة الباشا إلى بغداد وجد الابواب كلها موصودة.

اما سليمان فقد لقى ترحابا شديدا. بنى السكان ديوانا كبيرا تجمعت فيه أهم شخصيات بغداد. ثم أعدوا لائحة شكاوى ضد الباشاوات الذين حكموا بغداد فى هاتين السنتين و وقعها كافة الاعضاء لتقديمها إلى السلطان و قرر الجميع ان لا أحد يمكنه انتشال المدينة و سكانها من الحالة السيئة التى وقعت فيها منذ وفاة احمد باشا الا سليمان باشا. باختصار لم يحظ سليمان على موافقة الباشا على توليه بغداد و حسب بل و اعطى كافة الولايات و الاقاليم التى كان احمد باشا يضع يده عليها.

حكم سليمان باشا مدة ۱۳ سنة قمرية و لشدة ما تأثر العرب عند وفاته نظموا اغنيات محزنة لرثائه و صاروا يرددونها إلى اليوم فى المقاهى و فى شوارع بغداد. و لا بد من القول ان العرب لم يكونوا يوما نظاميين فى هذه المنطقة كما فى عهده و عهد حميه. فى الماضى لم يكن أحد يتجرأ على السفر من الحلّة إلى البصرة دون ان يأخذ معه دليلا يدفع له اموالا طائلة لكن بعد ذلك صار بامكان كل فرد ان يسافر وحده دون ان يخاف من السرقة على اراضى سليمان باشا سواء عن طريق البر أو عبر دجلة أو الفرات. و لأن التجار كانوا غير مطمئنين للذهاب إلى بلاد فارس تحولت التجارة الهندية من غيرون و اصفهان إلى البصرة و بغداد فازدهرتا.

و لم يكن سليمان يتساهل مع العرب، كان كثيرا ما يهاجمهم بغتة أثناء الليل غير تارك لهم فرصة الهروب إلى الصحراء. لا يزال البدو يسمونه ابو الليل لأنه كان يهاجم دائما فى الليل و لا يهدأ له بال الا بعد ان ينال منهم. اما فى بغداد فكان يدعى سليمان الاسد و قد أكد لى البعض انه ذهب إلى دمشق و استطاع ان يسلبها فى تسعة ايام لأن العرب الخاضعين لباشا دمشق كانوا قد نهبوا قافلة كبيرة من بغداد. و كان يحاسب باشاوات الاراضى المجاورة عند ما لا يضعون حدا للقبائل العربية التى تتجول على أراضيهم. قد يتفاجأ اى اوروبى لدى سماعه هذه الاخبار لأن دمشق و بغداد خاضعتان للسلطان كلتاهما إلا انه من المعتاد ان يشن الباشاوات معارك على بعضهم.

و مع ان احمد باشا كان يقدر الشجعان حتى لو كانوا اعداء إلا ان سليمان باشا كان عكسه تماما فكلّما كان عدوه المهزوم معروفا بيأسه كلما زاده ذلك فخرا علما ان أعداءه لا يمكن ان يلقوا من طرفه اى رحمة حتى و لو دافعوا عن أنفسهم بشجاعة ضدّه. و يلوم الناس سليمان باشا لأنه خاضع كثيرا لزوجته. فعادلة خاتون أى السيدة عادلة ابنة الباشا من الزوجة الاولى لم تنس ان زوجها كان فى صغره عبدا عند والدها لذا فقد كانت وقحة و شديدة الطموح. كانت تحدّد أياما فى الاسبوع يزورها فيها الناس لطلب خدمة ما. و بما انها سيدة مسلمة لم يكن يسمح لها بالتواجد

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۵۳

مع ذكور فكان الغلام المخصى يستقبلهم فى غرفة على حدة ثم يخبرها بطلباتهم. و كانت احيانا تتخذ قرارات تناقض كليا القرارت التى يأخذها زوجها و وزيره بعد تفكير و تمحيص. و كانت عادلة خاتون تعرف كيف تدر على نفسها بعض المداخيل. و جدير بالذكر انه عندما يكلف الباشا آغا ما بمهمة و ينفذها هذا الاخير يعطيه الباشا عباءة مبطنة بالفرو. أما شيخ القبيلة العربية فيحظى بالمناسبة نفسها عباءة.

فى البداية أهدت زوجة سليمان باشا للآغاوات الكبار الذين خدموا عند والدها و جدّها عصبة من الحرير يلفونها حول رؤوسهم و يتميزون بها عن باقى ضباط الباشا فى الاعياد و الاحتفالات.

و مع الوقت صار الباقون يسعون للحصول على العصبة نفسها بواسطة الهدايا ثم جرت العادة أن يحظى منفّذ المهمة بعصبة مماثلة ليست ذات شأن إلا ان ثمنها كان غاليا. و كانت عادلة خاتون على علاقة سيئة بشقيقتها. فقد تزوجت هذه الاخيرة من أحمد آغا و هو آغا ابا عن جد يحبه الجميع و خاصة سليمان باشا. يقال إن الوزير عرض يوما على احمد آغا ولاية عديلة إلا انه رفض ذلك باحتقار. ما ان عرفت عادلة خاتون بما جرى حتى نقلت الخبر إلى زوجها مدعية ان احمد آغا هو صاحب العرض فما كان من الباشا إلا ان قتله. و هكذا ازدادت عداوة الشقيقتين إلى ان أقنع سليمان باشا اخت زوجه بالزواج من عمر الكخيا الخاص به.

و لم يكن سليمان مستعدا لإرخاء الحبل لأى قابدجى باشا تماما كحماه. و يقال ان السلطان حاول ان يرسل أشخاصا لقتله بالسرّ. كما و يقال انه كان هدفا لعدة طلقات نارية و لربما كان الوزير هو المحرض، فى حالات كهذه لا يجرى اى تحقيق فى الموضوع لكن اذا عرفت هوية مطلق النار يعدم مباشرة.

كنت قد ذكرت آنفا ان احمد باشا مات فى حملة ضدّ الباشاوات فى كردستان. و مع انه مات ميتة طبيعية الا ان عادلة خاتون لم يهدأ بالها لأن زوجها لم يثأر لأبيها. و مع ان سليمان باشا ذهب عدة مرات إلى كردستان الا انه لم يعثر يوما على القاتل الذى كان يهرب إلى الجبال. فى النهاية حاول القاتل الاعتذار و التودد و كان صادقا فى ما يفعل فأرسلت له عادلة خاتون عصبة ثمينة جدا من الحرير كدليل على عفوهم عنه . فاقتنع الكردى بذلك و جاء إلى بغداد لكن ما ان وصل حتى زجّ فى السجن و قتل فى اليوم التالى.

لم تسمح هذه السيدة الطموحة لزوجها بالاقتران بنساء اخريات و لا باتخاذ جوار. و هى لم ترزق بأولاد فعندما مات سليمان كانت وريثه الوحيد و لا تزال إلى اليوم تعيش فى بغداد و تعتبر من

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۵۴

اكثر الناس ثراء. بنت فى هذه المدينة مسجدا و خانا اتخذا اسمها و شيدت أبنية مماثلة فى مدن أخرى.

عندما توفى سليمان باشا كان على آغا يحتل منصب المتسلّم فى البصرة . و كان على آغا قد شغل عدة مناصب مهمة فى هذه الحكومة و كان الشعب يحبه و يحترمه فأمل بتنصيبه باشا.

و سرعان ما نال فرمان الباشا الذى يكلفه بهذا المنصب اذ ان توصيات عديدة و هدايا قيمة أرسلت من الديوان إلى القسطنطينية مرشحة اسمه الا انه لم يحكم الا ۲۲ شهرا و يشكك فى أن عادلة خاتون هى السبب فى ذلك. و لم يكن أصل على آغا عبدا بل كان أهله من المسلمين الفقراء فى بلاد فارس. فى صباه عمل عند رئيس خدم احمد باشا و لشدة ما كان حسن السلوك وضعه الباشا فى حمايته و علمه كافة الامور التى يجب ان يعلمها اى تركى ينحدر من عائلة عريقة ثم رقاه إلى عدة مناصب. و كانت عادلة خاتون تأمل فى الحفاظ على حصتها من الحكم بعد موت زوجها باعتبار ان على باشا مدين لوالدها فى منصبه و ماله الا انها لم تحظ بمبتغاها.

أراد على باشا ان يحكم وحده و بحزم. كان الانكشاريون شديدى النفوذ فى تلك الايام فى بغداد خاصة لأن الباشا قد مات و الباشا التالى لم يستلم زمام الحكم بعد. أراد على باشا ان يضعف الانكشاريين لكن عددا من البورجوازيين كان حائزا على لقب انكشارى فقامت ثورة نظمت بالتشاور مع جيش السلطان مما أجبر على باشا على ترك المدينة. إلا انه ما لبث ان عاد و ساعده فى ذلك عدد من كبار رجال بغداد و من القبائل العربية الرئيسية فقطع رؤوس بعض الانكشاريين. بعد ذلك بقليل انتفض بعض الباشاوات فى كردستان بالاضافة إلى قبيلة خزاعل(Chasael) . لكنه أخضع الاتراك إلا ان قبيلة خزاعل هزمته فنظم الشعراء العرب اغنية حول نصر «معدن» هذا صارت تغنى حتى فى بغداد. و لم تستطع عادلة خاتون احتمال اهمال الناس لها و عدم استشارتها بشىء و كانت تسمع ان على باشا يريد ابعادها عن بغداد فقررت ان تقتله. و كان يقال ان على باشا كان ينتمى سرا إلى المذهب الشيعى و كان يحب الفرس و الدليل على ذلك انه تعامل بقساوة بالغة مع الاكراد و الانكشاريين و هم من أصل السنة بينما ترك قبيلة خزاعل تهزم جيوش السلطان علما انها قبيلة شيعية. و صار الشعب يتذكر حالات اخرى كان فيها على باشا مع الشيعة ضد السنة، و قرر الجميع انه كافر و انه يتحيّن الفرصة لجعل الفرس يستولون على بلاد السلطان.

من بين كبار رجالات بغداد هناك خمسة أسياد اشتراهم الباشاوات السابقون كعبيد و ربوهم على الديانة الإسلامية. شغل هؤلاء بالدور أهم المهام فى المدينة و فى مكان إقامة الباشا أو من

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۵۵

الولايات الاخرى، كانوا يعيشون كإخوة و يعرفون على جيدا لأنهم ساعدوه على أن يصبح باشا دون أن ينتبهوا إلى الضجة التى حلت مؤخرا. فى الوقت نفسه كانوا يجلون عادلة خاتون لأنها حفيدة و ابنة ثم زوجة المحسنين إليهم السابقين مع أن سلوكها لم يكن دائما يعجبهم. ثم مات أحد هؤلاء الخمسة فجأة فأرادت عادلة خاتون إيهامهم أن الباشا هو الذى سممّه و انه طلب من القسطنطينية الإذن بالقضاء عليهم جميعا. فظنوا أن الأوان قد آن لتأمين استمرارهم علما انهم كانوا فى السابق أكثر من يعتمد عليه الباشا و هم الذين أعادوه إلى الحكم بعد أن طرده الانكشاريون من المدينة فتحولوا إلى رؤساء ثورة لم يعرف الباشا عنها شيئا إلا عند ما تجرّدت المدينة بكاملها ضدّه.

لم يجد على مفرا من الهرب متنكرا بثياب امرأة. بعد مرور بضعة أيام ألقى القبض عليه و هو يسعى إلى الخروج من المدينة لطلب النجدة من العرب فاقتيد إلى السرايا و أعدم فيها.

بعد موت على اجتمع الديوان لاختيار باشا بين الاسياد الاربعة الباقين. اثنان منهم رفضا هذا الشرف معتبران عمر كخيا هو الاحق بالمنصب لأنه زوج ابنة احمد باشا. الثالث و هو محمود كان غائبا لأنه كان يحتل منصب المتسلّم فى البصرة لكن كان حاضرا. و لم يكن هذا الاخير رجلا ذا شخصية فذة أو ضابطا بارعا بل اختاروه بسبب زوجته و هى امرأة رقيقة يحبها الشعب عانت من مقتل زوجها الاول ظلما و من غرور اختها. و هكذا اقترح الديوان بكامله عمر الكخيا ثم اعدّ الجميع رسالة إلى السلطان كتبوا فيها ان على باشا كافر كان يريد تسليم المدينة للفرس و ان الشعب ثار عليه ثم قتله و ان العرب و الاكراد ثاروا هم أيضا و ان عمر باشا وحده قادر على إرجاع الامن إلى المدينة لذا فقد رجاه الديوان ان يتحمل مهام الحكم على أمل ان يوافق السلطان على ذلك. و هكذا سمّى باشا فى صيف ۱۷۶۴.

فى السنة التالية سار عمر باشا إلى الجبال لمواجهة قبيلة خزاعل. فأضرم النار فى لملوم مكان إقامة الشيخ و قطع رؤوس ستة أو سبعة من الشيوخ الرئيسيين ثم أرسلها إلى القسطنطينية كرسالة تقول إنه لشدة ما أذلّ العرب، لن يضايقوه أبدا فى المستقبل. بهذه المناسبة حصل على تهانى الوزير. فى هذا الوقت عاد الشيخ الحاكم الذى كان قد هرب لدى قدوم الباشا فأجر الشيخ الجديد على إرجاع الحكم له، و لم يرغب الباشا فى شن حملة جديدة فتركه فى منصبه. كنت قد ذكرت سابقا ان قبيلة كعب هى الاخرى تزعج الباشا. و قلما تمر سنة دون ان يحمل فيها باشا بغداد على العرب أو الاكراد لكن الباشاوات كانوا يتأكدون من ان السلطان لا يعرف شيئا أو يعرف القليل عما يحصل فى الحكم.

لم تكن زوجة عمر باشا قد سمحت له باتخاذ زوجات اخريات أو جاريات و لم يحصل منها على أى ولد. و كان الاتراك اكيدين من التخلص من عائلة احمد باشا عندما يموت عمر باشا الا

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۵۶

ان اهل المدينة قد اعتادوا منذ سنوات عديدة على اختيار رئيسهم بنفسهم مما اضطر السلطان مرارا إلى الموافقة على خيارهم حفاظا على هذه الولاية الجميلة و كى لا تسقط فى أيدى الفرس .

إن شكل الحكم فى بغداد يشبه الحكم فى القسطنطينية. يوزع الباشا المهام على ذوقه لكن الامور الهامة تخضع للديوان. أما الاشخاص الذين يحتسب صوتهم فى الديوان فهم:

- جميع المسنين الذين خدموا بصفة كخيا الباشا و المتسلمين فى البصرة و «الويودة» فى ماردين و الذين حكموا المدن أو الاقاليم و الموجودين فى بغداد.

- الباش آغا أو رئيس فرقة الخيالة.

- الآغا أو رئيس الانكشاريين.

- رئيس العلماء. لا أحد يطلب إعطاءه هذا اللقب إذ يكتسبه مباشرة الذين يشتهرون بعلمهم و معارفهم. إن هذا اللقب نادر جدا فى تركيا .

- قاضى المدينة و يكون ملّا و يغيّره مفتى القسطنطينية كل عام.

- مفتى المذهب الحنفى.

- مفتى المذهب الشافعى.

نسيب الشرف أو رئيس سلالة محمد فى هذا الباشاليك يكون هذا فى الوقت نفسه (المتولى) أو مفتش مسجد الشيخ عبد القادر و مقامه.

- الخطيب الشيخ و هو خطيب مسجد الشيخ عبد القادر.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۵۷

- الخطيب زرمشاب(Zermashab) أو خطيب المسجد الذى دفن فيه ابو حنيفة.

الضابط الاساسى للباشا هو الكخيا و يكون فى الوقت نفسه الوزير تماما كوزير السلطان. و للباشا ايضا مجموعة من المستشارين و يجب ان يكونوا ممن شغل مناصب هامة. فى أيامى كان فى البلاد رجل يدعى عبد الله بك أخ شيخ قبيلة عبيد(Obed) و كان البابك باشى أو قائد الخيالة لكن لشدة ما كان محترما كان الباشا يستشيره فى كافة الامور و خاصة تلك المتعلقة بالعرب.

بالاضافة إلى ذلك نجد الدفتردار أو امين الخزينة . و أفندى الديوان أو امين سر الدولة. يحل محلّ الكخيا عندما يغيب القابدجى قحجازى(Kehajasi) هناك ايضا الحريم قحجازى أو المسؤول عن بلاط الباشا. السلام أغاسى هو رئيس التشريفات، المير أحورAhor هو قائد السلاح هذا بالاضافة إلى رئيس ضباط العدالة أو الشاويشلر قبجاسى. يبقى هذا الاخير إلى جانب الباشا كالشاويش الأمين الذى يبقى إلى جانب الكخيا لتلقى اوامره، يلازم باشا بغداد القائد باشا المذكور فى القسم الذى يتناول البصرة. أما المسؤولون عن جباية الضرائب و الخراج (و ما يدفعه المسيحيون و اليهود) فهم يعينون من قبل الباشا.

لكل الباشاوات و خاصة باشاوات بغداد عدة آغاوات. إن هؤلاء بمثابة حرس و يخدمون الباشا بأنفسهم عندما يخرج الباشا على ظهر الخيل يسيرون خلفه على خيل رائعة و قد ارتدوا ابهى ثيابهم و لكل منهم خادم يهتم بفرسه يخضعون جميعا لأمين صندوق الباشا و السلحدار أو حامل السيف الا ان الاول يعطيهم الاوامر فى المدينة بينما الثانى فى القرى.

الضابط الثالث الاساسى هو التشوقدار باشا. ان ۲۴ من الانتس آغاسى(Itsagasis) من المكلفين بمهام خاصة يحيطون دائما بالباشا و لن أذكر منهم إلا التالية أسماءهم:

- الكستنجى المسؤول عن تفتيش الخزانة.
- الابريقدار الذى يحمل للباشا الماء حتى يغتسل.
- السدجى باشى الذى يحمل له الماء ليشرب.
- القهوجى باشا الذى يهتم بتحضير القهوة.
- الانتس قلرجى الذى يحفظ المربّى.
- الرشتوان الذى يهتم بالخيل.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۵۸

- الانتس معشتر باشى الذى يهتم بالسجاد.

ان أحد هؤلاء الانتس آغاسى هو أيضا لالا- أو رئيس الغلمان يراقب هؤلاء الشبان الصغار و الفتيان و هم بغالبيتهم مسيحيون من جيورجيا أو من مناطق اخرى يباعون كعبيد. إن قسما منهم يتحدر من أبوين مسلمين يجب الاهتمام بتربيتهم على الاصول التركية و بتعليمهم القراءة و الكتابة و ركوب الخيل و حمل السلاح على الطريقة التركية. إن الاذكياء و الماهرين من بين هؤلاء يرقون إلى منصب إتس آغاسى و غيره من المناصب المتشرفة من غير أخذ أصلهم بعين الاعتبار اما الباقون فأملهم ضعيف فى الوصول إلى مرتبة رفيعة فى هذا البلد. يسمح لحملة لقب إتس آغاسى بإطالة شاربيهم لكن إذا بلغوا مناصب ارفع يصبحون صقلى آغاسى أو سقلى آغاسى و يسمح لهم بإرخاء لحيتهم من جهة ذقنهم. يعمل عند الباشا ما يقارب ۱۵۰ من هؤلاء الاخرين.

و هناك ايضا التشوقدار أو المخاتير من بين الإتس آغاسى. و هؤلاء لا- يمتطون الخيل فى خدمتهم. إن رئيس الفريق الاول هو التشوقدار باشا و يكون الفريق مسؤولا- عن نقل اوامر الباشا إلى الولايات. اما المخاتير فهم مسؤولون عن تفتيش الخيم فى القرى و يقومون بمهمام مخزية أحيانا.

إن ذهاب الباشا إلى المسجد يكون بمثابة احتفال يحيط به من جهة التفنكجى باشى و من جهة اخرى المطردجى باشى و يسبقه عدة موسيقيين و عدد من الانتس آغاتسى على ظهر الخيل هذا بالاضافة إلى عدد من الضباط الاخرين الذين يرافقونه كالالواتسوس و السراج باشى و القواس و الشاطر لكنى لا أعرف ما هى مهامهم.

يؤلف الإتس آغاسى الفرق العسكرية الاهم و لباشا بغداد من المشاة فهم ما يقارب ۸۰۰ رجل

اما الكخيا و الاسياد الباقون فى بغداد فعددهم ۲۰۰ رجل

إن خيالة الباشا المسماة لوند و التى تكثر فى كوك الحلّة لضبط العرب تتألف من ۱۰۰ بيرق

كل واحد من ۲۵ رجلا عند ما يكون كاملا لكن فى المطلق يصل عددها الى ۱۵۰۰

المشاة و يسمى هذا الفريق برتولى يتألف من ۳۰ فرقة كل واحدة من ۴۰ رجلا فى ايامى كان مجموع المشاة يوازى ۸۰۰

يقدّر عدد التفنكجى أو الجنود فى خدمة الباشا ب ۲۰۰

إن جيش الباشا النظامى و المدرب على الطريقة التركية يتألف من أقل من ۳۵۰۰ شخص.

إلى جانب ذلك هناك فرق من الانكشاريين و من رجال المدفعية إلا أنه خاضع للسلطان اى انه لا يحق للباشا أمره بالتوجه لمقاتلة الثوار من العرب و الاكراد يعتبر الانكشاريون رجال المدفعية

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۵۹

انهم يقومون بأعمال تزيد عن اللازم لأنهم يحمون المدينة و القلعة من اعداء السلطان و من الباشا شخصيا. و هم يخضعون للآغاوات المسؤولين عن قطعهم فى القسطنطينية و التى ترسل لهم الضباط يكون جنودهم من اصل البلد و من انصار الباشا خاصة اذا اغدق عليهم شرف السماح لهم بالانضمام إلى هذه القطعة. لم استطع معرفة عدد الانكشاريين الموجودين فى بغداد بدقة اذ قال البعض انهم يبلغون عشرة آلاف بينما أصر آخرون ان عددهم يصل إلى ۲۰ الفا. ان الرقم الاول يمثل العدد الرسمى لدى السلطان، أما العدد الثانى فيتألف أيضا من السكان و الآغاوات المسجلين عند الانكشاريين للتمتع ببعض الامتيازات و لحماية انفسهم اذا تعرض لهم الغير يتميز اعضاء كل قطعة بقبعاتهم الخاصة التى تميزهم عن القطع الاخرى. أما من حيث اللباس فكل شخص يرتدى ما يشاء.

فى ولايات اخرى لا وجود لكلمتى لوند أو برتولى لكن يقال لخيالة الباشا دلى(Deli) و للمشاة تفنكجى و سقمان.

عند ما يحتاج الباشا إلى مزيد من الفرق العسكرية فى حملاته ضد العرب و الاكراد يتفق مع بعض الضباط فيجند كل واحد اشخاصا يكون مسؤولا عنهم. تسمى هذه القطعة المستحدثة سردنجستى. يقبل جميع الاشخاص المتطوعين و يقادون مباشرة إلى المعركة دون تدريب يذكر على السلاح الذى يعطى لهم. بعد عدة أشهر و هى المدة التى تستمر فيها الحرب، يطلق سراح هؤلاء. فى ايامى جندت عشرة بيارق كل واحد مؤلف من ۴۰ رجلا أرسلوا إلى البصرة لمحاربة قبيلة كعب. و حتى خادمى انخرط فى الصفوف و أصبح سردجستى ليدخر المال الذى اعطيته اياه و يعود به فاضطررت إلى استبداله بمارونى من حلب. بما ان البيرقدار كان يطلبه عدة مرات، سألته ما إذا كانت الفرق قد تمرّنت فأخبرنى ان الضابط تلا الفاتحة معهم ثم كلمهم على التحضيرات اللازمة للسفر و أعطاهم المال اللازم لذلك ثم طلب منهم ان يكونوا شجعانا و شرفاء و بعد ذلك فرّ منهم. عند الحاجة يمكن للباشا تجنيد ۳۶۰۰۰ شخص آخرين فى ولايات البصرة و الحسكة و ماردين و كردستان و من العرب المتجولين فى أراضيه لكن عدد الفاعلين منهم فى الحرب لا يكاد يصل إلى ۱۰۰۰۰ رجل و الباقون يسيئون إلى الجيش أكثر مما يفيدونه.

من أهم مدن الحكم: البصرة، أربيل، الحلّة، رماحية، مشهد على، كربلاء، الطاق، ألتون كبرى، قرة طاغ، مندلى، بدرة، خراسان، مهروت، بهروز، قزل رباط، خانقين، قصر شيرين، (بجوار بلاد فارس) شهربان، حرانية، بنكجة، برة دان، دجيل، تكريت، (على دجلة) سامرّاء، (على دجلة)، دور، رنكباد، دروزين، خرنبات، عانة (هذا المكان و الاماكن التالية تطل على الفرات) جبة، هيت، حديد، الروس، كبيسة.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۶۰

أثناء سفرى لم أر الا القليل من هذه المدن و الضواحى و القرى لذا لا أستطيع تحديد مكان الباقيات. إلا انى نقلت اسماءها لأنها تستحق أن ينظر فيها الجغرافيون فربما استطاع المسافرون من بعدى ان يعرفوا من أين حصلت بلاد دروزين على اسمها هل يوجد فيها دروز حاليا ام هل كانوا فيها فى السابق؟ و لست متأكدا من الكتابة العربية لبعض هذه الاسماء لأن المهّا الذى كتبها لى كان خطه سيئا فكتبتها بأحرف المانية وفقا لطريقة لفظها بالعربية.

لا- يرسل الباشاوات أى حاكم تركى للأكراد و البدو إذ يجب أن يكون رؤساؤهم من القبيلة نفسها فيعين الباشا الشخص الذى يختارونه. كنت قد دوّنت اسماء القبائل العربية الاساسية فى هذا الحكم فى هذا الكتاب و فى كتاب «وصف الجزيرة العربية» هناك قبائل تملك قرى كثيرة لقاء مبلغ سنوى تدفعه للباشا.

و مع انى لم أكن فى كردستان إلا انى سأنقل المعلومات التى تلقيتها فى إطار الحكم فى بغداد لأن جزءا كبيرا من كردستان يخضع لباشا بغداد.

إن كردستان بلد جبلى خصب يشتهر بالعفص الذى تصدّر منه كل سنة كميات هائلة إلى حلب و منها إلى أوروبا و بالمنّ الذى يستعمل بدلا من السكر فى هذه الأنحاء و بالقطن و الأرز و التبغ و العنب و التين. كما و تشتهر هنا زراعة الكراب (أو الفوّة) و العفس و هى انواع من الحرير الذى يظهر على الشجر و العلك لكنه كبير جدا كما علك جزيرة شيو، لأن سكان هذه الانحاء الجبلية قد حظوا دائما على حاكم منهم فقد استطاعوا بالتالى الحفاظ على لغتهم التى يزعم ان لها ثلاث لهجات. إن لهجة إقليم قلعة جولان قريبة جدا من اللغة الفارسية و لغة إقليم كوى سنجاق قريبة من العربية و من اللغة الكلدانية أما الجزء الشمالى من كردستان فلغته قريبة من التركية.

تشكل قلعة جولان أو قرة جولان الولاية الكبرى فى بلاد كردستان و هى تابعة للسلطان. تحكم الولاية عائلة سوران المنحدرة من قبيلة بوب(Bobbe) و يدعى رئيسها باشا. إن هذا الباشا و الباشاوات الاكراد على حد سواء لهم طوق واحد يتلقونه من باشا بغداد فهم بالتالى لا يتساوون مع البكوات الاتراك الذين يتلقون طوقهم مباشرة من السلطان. يكثر عدد أبناء العائلة الحاكمة و كلهم يودون الاستئثار بالحكم و التحول إلى رتبة باشا لذا يحملون على بعضهم إلا ان باشا بغداد يعين باشا على قلعه جولان الشخص الذى يدفع اكثر. و لا شك ان شعب هذه الامة يعانى بالاضافة إلى ظلم الاتراك من طموح العائلة المالكة. لذا، لا نجد مدنا فى هذا البلد فحتى قلعة جولان مكان اقامة الباشا ليست الا قرية متواضعة جدا.

لو أردنا بكلمة واحدة ان نحدّد طبيعة الاكراد لقلنا إنّهم ذوو طابع انتقامى. فقبل وصولى إلى

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۶۱

الموصل بفترة وجيزة قتل الملّا باشا قلعة جولان و هو فى سريره أثناء الليل لأنه كان قد قتل أخاه.

فى الجزء الجنوبى من كردستان و على اراضى باشا قلعة جولان هناك إقليم شهره زول و هو اسم كان يتخذه احد الباشاليك القديمة. أعتقد ان قرية غالمبور الواقعة بين سنجاق و كركوك كانت فى السابق مكان إقامة الباشاوات. و لم أسمع عن سرداوا و باسيان و مرجى و سنغانا و أغجلّر إلا أنها قرى من كردستان.

يقال إن لسردست قلعة صغيرة.

الباشا الكردى الثانى الخاضع لباشا بغداد و الذى يدفع له ضريبة أو قل جزية يسكن فى كوى سنجاق و هو مكان معروف يبعد عن أربيل مسافة ثلاثة أيام و عن التون كوبرى مسافة يومين. إن القرى الوحيدة التى سمعت بها فى أراضيه هى روش و موران، و دوين و حرير، تبعد القرية الاخيرة مسافة ستة فراسخ عن اربيل اما دوين فهى مسقط رأس أيوب والد صلاح الدين.

تقع بلباس على جبل عال و تبعد سفر اربعة إلى خمسة ايام عن الموصل. يطلق اسم بلباس أيضا على قبيلة متجولة. إن عدد هذه القبائل البدوية الكردية كبير فى بلادها و هى لم تكتف بذلك بل انتشرت ايضا فى سوريا و بلاد فارس.

وفقا للوصف الذى وصلنى، تقع لوندوس فى واد صغير على جبل عال و متعرّج لا يمكن الوصول اليها الا من خلال طريق واحد ضيقة كثيرا. يقال ان سكان هذا الاقليم يدفعون احيانا لباشا كوى سنجاق مبلغا زهيدا لكن الحكم هنا لا يبقى فى العائلة نفسها كما و السكان لا يسمحون لأى جار مجاور اقوى منهم ان يرسله لهم رئيسا من قبله. لكن يقال إنه عند موت الرئيس تجرى مبارزة (أو ربما حرب داخلية هى اكثر شيوعا عند المسلمين من المبارزة) و يقرّر من جزائها من هو الحاكم الجديد.

إن الباشا الكردى الثالث الخاضع لباشا بغداد يدعى (وفقا لاسم العائلة) باشا درنة و هو يحكم فى شاو، إقليم يقع عند الحدود الفارسية.

إن المقاطعات الصغيرة فى كردستان التالية اسماؤها لا تخضع لباشا بغداد و تكون إما مستقلة أو تدفع جزية للباشاوات المنصبين على المناطق المجاورة.

عميدية هى قلعة صغيرة واقعة على جبل منحدر يصعب النيل منها فى هذا الاقليم. تبعد عن الموصل مسافة ۱۸ فرسخا أو ۱۳ أو ۱۴ ميلا المانيا، يدعى حاكمها الحالى بهرام و هو يتحدر من عائلة البلدينوس(Baldinous) التى حكمت هنا فى أيام الخلفاء العباسيين. يلقّب بالبك

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۶۲

و بالباشا و يريد ان يستقل كليا. لكن عندما تصل جيوش الباشاوات المجاورين إلى هذا الاقليم عليه ان يغدق عليهم الهدايا و إلا يهدمون قراه الواقعة فى السهل. تكثر الفاكهة فى أراضيه بالاضافة إلى مناجم الرصاص التى تدر عليه ارباحا طائلة. يملك باشا عميدية مدينة عكر الصغيرة التى تبعد سبعة أو ثمانية اميال عن الموصل. كانت هذه المدينة شهيرة منذ أيام الخلفاء و لا تزال حتى اليوم ذائعة الصيت لأنها تزود المدن المجاورة بالأرز.

زاخو هى مدينة صغيرة فى هذا الاقليم. أما الاسماء التالية فهى لقرى: جزيرة، نفكر، شاه، خان، صخوك، زبار، و اسماعيل. القرية الاخيرة تقع عند نهر دجلة و على الطريق التى يسلكها اليزيديون من جبل سنجار إلى قبر شيخهم الكبير عدى.

جكاربة فى إقليم فى كردستان يقع شرقى مقاطعة عميدية و بالقرب من وان، إن هذا الاقليم جبلى و يسكنه النسطوريون ولديهم بطرك خاص يدعى شمعون. ان هذا الاقليم مستقل تماما عن الكوش. يقال ان باشا و ان يرسل أحد البكاوات يقطن فى قرية قمرية الا ان السكان لا يكترثون له و هم يتجنبون أى اتصال بالمسلمين خوفا من الخضوع لنيرهم. و لا يسمح الناظر فى حقارى للتجار المسلمين بالقدوم اليهم كما و لا يسمحون لأى مسلم بالسكن عندهم.

يقال إنه فى بيازيد و هو إقليم آخر قريب من وان، هناك باشا كردى بالوراثة حكمت عائلته الاقليم لسنوات عديدة بالاضافة إلى إقليمين آخرين هما جولمرك و بدليس. فى هذا الاقليم الاخير تشكل منطقة موش المكان الرئيسى اما ازازون فهى قرية صغيرة

عند ما كنت أستعلم فى الموصل عن عملات قديمة رومانية و يونانية و فارسية، أكد لى الناس اننى يمكن ان اجد مثلها فى كردستان اذ يتعامل بها الشعب لأن العملة تنقص فيه. و قد وجدوا فى البلد نفسه كميات من هذه الاموال كانت مدفونة تحت الارض إلا ان الجزء الاكبر منها قد أرسله تجار الموصل و نصيبين و ماردين و ديار بكر إلى مدن أخرى مقابل العفص إذ عندما يكتشف باشا أو قاض تركى ان احدهم يريد عملات قديمة يزجه فى السجن و تسحب منه كل ممتلكاته أو يبرح ضربا لجعله يعيد الكنوز التى لم يجدها بعد. إن العملات و القطع النقدية القديمة العربية ليست نادرة فى الشرق لأن العادة تجرى على ان توضع سلاسل منها حول رؤوس الاولاد و أعناقهم و هم يفضلون القديم منها لأنها منقوشة بآيات قرآنية ليست موجودة على الجديدة إذ استبدلت عليها الآيات بأسماء الحكام و مناصبهم لا يزال سكان هذه المناطق الكثيرة الاضطراب

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۶۳

إلى اليوم يدفنون أشياءهم الثمينة حفاظا عليها لأنه يصعب عليهم تشغيلها بأمان كما فى اوروبا كما يصعب عليهم حفظها لأن خزاناتهم و بيوتهم سيئة الصنع و البناء. و غالبا ما يرفض حتى المريض ان يبوح لأهله بالمكان الذى دفن فيه أشياءه الثمينة كى لا يستعملوه قبل الاوان. و يحكى منذ سنوات قليلة ان كرديا من قبيلة كيكى وقع عن حصانه و رفض إخبار ابنه بالمكان الذى دفن فيه ماله، و عند ما تأكد من أن أمله فى الحياة ضئيل جدا كان قد فقد القدرة على النطق و لم يستطع ان يقول إلا «على تلة». فقام الابن بالبحث على عدة تلال لكنه لم يجد شيئا.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۶۴

سير رحلتى من بغداد إلى الموصل

اشارة

خلال اقامتى فى بغداد، لم تمر بعثات كثيرة، لأرافقها إلى حلب عن طريق الصحراء، كما و ان السفر وحيدا محفوف بالمخاطر. فى هذه الاثناء، كانت احدى القوافل تستعد للذهاب إلى دمشق، فاستغل معظم التجار، الذين يبغون السفر إلى حلب، هذه الفرصة، و ارتأيت ان احذو حذوهم.

و قبيل انطلاق القافلة، علمت ان القبيلة العربية فى سوريا، قد تخاصمت مع باشا الاتراك، و ان احد اعيان المنطقة بدل رأيه، و عدل عن مرافقة القافلة المذكورة فأحسنت فعلا بالبقاء برفقته فى بغداد، اذ تعرضت القافلة للنهب على مقربة من دمشق، و سرقت الخزنة التى ارسلتها إلى حلب.

ان الطريق المؤدية إلى الموصل، عبر كركوك و أربيل، خالية من المخاطر، و يمكن سلوكها دون انتظار مرور القوافل الكبيرة؛ اختار احد المسافرين سلوك هذه الطريق، خاصة و اننا نصادف عليها مدنا كثيرة، خلافا للطريق المؤدية من بغداد إلى حلب، حيث لا نقع الا على قريتين أو ثلاث.

و لما استعلمت عن القوافل الصغيرة المتجهة إلى الموصل، علمت ان بعثة مؤلفة من ۲۵ أو ۳۰ يهوديا تستعد للانطلاق، كان هؤلاء الآخرون يمتطون الحمير، و يستعملونها لنقل بضائعهم؛ و هم يلبسون ملابس رثة، و لا يحملون الاسلحة. و الجدير ذكره ان سكان امم الشرق يحتقرون اليهود شأنهم شأن الاوروبيين، فاخذت بالتالي اسوأ صحبة للسفر برفقتها. و لكن قائد القافلة كان تاجرا عجوزا من الموصل، قام برحلات كثيرة في هذه الاقاليم، و خاصة في كردستان، و يمكنه ان يزودني بمعلومات وافية عنها. و قد أكد لي ان الطريق امنة جدا. و لا داعي للخوف ابدا، و لما ادركت انه يجدر بي انتظار وقت طويل حتى تمر بعثة اخرى، قررت متابعة رحلتي برفقته. كنت احمل معي فرمان السلطان، الذي حصلنا عليه عند انطلاقنا من القسطنطينية، فضلا عن جواز سفر من باشا بغداد رغم ان القضاة و رجال الحكومة لا يسألون المسافرين عن جوازات السفر هذه، الا انني فضلت ان احمله معي، لأن عامة الشعب يحترمون حامله فاستأجرت حصانا لي و بغلين لخادمي و امتعتي و غادرت بغداد في ۳ آذار/ مارس.

اتجهنا مباشرة من بغداد إلى بانكشا (اللوحتانXLI وXLV)، و وصلنا اليها مساء السابع من آذار/ مارس. في الطريق، لم ألحظ شيئا مميزا، خلال الايام الخمسة الاولى و لا حتى خلال الايام

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۶۵

الثلاثة الاخيرة. غير اننا شاهدنا في هذه الصحراء، هضابا من التراب و الصلصال على ارتفاع ۳۳ ۵۷ من القطب، في بقعة كانت تقع فيها قديما مدينة قرقة، التي لن يتبق منها الا اسوار صرح عال بناه خليفة، اتخذه مع سماره مقرا له؛ و مما لا شك فيه ان طريق قرية دربلا، تضم انقاضا مثيرة للاهتمام؛ فلسنوات خلت عثر في خان مصبح، على قبة كبيرة، و أضرحة حجرية، تعود إلى زمن الاشوريين أو الفرس القدامى.

منذ اليوم الاول، لاحظت جبن صحابي؛ فقد تعارك عدد من البغالين المسلمين، و أثاروا ضجة كبيرة، فاضطرب اليهود من جراء ذلك، رغم ان عددهم يبلغ أربعة أضعاف عدد المسلمين، و خشوا ان يصبّ هؤلاء الاخرون جام غضبهم عليهم و يسلبوهم مالهم. فتوسل الى احدهم ان اعيره مسدسي، و سألته ان كان يتجرأ على اطلاق النار فأجابني انه يريد وضعه على خصره، دون تلقيمه، كي يخيف من يحاول نهبه فأخرجت مسدساتي لأفرغها من الرصاص، و تجمع حولي اليهود، متوسلين الى ان لا أثير سخط البغالين، و ان لا اطلق النار و ألفت انتباه اللصوص الينا. و تدل هذه القصة على مدى خوف اليهود من المسلمين، مما يعني انهم لن يحاولوا قط حمل السلاح و اعلان الحرب على الاتراك و غزو ارض الميعاد، مهما ازداد عدد رجالهم. فقد حسبوا في تلك الساعة، ان الخطر يحدق بهم رغم ان الوضع لا يدعو للخوف. و بعد ان تعارك البغالون، عادوا و تصالحوا، و تابعنا رحلتنا بسلام.

تقع قرية بانكشا على ارتفاع ۳۴، ۵۲ من القطب و كانت في هذا الفصل شبه خالية من السكان، لأن معظمهم انتقل إلى الخيم ليرعوا ماشيتهم و خاصة النعاج.

قرب دوس حاروت، على مقربة من بانكشار، مناجم ملح و زفت معدني و نفط.

تكثر مناجم الزفت المعدني في هذه المنطقة، و هو يستعمل في (هيت) لطلي السفن من الخارج. أما النفط فهو نادر الوجود؛ و يستبدله السكان بالزبل و زيت الحيتان لإشعال قناديلهم. غير انه تفوح من هذه التربة الصمغية، خاصة في الفصل الحار، رائحة كريهة تمنع الفلاحين من استعمالها في منازلهم. أما المشاعل التي نجدها في منازل باشاوات بغداد و اعيانها، فهي عبارة عن خرق صغيرة تبلل بالنفط و تجفف لاحقا. و الجدير ذكره ان الجمال تفرك بهذا النفط، في فصل الربيع، عند ما ينمو و برها الجديد. و يقال ان هذه المنطقة غنية بالنفط الابيض الذي يستعمل كدواء للانسان. فقد أكدوا لي، ان هذا النفط يتغلغل إلى الجسم، ان سكب على رأس الانسان، و يخرج بعدها من الاصابع و الارجل.

في ۹ اذار/ مارس، و بعد ان احتفل الهنود بالسبت قطعنا أربعة اميال و نصف من بانكشا لنصل

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۶۶

إلى قرية طوق، التي غالبا ما تطهرها مياه النهر. نشاهد على الطريق، مروجا و حقولا في غاية الجمال، و يقال ان طوق كانت تعرف قديما بداكوك ، و قد بقي منها اليوم بوابة كبيرة، و جامع رحب، مبني من الآجر المشوي. كما و ان معظم المنازل مبنية من الطين و الصلصال. نشاهد، على مقربة من القرية، ضريح ولي مسلم، يدعى زين العابدين، يقال انه يعيد كل سنة، إلى احد العميان بصره فلا عجب اذن ان يزور ضريحه الملايين من المسلمين، و علمت ان ابيه، ايمان محمد دفن ايضا في هذه المنطقة، و ان تربة ضريحه، تستعمل للشفاء من كافة انواع الامراض.

في ۱۰ آذار/ مارس، سرنا خمسة اميال لنصل إلى كركوك؛ و في الطريق شاهدنا سلسلة جبال منخفضة تحمل اسم رجل يدعى الاسكندر، مدفون فيها، و لا أخال ابدا انه الإسكندر الكبير (ذو القرنين)، كما اخبرني رفاقي في الرحلة. سمعنا في طوق روايات عديدة حول اللصوص الذين يزرعون الخوف في نفوس اليهود بغية الحصول على جزية منهم. و سألت احد الذين قضيت الليل في منزله، عن بندقيته و سيفه، فأجابني ان رحالة لا يحسنون استعمالها، قد قدموها هدية له، يوم كان يعمل جنديا و يرافق القوافل.

تقع كركوك في واد جميل و خصب، على ارتفاع ۳۵، ۲۹ من القطب. غير انه لم يتبق الا بعض الآثار من المدينة نفسها، الواقعة على سفح هضبة متعرجة، بقيت عليها حامية للانكشاريين، و حصن معين، شديد القذارة. و نشاهد في هذه البقعة ثلاثة جوامع تعلوها ابراج شاهقة، و يضم احدها اضرحة الانبياء، دانيال، و ميخائيل، و حنانيا، و اليعازر. و الجدير ذكره ان اليهود لا يشكون ابدا ان هؤلاء الانبياء قد دفنوا فعلا في هذا المكان. غير ان المسلمين لا يسمحون لهم بالدخول إلى الجامع و ممارسة شعائرهم الدينية.

في كركوك انضم، حوالي ۴۰ كلدانيا أو نسطوريا إلى الكنيسة الرومانية، و عندما علموا ان أوروبيا وصل إلى البلدة، جاؤوا لزيارتي، معربين عن فرحهم بمقابلة رجل من ارض القديس بطرس، و طلبوا مني بإلحاح ان أمضي معهم بضعة ايام. و كم تذمروا من تصلب رأي مسيحيي الشرق، و رفضهم تصحيح اخطائهم السابقة و الاعتراف بالبابا كحبر أعظم فنصحت هؤلاء الناس الطيبين بالتحلي بالصبر، دون ان ألفت انتباهم إلا انني لا اشاركهم الرأي. بصورة عامة، لاحظت ان مسيحي الشرق، يتبادلون الاحترام، و لا يطيقون الكاثوليك الرومان. أما المسيحيون الذين ارتدوا إلى الدين على يد الكهنة الاوروبيين فهم اعداء المسيحيين المحافظين اللدودين.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۶۷

تعد كركوك مقر اقامة الباشا، و هو يفضل الاقامة على الضفة الاخرى، قبالة المدينة، و يخضع اقليم شهر الصول الممتد من طوق إلى أربيل، لحكومة بغداد، كما اشرت اعلاه، اذ استطاع نادر شاه بسهولة فائقة الاستيلاء على المدينة و على الحصن المجاور لها. و لكنه لم يستمتع بإقامته في الموصل، و فضل الانسحاب منها على الفور و خسارة كل شيء. و شاهدت على الطريق عددا هائلا من القبائل التي تركها الفرس خلفهم منذ ۲۰ سنة تقريبا.

تكثر في هذه المنطقة الطواحين التي تعمل على المياه، لهذا السبب تنقل كميات وافرة من الطحين إلى بغداد، التي تصدر في المقابل التمر و غيره من البضائع. و يزعم ان المناطق المحيطة بكركوك غنية بمناجم النفط و الزفت المعدني. تتميز منطقة بابا غرغر بتربتها الساخنة، التي يمكن استعمالها لطهي الطعام. و أكد لي بعض الاشخاص الذين زاروا هذه المنطقة، ان اللهب يتصاعد منها ليلا. خطر لي، انه قد يتسنى لي الوقت لزيارة هذه المنطقة لأن مسلمي القافلة، كانوا ينوون قضاء يومين في كركوك للاحتفال بالبيرم. و لكن صباح ۱۱ آذار/ مارس وصلت قافلة أخرى متجهة إلى اربيل، فقررنا السفر برفقتها. لم نصادف في طريقنا اى قرية أو مدينة، حتى بلغنا الطون كوبرى. مساء ۱۲ آذار/ مارس؛ غير اننا التقينا بعائلات كردية ترعى ماشيتها في تلك الحقول الخصبة.

تتألف مدينة الطون كوبرى (أو جسر الذهب) من ۴۰۰ أو ۵۰۰ منزل، و هي تقع في جزيرة، شاسعة تستمد اسمها من جسر عظيم مبني على ساعد النهر. و لاحظت ان الجسر القديم، الذي تداعى منذ عدة سنوات، كان كثير الارتفاع، لأن المهندس المعماري لم يحسن تشييده على علو منخفض. في ذلك المساء هطلت الامطار بغزارة، حتى بللتنا و انهكت قوانا. غير ان القافلة اجتازت المدينة، و حطت رحالها على الجهة الاخرى من النهر، في وسط الريف. و نصحني الجميع باللحاق بالقافلة، لأن منسوب مياه النهر كان مرتفعا، و العبور بقربه محفوف بالمخاطر.

لم اخالف نصيحة سكان البلاد حتى تلك الساعة، و لكني كنت ابحث عن منزل دافيء اجفف فيه ملابسي و آخذ قسطا من الراحة. فطلبت من البغّال ان يأخذ الحقائب و يسبقني، بينما بقيت في الخلف برفقة خادمي. كان سكان الطون كوبرى يحتفلون بعيد البيرم، و

يتباهون بوسائل التسلية نفسها التى شاهدتها فى القاهرة، و منها الاراجيح التى يركب عليها الصغار و الكبار على حد سواء، و حلبات المصارعة التى يتبارز فيها المتصارعون بالعصى .

تقع قرية كوى سنجاق، مقر الباشا الكردى على بعد ۱۲ فرسخا شمالى شرقى هذه المنطقة.

و كانت اربيل و الطون كوبرى تابعتين لنفوذ الباشا المذكور.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۶۸

أما اليوم، فيرسل باشا بغداد حاكما إلى بغداد، و يعين هذا الاخير آغا على الطون كوبرى.

صباح ۱۳ آذار/ مارس، كان منسوب مياه النهر مرتفعا للغاية، و خشيت ان اعبره و اجازف بحياتى و لكننى اضطررت للحاق بالقافلة لأننى ارسلت امتعتى و ساعتى الشمسية مع البغّال. و لما كان رفاقى فى السفر قد سبقونى بحوالى ساعة، عبرت النهر برفقة خادمى، الذى كان شديد الخوف، و لحقت بالقافلة فى قوس تاب فى الطريق، أقبل شيخان نحوى، و فى نيتهما نهبى؛ و لما ادركا اننى احمل اسلحة ناريه، واجبب بجسارة على اسئلتهم حول رحلتى، دون ان تظهر على وجهى بوادر الخوف، لم يتجرآ على توقيفى. شاهدت غربى الطريق جبل كارا جوف الشاهق الذى تكثر فيه بقايا مدن و قرى قديمة، غير ان طريقه محفوف بالمخاطر، لأن سكان هذه الجبال، لا يكترثون للحكومة التركية.

اخذت قرية قوس تاب اسمها عن هضبة صغيرة، و لأول مرة فى رحلتى، شاهدت على رأس الهضبة المذكورة مسلما يتلو صلاته. كان العلماء الاوروبيون، يتساءلون ان كانت النساء المسلمات، مرغمات على الصلاة، و ان كنّ يأملنّ بدخول الجنة. فأكدّ لى الشيوخ المسلمون، الذين لاحظوا اهتمامى فى هذه المسألة، ان النساء يصلينّ خمس مرات فى اليوم، و لا يتوانين ابدا عن تأدية هذا الفرض.

تعرف قرية قوس تاب، بخان عديل. فقد تحولت هذه المنطقة الخصبة، إلى صحراء قاحلة، يقطنها الاكراد الرحل.

و لكن احمد باشا، حفر بئرا فى هذا المكان و بنى قربه منزلا- مخصصا لراحة سعاة البريد. و لكن ابنته عادلة خاتون شيّدت خانا للمسافرين، و وعدت الفلاحين بمنحهم امتيازات كثيرة ان اقاموا فى جواره، فى ظهور قرية كبيرة خلال وقت قصير. و هذا يعنى انه من السهل جدا على باشاوات الاتراك ان يعمروا مناطقهم الخصبة، و لكنهم لا- يقيمون فى المناطق الا لفترة قصيرة و يحاولون اثناءها استغلالها قدر المستطاع، فيفرضون ضرائب عالية، دون ان يحاولوا حماية الفلاحين الفقراء من العرب و الاكراد الرحل. فلا عجب اذن ان تتحول اقاليم الامبراطورية التركية إلى مناطق قاحلة و مهجورة.

فى ۱۴ آذار/ مارس قطعنا ثلاثة أميال و نصف لنصل إلى مدينة اربيل، التى ذاع صيتها بعد معركة الاسكندر و داريوس. حكم الامراء المسلمون الورثة هذه المدينة سنوات طويلة، و امتدت منطقة نفوذهم إلى طوروس فى بلاد فارس. و لكن المدينة كانت شاسعة للغاية، و تضم قصرا مبنيا على هضبة مرتفعة. أما اليوم فلم يتبق منها سوى ذلك الحصن المسور، و منازل مبنية من الصلصال من جهة

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۶۹

أخرى لا نشاهد فى هذه المنطقة بقايا جديرة بالاهتمام باستثناء انقاض جامع كبير، بناه السلطان «مسافر». أما المنارة التى شيدت إلى جانبه، فهى مصنوعة من الصلصال و الطين، و يمكن الوصول اليها عبر بابين و سلمين متقابلين.

تقع مدينة اربيل على ارتفاع ۳۶ و ۱۱ من القطب. و هى تخضع اليوم لحكومة بغداد، و تضم حامية من انكشاريى القسطنطينية. تقع مدينة قرميا الفارسية على بعد خمسة ايام منها. اخبرنى اشخاص عدة ان جبل بستان، الواقع بين قرمنشان و همذان (يدعى يهودى من الموصل انه يقع بين حلوان، و همذان) يضم رسومات و نقوش مختلفة، غير ان هذا المكان بعيد جدا عن طريقى. لكن ان قصد احد الاوروبيين اصفهان، يمكنه ان يسلك هذه الطريق لنقل نقوش جبل بستان، و يبدو لى انها كتبت بالانجليزية نفسها التى استعملت فى نقشى رستم والتى نقلتها فى اللوحةXXXIV .

لا تغذى مياه الانهر بلاد مقاطعة اربيل، كما فى بغداد و البصرة، غير ان القمح الذى ترويه مياه الامطار فحسب، يعطى طحينا افضل و مغذ اكثر. و الجدير ذكره ان القمح يحصد هنا ۱۵ مرة مقابل ۲۰ مرة فى بغداد، لأن المناطق التى ترويها مياه الامطار تزرع فيها البذور بكمية أكبر، و يتعرض بعضها للجفاف أو تأكلها العصافير.

كانت القافلة التى انضممنا اليها فى كركوك تتجه إلى اربيل. و علمنا حينها ان قافلة اخرى ستغادر المنطقة فى ۱۶ آذار/ مارس، فانطلقنا برفقتها عند طلوع النهار، و سرنا تسع ساعات أو خمسة أميال و نصف لنصل إلى زعب (أو زرب باللغة التركية) التى تصب فيها مياه اقليم حاكرى فى كردستان. يقال ان منسوب مياه هذا النهر ينخفض جدا فى الفصول الحارة. لكن عند مرورنا بقربه، كان منسوب المياه مرتفعا و مجرى النهر قويا.

ملاحظات حول اليزيديين

لم نقع فى طريقنا من اربيل إلى زعب إلا- على قرية واحدة. أما على الضفة الأخرى للنهر، فتقع قرية عبد الحفيظ، التى يقطن فيها اليزيديون. و لما كان الاتراك يحظرون ممارسة الشعائر الدينية، على الشعوب التى لا تملك كتابا مقدسا، مثل المسلمين و المسيحيين و اليهود، اضطر اليزيديون للحفاظ على سرية مبادئهم الدينية. فهم يحترمون القرآن و الانجيل، و المزامير، و كتب موسى الخمسة؛ و ان اتهمهم احدهم بالانتماء لمذهب اليزيديين، زعموا انهم من اهل السنة. و يدعى البعض انهم من عبدة الشيطان، الذى يسمونه شلبى أو السيد. و يزعم البعض الآخر انهم يعبدون الشمس و النار، و انهم من

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۷۰

الوثنيين الفظين و انهم يقيمون طقوسا مريعة. و لعلهم ينتمون إلى مذهب البيعزيين فى عمان. و لما كان عدد اليزيديين مرتفعا فى زعب و سوريا و أرمينيا، و معظم سكان المدن المجاورة يعرفونهم جيدا، سأعرض عليكم فى ما يلى رأى السنّة و مسيحيى الشرق فى اعمالهم و خطاباتهم. فهم يزعمون ان المدعو شاه عدى اسس ديانتهم و انهم ذرية العرب الذين قتلوا، بناء على اوامر الشمر، الحسين، حفيد محمد، و اضطهدوا عائلة على، فى ظل حكم الخليفة يزيد. لهذا السبب يقال ان اليزيديين يعتبرون شمر هذا وليا عظيما، و لما كان الحسين شهيد اهل الشيعة الاكبر، يفتخر هؤلاء الآخرون أشد الفخر بقتل احد اتباع هذا المذهب. و هم يحتفظون بصور الافاعى، و الماعز و غيرها من الحيوانات، فالأفعى تذكرهم بوقوع حواء ضحية الاغواء، و الماعز بطاعة ابراهيم العمياء، حين كان مستعدا للتضحية بابنه فى سبيل الله. و قد أكدوا لى ان اليزيديين، لا يبتهلون ابدا إلى الشيطان، و يعبدون الله وحده، لأنه خالق البشر و ولى نعمتهم، و هم يرفضون الكلام عن الشيطان أو حتى سماع اسمه كما و انهم يفضلون ان يقف البشر على الحياد ان وقع خلاف بين الله، و ملائك من العالم السفلى و ان لا- يحتقر الفلاحون ضابطا غضب عليه الباشا و هم يؤمنون ان الله لا- يحتاج إلى مساعدتنا لمعاقبة الشيطان على عصيانه، فإن عفى عنه يوما ما، قد نشعر بالخجل فى محكمة الله، ان كنا قد اسأنا إلى احد ملائكته دون ان يستغيث بنا احد. فلا داعى اذن لأن نولى الشيطان اهتمامنا، بل يجدر بنا ان نبذل قصارى جهدنا حتى لا تثير غضب الله علينا. عند وصول اليزيديين إلى الموصل، لا تصدر الحكومة امرا بإلقاء القبض عليهم رغم انه من السهل التعرف عليهم. و لكن الشعب يحاول احيانا خداعهم، فحين يعرضون البيض و الزبدة للبيع، يبدأ السكان بتوجيه الشتائم للشيطان، بحجة ان الاسعار مرتفعة أو ان البضائع فاسدة فيفضل حينها اليزيدى ان يعيد البضائع إلى مكانها بدلا من أن يسمع هذه الشتائم المريعة. و الجدير ذكره ان لا احد يتجرأ على اطلاق شتائم مماثلة، فى مناطق نفوذ اليزيديين، إلا إذا كان مستعدا للمجازفة بحياته.

يخشى اليزيديون على غرار المسلمين، و يحتسون الخمر و غيره من الكحول، و لكنهم يمسكون الكأس بيديهم الاثنتين مخافة ان يقع الخمر ارضا و تطأه الأرجل. فلو اوحى محمد لاتباعه باحترام الخمرة إلى هذا الحد لما حظر عليهم احتساءها، إذ ان اليزيدى لا يشمل ابدا، علما ان النبى كان يسعى لتفادى ذلك. يرتدى رجال الدين اليزيديين اثوابا سوداء مختلفة كليا عن تلك التى يرتديها المسلمون. و يقال انهم يصومون ثلاثة أيام فى السنة، و يحجون إلى ضريح شاه عدى، الذى دفن بين عكر و الموصل، و الجدير ذكره اننا نشاهد قرب هذا الضريح خزان مياه يرمى فيه اليزيديون المال و الذهب اكراما لوليهم. حاول احد النسطوريين، المقيمين فى الجوار، الدخول ليلا إلى المستنقع لجمع هذه الثروات، و فى تلك الاثناء، كانت ابنة المفتش تملأ جرتها ماء من الخزان المذكور فشاهدت النسطورى فى قلب الخزان، فخطر لها انه شاه عدى، خاصة و انها لم تتوقع

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۷۱

رؤية لص فى هذا المكان المقدس، و اسرعت إلى والدها تخبره ان وليهم ظهر فى الخزان. فانتشر الخبر بين اليزيديين الذين شعروا بفرح عظيم، بينما احسن النسطورى استعمال الكنوز التى عثر عليها.

يظن المسلمون ان سكان جبل سنجار، الذين يتبعون المذهب اليزيدى، يحتفظون بكنز ثمين فى بئر أو مستنقع اكراما للشاه عدى. و بعد تعرض بعض المسافرين من بغداد للنهب و السرقة، اضطهد سليمان باشا قبائل اليزيديين، و اجتاح جبل سنجار، و نكل بالبعض، و قتل البعض الآخر دون ان يقبل احدهم الكشف عن مكان الكنز.

اشتهر اليزيديون بأعمالهم المريعة بين اهل السنة، حتى ان العلامة الشافعى كان يختلق الاعذار لكل مسلم يقتل احد اتباع ذلك المذهب. و مما لا شك فيه ان كل عثمانى، كريم النسب، يسافر فى قافلتنا، يسلم امره لهؤلاء الاشخاص، خلال مروره فى زعب. فمنسوب مياه النهر كان مرتفعا للغاية، و من الصعب اجتيازه على ظهر الحصان، و وحدها زوارق اليزيديين، الراسية قرب قرية عبد الحفيظ تستطيع نقلهم إلى الضفة الاخرى.

لم اشاهد فى حياتى زوارق اسوأ من زوارق اليزيديين، فهى مصنوعة من جلود الماعز (۴ بالطول و ۸ بالعرض) المعلقة بسياج شائك . فى الطريق طلب منا الامتناع عن اطلاق الشتائم أو ذكر اسم الشيطان، فى حضور اليزيديين، حتى لا يقلبوا الزورق معرضين حياة المسافرين للخطر.

و رغم اضطراب مياه النهر، و ادعاء اليزيديين القوة، خاصة و انهم يثيرون قلق رفاقى فى السفر، لم تظهر على بوادر الخوف مطلقا. كان عدد الزوارق ضئيلا جدا، و لا يكفى لنقل ركاب القافلة كلهم دفعة واحدة، فسارع الجميع للصعود اولا، رغم انهم رفضوا ان يدفعوا المال لليزيديين، فأدى ذلك إلى نشوب خلافات قوية بينهم، و الى اطلاق الشتائم ضد اليزيديين، مع العلم انهم اسياد هذه المنطقة، فى هذه الاثناء فضلت الوقوف على الحياد، و تجنب العراك مع هؤلاء الاشخاص، فدفعت لأحد البحارة اجره و طلبت منه ان يقلنى بزورقه إلى الضفة الاخرى. فأمر بالتالى رجاله بنقل امتعتى إلى الزورق.

و لما لاحظ احد اعيان الاتراك ان اليزيدى فضلنى عليه، وجه لنا افظع الشتائم. فى هذه الاثناء كانت امتعتى كلها قد نقلت إلى الزورق، علما ان مجرى المياه كان قويا للغاية، و يهدد بأن يغمر الزورق فى جوفه، و لكن بعد عناء شديد، بلغنا الضفة الاخرى بسلام.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۷۲

كانت الدواب تقطع النهر سباحة، فوضع احد اليزيديين جلد ماعز منفوخ، على صدره، و قاد ثلاثة أو أربعة احصنة و بغل إلى الضفة الاخرى. أما الحمير فعلقت جلود الماعز على ظهرها، و عاونها بعض الرجال على العبور إلى الساعد الآخر. و بعد ان غرق حمار احد المسلمين، راح يطلق الشتائم عشوائيا، دون ان يراعى خاطر احد، غير ان اليزيديين سرقوا حمارية الآخرين فى الليلة التالية. و تركوه يندب و يبكى قدر ما يشاء.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۷۳

رحلتى من بغداد إلى الموصل

فى ۱۷ آذار/ مارس قطعنا أربعة فراسخ لنصل إلى كرمليس، مرورا بنهر شافر، الذى ارتفع منسوب المياه فيه بفعل هطول الامطار الغزيرة :

تكثر على الطريق المؤدية من شافر إلى الموصل حقول القمح و القرى الصغيرة. و علاوة على تلك التى اشرت اليها فى اللوحةXLV، نجد ايضا قرى شاه امير، امسيدان، باز خرثان، و باز شهرة؛ تقع هاتان القريتان الاخريان على جبل عين صفرا، الذى أخذ اسمه من ينبوع مياه، لونها اصفر، و تستعمل فى الشفاء من عدة امراض.

تضم مدينة كرمليس ۶۰ أو ۷۰ منزلا، مبنية من الطين و الحجارة؛ و الجدير ذكره ان سكان كرمليس كانوا قديما من النسطوريين.

عند وصولى إلى المدينة، استقبلنى اكثر سكانها ثراء، و دعانى للاقامة عنده. فوجدت فى منزله.

۱۲ أو ۱۳ شخصا، يرتدون ثيابا انيقة. و بعد ان استعلموا عن حالى و عن رحلتى من بغداد، سألنى احدهم ان كان البابا رئيس الكنيسة المسيحية ام لا.؟ و لما كنت اجهل ان كان الرجل المذكور كلدانيا أو نسطوريا، أو خلافه، أجبته أنه رئيس الكنيسة الكاثوليكية الرومانية فحسب، علما ان الارمن و اليونان و الاقباط، ينتخبون بطريركا لهم، شأنهم شأن النسطوريين، يعترف بالبابا كرئيس له.

و لكن اكد لى خصمى ان البابا ليس وريث القديس بطرس رغم ان المسيح قال له انت الصخرة و على هذه الصخرة سأبنى كنيستى، فأثبت لى هذا الكلام انه كلدانى و ليس نسطوريا فأجبته قائلا ان القديس بطرس بشر بالانجيل فى روما، حيث كل بابا زعيم روحى، و غير انه بشر بتعاليم المسيح فى مدن اخرى، و الانجيل لم يذكر ابدا ان رئيس الكنيسة فى روما، هو رئيس المسيحيين اجمعين، و قلما يهمنى ان يعترف الناس بالبابا رئيسا روحيا لهم على الأرض، فالمسيحيون يؤمنون

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۷۴

بالانجيل، و بتعاليم يسوع المسيح التى بشر بها القديس بطرس، و ان بذلنا جهدا بسيطا لاتباع هذه التعاليم لن يفرق الله ابدا بين النسطورى و الكلدانى و غيرهم من المسيحيين. فقال حينئذ: حسبتك يونانيا. فأكدت له أننى اوروبى، و أنتمى للمجموعة المسيحية التى لم تعترف بسيادة البابا الا منذ ۲۰۰ سنة. و رغم ان باقى اعضاء البعثة اكتفوا حتى الان بالاستماع، بدأ بعض النسطوريين بالمشاركة فى الحديث. فقال احدهم كان من الافضل لك ان تحافظ على ديانة اسلافك و لا تحرض اصدقاءك و اهلنا على ان يحذو حذوك، ضاربين بعرض الحائط بيطاركتنا، و مفضلين عليهم زعيما روحيا اوروبيا. و كم استأت لاستنكار الفريقين هذا الحديث، فأكدت لهم ان نصف الدول الاوروبية تخضع للكنيسة الكاثوليكية الرومانية بينما نصفها الاخر يرفض الاعتراف بالبابا، مع الاحتفاظ بدينه المسيحى شأنه شأن مسيحيى الشرق، فى الامبراطورية التركية الواسعة النطاق.

و طلبت منهم ان يدعوا لكل فرد منهم حرية اختيار دينه دون ان تمس صداقتهم بالسوء. لم يرق هذا الحديث للقس، و أكد ان المبشرين الاوروبيين فى الموصل، أخبروه ان الدول الاوروبية كافة اعترفت بسيادة البابا و اخرج من صدره كتابا لاتينيا، ترجم إلى العربية و السريانية، ليذكرنى بقول المسيح انت الصخرة و على هذه الصخرة ابنى كنيستى، فقلت له اننا قد تحدثنا عن هذا المقطع الوارد فى كتب الديانة المسيحية كافة، و انه جرى نقاش حاد بين رجال الدين حول هذا الموضوع، دون التوصل إلى نتيجة حاسمة فيه.

حاولت بعدها ان أغير مجرى الحديث، و اتناول موضوع خصوبة الحقول، التى تفوق محاصيلها محاصيل مصر و غيرها من المقاطعات الشرقية، ب ۱۵ مرة. فشعر رجل الدين بخيبة الامل، خاصة و انه وجه الدعوة للبعثة على امل ان يوافقه الاوروبى الرأى. غير اننى وطدت صداقتى بأفراد البعثة كلهم، و لما حان موعد صلاة المساء توجهنا جميعا إلى المعبد، حيث اعتاد مسيحيو الشرق ان يؤدوا شعائرهم الدينية. تحمل هذه الكنيسة اسم القديسة بربارة، حيث دفنت تلك الشهيدة المزعومة و خادمها، رغم ان المسيحيين لا يقصدوا قبر هذه الاخيرة ليبتهلوا اليها.

تحد القرية هضبة مرتفعة، يزعم انها كانت تضم قصر والد القديسة بربارة، و هى تطل على منظر جميل للوادى المجاور. و على بعد ثلاثة فراسخ شمالى شرقى كرماليس، يقع جبل القديس متى، و قرية مسورة يقيم فيها المسيحيون اليعقوبيون، و يزعم اننا نجد فى هذه البقعة آثارا قديمة غير جديرة بالاهتمام. و على بعد فرسخ و نصف شمالى شرقى كرماليس، تقع قرية بشاشرا، حيث دفن القديس دانيال، و تقع قرية باشان على بعد ثلاثة فراسخ شمالا، و قرية باراتول، حيث يقيم اليعقوبيون، على بعد فرسخ شمالى- غربى كرماليس. نجد غربى كرماليس، قرية شاسنا طوبى المأهولة بالمسلمين أما قرية مينار التى تبعد فرسخا.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۷۶

و نصف عن كرمليس، فكانت قديما مأهولة بالمسيحيين، و لكنها تضم اليوم عددا من المسلمين، بينما لا نجد فى قرية قراقوش، الواقعة على بعد ميل جنوبى غربى كرماليس، إلا اليعقوبيين.

يتكلم مسيحيو قرى هذا الاقليم السريانية، و لكن اللغتين السريانية و الكلدانية تختلفان كثيرا عن اللغات التى وضعت فيها الكتب المقدسة. و لما كان المسيحيون يحسنون الكردية و التركية و العربية، تستعمل كلمات كثيرة من هذه اللغات، فى السريانية الحديثة.

و اشير إلى ان بطريرك النسطوريين، يقيم فى قرية القوش، المجاورة للموصل، و يدعى انه ايليا و يزعم ان مناطق نفوذه تشمل ۳۰۰ قرية، بعضها مأهول بالمسيحيين، ذكرت سابقا ان بطريرك حكارى لا يحترم ابدا اوامره. يقيم بطريرك اليعقوبيين فى ديار بكر، كما سأذكر لاحقا. تتميز قرية القوش بقبر النبى ناحوم، الذى ولد و دفن فيها. كما و ان اليهود يحجون إلى ضريحه. و لعل القوش هى مدينة القواشى المذكورة فى تاريخ العالم، و التى كانت تتميز بحصنها فى القرن السابع من الهجرة.

فى ۱۸ آذار/ مارس قطعت ثلاثة أميال من الحقول المحروقة لأصل إلى الموصل. تقع شمالى الطريق قرى باشيتا، و يسوا و خجيلى، و

جنوبه، قريتا منارة و كوجاف.

قبل بلوغنا الموصل، مررنا في مدينة نينوى التي يدعى مسيحيو الموصل انها تمتد من قريتي قاضي كند و ينجا، اللتان تبعدان عن بعضها البعض حوالي الميلين، و تقعان على ضفاف نهر دجلة.

غير ان اليهود، يزعمون ان طولها يوازي مسيرة ثلاثة أيام. لم أدرك انني بلغت منطقة شهيرة إلى هذا الحد الا عند اقترابنا من النهر المحاذي لحجيلي. فشاهدت على هضبة مرتفعة، قرية منية التي دفن داخل مسجدها النبي يونس غير ان اليهود يبتهلون اليه من الخارج اذ لا يسمح لهم المسلمون بالدخول اليه. و لا أظن ان هذه الحجة مقنعة ابدا، لأنه يسمح لمسيحي الموصل بزيارة ضريح احد القديسين المدفون في كنيسة تحولت لاحقا إلى جامع. و لعل اليهود يرفضون الدخول إلى معبد اتباع ديانة اخرى. نشاهد في هذه المنطقة هضبة اخرى تعرف بقلعة منية أو حصن نبنيف، أرشدني سكان الموصل إلى اسوار نينوى التي حسبتها في البداية سلسلة هضاب. فرسمت لاحقا منظرا عاما للمكان. و نقلته على اللوحة١ . XLVII) الجامع حيث دفن النبي يونس ٢) قرية منية ٣) اسوار نينوى المزعومة ۴) جبل عين صفرا.

بنى من نينوى إلى الموصل جسر شبيه بالجسر الذي يصل بغداد بالحلّة. و لكن عرض النهر لا يتجاوز ۶۰ قدما مزدوجة (حوالي ۳۰۰ قدما) و لا يفوق عدد مراكبه العشرين. و بعد هطول الامطار الغزيرة، أو بعد ذوبان الثلج عن الجبال المجاورة، يرتفع منسوب المياه، و يفصل الجسر عن الضفة، حتى لا يجرفه التيار، فقد حصل ذلك في ۲۳ آذار/ مارس، للمرة الثانية أو الثالثة هذه السنة. و لكن

منسوب المياه لم يرتفع ارتفاعا شديدا، و اعيد الجسر إلى مكانه في الاول من نيسان/ أبريل.

لسنوات خلت بنى الباشا سدا، أو جسرا إلا ان قناطره كانت ضيقة و منخفضة العلو فجرفها التيار عند ارتفاع منسوب المياه؛ مما زاد الطريق المؤدي إلى الجسر و عورة.

لا يتذمر المسافر ابدا، من رسوم المرور المفروضة في هذه المقاطعات. ففي يانكشا و كركوك و الطون كوبري و اربيل، و نهر زعب، تفرض عليه ضريبة رمزية، تعرف بالباج. في الموصل، نقلت امتعتي إلى الجمارك، و لم ادفع للموظفين الا بعض الحلويات حتى يشحنوها لي.

يدفع التجار على حمولة الجمال، من حرير أو اقمشة قطنية أو أقمشة ناعمة، عشرة قروش، و على حمولة القهوة، سبعة قروش و نصف، و على حمولة البهار و غيره من البضائع ستة قروش و ربع.

و ان كانت البضائع محملة على الحمير أو على البغال، تزان و يدفع الباج نسبة للوزن.

للانتقال من الموصل إلى بغداد، يمكننا السفر عبر نهر دجلة غير اننا لا نجد هنا الا مراكب الكيلك التي يستعملها التجار لتصدير بضائعهم. و ان شاؤوا السفر مع البضائع، بنوا غرفة صغيرة على متن المركب، ليحتموا من الامطار و من حرارة الشمس. في فصل الربيع، و بعد ارتفاع سرعة مجرى النهر، يمكننا السفر في غضون ثلاثة أو أربعة أيام بينما في الفصول الاخرى، يتطلب السفر ۱۵ يوما. و ان سافرنا برا، يمكننا التوقف في مدينتي تكريت و سامراء، كانت تكريت قديما مدينة شهيرة. و لم يتبق منها اليوم الا بعض الانقاض. أما سامراء، فكانت مقر عدة خلفاء، و ثلاثة أئمة من الشيعة، يزور الفرس اليوم اضرحتهم. و يقال انها تضم برجا عاليا، يمكننا الوصول اليه، عبر منحدر وعر من جهة اخرى، تكثر في سامرّاء و على ضفة نهر دجلة، من هنا إلى بغداد، بقايا الاضرحة القديمة، غير انها لا تستحق عناء تفحصها خاصة و انها بنيت كلها في عهد المسلمين. نشاهد قرب حصن نمرود المتداعي على بعد ثمانية فراسخ من الموصل سدا لري الارياف المجاورة. لا أحال ان هذا السد قد بني على يد المسلمين، لأنه صمد في وجه التيار اكثر من الف سنة. و نجد قرب فتح، حيث يتابع دجلة مجراه عبر جبل حامرين، شلالا للمياه خطيرا للغاية خاصة ان كان منسوب المياه منخفضا. و لكن ان كان البحار يحسن قيادة الكيلك، لن يخشى شيئا على الاطلاق.

و الجدير ذكره ان هذه الشلالات تكثر في نهر دجلة، بين ديار بكر و الموصل، حيث تستعمل زوارق الكيلك ايضا.

ان الملاحة صعبة للغاية بين بغداد و الموصل، و لكن البحار ينقل جلد الماعز إلى المناطق الاخرى على ظهر الحمير بينما يبيع ما تبقى منها، مع السياج الخشبي الذي علقت فيه.

غالبا ما تسلك القوافل المسافرة من بغداد إلى الموصل، طريق الصحراء، فهو اقصر من الطريق الذي يمر عبر كركوك و اربيل، و لكن الاوروبي لا يحبذ سلوك هذه الطريق خاصة و انه لن يصادف فيها الا قرية تكريت.

لما كنت احمل رسائل توصية إلى البعثات الريفية في الموصل، توجهت فور وصولي إلى الموصل لمقابلتهم، آملا ان يؤمنوا لي منزلا في الحي المسيحي. كانت البعثة تضم راهبين دومينيكيين، عين واحد منهما طبيبا للباشا، و لما علما انني دانمركي و بروتستانتي، رفضوا مساعدتي، فاضطررت لاستئجار غرفة في خان أو مسكن عام. من جهة أخرى، استطعت ان أوطد صداقتي مع الكهنة الاوروبيين كافة. و رغم المحاولات التي بذلها احدهم لتحويلي عن معتقداتي، بقيت علاقتنا متينة، علما ان الجميع كان مسرورا بمقابلة رجل اوروبي. غير ان وجودي في الموصل أثار سخط الرهبان الدومنيكيين، ففي زمن الصوم يمتنع النسطوريون و اليعقوبيون عن تناول اللحم و الحليب و البيض و الزبدة، فتضعف صحتهم و يصابون بالمرض. فهم يمتنعون عن الاكل و الشرب و تدخين السجائر من طلوع الشمس إلى الظهر. و الجدير ذكره ان الرهبان الدومنيكيين يتبعون صياما قاسيا، لأن سكان البلاد يعتبرون ذلك فرضا أساسيا من فروض الديانة المسيحية. فلو أخبرني هؤلاء الرهبان ذلك، منذ البداية، لصمت معهم، ارضاء لهم. فحسبت ان مسألة صيامي قلما تهمهم.

و لكنهم ما لبثوا ان ادركوا انني لا أصوم ابدا. فسأل بعض الكهنة النسطورين، الذين تحولوا عن دينهم على يد هؤلاء الدومينيكيين، و يخالون ان الاوروبيين يتبعون جميعا الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، أطباءهم عني، فوصفوا لهم البروتستانتي بطريقة مريعة للغاية، حتى ان جميع المسيحيين اعتبروني ملحدا، باستثناء بعض التجار الذين وطدوا علاقاتهم بالانكليز في حلب. حتى المسلمين بدأوا ينظرون الي بطريقة غريبة، متسائلين عن سبب الخلاف بيني و بين المبشرين الاوروبيين؟ و في سبيل تفادي احتقار الجميع لي، حاولت ان اكسب صداقة طبيب الباشا أو الحكيم باشي، فاشتريت له عملات قديمة، دفعت ثمنها غاليا. و لما قدمتها له، راح يتحدث عن مسيحيي الشرق بالسوء، كما كان يتحدث عني من قبل؛ بعبارة أخرى، تمكن هذا الرجل من تحويل عدد كبير من مسيحيي الشرق عن دينهم، مؤديا بذلك خدمة عظيمة للكنيسة؛ و لكن رأيه، بالمسيحيين الآخرين، ليس مسيحيا ابدا.

و في سبيل محو الفكرة التي زرعها الرهبان في ذهن السكان، خاصة و انني وصلت إلى المدينة برفقة اليهود، حاولت ان انتهز الفرص لأحسن صورتي أمام الباشا، رغم انني كنت انتقادي ذلك في المدن الاخرى. فساعدني صديق لي يدعى ايليا، في بلوغ غايتي، دون ان يأخذ مني قرشا، فقال للكخيا، انني قادم من الهند، و انني زرت بلاد فارس و احسن العربية، و حتى ينقل ذلك للباشا.

و قمت ايضا بزيارة المفتي، و استقبلت عددا من المسيحيين، من نسطورين و يعقوبيين، بعبارة أخرى، كانت اقامتي في الموصل مرضية و مريحة.

ملاحظات دونتها في الموصل

تقع مدينة الموصل على الضفة الغربية لنهر دجلة قبالة مدينة نينوى القديمة، و على ارتفاع ۳۶ و ۲۰ من القطب. يدعى اليهود انها كانت تدعى قديما عطور، و ان النبيين عاديا و يفتاح الجلعادي مدفونان فيها. و لكنني اظن انهما يختلفان عن النبيين المذكورين في الكتاب المقدس، لأن يفتاح الجلعادي مدفون في مدينة جلعاد (سفر القضاة الفصل ۲۱، ۷) غير انني لم استطع جمع معلومات وافية عن تاريخ هذه المدينة، و لا عن تاريخ تسميتها كالاتي. و لكن يقال انها دمرت ثلاث مرات. و أظن انها مدينة قديمة للغاية، لأن مفتي الموصل زعم ان المسلمين استولوا عليها منذ فترة طويلة.

حكم الامراء المسلمون (الصحابة) مدينة الموصل، كما حكموا هذه المقاطعة كلها، حيث ازدهرت اشد الازدهار.

نقلت على اللوحةXLVI موقع المدينة الحالي و مساحتها. يحد المدينة من الجهة الجنوبية الغربية سور و برج حديثين، و الجدير ذكره ان جزءا كبيرا من المدينة خال من السكان. يقال ان عددا من المنازل يتراوح بين ۲۰ و ۲۴ ألف منزل، و لكنني اظن ان هذا العدد مبالغ فيه. أما شوارعها فضيقة و متعرجة، و لها منفذان، أما منازلها فمبنية من الطين و الصلصال و لها عدة قبب. في فصل الشتاء

تنخفض درجات الحرارة انخفاضا شديدا، حتى ان نهر دجلة، غطى ل عشر سنوات خلت بالجليد عدة ايام. يعيش سكان هذه المدينة طويلا، نظرا لنقاوة الهواء و نظافة المياه. تكثر قرب نهر دجلة، ينابيع المياه المعدنية، التى تضفى على مياه النهر طعم الكبريت. غير ان هذا الطعم يخف تدريجيا تحت الجسر، فى الجهة المقابلة للمدينة. على بعد أربعة فراسخ جنوبى المدينة، نجد نبع مياه ساخنة يعرف بحمام على، يطغى عليه طعم الكبريت. و يقال ان هذا النبع يقذف كمية كبيرة من الزفت المعدنى.

اشرت إلى ابواب الموصل و اصرحتها على خارطة هذه المدينة بالتسلسل العددى:

۱- باب الماضى، سد هذا الباب يوم حاصر نادر شاه المدينة، و لم يفتح مذّاك، و الجدير ذكره ان هذا الباب مذكور فى تاريخ العالم، زمن الحملات الصليبية، مما يعنى ان موقع المدينة، لم يتغير من هذه الجهة.

۲- باب سنجار

۳- باب الباد

۴- باب الجديد

۵- باب الجيش

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۸۰

۶- باب الطب

۷- باب الجسر

۸- باب القلعة، أو الحصن الداخلى؛ يقع هذا الحصن على جزيرة صغيرة مستطيلة، فى نهر دجلة، و هو يستعمل اليوم كمخزن للاسلحة. و لم اجد احدا فيه سوى مفتش المخزن، الذى كان يدخن الغليون على باب المدخل و لم يحاول اعتراض طريقى، و دعانى للقيام بجولة فى المكان.

غير اننا لا نجد فى المخزن سوى بعض القنابل التى قذفها نادر شاه على المدينة، خلال حصاره الاخير لها. اما المدافع فمعظمها مهترىء و مغطى بالصدأ. أما الصروح فمعظمها متداع و ابوابها كلها مفتوحة، و هى تضم مخزنا للخبز يعود إلى ۲۰ سنة. فى القسم ۹، نشاهد السراى أو قصر الباشا، الذى يتألف من عدة اجنحة. و فى القسم ۱۰، نشاهد الجامع الكبير الذى بناه نور الدين، والى دمشق غير انه لم يتبق من الجامع سوى منارته و جزء من سوره. و الملفت للنظر، ان هذه المنارة، شاهقة للغاية، مقارنة بمنارات الموصل التسع؛ غير انه تكثر فى المدن الاسلامية الاخرى المنارات الشاهقة، علما ان الاوروبى لا يجدها غير عادية. نشاهد فى وسط المكان القبلة، التى تذكر المسلمين بضرورة ان يستديروا صوب مكة ، لأداء صلاتهم؛ و هى مبنية من المرمر و مغطاة بكافة انواع الزينة. و الجدير ذكره ان اعمدة هذا المسجد مبنية بشكل مستطيل، و مغطاة بالحجارة المنحوتة. يتميز جامع النبى جرجس بخزان المياه الذى يعلوه، و الذى يزعم انه يجذب حيوان السمارموغ، الذى يأكل الجراد كان هذا الجامع قديما كنيسة مسيحية، و يقال ان القديس جورج مدفون هنا، غير اننا نجد قبره فى مصر العتيقة، فى منطقة راما، و فى الاراضى المقدسة و فى مقاطعة كسروان فى جبل لبنان.

خارج المدينة، نشاهد قرب الرقم ۱۱، جامعا قديما يعرف بجامع الاشمر، الذى بنى عام ۵۷۶. و رغم ان اسم بانيه غير واضح، إلا انه يقال ان مجاهد الدين قد شيده، و يبدو انه مجاهد الدين كيمار نفسه المذكور فى تاريخ العالم. مما يعنى ان الجامع قد شيد بناء على طلب سيف الدين غازى بن معدود. الذى قضى فى تلك السنة. و نشاهد فى هذه البقعة نقوشا مختلفة، بعضها كوفى، شبيه بتلك التى نشاهدها فى اللوحة XLIII قرب الصورة («E)، و بعضها عربى حديث،

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۸۱

مأخوذ من القرآن. و الملفت للنظر ان معظم النقوش و الزخرفات قد حفرت على جدران الجامع بالكلس. و يقال انه فى غابر الازمنة، شيدت كنيسة فى وسط المدينة، و جسر للمراكب على نهر دجلة.

لم يذع صيت اى امير مسلم مثلما ذاع صيت الامير لؤلؤ الذى حكم فى القرن السابع الهجرى، و الذى بنى السراى الكبير، قرب الرقم ۱۲. شاهدت فى هذا القصر الإسلامى ۸۰ أو ۱۰۰ صورة بشرية، علما ان رأس معظمهم مقطوع أو متلف، و هم مكتفو الايدى، و متشابهون إلى حد بعيد، و كأن النحات نقشها عمدا بشكل متشابه. و بنى لؤلؤ ايضا، المدرسة (۱۳) علاوة عن صرح كبير على ضريح المدعو يحيى بن الحسين. أو كما يدعوه البعض ابو الحسين (۱۴).

يسمى المسيحيون يحيى، حنا العسكرى، مار جرجس و يعتبرونه قديسا عجائبيا، و قد سد قبره من الجهتين الجنوبى و الغربية- و الشمالية- الشرقية، و يزعم ان الامير لؤلؤ شيد سلسلة من الاصرحة، بدءا من المدرسة و وصولا إلى سور المدينة، مستوليا فى طريقه، على ضريح هذا القديس المسيحى، دون ان يحظر على اتباعه زيارته، داخل المسجد. شاهدت حول السور الداخلى صفا من حجارة المرمر، تعلوها زخرفات منحوتة بشكل جميل، فضلا عن مجموعة من النقوش، حفرت احرفها بالطين، و لا عجب ان يستعمل الطين فى بغداد و بابل، حيث المرمر و غيره من الحجارة، نادرة الوجود، غير انى فوجئت برؤية هذا العدد الوافر من المرمر داخل هذا الصرح و غيره من اصرحة الموصل القديمة.

يملك مسيحيو الموصل حوالى عشر كنائس صغيرة. و بعد ان شاركوا فى الدفاع عن المدينة خلال حصار عام ۱۷۴۳، سمح لهم الباشا ببناء بعض الكنائس الجديدة، و ترميم القديمة منها.

فبنى النسطوريون عندئذ كنيسة جديدة، قرب الرقم ۱۵، و اليعقوبيون، قرب الرقم ۱۶، و اظن انى لم اشاهد فى بلاد الشرق كنائس تضاهيها جمالا. و بعد ان طلبت من احد المسيحيين ان يشرح لى النقوش المنحوتة على جدرانها، علمت انه العام ۱۷۴۴ ميلادية، و ۲۰۵۵ بعد وصول الاسكندر إلى الحكم، بنيت هاتان الكنيستان، و لهذا السبب يستعين مسيحيو هذه المقاطعة بهذين التاريخين، فى نقوشهم، و فى وثائقهم المهمة، علما ان الفرق بينها يوازى ۳۱۱ سنة، فالترتيب الزمنى الاسكندرانى، يتوافق مع ترتيب سلسوس الزمنى حيث يعتبر تشرين الأول/ أكتوبر، أول شهر فى السنة .

تضم مدينة الموصل ۱۵ خانا، ينزل فيها الاجانب، خمسة منها صغيرة و قذرة، و العشرة الباقية

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۸۳

شاسعة و نظيفة كما و انها تحوى مقاه عامة، و حمامات، و اسواقا شعبية يعود معظمها لعائلة عبد الجليل، اى اقارب امين باشا، حاكم المدينة الحالى، كان عبد الجليل نسطورى الاصل. و بعد ان تكاثرت ذريته فى الموصل، ازداد نفوذها، و اجبرت السلطان على تعيين احد افراد عائلتها فى منصب الباشا، خاصة بعد ان تسلم الحكم فى السنوات الاخيرة حاكم اجنبى من القسطنطينية.

ففى اغلب الاحيان، كان سكان المدينة، و العرب و اليزيديون المقيمين فى الارياف، يثورون ضد الباشا، الذى كان مجبرا على حشد عدد وافر من الجند، غير ان هذا الامر كان يكلف اموالا طائلة، و يحول دون جمع السلطان ايرادات هذا الاقليم، يدفع الباشا للتنحى عن منصبه، و لكن حين عيّن باشا من عائلة عبد الجليل، وقف الاعيان إلى جانبه، و ايده سكان المدينة اجمعين، و ما احتاج بعدها لحشد الجند، و وفر بالتالى المال لدفع الجزى. و لما كان سلطان القسطنطينية يضع هذا البند فى المقام الاول، استطاعت العائلة المذكورة من بلوغ غايتها دون ان تتكبد اى عناء يذكر، و ما لا شك فيه ان الرعايا هم المستفيدون، لأن الباشا يسعى لكسب حبهم وثقتهم خاصة ان كان ينوى البقاء فى منصبه طوال حياته. و لكن الاجنبى يسعى لجمع المال، لتقديم الهدايا لسلطان القسطنطينية، خاصة و ان لن يبقى طويلا فى هذا المنصب.

ينقسم سكان الموصل إلى سنة و حنفيين و شافعيين، و على رأس كل منهم يعين مفتى يخضع لمفتى القسطنطينية. و يبلغ عدد منازل المسيحيين ۱۲۰۰ منزل، و هم ينقسمون إلى نسطوريين و كلدانيين و يعقوبيين. و من بين المسيحيين المولودين فى هذه المدينة، نادرا ما نصادف شخصا يحسن اللغة السريانية المستعملة اليوم فى القرى. تعد العربية اللغة الام فى الموصل، بينما يكتب التجار و الكهنة اللغة الكرشونية اى العربية بأحرف سريانية غير ان كتبهم الدينية، موضوعة باللغة العربية القديمة .

لا- أظن ان المسيحيين يعيشون بوئام مع المسلمين فى اقاليم الامبراطورية التركية الاخرى، باستثناء الموصل، فهم يرتدون الازياء الإسلامية، و يعمل بعضهم فى خدمة الباشا، حتى طباخ زوجة الباشا، كان مسيحيا، شغل والده المنصب نفسه، لدى والد الباشا، منذ سنوات طويلة.

نجد فى الموصل ايضا حوالى ۱۵۰ منزلا- يهوديا. مما لا شك فيه ان هذا الشعب يتمتع فى بلاد الاتراك بحرية العمل اكثر منه فى اوروبا حيث فضلوا جميعا من مهنهم. غير انهم عرضة للاحتقار فى بعض المدن اكثر منه فى بلادنا.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۸۴

و حتى فى مدن هذه المقاطعة، حيث يقطن عدد هائل من المسيحيين، لا يجرؤ اليهودى على الظهور فى الشارع، حتى لا يسىء الصبية معاملته، فى حضور الوالى المسلم. سأتلو عليكم فى ما يلى حادثة وقعت فى الموصل مع بعض اليهود. ذات يوم، و فى طريق عودتهم من الحج إلى قبر النبى نعوم القوش، ضاع احد الاطفال فى القرى المسيحية، المجاورة و بعد بحث طويل عثر عليه فى بئر، و قد قطع لسانه، و تعرض لضرب مبرح، فاتهم اليهود بخطفه و ارغموا على دفع ألف دوقية للباشا، لإنهاء القضية. و يدّعى مسيحيو الشرق ان اليهود يخطفون اولادهم، و انه تم العثور فى حلب، على طفل مسيحى مصاب بجروح طفيفة، و مرمى فى كهف يهودى، فأرغم الباشا اليهود على دفع مبلغ كبير من المال، لحفظ القضية.

يبلغ طول مدينة الموصل جنوبا تسعة فراسخ، و شمالا ثمانية فراسخ، و يبلغ عدد القرى التابعة لنفوذها ۳۰۰ قرية. فى الفصول الممطرة، يكثر القمح، و العدس، و البقول، و السمسم، و القطن، و لكن منذ عدة سنوات، ساد الجفاف البلاد، فعرف السكان المجاعة، خاصة فى ديار بكر، مما دفع المسيحيين لبيع اطفالهم للمسلمين ، فى الواقع، اعاد البعض شراء اولادهم، بينما فضل بعضهم الاخر تركهم فى منازل المسلمين اثرياء. علما ان هؤلاء الاخرين رفضوا اعادتهم لهم، فأدى ذلك إلى اضعاف المجموعات المسيحية. تكثر فى هذه المدينة، مصانع النسيج، و المصانع و المطابخ، التى تشكل مهن المسيحيين الاساسية، فضلا عن التبادلات التجارية.

يملك باشا الموصل عادة ثلاثة اذناب خيل أو أطواق، و لكن امين باشا كان يملك طوقين فحسب و يأمل ان يصبح باشا من الطراز الاول. فقيل لى انه يدفع سنويا ۳۵ أو ۴۰ كيسا (صرة نقدية) يحوى كل واحد منها ۵۰۰ قرش أى ما يعادل الالفى قرش، أو ۱۳ الف ريال. علاوة على ذلك، يقال ان السلطان يجنى من هذه المقاطعة حوالى ۳۰ كيسا من ضريبة الاعناق، تعرف هذه الضريبة بالخراج، و هى تفرض على اليهود و المسيحيين. يدفع الثرى أربعة أكياس، و المتوسط الحال كيسين، و الفقير دوقية، و يأخذ كل واحد منهم، فى المقابل، وصل أمانة، يحتفظ به حتى لا يضطر لدفع الضريبة من جديد. لست ادرى ان كان يفرض على اليزيديين المقيمين فى القرى، دفع الخراج، غير انى اخال ذلك ممكنا، علما انهم كانوا فى الاصل مسيحيين، و ارتدوا عن دينهم. وحدهم المسلمون يعفون من هذه الضريبة.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۸۵

يعمل فى خدمة باشا الموصل حوالى ۲۰ سقاليا غربا أو ضابطا، يتولون مناصب مهمة و يقودون الجيش بالتعاون مع اليزيديين و العرب. يبلغ عدد الجنود المشاة حوالى المئة، و الخيالة ۱۲۰، و البحارة ۱۲۰ موزعين على ثمانى سفن حربية، و الفرسان ۱۲۰. يملك هؤلاء الاخرون ارضا فى امبراطورية السلطان، و غالبا ما يخلف الفارس والده. و الجدير ذكره ان هذه المدينة ليس لها حدود معينة، لذلك لا نجد فيها كشلة، أو مقرا عاما لفيلق من الانكشاريين و رغم ذلك، يكثر فى المدينة، الضباط الانكشاريين، الذين يجندون كل مواطن يطلب الانخراط فى صفوفهم، على ان يتمتع بكافة الامتيازات التى وعد السلطان الانكشاريين بها. لا يحق للمسيحيين الانخراط فى صفوف الانكشاريين أو التمتع بامتيازاتهم، غير انهم يدفعون مبلغا زهيدا من المال، لينضموا إلى الفيلق بصفة خدم فحسب، فلا يخشون حينئذ ان يتعرضوا للنهب أو الضرب من الانكشاريين، ان تدهورت الحالة الامنية فى المنطقة. و ان احتاج الباشا لعدد اكبر من الجنود، انشأت فى الموصل و بغداد و البصرة، فرقة من السردانقفتى تضم عددا كبيرا من المسيحيين. رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر ؛ ج ۲ ؛ ص ۲۸۵

عام ۱۱۵۶ هجرية (أى ۱۷۴۳) قصف نادر شاه مدينة الموصل بالمدافع لمدة ۴۱ يوما، و كاد ان يستولى عليها، حين ابلغ باندلاع ثورة جديدة فى بلاد فارس، فاضطر حينها لفك الحصار و العودة إلى دياره. من خلال الروايات الكثيرة التى سمعتها، ادركت ان هذا البطل الفارسى، الذى كان يخشاه اعداؤه فى وسط الارياف، لم يكن يحسن فعلا محاصرة الحصون، مما يدل على جهل الفرس بسلاح المدفعية فقد شن هجوما من الجهة الشمالية، الغربية للمدينة، فى حى باب العمادى، حيث السور منيع للغاية، و المدينة شبه مهجورة من السكان. فأضرم النار بمخيم الباشا، خلف السور، و كان حسين باشا، والد الباشا الحالى، يفتقر إلى الذخائر الحربية كافة، و لا يستطيع مقاومة المدافع التى تحيط بمدينته فعاد سريعا إلى قصره. تاركا للعدو حرية قصف الخيم الفارغة، قدر ما يشاء.

يؤكد سكان الموصل ان نادر شاه ألقى حوالى ۴۰ الف قنبلة على المدينة و لكننى اظن ان كلامهم هذا مبالغ فيه. و مما لا شك فيه ان القصف كان عنيفا رغم ان المدينة لم تتضرر كثيرا، فمعظم المنازل مقببة و مبنية من الحجارة و الطين، و غالبا ما كانت تنفجر القنابل فى الهواء أو بين الخيم الفارغة. و لما كانت المدافع تحدث فجوة فى الاسوار، كان السكان يسارعون إلى سدها، و الجدير ذكره ان المسيحيين لعبوا دورا فعالا فى هذا المجال، لم ينسه ابدا المسلمون. كما و أنهم اظهروا شجاعة بالغة، علما ان عددا منهم اقدم ليلا على سرقة مخيم الفرس.

اتيحت لى الفرصة فى الموصل للحصول على اسماء القرى التابعة للباشا، و سأدرجها كلها فى

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۸۶

ما يلى: صحيح ان معظمها صغير جدا، و لكن العلماء قد يجدون بين هذه الاسماء، اسماء قديمة اتى على ذكرها المؤلفون، فى منطقة نينوى.

نجد شرقى النهر و جنوبى الموصل، قرية نونيا أو نى، حيث دفن النبى يونس، يارمجا، شمس الدين، قوس فخره، قره كونى صفطا، كبريدلى، سولامى، نمرود، تحدثت سابقا، عن اسوار هذه المنطقة، على ضفاف نهر دجلة، و يقال انه تكثر فيها ايضا انقاض المنازل، التى قد تثير اهتمام المسافر. تل خوندبس، بازدلى، خضر الياس، و هو دير لليعقوبين، تل يعقوب، فانى حرامى، قرية ياتا، عبد الحفيظ، جو دليدا، قرقانه، تل اللبن، خام كرم محمد، داغر يارمجا، صخرة خاتون، بدنا، طرجلة، كرمليس، قراقوش، بلعاد، قراشور. قهرسى، قرابولى. قابر، شاه قولى، قرابلى، دار ملنة، قبة، عيدور دورماس، بانكشا صفطا، آغا شابر، برخانتى، الساباء، قمشين، باس تدماس، على ريش، عمر خان، منارة، ثثرى، لعك دراسى، جلوخان، تنور طوب، خسنا طوب، برتوله، باش بيتا، لعث فشرا، قره شوبان، عشق، ساری بولاق، أو عين الصفرا، اسقف، شيخ امير، كانون، قصر سويد، قبان، عجى سجق، بير بنوك، بير هلار، باش حسن، باشيكا، طاب سوى، طاس شراب، قره طوب، قولان طوب، عرطه شراب، تيلار، وادى سمغ، عمر لبيجى، امام فضله، عباسى، علامیش، قبقلى، هاشمى، غربى، بلبل طوب، بواسيا، خانوغ، أو قلعة نونيا (اللوحةXLVI).

نجد شرقى نهر دجلة و شمالى الموصل قرى قاضى كنت، راشيدى، شيرى خان قره خوان ايليا، شيخ محمد، جمالى، نرناجق، خليل، مله، عونه، قفريق، مسركند، بوسا، يسبان، دوسا، جانيق، علملم، مشرف، دار بويوسف، ام تونا، يونا، جرنيس، تعلمتا، تل ميان، ثور، باتد، باب نير، خرايبك، كسريك مشريفا، دار حال، تل فنيسا، سوط، مشاد، دار الجندى، اغاجا، قلعة، قره بولغ، فانى شريم، قرى (يدعى شعب الموصل، ان يونان رمى على الشاطىء و قذفه الحوت من الخليج الفارسى إلى نهر دجلة). خانق، علق، زينة، قيسى، نمر، قره مشك، خان بركان بقاف (و يقطن فيها اليزيديون و المسلمون)، عتر، برشان، عميرى (و فيها عدد من اليزيديين) دار ستون، بيبوس، قصر باهندا (و هو مكان قديم للغاية يضم عددا من اليزيديون، و يقع قرب القوش مقر البطريرك ايليا) بدرى، قرنجى، هتارا (حيث يقيم اليزيديون و المسلمون) قرى هاتورا، قريق، شراب والد، شراب كابر، زى محال، تل شاخ، كجك هارا، رانيك، بابير، مناره، تل عدس، خان نسرين، تل زين، مسك علاد، فلسان، قر اسحاق، تل اسقف (حيث يقيم النسطوريون) باقفا، بغاد، شرش خان، شفستبان. يقيم فى القرى الاربع الاخيرة المسلمون و اليزيديون فى وئام و سلام. قرية نصرى، حيث نجد مسلمين، و مسيحيين و يزيديين، قرية بطنه، التى تضم عددا من المسيحيين الذين اعترفوا بالبابا زعيما روحيا لهم، و نجد قربها دير مار ورابا القديم التابع للنسطوريين، قرية تل

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۸۷

كيف، التى يزعم انها تضم ۴۰۰ منزل، و يتبع نصف سكانها البابا، بينما يتبع النصف الاخر المذهب النسطورى. بيت قره، حسان الجيلان، قره شراب، شيخ حى، شيخ على، شراب بيت، قلقاجه، حوش عمبر، نجمه، بيبوش، لعبث قره، قيم، رسنا، سماقى، شوكالى، غريان، قلعتا، نصرى، سندناق، كتيك، كيس قلعة، عنوه، داس، قطان، عين بكاره، غرموه، رقصه، حسين، برسوا، شرابوك، المان، شفشرنى، قر شال، قندال، محمدان، (حيث نجد يزيديين و مسلمين) قر مبارك، شفته بعد، عين السفنة، بعدرى، و شرفان، بسان، جرابى، قمونه، عين زال، الواقعة غربى دجلة، سيد كند، التى تضم سلالة محمد، قر قرآن شنكشى، دارك.

نجد غربى دجلة، جندر، كواسير، شكارى، شطه، بدوش، اسماعيل، على بعد ثلاثة فراسخ، من الموصل، على طريق حلب. دمرستى، هلاله، دار مخايل، آغا كند، قنطرة، كافور، قبق شولى، مهرجان، حجر صفين، شرار، مالك احمد، حمام على (منجم زفت معدنى)، جهانه، دغرمان الداسى، منبره، صف الستود، صناديق، كفن كسكى، قبره.

و نجد شرقي دجلة، قلعة قفشاش القديمة، و قرية حفار، على نهر شافر، و حسن بركان، و عرداق، شغرشى.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۸۸

الرحلة من الموصل إلى ماردين

يمكن ان نسلك من الموصل إلى ماردين طرقات عدة. و يعتبر الدرب الذى يمر عبر الجزيرة اطولها، فضلا عن أنه جبلى و صعب، و يتطلب الوصول إلى نصيبين عبر هذا الطريق اثنى عشر يوما فقط، و لكنها منطقة آهلة بالسكان، كما يبدو على خارطة السير على اللوحةXLV و اللوحةL . و هناك درب آخر يمرّ عبر الصحراء، و هو أقصر من غيره، أىّ إن المسافة الفاصلة بين الموصل و ماردين هى حوالى ۴۰ ميلا. يمكن قطعها بحوالى ۵۳ ساعة مع قافلة كبيرة. و يمرّ الدرب من الموصل إلى اورفه فحلب قرب ماردين، و تبعد الموصل عن ماردين عبر هذه الطريق حوالى ۸۶ فرسخا أو ۶۴ ميلا. و كنت قد قررت السفر عبر الجزيرة للقيام بدراسات جغرافية لن تتاح لى الفرصة للقيام بها فى الصحراء، لكن بما أن الدرب بين الجزيرة و نصيبين غير آمنة، و بما أنى وجدت قافلة تستعد للتوجه إلى حلب، قررت السفر معها عبر الصحراء. و قلما نجد على هذه الطريق قرى آهلة، لكن لا ينبغى الاعتقاد انها صحراء قاحلة لا نرى فيها سوى الرمال. فالأرض خصبة للغاية، تكثر فيها المراعى الرائعة، و تطالعنا بقايا قرى و مدن تهدمت تحت حكم المسلمين، على يد البدو و الاكراد و اليزيديين و على يد الحكام الاتراك الطغاة. و نقع هنا على العديد من الجداول، لكنها تجرى اليوم عبر السهول الجميلة من دون ان يستفاد منها، و هى مياه عذبة فى معظم الاماكن.

أتى كنت كيرس(Quinte Curce) على ذكر المراعى الجيدة التى تصادفها فى هذه المنطقة.

و يقول فى أول كتابه الخامس ان البلاد الواقعة بين دجلة و الفرات خصبة للغاية، لذا لا ينبغى ترك المواشى لترعى طويلا هناك. و خلال رحلتنا، عادت بعض الجمال مريضة من المراعى ثم نفقت، لكن لا أظن أنها اكثرت الأكل، كما أن الجمالين أعطوها عند الصباح بعض الملح كى تأكل و تشرب أكثر. و يدّعى البعض أنّ الأعشاب فوق اعشاش الجراد سامة فما ان تأكلها الجمال و الخيول و البغال حتى تنفق. و قد رأيت فى هذا الموسم قرب تل الهوى قطعة كبيرة من الارض مغطاة بجراد صغير ، و لعل المواشى تنفق حين تبتلع بعض الحشرات السامة.

و قد يود البعض معرفة كيف يتحضر لرحلة فى هذه المناطق غير الآهلة بالسكان، و سأشير هنا باختصار إلى بعض الامور التى يعتبرها الشرقيون ضرورية، و التى اتبعتها انا نفسى. حملت عدّة

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۸۹

الطبخ كاملة فى كيس واحد، و هى عبارة عن و عاءين بغطاءين، يوضع احدهما فى الآخر، فضلا عن طبقين و ابريق قهوة و كلها مصنوعة من النحاس المطلى بالقصدير، قد لا يعجب ذلك العديد من الاوروبيين الذين يرفضون استخدام النحاس فى المطابخ، لكن اؤكد لكم انه مقصدر فى البلاد الشرقية بشكل جيد كما فى اوروبا، اذ ان الشرطة متشددة حيال هذا الموضوع، و يعاقب النحّاس الذى يستخدم قصديرا سيئا لطلى الاوانى بصرامة. و يتم طلى الاوانى من الداخل و الخارج، و ينظفها الطباخون بشكل جيد، لذا لا يخشى استعمال النحاس فى البلاد الشرقية فى حين ان الاوروبيين يشتكون من استخدامه، أما بالنسبة للملح و التوابل فوضعتها فى علبة خشبية، كل صنف منها على حدة، كما احتفظت بسكين و ملعقتين و شوكتين، علما ان الشرقيين لا يستخدمون هذه الادوات لأن اللحمة تقطع إلى قطع صغيرة و تقدم مع طبق الأرز المفلفل. و لا يستعمل الشرقيون ابدا الطاولة و الكرسى، أما سماطى فعبارة عن قطعة قماش مستديرة الشكل تنتهى بحلقات من الحديد يمرر فيها حبل يسمح بتعلقها فى سرج الجواد. و أحمل نصف دزينة من فناجين القهوة موضوعة فى جراب من الخشب المغطى بالجلد، لذا يمكننا ان نرميه فى أىّ مكان من دون ان نخشى تكسرها، كما وضعت الشموع الصفراء فى علبة مماثلة تحفظ فى كيس جلدى، و فى غطاء هذه العلبة أنبوب تثبت فيه الشمعة فيستعمل كشمعدان. و نجد ما يكفى من المياه على هذه الطريق، لذا لم أر ضرورة حمل جلد الماعز لأضع فيه مؤنتى من المياه، لكن يحمل كل مسافر جرّة من الجلد السميك، يعلقها على سرجه كى يشرب عند الحاجة، كما يحتفظ كل منهم بكوب من النحاس المقصدر، يستعمل للشرب فى الآبار و الينابيع و الانهار التى يصادفونها. و نجد فى المدن التى يعيش فيها المسيحيون ما يكفى من الكحول، فحملت معى مؤنة فى جلد ماعز مخصص لهذا الغرض، لأن المياه تتغير من منطقة إلى أخرى خلال الرحلات، يعتقد المسيحيون أنه من الافضل ان يضاف اليها بعض الكحول، لكن هذا الشراب ليس بلذيذ، و يأكل المسلمون الكثير من الثوم، اذا ما حصلوا عليه، بسبب هذا الاختلاف فى المياه. و اقتصرت مؤنتى من الطعام على الأرز و الزبدة التى تذوب و تحفظ فى قرب جلدية، فضلا عن البسكويت و الطحين لصناعة الخبز اثناء الرحلة، و الفواكه المجففة، و اللحمة المجففة و القهوة، الخ ... و قبل مغادرة اى مدينة، نتزود باللبن حيث يوضع فى كيس، و يخفض، و مع خروج المياه منه يضاف الحليب حتى نحصل على كمية الجبن اللازمة، و اذا ما اضيف اليه الماء لاحقا، حصلنا على شراب منعش للعطاشى و اذا ما اكلناه

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۹۰

مع البسكويت اشبع هذا الطبق رجلا جائعا. بشكل عام، لا ينبغى ان يكون المرء حساسا و إلا تعرض لمشاكل عدة. كنت احمل معى نرجيلة فارسية فى كيس جلدى يتدلى من سرج جوادى، و لم تكن خيمتى كبيرة كما لم استعملها كثيرا اثناء الرحلة كى لا يكثر زوارى من العرب، اما سريرى ففراش و غطاء رقيق و مخدة. و ينام العرب بملابسهم، لكن الاوروبيين الذين يغيرون ملابسهم غالبا ليسوا أنظف، لأن العرب يغتسلون كثيرا. و تعتبر السجادة فى رحلات كهذه أمرا ضروريا لأنهم يفرشونها اينما توقفوا، فى منزل أو فى الهواء الطلق. و وضبت كتبى و ثيابى فى حقيبتى، فيما وضعت آلاتى فى العلب الخاصة بها، و لم استأجر سوى ثلاثة جياد لها ولى و لخادمى.

و تضم قافلتنا ألفى دابة محملة، ۱۳۰۰ منها تحمل العفص من الكردستان، و يحمل ۱۲۰ جملا أقمشة مختلفة من الهند، و بلاد فارس، و بغداد، و الموصل، فضلا عن ۴۵ جملا تحمل القهوة، فيما تنقل الجياد و البغال و الحمير خمسماية أو ستماية حمل آخر. لكن هذه البضائع غير متوجهة إلى حلب فقط، فمنها ما يرسل إلى ماردين و اورفة و ديار بكر و حتى إلى ارمينيا. و فى مدن أخرى، يكلّف التجار عرب القبائل الكبيرة المجاورة نقل البضائع على جمالهم عبر الصحراء، لكن فى رحلتى هذا، أكدوا لى أن أصحاب الدواب المحملة فى قافلتنا يقيمون فى الموصل و المدن المجاورة، لذا لا يستفيد العرب و الاكراد من نقل هذه البضائع.

يبلغ عدد المسافرين، بما فى ذلك حراس الجمال و الجياد حوالى ۴۰۰ رجل، اما عدد المرافقة فحوالى ۱۵۰ جنديا، جنّد معظمهم التجار بأنفسهم لذلك يهمهم الا يتعرض اصحاب عملهم للنهب و السلب، فكنا قادرين برأيى على الدفاع عن انفسنا ضد اى عدو قد يهاجمنا خلال الرحلة.

و بما ان اليزيديين من جبل سنجار نهبوا منذ اشهر قافلة صغيرة قرب رملة(Ramala) ، امر الباشا الجند بمرافقة قافلتنا حتى كاسى كوبرى(Kassi Kupri) ، و هناك انضم الينا ابن شيخ قبيلة طئ العربية، و معه حوالى ۲۰۰ خيال و مئة رجل من المشاة. و صادفنا، قرب رملة، اربعة بيارق (حوالى ۱۰۰ رجل) من الخيالة خاضعة لحاكم ماردين، و بدأ العرب يرحلون قرب رجل العباس، لكن التقينا قرب تل الشير التفنكجى باشى من ماردين و معه حوالى ۱۵۰ رجلا من المشاة. و يكلّف هؤلاء التجار الكثير من المال، فضلا عن أن مرافقينا من العرب كانوا وقحين و يشكلون عبئا علينا نحن كمسافرين، لكن باشا الموصل و شيخ قبيلة طئ و حاكم ماردين يحاولون الاستفادة من القافلة بحجة تغطية التجارة و حماية القافلة من النهب، فيجبرون التجار على القبول بمرافقتهم و على دفع مبالغ طائلة لهم. و تلقّى شيخ قبيلة طئ لدى وصوله حمولة كاملة من البن و الكثير من التبغ و الارز و الزبدة و المؤن الاخرى فضلا عن ۵۰ عباءة وزّع قسما منها على رجاله و القسم الاخر على شيوخ الاكراد الذين ترددوا علينا خلال رحلتنا.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۹۱

كان قائد القافلة احد اهم التجار بين المجموعة، فتولى مهمة دفع رسوم المرور و اعطاء الهدايا للأكراد و لمرافقتنا، و قيّمها على الحمولة كلها. و كان للجمالين و المكاريين مسؤولا خاصا عنهم، لكن ما من نظام خاص متبع اثناء الرحلة، فما ان تشرق الشمس حتى ينظم كل شخص حمولته، و يسير فى الطليعة من يتمكن من توضيب اغراضه قبل غيره. و عندما نخيم، يضرب كل من المسافرين خيمته حيث يحلو له، من دون ان يهتم قائد القافلة أو غيره بذلك. و عند المساء، لا يقوم احد بالحراسة، أما الموكلون بهذا الامر فيبحثون عن الراحة قبل غيرهم باستثناء بعض الجنود الذين يعملون بخدمة التجار و لا يهتمون إلّا بأغراضهم، و أثناء الرحلة، يعرض علينا الاكراد نهارا شراء الماعز و الحليب و اللبن، و يعود هؤلاء لسرقتنا و قد سلب بغل قرب خيمتى، فاستفاق صاحبه و أثار الجلبة،

لكن الجنود و العرب لم يتحركوا لمساعدته و أكملوا نومهم، و لاحق مع بعض اصحابه السارق، و بعد ربع ساعة، عاد بالدابة . ما إن خيّمنا قرب رجل العباس، حتى شعرنا بالحاجة لجنودنا و للعرب و جند ماردين الذين التقيناهم، اذ رأينا فى البعيد، وراء التلة، سحابة غبار كبيرة ترتفع، و اعتقدنا أنهم اعداء يتحضرون لمهاجمتنا. و يسارع اصحاب الدواب إلى اعادة الجمال و الجياد و البغال التى ترعى إلى المخيم، و بعد قليل، عاد البعض ليقول انه رأى ألفى كردى فيما قال البعض الآخر انه شاهد اربعة الاف فارس وراء التلة. و تقدم الاتراك و العرب بغير انتظام نحو العدو المزعوم، لكن بعد نصف ساعة، عادوا ليعلمونا ان اربعة خيالة و معهم زوج كلاب صادفوا قطيعا كبيرا من الاغنام أثار سحابة الغبار هذه و سببت هذا الهلع.

و يمكن الوصول بستة ايام من الموصل إلى نصيبين عبر الطريق التى سلكناها لكن قافلتنا سارت ببطء لأن اصحاب الدواب وجدوا الكثير من المراعى الخصبة على الطريق حيث ترعى مواشيهم من دون مقابل و لأن مرافقينا من عرب و اتراك يحبون العيش طويلا على حساب التجار.

قطعنا فى ١١ نيسان/ أبريل من الموصل نحو الشمال الغربى و وصلنا دبس(Dubs) بعد خمسة فراسخ و نصف أو أربعة أميال.

فى ١٢ نيسان/ أبريل من دبس نحو الشمال الغربى وصلنا كاسى مابرى بعد أربعة فراسخ أو ثلاثة أميال.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۹۲

فى ١٥ نيسان/ أبريل من دبس نحو الشمال الغربى وصلنا هوجن(Hojne) بعد ثلاثة فراسخ أو ميلين

فى ١٦ نيسان/ أبريل من دبس نحو الشمال الغربى وصلنا افناد(Avnad) بعد أربعة فراسخ أو ميلين و نصف

فى ١٧ نيسان/ أبريل من دبس نحو الشمال الغربى وصلنا تل الفترة بعد خمسة فراسخ و نصف أو أربعة اميال.

فى ١٨ نيسان/ أبريل من دبس نحو الشمال الغربى إلى رملة ستة فراسخ أو أربعة اميال و نصف.

فى ١٩ نيسان/ أبريل من دبس نحو الشمال الغربى إلى رجل العباس ستة فراسخ أو أربعة اميال و نصف.

فى ٢٠ نيسان/ أبريل من دبس نحو الشمال الغربى إلى تل الشير أربعة فراسخ و نصف أو ثلاثة أميال.

فى ٢١ نيسان/ أبريل من دبس نحو الغرب إلى نصيبين أربعة فراسخ و نصف أو ثلاثة أميال.

فى ٢٥ نيسان/ أبريل من دبس نحو الشمال الغربى إلى ماردين عشرة فراسخ و ربع أو سبعة أميال و نصف.

و لا نقع على طول الدرب بين الموصل و ماردين على قرية واحدة، بل على بقايا متفرقة لمدن و قرى أشرت إلى موقعها على خارطة خط سيرى بصليب صغير، و يبدو ان كاسى كوبرى كانت مدينة كبيرة لكن لم يبق منها ما يستحق الاهتمام سوى جزء من جسر. و على بعد فرسخ و نصف من هذا المكان، أى على مسافة تسعة فراسخ من الموصل، و حيث يصب نهر صغير فى دجلة، نجد بقايا مدينة كبيرة تحمل اسم اسكى موصل(Eski) ، و كلمة اسكى هى كلمة تركية تعنى عجوز أو قديم و بالتالى يعنى اسم المدينة الموصل القديمة. و يعتقد بعض رفاقى ان مدينة الموصل التى نعرفها اليوم لم تبن الا بعد تهدّم المدينة القديمة لكنهم مخطئون فى ذلك. اذ ان الموصل كانت مدينة كبيرة حين استولى عليها المسلمون للمرة الاولى، كما اقاموا فى اسكى موصل هذه، و بالتالى فهذه المدينة كمدينة براسلو فى المجر التى لا يعرفها الاتراك اليوم الا باسم اسكى اسطنبول أو اسطنبول القديمة. و بما ان القافلة توقفت ليوم كامل فى كاسى كوبرى، قصدت اسكى الموصل علّنى اكتشف فيها آثارا مهمة. لكنى وجدت العشب العالى يغطى المكان، و لم أشأ البحث تحت كومات الحجارة خوفا من أن اقع على أفعى اذ يقال انها تكثر فى هذا المكان.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۹۳

و بقى من المدينة جزء كبير من سورها، و نلاحظ على تلة مرتفعة تسمى الحصن، صرحا صغيرا مبنيا من حجارة بيضاء و بعض القبب التى بدت لى كسقوف منازل اختفت تدريجيا مع مرور الزمن، و نقع خارج المدينة، على بقايا صروح ظننتها قبيا أو قبور مسلمين، و لم أتوقع إيجاد اضرحة هنا، لأن هذه المنازل مغطاة بالغبار و تعلو فوقها الاعشاب، و لم أجد بالتالى اى كتابات باستثناء السطر «و» على اللوحة XLIII ، و ذلك على حجر يبدو و كأنه وقع من بناء ما و هو بالتالى غير مسطح انما عامودى، و هذه الحروف اقرب إلى الكوفية منها إلى السرنغال (التى يستخدمها مسيحيو الموصل حتى اليوم)، و هى بالتالى إسلامية و ليست كتابات من سكان البلاد القدامى. و اثار انتباهى هنا، سور بناه السكان القدامى فى نهر دجلة لجمع المياه للزرع ، و يبدو ان سكان شرق دجلة يستفيدون منه حاليا، فى حين ان الصحراء تمتد غرب النهر.

و يبدو ايضا ان هوجن كانت مدينة، و نجد هنا بقايا ابنية على تلة قريبة علتها قلعة فى ما مضى.

و نقع على بعد نصف فرسخ إلى الجنوب فى هذه التلة، على صرح قديم يقوم على تلة أيضا و يحمل اسم قصر شرج(Kasr Scherridch) ، لكن لا يبدو و كأنه قصر، كما يدل عليه اسمه، بل لعله كنيسة صغيرة. و لا يتعدى طول الصرح ١٣ خطوة مزدوجة، و عرضة تسع خطوات، و قد بنى من الحجارة المصقولة الكبيرة، و لم أجد أى كتابات هنا باستثناء السطرين (ز G) على اللوحة XLIII و ذلك على حجر انفصل عن الجدار و لم اتمكن من التعرّف على هذه الكتابة و تشبه إلى حدّ بعيد تلك التى نسخها ايف عن تلة بين الفرات و حلب.

تبدو الآثار الاخرى التى نجدها على الطريق بين الموصل و نصيبين مجرد قرى، و بنى الاكراد رملة منذ سنوات لكن امير الجزيرة هدمها كليا.

و تتألف مدينة نصيبين التى اشتهرت فى الماضى من حوالى ١٥٠ منزلا سيئة البنيان، لكن نجد فى القلعة (كما يسمونها) بعض المبانى القديمة المشيّدة بالحجارة المصقولة. و تقع المدينة غرب نهر صغير يرتفع منسوب المياه فيه احيانا بشكل كبير فيصبح بالتالى عريضا للغاية، و تصب فيه

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۹۴

انهار صغيرة اخرى أشرت اليها على الخارطة، ثم تصب بدورها فى الخابور(Khabur) الذى يعود و يصب فى الفرات . و تتميز المنطقة المحيطة بنصيبين بكثرة المستنقعات، و تكثر فيها زراعة الارز. و أهم ما يلفت الانظار هنا هو جسر على النهر الذى جئت على ذكره آنفا، و قسم من كنيسة بنيت تكريما للقديس يعقوب، مطران نصيبين، و المشهور هنا بتصديه لعقيدة اريوس(Arius) فى مجمع القسطنطينية. و يقوم الجسر على اثنتى عشرة قنطرة، و لا يزال فى حالة جيدة، إنما لم يبق من البرج الواقع امام المدينة من هذه الجهة و الذى يستعمل لمراقبة الطريق إلا الحائط الرئيس. بنيت كنيسة القديس يعقوب من حجارة مصقولة، لكنها انهارت حاليا، و نجد قربها صرحا صغيرا، حاول احد الحكام المسلمين استخدامه كمخزن للقمح لكن القديس يعقوب ظهر له فى الحلم و سأله لماذا يدّنس معبده، مما دفع المسلمين (بحسب ما يروى المسيحيون) إلى اخلاء المبنى، و بناء منبر فيه. و يستخدم اليعقوبيون حاليا هذه الكنيسة الكبيرة نوعا ما، لكن الرعية صغيرة فلم يعين لها كاهن دائم انما يستقدم واحد من ماردين عند وفاة احد المسيحيين أو عند عمادة احد الاطفال، و يقيم الارمن الذين يتبعون روما قدّاسهم فى الكنيسة الكبيرة. و نرى على مقربة من هذا المكان خمسة عواميد منتصبة، لكنها سيئة الصنع. اما بالنسبة للكتابات، فلم أر أىّ منها فى نصيبين، لكن أكدوا لى ان هناك قبر يحمل كتابات اوروبية (لعلها لاتينية) .

و قادنى الرجل الذى رافقنى إلى كنيسة القديس يعقوب إلى قبر هذا الاخير اولا، فوجدت تابوتا حجريا يعلوه غطاء ثقيل، و رأيت فى جانب القبر ثقبا كبيرا يمكن تمرير اليد منه. و حاولت معرفة ما اذا كان جسد القديس موجودا، لكن مرافقى الذى بدا قلقا من حشريتى أكّد لى أنه دفن تحت التابوت كى لا يسىء اليه المشركون. و علمت لاحقا ان الكهنة الروم أرسلوا منذ زمن جسد هذا القديس و غيره من القديسين الشرقيين إلى اوروبا، و قال لى مرافقى، إن هذا الثقب فى التابوت يسمح للمسيحيين المؤمنين بأخذ حفنة تراب منه، و إنّ هذه الحفنة اذا ما خلطت بالماء تشفى من الحمى.

و نصادف على ربع فرسخ من نصيبين بناء مهدما، يزوره اليهود باستمرار، و يؤكد سكان المنطقة ان قديسا اسمه أمّا(Amma) دفن فيه، لكن حاخاما من براغ، كان فى قافلتنا، أطلق عليه اسم يهوذا بن بتاره(Juda Ben Patara) و قال ان التلمود اتى على ذكره، و يعتقد أن الحاخامات القدامى اعتادوا ان يسمّوا نصيبين منزيفن(Menziven) .

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۹۵

أما حاكم نصيبين فيبك، يستلم مهامه من والى ماردين، علما ان هذه المنطقة كانت تتبع فى ما مضى باشا ديار بكر، و يدفع المسافرون حاليا رسم مرور لموظف خاضع لوالى ماردين و مكس لمدير الرسوم فى ديار بكر. و لا يوقف الاول المسافرين طويلا لأنه لا يحسب الحمولة التى يترك امرها لرجال الجمارك. و أراد خادمى، و هو مارونى من حلب، ان يتفاخر و أن ينال التقدير فى القافلة، فأشاع انى سيد ثرى عائد من الهند، مما جعل رجال الجمارك يظنون انى احمل معى الكثير من اللآلىء و الاحجار الكريمة، فطلبوا

منى فتح كافة الصناديق، فى حين ان رجال الجمارك فى المحطات الاخرى ما أن يروا كتبى يعتبروننى درويشا لا يحمل بضائع. لكن خادمى هذا لا يعرفنى حق المعرفة، بل انه يجهل اسمى، فقد استخدمته فى بغداد بدل أحد المسلمين الذين عاد إلى البصرة. و بما ان العرب و الاتراك يسألوننى غالبا عن اسمى و يجدونه غريبا فينسونه على الفور، و بما أنهم يطلبون منى شرح معنى «نيور» باللغة العربية، و يستغربون كيف لا تحمل اسماء كأسمائهم الخ، الخ، اسميت نفسى عبد الله لأن هذا الاسم شائع بين المسيحيين الشرقيين و بين المسلمين فتخلصت بذلك من اسئلة و اجوبة غير مجدية. و سمعنى خادمى الحالى أقول عبد الله آغا، فأخذ يدعونى بهذا الاسم و لم يعرف اسمى الحقيقى إلّا حين وصلنا إلى حلب.

و حاول خادمى هذا التعرف على كافة المسافرين فى القافلة، و عاد قبيل وصولنا إلى نصيبين يرافقه يهودى من براغ علم انى اوروبى. و هو حاخام، جاء لزيارة قبور يونس و حزقيال و غيرهما من الانبياء و الشخصيات الوارد ذكرهم فى التلمود، و لاحظت انه باع كتبا عبرية فى هذه البلاد لتغطية نفقة سفره التى لا اظنها مرتفعة لأن اليهود الشرقيين فى المدن مضيافون لأبناء دينهم كالاوروبيين.

و اشتكى هذا الحاخام من تاجر من ابناء دينه من الموصل، طلب منه تسليفه المال الذى يحمله حتى حلب، لكن الحاخام رفض ذلك. و اضاف ان هذا التاجر يسيء حاليا معاملته، و أن غيره من اليهود لا يحركون ساكنا حين يطالبه المكارى، و هو مسلم لا يمكنه التفاهم معه بلغته، بالمال لسبب أو لآخر و حتى حين ينهال عليه بالضرب. أما السبب الحقيقى الذى دفع هؤلاء اليهود الشرقيون إلى ترك هذا اليهودى برأيى، فهو لأنه حاول التفاخر بعلمه و مقامه و لأنه بخيل للغاية فى حين انه يحمل ما يكفى من المال. و رجانى أن أخلصه من ابناء دينه الذين اظهروا قساوة تجاهه، فأسديت له هذه الخدمة، و أمّنت له مكاريا مسيحيا قسّم أغراضه على بغاله كافة، و يكره المسيحيون عادة اليهود أكثر من المسلمين فى هذه البلاد الشرقية، لكنهم لم يقدموا على اهانته لأنه وضع نفسه فى حمايتى، و قد شكرنى على ذلك. و بما أن المسيحيين يعلمون ان اليهود لا يسافرون نهار السبت، ابطأ المكارى على بعد فرسخ من ماردين، و بقى مع اليهودى و خادمه، و هو شاب من براغ، لكنهما لم تكن سوى حجة للحصول على المال، و طالبه بقرشين ليكمل السير فى ذاك اليوم، و اضطر اليهودى إلى دفع المال، و هكذا أوصلته إلى ماردين، نهار الجمعة عند المغيب،

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۹۶

و قابلته مجددا فى حلب، فأخبرنى أنه تعرض للسلب بين ديار بكر و حلب، و كان يعلم ان المسيحيين و المسلمين لا يكترثون لليهود الذين يسافرون فى قافلتهم إن اكملوا الرحلة يوم السبت ام لم يفعلوا، كما يعلم ان الدرب غير آمنة لمسافر وحيد، لكنه ترك القافلة تتحرك نهار السبت صباحا، فسطا عليه تركمانى بعد ساعات قليلة. و بقى امامه حلّان، إما ان يحتفل بالسبت عاريا و جائعا و يسافر يوم الاحد، و إما ان ينطلق على الفور. فاتخذ القرار الحكيم و سارع للحاق بالقافلة.

و لم يكن ينبغى ان يظهر ايمانا زائدا، بل ان يتأقلم مع الوقت و الظروف و يتّبع مثل اليهود الشرقيين و خادمه الخاص الذى رافق القافلة فى ذاك اليوم متنزها (و لا يسمى هذا سفرا يوم السبت) و حافظ على ثيابه، و اشتكى الحاخام من الشرقيين بشكل عام، و لم اسد اليه سوى نصيحة واحدة و هى تعلّم لغة اهل البلاد و التعوّد على عاداتهم و تقاليدهم عندما يريد السفر.

و تعرضت انا نفسى للمشاكل على الطريق بين الموصل و نصيبين، فحين عدّ عرب كاسى كوبرى الحمولة كلها، بغية أخذ رسوم المرور المعتادة، و قد نظر خدم الشيخ إلى سريرى و سرير خادمى، و عند المساء، جاؤوا لأخذها لسيّدهم، و لم اتجرأ على الاعتراض لأنهم قالوا انهم يقومون بذلك بناء على اوامره، و قد رأيت الطريقة التى يعامل بها هؤلاء كبار التجار المسلمين. و قصدت اولا قائد القافلة و اشتكيت له مما حصل. فكلّم الشيخ فى الليلة نفسها لكنى لم احصل سوى على سريرى و مخدتى.

و فى اليوم التالى، قصدت الشيخ بنفسى، فسخر هذا الاخير من قلة تهذيبى لأنى لم اشأ مقاسمته سريرى لبضع ليال، و هو شيخ قبيلة طىّ فى حين أننى لست سوى مشرك، و تحت حمايته، أما بالنسبة لخادمى فيمكنه الاستغناء برأيه عن السرير. عندها، ابرزت فرمان السلطان الذى احمله، و أمر باشا بغداد، علّه يظهر بعض الاحترام لأوامر اسياده، مما زاد الامور سوءا و قال لى انه سلطانى و سيدى فى الصحراء، و أن اوراقى لا تلزمه مطلقا، فاضطررت إلى العودة كما جئت، و تناقشت مع كبار التجار حول الفرق فى طريقة معاملة الغرباء بين اوروبا و بلادهم. و حين وصل جند والى ماردين الذى يدفع له شيخ طىّ ضريبة معينة، استعلمت من الضابط الرئيس اذا ما كان الوالى فى محيط نصيبين كما يتردد و يبدو ان حديثى هذا سمح بإعادة كافة اغراضى بعد رحيل الشيخ، و ما كنت لأحصل على الغطاء الذى احضرته معى من الهند من دون ذلك، لأنه اعجب الشيخ.

و بما اننا سنتوقف مطولا فى نصيبين بسبب رسوم المرور و الضرائب، قررت زيارة والى ماردين، الذى ضرب خيامه على بعد ميل و نصف من المدينة الاولى. و فى حين ان الاعيان فى اوروبا يمضون الصيف فى منازلهم الريفية، يحلو للشرقيين الاقامة تحت الخيام، و قد رافق الوالى اعيان المنطقة و فرق الخيالة كلها لكثرة الكلأ فى المنطقة. لكنه لم ينصب خيامه بعيدا عن مدينته طلبا للمتعة و حسب برأيى، بل لقبض الجزية من العرب و الاكراد و اليزيديين الذين يتجولون فى هذه المناطق، و ليبقى قريبا إن هم تخلّفوا عن الدفع. و استقبلت احسن استقبال فى المخيم، و كان

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۹۷

الحاكم يتناول طعام العشاء فى الحريم، فجالست كبار الضباط، و قدموا لنا حوالى ۱۵ طبقا، كما ذكرت فى وصف شبه الجزيرة العربية حيث وصفت هذا العشاء، و لا يقدّم البدو هذا العدد من الاطباق. وصف لى ارمنى من ماردين مأدبة اقامها شيخ من قبيلة طى لعدد من المشايخ الاخرين يرافقهم الكثير من الناس كما يلى، سلق الشيخ الكبير أو شوى فى هذه المناسبة، جملا بأكمله.

و فى حين ان الشرقيين عامة و البدو خاصة يقطعون عادة اللحمة إلى قطع صغيرة تغنيهم عن السكاكين عند الاكل، يقدّم الجمل فى مناسبات كهذه كاملا، و يقطع كل ضيف منه قطعة كبيرة.

ثم يقدم الأرز المفلفل فى طبق كبير، يتطلب حمله اكثر من ستة أشخاص، و لا يأكل الضيوف دفعة واحدة، و يمد كل واحد منهم يده إلى الطبق ثلاث مرات فقط. حين يجلسون، يرفعون كمّيهم، و يجعلون من الأرز المفلفل كتلة كبيرة بقدر ما تتسع لها يدهم اليمنى، و يلحسون الزبدة التى تسيل من يدهم و ذراعهم ثم يأكلون الارز بقدر ما يحلو لهم.

انهى موظفو جباية الرسوم عملهم فى ۲۴ نيسان/ أبريل، فتركت القافلة فى اليوم التالى، قبل طلوع الفجر، و وصلت إلى ماردين فى يوم واحد برفقة بعض التجار. سلكنا الطريق الذى يمرّ بقعر البريج حيث وجدنا بعض القرى و حقول مزروعة، و اوردت اسماء هذه القرى على الخارطة L .

كانت سرجا خان أو ساديه كما يسميها البعض، كانت على ما يبدو قلعة كبيرة، بنى سورها من الحجارة المصقولة، و نجد خارجها بقايا بناء لكنه مهجور كليا، كما فى قصر البريج حيث نجد منزلا حجريا. و شاهدنا فى البعيد داره أو قره درا التى كانت مدينة كبيرة فى الماضى، و قد ورد ذكرها مرارا فى تاريخ الخلفاء، و يعيش فيها حاليا القليل من السمان، و يقال ان سور المدينة لا زال موجودا فضلا عن آثار اخرى رائعة مبنية من الحجارة الكبيرة، و بئرا عميقا للغاية حفر فى صخرة.

و تقع قح حصار(Kodsje Hissar) تحت ماردين على طريق اورفة و يطلق عليها العرب اليوم اسمها الحقيقى و هو عنصر أو دنصر(Gunasser Ou Dunasser) التى يرد ذكرها فى تاريخ الخلفاء، و يعيش فيها القليل من السكان، لكنها مكان اقامة سنجاق يتسلم مهامه من والى ماردين، كما نرى فيها خمس مآذن قديمة، و نشاهد ديرا قديما مهدما على جبل قرب غنصر.

يقال ان هناك تلة قرب غنصر، نجد عليها احيانا قطعا نقدية قديمة و أحجارا محفورة، و قد يكون هذا الامر صحيحا، لكن مسيحيى المنطقة يتحدثون ايضا عن كنوز مخيفة، يصدقون فعلا هذا الامر، لذا سأورد للقارىء قصتين يروونهما. يقال ان فلاحا كان يلحق ببقرته فى الصحراء، فرآها تتوجه نحو تلة فتبعها، و رأى هناك غرفة كبيرة مليئة بالذهب و الاحجار الكريمة، لكنه لم يتمكن من لمس اىّ شىء فيها و اكتفى بإعادة البقر، و لم يتمكن بعدها من ايجاد الكهف مرة اخرى. و رأى شخص آخر فى المنطقة الجبلية قرب ماردين غرفة مفتوحة فى صخرة، فدخلها و رأى

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۹۸

شخصين جالسين و أمامهما كتر كبير من الذهب و الاحجار الكريمة، و أعطاه احدهما بعض الكحل و طلب منه فرك عينيه به، ففعل و أصبح اعمى و لم يشف يوما.

طلبت اسماء القرى و المدن الواقعة على الطريق بين الموصل و نصيبين عبر الجزيرة، من أناس قاموا غالبا بهذه الرحلة، و سجّلت هذه الاسماء على خارطة سيرى. الجزيرة أو جزيرة ابن عمر(Dsjesiret el Ommera) هى مدينة صغيرة على دجلة، تحكمها منذ سنوات عائلة بحطان(Buchtan) الكردية، و يسمى زعيمها امير أو بيك، و تقع الاراضى التابعة لها و التى تضم حوالى ۴۰ إلى ۵۰

قرية بين الموصل، و العمادية ديار بكر و ماردين. و كان باشا ديار بكر يثبت الامير فى الحكم لأنه اقوى جيرانه، لكن منذ ان اصبحت ماردين تابعة لبغداد، يتدخل باشا هذه الاخيرة فى حكم الجزيرة. حاليا، يتصارع أخوان من عائلة بحطان على الحكم، فيساعد الباشاوات واحدهما ضد الاخر بحسب المبلغ الذى يدفعه، فتنهار المنطقة يوما بعد يوم. و يستخدم الباشاوات عادة هذه السياسة مع العائلات التى يحق لها الحكم فى الاقاليم الصغيرة استنادا إلى نسبها، و مع البدو أيضا . يحاولون دائما زرع الخلافات بين العائلات الحاكمة. فيستفيدون ماديا و يمنعون هذه العائلات من ان تصبح ثرية و قوية بعدم ابقائها طويلا فى الحكم، كما لا يهتمون ان أفلست مناطق السلطان و انهارت.

اما غالبية سكان جبل مدياد(Midiad) أو جبل طور فمن الاكراد و اليزيديين، و لا يهتم هؤلاء بالحاكم التركى المجاور و لا يدفعون له أى جزية. و أهم العائلات الكردية التى تتولى الحكم هنا هى دجورى(Dakschorie) ، بطقية(Butakie) ، اشتية(Aschetie) و مهلمية(M'hallemie) ، و تخضع لهذه الاخيرة حوالى ۵۰ قرية، و فى حين ان معظم العائلات الكردية حافظت على لغتها خارج البلاد، نلاحظ ان هذه العائلة اعتمدت اللغة العربية. و لم اسمع سوى بقبيلة شلقية(Tshallkie) من بين القبائل اليزيدية التى تعيش هنا.

يقال ان هناك منطقة صغيرة تدعى طور، شمالى الجبل، يعيش فيها اليعقوبيون، و لهم فيها مطرانهم الخاص المستقل عن مطرانة ديار بكر اليعقوبيين، فضلا عنه لا يطلب فرمانا من السلطان كمطران من النسطوريين فى حكريه(Hakkerie) فى الكردستان. و يقيم هذا المطران فى دير مديداد على جبل عال للغاية، و يقوم على سفح الجبل دير آخر فى قرية معرين(Maarin) ، و نجد بالقرب منها قرية تدعى قصر مربة(Kasr MarBaBa) أو مربام(Marabaem) و فيها دير يحمل اسم دير السيدة(Dar Esseide) و ينقل اليه اليعقوبيون موتاهم من على بعد خمسة ايام سفر و يقدّمون للدير

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۲۹۹

البغل الذى حمل رفات الميت. و يحمل المرضى إلى دير مار ملكى، و يزعمون انهم يشفون بفضل صلوات رهبان هذا الدير. هناك حوالى سبعين ديرا مهدما على هذا الجبل بشكل عام، و يتحدث اليعقوبيون كثيرا عن الآثار الرائعة فى المنطقة، منها اديرة و منها قرى و مدن، و أشك بأنها تستحق ان يزورها الاوروبيون بسبب هندستها المعمارية.

و شاهدنا، جنوب الدرب الذى سلكناه جبل سنجار ، و يقع فى سهل خصب للغاية، هواؤه عليل و صحى للغاية، و تكثر فى المنطقة الفواكه الشهية، لا سيّما تين سنجار الشهير. و كان لهذا الجبل فى زمن الخلفاء صاحبه الخاص (أمير مسلم) الذى يقيم على سفحه، على بعد يومى سفر من الموصل، كما نجد، ضمن المنطقة التابعة له، مدينتين أخريين كبيرتين، لكنهما مهدمتان، فلا تصادف اليوم على جبل سنجار كله سوى قرى بائسة. و فى حين كان معظم السكان فى زمن الخلفاء من المسيحيين، يتبع معظمهم حاليا ديانة اليزيديين و البقية ديانة المسلمين، و لا يدفعون اى جزية كما يسطون على القوافل الصغيرة.

و بما ان المنطقة قريبة من الموصل، تختلف درجة و قاحة اللصوص باختلاف الباشا، فإن كان جنديا ماهرا، ينقضّ عليهم فجأة، و يأسر الرجال و النساء و الاطفال و يبيعهم كعبيد، ثم يحرق القمح فى حقولهم على سفح الجبل، و لا يسمح لهم ببيع اى شىء فى المدينة ما لم يدفعوا أو يعدوا بتحسين طريقة تصرفهم.

و لم يتمكن باشا بغداد من لجمهم يوما، فما ان يعلم اليزيديون ان الجيش يتحرك حتى ينسحبوا إلى الجبال حيث لا يجرؤ الاتراك على ملاحقتهم.

و أهم قبائل أو عائلات جبل سنجار هى كاباريه، شنانية، جنوبية، حركيه و ذنيدى. و تتبع اول عائلتين الديانة الإسلامية اما الاخريات فاليزيدية، و تتميز هذه العائلات بأنها تترك شعرها ليصبح طويلا جدا، و تقيم كلها فى قرى. و نجد عند سفح الجبل، فى السهل، العديد من القبائل اليزيدية التى تقيم فى الخيام و تعيش من المواشى كالبدو.

أما أبرز قبائل الاكراد التى تهيم فى هذه المناطق مع خيامها، و تدفع جزية لوالى ماردين فهى كيكى(KiKi) ، و ميلى(Milli) ، و ساجلى(Sadjseli) ، و مزيان(Musesjan) . و لا نصادف هنا من البدو سوى قبيلة طىّ، و هى قبيلة كبيرة، و يتلقى الشيخ الحاكم فيها بصفته بيك (منطقة خصبة بحد ذاتها، لكنها جرداء حاليا) ذنب حصان من والى ماردين .

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۳۰۰

و سيوّد علماء الجغرافيا معرفة ما اذا كانت المدن، التى اتى على ذكرها المؤرخون القدامى، لا تزال موجودة حاليا أو انها تهدمت كليا، سأورد اسماء مناطق لم أزرها بنفسى، بل اخذتها عن أناس ربما لم يزوروها أيضا.

رأس العين، و تقع على بعد ۱۲ أو ۱۴ فرسخا إلى الجنوب الغربى من ماردين، و على منبع نهر الخابور، و هى مدينة مهدمة كليا.

ويران شهر، مدينة مهدمة، تقع بين ماردين و اورفة.

حسن كيف(Hassan Kaif) ، و هى مدينة اشتهرت فى الماضى، و لا تتعدى اليوم كونها مكانا صغيرا على دجلة، على بعد ۱۶ فرسخا من ماردين.

و نجد إلى غرب سنجار و فى بحيرة، جزيرة صغيرة يسكنها العرب، و تدعى خاتونية. تتصل بالياسة بسد ضيّق للغاية، و نجد عليها هرما بنى بطريقة متينة و يستحق زيارة المسافرين .

تل عفر، و تقع جنوب جبل سنجار، و تدفع هذه المنطقة و خاتونية سنويا جزية معينة لشيخ قبيلة طىّ العربية.

يقال ان هناك طريق تؤدى مباشرة من جبل سنجار إلى القدس، و تكثر عليها الخانات التى يبعد الواحد منها عن الاخر مسافة يوم سفر واحد. و يزعمون ان بقايا هذه الابنية العامة المخصصة للمسافرين لا زالت واضحة، لكن وفقا للتقارير تهدمت القرى الواقعة فى هذه المنطقة الخصبة كليا. و يناسب هذا الطريق مسيحيى الموصل و ماردين الذين يؤدون فريضة الحج إلى القدس، و الذين يضطرون إلى المرور بحلب و دمشق، أو الانتقال إلى الاسكندرون و منها إلى يافا بحرا، لكنه نسى تماما، حتى اقترح عربى منذ سنوات على مسيحى من ماردين، لم يتمكن من اللحاق بغيره من الحجاج، أن يوصله عبر هذا الدرب، و يقال ان هذا المسيحى وصل بعد ثمانية ايام.

اكد لى عرب من قبيلة طى انه، على مسافة يومين من الموصل و على طريق عنّة(Ana) (مدينة على الفرات)، هناك بقايا مدينة كبيرة و هى الحضر(El HoddUr) ، و تحتها كمية من الجثث المتحجرة . و يدعون انهم شاهدوا مفتين و قضاة و غيرهم، باختصار رجالا و نساء و اطفالا تحجروا، وفقا لأقوالهم، فى ليلة واحدة، و لا عجب فى أن يخطىء بدوى يمضى حياته فى الصحراء و لا يملك ادنى فكرة عن اعمال النحت لأنه لم يرها يوما، كما انه قد لا يعرف المفتى و القاضى بل

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۳۰۱

سمع عنهما و بالتالى ظنّ ان التماثيل الحجرية ما هى الا اشخاص تحجروا. و لعل هناك فعلا بقايا مدينة و تماثيل تستحق أن يدرسها اوروبى يقوم برحلة من الموصل، و علمت لاحقا فى حلب ان اوروبيا، عائدا من الهند، أكّد لمواطنيه المقيمين فى المدينة انه رأى بنفسه بقايا مدينة فى الصحراء تحجّر سكانها كلهم فى ليلة واحدة. و أظهر أحد مواطنيه، اذ لم يصدق ما تقدم به الرجل، رغبة فى رؤية المكان، فإن تجمد الكل فى ليلة واحدة، لا بد ان يقع على نساء و رجال فى اوضاع فريدة، على حدّ قوله و لم يتمكن المسافر من التراجع عن اقواله و إلا اعتبر كاذبا، فأقسم انه بالفعل صادف وضعيات مماثلة، و أكّد بالتالى ما رواه لى العرب.

تقع مدينة ماردين فى أعلى جبل شاهق و وعر شيئا ما، على ارتفاع القطب ۳۷ و ۱۹، و كانت فى ما مضى حصنا مشهورا، لكن لا نجد حاليا إلا بقايا من سور المدينة بعد ان تهدمت القلعة كليا. و كانت هذه الاخيرة تقع على صخرة عالية و وعرة تشرف على المدينة، و هى طويلة و ضيقة، و يعتبر الطرف الشمالى منها اكثر ارتفاعا و تحصينا من غيره لأن الدرب المؤدى اليه ضيق، تحفّ به بقايا أبراج. و قد حفر الدرب المؤدى إلى القلعة الرئيسة جزئيا فى الصخر، و نجد حتى اليوم عند مدخلها بابا فضلا عن بعض التماثيل المحفورة فى الحجر من زمن المسيحيين. و تكمن مناعة هذه القلعة فى أن الصخرة شبه عامودية، زد على ذلك، أنها محاطة بسور من الاعلى، و المنازل المبنية حول اكثر من نصف الصخرة متراصة و متلاصقة. و نجد فى المنطقة آبارا، لكن يقوم الاهالى بجمع مياه الامطار فى خزانات كبيرة اثناء فصل الربيع. حين يود سكان ماردين وصف مناعة قلعتهم، يروون ان تيمورلنك حاصرها طويلا، و تمكن من اكل التين و العنب من اشجار زرعها على تلال فى أسفل المدينة، ثم اضطر إلى فكّ الحصار. لكن هذه الطريقة التى يعتمدها الشرقيون فى الروايات تدخل فى باب الكناية و لا تعنى سوى ان القلعة تعرضت للحصار لوقت طويل، لأن التترى يمكن ان يطيب له اكل التين و العنب المزروع، لكن لا أظن انه فكر يوما اثناء حصار ما بزرع الاشجار. و قد استولى على المدينة و دمرها، و نجد هنا قلعتين اخريين هما طورخان قلشى(Tarchan Kalsi) و قلعة المرا(Kalla el marra) ، و تقع الاولى فى حرم سور المدينة، و الثانية على جبل

منفصل و قد تهدمتا كليا.

يتكون الجبل الذى تقوم عليه ماردين من حجر كلسى لين، يسهل استخدامه، و قد بقيت معظم المنازل لهذا السبب من الحجارة المصقولة و بشكل مقبب، و تعلو احداها الاخرى، لأن الارض التى بنيت عليها المدينة منحنية للغاية، فتشكل سطوح بعض المنازل و بعض الشوارع فناء للمنازل التى تعلوها، كما تشكل هذه السطوح فى بعض الاماكن الشارع بحد ذاته. و تطل المنازل كلها على سهل بلاد ما بين النهرين الواسع و الخصب. كان فى القلعة ۲۰۰ منزل، أما اليوم فلا يتعدى

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۳۰۲

عدد السكان الثمانين نسمة، و لا يتجاوز عدد المنازل فى المدينة و القلعة الثلاثة آلاف . و يقيم فى حوالى الفى منزل مسلمون من أهل السنة، و فى المنازل الباقية مسيحيون، كما نجد فى المدينة قرابة العشر عائلات يهودية. و يملك المسلمون عشرة جوامع، فضلا عن المساجد الصغيرة، بعضها قديم و جميل البناء، تعلو اثنين منها فقط مئذنتان، و نجد فى المدينة ايضا مدرسة تمتد على مساحة واسعة، و تحمل اسم مؤسسها و حازم بادشاه الفقى(Khassem Padischa Takkie) ، الذى تتلقى منه سنويا عشرة آلاف قرش بغية اعالة بعض الاشخاص فيها و التى اضحت مهامهم وراثية، لكن يتوجب عليهم الحصول على تثبيت فى مهامهم من القسطنطينية. و يعتبر المتولى الذى يهتم بحسابات الطائى، و الذى يشير على الموظفين الاخرين من أين يحصلون على رواتبهم، إما من الاراضى و اما من المنازل، الموظف الرئيس فى هذا المسجد. و هناك اربعة مدرّسين فضلا عن إمام يصلى للشعب و آخر يصلى للسلطان، و مؤذن يدعو الناس إلى الصلاة، و آخر يهتم بالسجاد المستخدم للصلاة، و سرقجى(Sarukdsja) تقتصر مهمته على وضع عمامة نظيفة كل يوم جمعة على حجر عال فوق قبر حازم بادشه، و بواب، و عمال ينظفون الثلج فى الشتاء (و هؤلاء هم من المسيحيين)، و كيال يوزع المؤن، و طبّاخ، و بستانى، و عامل تنظيفات و يتلقى الطلاب اسبوعيا مبلغا معينا، لكنهم لا يكلّفون حاليا الكثر لأن المدرّسين يفتقرون إلى مستمعين. و نجد خارج ماردين بعض التكايا التى يستحيل العيش فيها، لكنها تتلقى مردودا تطلبه من مدرسة فى القسطنطينية، و تعطى الافضلية فى هذه التكية لابن موظف متوف على الغريب. و يتبع مفتى ماردين المذهب الحنفى، و يعيّنه فى منصبه مفتى القسطنطينية، أما القاضى فيعينه قاضى ديار بكر.

رسمت المنظر العام لماردين الواقعة على جبل وعر على اللوحة(XLVII) ، و ستعطى هذه الصورة للقارىء فكرة عن موقع المدينة، سيّما و أن وضع خارطة لها أمر صعب للغاية. نجد قرب الرقم ۱، القلعة الرئيسة، و قرب الرقم ۲ المنطقة التى خيّم فيها تيمورلنك، و فيها حاليا بساتين فاكهة رائعة، قرب الرقم ۳ قلعة قلشى، ۴ قلعة المرا، ۵ بقايا كنيسة كبيرة هى كنيسة مار يوحنا، ۶ دير صفران(Dar Safferan) ، محل اقامة مطران يعقوبى و يقع فى منطقة جميلة، على بعد فرسخ من المدينة. و نجد فى ماردين عددا كبيرا من الكتابات بالعربية الحديثة، و معظمها للصحابة الذين حكموا البلاد، و اذا ما اراد احد ما ان يكتب تاريخ هذه المدينة، يمكنه ان يستفيد من هذه الكتابات، و لأنى وجدت السكّان مشككين و لأن الرهبان الاوروبيين المقيمين فى المدينة لم ينظروا بعين الرضا إلى عمل كهذا، لم أنسخ ايّ من هذه الكتابات.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۳۰۴

تتمتع ماردين بهواء عليل و صحى، و بما أنها تقع على مرتفع، يبقى صيفها معتدلا و شتاؤها باردا إلى حدّ ما. و حين يشتد البرد، و لا يتمكن السكان من اتقائه بفرويّاتهم، يشعلون، كما فى مناطق أخرى فى الشرق، الفحم فى وعاء ملىء بالرماد و يسمى تنور، أو يشعلون الحطب فى مدفأة يسمونها «كانون» أو «جاق». و تتدفأ النساء هنا، كما فى مناطق اخرى من تركيا، بنار يضعونها تحت طاولة غير مرتفعة، يغطيها بساط، يشدّونه على أقدامهن، بعد ان يجلسن متربعات حول الطاولة. و تعتبر هذه الطريقة فى تدفئة المنازل عملية للغاية و اقتصادية لكنها خطرة ايضا، لأن الارض حيث يوضع الاناء الذى يحمل النار، و الطاولة التى تعلوه مغطيان بالبسط و السجاد مما يسبب الكثير من الحرائق. و عندما يكثر تساقط الامطار فى فصل الربيع يتوقع اهالى ماردين محصولا غنيا، و من اواسط شهر أيار/ مايو و حتى تشرين الأول/ أكتوبر، لا تهطل الامطار و ينام السكان فى الهواء الطلق ليلا. تكثر المياه العذبة فى هذه المنطقة، و نجد قرب المدينة و فى الجهة الاخرى للجبل الكثير من البساتين المثمرة، سيما العنب و الاجاص و التفاح و الفستق الحلبى و البندق الخ، الخ. و تشتهر ماردين بخوخها الذى ترسل كميات منه سنويا إلى بلاط السلطان. و يكثر الكرز البرى فى هذه المناطق، و تزدهر تجارة خشبه فى البصرة و حلب، و يتاجر السكان بالزبيب لكثرة الكروم، كما أن اسعار النبيذ و الكحول منخفضة بين مسيحيى المنطقة. أشرت فى وصف شبه الجزيرة العربية، إلى أنّ المن يجمع بكميات كبيرة هنا، و يعمل السكان فى زراعة الحنطة و الشعير، كما نرى الكثير من المراعى الرائعة فى سهول بلاد ما بين النهرين، و يشترى اللحم اللذيذ بأسعار بخسة. و نجد فى المدينة العديد من المصانع الجيدة، لا سيّما للكتان و القطن، فضلا عن مصنع للزجاج، و بشكل عام تشهد التجارة مع المدن المجاورة ازدهارا كبيرا.

أشرت سابقا إلى أن والى ماردين يحمل لقب و يوده، و كان السلطان يعيّنه فيما مضى، لكنه حاليا يستلم مهامه من باشا بغداد، و يقال ان عدد القرى فى منطقة بلاد ما بين النهرين الخاضعة لهذا الحاكم بلغ فى ما مضى ۱۶۰۰ قرية، بقى منها حاليا ۱۵۰۰ قرية و أظن ان الرقم مبالغ به.

و يبلغ عدد القرى فى المناطق الجبلية ۲۰۰ قرية، و يقال ان السلطان يقبض سنويا ۱۰۰ كيس نقود (۳۳۳۳۳ درهم) من هذا الحاكم، فضلا عن ۲۷ كيس نقود (۹۰۰۰ درهم) كجزية من المسيحيين و اليهود، لكن باشا بغداد يحتفظ لنفسه بمئتى كيس نقود بعد احتساب النفقات.

و يخضع لويوده ماردين عدد من الآغاوات، و الشوكادار و غيرهم من الضباط كما لو انه باشا، فضلا عن أربعة بيارق مشاة، يتألف كل منها من ۱۲۰ رجلا. و لكل بيرق بولكباشى(Balukbaschi) و اوزباشى(Odesbasgi) و شوس(Tschaus) و بيرقدار، كلهم تحت أمرة تفنكجى باشى(Taffenkschi) . و تخضع الخيالة لأمرة باش آغا، و تقسم إلى بيارق، و يحمل الضباط الالقاب

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۳۰۵

نفسها كضباط المشاة. يستخدم الويوده جيشه لقتال العرب و الاكراد و اليزيديين الذين يتجولون على اراضيه، و عندما لا تكفيه القوى المتوفرة يقوم بتجنيد غيرها، و يجد العديد من الناس المستعدين للحاق بالجيش لكسب بعض الغنائم اذ ان الجمال و الاغنام و الابقار التى يأخذونها من قبائل البدو أو من السكان المتمردين تصبح ملكا للويوده، فى حين ان الخيول و غيرها من الغنائم تقسّم على الرجال.

يدفع السلطان أجور حامية القلعة، و هى تخضع لأمرة دسدار(Desdar) الذى يخضع له عدد من الضباط. و تسمى مليشا المدينة «عزب» و هى تابعة للسلطان، و تحمل طبلا كبيرا، فى حين أن رجال الويوده لا يحملون سوى دفوف نحاسية.

و يملك الارمن الذين يتبعون الكنيسة الكاثوليكية، فضلا عن الكلدانيين (اليعقوبيون و النسطوريون الذين يتبعون الكنيسة الكاثوليكية) كنيسة خاصة بهم فى ماردين، و تتميز كنيسة الفريق الاول بجمالها. كما يملك اليعقوبيون ثلاث كنائس، واحدة داخل المدينة و اثنتين خارجها، و يملك المطران على بعد فرسخ من المدينة، و فى منطقة جميلة، ديرا تحدثت عنه سابقا لكنه معظم الوقت فى المدينة. و يعتبر الشمسيون(Schemise) من اتباع اليعقوبيين، و يبدو ان هؤلاء حافظوا على ديانتهم التى كانت منتشرة بين المسلمين و بين المسيحيين، و أكّد لى رجل عجوز، أنه فى شبابه عرف عدة قرى فى المنطقة الجبلية تتبع هذه الديانة. و يظنون ان هذه الديانة اختفت من القرى، لكن نجد فى ماردين مئة عائلة من اتباعها فى حيين مختلفين، و كان اتباع هذه الديانة، منذ سنوات، يشكلون مجموعة مستقلة بذاتها، لكن السلطان مصطفى أراد إجبار المسيحيين و اليهود فى مملكته على اعتناق الدين الإسلامى أو مغادرة البلاد، و بما ان الاعيان، و حتى المفتى نفسه، رفضوا الخضوع لهذا الامر لأن محمد نفسه منح المسيحيين و اليهود حمايته لقاء جزية سنوية يدفعونها.

و لإرضاء الحاكم، صدر امر بألّا يقيم فى البلاد إلّا أهل الكتاب أى المسلمون و المسيحيون و اليهود. أما اليزيديون و الدروز و النصيريون و اتباع الديانات الاخرى الذين يقيمون فى المناطق الجبلية و الذين يخضعون لأمرائهم و شيوخهم فلم يكترثوا لهذا الامر، فى حين ان الشمسيين كانوا ضعفاء و يقيمون فى المدن حيث يراقبهم القاضى المسلم، فخضعوا لمطران اليعقوبيين فى ديار بكر.

و اصبحوا يعتبرون انفسهم مسيحيين و يتزيون بزيّهم. و تقتصر مسيحيتهم على اللباس و على تنصير اولادهم، و قلما نجدهم فى الكنيسة باستثناء زوج منهم يرسلونه كى لا يتهموا بعدم ارتياد الكنيسة، كما يستدعون كاهنا يعقوبيا لحضور دفن موتاهم، لكنه لا يدخل المنزل قبل اقفال التابوت، فيتبع الجنازة إلى مدافنهم. باختصار، يعيش هؤلاء بعيدا عن المجموعات الاخرى، و لا يتزوجون حتى من اليعقوبيين. لم أتمكن من معرفة ايّ شىء ايجابى حول مبادىء دينهم، و قال لى المسيحيون فى

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۳۰۶

ماردين انهم يبنون ابواب منازلهم الرئيسية عند شروق الشمس، و انهم ينظرون باتجاه الشمس عند اداء صلاتهم، و انهم يحلقون شعور موتاهم و يضعون في افواههم دوقيتين. و عند الزواج، يبارك كاهن يعقوبي الزوج و الزوجة، لكنهما يقادان عبر الشوارع، و يقال انها العادة المتبعة كي يمرا امام حجر كبير معين يعتبرونه مقدسا و يظهرون له الكثير من الاجلال.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۳۰۷

الرحلة من ماردين إلى حلب عبر ديار بكر

اشارة

في ۱۰ أيار/ مايو صباحا، غادرت ماردين مع قافلة صغيرة، و توجهت نحو ديار بكر، و تبلغ المسافة بين هاتين المدينتين حوالى ۱۱ ميلا نحو الشمال مباشرة، و يمكن قطعها بسهولة في يومين، لكن المراعي الخصبة و الرائعة أغرت اصحاب الدواب فتركوها ترعى، و سافرنا ببطء فوصلنا ديار بكر في ۱۲ أيار/ مايو صباحا. اما الدرب فصعب و جبلي، و المناطق المحيطة غير مزروعة لقلة السكان فيها، و لا يستفاد من الينابيع المتدفقة التي يمكن ان تجعل البلاد خصبة و غنية، إنما نرى في أماكن عدة كروما مهملة مما يدعو إلى الاعتقاد بأن المنطقة عرفت في ما مضى زراعة افضل من اليوم، ثم اجتزنا غابة سنديان صغيرة يستخرج منها المن بغزارة وصلنا إلى شيخ خان، و هي قرية يسكنها الاكراد شتاء فقط، لأنهم يتجولون مع خيامهم صيفا، و تقع في واد كبير و خصب. و قد أخذت اسمها من خان حفر كليا في الصخر، و كلّف من دون شك مبالغ طائلة، لكنه ليس بجميل أو بمريح لا سيّما و أنه لا ينظف ابدا، و هو عبارة عن اسطبل للخيول، حفرت في جدرانه كوّات تستخدم كغرف للمسافرين. و هدمت القلعة، التي بناها السلطان مراد حين قام بحملته الشهيرة على بغداد، منذ فترة طويلة.

و لم اشاهد اثارا تلفت الانتباه على هذه الطريق، سوى قصر زرزاوا(Kasr Zerzaua) ، و هو قلعة بنيت على قمة جبل، انما مهجورة كليا ، و قد نصبنا الخيام فيها قبيل الظهر. و بالرغم من الحرارة، تسلقت الجبل آملا ان أقع على بعض المباني الاثرية الجميلة تحت البقايا التي رأيناها من بعيد، لكني لم أجد سوى جدران المباني المنهارة المبنية من الحجارة الكبيرة، و حتى انّ الطوابق السفلية لبعض المنازل حفرت في الصخر. و وجدت بعض واجهات المنازل المقرنة مما يؤكد ان سكان هذه المنطقة عرفوا في الماضي السطوح المائلة كما في اوروبا، و لم اكتشف أيّ كتابات هنا. و لا يعرف احد هنا متى هدمت القلعة و متى بنيت. لكن يبدو من البقايا أنها قديمة للغاية، إذ ان الحجارة صلبة جدا، بالرغم من أنها تعرضت للعوامل الطبيعية، و يقال ان سيدا اقام فيها، و قد اعتاد ان يطالب المسافرين برسوم المرور، و بالضرائب، و غالبا ما سطا عليهم.

و يقع الدير الذي يطلق عليه الارمن اسم دير رباط(Dar Rabat) ، و الاتراك اسم قرة قليف

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۳۰۸ (Kara Klife)

(الكنيسة السوداء) بالقرب من الطريق، عند قرية سرتانل(SUrtanel) ، و قد بنى من الحجارة المصقولة، و يقال ان له ابوابا عدة من هذا الحجر ، و يعيش في الدير مطران و كاهن و الشيطان. و يروى، تصدّق عامة الشعب من الارمن هذه الرواية كإنجيلهم، أن مطرانا من هذه البلاد، حكم على الشيطان، الذي طرده من جسد احد الاشخاص، بأن يكنس كل ليلة الدير بأكمله، و بأن يزيل الاوساخ، و يؤكدون ان الكنيسة، و مساكن الكهنة، و المطبخ تبدو نظيفة كل صباح منذ ذاك الوقت. و يدرّ الشيطان على رجال الدين الربح، اذ يجعل من بعض المسافرين شهودا لهذه المعجزة فيقدم هؤلاء الهدايا للدير. و قد علمت بالامر متأخرا، و لم اشارك رفاقي، لا سيما و انى لا اعتقد ان هذا الشيطان سيجعلني لاحقا في مأمن من اللصوص، و إلّا لوددت رؤية دير رباط.

و يصبح الدرب قرب ديار بكر سبخا نوعا ما. و نصادف العديد من الانهار الصغيرة، تعلوها جسور جميلة، مبنية من حجر اسود صلب. و قد رصف جزء من الدرب امامها. اما اسماء القرى الذي نمرّ بها في هذه المنطقة، فسجلتها على خارطة سيرى، على اللوحة L .

زوّدني راهب كرملي من ماردين، برسائل توصية للرهبان الكيوشيين في ديار بكر، و أكّد لي أنهم سيستقبلونني على الرحب و السعة، و عند وصولي إلى المدينة، توجهت إلى ديرهم مباشرة، فاستقبلوني بتهذيب فائق، و يعتمد هؤلاء اساسا على راهب واحد، و هو رجل مثقف و طبيب ماهر، يحبه الاعيان في المدينة، حتى ان رفاقه يغارون منه. و عرفني هذا الراهب على كبار التجار المسيحيين، فأمضيت وقتي في المدينة بين الدير و بين مسيحيي البلاد، و تمكنت من القيام بدراساتي بالرغم من أن المسلمين هنا ليسوا بتهذيب ابناء دينهم في ماردين و الموصل ازاء المسيحيين.

و اسم ديار بكر ليس بالاسم القديم، فقد عرفت المدينة في ما مضى باسم آمد(Amid) ، و يستخدم هذا الاسم حاليا في العقود و الوثائق التركية.

و تقع هذه المدينة على الضفة الغربية لدجلة، و تمتد على مساحة صخرة و عرة للغاية من جهة النهر (راجعوا الخارطة، اللوحة XLVIII)، و يحيط بها سور عال من الحجارة السوداء و الصلبة لذا يسميها الاتراك قرة آمد (آمد الاسود) و يتخلل السور معاقل عدة أو ابراج كبيرة توضع فيها المدافع، فضلا عن اربعة ابواب: ۱) ينجي قبوسي(۲ ، (Jeugi Kapusi) ماردين قبوسي ۳) اروم قبوسي

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۳۰۹ (Orum)

و ۴) داغ قبوسي(Dag) . و يحيط بالقلعة (Ai)، من جهة المدينة سور عظيم، كذاك المحيط بالمدينة نفسها، لكن المنازل من جهة النهر تقع على حافة الصخرة الوعرة للغاية. و كان للقلعة ثلاثة أبواب، لكن اوغروم قبوسي(Ogrum Kapusi) قرب الرقم ۵ مسدود، و يحافظ على دمير قبوسي(Damer Kapusi) قرب الرقم ۶ مقفلا، و بالتالي لم يبق سوى باب وحيد هو باب المدينة. و يقيم باشا المنطقة، و الذي يملك ثلاثة أطواق، في القلعة، فيما اقام اصحاب المدينة أو الامراء المسلمون في قصر على التلة، لم يبق منه سوى حائط الاساس. و تستخدم هذه التلة حاليا كمربض اذ وجدت عليها بعض المدافع الموضوعة بين الاعشاب، و من دون مرقب، و يمكن رؤية المدينة بأكملها من هذا المكان. و بلغ عدد المآذن في المدينة ۱۶ مئذنة، معظمها مستدير الشكل كما في المدن الاخرى، و بعضها مربع، و يؤكد المسيحيون انها كانت اجراس كنائس لكن المسلمين انتزعوها، و هذا الامر محتمل بالرغم من اني رأيت بنفسي كتابة عربية تعود للعام ۵۵۰ على إحدى هذه المآذن، و لعل هذه الكتابة تعود إلى مرمم المئذنة. و لا بد أن المسجد الرئيس، و هو مبنى رائع، كان في الماضي كنيسة المسيحيين الاساسية، و لم أتمكن من زيارته لأن المسيحيين لا يتجرأون على الاقتراب من الساحة الخارجية المحيطة به. يبلغ ارتفاع القطب في ديار بكر ۳۷ و ۵۵.

يصعب بل يستحيل الحصول على معلومات دقيقة حول سكان المدن الشرقية، اذ لا يتكبد المسيحيون أو المسلمون عناء احصائهم، و يستغربون حين يسألهم اوروبي عن عدد السكان في مدينتهم، و تأتي اجابتهم الاولى أنّ المدينة عالم بحد ذاته، و حين يضطرون إلى الدخول في التفاصيل، يجعلون سكانها مئات الالاف، و احيانا مليون نسمة حيث لا أفترض وجود اكثر من مئة ألف. و تبقى أفضل طريقة لحساب عدد السكان في المدن الشرقية، وضع خرائط لها، و يتبين أن اكثر المدن اكتظاظا بالسكان كالقسطنطينية و القاهرة و دمشق و حلب و ديار بكر و الموصل و بغداد، لا يتعدى عدد سكانها عددهم في المدن الاوروبية التي تشهد ازدحاما سكانيا. و ليقابل من يهمه معرفة عدد سكان ديار بكر الخارطة التي وضعتها للمدينة مع خارطة مدينة اوروبية و يستنتج بالتالي عددهم.

تكثر المنازل داخل حرم المدينة، و كانت هذه الاخيرة تعجّ بالسكان قبل المجاعة منذ تسع سنوات، لكن معظم مساكنها خالية حاليا. و يبلغ عدد المنازل المسكونة حوالى ۱۶۰۰۰ منزل، يقيم في ربعها مسيحيون. و تتميز منازل المدينة بسطوحها المصقولة، و الطابق العلوي من الطين.

و لاحظت ان قبب بعض المساجد و الخان الكبير مغطاة بالرصاص، و هذا لم أره في البصرة و حتى هنا، لكنه امر شائع في سوريا و الاناضول. كما تتميز بشوارعها المرصوفة و بنظافتها النسبية، و مياهها

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۳۱۰

الغزيرة من نهر علي بوار(Ali Poar) و من الينابيع. قرب الرقم ۷ خارج المدينة، نجد حفرا لجمع الثلوج، و قرب الرقم ۸، ثلاجات كبيرة، اما المدافن المشار اليها بالاحرف التالية LL LLL فكبيرة. و نجد خارج المدينة بساتين مثمرة و كروم، و أراض شاسعة مزروعة، و نرى على مسافة ۱۶۰۰ خطوة مزدوجة من ماردين قبوسي جسرا جميلا على نهر دجلة يقوم على عشر قناطر، و قد بني من الحجر الاسود الصلب. لكن الكتابة الكوفية التي نراها، نقشت على حجر لين و تأثرت بالعوامل الطبيعية، لذا لا يمكن ان نكتشف في أية سنة تم بناؤه تبدو هذه الكتابة أقدم من تلك التي نقلتها عن سور المدينة، و بالتالي فإن هذا الجسر على الارجح هو الجسر الذي بني في

العام ۱۲۴ للهجرة.

إن أبراج المدينة و معاقلها مستديرة الشكل و مربعة و مثمنة الزوايا، لكنها لم تبن في الوقت عينه، و تبدو المربعة منها أقدم من غيرها اذ نقشت عليها كتابات بالاحرف الكوفية. و قد نسخت ثلاث منها على اللوحةXLIX ، أما الكتابة الموجودة قرب الحرف (A)، فقد نقشت في العام ۴۴۴ للهجرة، و يرد ذكر العام ۴۳۷ في السطر الاخير للكتابة (بB)، و تقع هذه الكتابة قرب ينجي قبوسي، و يرابط في هذا المكان حارس لأن الفرس استولوا يوما على المدينة من هذه الجهة، في حين ان الابراج الاخرى تترك من دون حراسة. حفرت معظم الكتابات الكوفية على حجارة بيضاء لينة أو على الطين المشوى في الفرن كما في منطقة بابل، و اذ ما وجدنا احداهما على الحجر الذي بنى منه سور المدينة، ألفيناها سيئة فلا تتبين سوى أن الحجر صلب بالنسبة للذي حفر هذه الحروف، و أنهم يستخدمون الحجر الابيض لأنه ليّن و يسهل النقش عليه. نجد هنا الكثير من الكتابات، بالأحرف العربية الحديثة، التي اذا ما نسخناها كلها، اعطتنا معلومات وافية عن الامراء المسلمين الذين حكموا البلاد، و قد نقشت بإتقان، لكن الحروف كتبت بفن و بشكل متداخل على طريقة العرب. طلبت من تاجر مسيحي ان ينسخ اثنين من الكتابات بحضوري، لكني لم انشر سوى احداها، لأن الاخرى نسخت بشكل غير واضح و تتخللها اخطاء عدة .

يستحيل على المسافر ان يجمع معلومات دقيقة حول ايرادات السلطان من أقاليمه المختلفة،

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۳۱۲

و لا ينبغي ان يستغرب المرء هذا الامر لأننا في اوروبا حيث يكتب الكثير حول السياسة، لا يمكن ان نحصل على معلومات اكيدة حول مردود احد البلدان. و يملك المسيحيون ارقاما دقيقة حول الخراج(Charedsch) ، ففي ديار بكر، يتلقى مدير عام الضرائب، الذي يحمل لقب و بوده، ايراداته من الضريبة، و يدعون انه يدفع منها سنويا ۵۵۰۰۰ قرش فضلا عن ۵۰۰۰ قرش كهدايا لبعض ضباط السلطان في القسطنطينية، كما يتلقى من من يجمع الجزية في مدينة ديار بكر مبلغا يقدّر بحوالي ۱۳۰۰۰ قرش.

و يقيم في ديار بكر بطريرك كان، احدهما لليعقوبيين، و يسمى ايضا بطريرك انطاكيا، و الاخر لأولئك المسمّون كلدانيين. و يحمل الاول اسم ايناس و هو بطريرك كافة المسيحيين اليعقوبيين أو السريان في الامبراطورية التركية كلها باستثناء سكان جبل طور، و هو الذي يعيّن كاهنا لمسيحيي القديس توما في الهند. و يدعى البطريرك الثاني يوسف، و هو رئيس النسطوريين و اليعقوبيين الشرقيين الذين يعترفون بسلطة البابا. اما البطريرك الحالي فهو الرابع الذي يحمل هذا اللقب الرفيع. فمنذ حوالي مئة عام، تشاجر احد الكهنة النسطوريين الكبار مع مطرانه، فقصد روما و أعلن طاعته للبابا الذي اعاده، بموافقة السلطان، إلى ديار بكر و هو يحمل لقب البطريرك الاول للنسطوريين و اليعقوبيين التابعين للكنيسة الكاثوليكية في روما، و منذ ذلك الحين، سمع الشعب ببطريرك للكلدانيين. و بما أن المطارنة الجدد كانوا من النسطوريين، ضعفت سلطة بطريرك القوش، فقد كان احدهم من مواليد تل كهف(Tel Kaf) فاتبع عدد كبير من سكان هذه المنطقة البابا، و ازداد عدد هذه الجماعة من مسقط رأس كل بطريرك. و اضطر الاخير إلى ترك البلاد لأنه اجبر غالبا على دفع غرامات اذ جعل المسيحيين يتبعون جماعة غير الجماعات الشرقية. و نجد هنا العديد من الارمن، و بعض النسطوريين و القليل من الشمسيين فضلا عن اليعقوبيين و الكلدانيين، و قد التجأ الشمسيون، كما في ماردين، إلى جماعة اليعقوبيين، و يعتبر عدد اليهود في المنطقة قليلا، لكن تبقى الديانة المسيطرة هي الإسلام.

لم استطع الحصول على معلومات وافية حول مختلف سناجق هذه الحكومة، لكن يقال ان ارغانا(Argana) ، و شروك(Tscharmuk) ، و بهغاربود(Pahirgaspud) ، و معدان(Moadden) ، و جيبان(Gibban) هي اماكن مهمة، و تكثر المناجم في منطقتين منها.

و اتيحت لي فرصة السفر إلى حلب مع قافلة صغيرة، غادرت في ۱۹ أيار/ مايو، يوم عيد الاضحى. و يسافر العرب عادة على طريق سويريك(SUerak) عبر خان شروك(CHan Tscharmuk) ، حيث تصادف قرى عدة ادرجت اسماءها على الخارطة على اللوحةL .

توجهنا نحو الجنوب، و لم نقع على قرى سوى على بوار(Par) التي لا تبعد عن ديار بكر الا

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۳۱۴

ربع فرسخ، لكن شاهدنا في أماكن عدة بقايا قرى دمّرها التركمان و الاكراد، و ربما الحكّام الاتراك، و اجتزنا غابة صغيرة في منطقة يوجو اوجوك(Joguoi Ojuk) . إن الدرب الذي سلكناه سيىء للغاية، تتخلله حفر هطول الامطار، و تكثر عليه الحجارة، لكن المراعي خصبة لذا اختار المكاريون المرور عبر الصحراء. وصلنا سويريك في ۲۳ أيار/ مايو، و تبعد هذه المدينة الصغيرة عن ديار بكر حوالي عشرة أميال، و لزمنا ۲۱ ساعة لقطع هذه المسافة.

تقع سويريك في واد، على ارتفاع القطب ۳۷ و ۴۶، و يبلغ عدد منازلها حوالي ۲۰۰۰ منزل. يسكن حوالي ۱۵۰ منها ارمن. و نجد في المدينة ثلاثة مساجد تعلوها مآذن و ثلاثة حمامات عامة، و لا نشاهد فيها اعمال تحصين، انما تلة مرتفعة من التراب، كما في اربيل و كركوك، تعلوها اسس قلعة. و نصادف خارج سويريك العديد من الجنائن الجميلة الغناء و الكثير من الكروم، و قد أشرت في وصف شبه الجزيرة العربية إلى مردود الحنطة المرتفع في هذه المنطقة.

يمكن سلوك طرق عدة من سويريك إلى البير(El Bir) و ودت التوجه مباشرة إلى اورفة لأنني كنت على مقربة من المدينة القديمة الشهيرة، لكن المكاريين آثروا المرور في منطقة قاحلة و اضطررت إلى مرافقتهم حتى ملّة سروا(Mullaserio) ، و هي اول قرية نصادفها على هذه الدرب. في ۲۸ أيار/ مايو، أرسلت خادمي مع القافلة، و سافرت مع المكاري إلى اورفة التي وصلتها سالما من دون ان اصادف اي قاطع طريق. و تبعد سويريك عن ملّة سروا حوالي سبعة أميال و نصف، و تبعد هذه الاخيرة عن اورفة خمسة أميال و نصف، و في اليوم الاخير للرحلة، عبرت منطقة جميلة تسمى جهبان(Dsjuhban) نسبة إلى قرية تقع فيها، و رأيت أنهرا صغيرة عدة تنمو على ضفافها الحدائق و الاشجار.

و بما أن وقتي لا يسمح لي بالتوقف طويلا في أورفة، سارعت إلى دراسة موقع المدينة و وضع خارطة لها تجدونها على اللوحةLI . و يشبه موقعها إلى حدّ بعيد موقع مدينة تعز في اليمن، لأن القلعة الواقعة في احد جوانب المدينة على تلة، يشرف عليها جبل شاهق و بالتالي لا فائدة منها ضد عدو اوروبي، لكن اورفة تعتبر محصنة جدا بالنسبة لهذه البلاد. يحيط بالمدينة من كافة الجهات سور مبني من الحجارة الكلسية البيضاء، و تقوم في جهة من جهات المدينة حفرة عميقة في بعض الاماكن، تصب فيها المياه من نبع غزير و بالتالي يمكننا ان نعتبرها جدولا، و قد حفر الخندق المحيط بالقلعة في الصخر. و هو جاف كليا. و للمدينة أربعة أبواب: ۱) سمسط قبوسي(۲ ، (Samsat) جنغي قبوسي(۳ ، (Gengi) بيك قبوسي، ۴) حران قبوسي(Haran) . و نلاحظ في القلعة قرب الرقم ۵، وجود عمودين منتصبين و بناءين منهارين، لكني لم أرها إلا من بعيد فضلا عن الاثار على الجبل خلف القلعة. اما هذه الاخيرة فتحمل اسم نمرود. و يعتقد الاهالي ان

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۳۱۵

نمرود الذي ورد ذكره في الكتاب المقدس اقام في قصر هنا لذا حملت القلعة اسمه، و هي قديمة للغاية و تستحق ان يشاهدها اي اوروبي يقصد البلاد. و في الجبل غرف عدة محفورة في الصخر، لكنها مهجورة باستثناء تلك الواقعة قرب الرقم ۶ فهي مسكونة حاليا. احصيت في هذه المدينة ۱۲ مئذنة، بعضها مربع الشكل، و يشبه احداها إلى حدّ بعيد جرس كنيسة مسيحية. أما المنازل فمبنية بشكل جيد و متين، و جل ما يلفت الانظار هو مسجد جميل و كبير، قرب الرقم ۷، بناه على ما يبدو و مسلم مؤمن حلم ان ابراهيم صلّى في هذا المكان، و تدفع هذه الاحلام المسلمين إلى بناء المساجد كما يبنى الهنود معابدهم، و يطلق عليه اسم خليل الرحمن و مقام ابراهيم. كما نجد عند سفح الجبل نبعين غزيرين، يرويان البساتين و الحقول و يديران الطواحين، و تقوم امام كل من النبعين بحيرة واسعة و جميلة تكثر فيها الاسماك و مخصصة لإبراهيم، و يحمي القاضي هذه الاسماك، كما يرون ان الله عاقب من حاول المساس بها، لكن بالرغم من ذلك يقال ان العديدين يستفيدون منها .

يقيم الارمن في حوالي ۵۰۰ منزل في المدينة، و يملكون كنيسة كبيرة و رائعة قرب الرقم ۸ على الخارطة. تهدم قسم كبير منها لكن القسم المتبقي زيّن بسجاد عجمي جميل، كما يصلون في كنيسة اخرى خارج المدينة قرب الرقم ۹ و تدعى خضر الياس. و لليعقوبيين كنيسة هنا، لكن رعيتهم لا تتعدى المئة و الخمسين منزلا، و حاول المبشرون الكاثوليك دعوة الناس مرارا في هذه المدينة لكنهم لم ينجحوا في ذلك.

علمت ان الحكيم باشي (أو طبيب الباشا) اوروبي، لذا اعتبرت أنّ من واجبي زيارته، و تصورته جراحا ايطاليا أو فرنسيا ففوجئت حين

ألفيته شابا يونانيا فى الخامسة و العشرين من عمره. كانت ارض غرفته مغطاة بسجادة جميلة، على الطريقة الشرقية، و وضع قرب الحائط أريكة مريحة، و يتدلى من الحائط حسامه و مسدساته المطلية بالفضة فضلا عن سرجه و لجامه المزينين بالمعدن نفسه.

و لم يجبنى على اسئلتى بل اكتفى بالحديث عن نفسه، فقد درس لسنوات فى جامعة ايطالية كفيره من الاطباء اليونانيين الميسورين، و يؤمن بعلم الفلك و بالاحلام، و روى لى احلاما عدة تحققت، فقد حلم على سبيل المثال بمعزل (بالايطالية رها) بعدها أصبح سيّده باشا هذه المنطقة التى تسمى الرها. و اكد ان منزلته عالية عند الباشا و انه لا ينتظر سوى لحظة يصبح هذا الاخير ثريا مقتنعا ان الثروة ستهبط عليه عندها، لكن هذا الامر لم يتحقق فى وقت قريب لأن الباشا لم يتزوج

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۳۱۷

سوى امرأة واحدة، و لا يملك جوار يكلفّن غيره من الباشاوات مبالغ طائلة، لكن زوجته هى أخت السلطان و قد طاب لها أن تبقى فى العاصمة، لذا مصاريفها باهظة، و بالكاد يتمكن هو من العيش بطريقة لائقة فى مركزه هذا. يقال انه قلما تتبع هذه الاميرات أزواجهن، و يؤكدون أنّ أىّ باشا يتزوج ابنة السلطان، شابة أم عجوزا، و تقيم على بعد منة فرسخ، لا يتجرأ على الزواج من امرأة، أخرى أو على امتلاك الجوارى . كما يزعمون أن الباشا يجبر على ترك زوجته حين يتفضل عليه السلطان بتزويجه من اخته أو ابنته، و أنّ إحدى هذه الاميرات زوّجت مرات عدة قبل أن تبلغ و قبل ان تخرج من قصر السلطان. و روى لى هذا الاوروبى قصة تظهر حماقة الاتراك اذ لم يتمكن اهم ضباط السلطان من الابحار فى مركب بناه مرتد يونانى، فانقلب فيهم وسط بحيرة و غرقوا جميعا.

يطلق اليونانيون اسم اديسه(Edessa) على اورفه، و يسميها الارمن اديسيه(Edisja) ، و استنادا إلى اليهودى الذى ذكرته آنفا، يسمى كتّاب هذه الامة القدامى، مدينة اورفة اوركاسلوم(Orcaslum) لكن الاتراك يدعون منطقة حكمهم هذه الرها لأن مدينة بهذا الاسم، تهدمت بمعظمها كانت محل اقامة الباشا فيما مضى. إن مدن و مناطق عدة جميلة و خصبة أضحت حاليا قاحلة جرداء و تركت لمدمريها من عرب و اكراد و تركمان. تستخدم اللغة التركية خاصة فى ديار بكر و اورفة، فى حين أن اللغة الكردية شائعة فى الريف بين الموصل و اورفة، و العربية فى ماردين و الموصل. و يتكلم اهل البلاد الذين يسافرون كثيرا، سيّما التجار و المكاريون هذه اللغات الثلاث عادة، و إن كانوا من الارمن فإنهم يتكلمون ايضا لغتهم الام.

فى الليلة الاخيرة بتّ عند كاهن ارمنى، خارج المدينة كى اتمكن من السفر فى صباح اليوم التالى قبل فتح الباب. و بدا مضيفى مرتابا لأنه ظننى كاثوليكيا، لكن حين قلت له انى انكليزى، و قد تعرف فى حلب على هذه الامة التى أحبها كثيرا لأنها لا ترسل المبشرين إلى تركيا، أصبح مهذبا و لطيفا و امر بتحضير عشاء لذيذ و اكلنا معا تحت شجرة. فى الاول من شهر حزيران/ يونيو، قطعت ۱۴ فرسخا أو حوالى عشرة اميال حتى البير (اللوحة LII)، و صادفت الكثير من الاماكن المهدمة، و لا تعود كلها لقرى، اذ وجدت فى أربعة أو خمسة أمكنة، بقايا احجار كبيرة و بالتالى فهى بقايا قلاع أو اصرحة اخرى كبيرة. و لم تسمح لى الظروف بأن أدرس هذه البقايا باهتمام اكبر، و بما ان مرافقى لا يهتم ابدا بأسماء المدن القديمة المدمرة و لم يسلك هذه الطريق إلّا نادرا، لم اتمكن من معرفة اسم واحد من اسماء هذه الاماكن. و فى ذاك اليوم، كنت الدليل اكثر من مرة، فقد استعملت فى اورفة عن موقع البير، و وجدت استنادا إلى البوصلة انها تقع فى الجنوب الغربى، و عند تقاطع الطرق، أخطأ مرافقى مرارا، و لاحظ ان الالة التى احملها تدل على الطريق الصحيح، فأخذ.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۳۱۸

يطلب منى عندما يشك بالطريق التى ينبغى سلوكها ان اسأل ساعتى عن هذه الطريق.

و صادفنا ينابيع عدة، تقصدها فتيات القرى أو القبائل الرحالة من اكراد و تركمان لسقى الماشية، و لم يكنّ يغطّين وجوههن كما فى المدن، و يتميزن بجمال لافت لكن الشمس احرقتهن، و ما ان نرمى عليهن التحية و ننزل عن جيادنا حتى يحملن الينا الماء و يسقين مطايانا. و قد عوملت بهذا اللطف فى أماكن أخرى، لكن لطفهن بدا لى فريدا، لأن ربيكا، التى من دون شك ترعرت فى هذه المنطقة، أظهرت هذا اللطف اتجاه المسافرين (سفر التكوين XXIV) و لعلنى شربت الماء من النبع نفسه، لأن حران(Haran) ، و هى حاليا منطقة صغيرة على بعد يومى سفر إلى الجنوب الشرقى من اورفة و التى يزورها اليهود غالبا، و هى على ما يبدو المدينة التى غادرها ابراهيم قاصدا بلاد كنعان (سفر التكوين XII) و لعل عائلة اخيه ناخور(Nachor) بقيت فى البلاد .

و عند المساء، و على بعد ميل من البير، التقينا كرديا على جواده، يرافقه ثلاثة اشخاص سيرا على الاقدام، و كنت وحيدا مع المكارى لكننا كنا نمتطى جوادينا، و احمل بندقية صغيرة فى سرجى، و مسدسا فى حزامى والى جانبه حسامى، و كنت قد أعرت مسدسى الثانى للمكارى الذى يحمل ايضا سيفا. للوهلة الاولى، اعتبرناهم اناسا قد يسطون علينا و يسلبوننا ما نحمل، مما دفعنا إلى التوقف على مسافة منهم حين توجه رئيسهم بالحديث الينا. لم أفهم أى كلمة من كلام الكردى، لكن مرافقى اخبرنى لاحقا انه استفهم اذا ما كنت ذاك الاوروبى الآتى من اورفة، و انه تفاجأ حين علم اننا نود قطع المسافة بين اورفة و البير بيوم واحد، الخ، الخ. باختصار، سمع عنى فى المدينة، و لم يخرج هذه الليلة الّا لجمع بعض الناس للسطو علىّ فى اليوم التالى، لكنه لم يكن يحمل سوى رمح و سيف و لم تتسلح جماعته إلّا بالسيوف، فى حين اننا نحمل اسلحة نارية جاهزة، فرأى انه من الافضل ان يدعنا نكمل رحلتنا بسلام. انهيت رحلتى إلى اورفة من دون اى لقاءات مزعجة اخرى، و لا انصح غيرى من المسافرين بتقليدى، فقد يصادفون، فى هذه المنطقة النائية، مجموعة من الناس يمكن ان تسطو عليهم لفقرها أو لوقاحتها. و تحصل هذه الامور فى اوروبا، فكيف بالاحرى فى بلاد لا يسافر فيها المرء وحيدا. و لا ينبغى ان يسافر الاجنبى وحيدا، و أن يقطع حوالى عشرة أميال وحيدا فى منطقة لا يجد فيها قرية واحدة و تكثر فيها القبائل الرحالة من اكراد و تركمان. و لا يتعرض للخطر من المجموعات الكبيرة إن لم تكن فى حرب ضد الباشا، اذ تحتاج القبائل لأعداد كبيرة للقيام بأعمال كهذه، و قد يتمكن احد افراد القافلة من التعرف على زعيمهم فيعاقب الباشا القبيلة بأسرها. إن قطاع الطرق فى تركيا، ليسوا فقط من التركمان و الاكراد

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۳۱۹

و العرب، فمعظمهم اناس طردهم الحاكم التركى من خدمته و لا يريدون العمل.

لحقت بقافلتنا فى البير، و تقع هذه المدينة على جبل عال على الضفة الشرقية للفرات، و يحيط بها من جهة اليابسة، سور يعلو تلالا عدة تجرى بينها جداول صغيرة. و فى الطرف الشمالى الشرقى للمدينة نجد قلعة صغيرة على تلة وعرة مغطاة بالحجارة المصقولة، قطعت اطراف زواياها كالاحجار قرب سطح الهرم الثانى فى محيط القاهرة. و لا يمكن لأحد ان يتسلق التلة، لذا اعتبرت هذه القلعة، عندما ما لم يكن هنا مدافع، منيعة، لكنها انهارت كليا، و لا يمكن للمدينة أو للقلعة اللتين يمكن رؤيتهما من الجبال المجاورة ان تصمدا طويلا. بنيت تحصينات هذه المدينة و منازلها من الطيشور، فإن سطعت الشمس، و هبت الرياح، عانت العيون الامرّين بسبب الغبار القوى و بسبب الحجارة البيضاء التى تعكس اشعة الشمس. نجد حاليا حوالى ۵۰۰ منزل فى هذه المدينة، لكن بما أن كافة المسافرين المتوجهين من ديار بكر أو غيرها إلى سوريا يضطرون إلى عبور الفرات فى البير، يقيم فيها متسلّم تابع لباشا اورفة، و آغا للانكشاريين، و ضابط يقبض رسوم المرور على البضائع، كما يدفع رعايا السلطان المسيحيين فى هذه النقطة جزية معينة.

يقال انه فى القرن الاول بعد ان استولى المسلمون على هذه البلاد، كانت هذه الاموال تدفع للجنود الذين يرافقون القوافل و المسيحيين فى رحلاتهم، أما حاليا فلا وجود لهؤلاء الجنود، و إن أرسل الحكّام الاتراك مرافقة مع القوافل، ينبغى ان يدفع لها المال على حدة، لكن المسيحيين و اليهود لا زالوا يدفعون هذه الجزية، التى قد تبلغ قيمتها قرشين للشخص الواحد. و طلب من خادمى ان يدفع هذه الضريبة، و بما انى احمل فرمانا من السلطان، لم أكن مضطرا لدفع المال و ان كان مارونيا و من رعايا السلطان، لكنى لم اشأ التفاوض مع الاتراك من أجل امر تافه كهذا فأعطيته المال، و أبلغت الجباة انهم طلبوا من خادمى جزية لا يحق لهم طلبها.

إن الفرات قرب هذه المدينة أعرض من دجلة قرب الموصل ، و وجدت المراكب اكثر متانة و راحة مما توقعت فى هذه المنطقة، لأن الحمولة لا تنزل عن ظهور الجياد و الجمال. و اجتزت هذا النهر مع القافلة بأسرها فى الثانى من شهر حزيران/ يونيو، لكننا لم نصل فى ذاك اليوم سوى إلى حالة كوى(Hale Koi) ، و هى قرية مهدمة على بعد ميلين إلى الجنوب الغربى من البير. و بما اننا وصلناها قبل الظهر، حملت ساعتى الشمسية و قست ارتفاع القطب استنادا إلى ارتفاع الشمس فتبين لى انه ۳۶ و ۷۷، و بالتالى يمكن اعتبار ارتفاع القطب فى البير ۳۶ و ۵۹.

و قطعنا فى الايام الثلاثة التالية ۱۱ ميلا خلال ۱۷ ساعة و نصف و وصلنا أختران(Achteran) .

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۳۲۰

و اشرت إلى اسماء القرى القليلة التى صادفتها على الطريق. و التى تهدم بعضها، على اللوحة LII ، و تجدر الاشارة أننا لا نرى ما يثير

الاهتمام فی هذه المنطقة. و نجد فی الشمرلی(Tschamurli) کهفا کبیرا محفورا فی الصخر، یلجأ الیه المسافرون فی الطقس الردی،، و علمت ان کهوفا کهذه تکثر فی بیر اختران التی تحولت الیوم إلی قریة بائسة. بنیت المنازل هنا من الصلصال و تشبه إلی حدّ بعید کتلة الغرانیت، و هو نوع من هندسة العمارة شائع فی محیط حلب و حتی فی ضواحیها.

و نشاهد شمال قریة اختران، الکثیر من بقایا سور قدیم، حول تلة، فضلا عن خان قدیم مقبب، مبنی بشکل متین للغایة.

فی ۶ حزیران/ یونیو، ترکت القافلة مع بعض التجار، و وصلنا فی الیوم نفسه إلی مدینة حلب، و قطعنا قریة هیلان التی أخذت اسمها، بحسب آراء المسیحیین، عن الامبراطورة هیلانة التی امرت بجر المیاه إلی حلب بواسطة قناة لا زالت تغذی المدینة حتی الیوم. ثم اجتزنا منطقة جمیلة، تکثر فیها البساتین التی یرویها نهر القویق(Koik) ، و حیث یحلو لسکان المدینة الاقامة صیفا.

و تقع مدینة عینتاب علی بعد حوالی ۱۰ فراسخ إلی الشمال الغربی من البیر، قرب الطریق المؤدیة من هذه الاخیرة إلی حلب، و هی مدینة کبیرة کطرابلس، و لا یحیط بها سور، انما نجد فی وسطها قلعة مبنیة علی جبل. و بنیت مدینة اعزاز(Anzar) ، المهدمة حالیا و الواقعة علی بعد سبعة فراسخ إلی الشمال الغربی من حلب، علی الطراز نفسه، و تقع بالقرب من مدینة کلس التی لا تزال آهلة بالسکان حالیا. ان قریة منبج(Bambadsh) القریبة من الفرات هی مامبی(Mambie) أو بامبیس(Bambyce) القدیمة، و یقال اننا نجد فی منطقة حلب بقایا تسمی خنصرة(Chanasera) ، و راونت(RaWant) هی مدینة اخری تقع علی بعد سبعة فراسخ و ربع إلی الشمال الغربی من عینتاب.

أوردت المعلومات التی جمعتها حول قبائل العرب البدو فی المناطق الصحراویة من شبه الجزیرة العربیة و المناطق المجاورة فی وصفی لشبه الجزیرة العربیة. و لم أتمکن خلال رحلتی من التعرف شخصیا علی ترکمان و اکراد، لکن، و بفضل صداقة الطبیب باتریک راسل المقیم فی حلب، و الذی یعاین زعماء اهم القبائل، حصلت علی لائحة عن قبائلهم المختلفة و التی تسعد قرائی من محبی الجغرافیا. إن عدد افراد العدید من هذه القبائل قلیل. و اسماؤها جدیدة و قد تنسی قریبا، زد علی ذلک، انه لا ینبغی الاعتماد علی صحة هذه المعلومات حول کبر هذه القبائل، لکن بعض هذه القبائل قدیم و کبیر. و تکمن اهمیة هذه اللائحة فی انها تشیر إلی قبائل الاکراد، أو الترکمان التی تغیر مکان اقامتها.

رحلة إلی شبه الجزیرة العربیة/ تعریب عبیر منذر، ج۲، ص: ۳۲۲

لائحة بمختلف قبائل الترکمان

قبیلة بکدای تملک ۱۲۰۰۰ منزل ای خیمة و تقیم فی منطقة اورفة.

مهملنلی تملک ۵۰۰ خیمة بایندر تملک ۳۰۰ خیمة تقیمان فی محیط اورفة

بهلیوانلی تملک ۱۵۰۰ خیمة و تقیم بین سیواس و انغورة(Angora siwas) .

کوجکلی تملک ۱۰۰۰۰ خیمة بین سیواس و انغورة.

اوشر و تملک ۵۰۰ خیمة

جرید تملک ۵۰۰ خیمة لک تملک ۱۰۰ خیمة فی منطقة سیواس و انغورة

بهدای تملک ۱۰۰۰ خیمة

اغجه قیونلی و تملک ۵۰۰ خیمة

شام بیادلی تملک ۵۰۰ خیمة، بین سیواس و انغورة.

یراق تملک ۱۰۰۰ خیمة جفر غنانلی ۲۰۰ خیمة صیفا قرب سیواس و شتاء فی الزور

ریحانلی ۲۰۰۰ خیمة، تقیم صیفا فی منطقة سیواس و شتاء فی منطقة حلب.

قولق ۲۰۰ خیمة، تقیم شتاء قرب عدن و صیفا فی منطقة قیصری(Kaisari) .

دادلی ۲۰۰ خیمة، صیفا فی منطقة قیصری و شتاء فی مقاطعة اورفة.

اولشلی ۲۰۰ خیمة فی منطقة حلب.

جاخلی ۱۰۰۰ خیمة قرزق ۲۰۰۰ خیمة داده قرقن ۱۰۰۰ خیمة منطقة عینتاب

قابلی ۱۰۰۰ خیمة قرة قیونلی ۵۰۰ خیمة منطقة دمشق

رحلة إلی شبه الجزیرة العربیة/ تعریب عبیر منذر، ج۲، ص: ۳۲۳

صوفولر ۵۰۰ خیمة فولنجفلی ۵۰۰ خیمة فی منطقة سیواس

بورنک ۱۲۰۰۰ خیمة، فی منطقة انغور.

ایلبکلی ۲۰۰۰ خیمة، یقیم نصف ابناء هذه القبیلة فی اقلیم سیواس و النصف الاخر فی منطقة حلب.

قرة جه جکرد ۵۰۰ خیمة فی منطقة قیصری.

شرفلی ۵۰۰ خیمة ایالی ۱۰۰۰ خیمة فی سوریا سیما فی منطقة دمشق

فیجلی ۲۰۰ خیمة

ایمر ۵۰۰ خیمة

طوختامرلی ۵۰۰ خیمة صرة جلر ۵۰۰ خیمة کیکلی ۲۰۰۰ خیمة عزة دنلی ۵۰۰ خیمة عوزرای ۱۰۰۰ خیمة فی سوریا سیما فی اقلیم دمشق

دندشلی ۵۰۰

موسه یکلی ۵۰۰ خیمة- دیشلمی ۳۰۰۰ خیمة، فی منطقة عینتاب.

لائحة بقبائل الاکراد الرحالة

کاسکنلی ۱۰۰۰ خیمة

واد کلنلی ۵۰۰ خیمة

برازلی ۱۰۰۰ خیمة

کوریکلیلی ۱۰۰۰ خیمة

شقاقی ۱۰۰۰ خیمة

کورانلی ۵۰۰۰ خیمة

قوجوماتلی ۵۰۰۰ خیمة

مامانلی ۵۰۰۰ خیمة

سبکی ۵۰۰ خیمة

صورنلی ۵۰۰ خیمة

بیره بادنلی ۵۰۰ خیمة

جماد نلی ۱۰۰۰ خیمة

تقیم هذه القبائل فی منطقة قرص(Kars) صیفا، و فی منطقة روان أو اروان فی بلاد فارس شتاء.

رحلة إلی شبه الجزیرة العربیة/ تعریب عبیر منذر، ج۲، ص: ۳۲۴

زرقی ۵۰۰ خیمة

بادیلی ۲۰۰۰ خیمة

شاذلی ۱۰۰۰۰ خیمة تتجول هذه القبائل فی منطقة ارضروم و دیار بکر(Arzerum) .

ایزولی ۱۰۰۰ خیمة

جهانبکلی ۱۰۰۰۰ خیمة

یالیانلی ۵۰۰ خیمة

موريس ۱۰۰۰ خيمة، تقيم صيفا في منطقة ارضروم و في منطقة اورفة شتاء،

موسبانلى ۲۰۰۰ خيمة، تقيم في منطقة جبل سنجار.

رشوان ۱۲۰۰۰ خيمة، تقيم في منطقة سيواس صيفا، و في منطقة حلب شتاء.

مللى ۱۱۰۰۰ خيمة، تقيم في منطقة ارضروم صيفا و في منطقة اورفة شتاء .

ظاظة ۲۰۰۰۰ خيمة، تقيم بين سويريك و ارضروم.

بيجاقلى ۱۰۰۰۰ خيمة، في محيط سويريك.

كورة جكلى ۵۰۰ خيمة، في منطقة عينتاب.

اوقجة عزنلى ۵۰۰ خيمة، في منطقة كلس

قرة كجلى ۲۰۰ خيمة بين اورفة و ديار بكر.

صجبانلى ۲۰۰ خيمة، تقيم صيفا في منطقة سيواس و شتاء

كيكى ۱۰۰۰ خيمة، في منطقة ماردين.

بيزكى ۱۰۰۰ خيمة في منطقة اورفة

دوكرلى ۱۰۰۰ خيمة، في منطقة اورفة.

كوره جكلى ۵۰۰ خيمة

اطمالى ۱۰۰۰ خيمة

حويدلى ۲۰۰۰ خيمة

سبانلى ۱۰۰۰ خيمة تقيم كلها شمال عينتاب

قلجلى ۴۰۰ خيمة

جقلى ۷۰۰ خيمة

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۳۲۵

و أعطاني تاجر من ماردين، سافر مرارا بين مدينته و حلب و القسطنطينية الاسماء التالية لقبائل الاكراد.

قبيلة شيخ يزنى ۱۰۰۰۰ خيمة، و تتجول بين ماردين و بولى.

قبيلة شراقانلى ۸۰۰ خيمة، تقيم في السهل بين ماردين و اورفة.

سوركجى ۲۰۰ خيمة و منزل في المنطقة الجبلية لماردين.

باران على ۱۰۰۰ خيمة بين ماردين و نصيبين.

دودكى ۶۰۰ خيمة بين ماردين و اورفة.

كوم بل ۳۰۰ خيمة بين ماردين و اورفة.

بريفى ۴۰۰ خيمة بين ماردين و الموصل

هولرى ۲۰۰ خيمة بين ماردين و اورفة.

جركى ۲۵۰ خيمة

خلاجة ۳۰۰ خيمة، في منطقة ماردين.

دنبلى ۵۰۰ خيمة

دريشانلى ۳۵۰ خيمة، في جنوب ديار بكر .

صوحانلى ۷۰۰، و لا تملك هذه القبيلة حاليا أيّ زعيم لها. و قد اختلطت بالقبائل الاخرى المذكورة اعلاه.

كابلور ۳۰۰ خيمة، في منطقة ماردين.

سليفية ۱۰۰۰ خيمة، بين ارضروم و بلاد فارس.

اومرانلى ۹۰۰ خيمة، في منطقة ماردين الجبلية.

كركرى ۳۰۰ خيمة، بين سنجار و الجزيرة.

شخانبة ۲۵۰ خيمة، في منطقة ماردين .

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۳۲۶

نجارى ۲۰۰ خيمة، و تقيم كذلك في اقليم ماردين.

و زوّدني التاجر الماردينى المذكور بأسماء القبائل العربية التي تقيم في منطقة الخبر، و هي صغيرة مقارنة مع قبيلة طيّ، كما تضع نفسها تحت حماية هذه الاخيرة، و هذه القبائل هي:

بنو كعب ۱۱۰۰ خيمة.

بككارى ۹۰۰ خيمة.

حجاشة ۵۰۰ خيمة.

ذبابات ۶۰۰ خيمة.

شرابة حوالي ۷۰۰ خيمة. و يتوزع اعضاء هذه القبيلة على القبائل الاخرى.

و يتبع الاكراد و التركمان الديانة الإسلامية. و يعود اصل اهم العائلات الكردية إلى كردستان، و العائلات التركمانية إلى تركستان. يقولون ان العديد من التركمان الذين بقوا في المنطقة، أتوا اليها مع جيوش تيمورلنك، لكن عامة الشعب منهم و من الاكراد، تتحدر اساسا من المناطق التي تجول فيها حاليا و كان قسم كبير منهم يتبع الديانة المسيحية. و عندما يهدم الحكّام و الاتراك أو البدو قرى هؤلاء الناس لا يجدون وسيلة اخرى للبقاء سوى طلب حماية التركمان و الاكراد و العرب، و بما انهم يفتقرون هنا ايضا للكنائس و لرجال الدين، ينسون تدريجيا ديانتهم و لغتهم الاولى، زد على ذلك ان تشدد رجال الدين الشرقيين غير المناسب ساهم ايضا في تراجع المسيحية و انحطاطها.

و يقال مثلا ان ابناء قبيلة بهليوانلى كلهم كانوا من المسيحيين، و قد طلبوا من مطرانهم إذن تخفيف صومهم أو على الاقل السماح لهم بأكل الزبدة و البيض و شرب الحليب اثناء الصوم، لكنه رفض ذلك، فما كان من القبيلة إلا ان اعتنقت الإسلام. و هي تعتبر حاليا من قبائل التركمان.

و يطلق لقب آغا على زعيم الاكراد و التركمان. و يقال ان الاخيرين لا يهتمون اطلاقا بحسبهم و نسبهم. بعكس الاكراد، الذين يعتدون بأصلهم كشيوخ بدو. و تختلف طريقة تفكيرهم عن طريقة تفكير العرب اذ يحتفلون بولادة الفتاة كما يحتفلون بولادة الفتى، و لأنهم مسلمون يحق لهم الزواج من اكثر من امرأة واحدة، و لا يقترن آغا الاكراد بفتاة اوضع نسبا منه. و يزعمون ان الكردي المتحدر من عائلة عريقة يطلب خمسين كيس مال (ما يزيد عن ۶۵۰۰ درهم) حين يزوّج ابنته، و يعطيها مهرا صغيرا، في حين ان اعيان العرب و الاتراك، يضعون في المهر كل ما يتلقونه من الزوج و اكثر من ذلك، لذا تعتبر بعض الفتيات كنزا.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۳۲۷

و يترأس الاكراد و التركمان، الموزعين في القرى، زعيم من بينهم. و سمعت، في القرى الواقعة بين دجلة و كردستان، عن العائلات الكردية التالية باجلان(Badsjelan) ، لاك(Lak) ، ساريليه(Sarilie) و غيرها و لكل منها كخيا(Kichja) ، إلّا أنه لا يعتبر حاكما انما فلاحا كبقية عائلته، لكن بما انه الاقدر على التعاطي مع الحكّام الاتراك أو على حلّ الخلافات، يفترض ان من واجبه التحدث باسمهم من دون ان يتلقى اجرا على ذلك. و قلما نجد عائلات كردية و تركمانية أو عربية تحتفظ بشجرة عائلتها .

و بالرغم من اني لم اقصد بنفسي قيسارية و توكات(Tokat) و ارضروم و وان(Wan) ، سأشير إلى بعض الطرق المؤدية اليها، كما اقترحها عليّ، أناس يؤجرون الجياد و البغال، و بالتالي يعرفون هذه الطرق جيدا. و يحتسبون المسافات بساعات السفر، لكن بما ان الدروب ليست مستقيمة دوما، و تمرّ عبر جبال يمكننا ان نعتبر جغرافيا ان كل ساعة توازي نصف ميل.

الطريق من ديار بكر عبر ارضروم

تبلغ المسافة بين ديار بكر و شبرتين خانى ستة فراسخ، و بين هذه الاخيرة و بردنيش خانى ستة فراسخ اخرى. و ينبغى قطع ستة فراسخ للوصول إلى اورطى خان، و اربعة فراسخ منها إلى خان، و ثمانية فراسخ حتى بللو، و ثمانية فراسخ اخرى حتى تبى، و ثمانية فراسخ حتى جون، و حتى هورهور ثمانية فراسخ، و سبعة فراسخ حتى كوى زمبر، و ثمانية فراسخ حتى ميلى كان، و ستة فراسخ حتى باش كوى، و سبعة فراسخ حتى دوزلى، و ستة فراسخ حتى خانجى، و ستة فراسخ اخيرا حتى ارضروم (ارزروم)، و بالتالى تبعد هذه الاخيرة عن ديار بكر اربعة و تسعين فرسخا، كما تبعد ارضروم عن قارص ستة ايام سفر.

الطريق من قيسارية إلى ديار بكر و من ديار بكر إلى توقات

تبعد قيسارية عن بارسونما(Barsonma) خان اربعة فراسخ، و نقطع بعدها اربعة فراسخ لنصل إلى سلطان خان، و ستة فراسخ اخرى لنصل إلى جمارك(Dsjamerk) و ثمانية فراسخ إلى شابر كيسل(Schaber Kisle)، و تسعة فراسخ تفصلنا عن خانة(Chane). و من ثم نسير تسعة فراسخ و نصل إلى اولاش(Ulash)، و تسعة فراسخ فنصل إلى كنغال(Kangal)، و ستة فراسخ إلى الاجية خان(Aladsjie Chan)، و سبعة فراسخ حتى حسن شلبى(Hassan Schellebi)، و خمسة فراسخ حتى حكيم خان، و ستة فراسخ حتى حران(Cherren)، و أربعة فراسخ حتى أوغلى(Oguli)،

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۳۲۸

و ثمانية فراسخ حتى دانغيسلى، و اربعة فراسخ حتى معدن،(Maaden) و سبعة فراسخ حتى أربو(Arpaud)، و ستة فراسخ حتى هربود(Charpud)، و ستة فراسخ حتى حابوسى(Hobusi)، و تسعة فراسخ حتى بازخان(Bas Chan)، و أربعة فراسخ حتى اورطة خان(Orta Chen)، و ستة فراسخ حتى بوردنيس خان، و ستة فراسخ حتى شربتين خان(Cherbettin Chab)، و ستة فراسخ حتى ديار بكر. و تبعد بالتالى قيسارية عن ديار بكر ۱۳۹ فرسخا.

و من ديار بكر حتى توكات، نسلك الدرب نفسه اى مسافة ۹۹ فرسخا من ديار بكر اولاش، ثم نجتاز سبعة فراسخ حتى سيواس، و ۱۲ فرسخا حتى ينكى خان(Jengi Chane)، و سبعة فراسخ حتى بولوس(Bolus)، و سبعة فراسخ اخرى حتى توكات. و بالتالى، يقطع المرء ۱۳۲ فرسخا ليصل من ديار بكر إلى توكات.

الطريق من توكات إلى اماسيا(Amasia)

تفصل بين توكات و ايغناخان(Igna Chan) ستة فراسخ، و تبعد هذه الاخيرة عن توربال(Turbal) ثمانية فراسخ، و ينبغى قطع ثمانية فراسخ للوصول إلى اماسيا. تصبح المسافة بين توكات و اماسيا بالتالى ۲۲ فرسخا.

الطريق من وان و ديار بكر إلى أرضروم

زودنى ارمنى، اعتاد السفر خلال شبابه بمعلومات حول هذه الطرق، لذا لا ينبغى الاعتماد على المسافة الفاصلة بين الاماكن، إلا استنادا إلى الطرق السابقة التى جمعت المعلومات عنها عن مؤجرى الجياد و البغال.

تبعد و ان عن ميراك(Mirak) ثمانية فراسخ، و تبعد هذه الاخيرة عن اردبش(Ardish) سبعة فراسخ. و يجب قطع عشرة فراسخ حتى مالاسغرد(Malasgerd)، و تسعة فراسخ حتى بوستانديبى(Bostandibi)، و ثمانية فراسخ حتى يزيدكوى(Yasid Koi)، واحد عشر فرسخا حتى مليك كوى(Mellik Koi)، و ثمانية فراسخ حتى خانيس(Chanis)، و ثمانية فراسخ حتى طورطان(Turtan)، و ستة فراسخ حتى ارتيف(Ertif)، و منها إلى ارضروم ستة فراسخ.

على طريق ديار بكر، تبلغ المسافة بين و ان و مسطان(Mastan) ستة فراسخ، و ثمانية فراسخ من هذه الاخيرة حتى بلية(Pelie)، و عشرة فراسخ حتى تطوان(Tatwan)، و تسعة فراسخ حتى سورب(Surp)، و ثمانية فراسخ حتى زعق(Zaek)، و أحد عشر فرسخا حتى سوغورد(Sugurd)، و منها إلى ديار بكر اربعة ايام سفر.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۳۲۹

ملاحظات حول سوريا و سكان جبل لبنان

اشارة

عند وصولى إلى حلب، قصدت اولا منزل القنصل الهولندى العام، السيد ماسيك، الذى دعانى فى بغداد لزيارته، فاستقبلت بحفاوة بالغة، فمنذ سنوات عديدة لم اجلس فى صحبة اناس بهذه اللطافة. حتى اننى صادفت اشخاصا من بلادى. ولد السيد ماسيك فى هولستن. و هو يعد بالتالى من رعايا الملك الدانمركى. أما السيدة ماسيك، و كنيتها غوفرتس، فولدت فى هامبرغ. بذل مضيفى قصارى جهده لجعل اقامتى فى هذه المدينة مسلية جدا، فعرفنى على الاوروبيين المقيمين فيها، و من بينهم السيد بورى، الذى يعمل فى متجر السيد ماسيك، و يقيم فى منزله، و الطبيب باتريك روسيل، شقيق صاحب كتاب وصف حلب (بالانكليزية) و السيد دايفيس، رئيس ادارة المصنع الانكليزى، و الوالى الحالى، بسيتون، و السيد سميث، و السيد ابوت، و غيرهما من التجار الانكليز. فوجدت نفسى وسط مجموعة من الاصدقاء الاوروبيين، و نسيت فى خضم الاحاديث المتاعب التى مررت بها حتى الان. فى هذه الاثناء تلقيت فى حلب الامر من جلالة الملكة تقضى بالعودة إلى قبرص، و نسخ النقوش التى نقلها السيد بوكوك، و التى يخالها العلماء الاوروبيون فينيقية، و تستدعى بالتالى التوضيح. كان سكان هذه الجزيرة قد قتلوا حاكمهم من فترة ليست ببعيدة، و اعلنوا الجزيرة ساحة حرب، ففضلت الانتظار قليلا قبل القيام بهذه الرحلة، و لما كان البعض يحاول تعظيم الامور، اسرعت بالذهاب إلى اسكندرون، للانتقال منها إلى قبرص، فور سماعى اخبارا جيدة، تؤكد ان محيط لارنكا، حيث عثر السيد بوكوك على النقوش، اصبح آمنا، و قصدت بعدها يافا، و اورشليم و عكّا، و صيدا، و دمشق و طرابلس و اللاذقية، لأعود لاحقا إلى حلب، بانتظار وصول القافلة التى ستقلنى إلى القسطنطينية، مرورا بعدن، و كوتاهية و بورصة، غير اننى سأحتفظ بوصف هذه الرحلة للجزء التالى، و سأكتفى بأن أضيف هنا بعض الملاحظات حول سوريا.

تنقسم سوريا إلى عدة مقاطعات، على رأس كل منها حاكم يملك ثلاثة اطواق؛ تعد المناطق التابعة لحكومة دمشق الاكبر مساحة و الاكثر ربحا، لأنها تضم الاراضى المقدسة. تليها المناطق التابعة لباشا حلب، و الجدير ذكره ان باشا طرابلس و باشا صيدا، يملكان عدة اقاليم تابعة لنفوذهما، علما ان معظم رعاياهم يقيمون فى جبل لبنان، رغم انهم ينتمون لمذاهب و ديانات مختلفة، و ينتخبون شيوخا و امراء من قومهم يستأجرون بعض الاقاليم من الباشاوات، و يرفضون دفع الايجار إلى ان يستدعيهم الجيش التركى و يرغمهم على دفع ما يتوجب عليهم.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۳۳۰

حلت اللغة العربية محل اللغة السريانية القديمة. و يزعم ان بعض سكان القرى التابعة لحكومة دمشق، يستعملون اللغة السريانية الحديثة التى تختلف كليا عن القديمة منها . يتكلم الاكراد و التركمان المقيمين فى جبل الاكراد و فى مقاطعة التركمان، أو فى سوريا تحت الخيم، اللغتين الكردية و التركية المحليتين. و لكن منذ ان خضعت البلاد لحكم الاتراك و الذين عينوا فى هذه المقاطعات باشاوات لا يفهمون العربية، اصبحت اللغة التركية، اللغة المستعملة فى البلاط، سواء فى هذه البلاد أو فى المقاطعات الاخرى التابعة للسلطان، غير ان هذه اللغة ليست مألوفة هنا، شأنها شأن الفرنسية فى المانيا.

تعد الديانة الاسلامية، و خاصة المذهب السنى، الديانة المهيمنة فى هذه البلاد، و نجد ايضا يهود و مسيحيين و متاولة، و دروز و نصيريين و اسماعيليين و اتباع مذاهب اخرى لا يوليها السكان اهتمامهم.

يقيم اليهود فى المدن، و هم جميعا من التلموديين، و برغم اننا نصادف فى دمشق، بعض القرائين و السامريين، الذين يقيمون فى نابلس و سحم.

يكثر المسيحيون فى سوريا و خاصة فى جبل لبنان، حيث يتمتع الموارنة فى ظل الدروز، بنوع من السيادة، اكثر منه فى المدن. يعترف الموارنة بالبابا كزعيم روحى لهم، و يشددون على انتمائهم للكنيسة الرومانية . و رغم انهم يختارون بطاركتهم بأنفسهم يطلبون من البابا مباركة الشخص الذى وقع عليه الخيار و منحه لقب بطريرك انطاكية. غير انهم قلما يأبهون لأوامر البابا، اذ يروى ان الكهنة

الاوروبيين في جبل لبنان، اختاروا بطريركا كان في روما و نال حظوة لدى الاوروبيين الكاثوليك، و لكن الكهنة الشرقيون اختاروا بطريركا آخر ضاربين بعرض الحائط رفض البابا منحه بركته. يختار البطريرك الماروني ۱۲ مطرانا يعملون في خدمته. يستعمل معظم موارنة جبل لبنان اللغة السريانية في قداديسهم، بينما تخلى موارنة حلب عنها كليا و استبدلوها باللغة العربية الحديثة.

يقيم المسيحيون الارثوذوكس في منطقة جبل لبنان الخصبة و الرحبة. و قد حلت اللغة العربية

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۳۳۱

محل اللغة الرومانية في قداديسهم. و هم يختارون لهم بطريركا، يسلمه البابا مهاما محددة ليقال انه عين بطريركا ارثوذوكسيا، في الشرق. و الجدير ذكره ان الارثوذوكس المقيمين في مناطق نفوذ الدروز قلما يأبهون لأمر هذا البطريرك، الذي لا يتمتع بأي صلاحيات تذكر، و نجد ايضا في جبل لبنان، بطريركا للأرمن، يعينه البابا و يمنحه صلاحيات محددة. في الواقع، يقيم هؤلاء البطاركة الاوروبيين في هناء في ظل الحكم الدرزي، بينما يعاني البطريرك الكلداني في ديار بكر، و غيره من رجال الدين المرتدين في الشرق، الامرين، على يد اتباع ديانتهم القديمة و الباشاوات، إذ يكثر في المدن السورية، اليونان و الارمن و اليعقوبيون، الذين يعترفون ببطاركة القسطنطينية، و أج ميازين و ديار بكر، كزعماء روحيين لهم، و يسرهم كثيرا ان يمنحهم البابا لقب بطاركة. و مما لا شك فيه ان انصراف الكهنة الاوروبيين و تلاميذهم عن الطقوس القديمة، ادى إلى اشعال الفتن و القضاء على عائلات عريقة. و مما لا شك فيه ان اندلاع الفتنة بين المسيحيين كان في مصلحة الحكومة التركية.

يتبع المتاولة المذهب الإسلامي المهيمن في بلاد الفارس، و هم بالتالي من اهل الشيعة . و على غرار سكان بلاد فارس، يمتنع المتاولة عن تناول الطعام و الشراب مع اتباع الديانات الاخرى، و لا يستخدمون طبقا اكل منه شخص غريب، الا بعد تنظيفه جيدا، حتى انهم يعتبرون انفسهم مدنسين ان لمس احبني ملابسهم. و لما كانوا يعيشون في ظل الحكم التركي، قلما تجرأوا على معاملة أهل السنة بازدراء، و الجدير ذكره انهم غالبا ما يدعون كرها انتماهم لأهل السنة. في الواقع، لا يحب السنة و المسيحيون العيش في وسطهم، بينما يعمل الموارنة امناء سر لدى شيوخ المتاولة، و يقيمون بينهم سنوات عدة. و لكن لسنوات خلت، استطاعوا وضع يدهم على اقاليم عدة. تقيم عائلة حرفوش، التي يعتبر سيدها نفسه اميرا، في بعلبك، و تدفع اجرة هذا الاقليم لسلطان القسطنطينية مباشرة. و في سير و المناطق المحيطة بها، التي تعرف ببلاد بشرى نجد ثمانية شيوخ من عائلة ناصيف، يدفعون الاجرة لباشا صيدا. و يحكم شيوخ المتاولة من عائلة الخنسا، منطقتي القرنة و الهرمل ، المطلة على نهر العاصي؛ و هم يدفعون الجزية لبك حمص. خلال اقامتي في هذه البلاد، كانت عائلة حمادة تحكم اقليمي جبيل بشرى الشماليين و الواقعين ضمن مناطق نفوذ باشا طرابلس . غير ان الامير يوسف الدرزي طرد هؤلاء المتاولة، كما سأذكر في ما بعد.

يخضع الدروز لسلطة شيوخهم الذين يعرفون بالأمراء. يقيم الامير الكبير في دير القمر و تمتد

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۳۳۲

مناطق نفوذه إلى جزء كبير من جبل لبنان؛ و هو يدفع الجزية لباشا صيدا. يحكم اقليم راشيا الامير علي، و يدفع الاجرة للباشا المقيم في المدينة نفسها. اما في اقليم حاصبيا فيقيم امير آخر يدعى اسماعيل، و الجدير ذكره ان هؤلاء الامراء الثلاثة ينتمون للمنزل الشهابي. فضلا عن ذلك، سمعت الناس يتحدثون عن شيخ درزي، يدعى حسين، و يحكم حوالي ۴۰ قرية في جبل قفطين، الواقع ضمن باشاليك حلب. غير ان سكان هذه القرى لا يتبعون الديانة الدرزية بحذافيرها بل يروى أنهم يقيمون ليلا اجتماعات سرية و يمارسون عادات الاسماعيليين، التي سأتحدث عنها فيما يلي.

أكد لنا الفرنسيون ان دروز جبل لبنان يتحدرون من المواطنين الذين لازموا المنطقة الجبلية في الارض المقدسة، بعد ان طرد منها الاوروبيون، غير اننا لا نستطيع اثبات العكس لأن بنيامين دو تودلا يأتي على ذكر الموضوع في بيان رحلته، ص ۳۶، علما انه قصد هذه المناطق في الوقت الذي كان فيه الاوروبيون اسياد الارض المقدسة. مما لا شك فيه ان الدروز سيريانيو الاصل، و لكنهم اعتنقوا ديانة محمد أو اسماعيل الدرزي، الذي اثار ضجة كبيرة في مصر في بداية القرن الخامس هجري و يدعى بعض المؤلفين اننا نستطيع التعرف عليهم من خلال رؤوسهم المقرنة. و لما سألت الموارنة عن هذا الموضوع، أكدوا لي انهم لم يلحظوا اي اختلاف في رؤوسهم. كما و انهم نفوا عبادة الدروز للعجل رغم ان المسلمين يطلقون عليهم لقب ابو العجل، و بينما اتهمهم بعض المؤلفين بالزواج من اخواتهم و بناتهم، أكد لي المسلمون و الموارنة الذين يقيمون بينهم، ان ذلك غير صحيح.

ينقسم الدروز إلى مشايخ العقل أو رجال دين و جهلة أو علمانيين. يتبع الفريق الاول شيوخ العقل الثلاثة الاساسيون، و يقيم الاول في اقليم العرقوب و الثاني في اقليم الشوف و الثالث في اقليم حاصبيا. يتميز شيوخ العقل عن العلمانيين بثيابهم البيضاء و هم يملكون منازل فخمة على الهضاب المطلة على المناطق الجميلة. و مساء الخميس، أو عشية الجمعة يجتمعون كلهم في منزل زميل لهم، للتفرغ لشعائرهم الدينية و الصلاة عن نية الامة كلها؛ تستطيع زوجات رجال الدين حضور هذه الاجتماعات بينما يحظر على الامراء أو العلمانيين المشاركة فيها. و هم يكرهون مظاهر الترف في الدنيا، غير انني اخالهم افاضل كرما، لأنهم سيتوقون لاحقا، و بعد عودة حاكمهم لاعتلاء العروش الملكية، و المناصب الوزارية. و هم لا يتزوجون من بنات العلمانيين، بل و انهم يشمئزون من ثروات الاعيان، و يرفضون تناول الطعام لدى شيوخ و امراء امتهم. و يكتفون بقبول الدعوات لتناول الطعام في منازل شيوخ العقل و الفلاحين، الذين يكسبون قوتهم من عرق جبينهم. و سمعت رجال الدين السنة يقولون انهم يرفضون تناول الطعام مع الباشا أو غيره من الاعيان الاتراك، غير ان البعض يتهمهم لهذا السبب بالخبث. و الجدير ذكره ان الدروز العلمانيين يرفضون ايضا تناول الطعام مع الجميع.

كانت زوجة احد الشيوخ، تنزل في ضيافة القنصل الفرنسي في صيدا، و لما

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۳۳۳

ارسل لها بعض الفاكهة من حديقة منزله، قالت له انها لا تستطيع قبول هدية مماثلة من قاض أو باشا، و لكنها تستطيع تناول الطعام في منزله، علما انه كسب ثروته بعرق جبينه.

و من صفات الدروز العلمانيين اذكر لكم، حسن الضيافة، الطموح، البسالة التي قد تتحول إلى تهور، و احيانا البخل. يتعلم الشيوخ الشبان القراءة و الكتابة، دون ان يجتهدوا للاطلاع على اصول ديانتهم، فهم يعتبرون ذلك غير ضروري خاصة و ان رجال الدين قد اخذوا على عاتقهم مسؤولية الصلاة و الصوم عن نية العلمانيين كافة. فمنذ صغرهم، يتمرن الشيوخ الشبان على ركوب الخيل، و على المبارزة بالسيف، و على حمل الحراب، و استعمال الاسلحة النارية. و ان شوهد احد الشيوخ و الدموع في عينيه، سخر منه الجميع، علما انهم يتميزون برباطة جأشهم، و لا مبالاتهم في مواجهة الموت، فهم على استعداد للقتل ان وجه لهم احدهم كلمة قد تمس شرفهم. و يسود عندهم قانون الاقوى، حتى ان مسيحيي جبل لبنان يراعون هذا القانون، و تقليد الثأر الموروث. و يسعى بالتالي مطارنتهم لمصالحة الفريقين المتخاصمين حتى لا يبسط شيوخ عقل الدروز نفوذهم على مناطق اخرى، و ان اقدم درزي على قتل مسيحي أو مسلم لا يحاكمه القاضي التركي فحسب، بل يعطى الامير الامر بنهب منزله ان امتنع عن دفع الجزية المفروضة عليه، و الجدير ذكره ان الامير قلما يفرض عقوبة الاعدام على القاتل. و تنشب بعدها خلافات حادة بين عائلة القتيل و عائلة القاتل، خاصة في الليل، دون الاخذ بعين الاعتبار عدد القتلى الذي قد يتكبده الفريقان. يتبع شيوخ الدروز قانون الاقوى، لأنهم يعتبرون انفسهم في منزلة الامير، الذي لا يحق له قتلهم أو تكليف سواهم بولاية القرى، و ان شب خلاف بين شيخين رفيعي المستوى، ارسلوا الفلاحين إلى قرية خصمهم لقتل السكان و قطع اشجار الخوخ و الزيتون، علما ان الامير نادرا ما يعاقبهم على هذه الاعمال العنيفة. في بعض الاحيان، يفرض على المهاجم مبلغا كبيرا من المال، و يجبره على قطع الاشجار و حرقها. و ان صادف في عائلة احد الاشخاص، قاتل أو قتيل، تعذر عليه العمل مطمئن البال في الريف، أو النوم بأمان في منزله، قد يقرر البعض التصالح مع اخصامهم غير ان العائلات المنعزلة، تعيش في حالة حرب مستمرة. و قد اكد لي سكان المنطقة ان حوالي ۳۰ شخصا، من الحكومة الدرزية في جبل لبنان، يفقدون حياتهم بسبب اعمال العنف هذه.

لما كان الدروز يتقاتلون عند سماع عبارة فظة، يعتمد عامة الشعب الحذر في تعاملهم، فلا يتحدثون بالسوء عن خصمهم في غيابه، بل يثنون عليه و كأنه صديقهم الحميم. و ان ظن احد القتلة، انه ضعيف للغاية و لا يستطيع الوقوف في وجه عائلة القتيل، قصد منزل اهله عاقدا حول عنقه حبلا أو محرمة مؤكدا لهم ان القتيل مس شرفه بكلامه الجارح، فاضطر لقتله، و يعطى بعدها الحرية لأهل القتيل بالقضاء عليه. فبرغم حينئذ الاهل على مسامحته. و لكن الامر لا ينتهي عند هذا الحد، اذ يستدعي المهان الحقل، ليحلق ذقن المهين. لسنوات خلت، اشتكت احدى الارامل

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۳۳۴

لقاتل زوجها، من الشقاء الذى سببه لها. و بعد ان اثنى هذا الاخير على المغدور أكد لها انه اساء التصرف و وجه له كلاما جارحا فاضطر لقتله غير انه تعهد باعالة الارملة و اولادها بقدر ما تسمح له ظروفه. و الجدير ذكره ان هذه الجرائم ترتكب فى أغلب الاحيان تحت تأثير الخمرة، التى يحبها الدروز كثيرا.

لما كان القتل سهلا للغاية بالنسبة للدروز، أظن ان الاجنبى سيشعر بالقلق الشديد بينهم، غير انهم يتمتعون بحسن الضيافة، شأنهم شأن العرب، و باستعدادهم للدفاع، عن كل شخص يطلب حمايتهم، ضد أعدائه. منذ بضعة سنوات، التجأ زعيم عصابة لصوص تركية، إلى منزل شيخ من بيت تلحوق، رغم انه لم يقابله قط من قبل. عندما ابلغ باشا دمشق بالامر، طالب امير الدروز ان يعيد اللص. و لما كان الامير و أعيانه يسعون لتجنب الحرب مع الاتراك، اعطوا الشيخ الامر بتسليمه، و لكن هذا الاخير رفض رفضا قاطعا التخلى عن الرجل الذى طلب حمايته. فى هذه الاثناء، انهمك الباشا فى مسائل اخرى اكثر اهمية و نسى امر اللص المذكور.

اظن ان الامثلة التالية ستثبت لكم بسالة الدروز و تهورهم. فى احد الايام، خطر لأحد الدروز أن ينهب فى وضح النهار مقر باشا تركى فى دمشق، عاصمة سوريا، حتى يتحدث التاريخ عن شجاعته. فجمع لهذه الغاية، ۲۰۰ رجل تقريبا، و قاد ۵۰ منهم إلى السوق الرئيسى بينما وزع الباقين على الابواب، و الضواحى، و خلف البساتين، و بعد ان اعطاهم الاشارة، فتح رجاله نيران مسدساتهم فى السوق، و اوقعوا عددا من القتلى و الجرحى، ليتسنى لهم، بعدها الوقت لنهب المتاجر المفتوحة. و لم يتجرأ اى نبيل على مغادرة منزله و الوقوف فى وجههم، و قبل ان يصل جند الباشا، كان الدروز قد غادروا المدينة، حيث كان رفاقهم بانتظارهم مع الاحصنة، خلف البساتين.

منذ فترة وجيزة، خطر لشيخ من شيوخ بيت نكد، يحكم عددا من القرى الواقعة فى جوار صيدا، ان يقتل احد ضباط الباشا، خلال قيام هذا الاخير برحلة صيدا. فطلب الاتراك ترضية من الامير، فاستدعى هذا الاخير شيوخ أمته إلى دير القمر و تقرر خلال اجتماعهم حرق منزل القاتل و قطع أشجار حقله. و بعد تنفيذ هذا الحكم، اعلم الباشا انه عاقب القاتل بشدة فادعى الباشا الرضى بينما كان يلاحق الشيخ سرا (ففى الحالات المماثلة، لا ينام الدروز ليلتين متتاليتين فى المنزل نفسه) بغية قتله. فصمم شيوخ بيت نكد، الذين يبلغ عددهم حوالى ۲۳ شيخا، على الانتقام له، مهما كان الامر. فلبسوا أزياء تنكرية و ترقبوا الاتراك عدة اسابيع فى الغابات و البساتين المحيطة بصيدا، دون ان يصل احد منهم.

و فى أحد الايام، ابتعد الباشا عن المدينة برفقة ۵۰ رجلا تقريبا، فانقض عليه الدروز و قتلوه مع عدد من كبار ضباطه. و لكن الاتراك عقدوا العزم على الانتقام لموتهم. فأعطى السلطان الامر لباشاوات المنطقة بمهاجمة الدروز بواسطة جيش كبير. فمنى الطرفان بخسائر بشرية فادحة دون ان

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۳۳۵

يلحق الاتراك ضررا كبيرا بالعدو. فالدروز، الذين اهملوا الزراعة، سئموا من هذه الحرب بعد مرور شهرين على اندلاعها و أرغموا عائلة نكد، على الاحتماء بالمتاولة، و التصالح معهم. و بعد ان عجز الاتراك عن إلحاق خسائر كبيرة بالعدو، اظهروا استعدادهم لوضع حد لهذه الحرب، فطلبوا ۱۰۰ صرة (تحوى كل منها ۳۳۳ ريالا) لدفع تكاليف الحرب، و لما رفض الدروز دفع أكثر من ۵۰ صرة، غضوا الطرف عن مطلبهم الاول، و رضوا بالقليل. فعاد شيوخ بيت نكد إلى قراهم، دون ان يتزعج الاتراك من جراء ذلك.

لما كان الدروز يفضلون الحفاظ على سرية معتقداتهم الدينية، امام الاتراك، ادعوا الانتماء للديانة الإسلامية، حتى ان الامير و غيره من الاعيان، الذى تربطهم علاقات عمل بالباشا و غيره من الاتراك، لجأوا للختان، و تعلموا الصلاة و الطقوس الدينية حتى يثبتوا انتماءهم للمسلمين، غير انهم قلما يأبهون بالديانة الاسلامية، صحيح انهم شيدوا جامعا فى دير القمر، الا انه كان مخصصا لاستقبال الضيوف، فإن أبلغ الامير بوصول آغا تركى، امر بتنظيف الجامع، و بإقامة الطقوس الدينية، خلال اقامتهم بينهم، أما فى الايام العادية، فهو يبقى خاليا كليا، و لا تستعمل المئذنة لدعوة الناس للصلاة، بل للاعلان عن شاة أو نعل ضائع، أو عن سعر اللحم أو غيرها من المواد الغذائية، فى السوق. يحتسى الدروز الخمرة، و غيرها من الكحول، و يتناولون لحم الخنزير و سواه، و ان اقاموا فى قرى مسيحية، حضروا القداديس، خاصة النساء منهم، و ان طلب احد المطارنة الموارنة ان يعمد ابن أو ابنة الامير، منح هذا الشرف دون تردد. و يقال ان بعض الشيوخ و العجزة يؤمنون ان ذريتهم قد تستفيد من صداقة المسيحيين لهم، فيطلبون مسحهم على فراش الموت رغم انهم قضوا حياتهم كلها جهلة، دون ان يعيروا الديانات كافة، اهتمامهم فى بعض الاحيان، يعتكف الشيخ أو الامير فى شيخوخته، فى دار مشيخة العقل، كى يقضى ايامه الاخيرة فى سلام. و تتوفر لدينا امثلة كثيرة، عن دروز اقاموا فى دمشق، و حلب و صيدا، و ارتدوا إلى الاسلام، و لكن الدروز لا يقبلون ابدا المهتدين حديثا إلى الدين، كما سنرى لاحقا.

يبيح القانون أو العرف تعدد الزوجات، غير ان الدروز لا يتخذون لهم اكثر من زوجة، و نادرا ما يتزوج الاعيان من اثنتين. فبعقد قبل الزواج، اتفاقا مع اهل العروس، امام شيخ العقل، كما يفعل المسلمون امام القاضى، لتحديد المبلغ الذى ينبغى ان يدفعه الزوج فى حال طلق امرأته، و قيل لى ان الطلاق سهل للغاية لدى الدروز، فإن طلبت الزوجة الاذن بالذهاب لزيارة اهلها. يقال انها تعد طالقا، إذا اكتفى الزوج بالقول اذهبى، دون ان يضيف اذهبى و عودى.

خلال وداع اهلهم، يحضر الدروز الجنازة على الاحصنة، و يقدمون لهم السلاح ، كما و انهم

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۳۳۶

يحملون معهم علبة قش، أو قطعة خشب، و يرتدون ملابس الفقيد، لمدة سبعة أيام، ليرمونها بعدها، فوق ضريحه. فى الواقع، يجتمع عدد كبير من الناس لحضور افراح و اتراح اعيان الدروز، و يقتضى ذلك اقامة مأدب فخمة، و صرف مبالغ طائلة.

زودنى مورانة جبل لبنان، بهذه المعلومات كلها عن عادات و اعراف الدروز، و الجدير ذكره ان هؤلاء الموارنة كانت تربطهم بعلمانيى الدروز علاقات وثيقة، خلافا لرجال الدين. لذلك لم تتوفر لديهم معلومات وافية عن ديانتهم و عن الطقوس التى تمارس خلال اجتماعاتهم الدينية. كما و اننا لا نستطيع الحكم عليها من خلال الديانات الاخرى، أو من خلال بعض الطقوس، أو استنادا لأقوال جيرانهم، علما انهم غالبا ما يتنازعون، فيحاولون تسليط الضوء على سيئآتهم. فحاولت الحصول على الكتب التى وضعها الدروز، لأكوّن فكرة واضحة عن ديانتهم فزودنى انطون بيطار، مترجم السيد ماسيك، بالكتاب الاول. و يزعم ان يسوعيا يتقن العربية، حل ضيفا فى منزل احد الدروز، و عثر على هذا الكتاب، فى ركن الغرفة، و نقله فى الليلة نفسها، و اليكم الملاحظات التى استخلصها من هذه المخطوطة.

يتبع الدروز عقيدة محمد بن اسماعيل و يعبدون حاكم، (الحاكم بأمر الله) الذى يجسد الله .

و هم يطلقون على انفسهم لقب الموحدين، و يؤمنون انه العام ۴۰۰ هجرية (۱۰۰۹ ميلادية)، حلت الألوهية فى الحاكم، و لم تظهر للناس الا العام ۴۰۸، حين راح محمد بن اسماعيل يبشر بعقيدته الجديدة. و يعتبر الدروز العام ۴۰۹، عاما مشئوما لأن الالوهية هجرت حاكم خلاله.

و لكنهم يزعمون انه منذ بداية العام ۴۱۰ و حتى بداية العام ۴۱۲ (تاريخ وفاته) حل الله فيه ثانية.

استنادا إلى هذا الكتيب، ظهر الله ست مرات، فى صورة انسان، ۱) فى الهند، فى مدينة جين ماشين، تحت اسم العلى ۲) فى اصفهان، تحت اسم البار، ۳) فى اليمن، تحت اسم عليا ۴) فى بلاد البربر، تحت اسم الملّا، ۵) فى مهدى فى بلاد البربر، تحت اسم القائم ۶) تحت اسم المعز ۷) تحت اسم القسيس ۸) تحت اسم ابو زكريا ۹) تحت اسم المنصور ۱۰) تحت اسم الحاكم، كملك مصرى.

أما اهم رسل محمد بن اسماعيل، فهم:

۱) حمزة.

۲) محمد الكلمة

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۳۳۷

۴) ابو الشعر

۵) بهاء الدين أو على بن محمد السماكى

لا يأتى هذا الكتاب على ذكر محمد بن اسماعيل، كمؤسس للديانة الدرزية، غير ان الكاتب يتحدث غالبا عن حمزة بن على رسوله الاول. و استنادا لهذا الكتاب، يبدو انه ظهر سبع مرات فى العالم ۱) زمن آدم، تحت اسم شعسا ۲) زمن نوح، تحت اسم بيتاغوروس ۳) زمن ابراهيم، تحت اسم داود ۴) زمن موسى تحت اسم شعيب ۵) زمن يسوع المسيح، تحت اسم اليعازر ۶) زمن محمد تحت اسم سلمان الفارسى ۷) زمن سيد، تحت اسم صالح. و هو مؤلف كتاب القوانين الدرزية الاساسى، الذى يوازى مؤلفى اسماعيل و بهاء الدين أهمية، فهما يحترمان العهد الجديد اكثر من كتب الديانات الاخرى، و يعتقدان ان حمزة هو الذى وضعه، مما يعنى ان المدعو

حمزة هو المسيح الحقيقى و قد تجسد فى صورة رسول، و علم القانون ليسوع المسيح، الذى يسميه الكاتب المسيح الدجال. كما و انهما يدعيان ان ارواح الرسل الدروز الاخرين قد حلت فى جسد تلاميذ يسوع المسيح و رسله.

غالبا ما يستعمل الدروز عبارتى الملائكة و الشياطين، الاولى للدلالة على اتباع حاكم و الثانية على الكفار. أما الملائكة الخمس الذين يحملون عرش الله، فهم ۵ رسل ۱) جبرائيل، و يعنى حمزة ۲) ميكائيل و يعنى محمد بن وهاب ۳) اسرافيل، سلامة بن عبد الوهاب ۴) عزرائيل، بهاء الدين ۵) مطروم، على بن احمد. و الجدير ذكره ان كل واحد منهم يحمل لقبا معينا كالقديم و المثابر، و البوق و غيرها. و هم يؤمنون ايضا ان الحاكم سيظهر مرة اخرى فى شكل انسان، بعد ان ينتصر المسيحيون على المسلمين، فيحكم بعدها الحاكم العالم بقوة السيف. و يرفع الديانة الدرزية فوق الديانات الاخرى، مثيرين بذلك فرح المسيحيين و تعاسة المسلمين.

فى سبيل الكشف عن حقيقة هوية كل من يدعى انه درزى علمانى (علما ان ذلك قد يحصل بسهولة بالغة، لأن العلمانى يجهل تعاليم دينه) يطرحون عليه السؤال التالى: هل يزرع الفلاحون فى بلادك العدس؟ فإن اجاب نعم نزرعه فى قلوب المؤمنين، فذلك يدل على انتمائه لمذهبهم ، علما

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۳۳۸

انهم لا يقبلون ابدا بالمرتدين حديثا إلى الدين، اذ يعتقدون ان الغريب الذى يرغب باعتناق ديانتهم، يعود بعد مماته إلى ديانته الاولى.

و فى ما يتعلق بواجبات الدرزى، اليكم ما قرأته فى المخطوطة نفسها، ينبغى عليه عبادة الحاكم بصفته الله، و تصديق ادعاءات شيوخ العقل حول دينه دون القيام بأبحاث لاحقة و الايمان بأن روح الميت تنتقل إلى جسد مولود جديد، و الامتناع عن القسم، و الاكتفاء بالاجابة بنعم أو لا. و الكشف عن اسرار ديانته لامرأته، دون ان يفشى بحكمته لأى شخص غريب. و يجب عليه ايضا اللجوء إلى الوحدة، و تقديم الصدقات لإخوانه، و الايمان بأن اتباع الديانات الاخرى، و خاصة الاعيان منهم، الذين يتعدون على اموال رعاياهم يعرضون انفسهم لاحتقار الحاكم (الله) لهم، و يحظر عليه بالتالى تناول الطعام فى منازلهم، و الاكتفاء باحترام شيوخ العقل، و الايتام، و كل من يقتات من فاكهة الحقول و البساتين، خاصة و انها املاك شرعية. يحرم على الدرزى ارتكاب الزنى. يقول الكاتب انه اذا ارتكب شيخ العقل الزنى واراد ان يكفر لاحقا عن ذنبه عليه ان يتندم عن مآثمه خلال سبع سنوات أمام شيوخ العقل الاخرين، و لكن ان رفض التكفير عن ذنبه، حلت روحه بعد مماته فى جسد رجل كافر.

يعتنق النصيريون ديانة خاصة بهم، يجهلها اتباع الديانات الاخرى، غير ان زعماءهم، الذين تربطهم علاقات عمل بالاتراك يدعون انهم من اهل السنة . و هم يكثرون بين جبل لبنان و انطاكية. و يقيم احد المقدمين فى بهلولى، على مقربة من اللاذقية. و هو الاكثر نفوذا بين النصيريين كافة. و يقيم مقدم آخر فى سمرين، فى بلاد الشواب، فى اقليم صفطا، و مقدم ثالث فى جبل كلبية و هم يدفعون الجزية لباشا طرابلس، علما انهم يصدرون التبغ الذى تنتجه اقاليمهم، إلى كافة انحاء البلاد. غير ان عددهم لا يوازى عدد الدروز، و اتباعهم لا يقطنون ابدا فى أعالى الجبل، مما يعنى انهم يخضعون كليا لسلطة الاتراك . سمعت احد المواربة يثنى عليهم، و يزعم انهم طيبو المعشر و حسنو السيرة. فقد اصطحبوه إلى معبد نظيف و مرتب يتميز بتواضعه الشديد، حيث

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۳۳۹

انه لم يلحظ فيه سوى قنديل مشتعل. و علمت منه ايضا ان النصيريين يحتفلون بثلاثة اعياد فى السنة، يلجأون خلالها إلى الرقص للتعبير عن ورعهم. غير ان مسيحيى الشرق، لم يستطيعوا ان يزودونى بمعلومات وافية عن الديانة النصيرية، علما ان المسلمين يعتبرونهم من الوثنيين الذين يعبدون الشمس و النجوم، و اظن ان مرد ذلك إلى احترامهم الشديد للزهرة التى تدل على كوكب فينوس و على فاطمة ابنة محمد فى آن معا.

سنلاحظ فى ما بعد ان هؤلاء النصيريين الذين سآتى على ذكرهم فى «المقالة التمهيدية»، هم من المسلمين.

يقول مؤلف الكتيب المذكور اعلاه حول الديانة الدرزية، ان النصيريين كانوا قديما من الدروز، و لكن المدعو نصير أغواهم، و حثهم على نكران ألوهية الحاكم و استبداله بعلى بن أبى طالب (صهر محمد)، و اخبرهم هذا المضلل ان الالوهية حلت فى اثنى عشر إماما من سلالة على، لتختفى مع ظهور محمد المهدى (آخر الأئمة)، و تستقر فى الشمس. يقول الدرزى نفسه ان النصريين يؤمنون بالتقمص و ان روح المؤمن تنتقل بعد الموت إلى جسد نصيرى آخر. لتدخل بعدها فى احدى النجوم. لكن ان تصرف احدهم بفظاظة و رفض الامتثال لتوصيات على، انتقلت روحه إلى جسد يهودى أو سنى أو مسيحى لتشهد بعدها تغييرات كثيرة، و تتطور و تنتقل فى نهاية المطاف إلى احدى النجوم. أما الكفار، الذين لا يعبدون على بن أبى طالب، فتنتقل ارواحهم إلى اجساد الجمال أو البغال أو الحمير أو الكلاب أو غيرها من الحيوانات.

تتوافق هذه الروايات، مع روايات اخرى قرأتها فى كتيب حول الديانة النصيرية زودنى به انطون بيطار. و يقال ان حرس القاضى التركى، عثروا على هذا الكتيب فى غرفة نصيرى فاجأوه ليلا و اقتاده إلى السجن. و رغم انها النسخة الاصلية، الا انها غير كاملة و مكتوبة بخط ردىء، و تعابير مبهمة، حتى ان المؤلف يقول فى أحد الاماكن ان النصيريين اخذوا سورا من بلاد يأجوج و مأجوج أو انهم كانوا يستعينون فى كتبهم بالتعابير المبهمة لإخفاء اسرارهم عن الكفار، و وحده النصيرى يفهم ما يقصده الكاتب بالملاك جبرائيل، و بالغراب، و بالسفينة، و بالحلقة و ببلقيس، و بعصا موسى، و بسنام صالح، و ببقرة الاسرائيليين، و غيرها. و الجدير ذكره ان هذه العبارات تتردد فى كل صفحة دون ان نعرف معناها الحقيقى أو ما تدل عليه، غير انى سأذكر فى ما يلى الملاحظات التى استنتجتها:

يعرف النصيرى بالمؤمن، و هو يتحدث عن وحدة الله، اى عن على الذى سيخرج من عين الشمس ليحكم العالم، و عن الاشخاص الخمسة المجتمعين، و هم، ۱) المعنى ۲) الاسم ۳) و هو يتمتع بالحكمة الحقيقية ۳) باب ۴) ايتام ۵) حسين و لكننى اعترف بأننى لم أفهم شيئا من هذه

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۳۴۰

الخماسية، خاصة و اننى لست خبيرا فى هذه الديانة. و رغم اننى لم افهم شيئا من الامور التالية، الا اننى اردت ان انقلها لكم لأنها تشكل اركان العقيدة النصيرية.

ظهر الله ۷ مرات فى العالم، فى المرة الاولى: ۱- معنى كان آبل ۲- اسم كان آدم ۳- باب، جبرائيل ۴- الايتام كانوا ۵- أشخاص أ- ميخائيل (او رئيس الملائكة) ب- اسرافيل (لعله الملاك الذى ينبغى عليه النفخ فى الصور يوم الحساب، حسب اعتقاد المسلمين) ج- عزرائيل (ملاك الموت) د- مالك (بواب الجحيم) ه- رضوان (بواب الجنة) ۵- حسين، الذى كان يدعى قاش بن مفلوش. أما اعداء الله فى الظهور الاول، فكانوا، ۱- قابيل ۲- عناق (اخت قابيل) ۳- بابلو (وزير قابيل) ۴- الافعى ۵- الطاووس.

فى الظهور الثانى ۱- معنى كان سيد، ۲- و اسم نوح ۳- باب، وائل بن فاطمة ۴- و الايتام أ- عنقيل ب- افراكون ج- كنعان د- افريكاكيل ۵- افريكان ۵- الحسين، حوش. أما اعضاء اللّه كانوا ۱- حام بن نوح ۲- و الشيخ حسا ۳- يوك ۴- يوفوث ۵- نصر.

فى الظهور الثالث ۱- معنى يوسف ۲- اسم يعقوب ۳- باب حام بن قوش ۴- و الايتام هم أ- يهود ب- حاشور ج- مالك د- مملك ۵- عنقيل. ۵- حسين، مامب بن منصور- أما اعداء الله فهم ۱- خاجلول ۲- سيما- ۳ ملك الهند ۴- حبطار ۵- ناتل.

فى الظهور الرابع ۱- معنى كان يوسف ۲- اسم، موسى- ۳- باب، دان بن صبان ۴- و الايتام هم أ- يهندان ب- حاروق ج- عبد الله د- اسرائيل ه- عمران، ۵- الحسين، روبل بن صالح. اما الاعداء فهم ۱- فرعون ۲- حمان ۳- كريم.

فى الظهور الخامس ۱- معنى، عساف ۲- اسم، سليمان ۳- باب عبد الله بن سمعان ۴- و الايتام هم- أ شهيرة ب- شاذلى ج- حرناش ۴- مصقول- عصير ه- ۵- الحسين، يانطور دكن. و الاعداءهم ۱- نمرود ۲- عاد- ثمود.

فى الظهور السادس ۱- معنى، سمعان ۲- اسم، يسوع ۳- باب، رزوبا بن مزربان ۴- و الايتام هم أ- حنا فم الشهاب ب- حنا دلمى ج- بولس د- بطرس ه- متى ۵- الحسين، أيوش بن مانكيجا و الاعداءهم ۱- هيرودوس ۲- يابس- ۳- توس.

فى الظهور السابع، ۱- معنى على ۲- اسم محمد المهدى (المنتظر) ۳- باب، سليمان بن بحيرد الشور ۴- و الايتام هم أ مقداد بن الأسود الكندى ب- ابو الدور يندان بن يندادا الغفرى

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۳۴۱

ج- عبد الله بن ربى النصارى د- عثمان بن مأذن مجاشى ه- كمبار بن كاظم دوفى ۵- الحسين، حمدان. اما اعداء الله فهم ۱- ابو شامل ۲- سجد ۳- سنجوق.

و يضيف الكاتب ايضا ان النصيريين يؤمنون ان محمدا، و فاطمة، و حسن و الحسين و محسن يشكلون وحدة متكاملة تجسد على. و

يعتقد المؤمن انه ثمة ۵ ايام، و ۱۲ نقيبا (أو قائد من سلالة محمد) و ۲۸ مختارا، و مختصا و مخلصا و منتجا. كما و عليه ان يعترف بأربع ستائر، ۱- ستار الامام أو تسلسل الائمة من ابل إلى على ۲- ستر الائمة، اى الاسياد من حسن الاول إلى حسن الاخير ۳- ستر الرسالة أو تسلسل الرسل، من ادريس و نوح، حود ... ۴- ستر النبوة، أو تسلسل الانبياء، من عنوش، و اسحاق، و يعقوب ...

يمين الكاتب آدم، و ابراهيم و موسى و المسيح و محمد انبياء، و وائل و حمردان و عبد الله، و سلمان، و ابو الشتيل، و محمد و مفضل، و ابو الشايب، رسلا. و يدعى ان المدعو اسحاق هو اكبر عدو للنصيريين لأنه اراد ان يقتل سعيد ابو الشايب .

تدخل روح النصيرى المؤمن الجنة، بعد ان تنتقل بين عدد بسيط من الابدان. و لكن ارواح الاخرين تمكث فى ۸۰ بدنا. (هذا ما يعرف بالجحيم)، تمر روح الكافر فى خمس مراحل مريعة.

(فح، و نح و مح و وج و رج) لتستقر بعدها فى جسد ناعج حتى عوذة الصخرا (فاطمة). فمن يخال ان مؤسسى ديانات مماثلة قد يجدون لهم اتباعا؟.

و يفيد كتاب النصيريين ان المعنى يحظر عليهم تناول لحم الجمال و الارانب و الحنكليس؛ و الاسم، يمنعهم من تناول لحم الخنزير، و الحيوانات التى لا تذبح شرعا؛ و الباب ينهيهم عن سمك الزلور الاسود الذى يكثر فى العاصى، و عن كل الطعام المحروق. علاوة عن ذلك، يفرض الكاتب على النصيريين ان يتكلموا عن تعاليم ديانتهم امام الغرباء و ان يحبوا اخوتهم، و ان يمتنعوا عن السرقة، و عن القسم، و عن قطع الوعود، و ان يتصبروا على فقرهم و ان يتحملوا سوء معاملة نسائهم لهم.

لم أجمع معلومات وافية عن الديانة الاسماعيلية، و لم اطلع على اى من كتبهم. يروى مسلمو و مسيحيو الشرق ان نساء الاسماعيليين تجتمعن ليلا فى شقة مظلمة، و يتبعهن لاحقا عدد مساو من الرجال، و بينما يلهو كل واحد منهم مع اول امرأة يقع عليها، يقرأ احد رجال الدين مقطعا من

كتابهم المقدس، فى غرفة اخرى. و هم يعتقدون ايضا انه يحق للأب ممارسة الجنس مع ابنته، كما يأكل البستانى فاكهة الاشجار التى زرعها بنفسه. و يضيف البعض انه خلال هذه الاجتماعات، يشمر احدهم ثيابه، و يقف فى مكان مرتفع. لتتأمل المجموعة جسده. و هم يعرفون بالتالى بأبو الفرج. و لكن كم من حماقة رويت حول عقائد و طقوس قوم لا تربطهم بهم علاقات وثيقة و لا اطلعوا على أى من كتبهم.

ان عدد اتباع المذهب الاسماعيلى ليس كبيرا، و هم يقيمون فى كيليس، بين شغر و حما، و فى جبل كليبه، الذى يقع قرب اللاذقية، بين حلب و انطاكية و هم يعرفون بالقفطون، تيمنا بإحدى قرى هذه المنطقة. اما فى ضواحى الموصل فيعرفون بمطفئى الشمع، و فى المناطق الكردية و التركية، فيعرفون ببك داستلى (اسياد الصخرة)، و يستهترون بطقوسهم الدينية المريعة، و لكننى لم أقع على اى شخص حضر هذه الاجتماعات أو قرأ كتابا من كتبهم. لذلك ارجو ان لا تكون اخلاقهم فاسدة بقدر ما يشاع عنهم.

هذه هى المعلومات التى جمعتها عن اقاليم المتاولة و النصيريين و الاسماعيليين، غير ان هذه الجماعات ضعيفة للغاية و لا تقوى على الوقوف فى وجه الباشاوات الاتراك. اما الدروز فهم اسياد الجزء الاكبر من جبل لبنان، و اقوى سكانه نفوذا. يترأس هذه الجماعات عدد من الشيوخ الورثة الذين يختارون من كل عائلة قائدا عاما، يحمل لقب امير، يوكلون اليه مهمة الدفاع عن قومه.

يتوجب على هذا الامير ان يجدد كل سنة العقد المبرم مع الباشاوات من اجل دفع جزية الاقاليم المختلفة، و ان اقتضى الامر، دعا قادة القوم للاجتماع فى دير القمر، لتحديد المبلغ الذى يجدر بكل شيخ ان يجمعه من اقليمه، اما لتسديد جزية الاتراك أو لدفع النفقات الاخرى.

يتفق الشيوخ فى ما بينهم على حجم الضريبة السنوية التى يجدر بهم دفعها لتحاشى سخط الباشاوات عليهم. فكان الامير حيدر يدفع سنويا ۱۶۰ كيس نقود (حوالى ۵۳۰۰۰ ريال) و الامير ملحم، الذى يخشاه الاتراك ۷۰ كيسا (حوالى ۲۳۰۰۰ ريال) و يوضع مبلغ من المال جانبا لإعالة الامير الحاكم و لتأمين نفقات الاجتماعات، و المآدب من أرز و زبدة و خبز و بن و شموع و علف للاحصنة.

تحدد الجزيات التى يدفعها الرعايا بشكل دقيق. فكل ۱۶ أو ۲۰ سنة، تعمم مذكرة على كافة انحاء البلاد، يحدد فيها قدر الغلة التى يحصدها الشيخ أو النبيل أو الفلاح من حقوله و بساتينه و دواليه و شجر الزيتون، و شجر التوت، و شجر الليمون و غيرها، حتى يدفع سنويا ضريبة محددة، إما نقدا أو بالمواد الغذائية، إلى ان تظهر ضرائب جديدة. يجبى تجار بيروت و صيدا جزءا من هذه الضريبة، فحين يزودون الامير الحاكم بالأرز أو غيره من المواد الغذائية يكلفهم هذا الاخير، بجباية

ضريبة هذا الاقليم أو ذاك، أو زيتا أو خمرا أو غيرها من السلع.

يتعاقب افراد العائلة نفسها على الحكم فى المقاطعات الدرزية، غير ان الابن لا يخلف دوما اباه فى الامارة. و لكن كبار الشيوخ يختارون اكثر افراد العائلة كفاءة و يعينونه خلفا للامير الراحل، فيرسل له الباشا، كل سنة، فرمانا كتعبير منه عن تأييده له كأمير حاكم.

و يمنح الحاكم الدرزى رعاياه، من دروز و مسلمين و مسيحيين و متاولة الحرية فى بيع الاراضى و الهجرة من البلاد، علما انهم جميعا من الجند. و يزعم ان هؤلاء القوم يستطيعون ان يجهزوا جيشا مؤلفا من ۴۰ الف رجل رغم ان خزينة الدولة لا تدفع الرواتب الا لمئتين أو ثلاثماية منهم، يعرفون فى اوروبا بالمأمورين القضائيين. من جهة اخرى، يعد الشيخ قائد هؤلاء الرعايا، و الامير الحاكم قائدهم العام.

و من خلال تعيينهم للامير، كان الدروز يحولون دون تعين الاتراك قائدا غريبا عليهم، شأنهم فى ذلك شأن البدو. و يزعم ان إحدى العائلات، اعلنت نفسها زعيمة على الدروز، بمساعدة الباشا، الذى قادها على رأس جيش كبير إلى دير القمر، و فرضها على سكانها. و لكن تصرفه هذا أثار سخط كبار الشيوخ، فاضطر للتخلى عن منصبه.

غير ان هذه المسألة ولدت الانشقاقات، فحرص الاتراك بالتالى على اثارة الفتن بين القبائل العربية، التى تعيش فى الخيم، قرب القرى الكبيرة.

ذاع صيت الدروز فى اوروبا فى عهد الامير فخر الدين المعنى الكبير. اذ لم يكتف ببسط نفوذه على جبل لبنان من عكا إلى اللاذقية، بل استولى ايضا على المدن الساحلية التركية، و منها صيدا، و طرابلس، و نهب دمشق مرة واحدة. و لكن فى عهده، انقسمت البلاد إلى فريقين: عرف الفريق الاول بالقيسى، و علمه احمر، و يساند الامير فخر الدين، بينما عرف الفريق الثانى باليمنى و علمه ابيض، و هو يقاوم الامير، و بعد ان حظى الفريق الثانى بمساندة الاتراك له، استطاع ان يرغم فخر الدين على التخلى عن منصبه لابنه البكر على، و مغادرة البلاد إلى ايطاليا، حيث قضى بعض الوقت فى فلورنسا. بعد مرور فترة وجيزة، عاد الامير إلى سوريا، علما ان الفريق اليمنى كان يتمتع بمساندة الباشاوات له، فأرسل الاتراك اسطولهم إلى صيدا. فخسر ابنه على حياته فى احدى المعارك، و حوصر والده فخر الدين من جميع الجهات و اضطر للفرار إلى جزين و الاختباء فى احدى المغاور. و فى نهاية المطاف استسلم للاتراك، شرط ان يقاد للمثول امام السلطان فى القسطنطينية. و يقال انه كان سيعاد إلى الحكم لو لم يعين ابن اخيه ملحم اميرا خلال هذا الوقت، لأن الاتراك يقدرون فخر الدين، و يحبذون فضائله فهو انسان حكيم و كريم، اغدق على

القسطنطينية الهدايا، و خاصة على كبار ضباط السلطان. و بعد توقيفه، كان من المقرر ان يستلم الامارة ثانية. و لكن الامير ملحم فاجأ الاتراك بقتله عددا كبيرا منهم مما اثار سخط السلطان، الذى امر بقتل فخر الدين على الفور.

لم استطع ان اعرف كم من الوقت استمر حكم المعنيين. يقول ارفيو ان الاميرين احمد و قرقماز، ابنى الامير ملحم، تسلما الامارة، و حكما البلاد معا، و تزوجا فتاتين من عائلة شهاب.

و لكن الامير قرقماز قتل بطريقة وحشية على يد الاتراك. يقول لاروك، فى كتابه «رحلة إلى سوريا و جبل لبنان» الجزء الثانى ص ۲۷۵، ان المدعو أبو موسى ابن علاء الدين، خلف الامير احمد فى الحكم، غير اننى لم اعرف ابدا ان كان ابو موسى هذا من المعنيين ام لا.

يحكم الشهابيون اليوم الجماعات الدرزية، يدعى الموارنة انه بعد وفاة معظم افراد عائلة معن، لم يشأ الامراء و الشيوخ تعيين واحد منهم، لأنهم متساوون جميعا، و لا يقبلون باختيار واحد منهم زعيما عليهم، فوقع بالتالى الخيار على الامير حيدر من آل شهاب، و كان حاكما على حاصبيا و تربطه بالمعنيين علاقة وطيدة. سمعت ان عائلة شهاب، الحاكمة حاليا فى جبل لبنان، تتألف من ۲۰ أو ۲۵ فردا فحسب. كان الامير حيدر ابن الامير منصور، و شقيق الامير شهاب، و والد الامير قاسم، الذى عمّد و ختن رغم انتمائه للطائفة الدرزية،

و يقيم اليوم في مدينة غزير المارونية ..

انجب الامير حيدر من زوجاته الثلاث، احمد، ملحم، منصور، علي، معن، يونس، و حسين و قاسم، و انجب هذا الاخير ابنا اسمه علي، فأنجب بدوره صبيا اسماه بشير. بعد موت الامير حيدر استلم ملحم الحكم رغم انه سني، من دمشق. و أنجب اميرا اسماه يوسف. اما ابناؤه الاخرون فهم، محمد، علي (و كلاهما اكبر من يوسف) قاسم، عمر و الامير افندي. حالف الامير ملحم الحظ في حملاته كلها، و لم يخسر المعارك التي خاضها ضد المتاولة و العرب و الباشاوات الاتراك. و بعد ان حكم البلاد ۲۵ سنة، طلب ابن الشيخ ضاهر منه العون، ضد ابيه. و لما شعر بضرورة تلبية النداء، دعا إلى اجتماع لمناقشة هذه المسألة. و لكن الشيوخ الدروز رفضوا تقديم العون لهذا الابن العاق، فأعاد حينئذ الامير ملحم ختم الامارة و انضم إلى شيوخ العقل و لكنني لا اظن ان هذه القضية وحدها دفعته لاتخاذ هذه الخطوة الجريئة. و بعد تصميمه على الاستقالة، اختار الدروز (سنة ۱۷۵۴) الاميرين احمد و منصور، شقيقي الامير ملحم، ليحلا محله، و بعد موت الاول، استلم منصور دفة الحكم لوحده. و بقي حيا حتى العام ۱۷۷۳ و انجب صبيا اسماه سمعان.

ينقسم اعيان الدروز إلى جنبلاطيين و يزبكيين، و رغم ان عددهم كبير. إلا انهم يحكمون مقاطعة صغيرة، و انني اعني بكلامي هذا العائلات التي تختار الامير الحاكم، أو عقد الصلح. أما أهم

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۳۴۵

العائلات التي تجتمع في دير القمر للبحث في هذه القضايا فهي :

۱- شيوخ آل جنبلاط

۲- شيوخ آل بوهرموش

۳- شيوخ آل شمس

۴- شيوخ آل عيد

۵- شيوخ آل بو نكد

۶- شيوخ آل شويفات

و الجدير ذكره ان هذه العائلات كلها موالية للشيخ علي جنبلاط بينما العائلات التالية موالية الشيخ عبد السلام اليزبكي:

۱- شيوخ آل يزبك

۲- شيوخ آل بوعلوان

۳- شيوخ آل تلحوق

۴- شيوخ آل عبد الملك

۵- شيوخ آل ابي اللمع

يحمل افراد بعض العائلات، لقب امير. كآل شويفات و آل ابي اللمع. و يقال ان العائلة الاولى كتسبت هذا اللقب منذ عدة قرون. غير ان معظم افرادها متوسطو الحال، لأن الابن الاصغر يرث والده شأنه شأن الابن البكر. أما عائلة ابي اللمع فلم تكتسب هذا اللقب الا منذ ۱۵۰ سنة علما ان هذه العائلة تملك قرى عديدة. على خلاف شيوخ هذه المنطقة، يحق لهاتين العائلتين ان ترتبطا بعائلة شهاب بالزواج، اذ ان الامراء لا يقترنون ببنات الشيوخ، و لا يتخذ الشيوخ لهم زوجات من الطبقات الادنى مستوى. و في المقابل، يحق للشيخ التصويت في الاجتماعات شأنهم شأن امراء آل شويفات و ابي اللمع.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۳۴۶

يتنوع المناخ في الاقليم الدرزي. فعلى الساحل ترتفع درجات الحرارة، بينما يغطي الثلج جبل لبنان في الشتاء. و يحث هذا الامر الدروز على تغيير مكان إقامتهم بشكل دائم، كي يتمتعوا بربيع دائم. يتميز مناخ جبل لبنان بلطافة هوائه، حتى ان معظم الناس ينامون في الصيف على سطوح منازلهم. أما الامطار فتهطل بغزارة و تغذى الينابيع و الانهر التي تروى الوديان المجاورة يثني النبي يوشع في الاصحاح الرابع على نبيذ جبل لبنان، و يؤكد انه في غاية الجودة.

يزرع السكان اشجار التوت و الزيتون، و يتاجرون بالحرير و الزيت. كما و انهم يصدرون القطن، و الصوف، و المن و العفص و زهر الليمون، و الصابون و الحنطة. و هم يقطفون فواكه ممتازة، و يملكون حقولا غنية. اما التبغ فيزرع بكمية قليلة في المناطق الدرزية بينما يعد تبغ اللاذقية الذي يزرعه جيرانهم النصيريون من اجود انواع التبغ في المنطقة. بعبارة اخرى، تتوفر في هذه البقعة الصغيرة من الارض، كل ما يحتاجه الانسان في حياته اليومية. إليكم المعلومات التي جمعتها عن الاقاليم و القرى، و الضواحي التابعة لهذه المقاطعة.

۱- اقليم الشوف، الذي يضم:

أ- وادي المناصف، دير القمر، الواقعة في جوار نهر الدامور، على بعد يوم من صيدا، يقيم في هذه المدينة الامير الحاكم، و هي تضم اصرحة كبيرة بعضها ملك للدولة، و بعضها ملك للشيوخ و الامراء، الذين يعقدون فيها اجتماعاتهم أو يمضون فيها فترة الصيف، و نجد فيها ايضا جامعا كبيرا له مئذنة.

بلدة بعقلين، التي يقطن فيها الدروز و المسيحيون، و هي تمتاز بجودة دواليها: قرى كفر قطرا، دير دوريت، مشفتي، بستان الدوير (كذا)، عين المعاصر، بتدين، و قريتا كفر محمد و الناعمة، الخاضعتان لنفوذ آل بو نكد، حيث نجد ديرين للموارنة.

ب- الشوف الحيثي، يقيم في هذه المنطقة احد مشايخ العقل، و هي تضم، بلدة المختارة، مقر الشيخ علي جنبلاط، زعيم الحزب الذي يحاول الحد من نفوذ الامير الحاكم.

قرى بعذران، عماطور، عين قنية، المزرعة، نيحا، التي تضم اغلبية درزية، و اقلية مسيحية، و نشاهد قرب قريتي مشموشي و قبتولة، أديرة للموارنة، تخضع لنفوذ آل جنبلاط

۲- اقليم العرقوب، الذي يضم: بلدة الباروك، حيث يقيم الشيخ عبد السلام من آل يزبك.

و هو زعيم الحرب الموالي للامير الحاكم.

۳- اقليم الجرد، و هو يضم قرى عين زحلتا، عين دارا، رشميه، و تضم هذه القرية الاخيرة ديرا للموارنة، يخضع لنفوذ آل شهاب.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۳۴۷

۴- اقليم جزين، لم أجمع معلومات وافية عن هذا الاقليم باستثناء انه يضم المغارة التي حوصر فيها فخر الدين.

۵- اقليم الشحار، و هو يضم بلدة كفرمتى.

۶- اقليم الخروب، الواقع بين دير القمر و صيدا، و هو يضم قرى برجا، و شحيم، و عين مزبود، و عانوت، حيث نجد دروزا و مسيحيين و مسلمين، غير ان هؤلاء الاخرين يقيمون في قرى منفصلة، حيث بنوا لهم جوامع. كان المسلمون راضين من حكم الدروز اكثر من حكم الاتراك. لذلك، ألبسوا قراهم ابهى حلة، اذ كانت تكثر فيها الفاكهة على انواعها، و اشجار الزيتون، التي تعطى اجود انواع الزيت.

و نجد في اقليم الخروب على بعد ثلاثة فراسخ من صيدا، دير المخلص، حيث يقيم بطريرك الروم الذين انضموا إلى الكنيسة الرومانية.

۷- اقليم التفاح، الواقع على حدود قرى المتاولة، من جهة منطقة صور، يتألف سكانه من الاغلبية السنية و هو يضم قرى جباع الحلاوى، كفرحونة.

۸- اقليم سوق الغرب، و يضم قرى عين النبع و بشامون و الشويفات. يملك الروم ديرا في هذا الاقليم تابعا لنفوذ آل تلحوق، و الموارنة ديرين خاضعين لسلطة امير من آل شهاب.

۹- اقليم صليما، و يضم بلدة صليما، و مقر امير من آل ابي اللمع، و ديرا للروم و ديرين للموارنة، يقيم مطران في واحد منهما.

۱۰- اقليم الراس، و يضم بلدة الراس و مقر اقامة درزي من الاعيان يحمل لقب امير.

۱۱- اقليم برمانا، و يضم بلدة برمانا، و مقر اقامة احد الامراء، و ديرين للموارنة، و آخر في نهر الكلب.

۱۲- اقليم القاطع، الواقع في كسروان و هو يضم اغلبية مارونية، بنت لها ثلاثة اديرة خاضعة لحكم الامير ابي اللمع. و نذكر من قرى هذا الاقليم قريتي بكفيا و بيت شباب. تنتج هذه المنطقة افضل و اجود نبيذ في جبل لبنان فهو يحفظ في جرار كبيرة، كان يحفظه يهود اليمن و أرمن بلاد فارس، و سكان الاراضي المقدسة، في زمن يسوع المسيح. و يشترى السكان البراميل الصغيرة من قبرص ليصدروه

منها إلى الخارج.

۱۳- اقليم بسكنتا، و يضم اغلبية مسيحية و خمس كنائس و مقر الامير، فضلا عن دير للموارنة.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۳۴۸

۱۴- اقليم المتين، و يضم دروزا و مسيحيين و مسلمين، يخضعون لسلطة الامير المقيم فى بلدة المتين. يملك الموارنة ديرين فى هذا الاقليم، كما و ان الروم يملكون ديرا قرب قرية الشوير و مطبعة شهيرة، غالبا ما نشاهد كتبها فى المكتبات الاوروبية .

۱۵- اقليم حمانا، لم اجمع معلومات وافية عن هذا الاقليم باستثناء انه يضم بلدة و مقر مقدم.

۱۶- اقليم الشبانية، الذى اطلق عليه هذا الاسم تيمنا بإحدى القرى.

۱۷- اقليم عين دارا الذى يحكمه عدة شيوخ، و يحمل اسم قرية صغيرة.

۱۸- اقليم كسروان، و يبلغ طوله و عرضه مسافة يوم سير، و يمتاز بغناه بالفاكهة و خاصة التوت و العنب و الزيتون.

حكم هذا الاقليم فى عهد الامير فخر الدين، مسلم يقيم فى غزير و يدفع الجزية لباشا طرابلس، غير ان الامير المذكور تعاون مع الموارنة، لطرد عائلة المسلم، و بتسليم الحكم لهم. اما اليوم فلا يقيم فى هذه المنطقة سوى درزى واحد من آل شهاب. و لا يدفع سكانها سوى ۳۰ كيسا للامير الحاكم فى دير القمر. و ان اعلن الدروز الحرب على جيرانهم، يجبر الموارنة على إرسال جيش لهم بقيادة شيوخهم. و يسمح لهم بارتداء الملابس الخضراء و باعتمار عمامة خضراء، علما ان هذا الشرف لا يمنح، فى المقاطعات التركية الا لذرية محمد. و يتمتع هؤلاء القوم بثقة الدروز و يسمح الشيوخ و الامراء للموارنة بتربية اولادهم شرط ان تعنى النساء بالفتيات و الرجال بالصبية.

و يعهدون اليهم كافة اعمالهم، و يستخدمونهم كأمناء سر و وزراء. بعبارة اخرى، يشغل الموارنة لدى الدروز المناصب التى تتطلب حكمة و وفاء. و لكن شيوخ العقل الدروز يرفضون ان يترعرع اولادهم فى منازل شيوخ الموارنة، حتى انهم يرفضون تناول الطعام معهم. و ان اراد سيد ما ان يعاقب درزيا على خطأ ارتكبه، تسعى عائلة هذا الاخير للانتقام. بينما يغضّ المسيحى و عائلته الطرف عن كل ما يفعله به سيده.

سيطرة الموارنة على جبل لبنان

يعتقد الموارنة ان البابا هو رئيس الكنيسة، نجد من بينهم يسوعيين و فرنسيسكان و كبوشيين لذا فإن علاقتهم بالاوروبيين تعتبر اوثق من علاقة اى امة شرقية بهؤلاء الاخرين إلا انهم لا يهتمون

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۳۴۹

كثيرا بأمور العلم و الفن كجيرانهم الدروز و العرب و الاتراك. و لا يحبذ الموارنة تربية اولادهم فى اوروبا لأن هؤلاء لا يأخذون عن الاوروبيين إلا عاداتهم و هم يؤذون بذلك بلدهم اكثر مما يفيدون . و قد اكد لى الناس أن ۳۰ شابا مارونيا يمكن ان يتلقوا العلوم و المعارف مجانا فى مدرسة الموارنة فى روما الا ان أربعة أو خمسة شبان فقط يذهبون إلى روما لأن الفقراء الموارنة يخشون من ان يتشرب أولادهم العادات الاوروبية، و هكذا فإن احد الموارنة الذى تعلم فى اوروبا كاد أن يموت من الجوع فى بلده لأنه لم يجد اى عمل يعتاش منه غير الانضمام إلى رجال الدين علما ان عائدات رجال الدين الشرقيين ليست جيدة كعادات نظرائهم الغربيين.

إن مشايخ مسيحيى الشرق يخدمون شعبهم كواجب مفروض عليهم. و مع انهم من جباة الضرائب الا ان الدروز لا يدفعون لهم شيئا و يحرص باقى الشيوخ و عامة الشعب على عدم إعطائهم من المال ما يزيد عما عليهم دفعه للدروز. هؤلاء الشيوخ انفسهم يصبحون الرؤساء فى أيام الحروب. و لأن طريقتهم فى القتال تختلف كثيرا عن طريقتنا فإن اى مارونى عمل كضابط فى أوروبا سيجد الناس يسخرون منه و يستبعدونه عن المعارك خاصة إذا اراد ان يعلم الفلاحين طرق القتال الاوروبية. إن المحاكم عند الموارنة نادرة اكثر منها عند الاتراك. عندما ينشأ خلاف بين الموارنة يذهبون إلى المطران أو البطريرك على انه رئيس امتهم كما و يختارون حكاما آخرين يمكن ان يكونوا مسيحيين و دروز و مسلمين.

عام ۱۶۰۰ عند ما كان دنديني(Dandini) فى جبل لبنان لم يسمع شيئا عن الامراء الموارنة و كان يسميهم نواب الكهنة ، و لا نزال نجد فى كسروان و فى اقليم باشا طرابلس ثلاث عائلات يعتبرها المسيحيون من العائلات العريقة و هى: حبيش و العاقورى و الخازن. يزعم ابناء عائلة حبيش ان اسلافهم كانوا ذائعى الشهرة منذ سبعة إلى ثمانية قرون و انهم كانوا يملكون عدة قرى فى جبل لبنان. حاليا هناك اكثر من مئة شخص من حاملى اسم هذه العائلة يلقب الاغنياء منهم باسم شيخ

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۳۵۰

من قبل باقى المسيحيين الذين يحتاجون لمعونتهم. و بما انه فى هذا البلد لا يميز الابناء عن بعضهم و توزّع الاراضى بالتساوى عليهم لذا نجد الكثير من ابناء هذه العائلات الذين يجدون انفسهم مضطرين للعمل كموظفين أو كمعلمين عند الدروز و احيانا يمارسون مهنا بائسة دون ان يهتم بهم الموارنة الاخرون أو ابناء الديانات الاخرى .

انقسمت عائلة حبيش إلى اربعة فروع:

۱- اولاد بو يزبك و هو فرع كبير يسكن اهله فى غزير و غوسطا و الساحل و بيروت.

۲- اولاد بو شديد

۳- اولاد عادل و يسكنون فى غزير.

۴- اولاد بو نزار و يسكن جزء منهم فى غزير و الجزء الآخر فى الساحل .

تقيم عائلة العاقورى فى أراضى باشا طرابلسى و هى عائلة قديمة لكنها فقيرة و بالرغم من ذلك فهى متمسكة جدا بعراقتها و تفضل الا تتزوج بناتها أبدا على ان يتزوجنّ من موارنة لا ينتمون إلى العائلات العريقة. فى هذه العائلة ۲۰ شيخا تقريبا.

إن عائلة الخازن هى الاكثر ثراء لكن عمرها لا يزيد عن ۱۵۰ عاما إن اول شخص من هذه العائلة صار مشهورا فى جبل لبنان هو ابو نادر. شغل منصب وزير عند الامير فخر الدين اى كان مستشاره الشخصى و امين خزنته و فى الوقت نفسه ضابطا شجاعا. كان ابنه يدعى نادر الخازن لكنه غير اسمه و صار يكنّى باسم ابنه: ابو نوفل.

كان الوالد قد جمع ثروة كبيرة من جراء خدمة الامير فخر الدين و اشترى اراض عديدة ثم قرى بأكملها فى كسروان. صار الشيخ ابو نوفل يضاعف ثروة والده لأنه و اولاده خدموا الامراء التاليين.

و هذا هو الشيخ الذى كان اول من سمح للرهبان الاوروبيين ببناء ادبرتهم فى جبل لبنان كما و اعطاهم بيوتا. كان ذلك كافيا لذيوع صيت هذا الشيخ فى اوروبا. صار الرهبان يكتبون فى رسائلهم إلى روما و باريس عن امير كبير محسن يحمى الديانة الكاثوليكية من الكفار الذين يحيطون بها. لذلك نصبّه البابا هو و ابنه فارسين.

أما ملك فرنسا فمنحه قنصلا له فى بيروت. و كان هذا قد أعطى لنفسه لقب امير الموارنة فصار

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۳۵۱

الرهبان يسمونه هكذا فى رسائلهم فما كان من البابا و ملك فرنسا الا ان صاروا يخاطبونه بهذا اللقب. إذن سمىّ ابو نوفل اميرا من قبل الاوروبيين فى الوقت الذى كان فيه مشايخ عائلتى حبيش و العاقورى لا يعتبرون عائلة خازن عائلة عريقة.

ترك الشيخ ابو نوفل قصة حياة الامير فخر الدين لكن يشكك فى انه لم يكتبها بنفسه بل ساعده فى ذلك الرهبان الاوروبيون لجعله كاتبا ذائع الصيت. لقد عرفه آرفيو(Arvieux) و روك(Roque) شخصيا و حكيا عنه مطولا. كان الاخير مسافرا و التقى به عند الرهبان الذين تلقوا حسنات كثيرة منه و كانوا ينتظرون المزيد. و قام بطبع الرسائل التى ارسلها اليه ملك فرنسا و وزراؤه كى لا يترك اى سبيل للاوروبيين للشك فى ان الشيخ كان شخصية مهمة. أما ارفيو الذى عاش عدة سنوات فى السيدة(Seide) و الذى قام بأعمال كثيرة مع أبى نوفل وصفه عكس ذلك تماما كما أتخيل اى شيخ مارونى فى موطنه و قد اتعب الرهبان رأسه بألقاب الامارة و القنصلية.

توزع خلف أبى نوفل إلى فروع خمسة هى:

۱- اولاد بو كنزو و المقيمون فى غوسطا

۲- اولاد بو ناصيف فى عجلتون

۳- اولاد بو نوفل فى غوسطا و عجلتون

۴- اولاد موسى في ذوق مكايل

۵- اولاد بو شديد في ساحل المتن

لو أن الرهبان الاوروبيين لم يبقوا في جبل لبنان لما كنا سمعنا المزيد عن الامراء الموارنة.

لكنهم إلى اليوم يذكروننا بهم دائما. و غالبا ما يرسلون ابناء محسنين، أفقرتهم الحروب الداخلية أو قطاع الطرق المتاولة إلى أوروبا باسم امراء جبل لبنان أو امراء فلسطين، يعطون الشيخ رسائل توصية إلى روما. و بما انه كاثوليكي يحرص من في روما على اعطائه رسائل اخرى للامبراطور.

لدى وصوله إلى فينا يقدم اليه مسكن مجاني و يحصل كل شهر على مبلغ من المال يعتاش منه.

كما و يعطيه مدير المحطات بطاقة مرور تخوله التنقل مجانا ليس في بلدان الامبراطور و حسب بل و ايضا في كافة الامبراطورية الرومانية، و يعطيه وزير الخارجية رسالة توصية إلى كافة الملوك و الامراء، و هكذا يشحذ سيادة الامير حيثما ذهب زاعما ان الاتراك و العرب و المتاولة و النصيريين و باختصار كل الكفار قد سلبوه اراضيه و ان حتى زوجته و اولاده الامراء و الاميرات اضحوا في السجن. و هو لا يتنبهون في سفرهم الا إلى اسماء المدن التي يمرون بها و أنواع العملات

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۳۵۲

المستعملة في كل بلد و الحسنات التي يحصلون عليها و المقاهي التي يدفعون لهم فيها و الاموال التي دفعوها للجماركي. و هم بغالبيتهم لا يعودون إلى بلادهم الا بعد ان يكونوا قد جمعوا المال الكافي لشراء بستان فيه شجر زيتون و تين و بعض الاراضي. حينئذ يخبرون اهلهم بالحفاوة التي استقبلهم بها الملوك و الامراء الاوروبيون و يسخرون منهم لأنهم دعوهم إلى موائدهم بصفتهم امراء.

و سرعان ما يتمنى احد اصدقائهم القيام برحلة مماثلة ليس رغبة بالدين المسيحي بل لجمع المال.

فيأخذ خارطة الطريق و يستعلم عن المدفوعات و المداخيل التي يمكن ان يحققها امير الزيتون (هكذا يسميهم ابناء بلدهم على سبيل السخرية) العائد و يأخذ رسائل توصية إلى روما يكتبها له بعض البطاركة و الرهبان الاوروبيون (لقاء بعض المال أو لقاء بعض الهدايا) ثم يشترى سيفا جميلا و خنجرا رائعا و يستأجر خادما قام بهذه الرحلة من قبل ثم يتجه نحو اهم بلدان و مدن اوروبا حيث قبض صديقه الامير المزيّف اكثر ممّا دفع.

لقد اغدقت هذه المهنة اموالا طائلة على الامراء الموارنة الذين قاموا بالاسفار. اما الاسياد الاوروبيون فلم يرغبوا قط في معرفة الحقيقة.

لقد كان الفضول يتملكهم هم و سيدات البلاط للتعرف على امير عربي أو على امير من جبل لبنان أو من فلسطين. و لم يكونوا يكتفون بالاستماع إلى أقواله بل و يدعونه إلى ولائمهم و متى اشتدت الروابط معه يرسلون اليه الهدايا. لكن هذه المهنة لم تعد تدرّ الكثير من الاموال على امراء الزيتون بسبب الاعداد الكبيرة التي تفد منهم إلى أوروبا.

عرفت عددا من امراء الزيتون في اوروبا و كانوا يتذمرون من أن الملوك و الامراء لم يعودوا سلسين كما في السابق اذا انهم لا يسمحون لهم بالتجول مجانا في كافة المدن و القرى كما كانوا يفعلون في السابق و يجنون الهدايا من الناس و يطلبون المال من الفلاحين الذين يدفعون لهم دون تردّد لأنهم طردوا من بلدهم على أيدى الكفار. و لأن الفلاحين يحبون رؤية الامراء العرب في ثيابهم الشرقية (التي يزينها هؤلاء الامراء الشحاذون بالذهب و الفضة على طريقة الشرقيين) كما لو انه حيوان غريب في السوق أو فانوس سحرى ... لكن نظرا لكثرة هؤلاء الامراء الوافدين بدأ مسؤولو القرى و الفلاحون يسأمون منهم. لهذا السبب لم يعد الامراء الاوروبيون يسمحون لهم باللف و الدوران بل صاروا يعطونهم هدية نقدية و يدفعون كلفة اقامتهم في النزل احيانا ثم يرسلونهم في أسرع وقت ممكن. و هكذا فإن الامراء الموارنة هم اسرع من يقوم بأسفار. أنا شخصيا لم احس بالشفقة على أى من هؤلاء الامراء المزعومين الذين التقيت بهم في اوروبا سوى المدعو عبود بن شديد فلقد كان ينتمي فعلا إلى إحدى الفروع العريقة من عائلة حبيش و كان يحمل رسالة توصية اعطاها ملك فرنسا في الماضي إلى والده ثم إليه. كان والده يملك قرى في منطقة الفتوح بالاضافة إلى أراض واسعة و بساتين و بيوت في غزير لكنه اصبح فقيرا بسبب الحروب الداخلية مع

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۳۵۳

المتاولة. و قد كان لعبدو علاقات كثيرة مع دروز من طبقات راقية. و كان يعرف بلده جيدا لذا فأنا مدين له بالكثير من المعلومات الجغرافية و البشرية التي ذكرتها في هذا الجزء و كان يتمتع بكثير من الطموح و عزة النفس ليؤدى دور المتسول في اوروبا لذا فقد منعته صفاته من جمع الكثير من الاموال. يقول البعض ان قسما من أبناء هذه العائلة قاموا بالسفرة مرة اولى على انهم خدم و مرة اخرى على انهم امراء. أظن انى رأيت واحدا منهم في كوبنهاغن كان يرافقه مارونى شاب يرتدى ثيابا اوروبية و كان يسميه امين السر و كان في الوقت نفسه خادمه و رفيق سفره و ربما يرافقه لتعلّم المهنة.

إن الموارنة مضيافون جدا في بلدهم. لأن الفنادق العامة قليلة عندهم و عند الدروز و العرب و الاتراك. هناك غرفة شاغرة في منزل كل شيخ لاستقبال الضيوف و المسافرين مجانا. و متى كان في المنطقة نفسها اكثر من شيخ يكون دور كل منهم في شهر واحد و عليهم التنبه إلى حسن استقبال الضيف و معاملته. احيانا يستغل الناس حسن استقبالهم. كان هناك مارونى ولد في حلب لكن عمل كخادم في فينا فجاء إلى غزير بلباس الاوروبيين و اصطحب معه مترجما استقبله شيوخ غزير استقبالا جيدا على انه سيّد ألماني و جعلوه يزور كافة الشيوخ الاخرين و دعوه إلى رحلات صيد و فعلوا المستحيل لجعل اقامته في لبنان لائقة جدا. بعد ستة أشهر عاد إلى دياره سعيدا بعد مضى بضع سنوات سافر إلى فينا ابن احد الشيوخ الذين استقبلوه بحفاوة بالغة و كان متنكرا بزى امير فعثر على ضيف والده لكن بدلا من ان يجده سيدا المانيا وجده مارونيا يعمل كتاجر في فينا.

في خريف عام ۱۷۷۷ وصل إلى كوبنهاغن رجل من عائلة حبيش ادعى انه امير من فلسطين و كان اكثر مهارة في ناحية دوره من كافة زملائه السابقين. بالاضافة إلى اللغة العربية كان يتكلم الايطالية و الفرنسية و بعض الالمانية و الانكليزية و لم يكن يعرف بلده جبل لبنان جيدا. اعتقد انه ابن احد الامراء المزيفين الذى سافر إلى اوروبا مع ابنه و الذى مات في المانيا. اذا لم اكن مخطئا فإن هذا الامير المزعوم قد عاش عشرين عاما في اوروبا. فمن غير الغريب اذا ان يتكلم لغاتها. و بدا انه تعلق بنمط الحياة الاوروبية و لم يعد يرغب بالعودة إلى سوريا فقرر التجول في اوروبا قدر ما استطاع و طالما هناك اسياد يوافقون على مده بالمال الا انه افسد هذه المهنة فما عاد خلفاؤه يستطيعون الاستفادة منها من بعده.

إذا اراد القراء معرفة رأى باقى المسافرين في امراء جبل لبنان فما عليهم الا مراجعة كتاب بوكوك وصف بلاد الشرق، الجزء الثانى القسم الاول، ص ۹۶، و كتاب يوناس كورتس و ستيفان شولتز الجزء الخامس. يقول الاخير ان العائلة الحبيشية العريقة تقسم إلى قسمين: «قسم يعيش

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۳۵۴

بشرف فبعض افراده يشغلون مناصب وزراء في الدولة أو ضباط عند امير جبل لبنان أو امراء اقطاعيين بينما القسم الثانى خسر كافة امواله في القمار و الميسر و استحال عليه استعادتها فصار على افراده ان يعيشوا بفقر كفلاحين ...» من هذا القسم الثانى يفد الامراء إلى اوروبا. اذا قارنا هذا بما سبق نجد ان شولتز لم يجمع الكثير من المعلومات الصحيحة حول العائلة الحبيشية و ان حكمه كان جائرا. إن عبود بن شديد الذى التقيت به لم يكن ابدا من هؤلاء الاشخاص الذين يتكلم شولتز عليهم. لقد زار بوكوك احد هؤلاء الامراء في غزير و إليكم ما جاء به «إن شيخ الموارنة يتكلم الايطالية و امضى ثماني سنوات في اوروبا. هناك شخصان أو ثلاثة اشخاص زاروا اوروبا ايضا و لا شك انهم رافقوه اليها و كان احدهم قد زار بريطانيا . أعتقد انه سافر متنكرا بشخصية امير من جبل لبنان لأن الذين يسافرون إلى اوروبا بهذه الصفة هم غالبا ابناء الشيوخ الذين يتملكون قرى بكاملها و ابناء امراء دروز. و نظرا إلى انهم محترمون جدا في بلدهم، يعطيهم الرهبان رسائل توصية إلى اوروبا على انهم امراء من جبل لبنان. غالبا ما يعودون اغنياء لأنهم يشحذون بطريقة مهذبة حجتهم في ذلك ان الموارنة مضطهدون من قبل الاتراك لأنهم مسيحيون». سأل كوش احد رجال الدين من جبل لبنان عن هؤلاء الامراء الذين يسافرون غالبا من جبل لبنان إلى اوروبا فضحك هو و الرابح الذى كان معه و أشار بأصبعه إلى فلاح يمر على حصانه و يحمل رمحا على كتفه و يقول انه على سبيل السخرية يسمّى امير كل عربى غنى يستطيع امتطاء الخيل و يحمل رمحا على كتفه. و يحكى دولاروك في رحلته إلى سوريا و جبل لبنان قصصا كثيرة يمدح فيها الامراء الموارنة من غير المسافرين لأنهم في ذلك الوقت لم يكونوا قد سافروا بعد بل كانوا لا يزالون يحيطون الرهبان بمعاملة خاصة.

إن أهم مناطق كسروان هى التالية:

غزير، و هى مدينة صغيرة فيها نهر يدعى المعاملتين و يصب في البحر في الشتاء. في الصيف تستهلك مياهه كافة في الحقول و

البساتين. إن سكان هذه المدينة هم جميعا مسيحيون و بغالبيتهم من الموارنة. يمتلك شيوخ عائلة حبيش غالبية البساتين و الحقول المجاورة. يجمع اربعة شيوخ يترأسون هذه العائلات الضرائب المفروضة و التي تدفع لأمير الدروز و في ايام الحروب يصبحون قادة على السكان. لا يوجد حاكم أو قضاة في هذا القطر. هناك خمس كنائس في غزير و بالقرب من الضواحي هناك دير للموارنة و آخر للأرمن الذين انضموا إلى الكنيسة الرومانية.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۳۵۵

إن قصر الامير المسلم الذي طرد فخر الدين من هنا صار منذ بضع سنوات ملكا لأبي شدود من عائلة حبيش. و لشدة ما كان هذا الاخير كريما مع راهب كبوشي فرنسي، أراد ان يهديه القصر لكن الراهب كان واعيا فلم يوافق على اخذه مجانا فاشتراه صوريا بقيمة ۳۳ قرشا، و هكذا تأكدت جماعة الكبوشيين من أن ورثة هذا الشيخ لن يطالبوا بالقصر أبدا لأن عقد الشراء بحوزتهم. إذا فالكبوشيون يسكنون اليوم في قصر امراء كسروان السالفين بينما شيوخ الموارنة الذين يرسلون اولادهم إلى اوروبا بصفة امراء مزعومين يسكنون المنازل البائسة. لا نزال نجد في غزير مسجدا كبيرا مع مئذنة يعود لأيام الامراء المسلمين، و يستعمل مسيحيو المنطقة هذا المسجد احيانا كزريبة للمواشي.

في جوار غزير هناك اقليم يدعى الفتوح فيه القرى التالية:

الصفراء البوار، كفر حباب، فتقة، غدراس، كفر شريف، حالات، الحصين، غبالة، الغينة، و الكفور.

الجديدة هي قرية تقع بالقرب من نبع النهر الصغير الواقع قرب غزير و هناك كنيسة في القرية و خارجها دير للموارنة.

عرمون هي قرية فيها كنيسة و خارجها هناك ديران للموارنة، دير مار عبدا، و دير سيدة الحقل للرهبان و الراهبات. من غير الضرورى الاشارة إلى ان النساء يعشن فيه على حدة. شحتول هي قرية في المنطقة نفسها و وطى الجوز تعتبر مكانا رائعا يشكل مصيفا للعائلات العريقة الدرزية و المارونية.

لا تشترك قريتا دلبتا و شتعبر إلا بكنيسة. هناك ثلاث كنائس في ساحل علما و بجوارها دير للموارنة. بالقرب من هنا نجد الغفر أو برج جونيه قرب نهر الكلب حيث يطلب الموارنة عشر بارات ضريبة من المسلمين الذين يمرون في المنطقة. في الماضي كانت هذه الضرائب تعود إلى عائلة حبيش لكن امير الدروز وضع يده عليها ثم اعطاها لعائلة الخازن. كما الاتراك و الانكشاريون و المسلمون المتكبرون لا يعطون كلمة صدق للموارنة عند ما يطالبونهم بهذه الضريبة، وحدهم التجار الصغار يعتقدون ان هذا المال الضئيل لا يستحق ان يؤدى إلى عراك مع الموارنة. من هنا فإن هذا المال لا يكفي لإعطاء الجابي راتبه. اضف إلى ذلك ان الموارنة فخورن بأنفسهم لأن المسلمين يدفعون لهم الضرائب.

حارة صخر هي قرية فيها كنيسة و خارجها يوجد دير للرهبان الموارنة. هناك كنيستان في غزير و دير كبير للراهبات.

في الماضي كانت صربا مدينة كبيرة فيها قلعة اما اليوم فقد تحولت إلى قرية بائسة. اما عمشيت فلا يوجد فيها الا كنيسة واحدة.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۳۵۶

نجد ثلاث كنائس في ذوق مكايل و خارجها دير للروم احدهما للرهبان و الاخر للراهبات.

ذوق مصبح هي بلدة فيها اربع كنائس لا تبعد كثيرا عن نهر الكلب. بالقرب منها يوجد دير للموارنة فيه ذكور و إناث. أخذ نهر الكلب اسمه عن كلب كبير محفور في الصخرة. في الماضي كان الكلب مشدودا إلى الصخرة اما اليوم فنجده عند مصب النهر و قد فقد رأسه. نجد في هذه المنطقة كتابات عربية و لاتينية قديمة جدا. ربما يجدر بي نقل هذه الكتابات . هناك العديد من المغارات المحفورة في الصخور بالقرب من نبع النهر و يقال ان فيها كتابات قديمة جدا.

نجد كنيستين في ذوق الخراب و في جوارها ثلاثة اديرة للموارنة اما جعيتا فهي قرب منبع نهر الكلب و فيها كنيسة واحدة.

في عينطورة هناك كنيسة واحدة و دير للراهبات المارونيات و آخر لليسوعيين.

في الحراش هناك كنيسة و دير للراهبات المارونيات.

درعون هي قرية فيها كنيستان بالقرب منها نجد دير الشرفي للرهبان و الراهبات و دير مار شليطا للرهبان و الراهبات ايضا و مكان اقامة احد مطارنة الموارنة.

حريصا هي قرية فيها دير للفرنسيسكان. اما كهنة كنيسة الدير فهم جميعا من الموارنة.

غوسطا هي مدينة صغيرة تقع على تلة و تبعد عن غزير مسافة فرسخين و عن البحر مسافة ثلاثة فراسخ. يسكن في غوسطا شيوخ عائلة الخازن الرئيسيون. في غوسطا ثلاث كنائس و بالقرب منها ثلاثة اديرة احدها دير للارمن و الاخر للموارنة يسكن فيه بطريركهم احيانا. اما الثالث فهو ايضا للموارنة و يسكن فيه احد المطارنة.

معراب هي قرية فيها كنيسة. بالقرب منها آثار برج قديم نجد فيه احيانا عملات نقدية قديمة.

هناك كنيسة في كل من قرى بطحا و رعشين و الغبالة. اما عشقوت ففيها كنيستان.

في بزمار هناك دير يقيم فيه بطرك الارمن الذين التحقوا بالكنيسة الكاثوليكية .

و نجد في ريفون كنيسة و بالقرب منها دير للموارنة.

في بلدة عجلتون هناك خمس كنائس و خارجها هناك دير للموارنة. اما القليعات فهي قرية

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۳۵۷

صغيرة فيها كنيسة و بالقرب منها يقع دير رومية. و هو دير كبير للموارنة.

تقع القرى التالية في اقليم يسمى جرد كسروان:

فيطرون و هي قرية كان سكانها جميعا في الماضي من المسلمين لا يزال بعض المزارعين يعتنقون الدين الإسلامي إلى الآن لكنهم يخضعون لشيخ مسيحي. هناك كنيسة للمسيحيين في هذه القرية.

في الماضي وحدهم المتاولة كانوا يسكنون حراجل و ميروبا و فاريا اما اليوم فلا نجد فيها الا المسيحيين ولديهم كنيسة في كل واحدة من هذه القرى.

بقعتوتا و الغلالي و بقعاتا و زيّوغة هي قرى صغيرة في كل واحدة منها كنيسة. نجد ديرا للروم قرب كل منها.

تقع المزرعة في الجزء الاعلى من جرود كسروان و فيها خمس كنائس. ان مناخها عذب جدا في فصل الصيف لذا يقصدها ذوو الشأن من الدروز و الموارنة من سكان اسفل جبل لبنان الا انها شديدة البرودة في فصل الشتاء لدرجة انه يستحيل على السكان الخروج من منازلهم بسبب كميات الثلج الهائلة علما ان الثلج لا يصبح قاسيا بما فيه الكفاية حتى يتمكن الناس من السير عليه. بالقرب من المزرعة (أو كما يقول البعض من حراجل و فاريا) نجد آثار مدينة كبيرة هي فقرا و قد أكد لي الناس ان تحت الآثار نجد حجارة كبيرة عليها كتابات و نقوش.

إن الجزء الاعلى أو قل رأس جبل لبنان بين كسروان و بعلبك لا يزال خاليا من السكان. تشتد فيه البرودة في فصل الشتاء و يغطى الثلج كل شيء اما في الصيف فنجد حقولا جميلة و قطعانا كبيرة من الماعز و الخراف يمتلك جزء منها الدروز و الجزء الآخر يعود إلى بعض قبائل التركمان.

لا يبقى هؤلاء الاخيرين الا شهرا واحدا هنا ثم يقودون قطعانهم إلى دمشق و المدن المجاورة.

و عليهم دفع ضريبة بسيطة إلى امير الدروز الا ان اتباع الامير لا يدفعون شيئا لقاء علف قطعانهم من هذه الاراضي.

يسيطر الدروز ايضا على بيروت . تقع هذه المدينة في منطقة جميلة جدا على البحر بين صيدا و طرابلس. و فيها مرفأ جيد، تنشط التجارة فيه و خصوصا الحرير و الزيوت و القطن و بضائع اخرى يشتهر بها جبل لبنان. من جهة الجبل، هناك الكثير من البساتين و من جهة البحر هناك

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۳۵۸

برجان يقعان على الصخور و يهددان إلى حماية المرفأ الا ان حالتهما يرثى لها. تشكل هذه التعزيزات الوحيدة لدى الدروز اذا ما استثنينا الجبال المنحدرة. ان بيوت المدينة جميلة جدا خاصة الخانات منها و المحال التجارية التي يؤجرها الامير بأسعار مرتفعة للمسلمين. في بيروت مساجد كثيرة، و يختار اهل هذه المنطقة مفتيهم و قضاتهم بأنفسهم. يقيهم الامير الحاكم في مهنتهم عندما يدفعون ضرائب المهنة و جدير بالذكر ان قضاة بيروت لا يكسبون الكثير من المال كقضاة المدن الاخرى. عندما يرى مسلمو بيروت ان القاضي اصدر حكما متحيزا يشكونه إلى الامير الذي يعاقبه اولا. ان آغا بيروت أو قائدها لا يكون درزيا بل مسلما يولد في المدينة

لكنه يخضع كليا لأوامر الامير. ان الموارنة هم اكثر الطوائف نفوذا من بين المسيحيين في بيروت ولديهم كنيسة في المدينة. في بيروت ايضا روم و بعض اليهود. ان الدروز لا يحبون اليهود كثيرا لذلك لا نجد اى يهودى في جبل لبنان اذ ينحصرون في بيروت. لكنهم يتجولون في اراضي الامير الاخرى بسبب تجارتهم كما في أيام بنيا دو تولادا. لم يبق من التجار الاوروبيين الا فرنسي واحد مولود في الشرق. ان تجار مرسيليا الذين نصادفهم في كافة مرافىء هذا الشاطىء قد حاولوا كثيرا التمركز في بيروت لكنهم غالبا ما كانوا يتركون المدينة و ينسحبون إلى صيدا لأنهم يستطيعون دائما فيها إجبار الدروز على الدفع لقاء البضائع التي يبيعونهم اياها و ذلك بمساعدة الباشا. اما في بيروت فيشترى الدروز بالدين بضائع كثيرة و لا يستطع التجار استرداد ثمنها منهم حتى بواسطة العدالة.

إن القرى التالية تقع في جوار بيروت و هي تابعة للاقاليم الدرزية القريبة منها القيني، التحويطة، الاشرفية، الضبية، البوشرية، الشياح، برج البراجنة، حرش الصنوبر، الناعمة و النعيمة.

على بعد ربع فرسخ من بيروت نجد دير الخضر مار جرجس و هو مكرس لمار جرجس. يعتقد الموارنة ان مار جرجس هذا قتل التنين المدفون هنا. على مسافة غير بعيدة من بيروت تقع كنيسة انطلياس يعتقد الموارنة انها لا تزال تحتوى حتى اليوم على الكثير من الذهب و الاحجار الثمينة المدفونة التي لم يستطع الدروز و المسلمون حملها كلها. رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر ؛ ج۲ ؛ ص۳۵۸

ع الاقاليم التالية اما في جبل لبنان أو على الجبل نفسه و يسكن الموارنة جزءا منها الا انها لا تتبع اراضي الدروز بل اراضي باشا طرابلس:

۱- جبة بشرى، و هي اقليم مهم في شرق طرابلس. ان غالبية سكانه من الموارنة لكن العائلات ليست مهمة كما في كسروان. يعين الباشا جابي الضرائب من بين الضباط الموارنة أو

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۳۵۹

من بين الاشخاص الذين يدفعون له لقاء ذلك فيسمى هؤلاء شيوخا، ان اهم القرى في هذا الاقليم هي: بشرى، الحدث، عنطورين، حدشيت، بلوزا، حصرون، كفرشخنا، بزعو، قرقاشا، كفرصارون.

لمسيحيي هذه القرى ادية كثيرة قريبة منها. الدير الاكثر شهرة هو دير قنوبين، مكان اقامة احد البطاركة الموارنة. إن هذا الدير مرتفع بعض الشيء و له مطل خلاب. اما عائداته فهي مهمة لكن يصرف منها على الفقراء كما يطالب باشا طرابلس البطريرك بضرائب كثيرة مما يجبره إلى الانسحاب إلى دير قريب من غوسطا فيبقى في حماية الدروز و مسيحيي كسروان هناك ايضا دير قزحيا في هذا الاقليم و هو محفور داخل الصخر و يقال ان الاشخاص المضطربين يقطنون فيه ثلاثة ايام ثم يشفون. كما أن للكرمليين دير قرب شجر الارز الشاهق. و نجد بالقرب من قرية اهدن و في الجزء الاسفل من بشرى هناك دير مار ليشع.

۲- الزاوية و هي اقليم صغير

۳- البترون و هي اقليم صغير يطل على البحر. نجد في هذه المنطقة الكثير من الاديرة التي تحولت إلى آثارات.

۴- العاقورة و هي اقليم فيه قرية تحمل الاسم نفسه يعيش فيها أهم شخصيات عائلة العاقورى بالاضافة إلى مطران مارونى. بالقرب من العاقورة و في الاقليم المسمّى البربج يمكن ان نجد كتابات قديمة جدا محفورة على صخرة.

۵- الفتوح. يقع هذا الاقليم جنوبى المعاملتين و شمالى نهر ابراهيم و غربى جبيل و تمتلك عائلة حبيش غالبيته.

عندما كنت في هذه المناطق كان السكان يعانون كثيرا من جيرانهم المتاولة الحاكمين في جبيل لأنهم لم يكونوا يكتفون بنهب بيوت الموارنة بل و كانوا يخربون اشجار التوت فيحرمونهم من تربية دود القزّ، لكن في تلك الفترة طرد المتاولة من هذا الاقليم كما سنرى لاحقا.

تقع القرى التالية في إقليم الفتوح و كلها صغيرة الحجم: كفر ياسين، الصفرا، البوار، كفرشخام، فتقا، غدراس، كفر صور، حالات، الحصين، الغبالة، الغينى، و الكفور.

۶- تشكل الكورة اقليما مهما يسكن قسما منه الروم الكاثوليك. لهؤلاء العديد من الاديرة الكبيرة منها عينطورة و البلمند و النورية.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۳۶۰

۷- الضنية هي إقليم يسكنه المتاولة و المسيحيون.

۸- جبيل هي بلدة و إقليم يسكن الموارنة الجزء الاكبر منها لكنهم يخضعون اليوم للمتاولة.

من اهم الاماكن في هذا الاقليم: جبيل، معاد، غلبون، البيشة، حاقل، مشمش، لحفد، اشميدش، وادى معاد، يمتايل، يقال انه يمكن ان نجد كتابات عديدة في القصور و الاديرة بين المدفون و فيدار على مسافة ستة فراسخ.

جبة المنيطرة هي إقليم مهم كان الجزء الاكبر منها في ايامى يخضع لحكم المتاولة. في هذه المنطقة ينبع نهر ابراهيم. يقال انه عند المنبع هناك آثار لمبان قديمة. بالاضافة إلى امكنة واسعة محفورة في الصخور كمغارة أفقا. و يحكى ايضا عن آثار بروج قديمة و معابد و عن كتابات حول جبل موسى و هو الجبل الواقع بين بلدة المنيطرة و الفتوح.

منذ رحيلى من سوريا طرأت تغييرات كثيرة في الاقليم الاخير (جبيل) إذ ان درزيا يدعى يوسف طرد المتاولة من هنا مع انهم كانوا يملكون المنطقة منذ أكثر من ۲۰۰ عام و كان باشا طرابلس قد تنازل لهم عنها. و قد علمت بهذا الخبر من عبود بن شديد و ميخائيل ماما اذ كان الاول في كونبهاغن من عام ۱۷۷۱ و الثاني في عام ۱۷۷۴. إن هذا الحدث سيثير دهشة الكثير من الاشخاص الذين يجهلون شكل الحكم في بلاد الشرق.

كان والد يوسف درزيا يدعى الامير ملحم لكن امه لم تكن درزية بل كانت ابنة احد الشرفاء المهمين. كان لا يزال صغيرا عندما تولى الحكم عمّه الامير منصور و كان الحاكم السابق مارونيا يدعى صالح و كان رجلا ذكيا بذل كل ما استطاع لزرع روح الحكم في تلميذه و كان يظن انه سينجح اكثر من كافة ابناء الامير ملحم لأنه أعدّه فتلّقى تنشئة جيدة. تعرض الامير يوسف للختان شأنه شأن كافة ابناء العائلات المرموقة من الدروز حتى يظنه الاتراك مسلما. و بما ان موارنة جبل لبنان كانوا كثيرى العدد و من حلفاء الدروز ضد الاتراك و المتاولة، حاول الشيخ صالح كسب محبتهم لسيده الصغير لهذا قام بتعميده و كان يأخذه احيانا إلى الكنيسة لكنه كان لا يزال صغيرا جدا لاستلام الحكم كما كان عمه شديد النفوذ. في البداية صار ينمى فكرة طرد الاقلية المتوالية الحاكمة و التي تكرة المسيحيين من جبيل و من غيرها من اقاليم ولاية طرابلس. قرر في البداية ان يطرد من جبيل و من غيرها من الاقاليم في ولاية طرابلس الاقلية المتولية الاكثر نفوذا و التي تكره المسيحيين. لتنفيذ هذه الخطة كان لا بد ان يسلمه باشا طرابلس مسؤولية هذه الاقاليم و ان يجمع المال الكافي لدفع الجزيات و تدريب جيش صغير لطرد الاسياد القدامى و السيطرة على المنطقة.

كانت تلك مهمة كبيرة جدا بالنسبة لشاب صغير في السن لا يملك من اموال الا عائدات بعض القرى المعدودة.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۳۶۱

لم يجذ الامير منصور ان يكون ابن اخيه محبوبا من الدروز و المسيحيين كان يحاول ان يسد الطريق في وجهه بشتى الحجج حتى انه احرق له بعض القرى التي كان قد ورثها عن ابيه الا انه بذلك اعطى الامير الشاب جهة للتشكى عليه. لجأ يوسف إلى باشا طرابلس ابن باشا دمشق و الذى كان لا يزال شابا هو كذلك، فنشأت صداقة بينهما. بينما حاول الباشا مصالحة الطرفين ذهب يوسف إلى دير القمر و مكث فيها بعضة أشهر و صار يدعى مصادقة عمّه لكنه كان يتآمر مع على جنبلاط على الانقلاب عليه. بعد ان وثّق صداقته مع عدة شخصات درزية هامة ترك دير القمر فجأة بحجة انه يخشى على حياته و غادر مع سائقه و خادم واحد إلى دمشق . فقصد خاله الشريف و الذى كان مرموقا جدا في المدينة. يحبذ باشاوات سوريا وجود مناقشات بين العائلات الدرزية الحاكمة. و هكذا ارسل باشا دمشق بطلب الامير يوسف و أغدق عليه ألقاب الشرف و عامله معاملة الامراء. في هذه الاثناء كان باشا طرابلس ينقل إلى اهله شكاوى على عائلة حمادة و هى عائلة من المتاولة تعيش في اقليم جبيل. و كان السكان مستائين من حكم آل حمادة منذ سنين الا ان احدا لم يستطع طردهم من الحكم لعدم توفر احد يؤجر المزرعة و يستطيع الدفاع عنها ضدّ الاسياد السابقين. بما أن غالبية سكان جبيل كانوا من المسيحيين و من اصدقاء الامير يوسف، ظنّ هذا الاخير انه يستطيع التصدى للمتاولة. و هكذا كتب الباشا لابنه باشا طرابلس انه سيعطى جبيل ليوسف لمدة سنة واحدة (كما تجرى العادة). عند ما سمع الامير بالخبر اتجه من دمشق إلى اللاذقية حيث كان الباشا و جمع في طريقة ما يقارب ۵۰۰ رجل غالبيتهم من الموارنة و ما ان حصل الباشا على الفرمان حتى عاد من اللاذقية و ضاعف جيشه. لدى وصوله إلى حدود جبيل انضم اليه الف مارونى مستعدين لمحاربة المتاولة. ترأس يوسف الجيش المؤلف من ۲۰۰۰ شخص و اخبر الشيخ الحاكم اسماعيل بن سرحان ان الباشا كلفه حكم هذا الاقليم و بما ان شيوخ المتاولة لم يكونوا يعلمون شيئا عن الموضوع

اجبروا على التخلى عن منصبهم و الانسحاب إلى القرى التى يملكونها شخصيا.

بعد مضى اشهر، سافر الامير يوسف إلى جبل لبنان لتنفيذ مشاريعه المتبقية مع اصدقائه الدروز و خاصة على جنبلاط استغل المتاولة غيابه لتكسير اشجار الخوخ و التين الخاصة بالموارنة ثم احضروا مواشيهم اليها فسببوا لهم بذلك اضرارا جسيمة. الا ان ما حصل شكل فرصة جيدة عرف الامير يوسف كيف يستغلها. قام فى البداية بطرد الشيخ اسماعيل من ارضه و صادر كافة القرى و الاراضى التى لم يستطع انتزاعها منه كليا طالما انه يتصرّف جيدا. و كان الموارنة و الدروز من

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۳۶۲

اتباعه و جيرانه الذين عانوا كثيرا من ظلم المتاولة يسرعون للانضمام فى صفوفه كما ساعده على جنبلاط ايضا. هاجم يوسف جيرانه المتاولة الذين كانوا يملكون منذ سنوات اقاليم البترون و الضنية وجبة بشرى. قاوم المتاولة فى البداية لكن سرعان ما اجبروا على التخلى عن اراضيهم و الانسحاب عند اهل دينهم فى صور وعكا. اما الامير يوسف فحصل على موافقة كافة الاقاليم على حملها و اصبح سيدا على ولاية مهمة.

عندما جاء إلى طرابلس باشا جديد، خاف من سلطة الامير يوسف التى تتضاعف يوما بعد يوم فأبى ان يجعله يسيطر على كافة الاقاليم و اعطى بعضا منها إلى المتاولة لقاء الكثير من المال و كان هؤلاء قد جمعوا جيشا صغيرا إلا أن يوسف قرر عدم التخلى عن اى اقليم. جاء على رأس جيش كبير إلى طرابلس و هزم دفاع الباشا و هدد بنهب المدينة. و بما ان ضاهر عمر كان يهاجم فى تلك الفترة الباشاوات المجاورين له كتب باشا دمشق حامى الامير يوسف سابقا إلى باشا طرابلس يقول له انه من مصلحة السلطان ترك الامير يوسف يستولى على كافة الاقاليم التى سلمت له سابقا.

و هكذا حصل يوسف على دعم جديد فترك ولاية طرابلس. و مرة اخرى هاجم المتاولة و لشدة ما برع فى المعارك بالقرب من الحدث لم يتصدوا له منذ ذلك الحين. فى هذا الوقت هاجموا اقاليم اخرى فى منطقة بعلبك و طردوا منها اسيادها القدامى تماما كما طردهم يوسف.

بعد معركة الحدث سار الامير يوسف على رأس جيش إلى بعلبك لمحاربة الامير حيدر المتوالى. و كان هذا الاخير يدفع منذ اعوام الاموال إلى شيخ الدروز و يأخذ لقاء ذلك ما يعادل الالف شخص لمعاونته. لكن عندما اقترب يوسف و جيشه من المدينة رفض الدروز الخروج منها كما رفضوا محاربة دروز آخرين. قاد حيدر الخيالة لمواجهته لكن اخاه تخلى عنه مما اجبره على الهروب عند المتاولة فى ولاية عكا. لم يستطع الامير يوسف المحافظة على بعلبك لأنه كان عليه دفع الضرائب مباشرة إلى القسطنطينية فسلّم الحكم لأخ الامير حيدر. لكن بعد اشهر تصالح الاخوان و عاد الامير حيدر إلى الحكم بعد ان تعهد بدفع جزية سنوية إلى الامير يوسف (و قلما يفى هؤلاء بعهودهم لمدة طويلة) و بعدم التعرض للدروز و المسيحيين فى المناطق المجاورة. بعد ذلك طرد الامير يوسف المتاولة من الهرمل.

كثيرا ما تنشأ حروب صغيرة مماثلة فى الولايات التركية بين مستأجرى مزارع السلطان، و قلما يهتم بها الباشاوات لأن ما يهمهم فعلا هو قبض الايجار. كما ان باشاوات سوريا دائما مشغولون بحماية المدن الهامة فى هذه المنطقة ضد الثوار الكبار. فعلى بك الذى استقل فى مصر و الذى استولى على دمشق اجبر على التخلى عن المدينة الاخيرة ثم طرد نهائيا من مصر على يدى منافسه محمد أبو الذهب لكنه حمل معه اموالا طائلة و تابع شن الهجومات على الباشاوات الاتراك

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۳۶۳

بمساعدة ضاهر العمر. فى هذا الوقت كان السلطان يحتاج إلى جيوش كثيرة ضد الروس فلم يستطع ارسال الدعم إلى سوريا. و لم يكن الباشاوات قادرين وحدهم على التصدى لجيش شديد القوة فأجبروا على طلب العون من دروز جبل لبنان. كان الامير منصور قد حصل على الكثير من الاموال من الاتراك و كان قد انضم اليهم اكثر من مرة على رأس جيشه لكنه كان دائما ينسحب قبل بداية المعركة. لكن بما ان يوسف مدين بالكثير للباشاوات الاتراك قرر الجميع ان الدروز سيحاربون جيدا لو ترأسهم بنفسه. و هكذا تمنى باشا دمشق ان يسمىّ فعليا اميرا بدلا من منصور و استغل الفرصة للقيام بذلك.

توجه الامير يوسف إلى دير القمر للاقتران بأميرة من آل شهاب و بهذه المناسبة اجتمع الشيوخ البارزون و خاصة من اهل العريس كما و جاءت شخصيات تركية رفيعة المستوى مصحوبة بحشود غفيرة بحجة المشاركة فى الفرح. كان الامير منصور يعرف ماذا يخطط العثمانيون و كان يعرف المرتبة التى يحتلها يوسف بين الدروز و محبتهم له فقرر ان يأخذ دور الانسان الشهم. فنزع الخاتم المزود بالختم من اصبع الامير الحاكم و قدمه إلى ابن اخيه على انه الوحيد القادر على تولى الحكم فى الظروف الراهنة. و ختاما اقنع الاتراك و الدروز الموجودون الامير بقبول الخاتم و بالتالى بتولى الحكم. و هكذا تراجع الامير منصور إلى اراضيه.

حاليا يحكم الامير يوسف بلدا يقارن بمملكة صغيرة اذا ما اخذنا بعين الاعتبار مساحته و عدد سكانه الكبير. ان للاتراك فيه ضابطا شديد الاخلاص. عام ۱۷۷۱ أو ۱۷۷۲ سار على رأس جيش كبير إلى منطقة عكا للاستيلاء على قلعة جون و هى قلعة صغيرة تطل على نهر القاسمية كان الشيخ ضاهر و على بك يسيطرون عليها و كانت محاصرة من قبل جيش كبير ارسله باشا دمشق.

كان ينتظر وصول مئات من الدروز من حاصبيا ليبدأ الهجوم لكن الامير منصور كان له مناصرون فى الجيش هم اليزبكيون. كان هؤلاء يظنون ان دروز حاصبيا من مؤيدى الاتراك فلم يكونوا يريدون انتظارهم بل صاروا يقنعون الامير يوسف بمهاجمة القلعة اولا. لكن ما ان هجم عليهم الشيخ ضاهر حتى هرب اليزبكيون ثم هرب الدروز الآخرون الذين لم يعرفوا عدد الذين جاؤوا لمساندة رئيسهم كما عمت الفوضى فى الجيش التركى الذى كان يظن ان العدو يلاحق الدروز.

باختصار، تراجع جيش الاتراك و الدروز الكبير منذ اليوم الاول مسافة ۱۲ فرسخا. تتبع ضاهر العمر، و على الدروز حتى اراضيهم و دمروا العديد من القرى الموالية للامير الجديد.

جازف باشا دمشق و الامير يوسف بهجوم جديد و اجبرا جيوش الشيخ ضاهر و على على الانسحاب لكن هؤلاء الاخيرين تلقوا مدافع صغيرة من الزوارق الروسية التى كانت تتواجد فى

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۲، ص: ۳۶۴

الجوار فى هذا الوقت. فحملوها إلى المعركة و شنتوا بها الاتراك و السوريين و الدروز الذين لم يكونوا معتادين على التصدى للمدافع. فى المرة التالية التى عاد بها يوسف إلى دير القمر قرر انه من الحكمة اعادة الحكم للامير منصور.

لكن الامير يوسف حافظ على جبيل و على الاقاليم الاخرى التى طرد منها المتاولة و من المحتمل انه سيصبح امير الدروز الحاكم الا ان ذلك لن يفرح الدروز كثيرا. ان الامير الحاكم يخضع كثيرا للشيوخ البارزين. و فى عائلة شهاب الكبيرة يوجد اشخاص آخرون اذكياء يتوقون إلى تولى الحكم. هناك دائما فريقان يقسمان الشعب سواء إلى قيسيين و يمنيين أو إلى جنبلاطيين و يزبكيين. سيظل الدروز منقسمين فى ما بينهم أو سيشنون معارك على الباشاوات الاتراك.

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علىُّ بْنُ موسَى الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللَّهُ عَبداً أحْيا أمْرَنَا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (يَنابِيعُ البِحار – فى تلخيص بحار الأنوار، للعلّامة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشَّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتَمَع "القائميّة" الثّقافيّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آبادى" – "رَحِمَهُ اللهُ" – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذى قدِ اشتهَرَ بشَغفِهِ بأهل بَيت النبىّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علىّ بن موسَى الرّضا (عليه السَّلام) و بساحة صاحِبِ الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فى سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً وَ طريقةً لَم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُشَعِّع بأقوَى و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.

مركز "القائميّة" "للتحرّى الحاسوبىّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عنايةِ سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإماميّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خرّيجى الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فى مجالاتٍ شتّى: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثقافة الثّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشّباب و

عموم الناس إلى التّحَرّى الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النّافعة – مكانَ البلاتيثِ المبتذلة أو الزّديئة – فى المحامیل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثقافيّةٍ على أساس معارف القرآن و أهل البيت –عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلّاب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِج العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشّبُهات المنتشرة فى الجامعة، و...

- مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التى يُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، على أنّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ– فى آكناف البلد – و نشر الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فى أنحاء العالَم – مِن جِهةٍ أُخرى.

- من الأنشطة الواسعة للمركز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القراءة

ب) إنتاج مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبيّة، قابلة للتشغيل فى الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثيّة الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتى "القائميّة "www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِع أُخَرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضيّة، الخَطابات و... للعرض فى القنوات القمريّة

و) الإطلاق و الدّعم العلميّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسيم النظام التلقائيّ و اليدوىّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS

ح) التعاون الفخرىّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكرانَ و...

ط) إقامة المؤتمرات، و تنفيذ مشروع "ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فى الجلسة

ى) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّى (حضوراً و افتراضاً) طيلة السّنَة

المكتب الرّئيسىّ: إيران/أصبهان/ شارع"مسجد سيّد/ "ما بينَ شارع"پنج رَمَضان "وُمُفترق"وفائى/"بناية"القائميّة"
تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة)
رقم التسجيل: ۲۳۷۳
الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶
الموقع: www.ghaemiyeh.com
البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com
المَتجَر الانترنتى: www.eslamshop.com
الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)
الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)
مكتب طهران ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)
التّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹
امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِى الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم – فى حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ وليّ التوفيق.

مرکز القائمیة للبحوث والتخریبات الکمبیوتریة
اصبهان
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹